(فهرسة الجزء الحادى عشر من تاريخ الكامل لابن الاثير)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

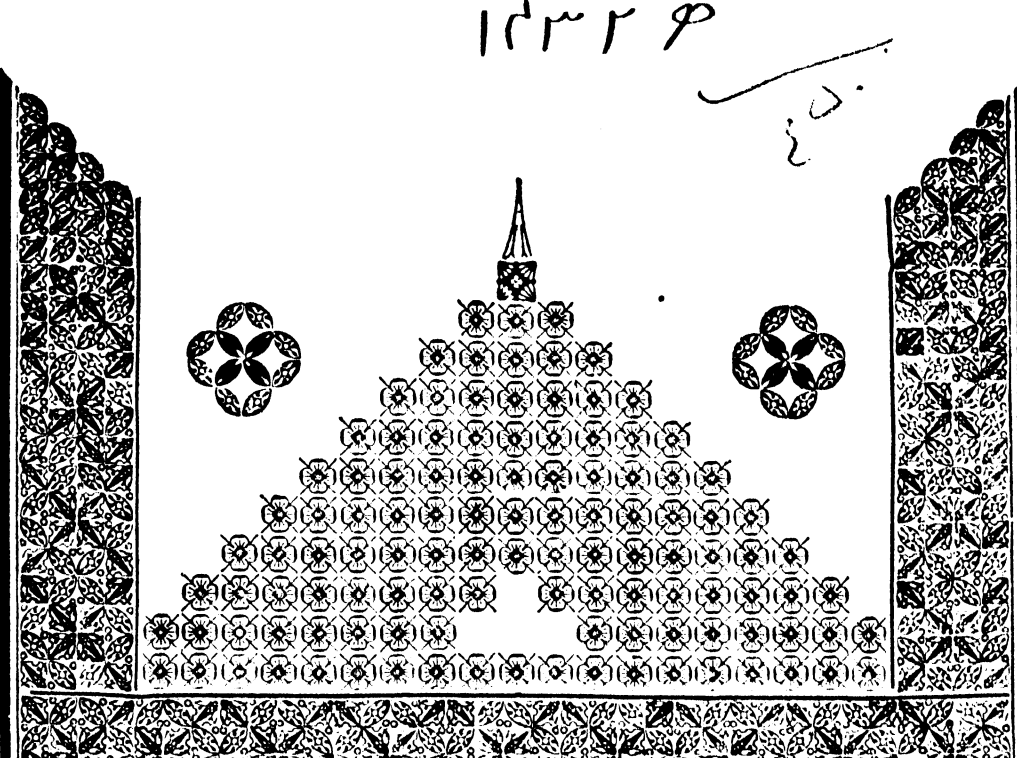
صحيفة

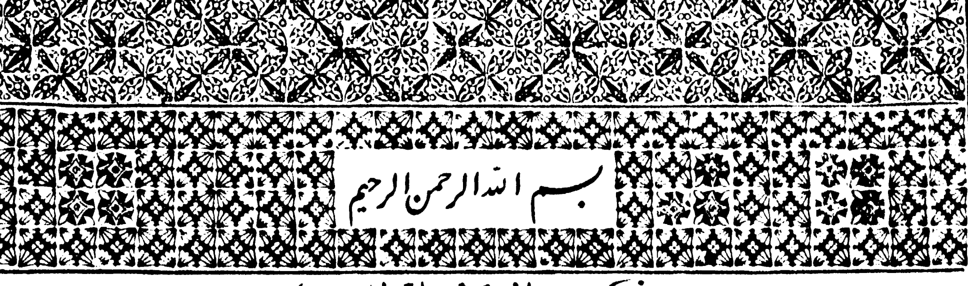
صحيفة

(تمت)

الجزء الحادى عشر من تاريخ الكامل للعلامة أبى الحسن على
ابن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن
الاثير الجزرى الملقب بعز
الدين رحمه
الله

(وبهامش هذا الجزء تاريخ أبى نصر العتبى رحمه الله تعالى)





(ذكر حصر المسترشد بالله الموصل)

فى هذه السنة (٥٢٧) حصر المسترشد بالله مدينة الموصل فى العشرين من شهر رمضان وسبب ذلك ماتقدم من قصة الشهيد زنكى ببغداد على ماذكرناه قبل فلما كان الآن قصد جماعة من الامراء السلجقية باب المسترشد بالله وصاروا معه فقوى بهم واشتغل السلاطين السلجقية بالخلف الواقع بينهم فارسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفراينى الواعظ الى عماد الدين زنكى برسالة فيها خشونة زادها ابو الفتوح زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة فقبض عليه عماد الدين زنكى واهانه ولقيه بما يكره فارسل المسترشد بالله الى السلطان مسعود يعرفه الحال الذى جرى من زنكى ويعلمه انه على قصد الموصل وحصرها وتمادت الايام الى شعبان فسار عن بغداد فى النصف منه فى ثلاثين ألف مقاتل فلما قارب الموصل فارقها اتابك زنكى فى بعض عسكره وترك الباقى بها مع نائبه نصير الدين جقر دزدارها والحاكم فى دولته وامرهم بحفظها ونازلها الخليفة وقاتلها وضيق على من بها واما عماد الدين فانه سار الى سنجار وكان يركب كل ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ومتى ظفر باحد من العسكر أخذه ونكل به وضاقت الامور بالعسكر ايضا وتواطأ جماعة من الجصاصين بالموصل على تسليم البلد فسعى بهم فأخذوا وصلبوا وبقى الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر ولم يظفر منها بشئ ولا بلغه عن بها وهن ولا قلة ميرة وقوت فرحل عنها عائدا الى بغداد فقيل ان نصرا الخادم وصل اليه من عسكر السلطان وابلغه عن عسكر السلطان مسعود ما اوجب مسيره وعوده الى بغداد وقيل بلغه ان السلطان مسعودا عزم على قصد بغداد فعاد بالجملة وانه رحل عنها منحدرا فى شبارة فى دجلة فوصل الى

*(ذكر انزال اسمعيل من قلعة غزنة) واستنزل الامير سيف الدولة أخاه اسمعيل من قلعة غزنة على أمان بذله وضمان أجله وتسلم منه مفاتيح الخزائن وأحاط بزوايا الاعلاق والدفائن وجبر له كسر حاله وأعاد اليه رونق مائه وجماله وشحن غزنة بثقاته والكفاة من حماته وانحدر الى بلخ فى عامة اوليائه وأنصاره وقد انتظم له ما انتثر بعد أبيه واستقر عليه ماسعى فى تلافيه فغصت شعاب بلخ وضواحيها بطبقات رجاله وعلامات الاعلام من اقباله وكتب الى الامير أبى الحرث بذكر اقباله وحذفه فضل الشغل كان بأخيه عن باله وانه قائم مقام أبيه فى المحاماة عن الدولة والنضال عن الجملة والاقبال على قضاء حقوق ماتعرفه من بركة اصطناع

بغداد يوم عرفة

(ذكر ملك شمس الملوك مدينة حماة)

وفي هذه السنة ايضا في شوال ملك شمس الملوك اسمعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة وقلعتها وهي لاتابك زنكي بن اقسنقر اخذها من تاج الملوك كما ذكرنا ولما ملك شمس الملوك قلعة بانياس أقام بدمشق الى شهر رمضان من هذه السنة وسار الى حماة في العشر الاخير منه وسبب طمعه انه بلغه ان المسترشد بالله يريد ان يحصر الموصل فطمع وكان الوالي بحماة قد سمع الخبر فتحصن واستكثر من الرجال والذخائر ولم يبق احد من اصحاب شمس الملوك الا واشار عليه بترك قصدها القوة صاحبها فلم يسمع منهم وسار اليها وحصر المدينة وقاتل من بها يوم العيد وزحف اليها من وقته فتحصنوا منه وقاتلوه فعاد عنهم ذلك اليوم فلما كان الغد بكر اليهم وزحف الى البلد من جوانبه فملكه قهرا وعنوة وطلب من به الامان فامنهم وحصر القلعة ولم تكن في الحصانة والعلو على ما هي اليوم فان تقي الدين عمر بن اخي صلاح الدين قطع جبلها وعملها هكذا في سنين كثيرة فلما حصرها عجز الوالي بها عن حفظها واسلمها اليه فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح وغير ذلك وسار منها الى قلعة شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فحصرها ونهب بلدها فراسله صاحبها وصانعه بمال حمله اليه فعاد عنه الى دمشق فوصل اليها في ذي القعدة من السنة المذكورة

(ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجي)

وفي هذه السنة عبر الى الشام جمع كثير من التركمان من بلاد الجزيرة واغاروا على بلاد طرابلس وغنموا وقتلوا كثيرا فخرج القمص صاحب طرابلس في جموعه فانزاح التركمان من بين يديه فتبعهم فعادوا اليه وقاتلوه فهزموه واكثروا القتل في عسكره ومضى هو ومن سلم معه الى قلعة بعرين فتحصنوا فيها وامتنعوا عن التركمان فحصرهم التركمان فيها فلما طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارسا من اعيان اصحابه سرا فنجوا وساروا الى طرابلس وترك الباقين في بعرين يحفظونها فلما وصل الى طرابلس كاتب جميع الفرنج فاجتمع عنده منهم خلق كثير وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعرين فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم وقتل بينهم خلق كثير واشرف الفرنج على الهزيمة فجمعوا نفوسهم وعادوا على حمية الى رفنية فتعذر على التركمان اللحاق بهم الى وسط بلادهم فعادوا عنهم راجعين

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة اشترى الاسماعيلية بالشام قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون وصعدوا اليه وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم وفيها وقع الخلف بالشام فقاتل بعضهم بعضا ولم تجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة وقتل بينهم جماعة وفيها في جمادى الآخرة أغار الامير سوار مقدم عسكر زنكي بحلب على ولاية تل باشر فغنم الكثير فخرج اليه الفرنج في جموع كثيرة فقاتلوه فظفر بهم واكثر القتل فيهم وكان عدة القتلى نحو ألف قتيل وعاد سالما وفيها تاسع ربيع الآخر وثب على شمس الملوك صاحب دمشق بعض مماليك جده طغدكين فضربه بسيف فلم يعمل فيه شيأ وتكاثر عليه مماليك شمس الملوك

الرضا واصطفائه وتقديمه على زعماء حشمه وأوليائه فارسل اليه أبو الحسن العلوي الهمداني في تهنئته بقدمه واظهار تيمنه بموطئ قدمه وعقد له على بلخ والترمذ وما والاهما وديار بست وهراة وما تاخمهما وداناهما وتلطف في الاعتذار اليه من أمر نيسابور حرصا على ترضيه وكراهة انصراف بكتوزون عنها الا بعلة تقتضيه فعلم الامير سيف الدولة ان تلك المناقشة صادرة عن تمويه الحساد وتلبيس المناوين والاضداد وان داء الحقد ليس له علاج وان صلاة الصبح بغير فاتحة البر خداج فأرسل الى الامير أبي الحرث ثقته أبا الحسين الحولي بهدايا تضن بمثلها سمح النفوس ويضيق عن قدرها رحب الصدور ورسم له ان يحجب سمعه عن تضريب المضربين وتثريب المثربين ويتلطف لاستخلاص سره له واستصفاء محله قبله لترتفع الحشمة وتتأكد العصمة وتستحكم الثقة ويعرفه بأن مخيمه بعرصات خراسان انما هو من أجل موالاته وحراسة اقطار ولاياته فلما ورد بخارا أعرض عما وجه فيه وعرضت الوزارة عليه

فاخذوه وقرر ما الذي حمله على ما فعل فقال اردت اراحة المسلمين من شرك وظلمك ولم يزل يضرب
حتى اقر على جماعة انهم وضعوه على ذلك فقتلهم شمس الملوك بغير تحقيق وقتل معهم اخاه سونج
فعظم ذلك على الناس ونفروا عنه وفيها توفي الشيخ أبو الوفاء الفارسي وكان له جنازة مشهودة
حضرها اعيان بغداد وفيها في رجب توفي القاضي أبو العباس احمد بن سلامة بن عبد الله بن
مخلد المعروف بابن الرطبي الفقيه الشافعي قاضي الكرخ وتفقه على أبي اسحق وابي نصر بن
الصباغ وسمع الحديث ورواه وكان قريبا من الخليفة يؤدب اولاده وتوفي ابو الحسين علي بن
عبد الله بن نصر المعروف بابن الزاغوني الفقيه الحنبلي الواعظ وكان ذا فنون توفي في المحرم
وتوفي علي بن يعلى بن عوض بن القاسم الهروي كان واعظا وله بخراسان قبول كثير وسمع
الحديث فاكثر ومحمد بن أحمد بن علي ابو عبد الله الحراني وهو من اولاد محمد بن عبد الله بن عمرو
ابن عثمان بن عفان وكان محمد يلقب بالديباج لحسنه واصله من مكة وهو من أهل نابلس وكان
مغاليا في مذهب الاشعري وكان يعظ توفي في صفر وفيها توفي ابو فليتة امير مكة وولي الامارة بعده
ابنه القاسم وفيها توفي العزيز بن هبة الله بن علي الشريف العلوي الحسيني فجأة بنيسابور وكان
جده نقيب النقباء بخراسان وعرض على العزيز هذا نقابة العلويين فامتنع وعرض عليه وزارة
السلطان فامتنع ولزم الانقطاع والاشتغال بأمر آخرته وفيها توفي قاضي قضاة خراسان ابو
سعيد محمد بن أحمد بن صاعدة وكان خيرا صالحا

(ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة)

(ذكر ملك شمس الملوك شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج)

في هذه السنة في المحرم سار شمس الملوك اسمعيل صاحب دمشق منها الى شقيف تيرون وهو
في الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه
وامتنع به فتحاماه المسلمون والفرنج يحتمي على كل طائفة بالآخرين فسار شمس الملوك اليه
في هذه السنة واخذه منه في المحرم وعظم اخذه على الفرنج لان الضحاك كان لا يعترض الى شئ
من بلادهم المجاورة له فخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم فلما اجتمعت ساروا الى بلد
حوران فخربوا امهات البلد ونهبوا أماكنهم نهبة وكان شمس الملوك لما رآهم يجمعون جمع
هو ايضا وحشد وحضر عنده جمع كثير من التركمان وغيرهم فنزل بازاء الفرنج وجرت بينهم
مناوشة عدة ايام ثم ان شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقي قبالة الفرنج وهم
لا يشعرون وقصد بلادهم طبرية والناصرة وعكا وما يجاورها من البلاد فنهب وخرب واحرق
وسبى النساء والذرية وامتلأت ايدي من معه من الغنائم واتصل الخبر بالفرنج فانزعجوا ورحلوا
في الحال لا يلوي اخ على اخيه وطلبوا بلادهم واما شمس الملوك فانه عاد الى عسكره على غير
الطريق الذي سلكه الفرنج فوصل سالما ورأى الفرنج بلادهم خرابا ففت في اعضادهم وتفرقوا
وراسلوا في تجديد الهدنة فهادنهم شمس الملوك في ذي القعدة للسنة

(ذكر عود الملك طغرل الى الجبل وانهزام الملك مسعود)

في هذه السنة عاد الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه ملك بلاد الجبل جميعها واجلى عنها اخاه
السلطان مسعودا وسبب ذلك ان مسعودا لما عاد من حرب اخيه طغرل بلغه عصيان داود

ابن

لموافقة مورده خلو صدرها
عمن يستقل بأمرها ويقوم
بحق الكفالة لها والكفاية
فيها فكان مثله كما قيل
خلت الديار فسدت غير مسود
ومن الشقاء تفردي بالسودد
فاشتغل بالوزاره عن حق
السفاره وأقبل على الامر
بوجه الجد المستبد يريد
سكر ما انبثق وانهار عليه
النهر وكتمان ما نم عليه
الجهر وان يصلح العطار
ما أفسد الدهر وانشد في
المضراب انفسه فيه
وكأنما الدهر من غير حنكة
بيوسفه والبلعمى وغيره
الى ان رمانا بالغفاري بعدهم
وعاند نافى عبده وعزيزه
وما قد دهانا بابن عيسى وجوره
وفى ابن أبي زيد النخيب وسيره
فلم نرض بالمقدور فيهم فأمنا
بكل كسير في الورى وعويره
ولما أحس الامير سيف
الدولة بصورة الحال في
تناقض الآراء وتخاذل
التدبير والاهواء واشراف
الملك على الضياع بمداهنة
النصحاء واعتنائهم بصلاح
انفسهم في وجوه المقاصد
والانحاء عدل الى نيسابور
على ما كان يليه من جماهير
أوليائه ومواليه وحين سمع
بكتوزون باقباله تزحزح
عن نيسابور قصدا ابقاء على
عدته وعتاده واشفاقا
على عدد رجاله واجناده

ابن اخيه السلطان محمود باذربيجان فسار اليه وحصره بقلعة روئين دز وكان فتحصن بها واشتغل بحصره فجمع الملك طغرل العساكر واستمال بعض قواد مسعود ولم يزل يفتح البلاد فكثرت عساكره وقصد مسعودا فلما قارب قزوين سار مسعود نحوه فلما تراءى العسكران فارق مسعودا من امرائه من كان قد استماله طغرل فبقى فى قلة من العسكر فولى منهزما اواخر رمضان وارسل الى المسترشد بالله فى القدوم لبغداد فاذن له وكان نائبه باصفهان البقش السلاحى ومعه الملك سلجوق شاه فلما سمع بانهزام مسعود قصد بغداد ايضا فنزل سلجوق شاه بدار السلطان فاكرمه الخليفة وانفذ اليه عشرة آلاف دينار ثم قدم مسعود بغداد واكثر اصحابه ركاب جمال لعدم ما يركبونه ولقى فى طريقه شدة فارسل اليه الخليفة الدواب والخيام والآلات وغيرها من الاموال والثياب فدخل الدار السلطانية ببغداد منتصف شوال واقام طغرل بهمدان

(ذكر حصر أتابك زنكى آمد وملكه قلعة الصور)

فى هذه السنة اجتمع اتابك زنكى وتمرتاش صاحب ماردين وقصدا مدينة آمد فحصراها فارسل صاحبها الى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرحلهما عنها فالتقوا على باب آمد وتصافوا فى جمادى الآخرة فاقتتلوا فانهزم داود وعاد مغلولا وقتل جماعة من عسكره واقام زنكى وتمرتاش على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر وشعثا البلد ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض فقصد زنكى قلعة الصور من ديار بكر وحصرها وضايقها فملكها فى رجب من هذه السنة واتصل به ضياء الدين ابو سعيد بن الكفرتوثى فاستوزره زنكى وكان حسن الطريقة عظيم الرياسة والكفاية محبا للخير

(ذكر ملك زنكى قلاع الاكراد الحميدية)

فى هذه السنة استولى عماد الدين زنكى على جميع قلاع الاكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما وكان لما ملك الموصل اقر صاحبها الامير عيسى الحميدى على ولايتها واعمالها ولم يعترضه على شئ مما هو بيده فلما حصر المسترشد الموصل حضر عيسى هذا عنده وجميع الاكراد عنده فاكثر فلما رحل المسترشد عن الموصل امر زنكى ان تحصر قلاعهم فحصرت مدة طويلة وقوتلت قتالا شديدا الى ان ملكت هذه السنة فاطمأن اذا أهل السواد المجاورون لهؤلاء القوم فانهم كانوا معهم فى ضائقة كبيرة من نهب اموالهم وخراب البلاد

(ذكر ملك قلاع الهكارية وكواشى)

وحكى عن بعض العلماء من الاكراد ممن له معرفة باحوالهم ان اتابك زنكى لما ملك قلاع الحميدية واجلاهم عنها خاف أبو الهيجاء بن عبد الله صاحب قلعة اشب والجزيرة ونوشى فارسل الى أتابك زنكى من استحلفه له وحمل اليه مالا وحضر عند زنكى بالموصل فبقى مدة ثم مات فدفن بتل توبة ولما سار عن اشب الى الموصل اخرج ولده احمد بن أبى الهيجاء منها خوفا ان يتغلب عليها واعطاه قلعة نوشى وهذا احمد هو والد على بن أحمد المعروف بالمشطوب من اكابر امراء صلاح الدين ابن ايوب بالشام ولما أخرجه ابوه من اشب استناب بها كرديا يقال له باو الارجى فلما مات أبو الهيجاء سار ولده احمد من نوشى الى اشب ليملكها فمنعه باو واراد حفظها لولد صغير لابى الهيجاء اسمه على فسار زنكى بعسكره فنزل على اشب وملكها وسبب ملكها ان أهلها نزلوا كلهم الى

وكتب الى الامير أبى الحرث بفصوله عن مكانه أخذا بالوثيقة ومحاماة على الحقيقة واحتراسا من غرة اللقاء قبل اختمار العزيمة والرأى لخمالته سكرة الحداثة ونزقة الصبا والغرارة وقلة النظر فى العواقب وعدم الحظ من التجارب على الاغذاذ الى خراسان فيمن أنهضه الامكان بالمساعدة من وجوه خاصته وسائر حاشيته وسار الى سرخس كالسهم صادرا عن وتره والسيل سائلا الى منحدره فعلم الامير سيف الدولة أن قصده اياه من نتائج التغرير وفائل الرأى والتدبير ومهانة الناصح والمشير اذ لم يكن فى منة القوم مقاواته على شدة باسه وملاقاته على قوة مراسه اذ لو قذفهم ببعض رجومه لغادرهم رمادا تذروه العواصف وتقتسمه الشمائل والجنائب لكنه رأى ان يغضى جفن الاحترام ويحمى ستر الاحتشام ويرعى سابق الحق والذمام فخالف طريقه الى مرو الروذ مفرجا له عن نيسابور الى أن يتمكن من ارتجاعها ببينة تشترك فى معرفتها القاصية والدانية وحجة على مناويه ومخالفيه تتصورها الحاضرة والبادية عطفا الى قنطرة زاغول

القتال فتركهم زنكي حتى قاربوه واستجرهم حتى ابعدوا عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا فوضع السيف فيهم فاكثر القتل والاسر وملك زنكي القلعة في الحال واحضر جماعة من مقدمي الاكراد فيهم باو فقتلهم وعاد عنها الى الموصل ثم سار عنها ففي غيبته ارسل نصير الدين جقر نائب زنكي وخرب اشب وخلى كهيجة ونوشي وقلعة الجلاب وهي قلعة العمادية وارسل الى قلعة الشعباني وفرح وكوشر والزعفران والقي وسروة وهي حصون المهرانية فحصرها فملك الجميع واستقام امر الجبل والزوزان وامنت الرعايا من الاكراد واما باقي قلاع الهكارية جبل صور وهرور والملاسي ومابرما وبابوخا وباكزا ونسباس فان قراجا صاحب العمادية فتحها من مدة طويلة بعد قتل زنكي وهذا قراجا كان أميرا قد اقطعه زين الدين على بلاد الهكارية بعد قتل زنكي ولم اعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرته ههنا وحكى غير هذا بعض فضلاء الاكراد وخالف فيه فقال ان زنكي لما فتح قلعة اشب وخربها وبنى قلعة العمادية ولم يبق في الهكارية الا صاحب جبل صور وصاحب هرور ولم يكن لهما شوكة يخاف منها عاد الى الموصل فخافه اصحاب القلاع الجبلية فاتفق ان عبد الله بن عيسى بن ابراهيم صاحب الربية والقي وفرح وغيرها توفي وملكها بعده ولده علي وكانت والدته خديجة بنت الحسن اخت ابراهيم وعيسى وهما من الامراء مع زنكي وكانا بالموصل فارسلها ولدها علي الى اخويها وطلب له الامان من زنكي وحلفاه له ففعل ونزل الى خدمة زنكي واقره على قلاعه واشتغل زنكي بفتح قلاع الهكارية وكان الشعباني بيد أمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فاخذه منه وقربه منه لكبره وقلة اعماله وكان نصير الدين جقر يكره عليا صاحب الربية وغيرها فحسن لزنكي القبض عليه فاذن له في ذلك فقبض عليه ثم ندم زنكي على قبضه فارسل الى نصير الدين ان يطلقه فرآه قد مات قيل ان نصير الدين قتله ثم أرسل العسكر الى قلعة الربية فنازلوها بغتة فملكوها في ساعة واسروا كل من بها من ولد علي واخوته واخواته وكانت والدة علي خديجة غائبة فلم توجد فلما سمع زنكي الخبر بفتح الربية سره وامر ان تسير العساكر الى باقي القلاع التي لعلي فسارت العساكر فحصروها فرأوها منيعة فراسلهم زنكي ووعدهم الاحسان فاجابوه الى التسليم على شرط ان يطلق كل من في السجن منهم فلم يجبهم الى ذلك الا ان يسلموا ايضا قلعة كواشي فمضت خديجة والدة علي الى صاحب كواشي واسمه خول وهرون وهو من المهرانية فسألته النزول عن كواشي فاجابها الى ذلك وتسلم زنكي القلاع واطلق الاسرى فلم يسمع بمثل هذا فقال ينزل من مثل كواشي لقول امرأة فاما ان يكون اعظم الناس مروأة لا يرد من دخل بيته واما ان يكون اقل الناس عقلا واستقامت ولاية الجبال

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة اوقع الدانشمند صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيرا منهم وفيها اصطلح الخليفة واتابك زنكي وفيها في ربيع الاول عزل انوشروان بن خالد عن وزارة الخليفة وفيها توفيت ام المسترشد بالله وفيها سير المسترشد عسكرا الى تكريت يحصروا مجاهد الدين بهروز فصانع عنها بمال فعادوا عنه وفيها اجتمع من العساكر السنجرية مع الامير ارغش وحصروا قلعة كردكوه بخراسان وهي للاسماعيلية وضيقوا على أهلها وطال حصرها وعدمت عندهم

الاقوات

يخيم بها من اعيا الماء يستنير عنه التدبير ويتكشف عن حقيقته الضمير وبادر بكتوزون الى مناخ الامير أبي الحرث وهنالك فائق في قضه وقضيضه واهه وافيفه فلما وصل اليه أنكر محله لديه لتقصيره في حق مقدمه وتجناه عليه وشكا الى فائق ما انكره فشكاه هو اليه فوق ماذكره وتداولا بينهما ذكر معايبه وتقاولا خشونة جانبه وحزونة أخلاقه وضرائبه وأغريا أهل العسكر بخلعه والتماس الراحة منه والاستبدال به فانجر وامعهما في جرير المساعدة حرصا على لذة الاستطراف واغتناما لنهزة الاستضعاف فاستحضر بكتوزون بعلة اجتماع العسكر لمهم احتيج الى نظره فيه واشارته بوجه الصواب في تلافيه حتى اذا حضره حصره ووكل به من سمل بصره غيرا ولفجيعته بطائق حياته احسن ما كان رداء جمال وعمود اعتدال وطلعة هلال وروعة عزة وجلال واقد اجهش اليه عند الاستسلام في حاج له ثلاث خفاف المؤنة عليه منها صيانته من قامت عنه عن ذل المناظرة على مال المصادرة فكايده بخلاف حاجته ونقيض مسئلته

الاقوات فاصاب أهلها شيخ وكزاز وعجز كثير منهم عن القيام فضلا عن القتال فلما ظهرت امارات الفتح رحل الامير ارغش فقيل انهم حملوا اليه مالا كثيرا واعلاقا نفيسة فرحل عنهم وفيها توفي الامير سليمان بن مهارش العقيلي امير بني عقيل وولي الامارة بعده اولاده مع صغر سنهم وطيف بهم في بغداد رعاية لحق جدهم مهارش فانه هو الذي كان الخليفة القائم بامر الله عنده لما فعل به البساسيري ما ذكرنا وفيها توفي الفقيه ابو علي الحسن بن ابراهيم بن فرهون الشافعي الفارقي ومولده سنة ثلاث وثلاثين واربعمائة وتفقه على أبي عبد الله الكازروني فلما توفي الكازروني انحدر الى بغداد وتفقه على ابي اسحق الشيرازي وابي نصر الصباغ وولي القضاء بواسط وكان خيرا فاضلا لا يواري ولا يحابي احدا في الحكم وفيها توفي عبد الله بن محمد ابن احمد بن الحسن وابو محمد بن ابي بكر الفقيه الشافعي تفقه على ابيه وكان يعظ ويكثر في كلامه من التجانس فمن ذلك قوله ابن القدود العالية والخدود الوردية ممات بها وان الله العافية والوردية وهما مقبرتان بنهر معلى ومن شعره

الدمع دما يسيل من اجفاني * ان عشت مع البكا فما أجفاني
سحبي شجني وهمي سماني * العاذل بالملام قد سماني *
والذكر لهم يزيد في اشجاني * والنوح مع الحمام قد أشجاني
ضاقت بسعاد منيتي اعطاني * والبين بدا الهموم قد اعطاني

وفيها توفي ابن أبي الصلت الشاعر ومن شعره يذم ثقيلا

لي صديق عجبت كيف استطاعت * هذه الارض والجبال تقله
انا أرعاه مكرما وبقلبي * منه ما ينسف الجبال أقله
هو مثل المشيب اكره رؤياه * ولكن اصونه واجله

وله أيضا

ساد صغار الناس من عصرنا * لا دام من عصر ولا كانا
كالدست مهما هم ان ينقضي * صار به البيدق فرزانا

وفيها توفي محمد بن علي بن عبد الوهاب ابو رشيد الفقيه الشافعي من أهل طبرستان وسمع الحديث ايضا ورواه وكان زاهدا عابدا أقام بالجزيرة وهي جزيرة ابن عمر سنين منفردا يعبد الله سبحانه وتعالى وعاد الى آمل وقبره بها

* (ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة) *

* (ذكر وفاة الملك طغرل وملك مسعود بلاد الجبل) *

قد ذكرنا قدوم السلطان مسعود الى بغداد منهزما من اخيه الملك طغرل وان الخليفة اكرمه وحمل اليه ما يحتاج اليه مثله وامره بالمسير الى همدان وجمع العساكر ومنازعة أخيه طغرل في السلطنة والبلاد ومسعود يعد ويدافع الايام والخليفة يحثه على ذلك ووعده ان يسير معه بنفسه وامر ان يبرز خيامه الى باب الخليفة وكان قد اتصل الامير البقش السلاحي وغيره من الامراء بالخليفة وطلبوا خدمته فاجابهم وصاروا معه واتفق ان انسانا أخذ فوجد معه ملطفات من طغرل الى هؤلاء الامراء بالاقطاع لهم فلما رأى الخليفة ذلك قبض على أمير منهم

ومضاعفة اثقل المحنة على ظهره فعل الموتور بالا شوى له ولا بقيا معه وعمد هو ووفاق الى أخيه عبد الملك بن نوح وهو أصغر منه سنا واضعف ركنا فاقاماه مقامه وسدا به مكانه وماج الناس بعضهم في بعض للفتنة الشاغرة والاحوال المتنافرة ونذر الناس بالامير سيف الدولة انه قد خيم بقنطرة زاغول فكروا على ادراجهم كاليعافير الراعية راعها الفوارس واحاطت بها الكلاب النواهس حتى أخذوا قرارهم بمرو وأرسل الامير سيف الدولة الى الكافلين بالتدبير يهجن اليهما ما ارتكباه في ولي النعمة من ازالة الحشمة واضاعة الحق والحرمة غير ناظرين للدين ولا متحرجين للاسلام والمسلمين ولا متهيبين للاحدوثة الشنعاء على ألسنة الذاكرين مدى دهر الداهرين وامتدت المراجعة بينهم في الحادث الكارث وهما يختلانه عن انتهاز الفرصة فيهما واهتبال الغرة منهما تطميعا له عن صاحبهما في جديد الرعاية ومزيد الولاية وكلاهما هم بالاحجام على وجه الاحترام طالبته سعادة الجد بالاقدام وحرضته على

اسمه غلبك ونهب ماله فاستشعر غيره من الامراء الذين مع الخليفة فهربوا الى عسكر السلطان
مسعود فارسل الخليفة اليه فى اعادتهم اليه فلم يفعل واحتج باشياء فعظم ذلك على الخليفة وحدث
بينهما نفرة ووحشة اوجبت تاخره عن المسير معه وارسل اليه يلزمه بالمسير معه امرا جزما فبينما
الامر على هذا اذ جاءه الخبر بوفاة اخيه طغرل وكانت وفاته فى المحرم من هذه السنة وكان مولده
سنة ثلاث وخمسمائة فى المحرم وكان خيرا عاقلا عادلا قريبا الى الرعية محسنا اليهم وكان قبل
موته قد خرج من داره يريد السفر لقتال اخيه مسعود فدعا له الناس فقال ادعوا بخير لنا
للمسلمين ولما توفى ووصل الخبر الى مسعود سار من ساعته نحو همدان واقبلت العساكر جميعها
اليه واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد وكان قد خرج بصحبته هو واهله ووصل مسعود
الى همدان واستولى عليها واطاعته البلاد جميعها واهلها

(ذكر قتل شمس الملوك وملك اخيه)

فى هذه السنة رابع عشر ربيع الآخر قتل شمس الملوك اسمعيل بن تاج الملوك بورى بن طغدكين
صاحب دمشق وسبب قتله انه ركب طريقا من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم فى اعمال
البلد وبالغ فى العقوبات لاستخراج الاموال وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس بحيث انه لا يأنف
من أخذ الشئ الحقير بالعدوان الى غير ذلك من الاخلاق الدنيئة وكرهه اهله واصحابه ورعيته
ثم انه ظهر عنه انه كاتب عماد الدين زنكى انه يسلم اليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول
واخلى المدينة من الذخائر والاموال ونقل الجميع الى صرخد وتابع الرسل الى زنكى يحثه على
الوصول اليه ويقول له ان اهملت المجئ سلمت البلد الى الفرنج فسار زنكى فظهر الخبر بذلك
فامتعض اصحاب ابيه وجده واقلقهم وذكروا الحال لوالدته فساءها واشفقت منه ووعدتهم
بالراحة من هذا الامر ثم انها ارتقبت الفرصة فى الخلوة من غلمانه فلما رأته على ذلك امرت
غلمانها بقتله فقتل وامرت بالقائه على موضع فى الدار ليشاهده غلمانه واصحابه فلما رأوه قتيلا
سروا بمصرعه وبالراحة من شره وكان مولده سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة وقيل
كان سبب قتله ان والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز وكان متمكنا منه ما كان فى دولته
ثم فى دولة شمس الملوك بعده فاتهم بام شمس الملوك ووصل الخبر اليه بذلك فهم بقتل يوسف فهرب
منه الى تدمر وتحصن بها واظهر الطاعة لشمس الملوك فاراد قتل امه فبلغها الخبر فقتلته خوفا
منه والله اعلم ولما قتل ملك بعده اخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك وحلف له الناس
واستقر له الملك بعده والله اعلم

(ذكر حصر اتابك زنكى دمشق)

فى هذه السنة حصر اتابك زنكى دمشق ونازلها اول جمادى الاولى وسببه ما ذكرنا من
ارسال شمس الملوك صاحبها اليه واستدعائه ليسلمها اليه فلما وصلت كتبه ورسله سار اليها
فقتل شمس الملوك قبل وصوله ولما عبر الفرات ارسل اليه رسلا فى تقرير قواعد التسليم فرأوا
الامر قد فات الا انهم أكرموا واحسن اليهم واعيدوا بأجمل هيئة وعرفوا زنكى بقتل
شمس الملوك وان القواعد عندهم مستقرة لشهاب الدين والكلمة متفقة على طاعته فلم
يحفل زنكى بهذا الجواب وسار الى دمشق فنازلها واجفل اهل السواد اليها واجتمعوا

فيها

الانتقام للدين والاسلام
ثم رأى ان يزحف عن مقامه
الى ظاهر مرو وليكون
طائفة الصلح وجاها اوسفاهة
السيف شفاها ولما تسامع
القوم باقباله دب الفشل
فى تضاعيف احشائهم
وسرى الوهل فى تفاريق
اعضائهم واستطار الخوف
فى مزاج دمائهم ولما سقط
فى أيديهم ورأوا انهم قد
ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا
ويغفر لنا لنكونن من
الخاسرين فأبى الله الا ان
ينتقم منهم بسيف سيف
الدولة جزاء عن فعلهم
الفظيع وخطبهم الشنيع
وسعيهم المذموم عند الجميع
فصبه عليهم صب عزالى
الغيث بنوء المرزمين غير
انه غيث قطره عيث وغيم
حشوه ضيم وسحاب حمله
عذاب وكذلك أخذ ربك
اذا أخذ القرى وهى ظالمة
ان اخذه أليم شديد وبرز
فائق وبكتوزون وأبو القاسم
ابن سيمجور بلواحقهم وعبد
الملك بن نوح وسائر اهل
العسكر الى ظاهر مرو
مقابلين لعسكر الامير سيف
الدولة يعلنان جلادة ويسران
بلادة ويقدمان ظاهر
العيون ويحجمان خيفة
الحروب الزبون قد ضاقت
عليهم الارض بما رحبت
بخبوب الاقطار عليهم

فيها على محاربته ونزل أولا شماليها ثم انتقل الى ميدان الحصى وزحف وقاتل فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفقا قاتما على محاربته وقام معين الدين أنز مملوك جده طغدكين فى هذه الحادثة بدمشق قياما مشهودا وظهر من معرفته بامور الحصار والقتال وكفايته مالم ير وما كان سبب تقدمه واستيلائه على الامور باسرها على مانذكران شاء الله تعالى فبينما هو يحاصرها وصل رسول الخليفة المسترشد بالله وهو أبو بكر بن بشر الجزرى من جزيرة ابن عمر بخلع الاتابك زنكى ويأمره بصلح صاحب دمشق الملك البارسلان محمود الذى مع اتابك زنكى فرحل عنها لليلتين مضين من جمادى الاولى من السنة المذكورة

* (ذكر قتل حسن بن الحافظ) *

قد ذكرنا سنة ست وعشرين وخمسمائة ان الحافظ لدين الله صاحب مصر استوزر ابنه حسنا وخطب له بولاية العهد فبقى الى هذه السنة ومات مسموما وسبب ذلك انه كان جريا على سفك الدماء وكان فى نفس الحافظ على الامراء الذين أعانوا أبا على بن الافضل حقد ويريد الانتقام منهم من غير أن يباشر ذلك بنفسه فاستوزر ابنه وأمره بذلك فتغلب على الامر جميعه واستبد به ولم يبق لابيه معه حكم وقتل من الامراء المصريين ومن أعيان البلاد جماعة حتى قيل انه قتل فى ليلة واحدة أربعين أميرا فلما رأى أبوه تغلبه عليه أخرج له خادما من خدم القصر الاكابر فجمع الجموع وحشد من الرجالة خلقا كثيرا وتقدم الى القاهرة ليقاتل حسنا ويخرجه منها فارسل له جماعة من خواصه وأصحابه فقاتلوهم فانهزم الخادم وقتل الرجال الذين معه وعبر الباقون الى الجيزة فاستكان الحافظ فصبر تحت الحجر ثم ان الباقين من الامراء المصريين اجتمعوا واتفقوا على قتل حسن وارسلوا الى أبيه الحافظ وقالوا له اما انك تسلم ابنك الينا لنقتله او نقتلكما جميعا فاستدعى ولده اليه واحتاط عليه وارسل الى الامراء بذلك فقالوا لانرضى الا بقتله فرأى انه ان سلمه اليهم طمعوا فيه وايس الى ابقائه سبيل فاحضر طبيبين كانا له احدهما مسلم والآخر يهودى فقال لليهودى نريد سما نسقيه لهذا الولد ليموت ونخلص من هذه الحادثة فقال انا لا اعرف غير النقوع وماء الشعير وماشاكل هذا من الادوية فقال انا اريد ما اخلص به من هذه المصيبة فقال له لا اعرف شيأ فاحضر المسلم وامره بذلك فصنع له شيأ فسقاه الولد فمات لوقته فارسل الحافظ الى الجندية وقال لهم انه قد مات فقالوا نريد ننظر اليه فاحضر بعضهم عنده فرأوا وظنوه قد عمل حيلة فجرحوا اسافل رجليه فلم يجر منه دم فعلموا موته ودفن حسن واحضر الحافظ الطبيب المسلم وقال له اخرج من عندنا من القصر وجميع مالك من الانعام والجامكية باق عليك واحضر اليهودى وقال اعلم انك تعرف ماطلبته منك ولكنك عاقل فتقيم فى القصر عندنا وكان حسن سئ السيرة ظالما جريا على سفك الدماء واخذ الاموال فهجاه الشعراء فمن ذلك ماقال المعتمد بن الانصارى صاحب الترسل المشهور

لم تأت يا حسن بين الورى حسنا * ولم تر الحق فى دنيا ولا دين
قتل النفوس بلاجرم ولا سبب * والجور فى اخذ اموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا ادب * تيه الملوك واخلاق المجانين

وقيل ان الحافظ لما رأى ابنه تغلب على الملك وضع عليه من سقاه السم فمات والله اعلم ولما مات

مزرورة * وذيول الخذلان عليهم مجرورة * وبوارح الابادة وجوائح الدمار * من كل أوب اليهم محشورة * وظل القوم على علم بانهم يدمرون على الدمار * ويتهافتون تهافت الفراش فى النار * ويقتلون الانصار بسيوف الانصار * كما قال الله تعالى يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين فاعتبروا يا اولى الابصار * وتردد السفراء بينهم وبين الامير سيف الدولة فى مواضعته على سلم يسلمون معها فى العاجل من شدة بأسه * ويقتدون بها من مرارة كأسه * فأحسن الامير سيف الدولة اجابتهم الى مواضعتهم على علمه باستبطانهما للختل والحيلة * واستشعارهما للغدر والخديعة * الزاما للحجة وطمسا على الشبهة واعذارا الى الكافة * وبراءة من خطة البغى فى دفع المكافة * فما كان الا أن قوضت للرحيل خيامه * ونشرت للقفول أعلامه * حتى ثار أوباش القوم على اثره لانتهاب عسكره يظنون بأنفسهم الظنون * وانما يتعجلون المنون * ويدوسون أذناب الاراقم لو كانوا يشعرون * ولما رأى الامير سيف الدولة تركوبهم

مقطعة الضلال * واقحامهم مسبعة الآجال * معلقين خيوط الرقاب بالحرص الغالب * والطمع الكاذب * لا يثنيهم حلماؤهم عن التسفه والتخبط * ولا يحميهم كبراؤهم عن التهور والتورط * علما ان ذلك أمر يراد وداء خالطه البغي والعناد * وأيقن ان سرهم بالفساد مغمور * وان السفيه اذا لم ينه مأمور * وأمر بالثائرين نجاش اليهم من حواشي الجيوش من طابقوهم بالهض والرض * وأضجعوهم الامن شاء الله على صعيد من الارض * واستخار الله تعالى فى الكر على بغاة السوء محا كما اباهم الى البيض القواطع * ومدليا ببينات الرماح الشوارع * ومستهلا على الانتصاف منهم بشهادات النسور والذلوا مع * وأقبل فرتب الجيوش قلبا كنهلان * وميمنة كرضوى وميسرة كابان * وحصن المصاف بزهاء مائتين من فيلة كرعن الجبال * اوكن السحاب الثقال * مغشاة بتجافيف لم يعور منها غير حدق النواظر * وحداثد الانياب الفواقر * تهول ساستها فانها بوجفات كالبروق الخواطف

حسن استوزر الحافظ الامير تاج الدولة بهرام وكان نصرانيا فحكم واستعمل الارمن على الناس فاستذلوا المسلمين وسنذكر اخباره سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ان شاء الله تعالى

(ذكر مسير المسترشد الى حرب السلطان مسعود وانهزامه)

فى هذه السنة كان الحرب بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود فى شهر رمضان وسبب ذلك ان السلطان مسعودا لما سافر من بغداد الى همدان بعد موت أخيه طغرل وملكها فارقه جماعة من أعيان الامراء منهم برنقش بازدار وقزل آخر وسنقر الخمارتكين والى همدان وعبد الرحمن بن طغايرك وغيرهم خائفين منه مستوحشين ومعهم عدد كثير ومعهم دبيس بن صدقة وأرسلوا الى الخليفة يطلبون منه الامان ليحضروا فى خدمته فقيل له انها مكيدة لان دبيسا معهم وسار والحوخوزستان واتفقوا مع برسق بن برسق فارسل الخليفة اليهم سديد الدولة بن الانبارى بتوقيعات الى الامراء المذكورين بتطييب نفوسهم والامر بحضورهم وكان الامراء المذكورون قد عزموا على قبض دبيس والتقرب الى الخليفة بحمله اليه فبلغه ذلك فهرب الى السلطان مسعود وسار الامراء الى بغداد فى رجب فأكرمهم الخليفة وحمل اليهم الاقامات والخلع وقطعت خطب السلطان مسعود من بغداد وبرز الخليفة فى العشرين من رجب على عزم المسير الى قتال مسعود وأقام فى الشفيعى فعصى عليه بكبه صاحب البصرة فهرب اليها فراسله وبذل له الامان فلم يعد اليه وتريث الخليفة عن المسير وهؤلاء الامراء يحسنون له الرحيل ويسهلون عليه الامر ويضعفون عنده أمر السلطان مسعود فسيرمقدمته الى حلوان فنهبوا البلاد وأفسدوا ولم ينكر عليهم شيأ ثم سار الخليفة ثامن شعبان ولحق به فى الطريق الامير برسق بن برسق فبلغت عدتهم سبعة آلاف فارس وتخلف بالعراق مع اقبال خادم المسترشد بالله ثلاثة آلاف فارس وكان السلطان مسعود بهمذان فى نحو ألف وخمسمائة فارس وكان أكثر أصحاب الاطراف يكاتبون الخليفة ويبذلون له الطاعة فتريث فى طريقه فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم حتى عادوا اليه فصار وانحو خمسة عشر ألف فارس وتسال جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقى فى خمسة آلاف وأرسل اتابك زنكى نجدة فلم يلحق وأرسل الملك داود بن السلطان محمود وهو باذربيجان الى الخليفة يشير بالميل الى الدينور ليحضر بنفسه وعسكره فلم يفعل المسترشد وسار حتى بلغ دايمرج وعبى أصحابه فجعل فى الميمنة برنقش بازدار ونور الدولة سنقر وقزل آخر وبرسق بن برسق وجعل فى الميسرة جاولى وبرسق شراب سلار وغلبك الذى كان الخليفة قد قبض عليه وأخرجه من محبسه ولما سمع السلطان مسعود خبرهم سار اليهم مجدا فوافقهم بدايمرج عاشر رمضان وانحازت ميسرة الخليفة الى السلطان مسعود فصارت معه واقتتلت ميمنة الخليفة وميسرة السلطان قتالا ضعيفا ودارت عساكر السلطان حول عساكر الخليفة وهو ثابت لم يتحرك من مكانه وانهزم عسكره وأخذ هو أسيرا ومعه جمع كثير من اصحابه منهم الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبى وقاضى القضاة وصاحب المخزن ابن طلحة وابن الانبارى والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم وانزل الخليفة فى خيمة وغنموا ما فى معسكره وكان كثيرا فحمل الوزير وقاضى القضاة وابن الانبارى وصاحب المخزن وغيرهم من الاكابر الى قلعة سرجهان وباع الباقون نفوسهم بالثمن

دون الطفيف ولم يقتل في هذه المعركة احد وهذا اعجب ما يحكى وعاد السلطان الى همذان وامر فنودي من تبعنا الى همذان من البغاددة قتلناه فرجع الناس كلهم على اقبح حال لا يعرفون طريقا وليس معهم ما يحملهم وسير السلطان الامير بك آبه المحمودي الى بغداد شحنة فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد فقبضوا جميع املاك الخليفة واخذوا غلاتها وثار جماعة من عامة بغداد فكسروا المنبر والشباك ومنعوا من الخطبة وخرجوا من الاسواق يحثون التراب على رؤسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات في الاسواق يلطمن واقتتل اصحاب الشحنة وعامة بغداد فقتل من العامة ما يزيد على مائة وخمسين قتيلا وهرب الوالي وحاجب الباب واما السلطان فانه سار في شوال من همذان الى مراغة لقتال الملك داود ابن اخيه محمود وكان قد عصى عليه فنزل على فرسخين من مراغة والمسترشد معه فترددت الرسل بين الخليفة وبين السلطان في الصلح فاستقرت القاعدة على ما نذكره ان شاء الله والله الموفق

(ذكر قتل المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله)

لما قبض المسترشد بالله ابو منصور بن الفضل بن المستظهر بالله ابي العباس احمد على ما ذكرناه جعله السلطان مسعود في خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وان لا يعود يجمع العساكر وان لا يخرج من داره فاجاب السلطان الى ذلك واركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبق الا ان يعود الى بغداد فوصل الخبر ان الامير قزان خوان قد ورد رسولا من السلطان سنجر فتأخر مسير المسترشد لذلك وخرج الناس مع السلطان مسعود الى لقائه وفارق الخليفة بعض من كان موكلا به وكانت خيمته منفردة عن العسكر فقصده اربعة وعشرون رجلا من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثلوا به فجدعوا انفه واذنيه وتركوه عريانا وقتل معه نفر من اصحابه منهم ابو عبد الله بن سكينة وكان قتله يوم الاحد سابع عشر ذي القعدة على باب مراغة وبقي حتى دفنه اهل مراغة واما الباطنية فقتل منهم عشرة وقيل بل قتلوا جميعهم والله اعلم وكان عمره لما قتل ثلاثا واربعين سنة وثلاثة اشهر وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستة اشهر وعشرين يوما وامه ام ولد وكان شهما شجاعا كثير الاقدام بعيد الهمة واخباره المذكورة تدل على ما ذكرناه وكان فصيحا بليغا حسن الخط ولقد رايت خطه في غاية الجودة ورايت اجوبته على الرقاع من احسن ما يكتب وافصحه ولما قتل المسترشد بالله بويع ابنه الراشد بالله ابو جعفر المنصور ولقب الراشد بالله وكان ابوه قد بايع له بولاية العهد في حياته وجددت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة وكتب السلطان مسعود الى بك آبه الشحنة ببغداد بيايع له وحضر الناس البيعة وحضر بيعته احد وعشرون رجلا من اولاد الخلفاء وبايع له الشيخ ابو النجيب ووعظه وبالغ في الموعظة واما جمال الدولة المسترشدي فكأنه كان ببغداد في طائفة من العسكر فلما جرت هذه الحادثة عبر الى الجانب الغربي واصعد الى تكريت وراسل مجاهد الدين بهروز وحلفه وصعد اليه الى القلعة

(ذكر مسير السلطان سنجر الى غزنة وعوده عنها)

في هذه السنة في ذي القعدة سار السلطان سنجر من خراسان الى غزنة وسبب ذلك انه نقل اليه

* وصفا ذات كالزعوف * القواصف * وقد نشرت عليها التماثيل السود * كأنها الاساود والاسود * يخيل اضطراب الرياح فيها انها تزحف للالتهام * او تنقض لاختطاف الهام * وتعالت عليها اطراف العوامل * فكأنها آجام السواحل * تأويها شياطين الانس فرسانا * وعفاريت الترك والهند مردا وشبانا * تبص عليهم سابغات داود كقصائح الماء تجلوها الشمس سافره * وتزهاها الشمال سائره * قد جعلوا الدروع وقاية للاجسام * وظاهروا عليها بالقلوب حرصا على الانتقام * فهم يأنسون بمباشرة القتال * ومشاورة الاقتال * واستثارة المنايا عن مرابض الآجال * انس العيون بأناسيها الباصرة * والقلوب بأماسيها الحاضرة * ووقف الامير سيف الدولة في القلب بنفسه واخويه نصر واسمعيل ابني ناصر الدين سبكتكين وعمه بغراجق فكأنما عناه ابو فراس بقوله

علونا دوشنا بأشد منه واثبت عند مشتجر الرماح
بجيش جاش بالفرسان حتى ظننت البر بحرا من سلاح
والسنة من العذبات حمر تخاطبنا بأفواه الرياح

عن صاحبها بهرام شاه انه تغير عن طاعته وانه قد مد يده الى ظلم الرعايا واغتصاب اموالهم وكان
السلطان سنجر هو الذي ملك غزنة وقد ذكرناه سنة تسع وخمسمائة فلما سمع هذه الاخبار
المزعجة سار الى غزنة ليأخذها ويصلحه فلما رأى الطريق ابعدادركهم شتاء شديد البرد كثير
الثلج وتعذرت عليهم الاقوات والعلوفات فشكا العسكر الى السلطان ذلك وذكروا له ماهم
فيه من الضيق وتعذر ما يحتاجون اليه فلم يجب عنه بغير التقدم امامه فلما قارب غزنة ارسل
بهرام شاه الى سنجر رسالة يتضرع ويسأل الصفح عن جرمه والعفو عن ذنبه فارسل اليه سنجر
المقرب جوهر الخادم وهو اكبر امير عنده ومن جملة اقطاعه مدينة الري في جواب رسالته
يجيبه عن العفو عنه ان حضر عنده وعاد الى طاعته فلما وصل الى بهرام شاه اجابه الى ما طلب
منه من الطاعة وحمل المال والحضور عنده بنفسه واظهر من الطاعة والانقياد لما يحكم به
السلطان سنجر شيأ كثيرا وعاد المقرب جوهر ومعه بهرام شاه الى سنجر فلما قاربه سبق المقرب
الى السلطان سنجر واعلمه بوصول بهرام شاه وانه بكرة غد يكون عنده وعاد المقرب الى بهرام شاه
ليجيء بين يديه وركب سنجر من الغد في موكبه لتلقيه وتقدم بهرام شاه ومعه المقرب فلما عاين
موكب سنجر والشتر على راسه نكص على عقبيه عائدا فامسك المقرب عنانه وقبح فعله وخوفه
عاقبة ذلك فلم يرجع وولى هاربا ولم يصدق بنجاته ظنا منه ان سنجرا يأخذه ويملك بلده وتبعه
طائفة من اصحابه وخواصه ولم يعرج على غزنة وسار سنجر الى غزنة فدخلها وملكها واحتوى
على جميع ما فيها وجبى اموالها وكتب الى بهرام شاه يلومه على ما فعله ويحلف له انه ما أراد به
شرا ولا له في بلده مطمع ولا هو ممن تلون صنيعته وتعقب حسنته معه سيئة وانما قصده
لاصلاحه فاعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصل ويقول ان الخوف منعه من الحضور ولا لوم
على من خاف من السلطان وتضرع في عوده الى الاحسان فاجابه سنجر الى ان يعيد عليه بلده
وفارق غزنة عائدا الى بلاده فوصل الى بلخ في شوال سنة ثلاثين وخمسمائة واستقر ملك غزنة
لبهرام شاه ورجع اليها

(ذكر قتل دبيس بن صدقة بالتاريخ)

في هذه السنة قتل السلطان مسعود دبيس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خوى أمر
غلاما ارمنيا بقتله فوقف على رأسه وهو ينكت الارض باصبعه فضرب رقبته وهو لا يشعر
وكان ابنه صدقة بالحلة فاجتمع اليه عسكر أبيه ومماليكه وكثر جمعه واستأمن اليه الامير قتلغ
تكين وامر السلطان مسعود بك آبه ان يأخذ الحلة فسار ببعض عسكره الى المدائن وأقاموا مدة
ينتظرون لحاق بك آبه فلم يسر اليهم جبنا وعجزا عن قصد الحلة لكثرة العسكر بها مع صدقة وبقي
صدقة بالحلة الى أن قدم السلطان مسعود الى بغداد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة فقصده
وأصلح حاله معه ولزم باب السلطان ومثل هذه الحادثة تقع كثيرا وهو قرب موت المتعادين فان
دبيسا كان يعادي المسترشد بالله ويكره خلافته ولم يكن يعلم ان السلاطين انما كانوا يبقون
عليه ليجعلوه عدة لمقارنة المسترشد فلما زال السبب زال المسبب والله أعلم بذلك

(ذكر حصر عسكر يحيى المهدية)

في هذه السنة سير يحيى بن العزيز بن حماد صاحب بجاية عسكرا ليحصروا المهدية وبها صاحبها

وأروع جيشه ليل بهيم
وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته كريم
قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا للجناح

وزحف بهم نحو الخصوم على هيئة وافره * وهيبة ناضره * فكادت الارض تمور * والجبال تثور * والانهار الناهره تحول * والفلك الدائر يزال او يزول * وينذر القوم باقدامه * واقبال ألويته وأعلامه * فقامت عليهم القيامه * واستفاضت فيهم الحسرة والندامه * واقبل بعضهم على بعض يتلاومون عما بما ارتكبوه من الامر الامر واجتلبوه من الصيلم الادّ وحفزهم حافز الضرورة * عن المشورة * ففزعوا الى الاحتشاد * وبعثوا بالركوب الى القواد والافراد * وبرزوا من جدران المدينه * في أفواف وأسباغ يوم الزينه * وهم أكثر ما كانوا قط في معركة لحشرهم من أطراف خراسان وماوراء النهر كل فارس وراجل * وحامل عضب أو عاسل * سوى من استتبعهم تلك الدولة من كل فحل بازل * وبطل باسل * وشجاع مقاتل * وأقاموا الصفوف على الموازاة قلبا لمجتمع الليل * وميمنة

الحسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس وكان سبب ذلك ان الحسن احب ميمون بن زيادة أمير
طائفة كبيرة من العرب ومال اليه وأكثر الانعام عليه فحسده غيره من العرب فساروا إلى
يحيى بن العزيز باولادهم وجعلوهم رهائن عنده وطلبوا منه ان يرسل معهم عسكرا ليملكوا
المهدية فاجابهم الى ذلك وهو متباطئ فاتفق انه وصله كتب من بعض مشايخ المهدية بمثل ذلك
فوثق الى ما أتاه وسير عسكرا كثيرا واستعمل عليهم قائدا كبيرا من فقهاء أصحابه يقال له
مطرف بن حمدون وكان هذا يحيى بن العزيز هو واباؤه يحضرون المعز بن باديس وأولاده بعده
فسارت العساكر الفارس والراجل ومعهم من العرب جمع كثير حتى نزلوا على المهدية
وحصروها برا وبحرا وكان مطرف يظهر التقشف والتورع عن الدماء وقال انما أتيت الآن
لاتسلم البلد بغير قتال فخاب ظنه فبقي أياما لم يقاتل ثم انهم باشروا وأظهر أهل المهدية عليهم
واثروا فيهم وتتابع القتال وفي كل ذلك الظفر لاهل البلد وقتل من الخارجين الجم الغفير
وجمع مطرف عسكره برا وبحرا المايئس من التسليم وقاتل اشد قتال فملكت شوانيه شاطئ
البحر وقربوا من السور فاشتد الامر فامر الحسن بفتح الباب وخرج اول الناس وحمل هو ومن
معه عليهم وقال انا الحسن فلما سمع من يقاتله ذلك سلموا عليه وانهزموا عنه اجلالا له ثم اخرج
الحسن شوانيه تلك الساعة من الميناء فاخذ من تلك الشواني اربع قطع وهرب الباقون ثم
وصلت نجدة من رجار الفرنجي صاحب صقلية في البحر في عشرين قطعة فحصرت شواني
صاحب بجاية فامرهم الحسن باطلاقها فاطلقوها ثم وصل ميمون بن زيادة في كثير من العرب
لنصرة الحسن فلما رأى ذلك مطرف وان النجدات تأتي الحسن في البر والبحر علم انه لا طاقة له
بهم فرحل عن المهدية خائبا وأقام رجار الفرنجي مظهرا للحسن انه مهادنه وموافقه وهو مع ذلك
يعمر الشواني ويكثر عددها وآلاتها

* (ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة) *

كانت جزيرة جربة من بلاد افريقية قد استوت في كثرة عمارتها وخيراتها غير ان أهلها طغوا
فلا يدخلون تحت طاعة سلطان ويعرفون بالفساد وقطع الطريق فخرج اليها جمع من الفرنج
أهل صقلية في اسطول كثير وجمع غفير فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة فنزلوا
بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها واجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديدا فوقع بين الفريقين
وقعات عظيمة فثبت أهل جربة فقتل منهم بشر كثير فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا
أموالها وسبوا حريمها ونساءها وأطفالها وهلك أكثر رجالها ومن بقي منهم أخذوا لانفسهم
أمانا من صاحب صقلية وافتكوا أسراهم وسبيهم وحريمهم والله أعلم بذلك

* (ذكر ملك الفرنج حصن روطة من بلاد الاندلس) *

في هذه السنة اصطلح المستنصر بالله بن هود والسليطين الفرنجي صاحب طليطلة مدة عشر
سنين وكان السليطين قد أدمن غزو بلاد المستنصر وقتالها حتى ضعف صاحبها عن مقاومته
لقلة جنوده وكثرة الفرنج فرأى ان يصالحه مدة يستريح فيها هو وجنوده ويعتدون للمعاودة
فترددت الرسل بينهم فاستقر الصلح على ان يسلم المستنصر الى السليطين حصن روطة وهو من
امنع الحصون واحصنها فاستقرت القاعدة واصطلحوا وتسلمه منه الفرنجي الحصن وفعل

كمندفع السيل * وبيسرة
مشحونة باشاهب الخيل *
وماج الفريقان بعضهم
في بعض كالجراد المنتشر
ضربا يزيل الرؤس عن
العواتق * ويبين الزنود
عن المرافق * وطعنا يهتك
ودائع الصدور * ويرد
مشارع الهموم والسرور *
ورشقا يصيب شواكل
الابصار * ويطلب وراء
الفقار مضجع القرار *
واشتدت الحرب حتى
تقلصت الشفاه * وتغضنت
الجباه * وتقطعت الانفاس *
وتحسرت الفرسان
والافراس * واغبرت
الآفاق * واحمرت
الحمالق والاحداق *
وخاض الامير سيف الدولة
غمرة الحرب يجذب
بالاوهاق * مطالع
الاعناق * ويختطف
بالارماح * ودائع
الارواح * ويفض
بالاسياف * مجامع
الاكتاف * حتى رويت
الارض من نزال الحلوق *
وغرقت الخوافي في نواعر
العروق * ودامت على حالها
في الاحتدام والاضطرام *
والافتراس بانياب الحمام *
من حين استقلت الشمس
اكليلا على الجبل * الى
أن نفضت ورساً على
الاصل * فاضطرب القوم

المستنصر فعله لم يفعلها قبله احد

(ذكر حصر ابن ردمير مدينة افراغة وهزيمته وموته)

وفى هذه السنة حصر ابن ردمير الفرنجى لعنه الله مدينة افراغة من شرق الاندلس وكان الامير تاشفين بن على بن يوسف بمدينة قرطبة اميرا على الاندلس لابيه فجهز الزبير بن عمرو اللمتونى من قرطبة ومعه الفا فارس وسير معه ميرة كثيرة الى افراغة وكان يحيى بن غانية الامير المشهور امير مرسية وبلنسية من شرق الاندلس واليه الامر بها الامير المسلمين على بن يوسف فتجهز فى خمسمائة فارس وكان عبد الله بن عياض صاحب مدينة لاردة فتجهز فى مائتى فارس فاجتمعوا وحملوا الميرة وساروا حتى اشرفوا على مدينة افراغة وجعل الزبير الميرة امامه وابن غانية امام الميرة وابن عياض امام ابن غانية وكان شجاعا وكذلك جميع من معه وكان ابن ردمير فى اثنى عشر الف فارس فاحتقر جميع الواصلين من المسلمين فقال لاصحابه اخرجوا وخذوا هذه الهدية التى ارسلها المسلمون اليكم وادركه العجب ونفذ قطعة كبيرة من جيشه فلما قربوا من المسلمين حمل عليهم ابن عياض وكسرهم ورد بعضهم على بعض وقتل فيهم والتحم القتال وجاء ابن ردمير بنفسه وعساكره جميعا مدلين بكثرتهم وشجاعتهم فحمل ابن غانية وابن عياض فى صدورهم واشتد الامر بينهم وعظم القتال فكثر القتل فى الفرنج وخرج فى الحال اهل افراغة جميعهم ذكرهم وانثاهم صغيرهم وكبيرهم الى خيام الفرنج فاشتغل الرجال بقتل من وجدوا فى العسكر واشتغل النساء بالنهب وحملوا جميع ما وجدوه هنالك الى المدينة من قوت وعدد وآلات وسلاح وغير ذلك وبينما المسلمون والفرنج فى القتال اذ وصل اليهم الزبير فى عسكره فانهزم ابن ردمير وعسكره ولم يسلم منهم الا القليل ولحق ابن ردمير بمدينة سرقسطة فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مضجوعا بعد عشرين يوما من الهزيمة وكان أشد ملوك الفرنج باسا وأكثرهم تجردا لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا كان ينام على طارقته بغير وطاء وقيل له هلا تسريت من بنات اكابر المسلمين اللاتى سبيت منهم فقال الرجل المحارب ينبغى ان يعاشر الرجال لا النساء واراح الله منه وكفى المسلمين شره

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى شعبان زلزلت الارض بالعراق والموصل وبلاد الجبل وغيرها وكانت الزلزلة شديدة وهلك فيها كثير من الناس والله أعلم

(ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان)

فى هذه السنة وصل برتقش الزكوى من عند السلطان مسعود يطالب الخليفة بما كان قد استقر على المسترشد من المال وهو أربعمائة الف دينار فذكر انه لاشئ عنده وان المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب ثم بلغ الراشد بالله ان برتقش يريد التهجم على دار الخلافة وتفتيشها ليأخذ المال فجمع العساكر لمنعها وأمر عليهم كج ابه وأعاد عمارة السور فلما علم برتقش بذلك اتفق هو وبك ابه شحنة بغداد وهو من أمراء السلطان على ان يهجموا على دار الخلافة يوم الجمعة فبلغ ذلك الراشد بالله فاستعد لمنعهم وركب برتقش ومعه العسكر والامراء البكجية

وممد

ضجة من تحز المناصل * وضيقا بوخز العوالى والعوامل * وتداعوا بجملة تكشف عنهم غمة القتال * بفصل الادبار أو الاقبال * فطرحوا الميمنة على الميسرة وهم يظنون وراء ذلك ظنونا * ويخطبون من بنات الامانى أبكارا وعونا * وأبى الله الا أن يعكس عليهم ماظنوه * ويحيق بهم وبال ماسنوه * حين ركبوا من ولى النعمة ما ركبوه * اخفارا لذمته * وانكارا لحرمته * واذالة لحشمته * واضاعة لحق نعمته * وألهم الامير سيف الدولة أن يزحف اليهم بسواد موقفه فلم يك الا صدمة واحدة حتى زالت الاقدام عن مقارها * وتهاوت الرقاب عن مزارها * وجعلت تتساقط أشخاص الالويه والمطارد * وتبرد النفوس عن ضرب السيوف البوارد * واستمرت الهزيمة بالظلمة عند اعتكار الظلام * فطاروا بين الاقطار كل مطار * وسفت بهم سافية الدمار والادبار * فلم يلتق منهم بعدها اثنان عند تنازل الاقران * وتناوب الضراب والطعان * ذلك ذكرى للذاكرين * وكذلك

ومحمد بن عكر فى نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فاخرجوا عسكر السلطان الى دار السلطان فساروا الى طريق خراسان ثم انحدر بك ابه الى واسط وسار برتقش الى البندنيجين ونهبت العامة دار السلطان

(ذكر اجتماع اصحاب الاطراف على حرب مسعود ببغداد وخروجهم عن طاعته)

فى هذه السنة اجتمع كثير من الامراء وأصحاب الاطراف على الخروج عن طاعة السلطان مسعود فسار الملك داود بن السلطان محمود فى عسكر اذربيجان الى بغداد فوصلها فى رابع صفر ونزل بدار السلطان ووصل اتابك عماد الدين زنكى بعده من الموصل ووصل برتقش بازدار صاحب قزوين وغيرهما والبقش الكبير صاحب اصفهان وصدقة بن دبيس صاحب الحلة ومعه عنتر بن أبى العسكر الجاوانى يدبره ويتم نقص صباه وابن برسق وابن الاحمديلى وخرج اليهم من عسكر بغداد كج ابه والطرنطاى وغيرهما وجعل الملك داود فى شحنكية بغداد برتقش بازدار وقبض الخليفة الراشد بالله على ناصح الدولة ابى عبد الله الحسن بن جهير استاذ الدار وهو كان السبب فى ولايته وعلى جمال الدولة اقبال المسترشدى وكان قدم اليه من تكريت وعلى غيرهما من اعيان دولته فتغيرت نيات اصحابه عليه وخافوه فاما جمال الدولة فان اتابك زنكى شفع فيه شفاعة تحتها الزام فاطلق وصار اليه ونزل عنده وخرج موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين ابى الرضا بن صدقة الى عماد الدين لتهنئته بالقدوم فاقام الوزير عنده وسأله ان يمنعه من الخليفة فاجابه الى ذلك وعاد الموكب بغير وزير وارسل زنكى من حرس دار الوزير من النهب ثم اصلح حاله مع الخليفة واعاده الى وزارته وكذلك ايضا عبر عليه قاضى القضاة الزينبى وسار معه الى الموصل ثم ان الخليفة جد فى عمارة السور فارسل له الملك داود من قلع أبوابه واخرب قطعة منه فانزعج الناس ببغداد ونقلوا اموالهم الى دار الخلافة وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب للملك داود وجرت الايمان بين الخليفة والملك داود وعماد الدين زنكى وارسل الخليفة الى اتابك زنكى مائتى الف دينار اينفقها ووصل الملك سلجوق شاه الى واسط فدخلها وقبض على الامير بك ابه ونهب ماله وانحدر أتابك زنكى اليه لدفعه عنها واصطلحا وعاد زنكى الى بغداد وعبر الى طريق خراسان وحث على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود وسار الملك داود نحو طريق خراسان فنهب العسكر البلاد ووصلت الاخبار بمسير السلطان مسعود الى بغداد وفارق الملك داود واتابك زنكى فعاد اتابك زنكى الى بغداد وفارق الملك داود واظهر له انه يمضى الى مراغة اذا فارق السلطان مسعود همذان فبرز الراشد بالله الى ظاهر بغداد اوّل رمضان وسار الى طريق خراسان ثم عاد بعد ثلاثة ايام ونزل عند جامع السلطان ثم دخل الى بغداد خامس رمضان وارسل الى داود وسائر الامراء يأمرهم بالعود الى بغداد فعادوا ونزلوا فى الخيام وعزموا على قتال السلطان مسعود من داخل سور بغداد ووصلت رسل السلطان مسعود يبذل من نفسه الطاعة والموافقة للخليفة والتهديد لمن اجتمع عنده فعرض الخليفة الرسالة عليهم فكلهم رأى قتاله فقال انهم الخليفة وانا ايضا معكم على ذلك

(ذكر ملك شهاب الدين حمص)

فى هذه السنة فى الثانى والعشرين من ربيع الاول تسلم شهاب الدين محمود صاحب دمشق

يفعل الله بالظالمين * وجفل عبد الملك بن نوح الى بخارا ومعه فائق فى اتباعه * وانتبذ بكتوزون الى نيسابور فى أشياعه * وأبو القاسم بن سيمجور الى قهستان وقد صاروا حزق مزق وعادوا شذر مذر وأصبح سيف الدولة وقد أنجز الله له وعده * ونصر جنده وجده * واسعد الله على رغم الراغمين جده * وأعلى يده * وأورى زنده * وساق اليه هدى الملك على غير مهر * سوى الشكر * ولا صداق * سوى الاستحقاق * وورث دولة آل سامان * وملك ديار خراسان * سنة تسع وثمانين وثلثمائة ورأى أن يجعل بكتوزون وأبا القاسم السيمجورى عن التجمع ثانيا * والتحدث بالالتقاء آنفا * فانحدر الى طوس فى البحر الاخضر من رجاله وأفياله وطار بكتوزون بجناح الهرب الى حدود جرجان وقفى السلطان على اثره بأرسلان الجاذب فجعل يطرده طرد الشهب أشخاص العفاريت حتى نفاه من تخوم خراسان وولاه السلطان ناحية طوس ورتبه بها فيمن ضم اليه من قواده وسار الى هراة مطالعا الاعمالها *

مدينة حمص وقلعتها وسبب ذلك ان اصحابها اولاد الامير خيرخان بن قراجا والوالى بها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر عماد الدين زنكى اليها والى اعمالها وتضييقهم على من بها من جندى وعامى فراسلوا شهاب الدين فى ان يسلموها اليه ويعطيهم عوضا عنها تدمر فاجابهم الى ذلك وسار اليها وتسلمها منهم فى التاريخ المذكور وسلم اليهم تدمر واقطع حمص مملوك جده معين الدين أنز وجعل فيها نائبا عنه ممن يثق اليه من اعيان اصحابه وعاد عنها الى دمشق فلما رأى عسكر زنكى بحلب وحماة خروج حمص عن ايديهم تابعوا الغارات الى بلدها والنهب له والاستيلاء على كثير منه فجرى بينهم عدة وقائع وارسل شهاب الدين الى زنكى فى المعنى واستقر الصلح بينهم وكف كل منهم عن صاحبه

* (ذكر الفتنة بدمشق) *

فى هذه السنة وقعت الفتنة بدمشق بين صاحبها والجند وسبب ذلك ان الحاجب يوسف بن فيروز كان اكبر حاجب عند ابيه وجده ثم انه خاف اباه شمس الملوك وهرب منه الى تدمر فلما كان فى هذه السنة سأل ان يحضر الى دمشق وكان يخاف جماعة المماليك لانه كان اساء اليهم وعاملهم اقبح معاملة وكلهم عليه حنق لاسيما فى الحادثة التى خرج فيها شمس الملوك وقد تقدمت فانه اشار بقتل جماعة برأيه وبقتل سونج بن تاج الملوك فصاروا كلهم اعداء مبغضين فلما طلب الامان والحضور الى دمشق أجيب الى ذلك فانكر جماعة الامراء والمماليك قربه وخافوه ان يفعل بهم مثل فعله الاول لم يزل يتوصل معهم حتى حلف لهم واستحلفهم وشرط على نفسه انه لا يتولى من الامور شيأ ثم انه جعل يدخل نفسه فى كثير من الامور فاتفق اعداؤه على قتله فبينما هو يسير مع شهاب الدين والى جانبه امير اسمه بزاوش يحادثه اذ ضربه بزاوش بالسيف فقتله فحمل ودفن فى تربة والده بالعقيبة ثم ان بزاوش والمماليك خافوا فلم يدخلوا البلد ونزلوا بظاهره وارسلوا يطلبون قواعد اشتطوا فيها فاجابهم الى البعض فلم يقبلوا منه ثم ساروا الى بعلبك وبها شمس الملوك محمد بن تاج الملوك صاحبها فصاروا معه فالتحق بهم كثير من التركمان وغيرهم وشرعوا فى العيث والفساد واقتضت الحال مراسلتهم وملاطفتهم واجابتهم الى ما طلبوا واستقرت الاحوال على ذلك وحلف كل منهم لصاحبه فعادوا الى ظاهر دمشق ولم يدخلوا البلد وخرج شهاب الدين صاحب دمشق اليهم واجتمع بهم وتجددت الايمان وصار بزاوش مقدم العسكر واليه الحل والعقد وذلك فى شعبان وزال الخلف ودخلوا البلد والله اعلم

* (ذكر غزاة العسكر الاتابكى الى بلاد الفرنج) *

فى هذه السنة فى شعبان اجتمعت عساكر اتابك زنكى صاحب حلب وحماة مع الامير اسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة منهم وقصدوا اعمال اللاذقية ولم يتمكن اهلها من الانتقال عنها والاحتراز فنهبوا منها ما يزيد عن الوصف وقتلوا وأسروا وفعلوا فى بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم وكان الاسرى سبعة آلاف اسير ما بين رجل وامرأة وصبى ومائة الف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم واما ما سوى ذلك من الاقمشة والعين والحلى فيخرج عن الحد واخربوا بلد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها الا القليل وخرجوا الى شيزر

وتجدد الاهد باسوالها * فلم ينشب بكتوزون حين سمع بانثناء عنانه اليها أن كر الى نيسابور فملكها ثانيا يرى انه يناضل عن دولة قد حم حمامها * وانقضت أيامها وناحت عليها اصداؤها وهامها * فلم يزد على أن جشم السلطان كلفة الكر عليه قبل أن اطمأنت به قعدته * أو جفت على طرفه لبدته * فجفل عن نيسابور على سمت أبيورد وشد السلطان عليه الطلب فركب المفازة الى مرو مبقيا بالوحاء على الحماة * ومستظهرا بالنجاة على النجاة * وخلص الى مرو فيمن أعانهم فراهة المراكب * وقوة الصبر على وعثاء تلك المهارب * ورام أن يملكها ويحتجز بها فمانعه اهلها موالاة للسلطان * وشكرا لما وسعهم من العدل والاحسان * فشن عليهم غارة شعواء * وخبطهم بالسيوف خبط عشواء * وركب مفازة آمل حتى عبر النهر الى بخارا ولما خلت خراسان من بكتوزون واصحابه سرب السلطان ارسلان الجاذب والى طوس الى قهستان لنفضها عن أبي القاسم بن سيمجور اذ كان يظن

بها معهم من الغنائم سالمين منتصف رجب فاستملأ من الاسارى والدواب وفرح المسلمون بذلك فرحا عظيما ولم يقدر الفرنج على شئ يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزا منهم ووهنا وضعفا

(ذكر وصول السلطان مسعود الى العراق وتفرق اصحاب الاطراف ومسير الراشد بالله الى الموصل)

قيل لما بلغ السلطان مسعود اجتماع الملك داود والامراء ببغداد على خلافه وخطب الملك داود ابن أخيه السلطان محمود جمع العساكر وسار الى بغداد فنزل بالملكية فسار بعض العسكر حتى شار فوا عسكره وطارد وهم وكان فى الجماعة زين الدين على امير من امراء اتابك زنكى ثم عادوا ووصل السلطان فنزل على بغداد وحصرها وجميع العساكر فيها وثار العيارون ببغداد وسائر محالها وافسدوا ونهبوا وقتلوا حتى انه وصل صاحب لاتابك زنكى ومعه كتب فخرجوا عليه واخذوها منه وقتلوه فحضر جماعة من اهل المحال عند الاتابك زنكى واشاروا عليه بنهب المحال الغربية فليس فيها غير عيار ومفسد فامتنع من ذلك ثم ارسل بنهب الحريم الطاهرى فاخذ منه من الاموال الشئ الكثير وسبب ذلك ان العيارين فيه وأخذوا أموال الناس ونهبت العساكر غير الحريم من المحال وحصرهم السلطان نيفا وخمسين يوما فلم يظفر بهم فعاد الى النهروان عازما على العود الى همدان فوصله طرنطاى صاحب واسط ومعه سفن كثيرة فعاد اليها وعبر فيها الى غربى دجلة وأراد العسكر البغدادى منعه فسبقهم الى العبور واختلفت كلمتهم فعاد الملك داود الى بلاده فى ذى القعدة وتفرق الامراء وكان عماد الدين زنكى بالجانب الغربى فعبر اليه الخليفة الراشد بالله وسار معه الى الموصل فى نفر يسير من اصحابه فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكى بغداد سار اليها واستقر بها ومنع اصحابه من الاذى والنهب وكان وصوله منتصف ذى القعدة فسكن الناس واطمأنوا بعد الخوف الشديد وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التى حلف بها الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده انى متى جندت أوخرجت أولقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الامر فافتوا بخروجه من الخلافة وقيل غير ذلك وسنذكره فى خلافة المقتفى لامر الله وكان الوزير شرف الدين على بن طراد وصاحب المخزن كمال الدين بن البقشلانى وابن الانبارى مع السلطان لانهم عنده مذ اسرهم مع المسترشد بالله فقدحوا فى الراشد ووافقهم على ذلك اصحاب المناصب ببغداد الا اليسير لانهم كانوا يخافونه وكان قد قبض بعضهم وصادر بعضا واتفقوا على ذمه فتقدم السلطان بخلعه واقامة من يصلح فخلع وقطعت خطبته فى بغداد فى ذى القعدة وسائر البلاد وكانت خلافته احد عشر شهرا واحد عشر يوما وقتله الباطنية على مانذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر خلافة المقتفى لامر الله)

لما قطعت خطبة الراشد بالله استشار السلطان جماعة من اعيان بغداد منهم الوزير على بن طراد وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح ان يلى الخلافة فقال الوزير احد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال من هو قال من لا اقدر ان افصح باسمه لئلا يقتل فتقدم اليهم بعمل محضر فى خلع الراشد فعملوا محضرا ذكروا فيه ما ارتكبه من اخذ الاموال واشياء تقدح فى الامامة ثم

القلنون فى تدبيره ويطمع فى الارتياش عن تكسيره فواقعه بها وطرده الى نواحى طبس عنها وولى السلطان أخاه الامير نصر ابن ناصر الدين سبكتكين قيادة الجيوش بخراسان ورتبه بنيسابور على ما كان يليه آل سيمجور على قديم الزمان وامتد الى بلخ مستقر أبيه ناصر الدين فاتخذها حضرة الملك ودار السلام ولما انتهى السلطان الى بعض حدود مروالروذ منصرفه اليها ركب على رسم التصيد فى خف من العدد ومعه أخوه اسمعيل بن ناصر الدين وقائد من قواد أبيه يعرف بنوشتكين كاج قد وتره احساسه بما آل أمره على يده لاغبراذ كان كاحد رفقائه فى الاثبات والاطلاق والاحسان والارفاق فبينا السلطان فى هزة الاقتناص اذحانت منه التفاتة فاذا به قابضا على قبيعة سيفه يروم انتضاءه وقد رمى وجهه أخيه اسمعيل بطرفه يطالب ايماءه ولاح للسلطان انكار اسمعيل عليه بدلائل رمزه وايماضه وشواهد ارتياعه وامتعاضه غير ان استشارته اياه فيما اجتناه قد فرشت له بساط التهمة وجرحت منه جارحة الثقة

كتبوا فتوى ما تقول العلماء فيمن هذه صفته هل يصلح للامامة أم لا فافتوا ان من هذه صفته
لا يصلح ان يكون اماما فلما فرغوا من ذلك أحضروا القاضى أبا طاهر بن الكرخى فشهدوا عنده
بذلك فحكم بفسقه وخلعه وحكم بعده غيره ولم يكن قاضى القضاة حاضرا فانه كان عند اتابك
زنكى بالموصل ثم ان شرف الدين الوزير ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد بن المستظهر
بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين
الزينبى وصاحب المخزن ابن البقشلانى وغيرهما وأمر باحضار الامير أبى عبد الله بن المستظهر
من المكان الذى يسكن فيه فاحضر وأجلس فى الميمنة ودخل السلطان اليه والوزير وتحالفا
وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء وأرباب المناصب
والقضاة والفقهاء وبايعوا ثامن عشر ذى الحجة ولقب المقتفى لامر الله قيل سبب اللقب انه
رأى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يلى الخلافة بستة أيام وهو يقول له ان هذا الامر يصير
اليك فاقتف بى فلقب بذلك ولما استخلف سيرت الكتب الحكمية بخلافته الى سائر الامصار
واستوزر شرف الدين على بن طراد الزينبى فارسل الى الموصل وأحضر قاضى القضاة أبا القاسم
على بن الحسين الزينبى ابن عم الوزير وأعاده الى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه
صاحب المخزن وجرت الامور على أحسن نظام وبلغنى ان السلطان مسعودا أرسل الى
الخليفة المقتفى لامر الله فى تقرير اقطاع يكون لخاصته فكان جوابه ان فى الدار ثمانين بغلا
تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج اليه من يشرب هذا الماء ويقوم به فتقررت
القاعدة على ان يجعل له ما كان للمستظهر بالله فاجاب الى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله
لقد جعلنا فى الخلافة رجلا عظيما والمقتفى عم الراشد وهو والمسترشد ابنا المستظهر وليا الخلافة
وكذلك السفاح والمنصور اخوان وكذلك المهدى والرشيد اخوان وكذلك الواثق والمتوكل
اخوان واما ثلاثة اخوة ولوا الخلافة فالامين والمأمون والمعتصم وهم أولاد الرشيد والمكتفى
والمقتدر والقاهر بنو المعتضد والراضى والمتقى والمطيع بنو المقتدر واما اربعة اخوة ولوها
فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان لا يعرف غيرهم وحين استقرت الخلافة
للمقتفى ارسل اليه الراشد بالله رسولا من الموصل مع رسول اتابك زنكى وكان كمال الدين محمد بن
عبد الله الشهرزورى فاحضر فى الديوان وسمعت رسالته وحكى لى والدى عنه قال لما حضرت
الديوان قيل لى تبايع أمير المؤمنين فقلت امير المؤمنين عندنا فى الموصل وله فى اعناق الخلق
بيعة متقدمة وطال الكلام وعدت الى منزلى فلما كان الليل جاءتنى امرأة عجوز سرا واجتمعت
بى وابلغتنى رسالة عن المقتفى لامر الله مضمونها عتابى على ما قلته واستنزالى عنه فقلت غدا
اخدم خدمة يظهر اثرها فلما كان الغد حضرت الى الديوان وقيل لى فى تعين البيعة فقلت انا
رجل فقيه قاضى ولا يجوز لى ان ابايع الآن يثبت عندى خلع المتقدم فاحضروا الشهود
وشهدوا عندى فى الديوان بما اوجب خلعه فقلت هذا ثابت لا كلام فيه ولكن لابد لنا فى هذه
الدعوى من نصيب لان امير المؤمنين قد حصل له خلافة الله فى ارضه والسلطان فقد استراح ممن
كان يقصده ونحن باى شئ نعود فرجع الامر الى الخليفة فامر ان يعطى اتابك زنكى صريفين
ودرب هرون وجرى ملكا هى من خاص الخليفة ويزداد فى ألقابه وقال هذه قاعدة لم يسمح بها

لاحد

وبادر السلطان الى مضربه
وقد أمر بالاحتياط عليه
فى وقته وحكم فيه خواص
غلمانه فاخذته السيوف
حتى تظاهرت أعضاؤه
وتناثرت عليه أوصاله
وأجزاؤه ثم دعا السلطان
باخيه اسمعيل فادلى بعذره
وبجد العلم بما أبداه الخائن
الحائن من خائنة سره
وغدره وجرت مخاوضات
ومراسلات اقتضاه
آخرها أن يستوثق منه
لنفسه وملكه اذ كان
لا يلتقى سيفان فى غمد ولا
يجتمع فحلان فى شول
وبلغنى ان السلطان بعد
استنزاله اياه عن القلعة
بغزنة بسط منه فى بعض
مجالس انسه وباحثه
بلسان الاستدراج عند
حث السقاة عما كان
ينويه فى معاملته أن لو ملك
من أمره ما ملكه هو منه
فحمله سلامة صدره
ونشوة خمره على أن قال
كان رأيى فيك ان أوعز بك
الى بعض القلاع موسعا
عليك فيما تقترحه من دار
وغلمة وجوار ورزق على
قدر الكفاية دارّ فلما
ارتاب السلطان عند
الحادثة به عامله بعين ما نواه
وقابله بجنس ما أبداه
واستودعه والى الجوزجان
أبا الحرث محمد كما يشتهيه

لاحد من زعماء الاطراف ان يكون لهم نصيب من خاص الخليفة وكانت بيعة كمال الدين سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ولما عاد كمال الدين الشهرزورى سير على يده المحضر الذى عمل بخلع الراشد فحكم به قاضى القضاة الزينبى بالموصل وكان عند اتابك زنكى

* (ذكر عدة حوادث) *

في هذه السنة عزل السلطان مسعود وزيره شرف الدين انوشروان بن خالد وعاد الى بغداد وقام بداره معزولا ووزر من بعده كمال الدين أبو البركات بن سلمة الدركزينى وهو من خراسان وفيها ثار العيارون ببغداد عند اجتماع العساكر بها وفتكوا فى البلد ونهبوا الاموال ظاهرا وكثر الشر فقصد الشحنة شارع دار الرقيق وطلب العيارين فثار عليه أهل المحال الغربية فقاتلهم وأحرق الشارع فاحترق فيه خلق كثير ونقل الناس أموالهم الى الحريم الظاهرى فدخله الشحنة ونهب منه مالا كثيرا ثم وقعت فتنة ببغداد بين أهل باب الازج و بين أهل المأمونية وقتل بينهم جماعة ثم اصطلحوا وفيها سار قراسنقر فى عساكر كثيرة فى طلب الملك داود بن السلطان محمود فاقام السلطان مسعود ببغداد ولم يزل قراسنقر يطلب داود حتى أدركه عند مراغة فالتقيا وتصافا واقتتل العسكران قتالا عظيما فانهزم داود وأقام قراسنقر باذربيجان واما داود فانه قصد خوزستان فاجتمع عليه هناك عساكر كثيرة من التركمان وغيرهم فبلغت عدتهم نحو عشرة آلاف فارس فقصد تستر وحاصرها وكان عمه الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد بواسط فارسل الى أخيه السلطان مسعود يستنجده فامده بالعساكر فسار الى داود وهو يحاصر تستر فتصافا فانهزم سلجوق شاه وفيها توفى محمد بن حمويه أبو عبد الله الجوينى وهو من مشايخ الصوفية المشهورين وله كرامات كثيرة ورواية الحديث وتوفى أيضا محمد بن عبد الله ابن أحمد بن حبيب العامرى الصوفى مصنف شرح الشهاب وأنشد لما احتضر

ها قد مددت يدى اليك فردها * بالعفو لا بشماتة الاعداء

وتوفى أيضا أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد الفراوى الصاعدى راوى صحيح مسلم عن عبد الغافر الفارسى وطريقه اليوم أعلى الطرق واليه الرحلة من الشرق والغرب وكان فقيها مناظرا طريفا يخدم الغرباء بنفسه وكان يقال الفراوى الف راوى رحمه الله ورضى عنه

(ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وخمسمائة)

* (ذكر تفرق العساكر عن السلطان مسعود) *

في هذه السنة فى المحرم اذن السلطان مسعود للعساكر التى عنده ببغداد بالعود الى بلادهم لما بلغه ان الراشد بالله قد فارق اتابك زنكى من الموصل فانه كان يتمسك بالعساكر عنده خوفا ان ينحدر به الى العراق فيملكه عليه فلما أراد أن يأذن للامير صدقة بن دبيس صاحب الحلة زوجه ابنته تمسكا به وقدم على السلطان مسعود جماعة من الامراء الذين حاربوه مع الملك داود منهم البقش السلاحى وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر الخمارتكين شحنة همذان فرضى عنهم وأمنهم وولى البقش شحنكية بغداد فعسف الناس وظلمهم وكان السلطان مسعود بعد تفرق العساكر عنه قد بقى معه الف فارس وتزوج الخليفة فاطمة أخت السلطان مسعود فى رجب والصداق مائة ألف دينار وكان الوكيل فى قبول النكاح وزير

عمتعا بمثل ما كان يذويها فلله هذا الفعال الذى طرز ديباجة الكرم وغير فى وجه مساعى ملوك الامم وقد يستغرب هذا الاسماح من وجه وان كان لا يستبدع من آخر لان هناك عاطفة القربى والرحم ولكن الشأن فى الاجانب الذين تغلق رقابهم الاجرام الفادحة والجنايات الفاحشة كيف يسلط فيهم رأيه على هواه ويستبقى الجانى بما جناه فلم يسمع بأعف منه فى الجنايات سفا ولا أحسن على فورة الزلات صبرا واحتج لهذه الخصلة الفاضلة بان الملك الحازم من يسلب الجانى فى حال سخطه ما يمكنه الوفاء بعينه أو بمثله عند رضاه وجرح المال يؤسى بالتعويض والاخلاف فاما النفوس فليس لاتلافها من تلاف

* (ذكر الخلع التى أفاضها القادر بالله أمير المؤمنين على السلطان يمين الدولة وأمين الملة أنار الله برهانهما) *

أوجب القادر بالله أمير المؤمنين له خلعا لم يسمع بمثلها محمولة من دار الخلافة ولقبه فى كتابه يمين الدولة وأمين الملة لقبا كان مصونا فى صدف الشرف لم تنله أيدى الغاصة قط على كثرة

الخليفة على بن طراد الزينبي والوكيل عن السلطان وزيره الزركزيني ووثق السلطان حيث صار الخليفة وصدقة بن دبيس بن صدقة صهريه وحيث سار الراشد بالله من عند زنكي الاتابك والله أعلم

(ذكر عزل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان)

في هذه السنة في جمادى الاولى هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين الله العلوي صاحب مصر وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة وكان نصرانيا أرمنيا فتمكن في البلاد واستعمل الارمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والارمن الذين ولاهم وطمعوا فيهم فلم يكن في أهل مصر من أنف من ذلك الارضوان بن الريحيني فانه لما ساءه ذلك وأقلقه جمع جمعا كثيرا وقصد القاهرة فسمع به بهرام فهرب الى الصعيد من غير حرب ولا قتال وقصد مدينة اسوان فمنعه واليها من الدخول اليها وقاتله فقتل السودان من الارمن كثيرا فلما لم يقدر على الدخول الى اسوان أرسل الى الحافظ يطلب الامان فامنه فعاد الى القاهرة فسجن بالقصر فبقي مدة ثم ترهب وخرج من الحبس واما رضوان فانه وزر للحافظ ولقب بالملك الافضل وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك ثم فسد ما بينه و بين الحافظ فعمل الحافظ في اخراجه فثار الناس عليه منتصف شوال في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وهرب من داره وتركها بما فيها فنهب الناس منها مالا يحد ولا يحصى وركب الحافظ فسكن الناس ونقل ما بقي في دار رضوان الى قصره واما رضوان فسار يريد الشام يستنجد الاتراك ويستنصرهم فارسل اليه الحافظ الامير ابن مصال ليرده بالامان والعهد انه لا يؤذيه فرجع الى القاهرة فحبسه الحافظ عنده في القصر وقيل انه توجه الى الشام وهو الصحيح وقصد صرخد فوصل اليها في ذي القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فاكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار الى مصر سنة اربع وثلاثين وخمسمائة ومعه عسكر فقاتل المصريين عند باب النصر وهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام ثلاثة أيام فتفرق عنه كثير ممن معه فعزم على العود الى الشام فارسل اليه الحافظ الامير ابن مصال فرده وحبسه عنده في القصر وجمع بينه و بين عياله وأهله فاقام في القصر الى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل الى الجيزة فحشد وجمع المغاربة وغيرهم وعاد الى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الاقمر فارسل الى الحافظ يطلب منه مالا ليفرقه على عادتهم فانهم كانوا اذا وزر وزير أرسلوا اليه عشرين الف دينار ليفرقها فارسل الحافظ عشرين الف دينار فقسمها وكثر عليه الناس وطلب زيادة فارسل اليه عشرين الف دينار ففرقها فتفرق الناس وخذوا عنه فاذا الصوت قد وقع وخرج اليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانه فقاتلوهم فقام ليركب فقدم اليه بعض أصحابه فرسا ليركبه فلما اراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل راسه الى الحافظ فارسله الى زوجته فوضع في حجرها فالقته وقالت هكذا يكون الرجال ولم يستوزر الحافظ احدا وباشر الامور بنفسه الى ان مات

(ذكر فتح المسلمين حصن وادي ابن الاحمر من الفرنج)

الطلاب وتنافس الملوك في الالقاب فتبوأ سرير الملك واجتاب خلعة المجد وأذاع شعار الطاعة لامير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وقام بين يديه أمراء خراسان سلاطين مقيمين رسم الخدمة وملتزمين حكم الهيبة وأجلسهم بعد الاذن العام على مجالس الانس وأمر لكل منهم ولسائر غلمانه وخاصته ووجوه أوليائه وحاشيته بصابة يومه من روائع الخلع والصلات *ونفائس الاحبية والكرامات* بما لم يتسع لمثله ملك ملك ولم يف ببعضه ضمير أمير واستجابت خراسان لامره وفرعت منابرها بذكره واتسقت الامور عن آخرها في كنف ايالته واستوسقت الاعمال في ضمن كفالته وفرض على نفسه في كل عام غزوة في الهند ينصر بها الدين ويقمع أعداء الله الملحدين فكتب الله أجره وأحسن نصره كذلك قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم

(ذكر انصراف عبد الملك بن نوح الى بخارا)

ولما وصل عبد الملك بن نوح الى بخارا في الفل

وفي هذه السنة في رجب سار عسكر دمشق مع مقدمهم الامير بزاوش الى طرابلس الشام فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان أيضا خلق كثير فلما سمع القمص صاحبها بقربهم من ولايته سار اليهم في جموعه وحشوده فقاتلهم وانهزم الفرنج وعادوا الى طرابلس في صورة سيئة قد قتلت فرسانهم وشجعانهم فلما عادوا انهب المسلمون من أعمالهم أكثرها وحصروا حصن وادي ابن الاحمر وضيقوا عليه فملكوه عنوة ونهبوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وسبوا الحريم والذرية وأسروا الرجال فاشتروا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون الى دمشق سالمين والله أعلم

(ذكر حصار زنكي مدينة حمص)

في هذه السنة في شعبان سار اتابك زنكي الى مدينة حمص وقدم اليها حاجبه صلاح الدين محمد الباغيسياني وهو أكبر أمير معه وكان ذا مكر وحيل أرسله ليتوصل مع من فيها ليسلموها اليه فوصل اليها وفيها معين الدين أنز وهو الوالي عليها والحاكم فيها وهو أيضا أكبر أمير بدمشق وحمص اقطاعه كما سبق ذكره فلم ينفذ فيه مكره فوصل حينئذ زنكي اليها وحصرها وعاود مراسلة أنز في التسليم غير مرة تارة بالوعد وتارة بالوعيد واحتج بانها ملك صاحبه شهاب الدين وانها بيده أمانة ولا يسلمها الا عن غلبة فاقام عليها الى العشرين من شوال ورحل عنها من غير بلوغ غرض الى بعرين فحصرها وكان منه ومن الفرنج ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك زنكي قلعة بعرين وهزيمة الفرنج)

وفي هذه السنة في شوال سار اتابك زنكي من حمص كما ذكرناه وحصر قلعة بعرين وهي للفرنج تقارب مدينة حماة وهي من أمنع الحصون وأحصنها فلما نزل عليها قاتلها وزحف اليها فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا في قضهم وقضيضهم وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم الى اتابك زنكي ليرحلوه عن بعرين فلم يرحل وصبر لهم الى أن وصلوا اليه فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم فحصرهم المسلمون ومنع اتابك زنكي عنهم كل شئ حتى الاخبار فكان من به منهم لا يعلم شيأ من أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده ثم ان القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين وأعلموهم ان زنكي ان أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم الحامي عنها وان المسلمين ليس لهم نية الا قصد البيت المقدس فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم وكان منهم ما نذكره واما زنكي فانه جد في قتال الفرنج فصبروا وقلت عليهم الميرة والذخيرة فانهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا يعتقدون ان أحدا يقدر عليهم بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد بالشام فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم وأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ويتركهم يعودون الى بلادهم فلم يجبهم الى ذلك فلما سمع بقرب ملك الروم من الشام واجتماع من بقي من الفرنج أعطى لمن في الحصن الامان وقرر عليهم تسليم الحصن ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها اليه فاجابوه الى ذلك فخرجوا وسلموا اليه فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم وكان لا يصل اليهم شئ من الاخبار

ومعه فائق ونالاحق به بكتوزون في أصحابه وأولياء عبد الملك في مضامته طمعوا آنفا في الاستقلال* وتكهنوا لانفسهم بطالع الاقبال* وتحدثوا بالاحتشاد لانف القتال* واخترم من بينهم فائق في شعبان سنة تسع وثمانين وثلثمائة وهو وجه الرزمة وطراز الحله* وعمدة الجمله* والملقب بعميد الدوله* فتمكن الانخزال من صدورهم* وسرى الانحلال في أمورهم* وانحدر ايلك الخان الى باب بخارا يظهر لعبد الملك وسائر أجناده وانجاده موالاة خداع *واحتيال ومماﻻة استدراج واغتيال* وهم يظنون استظهارا على ما عراهم* واحتياطا لما يشد عراهم* مغرورين عن واجب الاستبصار *والاحتراس عن حبائل الاوتار* حتى آنسهم بلطائف بره واقباله* وأطمعهم بزخارف أقواله وأفعاله* وركب اليه بكتوزون وينالتكين الفائق وسائر قواد عبد الملك صباح يوم فلما اطمأن بهم المجلس أمر باعتقالهم والقبض على أصحابهم ودوابهم* واستلاب أسلحتهم وأسبابهم* فلم ينج منهم الا الشارد الشارد* والنادر

البتة فلهذا سلموه وكان زنكى فى مدة مقامه عليهم فتح المعرة وكفرطاب من الفرنج فكان أهلها وأهل سائر الولايات التى بينها وبين حلب وحماة مع أهل بعرين فى الخزى لان الحرب بينهم قائمة على ساق والنهب والقتل لايزال بينهم فلما ملك أمن الناس وعمرت البلاد وعظم دخلها وكان فتحها مبينا ومن رآه علم صحة قولى ومن أحسن الاعمال ما عمله زنكى مع أهل المعرة فان الفرنج لما ملكوها كانوا قد أخذوا أملاكهم فلما فتحها زنكى الآن حضر من بقى من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم فطلب منهم كتبها فقالوا ان الفرنج أخذوا كل مالنا والكتب التى للاملاك فيها فقال اطلبوا دفاتر حلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم اليه ففعلوا ذلك واعاد على الناس املاكهم وهذا من احسن الافعال واعدلها

(ذكر خروج ملك الروم من بلاده الى الشام)

قد تقدم ان الفرنج ارسلوا الى ملك القسطنطينية يستصرخون به ويعرّفونه مافعله زنكى فيهم ويحرضونه على لحاق البلاد قبل ان تملك ولا ينفعه حينئذ المجىء فتجهز وسار مجدا فابتدأ وركب البحر وسار الى مدينة انطاكية وهى له على ساحل البحر فارسى فيها واقام ينتظر وصول المراكب التى فيها اثقاله وسلاحه فلما وصلت سار عنها الى مدينة نيقية فحصرها وان اصحابها صالحوه على مال يؤدونه اليه وقيل بل ملكها وسار عنها الى مدينة اذنة ومدينة المصيصة وهما بيد ابن ليون الارمنى صاحب قلاع الدروب فحصرهما وملكهما ورحل الى عين زربة فحصرها وملكها عنوة وملك تل حمدون وحمل اهله الى جزيرة قبرس وعبر مينا الاسكندرية وخرج الى الشام فحصر مدينة انطاكية فى ذى القعدة وضيق على اهلها وبها صاحبها الفرنجى ريمند فترددت الرسل اليهم ومشوا بينهم فتصالحا ورحل عنها الى بغراس ودخل منها الى بلد ابن ليون الارمنى فبذل له ابن ليون اموالا كثيرة ودخل فى طاعته والله اعلم

(ذكر عدة حوادث) •

فى هذه السنة رابع وعشرين فى ايار ظهر بالشام سحاب اسود واظلمت له الدنيا وصار الجو كالليل المظلم ثم طلع بعد ذلك سحاب احمر كأنه النار اضاءت له الدنيا وهبت ريح عاصفة القت كثيرا من الشجر وكان اشد ذلك بحوران ودمشق وجاء بعده مطر شديد وبرد كبار وفيها عاد مؤيد الدين ابو الفوارس المسيب على بن الحسين المعروف بابن الصوفى من صرخد الى دمشق وكان قد اخرج هو واهله من دمشق الى صرخد فبقوا فيها الى الآن وعادوا وولى ابو الفوارس الرياسة بدمشق وحكم فيها حكما ماضيا وكان ذا رياسة عظيمة ومروأة ظاهرة وفيها كثرت الامراض ببغداد وكثر الموت فجأة باصفهان وهمذان وفيها سار اتابك زنكى الى دقوقا فحصرها وملكها بعد ان قاتل على قلعتها قتالا شديدا وفيها توفى ابو سعيد احمد بن محمد ابن ثابت الخجندى رئيس الشافعية باصفهان وتفقه على والده ودرّس بالنظامية باصفهان وتوفى ابو القاسم هبة الله بن احمد بن عمر الحريرى ومولده يوم عاشوراء سنة خمس وثلاثين واربعمائة وهو آخر من روى عن ابى الحسن زوج الحرة وقد روى الخطيب ابو بكر بن ثابت عن زوج الحرة ايضا وكانت وفاة الخطيب سنة ثلاث وستين واربعمائة

(ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة)

المبادر* وبلغ الخبر عبد الملك* فوجد عدته قليله وقوته مستحيله* فلم يجد غير الاستخفاء حيله* ودخل ايلك بخارا يوم الثلاثاء العاشر من ذى القعدة سنة تسع وثمانين وثلثمائة ونزل دار الامارة وبث على عبد الملك عيون الطلب* وطلائع الرغب والرهب* حتى ظفر به فحمله الى أوزكند فمات بها وطفئت بقية الشعلة من دولة آل سامان* بما وراء النهر وأطراف خراسان* فصارت كأن لم تغن بالامس كدأب الدول الماضيه* فى القرون الخاليه* ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون

(ذكر خروج ابى ابراهيم اسمعيل بن نوح المنتصر وماجرى بينه وبين ايلك الخان بما وراء النهر وبين صاحب الجيش ابى المظفر نصر بن ناصر الدين بخراسان)

كان سبب خروجه انه لما تمكن ايلك الخان من بخارا قبض على ابى الحرث المكحول وعبد الملك وابى ابراهيم المنتصر وابى يعقوب بنى نوح بن منصور الرضى وعلى اعمامهم ابى زكريا وابى سليمان وابى صالح الغازى وغيرهم من

(ذكر ملك اتابك زنكي حمص وغيرها من عمل دمشق)

وفي هذه السنة في المحرم وصل اتابك زنكي الى حماة وسار منها الى بقاع بعلبك فملك حصن المجدل وكان لصاحب دمشق وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وهو أيضا لصاحب دمشق وسار الى حمص فحصرها وأدام قتالها فلما نازل ملك الروم حلب رحل عنها الى سلمية فلما انجلت حادثة الروم على ما ذكرناه عاود منازلة حمص وأرسل الى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب اليه أمه ليتزوجها واسمها زمرد خاتون ابنة جاولي وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادي شقرا ونهر بردى فتزوجها وتسلم حمص مع قلعتها وحملت الخاتون اليه في رمضان وانما حمله على التزوج بها ما رأى من تحكمها في دمشق فظن انه يملك البلد بالاتصال اليها فلما تزوجها خاب أمله ولم يحصل على شيء فاعرض عنها

(ذكر وصول ملك الروم الى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين)

قد ذكرنا سنة احدى وثلاثين وخمسمائة خروج ملك الروم من بلاده وشغله بالفرنج وابن ليون فلما دخلت هذه السنة وصل الى الشام وخافه الناس خوفا عظيما وقصد بزاعة فحصرها وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب فمضى جماعة من أعيان حلب الى اتابك زنكي وهو يحاصر حمص فاستغاثوا به واستنصروه فسير معهم كثيرا من العساكر فدخلوا الى حلب ليمنعوها من الروم ان حصروها ثم ان ملك الروم قاتل بزاعة ونصب عليها منجنيقات وضيق على من بها فملكها بالامان في الخامس والعشرين من رجب ثم غدر باهلها فقتل منهم وأسر وسبى وكان عدة من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها نحو أربعمائة نفس وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى فقيل لهم ان جمعا كثيرا من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات فدخنوا عليهم وهلكوا في المغاير ثم رحلوا الى حلب من الغد في خيلهم ورجلهم فخرج اليهم احداث حلب فقاتلهم قتالا شديدا فقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم وعادوا خاسرين وأقاموا ثلاثة أيام فلم يروا فيها مطمعا فرحلوا الى قلعة الاثارب فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها تاسع شعبان فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والاسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا فلما سمع الامير اسوار بحلب ذلك رحل فيمن عنده من العسكر الى الاثارب فاوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الاسرى والسبي وعادوا الى حلب واما عماد الدين زنكي فانه فارق حمص وسار الى سلمية فنازلها وعبر ثقله الفرات الى الرقة وأقام جريدة ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة واما الروم فانهم قصدوا قلعة شيزر فانها من أمنع الحصون وانما حصروها لانها لم تكن لزنكي فلا يكون له في حفظها اهتمام وانما كانت للامير ابي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني فنازلوها وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا فارسل صاحبها الى زنكي يستنجده فسار اليه فنزل على نهر العاصي بالقرب منها بينها وبين حماة وكان يركب كل يوم ويسير الى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم ثم انه ارسل الى ملك الروم يقول له انكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوا منها الى الصحراء حتى نلتقي فان ظفرت بكم ارحت المسلمين منكم وان

باعتقالهم ورسم افراد الاخوة منهم في حجرة على حدة احتياطا لنفسه بتفريق ذات بينهم عن تمكينهم من اقتضاب الحيل واختلاق الاراجيف وارتقاب الفرص واحتال أبو ابراهيم المنتصر للتملص من معتقله في زي جارية كانت تنتابهم لمطالعة أحوالهم ومراعاة أوقات أقواتهم فكانت حاله في الخلاص موافقة لحال الكميت حين استغشى ثياب طلته* وانسل عن غمد الاعتقال بمهجته* ثم أنشأ يقول

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل
على الرغم من تلك النوابح والمشلي
على ثياب الغانيات وتحتها
صريمة رأي أشبهت سلة النصل

واستخفى المنتصر بعد خلاصه عند عجوز من أهل بخارا الى ان أيس منه الطلب ثم سار الى خوارزم كالحسام القاضب* بل الشهاب الثاقب* متجردا للانتصار* مستعينا بالله على درك الثار* وتلاحق به من ند وعار* وأنجد وغار* من بقايا القواد والاجناد السامانية في أطراف خراسان حتى اجتمع شمله

ظفر ثم استرحم واخذتم شيزر وغيرها ولم يكن له بهم قوة وانما كان يرهبهم بهذا القول واشباهه
فاشار فرنج الشام على ملك الروم بمصافقته وهونوا امره عليه فلم يفعل وقال اتظنون ان ليس له
من العسكر الا ماترون انما هو يريد ان تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين مالا حد له وكان
زنكي يرسل ايضا الى ملك الروم يوهمه بان فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه
ويرسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم ان ملك بالشام حصنا واحدا ملك
بلادكم جميعا فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها في رمضان وكان مقامه عليها اربعين
يوما وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فسار اتابك زنكي يتبع ساقة العسكر فظفر بكثير
ممن تخلف منهم واخذ جميع ماتركوه ولما كان الفرنج على بزاعة ارسل زنكي القاضي كمال
الدين ابا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري الى السلطان مسعود يستنجده ويطلب
العساكر فمضى الى بغداد وانهى الحال الى السلطان وعرفه عاقبة الاهمال وانه ليس بينه وبين
الروم الا ان تملك حلب وينحدر مع الفرات الى بغداد فلم يجد عنده حركة فوضع انسانا من
اصحابه يوم جمعة فمضى الى جامع القصر ومعه جماعة من رنود العجم وامرهم ان يثوروا بهم اذا
طلع الخطيب المنبر ويصيح ويصيحون معه واسلاماه وادين محمداه ويشق ثيابه ويرمي
عمامته من راسه ويخرج الى دار السلطان والناس معه يستغيثون كذلك ووضع انسانا آخر
يفعل بجامع السلطان مثله فلما صعد الخطيب المنبر قام ذلك الرجل ولطم راسه والقى عمامته
وشق ثوبه واولئك معه وصاحوا فبكى الناس وتركوا الصلاة ولعنوا السلطان وساروا من
الجامع يتبعون الشيخ الى دار السلطان يستغيثون ويبكون فخاف السلطان فقال احضروا
الي ابن الشهرزوري فاحضر فقال كمال الدين لقد خفت منه مما رأيت فلما دخلت قال لي اي
فتنة اثرت فقلت مافعلت شيأ انا كنت في بيتي وانما الناس يغارون للدين والاسلام ويخافون
عاقبة هذا التواني فقال اخرج الى الناس ففرقهم عنا واحضر غدا واختر من العسكر ماتريد
ففرقت الناس وعرفتهم ما امر به من تجهيز العساكر وحضرت الغد الى الديوان فجهزوا الي
طائفة عظيمة من الجيش فارسلت الى نصير الدين بالموصل اعرفه ذلك واخوفه من العسكر ان
طرقوا البلاد فانهم يملكونها فاعاد الجواب يقول البلاد لاشك مأخوذة فلان يأخذها
المسلمون خير من ان يأخذها الكافرون فشرعنا في التحميل واذا قد وصلني كتاب اتابك زنكي
من الشام يخبر برحيل ملك الروم ويأمرني بان لا استصحب من العسكر احدا فعرفت السلطان
ذلك فقال العسكر قد تجهزت ولابد من الغزاة الى الشام فأعد الجهد وبذل الحزم له ولاصحابه
حتى عاد العسكر ولما عاد ملك الروم عن شيزر مدح الشعراء اتابك زنكي واكثروا فمن ذلك
ماقاله المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي من جملة قصيدة اولها

بعزمك ايها الملك العظيم * تذل لك الصعاب وتستقيم

ومن جملتها هذه الابيات

الم تر ان كلب الروم لما * تبين انه الملك الرحيم
فجاء فطبق الفلوات خيلا * كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه * ودان لخطبه الخطب العظيم

حين

وكشف خيله ورجله * وركض
ارسلان بالوا الحاجب الى
بخارا فبيت الخانية بها
تحت الملاحف وشغلهم
بحقائق السيوف البوارق *
عن مجاز الاحلام الطوارق
وقبض على جعفر تكين
وعلى سبعة عشر نفسا من
أعيان القواد الخانية *
وحملهم في وثاق الاسر الى
الجرجانيه • وأفات
الباقون بجريعة الاذقان *
نحو ايلك الخان * فركب
آرسلان اكتافهم يحثهم
حث الشمال قزع
الخريف وطرحهم الى
حدود سمرقند مقتفيا
آثارهم * وكاسعا أدبارهم *
ووافته بقنطرة كوهك
تكين خان في عسكر جرار
نائبا عن ايلك في حراسة
سمرقند وما يليها فانتدب
لمناجزته * واستعان بالفيل
وسائر أصحابه على مبارزته *
فنصب له أرسلان وجها
وقفاها * وأضرم عليه
الارض كفاها * فولاه
ظهر الادبار * واتقاه
بعوذة الفرار * وغنم
ارسلان ومن معه اموالهم *
ورموا بتلك الانفال
احوالهم * وعاد ابو ابراهيم
المنتصر عند ذلك الى
بخارا فاستبشر اهلها
بمعاودته على مراده وبلغ
ايلك الخان خبره فجمع

فحين رميته بك في خميس * تيقن ان ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشا * فاحرب لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور * توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى * وليس سوى الحمام له حميم

وهي قصيدة طويلة ومن عجيب ما يحكى ان ملك الروم لما عزم على حصر شيزر سمع من بها ذلك فقال الامير مرشد بن علي صاحبها وهو ينسخ مصحفا اللهم بحق من أنزلته عليه ان قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني اليك فتوفي بعد أيام

(ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الامراء)

لما فارق الراشد بالله أتابك زنكي من الموصل سار نحو اذربيجان فوصل مراغة وكان الامير منكبرس صاحب فارس ونائبه بخوزستان الامير بوزابة والامير عبد الرحمن طغايرك صاحب خلخال والملك داود بن السلطان محمود مستشعرين من السلطان مسعود خائفين منه فتجمعوا ووافقوا الراشد على الاجتماع لتكون أيديهم واحدة ويردوه الى الخلافة فاجابهم الى ذلك الا انه لم يجتمع معهم ووصل الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد باجتماعهم فسار عنها في شعبان نحوهم فالتقوا بينجن كشت فاقتتلوا فانهزمهم السلطان مسعود وأخذ الامير منكبرس أسيرا فقتل بين يديه صبرا وتفرق عسكر مسعود في النهب واتباع المنهزمين وكان بوزابة وعبد الرحمن طغايرك على نشز من الارض فرأيا السلطان مسعودا وقد تفرق عسكره عنه فحملا عليه وهو في قلة فلم يثبت لهما وانهزم وقبض بوزابة على جماعة من الامراء منهم صدقة بن دبيس صاحب الحلة ومنهم ولد أتابك قراسنقر صاحب اذربيجان وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم وتركهم عنده فلما بلغه قتل صاحبه منكبرس قتلهم اجمعين وصار العسكران منهزمين وكان هذا من اعجب الاتفاق وقصد السلطان مسعود اذربيجان وقصد الملك داود همدان ووصل الراشد بعد الوقعة فاختلفت آراء الجماعة فبعضهم اشار بقصد العراق والتغلب عليه وبعضهم اشار باتباع السلطان مسعود للفراغ منه فان ما بعده يهون عليهم وكان بوزابة اكبر الجماعة فلم ير ذلك وكان غرضه المسير الى بلاد فارس واخذها بعد قتل صاحبها منكبرس قبل ان يمتنع من بها عليه فبطل عليهم ما كانوا فيه وسار اليها فملكها وصارت له مع خوزستان وسار سلجوق شاه ابن السلطان محمد الى بغداد ليملكها فخرج اليه البقش الشحنة بها ونظر الخادم امير الحاج وقاتلوه وكان عاجزا مستضعفا ولما قتل صدقة بن دبيس اقر السلطان مسعود الحلة على أخيه محمد بن دبيس وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا عنتر المقتول يدبره ولما كان البقش شحنة بغداد يقاتل سلجوق شاه ثار العيارون ببغداد ونهبوا الاموال وقتلوا الرجال وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون ارباب الاموال ظاهرا ويأخذون منهم ما يريدون ويحملون الامتعة على رؤس الحمالين فلما عاد الشحنة قتل منهم وصلب وغلت الاسعار وكثر الظلم منه وأخذ المستور بن بجية العيار بن فجلا الناس عن بغداد الى الموصل وغيرها من البلاد

(ذكر قتل الراشد بالله)

أحابيش الترك وصفد صفده في العدد الاثر ذكر أرسلان بالو راجعا الى المنتصر واقتضاه الاحتياط عند ذلك العبور الى آمل الشط فوافاها وجباها وضاقت به وبعسكره فركب المفازة على سمت ابيورد فملكها وسار عنها قاصدا قصد نيسابور وبها صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين فالتقيا على فضاء بين بغانى وبشخنة وذلك يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من شهر ربيع الاول سنة احدى وتسعين وثلثمائة ودارت عليهما رحا الحرب يفصلون بالبيض البوارق * ما بين الطلى والعواتق * ويضربون مفارق الهام * ضرب القدار نقيعة القدام * ولما اشتدت وطأة الحرب على صحبها * ومرت كأسها على شربها * وتكاثفت جموع أبي ابراهيم المنتصر على صاحب الجيش أبي المظفر اقتضاهم الاحتياط أن ينحازوا الى جانب هراة انتظارا للمدد * واستشرافا لما مول صنع الله في الغد * فشوا ظهور الخيل * بين ذيول الليل * حتى شابت عليهم لمته بين حدود بوزجان وتمكن المنتصر من نيسابور وانضم اليه من

لما وصل الراشد بالله الى همدان وبها الملك داود وبوزابة ومن معهما من الامراء والعساكر على ما تقدم ذكره ثم سار الى خوزستان مع الملك داود ومعهما خوارزمشاه فسار الى الجزيرة فسار السلطان مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود الى فارس وعاد خوارزمشاه الى بلاده بقي الراشد وحده فلما ايس من عساكر العجم سار الى اصفهان فلما كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة وكان في أعقاب مرض برئ منه ودفن بظاهر اصفهان بشهرستان فركب من معه فقتلوا الباطنية ولما وصل الخبر الى بغداد جلسوا للعزاء به في بيت النوبة يوما واحدا وكان أبيض أشقر حسن اللون مليح الصورة مهيبا شديد القوة والبطش قال أبو بكر الصولي الناس يقولون ان كل سادس يقوم بامر الناس من أول الاسلام لا بد من أن يخلع وربما قتل قال فتأملت ذلك فرأيته كما قيل فان أول من قام بامر هذه الامة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن رضي الله عنهم فخلع ثم معاوية ويزيد ابنه ومعاوية بن يزيد ومروان وعبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير فخلع ثم عبد الملك وأخوه سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابنا عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك فخلع وقتل ثم لم ينتظم أمر بني أمية ثم ولي السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والامين فخلع وقتل والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين فخلع وقتل والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر فخلع ثم رد ثم قتل ثم القاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع والطائع فخلع ثم القادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد فخلع وقتل قلت وفي هذا نظر لان البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان وكونه جعله بعده لا وجه له والصولي انما ذكر الى أيام المطيع لله ومن بعده ذكره غيره

(ذكر حال ابن بكران العيار)

في هذه السنة في ذي الحجة عظم أمر ابن بكران العيار ببغداد والعراق وكثرت اتباعه وصار يركب ظاهرا في جمع من المفسدين وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد فامر أبا القاسم ابن أخيه حامي باب الازج ان يشتد اليه ويلبس سراويل فتوة منه ليأمن شره وكان ابن بكران يكثر المقام بالسوادة ومعه رفيق له يعرف بابن البزاز فانتهى أمرهما الى انهما ارادا ان يضربا باسمهما سكة في الانبار فارسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبي الى الوالي ابي الكرم وقالا اما ان تقتل ابن بكران واما ان نقتلك فاحضر ابن اخيه وعرفه ما جرى وقال له اما ان تختارني ونفسك واما ان تختار ابن بكران فقال انا اقتله وكان لابن بكران عادة يجيء في بعض الليالي الى ابن اخي ابي الكرم فيقيم في داره ويشرب عنده فلما جاء على عادته وشرب اخذ ابو القاسم سلاحه ووثب به فقتله وأراح الناس من شره ثم اخذ بعده بيسير رفيقه ابن البزاز وصلب وقتل معه جماعة من الحرامية فسكن الناس واطمأنوا وهدأت الفتنة

(ذكر قتل الوزير الدركزيني ووزارة الخازن)

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره العماد ابي البركات بن سلمة الدركزيني واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الحسين الخازن وكان الكمال شهما شجاعا عادلا نافذ الحكم حسن

ثم اذا العسكر الجم الكثير * والجم الغفير * وبلغ السلطان يمين الدولة وأمين الملة خبره فاستركب خيله * من غيران يتربص بنهاره ليله * وسار سير الخبب * يطوي الارض كطي السجل للكتب * حتى انقض على نيسابور انقضاض بني الهواء * على بنات الماء * ولما تسامع المنتصر باقباله انحدر الى اسفراين في عامة رجاله * وبث أصحابه في الرساتيق لجباية أموالها * وازاحة اطماع حشمه بها * فأزعجه الطلب للحاق بشمس المعالي قابوس بن وشمكير مستصرخا اياه * ومؤملا غوثه وجدواه * فتلقاه بكل ما تمناه * ومهد له ذراه وأعطاه حتى ارضاه * وكان مما أمر بحمله اليه صفقة واحدة عشر دواب بمراكب الذهب وثلاثون بمراكب الفضة وثلاثون من العتاق الجياد بالبراقع والجلال وعشرون بغلة بمراكب الفضة والذهب وثلاثون أخرى مقرونة بخمسين جملا موقرة احمالا واثقالا من البسط النادرة * والفرش الفاخرة ومن حصر طبرستان * وسائر الطرائف المجموعة في الخزائن بجرجان * وأضيف الى ذلك ألف ألف درهم وثلاثون ألف دينار ومائة وخمسون تختا من الديابيج

السيرة ازال المكوس ورفع المظالم وكان يقيم مؤنة السلطان ووظائفه وجمع لخزائن كثيرة وكشف اشياء كثيرة كانت مستورة يخان فيها او يسرق فثقل على المتصرفين وارباب الاعمال فاوقعوا بينه وبين الامراء لاسيما قراسنقر صاحب اذربيجان فانه فارق السلطان وارسل يقول اما ان تنفذ رأس الوزير واما خدمنا سلطانا آخر فاشار من حضر من الامراء بقتله وحذروه فتنة لا تتلافى فقتله على كره منه وارسل راسه الى قراسنقر فرضي وكانت وزارته سبعة اشهر وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ووزر بعده ابو العز طاهر بن محمد البروجردي وزير قراسنقر ولقب عز الملك وضاقت الامور على السلطان مسعود واستقطع الامراء البلاد بغير اختياره ولم يبق له شئ من البلاد البتة الا اسم السلطنة لا غير

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ملك حسام الدين تمرتاش ايلغازي صاحب ماردين قلعة الهتاخ من بلاد ديار بكر اخذها من بعض بني مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها وهذا آخر من بقي فسبحان الحي الدائم الذي لا يزول ملكه ولا يتطرق اليه النقص ولا التغيير وفيها انقطعت كسوة الكعبة لما ذكرناه من الاختلاف فقام بكسوتها رامشت التاجر الفارسي كساها من الثياب الفاخرة بكل ما وجد اليه سبيل فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر الف دينار مصرية وهو من التجار المسافرين الى الهند كثير المال وفيها توفيت زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارق زوج السلطان مسعود وتزوج بعدها سفرى ابنة دبيس بن صدقة في جمادى الاولى وتزوج ابنة قاورت وهو من البيت السلجقي الا انه كان لا يزال يعاقر الخمر ليلا ونهارا فلهذا اسقط اسمه وذكره وفيها قتل السلطان مسعود بن البقش السلاحي شحنة بغداد وكان قد ظلم الناس وعسفهم وفعل ما لم يفعله غيره من الظلم فقبض عليه وسيره الى تكريت فسجنه بها عند مجاهد الدين بهروز ثم امر بقتله فلما ارادوا قتله القى بنفسه في دجلة فغرق فاخذ راسه وحمل الى السلطان وجعل السلطان شحنة العراق مجاهد الدين بهروز فعمل اعمالا صالحة منها انه عمل مسناة النهروان واشباهها وكان حسن السيرة كثير الاحسان وفيها درس الشيخ ابو منصور بن الرزاز بالنظامية ببغداد وفيها ارسل الخليفة الى اتابك زنكي في اطلاق قاضي القضاة الزينبي فأطلق وانحدر الى بغداد فخلع عليه الخليفة واقره على منصبه وفيها كان بخراسان غلاء شديد طالت مدته وعظم امره حتى اكل الناس الكلاب والسنانير وغيرهما من الدواب وتفرق اكثر اهل البلاد من الجوع وفيها توفي طغان ارسلان صاحب بدليس وارزن من ديار بكر وولي بعده ابنه قرتي واستقام له الامر وفيها في شهر صفر جاءت زلزلة عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغيرها من البلاد فخربت كثيرا منها وهلك تحت الهدم عالم كثير وفيها توفي احمد بن محمد بن ابي بكر بن ابي الفتح الدينوري الفقيه الحنبلي ببغداد وكان ينشد كثيرا هذه الابيات

تمنيت ان تمسى فقيها مناظرا * بغير عناء والجنون فنون
وليس اكتساب المال دون مشقة * تلقيتها فالعلم كيف يكون

وفيها توفي محمد بن عبد الملك بن عمر ابو الحسن الكرخي ومولده سنة ثمان وخمسين واربعمائة

التترية والسقلاطونيات العضدية * والحلل الفخرية والخزوز الطاقية * وسائر الثياب المصرية * وأمر لاهل عسكره بعشرين الفا تتم معونة لهم على عوارض حاجاتهم * وأشار على المنتصر بقصد الري اذ كانت معرضة لقصادها بتخاذل أعوانها وتوا كل أوليائها * واشتجار الفتن والاحن بين الذائدين عن فنائها * على أن عدة بولديه دارا ومنوجهر في جيوش الجبل والديلم ووجوه الاكراد والعرب ليستظهر باستخلاص تلك الولاية * وليكون ما ينويه من معاودة خراسان عن ظهر الكفاية * فقبل الاشارة * وقدم الاستخارة * وسار حتى خيم بظاهر الري فأحس أهلها منه بأم الربيق * على أريق * وفاءت الري أفلاذ كبدها فأناخوا قبالة المنتصر وبوس الكفلاء بتلك الدولة الى أرسلان بالو وأبي القاسم بن سيمجور وغيرهما من أولياء المنتصر من أطمعهم في مال يحمل اليهم سرا على أن يثنوا عنهم عنان المنتصر بوجه من وجوه اللطائف والحيل فانخدعوا لتسويلهم * وطمعوا في تأميلهم * وتنصحوا للمنتصر بأن

وكان فقيها محدثا سمع الحديث بكرخ واصفهان وهمدان وغيرها وفي شعبان منها توفي القاضي أبو العلاء صاعد بن الحسين بن اسمعيل بن صاعد وهو ابن عم القاضي أبي سعيد وولي القضاء بنيسابور بعد أبي سعيد

(ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه)

في هذه السنة في المحرم سار السلطان سنجر الى خوارزم شاه وهو ابن ملكشاه محاربا لخوارزم شاه اتسز بن محمد وسبب ذلك ان سنجر بلغه ان اتسز يحدث نفسه بالامتناع عليه وترك الخدمة له وان هذا الامر قد ظهر على كثير من أصحابه وأمرائه فأوجب ذلك قصده وأخذ خوارزم شاه فجمع عساكره وتوجه نحوه فلما قرب من خوارزم شاه في عساكره خرج خوارزم شاه اليه في عساكره فلقيه مقابلا وعبى كل واحد منهما عساكره وأصحابه فاقتتلوا فلم يكن للخوارزمية قوة بالسلطان فلم يثبتوا وولوا منهزمين وقتل منهم خلق كثير ومن جملة القتلى ولد لخوارزم شاه فحزن عليه أبوه حزنا عظيما ووجد وجدا شديدا وملك سنجر خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ولد أخيه محمد ورتب له وزيرا واتابكا وحاجبا وقرر قواعده وعاد الى مرو في جمادى الآخرة من هذه السنة فلما فارق خوارزم عائدا انتهز خوارزم شاه الفرصة فرجع اليها وكان أهلها يكرهون العسكر السنجري ويؤثرون عودة خوارزم شاه فلما عاد أعانوه على ملك البلد ففارقها سليمان شاه واختلفا بعد الاتفاق ففعل خوارزم شاه في خراسان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ما نذكره ان شاء الله

(ذكر قتل محمود صاحب دمشق وملك أخيه محمد)

في هذه السنة في شوال قتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغدكين صاحب دمشق على فراشه غيلة قتله ثلاثة من غلمانه هم خواصه وأقرب الناس اليه في خلوته وجلوته وكانوا ينامون عنده فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا فأخذ أحدهم وأخذ الآخران فصلبا وكتب معين الدين انز من دمشق الى أخيه جمال الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك وهو بها بصورة الحال واستدعاه ليملك بعد أخيه فحضر في أسرع وقت فلما دخل البلد جلس للعزاء بأخيه وحلف له الجند وأعيان الرعية وسكن الناس وفوض أمر دولته الى معين الدين انز مملوك جده وزاد في علو مرتبته وصار هو الجملة والتفصيل وأقطعه بعلبك وزوجه بأمه وكان انز خيرا عاقلا حسن السيرة فجرت الامور عنده على أحسن نظام

(ذكر ملك زنكي بعلبك)

في هذه السنة في ذي القعدة سار عماد الدين اتابك زنكي بن اقسنقر الى بعلبك فحصرها ثم ملكها وسبب ذلك ان محمودا صاحب دمشق لما قتل كانت والدته زمرد خاتون عند اتابك زنكي بحلب قد تزوجها فوجدت لقتل ولدها وجدا شديدا وحزنت عليه وأرسلت الى زنكي وهو بديار الجزيرة تعرفه الحادثة وتطلب منه ان يقصد دمشق ويطلب بثار ولدها فلما وقف على هذه الرسالة بادر في الحال من غير توقف ولا تريث وسار مجدا ليجعل ذلك طريقا الى ملك البلد وعبر الفرات عازما على قصد دمشق فاحتاط من بها واستعدوا واستكثروا من الذخائر ولم يتركوا

شيئا

قد ومثالك من بحله ملوك الشرق من آل سامان على جلالة أقدارهم * ونفاسة أخطارهم * ليجل عن مناواة قوم يدعون فيك قرابة * ويفترضون لك طاعة ومهابة * ومولاة من يجر النار الى قرصه بالتعويل عليك ومغزاه أن يحترش الافعى بيديك فله الغنم ان قدرت * وعليك الغرم ان عجزت * فلفتوا المنتصر عن رأيه * وزينوا له الملك بخراسان من ورائه * فارتحل من باب الرى يريد دامغان * وانفرد ولدا شمس المعالى عنه بنفس فحم ذلك التدبير وانحل عقد ذلك التقدير * واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال وامتد المنتصر طلقا الى نيسابور وبها صاحب الجيش أبو المظفر فأشفق من زلة القدم كالتى حدثت قبل فاحتاط بالانحياز الى بوزجان ودخل المنتصر نيسابور فى شوال سنة احدى وتسعين وثلثمائة وبث عماله فى جباية الاموال * ومطالبة من ظفر بهم من العمال * واستمد صاحب الجيش السلطان يمين الدولة وأمين الملة فرسم للحاجب الكبير التونتاش

شيأ مما يحتاجون اليه الا وبذلوا الجهد في تحصيله وأقاموا ينتظرون وصوله اليهم فتركهم وسار الى بعلبك وقيل كان السبب في ملكها انها كانت لمعين الدين انز كما ذكرناه وكان له جارية يهواها فلما تزوج ام جمال الدين سيرها الى بعلبك فلما سار زنكي الى الشام عازما على قصد دمشق سير الى انز يبذل له البذول العظيمة ليسلم اليه دمشق فلم يفعل وسار اتابك الى بعلبك فوصل اليها في العشرين من ذي الحجة في السنة فنازلها في عساكره وضيق عليها وجد في محاربتها ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عددا ترمي ليلا ونهارا فأشرف من بها على الهلاك وطلبوا الامان وسلموا اليه المدينة وبقيت القلعة وبها جماعة من الشجعان شجعان الاتراك فقاتلهم فلما أيسوا من معين ونصير طلبوا الامان فأمنهم فسلموا اليه القلعة فلما نزلوا منها وملكها غدر بهم وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم الا القليل فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وخافه غيرهم وحذروه لاسيما أهل دمشق فقالوا لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء فازدادوا نفورا وجدوا في محاربته ولما ملك زنكي بعلبك أخذ الجارية التي كانت لمعين الدين انز بها فتزوجها بحلب فلم تزل بها الى ان قتل فسيرها ابنه نور الدين محمود الى معين الدين انز وهي كانت أعظم الاسباب في المودة بين نور الدين وبين انز والله أعلم

(ذكر استيلاء قراسنقر على بلاد فارس وعوده عنها)

وفي هذه السنة جمع اتابك قراسنقر صاحب اذربيجان عساكر كثيرة وسار طالبا بثار ابيه الذي قتله بوزابة في المصاف المقدم ذكره فلما قارب السلطان مسعودا أرسل اليه يطلب منه قتل وزيره الكمال فقتله كما ذكرناه فلما قتل سار قراسنقر الى بلاد فارس فلما قاربها تحصن بوزابة منه في القلعة البيضاء ووطئ قراسنقر البلاد وتصرف فيها وليس له دافع ولا مانع الا انه لم يمكنه المقام وملك المدن التي في فارس فسلم البلاد الى الملك سلجوق شاه ابن السلطان محمود وقال له هذه البلاد لك فاملك الباقي وعاد الى اذربيجان فنزل حينئذ بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين وهزم سلجوق شاه وملك البلاد وأسر سلجوق شاه وسجن في قلعة بفارس

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في صفر توفي الوزير شرف الدين انوشروان بن خالد معزولا ببغداد وحضر جنازته وزير الخليفة فمن دونه ودفن في داره ثم نقل الى الكوفة فدفن في مشهد أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام وكان فيه تشيع وهو كان السبب في عمل المقامات الحريرية وكان رجلا عاقلا شهما دينا خيرا ووزر للخليفة المسترشد وللسلطان محمود وللسلطان مسعود وكان يستقيل من الوزارة فيجاب الى ذلك ثم يخطب اليها فيجيب كارها وفيها قدم السلطان مسعود بغداد في ربيع الاول وكان الزمان شتاء وصار يشتي بالعراق ويصيف بالجبال ولما قدمها ازال المكوس وكتب الالواح بازالتها ووضعت على ابواب الجوامع والاسواق وتقدم ان لا ينزل جندي في دار عامي من اهل بغداد الا باذن فكثر الدعاء له والثناء عليه وكان السبب في ذلك الكمال الخازن وزير السلطان وفيها في صفر كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد وكان اشدها بالشام وكانت متوالية عشرة ليال كل ليلة عشر دفعات فخرب كثير من البلاد ولاسيما حلب فان اهلها لما كثرت عليهم فارقوا البلاد والبيوت وخرجوا الى الصحراء وعدوا ليلة

والى هراة البدار اليه في معظم الجيوش من شجعان الترك وسرعان الهنود حتى اذا استظهر بذوي الغناء في حرة الهيجاء * كر عائدا الى نيسابور وتلقاهم المنتصر بارسلان بالو وأبي نصر بن محمود وأبي القاسم بن سيمجور فالتقوا على حرب تحطمت فيها الصفاح المشهورة * وتقصدت الرماح المطرورة * وعريت عندها الكواكب المستورة * ثم شاعت الهزيمة في السامانية فولوا على أدبارهم نفورا * وكان أمر الله قدرا مقدورا * ودخل صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين نيسابور وقد زينت له كالهدي * على زوجها الكفي * وأقيمت له النثارات كما تتهاوى النجوم السايرة * وتتهادى الثلوج المتطايرة * وركب المنتصر سمت أبيورد والطلب على أثره حتى وصل الى جرجان ولما تسامع الامير شمس المعالي قابوس بغيبته رماه بزهاء ألفين من أنجاد الاكراد فألجؤه الى الارتحال وآيسوه من طلب المحال فكر على ادراجه تائها في الغي * والما تر له الرأي * بظاهر الري * وقد كان

واحدة جاءتهم ثمانين مرة ولم تزل بالشام تتعاهدهم من رابع صفر الى تاسع عشره وكان معها صوت وهزة شديدة وفيها اغارت الفرنج على اعمال بانياس فسار عسكر دمشق فى اثرهم فلم يدركوهم فعادوا وفيها توفى ابو القاسم طاهر بن طاهر الشحامى النيسابورى بها ومولده سنة ست واربعين واربعمائة وكان اماما فى الحديث مكثرا عالى الاسناد وتوفى عبد الله بن احمد بن عبد القاهر بن محمد بن يوسف ابو القاسم بن أبى الحسين البغدادى بها ومولده سنة اثنتين وخمسين واربعمائة وعبد العزيز بن عثمان بن ابراهيم بن محمد الاسدى البخارى كان قاضى بخارا وكان من الفقهاء اولاد الائمة حسن السيرة وتوفى محمد بن شجاع بن أبى بكر بن على بن ابراهيم اللفتوانى الاصفهانى باصفهان فى جمادى الآخرة ومولده سنة ست وتسعين واربعمائة وسمع الحديث الكثير باصفهان وبغداد وغيرهما

(ثم دخلت سنة اربع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر حصار اتابك زنكى دمشق)

فى هذه السنة حصر اتابك زنكى دمشق مرتين فأما المرة الاولى فانه سار اليها فى ربيع الاول من بعلبك بعد الفراغ من أمرها وتقرير قواعدها واصلاح ما تشعث منها بحصرها فنزل بالبقاع وارسل الى جمال الدين محمد صاحبها يبذل اليه بلدا يقترحه ليسلم اليه دمشق فلم يجبه الى ذلك فرحل وقصد دمشق فنزل على داريا ثالث عشر ربيع الاول فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لعسكر زنكى وعاد الدمشقيون منهزمين فقتل كثير منهم ثم تقدم زنكى الى المصلى فنزل هناك ولقيه جمع كثير من جند دمشق واحداثها ورجالة الغوطة فقاتلوه فانهزم الدمشقيون واخذهم السيف فقتل فيهم واكثر واسر كذلك ومن سلم عاد جريحا وأشرف البلد ذلك اليوم على الاخذ وان يملك لكن عاد زنكى وامسك عنه عشرة ايام وتابع الرسل الى صاحب دمشق وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد فمال الى ان يسلم وامتنع غيره من اصحابه من ذلك وخوفوه عاقبة فعله وان يفعل ويغدر كما فعل باهل بعلبك فلما لم يسلموا اليه عاد القتال والزحف ثم ان جمال الدين محمدا صاحب دمشق مرض ومات ثامن شعبان وطمع زنكى حينئذ فى البلد وزحف اليه زحفا شديدا ظنا منه انه ربما يقع بين المقدمين الامراء خلاف فيبلغ به الغرض وكان ما امله بعيدا فلما مات جمال الدين ولى بعده مجير الدين ابق ولده وتولى ترتيب دولته معين الدين أنز فلم يظهر لموت ابيه اثر مع ان عدوهم على باب المدينة فلما رأى أنز أن زنكى لا يفارقهم ولا يزول عن حصرهم راسل الفرنج واستدعاهم الى نصرته وان يتفقوا على دفع زنكى عن دمشق وبذل لهم بذولا وان يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها اليهم وخوفهم من زنكى ان ملك دمشق فعلموا صحة قوله وعلموا انه ان ملكها لا يبقى لهم معه بالشام مقام وان الفرنج اجتمعوا وعزموا على المسير الى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال زنكى فحين علم زنكى بذلك سار الى حوران خامس رمضان عازما على قتال الفرنج قبل ان يجتمعوا بالدمشقيين فلما سمع الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم فلما رآهم كذلك عاد الى حصر دمشق ونزل بعذرا شماليها سادس شوال فاحرق عدة قرى من المرج والغوطة ورحل عائدا الى بلاده ووصل الفرنج الى دمشق واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكى فعادوا وفسار معين

المنتصر يعتقد على ارسلان بالولتبه عليه * واشتطاطه فى المطالب بين يديه * ومنازعته الرأى فيما ينحوه * ومراجعته القول فى كل ما يفوه به فوه * وانضاف الى ذلك اتهامه اياه بالتخاذل فى الحرب التى انهزم فيها عن وجه صاحب الجيش أبى المظفر نصر بن ناصر الدين لنفاسته على أبى القاسم السيمجورى بمكانته من اختصاصه وايثاره * وغيرته على الشركة الواقعة به فى محله ومقداره * فحمله ما احتساه من ماء الكرب على التشفى باراقة دمه والاستراح الى انتهاك روحه فقتك به فتكة آنست فتكات الاسلام * وشفت نفسه من الداء العقام * وتجمع أهل عسكره لانكار ما فعل * وانى لهم ذلك وقد سبق السيف العذل * وقام أبو القاسم على بن محمد مصانعا لهم عن المنتصر * بلسان المعتذر * حتى خمد التهابهم * وسكن هيجهم واضطرابهم * وتآمروا بينهم على قصد سرخس للاستظهار بزعيم أهلها المعروف كان أبوه بالفقيه اذ كان قد رغب للمنتصر فى ارفاده وانجاده * وايثاره بعدته وعتاده * فركبوا المسافة اليها على

الدين أتز الى بانياس فى عسكر دمشق وهى فى طاعة زنكى كما تقدم ذكره ليحصرها ويسلمها
الى الفرنج وكان واليها قد سار قبل ذلك منها بجمعه الى مدينة صور للاغارة على بلادها فصادفه
صاحب انطاكية وهو قاصد الى دمشق نجدة لصاحبها على زنكى فاقتتلا فانهزم المسلمون
واخذوا الى بانياس فقتل ونجا من سلم منهم الى بانياس وجمعوا معهم كثيرا من البقاع وغيره
وحفظوا القلعة فنازلها معين الدين فقاتلهم وضيق عليهم ومعه طائفة من الفرنج فاخذها
وسلمها الى الفرنج واما الحصر الثانى لدمشق فان اتابك لما سمع الخبر بحصر بانياس عاد الى بعلبك
ليدفع عنها من يحصرها فاقام هناك فلما عاد عسكر دمشق بعد ان ملكوها وسلموها الى الفرنج
فرق اتابك زنكى عسكره على الاغارة على حوران واعمال دمشق وسار هو جريدة مع خواصه
فنازل دمشق سحرا ولم يعلم به احد من اهلها فلما اصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتج
البلد واجتمع العسكر والعامة على السور وفتحت الابواب وخرج الجند والرجالة فقاتلوه فلم
يمكن زنكى عسكره من الاقدام فى القتال لان عامة عسكره كانوا قد تفرقوا فى البلاد والنهب
والتخريب وانما قصد دمشق لئلا يخرج منها عسكر الى عسكره وهم متفرقون فلما اقتتلوا ذلك
اليوم قتل بينهم جماعة ثم احجم زنكى عنهم وعاد الى خيامه ورحل الى مرج راهط واقام ينتظر
عودة عسكره فعادوا اليه وقد ملؤا ايديهم من الغنائم لانهم طرقوا البلاد واهلها غافلون فلما
اجتمعوا عنده رحل بهم عائدا الى بلادهم

(ذكر ملك زنكى شهرزور واعمالها)

فى هذه السنة ملك اتابك زنكى شهرزور واعمالها وما يجاورها من الحصون وكانت بيد قفجاق
ابن ارسلان تاش التركمانى وكان حكمه نافذا على قاصى التركمان ودانيهم وكلمته لا تخالف يرون
طاعته فرضا فتحامى الملوك قصده ولم يتعرضوا لولايته لانها منيعة كثيرة المضايق فعظم شانه
وازداد جمعه واتاه التركمان من كل فج عميق فلما كان هذه السنة سير اليه اتابك زنكى عسكرا
فجمع اصحابه ولقيهم فتصافوا واقتتلوا فانهزم قفجاق واستبيح عسكره وسار الجيش الاتابكى
فى اعقابهم فحصروا الحصون والقلاع فملكوها جميعها وبذلوا الامان لقفجاق فصار اليهم
وانخرط فى سلك العساكر ولم يزل هو وبنوه فى خدمة البيت على احسن قضية الى بعد سنة
ستمائة بقليل وفارقوها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة جرى بين امير المؤمنين المقتفى لامر الله وبين الوزير شرف الدين على بن طراد
الزينبى منافرة وسببها ان الوزير كان يعترض الخليفة فى كل ما يأمر به فنفر الخليفة من ذلك فغضب
الوزير ثم خاف فقصد دار السلطان فى سميرية وقت الظهر ودخل اليها واحتمى بها فارسل اليه
الخليفة فى العود الى منصبه فامتنع وكانت الكتب تصدر باسمه واستنيب قاضى القضاة الزينبى
وهو ابن عم الوزير وارسل الخليفة الى دار السلطان رسلا فى معنى الوزير فارخص له السلطان
فى عزله فحينئذ اسقط اسمه من الكتب واقام بدار السلطان ثم عزل الزينبى من النيابة وناب
سديد الدولة بن الانبارى وفيها قتل المقرب جوهر وهو من خدم السلطان سنجر وكان قد حكم
فى دولته جميعها ومن جملة اقطاعه الرى ومن مماليكه عباس صاحب الرى وكان سائر عسكر

طريق ابيورد حتى وردوها
وجبوا اموالها وارتاشوا بها
سمع لهم الزعيم بها وحين علم
صاحب الجيش باجتماعهم
على مضغ الاباطيل بينهم
دلف اليهم فى سراة الكماة
لطردهم عن شريعة الطمع
وازعاجهم عن حضانة
الامل ووصل السير
بالسرى حتى أشرف على
سرخس فى الهيئة
المنشوره * والهيبة الموفورة
وبرز المنتصر الى ظاهرها
فخيم بازائه * واستعد للقائه *
وتجايشا للقتال فاستك
مسمع الهواء من قرع
الحديد بالحديد * ورويت
صدور المواضى من موارد
الوريد * وبلغ كل من
الفريقين غاية الامكان * فى
منازلة الاقران * ومناوشة
الضراب والطعان * محاشة
عن خيوط الرقاب * وتفاديا
عن سوء الذكر على تناسخ
الاحقاب * غير ان قضاء الله
أغلب وأمره أنفذ وله
الحكم فى تبديل الابدال *
وتصريف الاحوال * ونقل
الاموال من وال الى وال *
وهبت اصحاب الجيش
أبى المظفر قبول الاقبال *
فتفرق مصف المنتصر عن
هزيمى عوابس الوجوه *
وجرحى بانياب المكروه *
ولم ينشب صاحب الجيش
أبو المظفر أن أتاه بعض

السلطان سنجر يخدمونه ويقفون ببابه وكان قتله بيد الباطنية وقف له جماعة منهم بزى النساء واستغثن به فوقف يسمع كلامهم فقتلوه فلما قتل جمع صاحبه عباس العساكر وقصد الباطنية فقتل منهم وأكثر وفعل بهم ما لم يفعله غيره ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرب بلادهم الى ان مات وفيها زلزلت كنجة وغيرها من اعمال اذربيجان واران الا ان اشدها كان بكنجة فخرب منها الكثير وهلك عالم لا يحصون كثرة قيل كان الهلكى مائتى ألف وثلاثين ألفا وكان من جملة الهلكى ابنان لقراسنقر صاحب البلاد وتهدمت قلعة هناك لمجاهد الدين بهروز وذهب له فيها من الذخائر والاموال شئ عظيم وفيها شرع مجاهد الدين بهروز فى عمل النهروانات سكرا عظيما يرد الماء الى مجراه الاول وحفر مجرى الماء القديم وخرق اليه مجراة تأخذ من ديالى ثم استحال بعد ذلك وجرى الماء ناحية من السكر وبقى السكر فى البر لا ينتفع به احد ولم يتعرض احد الى رده الى مجراه عند السكر الى وقتنا هذا وفيها انقطع الغيث ببغداد والعراق ولم يجئ غير مرة واحدة فى اذار ثم انقطع ووقع الغلاء وعدمت الاقوات وفيها فى جمادى الآخرة دخل الخليفة بفاطمة خاتون بنت السلطان مسعود وكان يوم حملها الى دار الخليفة يوما مشهودا غلقت بغداد عشرة ايام وزينت وتزوج السلطان مسعود بابنة الخليفة وفيها فى ربيع الاول توفى القاضى ابو الفضل يحيى ابن قاضى دمشق المعروف بالزكى

(ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر مسير جهاردانكى الى العراق وما كان منه)

فى هذه السنة أمر السلطان مسعود الامير اسمعيل المعروف بجهاردانكى والبقش كون خر بالمسير الى خوزستان وفارس واخذها من بوزابة واطلق لهم نفقة على بغداد فسار وافى من معهما الى بغداد فمنعهم مجاهد الدين بهروز عن دخولها فلم يقبلوا منه فارسل الى المعابر فخسفها وغرقها وجد فى عمارة السور وسد باب الظفرية وباب كلواذى واغلق باقى الابواب وعلق عليها السلاسل وضرب الخيام للمقاتلة فلما علموا بذلك عبروا بصرصر وقصدوا الحلة فمنعا منها فقصدا واسط فخرج اليهم الامير طرنطاى وتقاتلوا فانهزم طرنطاى ودخلوا واسطا فنهبوها ونهبوا بلد فرسان والنعمانية والتحق طرنطاى الى حماد بن أبى الخير صاحب البطيحة ووافقهم عسكر البصرة وفارق اسمعيل والبقش عسكرهما وصارا مع طرنطاى فضعف أولئك فصار الى تستر واستشفع اسمعيل الى السلطان فعفا عنه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة وصل رسول من السلطان سنجر ومعه بردة النبى صلى الله عليه وسلم والقضيب وكانا قد أخذا من المسترشد فأعادهما الآن الى المقتفى وفى هذه السنة توفى اتابك قراسنقر صاحب اذربيجان وارانية بمدينة اردبيل وكان مرضه السل وطال به وكان من مماليك الملك طغرل وسلمت اذربيجان وارانية الى الامير جاولى الطغرلى وكان قراسنقر عظم محله على سلطانه وخافه السلطان وفيها كان بين اتابك زنكى وبين داود سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا حرب شديد وانهزم داود وملك زنكى من بلاده قلعة بهمرد وأدركه الشتاء فعاد الى الموصل وفيها ملك الاسماعيلية حصن مصياث بالشام وكان واليه مملوكا لبنى منقذ أصحاب شيزر فاحتالوا

علية

العرب بأبى القاسم على بن محمد فى قلادة من الوهق * على بقية من الرمق * وأردف بتوزتاش الحاجب * وكان يراه المنتصر جلدة ما بين العين والحاجب * وانضمت حبالة الاسر على معظم ذلك العسكر فحملوا الى غزنة فى الاصفاد مقرنين وسار المنتصر سير المضطر لا يرى وزرا غير اعتساف المسالك * وارتكاب المهالك * على جملة لا يتميز فيها المملوك من المالك * وتقبل أبو المظفر نصر بن ناصر الدين وقدا على الله كعبه ورفع قدره * وأطعمه نصره * واطار بين الخافقين ذكره * وانشدنى ابو منصور الثعالبى لنفسه فيه يذكر ما اتيح له من هذا الفتح الرائع منظره والشائع فى الآفاق خبره

تبلجت الايام عن غرة الدهر وحلت باهل البغى قاصمة الظهر

وولى بنو الادبار ادبارهم وقد تحكم فيهم صاحب الدهر بالقهر

وقد جاء نصر الله والفتح مقبلا الى الملك المنصور سيدنا نصر

غياث الورى شمس الزمان وبدره

عليه ومكروا به حتى صعدوا اليه وقتلوه وملكوا الحصن وهو بايديهم الى الآن وفيها توفى سديد الدولة بن الانبارى واستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا نصر محمد بن محمد بن جهير وكان قبل ذلك استاذ الدار وفيها توفى برنقش بازدار صاحب قزوين وفيها فى رجب ظفر ابن الدانشمند صاحب ملطية وغيرها من تلك النواحى بجمع من الروم فقتلهم وغنم ما معهم وفيها فى رمضان سارت طائفة من الفرنج فخرج اليهم العسكر الذى بدمشق فقاتلهم فظفر المسلمون وقتلوا من الفرنج كثيرا فعادوا منهزمين وفيها بنيت المدرسة الكمالية ببغداد بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن ولما فرغت درس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل وحضره ارباب المناصب وسائر الفقهاء وفيها فى رجب مات القاضى أبو بكر بن محمد بن عبد الباقى الانصارى قاضى المارستان عن نيف وسبعين سنة وله الاسناد والعوالى بالحديث وكان عالما بالمنطق والحساب والهيئة وغيرها من علوم الاوائل وهو آخر من حدث فى الدنيا عن ابى اسحق البرمكى والقاضى أبى بكر الطبرى وأبى طالب العشارى وأبى محمد الجوهرى وغيرهم وتوفى الامام الحافظ أبو القاسم اسمعيل بن محمد بن الفضل الاصفهانى عشر ذى الحجة ومولده سنة تسع وخمسين وله التصانيف المشهورة وتوفى يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن يعقوب الهمدانى من أهل بزجرد وسكن مرو وتفقه على أبى اسحق الشيرازى وروى الحديث واشتغل بالرياضات والمجاهدات ووعظ ببغداد فقام اليه متفقه يقال له ابن السقاء وسأله وآذاه فى السؤال فقال اسكت انى اشم منك ريح الكفر فسافر الرجل الى بلد الروم وتنصر وفيها مات أبو القاسم على بن افلح الشاعر المشهور

(ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر انهزام السلطان سنجر من الاتراك الخطا وملكهم ما وراء النهر)

ثم ذكر اصحاب التواريخ فى هذه الحادثة اقاويل نحن نذكرها جميعها للخروج من اختلافها وعهدتها فنقول فى هذه السنة فى المحرم وقيل فى صفر انهزم السلطان سنجر من الترك الكفار وسبب ذلك ان سنجرا كان قتل ابنا لخوارزم شاه اتسز بن محمد كما ذكرناه قبل فبعث خوارزم شاه الى الخطا وهم بما وراء النهر يطمعهم فى البلاد ويروج عليهم أمرها وحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر فساروا فى ثلثمائة الف فارس وسار اليهم سنجر فى عساكره فالتقوا بما وراء النهر واقتتلوا أشد قتال وانهزم سنجر وعساكره وقتل منهم مائة الف قتيل منهم اثنا عشر الفا كلهم صاحب عمامة واربعة آلاف امرأة واسرت زوجة السلطان سنجر وتم السلطان منهزما الى ترمذ وسار منها الى بلخ ولما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه مدينة مرو فدخلها مراغمة للسلطان سنجر وقتل بها وقبض على أبى الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من اعيان البلد ولم يزل السلطان سنجر مسعودا الى وقتنا هذا لم تنهزم له راية ولما تمت عليه هذه السنة الهزيمة ارسل الى السلطان مسعود واذن له فى التصرف فى الرى وما يجرى معها على قاعدة أبيه السلطان محمد وأمره ان يكون مقيما فيها بعساكره بحيث ان دعت حاجة استدعاه لاجل هذه الهزيمة فوصل عباس صاحب الرى الى بغداد بعساكره وخدم السلطان مسعودا خدمة عظيمة وسار السلطان الى الرى امتثالا لامر عمه سنجر وقيل ان بلاد تركستان

ومن هو بالعليا أولى وأولى
الامر
فيا لك من فتح غدا زينة الملا
وواسطة الدنيا وفائدة العصر
أبى الله الا نصر نصر ورفعه
على قمة العيوق او هامة البدر
وملكه صدر السرير كأنه
لناه لك بالخير أوضدّه يجرى
وخوّله دون الملوك محاسنا
تبرّ على الشمس المنيرة والقطر
اذا ذكرت فاح الندى
بذكرها
كما فاح أذكى الند فى وهج الجمر
فتى السن كهل الحلم والرأى
والحجى
يعم بنى الآمال بالنائل الغمر
له همة لما حسبت علوها
حسبت الثريا فى الثرى أبدا
تسرى
غدا راعيا للمسلمين وناصرا
له الله راع قد تكفل بالنصر
ألا أيها الملك الذى ترك العدا
عباديد بين القتل والكسر
والاسر
قدمت قدوم الغيث أيمن
مقدم
فحليت وجه الدهر بالحسن
والبشر
ألست ترى كتب الربيع
ورسله
يقولون هذا الربيع على
الاثر
نسيم نسيب للحياة بلطفه
يجر فويق الارض أردية
القطر
وترب بأنفاس الربيع معبر

وهى كاشغر وبلاد بلاساغون وختن وطراز وغيرها مما يجاورها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد الملوك الخانية الاتراك وهم مسلمون من نسل افراسياب التركى الا انهم مختلفون وكان سبب اسلام جدهم سبق قراخاقان انه رأى فى منامه كان رجلا نزل من السماء فقال بالتركية ما معناه أسلم تسلم فى الدنيا والآخرة فاسلم فى منامه وأصبح فاظهر اسلامه فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن سبق ولم يزل الملك بتلك الناحية فى أولاده الى ارسلان خان بن محمد بن سليمان بن داود بغراخان بن ابراهيم الملقب بطمغاج خان بن ايلك الملقب بنصر ارسلان بن على بن موسى بن سبق فخرج على قدرخان فانتزع الملك منه فقتل سنجر قدرخان كما ذكرناه سنة أربع وتسعين وأربعمائة وأعاد الملك الى ارسلان خان وثبت قدمه وخرج خوارج فاستصرخ السلطان سنجر فنصره وأعاده الى ملكه وكان من جنده نوع من الاتراك يقال لهم القارغلية والاتراك الغزية الذين نهبوا خراسان على ما نذكره ان شاء الله وهم نوعان نوع يقال لهم اجق وأميرهم طوطى بن داد بك وقوم يقال لهم برق وأميرهم يقال له قرغوت بن عبد الحميد فحسن الشريف الاشرف بن محمد بن أبى شجاع العلوى السمرقندى لولد ارسلان خان المعروف بنصر خان طلب الملك من أبيه وأطمعه فسمع محمد بن خان الخبر فقتل الابن والشريف الاشرف وجرت بين ارسلان خان وبين جنده القارغلية وحشة دعتهم الى العصيان عليه وانتزاع الملك منه فعاود الاستعانة بالسلطان سنجر فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكان بينهما مصاهرة فوصل الى سمرقند وهرب القارغلية من بين يديه واتفق ان السلطان سنجر خرج الى الصيد فرأى خيالة فقبض عليهم فقررهم فأقروا ان ارسلان خان وضعهم على قتله فعاد الى سمرقند فحصر ارسلان خان بالقلعة فملكها وأخذه أسيرا وسيره الى بلخ فمات بها وقيل بل غدر به سنجر واستضعفه فملك البلد منه فأشاع عنه ذلك فلما ملك سمرقند استعمل عليها بعده قلج طمغاج أبا المعالى الحسن بن على بن عبد المؤمن المعروف بحسن تكين وكان من أعيان بيت الخانية الى الآن الا ان ارسلان خان اطرحه فلما ولى سمرقند وكان هذا حسن بن أخت سنجر لم تطل أيامه فمات عن قليل فأقام سنجر مقامه الملك محمود بن ارسلان خان محمد بن سليمان بن داود بغراخان وهو ابن الذى أخذ منه سنجر سمرقند وكان هذا محمود ابن أخت سنجر وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد وصل الاعور وهو كوخان الصينى الى حدود كاشغر فى عدد كثير لا يعلمهم الا الله فاستعد له صاحب كاشغر وهو الخان أحمد بن الحسن وجمع جنوده فخرج اليه والتقوا فاقتتلوا وانهزم الاعور الصينى وقتل كثير من أصحابه ثم انه مات فقام مقامه كوخان الصينى وكو بلسان الصين لقب لاعظم ملوكهم وخان لقب لملوك الترك فمعناه أعظم الملوك وكان يلبس لبسة ملوكهم من المقنعة والخمار وكان مانويا ولما خرج من الصين الى تركستان انضاف اليه الاتراك الخطا وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم فى خدمة الخانية أصحاب تركستان وكان ارسلان خان محمد بن سليمان يسير على ستة عشر الف خركاه ومنزلهم على الدروب التى بينه وبين الصين يمنعون أحدا من الملوك أن يتطرق الى بلاده وكان لهم على ذلك جرايات واقطاعات فاتفق انه وجد عليهم فى بعض السنين فمنعهم عن نسائهم لئلا يتوالدوا فعظم عليهم ولم يعرفوا وجها يقصدونه وتحيروا فاتفق ان اجتاز بهم قفل عظيم فيه الاموال

قبالك من تطيب وبالشمس نشر
وغيم بكى راحتيك كأنه
على المسك والكافور
يهطل بالخمر
فروح بشرب الراح روحك
انها
لفى تعب من وقعة البيض
والسمر
ودم لاقتناء الملك فى اكمل
المنى
وفى أرفع العليا وفى أطول
العمر
*(وأنشدنى أبو سعيد بن
دوست فيه لنفسه)*
للامير المظفر العلم العا
دل فينا أبى المظفر نصر
كرم فى شجاعة وسخاء
فى وفاء ودولة مع نصر
ومعال لو رامها بختنصر
يوم فخر أعيت على بختنصر
فيه نقطع الخطوب ونفرى
وبه ندفع الكروب ونصرى
وانتبذ الركض بالمنتصر الى
محال الاتراك الغزية * واهم
صغوا الى الدولة السامانية *
فأخذتهم المذمة من خذلانه *
وحركتهم الحمية لمعونته على
شانه * وتذاكروا بينهم
شرف آل سامان وما تعرفوه
قديما من بركات ذلك البيت
القديم * والكرم العميم *
وسار بهم مصعدا حتى
لحق بايلك الخان وذلك فى
شوال سنة ثلاث وتسعين
وثلثمائة وعندها دلف
ايلك للانتصار من المنتصر

الكثيرة والامتعة النفيسة فأخذوه وأحضروا التجار وقالوا لهم ان كنتم تريدون اموالكم فعرفونا بلدا كثير المرعى فسيحا يسعنا ويسع أموالنا فاتفق رأى التجار على بلد بلاساغون فوصفوه لهم فأعادوا اليهم اموالهم وأخذوا الموكلين الذين كانوا بهم لمنعهم عن نسائهم وكتفوهم وأخذوا نساءهم وساروا الى بلاساغون وكان ارسلان خان يغزوهم ويكثر جهادهم فخافوه خوفا عظيما فلما طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصينى انضافوا اليه ايضا فعظم شأنهم وتضاعف جمعهم وملكوا بلاد تركستان وكانوا اذا ملكوا المدينة لا يغيرون على أهلها شيأ بل يأخذون من كل بيت دينارا من اهل البلاد وغيرها من القرى وأما المزدرعات وغير ذلك فلاهلها وكل من أطاعهم من الملوك شد فى وسطه شبه لوح فضة فتلك علامة من أطاعهم ثم ساروا الى بلاد ماوراء النهر فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمد من حدود خجندة فى رمضان سنة احدى وثلاثين وخمسمائة واقتتلوا فانهزم الخاقان محمود بن محمد وعاد الى سمرقند فعظم الخطب على أهلها واشتد الخوف والحزن وانتظروا البلاء صباحا ومساء وكذلك اهل بخارا وغيرهما من بلاد ماوراء النهر وأرسل الخاقان محمود الى السلطان سنجر يستمده وينهى اليه مالقى المسلمون ويحثه على نصرتهم فجمع العساكر فاجتمع عنده ملوك خراسان صاحب سجستان والغور وملك غزنة وملك مازندران وغيرهم فاجتمع اليه اكثر من مائة الف فارس وبقى العرض ستة اشهر وسار سنجر الى لقاء الترك فعبروا الى ماوراء النهر فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة فشكا اليه محمود بن محمد خان من الاتراك القارغلية فقصدهم سنجر فالتجؤا الى كوخان الصينى ومن معه من الكفار وأقام سنجر بسمرقند فكتب اليه كوخان كتابا يتضمن الشفاعة فى الاتراك القارغلية ويطلب منه أن يعفو عنهم فلم يشفعه فيهم وكتب اليه يدعوه الى الاسلام ويهدده ان لم يجب اليه ويتوعده بكثرة عساكره ووصفهم وبالغ فى قتالهم بانواع السلاح حتى قال وانهم يشقون الشعر بسهامهم فلم يرض هذا الكتاب وزير السلطان طاهر ابن فخر الملك بن نظام الملك فلم يصغ اليه وسير الكتاب فلما قرئ الكتاب على كوخان أمر بنتف لحية الرسول وأعطاه ابرة وكلفه شق شعرة من لحيته فلم يقدر بفعل ذلك فقال كيف يشق غيرك شعرة بسهم وانت عاجز عن شقها بابرة واستعد كوخان للحرب وعنده جنود الترك والصين والخطا وغيرهم وقصد السلطان سنجر فالتقى العسكران وكانا كالبحرين العظيمين بموضع يقال له قطوان وطاف بهم كوخان حتى الجأهم الى واد يقال له درغم وكان على ميمنة سنجر الامير قماج وعلى ميسرته ملك سجستان والابطال وراءهم فاقتتلوا خامس صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكانت الاتراك القارغلية الذين هربوا من سنجر من أشد الناس قتالا ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجر احسن قتالا من صاحب سجستان فأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين فقتل منهم مالا يحصى من كثرتهم واشتمل وادى درغم على عشرة آلاف من القتلى والجرحى ومضى السلطان سنجر منهزما وأسر صاحب سجستان والامير قماج وزوجة السلطان سنجر وهى ابنة أرسلان خان فأطلقهم والحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخارى الفقيه الحنفى المشهور ولم يكن فى الاسلام وقعة أعظم من هذه ولا اكثر من قتل فيها بخراسان واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بماوراء النهر وبقى كوخان الى رجب من سنة سبع

في جيوش الترك يستعر فى طلب الثار * استعار النار * حتى أناخ بحدود سمرقند وتناذرت الغزية باقدامه وتآمروا بينهم على بياته فتجمعوا الركض عليه فغشوا الخيل * تحت ظلام الليل * حتى كاد لا تنتقش الارض بوطء أقدامها * ولا تشعر النجوم بأشخاص ألويتها وأعلامها * حتى أوقعوا به وانتهبوا جل سواده * وقبضوا على جلة قواده * وانقلبوا بما غنموه الى أوطانهم عند حصول البغية * فاستأثروا على المنتصر بالاسرى طمعا فى الفدية * ثم بلغ المنتصر تنازعهم الامر بينهم فى موالاتهم اياك عليه وافراجهم عن الاسرى تقربا اليه فرابه ذلك من أمرهم ريبة لم تأخذه الارض معها بقرار * ولم تكتحل عينه عندها بغرار * فاختار من جريدته قرابة سبعمائة رجل ركبانا ورجالا * خفافا وثقالا * وطاف على المعابر فاذا النهر جامد * وآمل الشط فى البعد آمد * ففرشوا النهر بأتبان الارز حتى امكنهم من العبور وتبعه الطلب فمنعهم خطر المعبر من قصد المنتصر وأرسل هو عند قراره بآمل رسولا الى السلطان يمين

وثلاثين وخمسمائة فمات فيه وكان جميلا حسن الصورة لا يلبس الا الحرير الصيني له هيبة عظيمة على أصحابه ولم يسلط أميرا على اقطاع بل كان يعطيهم من عنده ويقول متى اخذوا الاقطاع ظلموا وكان لا يقدم أميرا على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه وكان ينهى اصحابه عن الظلم وينهى عن السكر ويعاقب عليه ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه وملك بعده ابنة له فلم تطل مدتها حتى ماتت فملك بعدها امها زوجة كوخان وابنه محمد وبقي ماوراء النهر بيد الخطا الى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان)

قد ذكرنا قبل قصد السلطان سنجر خوارزم وأخذها من خوارزم شاه اتسز وعوده اليها وقتل ولد خوارزم شاه وانه هو الذي راسل الخطا وأطمعهم في بلاد الاسلام فلما انهزم السلطان سنجر وعاد منهزما سار خوارزم شاه الى خراسان فقصد سرخس في ربيع الاول من السنة فلما وصل اليها لقي الامام أبا محمد الزيادي وكان قد جمع بين الزهد والعلم فأكرمه خوارزم شاه اكراما عظيما ورحل من هناك الى مرو الشاهجان فقصده الامام احمد الباخرزي وشفع في اهل مرو وسأل ان لا يتعرض اليهم أحد من العسكر فأجابه الى ذلك ونزل بظاهر البلد واستدعى أبا الفضل الكرماني الفقيه وأعيان أهلها فثار عامة مرو وقتلوا بعض اهل خوارزم شاه وأخرجوا اصحابه من البلد وأغلقوا ابوابه واستعدوا للامتناع فقاتلهم خوارزم شاه ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الاول من السنة وقتل كثيرا من أهلها وممن قتل ابراهيم المروزي الفقيه الشافعي وعلي بن محمد بن ارسلان وكان ذا فنون كثيرة من العلم وقتل الشريف علي بن اسحق الموسوي وكان رأس فتنة وملقح شر وقتل كثيرا من أعيان اهلها وعاد الى خوارزم واستصحب معه علماء كثيرا من اهلها منهم ابو الفضل الكرماني وأبو منصور العبادي والقاضي الحسين بن محمد الارسابندي وابو محمد الخرقي الفيلسوف وغيرهم ثم سار في شوال من السنة الى نيسابور فخرج اليه جماعة من فقهائها وعلمائها وزهادها وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور ما فعل بأهل مرو فأجابهم الى ذلك لكنه استقصى في البحث عن اموال اصحاب السلطان فأخذها وقطع خطبة السلطان سنجر اول ذي القعدة وخطبوا له فلما ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر وذكر خوارزم شاه صاح الناس وثاروا وكادت الفتنة تثور والشر يعود جديدا وانما منع الناس ذوو الرأي والعقل نظرا في العاقبة فقطعت الى اول المحرم سنة سبع وثلاثين فأعيدت خطبة السلطان سنجر ثم سير خوارزم شاه جيشا الى اعمال بيهق فأقاموا بها يقاتلون اهلها خمسة أيام ثم ساروا عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد وعملوا بخراسان اعمالا عظيمة ومنع السلطان من مقاتلة اتسز خوارزم شاه لاجل قوة الخطا بما وراء النهر ومجاورتهم وملك خوارزم شاه هذه البلاد وغيرها من خراسان

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ملك اتابك زنكي بن آقسنقر مدينة الحديثة ونقل من كان بها من آل مهارش الى الموصل ورتب اصحابه فيها وفيها ايضا خطب لزنكي بمدينة آمد وصار صاحبها في طاعته

وكان

الدولة وأمين الملة فيذكره بحقوق سلفه عليه واشتداد الامر في انثيال العداة عليه وانه له بحيث يرتبه فيه طاعته واخلاصا في هواه وأظهر الانقطاع الى كنف قبوله واشباله والافتقار الى معونته بماله ورجاله واستمد من آمل الشط الى سواد مرو احتراسا من معرة الترك في العبور على الاطراف والفتك وأرسل الى أبي جعفر المعروف بخواهر زاده وكان ابوه رجلا من جلة الرعاع رفعه الزمان في دولة آل سامان يستقيه المعونة بما يفضل عن سعة يده من مال وسلاح فرد الرسول على غير وجه الحرية والارتياح بحكم الانسانية ولم يرض بالرد حتى خرج اليه مقاتلا وبالجفاء مقابلا فحول اصحاب المنتصر عليه جملة فرقت جمعه جملة وتسدى مسافة أبيورد حتى وافاها في شهور سنة أربع وتسعين وثلثمائة وأوجب السلطان اكرام رسوله وتحقيق مأموله ووصله بصدر من المال يجبر خلته وخاطب ابن خواهرزاده بخدمته ونقض مرضاته وترك الانحراف عن مراده فاضطر الامر الى طاعته حين شاعت سبة البخل عليه واستطارت

وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكى فلما رأى قوة زنكى صار معه وفيها عزل مجاهد الدين بهروز عن شحنكية بغداد ووليها قزل أمير اخور وهو من مماليك السلطان محمود وكان له بروجرد والبصرة فأضيف اليه شحنكية بغداد ثم وصل السلطان الى بغداد فرأى من تبسط العيارين وفسادهم ما ساءه فأعاد بهروز الى الشحنكية فتاب كثير منهم ولم ينتفع الناس بذلك لان ولد الوزير واخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين فلم يقدر بهروز على منعهم وفيها تولى عبد الرحمن طغايرك حجبة السلطان واستولى على المملكة وعزل الامير تتر الطغرلى عنها وآل أمره الى أن مشى فى ركاب عبد الرحمن وفيها توفى ابراهيم السهاوى مقدم الاسماعيلية فأخرجه ولد عباس صاحب الرى فى تابوته وفيها حج كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن وعاد وقد لبس ثياب الصوفية وتخلى عن جميع ما كان عليه وأقام فى داره مرعى الجانب محروس القاعدة وفيها وصل السلطان الى بغداد وكان الوزير الزينبى بدار السلطان كما ذكرناه فسأل السلطان أن يشفع فيه ليرده الخليفة الى داره فأرسل السلطان وزيره الى دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبى وشفع ان يعود الى داره فأذن له فى ذلك وأعاد أخاه الى نقابة النقباء فلزم الوزير داره ولم يخرج منها الا الى الجامع وفيها أغار عسكر أتابك زنكى من حلب على بلاد الفرنج فنهبوا وأحرقوا وظفروا بسرية الفرنج فقتلوا فيهم وأكثروا فكان عدة القتلى سبعمائة رجل وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق فسير السلطان مسعود سرية اليهم من العسكر فنهبوا حللهم وقتلوا من ظفروا به منهم وعادوا سالمين وفيها سير رجار الفرنجى صاحب صقلية اسطولا الى أطراف افريقية فأخذوا مراكب سيرت من مصر الى الحسن صاحب افريقية وغدر بالحسن ثم راسله الحسن وجدد الهدنة لاجل حمل الغلات من صقلية الى افريقية لان الغلاء كان فيها شديدا والموت كثيرا وفيها توفى ابو القاسم عبد الوهاب ابن عبد الواحد الحنبلى الدمشقى وكان عالما وفيها توفى ضياء الدين ابو سعيد الكفرتوثى وزير أتابك زنكى وكان حسن السيرة فى وزارته كريما رئيسا وفيها توفى أبو محمد بن طاوس امام الجامع بدمشق فى المحرم وكان رجلا صالحا فاضلا وفيها توفى أبو القاسم اسمعيل بن احمد بن عمر بن أبى الاشعث المعروف بابن السمرقندى ولد بدمشق سنة أربع وخمسين وأربعمائة وكان مكثرا من الحديث عالى الرواية

(ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة)

*(ذكر ملك عماد الدين أتابك زنكى قلعة اشب وغيرها من الهكارية

فى هذه السنة أرسل أتابك زنكى جيشا الى قلعة اشب وكانت أعظم حصون الاكراد الهكارية وأمنعها وبها أموالهم وأهلهم فحصروها وضيقوا على من بها فملكوها فأمر باخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضا عنها وكانت هذه القلعة العمادية حصنا عظيما من حصونهم فخربوه لكبره لانه كبير جدا وكانوا يعجزون عن حفظه فخربت الآن اشب وعمرت العمادية وانما سميت العمادية نسبة الى لقبه وكان نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية

(ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب)

شادخة اللؤم جنديه * وقد كان أبو نصر نصر بن محمود الحاجب المتسامع بقدوم راية المنتصر مال الأثر على صاحبه * وأظهر الانقطاع الى جانبه * وأقام له الخطبة بنسا مظهرا طاعته * ومستنفذا فى نصرته جهده واستطاعته * ولما أحس أهل نسا برأى أبى نصر فى اتباع راية الخلاف * أشفقوا على أنفسهم من عاقبة الاتهام بموالاته * والاشتراك فى جناياته * فكاتبوا خوارزم شاه مستعدين عليه فأنهض أبو الفضل الحاجب أحد أعيان ذلك الباب الرفيع لازالة شره * وكفاية أمره * ومال ابو نصر بن محمود الى المنتصر فتضافرت العدد * وتوافرت المدد * وصدر الى خبوشان من رستاق استواء وناهضهم أبو الفضل فى رجال خوارزم شاه فاتفق التقاؤهم فى الحرب ليلا برأى من النجوم الشوابك حيث لا يدرى الضارب مضروبه * ولا يبصر الراكب مركوبه * واختلط الفارس بالراجل * والنارس بالنابل * وتضاربوا ما بين الشوى والمقاتل

وتطاعنوا اسلكى ومخاوجة كركلا مين على نابل

وتصدع شمل الفريقين

وفي هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صقلية الى طرابلس الغرب فحصروها وسبب ذلك
ان أهلها في أيام الامير الحسن صاحب أفريقية لم يدخلوا أبدا في طاعته ولم يزالوا مخالفين
مشاققين له فقدموا عليهم من بني مطروح مشايخ يدبرون أمرهم فلما رآهم ملك صقلية
كذلك جهز اليهم جيشا في البحر فوصلوا اليهم تاسع ذي الحجة فنازلوا البلد وقاتلوه وعلقوا
الكلاليب في سوره ونقبوه فلما كان الغد وصل جماعة من العرب نجدة لاهل البلد فقوي أهل
طرابلس بهم فخرجوا الى الاسطول فحملوا عليهم حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم
خلق كثير ولحق الباقون بالاسطول وتركوا الاسلحة والاثقال والدواب والآلات فنهبها العرب
واهل البلد ورجع الفرنج الى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا الى المغرب فوصلوا الى جيجل
فلما رآهم اهل البلد هربوا الى البراري والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها
وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة خرج حسن أمير الامراء على السلطان سنجر بخراسان وفيها توفي محمد بن
دانشمند صاحب ملطية والثغر واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب
قونية وهو من السلجوقية وفيها خرج من الروم عسكر كثير الى الشام فحصروا الفرنج بانطاكية
فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم وأصلح حاله معه وعاد الى مدينته ومات في رمضان من هذه
السنة ثم ان ملك الروم بعد أن صالح صاحب انطاكية سار الى طرابلس فحصرها ثم سار عنها
وفيها قبض السلطان مسعود على الامير ترشك وهو من خواص الخليفة وممن ربي عنده وفي
داره فساء ذلك الخليفة ثم أطلقه السلطان حفظا لقلب الخليفة وفيها كان بمصر وباء عظيم
فهلك منه اكثر البلاد

(ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر صلح الشهيد السلطان مسعود وأتابك زنكي)

في هذه السنة وصل السلطان مسعود الى بغداد على عادته في كل سنة وجمع العساكر وتجهز
لقصد اتابك زنكي وكان حقد عليه حقدا شديدا وسبب ذلك ان اصحاب الاطراف الخارجين
على السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه على ماتقدم ذكره فكان ينسب ذلك الى
اتابك زنكي ويقول هو الذي سعى فيه وأشار به لعلمه انهم كلهم كانوا يصدرون عن رأيه فكان
اتابك زنكي لاشك يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان فيتمكن منه ومن غيره فلما تفرغ السلطان
هذه السنة جمع العساكر ليسيروا الى بلاده فسير اتابك يستعطفه ويستميله فأرسل اليه
السلطان أبا عبد الله بن الانباري في تقرير القواعد فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار
يحملها الى السلطان ليعود عنه فحمل عشرين ألف دينارا أكثرها عروض ثم تنقلت الاحوال
بالسلطان الى ان احتاج الى مداراة اتابك وأطلق له الباقي استمالة له وحفظا لقلبه وقعود
السلطان عنه كان سببه حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله ومن جيد الرأي مافعله الشهيد
في هذه الحادثة فانه كان ولده الاكبر سيف الدين غازي لايزال عند السلطان سفرا وحضرا
بأمر والده فأرسل اليه ثانية وأرسل الى نائبه نصير الدين جقر فيه وقال له ليمنعه عن الدخول
الى

قبل ان صافح الليل صباحه *
ونفض النجم على الغرب
وشاحه * فلم يشعر أحد بما
جننه يد الظلام على كماة
ذلك الجيش اللهام * حتى
اذا استفاض ضوء النهار
فاذا ابن محمود قتيل وابن
حسام الدولة أبي العباس
تاش الى جنبه صريع
وتفرق الباقون عباديد *
بين أقطار المهامه والبيد *
ووقع المنتصر الى اسفراين
فنافه أهلها حذار المحنة *
وخيفة الهرج والفتنة *
فالتقى على أدراجه في
شرذمة من أصحابه يقطع
الارض طولا وعرضا حتى
انتهى الى بعض حدود
سرخس فأقام هنالك ريثما
تلاحق به الفل وسار حتى
عبر النهر من ساحل قطنان
وبرز صنعة بخارا في طلبه *
وسدوا عليه وجوه مهربه *
فركب عزيمة الرجال في ثبات
القوم وثبت بعضهم للبعض
جلادا بالدبابيس والحراب *
واغمادا للسيوف في قراب
الرقاب * فجد المنتصر في
الامر واشتد * وتجابر رأسه ولم
يكد * وصار القوم الى دبوسية
من السغد * مستنجدين من
بها من العمال * وتفاريق
الرجال * ووقع المنتصر الى
ثغر النور من بخارا وركض
منها عليهم ركضة اقتسمتهم بين
اجتياح واجتثاث واصطلام

الى الموصل والوصول اليه فهرب غازى وبلغ الخبر والده فأرسل اليه يأمره بالعودة الى السلطان ولم يجتمع به وأرسل معه رسولا الى السلطان يقول له ان ولدى هرب خوفا من السلطان لما رأى تغيره على وقد أعدته الى الخدمة ولم أجتمع به فانه مملوكك والبلاد لك فحل ذلك من السلطان محلا عظيما

(ذكر ملك اتابك بعض ديار بكر)

وفى هذه السنة سار اتابك زنكى الى ديار بكر ففتح منها عدة بلاد وحصون فمن ذلك مدينة طنزة ومن ذلك مدينة أسعرد ومدينة حيزان وحصن الدوق وحصن مطليس وحصن باتسية وحصن ذى القرنين وغير ذلك مما لم يبلغ غيره هذه الاماكن وأخذ أيضا من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج حاين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون جوسلين ورتب امور الجميع وخلى فيها من الاجناد من يحفظها وقصد مدينة آمد وحانى فحصرهما وأقام بتلك الناحية مصلحا لما افسده ومحصرا لما لم يفتحه

(ذكر أمر العيارين ببغداد)

وفى هذه السنة زاد أمر العيارين وكثر الاذى منهم من الطلب بسبب ابن الوزير وابن قاورت أخى زوجة السلطان لانهما كان لهما نصيب من الذى يأخذه العيارون وكان النائب فى شحنكية بغداد مملوكا اسمه ايلدكز وكان صارما مقداما فاظا ما فحمله الاقدام الى أن حضر عند السلطان فقال له السلطان ان السياسة قاصرة والناس قد هلكوا قال يا سلطان العالم اذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخا امرأتك فأى قدرة لى على المفسدين وشرح له الحال فقال له الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا وتصلبهما فان فعلت والا صلبتك فأخذ خاتمه وخرج فكبس على ابن الوزير فلم يجده فأخذ من كان عنده وكبس على ابن قاورت فأخذه وصلبه فأصبح الناس وهرب ابن الوزير وشاع الامر ورؤى ابن قاورت مصلوبا فهرب اكثر العيارين وقبض على من أقام وكفى الناس شرهم

(ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه)

قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين مسير سنجر الى خوارزم وملكه اياها وعود اتسز خوارزم شاه اليها وأخذها وما كان منه بخراسان بعد ذلك فلما كان فى هذه السنة سار السلطان سنجر الى خوارزم شاه فجمع خوارزم شاه عساكره وتحصن بالمدينة ولم يخرج منها القتال لعلمه انه لا يقوى لسنجر وكان القتال يجرى بين الفريقين من وراء السور فاتفق فى يوم من بعض الايام أن هجم أمير من أمراء سنجر اسمه سنقر على البلد من الجانب الغربى فلم يبق غيره لملكه قهرا وعنوة وكان منقال التاجى هجم من الشرق فانهزم منقال عن البلد وبقى سنقر وحده فى البلد فقوى عليه خوارزم شاه اتسز فأخرجه من البلد وبقى سنجر وحده واشتد فى حفظه فلما رأى السلطان قوة البلد وامتناعه عزم على العود الى مرو ولم يمكنه من غير قاعدة تستقر بينهما فاتفق ان خوارزم شاه أرسل رسلا يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود الى ما كان عليه من الانقياد فأجابه الى ذلك واصطلحا وعاد سنجر الى مرو وأقام خوارزم شاه بخوارزم

(ذكر عدة حوادث)

بابن علمدار رئيس الفتيان بسمرقند فأتاه فى ثلاثة آلاف رجل وتقرب اليه مشايخ أهلها بثلثمائة علم * على سبيل بروخدمه * ووصلوا بها كرامات تضاهيها * وبشارات تدل على اخلاصهم فيها * ووافى اليه الغزية فاشتعلت جذوته * وتراجعت قوته * ولما سمع ايلك الخان باحتداد شوكته * واشتداد وطأته * زحف اليه فى احلاس الذكور من ديارات الترك واشتبكت الحرب بينهم بيورغند حتى نفدت النبال * وتكسرت النصال * وتحطمت السمر الطوال * وخان الخان مقامه * وانفض عنه أقوامه * فاستقفاه الغزية فى طلاب الاسلاب * حتى بردت أيديهم بالسبايا والنهاب * والغنائم الرغاب * وذلك فى شعبان سنة أربع وتسعين وثلثمائة وعاود الخان أرض الترك فضم النشر * ونادى فحشر * ثم كر على ثاره * وبث على المنتصر شرر ناره * ووافق اقباله تراجع الغزية الى أوطانهم بما نهبوه * على عاداتهم فى كل ما غنموه * واستأنف الحرب على فضاء بين قسربتى دزك وخاوس من أسروشنة فاستأمن المعروف كان بالحسن بن طاق الى الخان *

في هذه السنة سير اتابك زنكي عسكرا الى مدينة عانة من اعمال الفرات فملكوها وفيها
في المحرم توفي أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن احمد الانماطي الحافظ ببغداد ومولده
سنة اثنتين وستين وأربعمائة * وفيها توفي ابو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد الاسفرايني
الواعظ من اهل اسفراين من خراسان وأقام مدة ببغداد يعظ وسار الى خراسان فلما مات
حضر الغزنوي عزاءه ببغداد وبكى وأكثر فقال بعض أصحاب أبي الفتوح للغزنوي كلاما
أغاظ له فيه فلما قام الغزنوي لامه بعض تلامذته على حضور العزاء وكثرة البكاء وقال له كنت
مهاجرا لهذا الرجل فلما مات حضرت عزاءه واكثرت البكاء واظهرت الحزن قال كنت ابكي
على نفسي كان يقال فلان وفلان فمن بعدم النظير أيقن بالرحيل وأنشد هذه الابيات

ذهب المبرد وانقضت أيامه * وسينقضي بعد المبرد ثعلب
بيت من الآداب أصبح نصفه * خربا وباقي نصفه فسيخرب
فتزودوا من ثعلب فبمثل ما * شرب المبرد عن قليل يشرب
أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه * ان كانت الانفاس مما يكتب

وفيها توفي الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي في رمضان معزولا ودفن بداره بباب الازج
ثم نقل الى الحربية وفيها توفي أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري النحوي المفسر وزمخشر
احدى قرى خوارزم

(ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية)

في هذه السنة سادس جمادى الآخرة فتح اتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة الرها من
الفرنج وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضا وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد
استطار فيها ووصلت غاراتهم الى ادانيها وأقاصيها وبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة
وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين الى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وسن ابن
عطية وحملين والموزر والقرادي وغير ذلك وكانت هذه الاعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات
لجوسلين وكان صاحب رأي الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر
وكان اتابك يعلم انه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه ملكها لما
هي عليه من الحصانة فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج انه غير متفرغ الى قصد بلادهم فلما رأوه
انه غير قادر على ترك الارتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث انه محارب لهم اطمأنوا
وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات الى بلاده الغربية فجاءت عيون اتابك اليه فأخبروه الخبر
فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه وجمع الامراء عنده
وقال قدموا الطعام وقال لا يأكل معي على مائدتي هذه الا من يطعن غدا معي بباب الرها فلم
يتقدم اليه غير أمير واحد وصبي لا يعرف لما يعلمون من اقدامه وشجاعته وان أحدا لا يقدر
على مساواته في الحرب فقال الامير لذلك الصبي ما أنت في هذا المقام فقال اتابك دعه فوالله
اني أرى وجها لا يتخلف عني وسار والعساكر معه ووصل الى الرها وكان هو أول من حمل على
الفرنج وحمل ذلك الصبي وحمل فارس من خيالة الفرنج على اتابك عرضا فاعترضه ذلك الامير

في زهاء خمسة آلاف رجل
من رفقائه عند اتقاد
جمرات الصفاح * واشتداد
زفرات القراع * فاضطر
المنتصر الى الانهزام *
وحكم الخان في أهل
عسكره سيوف الانتقام *
حتى رويت الارض من
دمائهم * وشبعت النسور
من اشلائهم * وسار المنتصر
الى شط جيحون فعبر على
الجمد لعدم السفائن
وخلو المعابر ومضى الى
اندخوذ من أرض جوزجان *
محترسا من ركضة الخان *
وأمر باستباق الدواب
الراعية بها واقتسامها بين
أهل جملته فركب المفازة
الى قنطرة زاغول ولما بلغ
السلطان يمين الدولة وأمين
الملة خبره أسرع الانحدار
الى بلخ لاعجاله عن تفاقم
أمره واستفحاله * واتبعه
بفريغون بن محمد في أربعين
قائدا من قواده * لطرد
سواده * وحصد فساده *
فأعجزهم المنتصر وسار
الى الجنابذ من قهستان
ضرورة * اذ كانت جيوب
عليه مزرورة * حيث أم
شهرت عليه السيوف * وأين
ألم احدقت به الحتوف *
ووافاه صاحب الجيش
أبو المظفر نصر بن ناصر
الدين في طغانجق والي
سرخس وأرسلان الجاذب

قطعنه فقتله وسلم الشهيد ونازل البلد وقاتله ثمانية وعشرين يوما فزحف اليه عدة دفعات
وقدم النقابين فنقبوا سور البلد وبالغ في قتاله خوفا من اجتماع الفرنج والمسير اليه واستنقاذ
البلد منه فسقطت البدنة التي نقبها النقابون وأخذ البلد عنوة وقهرا وحصر قلعته فملكها
أيضا ونهب الناس الاموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال فلما رأى اتابك البلد أعجبه ورأى
ان تخريب مثله لا يجوز في السياسة فامر فنودي في العساكر بردّ ما أخذوه من الرجال والنساء
والاطفال الى بيوتهم واعادة ما غنموه من اثاثهم وامتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يفقد
منه شئ الا الشاذ النادر الذي أخذ وفارق من اخذه العسكر فعاد البلد على حاله الاول
وجعل فيه عسكرا يحفظه وتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج
شرقي الفرات ما عدا البيرة فانها حصينة منيعة وعلى شاطئ الفرات فسار اليها وحصرها
وكانوا قد اكثروا ميرتها ورجالها فبقي على حصارها الى أن رحل عنها على ما نذكره ان شاء الله
تعالى (حكي) ان بعض الحكماء بالانساب والتواريخ قال كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل
سرية في البحر الى طرابلس الغرب وتلك الاعمال فنهبوا وقتلوا وكان بصقلية انسان من العلماء
المسلمين وهو من أهل الصلاح وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ويرجع الى قوله ويقدمه
على من عنده من القسوس والرهبان وكان أهل ولايته يقولون انه مسلم بهذا السبب ففي
بعض الايام كان جالسا في منظرة تشرف على البحر واذ قد أقبل مركب لطيف واخبره من
فيه ان عسكره دخل بلاد الاسلام وغنموا وقتلوا وظفروا وكان المسلم الى جانبه وقد اغفى فقال
له الملك يافلان أما تسمع ما يقولون قال لا قال انهم يخبرون بكذا وكذا أين كان محمد عن
تلك البلاد وأهلها فقال له كان غاب عنهم وشهد فتح الرها وقد فتحها المسلمون الآن فضحك
منه من كان هناك من الفرنج فقال الملك لا تضحكون فوالله ما يقول الا الحق فبعد
أيام وصلت الاخبار من فرنج الشام بفتحها * وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح
ان انسانا صالحا رأى الشهيد في النوم فقال له ما فعل الله بك قال غفر لي بفتح الرها

* (ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين علي كوجك قلعة الموصل) *

في هذه السنة في ذي القعدة قتل نصير الدين جقر نائب اتابك زنكي بالموصل والاعمال جميعها
التي شرق الفرات وسبب قتله ان الملك الب ارسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود كان
عند اتابك الشهيد وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود واصحابه بالاطراف ان هذه البلاد
لهذا الملك وانا نائبه فيها وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليخطب له بالسلطنة ويملك البلاد
باسمه وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ونصير الدين يقصده كل يوم ليقوم بخدمته ان عرضت
له فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقال له ان قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها من
البلاد ولا يبقى مع اتابك زنكي فارس واحد فوقع هذا منه موقعا حسنا وظنه صدقا فلما دخل
نصير الدين اليه وثب عليه من عنده من اجناد اتابك ومماليكه فقتلوه وألقوا رأسه الى أصحابه
ظنا منهم ان اصحابه يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلد وكان الامر خلاف ما ظنوه فان اصحابه
واصحاب اتابك الذين في خدمته لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق
الكثير وكانت دولة اتابك مملوءة بالرجال والاجناد ذوي الرأي والتجربة ثم دخل اليه القاضي

والى طرس يحثون الظهور
في الطلب * ويتفرقون علاتها
بين الركض والخبب *
ففاتهم الى جرجان ومنها
الى بسطام فورماه شمس
المعالي قابوس بن وشمكير
بزهاء ألفين من الاكراد
الشاهجانية فازعجوه
عنها الى بيارجمند راجعا باللوم
على من لقنه الانحدار *
ولما ضاقت عليه المذاهب *
وأحاطت به المعاطب * بادر
الى كورة نسا بدار ومن لا
يمكث بدار * ولا يوطئ
الارض جنب قرار * وتلقاه
ابن سرخك الساماني
بكتاب يزين له الانتقال
اليه لمضامنة على ايلك
الخان مواربة ومواراة *
ومطابقة للخلاف عليه
ومواطاة * فنازعته نفسه
تقديم اجابته طمعا في وفائه *
وتأميلا لعونه على زمانه *
فركب المطار وسار حتى
اذا بلغ بئر حماد من مفازة
آمل سبقه خيله الى الشط
فوافق ذلك جمود جيحون
فاغتنموا مفارقته خلاصا
مما منوا به من مكابدة
الاسفار * وعدم الاستقرار *
ووصل سهر الليل بدأب
النهار * وتشاوروا في العبور
الى سليمان الحاجب
وصافي حاجبي ايلك الخان
فعبروا اليهما وعرفوهما
ان الساماني بالقرب وأمن

تاج الدين يحيى بن الشهرزوري ولم يزل به يخدعه وكان فيما قال له ما رأى منز حمايا مولانا ما لم تخرج من هذا الكلب هذا واستاذه مماليكك والحمد لله الذي اراح منه ومن صاحبه على يدك وما الذي يقعدك في هذه الدار قم لتصعد القلعة وتأخذ الاموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند وليس دون الموصل مانع فقام معه واصعده القلعة فلما قاربها اراد من بها من النقيب والاجناد القتال فتقدم اليهم القاضي تاج الدين وقال لهم افتحوا الباب وتسلموه وافعلوا به ما اردتم ثم فتح الباب ودخل الملك والقاضي اليها ومعهما من اعان على قتل نصير الدين فحبسوا ونزل القاضي وبلغ الخبر اتابك زنكي وهو يحاصر قلعة البيرة وقد اشرف على ملكها فخاف ان تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين ففارق البيرة وارسل زين الدين علي بن بكتكين الى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره البروجردي ووزر بعده المرزبان بن عبيد الله ابن نصر الاصفهاني وسلم اليه البروجردي فاستخرج امواله ومات مقبوضا وفيها كان اتابك عماد الدين زنكي يحاصر البيرة وهي للفرنج شرقي الفرات بعد ملك الرها وهي من امنع الحصون وضيق عليها وقارب ان يفتحها فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فرحل عنها وارسل نائبا الى الموصل واقام ينتظر الخبر فخاف من بالبيرة من الفرنج ان يعود اليهم وكانوا يخافونه خوفا شديدا فارسلوا الى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها له فملكها المسلمون وفيها اخرج اسطول الفرنج من صقلية الى ساحل افريقية والغرب ففتحوا مدينة برشك وقتلوا اهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين وفيها توفي تاشفين بن علي بن يوسف صاحب المغرب وكانت ولايته تزيد على اربع سنين وولي بعده اخوه وضعف امر الملثمين وقوي عبد المؤمن وقد ذكرنا ذلك سنة اربع عشرة وخمسمائة وفيها في شوال ظهر كوكب عظيم له ذنب من جانب المشرق وبقي الى نصف ذي القعدة ثم غاب ثم طلع من جانب الغرب فقيل هو هو وقيل بل غيره وفيها كانت فتنة عظيمة بين الامير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوي الحسيني امير مكة والامير نظر الخادم امير الحاج نهب اصحاب هاشم الحجاج وهم في المسجد يطوفون ويصلون ولم يرقبوا فيهم الا ولا ذمة وفيها في ذي الحجة توفي عبد الله احمد بن محمد بن عبد الله بن حمدويه ابو المعالي المروزي بمرو وسافر الكثير وسمع الحديث الكثير وبنى بمرو رباطا ووقف فيه كتبا كثيرة وكان كثير الصدقة والعبادة وتوفي محمد بن عبد الملك بن حسن بن ابراهيم بن خيرون ابو منصور المقري في رجب ومولده في رجب سنة اربع وخمسين واربعمائة وهو آخر من روى عن الجوهري بالاجازة وفي ذي الحجة منها توفي ابو منصور سعيد بن محمد بن عمر المعروف بابن الرزاز مدرس النظامية ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين واربعمائة وتفقه على الغزالي والشاشي ودفن في تربة الشيخ ابي اسحق

(ثم دخلت سنة اربعين وخمسمائة)

(ذكر اتفاق بوزابة وعباس على منازعة السلطان)

في

الهرار طيه طمنه * والحوادث قد طمنته * فهو خلسة الطامع ونهزة الطالب * وطعمة الانياب والمخالب * فلم يشعر أبو ابراهيم الا بالخيل مطلة فطاردهم ساعة ثم ولاهم ظهر الفرار وقبض على أخويه وخاصتهما برباط بشرى * وحملوا الى أوزكند أسرى * وأحل المنتصر هربه حلة ابن بهيج الاعرابي من جلة العرب السيارة في تلك المفازة * ليقضي الله أمرا كان مفعولا وكان المعروف بأبي عبد الله ماء روى ببذارا من جهة السلطان يمين الدولة فيهم وقد أوصاهم بالقعود له بكل مرصد * واذكاء العيون عليه عند كل مورد * فلما لبس الليل جلدة الغبش * وعرض على النجوم جيش الحبش * وثب أهل تلك الحلة على المنتصر جهلا منهم بقدره وغباوة * وقساوة وشقاوة * وأخفروا حق مقدمه * واستحلوا للارض حرام دمه * فكأنما عناه أبو تمام حبيب بن أوس الطائي حيث يقول

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر اذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه

في هذه السنة سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره الى قاشان ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود ووصل اليهما الملك سليمان شاه بن السلطان محمد واجتمع بوزابة والامير عباس صاحب الري واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود وملكا كثيرا من بلاده ووصل الخبر اليه وهو ببغداد ومعه الامير عبد الرحمن طغايرك وهو امير حاجب حاكم في الدولة وكان ميله اليهما فسار السلطان في رمضان عن بغداد ونزل بها الامير مهلهل ونظر وجماعة من غلمان بهروز وسار السلطان وعبد الرحمن معه فتقارب العسكران ولم يبق الا المصاف فلحق سليمان شاه باخيه مسعود وشرع عبد الرحمن في تقرير الصلح على القاعدة التي ارادوها واضيف الى عبد الرحمن ولاية اذربيجان وارانية الى ما بيده وصار ابو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود وهو وزير بوزابة فصار السلطان معهم تحت الحجر وارسلوا بك ارسلان بن بلنكري المعروف بخاص بك وهو ملازم السلطان وتربيته وصار في خدمته عبد الرحمن ليحقن دمه وصار الجماعة في خدمة السلطان بالصورة لا بالمعنى والله اعلم

(ذكر استيلاء علي بن دبيس بن صدقة على الحلة)

في هذه السنة سار علي بن دبيس الى الحلة هاربا فملكها وكان سبب ذلك ان السلطان لما اراد الرحيل من بغداد اشار عليه مهلهل ان يحبس علي بن دبيس بقلعة تكريت فعلم ذلك فهرب في جماعة يسيرة نحو خمسة عشر فمضى الى الازيز وجمع بني اسد وغيرهم وسار الى الحلة وبها اخوه محمد بن دبيس فقاتله فانهزم محمد وملك علي الحلة واستهان السلطان امره اولا فاستفحل وضم اليه جمعا من غلمانه وغلمان ابيه واهل بيته وعساكرهم وكثر جمعهم فسار اليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر وضربوا معه مصافا فكسرهم وعادوا منهزمين الى بغداد وكان اهلها يتعصبون لعلي بن دبيس وكانوا يصيحون اذا رأوا مهلهلا وبعض اصحابه يا علي كله وكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب ومد علي يده في اقطاع الامراء بالحلة وتصرف فيها وصار شحنة بغداد ومن فيها على وجل منه وجمع الخليفة جماعة وجعلهم على السور لحفظه وراسل عليا فاعاد بأنني العبد المطيع مهما رسم لي فعلت فسكن الناس ووصلت الاخبار بعد ذلك ان السلطان مسعودا تفرق خصومه عنه فازداد سكون الناس لذلك

(ذكر عدة حوادث)

حج بالناس هذه السنة قايماز الارجواني صاحب أمير الحاج نظر واحتج نظر بان بركه نهب في كسرة الحلة وان بينه وبين أمير مكة من الحروب ما لا يمكنه معه الحج وفيها اتصل بالخليفة عن اخيه ابي طالب ما كرهه فضيق عليه واحتاط على غيره من اقاربه وفيها ملك الفرنج لعنهم الله مدينة شنترين وباجة وماردة واشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الاندلس وكانت للمسلمين فاختلفوا فطمع العدو واخذ هذه المدن وقوي بها قوة تمكن وتيقن ملك بلاد الاسلام بالاندلس فخيب الله ظنه وكان ما نذكره وفيها سار اسطول الفرنج من صقلية ففتح جزيرة قرقنة من افريقية فقتلوا رجالها وسبوا حريمهم فأرسل الحسن صاحب افريقية الى رجار ملك صقلية يذكره بالعهود التي بينهم فاعتذر بانهم غير مطيعين له وفي هذه السنة توفي مجاهد الدين بهروز الغياثي وكان حاكما بالعراق نيفا وثلاثين سنة وبرتقش الزكوي صاحب اصفهان وكان

من الضرب واعتلت عليه
القنا السمر
فأثبت في مستنقع الموت
رجله
وقال لها من تحت أخمصك
الحشر
غدا غدوة والحمد نسج رداءه
فلم ينصرف الا واكفانه
الاجر
مضى طاهر الاثواب لم تبق
روضة
غداة ثوى الا اشتهت انها قبر
عليك سلام الله وقفا فانني
رأيت الكريم الحر ليس
له عمر
ثم نقل قالبه الى قرية ماي
مرغ من رودبار زم ودفن
بها في شهر ربيع الاول سنة
خمس وتسعين وثلثمائة
وبلغ السلطان يمين الدولة *
وأمين الملة * خبره فأمر
بالقبض على البندار *
واذاقه حر الانكال *
وشن الغارة على حلة ابن
بهيج الاعرابي خاصه *
وعلى سائر العرب السيارة
عامه * فصارت جمرة آل
سامان رمادا تذروه الرياح
وكان الله على كل شئ
مقتدرا

*(ذكر الامراء السامانية
ومقادير ايامهم من حيث
نجمت دولتهم الى أن ورثها
السلطان يمين الدولة * وأمين
الملة)*

كان ملك آل سامان

ايضا شحنته بالعراق وهو خادم رومى لبعض التجار وتوفى الامير ياد كرشحنة بغداد والشيخ
ابو منصور موهوب بن احمد بن الخضر الجواليقى اللغوى ومولده فى ذى الحجة سنة خمس وستين
واربعمائة واخذ اللغة عن أبى زكريا التبريزى وكان يؤم بالمقتفى أمير المؤمنين وتوفى احمد بن محمد
ابن الحسن بن على بن أحمد بن سليمان أبو سعيد بن ابى الفضل الاصفهانى ومولده سنة ثلاث
وستين وأربعمائة وروى الحديث الكثير وكان على سيرة السلف كثير الاتباع للسنة رحمة الله
عليه *(ثم دخلت سنة احدى وأربعين وخمسمائة)*

(ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب)

فى هذه السنة ملك الفرنج لعنهم الله طرابلس الغرب وسبب ذلك ان رجار ملك صقلية جهز
اسطولا كثيرا وسيره الى طرابلس فاحاطوا بها برا وبحرا ثالث المحرم فخرج اليهم اهلها وانشبوا
القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة ايام فلما كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجة عظيمة
وخلت الاسوار من المقاتلة وسبب ذلك ان اهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بايام يسيرة قد
اختلفوا فاخرج طائفة منهم بنى مطروح وقدموا عليهم رجلا من الملثمين قدم يريد الحج ومعه
جماعة فولوه أمرهم فلما نازلهم الفرنج اعادت الطائفة الاخرى بنى مطروح فوقع الحرب بين
الطائفتين وخلت الاسوار فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد
القتال فملكت الفرنج المدينة عنوة وقهرا بالسيف فسفكوا دماء اهلها وسبوا نساءهم واخذوا
اموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ الى البربر والعرب فنودى بالامان فى كافة الناس
فرجع كل من فر منها واقام الفرنج ستة اشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خندقها ولما عادوا
اخذوا رهائن أهلها ومعهم بنو مطروح والملثم ثم اعادوا رهائنهم وولوا عليها رجلا من مطروح
واخذوا رهائنه وحده واستقامت امور المدينة والزم اهل صقلية والسفن والروم بالسفر اليها
فانعمرت سريعا

(ذكر حصر زنكى حصن جعبر وفنك)

وفى هذه السنة سار اتابك زنكى الى حصن جعبر وهو مطل على الفرات وكان بيد سالم بن مالك
العقيلى سلمه السلطان ملكشاه الى ابيه لما اخذ منه حلب وقد ذكرناه فحصره وسير جيشا الى قلعة
فنك وهى تجاور جزيرة ابن عمر بينهما فرسخان فحصرها أيضا وصاحبها حينئذ الامير حسام
الدين الكردى البشنوى وكان سبب ذلك انه كان لا يريد ان يكون فى وسط بلاده ما هو ملك غيره
حزما واحتياطا فنازل قلعة جعبر وحصرها وقاتله من بها فلما طال عليه ذلك ارسل الى صاحبها
مع الامير حسان المنبجى لمودة كانت بينهما فى معنى تسليمها وقال له تضمن عنى الاقطاع
الكثير والمال الجزيل فان اجاب الى التسليم والا فقل له والله لاقيمن عليك الى ان اخذها عنوة
ثم لا ابقى عليك ومن الذى يمنعك منى فصعد اليه حسان وادى اليه الرسالة ووعده وبذل له ما قيل
له فامتنع من التسليم فقال له حسان فهو يقول لك من يمنعك من قتالى ومن يمنعك منى فقال
يمنعنى منه الذى منعك من الامير بلك فعاد حسان واخبر الشهيد بامتناعه ولم يذكر له هذا فقتل
اتابك بعد ايام وكانت قصة حسان مع بلك ابن اخى ايلغازى ان حسانا كان صاحب منبج فحصره
بلك وضيق عليه فبينما هو كذلك فى بعض الايام يقاتله جاءه سهم لا يعرف من رماه فقتله وخاص

بما وراء النهر وبلاد خراسان
بما ينضاف اليها فى الوقت
بعد الوقت من كورسجستان
وكرمان وجرجان وطبرستان
والرى الى حدود أصفهان
مائة سنة وستين وستة
أشهر وعشرة أيام فأولهم
(أبو ابراهيم اسمعيل) بن
أحمد وهو الذى قبض على
عمرو بن الليث بناحية بلخ
يوم الثلاثاء للنصف من
شهر ربيع الآخر سنة
سبع وثمانين ومائتين
وولى خراسان ثمان سنين
ومضى لسبيله ببخارا ليلة
الثلاثاء لأربع عشرة
ليلة خلت من صفر سنة
خمس وتسعين ومائتين
منعوتا بالعدل والرافه *
موسوما بطاعة الخلافه *
وقام بعده (أبو نصر أحمد)
ابن اسمعيل فملك ست سنين
وثلاثة أشهر وقتله نفر
من غلمانه بفربر ليلة
الخميس لسبع بقين من
جمادى الآخرة وكان
مقتديا بأبيه فى ايثار النصفة
واختيار الاحدوثة الحسنة
اقتداء الابناء بالآباء فى
اختيار أفضل السنن * واتباع
أحمد السنن * الى أن طوت
الدنيا صحائف أيامهم
كدأبهم فى الذين خلوا من
قبل ولن تجد لسنة الله
تبديلا واستخلف الشهيد
(أبو الحسن نصر بن أحمد)

حسان من الحصر وقد تقدم ذكره وكان هذا القول من الاتفاق الحسن ولما قتل اتابك زنكي
رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فنك عنها وهي بيد عقاب صاحبها الى الآن وسمعتهم
يذكرون انهم لهم بها نحو ثلثمائة سنة ولهم مقصد حسن وفيهم وفاء وعصبية يأخذون بيد كل
من يلتجئ اليهم ويقصدهم ولا يسلمونه الى طالبه كائنا من كان قريبا ام غريبا

(ذكر قتل اتابك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته)

في هذه السنة لخمس مضين من ربيع الآخر قتل اتابك الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر
صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر على ما ذكرناه قتله جماعة من مماليكه ليلا غيلة
وهربوا الى قلعة جعبر فصاحوا على من بها من اهلها من العسكر يعلمونهم بقتله واظهروا الفرح
فدخل اصحابه اليه فادركوه وبه رمق (حدثني والدي) عن بعض خواصه قال دخلت اليه في
الحال وهو حي فظن انني اريد قتله فاشار الي باصبعه السبابة يستعطفني فوقعت من
هيبته فقلت يا مولاي من فعل هذا فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله قال وكان
حسن الصورة اسمر اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان قد زاد عمره على ستين سنة
لانه كان لما قتل والده صغيرا كما ذكرناه قبل ولما قتل دفن بالرقة وكان شديد الهيبة على عسكره
ورعيته عظيم السياسة لا يقدر القوي على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل ان يملكها خرابا من
الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت اهلا وسكانا (حكى لي والدي) قال
رأيت الموصل واكثرها خراب بحيث يقف الانسان قريب محلة الطبالين ويرى الجامع العتيق
والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة قط وكان الانسان لا يقدر على المشي الى الجامع
العتيق الا ومعه من يحميه لبعده عن العمارة وهو الآن في وسط العمارة وليس في هذه البقاع
المذكورة كلها ارض براح قال وحدثني أيضا انه وصل الى الجزيرة في الشتاء فدخل الامير
عز الدين الدبيسي وهو من اكابر أمرائه ومن جملة اقطاعه مدينة دقوقا ونزل في دار انسان
يهودي فاستغاث اليهودي الى اتابك وانهى حاله اليه فنظر الى الدبيسي فتأخر ودخل البلد
واخرج بركه وخيامه قال فلقد رأيت غلمانه ينصبون خيامه في الوحل وقد جعلوا على الارض
تبنا يقيهم الطين وخرج فنزلها وكانت سياسته الى هذا الحد وكانت الموصل من اقل بلاد الله
فاكهة فصارت في أيامه وما بعدها من اكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك وكان أيضا شديد
الغيرة ولا سيما على نساء الاجناد وكان يقول ان لم تحفظ نساء الاجناد والا فسدن لكثرة غيبة
ازواجهن في الاسفار وكان اشجع خلق الله أما قبل ان يملك فيكفيه انه حضر مع الامير مودود
صاحب الموصل مدينة طبرية وهي للفرنج فوصلت طعنته باب البلد واثرت فيه وحمل أيضا على
قلعة عقر الحميدية وهي على جبل عال فوصلت طعنته الى سورها الى اشياء اخر واما بعد الملك
فقد كان الاعداء محدقين ببلاده وكلهم يقصدها ويريدون اخذها وهو لا يقنع بحفظها حتى انه
لا ينقضي عليه عام حتى يفتح من بلادهم فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاوره في ناحية تكريت
وقصد الموصل وحصرها ثم الى جانبه من ناحية شهرزور وتلك الناحية السلطان مسعود ثم ابن
سقمان صاحب خلاط ثم داود بن سقمان صاحب حصن كيفا ثم صاحب آمد وماردين
ثم الفرنج من مجاورة ماردين الى دمشق ثم اصحاب دمشق فهذه الولايات قد احاطت بولايته

الملك ثلاثين سنة وثلاثة
وثلاثين يوما وقيع النجاده
قوي العماد * وري الزناده *
زكي المراد * وتوفي في ليلة
الخميس لثلاث بقين من
رجب سنة احدى وثلاثين
وثلثمائة وتلاه في ارث
الملك ابنه (نوح بن نصر)
وهو الحميدي فملك اثنتي
عشرة سنة وثلاثة أشهر
وسبعة أيام وتوفي ببخارا
يوم الثلاثاء لاحدى عشرة
ليلة بقيت من شهر ربيع
الآخر سنة ثلاث وأربعين
وثلثمائة وانتصب بمنصبه
(عبد الملك بن نوح) فملك
سبع سنين وستة أشهر واحد
عشر يوما وعثرت به دابته
فسقط الى الارض سقطة
حمل منها ميتا وذلك عشية
يوم الخميس لاحدى
عشرة ليلة خلت من شوال
سنة خمسين وثلثمائة وخلفه
في الولاية أخوه (منصور
ابن نوح) خمس عشرة سنة
وتسعة أشهر وتوفي ببخارا
يوم الثلاثاء لاحدى عشرة
ليلة خلت من شوال سنة
خمس وستين وثلثمائة وولي
امره من بعده (نوح بن
منصور) احدى وعشرين
سنة وتسعة أشهر وتوفي يوم
الجمعة ببخارا لثلاث عشرة
ليلة خلت من رجب سنة سبع
وثمانين وثلثمائة وملك بعده
ولده (أبو الحرث منصور)

من كل جهاتها فهو يقصد هذا مرة وهذا مرة ويأخذ من هذا ويصانع هذا الى ان ملك من كل
من يليه طرفا من بلاده وقد اتينا على اخباره فى كتاب الباهر فى تاريخ دولته ودولة اولاده
فليطلب من هناك

* (ذكر ملك ولديه سيف الدين غازى ونور الدين محمود) *

لما قتل اتابك زنكى اخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده وكان حاضرا معه وسار الى حلب
فملكها وكان حينئذ يتولى ديوان زنكى ويحكم فى دولته من اصحاب العمائم جمال الدين محمد بن
على وهو المنفرد بالحكم ومعه امير حاجب صلاح الدين محمد الباغيسيانى فاتفقا على حفظ الدولة
وكان مع الشهيد اتابك الملك ألب ارسلان ابن السلطان محمود فركب ذلك اليوم واجتمعت
العساكر عليه وحضر عنده جمال الدين وصلاح الدين وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات
والجوارى وادخلاه الرقة فبقى بها اياما لا يظهر ثم سار الى ماكسين فدخلها واقام بها اياما وجمال
الدين يحلف الامراء لسيف الدين غازى بن اتابك زنكى ويسيرهم الى الموصل ثم سار من
ماكسين الى سنجار وكان سيف الدين قد وصل الى الموصل فلما وصلوا الى سنجار أرسل جمال
الدين الى الدزدار يقول له ليرسل الى ولد السلطان يقول له انى مملوكك ولكن تبغى الموصل
فان ملكتها سلمت اليك سنجار فسار الى الموصل فأخذه جمال الدين وقصد به مدينة بلد وقد بقى
معه من العسكر القليل فأشار عليه بعبور دجلة فعبرها الى الشرق فى نفر يسير وكان سيف
الدين غازى بمدينة شهرزور وهى اقطاعه فأرسل اليه زين الدين على نائب ابيه بالموصل
يستدعيه الى الموصل فحضر قبل وصول الملك فلما علم جمال الدين بوصول سيف الدين الى
الموصل أرسل اليه يعرفه قلة من معه فأرسل اليه بعض عسكره فقبضه وحبس فى قلعة الموصل
واستقر ملك سيف الدين البلاد وبقى أخوه نور الدين بحلب وهى له وسار اليه صلاح الدين
الباغيسيانى مدبر أمره والقائم بدولته وحفظها وقد استقصينا شرح هذه الحادثة فى
التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية

* (ذكر عصيان الرها لما قتل اتابك)

كان جوسلين الفرنجى الذى كان صاحب الرها فى ولايته وهى تل باشر وما يجاورها فراسل
أهل الرها وعامتهم من الارمن وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد اليه
فأجابوه الى ذلك وواعدهم يوما يصل اليهم فيه وسار فى عساكره الى الرها وملك البلد وامتنعت
القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم فبلغ الخبر الى نور الدين محمود بن زنكى وهو بحلب
فسار مجدا اليها فى عسكره فلما قاربها خرج جوسلين هاربا عائدا الى بلده ودخل نور الدين
المدينة ونهبها حينئذ وسبى أهلها وفى هذه الدفعة نهبت وخلت من اهلها ولم يبق بها منهم
الا القليل وكثير من الناس يظن انها نهبت لما فتحها الشهيد وليس كذلك وبلغ الخبر الى سيف
الدين غازى بعصيان الرها فسير العساكر اليها فسبقه الملك نور الدين الى البلد واستباحه وهم
فى الطريق فعادوا ومن اعجب ما يحكى ان زين الدين على الذى كان نائب الشهيد واولاده بقلعة
الموصل جاءه هدية مما ارسلها اليه نور الدين من هذا الفتح وفى الجملة جارية فلما دخل اليها وخرج
من عندها وقد اغتسل وقال لمن عنده تعلمون ما جرى لى فى يومنا هذا قالوا لا قال لما فتحنا الرها مع

الشهيد

ابن نوح سنة وتسعة اشهر
فاعتقله بكتوزون بسرخس
يوم الاربعاء لاثنتى عشرة
ليلة بقيت من صفر سنة
تسع وثمانين وثلاثمائة
وبويع أخوه (عبد الملك
ابن نوح) فاستقرت قدمه
فى الولاية حتى خرجت على يد
السلطان يمين الدولة وأمين الملة
دعامته * وشالت نعامته *
فطار الى بخارا وقبض
ايلك الخان عليه * وانتزع
ولايتها من يديه * فكانت مدة
أمره ثمانية أشهر وسبعة
عشر يوما ثم أخوه (المنتصر
أبو ابراهيم) اسمعيل بن
نوح وذلك حدثان ماولى
السلطان * كورخراسان *
وأقبل بعد ذلك يزداد فى
أسباب العلا جده وجده *
ويتضاعف فى رقاب الاعداء
حده * فبابه قرة لشهر الاعين
ثغر مفتوح * وصنع ممنوح *
وذكر على هامات الاعواد
مرفوع * وباب الى قضاء
المنى والآمال مشروع *
وذلك فضل الله يؤتيه من
يشاء والله ذو الفضل
العظيم

* (ذكر الاحوال التى
جرت للامير ناصر الدين
سبكتكين وخلف بن أحمد
والى سجستان من خلاف
مرة ووفاق أخرى وما جرى
بعد ذلك من الطوائل
والترات التى ثنت عنان

الشهيد وقع في يدي من السبي جارية رائعة اعجبني حسنها ومال قلبي اليها فلم يكن باسرع من ان أمر الشهيد فنودي برد السبي والمال المنهوب وكان مهيبا مخوفا فرددتها وقلبي متعلق بها فلما كان الآن جاءتني هدية نور الدين وفيها عدة جوار فيها تلك الجارية فوطئتها خوفا ان تقع مثل تلك الردة

(ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الاندلس)

في هذه السنة سير عبد المؤمن بن علي جيشا الى جزيرة الاندلس فملكوا ما فيها من بلاد الاسلام وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاء اليه جماعة من اعيان الاندلس منهم ابو جعفر احمد بن محمد بن حمدين ومعهم مكتوب يتضمن بيعة اهل البلاد التي هم فيها لعبد المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين واقامتهم لامره فقبل عبد المؤمن ذلك منهم وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج فجهز جيشا كثيفا وسيره معهم وعمر اسطولا وسيره في البحر فسار الاسطول الى الاندلس وقصدوا مدينة اشبيلية وصعدوا في نهرها وبها جيش من الملثمين فحصروها برا وبحرا وملكوها عنوة وقتل فيها جماعة وامن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد وكان لعبد المؤمن من بها

(ذكر قتل عبد الرحمن طغايرك وعباس صاحب الري)

في هذه السنة قتل السلطان مسعود أمير حاجب دولته عبد الرحمن طغايرك وهو صاحب خلخال وبعض اذربيجان والحاكم في دولة السلطان وليس للسلطان معه حكم وكان سبب قتله ان السلطان لما ضيق عليه عبد الرحمن وبقي معه شبه الاسير ليس له في البلاد حكم حتى ان عبد الرحمن قصد غلاما كان للسلطان وهو بزان ارسلان المعروف بابن خاص بك بن بلنكري وقد رباه السلطان وقربه فابعده عنه وصار لا يراه وكان في خاص بك عقل وتدبير وجودة قريحة وتوصل لما يريده بعقله فجمع عبد الرحمن العساكر وخاص بك فيهم وقد استقر بينه وبين السلطان مسعود ان يقتل عبد الرحمن فاستدعى خاص بك جماعة ممن يثق بهم وتحدث معهم في ذلك فكل منهم خاف الاقدام عليه الا رجلا اسمه زنكي وكان جاندارا فانه بذل من نفسه ان يبدأه بالقتل ووافق خاص بك على القيام في الامر جماعة من الامراء فبينما عبد الرحمن في موكبه ضربه زنكي الجاندار بمقرعة حديد كانت في يده على رأسه فسقط الى الارض فاجهز عليه خاص بك واعانه على حماية زنكي والقائمين معه من كان واطأه على ذلك من الامراء وكان قتله بظاهر جنزة وبلغ الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد ومعه الامير عباس صاحب الري وعسكره اكثر من عسكر السلطان فانكر ذلك وامتعض منه فداراه السلطان ولطف به واستدعى الامير البقش كون خر وتتر وهو أمير العلف وتتر الذي كان حاجبا فلما قوي بهما أحضر عباسا اليه في داره فلما دخل اليه منع اصحابه من الدخول معه وعدلوا به الى حجرة وقالوا له اخلع الزردية فقال ان لي مع السلطان أيمانا وعهودا فلكموه وخرج له غلمان أعدوا لذلك فحينئذ تشهد وخلع الزردية والقاها وضربوه بالسيوف واحتزوا رأسه والقوه الى اصحابه ثم القوا جسده ونهب رحله وانزعج البلد لذلك وكان عباس من غلمان السلطان محمود حسن السيرة عادلا في رعيته كثير الجهاد للباطنية قتل منهم خلقا كثيرا وبنى من رؤسهم منارة بالري وحصر

السلطان يمين الدولة وأمين الملة اليه * وعطفت به الى انتزاع الملك من يديه * وما جرى خلال ذلك من وقائعه في الهند الى أن استتب له ما أراد في أمره * بعون الله ونصره)*

قد سبق في أول هذا الكتاب ذكر الأمير خلف بن أحمد فما رآه السديد منصور ابن نوح من رده الى بيته واظهاره على خصمه الى أن تهاوت رجوم الفتن بخراسان ففرغه اشتغال ولاتها بمادها هم منها للاستجمام * والاتداع * والاستظهار بما تخرجه أرض سجستان من صنوف الارتفاع * حتى اتسع نطاق همته لطلب الفضول والزيادات * على ما في يده ومنازعة القروم والسادات ولما تصدى الامير ناصر الدين سبكتكين لمواقعة ملك الهند حين تورد حدود الاسلام على ما نطق بشرحه صدر هذا الكتاب غنم خلف بن أحمد انتفاض بست عن الحفظة * وخلوها عن الشحنة * فأسرى اليها من اقتناص بيضتها * واقتض عذرتها * وحرف كلمة الدعوة عنها وغمس يده في أموالها خباها * وجمعها قناً وعاها * فلما أفلج الله ناصر الدين * على الكافر الامين * عطف العنان

قلعة الموت ودخل الى قرية من قراهم فالقى فيها النار فاحرق كل من فيها من رجل وامرأة وصبي وغير ذلك وقتل بالجانب الغربي فارسلت ابنته فحملته الى الري فدفنته هنالك وكان مقتله في ذي القعدة ومن الاتفاق العجيب ان العبادي كان يعظ يوما فحضره عباس فاسمع بعض اهل المجلس ورمى بنفسه نحو الامير عباس فضربه اصحابه ومنعوه خوفا عليه لانه كان شديد الاحتراس من الباطنية لايزال لابسا الزردية لاتفارقه الغلمان الاجلاد فقال له العبادي كم هذا الاحتراز والله لئن قضي عليك بأمر لتحلن انت بيدك ازرار الزردية فينفذ القضاء فيك وكان والله كما قال وقد كان السلطان استوزر ابن دارست وزير بوزابة كارها على ما تقدم ذكره فعزله الآن لانه اختار العزل والعود الى صاحبه بوزابة فلما عزله قرر معه ان يصلح له بوزابة ويزيل ما عنده من الاشمئزاز بسبب قتل عبد الرحمن وعباس فسار الوزير وهو لايعتقد النجاة فوصل الى بوزابة وكان ما نذكره

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة حبس السلطان مسعود اخاه سليمان شاه بقلعة تكريت وفيها توفي الامير جاولي الطغرلي صاحب ارانية وبعض اذربيجان وكان قد تحرك للعصيان وكان موته فجأة مدقوسا فنزف دما فمات وتوفي شيخ الشيوخ صدر الدين اسمعيل بن ابي سعيد الصوفي مات ببغداد ودفن بظاهر رباط الدوري بباب البصرة ومولده سنة اربع وستين واربعمائة وقام في منصبه ولده عبد الرحيم وفيها توفي مسعود بن بلال شحنة بغداد وسار السلطان عنها وفيها كان بالعراق جراد كثير امحل اكثر البلاد وفيها ورد العبادي الواعظ رسولا من السلطان سنجر الى الخليفة ووعظ ببغداد وكان له قبول بها وحضر مجلسه السلطان مسعود فمن دونه واما العامة فانهم كانوا يتركون أشغالهم لحضورهم مجلسه والمسابقة اليه وفيها بعد قتل الشهيد زنكي بن آقسنقر قصد صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره وكان به نجم الدين ايوب بن شاذي فخاف ان اولاد زنكي لايمكنهم انجاده بالعاجل فصالحه وسلم القلعة اليه واخذ منه اقطاعا ومالا وملكه عشر قرى من بلاد دمشق وانتقل ايوب الى دمشق فسكنها واقام بها وفي هذه السنة في ربيع الآخر توفي عبد الله بن علي بن أحمد المقري ابن بنت الشيخ ابي منصور ومولده في شعبان سنة أربع وستين وأربعمائة وكان مقرئا نحويا محدثا وله تصانيف في القرآآت

(ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة)

(ذكر قتل بوزابة)

لما اتصل بالامير بوزابة قتل عباس جمع عساكره من فارس وخوزستان وسار الى اصفهان فحصرها وسير عسكرا آخر الى همذان وعسكرا ثالثا الى قلعة الماهكي من بلد اللحف فاما عسكره بالماهكي فانه سار اليهم الامير البقش كون خر فدفعهم عن اعماله وكانت اقطاعه ثم ان بوزابة سار عن اصفهان يطلب السلطان مسعودا فراسله السلطان في الصلح فلم يجب اليه وسار مجدا فالتقيا بمرج قراتكين وتصافا فاقتتل العسكران فانهزم منه السلطان مسعود وميسرته واقتتل القلبان اشد قتال واعظمه صبر فيه الفريقان وصار الحرب بينهما فسقط بوزابة عن فرسه بسهم أصابه وقيل بل عثر به الفرس فأخذ أسيرا وحمل الى السلطان فقتل

الى بيت مقتضا من غدره متحفظا من سوء مغافصته فاتفق اصحاب خلف بن أحمد بظهور العار واعقاب الادبار والصغار وهم ناصر الدين سبكتكين لمناهضته واستخار الله تعالى في مناجزته فأرسل اليه خلف من يتأول عليه في ذلك البعث محافظته على حكم الموالاة في حفظ ولايته ويتضمن تصحيح ما صار في جبايته ويتبرع بزيادة تقوم مقام الارش عن جنايته تفاديا عن ثقل وطأته على أعماله وتصونا عن عورة الافتضاح في قتاله فتغابى ناصر الدين عن شر غدره حكما بالمقدار واكتفاء منه بذل الاعتذار فكان مثله في ذلك كما قال أبو تمام

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

ثم طالبه بتصحيح المال حتى أداه وارتهن بعض رضاه فكانت الحال بينهما من بعد قائمة على جملة المسالمة الى أن حدث من أمر ابي علي بن سيمجور في الجولة التي اتفقت له بباب نيسابور ما سبق شرحه فأظهر تقربا الى ناصر الدين بمساعدته صلى شخصه ومرافدته بنفسه وسائر أهل جملته امتنانا عليه بظاهر الطاعة

بين يديه وانهزم أصحابه لما أخذ هو اسيرا وبلغت هزيمة العسكر السلطاني من الميمنة والميسرة الى همذان وخراسان وقتل من الفريقين خلق كثير وكان هذا الحرب من اعظم الحروب الكائنة بين الاعاجم

(ذكر طاعة اهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها)

كان صاحب مدينة قابس قبل هذه السنة انسان اسمه رشيد فتوفي وخلف اولادا فعمد مولى له اسمه يوسف الى ولده الصغير واسمه محمد فولاه الامر واخرج ولده الكبير معمرا واستولى يوسف على البلد وحكم على محمد لصغر سنه وجرى منه اشياء من التعرض الى حرم سيده والعهدة على ناقله وكان من جملتهن امرأة من بني قرة فارسلت الى اخوتها تشكو اليهم ما هي فيه فجاء اخوتها لاخذها فمنعهم منها وقال هذه حرمة مولاي ولم يسلمها فسار بنو قرة ومعمر بن رشيد الى الحسن صاحب افريقية وشكوا اليه ما يفعل يوسف فكاتبه الحسن في ذلك فلم يجبه وقال لئن لم يكف الحسن عني والا سلمت قابس الى صاحب صقلية فجهز الحسن العسكر اليه فلما سمع يوسف بذلك ارسل الى رجار الفرنجي صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له اريد منك خلعة وعهدا بولاية قابس لاكون نائبا عنك كما فعلت مع بني مطروح اصحاب طرابلس فسير اليه رجار الخلعة والعهد فلبسها وقرئ العهد بجمع الناس فجد حينئذ الحسن في تجهيز العسكر الى قابس فساروا اليها ونازلوها وحصروها فثار أهل البلد بيوسف لما اعتمده من طاعة الفرنج وسلموا البلد الى عسكر الحسن وتحصن يوسف في القصر فقاتلوه حتى فتحوه وأخذ يوسف اسيرا فتولى عذابه معمر بن رشيد وبنو قرة فقطعوا ذكره وجعلوه في فيه وعذب بانواع العذاب وولي معمر قابس مكان أخيه واخذ بنو قرة اختهم وهرب عيسى اخو يوسف وولد يوسف وقصدوا رجار صاحب صقلية فاستجاروا به وشكوا اليه ما لقوا من الحسن فغضب لذلك وكان ما نذكره سنة ثلاث واربعين وخمسمائة من فتح المهدية ان شاء الله تعالى وهذا الذي كان من يوسف والله أعلم

(ذكر حادثة ينبغي ان يحتاط العاقل من مثلها)

كان هذا يوسف صاحب قابس قد ارسل رسولا الى رجار صاحب صقلية فاجتمع هو والحسين رسول صاحب المهدية عنده فجرى بين الرسولين مناظرة فذكر رسول يوسف الحسن ومانال منه وذمه ثم انهما عادا في وقت واحد وركبا البحر كل واحد منهما في مركبه فارسل رسول الحسن رقعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف فسير الحسن جماعة من اصحابه في البحر فاخذوا رسول يوسف واحضروه عند الحسن فسبه وقال ملكت الفرنج بلاد الاسلام وطولت لسانك بذمي ثم أركبه جملا وعلى رأسه جلاجل وطيف به في البلد ونودي عليه هذا جزاء من سعى ان يملك الفرنج بلاد المسلمين فلما توسط المهدية ثارت به العامة فقتلوه بالحجارة

(ذكر ملك الفرنج المرية وغيرها من الاندلس)

في هذه السنة في جمادى الاولى حصر الفرنج مدينة المرية من الاندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة واكثروا القتل بها والنهب وملكوا أيضا مدينة شاسة وولاية جيان وكلها

واذ مار التشفي من ابي علي بعونته الحاضره* وقوته الباهره* اذ كان قد وتره بقصد حصاره* وغزوه في عقر داره* واقتساره بسيوف أنصاره وصحبه الى بوشنج في جمهور اشياعه واتباعه ثم خلفه بها ناصر الدين سبكتكين صيانة له عن كلفة السفر* وابقاء عليه من خطة الخطر* وسار الى طوس لمواقعة أبي علي وطلب الثار المنيم عنده حتى اذا طرده ونفض عن شغل تلك الحرب يده* رد الى خلف بن احمد اصحابه مثقلين بالنعم الباهره وموشحين بالخلع الفاخره تقدمهم المراكب والجنائب* وتردفهم النجائب والرغائب

فعادوا فأثنوا بالذي كان اهله ولو سكتوا اثنت عليه الحقائب

فصفت لذلك شريعة الحال بينهما عن قذى المواراه وتجلت عن عرمض المداجة والمداجاه* الى ان عبر الامير ناصر الدين سبكتكين النهر الى ما وراءه لمدافعة ايلك الخان عن ولاية الرضي برفق المناصحه* او خرق المكاشفه* ثم اقتضته صورة الحال مسامحته ببعض تلك البلاد على ان يسلم له سائرها ويأمن من عنت العيث باديها وحاضرها* وترامت اليه اثناء ذلك مكاتبة خلف

بالاندلس ثم استعادها المسلمون بعد ذلك منهم على ما نذكره ان شاء الله تعالى

* (ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي عدة مواضع من بلد الفرنج) *

في هذه السنة دخل نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب بلد الفرنج ففتح منه مدينة ارتاح بالسيف ونهبها وحصر مابولة وبصرفوت وكفرلاثا وكان الفرنج بعد قتل والده زنكي قد طمعوا وظنوا انهم بعده يستردون ما اخذه فلما رأوا من نور الدين هذا الجد في اول امره علموا ان ما املوه بعيد وخاب ظنهم واملهم

* (ذكر اخذ الحلة من علي بن دبيس وعوده اليها) *

في هذه السنة كثر فساد اصحاب علي بن دبيس بالحلة وما جاورها وكثرت الشكاوى منه فاقطع السلطان مسعود الحلة سلاركرد فسار اليها من همذان ومعه عسكر وانضاف اليه جماعة من عسكر بغداد وقصدوا الحلة فجمع علي عسكره وحشد والتقى العسكران بطبرباذ فانهزم علي وملك سلاركرد الحلة واحتاط على اهل علي ورجعت العساكر واقام هو بالحلة وعمالكه واصحابه وسار علي بن دبيس فلحق بالبقش كون خر وكان باقطاعه في اللحف مجتنبا على السلطان فاستنجده فسار معه الى واسط واتفق هو والطرنطاي وقصدوا الحلة فاستنقذوها من سلاركرد في ذي الحجة وفارقها سلاركرد وعاد الى بغداد

* (ذكر عدة حوادث) *

في هذه السنة في جمادى الاولى خطب للمستنجد بالله يوسف ابن المقتفي لامر الله بولاية العهد وفيها ولي عون الدين يحيى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد وولي زعيم الدين يحيى بن جعفر المخزن وفيها في ربيع الاول مات ابو القاسم طاهر بن سعيد بن أبي سعيد بن أبي الخير الميهني شيخ رباط البسطامي ببغداد وفي ربيع الآخر توفيت فاطمة خاتون بنت السلطان محمد زوجة المقتفي لامر الله وفي رجب منها مات أبو الحسن محمد بن المظفر بن علي ابن المسلمة ابن رئيس الرؤساء ومولده سنة اربع وثمانين وكان قد تصوف وجعل داره التي في القصر رباطا للصوفية وفيها سار سيف الدين غازي بن زنكي الى قلعة دارا فملكها وغيرها من بلد ماردين ثم سار الى ماردين وحصرها وخرب بلدها ونهبه وكان سبب ذلك ان اتابك زنكي لما قتل تطاول صاحب ماردين وصاحب الحصن الى ما كان قد فتحه من بلادهما فأخذاه فلما ملك سيف الدين وتمكن سار الى ماردين وحصرها وفعل ببلدها الافاعيل العظيمة فلما رأى صاحبها وهو حينئذ حسام الدين تمرتاش ما يفعل في بلده قال كنا نشكو من اتابك الشهيد وأين ايامه لقد كانت اعيادا قد حصرنا غير مرة فلم يأخذ هو ولا أحد من عسكره مخلاة تبن بغير ثمن ولا تعدى هو وعسكره حاصل السلطان وارى هذا ينهب البلاد ويخربها ثم راسله وصالحه وزوجه ابنته ورحل سيف الدين عنه وعاد الى الموصل وجهزت ابنة حسام الدين وسيرت اليه فوصلت وهو مريض قد اشفى على الموت فلم يدخل بها وبقيت عنده الى ان توفي وملك قطب الدين مودود فتزوجها على ما نذكره ان شاء الله تعالى وفيها اشتد الغلاء بافريقية ودام اياما فان أوله كان سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وعظم الامر على أهل البلاد حتى أكل بعضهم بعضا وقصد اهل البوادي المدن من الجوع فاغلقها اهلها دونهم وتبعه وباء وموت كثير حتى خلت البلاد وكان أهل

ابن احمد ايلك الخان من هفا من غربه * ومغريا اياه بحربه طمعا في بست ونواحيها وغزنة وما يليها * وانضافت اليه بلاغات وقوارص برقت له من جانبه في امر ابي علي واظهار الندامة على ما سبق من عونه عليه والانصاح على رؤس الاشهاد معرضا بأن اجتياح الملوك شؤم واستباحة البيوتات لؤم وضعف في الرأي معلوم فطار الغضب بناصر الدين كل مطار * وحدثته نخوة الاقتدار بالبدار الى ارض سجستان لاطفاء الغليل وشفاء الداء الدخيل * فثناه كاتبه ابو الفتح علي بن محمد البستي عما نواه بالقول الرفيق * والرأي المؤيد بالتوفيق * ورش ماء التلطف على ذلك الحريق * وأراه ان بعض البلاغات زور * وان القائل لها كالقائل مأخوذ بها موزور * وان قلوب الرجال وحوش نافرة وطيور في جو الجو سابحة فما يتمكن منها الا باعمال الحيل في نصب الحبائل وتمكين الجوارح ورمي البنادق وبث الحبوب والمطاعم ثم لا شئ أيسر من افلاتها عن حبالة القانص وارسالها من شرك الصائد كذلك القلوب لا تصاد الا بأشراك الصنائع والعواطف * ولا

البيت لا يبقى منهم احد وسار كثير منهم الى صقلية فى طلب القوت واقوال[illegible] اعظيما

(ثم دخلت سنة ثلاث واربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الفرنج مدينة المهدية بافريقية)

قد ذكرنا سنة احدى واربعين وخمسمائة مسير اهل يوسف صاحب قابس الى رجار ملك صقلية واستغاثتهم به فغضب لذلك وكان بينه وبين الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى صاحب افريقية صلح وعهود الى مدة سنتين وعلم انه فاته فتح البلاد فى هذه الشدة التى اصابتهم وكانت الشدة دوام الغلاء فى جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين الى هذه السنة وكان اشد ذلك منه سنة اثنتين واربعين فان الناس فارقوا البلاد والقرى ودخل اكثرهم الى مدينة صقلية وأكل الناس بعضهم بعضا وكثر الموت فى الناس فاغتنم رجار هذه السنة فعمر الاسطول واكثر منه فبلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوأة رجالا وسلاحا وقوتا وسار الاسطول عن صقلية ووصل الى جزيرة قوصرة وهى ما بين المهدية وصقلية فصادفوا بها مركبا وصل من المهدية فأخذ أهله واحضروا بين يدى جرجى مقدم الاسطول فسألهم عن حال افريقية ووجد فى المركب قفص حمام فسألهم هل ارسلوا منها الحمام فحلفوا بالله انهم لم يرسلوا شيأ فامر الرجل الذى كان الحمام صحبته ان يكتب بخطه اننا لما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الاسطول المخذول فذكروا انه اقلع الى جزائر القسطنطينية واطلق الحمام فوصل الى المهدية فسر الامير الحسن والناس واراد جرجى بذلك ان يصل بغتة ثم سار وقدر وصولهم الى المهدية وقت السحر ليحيط بها قبل ان يخرج اهلها فلو تم له ذلك لم يسلم منهم احد فقدر الله تعالى أن ارسل عليهم ريحا هائلا فلم يقدروا على السير الا بالمقاذيف فطلع النهار ثانى صفر فى هذه السنة قبل وصولهم فرآهم الناس فلما رأى جرجى ذلك وان الخديعة فاتته ارسل الى الامير الحسن يقول انما جئت بهذا الاسطول طالبا بثار محمد بن رشيد صاحب قابس ورده اليها واما انت فبيننا وبينك عهود وميثاق الى مدة ونريد منك عسكرا يكون معنا فجمع الحسن الناس من الفقهاء والاعيان وشاورهم فقالوا نقاتل عدونا فان بلدنا حصين فقال اخاف ان ينزل الى البر ويحصرنا برا وبحرا ويحول بيننا وبين الميرة وليس عندنا ما يقوتنا شهرا فنؤخذ قهرا وانا ارى سلامة المسلمين من الاسر والقتل خيرا من الملك وقد طلب منى عسكرا الى قابس فان فعلت فما يحل لى معونة الكفار على المسلمين وان امتنعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وليس يريد الا ان يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة والرأى ان نخرج بالاهل والولد ونترك البلد فمن اراد ان يفعل كفعلنا فليبادر معنا وامر فى الحال بالرحيل واخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج الناس على وجوههم باهليهم واولادهم وما خف من اموالهم واثاثهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفى الكنائس وبقى الاسطول فى البحر تمنعه الريح من الوصول الى المهدية الى ثلثى النهار فلم يبق فى البلد ممن عزم على الخروج احد فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع ودخل جرجى القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه الا ما خف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ورأى الخزائن مملوأة من الذخائر النفيسة وكل شئ غريب يقل وجود

ثقتك الا بازمة الايادى والعوارف * ولا تستقاد الا بابتذال الرغائب من التوالد والطوارف * ثم الكلمة الجافية تهيج وادعها وتطير راقعها * وتكدر عليها مشارعها * وتلا عليه قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ثم فسرها حتى نزل عن ظهر مركب التعجيل * الى ارض التمهيل * وانشدنى ابو الفتح البستى رحمه الله فى شرح ما دار بينه وبين ناصر الدين سبكتكين لنفسه

اذا شئت أن تصطاد حب اخى لب
وتملك منه حوزة القلب والخلب
فأشركه فى الخير الذى قد رزقته
وادخله بالاحسان فى شرك الحب
ألم تر طير الجو تهوى مسفة
لحب كقطر من ذرى الجو منصب
كذلك لا يصطاد ذو الرأى والحجى
محبات حبات القلوب بلا حب

وكتب خلف بن احمد بعد ذلك متنصلا عما عزى اليه ومتبريا مما نقم منه فعفا ناصر الدين عما حاك فى صدره من امره * واغمض له عما امتاحه من قليب قلبه وغدير غدره

بيته فختم عليه وجمع سراري الحسن من قصره وكان عدة من ملك منهم من زيري بن مناد الى الحسن تسعة ملوك ومدة ولايتهم مائة سنة وثمانين سنة من احدى وستين وثلاثمائة الى سنة ثلاث واربعين وخمسمائة وكان بعض القواد قد ارسله الحسن الى رجار برسالة فاخذ لنفسه واهله منه امانا فلم يخرج معهم ولما ملك المدينة نهبت مقدار ساعتين ونودي بالامان فخرج من كان مستخفيا واصبح جرجي من الغد فارسل الى من قرب من العرب فدخلوا اليه فاحسن اليهم واعطاهم اموالا جزيلة وارسل من جند المهدية الذين تخلفوا بها جماعة ومعهم امان لاهل المهدية الذين خرجوا منها ودواب يحملون عليها الاطفال والنساء وكانوا قد اشرفوا على الهلاك من الجوع ولهم بالمهدية خبايا وودائع فلما وصل اليهم الامان رجعوا فلم يمض غير جمعة حتى رجع اكثر أهل البلد واما الحسن فانه سار باهله واولاده وكانوا اثنى عشر ولدا ذكرا غير الاناث وخواص خدمه قاصدا الى محرز بن زياد وهو بالمعلقة فلقيه في طريقه امير من العرب يسمى حسن بن ثعلب فطلب منه مالا انكسر له في ديوانه فلم يمكن الحسن اخراج مال لئلا يؤخذ فسلم اليه ولده يحيى رهينة وسار فوصل في اليوم الثاني الى محرز وكان الحسن قد فضله على جميع العرب واحسن اليه ووصله بكثير من المال فلقيه محرز لقاء جميلا وتوجع لما حل به فاقام عنده شهورا والحسن كاره للاقامة فاراد المسير الى ديار مصر الى الخليفة الحافظ العلوي واشترى مركبا لسفره فسمع جرجي الفرنجي فجهز شواني ليأخذه فعاد الحسن عن ذلك وعزم على المسير الى عبد المؤمن بالمغرب فارسل كبارا ولاده يحيى وتميما وعليا الى يحيى ابن العزيز وهو من بني حماد وهما اولاد عم يستأذنه في الوصول اليه وتجديد العهد به والمسير من عنده الى عبد المؤمن فاذن له يحيى فسار اليه فلما وصل لم يجتمع به يحيى وسيره الى جزيرة بني مزغنان هو واولاده ووكل به من يمنعهم من التصرف فبقوا كذلك الى ان ملك عبد المؤمن بجاية سنة سبع واربعين فحضر عنده وقد ذكرنا حاله هنالك ولما استقر جرجي بالمهدية سير أسطولا بعد اسبوع الى مدينة سفاقس وسير اسطولا اخر الى مدينة سوسة فاما سوسة فان اهلها لما سمعوا خبر المهدية وكان واليها علي بن الحسن الامير فخرج الى ابيه وخرج الناس لخروجه فدخلها الفرنج بلا قتال ثاني عشر صفر واما سفاقس فان اهلها اتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج اليهم اهل البلد فاظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى ابعدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم الى البلد وقوم الى البرية وقتل منهم جماعة ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة وأسر من بقي من الرجال وسبي الحريم وذلك في الثالث والعشرين من صفر ثم نودي بالامان فعاد أهلها اليها وافتكوا حرمهم واولادهم ورفق بهم وباهل سوسة والمهدية وبعد ذلك وصلت كتب من رجار لجميع اهل افريقية بالامان والمواعيد الحسنة ولما استقرت احوال البلاد سار جرجي في اسطول الى قلعة اقليبية وهي قلعة حصينة فلما وصل اليها سمعت العرب فاجتمعوا اليها ونزل اليهم الفرنج فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم خلق كثير فرجعوا خاسرين الى المهدية وصار للفرنج من طرابلس الغرب الى قريب تونس ومن المغرب الى دون القيروان والله اعلم

* (ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي بن زنكي) *

في

وثبت باقي عمره على مداراته وملاطفته الى ان اتاه اليقين من ربه فانتقل الى جوار رحمته وعفوه وبلغ السلطان يمين الدولة وامين الملة حلو حبوة الزمانه باظهار الشماته * فاستنشد قول القائل

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى
تجهز لاخرى مثلها فكأن قد

ثم اسرّها في نفسه مرتقبا لميقات الفرصة في الايقاع به والاستشفاء منه الى ان ورث ملك خراسان نقي الاطراف عن غبرات الخلاف سليم الآفاق * عن غبرات الشقاق * وقد كان خلف بن احمد عند قيام السلطان باستصفاء المملكة قد بعث ابنه طاهرا الى قهستان فملكها ثم عن منها الى بوشنج فاستولى عليها وكانت هراة وبوشنج برسم بغراجق اخي ناصر الدين سبكتكين فلما وضع الله عن السلطان اوزار تلك الملاحم اتاه عمه بغراجق يستأذنه في طرد المتغلب عن ولايته وفل ما حده من حد نكايته فأذن له فيه وسار حتى اذا شارف بوشنج تلقاه طاهر ابن خلف بمن والاه من الحديد تحت الحديد * فتناوشا الحرب قد اللهلم * من خلوط المفارقه وقط الاجسام * من

في هذه السنة سار ملك الالمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج عازما على قصد بلاد الاسلام وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه وتوفر امواله وعدده فلما وصل الى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه وامتثلوا امره ونهيه فامرهم بالمسير معه الى دمشق ليحصروها ويملكها بزعمه فساروا معه ونازلوها وحصروها وكان صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغدكين وليس له من الامر شئ وانما الحكم في البلد لمعين الدين أنز مملوك جده طغدكين وهو الذي اقام مجير الدين وكان معين الدين عاقلا عادلا خيرا حسن السيرة فجمع العساكر وحفظ البلد واقام الفرنج يحاصرونهم ثم انهم زحفوا سادس ربيع الاول بفارسهم وراجلهم فخرج اليهم اهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي وكان شيخا كبيرا فقيها صالحا فلما رآه معين الدين وهو راجل قصده وسلم عليه وقال له يا شيخ انت معذور لكبر سنك ونحن نقوم بالذب عن المسلمين وسأله أن يعود فلم يفعل وقال له قد بعت واشترى مني فوالله لا أقلته ولا استقلته يعني قول الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل عند النيرب نحو نصف فرسخ عن دمشق وقوي الفرنج وضعف المسلمون فتقدم ملك الالمان حتى نزل بالميدان الاخضر فايقن الناس بانه يملك البلد وكان معين الدين قد ارسل الى سيف الدين غازي ابن اتابك زنكي يدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم فجمع عساكره وسار الى الشام واستصحب معه اخاه نور الدين محمود من حلب فنزلوا بمدينة حمص وارسل الى معين الدين يقول له قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي فاريد ان يكون نوابي بمدينة دمشق لاحضر وألقى الفرنج فان انهزمت دخلت انا وعسكري البلد واحتمينا به وان ظفرنا فالبلد لكم لا انازعكم فيه فارسل الى الفرنج يتهددهم ان لم يرحلوا عن البلد فكف الفرنج عن القتال خوفا من كثرة الجراح وربما اضطروا الى قتال سيف الدين فابقوا على نفوسهم فقوي اهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب وارسل معين الدين الى الفرنج الغرباء يقول لهم ان ملك المشرق قد حضر فان رحلتم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تندمون وارسل الى فرنج الشام يقول لهم بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا وانتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق أخذوا ما بايديكم من البلاد الساحلية واما أنا فان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام فاجابوه الى التخلي عن ملك الالمان وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم واجتمع الساحلية بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد اليه وانه ربما أخذ دمشق ونضعف عن مقاومته ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد وتسلموا قلعة بانياس وعاد الفرنج الالمانية الى بلادهم وهي بوراء القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شرهم وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق ان بعض العلماء حكى له انه رأى الفندلاوي في المنام فقال له ما فعل الله بك واين انت فقال غفر لي وانا في جنات عدن على سرر متقابلين

(ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي حصن العريمة)

تصور المناطق * واستقاء للارواح بارشية الرماح واختلاء الرؤس * بسيوف كسيوف الروس * ثم حمل بعضهم على بعض فذهبت الميامن بالمياسر والمياسر بالميامن وانفل طاهر من بين يديه منهزما * واتبعه بغراجق يحثه نحوه ظليما وقد كان بغراجق قبل ان شمر للحرب * اصاب كؤسا يستيقظ بها اعين الطعن والضرب * فتعاور عليه ناران من كأس وبأس حتى غفل بهما عن وثيقة الحزم وذهل معهما عن بصيرة التحفظ والتحرز فغرر بنفسه في اتباع خصمه اغترارا بخيال سكره فلم يشعر الا بطاهر بن خلف قد كر عليه بضربة اقعصته في مكانه قتيلا ونزل الوقت اليه * من قطف عن علاوة اخدعيه واقتسمت الهزيمة كلا الفريقين فلم يعرف الغالب من المغلوب * ولا السالب من المسلوب * خلا ابن خلف فانه قفى آثار فله * بمن ردهم الى محله * وورد الناعي على السلطان فناله من الغم لفقد العم * ما ينال الوالد لعدم واحده * والولد لافتقاد صنو والده * واستدل بما اتفق لابن خلف على احداق الشقاء به وبأبيه * واطباق البلاء عليه وعلى من يليه

لما سار الفرنج عن دمشق رحل نور الدين الى حصن العريمة وهو للفرنج فملكه وسبب ذلك ان
ملك الالمان لما خرج الى الشام كان معه ولد الفنش صاحب طليطلة وهو من اولاد ملوك
الفرنج وكان جده هو الذي اخذ طرابلس الشام من المسلمين فاخذ حصن العريمة وملكه
واظهر انه يريد اخذ طرابلس من القمص فارسل القمص الى نور الدين محمود وقد اجتمع هو
ومعين الدين أنز ببعلبك يقول له ولمعين الدين ليقصدا حصن العريمة ويملكاه من ولد الفنش
فسارا اليه مجدين في عساكرهما وارسلا الى سيف الدين وهو بحمص يستنجدانه فامدهما
بعسكر كثير مع الامير عز الدين ابي بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر وغيرها فنازلوا الحصن
وحصروه وبه ابن الفنش وامتنع به فزحف المسلمون اليه غير مرة وتقدم اليه النقابون فنقبوا
السور فاستسلم حينئذ من به من الفرنج فملكه المسلمون واخذوا كل من به من فارس وراجل
وصبي وامرأة وفيهم ابن الفنش واخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين وكان مثل ابن الفنش
كما قيل خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير اذنين

*(ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الامراء ووصولهم
الى بغداد وما كان منهم بالعراق)*

في هذه السنة فارق السلطان مسعود جماعة من اكابر الامراء وهم من اذربيجان ايلدكز
المسعودي صاحب كنجة وارانية وقيصر ومن الجبل البقش كون خر وتتر الحاجب وهو
مسعودي ايضا وطرنطاي المحمودي شحنة واسط والدكز وقرقوب وابن طغايرك وكان سبب
ذلك ميل السلطان الى خاص بك واطراحه لهم فخافوا ان يفعل بهم مثل فعله بعبد الرحمن
وعباس وبوزابة ففارقوه وساروا ونحوا العراق فلما بلغوا حلوان خاف الناس ببغداد واعمال
العراق وغلت الاسعار وتقدم الامام المقتفي لامر الله باصلاح السور وترميمه وارسل الخليفة
اليهم بالعبادي الواعظ فلم يرجعوا الى قوله ووصلوا الى بغداد في ربيع الآخر والملك محمد بن
السلطان محمود معهم ونزلوا بالجانب الشرقي وفارق مسعود بلال شحنة بغداد البلد خوفا
من الخليفة وسار الى تكريت وكانت له فعظم الامر على أهل بغداد ووصل اليهم علي بن
دبيس صاحب الحلة فنزل بالجانب الغربي فجند الخليفة اجنادا يحتمي بهم ووقع القتال بين
الامراء وبين عامة بغداد ومن بها من العسكر واقتتلوا عدة دفعات ففي بعض الايام انهزم
الامراء الاعاجم من عامة بغداد مكرا وخديعة وتبعهم العامة فلما بعدوا عادوا عليهم
وصار بعض العسكر من ورائهم ووضعوا السيف فقتل من العامة خلق كثير ولم يبقوا على
صغير ولا كبير وفتكوا فيهم فاصيب أهل بغداد بما لم يصابوا بمثله وكثر القتلى والجرحى وأسر
منهم خلق كثير فقتل البعض وشهروا البعض ودفن الناس من عرفوا ومن لم يعرف ترك طريحا
بالصحراء وتفرق العسكر في المحال الغربية فاخذوا من أهلها الاموال الكثيرة ونهبوا بلد
دجيل وغيره وأخذوا النساء والولدان ثم ان الامراء اجتمعوا ونزلوا مقابل التاج وقبلوا
الارض واعتذروا وترددت الرسل بينهم وبين الخليفة الى آخر النهار وعادوا الى خيامهم
ورحلوا الى النهروان فنهبوا البلاد وأفسدوا فيها وعاد مسعود بلال شحنة بغداد من تكريت
الى بغداد ثم ان هؤلاء الامراء تفرقوا وفارقوا العراق وتوفي الامير قيصر باذربيجان هذا كله

وحدث ان البقرة بحثت
عن المدية بروقيها * والنملة
يقضي عليها انبات جناحيها
ولو عقل الفراش لما عشا
ما عاش الى ضوء نار * ولا
تهافت في مصرع بوار
اسارت الفرس في اخبارها
مثلا
وللاعاجم في أيامها مثل
قالوا اذا جمل حانت منيته
اطاف بالبئر حتى يهلك الجمل
وزحف السلطان في شهور
سنة تسعين وثلثمائة الى
خلف بن احمد وهو محتجز
بحصار اصبهبذ قلعة بينها
وبين مجرى النجوم قاب
قوسين * بل قيد رمحين
تحور عن مراماتها الابصار
وتحاردون مساماتها الاطيار
فحاصره بها ممنوعا عن فسحة
الاختيار * ممنوا بشدة
الاضطرار * مفجوعا براحة
القرار ولذة الغرار * حتى
تخب الروع روعه * وودع
الروح روحه * فاستشعر
الخضوع والطاعه * واظهر
الخشوع والضراعه * وسأل
سؤال مستمكين ان ينفس
عن خناقه * ويعفى من حبل
ارهاقه * على أن يفتدي
بمائة ألف دينار * وما يليق
بها من خدمة ونثار وتحف
ومبار * فأجابه السلطان الى
ما استدعاه * ووكل به من
اقتضاء المال حتى استوفاه
وغادره كما هو في اسار الحصار

والسلطان مسعود مقيم ببلد الجبل والرسل بينه وبين عمه السلطان سنجر متصلة وكان السلطان سنجر قد أرسل اليه يلومه على تقديم خاص بك ويأمره بابعاده ويتهدده بانه ان لم يفعل ان يقصده ويزيله عن السلطنة وهو يغالط ولا يفعل فسار السلطان سنجر الى الري فلما علم السلطان مسعود بوصوله سار اليه وترضاه واستنزله عما في نفسه فسكن وكان اجتماعهما سنة أربع وأربعين على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر انهزام الفرنج بيغرى)

في هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكي الفرنج بمكان اسمه يغرى من ارض الشام وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها فعلم نور الدين فسار اليهم في عسكره فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتالا شديدا أجلت المعركة عن انهزام الفرنج وقتل كثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع الا القليل وارسل من الغنيمة والاسارى الى أخيه سيف الدين والى الخليفة ببغداد والى السلطان مسعود وغيرهم وفي هذه الوقعة يقول ابن القيسراني في قصيدته التي أولها

يا ليت أن الصد مصدود * أو لا فليت النوم مردود

ومنها ما هو في ذكر نور الدين

وكيف لا نثني على عيشنا المحمود والسلطان محمود
وصارم الاسلام لا ينثني * الا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة * الا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها * عند ملوك الكفر مشهود

(ذكر ملك الغورية غزنة وعودهم عنها)

في هذه السنة قصد سوري بن الحسين ملك الغور مدينة غزنة فملكها وسبب ذلك ان أخاه ملك الغورية قبله محمد بن الحسين كان قد صاهر بهرام شاه مسعود بن ابراهيم صاحب غزنة وهو من بيت سبكتكين فعظم شانه بالمصاهرة وعلت همته فجمع جموعا كثيرة وسار الى غزنة ليملكها وقيل انما سار اليها مظهرا الخدمة والزيارة وهو يريد المكر والغدر فعلم به بهرام شاه فاخذه وحبسه ثم قتله فعظم قتله على الغورية ولم يمكنهم الاخذ بثاره ولما قتل ملك بعده اخوه سام بن الحسين فمات بالجدري وملك بعده أخوه الملك سوري بن الحسين بلاد الغور والله اعلم وقوي أمره وتمكن في ملكه فجمع عسكره من الفارس والراجل وسار الى غزنة طالبا بثار أخيه المقتول وقاصدا ملك غزنة فلما وصل اليها ملكها في جمادى الاولى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفارقها بهرام شاه الى بلاد الهند وجمع جموعا كثيرة وعاد الى غزنة وعلى مقدمته السلار الحسين وابراهيم العلوي أمير هندوستان وكان عسكر غزنة الذين أقاموا مع سوري بن الحسين الغوري وخدموه قلوبهم مع بهرام شاه وانما هم بظواهرهم مع سوري فلما التقى سوري وبهرام شاه رجع عسكر غزنة الى بهرام شاه وصاروا معه وسلموا اليه سوري ملك الغورية وملك بهرام شاه غزنة في المحرم سنة أربع وأربعين وصلب الملك سوري مع السيد الماهياني في المحرم أيضا من السنة وكان سوري أحد الاجواد له الكرم الغزير والمروأة العظيمة حتى انه

وخناق الوثاق وفي نفسه قصد سجستان لكنه احب أن يجعل غزوة في الهند مقدمة لما نوخاه * وصدقة بين يدي نجواه * تبركا بما يجري على يديه من ارتفاع راية الدين * واتساع ساحة اليقين * وانارة كلمة الصدق واغارة قوة الحق * فتوغل بلاد الهند متوكلا على الله الذي هداه بنوره * وقضى له بالعز في مقدوره * وبالنجح في تصاريف اموره * حتى انتهى الى مدينة برشور فخيم بظاهرها وبلغه اجتراء عدو الله جيبال ملك الهند على اقانه * واستعجاله الفناء بمجاورة فنائه * فاستعرض الخيول من ابناء جريدته * وسائر الغزاة والمطوعة في جملته * واختار للجهاد خمسة عشر الف عنان من فحول الرجال * وقروم الابطال وحظر أن يختلط بهم من رده الاختبار وبهرجه الانتقاد حتى اذا خلص عددهم على الانتخاب واجتلاهم كجنان الصرائم او اسود الغاب * دلف بهم الى قتال الهجين اللعين بقلوب كالهضاب ثابته * وفروع صبر على دوح الاخلاص نابته * واقبل الفاجر الكافر في اثني عشر الف فارس وثلاثين ألف راجل وثلثمائة فيل تئن

كان يرمي الدراهم في المقاليع الى الفقراء لتقع بيد من تقع ومن يتفق له ثم عاودا الغورية وملكوها وخربوها وقد ذكرناه سنة سبع وأربعين وذكرناه هنا لابتداء دولة الغورية لانهم في ذلك الوقت عظم محلهم وفارقوا الجبال وقصدوا خراسان وعلا شأنهم وفي بعض الخلاف كما ذكرناه والله اعلم

(ذكر ملك الفرنج مدنا من الاندلس)

في هذه السنة ملك الفرنج بالاندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وافراغة ولم يبق للمسلمين في تلك الجهات شئ الا واستولى الفرنج على جميعه لاختلاف المسلمين بينهم وبقي بايديهم الى الآن

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة توفي أبو بكر المبارك بن الكامل بن أبي غالب البغدادي المعروف أبوه بالخفاف سمع الحديث الكثير وكان مفيد بغداد وفيها غلت الاسعار بالعراق وتعذرت الاقوات بسبب العسكر الوارد وقدم أهل السواد الى بغداد منهزمين قد أخذت أموالهم وهلكوا جوعا وعريا وكذلك أيضا كان الغلاء في أكثر بلاد خراسان وبلاد الجبل واصفهان وديار فارس والجزيرة والشام وأما المغرب فكان أشد غلاء بسبب انقطاع الغيث ودخول العدو اليها وفيها توفي ابراهيم بن نبهان الرقي ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وصحب الغزالي والشاشي وروى الجمع بين الصحيحين للحميدي عن مصنفه وفيها في ذي القعدة توفي الامام أبو الفضل الكرماني الفقيه الحنفي امام خراسان

(ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك زنكي وبعض سيرته وملك أخيه قطب الدين)

في هذه السنة توفي سيف الدين غازي بن أتابك زنكي صاحب الموصل بها بمرض حاد ولما اشتد مرضه أرسل الى بغداد واستدعى أوحد الزمان فحضر عنده فرأى شدة مرضه فعالجه فلم ينجع فيه الدواء وتوفي أواخر جمادى الآخرة وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما وكان حسن الصورة والشباب وكانت ولادته سنة خمسمائة ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل وخلف ولدا ذكرا فرباه عمه نور الدين محمود وأحسن تربيته وزوجه ابنة أخيه قطب الدين مودود فلم تطل ايامه وتوفي في عنفوان شبابه فانقرض عقب سيف الدين وكان كريما شجاعا عاقلا وكان يصنع كل يوم لعسكره طعاما كثيرا بكرة وعشية فاما الذي بكرة فيكون مائة رأس غنم جيدة وهو اول من حمل على رأسه السنجق وأمر الاجناد أن لا يركبوا الا بالسيف في أوساطهم والدبوس تحت أركبهم فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الاطراف وبنى المدرسة الاتابكية العتيقة بالموصل وهي من أحسن المدارس ووقفها على الفقهاء الحنفية والشافعية وبنى رباطا للصوفية بالموصل أيضا على باب المشرعة ولم تطل ايامه ليفعل ما في نفسه من الخير وكان عظيم الهمة ومن جملة كرمه انه قصده شهاب الدين الحيص بيص وامتدحه بقصيدته التي أولها

الارض من وطء اطرافها *
وتضعف من ثقل اخفافها
حتى اناخ قبالة السلطان
متطاولا بعدده * ومطاولا
بقوة باعه ويده * ويظن ان
كثرة الجموع تطوي كتاب
الله طيا * أو تغني من امر الله
شيا * ولو درس الجاهل كتاب
الله لقرأ كم من فئة قليلة
غلبت فئة كثيرة باذن الله
وارتز الكافر بمكانه جانحا
الى المطاوله متحرزا بالمدافعة
والمراوغه انتظارا لمن وراءه
من اوباش الجيوش واوشاب
القبائل والشعوب فأعجز
السلطان عما حكم به من
تقديم المطاوله * وتأخير
المقاتله * وبسط عليه ايدي
اولياء الله تعالى فأوسعوهم
ضربا ونهبا ومشقا ورشقا
وسرا ووخزا وحتا ونحتا
حتى اضطر الى الدفاع
وصلي نار القراع * فاسطفت
عند ذلك الخيول * وخفقت
الطبول * وزحفت الفيول
واقبل بعضهم على بعض
يصول * وترامت النبال
على النصل * ترامي ولدان
الاصائل بالخشل * وتلألأت
متون القواضب * كما تلألأ
برق الغيم جنح الغياهب *
وفارت ينابيع الدماء * كما
فاضت مجاديح الانواء *
وتكاثر اولياء الله على
جماهير المداعيم يؤزونهم
أزا * ويجنونهم رقصا وجزا

الامير الشد المجد في زي شاعر * وقد نحلت شوقا فروع المنابر

فوصله بالف دينار عين سوى الخلع وغيرها ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مقيما بالموصل فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش على تمليكه فاحضروه واستحلفوه وحلفوا له واركبوه الى دار السلطنة وزين الدين في ركابه واطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين كالموصل والجزيرة ولما ملك تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التي كان قد تزوجها أخوه سيف الدين وتوفي قبل الدخول بها وهي أم أولاد قطب الدين سيف الدين وعز الدين وغيرهما من أولاده

(ذكر استيلاء نور الدين على سنجار)

لما ملك قطب الدين مودود الموصل بعد اخيه سيف الدين غازي كان أخوه الاكبر نور الدين محمود بالشام وله حلب وحماة فكاتبه جماعة من الامراء وطلبوه وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد وكان حينئذ مستحفظا لسنجار فارسل اليه يستدعيه ليتسلم سنجار فسار جريدة في سبعين فارسا من امراء دولته فوصل الى ماكسين في نفر يسير قد سبق اصحابه وكان يوما شديد المطر فلم يعرفهم الذي يحفظ الباب فاخبر الشحنة ان نفرا من التركمان المتجندين قد دخلوا البلد فلم يستتم كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشحنة فقام اليه وقبل يده ولحق به باقي اصحابه ثم سار الى سنجار فوصلها وليس معه غير ركابي وسلاح دار ونزل بظاهر البلد وارسل الى المقدم يعلمه بوصوله فرآه الرسول وقد سار الى الموصل وترك ولده شمس الدين محمدا بالقلعة فاعلمه بسير والده الى الموصل واقام من لحق اباه بالطريق فاعلمه بوصول نور الدين فعاد الى سنجار فسلمها اليه فدخلها نور الدين وارسل الى فخر الدين قرا ارسلان صاحب الحصن يستدعيه اليه لمودة كانت بينهما فوصل اليه في عسكره فلما سمع اتابك قطب الدين وجمال الدين وزين الدين بالموصل بذلك جمعوا عساكرهم وساروا نحو سنجار فوصلوا الى تل يعفر وترددت الرسل بينهم بعد أن كانوا عازمين على قصده بسنجار فقال لهم جمال الدين ليس من الرأي محاقته وقتاله فاننا نحن قد عظمنا محله عند السلطان وما هو بصدده من الغزاة وجعلنا انفسنا دونه وهو يظهر للفرنج تعظيمنا وانه تبعنا ولا يزال يقول لهم ان كنتم كما يجب والا سلمت البلاد لصاحب الموصل وحينئذ يفعل بكم ويصنع فاذا لقيناه فان هزمناه طمع السلطان فينا ويقول هذا الذي كانوا يعظمونه ويحتمون به اضعف منهم وقد هزموه وان هو هزمنا طمع فيه الفرنج ويقولون ان الذين كان يحتمي بهم اضعف منه وقد هزمهم وبالجملة فهو ابن اتابك واشار بالصلح وسار هو اليه فاصطلح وسلم سنجار الى اخيه قطب الدين وسلم مدينة حمص والرحبة بارض الشام اليه وبقي الشام له وديار الجزيرة لاخيه واتفقا وعاد نور الدين الى حلب واخذ معه ما كان قد ادخره ابوه عماد الدين اتابك فيهما من الخزائن وكانت كثيرة جدا

(ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار)

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد ابن الامير ابي القاسم بن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر وكانت خلافته عشرين سنة الا خمسة اشهر وعمره نحو من سبع وسبعين سنة ولم يزل في جميعها محكوما عليه يحكم عليه وزراؤه حتى انه جعل ابنه حسنا

فلم ينتصف النهار الا باتصاف المسلمين * من أعداء الله المشركين * وحكموا السيوف في زهاء خمسة آلاف رجل فبسطوهم على العراء * وأطعموهم سباع الارض وطيور الهواء * وجدل على صعيد المعترك خمسة عشر فيلا مغروزات العراقيب * باطراف النشاشيب * محزوزات الخراطيم * بأسياف اللهاميم * وأحيط بعدو الله جيبال وبنيه وحفدته وبني أخيه * وذوي الصيت من رهطه وذويه * فسيقوا بخزائم الاسر والقسر الى موقف السلطان كما يساق المجرمون الى النيران * وجوه عليها غبرة الكفران * ترهقها قترة الخذلان * فمن مكتوف الى الظهر قهرا * أو مصحوب على الخد جبرا * ومضروب على الوريد صبرا * وحل مقلد جيبال عن نظيم مرصع فرائد الدر * والجواهر الزهر قوم بمائتي ألف دينار وأصيب أضعافه في اعناق المقتسمين من قرابته بين قتل وأسر * والمطعمين شدقي ضبع ونسر * ونفل الله أولياءه ما فات حد الاحصاء وجاز جهد الحصر والاستقصاء * وأغنمهم خمسمائة ألف رأس من روقة العبيد والاماء * وآب

وزيرا وولى عهده فحكم عليه واستبد بالامر دونه وقتل كثيرا من امراء دولته وصادر كثيرا
فلما رأى الحافظ ذلك سقاه سما فمات وقد ذكرناه ولم يل الامر من العلويين المصريين من ابوه
غير خليفة غير الحافظ والعاضد وسيرد ذكر نسب العاضد وولى الخلافة بعده بمصر ابنه الظافر
بامر الله ابو منصور اسمعيل بن عبد المجيد الحافظ واستوزر ابن مصال فبقى اربعين يوما
يدبر الامور فقصده العادل بن السلار من ثغر الاسكندرية ونازعه فى الوزارة وكان ابن مصال
قد خرج من القاهرة فى طلب بعض المفسدين من السودان فخالفه العادل بالقاهرة وصار وزيرا
وسير عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى فى عسكره وهو ربيب
العادل الى ابن مصال فظفر به وقتله وعاد الى القاهرة واستقر العادل وتمكن ولم يكن للخليفة
معه حكم واما سبب وصول عباس الى مصر فان جده يحيى اخرج ابا الفتوح من المهدية فلما
توفى يحيى وولى بعده بلاد افريقية ابنه على بن يحيى بن تميم بن يحيى صاحب افريقية اخرج أخاه
أبا الفتوح والد عباس من افريقية سنة تسع وخمسمائة فسار الى الديار المصرية ومعه زوجته
بلارة ابنة القاسم بن تميم بن المعز بن باديس وولده عباس هذا وهو صغير يرضع ونزل أبو الفتوح
بالاسكندرية فاكرم واقام بها مدة يسيرة وتوفى وتزوجت بعده امرأته بلارة بالعادل بن
السلار وشب العباس وتقدم عند الظافر حتى ولى الوزارة بعد العادل فان العادل قتل فى
المحرم سنة ثمان واربعين قيل وضع ربيبه عباس من قتله فلما قتل ولى الوزارة بعده وتمكن منها
وكان جلدا حازما ومع هذا فى ايامه اخذ الفرنج عسقلان واشتد وهن الدولة بذلك وفى ايامه
أخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق وصار الامر بعد هذا الى ان أخذت مصر منهم
على ما نذكره بعد ان شاء الله تعالى

(ذكر عود جماعة من الامراء الى العراق)

فى هذه السنة فى رجب عاد البقش كون خر والطرنطاى وابن دبيس ومعهم ملكشاه ابن
السلطان محمود الى العراق وراسلوا الخليفة فى الخطبة لملكشاه فلم يلتفت اليهم وجمع العساكر
وحصن بغداد وارسل الى السلطان مسعود يعرفه بالحال فوعده بالوصول الى بغداد فلم يحضر
وكان سبب ذلك ما ذكرناه من وصول عمه السلطان سنجر الى الرى فى معنى خاص بك فلما وصل
الى الرى سار اليه السلطان مسعود ولقيه واسترضاه فرضى عنه فلما علم البقش بمراسلة الخليفة
الى مسعود نهب النهروان وقبض على الامير على بن دبيس فى رمضان فلما علم الطرنطاى بذلك
هرب الى النعمانية ووصل السلطان مسعود الى بغداد منتصف شوال ورحل البقش كون خر
من النهروان واطلق على بن دبيس فلما وصل السلطان الى بغداد قصده على والقى بنفسه
بين يديه واعتذر فرضى عنه وذكر بعض المؤرخين هذه الحادثة سنة أربع واربعين وذكر
أيضا مثلها سنة ثلاث واربعين فظنهما حادثتين وانا اظنها واحدة وانما تبعناه فى ذلك
ونبهنا عليه

(ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية وهزيمة الفرنج)

فى هذه السنة غزا نور الدين محمود بن زنكى بلاد الفرنج من ناحية انطاكية وقصد حصن حارم
وهو للفرنج فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل الى حصن انب فحصره ايضا فاجتمعت

السلطان بمن معه من
الاولياء * الى المعسكر غانمين
وافرين ظاهرين * ظافرين
شاكرين * لله رب العالمين
وفتح الله على السلطان من
بلاد الهند أرضا * تتضاءل
بلاد خراسان فى جنبها
طولا وعرضا * ووافقت هذه
الوقعة الباهر أثرها * السائر
فى الآفاق خبرها * يوم الخميس
الثامن من المحرم سنة
اثنتين وتسعين وثلثمائة
ولما وضعت هذه الحرب
أحمالها * وحطت عن الظهور
اثقالها * أحب السلطان أن
يصرف الجبت وراءه ليراه
بنوه وذووه فى شعار العار
واسار الخسار * وتستطير
هيبة الاسلام فى ديار
الكفار * فواقفه على خمسين
رأسا من خفاف الافيال
وارتهن ابنا وحافده على
الوفاء بها على الكمال * وعاد
الكافر وراءه * حتى اذا
استقر مكانه * كاتب ابنه
أندبال وشاهيته وراء سيحون
يشكو اليه ما عراه من
الفاقرة الكبرى * والداهية
العظمى * وسأله سؤال ملحف
أن يؤدى عنه الضمان * بما
عزوهان * فساق اليه تلك
الفيول * وصرف الرسول
وسيقت جملتها الى السلطان
فأمر بالافراج عن أولئك
الرهائن * وكسع أدبارهم
بقوتات المدائن * وحدث

الفرنج مع البرنس صاحب انطاكية وحارم وتلك الاعمال وساروا الى نور الدين ليرحلوه عن انب فلقيهم واقتتلوا قتالا عظيما وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم فانهزم الفرنج اقبح هزيمة وقتل منهم جمع كثير وأسر مثلهم وكان ممن قتل البرنس صاحب انطاكية وكان عاتيا من عتاة الفرنج وعظمائهم ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت امه ببرنس آخر ليدبر البلد الى ان يكبر ابنها واقام معها بانطاكية ثم ان نور الدين غزاهم غزوة اخرى فاجتمعوا ولقوه فهزمهم وقتل فيهم واسر وكان فيمن أسر البرنس الثانى زوج أم بيمند فتمكن حينئذ بيمند بانطاكية واكثر الشعراء مديح نور الدين وتهنئته بهذا الظفر فان قتل البرنس كان عظيما عند الطائفتين وممن قال فيه القيسرانى الكاتب فى القصيدة المشهورة التى اولها

هذى العزائم لا ما تدعى القضب * وذى المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتى متى خطبت * تعثرت خلفها الاشعار والخطب

صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها * براحة للمساعى دونها تعب

ما زال جدك يبنى كل شاهقة * حتى بنى قبة اوتادها الشهب

أغرت سيوفك بالافرنج راجفة * فؤاد رومية الكبرى لها يجب

ضربت كبشهم منها بقاصمة * أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

طهرت أرض الاعادى من دمائهم * طهارة كل سيف عندها جنب

(ذكر الخلف بين صاحب صقلية وملك الروم)

فى هذه السنة اختلف رجار الفرنجى صاحب صقلية وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد افريقية وكان القتال بينهم برا وبحرا والظفر فى جميع ذلك لصاحب صقلية حتى ان اسطوله فى بعض السنين وصل الى مدينة القسطنطينية ودخل فم المينا واخذوا عدة شوانى من الروم واسروا جماعة منهم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب وكان الذى يفعل هذا بالروم والمسلمين جرجى وزير صاحب صقلية فمرض عدة امراض منها البواسير والحصا ومات سنة ست واربعين وخمسمائة فسكنت الفتنة واستراح الناس من شره وفساده ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه بعده

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة زلزلت الارض زلزلة عظيمة فقيل ان جبلا مقابل حلوان ساخ فى الارض وفيها ولى أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتفى لامر الله وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام وظهر له كفاية عظيمة عند نزول العساكر بظاهر بغداد وحسن قيام فى ردهم فرغب الخليفة فيه فاستوزره يوم الاربعاء رابع ربيع الآخر سنة اربع واربعين وكان القمر على تربيع زحل فقيل له لو أخرت لبس الخلعة لهذه التربيعات فقال واى سعادة اكبر من وزارة الخليفة ولبسها ذلك اليوم وفيها فى المحرم توفى قاضى القضاة على بن الحسين الزينبى وولى القضاء عماد الدين ابو الحسن على بن احمد الدامغانى وفيها فى المحرم رخصت الاسعار بالعراق

نفسه اندبال بان أباه قد لبس بردة الخرف * وعض على جرة الهرم وقد طلع عليه نسر الاسرود بران الادبار وتوته عوى الامتحان وشالت به شولة الخذلان فقد حان ان يلقى حينه ويتقاضى عليه الزمان دينه * ومن سنتهم المطاعة فيهم ان من حصل منهم فى أيدى الثائبة وهم المسلمون أسيرا لم ينعقد له من بعد رياسه * ولم تستتم له زعامة وسياسه * ولما رأى جيبال حصوله بين قيد الهرم وقد المذلة آثر النار * على العار والمنيه * على الدنيه * فبدأ بشعره فحلق * ثم تحامل على النار فاحترق * ولما استتب للسلطان ما أراد * وانقاد له ما اقتاد * ارتاح لغزوة أخرى يطرز بها ديباجة مقامه * ويعلم بجمالها عذبات أعلامه * فمال نحو بهند فضرب عليها بكلكل الاقتدار حتى افتتحها صغرا واعتاض منها بعد العسر يسرا * وبلغه لياذ طوائف من الهنود بشعاب تلك الاعلام * واستتارهم بخمر الغياض والآجام * متحدثين بالتحزب والتألب على العناد فأغزاهم جيشا يدوخ مجالهم * ويفرق قبل الوصول أوصالهم * فولغت فيهم السيوف حتى رويت من

وكثرت الخيرات وخرج أهل السواد الى قراهم وفيها توفى الامير قطر امير الحاج وكان قد سار بالحاج الى الحلة فمرض واشتد مرضه واستخلف على الحاج قايماز الارجوانى وعاد الى بغداد مريضا فتوفى فى ذى القعدة وكان خصيا عاقلا خيرا المعروف كثير وصدقات وافرة وفيها توفى احمد بن نظام الملك الذى كان وزير السلطان محمد والمسترشد بالله وفيها توفى على بن رافع بن خليفة الشيبانى وهو من أعيان خراسان وله مائة وسبع سنين شمسية ومات الامام مسعود الصوابى فى المحرم منها وفيها توفى معين الدين أنز نائب أبق صاحب دمشق وهو كان الحاكم والامر اليه وكان أبق صورة اميرلا معنى تحتها وفيها توفى القاضى احمد بن محمد بن الحسين الارجانى أبو بكر قاضى تستر وله شعر حسن فمنه قوله

ولما بلوت الناس اطلب عندهم * اخا ثقة عند اعتراض الشدائد
تطلعت فى حالى رخاء وشدة * وناديت فى الاحياء هل من مساعد
فلم أر فيما ساءنى غير شامت * ولم أر فيما سرنى غير حاسد
تمتعتما يا ناظرىّ بنظرة * واوردتما قلبى أمرّ الموارد
أعينىّ كفا عن فؤادى فانه * من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

وفيها توفى أبو عبد الله عيسى بن هبة الله بن عيسى البزاز وكان ظريفا وله شعر حسن كتب اليه صديق له رقعة وزاد فى خطابه فاجابه

قد زدتنى فى الخطاب حتى * خشيت نقصا من الزياده
فاجعل خطابى خطاب مثلى * ولا تغير علىّ عاده *

(ثم دخلت سنة خمس واربعين وخمسمائة)

(ذكر أخذ العرب الحجاج)

فى هذه السنة رابع عشر المحرم خرج العرب زعب ومن انضم اليها على الحجاج بالغرابى بين مكة والمدينة فاخذوهم ولم يسلم منهم الا القليل وكان سبب ذلك ان نظرا امير الحاج لما عاد من الحلة على ما ذكرناه وسار على الحاج قايماز الارجوانى وكان حدثا غرا فسار بهم الى مكة فلما رأى أمير مكة قايماز استصغره وطمع فى الحاج وتلطف قايماز الحال معه الى ان عادوا فلما سار عن مكة سمع باجتماع العرب فقال للحاج من المصلحة أنا لا نمضى الى المدينة فضج العجم وتهددوه بالشكوى منه الى السلطان سنجر فقال لهم فأعطوا العرب مالا نستكفى به شرهم فامتنعوا من ذلك فسار بهم الى الغرابى وهو منزل يخرج اليه من مضيق جبلين فوقفوا على فم مضيق وقاتلهم قايماز ومن معه فلما رأى عجزه اخذ لنفسه أمانا وظفروا بالحاج وغنموا أموالهم وجميع ما معهم وتفرق الناس فى البر وهلك منهم خلق كثير لا يحصون كثرة ولم يسلم الا القليل فوصل بعضهم الى المدينة وتحملوا منها الى البلاد واقام بعضهم مع العرب حتى توصل الى البلاد ثم ان الله تعالى اقتص للحاج من زعب فلم يزالوا فى نقص وذلة ولقد رأيت شابا منهم بالمدينة سنة ست وسبعين وخمسمائة وجرى بينى وبينه مفاوضة قلت له فيها انى والله كنت اميل اليك حتى سمعت انك من زعب فنفرت وخفت شرك فقال لم فقلت بسبب أخذكم الحاج فقال لى انا لم أدرك ذلك الوقت وكيف رأيت الله صنع بنا والله ما افلحنا ولا نجحنا قل العدد وطمع العدو فينا.

*(ذكر

رشاش دمائهم * وصدئت من مخالطة أحشائهم وتهارب من سلم من ظباتها كالا وعال * فى ربود تلك الجبال * يرون الكواكب ظهرا * والمنايا سودا وحمرا وذاقوا وبال امرها وكان عاقبة أمرها خسرا * وانقلبت رايات السلطان الى غزنة خافقة بالنجح الشائع * والفتح الرائع * والحول المتين * والنصر المستبين * وقد أشرق وجه الاسلام وابتسم ثغر الايمان وانشرح صدر الملة * وانقصم ظهر الشرك والبدعة * وقد كان خلف بن أحمد عند انصراف راية السلطان عن وجهه عهد الى ولده طاهر فى اعمال سجستان وأسند أمورها اليه ايثارا له على نفسه وهداه كريمة الملك اليه قبل وقته * تثبيتا لها فى ملكه قبل استحقاقه اياها بارثه تعريضا للسلطان باستعفائه عن الملك * واقباله على النسك واعتياضه تواضع العباده * عن ترفع السياده * ليقطع بخروج الامر من يده * طمعه عن قصده وحصده * فلما تنفست المدة على ماولاه نطقت شواهد الجود فى اختياره * وبدت نواجذ العقوق عن شق آثاره * فلم يزل يلاطفه ويداريه * حتى أعياه ما نواه فيه * ثم تمارض

(ذكر فتح حصن فاميا)

في هذه السنة فتح نور الدين محمود بن الشهيد زنكي حصن فاميا من الفرنج وهو مجاور شيزر وحماة على تل عال من أحصن القلاع وامنعها فسار نور الدين اليه وحصره وبه الفرنج وقاتلهم وضيق على من به منهم فاجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحوه ليرحلوه عنهم فلم يصلوا الا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه سير الفرنج اليه رحل عنه وقد فرغ من أمر الحصن وسار اليهم يطلبهم فحين رأوا ان الحصن قد ملك وقوة عزم نور الدين على لقائهم عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم وراسلوه في المهادنة وعاد سالما مظفرا ومدحه الشعراء وذكروا هذا الفتح فمن ذلك قول ابن الرومي من قصيدة أولها

اسنى الممالك ما أطلت منارها * وجعلت مرهفة الدسار دسارها
واحق من ملك البلاد وأهلها * رؤف تكنف عدله اقطارها

ومنها في وصف الحصن

ادركت ثارك في البغاة وكنت يا * مختار امة احمد مختارها
ضاات نجومك فوقها والطالما * باتت تناقشها النجوم شرارها
* عاديه الزمن المعبر مماالها * منك المغيرة فاستردمعارها
امست مع الشعرى العبور واصبحت * شعراء تستفلي الفحول شوارها

وهي طويلة

(ذكر حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها)

في هذه السنة سار السليطين وهو الاذفونش وهو ملك طليطلة واعمالها وهو من ملوك الجلالقة نوع من الفرنج في اربعين الف فارس الى مدينة قرطبة فحصرها وهي في ضعف وغلاء فبلغ الخبر الى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكرا كثيرا وجهزه مقدمهم ابا زكريا يحيى بن يرموز ونفذهم الى قرطبة فلما قربوا منها فلم يقدروا ان يلقوا عسكر السليطين في الوطاء وارادوا الاجتماع باهل قرطبة ليمنعوها الخطر العاقبة بعد القتال فسلكوا الجبال الوعرة والمضايق المتشعبة فساروا نحو خمسة وعشرين يوما في الوعر في مسافة أربعة أيام في السهل فوصلوا الى الجبل المطل على قرطبة فلما رآهم السليطين وتحقق امرهم رحل عن قرطبة وكان فيها القائد أبو الغمر السائب من ولد القايد ابن غلبون وهو من أبطال أهل الاندلس وامرائها فلما رحل الفرنج خرج منها لوقته وصعد الى ابن يرموز وقال له انزلوا عاجلا وادخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذي كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو الغمر هذا الذي خفته عليكم لاني علمت ان السليطين ما اقام الا طالبا لكم فان من الموضع الذي كان فيه طريق سهلة ولو لحقكم هناك نال مراده منكم ومن قرطبة فلما رأى السليطين انهم قد فاتوه علم انه لم يبق له طمع في قرطبة فرحل عائدا الى بلاده وكان حصره لقرطبة ثلاثة اشهر والله أعلم

(ذكر ملك الغورية هراة)

في هذه السنة سار ملك الغور الحسن بن الحسين من بلاد الغور الى هراة فحصرها وكان أهلها

خلف في المصار المذكور واستدعى ابنه لقبول الوصيه * وتسليم الودايع الخفيه * فغفل عن سر التدبير وتدبر العقاب والنكير وأقبل اقبال طرفه بن العبد على خصلتي الضبع من ضرب الجيد * أو حز الوريد * وقد كان خلف بن أحمد كمن له مقانب من جيشه فاحاطوا به احاطة خيل الزباء بجذيمة الوضاح الى أن حصل في معتقله * وحبس في مكمن اجله * وبقي في السجن على حاله الى ان اخرجت جنازته محالا عليه في قتل نفسه والجناية على روحه ودمه ولما سمع طاهر بن زيد صاحب جيش خلف بن احمد وسائر القواد بسجستان ما جرى في امر طاهر دخلت في طاعته ضمائرهم * ونغلت في موالاته سرائرهم وانتقضت خوف الاسوة فيه مرائرهم * وضبطوا تلك المدينة على طاعة السلطان ومشايعته وارسلوا اليه بما وجبوه من التمسك بحبل الطاعه * والتمسك بدين الجماعه * وسألوا انهاض من يتولى تسليم الناحية منهم ليبتدروا الى بابه * ويتعطروا بلثم ترابه * ففعل السلطان ما سألوه وجزاهم الخير على ما فعلوه

قد كاتبوه وطلبوا اليه ليسلموها اليه هربا من الاتراك لظلمهم وزوال هيبة السلطنة عنهم فامتنع اهل
هراة عليه ثلاثة أيام ثم خرجوا اليه وسلموا البلد واطاعوه فاحسن اليهم وافاض عليهم النعم
وغمرهم بالعدل وأظهر طاعة السلطان سنجر والقيام على الوفاء له والانقياد اليه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة امر علاء الدين محمود بن مسعود الغالب على أمر طريثيث اقامة الخطبة للخليفة
ولبس السواد ففعل الخطيب ذلك فثار به عمه واقاربه ومن وافقهم وقاتلوه وكسروا المنبر
وقتلوا الخطيب وكان فعل علاء الدين هذا لان اباه كان مسلما فلما تغلب الاسماعيلية على
طريثيث اظهر موافقتهم وابطن اعتقاد الشريعة وكان يناظر على مذهب الشافعي وازداد
تقدما بطريثيث وجرت امورها بارادته فلما حضره الموت اوصى ان يغسله فقيه شافعي واوصى
الى ابنه علاء الدين ان امكنه ان يعيد فيها اظهار شريعة الاسلام فعل فلما رأى من نفسه قوة
فعله فلم يتم له وفيها كثر المرض بالعراق لاسيما ببغداد وكثر الموت أيضا فيها ففارقها السلطان
مسعود وفيها توفي الامير علي بن دبيس بن صدقة صاحب الحلة بأسد اباد واتهم طبيبه محمد بن
صالح بالمواطأة عليه فمات الطبيب بعده بقريب وفيها استوزر عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب
اباجعفر ابن أبي أحمد الاندلسي وكان ماسورا عنده فوصف له بالعقل وجودة الكتابة فاخرجه
من الحبس واستوزره وهو أول وزير كان للموحدين وفي هذه السنة في المحرم جلس يوسف
الدمشقي مدرسا في النظامية ببغداد وكان جلوسه بغير امر الخليفة فمنع يوم الجمعة من دخول
الجامع فصلى في جامع السلطان ومنع من التدريس فتقدم السلطان مسعود الى الشيخ ابي
النجيب بان يدرس فيها فامتنع بغير امر الخليفة فاستخرج السلطان اذن الخليفة في ذلك فدرس
منتصف المحرم من السنة وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن علي بن مهران الفقيه الشافعي تفقه على
الهراسي وولي قضاء نصيبين ثم ترك القضاء وتزهد فاقام بجزيرة ابن عمر ثم انتقل الى جبل بيلد
الحصن في زاوية وكان له كرامات ظاهرة وفيها مات الحسن بن ذي النون بن أبي القاسم بن أبي
الحسن المسعري ابو المفاخر النيسابوري سمع الحديث الكثير وكان فقيها اديبا دائم الاشتغال
يعظ الناس وكان مما ينشد

مات الكرام وولوا وانقضوا ومضوا * ومات من بعدهم تلك الكرامات
وخلفوني في قوم ذوي سفه * لو ابصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

(ثم دخلت سنة ست واربعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك)

في هذه السنة جمع نور الدين محمود عسكره وسار الى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمال حلب
منها تل باشر وعين تاب واعزاز وغيرها وعزم على محاصرتها واخذها وكان جوسلين لعنه الله
فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأى فلما علم بذلك جمع الفرنج فاكثر وسار نحو
نور الدين فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون وقتل منهم واسر جمع كثير وكان في جملة من
أسر سلاحدار نور الدين فاخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره الى الملك مسعود بن
قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وقال له هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما أعظم منه

فلما

واقيمت الدعوة للسلطان
بها في سنة ثلاث وتسعين
وثلثمائة ولما فتح الله له
رتاجها * ويسر له انفراجها
عزم على قصد خلف وحسم
دائه * وكفاية الخاصة
والعامة عوادي مكره ودهائه
وهو يومئذ بحصار الطاق
ومن صفته انه ذو سبعة
اسوار رفيعة الجدران
منيعة البنيان * وثيقة
الاركان * يحيط بها خندق
بعيد القعر فسيح العرض
منيع المخاض لا يعبر منه
الى المدينة الا من طريق
في مضيق على جسر يطرح
عند الحاجة ويرفع وقت
الاستغناء عنه فعسكر
السلطان حواليه محيطا به
من جوانبه احاطة المحيط
بنقطة المركز وجعل
يستقري بالرأي وجه الحيلة
في طم ذلك الخندق
وكبسه ليستدف على
الفارس والراجل خوضه
وعبوره وكانت حوالي
معسكره منابت اثل
وطرفاء ذوات احتفاف
والتفاف فعرض على اهل
عسكره خاصهم وعامهم
وراجلهم وفارسهم * عضد
ما يمكنهم عضده منها
اضغاثا وحزما تلقم عرض
الخندق ليستتب ظهور
الجمال والمخترق وبادر
الناس اليه فلم تشرق شمس

فلما علم نور الدين الحال عظم عليه ذلك وعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ بثاره واحضر جماعة من امراء التركمان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا بجوسلين وسلموه اليه اما قتيلا او اسيرا لانه علم انه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيدا فلحقت به طائفة منهم وظفروا به فصانعهم على مال يؤديه اليهم فاجابوه الى اطلاقه اذا احضر المال فارسل في احضاره فمضى بعضهم الى أبي بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب فاعلمه الحال فسير عسكرا معه فكبسوا اولئك التركمان وجوسلين معهم فاخذوه اسيرا واحضروه عنده وكان اسره من أعظم الفتوح لانه كان شيطانا عاتيا شديدا على المسلمين قاسي القلب واصيبت النصرانية كافة باسره ولما أسر سار نور الدين الى قلاعه فملكها وهي تل باشر وعين تاب واعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة يرد تفصيلها وكان نور الدين كلما فتح منها حصنا نقل اليه من كل ما تحتاج اليه الحصون خوفا من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من العدو ومدحه الشعراء فممن قال فيه القيسراني من قصيدة في ذكر جوسلين

كما أهدت الاقدار للقمص اسره * واسعد قرن من حواه لك الاسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه * فاوبقه الكفران عدواه والكفر
وامست عزاز كاسمها بك عزة * تشق على النسرين لوانها وكر
فسر واملا الدنيا ضياء وبهجة * فبالافق الداجي الى ذا السنا فقر
كأني بهذا العزم لا فل حده * واقصاه بالاقصى وقد قضى الامر
وقد اصبح البيت المقدس طاهرا * وليس سوى جاري الدماء له طهر

(ذكر حصر غرناطة والمرية من بلاد الاندلس)

في هذه السنة سير عبد المؤمن جيشا كثيفا نحو عشرين ألف فارس الى الاندلس مع ابي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وسير معهم نساءهم فكن يسرن مفردات عليهن البرانس السود ليس معهن غير الخدم ومتى قرب منهن رجل ضرب بالسياط فلما قطعوا الخليج ساروا الى غرناطة وبها جمع من المرابطين فحصرها عمر وعسكره وضيقوا عليها فجاء اليه احمد بن ملحان صاحب مدينة وادي آش واعمالها بجماعته ووحدوا وصار معه واتاه ابراهيم ابن همشك صهر بن مردنيش صاحب جيان واصحابه ووحدوا وصاروا أيضا معه فكثر جيشه وحرضوه على المسارعة الى ابن مردنيش ملك بلاد شرق الاندلس ليبغته بالحصار قبل أن يتجهز فلما سمع ابن مردنيش ذلك خاف على نفسه فارسل الى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول اليه فسار اليه الفرنجي في عشرة آلاف فارس وسار عسكر عبد المؤمن فوصلوا الى حمة بلقوارة وبينها وبين مرسية التي هي مقر ابن مردنيش مرحلة فسمعوا بوصول الفرنج فرجع وحصر مدينة المرية وهي للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء في العسكر وعدمت الاقوات فرحلوا عنها وعادوا الى اشبيلية فاقاموا بها

(ذكر عدة حوادث)

النهار على التكبيد حتى اعرض عرض المخاضة من جانب باب الحصار للركوب وثار اليه عند ذلك الخيول وتبعتها الفيول * ومانع اصحاب خالف بن احمد من شرفات الحصار * بقذفات الاحجار * واشتعلت بينهم الحرب ترمي بشرر كالقصر وتحمى على القصرات بالفرس والقسر * وزحف الفيل العظيم الى باب الحصار فاقتلعه بنابه وزخ به في الهواء فانحط الى الارض من حالق وقتل من اصحاب خالف الجم الغفير ولجأ الباقون على اطراف الحاجز الى السور الداخل وذمر عسكر السلطان على الحصار وتماسك اصحاب خالف فوق شرافات السور الآخر مناضلين عنها بأحجار المجانيق * واطراف الحراب والمزاريق * واطلع خالف ابن احمد عند اشتداد الخطب على ملتقى الفريقين فرأى هول المطلع ورأى تموج الفضاء بعفاريت الانجاد * على شياطين الجياد وتطاير النبال كرجل الجراد * وترامي الحراب كعزالي السحاب * وفيح الدماء * كسيح السماء * وعاين الفيل قد اهوى الى بعض اصحابه بخرطومه فرمى به

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي العبادي الواعظ واسمه المظفر بن اردشير بخوزستان وكان الخليفة المقتفي لامر الله قد سيره في رسالة الى الملك محمد بن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بدر الحوائزي فتوفي هناك وجلس ولده ببغداد للعزاء واقيم بحاجب من الديوان العزيز وكان ابنه يجلس ويعظ ويذكر والده ويبكي هو والناس كافة ونقل العبادي الى بغداد ودفن بالشونيزي ومولده سنة احدى وتسعين واربعمائة وسمع الحديث من أبي بكر السروي وزاهر الشحامي وغيرهما وفيها انفجر بثق النهروان الذي اتهم بهروز بكثرة الزيادة في تامرا واهمال امرها حتى عظم ذلك وتضرر به الناس وفيها سار الامير بحق في طائفة من عسكر السلطان سنجر الى طريثيث بخراسان واغار على بلاد الاسماعيلية فنهب وسبى وخرب واحرق المساكن وفعل بهم افاعيل عظيمة وعاد سالما

(ثم دخلت سنة سبع واربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بني حماد)

في هذه السنة سار عبد المؤمن بن علي الى بجاية وملكها وملك جميع ممالك بني حماد وكان لما اراد قصدها سار من مراكش الى سبتة سنة ست واربعين فاقام بها مدة يعمل الاسطول ويجمع العساكر القريبة منه واما ما هو على طريقه الى بجاية من البلاد فكتب اليهم ليتجهزوا ويكونوا على الحركة اى وقت طلبهم والناس يظنون انه يريد العبور الى الاندلس فارسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برا وبحرا وسار من سبتة في صفر سنة سبع واربعين فاسرع السير وطوى المراحل والعساكر تلقاه في طريقه فلم يشعر اهل بجاية الا وهو في اعمالها وكان ملكها يحيى ابن العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد وكان مولعا بالصيد واللهو لا ينظر في شيء من امور المملكة قد حكم فيها بنو حمدون فلما اتصل الخبر بميمون بن حمدون جمع العسكر وسار عن بجاية نحو عبد المؤمن فلقيهم مقدمته وهي تزيد على عشرين ألف فارس فانهزم اهل بجاية من غير قتال ودخلت مقدمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومين وتفرق جميع عسكر يحيى ابن العزيز وهربوا برا وبحرا وتحصن يحيى بقلعة قسطنطينية الهواء وهرب اخواه الحرث وعبد الله الى صقلية ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال ثم ان يحيى نزل الى عبد المؤمن بالامان فأمنه وكان يحيى قد فرح لما أخذت بلاد افريقية من الحسن بن علي فرحا ظهر عليه فكان يذمه ويذكر معايبه فلم تطل المدة حتى اخذت بلاده ووصل الحسن بن علي الى عبد المؤمن في جزائر بني مزغنان وقد ذكرنا سنة ثلاث واربعين سبب مصيره اليها واجتمعا عنده فارسل عبد المؤمن يحيى بن العزيز الى بلاد المغرب واقام بها واجرى عليه شيأ كثيرا واما الحسن بن علي فانه احسن اليه والزمه صحبته واعلى مرتبته فلزمه الى ان فتح عبد المؤمن المهدية فجعله فيها وامر واليها ان يقتدي برأيه ويرجع الى قوله ولما فتح عبد المؤمن بجاية لم يتعرض الى مال أهلها ولا غيره وسبب ذلك ان بني حمدون استأمنوا فوفى لهم بامانه

(ذكر ظفر عبد المؤمن بصنهاجة)

لما ملك عبد المؤمن بجاية تجمعت صنهاجة في امم لا يحصيها الا الله تعالى وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قصبة واجتمع معهم من كتامة ولواتة وغيرها خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن فارسل

في الهواء قاب رمحين ثم تلقاه ببنانيه * واقبل على آخرين يدوسهم بمنسمه ثم انحى على الباب بمنكبيه فزعزعه بعضادتيه * واقتلعه بضبات الحديد عليه * فاستطار عند ذلك قلبه وجاش جاشه وارتاع روعه واضطره هول المقام * وفزع الاصطلام * الى طلب الامان واستغاثة السلطان * فكف عنه يد الاخترام * ووضع عنه سوط الانتقام * كرما غذاه الله بدره * واطربه بنشوة خمره * واقبل خلف ابن احمد على بذله الجائزة حتى استؤذن له على السلطان فدخل واهوى الى الارض بشيبته البيضاء متعززا بذل الخدمة وغشى البساط من سبج الجواهر والفرائد بما كسف النهار * وخطف الابصار نثارا ينوب عنه في شكر ما اذاقه من برد العفو والرحمة وحماه من حريم الروح والمهجة فتكرم السلطان بالرفع من قدره وضم يده عند التقريب الى صدره * تناسيا لما سبق من هناته * وتغابيا عما اقدم من ذحوله وتراته * وحكمه في احتمال ما احب من زبد يساره * وذخائر حصاره * وخيره في المقام حيث شاء من ديار مملكته وامصاره

اليهم جيشا كثيرا ومقدمهم ابو سعيد يخلف وهو من الخمسين فالتقوا فى عرض الجبل شرقى
بجاية فانهزم ابو قصبة وقتل اكثر من معه ونهبت اموالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم ولما
فرغوا من صنهاجة ساروا الى قلعة بنى حماد وهى من احصن القلاع واعلاها لا ترام على رأس
جبل شاهق لا يكاد الطرف يحققها لعلوها ولكن القدر اذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش فلما
رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها فى رؤس الجبال وملكت القلعة واخذ جميع ما فيها
من مال وغيره وحمل الى عبد المؤمن فقسمه بين اصحابه

(ذكر وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه محمد بن محمود)

فى هذه السنة اول رجب توفى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وكان مرضه حمى
حادة نحو اسبوع وكان مولده سنة اثنتين وخمسمائة فى ذى القعدة ومات معه سعادة البيت
السلجوقى فلم يقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت اليها

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان رحمه الله حسن الاخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس فمن ذلك ان اتابك زنكى
صاحب الموصل ارسل اليه القاضى كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى فى
رسالة فوصل اليه واقام معه فى العسكر فوقف يوما على خيمة الوزير حتى قارب اذان المغرب
فعاد الى خيمته فاذن المغرب وهو فى الطريق فرأى انسانا فقيها فى خيمة فنزل اليه فصلى معه
المغرب ثم سأله كمال الدين من أين هو فقال انا قاضى مدينة كذا فقال له كمال الدين القضاة
ثلاثة قاضيان فى النار وهو انا وانت وقاض فى الجنة وهو من لم يعرف ابواب هؤلاء الظلمة
ولا يراهم فلما كان الغد ارسل السلطان واحضر كمال الدين اليه فلما دخل عليه ورآه ضحك وقال
القضاة ثلاثة فقال كمال الدين نعم يا مولانا فقال والله صدقت ما اسعد من لا يرانا ولا نراه
ثم امر ان تقضى حاجته واعاده من يومه وكان كريما عفيفا عن الاموال التى للرعايا حسن
السيرة فيهم من اصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الاخلاق لطيفا فمن ذلك انه اجتاز
يوما فى بعض اطراف بغداد فسمع امرأة تقول لاخرى انظرى الى السلطان فوقف وقال حتى
تجىء هذه الست تنظر الينا وله فضائل كثيرة ومناقب جمة وكان عهد الى ملكشاه ابن اخيه
السلطان محمود فلما توفى خطب له الامير خاص بك ورتب الامور وقررها بين يديه واذعن له
جميع العسكر بالطاعة ولما وصل الخبر الى بغداد بموت السلطان مسعود هرب الشحنة بها وهو
مسعود بلال الى تكريت واستظهر الخليفة المقتفى لامر الله على داره ودور اصحاب السلطان
ببغداد واخذ كل ما لهم فيها وكل من كان عنده وديعة لاحد منهم احضرها بالديوان وجمع
الخليفة الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم باراقة الخمور من مساكن اصحاب
السلطان ووجد فى دار مسعود بلال شحنة بغداد كثير من الخمر وفاريق ولم يكن الناس يظنون
انه شرب الخمر بعد الحج وقبض على المؤيد الالوسى الشاعر وعلى الحيص بيص الشاعر
ثم اطلق الحيص بيص وأعيد عليه ما اخذ منه ثم ان السلطان ملكشاه سير سلار كرد فى عسكر
الى الحلة فدخلها فسار اليه مسعود بلال شحنة بغداد واظهر له الاتفاق معه فلما اجتمعا قبض
عليه مسعود بلال وغرقه واستبد بالحلة فلما علم الخليفة ذلك جهز العساكر اليه مع عون الدين

فاختاروا ارض الجوزجان
ستروا حالروح نسيم هوائها
واستعذبا بالنمير مائها
واتساعا فى مراتع السود
حول ارجائها * وامر
السلطان بتسييره اليها فى
هيئة ذوى الهيبة معافى
بلباس الصيانة * عن عورة
الاهانة * فاقام بها قرابة
أربع سنين فى ظل الترفيه
وساعدته القناعة بما هو
فيه * ثم انهى الى السلطان
مراطنة بينه وبين ايلك
الخان بملطفات سيرها اليه
ورسالات أغراه بها على
اقتضاء الاحتياط نقله الى
جرديز ابقاء عليه * من صدق
ما أضيف اليه * واستتماما
للصنيعة لديه * واحتراسا عما
يلجأ اليه * من ابطال ذلك
الافضال وتكدير ذلك
الغدير فبقى هنالك على جملته
الى أن حقت عليه القضيه
واخترمته المنيه * وذلك فى
رجب سنة تسع وتسعين
وثلثمائة وأمر السلطان
بحفظ جميع ما تخلف عنه
على ولده أبى حفص
وتقريره فى يده وتمكينه
من خدمته وأنشدنى
ابو منصور الثعالبى لنفسه
حين وهى أمره وصفرت
عن الملك يده قوله

من ذا الذى لا يذل الدهر صعبته
ولا تلين يد الايام صعدته

ابن هبيرة فساروا اليه فلما قاربوا الحلة عبر مسعود بلال الفرات اليهم وقاتلهم فانهزم من عسكر
الخليفة ونادى اهل الحلة بشعار الخليفة فلم يدخلها وتمت الهزيمة عليه وعلى اصحابه فعاد الى
تكريت وملك عسكر الخليفة الحلة وسير الوزير عسكرا الى الكوفة وعسكرا الى واسط
فملكوهما ثم ان عساكر السلطان وصلت الى واسط ففارقها عسكر الخليفة فلما سمع الخليفة
ذلك تجهز بنفسه وسار عن بغداد الى واسط ففارقها العسكر السلطانى وملكها الخليفة وسار
منها الى الحلة ثم عاد الى بغداد فوصلها تاسع عشر ذى القعدة وكانت غيبته خمسة وعشرين يوما
ثم ان خاص بك بن بلنكرى قبض على الملك ملكشاه الذى خطب له بالسلطنة بعد مسعود
وارسل الى اخيه الملك محمد سنة ثمان واربعين وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده ان يحضر
عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد اليه فلما وصل اجلسه على تخت السلطنة
اوائل صفر وخطب له بالسلطنة وخدمه وبالغ فى خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم
انه دخل الى الملك محمد ثانى يوم وصوله فقتله محمد وقتل معه زنكى الجاندار والقى براسيهما
فتفرق اصحابهما ولم ينتطح فيهما عنزان وكان ايدغدى التركمانى المعروف بشملة مع خاص بك
فنهاه عن الدخول الى الملك محمد فلم ينته فقتل ونجا شملة فنهب جشير الملك محمد ومضى طالبا
خوزستان واخذ محمد من أموال خاص بك شيأ كثيرا واستقر محمد فى السلطنة وتمكن وبقى
خاص بك ملقى حتى اكلته الكلاب وكان صبيا تركمانيا اتصل بالسلطان مسعود فتقدم على
سائر الامراء ثم كان هذا خاتمة امره

(ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج)

فى هذه السنة تجمعت الفرنج وحشدت الفارس والراجل وساروا نحو نور الدين وهو ببلاد
جوسلين ليمنعوه عن ملكها فوصلوا اليه وهو بدلوك فلما قاربوا منه رجع اليهم ولقيهم وجرى
المصاف بينهم عند دلوك واقتتلوا اشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج وقتل
منهم وأسر كثير وعاد نور الدين الى دلوك فملكها واستولى عليها ومما قيل فى ذلك

اعدت بعصرك هذا الانيق * فتوح النبى واعصارها
فواطات يا حبذا أحدبها * واسررت من بدر ابدارها
وكان مهاجرها تابعيك * وانصار رأيك انصارها
فجددت اسلام سلمانها * وعمر جدك عمارها
ومايوم انب الا كذا * لك بل طال بالنوع اشبارها
صدمت عزيمتها صدمة * اذابت مع الماء احجارها
وفى تل باشر باشرتهم * بزحف تسود اسوارها
وان دالكتهم دلوك فقد * شددت فصدقت اخبارها

(ذكر الحرب بين سنجر والغورية)

فى هذه السنة كان بين السلطان سنجر وبين الغورية حرب وكانت دولتهم اول ماقد ظهرت
واول من ملك منهم رجل اسمه الحسين بن الحسن ملك جبال الغور ومدينة فيروزكوه وهى
تقارب اعمال غزنة وقوى امره وتلقب بعلاء الدين وتعرض الى اعمال ثم جمع جيشا وقصد هراة

محاصرا

أما ترى خلفا شيخ الملوك
غدا
مملوك من فتح العذراء بلدته
قد كان بالامس ملكا
لا نظير له
فاليوم فى الاسر لا يفتاش
اسرته
وكان خلف بن أحمد مغشى
الجناب من اطراف البلاد
لسماحة كفه وغزارة
سيبه * وافضاله على أهل
العلم وحزبه * وقد مدح على
ألسنة الشعراء والعلماء
بما هو سائر * وذكره فى
الآفاق طائر * وقد كان
جمع العلماء على تصنيف
كتاب فى تفسير كتاب الله
تعالى لم يغادر فيه حرفا من
أقاويل المفسرين * وتأويل
المتأولين * ونكت المذكرين
وأتبع ذلك بوجوه القراآت
وعلل النحو والتصريف
وعلامات التذكير
والتأنيث * وشفعها بما
رواه الثقات الاثبات من
الحديث * وبلغنى انه انفق
عليهم مدة اشتغالهم
بمؤنته على جمعه وتصنيفه
عشرين ألف دينار
ونسخته بنيسابور موجود
فى مدرسة الصابونية
لكنها تستغرق عمر
الكاتب وتستنفد حبر
الناسخ الا ان يتقاسمها
النساخ بالخطوط المختلفة
وأخبرنى أبو الفتح على بن

محاصرا لها فنهب عسكره ناب واوبة ومارباد من هراة الرود وسار الى بلخ وحصرها فقاتله الامير قماج ومعه جمع من الغز فغدر وا به وصاروا مع الغورى فملك بلخ فلما سمع السلطان سنجر بذلك سار اليه ليمنعه فثبت له علاء الدين واقتتلوا فانهزم الغورية وأسر علاء الدين وقتل من الغورية خلق كثير لا سيما الرجالة واحضر السلطان سنجر علاء الدين بين يديه وقال له يا حسين لو ظفرت بي ما كنت تفعل فاخرج له قيد فضة وقال كنت اقيدك بهذا وأحملك الى فيروز كوه فخلع عليه سنجر ورده الى فيروز كوه فبقي بها مدة ثم انه قصد غزنة وملكها حينئذ بهرام شاه بن مسعود بن محمود بن سبكتكين فلم يثبت بها بين يدى علاء الدين بل فارقها الى مدينة كرمان وهى مدينة بين غزنة والهند وسكانها قوم يقال لهم ابغان وليست هذه بالولاية المعروفة بكرمان فلما فارق بهرام شاه غزنة ملكها علاء الدين الغورى واحسن السيرة فى اهلها واستعمل عليهم اخاه سيف الدين واجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولاخيه سيف الدين بعده ثم عاد علاء الدين الى بلد الغور وأمر اخاه ان يخلع على اعيان البلد خلعا نفيسة ويصلهم بصلات سنية ففعل ذلك واحسن اليهم فلما جاء الشتاء ووقع الثلج وعلم اهل غزنة ان الطريق قد انقطع اليهم فكاتبوا بهرام شاه الذى كان صاحبها واستدعوه اليهم فسار نحوهم فى عسكره فلما قارب البلد ثار اهله على سيف الدين فاخذوه بغير قتال وكان العلويون هم الذين تولوا أسره وانهزم الذين كانوا معه فمنهم من نجا ومنهم من أخذ ثم انهم سودوا وجه سيف الدين واركبوه بقرة واطافوا به البلد ثم صلبوه وقالوا فيه اشعارا يهجونه وغنوا بها حتى النساء فلما بلغ الخبر الى أخيه علاء الدين الحسين قال شعرا معناه ان لم اقلع غزنة فى مرة واحدة فلست الحسين بن الحسين ثم توفى بهرام شاه وملك بعده ابنه خسروشاه وتجهز علاء الدين الحسين وسار الى غزنة سنة خمسين وخمسمائة فلما بلغ الخبر الى خسروشاه سار عنها الى لهاوور وملكها علاء الدين ونهبها ثلاثة ايام واخذ العلويين الذين اسروا اخاه فالقاهم من رؤس الجبال وخرب المحلة التى صلب فيها واخذ النساء اللواتى قيل عنهن انهن كن يغنين بهجاء اخيه والغورية فادخلهن حماما ومنعهن من الخروج حتى متن فيه وأقام بغزنة حتى اصلحها ثم عاد الى فيروز كوه ونقل معه من أهل غزنة خلقا كثيرا وحملهم المخالى مملوأة ترابا فبنى به قلعة فى فيروز كوه وهى موجودة الى الآن وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية وقد تقدم سنة ثلاث واربعين وخمسمائة من أخبارهم وفيه مخالفة لهذا فى بعض الامر وكلا سمعناه ورأيناه فى مصنفاتهم فلهذا ذكرنا الامرين وأقام الحسين على ذلك مدة واستعمل ابنى اخيه وهما غياث الدين وشهاب الدين

(ذكر ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين)

لما قوى امر عمهما علاء الدين الحسين بن الحسين استعمل العمال والامراء على البلاد وكان ابنا اخيه وهما غياث الدين ابو الفتح محمد بن سام وشهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام فيمن استعمل على بلد من بلاد الغور اسمه سنجة وكان غياث الدين يلقب حينئذ شمس الدين ويلقب الآخر شهاب الدين فلما استعملهما احسنا السيرة فى عملهما وعدلا وبذلا الاموال فمال الناس اليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما الى عمهما علاء الدين وقال انهما يريدان

محمد البستى الكاتب قال كنت عملت فيه ثلاثة أبيات من غير قصد لتبليغها اياه لكنها سارت على ألسنة الرواة اليه فلم أشعر الا بصرة فيها ثلثمائة دينار أتحفنى بها على يد بعض ثقاته صلة لى على ماقلته * والابيات هذه

خلف بن أحمد أحمد الاخلاف
أربى بسودده على الاسلاف
خلف بن أحمد فى الحقيقة واحد
لكنه مرب على الآلاف
أضحى لآل الليث اعلام الورى
مثل النبى لآل عبد مناف

قلت له قريب من هذه الصورة حديث أبى اسحق ابراهيم بن هلال الصابى وذلك ان رسول سيف الدولة كان قدم بلد السلام فطلب شيأ من شعره على لسان صاحبه فدافعه به الى ان أزف ارتحاله وأتاه عند الوداع ملحا عليه فاعطاه بجانة الوقت قوله

ان كنت خنتك فى المودة ساعة
فذممت سيف الدولة المحمودا
وزعمت ان له شريكا فى العلا
وجحدته فى فضله التوحيدا
قسما الوانى حالف بغموسها
لغريم دين ما أراد مزيدا

فلما عاد الرسول الى الحضرة

الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملك فارسل عمهما يستدعيهما اليه فامتنعا وكانا قد علما
الخبر فلما امتنعا جهز اليهما عسكرا مع قائد يسمى خروش الغوري فلما التقوا انهزم خروش
ومن معه وأسروه وابقيا عليه واحسنا اليه وخلعا عليه واظهرا عصيان عمهما وقطعا
خطبته فتوجه اليهما علاء الدين وسارا هما ايضا اليه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم
علاء الدين وأخذ اسيرا وانهزم عسكره فنادى فيهم ابنا اخيه بالامان فاحضرا عمهما واجلساه
على التخت ووقفا فى خدمته فبكى علاء الدين وقال هذان صبيان قد فعلا مالو قدرت عليه منهما
لم افعله واحضر القاضى فى الحال وزوج غياث الدين بنتا له وجعله ولى عهده وبقى كذلك الى ان
مات فلما توفى ملك غياث الدين بعده وخطب لنفسه فى الغور وغزنة بالملك وبقى كذلك الى ان
ملك الغز غزنة بعد موت علاء الدين طمعوا فيها بموته وبقيت بايديهم خمس عشرة سنة يصبون
على اهلها العذاب ويتابعون الظلم كعادتهم فى كل بلدة ملكوها ولو أنهم لما ملكوا احسنوا
السيرة فى الرعايا لدام ملكهم فلم يزل الغز بغزنة هذه المدة وغياث الدين يقوى امره ويحسن
السيرة والناس يميلون اليه ويقصدونه محبة له

* (ذكر ملك غياث الدين غزنة وما جاورها من البلاد) *

لما قوى امر غياث الدين جهز جيشا كثيفا مع اخيه شهاب الدين الى غزنة فيه اصناف
الغورية والخلج والخراسانية فساروا اليها فلقيهم الغز فقاتلوهم فانهزم الغورية وثبت شهاب
الدين فيمن ثبت معه على صاحب علمهم فقتله واخذ العلم وتركه على حاله فتراجع الغز ولم يكونوا
علموا بما كان من شهاب الدين فجاؤا يطلبون علمهم فكلما جاء اليه طائفة قتلهم فاتى على
اكثرهم ودخل غزنة وتسلمها واحسن السيرة فى اهلها وافاض العدل وسار من غزنة الى كرمان
وشنوران فملكها ثم تعدى الى ماء السند وعمل على العبور الى بلاد الهند وقصد لهاوور وبها
يومئذ خسروشاه بن بهرام شاه المقدم ذكر والده فلما سمع خسروشاه بذلك سار فيمن معه الى ماء
السند فمنعه من العبور فرجع عنه وقصد فرشابور فملكها وما يليها من جبال الهند واعمال
الافغان والله أعلم

* (ذكر ملك شهاب الدين لهاوور) *

لما ملك شهاب الدين جبال الهند قوى امره وجنانه وعظمت هيبته فى قلوب الناس واحبوه
لحسن سيرته فلما خرج الشتاء واقبل الربيع من سنة تسع وسبعين وخمسمائة سار نحو لهاوور
فى جمع عظيم وحشد كثير من خراسان والغور وغيرها فعبر الى لهاوور وحصرها وارسل الى
صاحبها خسروشاه والى اهلها يتهددهم ان منعوه واعلمهم انه لا يزول حتى يملك البلد وبذل
لخسروشاه الامان على نفسه واهله وماله ومن الاقطاع ما اراد وان يزوج ابنته بابن
خسروشاه على ان يطأ بساطه ويخطب لاخيه فامتنع عليه واقام شهاب الدين محاصرا له
مضيقا عليه فلما رأى اهل البلد والعسكر ذلك ضعفت نياتهم فى نصرة صاحبهم فخذلوه فارسل
لما رأى ذلك قاضى البلد والخطيب يطلبون له الامان فاجابه شهاب الدين الى ذلك وحلف له
وخرج اليه ودخل الغورية الى المدينة وبقى كذلك شهرين مكرما عنده شهاب الدين فورد رسول
من غياث الدين الى شهاب الدين يامره بانفاذ خسروشاه اليه

* (ذكر

حمل اليه صرة فيها ثلثمائة دينار موسومة باسمه وللشيخ أبي الفتح البستى فيه أيضا يمدحه

من كان يبغى علاق الذكر والشرفا
أو يبتغى عطف دهر قد نبا وجفا
أو كان يأمن عند الله منزلة
تدنيه قرب الابرار والزلفا
أو كان يطلب دينا يستقيم به
ولا يرى عوجا فيه ولا جنفا
أو كان ينشد مما فاته خلفا
فليخدم الملك العدل الرضى خلفا
الوارث العدل والعلياء من سلف
حثوا بعلياهم فى وجه من سلفا
المؤثر القصد فى انحاء سودده
فان اراد عطاء آثر السرفا
اذا التوى عنق ولى حكومته
سيفا اذا ما اقتضى حقا له انتصفا
والسيف ابلغ للاعناق موعظة
كم من ضعيف حماه حده الصلفا
وان بدا كاف فى وجه مكرمة
جلا بلا كاف عن وجهه الكلفا
رضاه يصرف عمن يستجير به
صرف الزمان اذا ما نابه صرفا

(ذكر انقراض دولة سبكتكين)

لما انفذ غياث الدين الى اخيه شهاب الدين يطلب انفاذ خسروشاه اليه امره شهاب الدين بالتجهز والمسير فقال انا لا اعرف اخاك ولا لي حديث الا معك ولا يمين الا في عنقك فمناه وطيب قلبه وجهزه وسيره وسير معه ولده واصحبهما جيشا يحفظونهما فسارا كارهين فلما بلغا فرشابور خرج اهلها اليهما يبكون ويدعون لهما فزجرهم الموكلون بهما وقالوا سلطانان يزور سلطانا آخر لاى شئ تبكون وضربوهم فعادوا وخرج ولد خطيبها الى خسروشاه متوجعا له قال فلما دخلت عليه اعلمته رسالة أبي وقلت انه قد اعتزل الخطابة ولا حاجة بي الى خدمة غيركم فقال لي سلم عليه واعطاني فرجية فوطا ومصلى من عمل الصوفية وقال هذه تذكرة ابيك عند أبي فسلمها اليه وقل له در مع الدهر كيفما دار وانشد بلسان فصيح

وليس كعهد الدار يا ام مالك * ولكن احاطت بالرقاب السلاسل

قال فانصرفت الى أبي وعرفته الحال فبكى وقال قد ايقن الرجل بالهلاك ثم رحلوا فلما بلغوا بلد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين بل امر بهما فرفعا الى بعض القلاع فكان آخر العهد بهما وهو آخر ملوك آل سبكتكين وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلثمائة فتكون مدة ولايتهم مائتي سنة وثلاث عشرة سنة تقريبا وكان ملوكهم من احسن الملوك سيرة ولا سيما جدهم محمود فان آثاره في الجهاد معروفة واعماله للآخرة مشهورة

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم بآبائهم او مجدهم قعدوا

فتبارك الذي لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور فأف لهذه الدنيا الدنية تفعل هذا بابنائها نسأل الله تعالى ان يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة وأن يقبل بنا اليه وأن يشغلنا به عما سواه انه على كل شئ قدير هكذا ذكر بعض فضلاء خراسان أن خسروشاه آخر ملوك آل سبكتكين وقد ذكر غيره انه توفي في الملك وملك بعده ابنه ملكشاه وسنذكره في سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبالجملة فابتداء دولة الغورية عندي فيها خلف لو تبين كشف الحق فاصلحه ان شاء الله تعالى

(ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة)

لما استقر ملكهم بلهاوور واتسعت ممالكهم وكثرت عساكرهم وأموالهم كتب غياث الدين الى أخيه شهاب الدين باقامة الخطبة له بالسلطنة وتلقب بالقاب السلاطين كان لقبه شمس الدين فتلقب غياث الدين والدنيا معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين ولقب اخاه بعز الدين ففعل شهاب الدين ذلك وخطب له بالسلطنة

(ذكر ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان)

لما فرغ شهاب الدين من اصلاح أمر لهاوور وتقرير قواعدها سار الى اخيه غياث الدين فلما اجتمع به استقر رأيهما على المسير الى خراسان وقصد مدينة هراة ومحاصرتها فسارا في العساكر الكثيرة اليها وكان بها جماعة من الاتراك السنجرية فنازلا البلد وحصراه وضيقا على من به فاستعطوا اليهما وأرسلوا يطلبون الامان منهما فاجاباهم الى ذلك وامناهم فتسلما البلد واخرجا من فيه من الامراء السنجرية واستناب فيه غياث الدين خرنك الغوري وسار غياث الدين واخوه الى فوشنج فملكاها ثم الى باذغيس وكالين وبيوار فملكاها أيضا وتسلم

اذا اقشعر زمان من جدوبته
اغنى الورى وكفى جوده وكفا
بسخطه يدع الافلاك خائفة
والشمس حائرة والبدر منكسفا
يرى التوقف في يوم وغى وندى
وصافان عن رأى مشكل وقفا
لله نصل ضئيل في انامله
اعاد حظى سمينا بعد ما نحفا
يهين امواله كى يستفيد بها
عزا يؤثل في اعقابه الشرفا
والمرء للوم في احواله هدف
ان لم يكن ماله من دونه هدفا
لا يلحق الواصف المطرى معانيه
وان يكن سابقا في كل ما وصفا
وانشدني ابو الفضل الهمداني قصيدته التي يمدح بها خلف بن احمد اولها
سماء الدجى ما هذه الحدق النجل
اصدر الدجى حال وجيد الضحى عطل
لك الله من عزم اجوب جيوبه
كأني في اجفان عين الردى كحل
وفيها يذكر اباه بهمذان
واستقباله الحجيج للسؤال

ذلك جميعه غياث الدين وأحسن السيرة فى أهل البلاد ورجع الى فيروزكوه ورجع شهاب الدين الى غزنة وكان ينبغي ان حوادث الغورية تذكر فى السنين وانما جمعناها ليتلو بعضها بعضا ولان فيه مالم يعرف تاريخه فتركناه بحاله

(ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلد الهند)

لما رجع شهاب الدين من خراسان الى غزنة أقام بها حتى أراح واستراح هو وعساكره ثم سار الى بلد الهند لحاصر مدينة آجرة وبها ملك من ملوك الهند فلم يظفر منه بطائل وكان للهندى زوجة غالبة على أمره فراسلها شهاب الدين أنه يتزوجها فأعادت الجواب انها لاتصلح له وانها لها ابنة جميلة تزوجه اياها فارسل اليها يجيبها الى التزويج بابنتها فسقت زوجها سما فمات وسلمت البلد اليه فلما تسلمه اخذ الصبية فاسلمت وتزوجها وحملها الى غزنة واجرى عليها الجرايات الوافرة ووكل بها من علمها القرآن وتشاغل عنها فتوفيت والدتها ثم توفيت هى بعد عشر سنين ولم يرها ولم يقربها فبنى لها مشهدا ودفنها فيه وأهل غزنة يزورون قبرها ثم عاد الى بلد الهند فذلل له صعابها وتيسر له فتح الكثير من بلادهم ودوخ ملوكهم وبلغ منهم مالم يبلغه احد قبله من ملوك المسلمين

(ذكر ظفر الهند على المسلمين)

لما اشتدت نكاية شهاب الدين فى بلاد الهند واثخانه فى اهلها واستيلاؤه عليهم اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم ووبخ بعضهم بعضا فاتفق رأيهم على الاجتماع والتعاضد على حربه فجمعوا عساكرهم وحشدوا وأقبل اليهم الهنود من كل فج عميق على الصعب والذلول وجاؤا بحدهم وحديدهم وكان الحاكم على جميع الملوك المجتمعين امرأة هى من أكبر ملوكهم فلما سمع باجتماعهم ومسيرهم اليه تقدم هو أيضا اليهم فى عسكر عظيم من الغورية والخلج والخراسانية فالتقوا واقتتلوا فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون وركبهم الهنود يقتلون ويأسرون وأثخنوا فيهم وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده اليسرى وضربة أخرى على رأسه سقط منها الى الارض وحجز الليل بين الفريقين فاحس شهاب الدين بجماعة من غلمانه الاتراك فى ظلمة الليل وهم يطلبونه فى القتلى ويبكون وقد رجع الهنود الى ورائهم فكلمهم وهو على ما به من الجهد فجاؤا اليه مسرعين وحملوه على رؤسهم رجالة يتناوبون حمله حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح وشاع خبر سلامته فى الناس فجاؤا اليه يهنئونه من أقطار البلاد فاول ما عمل انه أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه وأسلموه فملأ مخالى خيلهم شعيرا وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم فأكلوه ضرورة وبلغ الخبر الى أخيه غياث الدين فارسل اليه يلومه على عجلته واقدامه وأنفذ اليه جيشا عظيما

(ذكر ظفر المسلمين بالهند)

لما سلم شهاب الدين وعاد الى آجرة وأتاه المدد من أخيه غياث الدين وعاد الهنود جددوا سلاحهم ووفروا جمعهم وأقاموا عوض من قتل منهم وسارت ملكتهم وهم معها فى عدد يضيق عنه الفضاء فراسلها شهاب الدين يخدعها بانه يتزوجها فلم تجبه الى ذلك وقالت اما الحرب واما ان تسلم بلاد الهند وتعود الى غزنة فاجابها الى العود الى غزنة وانه يستأذن أخاه

من خبره * والبحث عن وطنه ووطره
يذكرنى قرب العراق وديعة
لدى الله لايسليه مال ولا أهل
حنته النوى عنى وأضنته غيبتى
وعهدى به كالليث جوجؤه عبل
اذا وردا لحجاج لاقى رفاقهم
بقوارق دمع همما النجل والسجل
يسائلهم كيف ابنه أين داره
الام انتهى لم يعد هل له شغل
اضاقت به حال أطالت له يد
أأخره نقص أقدمه فضل
يقولون وافى حضرة الملك الذى
له الكنف المأمول والنائل الجزل
فقيد له طرف وحلت له حبى
وخير له قصر ودر له نزل
وفاضت عليه مطرة خلقية
بها الغوادى عن ولايتها عزل
يذكرهم بالله الاصدقتم
لدى أجدا ما تقولون أم هزل
طوينا للقبائل الملوك وانما
يميلك عن أمثالهم أبدا نسلو
ولما بلونا كم تلونا مديحكم
فيا طيب ما نبلو ويا صدق

غياث الدين فعل ذلك مكرا وخديعة وكان بين العسكرين نهر وقد حفظ الهنود المخاضات فلا يقدر أحد من المسلمين أن يجوزه وأقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين بزعمهم فبينما هم كذلك اذ وصل انسان هندى الى شهاب الدين وأعلمه انه يعرف مخاضا قريبا من عسكر الهنود وطلب ان يرسل معه جيشا يعبرهم المخاض ويكبسون الهنود وهم غارون آمنون فخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكرا فاقام له ضمناء من أهل آجرة والمولتان فارسل معه جيشا كثيفا وجعل عليهم الامير الحسين بن خرميل الغورى وهو الذى صار بعد صاحب هراة وكان من الشجاعة والرأى بالمنزلة المشهورة فسار الجيش مع الهندى فعبروا النهر فلم يشعر الهنود الا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم فاشتغل الموكلون بحفظ المخاضات فعبر شهاب الدين وباقى العساكر وأحاطوا بالهنود وأكثروا القتل فيهم ونادوا بشعار الاسلام فلم ينج من الهنود الا من عجز المسلمون عن قتله وأسره وقتلت ملكتهم وتمكن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند وأمن معرة فسادهم والتزموا له بالاموال وسلموا اليه الرهائن وصالحوه وأقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دهلى وهى كرسى الممالك التى فتحها من الهند فارسل عسكرا من الخلج مع محمد بن بختيار فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل اليها مسلم قبله حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق وقد حدثنى صديق لى من التجار بوقعتين تشبه هاتين الوقعتين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف وقد ذكرناهما سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى يعقوب الكاتب ببغداد وكان يسكن بالمدرسة النظامية وحضر متولى التركات وختم على الغرفة التى كان يسكنها بالمدرسة فثار الفقهاء وضربوا المتولى وهذه عادتهم فيمن يموت بها وليس له وارث فقبض حاجب الباب على رجلين من الفقهاء وعاقبهما وحبسهما فاغلق الفقهاء المدرسة وألقوا كرسى الوعاظ فى الطريق وصعدوا سطح المدرسة ليلا واستغاثوا وتركوا الادب وكان حينئذ مدرسهم الشيخ أبا النجيب فجاء وألقى نفسه تحت التاج يعتذر فعفى عنه وفيها توفى حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيفا وثلاثين سنة وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبى وفيها مات أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الارموى الشافعى المحدث ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وفيها توفى أبو الاسعد عبد الرحمن القشيرى فى شوال وهو شيخ شيوخ خراسان وفيها فى المحرم باض ديك ببغداد بيضة وباض بازى بيضتين وباضت نعامة لاذكر معها بيضة

(ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم)

فى هذه السنة فى المحرم انهزم السلطان سنجر من الاتراك الغز وهم طائفة من الترك مسلمون كانوا بما وراء النهر فلما ملك الخطا اخرجوهم منه كما ذكرنا فقصدوا خراسان وكانوا خلقا كثيرا فاقاموا بنواحى بلخ يرعون فى مراعيها وكان لهم امراء اسم احدهم دينار والآخر بختيار والآخر طوطى والآخر ارسلان والآخر جغر والآخر محمود فاراد الامير قماج وهو

ما تتلو

ويا ملكا أدنى مناقبه العلى
وأيسر ما فيه السماحة والبذل
هو البدر الا انه البحر زاخرا
سوى انه الضرغام لكنه الوبل
محاسن يبديها العيان كما ترى *
وان نحن حدثنا بها دفع العقل
فقولا لوسام المكارم باسمه
لهيهات أن لم تبق مكرمة غفل
وجارالك أفراد الملوك الى الندى
وحقا لقد أعجزتهم ولك الخصل
سما بك من عمرو ويعقوب محتد
كذا الاصل مفخورا به وكذا النسل

وانشدنى السيد ابو جعفر محمد بن موسى الموسوى بيتين ذكر انهما مكتوبان على باب داره بسجستان وهما

من سره ان يرى الفردوس عالية
فلينظرن الى ايوان كيوان
اوسره ان يرى الرضوان عن كثب
بملء عينيه فلينظر الى البانى

ثم وصفت سجستان للسلطان فهدأت عيون الفتن وانقطعت اطماع

مقطع بلخ ابعادهم فصانوه وبذلوا له فعاد عنهم فاقاموا على حالة حسنة لا يؤذون احدا
ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ثم ان قماج عاودهم وأمرهم بالانتقال عن بلده فامتنعوا
وانضم بعضهم الى بعض واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك فسار قماج اليهم في عشرة
آلاف فارس فجاء اليه أمراؤهم وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم في مراعيهم ويعطونه من كل
بيت مائتي درهم فلم يجبهم الى ذلك وشدد عليهم في الانتزاح عن بلده فعادوا عنه واجتمعوا
وقاتلوه فانهزم قماج ونهبوا ماله ومال عسكره وأكثروا القتل في العسكر والرعايا واسترقوا
النساء والاطفال وعملوا كل عظيمة وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس وانتهت الهزيمة بقماج الى
مرو وبها السلطان سنجر فاعلمه الحال فراسلهم سنجر يتهددهم فامرهم بمفارقة بلاده
فاعتذروا وبذلوا بذلا كثيرا ليكف عنهم ويتركهم في مراعيهم فلم يجبهم الى ذلك وجمع عساكره
من أطراف البلاد واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس وقصدهم ووقع بينهم حرب شديد
فانهزمت عساكر سنجر وانهزم هو أيضا وتبعهم الغز قتلا واسرا فصار قتلى العسكر كالتلال
وقتل علاء الدين قماج وأسر السلطان سنجر واسر معه جماعة من الامراء فاما الامراء
فضربوا اعناقهم واما السلطان سنجر فان امراء الغز اجتمعوا وقبلوا الارض بين يديه وقالوا
نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك فقد علمنا انك لم ترد قتالنا وانما حملت عليه فانت السلطان
ونحن العبيد فمضى على ذلك شهران او ثلاثة ودخلوا معه الى مرو وهي كرسي ملك خراسان
وطلبها منه بختيار اقطاعا فقال السلطان هذه دار الملك ولا يجوز ان تكون اقطاعا لاحد
فضحكوا منه وحنق له بختيار بفمه فلما رأى ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانكاه مرو وتاب
عن الملك واستولى الغز على البلاد وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله وولوا على نيسابور واليا
فقسط على الناس كثيرا وعسفهم وضربهم وعلق في الاسواق ثلاث غرائر وقال اريد ملء هذه
ذهبا فثار عليه العامة فقتلوه ومن معه فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهبا مجحفا
وجعلوها قاعا صفصفا وقتلوا الكبار والصغار واحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد
كلها فممن قتل الحسين بن محمد الارسابندي والقاضي علي بن مسعود والشيخ محيي الدين محمد
ابن يحيى واكثر الشعراء في مراثي محمد بن يحيى فممن قال فيه علي بن ابراهيم الكاتب

مضى الذي كان يحيى الدرس من فيه * يسيل بالفضل والافضال واديه
مضى ابن يحيى الذي قد كان صوب حيا * لابرشهر ومصباحا لداجيه
خلا خراسان من علم ومن ورع * لما نعاه الى الآفاق ناعيه
لما اماتوه مات الدين وا أسفا * من ذا الذي بعد محيي الدين يحييه

ويعذروه فيما جرى منهم بتلك البلاد جميعها ولم يسلم من خراسان شيء لم تنهبه الغز غير هراة
ودهستان لانها كانت حصينة فامتنعت وقد ذكر بعض مؤرخي خراسان من اخبارهم ما فيه
زيادة وضوح وقال ان هؤلاء الغز قوم انتقلوا من نواحي الثغور من اقاصي الترك الى ما وراء
النهر في ايام المهدي واسلموا واستنصر بهم المقنع صاحب المخاريق الشعبذية حتى تم امره فلما
سارت العساكر اليه خذله هؤلاء الغز واسلموه وهذه عادتهم في كل دولة كانوا فيها او فعلوا مثل
ذلك مع الملوك الخاقانية الا ان الاتراك القارغلية قووا عليهم وطردوهم من اوطانهم فدعاهم

الامير

الخليفة بها عن التعصب
والتحزب * وانخفضت
ابصارهم دون التوثب
والتغلب * ورجع السلطان
الى غزنة باهي الامر * عالي
الظفر والنصر * قد صنع الله
له في ارامه * وسدد نحو
المراد سهامه * وشهره
باقتراع المدينة العذراء *
واستصفاء المملكة الغراء
واطلاع ذروة الرجاء *
وادراع لامة العز والعلاء *
وانشدني ابو منصور
الثعالبي لنفسه في فتح
سجستان من قصيدة هذه
الابيات

سعدت بغرة وجهك الايام
وتزينت ببقائك الاعوام
وتصرفت بك في المعالي همة
تعيا بها الافهام والاوهام
ولقد فرشت مهاد عدلك
فاغتدت
تتوارد الآساد والآرام
وانتضى سيف علاك كل
مدينة
بكر عليها للاياس ختام
هذي زرنج استغلقت
وتمنعت
فكانها الا عليك حرام
ففتحتها وابحتها ومنحتها
نفراهم لقنائك الخدام
وقدمت والايام تنشد في
الورى
بيتا تجيد نشيده الايام
قد جاء نصر الله والفتح الذي
تزهي بكتبة وصفه الاقلام

الامير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طخارستان اليه وانتزاعهم بلاده وكانت بينه
وبين الامير قماج عداوة احكمتها الايام للمجاورة التي بينهما وكل منهما يريد أن يعلو على الآخر
ويحكم عليه فتقوى بهم زنكي وساروا معه الى بلخ لمحاربة قماج فكاتبهم قماج فمالوا اليه
وخذلوا زنكي عند الحرب فاخذ زنكي وابنه اسيرين فقتل قماج ابن زنكي وجعل يطعم اباه لحمه
ثم قتل الاب ايضا واقطع قماج الغز مواضع واباحهم مراعي بلاده فلما قام الحسين بن الحسين
الغوري وقصد بلخ خرج اليه قماج وعساكره ومعه الغز ففارقه الغز وانضموا الى الغوري حتى
ملك مدينة بلخ فسار السلطان سنجر الى بلخ ففارقها الغوري بعد قتال انهزم منه ثم دخل الى
السلطان سنجر لعجزه عن مقاومته فرده الى غزنة وبقي الغز بنواحي طخارستان وفي نفس قماج
منهم الغيظ العظيم لما فعلوه معه فاراد صرفهم عن بلاده فتجمعوا وانضم اليهم طوائف من الترك
وقدموا عليهم ارسلان موقا التركي فجمع قماج عسكره ولقيهم فاقتتلوا يوما كاملا الى الليل
فانهزم قماج وعسكره واسروه وابنه ابو بكر فقتلوهما واستولوا على نواحي بلخ وعاثوا فيها
وافسدوا بالنهب والقتل والسلب وبلغ السلطان سنجر الخبر فجمع عساكره وسار اليهم فراسلوه
يعتذرون ويتنصلون فلم يقبل عذرهم ووصل اليهم مقدمة السلطان وفيها محمد بن ابي بكر بن
قماج المقتول والمؤيد اي ابه في المحرم من سنة ثمان واربعين وخمسمائة ووصل بعدهم السلطان
سنجر فالتقاه الغز بعد ان ارسلوا يعتذرون ويبذلون الاموال والطاعة والانقياد الى كل
ما يؤمرون به فلم يقبل سنجر ذلك منهم وسار اليهم فلقوه وقاتلوه وصبروا له ودام قتالهم فانهزم
عسكر سنجر وهو معهم فتوجهوا الى بلخ على اقبح صورة وتبعهم الغز واقتتلوا مرة ثانية فانهزم
السلطان سنجر ايضا ومضى منهزما الى مرو في صفر من السنة فقصد الغز اليها فلما سمع العسكر
الخراساني بقربهم منهم اجفلوا من بين ايديهم هاربين لما دخل في قلوبهم من خوفهم والرعب
منهم فلما فارقها السلطان والعسكر دخلها الغز ونهبوها افحش نهب وافحشه وذلك في جمادى
الاولى من السنة وقتل بها كثير من اهلها وأعيانها منهم قاضي القضاة الحسن بن محمد
الارسابندي والقاضي علي بن مسعود وغيرهما من الائمة العلماء ولما خرج سنجر من مرو قصد
بوزابة واخذه الغز اسيرا واجلسوه على تخت السلطنة على عادته وقاموا بين يديه وبذلوا له
الطاعة ثم عاودوا الغارة على مرو في رجب من السنة فمنعهم اهلها وقاتلوهم قتالا شديدا بذلوا
فيه جهدهم وطاقتهم ثم انهم عجزوا فاستسلموا اليهم فنهبوها اقبح من النهب الاول لم يتركوا بها
شيأ وكان قد فارق سنجر جميع امراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ولم
يبق عنده غير نفر يسير من خواصه وخدمه فلما وصلوا الى نيسابور احضروا الملك سليمان
شاه ابن السلطان محمود فوصل الى نيسابور تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة فاجتمعوا عليه
وخطبوا له بالسلطنة وسار في هذا الشهر جماعة من العسكر السلطاني الى طائفة كثيرة من
الغز فاوقعوا بهم وقتلوا منهم كثيرا وانهزم الباقون الى امرائهم الغزية فاجتمعوا
معهم ولما اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه وساروا الى مرو يطلبون الغز فبرز الغز
اليهم فساعة رآهم العسكر الخراساني انهزموا وولوا على ادبارهم وقصدوا نيسابور وتبعهم
الغز فوردوا بطوس وهي معدن العلماء والزهاد فنهبوها وسبوا نساءها وقتلوا رجالها وخربوا

بأجل احوال وايمن مقدم
واتم اقبال يليه دوام
ورحم الله البديع ابا الفضل
الهمداني حيث يقول في
السلطان يمين الدولة وامين الملة
تعالى الله ما شاء
وزاد الله ايماني
أأفريدون في التاج
ام الاسكندر الثاني
ام الرجعة قد عادت
الينا بسليمان
اظلت شمس محمود
على انجم سامان
وامسى آل بهرام
عبيد الابن خاقان
اذا ما ركب الفيل
لحرب اولميدان
رأت عيناك سلطانا
على منكب شيطان
فمن واسطة الهند
الى ساحة جرجان
ومن قاصية السند
الى أقصى خراسان
على مقتبل العمر
وفي مفتتح الشان
فيوما رسل الشاه
ويوما رسل الخان
فما يعزب بالمغر
ب عن طاعتك اثنان
لك السرح اذا شئت
على كاهل كيوان
اباوالى بغداد
ويا صاحب همدان
تأمل ما تأتي فعل
على سبعة اركان
يقلبن اساطين
ويلعبن بثعبان

مساجدها ومساكن اهلها ولم يسلم من جميع ولاية طوس الا البلد الذى فيه مشهد على بن موسى الرضا ومواضع أخر يسيرة لها اسوار وممن قتل من اعيان اهلها امامها محمد المارشكى ونقيب العلويين بها على الموسوى وخطيبها اسمعيل بن الحسن وشيخ شيوخها محمد بن محمد وافنوا من بها من الشيوخ الصالحين وساروا منها الى نيسابور فوصلوا اليها فى شوال سنة تسع واربعين ولم يجدوا دونها مانعا ولا مدافعا فنهبوها نهبا ذريعا وقتلوا اهلها فاكثروا حتى ظنوا انهم لم يبقوا بها احدا حتى انه احصى فى محلتين خمسة عشر الف قتيل من الرجال دون النساء والصبيان وسبوا نساءها واطفالها واخذوا اموالها وبقى القتلى فى الدروب كالتلال بعضهم فوق بعض واجتمع اكثر اهلها بالجامع المنيعى تحصنوا به فحصرهم الغز فعجز اهل نيسابور عن منعهم فدخل الغز اليهم فقتلوهم عن آخرهم وكانوا يطلبون من الرجال المال فاذا اعطاهم احد قتلوه وقتلوا كثيرا من أئمة العلماء والصالحين منهم محمد بن يحيى الفقيه الشافعى الذى لم يكن فى زمانه مثله كان رحلة الناس من اقصى الغرب والشرق اليه ورثاه جماعة من العلماء منهم ابو الحسن على بن أبى القاسم البيهقى فقال

يا سافكا دم عالم متبحر * قد طار فى اقصى الممالك صيته

بالله قل لى يا ظلوم ولا تخف * من كان محيى الدين كيف تميته

منهم الزاهد عبد الرحمن بن عبد الصمد الاكاف واحمد بن الحسين الكاتب سبط القشيرى وابو البركات الفراوى والامام على الصباغ المتكلم واحمد بن محمد بن حامد وعبد الوهاب القاباذى والقاضى صاعد بن عبد الملك بن صاعد والحسن بن عبد الحميد الرازى وخلق كثير من الائمة والزهاد والصالحين واحرقوا ما بها من خزائن الكتب ولم يسلم الا بعضها وحصروا شارستان وهى منيعة فأحاطوا بها وقاتلهم اهلها من فوق سورها وقصدوا جوين وبذلوا فيهم السيف فسلمهم الله تعالى واحموا بيضتهم والباقى الى النهب والقتل عليه ثم قصدوا اسفراين فنهبوها وخربوها وقتلوا فى اهلها فاكثروا وممن قتل عبد الرشيد الاشعثى وكان من اعيان دولة السلطان فتركها واقبل على الاشتغال بالعلم وطلب الآخرة وابو الحسن الفندورجى وكان من ذوى الفضائل لا سيما فى علم الادب ولما فرغ الغز من جوين واسفراين عاودوا الى نيسابور فنهبوا ما بقى فيها بعد النهب الاول وكان قد لحق بشهرستان كثير من اهلها فحصرهم الغز واستولوا عليها ونهبوا ما كان فيها لاهلها ولاهل نيسابور وهتكوا الحرم والاطفال وفعلوا ما لم يفعله الكفار مع المسلمين وكان العيارون ايضا ينهبون نيسابور اشد من نهب الغز ويفعلون اقبح من فعلهم ثم ان السلطان سليمان شاه ضعف وكان قبيح السيرة سيئ التدبير وان وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك توفى فى شوال سنة ثمان واربعين فضعف امره واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام الملك ابا على الحسن بن طاهر وانحل امر دولته بالكلية ففارق خراسان فى صفر سنة تسع واربعين وعاد الى جرجان فاجتمع الامراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن اخت السلطان سنجر وخطبوا له على منابر خراسان واستدعوه اليهم فملكوه امورهم وانقادوا له فى شوال سنة تسع واربعين وخمسمائة وساروا معه الى الغز وهم يحاصرون هراة وجرت بينهم حروب كان الظفر فى اكثرها للغز ورحلوا فى جمادى الاولى من سنة خمسين وخمسمائة وسار معهم من على هراة الى مرو

وعاودوا

فلما ان قبائيف يشهرن بالوان ويأجوج ومأجوج من الجند تموجان واستخلف السلطان على سجستان المعروف بقفجى الحاجب احمد المتشمير * من قواد ناصر الدين سبكتكين * فحسنت فى السياسة سيرته * واستدت فى الرفق بالبرىء والعنف على المريب بصيرته * ثم ان طوائف من نجوم الفتنة * ورجوم الشر والعصبية ابطرتهم رفاهة العيش ورفاغة الامن وفسحة الحال * وسعة المجال فحدثوا بينهم * بتقديم من يضمهم * على العصيان ويؤمهم * فى الخروج على السلطان * تعرضا للبلاء * وتحككا بالشفاء * واجتراء على سوء القضاء * فأبرزوا صفحة الخلاف * واخترطوا نصل الشر من الغلاف فلما رأى السلطان * انتقاض سجستان * على خلفائه وأمنائه * بادر اليها فى عشرة آلاف رجل من نخب العسكر * ومعه صاحب الجيش أبو المظفر بن ناصر الدين والتونتاش الحاجب وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الطائى وحصر المردة العتاة فى حصار أرك ووكل خيول عسكره بجوانب الاسوار واقتسم بينهم مجال ذلك

وعاودوا المصادرة لاهلها وسار الخان محمود بن محمد الى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد على
مانذكره وراسل الغز فى الصلح فاصطلحوا فى رجب من سنة خمسين وخمسمائة هدنة على دخل
وسيرد باقى اخبارهم سنة اثنتين وخمسين

(ذكر ملك المؤيد نيسابور وغيرها)

كان للسلطان سنجر مملوك اسمه اى ابه ولقبه المؤيد فلما كانت هذه الفتنة تقدم وعلا شأنه
واطاعه كثير من الامراء فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وابيورد وشهرستان والدامغان
وازاح الغز عن الجميع وقتل منهم خلقا كثيرا واحسن السيرة وعدل فى الرعية واستعمال الناس
ووفر الخراج على اهله وبالغ فى مراعاة ارباب البيوت فاستقرت البلاد له ودانت له الرعية لحسن
سيرته وعظم شأنه وكثرت جموعه فراسله خاقان محمود بن محمد فى تسليم البلاد والحضور عنده
فامتنع وترددت الرسل بينهم حتى استقر على المؤيد مال يحمله الى الملك محمود فكف عنه محمود
واقام المؤيد بالبلاد هو والسلطان محمود

(ذكر ملك ايناخ الرى)

كان ايناخ احد مماليك السلطان سنجر فلما كان من فتنة الغز ما ذكرناه هرب من خراسان ووصل
الى الرى فاستولى عليها واقام بها وارسل الى السلطان محمد شاه بن محمود صاحب همدان واصفهان
وغيرهما يخدمه وهاداه وارضاه واظهر له الطاعة وبقى بها الى ان مات السلطان محمد فاستولى
على عدة بلاد تجاور الرى فملكها فعظم امره وعلا شأنه وصارت عساكره عشرة آلاف فارس
فلما ملك سليمان شاه همدان على مانذكره حضر عنده واطاعه لانه به كان ايام مقام سليمان شاه
بخراسان فتقوى امره بذلك

(ذكر قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس)

فى هذه السنة فى المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله قتله ربيبه عباس بن ابى الفتوح
ابن يحيى الصنهاجى اشار اليه بذلك الامير أسامة بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فامر
ولده نصرا فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولى الوزارة بعده ربيبه عباس
وكان عباس قد قدم من المغرب كما ذكرناه الى مصر وتعلم الخياطة وكان خياطا حسنا فلما تزوج
ابن السلار بأمه احبه واحسن تربيته فجازاه بان قتله وولى بعده وكانت الوزارة فى مصر لمن
غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين وقل ان وليها احد بعد الافضل الابحرب وقتل
وماشاكل ذلك فلهذا ذكرناهم فى تراجم مفردة والله اعلم

(ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبد المؤمن)

فى هذه السنة فى صفر كانت الحرب بين عسكر عبد المؤمن والعرب عند مدينة شطيف وسبب
ذلك ان العرب وهم بنو هلال والاثبج وعدى ورياح وزغب وغيرهم من العرب لما ملك عبد
المؤمن بلاد بنى حماد اجتمعوا من ارض طرابلس الى اقصى المغرب وقالوا ان جاورنا عبد
المؤمن اجلانا من المغرب وليس الرأى الا القاء الجد معه واخراجه من البلاد قبل ان يتمكن
وتحالفوا على التعاون والتظافر وان لايخون بعضهم بعضا وعزموا على لقائه بالرجال والاهل
والمال ليقاتلوه قتال الحريم واتصل الخبر بالملك رجار الفرنجى صاحب صقلية فارسل الى امراء

الحصار * ونشبت الحرب بعد
العصر يوم الجمعة للنصف
من ذى الحجة سنة ثلاث
وتسعين وثلثمائة وخاض
السجزية غمرتها ساعة *
متوازرين على المدافعة *
ومتضافرين على الممانعة
والمقارعة * حتى اذا أوهنهم
السلاح * واثخنتهم الجراح *
لاذوا بالانحجار والاعتصار
بسور الحصار * وظهر أولياء
السلطان على بعض جوانب
السور * فى ظلمة الديجور
تنادوا بشعار الملك المنصور
فانهزم الفجار * وملك عليهم
الحصار * وبسطت أيدى
القتل والضرب على من
نقضتهم الدور * ولفظتهم
المساكن والقصور * فمن
رؤس منبوذة * وأعناق
مجذوذة * ووجوه مكبوبة
ودماء على الارض مصبوبة
وهام الآخرون على وجوههم
يتساقطون * من كسع الادبار
فى الآثار * ويلوذون * من
ضرب الاخادع * بالمخادع
ويفزعون * من شن الغارات
الى المغارات * والطلب يقطع
دابرهم * ويلحق بالاول
آخرهم * حتى خلت سجستان
من خبث شرارهم * وسلمت
من بث شرارهم * وفتح الله
تلك المملكة على السلطان فتحا
ثانيا * وملكا ثانيا * فلم يسمع
على مرور الايام * بمثله فتحا
فى غلق الظلام * فاستفاضت
هيبة السلطان * فى أهل

العرب وهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم يحثهم
على لقاء عبد المؤمن ويعرض عليهم ان يرسل اليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم
على شرط أن يرسلوا اليه الرهائن فشكروه وقالوا ما بنا حاجة الى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين
وساروا في عدد لا يحصى وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية الى بلاد المغرب فلما بلغه خبرهم
جهز من الموحدين ما يزيد على ثلاثين الف فارس واستعمل عليهم عبد الله بن عمر الهنتاتي
وسعد الله بن يحيى وكان العرب أضعافهم فاستجرهم الموحدون وتبعهم العرب الى ان وصلوا الى
ارض سطيف بين جبال فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن والعرب على غير اهبة والتقى الجمعان
واقتتلوا اشد قتال واعظمه فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحدين وترك العرب
جميع ما لهم من اهل ومال واثاث ونعم فاخذ الموحدون جميع ذلك وعاد الجيش الى عبد المؤمن
بجميعه فقسم جميع الاموال على عسكره وترك النساء والاولاد تحت الاحتياط ووكل بهم
من الخدم الخصيان من يخدمهم ويقوم بحوائجهم وامر بصيانتهم فلما وصلوا معه الى مراكش
انزلهم في المساكن الفسيحة واجرى لهم النفقات الواسعة وامر عبد المؤمن ابنه محمدا ان
يكاتب امراء العرب ويعلمهم ان نساءهم واولادهم تحت الحفظ والصيانة وانه قد بذل لهم
الامان والكرامة فلما وصل كتاب محمد الى العرب سارعوا الى المسير الى مراكش فلما وصلوا
اليها اعطاهم عبد المؤمن نساءهم واولادهم واحسن اليهم واعطاهم أموالا جزيلة فاسترق
قلوبهم بذلك واقاموا عنده وكان بهم حفيا واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للعهد على ما نذكره
سنة احدى وخمسين

(ذكر ملك الفرنج مدينة بونة وموت رجار وملك ابنه غليالم)

في هذه السنة سار اسطول رجار ملك الفرنج بصقلية الى مدينة بونة وكان المقدم عليهم فتاه
فيلب المهدوي فحصرها واستعان بالعرب عليها فاخذها في رجب وسبى اهلها وملك ما فيها غير
انه اغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا باهليهم واموالهم الى القرى فاقام بها
عشرة ايام وعاد الى المهدية وبعض الاسرى معه وعاد الى صقلية فقبض رجار عليه لما اعتمد
من الرفق بالمسلمين في بونة وكان فيلب يقال انه وجميع فتيانه مسلمون يكتمون ذلك وشهدوا عليه
انه لا يصوم مع الملك وانه مسلم فجمع له رجار الاساقفة والقسوس والرهبان فحكموا بان يحرق
فاحرق في رمضان وهذا اول وهن دخل على المسلمين بصقلية ولم يمهل الله رجار بعده الا يسيرا حتى
مات في العشر الاول من ذي الحجة من السنة وكان مرضه الخوانيق وكان عمره قريب ثمانين سنة
وكان ملكه نحو عشرين سنة ولما مات ملك بعده ابنه غليالم وكان فاسد التدبير سيء التصوير
فاستوزر مايو البرصاني فاساء التدبير فاختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية وبلاد قلورية
وتعدى الامر الى افريقية على ما نذكره

(ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة)

في هذه السنة في رجب توفي السلطان بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود بن محمود بن
سبكتكين صاحب غزنة بها وكانت ولاية بهرام شاه ستا وثلاثين سنة وكان عادلا حسن السيرة
جميل الطريقة محبا للعلماء مكرما لهم باذلا لهم الاموال الكثيرة جامعا للكتب تقرأ بين يديه

ويفهم

بسجستان * حتى نامت لياليهم
عن دبيب العقارب * وصرير
الجنادب * وأنشد بعض أهل
العصر * على تهنئة النصر

يا أيها الملك الذى
زند المعالي يقتدح
لازال ثغرك باسما
من أجل ثغر تفتتح

وانشدني أبو منصور الثعالبي
في هذا الفتح الشهير * والنجح
الكبير * يمدح السلطان يمين
الدولة * وأمين الملة * بهذه
الابيات

يا خاتم الملك ويا قاهر الـ *
أملاك بين الاخذ والصفح
عليك عين الله من فاتح
للأرض مستول على النجح
راياته تنطق بالنصر بل
تكاد تملا كتب الفتح
كم أثر في الدين اثرته
يقصر عنه أثر الصبح
وكم بني للملك شيدتها
تثني عليها ألسن المدح
فاسعد بايامك واستغرق الـ *
اعداء بالكبح وبالذبح
ودم رفيعا عالي القدح
ممتنع الملك على القدح

ثم جعل السلطان سجستان
طعمة لصاحب الجيش
أخيه أبي المظفر نصر بن
ناصر الدين سبكتكين مضافة
الى نيسابور وناحيتها بسمة
ولايته في بلاد المشرق فنصب
لخلافته عليها أبا منصور
نصر بن اسحق وزيره *
ووكل بها تدبيره * ورضي لها
تقديمه وتأخيره * فقام بضبط

و يفهم مضمونها ولما مات ملك ولده خسرو شاه الملك بعده

*(ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان) *

في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوي المصري وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون الى ملكها سبيلا وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته وكان الوزراء كل سنة يرسلون اليها من الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها فلما كان في هذه السنة قتل ابن السلار على ما ذكرناه واختلفت الاهواء في مصر وولي عباس الوزارة والى ان استقرت قاعدة اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها فصبر أهلها وقاتلوهم قتالا شديدا حتى انهم بعض الايام قاتلوا خارج السور وردوا الفرنج الى خيامهم مقهورين وتبعهم اهل البلد اليها فايس حينئذ الفرنج من ملكه فبيناهم على عزم الرحيل اذ قد أتاهم الخبر ان البلد قد وقع بين أهله خلاف وقتل منهم قتلى فصبروا وكان سبب هذا الاختلاف انهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين ادعى كل طائفة منهم ان النصرة من جهتهم كانت وانهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين فعظم الخصام بينهم الى ان قتل من احدى الطائفتين قتيل واشتد الخطب وعظم حينئذ وتفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى فطمع الفرنج وزحفوا اليه وقاتلوا عليه فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه

*(ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها) *

في هذه السنة سير الخليفة المقتفي لامر الله عسكرا الى تكريت ليحصروها وارسل معهم مقدما عليهم ابن الوزير عون الدين ابن هبيرة وترشك وهو من خواص الخليفة وغيرهما فجرى بين ابن الوزير وترشك منافرة اوجبت ان كتب ابن الوزير يشكو من ترشك فامر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فارسل الى مسعود بلال صاحب تكريت فصالحه وقبض على ابن الوزير ومن معه من المقدمين وسلمهم الى مسعود بلال فانهزم العسكر وغرق منه كثير وسار مسعود بلال وترشك من تكريت الى طريق خراسان فنهبا وافسدا فسار المقتفي عن بغداد لدفعهما فهربا من بين يديه فقصد تكريت فحصرها اياما وجرى له مع اهلها حروب من وراء السور فقتل من العسكر جماعة بالنشاب فعاد الخليفة عنها ولم يملكها

*(ذكر عدة حوادث) *

في هذه السنة وصلت مراكب من صقلية فيها جمع من الفرنج فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية وفيها كان بين الكرج بارمينية وبين صلتق صاحب ارزن الروم مصاف وحرب شديد وانهزم صلتق واسره الكرج ثم اطلقوه وفيها توفي أبو العباس احمد بن أبي غالب الوراق المعروف بابن الطلاية الزاهد البغدادي بها وكان من الصالحين وله حديث ورواية وتوفي عبد الملك بن عبد الله بن ابي سهل أبو الفتح بن ابي القاسم الكروخي الهروي راوي جامع الترمذي ومولده سنة اثنتين ومن طريقه سمعناه

*(ثم دخلت سنة تسع واربعين وخمسمائة) *

*(ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز) *

الولاية * واستدرار الجباية واتقان السياسة * واتمام الحراسة * قيام من عدله الزمان بثقافه * ووشيه الكمال باوصافه * وعاد السلطان الى بلخ عازما على استئناف الجد * في غزو الهند على ما سنذكره في موضعه ان شاء الله تعالى

*(ذكر شمس المعالي قابوس ابن وشمكير وانتقاله الى مملكته * بعون الله ونصرته بعد طول التقلب * في التغرب) *

قد كان شمس المعالي اقام بخراسان ثماني عشرة سنة مصابرا للدهر على وقعاته وتصرف حالاته * لم تغمز يد الحادثات قناته * ولم يقرع صرف النائبات صفاته * ولم تنقص دوائر الايام مروءته * ولم تنقض حبوته * ولم يبق من اصحاب الجيوش وزعماء الجمهور من لم يضرب له بسهم من نوافله * ولم يرجع الى حظ من عطاياه وفواضله * ولم يخدمه أحد من ذوي الحشمة بسلام * الا حظي منه بانعام * واحسان وأجبية ألوان * وافراس مطهمة حسان * فعلى الاكتاف خلعه ولباسه * وتحت الافخاذ مراكبه وافراسه * وحشو البيوت بدره وأكياسه * وقد كان آل سامان يهمون برده الى مملكته * حيازة لنصب

في هذه السنة في المحرم قتل الظافر بالله أبو المنصور اسمعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله ان وزيره عباسا كان له ولد اسمه نصر فاحبه الظافر وجعله من ندمائه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة فاتفق ان قدم من الشام مؤيد الدولة الامير اسامة بن منقذ الكناني في وزارة ابن السلار واتصل بعباس فحسن له قتل العادل بن السلار زوج أمه فقتله وولاه الظافر الوزارة فاستبد بالامر وتم له ذلك وعلم الامراء والاجناد ان ذلك من فعل ابن منقذ فعزموا على قتله فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول قال وما ذلك قال الناس يزعمون ان الظافر يفعل بابنك نصر وكان نصر خصيصا بالظافر وكان ملازما له ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر يتهم به فانزعج لذلك وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله وقيل ان الظافر اقطع نصر بن عباس قرية قليوب وهي من أعظم قرى مصر فدخل اليه مؤيد الدولة ابن منقذ وهو عند ابيه عباس قال له نصر قد اقطعني مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هي في مهرك بكثير فعظم عليه وعلى ابيه وأنف من هذه الحال وشرع في قتل الظافر فامر ابنه فحضر نصر عند الظافر وقال له اشتهي ان تجيء الى داري لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فمشى معه في نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وافلت خويدم صغير اختبأ فلم يروه ودفن القتلى في داره واخبر اباه عباسا الخبر فبكر الى القصر وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر ان يطلبوا له اذنا في الدخول عليه لامر يريد ان يأخذ رأيه فيه فقالوا انه ليس في القصر فقال لا بد منه وكان غرضه ان ينفي التهمة عنه بقتله وان يقتل كل من بالقصر ممن يخاف ان ينازعه فيمن يقيمه في الخلافة فلما الح عليهم عجزوا عن احضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر اذ وصل اليهم الخويدم الصغير الذي شاهد قتله وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه واخبرهم بقتل الظافر فخرجوا الى عباس وقالوا له سل ولدك عنه فانه يعرف اين هو لانهما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال اريد ان اعترض القصر لئلا يكون قد اغتاله احد من أهله فاستعرض القصر فقتل اخوين للظافر وهما يوسف وجبريل واجلس الفائز بنصر الله ابا القاسم عيسى بن الظافر بامر الله اسمعيل ثاني يوم قتل ابوه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه واجلسه على سرير الملك وبايع له الناس واخذ عباس من القصر من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة ما اراد ولم يترك فيه الا ما لا خير فيه

(ذكر وزارة الملك الصالح ابن رزيك)

كان السبب في وزارة الملك الصالح ابن رزيك ان عباسا لما قتل الظافر واقام الفائز ظن ان الامر يتم له على ما يريده فكان الحال خلاف ما اعتقده فان الكلمة اختلفت عليه وثار به الجند والسودان وصار اذا امر بالامر لا يلتفت اليه ولا يسمع قوله فارسل من بالقصر من النساء والخدم الى الصالح طلائع ابن رزيك يستغيثون به وارسلوا شعورهم على الكتب وكان في منية بني خصيب واليا عليها وعلى أعمالها وليست من الاعمال الجليلة وانما كانت اقرب الاعمال اليهم وكان فيه شهامة فجمع لقصد عباس وسار اليه فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الاموال التي لا تحصى كثرة والتحف والاشياء التي لا توجد الا هناك مما

كان

السبق في اداته على خصمه وافاته مالكه الى يده فيقطعهم توالي الفتوق من كل وجه عليهم عن اصابة اغراضهم في امره وألهمته بصيرة التجارب مداراة المحنة حتى ينتهي زمانها * وينقضي على الاقبال بحرانها اذ كان الاضطراب في المحن كالاضطراب في حبل الخناق ما ازداد صاحبه على نفسه حركة * الا ازداد اختناقا وهلكة * ومما يضاف الى شعره قوله في اقبال محنته

قل للذي بصروف الدهر عيرنا
هل عاند الدهر الا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف
وتستقر باقصى قعره الدرر
فان تكن نشبت أيدي الزمان بنا
ومسنا من توادي بؤسه الضرر
ففي السماء نجوم ما لها عدد
وليس يكسف الا الشمس والقمر

ولما وطئ ناصر الدين سبكتكين عراص خراسان واقتدره الظفر بأبي علي على كورها ارتاح للقائه * وما يتجه من نصرته واعلائه * ثم اتفق له من الانقلاب الى بلخ ما حال بينه وبين مراده فقصر مدة على بجلته الى ان انقرض أمر ابي علي بن سيمجور وخوي نجم الشغل به

كان اخذه من القصر فلما سار وقع به الفرنج فقتلوه واخذوا جميع ما معه فتقووا به وسار الملك
الصالح فدخل القاهرة باعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر والشعور التى أرسلت اليه
من القصر على رؤس الرماح وكان هذا من الفأل العجيب فان الاعلام السود العباسية دخلتها
وازالت الاعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلع الوزارة
واستقر فى الامر واحضر الخادم الذى شاهد قتل الظافر فاراه موضع دفنه فاخرجه ونقله الى
مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنج عباسا اسروا ابنه فارسل الملك الصالح الى الفرنج وبذل لهم
مالا واخذه منهم فسار من الشام مع اصحاب الصالح فلم يكلم احدا منهم كلمة واحدة الى ان رأى
القاهرة فانشد بلى نحن كنا أهلها فابادنا * صروف الليالى والجدود العواثر
ودخل القصر فكان آخر العهد به فانه قتل وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح البيوت
الكبار والاعيان بالديار المصرية فاهلك اهلها وابعدهم عن ديارهم واخذ اموالهم فمنهم من
هلك ومنهم من تفرق فى البلاد والحجاز واليمن وغيرها فعل ذلك خوفا منهم ان يثوروا عليه
وينازعوه فى الوزارة وكان ابن منقذ قد هرب مع عباس فلما قتل هرب الى الشام

* (ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا)

فى هذه السنة ارسل الخليفة المقتفى لامر الله رسولا الى والى تكريت بسبب من عندهم من
المأسورين وهم ابن الوزير وغيره فقبضوا على الرسول فسير الخليفة عسكرا اليهم فخرج اهل
تكريت فقاتلوا العسكر ومنعوه من الدخول الى البلد فسار الخليفة بنفسه مستهل صفر فنزل
على البلد فهرب أهله فدخل العسكر فشعثوا ونهبوا بعضه ونصب على القلعة ثلاثة عشر
منجنيقا فسقط من اسوارها برج وبقى الحصر كذلك الى الخامس والعشرين من ربيع الاول
وامر الخليفة بالقتال والزحف فاشتد القتال وكثر القتلى ولم يبلغ منها غرضا فرحل عائدا الى
بغداد فدخلها آخر الشهر ثم امر الوزير عون الدين بن هبيرة بالعود الى محاصرتها والاستعداد
والاستكثار من الآلات للحصار فسار اليها سابع ربيع الآخر ونازلها وضيق عليها فوصل
الخبر بان مسعود بلال وصل الى شهرابان ومعه البقش كون خر وترشك وعسكر كثير ونهبوا
البلاد فعاد الوزير الى بغداد وكان سبب وصول هذا العسكر انهم حثوا الملك محمد ابن السلطان
محمود على قصد العراق فلم يتهيأ له ذلك فسير هذا العسكر واضاف اليهم خلق كثير من التركمان
فخرج الخليفة اليهم فارسل بلال مسعود الى تكريت واخرج منها الملك ارسلان بن السلطان
طغرل بن محمد وكان محبوسا بتكريت وقال ان هذا سلطان نقاتل بين يديه بازاء الخليفة
والتقى العسكران عند بكمزا بالقرب من بعقوبا ودام بينهم المناوشة والمحاربة ثمانية عشر يوما
ثم انهم التقوا آخر رجب فاقتتلوا فانهزمت ميمنة عسكر الخليفة وبعض القلب حتى بلغت
الهزيمة بغداد ونهبت خزائنه وقتل خازنه فحمل الخليفة بنفسه هو وولى عهده وصاح يا آل
هاشم كذب الشيطان وقرأ وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وحمل باقى العسكر
معه فانهزم مسعود والبقش وجميع من معهم وتمت الهزيمة وظفر الخليفة بهم وغنم عسكره
جميع مال التركمان من دواب وغنم وغير ذلك فبيع كل كبش بدانق وكانوا قد حضروا
بنسائهم واولادهم وخركاواتهم وجميع مالهم فأخذ جميعه ونودى من أخذ من اولاد التركمان

أخيه ابى القاسم السيمجو
فجدد عند ذلك شمس الم
عهده به ولاطف كل م
صاحبه بما لا يفى به
ولا يتسع له حساب
حسبان * وجرى ذكر
الدولة واستظهاره بيد
حسنويه صاحب الا
والفوارس الانجاد *
ناصر الدين سبكتكين
يستظهر عليهم بكماة ال
ورماة الحدق * من ك
الاتراك الخانية فار
حاجبه الكبير التو
الى ايلك الخان يتنجزه
الحال التى تفارقا عل
وراء النهر من الاتحاد
الوداد والاشتراك فى ال
بامداده بعشرة آلاف
من نخب رجاله * و
ابطاله * وصرف شمس
ورواءه على ميعاد مع
ورجع ناصر الدين سب
الى بلخ مستعدا للا
ومنتظرا لوصول ال
الدثر * فاستأثر الله به
عاد الرسول * وتحقق ال
فحط عليه ما صنع * و
دونه نبت ما زرع * و
وجوه الناس بين السا
عين الدوله * وامين ا
وبين شمس المعالى قابو
اسعاده * ووده الى م
على مال يقتضى به حق
ويضاهى حسن بلا

ونسائهم شيأ فليرده فردوه فاخذ البقش كون خر الملك ارسلان وانهزم الى بلد اللحف وقلعة
الماهكين وفى هذه الحرب غدر بشوعوف من عسكر الخليفة ولحقوا بالعجم ومضى هندى
الكردى ايضا معهم وكان الملك محمد قد ارسل عسكرا مع خاص بك بن آقسنقر نجدة لكون خر
فلما وصلوا الى الراذان بلغهم خبر الهزيمة فعادوا ورجع الخليفة الى بغداد فدخلها اوائل
شعبان فوصل الخبر ان مسعود بلال وترشك قصدا مدينة واسط فنهبوا وخربوا فسير الخليفة
الوزير ابن هبيرة فى عسكر خامس عشر شعبان فانهزم العجم فلحقهم عسكر الخليفة ونهب منهم
شيأ كثيرا وعاد الى بغداد فلقب الوزير سلطان العراق ملك الجيوش وسير الخليفة عسكرا الى
بلد اللحف فاخذه وصار فى جملته واما الملك الب ارسلان بن طغرل فان البقش اخذه معه الى
بلده فارسل اليه الملك محمد يقول له ليحضر عنده وارسلان معه فمات البقش كون خر فى رمضان
فى هذه السنة وبقى ارسلان مع ابن البقش وحسن الجاندار فحملاه الى الجبل فخاف السلطان
محمد أن يصل ارسلان الى زوج أمه ابى بكر فيجعله ذريعة الى قهر البلاد فلم ينفعه حذره واتصل
أرسلان بابى بكر زوج امه فصار معه وهو أخو بهلوان بن ايلدكز لامه وطغرل الذى قتله
خوارزم شاه ولد ارسلان هذا وكان طغرل آخر السلجوقية

(ذكر ملك نور الدين محمود مدينة دمشق)

فى هذه السنة فى صفر ملك نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر مدينة دمشق واخذها من
صاحبها مجير الدين أنز بن محمد بن بورى بن طغدكين اتابك وكان سبب حرصه على ملكها
ان الفرنج لما ملكوا فى العام الماضى مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم
عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا فى دمشق حتى انهم
استعرضوا كل من بها من مملوك وجارية من النصارى فمن أراد المقام بها تركوه ومن أراد
العود الى وطنه اخذوه قهرا من صاحبه ام أبى وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة ياخذونها
منهم فكان رسلهم يدخلون البلد وياخذونها منهم فلما رأى نور الدين ذلك خاف ان يملكها
الفرنج فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام فاعمل الحيلة فى أخذها حيث علم انها لا تملك قوة لان
صاحبها متى رأى غلبة ممن يقصده راسل الفرنج واستعان بهم لئلا يملكها من يقوى بها على
قتالهم فراسل مجير الدين صاحبها واستماله وواصله بالهدايا واظهر له المودة حتى وثق اليه فكان
نور الدين يقول له فى بعض الاوقات ان فلانا قد كاتبنى فى تسليم دمشق يعنى بعض امراء مجير
الدين فكان يبعد الذى قيل عنه وياخذ اقطاعه فلما لم يبق عنده من الامراء احد قدم اميرا
يقال له عطاء بن حفاظ السلمى الخادم وكان شهما شجاعا وفوض اليه أمر دولته فكان نور
الدين لا يتمكن معه من أخذ دمشق فقبض عليه مجير الدين وقتله فسار نور الدين حينئذ الى
دمشق وكان قد كاتب من بها من الاحداث واستمالهم فوعدوه بالتسليم اليه فلما حصر نور الدين
البلد ارسل مجير الدين الى الفرنج يبذل لهم الاموال وتسليم قلعة بعلبك اليهم لينجدوه ويرحلوا
نور الدين عنه فشرعوا فى جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن البلد فالى ان اجتمع لهم
ما يريدون تسلم نور الدين البلد فعادوا بخفى حنين واما كيفية تسليم دمشق فانه لما حصرها ثار
الاحداث الذين راسلهم فسلموا اليه البلد من الباب الشرقى وملكه وحصر مجير الدين

فى

فى تحقيق رجائه * وتعويق
مكايد اعدائه * فأظهر الوفاء
به لغاية شهرين من قراره
بجرجان اذ كان يحيل بحيل
ما يلتزمه على ما يدر له من
احلابها * ويغفل من
اخلافها * وانه يتحاشى بعد
انتقال الملك اليه خبط
رعيته بالحيف والعسف *
والاغضاء عليهم بعد الحرق
والنسف * فأعجل السلطان
يمين الدوله * وامين المله *
ما أهمه من ارث ابيه * وشغل
الخاطر باخيه * عن تقديم
اظهاره * وتعجيل رده الى داره
فاستمهله ريثما يكفى ما امامه
ويقضى الشغل بما وراءه
وسار الى غزنة حتى يسر الله
افتتاحها * وداوى على يده
جراحها * وكان ابو القاسم
ابن سيمجور مقيما بقومس
فلما مضى فخر الدولة لسبيله
انحاز منها * الى جرجان متغلبا
عليها * وكاتب ابو القاسم
شمس المعالى قابوس فى
الاستمداد اليها * ليقوم
بتسليمها اليه * وتقريرها
فى يديه * فسار على سمت
الروغد حتى وافى جرجان
وابو القاسم بن سيمجور
باستراباذ وقد جهز من الرى
ابو العباس فيروزان بن
الحسن فى جماهير المشاهير
من قواد الديلم والاكراد
وقد كان اطمع ابو القاسم
من بخارا فى ولاية قهستان
وهراة وامر بمعاودة خراسان

فى القلعة وراسله فى تسليمها وبذل له اقطاعا من جملته مدينة حمص فسلمها اليه وسار الى حمص واعطاه عوضا عنها بالس فلم يرضها وسار منها الى العراق واقام ببغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية وتوفى بها

(ذكر قصد الاسماعيلية خراسان والظفر بهم)

فى هذه السنة فى ربيع الآخر اجتمع جمع كثير من الاسماعيلية من قهستان بلغت عدتهم سبعة آلاف رجل ما بين فارس وراجل وساروا يريدون خراسان لاشتغال عساكرها بالغز وقصدوا اعمال خواف وما يجاورها فلقيهم الامير فرخشاه بن محمود الكاسانى فى جماعة من حشمه واصحابه فعلم ان لا طاقة له بهم وسار عنهم وارسل الى الامير محمد بن انز وهو من اكابر امراء خراسان واشجعهم يعرفه الحال وطلب منه المسير اليهم بعسكره ومن قدر عليه من الامراء ليجتمعوا عليهم ويقاتلوهم فسار محمد بن انز فى جماعة من الامراء وكثير من العسكر واجتمعوا هم وفرخشاه ودافعوا الاسماعيلية وقاتلوهم وطال الحرب بينهم ثم نصر الله المسلمين وانهزم الاسماعيلية وكثر القتل فيهم واخذهم السيف من كل مكان وهلك اعيانهم وساداتهم بعضهم قتل وبعضهم اسر ولم يسلم منهم الا القليل الشريد وخلت قلاعهم وحصونهم من حام ومانع فلولا اشتغال العساكر بالغز لكانوا ملكوها بغير تعب ولا مشقة واراحوا المسلمين منهم ولكن لله امر هو بالغه

(ذكر ملك نور الدين تل باشر)

فى هذه السنة او التى بعدها ملك نور الدين محمود بن زنكى قلعة تل باشر وهى شمالى حلب من امنع القلاع وسبب ملكها ان الفرنج لما رأوا ملك نور الدين دمشق خافوه وعلموا انه يقوى عليهم ولا يقدرون على الانتصاف منه لما كانوا يرون منه قبل ملكها فراسله من بهذه القلعة من الفرنج وبذلوا له تسليمها فسير اليهم الامير حسان المنبجى وهو من اكابر امرائه وكان اقطاعه ذلك الوقت مدينة منبج وهى تقارب تل باشر وامره ان يسير اليها ويتسلمها فسار اليها وتسلمها منهم وحصنها ورفع اليها من الذخائر ما يكفيها سنين كثيرة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة مات استاذ الدار ابو الفتوح عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء وكان له صدقات ومعروف كثير ومجالسة للفقراء وللمامات وولى الخلافة ابنه الاكبر عضد الدين ابو الفرج محمد بن عبد الله ما كان الى ابيه وتوفى عبد الرحمن بن عبد الصمد بن احمد بن على ابو القاسم الاكاف النيسابورى كان زاهدا عابدا فقيها مناظرا وكان السلطان سنجر يزوره ويتبرك بدعائه وكان ربما حجبه فلا يمكنه من الدخول اليه وفيها توفى ثقة الدولة ابو الحسن على بن محمد الزوينى القزوينى وكان يخدم ابا نصر محمد بن الفرج الابرى وزوجه ابنته شهدة الكاتبة فقربه المقتفى لامر الله ووكله فبنى مدرسة بباب الازج

(ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة)

فى هذه السنة سار الخليفة المقتفى لامر الله الى دقوقا فحصرها وقاتل من بها ثم رحل عنها لانه بلغه ان عسكر الموصل قد تجهزوا للمسير اليه عنها فرحل ولم يبلغ غرضا وفيها استولى شملة

للاعتضاد به * والاستظها
بعدته وعديده * فجرد عزما
للانصراف * وضرب ثلاث
المواعيد بالاخلاف * غير
حافل بما يلحقه من المذمة
بخذلان من جشمه لنصرته
واستقدمه على ما تحت يد
وقدرته * وسار نحو اسفرا
فانقلب شمس المعالى قابوس
الى نيسابور على حزة لنهل
استئناء بالوقت الى مقتطف
الرجاء ومخترف الامل *
وتربصا لما حوته رحم الليالى
من جنين المقدور * فى ادالة
الميسور على المعسور * ولما
رأى امور آل سامان مختلة
النظام * منحلة العرى
والاوذام * لا تزداد على الرقع
الا خرقا * ولا على الرتق
الا فتقا * محض الرأى فيما
يقيم له مائد امره * ويحوش
عليه آبد ملكه * فكانت زبدة
تمخضه ان سرب الاصبهبذ
شهريار بن شروين الى
جبل شهريار لاستصفائه *
فسار نحوه بمن تحت لوائه
وعلى الجبل يومئذ رستم بن
المرزبان خال الامير مجد
الدولة ابى طالب رستم بن
فخر الدولة صاحب الرى
فتناهد الاقتتال على رسمهم
فى الاحتراس بالتراس *
وادراع لباس الباس * وشد
عليهم الاصبهبذ شدة شردتهم
بين الهامه والدكادك *
واقحمتهم لهوات المعاطب
والمهالك * واصاب منهم غنيمة

التركماني على خوزستان وصاحبه حينئذ ملكشاه محمود بن محمد فسير الخليفة اليه عسكرا
فلقيهم شملة في رجب وقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة واسر وجوههم ثم احسن اليهم شملة
واطلقهم وارسل يعتذر فقبل عذره وسار الى خوزستان فملكها وازاح عنها ملكشاه بن
السلطان محمود بن محمد وفيها سار الغز الى نيسابور فملكوها بالسيف ودخلوها وقتلوا محمد بن
يحيى الفقيه الشافعي ونحوا من ثلاثين الفا وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة وهو معتقل
لا يلتفت اليه حتى انه اراد كثيرا من الايام ان يركب فلم يكن له من يحمل سلاحه فشده على
وسطه وركب وكان اذا قدم اليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتا آخر خوفا من انقطاعه عنه
لتقصيرهم في واجبه ولانهم ليس هذا مما يعرفونه وفيها وثب قسوس الارمن بمدينة آني فاخذوها
من الامير شداد وسلموها الى اخيه فضلون وفيها في ذي الحجة قتل الاتراك القارغلية
طمغاج خان بن محمد بما وراء النهر والقوه في الصحراء ونسبوه الى اشياء قبيحة وكان مدة ملكه
ستة عشر غير مهيب وفيها توفي أبو الفضل محمد بن ناصر بن علي البغدادي الحافظ الاديب
وكان مشهورا بابا الفضل وكان شافعيا وصار حنبليا مغاليا ومولده سنة سبع وستين واربعمائة
في شعبان وكان موته ايضا في شعبان وفيها كان بالعراق وما جاوره من البلاد زلزلة كبيرة في ذي
الحجة وفيها توفي يحيى الغساني النحوي الموصلي وكان فاضلا خيرا وتاج الدين ابو طاهر يحيى بن
عبد الله بن القاسم الشهرزوري قاضي جزيرة ابن عمر

(ثم دخلت سنة احدى وخمسين وخمسمائة)

(ذكر عصيان الجزائر وافريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم)

قد ذكرنا سنة ثمان واربعين وخمسمائة موت رجار ملك صقلية وملك ولده غليالم وانه كان فاسد
التدبير فخرج عن حكمه عدة من حصون صقلية فلما كان هذه السنة قوي طمع الناس فيه
فخرج من طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة واظهروا الخلاف عليه وخالف عليه اهل
افريقية فاول من اظهر الخلاف عليه عمر بن ابي الحسين الفرياني بمدينة سفاقس وكان رجار
قد استعمل عليها لما فتحها اباه ابا الحسين وكان من العلماء الصالحين فاظهر العجز والضعف
وقال استعمل ولدي فاستعمله واخذ اباه رهينة الى صقلية فلما أراد المسير اليها قال لولده عمر
انني كبير السن وقد قارب اجلي فمتى امكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم
ولا تنظر في انني اقتل واحسبني قد مت فلما وجد هذه الفرصة دعا اهل المدينة الى الخلاف
وقال يطلع جماعة منكم الى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم
ويقتلونهم كلهم فقالوا له ان سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه قال هو امرني بهذا واذا قتل
بالشيخ الوف من الاعداء فما مات فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم وكان ذلك اول
سنة احدى وخمسين وخمسمائة ثم اتبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وبعدهما محمد بن رشيد
بقابس وسار عسكر عبد المؤمن الى بونة فملكها وخرج جميع افريقية عن حكم الفرنج ما عدا
المهدية وسوسة وارسل عمر بن ابي الحسين الى زويلة وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان
يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد الى زويلة
فاعانوا اهلها على من بالمهدية من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهدية فلما اتصل الخبر بغليالم ملك

صقلية

جسيمة * بعد أن قتل منهم
مقتلة عظيمة * واقام الخطبة
بالجبل على شمس المعالي
قابوس بن وشمكير وكان بابي
ابن سعيد أحد اعيان الجبل
وشجعانهم مقيما عند
الاستندارية في مواقف
من أضرابه مشابه لهم
في ظاهر الامر * وناظرا الى
موالاة شمس المعالي من
نقاب السر * واتفق ان نصر
ابن الحسن بن فيروزان اقطعه
الاضافة بناحية الديلم الى
حدود الاستندارية فطمع
في مغالبتهم عليها ومزاحمتهم
فيها * فقذف من جرات
ايابها بن طرده عنها وقبض
على خاله أبي الفضل اصبهبذ
كلاذ فسجن الى ان دفن
ومايل بعد ذلك بابي بن سعيد
نصرا فتساعدا على قصد
آمل وبها ابو العباس
الحاجب في زهاء الفين من
عسكر الري فأجلاه عنها
هزيما تقفوه الصفاح *
وهشيما تذروه الرياح *
وطير بابي بن سعيد عند ذلك
كتبه الى شمس المعالي بذكر
الفتح الذي اتيح له على شعار
موالاته * واستشعار
طاعته وموالاته * واظهار
التنصح باستطلاع راياته *
ففصل عن نيسابور سائرا
نحو جرجان وتحيز بابي بن
سعيد عن مضامة نصر الى
استراباذ مجاهرا بشعار
صاحبه وتجمع اليه من

صقلية احضر اباالحسين وعرفه ما على ابنه فامره ان يكتب اليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود
الى طاعته ويخوفه عاقبة فعله فقال من قدم على هذا يرجع بكتاب فارسل ملك صقلية اليه
رسولا يتهدده ويأمره بترك ما ارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك فلما كان الغد
خرج اهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا وارسل عمر الى
الرسول يقول له هذا ابي قد دفنته وقد جلست للعزاء به فاصنعوا به ما اردتم فعاد الرسول الى
غاليالم فاخبره بما صنع عمر بن ابي الحسين فاخذ اباه وصلبه فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات واما
اهل زويلة فانهم كثر جمعهم بالعرب واهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليها
وكانت الاقوات بالمهدية قليلة فسير اليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام
والسلاح فدخلوا البلد وارسلوا الى العرب وبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا
هم واهل زويلة فانهزمت العرب وبقي اهل زويلة واهل سفاقس وركبوا في البحر فنجوا وبقي
اهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا الى زويلة فوجدوا ابوابها مغلقة فقاتلوا تحت
السور وصبروا حتى قتل اكثرهم ولم ينج الا القليل فتفرقوا ومضى بعضهم الى عبد المؤمن فلما
قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر ولم يعرجوا على شيء من اموالهم
ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال واستقر
الفرنج بالمهدية الى ان اخذها منهم عبد المؤمن على ما نذكره ان شاء الله تعالى

* (ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل) *

في هذه السنة قبض زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر
صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه وكان سليمان شاه عند عمه
السلطان سنجر قد جعله ولي عهده وخطب له على منابر خراسان فلما جرى لسنجر مع
الغز ما ذكرناه وتقدم على عسكر خراسان وضعفوا عن الغز مضى الى خوارزم شاه فزوجه
ابنة اخيه اتسيس ثم بلغه عنه ما كرهه فابعده فجاء الى اصفهان فمنعه شحنتها من الدخول فمضى
الى قاشان فسير اليه محمد شاه ابن اخيه محمود بن محمد عسكرا ابعدوه عنها فسار الى خوزستان
فمنعه ملكشاه عنها فقصد اللحف ونزل البندنيجين وارسل رسولا الى الخليفة المقتفي يعلمه
بوصوله وترددت الرسل بينهما الى ان استقر الامر على ان يرسل زوجته تكون رهينة فارسلها
الى بغداد ومعها كثير من الجواري والاتباع وقال قد ارسلت هؤلاء رهائن فان اذن امير المؤمنين
في دخول بغداد فعلت والا رجعت فاكرم الخليفة زوجته ومن معها واذن له في القدوم اليه
فقدم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلثمائة رجل فخرج ولد الوزير ابن هبيرة لتلقيه ومعه قاضي
القضاة والنقيبان ولم يترجل له ابن الوزير ودخل بغداد وعلى رأسه الشمسة وخلع عليه
الخليفة واقام ببغداد الى ان دخل المحرم من سنة احدى وخمسين وخمسمائة فاحضر فيه
سليمان شاه الى دار الخليفة واحضر قاضي القضاة والشهود واعيان العباسيين وحلف للخليفة
على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وانه لا يتعرض الى العراق بحال فلما حلف خطب له ببغداد
ولقب ألقاب ابيه غياث الدنيا والدين وباقي ألقابه وخلع عليه خلع السلطنة وسير معه من
عسكر بغداد ثلاثة آلاف فارس وجعل الامير قويدان صاحب الحلة اميرحاجب معه وسار

ابناء الجبل من كان يسلك
شعب هواه * ويستلم ركن
طاعته ورضاه * وكتب
شمس المعالي الى الاصبهبذ
بالانضمام الى ابي وجمع اليد
الى يده فيما قدم واخر *
والشد على عضده فيما اورد
واصدر * ففعل ما امر
وتسامع ابو العباس فيروزان
ابن الحسن بنبئهما * وهو
مقيم بجرجان فنهد لكفاية
امرهما * وإخماد ما التهب
من جمرهما * فواقعهما بباب
استراباذ وتعتعت فيها
حدود القواطع * من حديد
المدارع * ومزارق الزانات
من مفارق الهامات *
وكادت الهزيمة تستمر
باصحاب ابي لولا انقلاب
الاكراد والعرب في عسكر
الديلم عليهم ببيض الظبا
وزرق العوالي * منادين
بشعار شمس المعالي فانهزم
ابو العباس فيروزان بن
الحسن فيمن معه وركب
الطلب اكتافهم فأسروا
وزهاء عشرين نفرا من
وجوه القواد في جملته
واسرى بقية الفل نحو
جرجان وقد قدم اليها قابوس
ابن وشمكير سالار بن خركاش
أحد اقاربه فوافق
انهزامهم اليها اطلاله عليها
ففضوا رتقه وعويلا *
وضلوا فلا يهتدون سبيلا *
واضطروا الى استئناف
الهزيمة قرحا على قرح *

نحو بلاد الجبل في ربيع الاول وسار الخليفة الى حلوان وارسل الى ملكشاه ابن السلطان محمود اخي السلطان محمد صاحب همذان وغيرها يدعوه الى موافقته فقدم في الفي فارس فحلف كل منهما لصاحبه وجعل ملكشاه ولي عهد سليمان شاه وقواهما الخليفة بالمال والاسلحة وغيرها فساروا واجتمعوا هم وايلدكز فصاروا في جمع كبير فلما سمع السلطان محمد خبرهم ارسل الى قطب الدين مودود صاحب الموصل ونائبه زين الدين يطلب منهما المساعدة ويبذل لهما البذول الكثيرة ان ظفر فاجاباه الى ذلك ووافقاه فقويت نفسه وسار الى لقاء سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ووقعت الحرب بينهم في جمادى الاولى واشتد القتال بين الفريقين فانهزم سليمان شاه ومن معه وتشتت العسكر ووصل من عسكر الخليفة وكانوا ثلاثة آلاف رجل نحو من خمسين رجلا ولم يقتل منهم احد وانما اخذت خيولهم واموالهم وتشتتوا وجاؤا متفرقين وفارق سليمان شاه ايلدكز وسار نحو بغداد على شهرزور فخرج اليه زين الدين علي في جماعة من عسكر الموصل وكان بشهرزور والامير بزان مقطعها من جهة زين الدين وسارا فوقفا على طريق سليمان شاه فاخذاه اسيرا وحمله زين الدين الى قلعة الموصل وحبسه بها مكرما محترما الى ان كان من امره ما نذكره سنة خمس وخمسين ان شاء الله فلما قبض سليمان شاه ارسل زين الدين الى السلطان محمود يعرفه ذلك ووعده المعاضدة على كل ما يريده منه والمساعدة له والله اعلم

(ذكر حصر نور الدين قلعة حارم)

في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي الى قلعة حارم وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية وهي تقارب انطاكية من شرقيها وحصرها وضيق على اهلها وهي قلعة منيعة في نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه ليرحلوه عنها وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ويرجعون الى رأيه فارسل اليهم يقول انا نقدر على حفظ القلعة وليس بنا ضعف فلا تخاطروا انتم باللقاء فانه ان هزمكم اخذها وغيرها والرأي مطاولته فارسلوا اليه وصالحوه على ان يعطوه نصف اعمال حارم فاصطلحوا على ذلك ورحل عنهم فقال بعض الشعراء

البست دين محمد يا نوره * عزا له فوق السها آساد *
مازلت تشمله بعماد القنا * حتى تثقف عوده المياد *
لم يبق مذ ارهفت عزمك دونه * عدد يراع به ولا استعداد
ان المنابر لو تطيق تكلما * حمدتك عن خطبائها الاعواد
ملق باطراف القريحة كلكلا * طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا خوض الردا * حاموا فراس كيدهم او كادوا
ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة * حزما لحارم والمصاد مصاد
من منكر ان ينسف السيل الزبا * وابوه ذاك العارض المداد
اوان يعيد الشمس كاسفة البهى * نار لها ذاك الشهاب زناد
لا ينفع الآباء ما سمكوا من الشـ * ـعلياء حتى يرفع الاولاد *

وهي

وملأ فوق جرح * وخوطب شمس المعالي قابوس بخبر الفتح * وما هيأه الله له من عظيم النجح * فسار الى جرجان وقد شرح الله صدره * وجلى عن الكسوف بدره ونسخ باليسر عسره * وزاد على القدر قدره * ودخلها في شعبان سنة ثمان وثمانين وثلثمائة ولبعض كتاب اهل العصر فيه عند زفاف الملك اليه قصيدة اولها

الجد مالم يمنه الجد غدار
والحزم مالم يزنه الصبر خوار
والكريم اذا الايام زلن به
عن المنى بثبات النفس اعذار
كم فاضل وجنون المجنون له
حنقا على حسك اللأواء جرار
وكم جريح قريح القلب ذي عبر
وكم قتيل وما للسيف اثار
وكم فقير بلا جرم وخائنة
وكم غني وللايام ادوار
سير سريع ودور غير منصرم
نصب العيون ودون الغيب استار
من كان يخبر حال الدهر دائرة
لم يثنه عن عيان الحال اخبار
وانما حاصل الايام مختبرا
جذر اصم عن التحقيق فرار
يقصي الزمان على من لا اصطبار له
ورقة للذي في العسر صبار
فاصبر هديت فان الصبر منجية
ومن وراء ظلام الليل إسفار

وهي طويلة

(ذكر وفاة خوارزم شاه اتسز وغيره من الملوك)

في هذه السنة تاسع جمادى الآخرة توفي خوارزم شاه اتسز بن محمد بن انوشتكين وكان قد اصابه فالج فتعالج منه فلم يبرأ فاستعمل ادوية شديدة الحرارة بغير امر الاطباء فاشتد مرضه وضعفت قوته فتوفي وكان يقول عند الموت ما اغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه وكانت ولادته في رجب سنة تسعين واربعمائة ولما توفي ملك بعده ابنه ارسلان فقتل نفرا من اعمامه وسمل أخا له فمات بعد ثلاثة أيام وقيل بل قتل نفسه وارسل الى السلطان سنجر وكان قد هرب من أسر الغز على ما نذكره يبذل الطاعة والانقياد فكتب له منشورا بولاية خوارزم وسير الخلع له في رمضان فبقي في ولايته ساكنا آمنا وكان اتسز حسن السيرة كافا عن اموال رعيته منصفا لهم محبوبا اليهم مؤثرا للاحسان والخير اليهم وكان الرعية معه بين امن غامر وعدل شامل وفي سابع عشر الشهر المذكور توفي أبو الفوارس بن محمد بن ارسلان شاه ملك كرمان وملك بعده ابنه سلجوق شاه وفيها توفي الملك مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان قتلمش صاحب قونية وما يجاورها من بلاد الروم وملك بعده ابنه قلج ارسلان

(ذكر هرب السلطان سنجر من الغز)

في هذه السنة في رمضان هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من اسر الغز وجماعة من الامراء الذين معه وساروا الى قلعة ترمذ واستظهر بها على الغز وكان خوارزم شاه اتسز بن محمد بن انوشتكين والخاقان محمود بن محمد يقصدان الغز فيقاتلانهم فهزمهما فكانت الحرب بينهم سجالا وغلب كل واحد من الغز والخراسانيين على ناحية من خراسان فهو يأكل دخلها الا رأس لهم يجمعهم وسار السلطان سنجر من ترمذ الى جيحون يريد العبور الى خراسان فاتفق ان مقدم الاتراك القارغلية واسمه علي بك توفي وكان اشد شيء على السلطان سنجر وعلى غيره كثير الشر والفساد واثارة الفتن فلما توفي اقبلت القارغلية على السلطان سنجر وكذلك غيرهم من سائر الامم من اقاصي البلاد وادانيها وعاد الى دار ملكه بمرو في رمضان فكانت مدة أسره مع الغز من سادس جمادى الاولى سنة ثمان واربعين الى رمضان سنة احدى وخمسين وخمسمائة

(ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد ابيه)

في هذه السنة امر عبد المؤمن بالبيعة لولده محمد بولاية عهده وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمر ان يلي عمر الامر بعد عبد المؤمن فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر اولاده احب ان ينقل الملك اليهم فاحضر امراء العرب من هلال وزغب وعدي وغيرهم اليه ووصلهم واحسن اليهم ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن ويقولوا له نريد ان تجعل لنا ولي عهد من ولدك يرجع الناس اليه بعدك ففعلوا ذلك فلم يجبهم اكراما لعمر لعلو منزلته في الموحدين وقال لهم ان الامر لابي حفص عمر فلما علم عمر ذلك خاف على نفسه فحضر عند عبد المؤمن واجاب الى خلع نفسه فحينئذ بويع لمحمد بولاية العهد وكتب الى جميع بلاده بذلك وخطب له فيها جميعها فاخرج عبد المؤمن في ذلك اليوم من الاموال شيأ كثيرا

(ذكر استعمال عبد المؤمن اولاده على البلاد)

والدهر ذو غير والدهر نوب ... عسر ويسر واحلاء وامرار
والبدر يدركه التمحيق منتقصا ... وبعده بضياء التم نوار
والنار في خلل العيدان كامنة ... وسقطها باقتداح الزند سعار
والحد يطبع كالصمصام ثم له ... من صيقل الدهر جلاء وشهار
هذا الشمس المعالي في سعادته ... له مع الفلك الدوار اخبار
اعطاه من غرر الآمال ما قصرت ... عن نيل امثالها في الدهر اعمار
ملكا وعزا وعيشا رافعا وعلا ... ودولة ضمنها النصر والاظهار
لما كساه دروع العز ضافية ... ولم يجد منه غير الشكر يختار
ابدى نشوزا عليه كي يجربه ... بالصبر والصبر للاحرار مسبار
حتى اذا ما قضى من سبره وطرا ... وللامور نهايات واطوار
امسى يعاود ما ارضاه في خفر ... وخده بدم التشوير فوار
فالدهر خادمه والعز صارمه ... والرأي رايته والخلق انصار
قرم تضيء حياة العالمين به ... كانه الشمس والاعمار اقمار
راح الكرام الى اوكارنا له ... كانه الليل والاحرار اطيار

في هذه السنة استعمل عبد المؤمن اولاده على البلاد فاستعمل ولده ابا محمد عبد الله على بجاية واعمالها واستعمل ابنه أبا الحسن عليا على فاس واعمالها وولى ابنه ابا سعيد سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة وكذلك غيرهم واقد سلك في استعمالهم طريقا عجيبا وذلك انه كان قد استعمل على البلاد شيوخ الموحدين المشهورين من اصحاب المهدى محمد بن تومرت وكان يتعذر عليه ان يعزلهم فاخذ اولادهم وتركهم عنده يشتغلون في العلوم فلما تمهروا فيها وصاروا يقتدى بهم قال لآبائهم انى اريد ان تكونوا عندى استعين بكم على ما أنا بصدده ويكون اولادكم في الاعمال لانهم علماء فقهاء فاجابوا الى ذلك وهم فرحون مسرورون فولى اولادهم ثم وضع عليهم بعضهم من يعتمد عليه فقال انى ارى امرا عظيما قد فعلتموه فارقتم فيه الحزم والادب فقالوا وما هو فقال اولادكم في الاعمال واولاد امير المؤمنين ليس لهم منها شئ مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة وانى اخاف ان ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده فعلموا اصدق القائل فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا نحب ان تستعمل على البلاد السادة اولادك فقال لا افعل فلم يزالوا حتى فعل ذلك لهم بسؤالهم اياه

(ذكر حصر السلطان محمد بغداد)

في هذه السنة في ذى الحجة حصر السلطان محمد بغداد وسبب ذلك ان السلطان محمد بن محمود كان قد ارسل الى الخليفة يطلب ان يخطب له ببغداد والعراق فامتنع الخليفة من اجابته الى ذلك فسار من همذان في عساكر كثيرة نحو العراق ووعده اتابك قطب الدين صاحب الموصل ونائبه زين الدين على بارسال العساكر اليه نجدة له على حصر بغداد فقدم العراق في ذى الحجة سنة احدى وخمسين واضطرب الناس ببغداد وارسل الخليفة يجمع العساكر فاقبل خطلبرس في عسكر واسط ورحل مهلهل الى الحلة فاخذها واهتم الخليفة وعون الدين بن هبيرة بامر الحصار وجمع جميع السفن وقطع الجسر وجعل الجميع تحت التاج ونودى منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسين ان لا يقيم احد بالجانب الغربى فاجفل الناس واهل السواد ونقلت الاموال الى حريم دار الخلافة وخرب الخليفة قصر عيسى والمربعة والقرية والمستجدة والنجمى ونهب اصحابه ما وجدوا وخرب اصحاب محمد شاه نهر القلابين والتوثة وشارع ابن رزق الله وباب الميدان وقطفتا واما أهل الكرخ واهل باب البصرة فانهم خرجوا الى عسكر محمد وكسبوا معهم اموالا كثيرة وعبر السلطان محمد فوق حراقة الى الجانب الغربى ونهبت اوانا واتصل به زين الدين هناك وساروا فنزل محمد شاه عند الرملة وفرق الخليفة السلاح على الجند والعامة ونصب المنجنيقات والعرادات فلما كان في العشرين من المحرم ركب عسكر محمد شاه وزين الدين على ووقفوا عند الرقة ورموا بالنشاب الى ناحية التاج فعبر اليهم عامة بغداد فقاتلوهم ورموهم بالنفط وغيره ثم جرى بينهم عدة حروب وفى ثالث صفر عاودوا القتال واشتدت الحرب وعبر كثير من أهل بغداد سباحة وفى السفن فقتلوا وكان يوما مشهودا ولم تزل الحرب بينهم كل وقت وعمل الجسر على دجلة وعبر عليه أكثر العسكر الى الجانب الشرقى وصار القتال في الجانبين وبقى زين الدين في الجانب الغربى وامر الخليفة فنودى كل من جرح فله خمسة دنانير فكان كلما جرح انسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير فاتفق ان بعض العامة

له المعالى سماء والندى شهب
والجد سارية والجود امطار
علاه كالليل والمصباح همته
ونقله الجود والآمال سمار
تراه تنهزم الاموال عن يده
مثل انهزام العدى عنه اذا ثاروا
ومجده الدهر قناص لهمته
والجود بازله والصيد احرار
حياؤه بوقاح السيف ممتزج
وعدله في حزون البأس سيار
ندى يديه الى الفردوس منتسب
ووقع سطوته في حره النار
يوم الهياج صفاح البيض ظلته
والجو من لهب الطعنات صهار
يغامس الحرب والارواح راقية
الى التراقى وطرف الموت نظار
يرش من دفع الاعناق قسطلها
اذ نقعها بجوامى الخيل ثوار
تناذرت انجم الافق سطوته
اذ الرماح من الارواح تمتار
فهن في ذمة الاضواء آنسة
وهن من طخية الظلماء نفار
للمشترى بينها في الخصر منطقة
يبغى رضاه وللمريخ زنار
كفته روعته امرا بمصلحة
قد بدور على الحظوظ دبار
وقد افاض على الظلماء هيبته
فما يسرى حذار البأس صبار

جرح جرحا ليس بكبير فحضر الوزير يطلب الدنانير فقال له الوزير ليس هذا الجرح بشئ فعاود
القتال فضرب فانشقت جوفه وخرج شئ من شحمها فحمل الى الوزير فلما رآه قال يا مولانا
الوزير ايرضيك هذا فضحك منه واضعف له ورتب له من يعالج جراحته الى ان برئ وتعذرت
الاقوات فى العسكر الا ان اللحم والفواكه والخضر كثيرة وكانت الغلات ببغداد كثيرة لان
الوزير كان يفرقها فى الجند عوض الدنانير يبيعونها فلم تزل الاسعار عندهم رخيصة الا ان
اللحم والفاكهة والخضر قليل عندهم واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وعدم
المعيشة لاهلها وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين فى القتال لاجل الخليفة والمسلمين
وقيل لان نور الدين محمود بن زنكى وهو اخو قطب الدين صاحب الموصل الاكبر ارسل الى
زين الدين يلومه على قتال الخليفة ففتروا وقصروا ولم تزل الحرب فى أكثر الايام وعمل السلطان
محمد شاه اربعمائة سلم ليصعد الرجال فيها الى السور وزحفوا وقاتلوا ففتح اهل بغداد ابواب
البلد وقالوا اى حاجة بكم الى السلاليم هذه الابواب مفتحة فادخلوا منها فلم يقدروا على ان
يقربوها فبينما الامر على ذلك اذ وصل الخبر الى السلطان محمد ان اخاه ملكشاه وايلدكز صاحب
بلاد اران ومعه الملك ارسلان ابن الملك طغرل بن محمد وهو ابن امرأة ايلدكز قد دخلوا
همذان واستولوا عليها واخذوا أهل الامراء الذين مع محمد شاه واموالهم فلما سمع محمد شاه
ذلك جد فى القتال لعله يبلغ مناه فلم يقدر على شئ ورحل عنها نحو همذان فى الرابع والعشرين
من ربيع الاول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وعاد زين الدين الى الموصل وتفرق ذلك الجمع
على عزم العود اذا فرغ محمد شاه من اصلاح بلاده فلم يعودوا يجتمعون وفى كثرة حروبهم
لم يقتل بينهم الانفر يسير وانما الجراح كان كثيرا ولما ساروا نهبوا بعقوبا وغيرها من طريق
خراسان ولما رحل العسكر عن بغداد اصاب اهلها امراض شديدة حادة وموت كثير للشدة
التى مرت بهم واما ملكشاه وايلدكز ومن معهما فانهم ساروا من همذان الى الرى فخرج اليهم
اينانج شحنتها وقاتلهم فهزموه فارسل الملك محمد الامير سقمس بن قيماز الحرامى فى عسكر نجدة
لاينانج فسار سقمس وكان ايلدكز وملكشاه ومن معهما قد عادوا من الرى يريدون محاصرة
الخليفة فلقيهم سقمس وقاتلهم فهزموه ونهبوا عسكره واثقالهم فاحتاج الملك محمد الى
الاسراع فسار فلما بلغ حلوان بلغه ان ايلدكز بالدينور واتاه رسول من نائبه اينانج انه دخل
همذان واعاد الخطبة له فيها فقويت نفسه وهرب شملة صاحب خوزستان الى بلاده وتفرق
اكثر جمع ايلدكز وملكشاه وبقيا فى خمسة آلاف فارس فعادا الى بلادهما فتبعه الهارب
ولما دخل محمد شاه همذان اراد التجهز لقصد بلاد ايلدكز فابتدأ به مرض السل وبقى به الى
ان مات

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول أطلق ابو الوليد البدر ابن الوزير ابن هبيرة من حبس تكريت
ولما قدم بغداد خرج اخوه والموكب يتلقونه وكان يوما مشهودا وكان مقامه فى الحبس
يزيد على ثلاث سنين وفيها احترقت بغداد فى ربيع الآخر وكثر الحريق بها واحترق درب
فراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة ابن جردة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب

أن السلامة ان لو الهمت نطقت
يا رب انك لى من سيفه جار
يا أيها الملك الميمون طائره
ومن نداه كفيض اليم زخار
ان الزمان عروس مالها ابدا
سوى خصالك مشاط وعطا[ر]
الجفل عندك فى وجه الندى كالف
نعم وفى غرة الاقبال ادبار
ترمى العدى من بنات الكف صائبة
وان رموا خانت المرمى اوتار
كان ماقدروا وامن ظالم
ومارميت به وحى واقدار
تحمى وتلتهب الاوتار رامية
كانما حمت الاوتار اوتار
لازلت فى نعم تفضى الى نعم
ماطاف حول فناء البيت عمار
ممتعا بسرور غير منقرض
حتى يفوق بجود الارض اغوار
ولابى بكر محمد بن العباس الطبرى المعروف بالخوارزمى من قصيدة يمدحه بها وقت مقامه بنيسابور
قامت تودعنى بالادمع السجم
والصمت بين يديها وبين فم
البين اخرسها والبين انطقها
وهذه حالة فى الناس كلهم
قد طالما انهزمت عنا السيوف فلا
تحاربينا بجيش الورد والعنم

الازج وسوق السلطان وغير ذلك وفيها في شوال قصد الاسماعيلية طبس بخراسان فاوقعوا بها وقعة عظيمة واسروا جماعة من اعيان دولة السلطان ونهبوا اولادهم ودوابهم وقتلوا فيهم وفيها في ذي القعدة توفي شيخ الاسلام ابو المعالي الحسن بن عبيد الله بن احمد بن محمد المعروف بابن الرزاز بنيسابور وهو من أعيان الافاضل وفي هذه السنة توفي مريد الدين بن بيسان رئيس آمد والحاكم فيها على صاحبها وولي ما كان اليه بعده ابنه كمال الدين ابو القاسم وتوفي أبو الحسن علي بن الحسين الغزنوي الواعظ المشهور ببغداد وكان قدم اليها سنة ست عشرة وخمسمائة وكان له قبول عظيم عند السلاطين والعامة والخلفاء الا ان المقتفي اعرض عنه بعد موت السلطان مسعود لاقبال السلطان عليه وكان موته في المحرم وتوفي ابو الحسن ابن الخل الفقيه الشافعي شيخ الشافعية ببغداد وكان يؤم بالخليفة في الصلاة وتوفي ابن الآمدي الشاعر وهو من اهل النيل من اعيان الشعراء في طبقة الغزي والارجاني وكان عمره قد زاد على تسعين سنة وفيها قتل مظفر بن حماد بن ابي الخير صاحب البطيحة قتله نفيس بن فضل بن أبي الخير في الحمام وولي بعده وفيها توفي الواوا الحلبي الشاعر المشهور وفيها في رمضان توفي الحكيم ابو جعفر بن محمد البخاري باسفراين وكان عالما بعلوم الحكماء الاوائل

(ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الزلازل بالشام)

في هذه السنة في رجب كان بالشام زلازل كثيرة قوية خربت كثيرا من البلاد وهلك فيها مالا يحصى كثرة فخرب منها بالمرة حماة وشيزر وكفرطاب والمعرة وافامية وحمص وحصن الاكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وانطاكية واما مالم يكثر فيه الخراب ولكن خرب اكثره فجميع الشام وتهدمت اسوار البلاد والقلاع فقام نور الدين محمود في ذلك المقام المرضي وخاف على بلاد الاسلام من الفرنج حيث خربت الاسوار فجمع عساكره واقام باطراف البلاد فلم يزل كذلك حتى فرغ من اسوار البلاد واما كثرة القتلى فيكفي ان معلما كان بالمدينة وهي مدينة حماة ذكر عنه انه فارق المكتب لمهم عرض له فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له بالمكتب

(ذكر ملك نور الدين حصن شيزر)

ننبدئ بذكر هذا الحصن ولمن كان قبل ان يملكه نور الدين محمود بن زنكي فنقول هذا الحصن قريب من حماة بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك اليه الا من طريق واحدة وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من ايام صالح بن مرداس الى ان انتهى الامر الى أبي المرهف نصر بن علي بن نصر بن منقذ بعد ابيه أبي الحسن علي وكان بيده الى ان مات سنة احدى وتسعين واربعمائة وكان شجاعا كريما فلما حضره الموت استخلف اخاه أباسلامة مرشد بن علي فقال والله لا وليته ولاخرجن من الدنيا كما دخلتها وكان عالما بالقرآن وهو والد مؤيد الدولة اسامة بن منقذ فولاها اخاه الاصغر سلطان بن علي واصطحبا اجمل صحبة مدة من الزمان فاولد مرشد عدة اولاد ذكور وكبروا وسادوا ومنهم عز الدولة أبو الحسن علي ومؤيد الدولة اسامة وغيرهما ولم يولد لاخيه سلطان ولد ذكر الى ان كبر فجاءه اولاد ذكور فحسد أخاه على ذلك وخاف

اولاد

وقد خلعت لجام الاتباع فلا
تلقى سوى الفقد في ذمة اللجم
لم يبق في الارض لي شيء
اهاب له
فهل اهاب انكسار الجفن
ذي السقم
استغفر الله من قولي غلطت
بلى
اهاب شمس المعالي امة الامم
كان لحظك من سيف الامير
ومن
حتم القضاء ومن عزمي ومن
كلمي
غضي جفونك عن رجمة لدمي
فان سفرت فقد حاولت
سفك دمي
وان دعاك ابو يحيى لنصرته
على يوما أبدى الثغر وابتسم
قال الامير لاخلاق الكرام
قفي
بحيث انت فما زادت على نعم
وقال للعلم والآداب لاتردا
الاعلى فافاهما باولهم
القائل القول لوفاه الزمان به
صارت لياليه اياما بلاظلم
والفاعل الفعلة الغراء
لومزجت
بالنار لم تكن النيران من حمم
لاتحفلن بشؤبوب المال في يده
فقد تجف ضروع العارض
السجم
قد يجزر البحر بعد المد تعرفه
وينزل الجدب وكر الاجدل
القطم
ولا يغرنك ان الدهر حاربه
قد يغدر السيف يوم الروع
بالبهم

اولاد اخيه على اولاده وسعى بينهم المفسدون فغيروا كلا منهما على اخيه فكتب سلطان الى اخيه مرشد ابيات شعر يعاتبه على اشياء بلغته عنه فأجابه بشعر فى معناه رأيت اثبات ما تمس الحاجة اليه منه وهى هذه الابيات

ظلوم أبت فى الظلم الا تماديا * وفى الصد والهجران الا تغاليا
شكت هجرنا والذنب فى ذاك ذنبها * فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين فىّ وطالما * عصيت عذولا فى هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى القلى * وهيهات ان أمسى لها الدهر قاليا
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها * وان هى أبدت جفوة وتناسيا
ولما اتانى من قريضك جوهر * جمعت المعالى فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لانه * تولى برغمى حين ولى شبابيا
واين من المستفتين افظا مفوّق * اذا رمت ادنى القول منه عصانيا
وقالت أخى يرعى بنىّ واسرتى * ويحفظ عهدى فيهم وذماميا
ويجزيهم ما لم اكافه فعله * لنفسى فقد اعددته من تراثيا
فما لك لما ان حنى الدهر صعدتى * وثلم منى صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة * وقربك منى جفوة وتناسيا
واصبحت صفر الكف مما رجونه * أرى الياس قد عفى سبيل رجائيا
على أننى ما حلت عما عهدته * ولا غيرت هذى السنون ودادیا
فلا غرو عند الحادثات فاننى * أراك يمينى والانام شماليا
تحل بها عذراء لو قرنت بها * نجوم السماء لم تعد دراريا
تحلت بدر من صفاتك زانها * كما زان منظوم اللآلى الغوانيا
وعش باقيا للمجد ما كان واهيا * مشيدا من الاحسان ما كان هاويا

وكان الامر بينهما فيه تماسك فلما توفى مرشد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة قلب اخوه لاولاده ظهر المجن وبادأهم بما يسوءهم وأخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد اكثرهم نور الدين وشكوا اليه ما لقوا من عمهم فغاظه ذلك ولم يمكنه قصده والاخذ بثارهم واعادتهم الى وطنهم لاشتغاله بجهاد الفرنج ولخوفه ان يسلم شيزر الى الفرنج ثم توفى سلطان وولى بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد حنقه عليهم وانتظر فرصة تمكنه فلما خربت القلعة فى هذه السنة بما ذكرناه من الزلزلة لم ينج من بنى منقذ الذين بها أحد وسبب هلاكهم اجمعين ان صاحبها منهم كان قد ختن ولدا له وعمل دعوة للناس واحضر جميع بنى منقذ عنده فى داره وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه واذا كان فى مجلس اقيم الفرس على بابه وكان المهر فى ذلك اليوم على باب الدار فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فرمح الفرس رجلا كان اولهم فقتله وامتنع الناس من الخروج فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ولم ينج منها الا الشريد فبادر اليها بعض امراء نور الدين وكان بالقرب منها فصعد اليها وتسلمها نور الدين منه فملكها وعمر اسوارها ودورها واعادها جديدة

الآن اذ غدت الدنيا بهجته * وقابلته صباحا أوجه النعم
ترنو اليه فتخفى شخص منقبض ٨٩ لراحته وتغضى طرفه محتشما
اذا دعت نحوه ساقا نهت قدما
والعمر يذهب بين الساق والقدم
حيرى تقربها حال وتبعدها
كذا يكون رجوع الآبق السدم
وله من قصيدة أخرى يقول فى نسيبها
شموس لهن البيت والخدر مغرب
فطالعها البين والهجر غارب
ولكنه شمس المعالى خلافها
مشارقه ليست لهن مغارب
وما القبول الشمس الا وقد رأوا
بأنك شمس والملوك كواكب
أقول لزوار الامير ترجلوا
فمن زاره من راجل فهو راكب
وان زاره الفرسان كنت كفيلهم
بأن يرجعوا والخيل فيهم جنائب
ألا بلغا عنى الامير رسالة
تدل على انى على الدهر عاتب
الى كم يحل المرء مثلك بلدة
بها منبر فيه لغيرك خاطب
عليك بهذا السيف فاقض ديونه
فللسيف دين عند كفك واجب
ولا تقعدن تغضى الجفون على القذى
وفى الارض مركوب ورمح وصاحب

(ذكر وفاة الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر وولاية قطب الدين مودود على الجزيرة)

كانت الجزيرة لاتابك زنكى فلما قتل سنة احدى وأربعين اقطعها ابنه سيف الدين غازى للامير أبى بكر الدبيسى وكان من اكابر أمراء والده فبقيت بيده الى الآن وتمكن منها وصار بحيث يتعذر على قطب الدين اخذها منه فمات فى ذى الحجة سنة اثنتين وخمسين ولم يخلف ولدا فاستولى عليها مملوك له اسمه غلبك وأطاعه جندها فحصرهم مودود ثلاثة اشهر ثم تسلمها من غلبك فى صفر من سنة ثلاث وخمسين واعطاه عوضها اقطاعا كثيرة

(ذكر وفاة السلطان سنجر)

فى هذه السنة فى ربيع الاول توفى السلطان سنجر بن ملكشاه ابن ألب ارسلان أبو الحرث اصابه قولنج ثم بعده اسهال فمات منه ومولده بسنجار من ديار الجزيرة فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وسكن خراسان واستوطن مدينة مرو ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله فعهد الى محمد بالسلطنة وجعل سنجرا ولى عهده فلما مات محمد خوطب لسنجر بالسلطان واستقام أمره واطاعه السلاطين وخطب له على أكثر منابر الاسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة ولم يزل أمره عاليا وجده متراقيا الى ان اسره الغز على ما ذكرناه ثم انه خلص بعد مدة وجمع اليه اطرافه وكان يعود اليه ملكه فأدركه أجله وكان مهيبا كريما رفيقا بالرعية وكانت البلاد فى زمانه آمنة ولما مات دفن فى قبة بناها لنفسه سماها دار الآخرة ولما وصل خبر موته الى بغداد انقطعت خطبته ولم يجلس له فى الديوان للعزاء ولما حضر السلطان سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود ابن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان سنجر فاقام بها خائفا من الغز فقصد جرجان يستظهر بها وعاد الغز الى مرو وخراسان واجتمع طائفة من عساكر خراسان على أى ابه المؤيد فاستولى على طرف من خراسان وبقيت خراسان على هذا الاختلال الى سنة أربع وخمسين وراسل الغز الملك محمودا على ما نذكره سنة ثلاث وخمسين وسألوه ان يحضر عندهم ليملكوه عليهم فلم يثق اليهم وخافهم على نفسه فارسل ابنه اليهم فاطاعوه مدة ثم لحق بهم الملك محمود على ما نذكره سنة ثلاث وخمسين

(ذكر ملك المسلمين مدينة المرية وانقراض دولة الملثمين بالاندلس)

فى هذه السنة انقرضت دولة الملثمين بالاندلس وملك أصحاب عبد المؤمن مدينة المرية من الفرنج وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما استعمل ابنه أبا سعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر أبو سعيد البحر الى مالقة واتخذها دارا وكاتبه ميمون بن بدر اللمتونى صاحب غرناطة ان يوحد ويسلم اليه غرناطة فقبل أبو سعيد ذلك منه وتسلم غرناطة فسار ميمون الى مالقة باهله وولده فتلقاه ابو سعيد وأكرمه ووجهه الى مراكش فأقبل عليه عبد المؤمن وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم الا جزيرة ميورقة مع حمو بن غانية فلما ملك ابو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار الى مدينة المرية وهى بأيدى الفرنج اخذوها من المسلمين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فلما نازلها وافاه الاسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية برا وبحرا وجاء الفرنج الى حصنها فحصرهم فيها ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبنى أبو سعيد سورا

فريك هذا الدهر فالزمه يغترم
فلن يوقظ الغرام الا المطالب
وأنت ابن عم السيف بل أنت عمه
وكيف تخاف الاقربين الاقارب
أليس أبوكم وشمكير وجده
زياد ومرداويج عم مناسب
تحرك بنا امالواء ومنبر
واما حسام كالعقيقة قاضب
وللقاضى أبى الحسين على
ابن عبد العزيز الجرجانى
فيه من قصيدة أولها
أمسرى خيال الهاجر المتجنب
ومجرى دموع الزائر المتطرب
سألتك بالدهر الذى صرت بعده
قذى ناظرى من بعد أن كنت ملعبى
أعف على عين اذا ما وعدتها
بقربك قالت للدموع تأهبى
ولما تداعت للغروب شموسهم
وقفنا التوديع الفريق المغرب
تلقين أطراف السجوف بمشرق
لهن واعطاف الخدور بمغرب
فما سرن الا بين دمع مضيع
ولا عن الا فوق قلب معذب
كأن فؤادى قرن قابوس راعه
تلاعبه بالفيلق المتاشب
همام يراه المال أسرع حادث

على الجبل المذكور الى البحر وعمل عليه خندقا فصارت المدينة والحصن الذى فيه الفرنج
محصورا بهذا السور والخندق ولا يمكن من ينجدهما من ان يصل اليهما فجمع الادفونش
ملك الفرنج بالاندلس المعروف بالسليطين فى اثنى عشر ألف فارس من الفرنج ومعه محمد بن
سعد بن مردنيش فى ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول الى المدينة ودفع المسلمين
عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين فمات السليطين فى عوده قبل ان
يصل الى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة اشهر فضاقت الميرة وقلت الاقوات على
الفرنج فطلبوا الامان ليسلموا الحصن فاجابهم أبو سعيد اليه وأمنهم وتسلم الحصن ورحل
الفرنج فى البحر عائدين الى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين

(ذكر غزو صاحب طبرستان الاسماعيلية)

فى هذه السنة جمع شاه مازندران رستم بن على بن شهريار عسكره وسار ولم يعلم احدا جهة
مقصده وسلك المضايق وجد السير الى بلد ألموت وهى للاسماعيلية فاغار عليها واحرق القرى
والسواد وقتل فاكثر وغنم اموالهم وسبى نساءهم واسترق ابناءهم فباعهم فى السوق وعاد
سالما غانما وانخذل الاسماعيلية ودخل عليهم من الوهن مالم يصابوا بمثله وخرب من بلادهم
مالا يعمر فى السنين الكثيرة

(ذكر أخذ حجاج خراسان)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار حجاج خراسان فلما رحلوا عن بسطام أغار عليهم جمع من الجند
الخراسانية قد قصدوا طبرستان فاخذوا من أمتعتهم وقتلوا نفرا منهم وسلم الباقون وساروا
من موضعهم فبينما هم سائرون اذ طلع عليهم الاسماعيلية فقاتلهم الحجاج قتالا عظيما وصبروا
صبرا عظيما فقتل أميرهم فانخذلوا وألقوا بأيديهم واستسلموا وطلبوا الامان وألقوا اسلحتهم
مستأمنين فأخذهم الاسماعيلية وقتلوهم ولم يبقوا منهم الا شرذمة يسيرة وقتل فيهم من الائمة
العلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الاسلام وخصت خراسان
ولم يبق بلد الا وفيه المأتم فلما كان الغد طاف شيخ فى القتلى والجرحى ينادى يامسلمون ياحجاج
ذهب الملاحدة وأنا رجل مسلم فمن أراد الماء سقيته فمن كلمه قتله واجهز عليه فهلكوا اجمعون
الامن سلم وولى هاربا وقليل ما هم

(ذكر الحرب بين المؤيد والامير اينباق)

قد ذكرنا تقدم الامير اى ابه مملوك السلطان سنجر وتقدمه على عساكر خراسان فحسده جماعة
من الامراء منهم الامير اينباق وهو من الامراء السنجرية وانحرف عنه وكان تارة يقصد
خوارزمشاه وتارة مازندران وتارة يظهر الموافقة للمؤيد ويبطن المخالفة فلما كان الآن فارق
مازندران ومعه عشرة آلاف فارس قد اجتمع معه كل من يريد الغارة على البلاد وكل منحرف
عن المؤيد وقصد خراسان وأقام بنواحى نسا وابيورد لا يظهر المخالفة للمؤيد بل يراسله
بالموافقة والمعاضدة له ويبطن ضدها وانتقل المؤيد من المكاتبة الى المكافحة وسار اليه جريدة
فاغار عليه وأوقع به فتفرق عنه جموعه ونجا بحشاشة نفسه وغنم المؤيد وعسكره كل ما لاينباق
ومضى منهزما الى مازندران وكان ملكها رستم بينه وبين أخ له اسمه على تنازع على الملك وقد

الى سنفه والقرن أخوف معطب
يفض العدى اطراقه قبل عزمه
ويطرقهم رعبا ولم يتأهب
وفيها يصف الزانات
وزرق على سمر تطل اذا هوت
تلاحظ أعقاب الشهاب المذنب
ترفعن عن طيش الرماح وزلة السهام
وتقصير الحسام المجرب
فحزن طبات البيض ثم وصلنها
اليهن من سمر الرماح باكعب
فتلن منال السهم من متبعد
وقمن مقام السيف من متقرب
فتى ما تلاقت همتاه بصدره
ولا يشهد الجلى برأى مشعب
له الهمة العلياء والمنصب الذى
تنيمه الجوزاء ألحاظ متعب
اذا بعض أطراف الرجال تقاصرت
عن المجد ألفوه كريم التقلب
ويذهب من عز ومجد ومفخر
[illegible] مردا ويج فى كل مذهب
يزاحمهم من وشمكير بمنكب
ومن سلف الاصبهبذين بموكب
وما خلصت للمرء سعاة والد
اذا لم يقابله بخال مهذب
كلا طرفيه يرجع الطرف خاسئا
اذا رامه عن كل خرق محجب
يصون معالى المشير بخاله
ويعلو الربا عن شأو ساسان بالاب

قوى رستم فلما وصل ايناق الى مازندران قتل علياً وحمل رأسه الى أخيه رستم فعظم ذلك على
رستم واشتد واستشاط غضباً وقال آكل لحمى ولا أطعمه غيرى ولم يزل ايناق يتردد فى خراسان
بالنهب والغارة لاسيما مدينة اسفراين فانه أكثر من قصدها حتى خربت فراسله السلطان
محمود بن محمد والمؤيد عوانه الى الموافقة فامتنع فسارا اليه فى العساكر فلما قارباه أتاهما كثير
من عسكره فمضى من بين أيديهما الى طبرستان فى صفر سنة ثلاث وخمسين فتبعاه فى عساكرهما
فارسل شاه مازندران يطلب الصلح فأجاباه واصطلحوا وحمل شاه مازندران أموالاً جليلة وهدايا
نفيسة وسير ايناق ابنه رهينة فعادا عنه

(ذكر الحرب بين المؤيد وسنقر العزيزى)

كان سنقر العزيزى من امراء السلطان سنجر وممن يناوى أيضاً المؤيد أيه فلما اشتغل المؤيد
بحرب ايناق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد الى هراة ودخلها وبها جماعة من
الاتراك وتحصن بها فاشير عليه بأن يعتضد بالملك الحسين ملك الغورية فلم يفعل واستبد بنفسه
منفرداً لانه رأى اختلاف الامراء على السلطان محمود بن محمد فطمع وحدثته نفسه بالقوة
فقصده المؤيد الى هراة فلما وصل اليها قاتل من بها شيأ من قتال ثم ان الاتراك مالوا الى المؤيد
وأطاعوه وانقطع خبر سنقر العزيزى من ذلك الوقت ولم يعلم ما كان منه فقيل انه سقط عن
فرسه فمات وقيل بل اغتاله الاتراك فقتلوه وتقدم السلطان محمود الى ولاية هراة فى عساكره
وجنوده والتحق جماعة من عسكر سنقر بالامير ايناق وأغاروا على طوس وقراها فبطلت
الزروع والحرث واستولى الخراب على البلاد وعمت الفتن أطراف خراسان وأصابهم العين
فانهم كانوا أيام السلطان سنجر فى أرغد عيش وامنه وهذا دأب الدنيا لا يصفو نعيمها وخيرها
من كدر وشوائب وآفات وقلما يخلص شرها من خير فنسأل الله أن يحسن لنا العون والعقبى
بمحمد وآله

(ذكر ملك نور الدين بعلبك)

فى هذه السنة ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها وكانت بيد انسان يقال له ضحاك البقاعى
منسوب الى بقاع بعلبك وكان قد ولاه اياها صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع
ضحاك بها فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف الحال معه الى الآن فملكها
واستولى عليها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة قلع الخليفة المقتفى لامر الله باب الكعبة وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة المذهبة
وعمل لنفسه من الباب الاول تابوتاً يدفن فيه اذا مات وفيها توفى محمد بن عبد اللطيف بن محمد
ابن ثابت أبو بكر الخجندى رئيس أصحاب الشافعى باصفهان وسمع الحديث بها من أبى على
الحداد وكان صدراً مقدماً عند السلاطين وكان ذا حشمة عظيمة وجاه عريض ووقعت لموته
فتنة عظيمة بأصفهان وقتل فيها خلق كثير وفيها كان بخراسان غلاء شديد اكلت فيه سائر
الدواب حتى الناس وكان بنيسابور طباخ فذبح انساناً علوياً وطبخه وباعه فى الطبيخ ثم ظهر
عليه انه فعل ذلك فقتل وأسفر الغلاء وصلحت أحوال الناس وفيها توفى القاضى أبو العباس

احمد

ولما انتهت الهزيمة بالقوم الى
الرى على جملة الانكسار * وذلة الاقتسار * وسبة
القتل والاسار * قطع عليهم
سياط العذل والتعنيف *
وملأت عيونهم من نفثات
التعيير والتشوير * وكان
أبو على الحسن بن أحمد بن
حمويه على الوزارة فاختار
عشرة آلاف رجل من بهم
الديلم وفتاك الاتراك ونخب
العرب وافراد الاكراد
وسار بهم فى منوجهر بن
قابوس وبيستون بن بيجاسب
وكاذ بن فيروزان وورشاموج
ابن أخت عظيم الديلم
وموسى الحاجب وشابور
ابن كردويه وأبى العباس
ابن جانى وعبد الملك بن ماكان
وهؤلاء وجوه الجيل والديلم
حتى أظل شهريار وبلغ
شمس المعالى قابوس اقباله
فاستضم أطرافه واستظهر
بشهريار بن شروين استمداداً
لمواقعته * وتنجز الوعد الله فى
نصرته * وتثبيت وطأته *
واستتمام ما أعاده الله اليه
من نعمته * وحاذر أبو على بن
حمويه مكالاة نصر بن الحسن
ابن فيروزان شمس المعالى
قابوس بن وشمكير وانقطاعه
الى جانبه فواصله بكتبه
نائياً فى عقدته * قاتلاً فى
ذروته * نائباً بحصره فى مصره *
وملقياً اليه أن القرابة
الواشجة بين أبى طالب بن

احمد بن بختيار بن على المايداى الواسطى قاضيها وكان فقيها عالما وفيها فى ربيع الآخر توفى
القاضى برهان الدين ابو القاسم منصور بن أبى سعد محمد بن أبى نصر احمد الصاعدى قاضى
نيسابور وكان من أئمة الفقهاء الحنفية

(ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين سنقر وارغش)

فى هذه السنة كانت حرب شديدة بين سنقر الهمذانى وارغش المسترشدى وسببها ان سنقر
الهمذانى كان قد نهب سواد بغداد بطريق خراسان وكثر جمعه فخرج الخليفة المقتفى لامر الله
فى جمادى الاولى بنفسه يطلبه فلما وصل الى بلد اللحف قال له الامير خطلوبرس انا اكفيك هذا
المهم وكان بينه وبين سنقر مودة فركب اليه وتلاقيا وجرى بينهما عتاب طويل لاجل خروجه
عن طاعة الخليفة فاجاب سنقر الى الطاعة وعاد خطلوبرس واصلح حاله فاقطعه بلد اللحف
والامير ارغش المسترشدى فلما توجها الى اللحف جرى بينهما منازعة فاراد سنقر قبض ارغش
فرآه محترزا فتحاربا واقتتلا قتالا شديدا وغدر بارغش اصحابه فعاد منهزما الى بغداد وانفرد
سنقر ببلد اللحف وخطب فيه للملك محمد فسير من بغداد عسكر القتاله مقدمهم خطلوبرس
فجرت بينهما حرب شديدة انهزم فى آخرها سنقر وقتلت رجاله ونهبت امواله التى فى العسكر وسار
هو الى قلعة الماهكى وأخذ ما كان له فيها واستخلف فيها بعض غلمانه وسار هو الى همذان فلم
يلتفت اليه الملك محمد شاه فعاد الى قلعة الماهكى

(ذكر الحرب بين شملة وقايماز السلطانى)

فى هذه السنة أيضا كان قتال بين شملة صاحب خوزستان ومعه ابن مكلبة وبين قايماز
السلطانى فى ناحية بادرايا فجمعا عسكرهما وسارا اليه فاتاه الخبر بذلك وهو يشرب فلم يحفل
بذلك وركب اليهم فى نحو ثلثمائة فارس وكان معجبا بنفسه فحمل عليهم واختلط بهم فاحدقوا به
وقاتل اشد قتال فانهزم اصحابه وأخذ هو أسيرا فتسلمه انسان تركمانى كان له عليه دم لانه قتل
ابنا للتركمانى فقتله بابنه وارسل براسه الى محمد شاه وأرسل الخليفة عسكرا يقاتل شملة ومن معه
فانزاحوا من بين أيديهم ولحقوا بالملك ملكشاه بخوزستان فهلك كثير منهم بالبرد

(ذكر معاودة الغز الفتنة بخراسان)

كان الاتراك الغزية قد أقاموا ببلخ واستوطنوها وتركوا النهب والقتل ببلاد خراسان
واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان خاقان محمود بن محمد أرسلان وكان المتولى لامور دولته
المؤيد اى أبه وعن رأيه يصدر محمود فلما كان هذه السنة فى شعبان سار الغز من بلخ الى مرو
وكان السلطان محمود بسرخس فى العساكر فسار المؤيد فى طائفة من العسكر اليهم فأوقع
بطائفة منهم وظفر بهم ولم يزل يتبعهم الى أن دخلوا الى مرو أوائل رمضان وغنم من أموالهم
وقتل كثيرا وعاد الى سرخس فاتفق هو والسلطان محمود على قصد الغز وقتالهم فجمعا العساكر
وحشدوا وساروا الى الغز فالتقوا سادس شوال من هذه السنة وجرت بينهم حرب طال مداها
فبقوا يقتتلون من يوم الاثنين سابع شوال الى نصف الليل من ليلة الاربعاء الحادى عشر
من الشهر تواقعوا اعدة وقعات متتابعة ولم يكن بينهما راحة ولا نزول الا لما لا بد منه انهزم الغز

فخر الدولة وبينه لو صادفت
منه حكمها فى الاشفاق
على دولته * والانتداب
لنصرته * لكان أحق
الناس بسياسة أجناده *
وزعامة ممالكه وبلاده *
وانه الآن متى سلك طريق
الخدمة * وجانب جانب
التهمة * وحافظ على حرمة
اللحمة * لم يعدم مايهم وامن
ترتيب وترحيب وتنويل
وتخويل وتفخيم وتقديم
وأذن له فى الانتقال الى
قومس الى ان يدبر أمره
بمقتضاه فارتاح لما شامه
من تلك العقيقة * ووثق
به على الحقيقة * وسار نحو
سارية ثم قرض الجادة ذات
اليسار وركب ذات اليمين
مما يلى طراشك وأبادان
حتى اذا حاذى رقعة قومس
أذاع فى أصحابه رأيه فى
طاعة أبى طالب وانه ماعاش
رقيق خدمته * ونصير
دعوته * فاختلفت عليه
كلمتهم حين أفصح بتدبيره *
وباح بسر ضميره * فمن فريق
رجع الى الاستندارية
وفريق الى جرجان * فى طلب
الامان * ورحل نصر فى الباقين
حتى أناخ بقومس وسأل أبا
على بن حمويه تمكينه من
بعض القلاع ليحصن فيه
عياله وأثقاله فمكنه من
حصار جومند فاستوطنه
واودعه عياله ومن معه

فيها ثلاث دفعات وعادوا الى الحرب فلما أسفر الصبح يوم الاربعاء انكشفت الحرب عن هزيمة
عساكر خراسان وتفرقهم فى البلاد وظفر الغز بهم وقتلوا فأكثروا فيهم وأما الجرحى والاسرى
فأكثر من ذلك وعاد المؤيد ومن سلم معه الى طوس فاستولى الغز على مرو واحسنوا السيرة
وأكرموا العلماء والائمة مثل تاج الدين أبى سعيد السمعانى وشيخ الاسلام على البلخى وغيرهما
وأغاروا على سرخس وخربت القرى وجلى أهلها وقتل من أهل سرخس نحو عشرة آلاف
قتيل ونهبوا طوس أيضا وقتلوا أهلها الا القليل وعادوا الى مرو وأما السلطان محمود
ابن محمد الخان والعساكر التى معه فلم يقدروا على المقام بخراسان من الغز فساروا الى جرجان
ينتظرون ما يكون من الغز فلما دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة أرسل الغز الى
السلطان يسألونه أن يحضر عندهم ليملكوه أمرهم فلم يثق بهم وخافهم على نفسه فأرسلوا
يطلبون منه ابنه جلال الدين عمر ليملكوه أمرهم ويصدروا عن أمره ونهيه فى قليل الامور
وكثيرها وترددت الرسل واحتاط السلطان محمود لولده بالعهد والمواثيق وتقرير القواعد
ثم سيره من جرجان الى خراسان فلما سمع الامراء الغزية بقدومه ساروا من مرو الى طريقه
فالتقوه بنيسابور وأكرموه وعظموه ودخل نيسابور واتصلت به العساكر الغزية واجتمعوا
عنده فى الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ثم ان السلطان
محمودا سار من جرجان الى خراسان فى الجيوش التى معه من الامراء السنجرية وتخلف عنه
المؤيد اى ابه فوصل الى حدود نسا وابيورد وأقطع نسا الامير اسمه عمر بن حمزة النسوى فقام
فى حفظها المقام المرضى ومنع عنها أيدى المفسدين وأقام السلطان محمود بظاهر نسا حتى انسلخ
جمادى الآخرة من السنة ولما كان الغز بنيسابور هذه السنة أرسلوا الى طوس يدعونهم الى
الطاعة والموافقة فامتنع أهل راذكان من اجابتهم الى ذلك واغتروا بسور بلدهم وبما عندهم
من الشجاعة والقوة والعدة الوافرة والذخائر الكثيرة فقصدها طائفة من الغز وحصروهم
وملكوا البلد وقتلوا فيه ونهبوا وأكثروا ثم عادوا الى نيسابور وساروا مع جلال الدين محمد
ابن السلطان محمود الخان الى بيهق وحصروا سابزوار سابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع
وخمسين وخمسمائة فامتنع أهلها عليهم وقام بأمرهم النقيب عماد الدين على بن محمد بن يحيى
العلوى الحسينى نقيب العلويين واجتمعوا معه ورجعوا الى أمره ونهيه ووقفوا عند اشارته
فامتنعوا على الغز وحفظوا البلد منهم وصبروا على القتال فلما رأى الغز امتناعهم عليهم
وقوتهم أرسلوا اليهم يطلبون الصلح فاصطلحوا ولم يقتل من أهل سابزوار فى تلك الحروب
غير رجل واحد ورحل الملك جلال الدين والغز عن سابزوار فى السابع والعشرين من جمادى
الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة وساروا الى نسا وابيورد

(ذكر أسر المؤيد وخلاصه)

قد ذكرنا ان المؤيد اى ابه تخلف عن السلطان ركن الدين محمود بن محمد بجرجان فلما كان
الآن سار من جرجان الى خراسان فنزل بقرية من قرى خبوشان اسمها زانك وبها حصن فسمع
الغز بوصوله الى زانك فساروا اليه وحصروه فيه فخرج منه هاربا فرآه واحد من الغز فأخذه
فوعده بمال جزيل ان أطلقه فقال الغزى وأين المال فقال هو مودع فى بعض هذه الجبال

وسار

ولما أمن أبو على شره وعاديته
توجه نحو سارية فلما
اطمأن بها أسرى منوجهر
ابن شمس المعالى قابوس
الى أبيه عائذا بالله من عقوقه
وكفران ما فرض الله عليه
من حقوقه * فارتاع أبو على
من بيستون بن بيجاسب
لاشتراكهما فى نسبة الجيل
وأرومة ذلك القبيل * واشفق
من صغوه القديم فى خدمة
شمس المعالى وحثه اياه على
معاودة قصدته * واهتبال
الغرة فى مراجعة جملته
فاخذ بالحيطة فى اعتقاله
ورده الى الرى فى وثاقه
وامتد الى ظاهر جرجان مما
يلى قبر الداعى فعسكر به
وتواصى أهل الحفاظ والحمية
والانفة الابية * من أصحاب
شمس المعالى قابوس بالترافد
فى التجالد والتماثل على
التقاتل والتماسك عند
التعارك وشدوا حيازيمهم
للقراع * وقرعوا ظنابيبهم
للمصاع * وناصبوهم الحرب
طرفى الصباح والرواح
لا يأمنون وقع الصفاح
ولا يألمون لذع الجراح * حتى
غبر شهران كيوم واحد
فى مغامسة الكريهة * بين
تكلف وبديهة * ومس عسكر
جرجان ضيقة لانقطاع
الميرة والمواد عنهم فاستعصموا
بالنفوس الشريفة * وتغنوا
طول تلك الايام بالبلغ

فسار هو والغزى فوصلا الى جدار قرية فيها بساتين وعيون فقال للفارس المال ههنا وصعد
الجدار ونزل من ظهره ومضى هاربا فرأى الغز قد ملؤا الارض فدخل قرية فعرفه طحان فيها
فأعلم زعيم القرية به وطلب منه مركبا فأتاه بما أراد وأعانه على الوصول الى نيسابور فوصل اليها
واجتمعت العساكر وقوى أمره وعاد الى حاله وأحسن الى الطحان وبالغ فى الاحسان اليه

(ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغز وعودهم الى نيسابور)

لما عاد الغز ومعهم الملك محمد بن محمود الخان الى نسا وابيورد كما ذكرناه خرج والده السلطان
محمود الخان وكان هناك فيمن معه من العساكر الخراسانية فاجتمع بهم واتفقت الكلمة على
طاعته وأراد عمارة البلاد وحفظها فلم يقدر على ذلك فلما اجتمعوا ساروا الى نيسابور وبها
المؤيد اى ابه فى شعبان فلما سمع بقربهم منه رحل عنها الى خواف فى سادس عشره ووصلوا
اليها فى الحادى والعشرين منه ونزلوا فيه وخافهم الناس خوفا عظيما فلم يفعلوا بهم شيأ
وساروا عنها فى السادس والعشرين منه الى سرخس ومرو وكان بها الفقيه المؤيد
ابن الحسين الموفق رئيس الشافعية وله بيت قديم وهو من أحفاد الامام أبى سهل الصعلوكى
وله مصاهرة الى بيت أبى المعالى الجوينى وهو المقدم فى البلد والمشار اليه وله من الاتباع
مالا يحصى فاتفق ان بعض اصحابه قتل انسانا من الشافعية اسمه ابو الفتوح الفستقانى
خطأ وهذا ابو الفتوح له تعلق بنقيب العلويين بنيسابور وهو ذخر الدين أبو القاسم زيد
ابن الحسن الحسينى وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدة بنيسابور فغضب من ذلك وأرسل
الى الفقيه المؤيد يطلب منه القاتل ليقتص منه ويتهدده ان لم يفعل فامتنع المؤيد من تسليمه
وقال لا مدخل لك مع أصحابنا انما حكمك على الطائفة العلويين فجمع النقيب أصحابه ومن
يتبعه وقصد الشافعية فاجتمعوا له وقاتلوه فقتل منهم جماعة ثم ان النقيب أحرق سوق
العطارين وأحرقوا سكة معاذ أيضا وسكة باغ طاهر ودار امام الحرمين ابى المعالى الجوينى وكان
الفقيه المؤيد الشافعى به الصهر الذى بينهم وعظمت المصيبة على كافة الناس وجمع بعد ذلك
المؤيد الفقيه جموعا من طوس واسفراين وجوين وغيرهم وقتلوا واحدا من اتباع النقيب
زيد يعرف بابن الحاجى الاشنانى فأهم العلوية ومن معهم فاقتتلوا ثامن عشر شوال من سنة
اربع وخمسين وقامت الحرب على ساق وأحرقت المدارس والاسواق والمساجد وكثر القتل
فى الشافعية فالتجأ المؤيد الشافعى فى شرذمة الى قلعة فرخك وقصر باع الشافعية عن القتال
ثم انتقل المؤيد الى قرية من قرى طوس وبطلت دروس الشافعية بنيسابور وخرب البلد وكثر
القتل فيه

(ذكر حصر صاحب ختلان ترمذ وعوده وموته)

فى هذه السنة فى رجب سار الملك أبو شجاع فرخشاه وهو يزعم أنه من أولاد بهرام جور وقد
تقدم ذكره أيام كسرى ابرويز الى ترمذ وحصرها وكان سبب ذلك انه كان فى طاعة السلطان
سنجر فلما خرج عليه الغز طلبه ليحضر معه حربهم فجمع عسكره واظهر انه واصل فيمن عنده
من العساكر اليه وأقام ينتظر ما يكون منه فان ظفر حضر وقال له سبقتنى بالحرب وان كان
الظفر للغز قال لهم انما تأخرت محبة وارادة ان تملكوا فلما انهزم سنجر وكان ما ذكرناه بقى الى

بالحقيقة * مؤثرين شرف
المقام * على شبع الطعام *
وردّ الشجاعه * على سد
المجاعه * وأصاب الآخرين
تلك الضيقة فانقلبوا من
الفضاء بقبر الداعى الى
جانب محمد آباد اتساعا فى
العلوفات من جهة جناشك
فتداركت عليهم الامطار
حتى أعوزهم الامتيار *
وماجت عليهم الارض
بالطوفان فتساقطت الخيام *
وساخت القوائم والاقدام *
فعندها برز أنصار أصحاب
شمس المعالى اهل الحقائق
من وراء الخنادق * وأججوا
نار الوغى كضارية
القشاعم * وداهية
الاراقم * وثبت بعضهم
لبعض جلادا من مطلع
الفلق * الى مسقط الشفق *
محكمين متون الصوارم *
فى شؤن الجماجم * وذوابل
الصعاد * فى مناهل الاكباد *
وزرق الزانات * فى سود
المهجات * حتى اذا زالت
قدم العصر * أتى أمر الله
بالنصر * فحمل الجيل
على الديلم حملة لم تستبق منهم
طالب ثار * ولا نافخ نار * وأسر
من عظمائهم اسفهسلار
ابن كورنكيج وزرهوا
وجستان بن اشكلى
واخوه حيدر بن سالار
ومحمد بن وهسودان واشتملت
المعركة على ألف وثمانمائة

الآن فسار الى ترمذ ليحصرها فجمع صاحبها فيروزشاه أحمد بن أبي بكر بن قماج عسكره
ولقيه ليمنعه فاقتتلوا فانهزم فيروزشاه ومضى منهزما لا يلوي على شيء فاصابه في الطريق قولنج
فمات منه

(ذكر عود المؤيد الى نيسابور وتخريب ما بقي منها)

في هذه السنة عاد المؤيد أي ابه الى نيسابور في عسكره ومعه الامام المؤيد الموفق الشافعي
الذي تقدم ذكر الفتنة بينه وبين فخر الدين نقيب العلويين وخروجه من نيسابور فلما خرج منها
صار مع المؤيد وحضر مع المؤيد وحضر معه حصار نيسابور وتحصن النقيب العلوي بشارستان
واشتد الخطب وطال الحرب وسفكت الدماء وهتكت الاستار وخربوا ما بقي من نيسابور
من الدور وغيرها وبالغ الشافعية ومن معهم من الانتقام فخربوا المدرسة الصندلية لاصحاب
أبي حنيفة وخربوا غيرها وحصروا قهندز وهذه الفتنة استأصلت نيسابور ثم رحل المؤيد
أي ابه عنها الى بيهق في شوال من سنة أربع وخمسين وخمسمائة كان ينبغي أن تكون هذه
الحوادث الغزية الواقعة في سنة أربع وخمسين مذكورة في سنتها وانما قدمناها ههنا ليتلو
بعضها بعضا فيكون أحسن لسياقتها

(ذكر ملك ملكشاه خوزستان)

في هذه السنة ملك ملكشاه ابن السلطان محمود بلاد خوزستان وأخذه من شملة التركماني
وسبب ذلك أن الملك محمد ابن السلطان محمود لما عاد من حصار بغداد كما ذكرناه مرض وبقي
مريضا بهمذان ومضى أخوه ملكشاه الى قم وقاشان وما والاها فنهبها جميعها وصادر أهلها
وجمع أموالا كثيرة فراسله أخوه محمد شاه يأمره بالكف عن ذلك ليجعله ولي عهده في الملك
فلم يفعل ومضى الى اصفهان فلما قاربها أرسل رسولا الى ابن الخجندي وأعيان البلد في تسليم
البلد اليه فامتنعوا من ذلك وقالوا الاخيك في رقابنا يمين ولا نغدر به فحينئذ شرع ملكشاه في
الفساد والمصادرة لاهل القرى فلما سمع محمد شاه الخبر سار عن همذان وعلى مقدمته كردبازوه
الخادم فتفرقت جموع ملكشاه عنه دفرسيين فلحق به قويدان وكان قد فارق المقتفي لامر
الله واتفق مع سنقر الهمذاني فلحقا كلاهما به وحسنا له قصد بغداد فسار عن بلد خوزستان
الى واسط ونزل بالجانب الشرقي وهم على غاية الضر من الجوع فنهبوا القرى نهبا فاحشا فافتتح
بثق بتلك الناحية فغرق منهم كثير ونجا ملكشاه ومن سلم معه وساروا الى خوزستان فمنعه
شملة من العبور فراسله ليمكنه من العبور الى أخيه الملك محمد شاه فلم يجبه الى ذلك وكاتب
حينئذ الاكراد الكرد الذين هناك واستدعاهم اليه فقربوا اليه ونزل اليه من تلك الجبال خلق
كثير فاطاعوه فرحل ونزل على كرخايا وطلب من شملة الحرب فالان له شملة القول وقال انا
أخطب لك وأكون معك فلم يقبل منه فاضطر شملة الى الحرب فجمع عسكره وقصده فلقيه
ملكشاه ومعه سنقر الهمذاني وقويدان وغيرهما من الامراء فاقتتلوا فانهزم شملة وقتل
كثير من أصحابه وصعد الى قلعته دزد رزين وملك ملكشاه البلاد وجبى الاموال الكثيرة واظهر
العدل وتوجه الى أرض فارس

(ذكر الحرب بين التركمان والاسماعيلية بخراسان)

ان

وتجدل كمن أضجعتهم الحتوف * وسطحتهم على الارض السيوف * وأفاء الله على الجبل غنائم لا يستوعبها بيان * ولا تستثبتها بنان * ثم رأى شمس المعالي أن يوعز بمداواة الجرحى * والفك عن الاسرى * وصرفهم وراءهم بالخلع والكرامات والاحبية والصلات * شكرا لنعمة الله فيما أولاه * واكبارا لقدر منته في تحقيق ما رجاه * وأنشدني أبو منصور الثعالبي أبياتا له في ذكر هذا الفتح الذي نظمه الله في سلك أيامه * والحق الذي أقره الله مقره في نصابه

الفتح منتظم والدهر مبتسم
وملك شمس المعالي كله نعم
والعدل منبسط والحق مرتجع
والشعب ملتئم والجور مصطلم
ألقت مقاليدها الدنيا الى ملك
ما زال وقفا عليه الجود والكرم
شمس المعالي وغيث المشرقين ومن
به ينيه العلا والملك والحشم
هو الامام هو القرم الهمام هو السيد القلم هو
الصمصام والقلم

كان بنواحى قهستان طائفة من التركمان فنزل اليهم جمع من الاسماعلية من قلاعهم وهم ألف وسبعمائة فأوقعوا بالتركمان فلم يجدوا الرجال وكانوا قد فارقوا بيوتهم فنهبوا الاموال وأخذوا النساء والاطفال وأحرقوا مالم يقدروا على حمله وعاد التركمان فرأوا مافعل بهم فتبعوا أثر الاسماعلية فأدركوهم وهم يقتسمون الغنيمة فكبروا وحملوا عليهم ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا حتى أفنوهم قتلا وأسرا ولم ينج الا تسعة رجال لاغير

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كثر فساد التركمان أصحاب ترجم الايوانى بالجبل فسير اليهم من بغداد عسكر مقدمهم منكبرس المسترشدى فلما قاربهم اجتمع التركمان فالتقوا واقتتلوا هم ومنكبرس فانهزم التركمان أقبح هزيمة وقتل بعضهم وأسر بعض وحملت الرؤس والاسارى الى بغداد وفيها حج الناس فلما وصلوا الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم وصل اليهم الخبر ان العرب قد اجتمعت لتأخذهم فتركوا الطريق وسلكوا طريق خيبر فوجدوا مشقة شديدة ونجوا من العرب وفيها توفى الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطار أبو القاسم الحرانى ومولده بحران سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأقام ببغداد وكثر ماله وصدقاته أيضا وكان يقرأ القرآن وهو والد ظهير الدين الذى حكم فى دولة المستضىء بأمر الله على مانذكره ان شاء الله وفيها توفى أبو الوقت عبد الاول بن عيسى بن شعيب السجزى ببغداد وهو سجزى الاصل هروى المنشا وكان قدم الى بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة يريد الحج فسمع الناس بها عليه صحيح البخارى وكان عالى الاسناد فتأخر لذلك عن الحج فلما كان هذه السنة عزم على الحج فمات وفيها توفى يحيى بن سلامة ابن الحسن بن محمد أبو الفضل الحصكفى الاديب بميافارقين وله شعر حسن ورسائل جيدة مشهورة وكان يتشيع ومولده بطنزة فمن شعره

وخليع بت أعذله * ويرى عذلى من العبث
قلت ان الخمر مخبثة * قال حاشاها من الخبث
قلت فالارفاث تتبعها * قال طيب العيش فى الرفث
قلت منها القىء قال أجل * شرفت عن مخرج الحدث
وسأسلوها فقلت متى * قال عند الكون فى الجدث

(ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة)

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وملكه جميع افريقية قد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج مدينة المهدية من صاحبها الحسن بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى وذكرنا أيضا سنة احدى وخمسين مافعله الفرنج بالمسلمين فى زويلة المجاورة للمهدية من القتل والنهب فلما قتلهم الفرنج ونهبوا أموالهم هرب منهم جماعة وقصدوا عبد المؤمن صاحب المغرب وهو بمراكش يستجيرونه فلما وصلوا اليه ودخلوا عليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وانه ليس فى ملوك الاسلام من يقصدونه سواه ولا يكشف هذا الكرب غيره فدمعت عيناه وأطرق ثم رفع رأسه وقال ابشروا لانصرنكم ولو بعد حين وأمر بانزالهم وأطلق لهم ألفى دينار ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج اليه العساكر فى السفر وكتب الى

هو الغمام الذى تحشى صواعقه
قهرا ويرجو نداه العرب والعجم
هو المقيم وقد سارت مآثره
كأن علياه من دنياه تنتظم
والارض من صدره والريح من يده
والروض من خلقه للخلق يبتسم
الله جارك يامن جار حضرته
يلفى السعود عليه الدهر تزدحم
ابشر فقد جاء نصر الله مؤتنفا
وعاشر الفتح منشور له علم
يامن اذا اعتصمت صيد الملوك به
أمسى وأصبح بالرحمن يعتصم
أبل الجديدين بالعمر الجديد ودم
للملك يخدمك التوفيق والقسم
وأنشدنى الامير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى لنفسه
لاتعصين شمس العلا قابوسا
فمن عصى قابوس لاقى بوسا
تم * ولما بلغ أبو على بن حمويه قومس منهزما عن تلك المعركة أرسل الى نصر بن الحسن بن فيروزان يسأله تعجيل اللحاق به ليتعاضدا على لم شعث الهزيمة ووسد ما جاش من ضغر تلك الكشفة الذميمة ثم أجله

جميع نوابه فى الغرب وكان قد ملك الى قريب تونس يأمرهم بحفظ جميع ما يحصل من الغلات وان يترك فى سنبله ويخزن فى مواضعه وان يحفروا الآبار فى الطرق ففعلوا جميع ما أمرهم به وجمعوا الغلات ثلاث سنين ونقلوها الى المنازل وطينوا عليها فصارت كأنها تلال فلما كان فى صفر من هذه السنة سار عن مراكش وكان أكثر أسفاره فى صفر فسار يطلب افريقية واجتمع من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم وبلغ من حفظه لعساكره انهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة واذا نزلوا صلوا جميعهم مع امام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد كائنا من كان وقدم بين يديه الحسن بن على ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى وكان صاحب المهدية وافريقية وقد ذكرنا سبب مصيره عند عبد المؤمن فلم يزل يسير الى ان وصل الى مدينة تونس فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان وأقبل اسطوله فى البحر فى سبعين شينيا وطريدة وشلندى فلما نازلها أرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال فلم يبق الا أخذها ودخول الاسطول اليها فجاءت ريح عاصف منعت الموحدين من دخول البلد فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوه فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهلها الى عبد المؤمن يسألونه الامان لاهل بلدهم فأجابهم الى الامان لهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم الى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم فى أنفسهم وأهاليهم ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين وان يخرج صاحب البلد هو وأهله فاستقر ذلك وتسلم البلد وأرسل اليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل امناءه ليقاسموا الناس على أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم وسار عبد المؤمن منها الى المهدية والاسطول يحاذيه فى البحر فوصل اليها ثامن عشر رجب وكان حينئذ بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وابطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهدية غلوة سهم فدخل عبد المؤمن من زويلة وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة فى ساعة ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها وانضاف اليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الاحصاء وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها لان البحر دائر بأكثرها فكأنها كف فى البحر وزندها متصل بالبر وكانت الفرنج تخرج شجعانهم الى أطراف العسكر فتنال منه ويعودون سريعا فأمر عبد المؤمن أن يبنى سور من غرب المدينة يمنعهم من الخروج وأحاط الاسطول بها فى البحر وركب عبد المؤمن فى شينى ومعه الحسن بن على الذى كان صاحبها وطاف بها فى البحر فهاله ما رأى من حصانتها وعلم انها لا تفتح بقتال برا ولا بحرا وليس لها الا المطاولة وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صار فى العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل الى العسكر من بعيد يقولون متى حدثت هذه الجبال فيقال لهم هى حنطة وشعير فيتعجبون من ذلك وتمادى الحصار وفى مدته أطاع سفاقس عبد

المؤمن

الطالب عن التوقف والتلوم فأوجف نحو الرى وأتاه نصر فلم يلحقه فاستوطن سمنان وتابع كتبه الى أبى طالب مجد الدولة رستم بن فخر الدولة مستمدا * وشمر لتلافى الخلل الواقع مجدا * فتراخت المدة على استئناف امداده * واقتبال معونته وانجاده * ثم أمده بابن بكتكين الحاجب فى زهاء ستمائة من شجعان الغلمان فقوى بهم * وتكثر بمكانهم * ورماه شمس المعالى بابى بن سعيد فى رجال من الجيل وكتب الى الاصبهبذ شهريار بن رستم لمعونته * وازاحة علته * فصمد صمد نصر مرخيا عنان التحفظ * ومغمضا جفون التيقظ * وقد كان نصر سد الطرق على أبنائها سترا لخبره * وسحبا لذيل الكتمان على أثره * فاتفقت اناخة ابى بن سعيد عليه على حين تقطع من رجاله * وتفرق من أكثر أصحابه * فتناوشا الحرب ونصر مستعد * وأمره فى القراع جد * ثم اضطر ابى الى الانقلاب على بارح الخيبة وفشت الهزيمة فيمن تلاحق به وتراخى عنه من ذنابى عسكره وجرى عليهم من القتل والاسر ما اعتد به نصر فى مساعيه عند أبى طالب فغسل به نصر وجه

المؤمن ومدينة طرابلس وجبال نفوسة وقصور افريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف وسير ابنه أبا محمد عبد الله فى جيش ففتح بلادا ثم ان أهل مدينة قفصة لما رأوا تمكن عبد المؤمن أجمعوا على المبادرة الى طاعته وتسليم المدينة اليه فتوجه صاحبها يحيى بن تميم بن المعز ومعه جماعة من أعيانها وقصدوا عبد المؤمن فلما أعلمه حاجبه بهم قال له عبد المؤمن قد اشتبه عليك ليس هؤلاء أهل قفصة فقال له لم يشتبه على قال له عبد المؤمن كيف يكون ذلك والمهدى يقول ان أصحابنا يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها ومع هذا فنقبل منهم ونكف عنهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا فأرسل اليهم طائفة من أصحابه ومدحه شاعر منهم بقصيدة أولها

ماهز عطفيه بين البيض والاسل * مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

فوصله بألف دينار ولما كان فى الثانى والعشرين من شعبان من السنة جاء اسطول صاحب صقلية فى مائة وخمسين شينيا غير الطرائد وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الاندلس وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه فأرسل اليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمجىء الى المهدية فقدموا فى التاريخ فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا المينى فخرج اليهم اسطول عبد المؤمن وركب العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج ما رأوه من كثرة العساكر ودخل الرعب قلوبهم وبقى عبد المؤمن يمرغ وجهه على الارض ويبكى ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا فى البحر فانهزمت شوانى الفرنج وأعادوا القلوع وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شوانى ولو كان معهم شوانى لاخذوا أكثرهم وكان أمرا عجيبا وفتحا قريبا وعاد اسطول المسلمين مظفرا منصورا وفرق فيهم عبد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية حينئذ من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر الى آخر شهر ذى الحجة من السنة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبد المؤمن عشرة وسألوا الامان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا الى بلادهم وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الاسلام ودعاهم اليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون اليه أياما بالكلام اللين فأجابهم الى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم ولم يصل منهم الى صقلية الا النفر اليسير وكان صاحب صقلية قد قال ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله الفرنج غرقا وكان مدة ملكهم المهدية اثنتى عشرة سنة ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة وسماها عبد المؤمن سنة الاخماس وأقام بالمهدية عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر من الاقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن على الذى كان صاحبها وأمره أن يقتدى برأيه فى أفعاله وأقطع الحسن بها اقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده ورحل من المهدية اول صفر من السنة الى بلاد الغرب

(ذكر ايقاع عبد المؤمن بالعرب)

لما فرغ عبد المؤمن من أمر المهدية وأراد العود الى الغرب جمع أمراء العرب من بنى رياح الذين كانوا بافريقية وقال لهم قد وجبت علينا نصرة الاسلام فان المشركين قد استفحل

حاله * وجلا علينا صفحة اقباله * وأنهض عند ذلك رستم بن المرزبان خال مجد الدولة أبى طالب فى ثلاثة آلاف رجل مدد النصر وعقدت له الاصبهبذية على جبل شهريار فتلقاه نصر الى دنباوند وساعده على صعوده * وامتلاك حدوده * ولجأ الاصبهبذ شهريار الى سارية وبها منوجهر بن شمس المعالى معتصرا بعقوته * ومعتصما بعروته * فأصاب أهل قريم غلاء عم بلاؤه * وشمل الكافة داؤه * وسببه بسط الايدى بالغارات * وانتهاب ما أوعته الرعايا للارماق من الاقوات * فاضطر نصر الى الانصراف عن رستم بن المرزبان للقحط الشامل * والبلاء النازل * فلم ينهنه الاصبهبذ عند انقلابه أن ركض على رستم فأجلاه عنها الى حد الرى مغضوبا * منكوبا * ومخذولا * مفلولا * فصفت له ناحيته * وانحسمت عنه شذاة نصر وعاديته * وكان ابو نصر محمود الحاجب قد ألجأه بعض المحن التى دهته الى خدمة شمس المعالى فمهد له كنفه * وحكم فى اصطناعه شرفه * ووالى الصنائع والرغائب اليه * وملأ من الاموال يديه * وسهل ركوب المطالب عليه * ثم

أمرهم بالاندلس واستولوا على كثير من البلاد التى كانت بأيدى المسلمين ومابقا تاهم أحد مثلكم فبكم فتحت البلاد أول الاسلام وبكم يدفع عنها العدو والآن نريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون فى سبيل الله فأجابوا بالسمع والطاعة فحلفهم على ذلك بالله تعالى وبالمصحف فحلفوا ومشوا معه الى مضيق جبل زغوان وكان منهم انسان يقال له يوسف بن مالك وهو من أمرائهم ورؤس القبائل فيهم فجاء الى عبد المؤمن بالليل وقال له سرا ان العرب قد كرهت المسير الى الاندلس وقالوا ماغرضه الا اخراجنا من بلادنا وانهم لايفون بما حلفوا عليه فقال يأخذ الله عز وجل الغادر فلما كان الليلة الثانية هربوا الى عشائرهم ودخلوا البر ولم يبق منهم الا يوسف بن مالك فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق ولم يحدث عبد المؤمن فى أمرهم شيأ وسار مغربا يحث السير حتى قرب من القسطنطينية فنزل فى موضع مخصب يقال له وادى النساء والفصل ربيع والكلأ مستحسن فأقام به وضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتة ودام كذلك عشرين يوما فبقى الناس فى جميع البلاد لايعرفون لهذا العسكر خبرا مع كثرته وعظمه ويقولون ماأزعجه الا خبر وصله من الاندلس فحث لاجله فى السير فعادت العرب الذين جفلوا منه من البرية الى البلاد لما أمنوا جانبه وسكنوا البلاد التى ألفوها واستقروا فى البلاد فلما علم عبد المؤمن برجوعهم جهز اليهم ولديه أبا محمد وأبا عبد الله فى ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحدين وشجعانهم فجدوا السير وقطعوا المفاوز فما شعر العرب الا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم من جهة الصحراء ليمنعوهم الدخول اليها ان راموا ذلك وكانوا قد نزلوا جنوبا من القيروان عند جبل يقال له جبل القرن وهم زهاء ثمانين ألف بيت والمشاهير من مقدميهم أبو محفوظ محرز بن زياد ومسعود بن زمام البلاط وجبارة بن كامل وغيرهم فلما أطلت عساكر عبد المؤمن عليهم اضطربوا واختلفت كلمتهم ففر مسعود وجبارة بن كامل ومن معهما من عشائرهما وثبت محرز بن زياد وأمرهم بالثبات والقتال فلم يلتفتوا اليه فثبت هو ومن معه من جمهور العرب فناجزهم الموحدون القتال فى العشر الاوسط من ربيع الآخر من السنة وثبت الجمعان واشتد الامر فاتفق ان محرز بن زياد قتل ورفع رأسه على رمح فانهزمت جموع العرب عند ذلك وأسلموا البيوت والحريم والاولاد والاموال وحمل جميع ذلك الى عبد المؤمن وهو بذلك المنزل فأمر بحفظ نساء العربيات الصرائح وحملهن معه تحت الحفظ والبر والصيانة الى بلاد الغرب وفعل معهن مثل مافعل فى حريم الاثبج ثم أقبلت اليه وفود رياح مهاجرين فى طلب حريمهم كما فعل الاثبج فأجمل الصنيع لهم ورد الحريم اليهم فلم يبق منهم أحد الا صار عنده وتحت حكمه وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الاحسان ثم انه جهزهم الى ثغور الاندلس على الشرط الاول وجمعت عظام العرب المقتولين فى هذه المعركة عند جبل قرن فبقيت دهرا طويلا كالتل العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد وبقيت افريقية مع نواب عبد المؤمن آمنة ساكنة لم يبق فيها من أمراء العرب خارج عن طاعته الا مسعود البلاط بن زمام وطائفته فى أطراف البلاد

(ذكر غرق بغداد)

فى هذه السنة ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة فى دجلة وخرق القورج فوق بغداد وأقبل

رماه فى وجه نصر بن الحسن مزاح العلة بقدر الكفايه * من ذوى البسالة والنكايه * خف اليه بجأش ثبت * ووجه على الحادثات صلت * وأحرق عليه الارض حربا بكرا على يده * وعوانا على أيدى أعوانه ومدده * ثم حمل على جموعه حملة شردتهم كل مشرد * وطاردتهم بين أعين البيد كل مطرد * وعلق فى حبالة الاسر حسان بن الداعى وابن هند وغيرهما من أعيان القواد واصطف على جدالة الحرب من القتلى ماشبعت به الضباع * بل سمنت عليه الوحوش الجياع * وانهزم نصر من بين يديه الى سمنان فى جمادى الآخرة سنة تسعين وثلثمائة وكان نصر على جلالة بيته وفخامة عشيرته ورهطه * مغرما بالظلم * مغرى بالحيف والغشم * ووافقت ولايته مدرجة الحجيج وزوار البيت العظيم * وزمزم والحطيم * فشملهم عنته فى كل سنة بوجوه من المطالبات المختلفة * والمعاملات المجحفة * حتى اشتهر عنه سوء الاحدوثه * وحبط عليه جمال تلك الجلالة الموروثه * ولعل عثار الزمان به عدوى نضيج الحجيج عنه بالاستغاثه * فى حالتى الوقوف

المد الى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر الشهر فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظنا انها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق قراح ظفر والاجمة والمختارة والمقتدية ودرب القبار وخرابة ابن جردة والريانى وقراح القاضى وبعض القطيعة وبعض باب الازج وبعض المأمونية وقراح أبي الشحم وبعض قراح ابن رزين وبعض الظفرية ودب الماء تحت الارض الى أماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور يدب فى المحال التى لم يركبها الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وانما هى تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين وأما الجانب الغربي فغرقت فيه مقبرة أحمد بن حنبل وغيرها من المقابر وانخسفت القبور المبنية وخرج الموتى على رأس الماء وكذلك المشهد والحربية وكان أمرا عظيما

(ذكر عود سنقر الهمذانى الى اللحف وانهزامه)

في هذه السنة عاد سنقر الهمذانى الى اقطاعه وهو قلعة الماهكى وبلد اللحف وكان الخليفة قد أقطعه للامير قايماز العميدى ومعه أربعمائة فارس فأرسل اليه سنقر يقول له ارحل عن بلادى فامتنع فسار اليه وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه العميدى ورجع الى بغداد بأسوأ حال فبرز الخليفة وسار فى عساكره الى سنقر فوصل الى النعمانية وسير العساكر مع ترشك ورجع الى بغداد ومضى ترشك نحو سنقر الهمذانى فتوغل سنقر فى الجبال هاربا ونهب ترشك ما وجد له ولعسكره من مال وسلاح وغير ذلك وأمر وزيره بقتل من رأى من أصحابه ونزل على الماهكى وحصرها أياما ثم عاد الى البندنيجين وأرسل الى بغداد بالبشارة وأما سنقر فانه لحق بملكشاه فاستنجده فسير معه خمسمائة فارس فعاد ونزل على قلعة هناك وأفسد أصحابه فى البلاد وأرسل ترشك الى بغداد يطلب نجدة تجيئه فأراد سنقر أن يكبس ترشك فعرف ذلك فاحترز فعدل سنقر الى المخادعة فأرسل رسولا الى ترشك يطلب منه أن يصلح حاله مع الخليفة فاحتبس ترشك الرسول عنده وركب فيمن خف من أصحابه فكبس سنقر ليلا فانهزم هو وأصحابه وكثر القتل فيهم وغنم ترشك أموالهم ودوابهم وكل ما لهم ونجا سنقر جريحا

(ذكر الفتنة بين عامة استراباذ)

في هذه السنة وقع فى استراباذ فتنة عظيمة بين العلويين ومن يتبعهم من الشيعة وبين الشافعية ومن معهم وكان سببها ان الامام محمدا البزوى وصل الى استراباذ فعقد مجلس الوعظ وكان قاضيها أبو نصر سعد بن محمد بن اسمعيل النعيمى شافعى المذهب أيضا فثار العلويون ومن يتبعهم من الشيعة بالشافعية ومن يتبعهم باستراباذ ووقعت بين الطائفتين فتنة عظيمة انتصر فيها العلويون فقتل من الشافعية جماعة وهرب القاضى ونهبت داره ودور من معه وجرى عليهم من الامور الشنيعة ما لا حد عليه فسمع شاه مازندران الخبر فاستعظمه وأنكر على العلويين فعلهم وبالغ فى الانكار مع انه شديد التشيع وقطع عنهم جرايات كانت لهم ووضع الجبايات والمصادرات على العامة فتفرق كثير منهم وعاد القاضى الى منصبه وسكنت الفتنة

والافاضة * وواصل نصر الرى بكتبه فى الاستنفار * والاستنهاض من سرعة العثار * فدله فى طول التطويل * بأنواع التعليل * والتأميل * كما قيل

مواعيد كما اختب
سراب المهمه القفر
فمن يوم الى يوم
ومن شهر الى شهر

وبلغه بعد ذلك ان مجد الدولة أبا طالب وشمس المعالى قابوس قد تصالحا على احتيال تحصيله والظفر به فساء ظنا * وضاق بالامر ذرعا * ونمى اليه أيضا ان بعض قواد السلطان يمين الدولة وأمين الملة وكان يعرف بأرسلان هندوبجه والى قهستان قد أوقع بأبى القاسم السيمجورى وأجلاه عنها الى الجنابذ فأغذ السير اليه على مظاهرته * والتحصن بمرافقته ومضافرته * وجعل يحطب فى حبله * ويفتل فى ذروته بحبله وخيله * ويزين له قصد الرى معه لامتلاكها على أبى طالب مجد الدولة ايهاما لتغفل النيات فى طاعته * ودخن الاهواء فى مشايعته * فاغتر أبو القاسم بتغريره * وانجر فى جريره * وسار الى خوار الرى فتلقاه من سرعان الكتائب * من غص بهم لهوات تلك

(ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه)

في هذه السنة توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد وهو الذي حاصر بغداد طالبا السلطنة وعاد عنها فأصابه سل وطال به فمات بباب همذان وكان مولده في ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فلما حضره الموت أمر العساكر فركبت وأحضر أمواله وجواهره وحظاياه ومماليكه فنظر الى الجميع من طيارة تشرف على ما تحتها فلما رآه بكى وقال هذه العساكر والاموال والمماليك والسراري ما أرى يدفعون عني مقدار ذرة ولا يزيدون في أجلي لحظة وأمر بالجميع فرفع بعد أن فرق منه شيأ كثيرا وكان عظيما كريما عاقلا كثير التأني في أموره وكان له ولد صغير فسلمه الى آقسنقر الاحمديلي وقال له أنا أعلم أن الناس لا تطيع مثل هذا الطفل وهو وديعة عندك فارحل به الى بلادك فرحل الى مراغة فلما مات اختلفت الامراء فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه وطائفة طلبوا سليمان شاه وهم الاكثر وطائفة طلبوا ارسلان الذي مع ايلدكز فأما ملكشاه فانه سار من خوزستان ومعه دكلا صاحب فارس وشملة التركماني وغيرهما فوصل الى اصفهان فسلمها اليه ابن الخجندي وجمع له مالا أنفقه عليه وأرسل الى العساكر بهمذان يدعوهم الى طاعته فلم يجيبوه لعدم الاتفاق بينهم ولان أكثرهم كان يريد سليمان شاه

(ذكر أخذ حران من نور الدين وعودها اليه)

في هذه السنة مرض نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب مرضا شديدا أرجف بموته وكان بقلعة حلب ومعه أخوه الاصغر أمير ميران فجمع الناس وحصر القلعة وكان شيركوه وهو أكبر أمرائه بحمص فبلغه خبر موته فسار الى دمشق ليتغلب عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه أيوب ذلك وقال أهلكتنا والمصلحة أن تعود الى حلب فان كان نور الدين حيا خدمته في هذا الوقت وان كان قد مات فأنا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها فعاد الى حلب مجدا وصعد القلعة وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس وكلمهم فلما رأوه حيا تفرقوا عن أخيه أمير ميران فسار الى حران فملكها فلما عوفي نور الدين قصد حران ليخلصها فهرب أخوه منه وترك أولاده بحران في القلعة فملكها نور الدين وسلمها الى زين الدين علي نائب أخيه قطب الدين صاحب الموصل ثم سار نور الدين بعد أخذ حران الى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار وهو من أعيان الامراء وقد توفي وبقي أولاده فنازلها فشفع جماعة من الامراء فيهم فغضب من ذلك وقال هلا شفعتم في أولاد أخي لما أخذت منهم حران وكانت الشفاعة فيهم من أحب الاشياء الي فلم يشفعهم وأخذها منهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة مرض الخليفة المقتفي لامر الله واشتد مرضه وعوفي فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلق البلد اسبوعا وفيها عاد ترشك الى بغداد ولم يشعر به أحد الا وقد ألقى نفسه تحت التاج ومعه سيف وكفن وكان قد عصى على الخليفة والتحق بالعجم فعاد الآن فرضي عنه وأذن له في دخول دار الخلافة وأعطى مالا وفيها في جمادى الاولى أرسل محمد بن أنز صاحب قهستان عسكرا الى بلد الاسماعيلية من الجبال فقتلوا كثيرا من العسكر وأسروا الامير الذي كان مقدما عليهم اسمه قيبة وهو صهر ابن أنز فبقي

عندهم

الخارم والمسارب * ولما رأى أبو القاسم ان الامر جد * والطير بي منذ جد * خنس وراءه عاضا على البنان * مضطرا لاعارض الحرمان * وبلغ شمس المعالي قابوس ابن وشمكير انصرافه مع نصر عن وجه الري فقذفهما بعفاريت الاكراد من كل جانب * ودحرهم عن حدود مملكته بعذاب واصب * ولما رأيا ان الارض تلفظهم يمينا وشمالا * وتقذفهم جنوبا وشمالا * تآمرا على قصد السلطان يمين الدولة وأمين الملة مستأمنين اليه * ومستعدين على الزمان بالمثول بين يديه * فيمما عالي حضرته * وتوشحا بجمال خدمته * فأما أبو القاسم فهرب على ما سبق ذكره الى ان أودعه الحبس أسره وأما نصر فأقام على الخدمة مدة الى ان أمر السلطان باقطاعه بيار وجومند طعمة له فنهض اليهما * وأبت عليه همته القناعة بهما * فلم يزل يضارب في حبالته الى أن خدع من الري وحمل منها الى قلعة استوناوند فجعلت عليه حصيرا وساء ذلك مصيرا * ووكل شمس المعالي بعد ذلك بجور القلاع فيما بين جرجان واستراباذ وما وراءهما من أحاط بهم احاطة

عندهم أسيرا عدة شهور حتى زوج ابنته من رئيس الاسماعيلية على بن الحسن وخلص من
الاسر وفيها توفى شرف الدين على بن ابى القاسم منصور بن ابى سعد الساعدى قاضى نيسابور
فى شهر رمضان وكان موته بالرى ودفن فى مقبرة محمد بن الحسن الشيبانى صاحب ابى حنيفة
رضى الله عنهما وكان القاضى حنفيا ايضا

* (ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة) *

* (ذكر مسير سليمان شاه الى همذان) *

فى هذه السنة سار سليمان شاه من الموصل الى همذان ليتولى السلطنة وقد تقدم سبب قبضه
وأخذه الى الموصل وسبب مسيره اليها ان الملك محمد ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لما
مات أرسل اكابر الامراء من همذان الى اتابك قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل
يطلبون منه ارسال الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه اليهم ليولوه السلطنة
فاستقرت القاعدة بينهم ان يكون سليمان شاه سلطانا وقطب الدين اتابكه وجمال الدين وزير
قطب الدين وزيرا لسليمان شاه وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه بالاموال الكثيرة والبرك
والدواب والآلات وغير ذلك مما يصلح للسلاطين وسار ومعه زين الدين على وعسكر الموصل الى
همذان فلما قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر اليهم أرسالا كل يوم يلقاه طائفة وأمير فاجتمع مع
سليمان شاه عسكر فخافهم زين الدين على نفسه لانه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم
للادب معه ما أوجب الخوف منه فعاد الى الموصل فحين عاد عنه لم ينتظم امره ولم يتم له ما أراده
وقبض العسكر عليه بباب همذان فى شوال سنة ست وخمسين وخطبوا لارسلان شاه ابن الملك
طغرل وهو الذى زوج ايلدكز بامه وسيذكر مشروحا ان شاء الله تعالى

* (ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين) *

فى هذه السنة توفى الفائز بنصر الله ابو القاسم عيسى بن اسمعيل الظافر صاحب مصر وكانت
خلافته ست سنين ونحو شهرين وكان له لما ولى خمس سنين كما ذكرناه ولما مات دخل الصالح
ابن رزيك القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر
أسماءهم وذكر له منهم انسانا كبير السن فأمر باحضاره فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون
عباس أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبار واستبد بالامر فأعاد الصالح الرجل الى
موضعه وأمر حينئذ باحضار العاضد لدين الله ابى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن
ابوه خليفة وكان العاضد ذلك الوقت مراهقا قارب البلوغ فبايع له بالخلافة وزوجه
الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز مالا يسمع بمثله وعاشت بعد موت العاضد وخروج الامر
من العلويين الى الاتراك وتزوجت

* (ذكر وفاة الخليفة المقتفى لامر الله وشئ من سيرته) *

فى هذه السنة ثانى ربيع الاول توفى أمير المؤمنين المقتفى لامر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر
بالله ابى العباس احمد بن المقتدى بأمر الله رضى الله عنه بعلة التراقى وكان مولده ثانى عشر
ربيع الآخر سنة تسع وثمانين واربعمائة وأمه أم ولد تدعى ياعى وكانت خلافته أربعا
وعشرين سنة وثلاثة اشهر وستة عشر يوما ووافق أباه المستظهر بالله فى علة التراقى وماتا جميعا

افتضها غيلة ومكيدة *
ومراعاة لحقوق الاستسلام
والتسليم وكيده * فصفت له
حدودها وحواشيها *
وقلاعها وصياصيها * وبما
أعد من زبد الاحقاب فيها *
واتفق بعد ذلك اخلاد
الاصبهبذ بجبل شهريار الى
جانب المجانبة فى طاعة
شمس المعالى قابوس وادعاؤه
الامر لنفسه اغترارا بما
اجتمع له من الوفر * والتف
عليه من العدد الدثر *
والعسكر المجر * فرمى من
جانب الرى بأبى على رستم
ابن المرزبان خال أبى طالب فى
صناديد الديلم وفيهم بيستون
ابن بيجاسب المقبوض
عليه من قبل فى النظى
بموالاة صاحبه قابوس
فنصب له الحرب قراعا *
ومصاعا * وثقافا * وثقافا
وكانت عاقبة أمره ان كسره
فأسره * ونادى ابو على رستم
ابن اصبهبذ بمكانه بشعار
شمس المعالى قابوس لوحشة
كان استشعرها من أهل
الرى وأقام الخطبة فيها
باسمه وكاتبه بذكر طاعته
وشرح ما فتح الله على يده
وهاجر ابو حرب بيستون
ابن بيجاسب الى أرضه
المقدسة من فناء صاحبه
وولى نعمته فانشرح صدره
* وقرت بالاياب عينه *

فى ربيع الاول وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوى الرأى والعقل الكثير وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من اول أيام الديلم الى الآن واول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره واصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر الى الآن الا ان يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار فى جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شئ

*(ذكر خلافة المستنجد بالله) *

وفى هذه السنة بويع المستنجد بالله امير المؤمنين واسمه يوسف وأمه أم ولد تدعى طاوس بعد موت والده وكان للمقتفى حظية وهى ام ولده ابى على فلما اشتد مرض المقتفى وأيست منه ارسلت الى جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها على ان يكون ولدها الامير ابو على خليفة فقالوا كيف الحيلة مع ولى العهد فقالت اذا دخل على والده قبضت عليه وكان يدخل الى أبيه كل يوم فقالوا لابد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على ابى المعالى بن الكيا الهراسى فدعوه الى ذلك فأجابهم على ان يكون وزيرا فبذلوا له ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم ابى على أحضرت عدة من الجوارى واعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولى العهد المستنجد بالله وكان له خصى صغير يرسله كل وقت يتعرف اخبار والده فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد ابى على وامه سيفين فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلته هى الى المستنجد تقول له ان والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده فاستدعى استاذ دار عضد الدولة واخذه معه وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدرع واخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك اخرى وصاح ودخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى وأخذ اخاه ابا على وامه فسجنهما واخذ الجوارى فقتل منهن وغرق منهن ودفع الله عنه فلما توفى المقتفى لامر الله جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه ابو طالب ثم اخوه ابو جعفر ابن المقتفى وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير ابن هبيرة وقاضى القضاة وارباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم (حكى عنه) الوزير عون الدين بن هبيرة انه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام منذ خمس عشرة سنة وقال لى يبقى ابوك فى الخلافة خمس عشرة سنة فكان كما قال صلى الله عليه وسلم قال ثم رأيته قبل موت ابى المقتفى بأربعة اشهر فدخل بى فى باب كبير ثم ارتقى الى رأس جبل وصلى بى ركعتين ثم ألبسنى قميصا ثم قال لى قل اللهم اهدنى فيمن هديت وذكر دعاء القنوت ولما ولى الخلافة اقر ابن هبيرة على وزارته واصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضى ابن المرخم وكان بئس الحاكم واخذ منه مالا كثيرا واخذت كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب اخوان الصفا وما يشاكلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء وكان استاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير ان يقوم له وعزل قاضى القضاة أبا الحسن على بن احمد الدامغانى ورتب مكانه ابا جعفر عبد الواحد الثقفى وخلع عليه

وطاب بالايناس والاحسان عيشه * لولم يعجله عن الحياة حينه * وانضافت مملكة الجبل بأسرها الى ممالك جرجان وطبرستان فولاها شمس المعالى منوجهر ابنه سمى من لو عاش الى زمانه لرد عليه عوارى مفاخره * ورجع اليه حلى آثاره ومآثره * وانقضت بعدها عليه الرويان وشالوس وما وراءها من الحدود الاستندارية فصارت ولايته تشرق بنور العدل والاحسان * وتبسم عن ثغور الامن والامان * وواصل شمس المعالى السلطان يمين الدولة وأمين الملة بكتبه ورسله فى عقد وثيقة يتحصن بها من صروف النوائب * ويستظهر بها على وجوه المطالب * وقدم بين يدى نجواه من أنواع القرب والمبار ما خرج عن الحد والمقدار * حتى تأكدت العصمة * وتأربت العقدة * واشتبكت الالفة * واستحكمت الثقة * وصارت جرجان وطبرستان الى سواحل البحر وديار الديلم بحكم الحال المتشجة كاحدى ممالكه التى يحكم عليها آمرا وناهيا * ويتبسط فيها حاضرا وباديا * فلله شمس المعالى فى همة له بين المجرة مجراها * وفى بحار الكرم مجراها ومرساها * فلم يسمع فى شيوخ الملوك بأشرف منه قيمه * وألطف ديمه * واكرم شيمه * وأصدق بارقة مشيمه * وأوفر عقلا وتحصيلا * *(ذكر

(ذكر الحرب بين عسكر خوارزمشاه والاتراك البرزية)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار طائفة من عسكر خوارزمشاه الى اجنه وهجموا على يغمرخان بن أودك ومن معه من الاتراك البرزية فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فانهزم يغمرخان وقصد السلطان محمود بن محمد الخان والاتراك الغزية الذين معه وتوسل اليهم بالقرابة وظن يغمرخان ان اختيار الدين ايثاق هو الذى هيج الخوارزمية عليه فطلب من الغز انجاده

(ذكر أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة)

قد ذكرنا سنة ثلاث وخمسين عود المؤيد أى أبه الى نيسابور وتمكنه منها وان ذلك كان سنة أربع وخمسين فلما دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة ورأى المؤيد تمكنه فى نيسابور وتمكنه فى دولته وكثرة جنده وعسكره أحسن السيرة فى الرعية لاسيما أهل نيسابور فانه جبرهم وبالغ فى الاحسان اليهم وشرع فى اصلاح اعمالها واصلاح ولاياتها فسير طائفة من عسكره الى ناحية اسقيل وكان بها جمع قد تمردوا وأكثروا العبث والفساد فى البلاد وطال تماديهم فى طغيانهم فأرسل اليهم المؤيد يدعوهم الى ترك الشر والفساد ومعاودة الطاعة والصلاح فلم يقبلوا ولم يرجعوا عما هم عليه فسير اليهم سرية كثيرة فقاتلوهم وأذاقوهم عاقبة ما صنعوا فأكثروا القتل فيهم وخربوا حصنهم وسار المؤيد من نيسابور الى بيهق فوصلها رابع عشر ربيع الآخر من السنة وقصد منها حصن خسروجرد وهو حصن منيع بناه كيخسرو الملك قبل فراغه من قتل افراسياب وفيه رجال شجعان فامتنعوا على المؤيد فحصرهم ونصب عليهم المجانيق وجد فى القتال فصبر أهل الحصن حتى نفد صبرهم ثم ملك المؤيد القلعة وأخرج كل من فيها ورتب فيها من يحفظها وعاد منها الى نيسابور فى الخامس والعشرين من جمادى الاولى من السنة ثم سار الى هراة فلم يبلغ منها غرضا فعاد الى نيسابور وقصد مدينة كندر وهى من أعمال طريثيث وقد تغلب عليها رجل اسمه أحمد كان خربنده واجتمع معه جماعة من الرنود وقطاع الطريق والمفسدين فخربوا كثيرا من البلاد وقتلوا كثيرا من الخلق وغنموا من الاموال ما لا يحصى وعظمت المصيبة بهم على خراسان وزاد البلاء فقصدهم المؤيد فتحصنوا بالحصن الذى لهم فقوتلوا أشد قتال ونصب عليهم العرادات والمنجنيقات فأذعن هذا الخربنده أحمد الى طاعة المؤيد والانخراط فى سلك أصحابه وأشياعه فقبله أحسن قبول وأحسن اليه وأنعم عليه ثم انه عصى على المؤيد وتحصن بحصنه فأخذه المؤيد منه قهرا وعنوة وقيده واحتاط عليه ثم قتله وأراح المسلمين منه ومن شره وفساده وقصد المؤيد فى شهر رمضان ناحية بيهق عازما على قتالهم لخروجهم عن طاعته فلما قارب بها أتاه زاهد من اهلها ودعاه الى العفو عنهم والحلم عن ذنوبهم ووعظه وذكره فأجاب الى ذلك ورحل عنهم فأرسل السلطان محمود بن محمد الخان وهو مع الغز الى المؤيد بتقرير نيسابور وطوس واعمالها عليه ورد الحكم فيها اليه فعاد الى نيسابور رابع ذى القعدة من السنة ففرح الناس بما تقرر بينه وبين الملك محمود وبين الغز من ابقاء نيسابور عليه ليزول الخلف والفتن عن الناس

(ذكر الحرب بين شاه مازندران ويغمرخان)

لما قصد يغمرخان الغز وتوسل اليهم لينصروه على ايثاق لظنه انه هو الذى حسن للخوارزمية

والاهو جلة وتفصيلا * وأغذى للنفس بعفاف الحكمة * وأجزى للبدن بكفاف الطعمة * قد فطم النفس عن رضاع الملاهى * فلم يعرف اللهو ما هو ولا البطالة ما هى * علما منه بأن الملك واللهو ضدان * وأن ليس لا لتقائهما تدان * ولقد أحسن أبو الفتح على بن محمد البستى الكاتب فى نصرة هذا الرأى بقوله

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا
فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس فى الميزان هابطة
لما غدا برج نجم اللهو والطرب

نعم ولا أحرص على انصاف الرعية * وآخذ بأطراف العدل فى القضية * وأبرع فى الآداب والحكم * وأجمع بين ذرابة السيف وذلاقة القلم * ورسائله موجودة فى البلاد * عند الافراد * لكنى أكتفى منها بلمعة من بوارق بيانه * وزهرة من حدائق احسانه * اذ كان فى تصفحها ما يغنى عن التكثر فى هذا المكان بها فنها رسالة أنشأها فى الترجيح بين صحابة النبى صلى الله عليه وسلم بعقب رسائله القديمة * وقرائنه اليتيمة *

قصده فأجابوه الى ذلك وساروا معه على طريق نسا وابيورد ووصلوا الى الامير ايناق فلم يجد لنفسه بهم قوة فاستنجد شاه مازندران فجاءه ومعه من الاكراد والديلم والاتراك والتركمان الذين يسكنون نواحي ابسكون جمع كثير فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم وانهزم الاتراك الغزية والبرزية من شاه مازندران خمس مرات ويعودون وكان على ميمنة شاه مازندران الامير ايناق فحملت الاتراك الغزية عليه لما أيسوا من الظفر بقلب شاه مازندران فانهزم ايناق وتبعه باقي العسكر ووصل شاه مازندران الى سارية وقتل من عسكره أكثرهم وحكى ان بعض التجار كفن ودفن من هؤلاء القتلى سبعة آلاف رجل واما ايناق فانه قصد في هربه خوارزم وأقام بها وسار الغز من المعركة الى دهستان وكان الحرب قريبا منها فنقبوا سورها وأوقعوا بأهلها ونهبوهم أوائل سنة ست وخمسين وخمسمائة بعد ان خربوا جرجان وفرقوا أهلها في البلاد وعادوا الى خراسان

(ذكر وفاة خسروشاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده)

في هذه السنة في رجب توفي السلطان خسروشاه بن بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود ابن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وكان عادلا حسن السيرة في رعيته محبا للخير وأهله مقربا للعلماء محسنا اليهم راجعا الى قولهم وكان ملكه تسع سنين وملك بعده ابنه ملكشاه فلما ملك نزل علاء الدين الحسين ملك الغور الى غزنة فحصرها وكان الشتاء شديدا والثلج كثيرا فلم يمكنه المقام عليها فعاد الى بلاده في صفر سنة ست وخمسين

(ذكر الحرب بين ايناق وبغراتكين)

في هذه السنة منتصف شعبان كان بين الامير ايناق والامير بغراتكين برغش الجركاني حرب وكان ايناق قد سار الى بغراتكين في آخر أعمال جوين فنهب وأخذ أمواله وكل ماله وكان ذا نعمة عظيمة وأموال جسيمة فانهزم بغراتكين عنها وخلاها فاغتنمها ايناق واستغنى بها وقويت نفسه بها وكثرت جموعه وقصده الناس واما بغراتكين فانه أرسل الى المؤيد صاحب نيسابور وسار في جملته ومعدودا من أصحابه فتلقاه المؤيد بالقبول

(ذكر وفاة ملكشاه بن محمود)

في هذه السنة توفي ملكشاه ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان باصفهان مسموما وكان سبب ذلك انه لما كثر جمعه باصفهان أرسل الى بغداد وطلب ان يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ويعيدوا القواعد بالعراق الى ما كانت أولا والا قصدهم فوضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصيا كان خصيصا به يقال له اغلبك الكوهرايينى فمضى الى بلاد العجم واشترى جارية من قاضي همذان بألف دينار وباعها من ملكشاه وكان قد وضعها على سمه ووعدها أمورا عظيمة على ذلك وسمته في لحم مشوي فأصبح ميتا وجاء الطبيب الى دكلا وشملة فعرفهما انه مسموم فعرفوا ان ذلك من فعل الجارية فأخذت وضربت وأقرت وهرب اغلبك ووصل الى بغداد ووفى له الوزير بجميع ما استقر الحال عليه ولما مات أخرج أهل اصفهان أصحابه من عندهم وخطبوا لسليمان شاه واستقر ملكه بتلك البلاد وعاد شملة الى خوزستان فأخذ ما كان ملكشاه تغلب عليه منها

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم ان أصعب الامور * وأشرفها بين الجمهور * هو الخروج بالنبوة * والاستعلاء على الخلق بهذه القوة * لانه تقليب الوجوه عن القبل المعبودة * وادخال الاعناق في قلادة غير معهودة * ومخاطبة الخلق عن الخالق * خالق لا تدركه أبصار الخلائق * وقد اعتلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذروة هذا الشرف * وصار لمن سلف من الانبياء خير الخلف * وفاز بعزية هذا الذكر العظيم * وأذاق العرب لذة النعيم * ونقلهم الى الثروة والغنى من الفقر والفاقة * وأراحهم من رعاية الجمل والناقة * وليس وراءه لابتغاء العلا أمد * فما فوق السماء للسمو مصعد * ثم ضبط الامر بعد زعيمه على نظامه * واقامه في قوامه * وهذا ما تولاه أبو بكر رضي الله تعالى عنه حين ودع عمره * من غير أن يسلم الى أحد أمره * فانه قام به قيام ثابت القلب * مستقل بمقاومة الخطب * غير مفكر في رد راد * ولا مبال بمعاداة مضاد * حتى حمى حريم الدين * وجمع شمل

*(ذكر

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة حج أسد الدين شيركوه بن شاذى مقدم جيوش نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام وشيركوه هذا هو الذى ملك الديار المصرية وسيرد ذكره ان شاء الله تعالى وفيها أرسل زين الدين على نائب قطب الدين صاحب الموصل رسولا الى المستنجد يعتذر مما جناه من مساعدة محمدشاه فى حصار بغداد ويطلب أن يؤذن له فى الحج فأرسل اليه يوسف الدمشقى مدرس النظامية وسليمان بن قتلمش يطيبان قلبه عن الخليفة ويعرفانه الاذن فى الحج فحج ودخل الى الخليفة فأكرمه وخلع عليه وفيها توفى قايماز الارجوانى أمير الحاج سقط عن الفرس وهو يلعب بالاكرة فسال مخه من مناخيره وأذنيه فمات وفيها فى ربيع الآخر توفى محمد بن يحيى بن على بن مسلم أبو عبد الله الزبيدى من أهل زبيد مدينة باليمن مشهورة وقدم بغداد سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكان نحويا واعظا وصحبه الوزير ابن هبيرة مرة وكان موته ببغداد

(ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الفتنة ببغداد)

فى هذه السنة فى ربيع الاول خرج الوزير ابن هبيرة من داره الى الديوان والغلمان يطرقون له وأرادوا ان يردوا باب المدرسة الكمالية بدار الخليفة فمنعهم الفقهاء وضربوهم بالآجر فشهر أصحاب الوزير السيوف وأرادوا ضربهم فمنعهم الوزير ومضى الى الديوان فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير فأمر الخليفة بضرب الفقهاء وتأديبهم ونفيهم من الدار فمضى استاذ الدار وعاقبهم هناك واختفى مدرسهم الشيخ أبو طالب ثم ان الوزير أعطى كل فقير دينارا واستحل منهم وأعادهم الى المدينة وظهر مدرسهم

(ذكر قتل ترشك)

فى هذه الايام قصد جمع من التركمان الى البندنيجين فأمر الخليفة بتجهيز عسكر اليهم وان يكون مقدمهم ترشك وكان فى اقطاعه بلاد اللحف فأرسل اليه الخليفة يستدعيه فامتنع من المجىء الى بغداد وقال يحضر العسكر فأنا أقاتل بهم وكان عازما على الغدر فجهز العسكر وساروا اليه وفيهم جماعة من الامراء فلما اجتمعوا بترشك قتلوه وأرسلوا رأسه الى بغداد وكان قتل مملوكا للخليفة فدعا أولياء المقتول وقيل لهم ان أمير المؤمنين قد اقتص لكم ممن قتله

(ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لارسلان)

فى هذه السنة فى ربيع الآخر قتل السلطان سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه وسبب ذلك انه كان فيه تهور وخرق وبلغ به شرب الخمر حتى انه شربها فى رمضان نهارا وكان يجمع المساخر ولا يلتفت الى الامراء فأهمل العسكر أمره وصاروا لا يحضرون بابه وكان قد رد جميع الامور الى شرف الدين كردبازو الخادم وهو من مشايخ الخدم السلجوقية يرجع الى دين وعقل وحسن تدبير فكان الامراء يشكون اليه وهو يسكنهم فاتفق انه شرب يوما بظاهر همذان فى الكشك فحضر عنده كردباز ولامه على فعله فأمر سليمان شاه من عنده من المساخرة فعبثوا بكردبازو حتى ان بعضهم كشف له سوأته فخرج مغضبا فلما صحا سليمان أرسل

المليز * ولم يرض بأن يسلم بيضة الشريعة ثلم * ولا أن يتغير من أحكامها حكم * فلقب خليفة رسول الله * باشتدابه لحياطة دين الله * ثم تحصين حوزة الاسلام من عوارض الفساد * وعادية الاعداء والاضداد * والمجاهدة فى استضافة ديار المخالفين * الى جانب الاسلام ومجامع المسلمين * وهو ما أتاه عمر رضى الله عنه لما آل اليه الامر فانه صرف جهده الى الجهاد * وقصر كده وكده على افتتاح البلاد * حتى اتسع نطاق هذه الملة * وخضعت الرقاب لاهل هذه القبلة * فلقب أمير المؤمنين * اذ كان نعم العون لرسول رب العالمين * قد فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من الامر الاعظم * والشأن الافخم * وأطفأ لهيب كل ملتهب * على رغم من أبى لهب * والتأم بسعى الشيخين * شعب الامرين الآخرين * وبلغ من الاحكام مبلغا ليس فيه مستزاد * ولا يشين بياض غرته سواد * ولم يبق للتابعين سوى التمسك بدين ممهد * ومراعاة بناء مشيد * فلم يقدروا على القيام به * واحتجبوا وراء حجابه * ولما أتت الخلافة عثمان

اليه يعتذر فقبل عذره الا انه تجنب الحضور عنده فكتب سليمان الى اينانج صاحب الرى يطلب منه ان ينجده على كردبازو فوصل الرسول واينانج مريض فأعاد الجواب يقول اذا أفقت من مرضى حضرت اليك بعسكرى فبلغ الخبر كردبازو فازداد استيحاشا فأرسل اليه سليمان يومايطلبه فقال اذا جاء اينانج حضرت وأحضر الامراء واستحلفهم على طاعته وكانوا كارهين لسليمان لحاله فأول ما عمل ان قتل المساخرة الذين لسليمان وقال انما أفعل ذلك للملك ثم اصطلحا وعمل كردبازو دعوة عظيمة حضرها السلطان والامراء فلما صار السلطان سليمان شاه فى داره قبض عليه كردبازو وعلى وزيره ابن القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدى وعلى أصحابه فى شوال سنة خمس وخمسين وخمسمائة فقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه فى قلعة ثم أرسل اليه من خنقه وقيل بل حبسه فى دار مجد الدين العلوى رئيس همذان وفيها قتل وقيل بل سقى سما فمات والله أعلم وأرسل الى ايلدكز صاحب أرانية وأكثر بلاد اذربيجان يستدعيه اليه ليخطب للملك ارسلان شاه الذى معه وبلغ الخبر الى اينانج صاحب الرى فسار ينهب البلاد الى ان وصل الى همذان فتحصن كردباز وطلب منه اينانج ان يعطيه مصافا فقال أنا لا أحاربك حتى يصل الاتابك الاعظم ايلدكز وسار ايلدكز فى عساكره جميعها يزيد على عشرين ألف فارس ومعه ارسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه فوصل الى همذان فلقيهم كردبازو وأنزله دار المملكة وخطب لارسلان شاه بالسلطنة بتلك البلاد وكان ايلدكز اتابكه والبهلوان حاجبه وهو أخوه لامه وكان ايلدكز هذا أحد مماليك السلطان مسعود وأمرائه فى أول امره فلما ملك أقطعه اران وبعض اذربيجان واتفق الحروب والاختلاف فلم يحضر عند أحد من السلاطين السلجوقية وعظم شأنه وقوى أمره وتزوج بأم الملك ارسلان شاه فولدت له أولادا منهم البهلوان محمد وقزل ارسلان عثمان وقد ذكرنا سبب انتقال ارسلان شاه اليه وبقى عنده الى الآن فلما خطب له بهمذان أرسل ايلدكز الى بغداد يطلب الخطبة لارسلان شاه أيضا وان تعاد القواعد الى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود فاهين رسوله وأعيد اليه على أقبح حالة واما اينانج صاحب الرى فان ايلدكز راسله ولاطفه فاصطلحا وتحالفا على الاتفاق وتزوج البهلوان بن ايلدكز بابنة اينانج ونقلت اليه بهمذان

(ذكر الحرب بين ابن آقسنقر وعسكر ايلدكز)

لما استقر الصلح بين ايلدكز واينانج أرسل الى ابن آقسنقر الاحمديلى صاحب مراغة يدعوه الى الحضور فى خدمة السلطان ارسلان شاه فامتنع من ذلك وقال ان كففتم عنى والا فعندى سلطان وكان عنده ولد محمد شاه بن محمود كما ذكرناه وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه يطمعه فى الخطبة لولد محمود شاه فجهز ايلدكز عسكرا مع ولده البهلوان فبلغ الخبر الى ابن آقسنقر فأرسل الى شاه ارمن صاحب خلاط وحالفه وصارا يدا واحدة فسير اليه شاه ارمن عسكرا كثيرا واعتذر عن تأخره بنفسه لانه فى ثغر لا يمكنه مفارقته فقوى بهم ابن آقسنقر وكثر جمعه وسار نحو البهلوان فالتقيا على نهر اسبيرود فاشتد القتال بينهم فانهزم البهلوان أقبح هزيمة ووصل هو وعسكره الى همذان على أقبح صورة واستأمن أكثر أصحابه الى ابن آقسنقر وعاد الى بلده منصورا

*(ذكر

ابن عثمان * كان منه ما كان * من تبديل زى النسك * بزينة الملك * وتغيير سيرة الائمة * حين توسع فى النعمة * حتى اجتنى ثمرة ما جنى * وتيه بسوء ما أتى * ولما عادت الى على بن أبى طالب رضى الله عنه هاجت الرياح واختلفت الدول من كل جانب وبدت الاوابد * وتبدلت العقائد * وتحول أمر الدين ملكا المغالبة * ودول القتل والجاذبة * ووقعت الخلافة فى الخلاف * وبرز الشر من الغلاف * وبقى على رضى الله عنه على اضطراب لا يهدأ * وفى مداواة داء لا يبرأ * مع شجاعته المشهورة * ومآثره المأثورة * وانتهى أمره الى ما انتهى * حتى جرى عليه وعلى عقبه ما جرى * فلينظر اذا كان الامر كذلك * أهؤلاء أحق بالقدح أم أولئك * قد مضى القوم وآثارهم فى الاسلام كالشمس فى الاشتهار * والهباء فى الانتشار * وصنيعهم صائح بحى على الفلاح * وليس بأيدى الخصماء سوى السفاهة والصياح * (وقرأت توقيعا له الى بعض الافاضل يستقدمه

(ذكر الحرب بين ايلدكز واينانج)

لما مات ملكشاه ابن السلطان محمود كما ذكرناه أخذ طائفة من أصحابه ابنه محمودا وانصرفوا به نحو بلاد فارس فخرج عليهم صاحبها زنكي بن دكلا السلغري فأخذه منهم وتركه في قلعة اصطخر فلما ملك ايلدكز والسلطان ارسلان شاه الذي معه البلاد وأرسل ايلدكز الى بغداد يطلب الخطبة للسلطان كما ذكرناه شرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزير الخليفة في اثارة أصحاب الاطراف عليه وراسل الاحمديلي وكان ما ذكرناه وكاتب زنكي بن دكلا صاحب بلاد فارس يبذل له ان يخطب للملك الذي عنده وهو ابن ملكشاه وعلق الخطبة له بظفره بايلدكز فخطب ابن دكلا للملك الذي عنده وأنزله من القلعة وضرب الطبل على بابه خمس نوب وجمع عساكره وكاتب اينانج صاحب الري يطلب منه الموافقة وسمع ايلدكز الخبر فحشد وجمع وكثر عسكره وجموعه فكانت أربعين ألفا وسار الى اصفهان يريد بلاد فارس وأرسل الى زنكي ابن دكلا يطلب منه الموافقة وان يعود يخطب لارسلان شاه فلم يفعل وقال ان الخليفة قد أقطعني بلاده وأنا سائر اليه فرحل ايلدكز وبلغه ان جشيرا لارسلان بوقا وهو أمير من أمراء زنكي وفي اقطاعه ارجان بالقرب منه فأنفذ سرية للغارة عليه فاتفق ان ارسلان بوقا عزم على تغيير الخيل التي معه فاضعفها وأخذ عوضها من ذلك الجشير فسار في عسكره الى الجشير فصادف العسكر الذي سيره ايلدكز لاخذ دوابه فقاتلهم وأخذهم وقتلهم وأرسل الرؤس الى صاحبه فكتب بذلك الى بغداد وطلب المدد فوعد بذلك وكان الوزير عون الدين بن هبيرة أيضا قد كاتب الامراء الذين مع ايلدكز يونجهم على طاعته ويضعف رأيهم ويحرضهم على مساعدة زنكي بن دكلا واينانج وكان اينانج قد برز من الري في عشرة آلاف فارس فأرسل اليه ابن آقسنقر الاحمديلي خمسة آلاف فارس وهرب ابن البازدار صاحب قزوين وابن طغيرك وغيرهما فلحقوا باينانج وهو في صحراء ساوة واما ايلدكز فانه استشار نصحاءه فأشار وا بقصد اينانج لانه أهم فرحل اليه ونهب زنكي سميرم وغيرها فرد ايلدكز اليه أميرا في عشرة آلاف فارس لحفظ البلاد فسار زنكي اليهم فلقيهم وقاتلهم فانهزم عسكر ايلدكز اليه فتجلد ايلدكز وأرسل يطلب عساكر اذربيجان فجاءته مع ولده قزل ارسلان وسير زنكي بن دكلا عسكرا كثيرا الى اينانج واعتذر عن الحضور بنفسه عنده لخوفه على بلاده من شملة صاحب خوزستان فسار ايلدكز الى اينانج وتدانى العسكران فالتقوا تاسع شعبان وجرى بينهم حرب عظيمة أجلت عن هزيمة اينانج فانهزم أقبح هزيمة وقتلت رجاله ونهبت أمواله ودخل الري وتحصن في قلعة طبرك وحصر ايلدكز الري ثم شرع في الصلح واقترح اينانج اقتراحات فأجابه ايلدكز اليها وأعطاه جرماذقان وغيرها وعاد ايلدكز الى همذان وكان ينبغي أن تتأخر هذه الحادثة والتي قبلها وانما قدمت لتتبع أخواتها .

(ذكر وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد)

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغوري ملك الغور بعد انصرافه من غزنة وكان عادلا من أحسن الملوك سيرة في رعيته ولما مات ملك بعده ابنه سيف الدين محمد واطاعه الناس واحبوه وكان قد صار في بلادهم جماعة من دعاة الاسماعيلية وكثر اتباعهم فأخرجهم من تلك الديار جميعها ولم يبق فيها منهم احد وراسل الملوك وهاداهم

حضرته ليشوفني مسيره)* محال لمن سمت به همته * الى قصد من تغلو عنده قيمته * أن يكون على غيره عرجته * وليبيت من سواه زيارته وحجته * وأما خطه فخطة المحاسن فسمه ان شئت وشيا محوكا * او تبرا مسبوكا * او درا مفصلا * او سحرا محصلا * وكان اسمعيل بن عباد اذا قرأ خطه يقول أهذا خط قابوس * ام جناح طاوس * فهو كما قال المتنبي

في خطه من كل قلب شهوة
حتى كان مداده الاهواء
ولكل عين قرة في قربه
حتى كان مغيبه الاقذاء

*(ذكر الحال التي انعقدت بين السلطان يمين الدولة * وامين الملة * وبين ايلك الخان في التواصل والتصاهر * والتعاقد على التعاون والتظاهر * الى ان خلعت بهجة البشر * وكشرت عن اعصل الشر)*

قد كان ايلك الخان * لما ملك السلطان خراسان * على الغدرة بآل سامان * اغتنم تطهير ما وراء النهر عن كل منتسب الى تلك الارومة * ومتشبث بشعب تلك الجرثومه * فلم يدع هنالك ذا ظفر الا قلمه * ولا ذا حد الا جتاحه واصطلمه *

واستمال المؤيد اي ابه صاحب نيسابور وطلب موافقته

(ذكر الفتنة بنيسابور وتخريبها)

كان اهل العيث والفساد بنيسابور قد طمعوا في نهب الاموال وتخريب البيوت وفعل ما أرادوا فاذا نهوا لم ينتهوا فلما كان الآن تقدم المؤيد اي ابه بقبض أعيان نيسابور منهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني وغيره وحبسهم في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وقال أنتم الذين أطمعتم الرنود والمفسدين حتى فعلوا هذه الفعال ولو أردتم منعهم لامتنعوا وقتل من أهل الفساد جماعة فخربت نيسابور بالكلية ومن جملة ما خرب مسجد عقيل وكان مجمعا لاهل العلم وفيه خزائن الكتب الموقوفة وكان من أعظم منافع نيسابور وخرب أيضا من مدارس الحنفية ثمان مدارس ومن مدارس الشافعية سبع عشرة مدرسة وأحرق خمس خزائن للكتب ونهب سبع خزائن كتب وبيعت بأبخس الاثمان هذا ما أمكن احصاؤه سوى ما لم يذكر

(ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خراسان)

في هذه السنة في جمادى الآخرة قصد السلطان محمود بن محمد الخان وهو ابن أخت السلطان سنجر وقد ذكرنا انه ملك خراسان بعده ففي هذه السنة حصر المؤيد صاحب نيسابور بشاذياخ وكان الغز مع السلطان محمود فدامت الحرب الى آخر شعبان سنة ست وخمسين وخمسمائة ثم ان محمودا أظهر انه يريد دخول الحمام فدخل الى شهرستان آخر شعبان كالهارب من الغز وأقاموا على نيسابور الى آخر شوال ثم عادوا راجعين فعاثوا في القرى ونهبوها ونهبوا طوس نهبا فاحشا وحصروا المشهد الذي لعلي بن موسى وقتلوا كثيرا ممن فيه ونهبوهم ولم يعرضوا للقبة التي فيها القبر فلما دخل السلطان محمود الى نيسابور امهله المؤيد الى ان دخل رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة واخذه وكحله واعماه واخذ ما كان معه من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة وكان يخفيها خوفا عليها من الغز لما كان معهم وقطع المؤيد خطبته من نيسابور وغيرها مما هو في تصرفه وخطب لنفسه بعد الخليفة المستنجد بالله واخذ ابنه جلال الدين محمدا الذي كان قد ملكه الغز امرهم قبل ابيه وقد ذكرنا ذلك وكحله ايضا وحبسهما ومعهما جواريهما وحشمهما وبقيا فيها فلم تطل ايامهما ومات السلطان محمود ثم مات ابنه بعده من شدة وجده لموت ابيه والله اعلم

(ذكر عمارة شاذياخ نيسابور)

كانت شاذياخ قد بناها عبد الله بن طاهر بن الحسين لما كان اميرا على خراسان للمأمون وسبب عمارتها انه رأى امرأة جميلة تقود فرسا تريد سقيه فسألها عن زوجها فأخبرته به فأحضره وقال له خدمة الخيل بالرجال اشبه فلم تقعد انت في دارك وترسل امرأتك مع فرسك فبكى الرجل وقال له ظلمك يحملنا على ذلك فقال وكيف قال لانك تنزل الجند معنا في دورنا فان خرجت انا وزوجتي بقي البيت فارغا فأخذ الجندي ما لنا فيه وان سقيت انا الفرس فلا آمن على زوجتي من الجندي فرأيت ان اقيم في البيت وتخدم زوجتي الفرس فعظم الامر عليه وخرج من البلد لوقته ونزل في الخيام وامر الجند فخرجوا من دور الناس وبنى شاذياخ

دارا

ثم كاتب ايلك الخان السلطان يمين الدولة مهنئا له بما ذخر الله له من خالصة الملك * وصافية الملك * وظاهر اليه من ظاهرة العز وباطنة الصنع ومعتقدا لنفسه بما قطافه من عنقود رجائه * ملاوة على صفقة اقباله * وعلاوة على جماله وجلاله * وتردد السفراء بينهما في وصلة تبل رحم الحال * وتؤكد أسباب المودة والوصال * وتحمي حريم الثقة في الجانبين * وترفع ستر الحشمة في ذات البين * وتؤدي رتبة الاختلاط الى الامتزاج * وقربة الاشتباك الى الاتشاج * فتصير النفوس واحدة * والسواعد على وجوه مصالحها متساعدة * فأنهض السلطان عند المامه كان بنيسابور في طلب ابي ابراهيم المنتصر الساماني ابا الطيب سهل ابن محمد بن سليمان الصعلوكي امام اهل الحديث بها رسولا الى ايلك الخان وضم اليه طغانجق والي سرخس في خطبة كريمته عليه * ونقلها في صحبته اليه * واصحبه ما عدا الحد والعد من سبائك العقيان * ويواقيت البهرمان *

دار له ولجنده وسكنها وهم معه ثم انها درثت بعد ذلك فلما كان ايام السلطان الب ارسلان ذكرت له هذه القصة فأمر بتجديدها ثم انها تشعثت بعد ذلك فلما كان الآن وخربت نيسابور ولم يمكن حفظها والغز تطرق البلاد وتنهبها امر المؤيد حينئذ بعمل سورها وسد ثلمه وسكناه ففعل ذلك وسكنها هو والناس معه وخربت حينئذ نيسابور وكل خراب ولم يبق فيها اثنان

(ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك)

في هذه السنة في شهر رمضان قتل الملك الصالح ابو الغارات طلائع بن رزيك الارمني وزير العاضد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله انه تحكم في الدولة التحكم العظيم واستبد بالامر والنهي وجباية الاموال اليه لصغر العاضد ولانه هو الذي ولاه ووتر الناس فانه اخرج كثيرا من اعيانهم وفرقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ثم انه زوج ابنته من العاضد فعاداه ايضا الحرم من القصر فأرسلت عمة العاضد الاموال الى امراء المصريين ودعتهم الى قتله وكان اشدهم عليه في ذلك انسان يقال له ابن الداعي فوقفوا له في دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش فجرحوه جراحات مهلكة الا انه حمل الى داره وفيه حياة فأرسل الى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع اثره في خلافته فأقسم العاضد انه لم يعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت بريا فسلم عمتك الي حتى انتقم منها فأمر بأخذها فأرسل اليها فأخذها قهرا واحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه رزيك ولقب العادل فانتقل الامر اليه بعد وفاة ابيه وللصالح اشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فمنها في الافتخار

ابى الله الا ان يدوم لنا الدهر * ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى الوفه * ويبقى لنا من بعده الاجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا * سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا اذا رحنا الى الحرب مرة * قرانا ومن اضيافنا الذئب والنسر
كما اننا في السلم نبذل جودنا * ويرتع في انعامنا العبد والحر

وكان الصالح كريما فيه ادب له شعر جيد وكان لاهل العلم عنده اتفاق ويرسل اليهم العطاء الكثير بلغه ان الشيخ ابا محمد بن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل قد شرح بيتا من شعره وهو هذا

تجنب سمعي ما يقول العواذل * واصبح لي شغل من الغزو شاغل

فجهز اليه هدية سنية ليرسلها اليه فقتل قبل ارسالها وبلغه ايضا ان انسانا من اعيان الموصل قد اثنى عليه بمكة فأرسل اليه كتابا يشكره ومعه هدية وكان الصالح اماميا لم يكن على مذهب العلويين المصريين ولما ولي العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقيل انهم يفرحون بالخليفة فقال كأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الاول حتى استخلف هذا وما علموا انني كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم قال عمارة دخلت الى الصالح قبل قتله بثلاثة ايام فناولني قرطاسا فيه بيتان من شعره وهما

نحن في غفلة ونوم وللمو * ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا الى الحمام سنينا * ليت شعري متى يكون الحمام

وعقائل الدر والمرجان * وتخوت الوشي والحبير * ونوادر البدو والحضر * وصواني الذهب مملوءة من بياضات العنبر * واواني الفضة منضودة بشمامات الكافور وغير ذلك من شارات الهنود * وقطاع العود * وذكور الفحول * واناث الفيول * تحت حدوج مغشاة بذوات التعاريج * من الوان الديابيج * منطقة بعصائب يخطف العيون بريقها * وتصطخب على الاقتاب معاليقها * وعتاق ضوامر كالقداح * بخدود كمتون الصفاح * وغرر كنجوم الصباح * وقوائم كمخترق الرياح * وسنابك كفلاق الصفاح * في مراكب كأنما حلي بعضها من قطع عقيق * او شعل حريق * وحلي سائرها بنجوم الثريا والنثرة * وبنات نعش من وراء المجرة * وقرن ذلك كله بأموال على سبيل الالطاف * تغمر ذوائب الاوصاف * فسار الامام ابو الطيب سهل بن محمد الى ايلك الخان كريما ينقل كريمه * ويحمل من بحر الترك الى ايران درة يتيمة * فطلع على ايلك واهل بيته طلوع النجم طاب اياه *

فكان آخر عهدى به وقال عمارة ايضا ومن عجيب الاتفاق انى انشدت ابنه قصيدة اقول فيها

ابوك الذى تسطو الليالى بحده * وانت يمين ان سطا وشمال
لرتبته العظمى وان طال عمره * اليك مصير واجب ومنال
تخالسك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضا وحجال

فانتقل الامر اليه بعد ثلاثة أيام

(ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد)

فى هذه السنة فى شهر رمضان اجتمعت خفاجة الى الحلة والكوفة وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر وغير ذلك فمنعهم أمير الحاج ارغش وهو مقطع الكوفة ووافقه على منعه الامير قيصر شحنة الحلة وهما من مماليك الخليفة فأفسدت خفاجة ونهبوا سواد الكوفة والحلة فأسرى اليهم الامير قيصر شحنة الحلة فى مائتين وخمسين فارسا وخرج اليه ارغش فى عسكر وسلاح فانتزحت خفاجة من بين أيديهم وتبعهم العسكر الى رحبة الشام فأرسل خفاجة يعتذرون ويقولون قد قنعنا بلبن الابل وخبز الشعير وانتم قد منعونا رسومنا وطلبوا الصلح فلم يجبهم ارغش وقيصر وكان قد اجتمع مع خفاجة كثير من العرب فتصافوا واقتتلوا وارسلت العرب طائفة الى خيام العسكر ورحالهم فحالوا بينهم وبينها وحمل العرب حملة منكرة فانهزم العسكر وقتل كثير منهم وقتل الامير قيصر وأسرت جماعة أخرى وجرح أمير الحاج جراحة شديدة ودخل الرحبة فحماه شحنتها واخذ له الامان وسيره الى بغداد ومن فيمامات عطشا فى البرية وكان اماء العرب يخرجن بالماء يسقين الجرحى فاذا طلبه منهن أحد من العسكر أجهزن عليه وكثر النوح والبكاء ببغداد على القتلى وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة والعساكر معه للخروج فى طلب خفاجة فدخلوا البرية وخرجوا الى البصرة ولما دخلوا البر عاد الوزير الى بغداد وارسل بنو خفاجة يعتذرون ويقولون بغى علينا وفارقنا البلاد فتبعونا واضطررنا الى القتال وسألوا العفو عنهم فأجيبوا الى ذلك

(ذكر حصر المؤيد شارستان)

فى هذه السنة حصر المؤيد اى ابه مدينة شارستان قريب نيسابور وقاتله اهلها ونصب المجانيق والعرادات فصبر اهلها خوفا على انفسهم من المؤيد وكان مع المؤيد جلال الدين الموفق الفقيه الشافعى فبينما هو راكب اذ وصل اليه حجر منجنيق فقتله خامس جمادى الآخرة من السنة وتعدى الحجر منه الى شيخ من شيوخ بيهق فقتله فعظمت المصيبة بقتل جلال الدين على اهل العلم خصوصا أهل السنة والجماعة وكان فى عنفوان شبابه رحمه الله لما قتل ودام الحصار الى شعبان سنة سبع وخمسين وخمسمائة فنزل خواجكى صاحبها بعد ما كثر القتل ودام الحصر وكان لهذه القلعة ثلاثة رؤساء هم ارباب النهى والامر وهم الذين حفظوها وقاتلوا عنها احدهم خواجكى هذا والثانى داعى بن محمد ابن اخى حرب العلوى والثالث الحسين بن ابى طالب العلوى الفارسى فنزلوا كلهم ايضا الى المؤيد اى ابه فمن معهم من اشياعهم واتباعهم فاما خواجكى فانه اثبت عليه انه قتل زوجته ظلما وعدوانا واخذ مالها فقتل بها وملك المؤيد شارستان وصفت له فنهبها عسكره الا انهم لم يقتلوا امرأة ولا سبوها

بعد ان طال اغترابه * والحبيب الطف اعتابه * بعد ان تقدم هجره واجتنابه * اعظاما منهم اقدر وفادته * عن باب السلطان * فى ذلك المهم من الشان * ثم افضله فى نفسه فهو الامام المقدم * والصدر المحتشم * ومن لا يقرب الى ربابته ضريب له فى ابواب الفضائل * وخصوصا فى خلافيات المسائل * واقام بأوزجند الى ان فرغ من امر الزفاف * وازيحت علته فى الانصراف * فعاد على جناح النجاح مصحوبا بجلوبات الترك من نقود المعادن ونوافج المسك وقود المراكب * وعيس الركائب * وورود الوصفاء والوصائف وبيض البزاة وسود الاوبار ونصب الختو واحجار اليشب وطرائف الصين وانحدت الحال بين السلطان * وبين ايلك الخان * اتحادا اشترك فيه المراتع والنعم * واستهم فيه الصنائع والخدم * وبقيت على جملتها فى التأحد والتأكد الى أن نزغ الشيطان بينهما فنغلت الضمائر * وانحلت القوى والمرائر * وتولى السيف تدبير ذلك الوصال * فحل معقوده * وفصل مسروده * وسيأتى الشرح على الوقائع التى جرت بينهما على الاثر فأما الآن فانى أشير الى نبذ من محاسن هذا الشيخ السفير * والكافل فى الامر بالتدبير * واتبعه بذكر

*(ذكر

(ذكر ملك الكرج مدينة انى)

فى هذه السنة فى شعبان اجتمعت الكرج مع ملكهم وساروا الى مدينة انى من بلاد اران وملكوها وقتلوا فيها خلقا كثيرا فانتدب لهم شاه ارمن بن ابرهيم بن سكمان صاحب خلاط وجمع العساكر واجتمع معه من المتطوعة خلق كثير وساروا اليهم فلقوه وقاتلوه فانهزم المسلمون وقتل اكثرهم وأسر كثير منهم وعاد شاه ارمن مهزوما ولم يرجع معه غير اربعمائة فارس من عسكره

(ذكر ولاية عيسى مكة حرسها الله تعالى)

كان أمير مكة هذه السنة قاسم بن فليتة بن قاسم بن ابى هاشم العلوى الحسينى فلما سمع بقرب الحجاج من مكة صادر المجاورين وأعيان اهل مكة وأخذ كثيرا من أموالهم وهرب من مكة خوفا من أمير الحاج أرغش وكان قد حج هذه السنة زين الدين على بن بكتكين صاحب جيش الموصل ومعه طائفة صالحة من العسكر فلما وصل أمير الحاج الى مكة رتب مكان قاسم بن فليتة عمه عيسى بن قاسم بن هاشم فبقى كذلك الى شهر رمضان ثم ان قاسم بن فليتة جمع جمعا كثيرا من العرب اطمعهم فى مال له بمكة فاتاه وفسار بهم اليها فلما سمع عمه عيسى فارقها ودخلها قاسم فاقام بها أميرا أياما ولم يكن له مال يوصله الى العرب ثم انه قتل قائدا كان معه حسن السيرة فتغيرت نيات أصحابه عليه وكاتبوا عمه عيسى فقدم عليهم فهرب وصعد جبل أبى قبيس فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه فعظم عليه قتله فأخذه وغسله ودفنه بالمعلى عند أبيه فليتة واستقر الامر بعده لعيسى والله أعلم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة سار عبد المؤمن بن على الى جبل طارق وهو على ساحل الخليج مما يلى الاندلس فعبر المجاز اليه وبنى عليه مدينة حصينة وأقام بها عليه عدة شهور وعاد الى مراكش وفيها فى المحرم وردنيسابور جمع كثير من تركمان بلاد فارس ومعهم اغنام كثيرة للتجارة فباعوها وأخذوا الثمن ونزلوا على مرحلتين من طابس كيلكى وباتوا هناك فنزل اليهم الاسماعيلية وكبسوهم ليلا ووضعوا السيف فيهم فقتلوا اكثروا ولم ينج منهم الا الشريد وغنم الاسماعيلية جميع مامعهم من مال وعروض وعادوا الى قلاعهم وفيها كثرت الامطار فى اكثر البلاد ولاسيما خراسان فان الامطار توالت فيها من العشرين من المحرم الى منتصف صفر لم تنقطع ولا رأى الناس فيها شمسا وفيها كان بين الكرج وبين الملك صلتق بن على صاحب ارزن الروم قتال وحرب انهزم فيه صلتق وعسكره وأسر هو وكانت اخته شاه بانو قد تزوجها شاه ارمن ابن سكمان بن ابراهيم بن سكمان صاحب خلاط فارسلت الى ملك الكرج هدية جليلة المقدار وطلبت منه ان يفاديها باخيها فاطلقه فعاد الى ملكه وفيها قصد صاحب صيدا من الفرنج نور الدين محمود صاحب الشام ملتجئا اليه فامنه وسير معه عسكرا يمنعه من الفرنج أيضا فظهر عليهم فى الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وانهزم الباقون وفيها ملك قرا ارسلان صاحب حصن كيفا قلعة شاتان وكانت لطائفة من الاكراد يقال لهم الجوبية فلما ملكها خربها وأضاف ولايتها الى حصن طالب وفيها توفى الكمال حمزة بن على بن طلحة

زجالات خراسان * من اعيان رعايا السلطان * يمين الدولة وأمين الملة * ووجوه الفضل من أوليائه * فمن منثور كلامه قوله من تصدر قبل أوانه * فقد تصدى لهوانه * يشير الى قول منصور الفقيه

الكلب أعلى همة
وهو النهاية فى الخساسه
ممن ينافس فى الريا
سة قبل أوقات الرياسة

وقوله العدل اطيب عيش * والعدل أغلب جيش * وقوله اذا كان رضا الخلق معسورا لايدرك * فان ميسوره لايترك * وقوله نعما يحتاج الى اخوان العشرة * امكان العسرة * وقوله من تغافل عنك مع علمه بحاجتك الى عونه وتوفيره * طالب عليك علة اذا عاتبته على تقصيره * كانه ألم فيه بقول القائل

توقى الناس يا ابن أبى وأمى
فهم تبع المخافة والرجاء
ألم تر مظهرين على عتبا
وكانوا أمس اخوان الصفاء
بليت بنكبة فغدوا وراحوا
على أشد أسباب البلاء
ابت اقدارهم ان ينصرونى
بمال او بجاه أو براء
وخافوا أن يقال لهم خذلتم
صديقا فادعوا قدم الجفاء

ولبعض أهل العصر فيه

كلام الامام امام الكلام
وذوه بقوة بحر النظام
مزاج معانيه فى نظمها

صاحب المخزن كان جليل القدر أيام المسترشد بالله وولي المقتفي وبنى مدرسة لاصحاب الشافعي بالقرب من داره ثم حج وعاد وقد لبس الفوط وزى الصوفية وترك الاعمال فقال بعض الشعراء فيه

يا عضد الاسلام يا من سمت * الى العلا همته الفاخره

كانت لك الدنيا فلم ترضها * ملكا فاخلدت الى الآخره

وبقى منقطعا في بيته عشرين سنة ولم يزل محترما يغشاه الناس كافة

(ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة)

(ذكر فتح المؤيد طوس وغيرها)

في هذه السنة في السابع والعشرين من صفر نازل المؤيد أي ابه ابابكر جاندار بقلعة وسكرة خوى من طوس وكان قد تحصن بها وهي حصينة منيعة لا ترام فقاتله واعانه اهل طوس على أبي بكر لسوء سيرته كانت فيهم وظلمه فلما رأى ابو بكر ملازمة المؤيد ومواصلة القتال عليه خضع وذل ونزل من القلعة بالامان في العشرين من ربيع الاول من السنة فلما نزل منها حبسه المؤيد وامر بتقييده ثم سار منها الى كرستان وصاحبها ابو بكر فاخر فنزل من قلعته وهي من أمنع الحصون على رأس جبل عال وصار في طاعة المؤيد ودان له ووافقه وسير جيشا في جمادى الآخرة منها الى اسفرايين فتحصن رئيسها عبد الرحمن بن محمد بن علي الحاج بالقلعة وكان أبوه كريم خراسان على الاطلاق ولكن كان عبد الرحمن هذا بئس الخلف فلما تحصن احاط به العسكر المؤيدي واستنزلوه من الحصن وحملوه مقيدا الى شاذياخ وحبس بها وقيل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وملك المؤيد أيضا قهندز نيسابور واستدارت مملكة المؤيد حول نيسابور وعادت الى ما كانت عليه قبل الان أهلها انتقلوا الى شاذياخ وخربت المدينة العتيقة وسير المؤيد جيشا الى خواف وبها عسكر مع بعض الامراء اسمه ارغش فكمن ارغش جمعا في تلك المضايق والجبال وتقدم الى عسكر المؤيد فقاتلهم وطلع الكمين فانهزم عسكر المؤيد وقتل منهم جمع وعاد الباقون الى المؤيد بنيسابور وسير جيشا الى بوشنج هراة وهي في طاعة الملك محمد بن الحسين الغوري فحصروها واشتد الحصار عليها وقام القتال والزحف فسير الملك محمد الغوري جيشا اليها يمنع عنها فلما قاربوا هراة فارقها العسكر الذي يحصرها وعادوا عنها وصفت تلك الولاية للغورية

(ذكر أخذ ابن مردنيش غرناطة من عبد المؤمن وعودها اليه)

في هذه السنة أرسل أهل غرناطة من بلاد الاندلس وهي لعبد المؤمن الى الامير ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش فاستدعوه اليهم ليسلموا اليه البلد وكان قد وحد وصار من أصحاب عبد المؤمن وفي طاعته وممن يحرضه على قصد ابن مردنيش فلما وصل اليه رسل أهل غرناطة سار معهم اليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أباسعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذي كان عنده وتوجه الى غرناطة لنصرة من فيها من أصحابهم فعلم بذلك ابراهيم بن همشك فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق الاندلس فارسل اليه الفي فارس من أنجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحي غرناطة فالتقوا هم ومن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن قبل وصول ابي سعيد

بمزاج المدام بماء الغمام

وله فيه

الا أيها الشيخ الامام ومن به
تبلج افق الدهر عن فائق البشر
لئن كنت في الدنيا وانت وشاحها
عيانا فان الدر في صدف البحر
ولم تحوك الدنيا لانك دونها
ولكن لب الشيء يحصن بالقشر
وقد صين نصل السيف تحت قرابه
كما صين نور العين بالجفن والشفر

ومن أعيان رعايا السلطان بنيسابور ابو نصر أحمد ابن علي بن اسمعيل الميكالي وهو صنيعة السلطان وشيخ مملكته * وجمال حاشيته * فضلا موفورا * وأدبا مشهورا * وعزائم معقودا * ومالا ممدودا * ورأيا كالارى مشارا * وحزما كالمرآة مغارا * ودهاء يسلخ الليل البهيم نهارا * وتطرا يستكشف أستار المصائر * فيستكشف اسرار الضمائر * وشعرا نقي السبك والجوهر * ذكي المسك والعنبر * رضي المورد والمصدر فمنه قوله

باني العلا والجد والاحسان
والفضل والمعروف اكرم باني
ابن البنا مشيد الك شيده
مثل البناء يشاد بالاحسان
البر أكرم ما حوته حقيبة
والشكر اكرم ما حوته يدان
واذا الكريم مضى وولى عمره
كفل الثناء له بعمر ثاني

اليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم ابو سعيد واقتتلوا أيضا فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الاعيان والفرسان المشهورين والرجالة والاجلاد حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ ابو سعيد ولحق بمالقة وسمع عبد المؤمن الخبر وكان قد سار الى مدينة سلا فسير في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين لجدوا المسير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه الى غرناطة ليعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذي أمر به ابن همشك اولاوهم الفا فارس بظاهر القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبد المؤمن الى جبل قريب من غرناطة فاقاموا في سفحه أياما ثم سيروا سرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذي بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جهاتهم فما لحقوا يركبون فقتلوهم عن آخرهم واقبل عسكر عبد المؤمن بجماعته فنزلوا ايضا على غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك انهم لا طاقة لهم بهم ففروا في الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة في باقي السنة المذكورة وعاد عبد المؤمن من مدينة سلا الى مراكش

(ذكر حصر نور الدين حارم)

في هذه السنة جمع نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الشام العساكر بحلب وسار الى قلعة حارم وهي للفرنج غربي حلب فحصرها وجد في قتالها فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا واستعدوا وساروا نحوه ليرحلوه عنها فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه اليه وراسلوه وتلطفوا الحال معه فلما رأى انه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه الى المصاف عاد الى بلاده وممن كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ الكناني وكان من الشجاعة في الغاية فلما عاد الى حلب دخل الى مسجد شيزر وكان قد دخله في العام الماضي سائرا الى الحج فلما دخله الآن كتب على حائطه

لك الحمد يا مولاي كم لك منة * علي وفضل لا يحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلا * من الغزو موفور النصيب من الاجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي * مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضي واسقطت ثقل ما * تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

(ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكي)

في هذه السنة في رجب ملك الخليفة المستنجد بالله قلعة الماهكي وسبب ذلك ان سنقر الهمذاني صاحبها اسلمها الى أحد مماليكه ومضى الى همذان فضعف هذا المملوك عن مقاومة ما حولها من التركمان والاكراد فاشير عليه ببيعها من الخليفة فراسل في ذلك فاستقرت على خمسة عشر الف دينار وسلاح وغير ذلك من الامتعة وعدة من القرى فسلمها وتسلم ما استقر له وأقام ببغداد وهذه القلعة لم تزل من أيام المقتدر بالله بأيدي التركمان والاكراد الى الآن

(ذكر الحرب بين المسلمين والكرج)

فاما كتابته فالسحر الحلال * والعذب الزلال * فهي تحكي بما تحويه من لطف العباره * وحسن الاستعاره * ومعسول الاشارة والشاره * رياض مشتاه الى قراره * ومن منثور كلامه ورسائل منها ما كتب به الى شمس المعالي قابوس بن وشمكير اقرأتيه كاتبه بسم الله الرحمن الرحيم كتب العبد وحاله فيما يدعيه مولاه * من شرف اقباله ورضاه * ويفيضه عليه من ملابس فضله ونعماه * حال من تقبل عليه دنياه * ويسعد في ظل دولته بأولاه واخراه * والحمد لله رب العالمين وصل كتاب الامير موشحا بدرر خطابه * وغرر ايجابه * وبدائع برّه وافضاله * وروائع انعامه واشباله * فيما اكرمني به من عز العياده * وألبسنيه من حلل الفوز والسعاده * وشرفني به على التهنئة على العافية المستفاده * فأوصل عزا يبقى على الايام أثره * ولا يخلق على مر الزمان ذكره ومفخره * وفهمه العبد فهم من آنس منه رشدا * واقتبس من اثنائه قوة وأيدا * وسجد لله شكرا على ما افاض عليه من سجال السلامه * ومد عليه من ظلال الفضل والكرامه * ورغب اليه في اسباغ العوارف عليه * وصرف المحاذر عنه فاما بما أهل الامير العبد له من

في هذه السنة في شعبان اجتمعت الكرج في خلق كثير يبلغون ثلاثين ألف مقاتل ودخلوا بلاد الاسلام وقصدوا مدينة دوين اذربيجان فملكوها ونهبوها وقتلوا من أهلها وسوادها نحو عشرة آلاف قتيل وأخذوا النساء سبايا وأسروا كثيرا وأعروا النساء وقادوهن حفاة عراة وأحرقوا الجامع والمساجد فلما وصلوا الى بلادهم أنكر نساء الكرج ما فعلوا بنساء المسلمين وقلن لهم قد أحوجتم المسلمين الى أن يفعلوا بنا مثل ما فعلتم بنسائهم وكسونهن ولما بلغ الخبر الى شمس الدين ايلدكز صاحب اذربيجان والجبل واصفهان جمع عساكره وحشدها وانضاف اليه شاه أرمن بن سكمان القطبي صاحب خلاط وابن آقسنقر صاحب مراغة وغيرها فاجتمعوا في عسكر كثير يزيدون على خمسين ألف مقاتل وساروا الى بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين ونهبوها وسبوا النساء والصبيان وأسروا الرجال ولقيهم الكرج واقتتلوا أشد قتال صبر فيه الفريقان ودامت الحرب بينهم أكثر من شهر وكان الظفر للمسلمين فانهزم الكرج وقتل منهم كثير وأسر كذلك وكان سبب الهزيمة ان بعض الكرج حضر عند ايلدكز فاسلم على يديه وقال له تعطيني عسكرا حتى أسير بهم في طريق أعرفها واجيء الى الكرج من ورائهم وهم لا يشعرون فاستوثق منه وسير معه عسكرا وواعده يوما يصل فيه الى الكرج فلما كان ذلك اليوم قاتل المسلمون الكرج فبينما هم في القتال وصل ذلك الكرجي الذي أسلم ومعه العسكر وكبروا وحملوا على الكرج من ورائهم فانهزموا وكثر القتل فيهم والاسر وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الاحصاء لكثرته فانهم كانوا متيقنين الظفر لكثرتهم فخيب الله ظنهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام بلياليها وعاد المسلمون منصورين قاهرين

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة وصل الحجاج الى منى ولم يتم الحج لاكثر الناس لصدهم عن دخول مكة والطواف والسعي فمن دخل يوم النحر مكة طاف وسعى وكمل ومن تأخر عن ذلك منع دخول مكة لفتنة جرت بين أمير الحاج وأمير مكة كان سببها ان جماعة من عبيد مكة أفسدوا في الحاج بمنى فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاج فقتلوا منهم جماعة ورجع من سلم الى مكة وجمعوا جمعا وأغاروا على جمال الحاج وأخذوا منها قريبا من ألف جمل فنادى أمير الحاج في جنده فركبوا بسلاحهم ووقع القتال بينهم فقتل جماعة ونهب جماعة من الحاج وأهل مكة فرجع أمير الحاج ولم يدخل مكة ولم يقم بالزاهر غير يوم واحد وعاد كثير من الناس رجالة لقلة الجمال ولاقوا شدة وممن حج هذه السنة جدتنا أم أبينا ففاتها الطواف والسعي فاستفتى لها الشيخ الامام أبو القاسم بن البرزي فقال تدوم على ما بقي عليها من احرامها وان أحبت تفدي وتحل من احرامها الى قابل وتعود الى مكة فتطوف وتسعى فتكمل الحجة الاولى ثم تحرم احراما ثانيا وتعود الى عرفات فتقف وترمي الجمار وتطوف وتسعى فتصير لها حجة ثانية فبقيت على احرامها الى قابل وحجت وفعلت كما قال فتم حجها الاول والثاني وفيها نزل بخراسان برد كثير عظيم المقدار واخر نيسان وكان أكثره بجوين ونيسابور وما والاهما فاهلك الغلات ثم جاء بعده مطر كثير دام عشرة أيام وفيها في جمادى الآخرة وقع الحريق ببغداد احترق سوق الطيوريين والدور

شريف كتابه * ولطيف خطابه * ورقاه اليه من درجة العياذة اولا * ومنزلة التهنئة ثانيا * وانفاذ القاصد به ثالثا * فان ذلك من نتائج همته العاليه * ودواعي شيمته الزاكيه * التي تحنوه على اوليائه وخدمه * وتعطفه على اغذياء نعمه * فليس له في مقابلة ما اولاه * ومعارضة ما كساه * الا الشكر يديمه والنشر يقيمه * والرغبة الى الله تعالى يخلصها في اطالة بقائه * وادامة عزه وعلائه * والنهاضه بواجب خدمته * ومعرفة قدر نعمته عنده ورحمته * هذا ولو ملك العبد في مقابلة هذه النعمة على جلالة قدرها * ونباهة خطرها وذكرها * غير بذل المهجة والقدرة في الطاعة * واستنفاد الوسع والطاقة * غاية لبلغها تقربا الى حقوقه بما يقتضيها * ويؤدي شرط العبودية فيها * وحكم على نفسه بالعجز والتقصير معها واذ قد حرم المراد فما يتمسك الا بالرغبة الى الله تعالى في أن يتولى من مكافاته بما لا يسمح به الا يده * ولا يفي به الا مجده * فهذا هو الكلام الذي ليس به عثار * ولا عليه غبار * قد ولي الفضل تحبيره * وملك الفضل رسمه وتصويره * والقليل منه على الكثير دليل * وكلام الجليل كقدره جليل * كما قيل

التى تليه مقابله الى سوق الصفرة الحديد والخان الذى فى الرحبة ودكاكين البزوريين وغيرها وفيها توفى الكيا الصباحى صاحب ألموت مقدم الاسماعيلية وقام ابنه مقامه فاظهر التوبة وأعادها ومن معه الصلوات وصيام شهر رمضان وأرسلوا الى قزوين يطلبون من يصلى بهم ويعلمهم حدود الاسلام فارسلوا اليهم وفيها فى رمضان درس شرف الدين يوسف الدمشقى فى المدرسة النظامية ببغداد وكان مدرسا بمدرسة أبى حنيفة وكان موته فى ذى القعدة وفيها توفى صدقة بن وزير الواعظ وفيها فى المحرم توفى الشيخ عدى بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الهكارية من أعمال الموصل وهو من الشام من بلد بعلبك فانتقل الى الموصل وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحى وأطاعوه وحسنوا الظن فيه وهو مشهور جدا

(ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة)

(ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة الضرغام بعده)

فى هذه السنة فى صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوى صاحب مصر وكان ابتداء أمره ووزارته انه كان يخدم الصالح بن رزيك ولزمه فاقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الاعمال بعد الوزارة فلما ولى الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما جرح الصالح كان من جملة وصيته لولده العادل انه لا يغير على شاور فانني انا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكنى عزله فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون فلما توفى الصالح من جراحته وولى ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه ان أقره على عمله فارسل اليه بالعزل فجمع جموعا كثيرة وسار الى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح بن رزيك فأخذ وقتل فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنين وشهرا وأياما وصار شاور وزيرا وتلقب بامير الجيوش وأخذ أموال بنى رزيك وودائعهم وذخائرهم وأخذ منه أيضا طى والكامل ابنا شاور شيأ كثيرا وتفرق كثير منها وجحد وظهرت عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين الى الاتراك ثم ان الضرغام جمع جموعا كثيرة ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان وظهر أمره وانهزم شاور منه الى الشام على ما نذكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وصار ضرغام وزيرا كان هذه السنة ثلاثة وزراء العادل بن رزيك وشاور وضرغام فلما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الامراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد عن أيديهم

(ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف)

فى هذه السنة فى العشرين من جمادى الآخرة توفى عبد المؤمن بن على صاحب بلاد المغرب وافريقية والاندلس وكان قد سار من مراكش الى سلا فمرض بها ومات ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحدين من أصحابه وقال لهم قد جربت ابنى محمدا فلم أره يصلح لهذا الامر وانما يصلح له ابنى يوسف وهو أولى بها فقدموه ووصاهم به وبايعوه ودعى بامير المؤمنين وكتموا موت عبد المؤمن وحمل من سلا فى محفة بصورة مريض الى ان وصل الى مراكش وكان ابنه

قليل منك يكفينى ولكن
قليلك لا يقال له قليل
وقد اكثر الشعراء فى مدحه
لكنى اثبت أبياتا لابى بكر
الخوارزمى من قصيدة فيه
اولها
زف المنام الى طيف خياله
لو أن طيفا كان من ابداله
لو أن هذا الدهر يشكر لم يدع
شكر الامير وقد غدا من آله
لا ينزف الالحاح نائله ولا
يؤل امرئ ينهاه عن اسآله
الوفر عند نواله والنيل عند
سؤاله والموت عند صياله
والخلق من سؤاله والجود من
عذاله والدهر من عماله
وفعاله كمقاله وشماله
كيمينه ويمينه كشماله
تجمع الآمال فى أمواله
فيفرق الاموال فى آماله
لا علم الاعزه فى عزه
لا حر الاساله من ساله
وله علوم لو قسمن على الورى
ما زاد عاقله على جهاله
وخلائق لو انهن كواكب
اضحى السما فى الضوء مثل هلاله
وفصول قول هن اعذب موقعا
من راحة المشغول من أشغاله
سمح البديهة ليس يمسك لفظه
فكأنما الفاظه من ماله
وكأنما عزماته وسيوفه
من حدهن خلقن من آقباله
متبسم فى الخطب تحسب انه
من حسنه متلثم بفعاله

أبو حفص فى تلك المدة حاجبا لابيه فبقى مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج فيقول للناس أمير المؤمنين أمر بكذا ويوسف يقعد مقعد أبيه الى ان كانت المبايعة له فى جميع البلاد واستقرت قواعد الامور له ثم أظهر موت أبيه عبد المؤمن فكانت ولايته ثلاثة وثلاثين سنة وشهورا وكان عاقلا حازما سديد الرأى حسن السياسة للامور كثير البذل للاموال الا انه كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس فى سائر بلاده بالصلاة ومن رآه وقت الصلاة غير مصل قتل وجمع الناس بالغرب على مذهب مالك فى الفروع وعلى مذهب أبى الحسن الاشعرى فى الاصول وكان الغالب على مجالسه أهل العلم والدين المرجع اليهم والكلام معهم ولهم

(ذكر ملك المؤيد اعمال قومس والخطبة للسلطان ارسلان بخراسان)

فى هذه السنة سار المؤيد أى ابه صاحب نيسابور الى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان واستناب بقومس مملوكه تنكز فاقام تنكز بمدينة بسطام فجرى بين تنكز وبين شاه مازندران اختلاف أدى الى الحرب فجمع كل منهما عسكره والتقوا أوائل ذى الحجة فى هذه السنة واقتتلوا فانهزم عسكر مازندران وأخذت اسلابهم وقتل منهم طائفة كبيرة ولما ملك المؤيد بلاد قومس أرسل اليه السلطان ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه خلعا نفيسة وألوية معقودة وهدية جليلة وامره ان يتم باشعاث بلاد خراسان ويتولى ذلك اجمع وان يخطب له فلبس المؤيد الخلع فخطب له فى البلاد التى هى بيده وكان السبب فى هذا اتابك شمس الدين ايلدكز فانه كان هو الذى يحكم فى مملكة ارسلان وليس لارسلان غير الاسم وكان بين ايلدكز وبين المؤيد مودة ذكرناها عند قتل المؤيد فلما اطاع المؤيد السلطان ارسلان خطب له ببلاده وهى قومس ونيسابور وطوس واعمال نيسابور جميعها ومن نسا الى طبس كنكلى وكان يخطب لنفسه بعد ارسلان وكانت الخطبة فى جرجان ودهستان لخوارزمشاه بن ارسلان بن اتسز وبعده للامير ايثاق وكانت الخطبة فى مرو وبلخ وهراة وسرخس وهذه البلاد بيد الغز الا هراة فانها بيد الامير ايتكين وهو مسالم للغز فكانوا يخطبون للسلطان سنجر فيقولون اللهم اغفر للسلطان السعيد المبارك سنجر وبعده للامير الذى هو الحاكم فى تلك البلاد

(ذكر قتل الغز ملك الغور)

فى هذه السنة فى رجب قتل سيف الدين محمد بن الحسين الغورى ملك الغور قتله الغز وسبب ذلك انه جمع عساكره وحشده فاكثر وسار من جبال الغور يريد الغز وهم ببلخ واجتمعوا وتقدموا اليه فاتفق ان ملك الغور خرج من معسكره فى جماعة من خاصته جريدة فسمع به امراء الغز فساروا يطلبونه مجدين قبل ان يعود الى معسكره فاوقعوا به فقاتلهم اشد قتال رآه الناس فقتل ومعه نفر ممن كان معه واسر طائفة وهربت طائفة فلحقوا بعسكرهم وعادوا الى بلادهم منهزمين لا يقف الاب على أبيه ولا الاخ على أخيه وتركوا كل ما معهم بحاله ونجوا بنفوسهم فكان عمر ملك الغور لما قتل نحو عشرين سنة وكان عادلا حسن السيرة فمن عدله وخوفه عاقبة الظلم انه حاصر أهل هراة فلما ملكها أراد عسكره ان ينهبوها فنزل على درب المدينة واحضر الاموال والثياب فاعطى جميع عسكره منها وقال هذا خير من ان تنهبوا

هنى وفيت بحمده عن فضله
من ذا يفى بالشكر عن افضاله
(وله أيضا من قصيدة أولها)
تلك الديار فريسة الاحقاب
صنعت بعيني صنع ساكنها بى
والى الامير ابن الامير تواهقت
وزحى الركاب برازحى الركاب
ابسوا الدجى لبس الغراب لريشه
وغدوا الحاجتهم غدو غراب
والفجر يطرف والظلام كأنه
فضلات عتب فى خلال عتاب
طلبوا امرأ أفعاله محسوبة
ونواله فوضى بغير حساب
غدت المدائح وهى أسماء له
ولغيره اضحين كالالقاب
والمكرمات كثيرة الخطاب
الا انها تأبى على الخطاب
متبسم الحجاب مكتئب العدى
مثرى النديم مجازف الحساب
شيم أرق من الهوى وألذ من
خطا العدو رددته بصواب
وعزائم لو كن يوما أسهما
لنفذن فى الايام غير نوابى
مائية الحركات الا انها
نارية الاقدام والالهاب
يخطرن بين سياسة ورياسة
ويتهن بين مثوبة وعقاب
قد اصبحت الفاظه صور النهى
وقوالب الاسماع والالباب
واذا احلت له جنابا واحدا
حل المؤمل منك الف جناب
وما آل ميكال الا كما قال
أبو الطمحان القينى
وانى من القوم الذين هم هم
اذا مات منا سيد قام صاحبه

أموال المسلمين وتسخطوا الله تعالى فان الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم ولما قتل عاد الغز الى بلخ ومرو وقد غنموا شيأ كثيرا من العسكر الغورى لان أهله تركوه ونجوا

(ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج)

فى هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زنكى من الفرنج تحت حصن الاكراد وهى الوقعة المعروفة بالبقيعة تحت حصن الاكراد محاصرا له وعازما على قصد طرابلس ومحاصرتها فبينما الناس يوما فى خيامهم وسط النهار لم يرعهم الا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذى عليه حصن الاكراد وذلك ان الفرنج اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا فانهم يكونون آمنين فركبوا من وقتهم ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم وساروا مجدين فلم يشعر بذلك المسلمون الا وقد قربوا منهم فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك فارسلوا الى نور الدين يعرفونه الحال فرهقهم الفرنج بالحملة فلم يثبت المسلمون وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والفرنج فى ظهورهم فوصلوا معا الى العسكر النورى فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح الا وقد خالطوهم فاكثروا القتل والاسر وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومى فانه كان قد خرج من بلاده الى الساحل فى جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين فى زعمهم فلم يبقوا على أحد وقصدوا خيمة نور الدين وقد ركب فيها فرسه ونجا بنفسه ولسرعته ركب الفرس والشبحة فى رجله فنزل انسان كردى قطعها فنجا نور الدين وقتل الكردى فاحسن نور الدين الى مخلفيه ووقف عليهم الوقوف ونزل نور الدين على بحيرة قدس بالقرب من حمص وبينه وبين المعركة أربع فراسخ وتلاحق به من سلم من العسكر وقال له بعضهم ليس من الرأى ان تقيم ههنا فان الفرنج ربما حملهم الطمع على المجىء الينا فنؤخذ ونحن على هذا الحال فوبخه وأسكته وقال اذا كان معى ألف فارس لقيتهم ولا ابالى بهم ووالله لا استظل بسقف حتى آخذ بثارى وثار الاسلام ثم أرسل الى حلب ودمشق واحضر الاموال والثياب والخيام والسلاح والخيل فاعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه بقولهم فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة وكل من قتل أعطى اقطاعه لاولاده واما الفرنج فانهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لانها أقرب البلاد اليهم فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم قالوا لم يفعل هذا الا وعنده قوة يمنعنا بها ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه قال له بعضهم ان لك فى بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت فى هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك وقال والله انى لا ارجو النصر الا بأولئك فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشى بسهام لا تخطى واصرفها الى من لا يقاتل عنى الا اذا رآنى بسهام قد تصيب وقد تخطى وهؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال كيف يحل لى ان أعطيه غيرهم ثم ان الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الاكراد من يحميه وعادوا الى بلادهم

(ذكر اجلاء بنى أسد من العراق)

فى هذه السنة أمر الخليفة المستنجد بالله باهلاك بنى أسد أهل الحلة المزيدية لما ظهر من فسادهم ولما كان فى نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمدا لما حصر بغداد فامر

نجوم سماء كلما غاب كوكب
بدا كوكب تأوى اليه كواكبه
اضاءت لهم احسابهم ووجوههم
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
وما زال منا حيث كان مسود
تسير المنايا حيث سارت كتائبه

(ومما يعد من مفاخره نجيبان له) ابو الفضل وابو ابراهيم عبيد الله واسمعيل ابنا احمد كل منهما بدر فى ضيائه وعلائه * وبحر فى تياره وغمائه * غير ان أبا الفضل ابرع فى لطائف الادب * وأنظم لقلائد شعر العرب * وقد سار له من النظم والنثر ما يزرى حبره بوشى صنعاء * وزهره بروض ميثاء * (فمن فصول كلامه قوله) وصل كتاب الشيخ فأذعنت القلوب لفضله بالاعتراف * واختلفت الالسن فى وصفه ببدائع الاوصاف * فمن مدع انه رقية الوصل * وريقة النحل * ومتمحل انه عقد النحر * وعقد الدهر وسمط الدر * وقائل هو سلاف العنقود * ونظم العقود * فأما انا فتركت التمثيل * وسلكت التحصيل * وقلت هو سماء فضل جاد بصوب الحكم * ووشى طبع حاكه من القلم * ونسيم خلق تنفس عنه روض الكرم * (وأيضا له) وصل كتابك فكان احسن من روض

يزدن بن قماج بقتالهم واجلائهم من البلاد وكانوا منبسطين في البطائح والاهوار فلا يقدر
عليهم فتوجه يزدن اليهم وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل وأرسل الى ابن معروف مقدم
المنتفق وهو بأرض البصرة فجاء في خلق كثير وحصرهم وسكر عنهم الماء وصابرهم مدة فأرسل
الخليفة يعتب على يزدن ويعجزه وينسبه الى موافقتهم في التشيع وكان يزدن يتشيع فجد
هو وابن معروف في قتالهم والتضييق عليهم وسد مسالكهم في الماء فاستسلموا حينئذ فقتل
منهم أربعة آلاف قتيل ونودي فيمن بقي من وجد بعد هذا في الحلة المزيدية فقد حل دمه
فتفرقوا في البلاد ولم يبق منهم بالعراق من يعرف وسلمت بطائحهم الى ابن معروف وبلادهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة وقع في بغداد حريق في باب درب فراشا الى مشرعة الصباغين من الجانبين وفيها
في رجب توفي سديد الدولة أبو عبد الله بن عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم المعروف بابن
الانباري كاتب الانشاء بديوان الخلافة وكان فاضلا أديبا ذا تقدم كثير عند الخلفاء
والسلاطين وخدم من سنة ثلاثين وخمسمائة الى الآن في ديوان الخلافة وعاش حتى قارب
تسعين سنة وتوفي في رمضان هبة الله بن الفضل بن عبد العزيز بن محمد المتوثي وسمع الحديث
وهو من الشعراء المشهورين الا انه كثير الهجو ومن شعره

يا من هجرت ولا تبالي * هل ترجع دولة الوصال
هل اطمع يا عذاب قلبي * ان ينعم في هواك بالي
الطرف كما عهدت باك * والجسم كما ترين بال
ما ضرك ان تعلليني * في الوصل بموعد المحال
اهواك وأنت حظ غيري * يا قاتلتي فما احتيالي

وهي اكثر من هذا

(ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة)

(ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين الى ديار مصر وعودهم عنها)

في هذه السنة في جمادى الاولى سير نور الدين محمود بن زنكي عسكرا كثيرا الى مصر وجعل
عليهم الامير أسد الدين شيركوه بن شاذي وهو مقدم عسكره وأكبر امراء دولته واشجعهم
وسنذكر سنة أربع وستين سبب اتصاله بنور الدين وعلو شأنه عنده ان شاء الله تعالى وكان
سبب ارسال هذا الجيش ان شاور وزير العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر نازعه في الوزارة
ضرغام وغلب عليها فهرب شاور منه الى الشام ملتجئا الى نور الدين ومستجيرا به فاكرم مثواه
واحسن اليه وانعم عليه وكان وصوله في ربيع الاول من السنة وطلب منه ارسال العساكر
معه الى مصر ليعود الى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر
ويكون شيركوه مقيما بعساكره في مصر ويتصرف هو بأمر نور الدين واختياره فبقي نور الدين
يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة يحمله رعاية قصد شاور بابه وطلب الزيادة في
الملك والتقوي على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وان الفرنج فيه ويتخوف أن شاور
ان استقرت قاعدته ربما لا يفي ثم قوي عزمه على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وازاحة

الربيع * وزيط الوشي الصنيع *
فلقيته بحلية الاحسان
والابداع * وحلية النواظر
والاسماع * ومسن الخواطر
والطباع * وصيقل الافكار
والالباب * وعيار المعارف
والآداب * واجتليت منه
تميمة فضل ويتيمة مجد * وغنيمة
عقد * ولطيمة خلق وعنبه بر
يجلو صفحة العهد * ويجيل
قدح الانس ويجل عن قدر
الشكر * كلام أعذب من
فرات المطر * وأعبق من فتات
المسك والعنبر * يزري بنور
الخمائل * وقد عطرتها انفاس
الشمائل (ومن منثور ألفاظه)
اخلاقك قد أخذت من
الورد عرفه * ومن الند عبقه *
اخلاق هي المسك لولا فارته *
والورد لولا مرارته * والماء
لولا اسراعه الى الكدر *
والروض لولا حاجته الى
المطر * ووجه البدر لولا
محاقه * والمشتري لولا احتراقه
هو عار من العوراء * كاس
من العلاء * وله الشرف
اليفاع * والامر المطاع *
والعرض المصون والمال
المضاع * والنوال السكب *
والرأي العضب * وفيه
الاباء المر * والكرم العذب
وهو واحد البشر * وثاني
المطر * وثالث الشمس والقمر
* لهفي على دهر الحداثة اذ
غصن شبابي غض وريق *
وثغر شرابي عض وريق *

علاها وكان هوى أسد الدين فى ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى بمخافة فتجهز وسار واجتمعا وشاور فى صحبتهم فى جمادى الاولى من سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين الى شيركوه أن يعيد شاور الى منصبه و ينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين الى طرف بلاد الفرنج مما يلى دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرض لاسد الدين ومن معه فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ووصل أسد الدين والعساكر معه الى مدينة بلبيس فخرج اليهم ناصر الدين اخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم وعاد الى القاهرة ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر فقتل عند مشهد السيدة نفيسة و بقى يومين ثم حمل ودفن فى القرافة وقتل أخوه فارس المسلمين وخلع على شاور مستهل رجب وأعيد الى الوزارة وتمكن منها وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا وأرسل اليه يأمره بالعود الى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه فلما رأى ذلك أرسل الى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فارسل شاور الى الفرنج يستمدهم و يخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكان الفرنج قد ايقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها فلما ارسل شاور يطلب منهم ان يساعدوه على اخراج اسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى تلك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه وتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره الى اطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم ان الخطر فى مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر أشد فتركوا فى بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس فى الباقين الى مصر وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم الفرنج الساحلية فاعانوهم فسار بعضهم معهم واقام بعضهم فى البلاد لحفظها فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فاقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها مع ان سورها قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيأ فبينما هم كذلك اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس على ما نذكره ان شاء الله تعالى فحينئذ سقط فى أيديهم وأرادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولان الاقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس فى ذى الحجة فحدثنى من رأى اسد الدين حين خرج من بلبيس قال اخرج اصحابه بين يديه وبقى فى آخرهم وبيده لت من حديد يحمى ساقتهم والمسلمون والفرنج ينظرون اليه قال فاتاه فرنجى من الغرباء الذين خرجوا من البحر فقال له أما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك و باصحابك ولا يبقى لكم بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما افعله كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى شجعانهم

النعمة عروس مهرها الشكر * ونور صوانه النشر * النعمة عنده من لؤمه تكتسى أطمارا * وتشتكى غربة واسارا * ولى المغرور يرسف من الرعب فى حلق * ويجرى مع الريح فى طلق * دارت رحا الحرب بين أعمار تباح * ودماء تستباح * وأجسام نطاح * وأرواح تسفى بها الرياح * فالسيوف للهامات دامغه * والرماح فى الاكباد والغه * ومن نظمه قوله

لقد راعنى بدر الدجى بصدوده
ووكل أجفانى برعى كواكبه
فيا جزعى مهلا عساه يعود لى
ويا كبدى صبرا على ما كوالك به

وقوله أيضا

ضاق صدرى فى هوى قمر
قمر القلب وما شعرا
ليت أجفانى به سعدت
فترى الجفن الذى فترا

وقوله أيضا

تفرق قلبى فى هواه فعنده
فريق وعندى شعبة وفريق
اذا ظمئت نفسى أقول له اسقنى
فان لم يكن راح لديك فريق

وقوله

أنكرت من أدمعى تسترى سواكبها
سلى جفونى هل أبكى سوالك بها

فملك بلادهم ونهلك من بقي والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت اليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا فصلب على وجهه وقال كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم ثم رجع عنه وسار شيركوه الى الشام فوصل سالما وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رصدا ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق ففيه يقول عمارة

أخذتم على الافرنج كل ثنية * وقلتم لأيدي الخيل مري على مري
لئن نصبوا في البر جسرا فانكم * عبرتم ببحر من حديد على الجسر

والفظة مري في آخر البيت الاول اسم ملك الفرنج

(ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم)

في هذه السنة في شهر رمضان فتح نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارم من الفرنج وسبب ذلك ان نور الدين لما عاد منهزما من البقيعة تحت حصن الاكراد كما ذكرناه قبل فرق الاموال والسلاح وغير ذلك من الآلات على ما تقدم فعاد العسكر كأنهم لم يصابوا واخذ في الاستعداد للجهاد والاخذ بثاره واتفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم الى مصر كما ذكرناه فأراد ان يقصد بلادهم ليعودوا عن مصر فارسل الى اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وديار الجزيرة والى فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا والى نجم الدين ألبي صاحب ماردين وغيرهم من اصحاب الاطراف يستنجدهم فاما قطب الدين فانه جمع عسكره وسار مجدا وفي مقدمته زين الدين علي أمير جيشه وأما فخر الدين صاحب الحصن فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه على أي شئ عزمت فقال على القعود فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة وهو يلقي نفسه في المهالك فكلهم وافقه على هذا الرأي فلما كان الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك ما عدا مما بدا فارقناك امس على حالة فنراك اليوم على ضدها فقال ان نور الدين قد سلك معي طريقا ان لم انجده خرج أهل بلادي عن طاعتي واخرجوا البلاد عن يدي فانه قد كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم مالقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والاسر ويستمدمنهم الدعاء ويطلب ان يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من اولئك ومعه اصحابه واتباعه وهم يقرؤن كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون علي فلا بد من المسير اليه ثم تجهز وسار بنفسه واما نجم الدين فانه سير عسكرا فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف اليها فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج فجاؤا في حدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم واقبلوا اليه من كل حدب ينسلون وكان المقدم عليهم البرنس بيمند صاحب انطاكية وقمص صاحب طرابلس واعمالها وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج والدوك وهو مقدم كبير من الروم وجمعوا الفارس والراجل فلما قاربوه رحل عن حارم الى ارتاح طمعا ان يتبعوه فيتمكن منهم لبعدهم عن بلادهم اذا لقوه فساروا فنزلوا على غمر ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا الى حارم فلما عادوا تبعهم نور الدين في ابطال المسلمين على تعبية الحرب فلما تقاربوا اصطفوا للقتال فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج فقيل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي

وقوله

ان لي في الهوى لسانا كتوما
وفؤادا يخفي حريق جواه
غير اني أخاف دمعي عليه
ستراه يفشي الذي ستراه

وقوله

لنا صديق ان رأى
مهفهفا الاطه
فان يكن في دهرنا
ذو أبنة لاط فهو

وقوله

لا تعجبن بالحياة ذائقه
فكل نفس للمنون ذائقه

وقوله

وكل غنى يتيه به غني
فمرتجع لموت أو زوال
فهب جدي زوى لي الارض طرًّا
أليس الموت يزوي مازوى لي

ومن أفاضل العلوية ابو البركات علي بن الحسين بن علي بن جعفر بن محمد وهو الملقب بجور بن الحسين ابن علي وهو الملقب بالديباج المدفون بجرجان ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين

نسب توارث كابرا عن كابر
كالرمح أنبوبا على أنبوب

قد جمع الله له بين ديباجتي النظم والنثر فنثره منثور الرياض جادتها السحائب * ونظمه منظوم العقود

دبروه وهو ان يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف فاذا عاد فرسانهم لم يلقوا راجلا يلجؤن اليه ولا وزرا يعتمدون عليه ويعود المنهزمون في آثارهم فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فكان الامر على مادبروه فان الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف عليهم زين الدين علي في عسكر الموصل على راجل الفرنج فافناهم قتلا واسرا وعاد خيالتهم ولم يمعنوا في الطلب خوفا على راجلهم فعاد المنهزمون في آثارهم فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى واسرى فسقط في ايديهم ورأوا أنهم قد هلكوا وبقوا في الوسط قد احدق بهم المسلمون من كل جانب فاشتدت الحرب وقامت على ساق وكثر القتل في الفرنج وتمت عليهم الهزيمة فعدل حينئذ المسلمون عن القتل الى الاسر فاسروا مالا يحد وفي جملة الاسرى صاحب انطاكية والقمص صاحب طرابلس وكان شيطان الفرنج واشدهم شكيمة على المسلمين والدوك مقدم الروم وابن جوسلين وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل واشار المسلمون على نور الدين بالمسير الى انطاكية وتملكها لخلوها من حام يحميها ومقاتل يذب عنها فلم يفعل وقال أما المدينة فامرها سهل واما القلعة فمنيعة وربما سلموها الى ملك الروم لان صاحبها ابن أخيه ومجاورة بيمند احب الي من مجاورة صاحب قسطنطينية وبث السرايا في تلك الاعمال فنهبوها واسروا أهلها وقتلوهم ثم انه فادى برنس بيمند صاحب انطاكية واشترى من المسلمين خلقا كثيرا فاطلقهم

(ذكر ملك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج أيضا)

في ذي الحجة من هذه السنة فتح نور الدين محمود قلعة بانياس وهي بالقرب من دمشق وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ولما فتح حارم أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود الى بلادهم واظهر انه يريد طبرية فجعل من بقي من الفرنج همتهم حفظها وتقويتها فسار محمود الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ونازلها وضيق عليها وقاتلها وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين اميران فاصابه سهم فاذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف لك عن الاجر الذي اعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى وجد في حصارها فسمع الفرنج فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الفرنج في أعمال طبرية وقرر واله على الاعمال التي لم يشاطرهم عليها مالا في كل سنة ووصل خبر ملك حارم وحصر بانياس الى الفرنج بمصر فصالحوا شيركوه وعادوا ليدركوا بانياس فلم يصلوا الا وقد ملكها ولما عاد منها الى دمشق كان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر وكان يسمى الجبل لكبره وحسنه فسقط من يده في شعراء بانياس وهي كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان فلما أبعد عن المكان الذي ضاع فيه علم به فأعاد اصحابه في طلبه ودلهم على المكان الذي كان آخر عهده به فيه وقال أظنه هناك سقط فعادوا اليه فوجدوه فقال بعض الشعراء الشاميين أظنه ابن منير يمدحه ويهنئه بهذه الغزاة ويذكر الجبل الياقوت

ان يمتر الشكاك فيك بأنك الـ ... مهدي مطفي جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذي اضللته * بالامس بين غياطل وجبال

زانتها الصور والترائب * فمن ثمره فصل له أحب أن تكون مكانتي للامير أنها لم ترتع * وبكرا لم تفترع وسائبة لاتركب ولاتحلب فلا أشوبها بأرب * ولا أتسبب اليها بسبب * فعل من لايشين ولا مطمع * ولا يشوب دعواه عنت ولا طمع * على أن الاضطرار * يغير في وجه الاختيار * والعذر فيه مقبول عند ذوي الاخطار والاحرار * وفلان يسعى بحق الجوار * ولقد نشر جرائد شكره * وأظهر بحسن النشر خبايا بره * فلا الارض ثناء * والسماء دعاء * وعادة الامير أن يحيي الآمال * ويسترق الاحرار بالاموال * فليجعل منه كرما هذا الامل محظوظا ولا يجعله محطوطا ان شاء الله تعالى (وله أيضا) رقعتي هذه وأنا عائد معود * وقاصد بالزيارة مقصود * اخاطب أصدقائي بما اخاطب * واكاتب اخواني بما أكاتب * سماني وقده * وأرضى رعده * تنتابني الحمى * ولا تفارقني الشكوى * نفسي نفسان ونفسي نفسان * كأن المحول شاطرني فصوله * فقلت غرته وحجوله * فالربيع بين عيني وخيشومي * والصيف كان في صدري وحلقومي *

لم يعطها الاسلمان وقد * نبت الربا بعوشك الاعجال
وحرجرلسرير ملكانه * كسريوه عن كل حد عالى
فلو اجارا السبعة استهوينه * وأمرتهن قذفنه فى الحال

ولما فتح الحصن كان معه ولد معين الدين أنر الذى سلم بانياس الى الفرنج فقال له للمسلمين بعد الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال كيف ذاك قال لان اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم

(ذكر اخذ الاتراك غزنة من ملكشاه وعوده اليها)

فى هذه السنة قصد بلاد غزنة الاتراك المعروفون بغز ونهبوها وخربوها وقصدوا غزنة وبها صاحبها ملكشاه بن خسروشاه المحمودى فعلم انه لا طاقة له بهم ففارقها وسار الى مدينة لهاوور وملك الغز مدينة غزنة وكان المقيم بامرهم أميرا اسمه زنكى بن على بن خليفة الشيبانى ثم ان صاحبها ملكشاه جمع وعاد الى غزنة ففارقها زنكى وعاد ملكها ملكشاه ودخلها فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة وتمكن فى دار ملكه

(ذكر وفاة جمال الدين الوزير وشئ من سيرته)

فى هذه السنة توفى جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن ابى منصور الاصفهانى وزير قطب الدين صاحب الموصل فى شعبان مقبوضا وكان قد قبض عليه سنة ثمان وخمسين فبقى فى الحبس نحو سنة حكى لى انسان صوفى يقال له ابو القاسم كان مختصا بخدمته فى الحبس قال لم يزل مشغولا فى محبسه بأمر آخرته وكان يقول كنت أخشى أن أنقل من الدست الى القبر فلما اتفق أن مرض قال لى فى بعض الايام يا أبا القاسم اذا جاء طائر أبيض الى الدار فعرفنى قال فقلت فى نفسى قد اختلط عقله فلما كان الغد أكثر السؤال عنه واذ طائر أبيض لم أر مثله قد سقط فقلت جاء الطائر فاستبشر ثم قال جاء الحق واقبل على الشهادة وذكر الله تعالى الى ان توفى فلما توفى طار ذلك الطائر فعلمت انه راى شيأ فى معناه ودفن بالموصل عند فتح الكرامى رحمة الله عليهما نحو سنة ثم نقل الى المدينة فدفن بالقرب من حرم النبى صلى الله عليه وسلم فى رباط بناه لنفسه وقال لابى القاسم بينى وبين أسد الدين شيركوه عهد من مات منا قبل صاحبه حمله الى المدينة فدفنه بها فى التربة التى عملتها فاذا انا مت فامض اليه وذكره فلما توفى سار أبو القاسم الى شيركوه فى المعنى فقال له شيركوه كم تريد فقال أريد اجرة جمل يحمله وجمل يحمانى وزادى فانتهره وقال مثل جمال الدين يحمل هكذا الى مكة واعطاه مالا صالحا يحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين وجماعة يقرؤن عليه بين يدى تابوته اذا حمل واذا نزل عن الجمل واذا وصل الى مدينة يدخل أولئك القراء ينادون للصلاة عليه فيصلى عليه فى كل بلدة يجتاز بها واعطاه أيضا مالا للصدقة عنه فصلى عليه فى تكريت وبغداد والحلة وفيد ومكة والمدينة وكان يجمع له فى كل بلد من الخلق ما لا يحصى ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وانشد باعلى صوته

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما * سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتثنى رماله * عليه وبالنادى فتثنى أراملة

وماعرفت لهذه العلة سببا الا انى رأيت نفس الحرية متشكية فشاركتها فى شكواها * ووجدت عين الكرم والكمال متأذيه فاحتملت عنها أذاها * وقلت متمثلا لا ممثلا

وعود سيدنا وسيد غيرنا ليت التشكى كان بالعواد

ثم ذكرت ما أعد الله تعالى للعباد * من ثواب العلة فى المعاد * فاستصغرت عند ذلك ما استعظمته * وسهل مسلكى وان استوعرته * وقلت متع الله تلك النعمة من العلة * وأعطى الشيخ بها امانا من القلة * وأعمى عنه ناظر الزمان * ولا طرق الى فنائه طوارق الحدثان * وتمنيت أنى واصلت غدوى برواحى فى زيارة الشيخ مشاهد الجمال * واقباله نحو البرء والابلال * ولكن حيل بين العير والنزوان وعلى حالتى هذه فانى أستريح الى خبر سلامته وأحصل لنفسى منه * وله أيده الله باهدائه الى يدومنه * ورأيه فى اتحافى به موفق ان شاء الله تعالى

ومن نظمه قوله

واغيد معسار باللحاظ عنه حكى بتثنيه من البان املودا
سلمت بذكراه عن الصبح ليلة أسامره والكاس والناى والعودا

فلم نر باكيا اكثر من ذلك اليوم فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم الشريف وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعا وأما سيرته فكان رحمه الله أسخى الناس واكثرهم بذلا للمال رحيما بالخلق متعطفا عليهم عادلا فيهم فمن أعماله الحسنة انه جدد بناء مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة جسيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة وزخرف الكعبة وذهبها وعملها بالرخام ولما اراد ذلك ارسل الى المقتفي لامر الله هدية جليلة وطلب منه ذلك وأرسل الى الامير عيسى امير مكة هدية كبيرة وخلعا سنية منها عمامة شراها بثلثمائة دينار حتى مكنه من ذلك وعمر أيضا المسجد الذى على جبل عرفات والدرج التي يصعد فيها اليه وكان الناس يلقون شدة في صعودهم وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء واجرى الماء اليها من نعمان في طرق معمولة تحت الارض فخرج عليها مال كثير وكان يجرى الماء في المصانع كل سنة أيام عرفات وبنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى فيد وبنى بها أيضا فصيلا وكان يخرج على باب داره كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار اميرى هذا سوى الادرارات والتعهدات للائمة والصالحين وارباب البيوت ومن ابنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذى بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس فقبض قبل ان يفرغ وبنى عندها أيضا جسرا كذلك على النهر المعروف بالارماد وبنى الربط وقصده الناس من اقطار الارض ويكفيه ان ابن الخجندى رئيس اصحاب الشافعي باصفهان قصده وابن الكافي قاضي همذان فاخرج عليهما مالا عظيما وكانت صدقاته وصلاته من اقاصي خراسان الى حدود اليمن وكان يشترى الاسرى كل سنة بعشرة آلاف دينار هذا من الشام حسب سوى ما يشترى من الكرج حكى لي والدى عنه قال كثيرا ما كنت أرى جمال الدين اذا قدم اليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه في خبز بين يديه فكنت انا ومن يراه نظن انه يحمله الى ام ولده علي قال فاتفق انه في بعض السنين جاء الى الجزيرة مع قطب الدين وكنت اتولى ديوانها وحمل جاريته أم ولده الى دارى لتدخل الحمام فبقيت في الدار أياما فبينما انا عنده في الخيام وقد اكل الطعام فعل كما كان يفعل ثم تفرق الناس فقمت فقال اقعد فقعدت فلما خلا المكان قال لي قد آثرتك اليوم على نفسي فاني في الخيام ما يمكنني ان افعل ما كنت أفعله خذ هذا الخبز واحمله أنت في كمك في هذا المنديل واترك الحاقة من رأسك وعد الى بيتك فاذا رأيت في طريقك فقيرا يقع في نفسك انه مستحق فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام قال ففعلت ذلك وكان معي جمع كثير ففرقتهم في الطريق لئلا يرونى أفعل ذلك وبقيت في غلماني فرأيت في موضع انسانا أعمى وعنده اولاده وزوجته وهم من الفقر في حال شديد فنزلت عن دابتي اليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم اياه وقلت للرجل تجيء غدا بكرة الى دار فلان أعني دارى ولم أعرفه نفسي فانني آخذ لك من صدقة جمال الدين شيأ ثم ركبت اليه العصر فلما رآني قال ما الذى فعلت في الذى قلت لك فأخذت أذكر له شيأ يتعلق بدواتهم فقال ايش عن هذا أسألك انما أسألك عن الطعام الذى سلمته اليك فذكرت له الحال ففرح ثم قال بقى أنك لو قلت للرجل يجيء اليك هو واهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير وتجرى لهم كل شهر دنانير قال فقلت له قد قلت للرجل حتى يجيء الي فازداد فرحا وفعلت بالرجل ما قال ولم يزل يصل اليه رسمه حتى قبض وله من هذا كثير فمن ذلك انه تصدق

ترى أنجم الجوزاء والنجم فوقها
كباسط كفيه ليقطف عنقودا

وكتب الى أبي بكر الخوارزمي

لئن كان ذنبي أني اعتللت
فذلك ذنب صغير صغير
وان كان هجرى من أجله
فذلك ظلم كبير كبير
صدودك عن صدود الحيا
وصدّ سوالك يسير يسير
فزرني قليلا تجد شاكرا
لديه القليل كثير كثير

(وله في وصف النقانق)

فان كنت تهوى اليوم اكل النقانق
فبادر الى أمثال جيد الغرانق
الى جامع اللذات طيبا وجودة
قضى حقه طاه بصنعة حاذق
تراه على السفود عند صلاته
كرنجية زينت بحلى المخانق
فبعض تدلى كالوشاح وبعضه
منوط عليه في محل المناطق
فأنجح اقيت الخير في حاجة امرئ
وفي بشرط الود غير مماذق

(ومن افاضل اضرابهم القاضي ابو القاسم على بن الحسين الداودى بهراة) وهو عندى ممن يستحق أن يقال فيه ما قاله الصاحب لبعض من كان يواليه * لولا أن قدرة الله عندى جنس واحد لقلت ليس في القدرة وجود مثله * في كماله وفضله * جاوز

فالتجأ أصحابها الامير ايناق الى المؤيد صاحب نيسابور بعد تمكن الوحشة بينهم فاقبله المؤيد أحسن قبول وسير اليه جيشا كثيفا فأقاموا عنده حتى دفع الضرر عن نفسه وبلده من جهة طبرستان وأما دهستان فان عسكر خوارزم غلبوا عليها وصار لهم فيها شحنة

(ذكر استيلاء المؤيد على هراة)

قد ذكرنا قتل صاحب هراة سنة تسع وخمسين فلما قتل تجهز الامراء الغزية وساروا الى هراة وحصروها وقد تولى أمرها انسان يلقب أثير الدين وكان له ميل الى الغز وهو يجاريهم ظاهرا ويراسلهم باطنا فهلك لهذا السبب خلق كثير من أهل هراة فاجتمع اليها أهلها فقتلوه وقام مقامه أبو الفتوح بن علي بن فضل الله الطغرائي فأرسل أهلها الى المؤيد أي أبه صاحب نيسابور بالطاعة والانقياد اليه فسير اليهم مملوكه سيف الدين تنكز في جيش وسير جيشا آخر أغاروا على سرخس ومرو فأخذوا دواب الغز وعادوا سالمين فلما سمع الغز بذلك رحلوا عن هراة الى مرو

(ذكر الحرب بين قلج ارسلان وبين ابن الدانشمند)

في هذه السنة كانت الفتنة بين الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وما يجاورها من بلد الروم وبين ياغي أرسلان بن دانشمند صاحب ملطية وما يجاورها من بلد الروم وجرى بينهما حرب شديدة وسببها ان قلج أرسلان تزوج ابنة الملك صلتق بن علي بن أبي القاسم فسيرت الزوجة الى قلج أرسلان مع جهاز كثير لا يعلم قدره وأغار ياغي صاحب ملطية عليه وأخذ العروس وما معها وأراد أن يزوجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بن دانشمند فأمرها بالردة عن الاسلام فزوجها من ابن اخيه فجمع قلج أرسلان عسكره وسار الى ابن دانشمند فالتقيا واقتتلا فانهزم قلج أرسلان والتجأ الى ملك الروم واستنصره فأرسل اليه جيشا كثيرا فمات ياغي أرسلان بن دانشمند في تلك الايام وملك قلج ارسلان بعض بلاده واصطلح هو والملك ابراهيم بن محمد بن دانشمند لانه ملك البلاد بعد عمه ياغي أرسلان واستولى ذو النون ابن محمد بن دانشمند على مدينة قيسارية وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قلج أرسلان على مدينة انكورية واستقرت القواعد بينهم واتفقوا

(ذكر الفتنة بين نور الدين وقلج أرسلان)

في هذه السنة كانت وحشة متأكدة بين نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وبين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب الروم أدت الى الحرب والتضاغن فلما بلغ خبرها الى مصر كتب الصالح بن رزيك وزير صاحب مصر الى قلج أرسلان ينهاه عن ذلك ويأمره بموافقته وكتب فيه شعرا

نقول ولكن اين من يتفهم * ويعلم وجه الرأي والرأي مبهم
وما كل من قاس الامور وساسها * يوفق للامر الذي هو أحزم
وما احد في الملك يبقى مخلدا * وما احد مما قضى الله يسلم
أمن بعد ما ذاق العدا طعم حربكم * بفيهم وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم الى حكم التنافس بينكم * وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما عندكم من يتقي الله وحده * أما في رعاياكم من الناس مسلم

أبا القاسم استعبدت وذي بنائل
تلاه بلا من لبرك طارف
وأضعفت شكري حين ضاعفت أنعما
وقد يضعف النبت الندى المتضاعف
أتاني كتاب منك فيه طرائف
تقبل من أطرافهن الطرائف
صحيفة إحسان تخر لحسنها
سجودا إذا ما لاحظتها الصحائف
فواصلني منها شباب مساعد
وطالعني منها زمان مساعف
وأصبح دهري عادلا وهو عاسف
وعادت رخاء ريحه وهو عاصف

ومن أعيان رعايا السلطان بناحية طوس وإن كانت نيسابور دار قراره * ومعتقد ضياعه وعقاره * أبو جعفر محمد بن موسى بن أحمد بن القاسم بن حمزة بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين

نسب كأن عليه من شمس الضحى
نورا ومن فلق الصباح عمودا

وقد خدم ملوك آل سامان وعاشر وزراءهم وكتابهم والتقط محاسنهم وآدابهم فألفاظه ينابيع العلوم * وأقواله مراتيع العقول * ومجالسه حدائق الجد والهزل

تعالوا

تعالوا العل الله ينصر دينه * اذا مانصرنا الدين نحن وانتم
وننهض نحو الكافرين بعزمة * بامثالها تحوى البلاد وتقسم

وهى اطول من هذا هكذا ذكر بعض العلماء هذه الحادثة وان الصالح ارسل بهذا الشعر فان كان الشعر للصالح فينبغى أن تكون الحادثة قبل هذا التاريخ ويحتمل ان يكون هذا التنافس كان ايام الصالح فكتب الابيات ثم امتد الى الآن

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى صفر وقع باصفهان فتنة عظيمة بين صدر الدين عبد اللطيف ابن الخجندى وغيره من اصحاب المذاهب بسبب التعصب للمذاهب فدام القتال بين الطائفتين ثمانية ايام متتابعة قتل فيها خلق كثير واحترق وهدم كثير من الدور والاسواق ثم افترقوا على أقبح صورة وفيها بنى الاسماعيلية قلعة بالقرب من قزوين فقيل لشمس الدين ايلدكز عنها فلم يكن له انكار لهذه الحال خوفا من شرهم وغائلتهم فتقدموا بعد ذلك الى قزوين فحصروها وقاتلهم أهلها أشد قتال رآه الناس وحكى لى بعض اصدقائنا بل مشايخنا من الائمة الفضلاء قال كنت بقزوين اشتغل بالعلم وكان بها انسان يقود جمعا كبيرا وكان موصوفا بالشجاعة وله عصابة حمراء اذا قاتل عصب بها رأسه قال فكنت احبه واشتهى الجلوس معه قال فبينما انا عنده يوما وهو يقول كانى بالملاحدة وقد قصدوا البلد غدا فخرجنا اليهم وقاتلناهم فكنت اول الناس وانا متعصب بهذه العصابة فقاتلناهم فلم يقتل غيرى ثم ترجع الملاحدة ويرجع اهل البلد قال فوالله لما كان الغد اذ قد وقع الصوت بوصول الملاحدة فخرج الناس قال فذكرت قول الرجل فخرجت والله وليس لى همة الا انى انظر هل يصح ما قال ام لا قال فلم يكن الا قليل حتى عاد الناس وهو محمول على ايديهم قتيلا بعصابته الحمراء وذكروا انه لم يقتل منهم غيره فبقيت متعجبا من قوله كيف صح ولم يتغير منه شئ ومن اين له هذا اليقين ولما حكى لى هذه الحكاية لم اسأله عن تاريخها وانما كان فى هذه المدة فى تلك البلاد فلهذا اثبتها هذه السنة على الظن والتخمين وفيها قبض المؤيد اى ابه صاحب نيسابور على وزيره ضياء الملك محمد بن أبى طالب سعد بن أبى القاسم محمود الرازى وحبسه واستوزر بعده نصير الدين ابا بكر محمد بن ابى نصر محمد المستوفى وهو من اعيان الدولة السنجرية وفى هذه السنة وردت الاخبار ان الناس حجوا سنة تسع وخمسين واقوا شدة وانقطع منهم خلق كثير فى فيد والثعلبية وواقصة وغيرها وهلك كثير ولم يمض الحجاج الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الاسباب واشتد الغلاء فيها وعدم ما يقتات ووقع الوباء فى البادية وهلك منهم عالم لا يحصون وهلكت مواشيهم وكانت الاسعار بمكة غالية وفيها فى صفر قبض المستنجد بالله على الامير توبة بن العقيلى وكان قد قرب منه قربا عظيما بحيث يخلو معه واحبه المستنجد محبة كثيرة فحسده الوزير ابن هبيرة فوضع كتبا من العجم مع قوم وامرهم ان يتعرضوا ليؤخذوا ففعلوا ذلك واخذوا واحضروا عند الخليفة فاظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج الى نهر الملك يتصيد وكانت حلل توبة على الفرات فحضر عنده فامر بالقبض عليه فقبض وادخل بغداد ليلا وحبس فكان آخر العهد به فلم يمتع الوزير بعده بالحياة بل مات بعد ثلاثة اشهر وكان توبة من اكمل العرب مروأة وعقلا وسخاء واجازة واجتمع فيه

وجوامع الكلام الفصل فلم تبق يتيمة خطاب * ولا كريمة صواب * ولا غرة حكمة * ولا درة نكتة * ولا طرفة حكاية * ولا نقرة رواية * الا وهى عرضة خاطره ونهزة هاجسه * ونصب تذكره * ومثال تصوره * ولا تصدأ صفيحة حفظه * ولا تدرس صحيفة ذكره * ولا يكسف بدر معارفه * ولا ينزف بحر لطائفه * ثم هو واحد خراسان من بين الاشراف العلوية فى قوة الحال * وسعة المجال * واتساع رقعة الضياع * وارتفاع قدر الارتفاع * واشتداد باع العز وامتداد شعاع الجاه والقدر وقد كتبت عنه من نوادر الاخبار والاشعار ما حكيت بعضه فى كتابى الموسوم بلطائف الكتاب وسأورد الآن نكتا مما قاله وقيل فيه * ابانة عن غرر معاليه * فمن شعره قوله

وشادن وجهه بالحسن مخطوط
وخده بمداد الخال منقوط
تراه قد جمع الضدين فى قرن
فالخصر مختصر والردف مبسوط
لو كان أدركه لوط النبى لما
نهى الورى أبدا عن مثله لوط

من خلال الكمال ما تفرق فى الناس وفيها فى ربيع الاول توفى الشهاب محمود بن عبد العزيز الحامدى الهروى وزير السلطان ارسلان ووزير اتابك شمس الدين ايلدكز وفيها توفى عون الدين الوزير ابن هبيرة واسمه يحيى بن محمد بن المظفر وزير الخليفة وكان موته فى جمادى الاولى ومولده سنة تسعين واربعمائة ودفن بالمدرسة التى بناها للحنابلة بباب البصرة وكان حنبلى المذهب دينا خيرا عالما يسمع حديث النبى صلى الله عليه وسلم وله فيه التصانيف الحسنة وكان ذا رأى سديد ونافق على المقتفى نفاقا عظيما حتى ان المقتفى كان يقول لم يوزر لبنى العباس مثله ولما مات قبض على اولاده واهله وتوفى بهذه السنة محمد بن سعيد البغدادى بالموصل وله شعر حسن فمن قوله

افدى الذى وكلنى حبه * بطول اعلالى وامراضى
ولست ادرى بعد ذا كله * اساخط مولاى ام راضى

وفيها توفى الشيخ الامام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزى الشافعى تفقه على الفقيه الكيا الهراسى وكان واحد عصره فى الفقه تاتيه الفتاوى من العراق وخراسان وسائر البلاد وهو من جزيرة ابن عمر

(ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة)

(ذكر فتح المنيطرة من الفرنج)

فى هذه السنة فتح نور الدين محمود بن زنكى حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكره وانما سار اليه جريدة على غرة منهم وعلم انه ان جمع العساكر حذروا فسار اليه جريدة وانتهز الفرصة وحصره وجد فى قتاله فاخذه عنوة وقهرا وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة فان الذين به كانوا آمنين فاخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون ولم يجتمع الفرنج لدفعه الا وقد ملكه ولو علموا انه جريدة فى قلة من العساكر لاسرعوا اليه وانما ظنوه انه فى جمع كثير فلما ملكه تفرقوا وايسوا من رده

(ذكر قتل خطلوبرس مقطع واسط)

فى هذه السنة قتل خطلوبرس مقطع واسط قتله ابن اخى شملة صاحب خوزستان وسبب ذلك ان ابن شنكا وهو ابن أخى شملة كان قد صاهر منكبرس مقطع البصرة فاتفق ان المستنجد بالله قتل منكبرس سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما قتل قصد ابن شنكا البصرة ونهب قراها فارسل من بغداد الى كشتكين صاحب البصرة بمحاربة ابن شنكا فقال انا عامل لست بصاحب جيش يعنى انه ضامن لا يقدر على اقامة عسكر فطمع ابن شنكا واصعد الى واسط ونهب سوادها فجمع خطلوبرس مقطعها جمعا وخرج الى قتاله وكاتب ابن شنكا الامراء الذين مع خطلوبرس فاستمالهم ثم قاتلهم فانهزم عسكره فقتلوا واخذ ابن شنكا علم خطلوبرس فنصبه فلما رآه اصحابه ظنوه باقيا فجعلوا يعودون اليه وكل من رجع اخذه ابن شنكا فقتله او اسره

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة خرج الكرج فى جمع كثير واغاروا على بلدان حتى بلغوا كنجة فقتلوا واسروا وسبوا كثيرا ونهبوا مالا يحصى وفيها توفى الحسن بن العباس بن رستم أبو عبد الله الاصفهانى

وقوله

فديت غزالى فهو ملكى حقيقة
يلذ به عيشى اذا نابنى هم
جميل محياه وكالدعص ردفه
لطيف سجاياه وليس له خصم

(وسمعته) يقول حال الجاهل فى التدبير * كحال الحمير * ما لها همة غير اعتلاف التبن * واتيان الاتن * (وجرى) حديث الوقود والشمس فى الشتاء فقال مرعى ولا كالسعدان هيهات ان تقع الام الرابة من الام البارة * يعنى ان الوقود يلفح ما يقابل البدن بشرره * ويدع سائره على خصره * فأما الشمس فانها تقسم الدفء على البدن بالسواء * لا يشترك فيه ظاهر الاعضاء * وباطن الاحشاء * وقد أكثر الشعراء والادباء * فيه فمن ذلك قول ابى الفتح البستى

أنا السيد الشريف غلام
حيثما كان فليبلغ سلامى
واذا كنت للشريف غلاما
فأنا الحر والزمان غلامى

(ولابى الفضل) أحمد بن الحسين الهمذانى المعروف ببديع الزمان

أنا فى اعتقادى للتسنن
رافضى فى ولائك
وان اشتغلت بهم فلا
* فلست أغفل عن اولئك

الرسقى الشيخ الصالح وهو مشهور يروى عن أحمد بن خلف وغيره وفيها فى ربيع الآخر توفى الشيخ عبد القادر بن ابى صالح أبو محمد الجيلى المقيم ببغداد ومولده سنة سبعين واربعمائة وكان من الصلاح على حال وهو حنبلى المذهب ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد

(ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة)

(ذكر عود اسد الدين شيركوه الى مصر)

قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة مسير اسد الدين شيركوه الى مصر وما كان منه وقفوله الى الشام فلما وصل الى الشام أقام على حاله فى خدمة نور الدين الى الآن وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها وبقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير فلما كان هذه السنة تجهز وسار فى ربيع الآخر فى جيش قوى وسير معه نور الدين جماعة من الامراء فبلغت عدتهم الفى فارس وكان كارها لذلك ولكن لما رأى جد أسد الدين فى المسير لم يمكنه الا ان يسير معه جمعا خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام فلما اجتمع معه عسكره سار الى مصر على البر وترك بلاد الفرنج على يمينه فوصل الديار المصرية فقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف فى البلاد الغربية وحكم عليها واقام نيفا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجىء اسد الدين اليهم قد ارسل الى الفرنج يستنجدهم فاتوه على الصعب والذلول طمعا فى ملكها وخوفا ان يملكها اسد الدين فلا يبقى لهم فى بلادهم مقام معه ومع نور الدين فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربى وكان اسد الدين وعساكره قد ساروا الى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فادركوه بها فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان ارسل الى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا اليه واخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم فى طلبه فعزم على قتالهم الا انه خاف من اصحابه ان تضعف نفوسهم عن القتال فى هذا المقام الخطر الذى عطبهم فيه اقرب من سلامتهم لقلة عددهم وبعدهم عن اوطانهم وبلادهم وخطر الطريق فاستشارهم فكلهم اشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعود الى الشام وقالوا ان نحن انهزمنا وهو الذى يغلب على الظن فالى اين نلتجئ وبمن نحتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا فقام امير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا وقال من يخاف القتل والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون فى بيته مع امرأته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن ما لنا من اقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا ويقول تاخذون اموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار والحق بيده فقال اسد الدين هذا الرأى وبه اعمل وقال ابن اخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فاقام بمكانه حتى ادركه المصريون والفرنج وهو على تعبية وجعل الاثقال فى القلب يتكثر بها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينهبها اهل البلاد وجعل صلاح الدين فى القلب وقال لمن معه ان المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم انى فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين ايديهم فاذا عادوا عنكم

يا عقد منتظم النبوة
بيت مختلف الملائك
يا ابن الفواطم والعواتك
والترائك والارائك
أنا حائك ان لم أكن
عبد العبيد وابن حائك
(ولبعض أهل العصر فيه)
عيد البرية عيد المهرجان أتى
أهلا بعيد أتى عيد ايهنيه
العيد لا لا زال يبقى الى امد
وعيدنا دائم اللآلاء باقيه
لا زال سيدنا فى ظل دولته
وظله دانيا تمسى بواليه
محكما فى رقاب الارض قدرته
يجنى له ثمر الاقبال جانيه
أعشاره المجد والبشرى جلاببه
خراجه الدهر والدنيا جواليه
وبنى بنيسابور دارا فتنافس
أهل العصر فى ذكرناها *
ووصف شرفها وسناها *
فمن ذلك قول البديع الهمذانى
دار قسمت عراصها
تحكى الاباطح والرصافه
بين المروأة والنبوة
والخلافة والضيافه
فيها المصاحف والمعا زف
والسوالف والسلافه
لازلت يا دار الكرام
مصونة عن كل آفه
(وفيها لابى عبد الله الغواص)
يا دار سعد قد علت شرفاتها
بنيت شبيهة قبلة الناس

فارجعوا فى أعقابهم واختاروهو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم و يعرف صبرهم فى الحرب
ووقف بهم فى الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ماذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به
قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ومعهم الفرنج فحمل حينئذ اسد الدين فيمن معه
على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف
فيهم فاثخن واكثر القتل والاسر فلما عاد الفرنج من اثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والارض
منهم قفرا فانهزموا ايضا وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ان الفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج
الساحل

(ذكر ملك اسد الدين الاسكندرية وعوده الى الشام)

لما انهزم المصريون والفرنج من اسد الدين بالبابين سار الى ثغر الاسكندرية وجبى ما فى القرى
على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من اهلها سلموها اليه
فاستناب بها صلاح الدين ابن اخيه وعاد الى الصعيد فملكه وجبى امواله واقام به حتى صام
رمضان واما المصريون والفرنج فانهم عادوا واجتمعوا على القاهرة واصلحوا حال عساكرهم
وجمعوا وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على
من بها فصبر أهلها على ذلك وسار أسد الدين من الصعيد اليهم وكان شاور قد افسد بعض من
معه من التركمان فوصل رسل الفرنج والمصريين يطلبون الصلح و بذلوا له خمسين ألف دينار
سوى ما اخذه من البلاد فاجاب الى ذلك وشرط على الفرنج ان لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها
قرية واحدة فاجابوا الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية فى
نصف شوال ووصل شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذى القعدة واما الفرنج فانهم استقر بينهم
وبين المصريين ان يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من
انفاذ عسكر اليهم و يكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار هذا كله استقر مع شاور
فان العاضد لم يكن له معه حكم لانه قد حجر عليه وحجبه عن الامور كلها وعاد الفرنج الى بلادهم
بالساحل الشامى وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور قد
ارسل الى نور الدين مع بعض الامراء ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته وضمن على
نفسه انه يفعل هذا وبذل مالا يحمله كل سنة فاجابه الى ذلك وحمل اليه مالا جزيلا فبقى الامر
على ذلك الى ان قصد الفرنج مصر سنة اربع وستين وخمسمائة فكان ما نذكره هنالك ان شاء
الله تعالى

(ذكر ملك نور الدين صافيثا وعريمة)

فى هذه السنة جمع نور الدين العساكر فسار اليه اخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا
على حمص فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فاغاروا ونهبوا
وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها وحصروا حلبة واخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين
فى بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب البلاد وفتحوا العريمة وصافيثا وعادوا الى حمص فصاموا
بها رمضان ثم ساروا الى بانياس وقصدوا حصن هونين وهو للفرنج ايضا من امنع حصونهم
ومعاقلهم فانهزم الفرنج عنه واحرقوه فوصل نور الدين من الغد فهدم سوره جميعه واراد

لورود وفد أو لكشف ملمة
او بذل مال او ادارة كاس
(ومن أعيان نجوم الدولة
أبو نصر) أحمد بن محمد بن
عبد الصمد الشيرازى
الكاتب ابن الكاتب
والنقاب ابن المناقب *
والبحر ابن السحاب * والبدر
ابن الشهاب * والنار التى
لا يخمدها الماء ذكاء *
والسيف الذى لا يألف
القراب مضاء * والسعد
الذى يلى وتد السماء زكاء *
فعطارد تلميذ افادته *
والمشترى مشترى سعادته *
وثاقب النجم عبد دهائه *
وشارق الشمس خادم سنائه
ورواثه * خدم أبوه أبو
طاهر حسام الدولة أبا
العباس ناشئا لى ديوان
أسراره بارعا فى الصناعه *
صنعا فى البراعه * مخلوقا
لفصل القول * مرزوقا
بعين الطول * يناضل
الصاحب اسمعيل بن عباد
فيخرق عليه قرطاس الادب
ويساجله فيملأ الدلو الى
عقد الكرب * مصعب
لا المصعبى يضاهيه * ولا
الموصلى يباهيه * ولا
الفارسى يدانيه * ولا البيعى
يسعى بعض مساعيه *
يجانس أنجم النثرة نثره *
ويناسب شعرى المجرة شعره

الدخول الى بيروت فتجدد فى العسكر خلف اوجب التفرق فعاد قطب الدين الى الموصل واعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات وكانت له فاخذها فى طريقه وعاد الى الموصل

(ذكر قصد ابن شنكا البصرة)

فى هذه السنة عاود ابن شنكا فقصد البصرة ونهب بلدها وخربه من الجهة الشرقية وسار الى مطارا فخرج اليه كمشتكين صاحب البصرة وواقعه فاجتمع بشرف الدين ابى جعفر بن البلدى الناظر فيها ومعهما مقطعهما ارغش واتصلت الاخبار بان ابن شنكا واصل الى واسط فخاف الناس منه خوفا شديدا فلم يصل اليها

(ذكر قصد شملة العراق)

فى هذه السنة وصل شملة صاحب خوزستان الى قلعة الماهكى من اعمال بغداد وارسل الى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيأ من البلاد ويشتط فى الطلب فسير الخليفة اليه كثيرا عساكره ليمنعوه وارسل اليه يوسف الدمشقى يلومه ويحذره عاقبة فعله فاعتذر بان ايلدكز والسلطان ارسلان شاه اقطعا الملك الذى عنده وهو ولد ملكشاه البصرة وواسط وعرض التوقيع بذلك وقال انا اقنع بثلث ذلك فعاد الدمشقى بذلك فامر الخليفة بلعنه وانه من الخوارج وجمعت العساكر وسيرت الى ارغش المسترشدى وكان بالنعمانية هو وشرف الدين ابو جعفر ابن البلدى ناظر واسط مقابل شملة ثم ان شملة ارسل قلج ابن اخيه فى طائفة من العسكر لقتال طائفة من الاكراد فركب ارغش فى بعض العسكر الذى عنده وسار الى قلج فحاربه فاسر قلج وبعض اصحابه وسيرهم الى بغداد وبلغ شملة وطلب الصلح فلم تقع الاجابة اليه ثم ان ارغش سقط عن فرسه بعد الوقعة فمات وبقى شملة مقيما مقابل عسكر الخليفة فلما علم انه لا قدرة له عليهم رحل وعاد الى بلاده وكانت مدة سفره اربعة اشهر

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة عصى غازى ابن حسان المنبجى على نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام وكان نور الدين قد اقطعه مدينة منبج فامتنع عليه فيها فسير اليه عسكرا فحصروه واخذوها منه وأقطعها نور الدين اخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عادلا خيرا محسنا الى الرعية جميل السيرة فبقى فيها الى ان اخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وفيها توفى فخر الدين ارسلان بن داود بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا وكرديار بكر ولما اشتد مرضه ارسل الى نور الدين محمود صاحب الشام يقول له بيننا صحبة فى جهاد الكفار اريد ان ترعى بها ولدى ثم توفى وملك بعده ولده محمد فقام نور الدين الشامى بنصرته والذب عنه بحيث ان اخاه قطب الدين مودودا صاحب الموصل اراد قصد بلاده فارسل اليه اخوه نور الدين يمنعه ويقول له ان قصدته اوتعرضت الى بلاده منعتك قهرا فامتنع من قصده وفيها توفى أبو المعالى محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد وكان على ديوان الزمام فقبض عليه فمات محبوسا وفيها توفى قايماز المسترشدى ولد الاميريزدن وهو من اكابر الامراء ببغداد

(ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة)

(ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين فى البلاد)

(فمما بلغنى عنه قوله)

بحسام دولته وصاحب جيشه وحجاب سدته أبى العباس واراد الله سعادة هذا الفاضل فهداه نهج أبيه وعداه موقف التشبيه فنماه الاشباه * على طيب التربة والماء * ليس نمو القامة والضخامة لكن نمو هلال الظلم * وشبوب النار فوق العلم * وصفاء الخمر شوما على الندم * واختص بخدمة الامير الجليل أبى سعيد التونتاش خوارزمشاه اذهو تاج الحجاب * وناظر عين الباب * فأعداه يمنه حتى لبس الملك فضفاضا وغنى عن السواد وان كان عليه بياضا * وانتقل بانتقاله عن سمت الكتابه * الى رتبة الوزارة * وعن حضيض الخدمه الى يفاع الشركه فى الاماره فلم يشركه من أبناء جنسه فى البلاغة اثنان * وساد حتى أعيا من عبد المدان مدان فما وقع الى من سحر قلمه وحر كلمه * من كتاب خاطب به بعض اخوانه اهل الدهقان * يظننى أو زمع مساعدة الزمان * مباعدة الاخوان * وارضى من صدر الوزاره * بقلب كالحجاره * فلم يزل يلي المراتب

في هذه السنة فارق زين الدين علي بن بكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي
صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل وسار الى اربل وكان هو الحاكم في الدولة وأكثر البلاد
بيده منها اربل وفيها بيته وأولاده وخزائنه ومنها شهرزور وجميع القلاع التي معها وجميع بلد
الهكارية وقلاعه منها العمادية وغيرها وبلد الحميدية وتكريت وسنجار وحران وقلعة
الموصل هو بها وكان قد اصابه طرش وعمى أيضا فلما عزم على مفارقة الموصل الى بيته باربل
سلم جميع ما كان بيده من البلاد الى قطب الدين مودود وبقي معه اربل حسب وكان شجاعا
عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة لم ينهزم من حرب قط وكان كريما كثير العطاء للجند
وغيرهم مدحه الحيص بيص بقصيدة فلما أراد ان ينشد قال أنا لا أعرف ما يقول ولكني اعلم انه
يريد شيأ فأمر له بخمسمائة دينار وفرس وخلعة مجموع ذلك ألف دينار ولم يزل باربل الى ان
مات بها في هذه السنة ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلمها قطب الدين الى فخر الدين عبد
المسيح وحكمه في البلاد فعمر القلعة وكانت خرابا لان زين الدين كان قليل الالتفات الى
العمارة وسار عبد المسيح سيرة سديدة وسياسة عظيمة وهو خصي أبيض من مماليك زنكي اتابك
عماد الدين

(ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة)

في هذه السنة ارسل آقسنقر الاحمديلي صاحب مراغة الى بغداد يسأل ان يخطب للملك الذي
هو عنده وهو ولد السلطان محمد شاه و يبذل انه لا يطأ أرض العراق ولا يطلب شيأ غير ذلك وبذل
مالا يحمله اذا اجيب الى ما التمسه فاجيب بتطييب قلبه وبلغ الخبر ايلدكز صاحب البلاد فساءه
ذلك وجهز عسكرا كثيفا وجعل المقدم عليهم ابنه البهلوان وسيرهم الى آقسنقر فوقعت بينهم
حرب اجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصنه بمراغة ونازله البهلوان وحصره وضيق عليه ثم ترددت
الرسل بينهم فاصطلحوا وعاد البهلوان الى ابيه بهمذان

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرف الدين ابا جعفر احمد بن محمد بن سعيد المعروف
بابن البلدي وكان ناظرا بواسط ابان في ولايتها عن كفاية عظيمة فاحضره الخليفة واستوزره
وكان عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء قد تحكم تحكما عظيما فتقدم الخليفة الى ابن
البلدي بكف يده وايدي أهله واصحابه ففعل ذلك ووكل بتاج الدين أخي استاذ الدار وطالبه
بحساب نهر الملك لانه كان يتولاه من ايام المقتفي وكذلك فعل بغيره فحصل بذلك اموالا جمة
وخافه استاذ الدار على نفسه فحمل مالا كثيرا وفي هذه السنة توفي عبد الكريم بن محمد بن
منصور ابو سعيد بن ابي المظفر السمعاني المروزي الفقيه الشافعي وكان مكثرا من سماع
الحديث سافر في طلبه وسمع منه ما لم يسمعه غيره ورحل الى ما وراء النهر وخراسان دفعات ودخل
الى بلد الجبل واصفهان والعراق والموصل والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد وله التصانيف
المشهورة منها ذيل تاريخ بغداد وتاريخ مدينة مرو وكتاب النسب وغير ذلك احسن فيها ما شاء
وقد جمع مشيخته فزادت عدتهم على اربعة آلاف شيخ وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي
فقطعه فمن جملة قوله فيه انه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به الى فوق نهر عيسى فيقول حدثني

حلالا للعقود * قطاعا
للاواصر والعهود * كلا اني
ما أزداد ارتفاعا * الا ازددت
للصديق اتضاعا * ولا أنال
على الايام رتبه * الا ازددت
الى الاخوان قربه * غيري
من يصلفه الزمان * ويبدله
السلطان * ويذم عهده
الاخوان * على أني ما
نسيت عهدا او تناسيت *
وقابلت اخية الوفاء دون
من آخيت * فلست أنسى
عهده * ولا ارضى قطيعته
وهجره * أني وقد قيدني
بأياديه الزهر * واسترقني
بمعاليه الغر * فما ارى له
بديلا * ولا املك عنه
تحويلا * اعاذني الله
ما بقيت من صدوده * ولا
سلبني طيب الانس بعينه
وجوده * وهذا القدر على
مبلغ القدرة دال * وللمميز
البارع متى قصد الانصاف
في المدح والتقريظ مجال *
فهؤلاء اعيان رعايا السلطان
في الفضل الواسع * والادب
الجامع * ووراءهم من
اعلام البراعه * واحداث
الصناعه * من يزحف
ذكرهم عن الغرض
المقصود بهذا الكتاب ولم
استقر اسامي المذكورين
الأنهم بالاضافة الى سائر
اعيان البلاد * افراد

فلان بما وراء النهر وهذا بارد جدا فان الرجل سافر الى ماوراء النهر حقا وسمع في عامة بلاده من
عامة شيوخه فاي حاجة به الى هذا التدليس البارد وانما ذنبه عند ابن الجوزي انه شافعي
وله اسوة بغيره فان ابن الجوزي لم يبق على احد الا مكسري الحنابلة وفيها توفي قاضي القضاة
أبو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفي في جمادى الآخرة وفيها توفي يوسف الدمشقي مدرس
النظامية بخوزستان وكان قد سار رسولا الى شملة وفيها توفي الشيخ أبو النجيب السهرزوري
الصوفي الفقيه وكان من الصالحين المشهورين ودفن ببغداد

(ثم دخلت سنة اربع وستين وخمسمائة)

(ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر)

في هذه السنة ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة جعبر اخذها من صاحبها شهاب الدين مالك
بن علي بن مالك العقيلي وكانت بيده وبيد آبائه من قبله من ايام السلطان ملكشاه وقد تقدم
ذكر ذلك وهي من أمنع القلاع واحصنها مطلة على الفرات من الجانب الشرقي واما سبب ملكها
فان صاحبها نزل منها يتصيد فاخذه بنو كلاب وحملوه الى نور الدين في رجب سنة ثلاث وستين
فاعتقله واحسن اليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل فعدل الى الشدة
والعنف وتهدده فلم يفعل فسير اليها نور الدين عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن علي
الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفر منها بشئ فامدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الامير مجد
الدين أبا بكر المعروف بابن الداية وهو رضيع نور الدين واكبر امرائه فحصرها ايضا فلم يره فيها
مطمعا فسلك مع صاحبها طريق اللين واشار عليه ان يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر
في حفظها بنفسه فقبل قوله وسلمها فاخذ عوضا عنها سروج واعمالها والملاحة التي بين بلد حلب
وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة وهذا اقطاع عظيم جدا الا انه لا حصن فيه وهذا آخر
امر بني مالك بالقلعة ولكل امر امد ولكل ولاية نهاية بلغني انه قيل لصاحبها ايما أحب اليك
واحسن مقاما سروج والشام أم القلعة فقال هذه اكثر مالا واما العز ففارقناه بالقلعة

(ذكر ملك اسد الدين مصر وقتل شاور)

في هذه السنة في ربيع الاول سار أسد الدين شيركوه بن شاذي الى ديار مصر فملكها ومعه
العساكر النورية وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية وانهم جعلوا لهم
في القاهرة شحنة وتسلموا ابوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم واعيان فرسانهم وحكموا
على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالاذى العظيم فلما رأوا ذلك وان البلاد ليس فيها من يردهم
ارسلوا الى ملك الفرنج بالشام وهو مرى ولم يكن للفرنج مذ ظهروا بالشام مثله شجاعة ومكرا
ودهاء يستدعونه ليملكها واعلموه خلوها من موانع وهونوا امرها عليه فلم يجبهم فاجتمع اليه
فرسان الفرنج وذوو الرأي منهم واشاروا عليه بقصدها وتملكها فقال لهم الرأي عندي اننا
لا نقصدها ولا طمعة لنا فيها واموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها
لنملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلون دونها ويحملهم
الخوف منا على تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل اسد الدين فهو هلاك الفرنج
واجلاؤهم من أرض الشام فلم يقبلوا قوله وقالوا انها لا مانع فيها ولا حامي والى ان يتجهز

في ارتفاع المراتب * واتساع الحظوظ والرغائب * واضطراب الصيت في الآفاق وصوغ الايادي قلائد الاعناق * (وسنعود) الى ذكر السلطان يمين الدولة وأمين الملة ووقائعه التي رضيتها حدود الظبات * وان سخطتها نفوس العداة * فننمي كل وقعة الى وقعتها ويومها * ونلحق شرح حالها بقومها * الى ان نوفي الكلام حقه من الاشباع في ذكر الحروب التي جرت بين السلطان يمين الدولة وامين الملة وبين ايلك الخان والله المستعان *

(ذكر غزوة بهاطية)

لما فرغ السلطان يمين الدولة وامين الملة من أمر سجستان وسكن له نابضها * وانجاب عنه عارضها * ارتاح لغزوة بهاطية فجر الجحافل مسومين بشعار الهداة الثقاة * ورايات الحماة الكماة * حتى عبر سيحون من وراء الملتان الى مدينة بهاطية فالفاها ذات سور * تزل عن موازاتها اجنحة النسور * قد احاط بها خندق كالبحر المحيط في الغور البعيد والعرض البسيط وهي مشحونة بملء الوهم من عدة وعديد * ومعمول من

عسكر نور الدين ويسير اليها فنكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فسار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون انهم يريدون قصد مدينة حمص فلما سمع نور الدين شرع ايضا يجمع عساكره وامرهم بالقدوم عليه وجد الفرنج فى السير الى مصر فقدموها ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهرا مستهل صفر ونهبوها وقتلوا فيها واسروا وكان جماعة من اعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج ووعدوهم النصرة عداوة منهم لشاور ومنهم ابن الخياط وابن فرجلة فقوى جنان الفرنج وساروا من بلبيس الى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها فخاف الناس منهم ان يفعلوا بهم كما فعلوا باهل بلبيس فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه فلو ان الفرنج احسنوا السيرة فى بلبيس ملكوا مصر والقاهرة ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك اى ما فعلوا ليقضى الله امرا كان مفعولا وامر شاور باحراق مدينة مصر تاسع صفر وامر اهلها بالانتقال منها الى القاهرة وان ينهب البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر اهلها وذهبت اموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم خوفا ان يملكها الفرنج فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوما وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج وارسل فى الكتب شعور النساء وقال هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج فشرع فى تسيير الجيوش واما الفرنج فانهم اشتدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو المتولى للامر والعساكر والقتال فضاق به الامر وضعف عن ردهم فاخلد الى اعمال الحيلة فارسل الى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته له قديما وان هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين فاجابه الى ذلك على ان يعطوه ألف الف دينار مصرية يعجل البعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك ورأى الفرنج ان البلاد قد امتنعت عليه وربما سلمت الى نور الدين فاجابوا كارهين وقالوا نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالى معها بنور الدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين فعجل لهم شاور مائة الف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وجعل شاور يجمع لهم المال من اهل القاهرة ومصر فلم يتحصل له الا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار وسببه ان أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرون على الاقوات فضلا عن الاقساط واما اهل القاهرة فالاغلب على أهلها الجند وغلمانهم فلهذا تعذرت عليهم الاموال وهم فى خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وان يكون اسد الدين مقيما عندهم فى عسكر واقطاعهم من البلاد المصرية ايضا خارجا عن الثلث الذى له وكان نور الدين لما وصله كتب العاضد بحلب ارسل الى اسد الدين يستدعيه اليه فخرج القاصد فى طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعه وكان سبب وصوله ان كتب المصريين وصلته أيضا فى المعنى فسار ايضا الى نور الدين واجتمع به وعجب نور الدين من حضوره فى الحال وسره ذلك وتفاءل به وامر بالتجهيز الى مصر واعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك وحكمه فى العسكر والخزائن واختار من العسكر الفى فارس واخذ المال وجمع ستة آلاف

حديد * وكل فيل كشيطان مريد * وعظيم يومئذ المعروف بجهرا فاستخفته العزة والغرور * يماحونه يده للبروز من وراء السور مهولا باعداد رجاله * واستفاض افعاله * ومتطاولا بباع الاقتدار فى قتاله * وحضأ السلطان عليه نار الحرب ثلاثة أيام بلياليها يرميه بالصواعق * من ظبا السيوف البوارق * ويقذفه بالشهب اللوامع * من شبا الرماح الشوارع * وواصلها عليهم صبيحة الرابع * بضرب يطير الحواجب عن العيون * ويزيل القبائل عن الشؤن ورشق يدع الاجساد مناخل بل مناخر * قد انفجرت عروقها * وأعيت على السكر بثوقها * حتى اذا توجت الشمس هام النهار * أهاب بالشد على الكفار الفجار * فتجاوبت نغم التكبير استنزالا لنصر الله * وتنجزا لصادق وعد الله * وحمل أولياء الله * على ذوى الافك والشرك حملة كشفت صفوفهم * وارغمت بالذل أنوفهم * واقبل السلطان كالفحل العتيق يضرب باليدين * ويقد الدراع بنصفين * ويسقى

فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس ممن مع اسد الدين عشرين دينارا معونة غير محسوبة من جامكيته واضاف الى اسد الدين جماعة اخرى من الامراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وصلاح الدين يوسف ابن ايوب اخي شيركوه على كره منه وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيأ وهو شر لكم احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وسيرد ذلك عند موت شيركوه ان شاء الله تعالى وسار اسد الدين شيركوه من رأس الماء مجدا منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الفرنج الى بلادهم بخفي حنين خائبين مما املوا وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك وامر بضرب البشائر في البلاد وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك فانه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لبلاد الشام وغيرها فاما اسد الدين فانه وصل الى القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل اليها واجتمع بالعاضد لدين الله وخلع عليه وعاد الى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح به اهل مصر واجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه وشرع يماطل اسد الدين في تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال واقطاع الجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى اسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه وما يعدهم الشيطان الا غرورا ثم انه عزم على ان يعمل دعوة يدعو اليها اسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج فنهاه ابنه الكامل وقال له والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه فقال له ابوه والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن جميعا فقال صدقت ولان نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فانه ليس بينك وبين عود الفرنج الا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه ولما رأى العسكر النوري مطل شاور خافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف بن ايوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور ونهاهم اسد الدين فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله فاتفق ان شاور قصد عسكر اسد الدين على عادته فلم يجده في الخيام كان قد مضى يزور قبر الشافعي رضي الله تعالى عنه فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك في جمع من العسكر وخدموه واعلموه بان شيركوه في زيارة قبر الامام الشافعي فقال نمضي اليه فساروا جميعا فسايره صلاح الدين وجرديك وألقوه الى الارض عن فرسه فهرب اصحابه عنه فاخذ اسيرا فلم يمكنهم قتله بغير امر اسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا وأعلموا اسد الدين فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فارسل الى اسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وارسل رأسه الى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر ودخل اسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم امير المؤمنين يعني العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس عنه اليها فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور امير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان

ظماء الكفر من كؤس الحين • وملك عليهم في تلك الشدة الواحدة عدة من القلة التي كان يعتدها الكافر حصونا لقلبه • ويعدها سكونا لقلبه • وتماوج الفريقان في غمار تلك الحملة بين نقف ينثر أدمغة الهام • وطعن ينزف حشاشة الاجسام • وأعلى الله راية السلطان • بل راية الدين والايمان • وأهب ريح النصر رخاه • وأعاد شدة العيش رخاه • فولى المشركون نحو المدينة اعتصاما بسورها • وانحصارا في دورها • فأعجلهم الطلب عن الاحتياط وملك عليهم مداخل الحصار وتعاون افناء العسكر على سدم خنادقه • وهدم وثائقه تضافروا على تفسيح مضائقه وتشنيع مغالقه • وقد كان بجهراحين غلت مراجل الحرب • واختلت مناجل الطعن والضرب • احس بالهون والعطب • وشام برق الويل والحرب • فاندس في عصابة من رجالة رجاله للاحتماز ببعض الغياض والاستناد الى شعف بعض تلك الجبال فسرب السلطان كوكبة من خواصه في

فيها شاور فلم يرهما بعد عليه واستقر في الامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق اليه من اصحابه واقطع البلاد لعساكره واما الكامل بن شاور فانه لما قتل ابوه دخل القصر هو واخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لانه بلغه ما كان منه مع ابيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول وددت انه بقي لاحسن اليه جزاء لصنيعه

(ذكر وفاة اسد الدين شيركوه)

لما ثبت قدم اسد الدين وظن انه لم يبق له منازع اتاه اجله حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة اربع وستين وخمسمائة وكانت ولايته شهرين وخمسة ايام واما ابتداء امره وسبب اتصاله بنور الدين فانه كان هو واخوه نجم الدين ايوب ابنا شاذي من بلد دوين من اذربيجان واصلهما من الاكراد الروادية وهذا القبيل هم اشرف الاكراد فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فرأى من نجم الدين عقلا وافرا وحسن سيرة وكان اكبر من شيركوه فجعله مستحفظا القلعة تكريت وهي له فسار اليها ومعه اخوه شيركوه فلما انهزم أتابك الشهيد زنكي بن آقسنقر بالعراق من قراجا الساقي على ما ذكرناه سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل منهزما الى تكريت فخدمه نجم الدين واقام له السفن فعبر دجلة هناك وتبعه اصحابه فاحسن ايوب صحبتهم وسيرهم ثم ان شيركوه قتل انسانا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فاخرجهما بهروز من القلعة فسارا الى الشهيد زنكي فاحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما واقطعهما اقطاعا حسنا فلما ملك قلعة بعلبك جعل ايوب مستحفظا بها فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها فضاق عليه الامر وكان سيف الدين غازي بن زنكي مشغولا عنه باصلاح البلاد فاضطر الى تسليمها اليهم فسلمها على اقطاع ذكره فاجيب الى ذلك وصار من اكبر الامراء بدمشق واتصل اخوه اسد الدين شيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكي وكان يخدمه في ايام والده فقربه وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره فلما اراد نور الدين ملك دمشق امره فراسل اخاه ايوب وهو بها وطلب منه المساعدة على فتحها فاجاب الى ذلك على ما يراد منه على اقطاع ذكره وله ولاخيه وقرى يتملكانها فاعطاهما ما طلبا وفتح دمشق على ما ذكرناه ووفى لهما وصارا اعظم امراء دولته فلما اراد ان يرسل العساكر الى مصر لم ير لهذا الامر العظيم والمقام الخطر غيره فارسله ففعل ما ذكرناه اولا وآخرا والله اعلم

(ذكر ملك صلاح الدين مصر)

لما توفي اسد الدين شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن اخيه ايوب بن شاذي قد سار معه على كره منه للمسير حكى لي عنه بعض اصدقائنا ممن كان قريبا اليه خصيصا به قال لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج ويطلب ارسال العساكر أحضرني واعلمني الحال وقال تمضي الى عمك اسد الدين بحمص مع رسولي اليه ليحضر وتحثه انت على الاسراع فما يحتمل الامر التأخير ففعلت وخرجنا من حلب فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادما في هذا المعنى فامره نور الدين بالمسير فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي الي فقال لي تجهز يا يوسف

فقلت

طلبهم * فاحاطوا بهم * احاطة الازرار بالاعناق * وحكموا فيهم حدود البواتر الرقاق * فلما رأى بجهرا ما دهاه عمد الى خنجر في خصره * فهتك به حجاب صدره * وانتقل الى نار الله الموقده * التي تطلع على الافئده * جزاء لمن كان كفر وتولى * وجحد الاولى ولا صام ولا صلى * ولا سبح ربه الاعلى * ثم واقبل عسكر السلطان فقتلوا الجماعة المقاتله * وغنموا الاموال الحاصله * وخص السلطان مائة وعشرون رأسا من الفيل * عاينا هيها من ذخائر الاموال والاسلحة ملكا عز على غيره مناله * وما تكاثر على حالته حلاله * وقام بهما طبية الى ان ظهرها من انجاس اولئك الارجاس * وادناس اولئك الانكاس * ونصب بها من يعلم هداة الدين سنن الاسلام ثم كر الى غزنة موفور العلاء * منصور اللواء * عالي الرأي سائر الجد على خط الاستواء * الا انه وافق منصرفه هوامي امطار * وطوامي انهار * وفوارع جبال * وقوارع اضداد واقتال * فاستغرق الغرق جل اثقاله * وشمل

فقالت والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا انساه ابدا
فقال لنور الدين لابد من مسيره معي فتأمر به فامرني نور الدين وانا استقبل وانقضى المجلس
وتجهز اسد الدين ولم يبق غير المسير قال لي نور الدين لابد من مسيرك مع عمك فشكوت اليه
الضائقة وعدم البرك فاعطاني ما تجهزت به فكانما اساق الى الموت فسرت معه وملكها ثم
توفي فملكني الله تعالى ما لا كنت اطمع في بعضه واما كيفية ولايته فان جماعة من الامراء
النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم
عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود
الحارمي وهو خال صلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع اصحابه ليغالب عليها
فارسل العاضد الى صلاح الدين احضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذي حمله
على ذلك ان اصحابه قالوا له ليس في الجماعة اضعف ولا اصغر سنا من يوسف والرأي أن يولى فانه
لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم الينا فيصير عندنا من الجنود من
نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه احد من
اولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان الفقيه عيسى الهكاري معه
فسعى مع المشطوب حتى اماله اليه وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي
وغيرهما ثم قصد الحارمي وقال هذا صلاح الدين هو ابن اختك وعزه وملكه لك وقد استقام له
الامر فلا تكن اول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك فمال اليه ايضا ثم فعل مثل هذا
بالباقين وكلهم اطاع غير عين الدولة الياروقي فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين
بالشام ومعه غيره من الامراء وثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان
نور الدين يكاتبه بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن ان يكتب
اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الامير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار
المصرية يفعلون كذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه واحبوه
وضعف امر العاضد ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله
فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته وكلهم فعل ذلك واخذ اقطاعات
الامراء المصريين فاعطاها اهله والامراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطاعة قد
اعتبرت التواريخ فرأيت كثيرا من التواريخ الاسلامية التي يمكن ضبطها ورأيت كثيرا ممن
يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه الى بعض اهله واقاربه منهم اول الاسلام معاوية بن ابي
سفيان اول من ملك من اهل بيته فتنتقل الملك من اعقابه الى بني مروان من بني عمه ثم من بعده
السفاح اول من ملك من بني العباس انتقل الملك من اعقابه الى اخيه المنصور ثم السامانية
اول من استبد منهم نصر بن احمد فانتقل الملك عنه الى اخيه اسمعيل بن احمد واعقابه ثم يعقوب
الصفار وهو اول من ملك من اهل بيته فانتقل الملك الى اخيه عمرو واعقابه ثم عماد الدولة
ابن بويه اول من ملك من اهله انتقل الملك عنه الى اخويه ركن الدولة وعز الدولة ثم خلص في
عقاب ركن الدولة ومعز الدولة ثم خلص في اعقاب ركن الدولة ثم الدولة السلجوقية اول من ملك
منهم طغرلبك انتقل الملك الى اولاد اخيه داود ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك الى اعقاب

التغرق جملة من رجاله *
ووقاه الله تعالى آفه * تلك
المسافه * ومهالك * تلك
المسالك * وهو يتولى
الصالحين وقد كان ابو الفتح
علي بن محمد البستي يشكر
حركات السلطان في نفسه
في تلك المقاصد * برأى
يستمليه من عطارد * وحقا
لقد كان يقول * ما تشهد
به العقول * ولكن اذا
جاء بهرام * والسيف
الحسام * والبطش والاقدام
فقد سقط الكلام *
وبطلت الصحائف والاقلام
وانشد ابو الفتح البستي
في هذا الباب لنفسه قوله
الا ابلغ السلطان عني
نصيحة
يشيبها ودور أي محنك
تجاوزت اوج الشمس
عزا ورفعة
وذللت قسرا كل من قد
تملكوا
فا حركات متعبات تديمها
تأنق فأوج الشمس لا يتحرك
وهذه مسئلة تتنازعها
الاوائل فنهم من يجعل
لاوج الشمس حركة
كسائر حركات الاوجات
فاما المحققون فقد انكروه
ببراهين هندسية واشكال
برهانية

اخيه ايوب ثم ان صلاح الدين لما انشأ الدولة وعظمها وصار كانه اول لها نقل الملك الى اعقاب
اخيه العادل ولم يبق بيد اعقابه غير حلب وهذه اعظم الدول الاسلامية ولولا خوف التطويل
لذكرنا اكثر من هذا والذى اظنه السبب فى ذلك ان الذى يكون اول دولة يكثر ويأخذ الملك
وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرمه الله اعقابه ومن يفعل ذلك من اجلهم عقوبة له

(ذكر وقعة السودان بمصر)

فى هذه السنة فى اوائل ذى القعدة قتل مؤتمن الخلافة وهو خصى كان بقصر العاضد اليه
الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج
واستدعائهم الى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع انسان
يثقون اليه واقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فلقيه انسان تركمانى
فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال فى نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا
خلقين فانه رث الهيئة وارتاب به وبهما فاتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما
فقرأه وسكت عليه وكان مقصود مؤتمن الخلافة ان يتحرك الفرنج الى الديار المصرية فاذا
وصلوا اليها خرج صلاح الدين فى العساكر الى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من
المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون باجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء
ظهره والفرنج من بين يديه فلا يبقى لهم باقية فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل
يهودى فأحضر فامر بضربه وتقريره فابتدأ وأسلم واخبره الخبر واخفى صلاح الدين الحال وان
مؤتمن الخلافة استشعر فلازم القصر ولم يخرج منه خوفا واذا خرج لم يبعد من صلاح الدين
وصلاح الدين لا يظهر له شيأ من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له
تعرف بالخرقانية للتنزه فلما علم به صلاح الدين ارسل اليه جماعة فاخذوه وقتلوه واتوا برأسه
وعزل جميع الخدم الذين يتولون امر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش
وهو خصى ابيض وكان لا يجرى فى القصر صغير ولا كبير الا بامره فغضب السودان لقتل
مؤتمن الخلافة للجنسية ولانه كان يتعصب لهم فحشدوا وجمعوا فازدادت عدتهم على خمسين الفا
وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر ايضا وقاتلوهم بين القصرين وكثر القتل فى
الفريقين فارسل صلاح الدين الى محلتهم المعروفة بالمنصورة فاحرقها على اموالهم واولادهم
فلما اتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف واخذت عليهم أفواه السكك فطلبوا الامان
بعد أن كثر فيهم القتل فاجيبوا الى ذلك فاخرجوا من مصر الى الجيزة فعبر اليهم شمس الدولة
اخو صلاح الدين الاكبر فى طائفة من العسكر فابادهم بالسيف ولم يبق منهم الا القليل
الشريد وكفى الله تعالى شرهم والله اعلم

(ذكر ملك شملة فارس واخراجه عنها)

فى هذه السنة ملك شملة صاحب خوزستان بلاد فارس واخرج عنها وسبب ذلك ان زنكى بن
دكلا صاحبها اساء السيرة مع عسكره فارسلوا الى شملة بخوزستان وحسنوا له قصد فارس فجمع
عساكره وتجهز وسار اليها فخرج اليه زنكى بن دكلا ووقعت بينهم حرب خامر فيها اصحاب
زنكى عليه فانهزم فى شرذمة من عسكره ولجأ بنفسه وقصد الاكراد الشوانكار والتجأ اليهم

(ذكر غزوة الملتان)

قد كان بلغ السلطان يمين الدولة وامين الملة حال والى الملتان ابى الفتوح من خبث نحلته ودخل دخلته ودحس اعتقاده وقبح الحاده ودعائه الى مثل رأيه اهل بلاده فأنف للدين من مقارنته على فظاعة شره وشناعة امره واستخار الله تعالى الخائر فى قصده لاستتابته وتقديم حكم الله تعالى فى الايقاع به وامر بضم الاطراف وكفت الذيول وجمع الخيول الى الخيول وضوى اليه من مطوعة المسلمين من ختم الله لهم بصالح العمل واكرمهم باحدى الحسنيين فى الازل وثار بهم نحو الملتان عند موج الربيع بسيول الانواء وسح الانهار بفضول الانداء وامتناع سيحون واخواتها على ركابها واستصعاب متونها على اصحابها فطلب السلطان الى اندبال عظيم الهند ان يطرق له فى مملكته الى مقصده فمنع وتمرده واخذته العزة باللوم فأبى وتشدد ورأى السلطان غرة الرأى فى

فاجاره

فاجاره صاحبها واحسن ضيافته ونزل شملة ببلاد فارس فلكها فاساء السيرة الى اهلها ونهب ابن اخيه ابن شنكا البلاد فتغيرت بواطن اهلها عليه واجتمع الى زنكي بعض العسكر الذين خامروا عليه لما رأوا من سوء سيرة شملة واستعاد زنكي بلاده ورجع الى ملكه وعاد شملة الى بلاد خوزستان

(ذكر ملك ايلدكز الرى)

فى هذه السنة ملك ايلدكز مدينة الرى والبلاد التى كانت بيد اينانج وسبب ذلك ان ايلدكز كان قد استقر الامر بينه وبين اينانج على مال يؤديه الى ايلدكز فمنعه سنتين فارسل ايلدكز يطلب المال فاعتذر بكثرة غلمانه وحاشيته فتجهز ايلدكز وقصد الرى فالتقاه اينانج وحاربه حربا عظيما فانهزم اينانج ومضى منهزما فتحصن بقلعة طبرك فحصره ايلدكز فيها وراسل جماعة من مماليكه فاطمعهم فى الاقطاعات والاموال والاحسان العظيم ليقتلوا اينانج فقتلوه وكانوا جماعة كثيرة وسلموا البلاد الى ايلدكز فرتب فيه عمر بن على ياغ وعاد الى همذان ولم يف للغلمان الذين قتلوا اينانج وسلموا البلاد اليه بما وعدهم وقال مثل هؤلاء ينبغى ان لا يستخدموا وأبعدهم عنه فتفرقوا فى البلاد فسار بعضهم وهو الذى تولى قتله الى خوارزمشاه فصلبه خوارزمشاه نكالا بما فعل بصاحبه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة رؤى فى دار الخليفة رجل غريب فى الطريق التى يركب فيه وفى يده سكين صغيرة وفى يده الاخرى سكين كبيرة فاخذوه وقرروه فقال انا من حلب فحبس وعوقب البواب ولم يعلم من أين دخل وفيها قبض ابن البلدى وزير الخليفة على الحسين بن محمد المعروف بابن السيبى وعلى اخيه الاصغر وكانا بنى عمة عضد الدين استاذ الدار وكان الاصغر عامل البيمارستان فقطعت يده ورجله قيل كان عنده صنج يقبض بها ويحمل الى الديوان بالصنج الصحيحة وقيل غير ذلك وحمل الى البيمارستان فمات به وكان شاعرا فمن شعره وهو محبوس هذه الابيات

سلام على اهلى وصحبى وجلاسى * ومن فى فؤادى ذكرهم راسب راسى
اعالج فيكم كل هم ولا أرى * لداء همومى غير رؤيتكم آسى
لقد ابدت الايام لى كل شدة * تشيب لها الا كباد فضلا عن الراس
فيا ابنة عبد الله صبرا على الذى * لقيت فهذا الحكم من مالك الناس
فلو ابصرت عيناك ذلى بكيت لى * بدمع سوى بالمدامع رجاس
اقول لقلبى والهموم تنوشه * وقد حدثته النفس بالضر والياس
فلو هم طيف من خيالى يزوركم * لمانعه دون المغالق حراسى
وما حذرى الا على النفس لا على * سواها الانى خلف فقر وافلاس

وفيها توفى المعمر بن عبد الواحد بن رجا ابو احمد الاصفهانى الحافظ يروى عن اصحاب ابى نعيم وكان موته بالبادية ذاهبا الى الحج فى ذى القعدة وفى رجب منها توفى الشيخ ابو محمد الفارقى المتكلم على الناس وكان احد الزهاد له كرامات كثيرة وكان يتكلم على الخاطر وكلامه مجموع مشهور وفيها مات جعفر الرقاص من ندماء دار الخلافة وفى شوال منها توفى القاضى ابو

دهمه ذلك الخطب ان يدأبه * على عزة جانبه * فيذل صليفه * ويبيح غريفه * ويعزق لفه وافيفه جامعا بين غزوتين * وفاطفا جنى الجنتين * فبسط عليه ايدى القتل والايثاق * والنهب والارهاق * والهدم والاحراق * يلجئه من مضيق الى مضيق * وينفيه من طريق الى طريق * طاويا عليه بلاده طى التجار بحضرموت برودا الى ان ضجرت القنا من هتك حلق الدروع * وسكرت الظبا من رشف علق الاحشاء والضلوع * وركب اثره فى اغوار دياره * واعماق رباعه * يتجسم دماث السهول وقضض الاماعز * ويقرى عليه وحوش الجو بين ضيق المداخل ورحب المفاوز * حتى اضجرته تشمير ولما سمع ابو الفتوح والى الملتان بما جرى من امر عظيم الهند وهو الوجيه الرفيع * والسيد المنيع * والسيف الصنيع * قاس باعه بشبره * وذراعه بفتره *

الحسن علي بن يحيى القرشي الدمشقي وفي ذي الحجة توفي نجم الدين بن محمد بن علي بن القاسم
الشهرزوري قاضي الموصل وولي ابنه حجة الدين عبد القاهر القضاء

* (ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة) *

* (ذكر حصر الفرنج دمياط) *

في هذه السنة في صفر نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية وحصروها وكان الفرنج
بالشام لما ملك اسد الدين شيركوه مصر قد خافوه وايقنوا بالهلاك وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية
والاندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ماتجدد من ملك الاتراك مصر وانهم خائفون على
البيت المقدس منهم فارسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة فأمدوهم
بالاموال والرجال والسلاح واتعدوا للنزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها
ظهرا يملكون به الديار المصرية فرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا فلما أن دخلوا كان
اسد الدين قد مات وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها فارسل
اليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده وامدهم بالاموال والسلاح
والذخائر وارسل الى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخافة ويقول اني ان تأخرت عن دمياط
ملكها الفرنج وان سرت اليها خلفني المصريون في اهلها بالشر وخرجوا عن طاعتي وساروا
في اثري والفرنج أمامي فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العساكر اليه أرسالا يتلو بعضها بعضا
ثم سار هو بنفسه الى بلاد الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات الى
مالم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع فلما رأى الفرنج تتابع العساكر الى مصر ودخول نور
الدين الى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء ووجدوا بلادهم خرابا واهلها
بين قتيل واسير فكانوا كما قيل في المثل خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا اذنين وكان مدة
مقامهم على دمياط خمسين يوما اخرج فيها صلاح الدين اموالا لا تحصى حكي انه قال ما رأيت
اكرم من العاضد ارسل الي مدة مقام الفرنج على دمياط الف الف دينار مصرية سوى
الثياب وغيرها

* (ذكر حصر نور الدين الكرك) *

في هذه السنة في جمادى الآخرة سار نور الدين الى بلاد الفرنج فحصر الكرك وهو من امنع
المعاقل على طرف البر وكان سبب ذلك ان صلاح الدين ارسل الى نور الدين يطلب ان يرسل اليه
والده نجم الدين ايوب فجهزه نور الدين وسيره وسير معه عسكرا واجتمع معه من التجار خلق كثير
وانضاف اليهم من كان له مع صلاح الدين انس وصحبة فخاف نور الدين عليهم من الفرنج فسار
في عساكره الى الكرك فحصره وضيق عليه ونصب عليه المنجنيقات فاتاه الخبر أن الفرنج قد
جمعوا له وساروا اليه وقد جعلوا في مقدمتهم ابن هنفري وقريب بن الرقيق وهما فارسا
الفرنج في وقتهما فرحل نور الدين نحو هذين المقدمين ليلقاهما ومن معهما قبل ان يلحق بهما
باقي الفرنج فلما قاربهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقي الفرنج وسلك نور الدين وسط بلادهم
ينهب ويحرق ما على طريقه من القرى الى ان وصل الى بلاد الاسلام فنزل على عشترا واقام
ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم فاقام هو حتى اتاه خبر الزلزلة الحادثة فرحل

وايقن ان زعن الجبال
لا تطال بمضبات القور *
وزرق البزاة لا تنال ببغاث
الطيور * فجعل نقل امواله
على ظهور رفيانه الى سرنديب
واخلى الملتان للسلطان
يفعل فيها مايشاء فثنى
العنان اليها * وتوجه اليها
مستعينا بالله على من
احدث في دينه * وحدث
بتوهينه * فاذا اهلها في
ضلالتهم يخبطون * وفي
طغيانهم يعمهون * يريدون
ليطفؤا نور الله بأفواههم
والله متم نوره ولو كره
الكافرون * فضرب
عليهم بجيران المحاصرة
وكلكل المناجزة والمناحرة
جزا للغلاصم * وبتكا
للايدي من المعاصم *
وارصادا لهم بالفاقرات
القواصم * حتى افتتحها
عنوة * وتحيفها عقابا وسطوة
والزمهم عشرين ألف ألف
درهم يرحضون بها
دنس استبائهم * ويذودون
عن انفسهم هجنة
استشرائهم وابائهم * وعبر
ذكره بما آتاه الله من نصرة
الدين * وانارة معالم اليقين
عرض البحر الى ديارات
مصر حتى درست بها
مقاماته التي لم يروها عن
ذي القرنين * الى حيث

واما

واما نجم الدين ايوب فانه وصل الى مصر سالما هو ومن معه وخرج العاضد الخليفة التقاه اكراما له

●(ذكر غزوة لسرية نورية)●

كان شهاب الدين الياس بن ايلغازى بن ارتق صاحب قلعة البيرة قد سار فى عسكره وهو فى مائتى فارس الى نور الدين وهو بعشترا فلما وصل الى قرية اللبوة وهى من عمل بعلبك ركب متصيدا فصادف ثلثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للاغارة على بلاد الاسلام سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان لاسيما المسلمون فان الف فارس لا يصبرون لحملة ثلثمائة فارس افرنجية وكثر القتلى بين الطائفتين فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر فلم يفلت منهم الامن لايعتد به وسار شهاب الدين برؤس القتلى وبالاسرى الى نور الدين فركب نور الدين والعسكر فلقوهم فرأى نور الدين فى الرؤس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير وكان شجى فى حلوق المسلمين

●(ذكر الزلزلة ومافعلته بالشام)●

فى هذه السنة ايضا ثانى عشر شوال كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها وعمت اكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد واشدها كان بالشام فخربت كثيرا من دمشق وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعرين وحلب وغيرها وتهدمت اسوارها وقلاعها وسقطت الدور على اهلها وهلك منهم مايخرج عن الحد فلما اتاه الخبر سار الى بعلبك ليعمر ماتهدم من سورها وقلعتها فلما وصلها اتاه خبر باقى البلاد وخراب اسوارها وقلاعها وخلوها من اهلها فجعل ببعلبك من يعمرها ويحفظها وسار الى حمص ففعل مثل ذلك ثم الى حماة ثم الى بعرين وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج ثم اتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ماليس بغيرها من البلاد فانها كانت قد اتت عليها وبلغ الرعب ممن نجا كل مبلغ وكانوا لايقدرون يأوون مساكنهم خوفا من الزلزلة فاقام بظاهرها وباشر عمارتها بنفسه فلم يزل كذلك حتى احكم اسوار البلاد وجوامعها واما بلاد الفرنج فان الزلازل ايضا عملت بها كذلك فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفا من نور الدين عليها فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفا من الآخر

●(ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكى وملك ابنه سيف الدين غازى)●

فى هذه السنة فى ذى الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وكان مرضه حمى حادة ولما اشتد مرضه وصى بالملك بعده لابنه الاكبر عماد الدين زنكى وعدل عنه الى ابنه الآخر سيف الدين غازى وانما صرف الملك عن ابنه الاكبر عماد الدين زنكى بن مودود لان القيم بامور دولته والمقدم فيها كان خادما له يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لانه كان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ولانه زوج ابنته وكان نور الدين يبغض عبد المسيح فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى وهى والدة سيف الدين على صرف الملك عن عماد الدين الى سيف الدين فدخل عماد الدين الى عمه نور الدين مستنصرا به ليعينه على اخذ الملك لنفسه وتوفى قطب الدين وعمره نحو اربعين سنة وكان ملكه

انتهى من امر الدين فارة مدت فرائص السند واخواتها حذار بطشه وانتقامه وخفقت بها نجوى الالحاد●وطمست صوى الغى والعناد●ولله ابو تمام حيث يقول

كرمت غزوتاك بالامس والخيل
دقاق والخطب غير دقيق
حين لاجلدة السماء بخضرا
●ولا وجه شتوة بطليق
ان ايام الخصاب من الرو
م لحمر الصبوح حمر الغبوق
معلمات كانهن بالدم الهـ
راق أيام النحر والتشريق

●(ذكر عبور عسكر ايلك الخان نحو خراسان)●

وقد كانت الحال فى الالفة قائمة بين السلطان●يمين الدولة وامين الملة وبين ايلك الخان●الى ان دبت

احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر ونصفا وكان فخر الدين هو المدبر للامور والحاكم فى الدولة وكان قطب الدين من احسن الملوك سيرة واعفهم عن أموال رعيته محسنا اليهم كثير الانعام عليهم محبوبا الى كبيرهم وصغيرهم عطوفا على شريفهم ووضيعهم كريم الاخلاق حسن الصحبة لهم فكان القائل اراده بقوله

خلق كماء المزن طيب مذاقة * والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع * عمن جنى والسيف غير حليم
كالغيث الا أن وابل جوده * ابدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر الا أنه ذو رحمة * والدهر قاسى القلب غير رحيم

وكان سريع الانفعال للخير بطيأ عن الشر جم المناقب قليل المعايب رحمه الله ورضى عنه وعن جميع المسلمين بمنه وكرمه انه جواد كريم

(ذكر حالة ينبغى للملوك ان يحترزوا من مثلها)

حدثنى والدى رحمه الله قال كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمت فلما كان قبل موته بيسير أتانا كتاب من الديوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة وهذه العقيمة هى قرية تحاذى الجزيرة منها دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها يباع فيؤخذ منه على كل جريب شئ معلوم وبعضها عليه خراج وبعضها مطلق عن الجميع قال وكان لى فيها املاك كثير فكنت اقول ان المصلحة ان لا يغير على الناس شئ وما اقول هذا الاجل ملكى فانى انا مسامح ملكى وانما اريد ان يدوم الدعا من الناس للدولة فجاءنى كتاب النائب يقول لابد من المساحة قال فأظهرت الامر وكان بها قوم صالحون لى بهم انس وبيننا مودة فجاءنى الناس كلهم وأولئك معهم يطلبون المراجعة فاعلمتهم انى راجعت وما اجبت الى ذلك فجاءنى منهم رجلان اعرف صلاحهما وطلبا منى المعاودة ومخاطبة ثانية ففعلت فاصروا على المساحة فعرفتهما الحال قال فما مضى الاعدة ايام واذ قد جاءنى الرجلان فلما رأيتهما ظننت انهما جاآ يطلبان المعاودة فعجبت منهما واخذت أعتذر اليهما فقالا ما جئنا اليك فى هذا وانما جئنا نعرفك أن حاجتنا قضيت قال فظننت انهما قد ارسلا الى الموصل الى من يشفع لهما فقلت من الذى خاطب فى هذا بالموصل فقالا الان حاجتنا قد قضيت من السماء والكافة اهل العقيمة قال فظننت أن هذا مما قد حدثا به نفوسهما ثم قاما عنى فلم يمض غير عشرة ايام واذا قد جاءنا كتاب من الموصل يأمرون باطلاق المساجين والمحبوسين والمكوس ويأمرون بالصدقة ويقال ان السلطان يعنى قطب الدين مريض يعنى على حالة شديدة ثم بعد يومين او ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته فعجبت من قولهما واعتقدته كرامة لهما فصار والدى بعد ذلك يكثر اكرامهما واحترامهما ويزورهما

(ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مردنيش)

كان محمد بن سعد بن مردنيش ملك شرق الاندلس قد اتفق هو والفرنج وامتنع على عبد المؤمن وابنه بعده فاستفحل امره لاسيما بعد وفاة عبد المؤمن فلما كان هذه السنة جهز اليه يوسف بن عبد المؤمن فجاسوا بلاده وخربوها واخذوا مدينتين من بلاده واخافوا عساكره وجنوده واقاموا ببلاده مدة ينتقلون فيها ويجبون اموالها

عقارب الفساد فى ذات البين واضطرب الحبل الساكن واشتعل الجمر الهامد وراعى ايلك فرصة المجاهرة * بسر المكاشرة * حتى اذا صمد السلطان * صمد الملتان * وغارت نحو تلك البلاد راياته * وخفت عن اعيان رجاله ولاياته * سرب سباشى تكين صاحب جيشه وأحد قراباته * الى كور خراسان فى معظم اجناده * وشحن بلخ بجعفر تكين وعدة من قواده * وكان والى طوس ارسلان الجاذب مقيما بهراة مأمورا بالانحياز الى غزنة متى نجم ناجم عناد * او نعق ناعق بفساد * فأسرع الانقلاب اليها اخذا بوثيقة الحزم فى ترك القتال

(ذكر وفاة صاحب كرمان والخلف بين اولاده)

في هذه السنة توفي الملك طغرل بن قاورت صاحب كرمان واختلف أولاده بهرام شاه وارسلان شاه وهو الاكبر وجرى بينهما قتال انهزم فيه بهرام شاه الى خراسان فدخل على المؤيد صاحب نيسابور واستنجده فانجده بعساكر سار بهم الى كرمان فجرى بين الاخوين حرب ظفر فيها بهرام شاه وهرب ارسلان شاه فقصد اصفهان مستجيرا بايلدكز فانفذ معه عسكرا واستنقذوا البلاد من بهرام شاه وسلموها الى اخيه ارسلان شاه فعاد بهرام شاه الى نيسابور مستجيرا بالمؤيد صاحبها فاقام عنده فاتفق أن اخاه ارسلان شاه مات فسار الى كرمان فملكها واقام بها بغير منازع

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة كثرت الاذية من عبد الملك بن محمد بن عطاء وتطرق الى بلاد حلوان ونهب وأفسد وأخذ من الحجاج فانفذ اليه من بغداد عسكر فنازلوه في قلاعه وضايقوه ونهبوا امواله واموال أهله حتى أذعن بالطاعة ولا يعاود اذى الحجاج ولا غيرهم فعاد عنهم العسكر وفيها توفي مجد الدين أبو بكر بن الداية وهو رضيع نور الدين وكان أعظم الامراء منزلة عنده وله في اقطاعه حلب وحارم وقلعة جعبر فلما توفي رد نور الدين ما كان له الى أخيه شمس الدين علي بن الداية وفيها في شعبان توفي أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلي وهو من مشهوري المحدثين (الجيلي) بالجيم والياء تحتها نقطتان

(ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة المستنجد بالله)

في هذه السنة تاسع ربيع الآخر توفي المستنجد بالله ابو المظفر يوسف بن المقتفي لامر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله وقد تقدم باقي النسب في غير موضع وأمه ام ولد اسمها طاوس وقيل نرجس رومية ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكان أسمر تام القامة طويل اللحية وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه وكان قد خافه استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز المقتفوي وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد فلما اشتد مرض الخليفة اتفقا ووضعا الطبيب على ان يصف له ما يؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه ثم انه دخل واغلق عليه بابه فمات وهكذا سمعت عن غير واحد ممن يعلم الحال وقيل ان الخليفة كتب الى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على استاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية باستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول انك أوصلت الخط الى الوزير ففعل ذلك وحضر استاذ الدار قطب الدين ويزدن وأخاه تنامش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل الخليفة فدخل اليه يزدن وقايماز الحميدي فحملاه الى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح الى ان مات رحمه الله وكان وزيره أبا جعفر بن البلدي وبينه وبين استاذ الدار وبين قطب الدين عداوة مستحكمة لان المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فكانا يظنان انه هو الذي يسعى بهما فلما مرض المستنجد وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الامراء والاجناد وغيرهما بالعدد لم يتحقق عنده خبر

وتربصا بالحل غاية الفصال ووردسباشي تكين هراة فاستوطنها وندب الحسين ابن نصر اصحابة الديوان بنيسابور فرتب الاعمال وواصل الاستخراج وما يلهم كثير من أعيان خراسان لاستخفاء خبر السلطان* من جانب الملتان* وتناقل الالسنة أهواء القلوب ونوازع النفوس أخابير زور* وأراجيف غرور* وأمر الوزير أبو العباس الفضل ابن أحمد بالاحتياط على الطرق بين غزنة وحدود باميان وبنجهير وسدها بحماة الرجال على حصانة مداخلها* وصعوبة مراكبها* وطير البريد الى السلطان بما انبث في أطراف البلاد من حيات العداء* وعقارب الغواء* فأعجلته بديهة البلاغ عن استتمامه* وأزعجته غلبة الحمية عن مقامه* فركب ركوب الريح العاصف كالف الجهام البارق* يطوي الارض طي المهارق* بين ايضاع وايجاف* واهتداء واعتساف* وبين سهول وظراب* وسهوب وشعاب* حتى ألقى عصا القرار بغزنة وأقام العطاء لابناء دولته* وانشاء جملته* وملأ ايديهم بالعطايا* والرغائب* وأزاح عللهم في المطايا* والركائب*

مرته فأرسل اليه عضد الدين يقول ان امير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت العافية فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد الى داره وتفرق الناس عنه وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفا منه ان دخل الدار أن يأخذهما فلما عادا غلق استاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين ابنه أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضئ بامر الله وشرطا عليه شروطا ان يكون عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين استاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم الى ذلك ولم يتول الخلافة من اسمه الحسن الا الحسن بن علي بن ابي طالب والمستضئ بأمر الله واتفقا في الكنية والكرم فبايعه اهل بيته البيعة الخاصة يوم توفي أبوه وبايعه الناس من الغد في التاج بيعة عامة وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه وفرق أموالا جليلة المقدار وعلم الوزير ابن البلدي فسقط في يده وقرع سنه ندما على ما فرط في عوده حيث لا ينفعه وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضئ فمضى الى دار الخلافة فلما دخلها اصرف الى موضع وقتل وقطع قطعا وألقي في دجلة رحمه الله وأخذ جميع ما في داره فرأيا فيها خطوط المستنجد بالله بأمره فيهما بالقبض عليهما وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براءته مما كانا يظنان فيه فندما حيث فرطا في قتله وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا فيهم كثير الرفق بهم وأطلق كثيرا من المكوس ولم يترك بالعراق منها شيأ وكان شديدا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس (بلغني) انه قبض على انسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي انسانا آخر مثله لا كف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الاموال على أصحابها أيضا وقبض على القاضي ابن المرخم وأخذ منه مالا كثيرا فأعاده على أصحابه ايضا وكان ابن المرخم ظالما جائرا في أحكامه

(ذكر ملك نور الدين الموصل واقرار سيف الدين عليها)

لما بلغ نور الدين محمودا وفاة أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وملك ولده سيف الدين غازي الموصل والبلاد التي كانت لابيه بعد وفاته وقام فخر الدين عبد المسيح بالامر معه وتحكمه عليه وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشونة سياسته فقال أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم وسار عند انقضاء العزاء جريدة في قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر مستهل المحرم من هذه السنة وقصد الرقة فحصرها وأخذها ثم سار الى الخابور فملكه جميعه وملك نصيبين واقام بها يجمع العساكر فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا ارسلان بن داود صاحب حصن كيفا وكثر جمعه وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام لحفظ ثغوره فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها ونصب عليها المنجنيقات وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين وكان قد جاءته كتب الامراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول اليهم فسار الى الموصل فأتى مدينة بلد وعبر دجلة عندها مخاضة الى الجانب الشرقي وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل ومن العجب ان يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة وكان سيف الدين غازي قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين الى

واستنفر الاتراك الخلجية احلاس الظهوره وابناء الصوارم الذكوره فنفر منهم جن على جن وان كانوا بشر كأنما خيطوا عليها بالابر وجاش نحو بلخ وبها جعفر تكين فاسرع الكر الى ترمذ اشفاقا من ضغمة الضيغم الخادره واحتراسا من وثبة الارقم الثائره واستقر السلطان ببلخ موفور الانس والجذل كما تجتلى صفحة الشمس من برج الحمل وأمر باتباع سباشي تكين بارسلان الجاذب فأتبعه في زهاء عشرة آلاف من أبناء الكفاح ومنحة الارواح بأشطان الرماح وسارع سباشي تكين نحو الوادي للعبور فلم تره الا العاديات ضوابح * والموريات قوادح فكر على أدراجه حائرا عاثرا * وعطف الى مرو على أن ينسرح منها الى الشط على سمت المفازة فاذا الآبار مردومه والمناهل مطمومه ووديقة الصيف مسعوره وأذيال السوافي على المعالم مجروره فانثنى الى سرخس وبها الخمر بن طاق رئيس الاتراك الغزية فاحدقا به حدا قاسد عليه باب الهرب وضيق دونه

اتابك شمس الدين ايلدكز صاحب همذان وبلد الجبل واذربيجان واصفهان والرى وتلك
الاعمال يستنجده على عمه نور الدين فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن التعرض الى
الموصل ويقول له ان هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها فلم يلتفت اليه وقال للرسول قل
لصاحبك انا أصلح لاولاد اخى منك فلم تدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من اصلاح بلادهم
يكون الحديث معك على باب همذان فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة واهملت الثغور
حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا ولى مثل ربع بلادك بالفرنج وهم أشجع العالم فأخذت
معظم بلادهم وأسرت ملوكهم ولا يحل لى السكوت عنك فانه يجب علينا القيام بحفظ
ما أهملت وازالة الظلم عن المسلمين فاقام نور الدين على الموصل فعزم من بها من الامراء على
مجاهرة فخر الدين عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد الى نور الدين فعلم ذلك فأرسل الى نور الدين
فى تسليم البلد اليه على ان يقره بيد سيف الدين ويطلب لنفسه الامان ولماله وأجابه الى ذلك
وشرط ان فخر الدين يأخذه معه الى الشأم ويعطيه عنده اقطاعا يرضيه فتسلم البلد ثالث عشر
جمادى الاولى من هذه السنة ودخل القلعة من باب السر لانه لما بلغه عصيان عبد المسيح عليه
حلف ان لايدخلها الامن احصن موضع فيها ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من
ابواب المظالم وكذلك فعل بنصيبين وسنجار والخابور وهكذا كان جميع بلاده من الشأم ومصر
ووصله وهو على الموصل يحاصرها خلعة من الخليفة المستضىء بأمر الله فلبسها ولما ملك
الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه وأمره وهو بالموصل بعمارة الجامع النورى وركب
هو بنفسه الى موضعه فرآه وصعد منارة مسجد أبى حاضر فاشرف منها على موضع الجامع فأمر
أن يضاف الى الارض التى شاهدها ما يجاورها من الدور والحوانيت وأن لا يؤخذ منها شئ بغير
اختيار أصحابه وولى الشيخ محمد الملا عمارته وكان من الصالحين الاخيار فاشترى الاملاك من
أصحابها بأوفر الاثمان وعمره فخرج عليه أموال كثيرة وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين
وخمسمائة وأما نور الدين فانه عاد الى الشأم واستناب فى قلعة الموصل خصيا كان له اسمه كمشتكين
ولقبه سعد الدين وأمر سيف الدين أن لا ينفرد عنه بقليل من الامور ولا بكثير وحكمه واقطع
مدينة سنجار لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين فلما فعل ذلك قال كمال الدين ابن الشهرزورى
هذا طريق الى أذى يحصل لبيت أتابك لان عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين وسيف
الدين هو الملك لا يرى الاغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف ويطمع الاعداء فكان كذلك على
ما نذكره سنة سبعين وخمسمائة وكان مقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوما واستصحب
معه فخر الدين عبد المسيح وغير اسمه فسماه عبد الله وأقطعه اقطاعا كبيرا

* (ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح ايلة) *

وفى هذه السنة سار صلاح الدين ايضا عن مصر الى بلاد الفرنج فاغار على اعمال عسقلان
والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنج فى قلة من العسكر مسرعين لرده عن
البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد أن اشرف ان يؤخذ أسيرا وعاد الى مصر وعمل
مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال فى البر وقصد ايلة فجمع قطع المراكب وألقاها فى
البحر وحصر ايلة برا وبحرا وفتحها فى العشر الاول من ربيع الآخر واستباح أهلها وما فيها

وجه الجبال والمضارب * فانتهى ماقدر ثم ظفر به سباشى تكين * فقده بنصفين * بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة من الجانبين * وأجحفه ارتداف أرسلان الجاذب اياه عن فضل المقام * وروح الاستجمام * فارتحل الى أبيورد ومنها الى نسا وبينهما مرحلة واحدة كما صدر هذا ورد ذلك ومتى ظعن ذلك أناخ هذا يتقاسمان امداد الطلب والهرب جماما * ولا يردان المياه الا لماما * وقد كان سباشى تكين قد حصل صدرا من المال والاسلحة من نواحى هراة وغيرها فصارت عقلة له دون الخفوق فى وجه النجاة فهو يتيامن مرة ويتياسر أخرى منكوسا على رأسه لا يرفعه خوف العار دون اسلام ما بردت به يداه وأعياه الخلاص بحشاشة النفس آخرا الا بافرازه وتفريغ الخاطر من الشغل به ولما قرب ارسلان الجاذب من نسا رحل متوجها نحو سيبا وأزعجه الطلب نحو جرجان فركب قلل الجبال بين الآجام الملتفه * والغياض المتنفه * والمخارق الضيقة * والمخارم المضطربة * وتسلط البكرا كابه على أثقاله *

وعاد الى مصر

(ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة)

كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية وأزال ما كان فيها من الظلم وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضا وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة وأقام قاضيا شافعيا في مصر فاستناب القضاة الشافعية في جميع البلاد في العشرين من جمادى الآخرة

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة اشترى تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين منازل العز بمصر وبناها مدرسة للشافعية وفيها أغار شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين على الاعراب الذين بالصعيد وكانوا قد أفسدوا في البلاد ومدوا أيديهم فكفوا عما كانوا يفعلونه وفيها مات القاضي ابن الخلال من اعيان الكتاب المصريين وفضلائهم وكان صاحب ديوان الانشاء بها وفيها وقع حريق ببغداد في درب المطبخ وفي خرابة ابن جردة وفيها توفي الامير نصر بن المستظهر بالله عم المستنجد بالله وجده وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله وكان موته في ذي القعدة ودفن في الترب بالرصافة وفيها جعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطار صاحب المخزن ببغداد ولقب ظهير الدين وفيها هاج بالناس الامير طاشتكين المستنجدي وكان نعم الامير رحمه الله

(ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة)

(ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية)

في هذه السنة في ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله ابي محمد الامام عبد الله بن يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن ابي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله ابي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الطاهر اسمعيل بن القائم بامر الله أبي القاسم محمد بن المهدي بالله ابي محمد عبيد الله وهو اول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخوطبوا بامرة المؤمنين وكان سبب الخطبة العباسية بمصر ان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة بها العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وهو خصي كان من اعيان الامراء الاسدية كلهم يرجعون اليه فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفا من نور الدين فانه كان يخافه أن يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه فكان يريد أن يكون العاضد معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وباهل مصر عليه فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره والح عليه بقطع خطبته وألزمه الزاما لا فسحة له في مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق ان العاضد مرض هذا الوقت مرضا شديدا فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافه الا انه ما يمكنه الا امتثال أمر

نور

وافناء رجاله * حتى فشت نكايتهم فيه واستأمن الى شمس المعالي قابوس ابن وشمكير طوائف من اهل جملته لعدم المراكب * وذهاب المراتب * وانفل هو على سمت دهستان حتى عاد الى نسا وجمع ما بقي عليه من تلك الاثقال فاصدرها الى خوارزمشاه أبي الحسن علي بن مأمون وكتب اليه يستودعه اياها امانة لا يملك الخان وحذره أن يمد اليها بغير الصيانة يده واصحبها رجالة عسكره والعجزة منهم عن صحبته واقتحم المفازة متوجها نحو مرو وكان السلطان قد انحدر الى طوس مراعيا ما يسفر عنه ركض ارسلان الجاذب على اثره والصاقه الطلب الحثيث به فلما بلغه ركوب سباشي تكين عرض المفازة اسرى على طريق مرو معارضا له في مسيره * وناقضا عليه قوي تدبيره * فوصل اليه مخلصه عن وعثاء * تلك البيداء * ورماه بأبي عبد الله محمد بن ابراهيم الطائي زعيم العرب وسائر قواده رجال يرون الملاحم * ولائم * والوقائع * نقائع * وسيوف الضراب عرائس * وصفوف الكماة فرائس * فكان كما قال سعيد

نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان أعجمي يعرف بالامير العالم رأيته انا بالموصل فلما رأى
ماهم فيه من الاحجام وان أحدا لا يتجاسر يخطب للعباسي قال أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان اول
جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عنزان وكتب
بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من اهله وأصحابه
بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته
فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر
الخلافة وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتبه قبل موت العاضد فحمل
الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة
والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل
الياقوت وزنه سبعة عشر درهما او سبعة عشر مثقالا انا الأشك فاني رأيته ووزنته واللؤلؤ
الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع اصابع في عرض عقد كبير ووجد
فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ فلما رأوه ظنوه عمل لاجل اللعب
فيه فسخروا من العاضد فاخذه انسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك وكان
كل من ضرب به ضرط فألقاه أحدهم فكسره فاذا الطبل لاجل القولنج فندموا على كسره لما
قيل لهم ذلك وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد فباع جميع ما فيه ونقل أهل
العاضد الى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد
فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالامس فسبحان
الحي الدائم الذي لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه ولما اشتد مرض
العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفي علم صدقه
فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده
وكان في نسبه تسع خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز
والمعز والمنصور والقائم والمهدي ومنهم من لم يخطب له بالخلافة أبوه يوسف بن الحافظ
وجد أبيه وهو الامير أبو القاسم محمد بن المستنصر وبقي من خطب له بالخلافة وليس من آبائه
المستعلي والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة
منهم بافريقية المهدي والقائم والمنصور والمعز الى أن سار الى مصر ومنهم بمصر المعز
المذكور وهو أول من خرج اليها من افريقية والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر
والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد وجميع مدة ملكهم من حين
ظهر المهدي بسجلماسة في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين الى ان توفي العاضد مائتان
واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تعط الا واستردت ولم تحل الا وتمررت
ولم تصف الا وتكدرت بل صفوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو نسأل الله
تعالى أن يقبل بقلوبنا اليه ويرينا الدنيا حقيقة ويزهدنا فيها ويرغبنا في الآخرة انه
سميع الدعاء قريب من الاجابة ولما وصلت البشارة الى بغداد بذلك ضربت البشائر بها عدة
أيام وزينت بغداد وظهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه وسيرت الخلع مع عماد الدين

ابن حسان

قربت من معن وافلاسه
الى اليزيدي ابي واقد
فكنت كالساعي الى مثعب
موائلا من سبل الراعد
وأحاطت به السيوف حيث
لا ماء الا منابع الافواه
وهي عاصبه * ولا مرعى الا
شكائم اللجم وهي عاضبه *
وأسر أخو سباشي تكين
في زهاء سبعمائة من
وجوه الافراد * ورؤوس
القواد * وامر السلطان
بقراجولياتهم فأفرغت
قيود الكعاب بهم * وجوامع
لرقابهم * وحملهم الى غزنة
ليرى أهلها حسن صنع الله
تعالى فيمن شاقه * ونقض
عهده وميثاقه * ونجا سباشي
تكين في خف من العدد
بجريعة الذقن فعبر جيحون
الى ايلك الخان وقد كان
ايلك الخان عبر جيحون تكين
أخاه في زهاء ستة آلاف
رجل الى بلخ ثانيا الاستفساد
عزيمة السلطان في قصد
سباشي تكين واخراجه
ثانيا فتهاون بهم حتى فرغ
الخاطر من أمره * ووضع
ما أنقضه من الشغل به عن
ظهره * ثم ثنى العنان اليهم
شد أغص الهواء بغباره *
واستغرق أوقات ليله
ونهاره * فلم يرعهم الا راياته
بأجنحة النجاح طائره *
وخيوله في صهيل المراح

صندل وهو من خواص الخدم المقتفوية والمقدمين في الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل الى نور الدين وألبسه الخلعة وسير الخلعة التي لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية والاعلام السود ثم ان هذا صندلا صار استاذدار الخليفة المستضيء بامر الله ببغداد وكان يدري الفقه على مذهب الشافعي وسمع الحديث ورواه ويعرف أشياء حسنة وفيه دين وله معروف كثير وهو من محاسن بغداد

(ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا)

في هذه السنة جرت أمور أوجبت ان تأثر نور الدين من صلاح الدين ولم يظهر ذلك وكان سببه ان صلاح الدين يوسف بن ايوب سار عن مصر في صفر من هذه السنة الى بلاد الفرنج غازيا ونازل حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم وحصره وضيق على من به من الفرنج وأدام القتال وطلبوا الامان واستمهلوه عشرة أيام فاجابهم الى ذلك فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصدا بلاد الفرنج أيضا ليدخل اليه من جهة أخرى فقيل لصلاح الدين ان دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين اليك وأنت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء ان شاء تركك أولا فقد لا تقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع الى مصر فرحل عن الشوبك عائدا الى مصر ولم يأخذه من الفرنج وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لامور بلغته عن بعض شيعته العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها وانه يخاف عليها من البعد عنها ان يقوم اهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار فلم يقبلها نور الدين منه وتغير عليه وعزم على قصد مصر واخراجه عنها وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر فجمع اهله وفيهم أبوه نجم الدين ايوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة واحدة فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فقال اذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من أهلهم فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وشتم تقي الدين واقعده وقال لصلاح الدين انا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكنا الا ان نقبل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا وكل من تراه عندك من الامراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فان أراد عزلنا سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه بلغني أنك تريد الحركة لاجل البلاد فأي حاجة الى هذا يرسل المولى نجابا يضع في رقبتي منديلا ويأخذني اليك وما ههنا من يمتنع وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا فلما خلا به ايوب قال له بأي عقل فعلت هذا أما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه اليه وحينئذ لا تقوى عليه وأما الآن اذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين ما أشار به فترك نور الدين قصده

واشتغل

سائره * وكن لهم السلطان فلما رأوا الكمين * انقلبوا منهزمين * يختمون دعوة الخلاص بآمين آمين * وتبعهم صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين على ساحل جيحون كاسح الادبارهم * ومخنا في عمارهم * الى ان عبروه فسلمت خراسان من عيث سوادهم * وخلت عن مبثوث جرادهم فاضطرب ايلك حنقا لما جرى على عسكره من الضغطة الكبيره * والصدمة المبيره * فاستعان بقدرخان ابن بغراخان لقرابة بينهما وكيده * ولحمة وشيجه * واستجره بحفي مسئلته الى أخذ ثاره * مستظهرا بنصرته واظهاره * فاستجاش أحياء الترك من مكانها * وحشر بني خاقان من أقصى بلدانها * واستنفر دهاقين ماوراء النهر * في جيوش تجل عن الحد والحصر * وسار في خمسين ألفا أو يزيدون * حتى عبر جيحون * مدلا بعسكره المائج * وبطشه الهائج * ومعتضدا بقدر خان ملك الختن ذي العدة والعديد * والبأس الشديد * والايد المتين * والبسطة في المال * والرجال * والتمكين في رجال كالجداني الفوالج * فوق الجسور الموائج *

واشتغل بغيره فكان الامر كما ظنه أيوب فتوفى نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها

(ذكر غزوة الى الفرنج بالشأم)

وفى هذه السنة خرج مركبان من مصر الى الشأم فارستا بمدينة لاذقية فاخذهما الفرنج وهما مملوآتان من الامتعة والتجارة وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا فارسل نور الدين اليهم فى المعنى واعادة ما أخذوه من أموال التجار فغالطوه واحتجوا بامور منها ان المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء وكان الشرط ان كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه فلم يقبل مغالطتهم وجمع العساكر وبث السرايا فى بلادهم بعضها نحو انطاكية وبعضها نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيثا وعريمة فاخذهما عنوة ونهب وخرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا اليه وهو بعرقة فسار فى العساكر جميعها الى ان قارب طرابلس ينهب ويخرب ويحرق ويقتل وأما الذين ساروا الى انطاكية ففعلوا فى ولايتها مثل ما فعل فى ولاية طرابلس فراجعه الفرنج وبذلوا جميع ما اخذوه من المركبين وتجديد الهدنة معهم فأجابهم الى ذلك وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم

(ذكر وفاة ابن مردنيش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده)

فى هذه السنة توفى الامير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرق الاندلس وهى مرسية وبلنسية وغيرهما واوصى أولاده ان يقصدوا بعد موته الامير أبا يعقوب وكان قد اجتاز الى الاندلس فى مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش فحين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدومهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم ووصلهم بالاموال الجزيلة وأقاموا معه

(ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزمشاه)

فى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم فسمع صاحبها خوارزمشاه ايل ارسلان ابن اتسز فجمع عساكره وسار الى امويه ليقاتلهم ويصدهم فمرض وأقام بها وسير بعض جيشه مع أمير كبير اليهم فلقيهم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الخوارزميون وأسر مقدمهم ورجع به الخطا الى ماوراء النهر وعاد خوارزمشاه الى خوارزم مريضا

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة اتخذ نور الدين بالشأم الحمام الهوادى وهى التى يقال لها المناسيب وهى تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها وجعلها فى جميع بلاده وسبب ذلك انه لما اتسعت بلاده وطالت مملكته وعرضت أكنافها وتباعدت أواثلها عن أواخرها ثم انها جاورت بلاد الفرنج وكانوا ربما نازلوا حصنا من ثغوره فالى ان يصل الخبر و يصل اليهم قد بلغوا غرضهم منه فأمر بالحمام ليصل الخبر اليه فى يومه وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها واقامتها فحصل منها الراحة العظيمة والنفع الكبير للمسلمين وفيها عزل الخليفة المستضىء بامر الله وزيره عضد الدين أبا الفرج بن رئيس الرؤساء لان قطب الدين قايماز الزمه بعزله فلم يمكنه مخالفته وفيها مات ابو محمد

عراض الوجوه خزر العيون فطس الانوف * خفاف الشعور حداد السيوف * سود الثياب من حاق الدروع يحملون جحافا كخراطيم الفيول * محشوة بنبال كأنياب الغول * ولما سمع السلطان بعبوره * فى جمهوره * وكان اذ ذاك بطخيرستان سبقه الى بلخ فاستوطنها قاطعا عنها طمعه * ومالكا عليه مختاره ومنتجعه * واستعد للحرب فخرج السلطان فى عساكر الترك والهند والخلج والافغانية والغزنوية أنشاء الجد والصدق * وأبناء المشق والرشق * الى معسكر له على أربعة فراسخ من البلد يعرف بقنطرة جرخيان وسيع المجال * على الرجال * رحب الفضاء * على الدهماء * وزحف ايلك الى محاذاته فى عدده الدهم وعسكره المجر فتطارد الفرسان * وتجالد الشجعان * صحابة يومهم على رسم الطلائع * أمام الوقائع * الى أن كفهم حاجز الليل وأصبح الناس على ميعاد الحرب فعبى السلطان رجاله صفوفا كالجبال الراسيات * والبحار الزاخرات * ورتب فى القلب أخاه صاحب الجيش نصرا ووالى الجوزجان ابا نصر

عبد الله بن أحمد الخشاب اللغوي وكان قيما بالعربية وسمع الحديث وفيها مات البوري الفقيه
الشافعي تفقه على محمد بن يحيى وقدم بغداد ووعظ وكان يذم الحنابلة وكثرت أتباعه فأصابه
اسهال فمات هو وجماعة من أصحابه فقيل ان الحنابلة أهدوا له حلواء فأكل منها فمات وكل من
أكل منها وفيها مات القرطبي أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الازدي الاندلسي وكان اماما
في القراءة والنحو وغيره من العلوم زاهدا عابدا انتفع به الناس في كثير من البلاد ولاسيما أهل
الموصل فانه أقام بها وفيها توفي رحمه الله

(ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة خوارزمشاه ايل ارسلان وملك ولده سلطانشاه وبعده ولده الآخر تكش وقتل المؤيد وملك ابنه)

في هذه السنة توفي خوارزمشاه ايل ارسلان بن اتسز بن محمد بن انوشتكين قد عاد من قتال
الخطا مريضا فتوفي وملك بعده سلطانشاه محمود ودبرت والدته المملكة والعساكر وكان ابنه
الاكبر علاء الدين تكش مقيما في الجند قد اقطعه ابوه اياها فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه
الصغير انف من ذلك وقصد ملك الخطا واستمده على أخيه وأطمعه في الاموال وذخائر خوارزم
فسير معه جيشا كثيفا قدمهم قرما فساروا حتى قاربوا خوارزم فخرج سلطانشاه وأمه الى
المؤيد وأهدى له هدية جليلة القدر ووعده أموال خوارزم وذخائرها فاغتر بقوله وجمع
جيوشه وسار معه حتى بلغ سوبرلي بلدة على عشرين فرسخا من خوارزم وكان تكش قد
عسكر بالقرب منها فتقدم اليهم فلما تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيد وكسر المؤيد وأخذ أسيرا
وجيء به الى خوارزمشاه تكش فأمر بقتله فقتل بين يديه صبرا وهرب سلطانشاه وأخذ الى
دهستان فقصده خوارزمشاه تكش فافتتح المدينة عنوة فهرب سلطانشاه وأخذت أمه
فقتلها تكش وعاد الى خوارزم ولما عاد المنهزمون الى نيسابور ملكوا طغانشاه أبا بكر
ابن المؤيد واتصل به سلطانشاه ثم سار من هناك الى غياث الدين ملك الغورية فأكرمه وعظمه
وأحسن ضيافته وأما علاء الدين تكش فانه لما ثبت قدمه بخوارزم اتصلت به رسل الخطا
بالاقتراحات والتحكم كعادتهم فأخذته حمية الملك والدين وقتل أحد أقارب الملك وكان
قد ورد اليه ومعه جماعة أرسلهم ملكهم في مطالبة خوارزمشاه بالمال فأمر خوارزمشاه أعيان
خوارزم فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا فلم يسلم منهم أحد ونبذوا الى ملك الخطا عهده
وبلغ ذلك سلطانشاه فسار الى ملك الخطا واغتنم الفرصة بهذه الحال واستنجده على أخيه
علاء الدين تكش وزعم له أن أهل خوارزم معه يريدونه ويختارون ملكه عليهم ولو رأوه لسلموا
البلد اليه فسير معه جيشا كثيرا من الخطا مع قرما أيضا فوصلوا الى خوارزم فحصروها فأمر
خوارزمشاه علاء الدين باجراء ماء جيحون عليهم فكادوا يغرقون فرحلوا ولم يبلغوا منها غرضا
ولحقهم الندم حيث لم ينفعهم ولاموا سلطانشاه وعنفوه فقال القرما لو أرسلت معي جيشا
الى مرو فاستخلصتها من يد دينار الغزي وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغز الى
الآن فسير معه جيشا فنزل على سرخس على غرة من أهلها وهجم على الغز فقتل مقتلة عظيمة فلم
يتركوا بها احدا منهم وألقى دينار ملكهم نفسه في خندق القلعة فأخرج منه ودخل القلعة

وتحصن

وأبا عبد الله محمد بن ابراهيم
الطائي في كماة الاكراد
والعرب وسائر جماهير
الهنود * ومساعير الجنود *
ورتب في الميمنة حاجبه
الكبير أبا سعيد التونتاش
فيمن برسمه من أعيان
الرجال * وفرسان الزحف
والصيال * وندب للميسرة
أرسلان الجاذب فيمن تحت
قيادته من نجوم الابطال *
ورجوم القتال * وحصن
الصفوف بزهاء خمسمائة
من فيلته التي تمد الجبال
من اثقالها * وترتج الارض
بزلزالها * وأقبل ايلك
فشحن قلبه بخواص
غلمانه * وأعلام فرسانه
وولى قدرخان ميمنته
في أتراك الختن * بين آجام
العوامل والجنن * وشحن
جعفر تكين ميسرته بكل
اليس كالشجاع المحرج
والحسام المرهف بين غابات
الزغف والجحف وتحامل
بعضهم على بعض بجنبات
المعركة سماء غمامها مثار
القسطل * وبروقها بريق
البيض والاسل * ورعودها
صليل السلاح * ورشاشها
صبيب الجراح * واستنزل
ايلك عن صهوات الخيول
الى صعيد الارض زهاء
الف غلام يفلقون الشعور
انصافا وينصبون وسائط

وتحصن بها وسار سلطان شاه الى مرو فملكها وعاد الخطا الى ماوراء النهر وجعل سلطان شاه دأبه قتال الغز والقتل فيهم والنهب منهم فلما عجز دينار عن مقاومته أرسل الى نيسابور الى طغان شاه ابن المؤيد يقول له ليرسل اليه من يسلم اليه قلعة سرخس فأرسل اليه جيشا مع أمير اسمه قراقوش فسلم اليه دينار القلعة ولحق بطغان شاه فقصد سلطان شاه سرخس وحصر قلعتها وبلغ ذلك طغان شاه فجمع جيوشه وقصد سرخس فلما التقى هو وسلطان شاه فر طغان شاه الى نيسابور وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة فأخلى قراقوش قلعة سرخس ولحق بصاحبه وملكها سلطان شاه ثم اخذ طوس والزام وضيق الامر على طغان شاه بعلو همته وقلة قراره وحرصه على طلب الملك وكان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر فلم يزل الحال كذلك الى أن مات طغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة في المحرم وملك ابنه سنجر شاه فغلب عليه مملوك جده المؤيد اسمه منكلى تكين فتفرق الامراء أنفة من تحكمه واتصل أكثرهم بسلطان شاه وسار الملك دينار الى كرمان ومعه الغز فملكها واما منكلى تكين فانه أساء السيرة في الرعية واخذ أموالهم وقتل بعض الامراء فسمع خوارزمشاه بذلك فسار اليه فحصره بنيسابور في ربيع الاول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة فحصرها شهرين فلم يظفر بها وعاد الى خوارزم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين الى نيسابور فحصرها وطلبوا منه الامان فأمنهم فسلموا البلد اليه فقتل منكلى تكين واخذ سنجر شاه وأكرمه وأنزله بخوارزم وأحسن اليه فأرسل الى نيسابور يستميل أهلها ليعود اليهم فسمع به خوارزمشاه فأخذ سنجر شاه فسمله وكان قد تزوج بأمه وزوجه بابنته فماتت فزوجه بأخته وبقي عنده الى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة ذكر هذا ابو الحسن ابن ابي القاسم البيهقي في كتاب مشارب التجارب وقد ذكر غيره من العلماء بالتواريخ هذه الحوادث مخالفة لهذا في بعض الامور مع تقديم وتأخير ونحن نوردها فقال ان تكش خوارزمشاه بن ارسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم وكان قد ملكها بعد موت ابيه فجاء الى مرو فملكها وأزاح الغز عنها فخرجوا أياما ثم عادوا عليه فأخرجوه منها وانتهبوا خزائنه وقتلوا أكثر رجاله فعبر الى الخطا فاستنجدهم وضمن لهم مالا وجاء بجيش عظيم فأخرج الغز عن مرو وسرخس ونسا وابيورد وملكها ورد الخطا فلما أبعدوا كاتب غياث الدين الغوري يطلب منه أن ينزل عن هراة وبوشنج وباذغيس وما والاها ويتوعده ان هو لم ينزل عن ذلك فأجابه غياث الدين يطلب منه اقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان فلما سمع الرسالة سار عن مرو وشن الغارات على باذغيس وبيوار وما والاها وحصر بوشنج ونهب الرساتيق وصادر الرعايا فلما سمع غياث الدين ذلك لم يرض لنفسه أن يسير هو بل سير ملك سجستان وكاتب ابن اخته بهاء الدين سام صاحب باميان باللحاق به لان أخاه شهاب الدين كان بالهند والزمان شتاء فجاء بهاء الدين ابن أخت غياث الدين وملك سجستان ومن معهما من العساكر ووافق ذلك وصول سلطان شاه الى هراة فلما علم بوصولهم عاد الى مرو من غير أن يقاتلها وأحرق كل ما مر به من البلاد ونهب وأقام بمرو الى الربيع وأعاد مراسلة غياث الدين في المعنى فأرسل الى أخيه شهاب الدين يعرفه الحال فنادى في عساكره الرحيل الساعة وعاد الى خراسان واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملك سجستان وغيرهم من العساكر وقصدوا

الاهداب اهدافا شكوا بالنبال * فجافيت الفيول * وشقوا بالنصال * سرابيل الخيول * ولما جد الامر * واحتد الجمر * واستعضل الداء * واستفحل الاعداء * وزخر وادي الخطب بمده * وكاد يخرج بادي الشر عن حده * نزل السلطان الى صعيد ربوة كان تشرف بها لتدبر عصفات الحرب * وتلافي نزقات ذلك المركب الصعب * فوضع لله خده * وعفر شعره * وأرسل دمعه * وقدم نذره * ودعا الله تعالى أن يحرس ملكه * ويحسن فلجه ونصره * ثم وثب الى قعدته من فيلته المغتالة فحمل بها وبسائر خاصته * على قلب ايلك فأهوى الفيل الى صاحب رايته * فاختطفه بهامن سرجه * ورمى به في الهواء من فوقه * وتخال الآخرين حطما بخرطومه * وشكا بأنيابه * ودوسا بأظلافه * واثال أولياء السلطان على الآخرين سيوف تلغ في الدماء * وترشف احساء الاحشاء * فطارت قلوبهم هواء * واستحالت قواهم هباء * وولوا على أعقابهم نافرين * وتبعهم الطلب بطيبات القسر والقهر * الى أن افظتهم خراسان الى ماوراء النهر * ولقد

سلطان شاه فلما علم ذلك جمع عساكره واجتمع عليه من الغز والمفسدين وقطاع الطريق ومن عنده طمع خلق كثير فنزل غياث الدين ومن معه فى الطالقان ونزل سلطان شاه بمرو الروذ وتقدم عسكر الغورية اليه وتواعدوا للمصاف وبقوا كذلك شهرين والرسل تتردد بين غياث الدين وبين سلطان شاه وشهاب الدين يطلب من اخيه غياث الدين الاذن فى الحرب فلا يتركه وتقرر الامر على أن يسلم غياث الدين الى سلطان شاه بوشنج وبادغيس وقلاع بيوار وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين صاحب باميان الا انهما لم يخالفا غياث الدين وفى آخر الامر حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين وحضر الامراء ليكتب العهد فقال الرسول ان سلطان شاه يطلب ان يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الامر فأرسل غياث الدين اليهما فأعاد الجواب انما انت الملك ومهما تفعله لا يمكننا مخالفتك فبينما الناس مجتمعون فى تحرير الامر واذ قد اقبل مجد الدين العلوى الهروى اليه وكان خصيصا بغياث الدين بحيث يفعل فى ملكه ما يختار فلا يخالف فجاء العلوى ويده فى يد ألب غازى ابن أخت غياث الدين وقد كتبوا الكتاب وقد احضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام ملك الباميان فجاء العلوى كأنه يسارر غياث الدين ووقف فى وسط الحلقة وقال للرسول يا فلان تقول لسلطان شاه قد تم لك الصلح من جانب السلطان الاعظم ومن شهاب الدين وبهاء الدين ويقول لك العلوى خصمك انا ومولانا ألب غازى بيننا وبينك السيف ثم صرخ صرخة ومزق ثيابه وحثى التراب على رأسه وأقبل على غياث الدين وقال له هذا واحد طرده أخوه وأخرجه فريدا وحيدا لم نترك له ما ملكناه باسيافنا من الغز والاتراك والسنجرية فاذا سمع هذا عنا يجيء أخوه يطلب منازعته والهند وجميع ما بيدك فحرك غياث الدين رأسه ولم يفه بكلمة فقال ملك سجستان للعلوى اترك الامر ينصلح فلما لم يتكلم غياث الدين بمنع العلوى قال شهاب الدين لحاو وشيته نادوا فى العسكر بالتجهز للحرب والتقدم الى مرو الروذ وقام وأنشد العلوى بيتا من الشعر عجميا معناه ان الموت تحت السيوف أسهل من الرضا بالدنية فرجع الرسول الى سلطان شاه وأعلمه الحال فرتب عساكره للمصاف والتقى الفريقان واقتتلوا فصبروا للحرب فانهزم سلطان شاه وعسكره وأخذ أكثر أصحابه اسارى فأطلقهم غياث الدين ودخل سلطان شاه مرو فى عشرين فارسا ولحق به من أصحابه نحو ألف وخمسمائة فارس ولما سمع خوارزمشاه تكش بما جرى لاخيه سار من خوارزم فى ألفى فارس وأرسل الى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه ان أراد الخطا وجد فى السير ليقبض على أخيه قبل ان يقوى فأتت الاخبار سلطان شاه بذلك فلم يقدر على عبور جيحون الى الخطا فسار الى غياث الدين وكتب اليه يعلمه قصده اليه فكتب الى هراة وغيرها من بلاده باكرامه واحترامه وحمل الاقامات اليه ففعل به ذلك وقدم على غياث الدين فلقاه واكرمه وأنزله معه فى داره وأنزل أصحاب سلطان شاه كل انسان منهم عند من هو فى طبقته فأنزل الوزير عند وزيره والعارض عند عارضه وكذلك غيره وأقام عنده حتى انسلخ الشتاء فأرسل علاء الدين بن خوارزمشاه الى غياث الدين يذكر ما صنعه أخوه سلطان شاه من تخريب بلاده وجمع العساكر عليه ... بالقبض عليه ورده اليه فأنزل الرسول واذا قد الى كتاب نائبه بهراة يخبره ان كتاب خوارز... امجاء يتهدده فأجابه انه لا يظهر لخوارزمشاه أنه

احسن السلامى فى قوله فكأنما وصف حاله * ومدح آثاره وأفعاله *

يا سيف دين الله ما أرضى العدا
لو أن سيفك مثل عدلك يعدل
ما ان سننت لهم سنانا فى الوغى
الا أطل عليه منهم أيطل
والروض من زهر الصور مضرج
والماء من ماء الترائب أشكل
والنقع ثوب بالنسور مطرز
والارض فرش بالجياد مخمل
تهفو العقاب على العقاب ويلتقى
بين الفوارس أجدل ومجدل
وسطور خيلك انما ألفاتها
سمر تنقط بالدماء وتشكل

وامتدح عند ذلك السلطان يمين الدوله * وأمين الملة * أبو القاسم الحسن بن عبد الله المستوفى بقصيدة أولها

ظهر الحق ثابت الاركان
صاعد النجم عالى البنيان
وهوى للردى ذوو النكث والبغى
وأهل الضلال والطغيان
ما الذى غركم بمحمود المحمود
...انحاز... بكل مكان
القاسم المعظم ظل الله
بالى ... صفوة المنان
فى الار

اعلمه بالحال وأحضر الرسول وقال له يقول لعلاء الدين أما قولك ان سلطان شاه أخرب البلاد وأراد ملكها فلعمري انه ملك وابن ملك وله همة عالية واذا أراد الملك فثله اراده ولا مور مدبر يوصلها الى مستحقها وقد التجأ الي وينبغي ان تنزاح عن بلاده وتعطيه نصيبه مما خلف أبوه ومن الاملاك التي خلف والاموال وأحلف لكما يمينا على المودة والمصافاة وتخطب لي بخوارزم وتزوج اخي شهاب الدين بأختك فلما سمع خوارزمشاه الرسالة امتعض لذلك وكتب الى غياث الدين كتابا يتهدده بقصد بلاده فجهز غياث الدين العساكر مع ابن اخت ألب غازي وصاحب سجستان وسيرهما مع سلطان شاه الى خوارزم وكتب الى المؤيد صاحب نيسابور يستنجده وكان قد صار بينهما مصاهرة زوج المؤيد ابنه طغان شاه بابنة غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وأقام بظاهر نيسابور على طريق خوارزم وكان خوارزمشاه قد سار عن خوارزم الى لقاء عسكر الغورية الذين مع اخيه سلطان شاه وقد نزلوا بطرف الرمل فبينما هو في مسيره اتاه خبر المؤيد انه قد جمع عساكره وانه على قصد خوارزم اذ فارقها فوقع في قلبه وعاد الى خوارزم وأخذ امواله وذخائره وعبر جيحون الى الخطا وأخلى خوارزم فوقع بها خبط عظيم فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازي وسألوه ارسال امير معهم يضبط البلد فخاف أن تكون مكيدة فلم يفعل فبينما هم على ذلك توفي سلطان شاه سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فكتب ألب غازي الى غياث الدين يعلمه الخبر فكتب اليه يأمره بالعود اليه فرجع ومعه اصحاب سلطان شاه فأمر غياث الدين بأن يستخدموا وأقطع الاجناد الاقطاعات الجيدة وكلهم قابل احسانه بكفران وسنذكر باقي اخبارهم ولما سمع خوارزمشاه تكش بوفاة اخيه عاد الى خوارزم وأرسل الى سرخس ومرو وشحناء فجهز اليهم أمير هراة عمر المرغني جيشا فأخرجوهم وقال حتى نستأذن السلطان غياث الدين وأرسل خوارزمشاه رسولا الى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة وسير مع رسوله جماعة من فقهاء خراسان والعلويين ومعهم وجيه الدين محمود بن محمود وهو الذي جعل غياث الدين شافعيا وكان له عنده منزلة كبيرة فوعظوه وخوفوه الله تعالى واعلموه ان خوارزمشاه يراسلهم يتهددهم بأنه يجيء بالاتراك والخطا ويستبيح حريمهم واموالهم وقالوا له اما ان تحضر أنت بنفسك وتجعل مرو دار ملكك حتى ينقطع طمع الكافرين ويأمن اهلها واما ان تصالح خوارزمشاه فاجاب الى الصلح وترك معارضة البلاد فلما سمع من بخراسان من الغز بذلك طمعوا في البلاد فعاودوا النهب والاحراق والتخريب فسمع خوارزمشاه فجمع عساكره وحضر بخراسان ودخل مرو وسرخس ونسا وابيورد وغيرها وأصلح البلاد وتطرق الى طوس وهي للمؤيد صاحب نيسابور فجمع المؤيد جيوشه وسار اليه فلما سمع خوارزمشاه بمسيره اليه عاد الى خوارزم فلما وصل الى الرمل أقام بطرفه فلما سمع المؤيد بعودة خوارزمشاه طمع فيه وتبعه فلما سمع خوارزمشاه بذلك ارسل الى المناهل التي في البرية فألقى فيها الجيف والتراب بحيث لم يمكن الانتفاع بها فلما توسط المؤيد البرية طلب الماء فلم يجده فجاء خوارزمشاه اليه وهو على تلك الحال ومعه الماء على الجمال فأحاط به فأما عسكره فاستسلموا بأسرهم وجيء بالمؤيد أسيرا الى خوارزمشاه فأمر بضرب عنقه فقال له يا مخنث هذا فعال الناس فلم يلتفت اليه وقتله وحمل رأسه الى خوارزم فلما قتل ملك نيسابور ملك ما كان له ابنه

من مناويه نهزة للمنايا
غرض للحتوف والاحزان
ملك صار من مضى من ملوك
الارض لفظا وجاء عين المعاني
نخر المشرقان بالحظ منه
فاستطالا فاشتاقه المغربان
جمع الله فيه وهو قدير
عالما للكمال في جثمان
سيفه والمنون طرفا رهان
نحو حلق العدو يبتدران
خدعتني بأن سيخضع حقا
لليمين كل سيف يماني
لو عصا خروع تسمى اليمنية
ظلت تحكي في السندان
انما سيفه شبيه عصا موسى
ابن عمران صاحب الثعبان
وقرا جوابا تكم كيد سحر
فاذا جاءت العصا فهو فان
ملك وهو في الحقيقة عندي
ملك صيغ صيغة الانسان
ملك عادل فادني ضعيف
وأخوه في حكمه سيان
أخذ الهند بالماني ويحوي
يمنا ان أراد بالهندواني
غاب عن غابة الهزبر لغزو
الشهند مستنزلا رضا الرحمن
فسبى واستباح واجتاح منهم
وأحل النكال بالاوثان
وانثنى قافلا وقد ملأ الايدي
فيا أوفاز بالرضوان
فسطا بأسه بطاغية الترك
وأهل الشقاق والعصيان
طلبت راية له فتولوا

طغان شاه فلما كان من قابل جمع خوارزمشاه عساكره وسار الى نيسابور فحاصرها وقاتلها فتبعه طغان شاه واخذه وزوجه اخته وحمله معه الى خوارزم وملك نيسابور وما كان لطغان شاه وقوى امره هذا الذى ذكره فى هذه الرواية يخالف لما تقدم ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلت فان أحدهما قد قدم ما أخره الآخر فلهذا أوردنا جميع ما قالاه ولبعد البلاد عنا لم نعلم أى القولين أصح لنذكره ونترك الآخر وانما أوردتها فى موضع واحد لان أيام سلطان شاه لم تطل له ولا عقابه حتى تتفرق على السنين فلهذا أوردتها متتابعة

(ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج)

فى هذه السنة فى ربيع الاول اجتمعت الفرنج وساروا الى بلد حوران من أعمال دمشق للغارة عليه وبلغ الخبر الى نور الدين وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكسوة فسار اليهم مجدا وقدم بجموعه عليهم فلما علموا بقربه منهم دخلوا الى السواد وهو من أعمال دمشق أيضا ولحقهم المسلمون فتخطفوا من ساقتهم ونالوا منهم وسار نور الدين فنزل فى عشترا وسير منها سرية الى أعمال طبرية فشنوا الغارات عليها فنهبوا وسبوا واحرقوا واخربوا فسمع الفرنج ذلك فرحلوا اليهم ليمنعوا عن بلادهم فلما وصلوا كان قد فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم وعادوا وعبروا النهر وأدركهم الفرنج فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم فقاتلوهم فاشتد القتال وصبر الفريقان فان الفرنج يرومون ان يلحقوا الغنيمة فيردوها والمسلمون يريدون ان يمنعوهم عنها ليتخلص بها من قد سار معها فلما طال القتال بينهم وأبعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين عاد الفرنج ولم يقدروا أن يستردوا منها شيأ

(ذكر مسير شمس الدولة الى بلد النوبة)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الاكبر من مصر الى بلد النوبة فوصل الى أول بلادهم ليتغلب عليه ويملكه وكان سبب ذلك ان صلاح الدين واهله كانوا يعلمون ان نور الدين كان على عزم الدخول الى مصر فاستقر الرأى بينهم أنهم يتملكون اما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد فان قووا على منعه اقاموا بمصر وان عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التى قد افتتحوها فجهز شمس الدولة وسار الى اسوان ومنها الى بلد النوبة فنازل قلعة اسمها ابريم فحصرها وقاتله أهلها فلم يكن لهم بقتال العسكر الاسلامى قوة لانهم ليس لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب فسلموها فملكها واقام بها ولم ير للبلاد دخلا يرغب فيه وتحتمل المشقة لاجله وقوتهم الذرة فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد الى مصر بما غنم وكان عامة غنيمتهم العبيد والجوارى

(ذكر ظفر مليح بن ليون بالروم)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى هزم مليح بن ليون الارمنى صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب عسكر الروم من القسطنطينية وسبب ذلك ان نور الدين كان قد استخدم مليحا المذكور وأقطعه اقطاعا سنيا وكان ملازم الخدمة لنور الدين ومشاهد الحروب مع الفرنج ومباشرا لها وكان هذا من جيد الرأى وصائبه فان نور الدين لما قيل له فى معنى استخدامه واعطائه

الاقطاع

كم بادية لله من ضان
كم قتيل وكم جريح وغرقى
واسير فى القد ذى رسفان
طار أيدى سبا عساكر ظنوا
انهم ملكوا الى البلدان
خطبوا الملك فاعترتهم خطوب
جرعتهم مرارة الخطبان
بخوارزم فى السجون ألوف
وألوف تهيم فى جرجان
وبمرو وفى القفار الى جيحون
قتلى مأكل الحيتان
جزر للسباع فى كل فج
طعم للنسور والعقبان
بارك الله ربنا فى خميس
ردعنا خمسين ألف عنان
شربوا السم عام أول لما
عبثوا الشفاه بالاقحوان
ثم عادوا فى العام بالعسكر الجـرو بالحور والملاح الحسان
فأتى المرد فوق جرد المذاكى
من خناذيذ أو من الخصيان
بوجوه مضيئة كبدور
طالعات جنح ليلها الاضحيان
صادموا الصخر بالزجاج وظنوا
ان يصيدوا الاسود بالغزلان
قد لعمرى يكون ذاك ولكن
ليس فى كل موقف ومكان
هو شمس النهار فوق سرير الملك
فى صدره من الايوان
وكتب ابو الفضل الهمذانى البديع الى الشيخ الوزير ابى العباس هذا ورب الكعبة

الاقطاع في بلاد الشام قال أستعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكري تكون بازائه تمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له وكان مليح ايضا يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الارمن والروم وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فأخذها مليح منهم لانها تجاور بلاده فسير اليه ملك الروم جيشا كثيفا وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه فلقيهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال وصابرهم فانهزمت الروم وكثر فيهم القتل والاسر وقويت شوكة مليح وانقطع أمل الروم من تلك البلاد وأرسل مليح الى نور الدين كثيرا من غنائمهم ومن الاسرى ثلاثين رجلا من مشهوريهم وأعيانهم فسير نور الدين بعض ذلك الى الخليفة المستضيء بأمر الله وكتب يمتد بهذا الفتح لان بعض جنده فعلوه

(ذكر وفاة ايلدكز)

في هذه السنة توفي اتابك شمس الدين ايلدكز بهمذان وملك بعده ابنه محمد البهلوان ولم يختلف عليه أحد وكان ايلدكز هذا مملوكا للكمال السميرمي وزير السلطان محمود فلما قتل الكمال كما ذكرناه سار ايلدكز الى السلطان محمود فلما ولي السلطان مسعود السلطنة ولاه ارانية فمضى اليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره ثم ملك أكثر اذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها واصفهان والري وما والاها من البلاد وخطب بالسلطنة لابن امرأته ارسلان شاه بن طغرل وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الاتباع واتسع ملكه من باب تفليس الى مكران ولم يكن للسلطان ارسلان معه حكم انما كان له جراية تصل اليه وبلغ من تحكمه عليه انه شرب ليلة فوهب ما في خزانته وكان كثيرا فلما سمع ايلدكز بذلك استعاده جميعا وقال له متى أخرجت المال في غير وجهه أخذته أيضا من غير وجهه وظلمت الرعية وكان ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكاويهم وينصف بعضهم من بعض

(ذكر وصول الترك الى افريقية وملكهم طرابلس وغيرها)

في هذه السنة سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش مملوك تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب الى جبال نفوسة واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الامراء هناك وكان خارجا عن طاعة عبد المؤمن فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها ثم فتحت فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيرا من بلاد افريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير فحكم على تلك البلاد بمساعدة العرب بما جبلت عليه من التخريب والنهب والافساد بقطع الاشجار والثمار وغير ذلك فجمع بها أموالا عظيمة وجعلها بمدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع افريقية لبعد ابي يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها وكان ما سنذكره ان شاء الله

(ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس)

في هذه السنة جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عساكره وسار من اشبيلية الى الغزو فقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة رندى وهي بالقرب من طليطلة شرقا منها وحصرها

ولا تحلم بعدها للملك * لقد كايس السلطان اذ غفر الله شعره * وعرض على الله فقره * وفوض الى الله أمره * وأخلص لله نذره * وناهض بالله خصمه * وسأل الله حوله * ولم يحجبه كثرة الملاحوله * فشد الله بذلك ازره * وقوى أمره * وأعز نصره * وأقطعه عصره * وأطعمه ملكه * وأورثه أرضه * ان الظفر بأسبابه * والموفق يأتي الامر من بابه (وله فصل منه) انه الجلاد ثم البلاد مساكنكم لا يحطمنكم سليمان كتب الله ايغالبن السلطان ووراءك ان السيف أمامك وخلفك فان الموت قدامك وأرضك أرضك ان تأتنا تنم نومة ليس فيها احلم ان المغازي * قد عادت مخازي * ألا رب ركض نادم * ورب شوط ظالم * ورب عبور الى ثبور * ورب طمع يهدي الى طبع * ألا ان هذا الفتح فتح حفظ على الشريعة ماءها * وعلى السنة دماءها * وعلى النفوس ذماءها * وعلى الاموال نماءها * وعلى الحرم غطاءها * أعاد الله به البلاد خلقا جديدا * وأنشأ الناس نشأ حديثا * وعقد الملك عقدا طريفا * فما أولى يومه أن يتخذ عيدا * ويجعل في المتصرفات تاريخا جديدا * وليس

واجتمعت الفرنج على ابن الفنش ملك طليطلة في جمع كثير فلم يقدموا على لقاء المسلمين فاتفق
ان الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الاقوات عندهم وهم في جمع كثير فاضطروا الى مفارقة
بلاد الفرنج فعادوا الى اشبيلية وأقام يعقوب بها الى سنة احدى وسبعين وخمسمائة وهو
على ذلك يجهز العساكر ويسيرها الى غزو بلاد الفرنج في كل وقت فكان له فيها عدة وقائع
وغزوات ظهر فيها للعرب من الشجاعة مالا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين
الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز اليه أحد ثم عاد أبو يعقوب
الى مراكش

(ذكر نهب نهاوند)

في هذه السنة نهب عسكر شملة نهاوند وسبب ذلك ان شملة كان أيام ايلدكز لا يزال يطلب منه
نهاوند لكونها مجاورة بلاده ويبذل فيها الاموال فلا يجيبه الى ذلك فلما مات ايلدكز وملك
بعده ولده محمد البهلوان وسار الى اذربيجان لاصلاحها انفذ شملة ابن أخيه ابن شنكا الاخذ نهاوند
وبلغ أهل البلد الخبر فحصنوا وحصرهم وقاتلهم وقاتلوه وأفحشوا في سبه فلما علم انه لا طاقة له
بهم رجع الى تستر وهي قريبة منها وأرسل أهل نهاوند الى البهلوان يطلبون منه نجدة فتأخرت
عنهم فلما اطمأنوا اخرج ابن شنكا من تستر في خمسمائة فارس وسار يوما وليلة فقطع أربعين
فرسخا حتى وصل الى نهاوند وضرب البوق وأظهر انه من أصحاب البهلوان لانه جاءهم من
ناحيته ففتح أهل البلد الابواب فدخله فلما توسط قبض على القاضي والرؤساء وصلبوهم
ونهب البلد وقطع أنف الوالي وأطلقه وتوجه نحو ماسبذان قاصدا العراق

(ذكر قصد نور الدين بلاد قلج ارسلان)

في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي الى مملكة عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج
ارسلان وهي ملطية وسيواس واقصرا وغيرها ملازما على حربه وأخذ بلاده منه وكان سبب
ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس قصده قلج ارسلان وأخذ بلاده
وأخرجه عنها طريدا فريدا فسار الى نور الدين مستجيرا به وملتجئا اليه فأكرم نزله وأحسن
اليه وحمل له ما يليق أن يحمل الى الملوك ووعده النصرة والسعي في رد ملكه اليه ثم انه أرسل
الى قلج ارسلان يتشفع في اعادة ملكه فلم يجبه الى ذلك فسار نور الدين اليه فابتدأ بكيسون
وبهنسى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها وكان ملكه لمرعش أوائل ذي القعدة والباقي
بعدها فلما ملكها سير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قلج ارسلان لما سار نور
الدين الى بلاده قد سار من طرفها التي تلي الشام الى وسطها وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله
الصلح فتوقف نور الدين عن قصده رجاء ان ينصلح الامر بغير حرب فأتاه عن الفرنج ما أزعجه
فأجابه الى الصلح وشرط عليه ان ينجده بعساكر الى الغزاة وقال له أنت مجاور الروم ولا تغزوهم
وبلادك قطعة كبيرة من بلاد الاسلام ولا بد من الغزاة معي فأجابه الى ذلك وبقي سيواس على
حالها بيد نواب نور الدين وهي لذي النون فبقي العسكر في خدمة ذي النون الى ان مات نور
الدين فلما مات رحل عسكره عنها وعاد قلج ارسلان وملكها وهي بيد أولاده الى الآن سنة نيف
وعشرين وستمائة ولما كان نور الدين في هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد بن

عبد

العقد مع الله بأنشوطة * فأوفوا الله عهده * كما صدقكم وعده * وانما عهده عند السلطان أن يحسن النظر * وعهده عند الشيخ الجليل أن يحسن الحضر * وهراة من البلاد شيعة هذه الدولة وعيبتها فإن حط عن حالها العلاوه * وأزيل عن عيرتها الاتاوه * فلله هذا النظر ما أحلى ثماره * وأكرم آثاره * ولما وضعت هذه الحرب أوزارها * وأفاضت غرة النصر أنوارها * سنح للسلطان أن يكبح أعنته الى جانب الهند للايقاع بالمعروف بنواسه شاه أحد أولاد ملوك الهند كان نصبه ببعض ما افتتحه من ممالكهم لخلافته على سد ثغورها * وتحصين أطرافها وحدودها * اذ كان * قد استحوذ عليه الشيطان * فارتد في حافرة الشرك وانسلخ عن جلدة الاسلام * وراطن زعماء الكفار على خلع ربقة الدين والانفصام * عن عروة الحبل المتين فعن من فوره اليه * وصب سيوفا تقطر من دماء مخالفيه عليه * وركضا بادر أفواج الرياح * واختصر أوقات الاظلام والاصباح * حتى نفاه عن مثواه * وملك عليه جملة ما حواه * وأعاده الى تلك

عبد الله بن الشهرزورى من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة واربل وخلاط
والشام وبلاد قلج ارسلان وديار مصر

* (ذكر رحيل صلاح الدين من مصر الى الكرك وعوده عنها) *

فى هذه السنة فى شوال رحل صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر بعساكرها جميعها الى
بلاد الفرنج يريد حصر الكرك والاجتماع مع نور الدين عليه والاتفاق على قصد بلاد الفرنج
من جهتين كل واحد منهما فى جهة بعسكره وسبب ذلك ان نور الدين لما أنكر على صلاح الدين
عوده من بلاد الفرنج فى العام الماضى وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه أرسل يعتذر
ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما ان صلاح
الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق فأيهما سبق صاحبه يقيم الى أن يصل الآخر
اليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين عن مصر لان طريقه
أبعد وأشق ووصل الى الكرك وحصره وأما نور الدين فانه لما وصل اليه كتاب صلاح الدين
برحيله من مصر فرق الاموال وحصل الازواد وما يحتاج اليه وسار الى الكرك فوصل الى
الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله
واتفق رأيهم على العود الى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لانهم علموا انه ان اجتمعا كان عزله
على نور الدين سهلا فلما عاد أرسل الفقيه عيسى الى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد
استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر وانه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث
حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف
فجاء الرسول الى نور الدين وأعلمه ذلك فعظم عليه وعلم المراد من العود الا انه لم يظهر للرسول
تأثرا بل قال له حفظ مصر أهم عندنا من غيرها وسار صلاح الدين الى مصر فوجد أباه قد قضى
نحبه ولحق بربه وكلمة تقول لقائلها دعنى وكان سبب موت نجم الدين انه ركب يوما فرسا بمصر
فنفر به الفرس نفرة كبيرة شديدة فسقط عنه فحمل الى قصره وقيذا وبقى أياما ومات فى السابع
والعشرين من ذى الحجة وكان خيرا عاقلا حسن السيرة كريما جوادا كثير الاحسان الى
الفقراء والصوفية والمجالسة لهم وقد تقدم من ذكره وابتداء امره وأمر أخيه شيركوه
ما لا حاجة الى اعادته

* (ذكر عدة حوادث) *

فى هذه السنة زادت دجلة زيادة كثيرة أشرفت بها بغداد على الغرق فى شعبان وسدوا أبواب
الدروب ووصل الماء الى قبة أحمد بن حنبل ووصل الى النظامية ورباط شيخ الشيوخ واشتغل
الناس بالعمل فى القورج ثم نقص وكفى الناس شره وفيها وقعت النار ببغداد من درب بهروز
الى باب جامع القصر ومن الجانب الآخر من حجر النحاس الى دار أم الخليفة وفيها أغار بنو حزن
من خفاجة على سواد العراق وسبب ذلك ان الحماية كانت لهم لسواد العراق فلما تمكن يزدن
من البلاد وتسلم الحلة أخذها منهم وجعلها لبنى كعب من خفاجة واغار بنو حزن على السواد
فسار يزدن فى عسكر ومعه الغضبان الخفاجى وهو من بنى كعب لقتال بنى حزن فبينما هم
سائرون ليلا رمى بعض الجند الغضبان بسهم فقتله لفساده وكان فى السواد فلما قتل عاد العسكر

البقاع بهيبة ملكه وسلطانه
* ورحض فجور الشرك عنها
بحدى سيفه وسنانه *
فذلك برهانان من ربك
فى اعلاء دولته * واشاعة
دعوته * واعزاز نصرته *
وافلاج حجته * ويسر الله
له الانقلاب الى غزنة *
مظاهرا له بين نصرين
يتهاديان فخامة وجلالة *
ويتباريان نباهة وجزالة *
وذلك فضل الله يؤتيه من
يشاء والله ذو الفضل
العظيم

* (ذكر فتح قلعة بهيم نغر) *

قد كان السلطان يمين
الدولة * وأمين الملة بعد
أن فتح الفصين * واقتدح
النجدين * عرج على غزنة
للاستراحة * والتفرغ
لشكر الله على النعم
المتاحة * فأقام بها
شاحذا عزيمته لغزوة
اخرى ترتفع بها حدود
الاسلام * وينعفر لها
خدود الاصنام *
وتتنكس عندها رايات
الشيطان فى رحل الغواية
شده * وحبل الضلالة
مده * اذ كان بعد همته
يومه خلاف الطبائع
البشرية فى استخشان
المضجع الوثير واستصحاب
الشوك على الوثير
واختيار قرع الاسنة
والعوالى * على نقيب

الى بغداد وأعيدت خفارة السواد الى بنى حزن وفيها خرج ترجم الايوانى فى جمع من التركمان فى حياة ايلدكز وتطرق أعمال همذان ونهب الدينور واستباح الحريم وسمع ايلدكز الخبر وهو بنقجوان فسار مجدا فيمن خف من عسكره فقصده فهرب ترجم الى أن قارب بغداد وتبعه ايلدكز فظن الخليفة انها حيلة ليصل الى بغداد فجأة فشرع فى جمع العساكر وعمل السور فأرسل الى ايلدكز الخلع والالقاب الكبيرة فاعتذر انه لم يقصد الا كف الامير يزدن وهو من أكابر أمراء بغداد وكان يتشيع فوقع بسببه فتنة بين السنية والشيعة بواسط لان الشيعة جلسوا له للعزاء وأظهر السنية الشماتة به فآل الامر الى القتال فقتل بينهم جماعة ولما مات أقطع أخوه تنامش ما كان لاخيه وهى مدينة واسط ولقب علاء الدين وفيها أرسل نور الدين محمود بن زنكى رسولا الى الخليفة وكان الرسول القاضى كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشهرزورى قاضى بلاده جميعها مع الوقوف والديوان وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان وما هو عليه من جهاد الكفار وفتح بلادهم ويطلب تقليدا بما بيده من البلاد مصر والشام والجزيرة والموصل وبما فى طاعته كديار بكر وما يجاور ذلك كخلاط وبلاد قلج ارسلان وان يعطى من الاقطاع بسواد العراق ما كان لابيه زنكى وهو صريفين ودرب هرون والتمس أرضا على شاطئ دجلة يبنيها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودرب هرون فأكرم كمال الدين اكراما لم يكرمه رسول قبله وأجيب الى ما التمسه فمات نور الدين قبل الشروع فى بناء المدرسة رحمه الله

(ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة)

(ذكر ملك شمس الدولة زبيد وغيرها من بلاد اليمن)

قد ذكرنا قبل ان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود أن يدخل الى مصر فيأخذها منهم فشرعوا فى تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم ان أخرجهم نور الدين من مصر ساروا اليها وأقاموا بها فسيروا شمس الدولة توران شاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الاكبر الى بلد النوبة فكان ما ذكرناه فلما عاد الى مصر استأذنوا نور الدين فى أن يسير الى اليمن لقصد عبد النبى صاحب زبيد لاجل قطع الخطبة العباسية فأذن فى ذلك وكان بمصر شاعر اسمه عمارة من أهل اليمن فكان يحسن لشمس الدولة قصد اليمن ويصف البلاد له ويعظم ذلك فى عينه فزاده قوله رغبة فيها فشرع يتجهز ويعد الازواد والروايا والسلاح وغيره من الآلات وجند الاجناد فجمع وحشد وسار عن مصر مستهل رجب فوصل الى مكة أعزها الله تعالى ومنها الى زبيد وفيها صاحبها المتغلب عليها المعروف بعبد النبى فلما قرب منها رآه أهلها فاستقل من معه فقال لهم عبد النبى كأنكم بهؤلاء وقد جنى عليهم الحر فهلكوا الا أكلة رأس فخرج اليهم بعسكره فقاتلهم شمس الدولة ومن معه فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا ووصل المصريون الى سور زبيد فلم يجدوا عليه من يمنعهم فنصبوا السلالم وصعدوا السور فملكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب وأخذوا عبد النبى أسيرا وزوجته المدعوة بالحرة وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة لاسيما اذا جاء فقراء الحاج كانوا يجدون عندها صدقة دارة وخيرا كثيرا ومعروفا عظيما فلما أسر شمس

الثالث والثانى * وترجيح حدود البيض القواضب * على خدود البيض الكواعب * كل ذلك لجد يثنيه * وصيت يقتنيه * وعز يحويه * وسعى يتقرب الى الله به وفيه * حتى اذا انسلخ ربيع الآخر من السنة المذكورة استخار الله فى اتمام ما رامه * واسراج ما تولى الجامه * متوكلا على الله الذى طالما أطعمه نصره * وعرفه صنعه * حتى اذا انتهى المسير به الى شط ويهند لاقاه ابرهمن بال بن اندبال * فى جيوش تجيش بسود الرجال فى بيض الصفاح * وزرق الاسنة وسمر الرماح * وزهر الدروع ودكن الفيول وافترت الحرب عن أنيابها العصل وتوالت الحملات كما تتهادى لوامع الشهب * وتترامى نوازع السحب * ودارت رحا الطعان والضراب طاحنة كل ندب شجاع وقرم مطاع * وامتدت الوقعة من طفولة النهار الى كهولة الطفل حتى اكتست الارض لون الشقائق * من دماء الطلى والعواتق * وكادت تدور للكفار دائرة لولا أن الله اعان السلطان على حملة فى نواصى علمائه كسعت

الدولة بعبد النبي وسلم شمس الدولة عبد النبي الى بعض امرائه يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بني منقذ أصحاب شيزر وامره ان يستخرج منه الاموال فأعطاه منها شيأ كثيرا ثم انه دلهم على قبر كان قد صنعه لوالده وبنى عليه بنية عظيمة وله هناك دفائن كثيرة فأعلمهم بها فاستخرجت الاموال من هناك وكانت جليلة المقدار وأما الحرة فانها أيضا كانت تدلهم على ودائع لها فأخذ منها مالا كثيرا ولما ملكوا زبيد واستقر الامر لهم بها ودانت أهلها وأقيمت فيها الخطبة العباسية أصلحوا حالها وساروا الى عدن وهي على البحر ولها مرسى عظيم وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها وصاحبها انسان اسمه ياسر فلو اقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبين ولكن حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج اليهم ومباشرة قتالهم فسار اليهم وقاتلهم فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل أهله فملكوه وأخذوا صاحبها ياسرا أسيرا وأرادوا نهب البلد فمنعهم شمس الدولة وقال ما جئنا لنخرب البلاد وانما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها فلم ينهب أحد منها شيأ فبقيت على حالها وثبت ملكه واستقر أمره ولما مضى الى عدن كان معه عبد النبي صاحب زبيد مأسورا فلما دخل الى عدن قال سبحان الله كنت قد علمت اني أدخل الى عدن في موكب كبير فأنا انتظر ذلك وأسر به ولم أكن أعلم اني أدخلها على هذا الحال ولما فرغ شمس الدولة من أمر عدن عاد الى زبيد وحصر ما في الجبل من الحصون فملك قلعة تعز وهي من أحصن القلاع وبها تكون خزائن صاحب زبيد وملك أيضا قلعة التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون واستناب بعدن عز الدين عثمان بن الزنجيلي وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ وجعل في كل قلعة نائبا من أصحابه والقى ملكهم باليمن بجرانه ودام وأحسن شمس الدولة الى أهل البلاد واستصفى طاعتهم بالعدل والاحسان وعادت زبيد الى أحسن أحوالها من العمارة والامن بعد خرابها

(ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين)

في هذه السنة ثاني رمضان صلب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعة ممن أراد الوثوب به بمصر من اصحاب الخلفاء العلويين وسبب ذلك ان جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية القصر ووافقهم جماعة من امراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شئ بذلوه لهم من المال والبلاد فاذا قصدوا البلاد فان خرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر واعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا به وأخذوه اخذا باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وانا قد ابعدت اخاه الى اليمن خوفا ان يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا الى الفرنج بصقلية والساحل في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الفرنج وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين علي بن نجا الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي

أدبارهم * ومحت عن مقامهم آثارهم * واغنمه ثلاثين فيلا كأشخاص القصور * بل كأمواج البحور * وأقبل أولياؤه يحسونهم أنى يثقفونهم من بطون الاودية والشعاب * وظهور الفيافي والهضاب * واقتنى السلطان بنفسه أثره بين تلك المهارب * متنجزا وعد الله في نصرة دينه * وقتل كل ذي نفاق وشقاق لجبينه * فأفضى به الطلب الى برهيم نغر حصن قلعة بنيت على حرف طود رفيع * خلال ما منيع * وقد كان ملوك الهند وأعيان أهلها وجماعات النساك من ذوي الاملاك بها يدخرونها مخزنة للصنم الاعظم فينقلون اليها قرنا بعد قرن من أنواع الذخائر * وأعلاق الجواهر * ما تخف أوزانه * وتثقل عند السوم قيمه وأثمانه * عبادة بزعمهم لما يفيدهم الحسنى * ويقربهم الى الله زلفى * فصادف السلطان منها ثمرة الغراب * وزبدة الاحقاب * ما لا تقله ظهور الاجمال * ولا تسعه أوعية الاحمال * ولا تنسخه أيدي الكتاب * ولا تدركه فكر الحساب * فحشر عليها جنوده * وضرب حواليها بنوده * وانبرى لقتال مستحفظيها بقلب بري *

والقضاة الان بنى رزيك قالوا يكون الوزير منا وبنى شاور والقاضى قالوا يكون الوزير منا
فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين وأعلمه حقيقة الامر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم
ومواطأتهم على ما يريدون يفعلونه وتعريفه ما يتجدد أولا بأول ففعل ذلك وصار يطالعه
بكل ما عزموا عليه ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو فى الظاهر اليه
والباطن الى اولئك الجماعة وكان يرسل اليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فاتى الخبر الى صلاح
الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من
النصارى وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على المقدمين فى هذه الحادثة
منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم وقيل فى كشف امرهم ان عبد
الصمد المذكور كان اذا لقى القاضى الفاضل الصلاحى يخدمه ويتقرب اليه بجهده وطاقته
فلقيه يوما فلم يلتفت اليه فقال القاضى الفاضل ما هذا الا لسبب وخاف أن يكون قد صار له
باطن مع صلاح الدين فأحضر على بن نجا الواعظ وأخبره الحال وقال أريد تكشف لى الامر
فسعى فى كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيأ فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال
وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال اليه
فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع فذكر له الحال فقام واخذ الجماعة وقررهم فاقروا فأمر
بصلبهم وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلبه قام القاضى
الفاضل وخاطب صلاح الدين فى اطلاقه وظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين
يا مولانا لا تسمع منه فى حقى فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة انه كان يشفع فيك
فندم ثم اخرج عمارة ليصلب فطلب ان يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه
ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى أقاصى
الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله وأما الذين نافقوا على
صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا أعلمهم انه علم بحالهم وأما الفرنج فان فرنج صقلية
قصدوا الاسكندرية على ما نذكره ان شاء الله تعالى لانهم لم يتصل بهم ظهور الخبر عند صلاح
الدين وأما فرنج الساحل الشامى فانهم لم يتحركوا لعلمهم بحقيقة الحال وكان عمارة شاعرا
مفلقا فمن شعره

لو ان قلبى يوم كاظمة معى * لملكته وكففت فيض الادمع
قلب كفاك من الصبابة انه * لبى نداء الظاعنين وما دعى
ما القلب أول غادر فألومه * هى شيمة الايام مذ خلقت معى
ومن الظنون الفاسدات توهمى * بعد اليقين بقاءه فى اضلعى

وله أيضا

لى فى هوى الرشا العذرى اعذار * لم يبق لى مذ أقر الدمع انكار
لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى * ضم النهود لبانات واوطار

وأثقف حى * وحزم ذكى * وبطش قوى * ورأى بالصواب ورى * ولما رأى القوم غصص تلك الشعاب بغاوير الجنود * وتطاير النبال صعدا كشرر الوقود * استفزهم الرعب والوجل * وألوى بأحلامهم الخوف والوهل * فتخطت أبصارهم تلك الرتوق فتوقفا وهاتيك السدود فروجا والسكور بثوقا * وحضرتهم دولة السلطان فهزتهم كلاب الادبار والخذلان * وأعيتهم وجوه الامن الامن جانب الاستيمان * فتنادوا جميعا بشعار السلطان * وفتحوا أبواب القلعة وجعلوا يتساقطون الى الارض للامان * كالعصافير أخرجتها البواشق * والغيوث جادتها الغيوم البوارق * وفتح الله تلك القلعة على السلطان فتحا يسيرا * وآتاه من لدنه صنعا كبيرا * واغنمه ملء مقترح النفوس من بنات المعادن والصور * وزاينات القمم والتصور * ودخلها فى والى الجوزجان أبى نصر احمد ابن محمد الفريغونى وسائر خاصته ووكل حاجبيه الكبيرين التونتاش وآسغ تكين بخزائن العين والورق وسائر ذوات الاخطار والقيم وتوكل بنفسه بخزانة

هذا اختياري فوافق ان رضيت به * اولا فدعني وما أهوى واختار

وله ديوان شعر مشهور في غاية الحسن والرقة والملاحة

(ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله)

في هذه السنة توفي نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر يوم الاربعاء حادي عشر شوال بعلة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ونقل منها الى المدرسة التي انشأها بدمشق عند سوق الخواصين ومن عجيب الاتفاق انه ركب ثاني شوال والى جانبه بعض الامراء الاخيار فقال له الامير سبحان من يعلم هل نجتمع هنا في العام المقبل ام لا فقال نور الدين لا تقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر ام لا فمات نور الدين رحمه الله بعد احد عشر يوما ومات الامير قبل الحول فأخذ كل منهما بما قاله وكان قد شرع يتجهز للدخول الى مصر لاخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب فانه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته وكان يعلم انه انما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به فانه يؤثر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فارسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة وكان عزمه ان يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره الى مصر فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مرد له حكى لي طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الاطباء قال استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الاطباء فدخلنا اليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له كان ينبغي أن لا تؤخر احضارنا الى أن يشتد بك المرض الآن وينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسيح مضيء فله أثر في هذا المرض وشرعنا في علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن ستين لا يفتصد وامتنع منه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضي عنه وكان اسمر طويل القامة ليس له لحية الا في حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة ابن أيوب وملكها وكان مولده سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم ار فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز احسن من سيرته ولا اكثر تحريا منه للعدل وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من اخبار دولتهم ولنذكر ههنا نبذة لعل يقف عليها من له حكم فيقتدي به فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه فانه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت اليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو العشرين دينارا فلما استقلتها قال ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لاجلك وكان يصلي كثيرا بالليل وله فيه اوراد حسنة وكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما احسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث واسمعه طلبا

الجواهر فنقل منها ما أثقل ظهور رحاله * واستعمل سائرها أعيان رجاله * فكان مبلغ المنقول من الورق سبعين ألف ألف درهم شاهية ومن الذهبيات والفضيات سبعمائة ألف ألف وأربعمائة منا وزنا ومن أصناف الثياب التسترية والديابيج السوسية ما أنطق مشايخ الزمان * والطاعنين في الاسنان * أنه لا عهد لهم بأمثالها صنعة وتفويفا وتزيينا وتلطيفا * وفي جملة الموجود بيت من الفضة البيضاء كفاء بيوت الاغنياء طوله ثلاثون ذراعا في عرض خمس عشرة ذراعا صفائح مضروبة مهيأة للطي والنشر والنصب والحط وشراع من ديباج الروم أربعون ذراعا في عرض عشرين ذراعا بقائمتين من ذهب واخريين من سبيكة فضة ووكل السلطان بتلك القلعة من ثقاته من يراعيها * ويؤدي امانة الاستحفاظ فيها * وكر عائدا الى غزنة في ضمان النصر والاظهار * وقران اليسر واليسار * ولما مست عصاه جانب القرار بها امر بساحة داره ففرشت بتلك الجواهر من درر كالنجوم الثواقب قد سلت على الايدي

للاجر وأماعدله فانه لم يترك فى بلاده على سعتها مكسا ولا عشرا بل أطلقها جميعها فى مصر
والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند احكامها واحضره انسان الى
مجلس الحكم فمضى معه اليه وأرسل الى القاضى كمال الدين بن الشهرزورى يقول قد جئت
محاكما فاسلك معى ماتسلك مع الخصوم وظهر الحق له فوهبه الخصم الذى احضره وقال اردت
ان اترك له مايدعيه انما خفت ان يكون الباعث لى على ذلك الكبر والانفة من الحضور الى
مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته مايدعيه وبنى دار العدل فى بلاده وكان يجلس هو والقاضى
فيها ينصف المظلوم ولو انه يهودى من الظالم ولو انه ولده او اكبر أمير عنده واما شجاعته فاليها
النهاية وكان فى الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بهما فقال له القطب النساوى الفقيه بالله
عليك لاتخاطر بنفسك وبالاسلام فان اصبت فى معركة لايبقى من المسلمين احد الا اخذه السيف
فقال له نور الدين ومن محمود حتى يقال له هذا من قبلى من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله
الذى لا اله الا هو وأما ماله من المصالح فانه بنى أسوار مدن الشام جميعها والقلاع منها دمشق
وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى
الجامع النورى بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات فى الطرق وبنى الخانكاهات فى جميع
البلاد واوقف على الجميع الوقوف الكثيرة سمعت ان حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار
صورى وكان يكرم العلماء واهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجلسهم معه وينبسط معهم
ولايرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده وكان وقورا مهيبا مع تواضعه وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه
غزيرة لايحتملها هذا الكتاب

(ذكر ملك ولده الملك الصالح)

لما توفى نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسمعيل بالملك بعده وكان عمره احدى عشرة سنة وحلف
له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له
بها وضرب السكة باسمه وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم
وصار مدبر دولته فقال له كمال الدين صاحب مصر هو من أصحاب نور الدين والمصلحة أن
نشاوره فى الذى نفعله ولانخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو
اقوى منا لانه قد انفرد اليوم بملك مصر فلم يوافق هذا القول اغراضهم وخافوا ان يدخل صلاح
الدين ويخرجهم فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يعزيه
ويهنئه بالملك وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه ان الخطبة والطاعة له كما كانت لابيه
فلما سار سيف الدين غازى صاحب الموصل وملك البلاد الجزرية على ماذكره فارسل صلاح
الدين أيضا الى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده واخذها ليحضر فى خدمته
ويكف سيف الدين وكتب الى كمال الدين والامراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من
يقوم مقامى او يثق اليه مثل ثقته الى لسلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل
عليه الموت لم يعهد الى احد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بمولاى
وابن مولاى دونى وسوف أصل الى خدمته وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى
كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده وتمسك ابن المقدم وجماعة الامراء بالملك

الثواقب * ومن يواقيت
كالجمر قبل الخمود * اوالجمر
بعد الجمود * ومن زبرجد
كأطراف الآس نضارة
او ورق الاقحوان غضارة
ومن قطع الماس كأنامل
الرمان * فى المقادير والاوزان
واجتمعت وفود الاطراف
على ادراك مالم يروفى كتب
الاولين اجتماع مثله لاحد
من صناديد القروم * وملوك
العجم والروم * وحضر ذلك
المشهد رسل طغان خان
ملك الترك اخى ايلك فرأوا
مالم تره العيون * ولم يملكه
قارون * صنع الله الذى
امره اذا أراد شيأ ان يقول
له كن فيكون

(ذكر آل فريغون)

قد كانت ولاية الجوزجان
لآل فريغون ايام آل
سامان يتوارثها كابر
عن كابر ويوصى بها
اول الى آخر وهم أشراف
النفوس والهمم * كرام
الاخلاق والشيم * وطاء
الاكناف لنزاع الاطراف
خصاب الرحال * لوفود
الآمال * دابهم اجلال قدر
الآداب * ورفع درجات
الكتاب * وافتراض حقوق
الاحرار * واغلاء اسعار
الاشعار * فكم من غريب
آواه احسانهم * ومن أديب

الصالح ولم يرسلوه الى حلب خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين على بن الداية فانه كان اكبر الامراء النورية وانما منعه من الاتصال به والقيام بخدمته مرض لحقه وكان هو واخوته بحلب وأمرها اليهم وعساكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ولما عجز عن الحركة أرسل الى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمتنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه قطب الدين فلم يمكنه الامراء الذين معه من الانتقال الى حلب لما ذكرناه

(ذكر ملك سيف الدين البلاد الجزرية)

كان نور الدين قبل ان يمرض قد أرسل الى البلاد الشرقية الموصل وديار الجزيرة وغيرها يستدعى العساكر منها لحجة الغزاة والمراد غيرها وقد تقدم ذكره فسار سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل فى عساكره وعلى مقدمته الخادم سعد الدين كمشتكين الذى كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين فلما كانوا ببعض الطريق وصلتهم الاخبار بوفاة نور الدين فاما سعد الدين فانه كان فى المقدمة فهرب جريدة وأما سيف الدين فأخذ كل ما كان له من برك وغيره وعاد الى نصيبين فملكها وأرسل الشحن الى الخابور فاستولوا عليه وأقطعه وسار هو الى حران فحصرها عدة أيام وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحرانى فامتنع بها وأطاع بعد ذلك على أن تكون حران له وينزل الى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه وسار الى الرها فحصرها وملكها وكان بها خادم خصى اسود لنور الدين فسلمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر فأعطيها ثم أخذت منه ثم صار الى ان يستعطى ما يقوم به ويقوته وسير سيف الدين الى الرقة فملكها وكذلك سروج واستكمل جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر فانها كانت منيعة وسوى رأس عين فانها كانت لقطب الدين صاحب ماردين وهو ابن خال سيف الدين فلم يتعرض اليها وكان شمس الدين على بن الداية وهو اكبر الامراء النورية بحلب مع عساكرها فلم يقدر على العبور الى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد لفالج كان به فأرسل الى دمشق يطلب الملك الصالح فلم يرسل اليه لما ذكرناه ولما ملك سيف الدين الجزيرة قال له فخر الدين عبد المسيح وكان قد وصل اليه من سيواس بعد موت نور الدين وهو الذى اقر له الملك بعد أبيه فظن ان سيف الدين يرعى له ذلك فلم يجن ثمرة ما غرس وكان عنده كبعض الامراء قال له الرأى ان تعبر الى الشام فليس به مانع فقال له اكبر امرائه وهو أمير يقال له عز الدين محمود المعروف بزلفندار قد ملكت اكثر ما كان لابيك والمصلحة ان تعود فرجع الى قوله وعاد الى الموصل ليقضى الله أمرا كان مفعولا

(ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها)

لما مات نور الدين محمود صاحب الشام اجتمعت الفرنج وساروا الى قلعة بانياس من اعمال دمشق فحصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم العسكر عنده بدمشق فخرج عنها فراسلهم ولاطفهم ثم أغلظ لهم فى القول وقال لهم ان أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه والا فنرسل الى سيف الدين صاحب الموصل ونعاهده ونصالحه ونستنجده ونرسل الى صلاح الدين بمصر فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها ولا تقومون لنا وأنتم تعلمون ان

اغناء سلطانهم * ومن كبير جبره انصافهم * ومن حسير انهضه عطفهم والطافهم وكان الامير ابو الحرث احمد بن محمد غرة تلك الدولة * وانسان تلك المقلة * وجمال تلك الملة * وطراز تلك الحلة * بما أوتى من كرم خصيب * وكنف رحيب * وشرف رغيب * ومرتقى همة بعيدة ومستقى نائل قريب * وكان الامير سبكتكين خطب اليه كريمته على السلطان يمين الدولة * وامين الملة * ثم اوجب لولده ابى نصر احمد بن محمد كريمة له فاتشجت اللحمة * واشتبكت العصمة * والتحمت الوثائق * واستحكمت الاواصر والعلائق * ولما مضى ابو الحرث لسبيله ورثه ابو نصر ابنه فاوجب السلطان اقراره على ولايته ايثارا له بفضل رعايته وعنايته الى ان قضى نحبه فى شهور سنة احدى واربعمائة واقرأنى ابو الفضل احمد بن الحسين الهمذانى المعروف بالبديع كتابا له اليه * جعله مقدمة الوفود عليه * فنال به من رغائب الايادى ما ملأ به يديه * وهو كتابى والبحر وان لم اره * فقد سمعت خبره

صلاح الدين كان يخاف ان يجتمع بنور الدين والآن فقد زال ذلك الخوف واذا طلبناه الى بلادكم فلا يمتنع فعلموا اصدقه فصالحوه على شئ من المال أخذوه وأسرى اطلقوا لهم كانوا عند المسلمين وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه وكتب الى الملك الصالح والامراء الذين معه يقبح لهم مافعلوه ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وازعاجهم عن قصد شئ من بلاد الملك الصالح وكان قصده أن يصير له طريق الى بلاد الشام ليملك البلاد والامراء الشاميون انما صالحوا الفرنج خوفا منه ومن سيف الدين غازى صاحب الموصل فانه كان قد اخذ البلاد الجزرية وخافوا منه أن يعبر الى الشام فرأوا صلح الفرنج أصلح من أن يجيء هذا من الغرب وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردهم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى المحرم وقع الحريق ليلا ببغداد فاحترق أكثر الظفرية ومواضع غيرها ودام الحريق الى بكرة وطفئت النار وفيها فى شعبان بنى ابن شنكا وهو ابن أخى شملة صاحب خوزستان قلعة بالقرب من الماهكى ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الاعمال فسير اليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه فالتقوا فحمل بنفسه على الميمنة فهزمها واقتتل الناس قتالا عظيما وأسر ابن أخى شملة وحمل رأسه الى بغداد فعلق بباب النوبى وهدمت القلعة وفيها فى رمضان وكان الزمان ربيعا توالت الامطار فى ديار بكر والجزيرة والموصل فدامت أربعين يوما ما رأينا الشمس فيها غير مرتين كل مرة مقدار لحظة وخربت المساكن وغيرها وكثر الهدم ومات تحته كثير من الناس وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان اكثرها ببغداد فانها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد بذراع وكسر وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد وأقاموا على شاطئ دجلة خوفا من انفتاح القورج وغيره وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده ونبع الماء فى البلاليع وخرب كثيرا من الدور ودخل الماء الى البيمارستان العضدى ودخلت السفن من الشبابيك التى له فانها كانت قد تقلعت فمن الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد ان أشرفوا على الغرق وفيها فى جمادى الاولى كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين قايماز والخليفة وسببها ان الخليفة أمر باعادة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء الى الوزارة فمنع منه قطب الدين وأغلق باب النوبى وباب العامة وبقيت دار الخليفة كالمحاصرة فأجاب الخليفة الى تركه وزارته فقال قطب الدين لاأقنع الا باخراج عضد الدين من بغداد فأمر بالخروج منها فالتجأ الى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسمعيل فأخذه الى رباطه وأجاره ونقله الى دار الوزير بقطفتا فأقام بها ثم عاد الى بيته فى جمادى الآخرة وفيها سقط الامير أبو العباس احمد بن الخليفة وهو الذى صار خليفة من قبة عالية الى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح فألقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة ونجا فقيل لنجاح لم ألقيت نفسك فقال ما كنت أريد البقاء بعد مولاى فرعى له الامير أبو العباس ذلك فلما صار خليفة جعله شرابيا وصارت الدولة جميعها بحكمه ولقبه الملك الرحيم عز الدين وبالغ فى الاحسان اليه والتقديم له وخدمه جميع الامراء بالعراق والوزراء وغيرهم وفيها فى رمضان وقع ببغداد برد كبار مارأى الناس مثله فهدم الدور وقتل جماعة من الناس وكثيرا من المواشى فوزنت بردة منها فكانت سبعة أرطال وكان عامته

والليث وان لم ألقه * فقد تصورت خلقه * والملك العادل وان لم اكن لقيته * فقد لقيت صيته * ومن رأى من السيف اثره * فقد رأى أكثره * ومازلت أيد الله الامير أسمع بهذا البيت القديم بناؤه * الفسيح فناؤه * الرحيب أفناؤه * الكريم أبناؤه * وأنشد من هذه الحضرة ضالتى * والعوائق تعوقه * ويسره * تربى عسره * والزمن العثور * يقعد تارة ويثور * فكم من عام عزمت وأبت المقادير * ونويت وعرضت معاذير * والآن لما وقفت لهذه الزورة اختلفت على أخبار الملك العادل فى مستقره واختلفت باختلافه مامرة فى قوس الطريق ومرة فى وتره * على اقتفاء أثره * حتى بلغت مبلغى هذا ثم وسوس الى الشيطان تقدير مقدر أنى أقصد هذه الحضرة طامعا فى مال * او طامحا الى نوال * وعظم سلطان هذه الوسوسة حتى كاد يثنينى عن درك الحظ من طاعته ولم أبعد ما ألقاه الشيطان فى خلدى أن يكون * ولا ناشدت الله الظنون * بأن تنصرف فى قصدى الا الى معرفة أوقعها * او خليقة أودعها

كالنارنج بكسر الاغصان هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى تاريخه والعهدة عليه وفيها كانت وقعة عظيمة بين المؤيد صاحب نيسابور و بين شاه مازندران قتل فيها كثير من الطايفتين فانهزم شاه مازندران ودخل المؤيد بلاد الديلم وخربها ونهب بلادها وعاد عنها وفيها وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرخ وسببها ان الماء لما زاد سكر أهل باب الكرخ سكرا رد الماء عنهم فغرق مسجد فيه شجرة فانقلعت فصاح اهل الكرخ انقلعت الشجرة لعن الله العشرة فقامت الفتنة فتقدم الخليفة الى علاء الدين تنامش فمال على أهل باب البصرة لانه كان شيعيا وأراد دخول المحلة فمنعه أهلها واغلقوا الابواب ووقفوا على السور وأراد احراق الابواب فبلغ ذلك الخليفة فانكره أشد انكار وأمر باعادة تنامش فعاد ودامت الفتنة اسبوعا ثم انفصل الحال من غير توسط سلطان وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلج ارسلان فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون فلما رأى ملك الروم عجزه عاد الى بلاده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة وفيها فى جمادى الاولى مات أحمد بن على بن المعمر بن محمد بن عبد الله أبو عبد الله العلوى الحسينى نقيب العلويين ببغداد وكان يلقب الطاهر وسمع الحديث الكثير ورواه وكان حسنة أهل بغداد وفيها توفى الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد ابن محمد العطار الهمدانى سافر الكثير فى طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة وكان من اعيان المحدثين وكان له قبول عظيم ببلده عند العامة والخاصة

(ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة)

(ذكر وصول اسطول صقلية الى مدينة الاسكندرية وانهزامهم منها)

فى هذه السنة ظفر أهل الاسكندرية وعسكر مصر باسطول الفرنج من صقلية وكان سبب ذلك ماذكرناه من ارسال أهل مصر الى ملك الفرنج بساحل الشام والى صاحب صقلية ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر فجهز صاحب صقلية اسطولا كثيرا عدته مائتى شينى تحمل الرجالة وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كبارا تحمل آلة الحرب واربعين مركبا تحمل الازواد وفيها من الراجل خمسون الفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبلى وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وسيره الى الاسكندرية من ديار مصر فوصلوا اليها فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج اهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وابعدوا عن البلد فمنعهم الوالى عليهم من ذلك وامرهم بملازمة السور ونزل الفرنج الى البر مما يلى البحر والمنارة وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم وسيرت الكتب بالحال الى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال اول يوم الى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الاسلامية كل من كان فى اقطاعه وهو قريب من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها واحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون

اومدحة أسمعها * اوزجمة أسرعها * ثم ادخر هذه الدولة المالكة اغصبها * اوراية انصبها * اوكنيسة اغلبها * أو دولة اقلبها * فأما الدرهم والدينار فدفعهما الى * ونزعهما من يدى سواء لدى * لا اشكر واهبهما * ولا اشكو سالبهما * ان لى فى القناعة وقتا * وفى الصناعة بختا * لا يبعد منال المال اذا أردته * ولا يحوجنى الى ركوب العقاب * وسلوك الشعاب مهما قصدته * بل يجيئنى فيضا * و يتطفل على ايضا وهذه الحضرة حرسها الله تعالى وان احتاج اليها المأمون * ولم يستغن عنها قارون * فان الاحب الى أن أقصدها قصد موال لا قصد سؤال * والرجوع عنها بجمال * أحب الى من الرجوع عنها بمال * قدمت التعريف * وأنا أنتظر الجواب الشريف * فان نشط اضيف ظله خفيف * وضالته رغيف * فليزجر له بالاستقبال طائر الاقبال * والسلام * وله فيه لما صدر عن فنائه * متقلا بنعمائه * قال

ألم ترانى فى سفرتى
لقيت الغنى والمنى والاميرا

وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فاحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت اماراته ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل اهل البلد اليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثرة القتل والجراح في رجالتهم وأما صلاح الدين فانه لما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكا له ومعه ثلاثة جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندرية يبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفا عليها واحتياطا لها فسار ذلك المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا الى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن ان صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في أيديهم وازدادوا تعبا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتجملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى ان اضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم

(ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر)

وفي أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر واجتمع اليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير وكان هناك أمير من الصلاحية في اقطاعه وهو أخو الامير أبي الهيجاء السمين فقتله الكنز فعظم قتله على أخيه وهو من اكبر الامراء وأشجعهم فسار الى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الامراء وكثيرا من العسكر ووصلوا الى مدينة طود فاحتمت عليهم فقاتلوا من بها وظفروا بهم وقتلوا منهم كثيرا وذلوا بعد العز وقهروا واستكانوا ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود الى الكنز وهو في طغيانه يدعه فقاتلوه فقتل هو ومن معه من الاعراب وغيرهم وأمنت بعده البلاد واطمأن أهلها

(ذكر ملك صلاح الدين دمشق)

في هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق وسبب ذلك ان نور الدين لما مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازي الى حلب كما ذكرناه فأقام بها عند شمس الدين علي بن الداية فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يعبر الى حلب فيملكها فأرسل سعد الدين الى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر الى حلب فلما قارب دمشق سير اليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكرا فنهبوه وعاد منهزما الى حلب فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه ثم ان الامراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة فعلموا ان مسيره الى حلب اصلح للدولة من مقامه بدمشق فأرسلوا الى ابن الداية يطلبون ارسال سعد الدين

ولما رأى شمت التراب
وكنت امرأ لا اشم العبيرا
لقيت امرأ مل ء عين الزمان
يعلو صعابا ويرقو عسيرا
لآل فريغون في المكرمات
يد أولا واعتذار أخيرا
اذا ما حللت بمغناهم
رأيت نعيما وملكا كبيرا
فلا يعدم الملك ذو روعة
يهون المنى ويسر اليسيرا
ولابي الفتح البستي فيهم
بنو فريغون قوم في وجوههم
سيما الهدى وسناء السودد العالي
كأنما خلقوا من سودد وعلا
وسائر الناس من طين وصلصال
من تلق منهم تقل هذا أجلهم
قدرا وأحضاهم بالنفس والمال
يا سائلي ما الذي حصلت عندهم
دع السؤال وقم فانظر الى حالي
أما ترى أن حالي كيف قد حليت
بهم ألم تر حالي عند ترحالي
فان اكن ما كنا عن شكر أنعمهم
فانه العجز لا الاغفال

ليأخذ

لما أخذ الملك الصالح بجهزه وسيره * وعلى نفسه ابراقش تحجى * فسار الى دمشق فى المحرم من هذه السنة واخذ الملك الصالح وعاد الى حلب فلما وصلوا اليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية واخوته وعلى رئيس بن الخشاب رئيس حلب ومقدم الاحداث بها ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكن من ذلك واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح فخاف ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق وقالوا ان استقر امر حلب اخذ الملك الصالح وسار به الينا وفعل مثل مافعل بحلب وكاتبوا سيف الدين غازى صاحب الموصل ليعبر الفرات اليهم ليسلموا اليه دمشق فلم يفعل وخاف ان تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير الى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه وعسكر حلب من وراء ظهره فيهلك اشار عليه بهذا زلفندار عز الدين والجبان يقدر البعيد من الشر قريبا ويرى الجبن حزما كما قال

يرى الجبناء ان الجبن حزم * وتلك طبيعة الرجل الجبان

فلما أشار عليه بهذا الرأى زلفندار قبله وامتنع من قصد دمشق وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على ما اخذه من البلاد فلما امتنع عن العبور الى دمشق عظم خوفهم وقالوا حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير الينا فكاتبوا حينئذ صلاح الدين يوسف ابن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم وكان كبيرهم فى ذلك شمس الدين بن المقدم ومن أشبه أباه فما ظلم وقد ذكرنا مخامرة أبيه فى تسليم سنجار سنة اربع واربعين وخمسمائة فلما وصلت الرسل الى صلاح الدين بذلك لم يلبث وسار جريدة فى سبعمائة فارس والفرنج فى طريقه فلم يبال بهم فلما وطئ ارض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه فخرج ولقيه فلما رأى قلة من معه خاف على نفسه واجتمع بالقاضى الفاضل وقال ما أرى معكم عسكرا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار اخذكم اهل السواد فان كان معكم مال سهل الامر فقالوا هنا مال كثير يكون خمسين الف دينار فضرب صاحب بصرى على راسه وقال هلكتم واهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ثم سار صلاح الدين الى دمشق فخرج كل من بها من العسكر اليه فلقوه وخدموه ودخل البلد ونزل فى دار والده المعروفة بدار العقيقى وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو قاضى البلد والحاكم فى جميع اموره من الديوان والوقف وغير ذلك وارسله الى ريحان ليسلم القلعة اليه وقال انا مملوك الملك الصالح وما جئت الا لانصره واخدمه واعيد البلاد التى اخذت منه اليه وكان يخطب له فى بلاده كلها فصعد كمال الدين الى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين اليها واخذ ما فيها من الاموال واخرجها واتسع بها وثبت قدمه وقويت نفسه وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالمملوك والخطبة والسكة باسمه

(ذكر ملك صلاح الدين مدينتى حمص وحماة)

لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق وقرر أمرها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن أيوب وسار الى مدينة حمص مستهل جمادى الاولى وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة فى اقطاع الامير فخر الدين مسعود الزعفرانى فلما مات نور الدين لم

(ذكر أمير المؤمنين القادر بالله واتصاله منصب آبائه الراشدين بدار السلام واستقرار الامامة عليه وانعقاد البيعة له بعد الطائع لله وما اتفق من الحال بين السلطان يمين الدولة وأمين الملة وبين بهاء الدولة وضياء الملة أبى نصر ابن عضد الدولة فى زمانه) قد كان بهاء الدولة وضياء الملة ينقم من الطائع لله أمورا لصدوره فيها من غير وفاقه * وعدوله بها عن حكم استحقاقه * فدعاه ما نوالى عليه من خلاف رضاه الى مراعاة مصلحة الدين باختيار من يرعى حق الامامة * ويتولى حياطة الخاصة والعامة * ويعزل هوى النفس فى اتباع الحق واستشعاره * ونصرة الحق واظهاره * وأخذ يتلطف فى التدبير عليه الى أن تمكن منه فخلعه *

يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها ولم يكن له في قلاع هذه البلاد حكم انما فيها ولاة لنور الدين وكان بقلعة حمص وال يحفظها فلما نازل صلاح الدين على حمص حادي عشر الشهر المذكور راسل من فيها بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم من الغد فملك البلد وأمن أهله وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة الى ان عاد من حلب على ما نذكره ان شاء الله وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرف وان تصعد اليهم ميرة وسار الى مدينة حماة وهو في جميع أحواله لايظهر الا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وانه انما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج واستعادة ما أخذه سيف الدين غازي صاحب الموصل من البلاد الجزرية فلما وصل الى حماة ملك المدينة مستهل جمادى الآخرة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم الى صلاح الدين فأرسل اليه صلاح الدين يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وانما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيره الى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي اطلاق شمس الدين علي وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن فسار جورديك الى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه يحفظها فلما وصل جورديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

* (ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك) *

لما ملك صلاح الدين حماة سار الى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم قد عرفتم احسان أبي اليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدي اليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق وقال من هذا كثيرا وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الاموال والانفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده وجدوا في القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوها حيث كان الفرنج بالقرب منهم فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل جوشن فلا يقدر على القرب من البلد وأرسل سعد الدين الى سنان مقدم الاسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم الى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقبيس فعرفهم لانه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الاسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا وبقي صلاح الدين محاصرا لحلب الى سلخ جمادى الآخرة ورحل عنها مستهل رجب وسبب رحيله ان القومص الصنجيلي صاحب طرابلس كان قد أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبقي في الحبس الى هذه السنة فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير فلما وصل الى بلده اجتمع الفرنج عليه يهنئونه بالسلامة وكان عظيما فيهم من أعيان شياطينهم فاتفق ان مرى ملك الفرنج لعنه الله مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة فلما توفي خلف ابنا مجذوما عاجزا عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها وتولى القمص تدبير الملك والحل والعقد عن أمره يصدرون فأرسل اليه من حلب يطلبون منه ان يقصد بعض

البلاد

واحتوى عليه وعلى ما كان جمعه * وذلك في شعبان سنة احدى وثمانين وثلثمائة وأرسل الى الطائع وبها القادر بالله أبو العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله فاستقدمه دار السلام لعقد البيعة له سدا للثلمة * ونظرا للامة * واجتلابا للمصلحة للالفة * فقدمها في شهر رمضان من هذه السنة وتسارع الناس الى مبايعته * واصفقوا على طاعته * وتراضوا عن طيب النفوس بامامته * وتباهوا شكرا لله على ما أتاحه لهم من بركات خلافته * ثقة بما اشتهر في الآفاق من مناقبه الغر * وضرائبه الزهر * وفضائله المسطورة على صفحات الدهر * فقام بما قلده الله من طوق الامامة مفوضا اليه أمره * ومتوكلا عليه وحده * فلم يزل في مقره من سرير الخلافة أوفر منه

البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم فسار الى حمص ونازلها سابع رجب فلما تجهز لقصدها
سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب فوصل الى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على
حمص بيوم ثم رحل الى الرستن فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين اليها
فحصر القلعة الى ان ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة فصار أكثر الشام
بيده ولما ملك حمص سار منها الى بعلبك وبها خادم اسمه يمن وهو وال عليها من أيام نور الدين
فحصرها صلاح الدين فأرسل يمن يطلب الامان له ولمن عنده فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة
رابع عشر رمضان من السنة المذكورة

* (ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار) *

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين الى ابن عمه
سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويطلب ان يعبر اليه
ليقصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد
الدين زنكي صاحب سنجار ويأمره ان ينزل اليه بعساكره ليجتمعوا على المسير الى الشام
فامتنع من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لانه هو الكبير فحمله
الطمع على الامتناع على أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا في
عسكر كثير هو معظم عسكره وسيره الى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبر أمير معه يقال له
عز الدين محمود ويلقب أيضا زلفندار وجعله المدبر للامر وسار سيف الدين الى سنجار فحصرها
في شهر رمضان وقاتلها وجد في القتال وامتنع عماد الدين بها وجد في حفظها والذب عنها فدام
الحصار عليها فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من
صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل الى الموصل وثبت قدم
صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي في
الصلح فلم يستقر حال

* (ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب) *

في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين وعز الدين زلفندار الى حلب واجتمع
معهم عساكر حلب وساروا كلهم الى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين الى سيف
الدين يبذل تسليم حمص وحماة وان يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم
يجب الى ذلك وقال لا بد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود الى مصر وكان صلاح
الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب فلما امتنع سيف الدين من اجابته الى ما بذل سار في
عساكره الى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا تاسع عشر رمضان بالقرب من مدينة حماة
بموضع يقال له قرون حماة وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه
الا انه قد رزق سعادة وقبولا من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفي
وانهزموا لا يلوي أخ على أخيه وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى
صلاح الدين ثباته قال اما ان هذا أشجع الناس أو انه لا يعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه
فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم

حصاه * وأوفر أناه *
وأصلب قناه * وأصدق
تقاه * وأرضى سيره *
وأذكى بصرا وبصيرة *
وأزكى علنا وسريره * وأتم
جلالة وجزاله * وأعم سياسة
وحراسه * نعم ولا اقوى
منه جنانا * وأندى بنانا *
واعدل عقابا واحسانا *
وعطفته عاطفة القربى
على الطائع لله فاستخصه
لمنادمته * واجتباه
لمصاحبته * والحفه جناح
رعايته وحمايته * تفاديا
من غضاضة تلحقه في زمانه *
او نكبة ترهقه في ظل
سلطانه وجانب امانه * الى
ان فرق بينهما الدهر المولع
بالتفريق * واخذ الرفيق
عن الرفيق * ورثاه ابو
الحسن محمد بن الحسين بن
موسى العلوي المعروف
بالرضي الموسوي بقصيدة
منها

ان كان ذاك الطود خر
فبعد ما استعلى طويلا
موف على القلل الذوا
هب في العلا عرضا وطولا
قرم يسد لحاظه
فيرى القروم له مثولا

وغنموا منهم غنائم كثيرة وآلة وسلاحا عظيما ودواب فارهة وعادوا بعد طول الحصار مستريحين
وعاد المنهزمون الى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصرا لها ومقاتلا وقطع حينئذ
خطبة الملك الصالح بن نور الدين وازال اسمه من السكة فى بلاده ودام محاصرا لهم فلما طال
الامر عليهم راسلوه فى الصلح على ان يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بايديهم منها فاجابهم
الى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب فى العشر الاول من شوال ووصل الى حماة ووصلت
اليه بها خلع الخليفة مع رسوله

(ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين)

فى هذه السنة فى العشر الاخر من شوال ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام وكان صاحبها
فخر الدين مسعود بن الزعفرانى وهو من اكابر الامراء النورية فلما راى قوة صلاح الدين نزل
منها واتصل بصلاح الدين وظن ان صلاح الدين يكرمه ويشاركه فى ملكه ولا ينفرد عنه بامر
مثل ما كان مع نور الدين فلم ير من ذلك شيأ ففارقه ولم يكن بقى له من اقطاعه التى كانت له فى الايام
النورية غير بعرين ونائبه بها فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد الى حماة وسار
منها الى بعرين وهى قريبة منها فحصرها ونصب عليها المجانيق وادام قتالها فسلمها واليها
بالامان فلما ملكها عاد الى حماة فاقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى واقطع
حمص ناصر الدين ابن عمه شيركوه وسار منها الى دمشق فدخلها اواخر شوال من السنة

(ذكر ملك البهلوان مدينة تبريز)

فى هذه السنة ملك البهلوان بن ايلدكز مدينة تبريز وهى من جملة بلاد آقسنقر الاحمديلى
وسبب ذلك ان البهلوان سار الى مراغة وحصرها وكان ابن آقسنقر الاحمديلى قد مات ووصى
بالملك لابنه فلك الدين فقصده البهلوان ونزل على قلعة روئين دز وحصرها فامتنعت عليه فتركها
وحصر مراغة وسير أخاه قزل ارسلان فى جيش الى مدينة تبريز فحصرها أيضا وكان البهلوان
يقاتل أهل مراغة فظفروا بطائفة من عسكره فخلع عليهم صدر الدين قاضى مراغة وأطلقهم
فحسن ذلك عند البهلوان وشرع القاضى فى الصلح على ان يسلموا تبريز الى البهلوان فأجيب الى
ذلك واستقرت القاعدة عليه وحلف كل واحد منهما لصاحبه وتسلم البهلوان تبريز وأعطاها
أخاه قزل ارسلان ورحل عن مراغة بعسكره

(ذكر وفاة شملة)

فى هذه السنة مات شملة التركمانى صاحب خوزستان وكان قد كثرت ولايته وعظم شانه وبنى
عدة حصون وبقى كذلك زيادة على عشرين سنة وكان سبب موته انه قصد بعض التركمان
فعلموا بذلك فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب عراق العجم فسير اليهم جيشا
فاقتتلوا فأصاب شملة سهم ثم أخذ أسيرا وولده وابن أخيه وتوفى بعد يومين وهو من التركمان
الافشرية ولما مات ملك ابنه بعده

(ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد)

فى هذه السنة فى شوال سير علاء الدين تامش وهو من أكابر الامراء ببغداد وكان قطب الدين
قايماز زوج اخته عسكرا الى العراق فنهبوا اهله وبالغوا فى أذاهم فجاء منهم جماعة الى بغداد

واستغاثوا

ويرى عزيزا حيث حل
ولا يرى الا ذليلا
كالليث الا انه اتخذ
العلا والعز غيلا
وعلا على الاقران لا
مثلا بعد ولا عديلا
من معشر ركبوا العلا
وابوا عن الكرم النزولا
غر اذا انتسبوا انالك
غررا اللوامع والحجولا
كرموا فروعا بعد ما
طابوا وقد مجدوا اصولا
نسب غدا ارواده
يستصحبون له الفحولا
يا ناصر الدين الذى
رجع الزمان به كليلا
يا صارم الجد الذى
ملئت مضاربه فلولا
يا كوكب الاحسان اعـ
ـجلك الدجى عنا افولا
يا غارب النعم العظا
م غدوت مغمولا جزيلا
لهفى على ماض مضى
ان لا نرى منه بديلا
وزوال ملك لم يكن
يوما يقدر ان يزولا
ومنازل سطر الزما
ن على معالمها الحؤولا
من بعد ما كانت على
الايام مربأة نكولا
والاسد تركز القنا
فيها وترتبط الخيولا
من يسبغ المنن الجسا
م ويعطى الحمد الجزيلا
من بنجح الآمال يو
م نعود بالليان حولا

واستغاثوا فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز وتنامش وتحكمهما عليه فقصدوا جامع القصر واستغاثوا فيه ومنعوا الخطيب وفاتت الصلاة أكثر الناس فأنكر الخليفة ما جرى فلم يلتفت قطب الدين وتنامش الى ما فعل واحتقروه فلا جرم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء وازدرائهم أهله فلما كان خامس ذى القعدة قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطار وكان صاحب المخزن وهو خاص الخليفة وله به عناية تامة فلم يراع الخليفة فى صاحبه فأرسل اليه يستدعيه ليحضر عنده فهرب فاحرق قطب الدين داره وحالف الامراء على المساعدة والمظاهرة له وجمعهم وقصد دار الخليفة لعلمه ان ابن العطار فيها فلما علم الخليفة ذلك ورأى الغلبة صعد الى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادما فصاح واستغاث وقال للعامة مال قطب الدين لكم ودمه لى فقصد الخلق كلهم دار قطب الدين للنهب فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع وغلبة العامة فهرب من داره من باب فتحه فى ظهرها لكثرة الخلق على بابها وخرج من بغداد ونهبت داره وأخذ منها من الاموال ما لا يعد ولا يحصى فرؤى فيها من التنعم ما ليس لاحد مثله فمن جملة ذلك ان بيت الطهارة الذى كان له فيه سلسلة ذهب من السقف الى محاذى وجه القاعد على الخلا وفى اسفلها كرة كبيرة ذهب مخرمة محشوة بالمسك والعنبر ليشمها اذا قعد فتشبث انسان وقطعها ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدة اكياس مملوءة دنانير وكان الاقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس فلما أخذ ذلك الصعلوك الاكياس قصد المطبخ فأخذ منه قدرا مملوءة طبيخا وألقى الاكياس فيها وحملها على رأسه والناس يضحكون منه فيقول انا أريد شيأ اطعمه عيالى اليوم فنجا بما معه فاستغنى بعد ذلك فظهر المال ولم يبق من نعمة قطب الدين فى ساعة واحدة قليل ولا كثير ولما خرج من البلد تبعه تنامش وجماعة من الامراء فنهبت دورهم ايضا وأخذت أموالهم واحرق أكثرها وسار قطب الدين الى الحلة ومعه الامراء فسير الخليفة اليه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ فلم يزل به يخدعه حتى سار عن الحلة الى الموصل على البر فلحقه ومن معه عطش عظيم فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش ومات قطب الدين قبل وصوله الى الموصل فحمل ودفن بظاهر باب العمادى وقبره مشهور هناك وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الاحسان والظلم وسوء التدبير فانه ظلم اهل العراق وكفر احسان الخليفة الذى كان قد غمره ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الامور كلها كما كان فان عامة بغداد كانوا يريدونه وكان قوى بالاحسان على البلاد فأطاعوه ولما مات فى ذى الحجة وصل علاء الدين تنامش الى الموصل فأقام مديدة ثم أمره الخليفة بالقدوم الى بغداد فعاد اليها وبقى بها الى ان مات بغير اقطاع وكان هذا آخر أمرهم ولما أقام قطب الدين بالحلة امتنع الحاج من السفر فتأخروا الى ان رحل عنها فدخلوا من الكوفة فى ثمانية عشر يوما وهذا ما لم يسمع بمثله وفات كثيرا منهم الحج ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة على عضد الدين الوزير واعيد الى الوزارة قال بعض الشعراء فى قطب الدين وتنامش هذه الابيات

ان كنت معتبرا بالنوازل * وحوادث عنقية الادلاج
فدع العجائب والتواريخ الاولى * وانظر الى قيماز وابن قماج

من تردد الشعر الطوال
لو يكشف الخطب الجليلا
وتراه يمنع دوننا
وادى النوائب أن يسيلا
عقاد ألوية العلو *
لتعلى العلاء جيلا فجيلا

وانثالت خطباء العراق وشعراؤها كأسراب الجياد على مجالس الخلافة فى امتداح القادر بالله أمير المؤمنين * وذكر مآثر أيامه ومفاخر اسلافه * مرابيع الكرم * وينابيع الحكم * ومصابيح الظلم * ومجاديح الامم * وليوث البهم * وغيوث القحم * وبلغنى ان مقاماتهم مدونة بالعراق من بين منظوم ومنثور * وفقر وشذور * فلا حاجة بنا الى تتبع ذكرها مع اشتهارها * وحكى أبو محمد عبد السلام ابن محمد بن الهيصم أحد أعيان الكرامية بنيسابور قال قمت فى مجلس القادر بالله أمير المؤمنين خطيبا بحضرة بنى هاشم ومشايخ بغداد واعيان الحجيج فقلت الحمد لله ذى العزه القاهره * والحجة الباهره * والنعم المتظاهره * الذى عم احسانه * ودام سلطانه * ولطف شانه * فلا راد لقضائه * ولا مانع لعطائه * ولا معقب لحكمه * ابتعث محمدا صلى الله عليه من

عطف الزمان عليهما فسقاهما * من كأسه صرفا بغير مزاج

فتبدلوا بعد القصور وظلها * ونعيمها بيهامه وفجاج

فليحذر الباقون من امثالها * نكبات دهر خائن مزعاج

وكان قطب الدين كريما طلق الوجه محبا للعدل والاحسان كثير البذل للمال والذى كان يجرى منه انما كان يحمله عليه تنامش ولم يكن بارادته

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن واسمه يحيى بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن جعفر أبو الفضل وحج بالناس عدة سنين واليه الحكم فى الطريق وتاب عن الوزارة وتنقل فى هذه الاعمال أكثر من عشرين سنة وكان يحفظ القرآن

(ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين)

فى هذه السنة عاشر شوال كان المصاف بين سيف الدين غازى بن مودود وبين صلاح الدين يوسف بن أيوب بتل السلطان على مرحلة من حلب على طريق حماة وانهزم سيف الدين وسبب ذلك انه لما انهزم اخوه عز الدين مسعود من صلاح الدين فى العام الماضى وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار عاد الى الموصل وجمع عساكره وفرق فيهم الاموال واستنجد صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس فسار الى نصيبين فى ربيع الاول من هذه السنة واقام بها فاطال المقام حتى انقضى الشتاء وهو مقيم فضجر العسكر ونفدت نفقاتهم وصار العود الى بيوتهم مع الهزيمة أحب اليهم من الظفر لما يتوقعونه ان ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة ثم سار الى حلب فنزل اليه سعد الدين كمشتكين الخادم مدبر دولة الملك الصالح ومعه عساكر حلب وكان صلاح الدين فى قلة من العساكر لانه كان صالح الفرنج فى المحرم من هذه السنة على ما نذكره ان شاء الله وقد سير عساكر الى مصر فأرسل يستدعيها فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه لكنهم تريثوا وتأخر واعنه فجاءته عساكره فسار من دمشق الى ناحية حلب ليلقى سيف الدين فالتقى العسكران بتل السلطان وكان سيف الدين قد سبقه فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا فالقوا نفوسهم الى الارض ليس فيهم حركة فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال فقال زلفندار ما بنا هذه الحاجة الى قتال هذا الخارجى فى هذه الساعة غدا بكرة نأخذهم كلهم فترك القتال الى الغد فلما اصبحوا اصطفوا للقتال فجعل زلفندار وهو المدبر للعسكر السنجق اعلامهم فى وهدة من الارض لا يراها الا من هو بالقرب منها فلما لم يرها الناس ظنوا ان السلطان قد انهزم فلم يثبتوا وانهزموا ولم يلو اخ على أخيه ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد ووصل سيف الدين الى حلب وترك بها أخاه عز الدين مسعود فى جمع من العسكر ولم يقم هو وعبر الفرات وسار الى الموصل وهو لا يصدق انه ينجو وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل فاستشار وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز فى مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عقر الحميدية فقال له مجاهد

الدين

خير أرومة العرب مولدا * وافضل جرانيها محتدا * واطولها انجادا * وأرسخها فى المكرمات اوتادا * فأيده أحسن تأييد * وأكد أمره أفضل تأكيد * حتى استقل الدين ناهضا * واضمحل الشرك داحضا * وظهر أمر الله والمشركون كارهون فعليه صلوات الله عدد الرمل والحصا * ما طلعت عليه شمس الضحى * وعلى آله الطيبين * ثم قبض الله من بعده الخلفاء الراشدين * الممهدين الدين * والموهنين كيد الملحدين * فبسطوا للاسلام بساطه * ونهجوا لاهل الافاق صراطه * الى أن تأدى الامر الى ذويه * من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى صنو أبيه * فأقاموا الاسلام عن أوده * وأسندوا الامر الى مستنده * معتصمين بنصر الله * صادعين بأمر الله * معظمين حرمات الله * وهلم جرا الى أن تأكدت بيعة الخلافة بأمير المؤمنين * القادر بالله فبهر نوره العالمين * وشفى ذكره على المنابر صدور قوم مؤمنين * من بعد التواء من اظهر العناد * وانزواء من قصد الفساد * وأبى الله الا نصرة الحق واداله * وقمع الباطل واذاله * ولقد حدثنى محمد

الدين ارأيت ان ملكت الموصل على انقدر ان تمتنع ببعض ابراج الفصيل فقال لا فقال برج في الفصيل خير من العقر وما زال الملوك ينهزمون ويعاودون الحرب واتفق هو والوزير على شد ازره وتقوية قلبه فثبت ثم اعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على امارة الجيوش مجاهد الدين قايماز على ما نذكره ان شاء الله وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس ولم يكن كذلك انما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس اقل من خمسمائة فانني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلبا وجاليشية وغير ذلك وكان المتولي لذلك والكاتب له أخي مجد الدين ابا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله وانما قصد العماد ان يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا والحق احق ان يتبع ثم ياليت شعري كم هي الموصل واعمالها الى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون الف فارس

(ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين)*

لما انهزم سيف الدين وعسكره ووصلوا الى حلب عاد سيف الدين الى الموصل كما ذكرناه وترك بحلب أخاه عز الدين مسعودا في طائفة من العسكر نجدة للملك الصالح وأما صلاح الدين فانه لما استولى على اثقال العسكر الموصلي هو وعسكره وغنموها واتسعوا بها وقووا سار الى بزاعة فحصرها وقاتله من بالقلعة ثم تسلمها وجعل فيها من يحفظها وسار الى مدينة منبج فحصرها آخر شوال وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه والاطماع فيه والطعن فيه فصلاح الدين حنق عليه متهدد له فاما المدينة فملكها ولم تمتنع عليه وبقي القلعة وبها صاحبها قد جمع اليها الرجال والسلاح والذخائر فحصره صلاح الدين وضيق عليه وزحف الى القلعة فوصل النقابون الى السور فنقبوها وملكوها عنوة وغنم العسكر الصلاحي كل ما فيها وأخذ صاحبها أسيرا فأخذ صلاح الدين كل ماله واصبح فقيرا لا يملك نقيرا ثم اطلقه صلاح الدين فسار الى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار الى قلعة اعزاز فنازلها ثالث ذي القعدة من السنة وهي من احصن القلاع وامنعها فنازلها وحصرها وأحاط بها وضيق على من فيها ونصب عليها المنجنيقات وقتل عليها كثير من العسكر فبينما صلاح الدين يوما في خيمة لبعض أمرائه يقال له جاولي وهو مقدم الطائفة الاسدية اذ وثب عليه باطني فضربه بسكين في رأسه فجرحه فلولا ان المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله فامسك صلاح الدين يد الباطني بيده الا انه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية انما يضرب ضربا ضعيفا فبقي الباطني يضربه في رقبته بالسكين وكان عليه كزاغند فكانت الضربات تقع في زيق الكزاغند فتقطعه والزرد يمنعها من الوصول الى رقبته لبعدها جله فجاء امير من امرائه اسمه يازكش فامسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها من يده الى ان قتل الباطني وجاء آخر من الاسماعيلية فقتل أيضا وثالث فقتل وركب صلاح الدين الى خيمته كالمذعور لا يصدق بنجاته ثم اعتبر جنده فمن انكره أبعده ومن عرفه اقره على خدمته ولازم حصار اعزاز ثمانية وثلاثين يوما كل يوم أشد قتالا مما قبله

ابن الفضل الصولي عن المبرد أن العباس بن أبي عبدون حدثه ان سعيد الخطيب قال لما بايع الفضل بن مروان المعتصم بالله امير المؤمنين قام فحمد الله وأثنى عليه وقال

بايعت منبسطا ولولم تنبسط كفي لبيعته قطعت بنانها
من ذا اليه لا يمد يمينه قطع الاله يمينه فأبانها

ولوالدي في خدمة امير المؤمنين ما يقارب هذا او يشاكله * وذلك انه أظهر بيعته لوارد كتابه على حين التواء من النوى بناحية بلخ وقال فيها

سبقت يميني نحو بيعة قادر بالله لما حالفته يد القدر
ما ضر بيعته التواء من النوى والله مبرمها بمكنون الزبر
واقد أراه أحق من وطئ الحصى بوراثة الشم البهاليل الغرر
فلا شلمن القلب مني ان أبى ولا قلعن العين ان زاغ البصر

وها أنا قد ساعدني توفيق الله حتى وطئت بساط أمير المؤمنين شاكرا ما أنعم الله علينا بولي أمير المؤمنين محمود بن سبكتكين فانه في رسمه كاسمه والله نسأل أن يديم سلامة أمير المؤمنين * وأن يلقيه أمله في الامير أبي الفضل ولي عهد المسلمين *

وكثرت النقوب فيها فاذعن من بها وسلموا القلعة اليه فتسلمها حادى عشر ذى الحجة

(ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها)

لما ملك صلاح الدين قلعة اعزاز رحل الى حلب فنازلها منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح ومن معه من العساكر وقد قام العامة فى حفظ البلد القيام المرضى بحيث انهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد لانه كان اذا تقدم للقتال خسر هو وأصحابه وكثر الجراح فيهم والقتل وكانوا يخرجون ويقاتلونه ظاهر البلد فترك القتال واخلد للمطاولة وانقضت سنة احدى وسبعين ودخلت سنة اثنتين وسبعين وهو محاصرها ثم ترددت الرسل بينهم فى الصلح فى العشرين من المحرم فوقعت الاجابة اليه من الجانبين لان أهل حلب خافوا من طول الحصار فانهم ربما ضجروا وضعفوا وصلاح الدين رأى انه لا يقدر على الدنو من البلد ولا على قتال من به فأجاب أيضا وتقررت القاعدة فى الصلح للجميع للملك الصالح ولسيف الدين صاحب الموصل ولصاحب الحصن ولصاحب ماردين وتحالفوا واستقرت القاعدة ان يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر فلما انفصل الامر رحل عن حلب بعد ان اعاد قلعة اعزاز الى الملك الصالح فانه اخرج الى صلاح الدين أختاله صغيرة طفلة فاكرمها صلاح الدين وحمل لها شيأ كثيرا وقال لها ماتريدين قالت أريد قلعة اعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها اليهم ورحل الى بلد الاسماعيلية

(ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها واقامة غيره)

فى هذه السنة فى ذى الحجة كان بمكة حرب شديدة بين امير الحاج طاشتكين وبين الامير مكثر ابن عيسى امير مكة وكان الخليفة قد أمر امير الحاج بعزل مكثر واقامة أخيه داود مقامه وسبب ذلك انه كان قد بنى قلعة على جبل أبى قبيس فلما سار الحاج عن عرفات لم يبيتوا بالمزدلفة وانما اجتازوا بها فلم يرموا الجمار انما بعضهم رمى بعضها وهو سائر ونزلوا الابطح فخرج اليهم ناس من اهل مكة فحاربوهم وقتل من الفريقين جماعة وصاح الناس الغزاة الى مكة فهجموا عليها فهرب أمير مكة مكثر فصعد الى القلعة التى بناها على جبل أبى قبيس فحصروه بها ففارقها وسار عن مكة وولى أخوه داود الامارة ونهب كثير من الحاج وأخذوا من اموال التجار المقيمين بها شيأ كثيرا واحرقوا دورا كثيرة ومن اعجب ماجرى فيها ان انسانا زراقا ضرب دارا بقارورة نفط فاحرقها وكانت لايتام فاحترقت مافيها ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكانا آخر فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها فبقى ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى شهر رمضان انكسفت الشمس جميعها واظلمت الارض حتى بقى الوقت كانه ليل مظلم وظهرت الكواكب وكان ذلك ضحوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه وكنت حينئذ صبيا بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء اقرأ عليه الحساب فلما رأيت ذلك خفت خوفا شديدا وتمسكت به فقوى قلبى وكان عالما بالنجوم ايضا وقال لى الآن ترى هذا جميعه انصرف فانصرف سريعا وفيها ولى الخليفة المستضىء بأمر الله حجبة الباب أبا طالب نصر بن على

الغالب بالله ابن أمير المؤمنين ويلحقه بسعادة آبائه الراشدين * وأسلافه الطيبين الطاهرين * والحمد لله رب العالمين * وصلى الله على نبيه محمد وآله اجمعين * قال فأمر القادر بالله أمير المؤمنين بأن تنسخ الخطبة فى جملة أخواتها المسطورة المخزونة ولما ارجت منابر خراسان بذكر القادر بالله أمير المؤمنين على ماأوجبته طاعة السلطان يمين الدولة وأمين الملة لامر الله فى اقتفار محجته * واقتفاء خليفته وحجته * كاتبه بما رآه من الافضاء الى ابنه أبى الفضل بعهده * فى ولاية امير المؤمنين من بعده * وتلقيبه بالغالب بالله ورسم توفيته واجب حقه * والحاق ذكره على المنابر باسمه * وطبع النقود على ذكر تلقيبه * فأوجب السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * مطاوعته فيما أمر ومتابعته فى جميع مارسم فتقارن ذكراهما فى الخطب * وترافق اسماهما على صفحات الفضة والذهب * وسنعود الى ذكر بهاء الدولة * وضياء الملة * من لدن استأثر الله بعضد الدولة وتاج الملة * ابى شجاع فناخسرو الى ان أفضى

الناقد وكان يلقب فى صغره قنبرا فصار وا يصيحون به ذلك اذا ركب فأمر الخليفة ان يركب معه جماعة من الاتراك ويمنعون الناس من ذلك فامتنعوا فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب فى الموكب فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيأ كثيرا وعزموا على ارسالها فى الموكب اذا رأوا ابن الناقد فأنهى ذلك الى الخليفة وقيل له يصير الموكب ضحكة فعزله وولى ابن المعوج وفيها فى ذى الحجة يوم العيد وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبين الاتراك بسبب أخذ جمال النصر فقتل بينهم جماعة ونهب شئ كثير من الاموال ففرق الخليفة أموالا جليلة فيمن نهب ماله وفيها زلزلت بلاد العجم من جهة العراق الى ماوراء الرى وهلك فيها خلق كثير وتهدمت دور كثيرة واكثر ذلك كان بالرى وقزوين وفيها فى ربيع الآخر استوزر سيف الدين غازى صاحب الموصل جلال الدين ابا الحسن ابن جمال الدين محمد بن على وكان جمال الدين وزير البيت الاتابكى وقد تقدمت اخباره وهو المشهور بالجود والافضال ولما ولى جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة ومعرفة تامة بقوانين الوزارة وله مكاتبات وعهود حسنة مدونة مشهورة وكان جوادا فاضلا خيرا وكان عمره لما ولى الوزارة خمسا وعشرين سنة وفيها فى ذى الحجة استناب سيف الدين أيضا عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض اليه الامور وكان قبل ذلك اليه الامر بمدينة اربل واعمالها وكان رحمه الله من صالحى الامراء وارباب المعروف بنى كثيرا من الجوامع والخانات فى الطرق والقناطر على الانهار والربط وغير ذلك من أبواب البر وكان دائم الصدقة كثير الاحسان عادل السيرة رحمه الله وفيها قبض الخليفة على سنجر المقتفوى استاذ الدار ورتب مكانه أبا الفضل هبة الله بن على بن هبة الله بن الصاحب وفيها فى رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب الذى ملك اليمن الى دمشق ولما سمع ان أخاه صلاح الدين ملكها حن الى الوطن والاتراب ففارق اليمن وسار الى الشام وأرسل من الطريق الى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله وكتب فى الكتاب شعرا من قول ابن المنجم المصرى

والى صلاح الدين اشكو أننى * من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعا لبعد الدار منه ولم أكن * لولا هواه لبعد دار اجزع
فلاركبن اليه متن عزائمى * ويخب بى ركب الغرام ويوضع
ولاقطعن من النهار هواجرا * قلب النهار بحرها يتقطع
ولاسرين الليل لايسرى به * طيف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدمن اليه قلبى مخبرا * انى بجسمى من قريب أتبع
حتى أشاهد منه اسعد طلعة * من أفقها صبح السعادة يطلع

وفى هذه السنة فى المحرم برز صلاح الدين من دمشق وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام وبكسره عسكر الموصل لخافه الفرنج وغيرهم وعزم على دخول بلادهم ونهبه والاغارة عليه فأرسلوا اليه يطلبون الهدنة معه فأجابهم اليها وصالحهم فأمر العساكر المصرية بالعود الى مصر والاستراحة الى ان يعاود طلبهم وشرط عليهم انه متى أرسل يستدعيهم لايتأخرون فساروا اليها وأقاموا بها الى ان استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما ذكرناه وفيها مات أبو الحسن على بن عساكر البطائحى المقرى وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه وكان نحويا جيدا وفى ذاى طبقة

الامر اليه * واستقر الملك عليه * وفيما انطق به كتاب الصابى * المعروف بالتاجى من وقائع عضد الدولة مع بختيار الى ان أظفره الله به فقضى عليه بحد حسامه وجرعه كأس حمامه * واحتياله على أبى تغلب ناصر بعد انهزامه * الى ان أمكنه التدبير عليه بابن الجراح أحد المتغلبين من الاعراب على حدود الشام فقبضه لاقتناصه بعبارة أهداها اليه واطماع أكدها له حتى تمكن وقتله وحمل اليه علاوته مايغنى عن تجديد ذكره ولما مضى عضد الدولة لسبيله وذلك فى شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة عند اشتغال أخيه مؤيد الدولة بويه بمحاربة حسام الدولة تاش وعميدها فائق فى عساكر خراسان اجتمع أبناء دولته * على ابنه صمصام الدولة * وشمس الملة * فبايعوه متوازرين وتوافقوا على طاعته متظاهرين * وأتاه الطائع لله أمير المؤمنين * فى حراقه على ظهر دجلة *

منها توفى ابو سعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزاز سمع الحديث ورواه وله شعر جيد فمن ذلك انه كتب اليه بعض اصدقائه مكاتبة وضمنها شعرا فاجابه

يا من أياديه تغنى من يعددها * وليس يحصى مداها من اها يصف
عجزت عن شكر ما أوليت من كرم * وصرت عبدا ولى فى ذلك الشرف
اهديت منظوم شعر كله درر * فكل ناظم عقد عنده يقف
اذا أتيت بيت منه كان لنا * قصرا ودر المعانى فوقه شرف
وان أتيت أنا بيتا يناقضه * أتيت لكن بيت سقفه يكف
ما كنت منه ولا من أهله أبدا * وانما حين ادنو منه اقتطف

(ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة)

(ذكر نهب صلاح الدين بلاد الاسماعيلية)

لما رحل صلاح الدين من حلب على ما ذكرناه قبل قصد بلاد الاسماعيلية فى المحرم ليقاتلهم بما فعلوا من الوثوب عليه وارادة قتله فنهب بلدهم وخربه واحرقه وحصر قلعة مصياث وهى أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم فنصب عليها المنجنيقات وضيق على من بها ولم يزل كذلك فأرسل سنان مقدم الاسماعيلية الى شهاب الدين الحارمى صاحب حماة وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول له ان لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين فشفع فيهم وسأل الصفح عنهم فأجابه الى ذلك وصالحهم ورحل عنهم وكان عسكره قد ملوا من طول البيكار وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل ونهب بلاد الاسماعيلية فطلبوا العود الى بلادهم للاستراحة فأذن لهم وسار هو الى مصر مع عسكرها لانه كان قد طال عهده عنها ولم يمكنه المضى اليها فيما تقدم خوفا على بلاد الشأم فلما انهزم سيف الدين وحصر هو حلب وملك بلادها واصطلحوا أمن على البلاد فسار الى مصر وأمر ببناء سور على مصر والقاهرة والقلعة التى على جبل المقطم دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمى ولم يزل العمل فيه الى ان مات صلاح الدين

(ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين)

كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب بعلبك فأتاه خبر ان جمعا من الفرنج قد قصدوا البقاع من اعمال بعلبك وأغاروا عليها فسار اليهم وكمن لهم فى الشعراء والغياض وأوقع بهم وقتل فيهم وأكثر وأسر نحو مائتى رجل منهم وسيرهم الى صلاح الدين وكان شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين وهو الذى ملك اليمن قد وصل الى دمشق كما ذكرناه وهو فيها فسمع ان طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم الى اعمال دمشق فسار اليهم واقيهم عند عين الجر فى تلك المروج فلم يثبت لهم وانهزم عنهم فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار وهو من اعيان الجند الدمشقيين واجترأ الفرنج بعدها وانبسطوا فى تلك الولاية وجبروا الكسر الذى ناله منهم ابن المقدم

(ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده الى طاعته)

فى هذه السنة عصى شهاب الدين محمد بن بزان صاحب شهرزور على سيف الدين غازى وكان فى

طاعته

بعزيه عن أبيه وقد ثار عوام الناس نظارة له حتى اذا قرب منه برز اليه صمصام الدولة فجشم وجهه ورسم الطاعة وحق الخلافة وقال له الطائع لله نصر الله وجه الماضى * وحرس الخلف الباقى * وصبر التعزية بعده لك لابل والخلف علينا لامنك فأذرى على خديه دموع عينيه * وبادر الى السجود شكرا لما من الله به عليه * ثم انتصب منصب أبيه فأجرى الامور على استقامة وتدبرها بسياسة عامة وكان أخوه الاكبر أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة غائبا الى مدينة واشير من أرض كرمان فلما بلغه نعى أبيه كر راجعا الى فارس وقبض بها على نصر ابن هرون النصرانى فاستوفى عليه حواصل أموالها وبقايا اعمالها وامتد الى الاهواز فملكها على اخيه ابى الحسين احمد ابن عضد الدولة وغلب على البصرة معها وذلك فى رجب سنة خمس وسبعين وثلثمائة ثم استعد لقصد بغداد طلبا لمكانة ابيه واستضافة لما فى يد اخيه الى سائر ما يليه حتى اذا وافاها تلقاه صمصام الدولة بما اوجبه حق سنه عليه اجلالا ومهابة ومداراة

طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك ان مجاهد الدين قايماز كان متوليا مدينة اربل وكان بينه وبين ابن بزان عداوة محكمة فلما استناب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل خاف ابن بزان ان يناله منه أذى فأظهر الامتناع من النزول الى الخدمة فأرسل اليه جلال الدين وزير سيف الدين كتابا يأمره بمعاودة الطاعة ويحذره عاقبة المخالفة وهو من أحسن الكتب وأبلغها فى هذا المعنى ولولا خوف التطويل لذكرته فليطلب من مكاتباته فلما وصل اليه الكتاب والرسول بادر الى حضور الخدمة بالموصل وزال الخلاف

(ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ)

بالقرب من جزيرة ابن عمر حصن منيع من أمنع المعاقل اسمه فنك وهو على رأس جبل عال وهو للاكراد البشنوية له بأيديهم نحو ثلثمائة سنة وكان صاحبه هذه السنة أميرا منهم اسمه ابراهيم وله أخ اسمه عيسى قد اخرجه منه وهو لا يزال يسعى فى اخذه من أخيه ابراهيم فأطاعه بعض بطانة ابراهيم وفتح باب السر ليلا واصعد منه الى رأس القلعة نيفا وعشرين رجلا فقبضوا على ابراهيم ومن عنده ولم يكن عنده الا نفر من خواصه وهذه قلة على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة ارتفاعا كثيرا وبها يسكن الامير واهله وخواصه وباقى الجند فى القلعة تحت القلة فلما قبضوا ابراهيم جعلوه فى خزانة وضربه بعضهم بسيف فى يده على عاتقه فلم يصنع شيأ فلما جعل فى الخزانة وكل به رجلين وصعد الباقون الى سطح القلة ولا يشكون ان القلعة لهم لا مانع عنهم وصل من الغد بكرة الامير عيسى ليتسلم القلعة وبينهما دجلة وكانت امرأة الامير ابراهيم فى خزانة أخرى وفيها شباك حديد ثقيل يشرف الى القلعة فجذبته بيدها فانقلع وجند زوجها فى القلعة لا يقدرون على شئ فلما قلعت الشباك ارادت ان تدلى حبلا ترفع به الرجال اليها فلم يكن عندها غير ثياب خام فوصلت بعضها ببعض ودلتها الى القلعة وشدت طرفيها عندها فى عود فأصعدت اليها عشرة رجال ولم يكن يراهم الذين على السطح ورأى الامير عيسى وهو على جانب دجلة الرجال يصعدون فصاح هو ومن معه الى أولئك الذين على السطح ليحذروا وكان كلما صاحوا صاح أهل القلعة لتختلف الاصوات فلا يفهم الذين على السطح فينزلون ويمنعون من ذلك فلما اجتمع عندها عشرة رجال أرسلت مع خادم عندها الى زوجها قدح شراب وأمرته ان يقرب منه كأنه يسقيه الشراب ويعرفه الحال ففعل ذلك وجلس بين يديه ليسقيه وعرفه الحال فقال ازدادوا من الرجال فأصعدت عشرين رجلا وخرجوا من عندها فمد ابراهيم يده الى الرجلين الموكلين به فأخذ شعورهما وأمر الخادم بقتلهما وكان عنده فقتلهما بسلاحهما فخرج واجتمع باصحابه وأرادوا فتح القلعة ليصعد اليه أصحابه من القلة فلم يجد المفاتيح وكانت مع اولئك الرجال الذين على السطح فاضطروا الى الصعود الى سطح القلعة ليأخذوا أصحاب عيسى فعلموا الحال فجاءوا ووقفوا على رأس المرق فلم يقدر أحد يصعد فأخذ بعض أصحاب ابراهيم ترسا وجعله على رأسه وحصل فى الدرجة وصعد وقاتل القوم على رأس المرق حتى صعد أصحابه فقتلوا الجماعة وبقى منهم رجل القى نفسه من السطح فنزل الى أسفل الجبل فتقطع فلما رآى عيسى ما حل باصحابه عاد خائبا مما أمله واستقر الامير ابراهيم فى قلعته على حاله

ومقاربة تفاديا من ضرر استيحاشه وعدوى مساءته غير عالم بأن غمدا فرد الا يسع سيفين ووترا واحدا لا يضم سهمين فقربه ابو الفوارس ورفع محله ثم خلعه وكحله وامر به الى قلعة كهوستان من ارض عمان واستولى على المملكة ولقبه الطائع لله بشرف الدولة وزين الملة فبقى على جملته سنتين وجنته حكم الله تعالى فى جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وثلثمائة فقام اخوه شاهنشاه بهاء الدولة وضياء الملة ابو نصر بن عضد الدولة مقامه وتجرد لضبط الامور المائرة وتلافى الاحوال الحائلة وكفل بالملك كفالة خبير بالتجارب بصير بأعقاب العواقب وتمالا الاتراك بفارس على صمصام الدولة فأبرزوه من معتقله وحمله غلامه المعروف بسعادة على عاتقه منحدرا به فملك فارس وما والاها وتتبع اموالها فجباها ثم تنكروا له وقدموا ابا على بن ابى الفوارس وعقدوا له الرياسة عليهم ولقبوه بشمس الدولة وفخر الملة وتجردوا للدفاع عنه والدعاء اليه فانتدب لمواقعتهم الى ان هزمهم اقبح هزيمة وغنمهم ابرد غنيمة فمضوا الى بغداد

(ذكر نهب البندنيجين)

في هذه السنة وصل الملك الذي بخوزستان عند شملة وهو ابن ملكشاه بن محمود الى البندنيجين فخربها ونهبها وقتل في الناس وسبى حريمهم وفعل كل قبيح ووصل الخبر الى بغداد فخرج الوزير عضد الدين وعرض العسكر ووصل عسكر الحلة وواسط مع طاشتكين امير الحاج وغرغلى وساروا نحو العدو فلما سمع بوصولهم فارق مكانه وعاد وكان معه من التركمان جمع كثير فنهبهم عسكر بغداد ورجعوا من غير أمر بالعودة فأنكر عليهم ذلك وأمروا بالعود الى مواقفهم فعادوا لاوائل شهر رمضان وقد رجع الملك فنهب من البندنيجين ما كان سلم في الاول ووقعت بينهم وبين الملك وقعة ثم افترقوا فمضى الملك وفارق ولاية العراق

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الاولى أقيمت الصلاة في الجامع الذي بناه فخر الدولة ابن المطلب بقصر المأمون غربي بغداد وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الشافعي رضي الله عنه بمصر وعمل بالقاهرة بيمارستان ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة وفيها رأيت بالموصل خروفين ببطن واحد ورأسين ورقبتين وظهرين وثماني قوائم كأنهما خروفان ببطن واحد ووجه احدهما الى وجه الآخر وهذا من العجائب وفيها انقض كوكب اضاءت له الارض اضاءة كثيرة وسمع له صوت عظيم وبقي أثره في السماء مقدار ساعة وذهب وفيها توفي تاج الدين أبو علي الحسن بن عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة وفيها في المحرم توفي القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري قاضي دمشق وجميع الشام واليه الوقوف بها والديوان وكان جوادا فاضلا رئيسا ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول رحمه الله ورضي عنه

(ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة)

في هذه السنة في جمادى الاولى سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر الى ساحل الشأم لقصد غزاة بلاد الفرنج وجمع معه عساكره وجنوده فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا الى عسقلان في الرابع والعشرين منه فنهبوا وأسروا وقتلوا واحرقوا وتفرقوا في تلك الاعمال مغيرين فلما رأوا ان الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا وساحوا في الارض آمنين ووصل صلاح الدين الى الرملة عازما على ان يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل الى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم الا والفرنج قد أشرفت عليهم بأطلابها وابطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لان أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة فلما رآهم وقف لهم فيمن معه وتقدم بين يديه محمد بن أخي صلاح الدين فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه فقتل من اصحابه جماعة وكذلك من الفرنج وكان لتقي الدين ولد اسمه احمد وهو من احسن الشباب اول ما تكاملت لحيته فأمره ابوه بالحملة عليهم فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالما قد أثر فيهم اثرا كثيرا فأمره بالعودة اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا ومضى حميدا رحمه الله ورضي عنه وكان اشد الناس قتالا ذلك اليوم الفقيه عيسى رحمه الله وتمت الهزيمة على المسلمين وحمل

بعض

صاغرين * خاسرين * فركب بهاء الدولة * وضياء الملة * لقتال صمصام الدولة * فتناوشا الحرب وصالا كعوب الرماح * ما بين المساء والصباح * حتى خربت البصرة وتلاها في الخراب اكثر كور الاهواز وقد كان اولاد بختيار محتبسين فاستنزلهم طائفة من الاكراد الخسروية عن معقلهم موججين من نار الفتنة باستنزالهم * وفك عقالهم * فناصبهم الحرب مستكفا شرهم * ومستدفعا بأسهم وضرهم * فاختلفت بهم الوقائع بين تلك الفتن الثائرة * والاحن الفائرة * فكانت عقباها ان اجلت عنه قتيلا وتذمر بهاء الدولة للحادثة عليه فأرصد الجناة بطانة حتى شردهم كل مشرد * وطردهم كل مطرد * وزعيمهم يومئذ سالار بن بختيار الملقب بنور الدولة وكان من امره انه انتبذ عنها مذعورا مثبورا * فاضطرته الحال الى خفارة التجار في تجاراتهم * واجازتهم على مراصد القطع ببضاعاتهم * على خرج يستميحه من جهتهم على وزن معاشه * ورياشه * واتبعه بهاء الدولة * بجيش واقعوه * يومئذ

بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل اليه فقتل الفرنجي بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما يسير قليلا و يقف ليلحقه العسكر الى ان دخل الليل فسلك البرية الى أن مضى فى نفر يسير الى مصر ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من دواب العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير وأما العسكر الذى كانوا دخلوا بلاد الفرنج فى الغارة فان اكثرهم ذهب ما بين قتيل واسير وكان من جملة من اسر الفقيه عيسى الهكارى وهو من اعيان الاسدية وكان جمع العلم والدين والشجاعة واسر ايضا اخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق فأخذا ومعهما جماعة من اصحابهما وبقوا سنين فى الاسر فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين الف دينار وجماعة كثيرة من الاسرى و وصل صلاح الدين الى القاهرة نصف جمادى الآخرة ورأيت كتابا كتبه صلاح الدين بخط يده الى اخيه شمس الدولة توران شاه وهو بدمشق يذكر الوقعة وفى أوله

ذكرتك والخطى يخطر بيننا * وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما انجانا الله سبحانه منه الا لامر يريده سبحانه

* وما ثبتت الا وفى نفسها أمر *

(ذكر حصر الفرنج مدينة حماة)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى حصر الفرنج أيضا مدينة حماة وسبب ذلك انه وصل من البحر الى الساحل الشامى كند كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزما فاغتنم خلو البلاد لان شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين وليس عنده كثير من العسكر وكان أيضا كثير الانهماك فى اللذات مائلا الى الراحات فجمع ذلك الكند الفرنجى من بالشام من الفرنج وفرق فيهم الاموال وسار الى مدينة حماة فحصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض وكان طائفة من العسكر الصلاحى بالقرب منها فدخلوا اليها واعانوا من بها وقاتل الفرنج على البلد قتالا شديدا وهجموا بعض الايام على طرف منه وكادوا يملكون البلد قهرا وقسرا فاجتمع أهل البلد مع العسكر الى تلك الناحية واشتد القتال وعظم الخطب على الفريقين واستقتل المسلمون وحاموا عن الانفس والاهل والمال فأخرجوا الفرنج من البلد الى ظاهره ودام القتال ظاهر البلد ليلا ونهارا وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد وطمعوا فيهم وأكثروا فيهم القتل فرحل الفرنج حينئذ خائبين وكفى الله المسلمين شرهم فساروا الى حارم فحصروها وكان مقامهم على حماة أربعة أيام ولما رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمى وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام

(ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم)

فى هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كمشتكين وكان المتولى لامر دولته والحاكم فيها وسبب قبضه انه كان بحلب انسان من أعيان أهلها يقال له أبو صالح بن العجمى وكان مقدما عند نور الدين بن محمود فلما مات نور الدين تقدم أيضا فى دولة ولده الملك الصالح وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكن لكثرة اتباعه بحلب وصار كل من كان يحسد كمشتكين انضم الى

فغلبوه * ووصلوا اليه فقتلوه وحمل غلام منهم رأسه الى بهاء الدولة فامتعض للرحم الدانيه * والحمية الحانيه * من تشجعه على ملاقاته به * فأمر بالغلام فسلخ جلده من قرنه الى قدمه * عبرة لمن اقدم على ملك بسفك دمه * وبعث بعميد الجيوش الملقب بالصاحب الى بغداد لمراعاة تلك الاعمال * واستيفاء حقوق بيت المال * فاستدت سيرته * وحدت فى العدل بصيرته * وعم رفقة حجيج بيت الله الحرام * بالمنائح العظام * فانطلقت بشكره السنة الخاص والعام * من الناس الى ان قبضه الله اليه فسد مكانه بوزير الوزراء زيادة فى النظر للرعية فأربى على عميد الجيوش فى الاحسان الى الكافة اصلاحا لهم ورفقا بهم وطرحا عنهم وصفت نواحى فارس وكرمان لبهاء الدولة منضافة الى سائر أعماله وقعدت الفتن القائمة عن سوقها فى زمانه فعم الامن والسكون * وشمل الرفق والهدون * واستراح عباد الله مما كان يفدحهم من وطأة الجيوش ويلحقهم من معرة اختلاف السيوف وقد كان أبو على بن الياس ملك كرمان أيام عضد الدولة لآل سامان وأقام بها مدة

صالح وقووا جنانه وكثروا سواده وكان عنده اقدام وجراءة فصار واحد الدولة بحلب ومن
يصدر الجماعة عن رأيه وأمره فبينما هو في بعض الايام في الجامع وثب به الباطنية فقتلوه
ومضى شهيدا وتمكن بعده سعد الدين وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين
وقالوا هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح ونسبوه الى العجز وانه ليس
له حكم وان سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره وقتل وزيره ولا يزالوا به حتى قبض
عليه وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد اقطعه اياها الملك الصالح فامتنع من بها بعد قبضه
وتحصنوا فيها فسير سعد الدين اليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها الى الملك الصالح
فأمرهم بذلك فامتنعوا فعذب كمشتكين وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات في العذاب واصر
أصحابه على الامتناع والعصيان فلما رأى الفرنج ذلك ساروا الى حارم من حماة في جمادى
الاولى على ما نذكره ظنا منهم انهم لا ناصر لهم وان الملك الصالح صبي قليل العسكر وصلاح
الدين بمصر فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر ونصبوا عليها
المنجنيقات والسلالم فلم يزالوا كذلك الى ان بذل لهم الملك الصالح مالا وقال لهم ان صلاح الدين
واصل الى الشام وربما يسلم القلعة من بها اليه فأجابوا حينئذ الى الرحيل عنها فلما رحلوا
عنها سير اليها الملك الصالح جيشا فحصروها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج وصاروا كانهم
طلائع وكان قد قتل من أهلها وجرح كثير فسلموا القلعة الى الملك الصالح فاستناب بها مملوكا
كان لابيه اسمه سرخك

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في المحرم خطب للسلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه المقيم
عند ايلدكز بهمذان وكان أبوه ارسلان قد توفي وفيها سابع شوال هبت ريح سوداء وريح عظيمة
وزلزلت الارض واشتد الامر على الناس حتى ظنوا ان القيامة قد قامت فبقي ذلك ساعة ثم
انجلت وقد وقع كثير من الدور ومات فيها جماعة كثيرة وفيها رابع ذي القعدة قتل عضد الدين
أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء أبي القسم بن المسلمة وزير
الخلافة وكان قد عزم على الحج فعبر دجلة ليسير وعبر معه أرباب المناصب وهو في موكب عظيم
وتقدم الى أصحابه ان لا يمنعوا عنه أحدا فلما وصل الى باب قطيبا القبه كهل فقال انا مظلوم
وتقدم ليسمع الوزير كلامه فضربه بسكين في خاصرته فصاح الوزير قتلني ووقع من الدابه
وسقطت عمامته فغطى رأسه بكمه وضرب الباطني بسيف وعاد الى الوزير فضربه واقبل
حاجب الباب ابن المعوج لينصر الوزير فضربه الباطني بسكين وقيل بل ضربه رفيق كان
للباطني ثم قتل الباطني ورفيقه وكان لهما رفيق ثالث فصاح وبيده سكين فقتل ولم يعمل شيا
وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير الى داره هناك وحمل حاجب الباب مجروحا الى بيته فمات هو
والوزير وحمل الوزير فدفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور وكان الوزير قد رأى في
المنام انه معانق عثمان بن عفان وحكى عنه ولده انه اغتسل قبل خروجه وقال هذا غسل الاسلام
وانا مقتول بلا شك وكان مولده في جمادى الاولى سنة اربع عشرة وخمسمائة وكان ابوه استاذ

من الزمان لا ينازعه فيها
منازع * ولا يدافعه عنها
مدافع * وكان حبس ابنه
اليسع في بعض قلاع كرمان
اشفاقا من معرته للوثة
رآها في رأسه * واضطراب
تبينه في وجوه شمائله
وأحواله * ولها عنه مدة *
وهو يكابد منهم بأسا وضرا
وشدة * فاتفق أن أشرف سرب
من نساء ابيه وجواريه عليه
فرثين له لضيق مكانه ودبرن
في وجه خلاصه وعمدن
الى خمرهن فوصلن بعضها
ببعض وخلصنه بها عن
معتقله وتسامع أهل
العسكر بخلاصه وانحلال
عقاله * فتجمعوا عليه
وانقطعوا بجملتهم اليه
مالأته على أبيه لجفوات
نقموها منه وبلغ أبا على
خبر الحادثة فأرسل الى ذوي
التحزب والتألب باحثا
عما دعاهم اليه فأظهروا
الضجر بمكانه والتبرم بطول
زمانه * وساموه مفارقة
كرمان ليستقر الامر على
ابنه اليسع بطاعتهم له
وتوخيهم موافقته فعرك
أبو على قولهم بجنب
المداراة والاحتمال * في
عاجل الحال * ثم جمع ما قدر
عليه من صنوف الاموال
وكر عائدا الى بخارا مخليا
بين اليسع وبين تلك الولاية

دار المقتفي لامر الله فلما مات ولي هو مكانه فبقي كذلك الى ان مات المقتفي فأقره المستنجد
على ذلك ورفع قدره فلما ولي المستضيء استوزره وكان حافظا للقرآن سمع الحديث وله معروف
كثير وكانت داره مجمعا للعلماء وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحج وفيها كانت فتنة
ببغداد وسببها انه حضر قوم من مسلمي المدائن الى بغداد فشكوا من يهودها وقالوا ان لنا مسجدا
نؤذن فيه ونصلي وهو مجاور الكنيسة فقال لنا اليهود قد آذيتمونا بكثرة الاذان فقال المؤذن
ما نبالي بذلك فاختصموا وكانت فتنة استظهر فيها اليهود فجاء المسلمون يشكون منهم فأمر ابن
العطار وهو صاحب المخزن بحبسهم ثم أخرجوا فقصدوا جامع القصر واستغاثوا قبل صلاة
الجمعة فخفف الخطيب الخطبة والصلاة فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعة من الجند ومنعوهم فلما
رأى العامة ما فعل بهم غضبوا نصرة للاسلام فاستغاثوا وقالوا أشياء قبيحة وقلعوا طوابيق
الجامع ورجموا الجند فهربوا ثم قصد العامة دكاكين المخلطين لان أكثرهم يهود فنهبوها
وأراد حاجب الباب منعهم فرجموه فهرب منهم وانقلب البلد وخربوا الكنيسة التي عند دار
البساسيري واحرقوا التوراة وأمر الخليفة ان تنقض الكنيسة التي بالمدائن وتجعل مسجدا
ونصب بالرحبة اخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين فظنها العامة نصبت تخويفا لهم لاجل
ما فعلوا فعلقوا عليها في الليل جرذانا ميتة وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها وفيها
في شعبان قبض سيف الدين غازي صاحب الموصل على وزيره جلال الدين علي بن جمال الدين
لغير جرم ولا عجز ولا تقصير بل العجز سيف الدين فان جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين
قايماز مشاحنة فقال مجاهد الدين لسيف الدين لا بد من قبض الوزير فقبض عليه كارها لذلك ثم
شفع فيه ابن رئيس آمد لانه صهره وزوج بنتهما فاخرج وسار الى آمد فمرض بها وعاد الى دنيسر فمات
سنة خمس وسبعين وعمره سبع وعشرون سنة وحمل الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فدفن
عند والده في الرباط الذي بناه بها وكان رحمه الله من محاسن الدنيا جمع كرما وعلما ودينا وعفة
وحسن سيرة واستحلفه سيف الدين أنه لا يمضي الى صلاح الدين لانه خاف ان يمضي اليه للمودة
التي كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب واسد الدين شيركوه فبلغني ان صلاح الدين
طلبه فلم يقصده لليمين وفيها اجتمع الفرنج طائفة منهم وقصدوا اعمال حمص فنهبوها وغنموا
وأسروا وسبوا فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم ووقف على طريقهم
وكمن لهم فلما وصلوا اليه خرج اليهم هو والكمين ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم وأسر
جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يفلت الا وهو مثخن بالجراح واسترد منهم جميع ما غنموا فرده
على أصحابه وفيها في ربيع الآخر توفي صدقة بن الحسين الحداد الذي ذيل تاريخ الزاغوني
ببغداد وفيها في جمادى الاولى توفي محمد بن أحمد بن عبد الجبار الفقيه الحنفي المعروف بالمشطب
ببغداد

❊ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة❊

❊(ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضا)❊

في هذه السنة في ربيع الاول سار جمع كثير من الفرنج بالشام الى مدينة حماة وكثر جمعهم من
الفرسان والرجالة طمعا في النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى واحرقوا

وأقام لتقتبسه بشر بن
المهدي وترمش الحاجب
على خدمة اليسع وكفالة
أمره ❊ اذ كانت حداثته
تقتضي استخلاف مثلهما
في دهائهما ووفور رأيهما على
حضانة اموره ❊ وتبصيره
الرشد في وجوه تدابيره ❊ ولما
وصل أبو علي الى بخارا بولغ
في تمهيد اكرام مورده
واجلاله من الايثار
والاكبار بمحل مثله الى أن
توفي بها في شوال سنة ست
وخمسين وثلثمائة فاما اليسع
فانه ولي كرمان فحمى
أطرافها وجبى أموالها
وكان أخوه سليمان مقيما
بسيرجان والياء عليها فأغراه
بشر بن المهدي به وأشار
عليه بمعاجلته قبل انتظام
شمله واستمرار حبله فكتب
اليه يستدعيه لهم لا يستغنى
عن مفاوضته فيه فامتنع
عن الاجابة بعلل اخترعها
ومعاذير تمحلها وضاق
اليسع ذرعا ولم يجد من
مناجزته بدا فنهض اليه
محاربا حتى هزمه وغنم ماله
فوقع سليمان الى بخارا
وأطمع اليسع نزق شبابه
في مغالبة عضد الدولة أبي
شجاع على بعض حدود
عمله فكان مثله مثل العير
طلب قرنين ❊ فضيع الاذنين

وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماة ساروا اليهم وهم قليل متوكلين على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والاسر فيهم واستردوا ما غنموه من السواد وكان صلاح الدين قد عاد من مصر الى الشام فى شوال من السنة المتقدمة وهو نازل بظاهر حمص فحملت الرؤس والاسرى والاسلاب اليه فأمر بقتل الاسرى فقتلوا

(ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلاد منه)

فى هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين ببعلبك وكانت له قد سلمها اليه صلاح الدين لما فتحها جزاء له حيث سلم اليه ابن المقدم دمشق على ما سبق ذكره فلم تزل بيده الى الآن فطلب شمس الدولة محمد بن أيوب أخو صلاح الدين منه بعلبك وألح عليه فى طلبها لان تربيته ومنشاه كان بها وكان يحبها ويختارها على غيرها من البلاد وكان الاكبر فلم يمكن صلاح الدين مخالفته فأمر شمس الدين بتسليمها الى أخيه ليعوضه عنها فلم يجب الى ذلك وذكر العهود التى له وما اعتمده معه من تسليم البلاد اليه فلم يصغ اليه وألح فى أخذها وسار ابن المقدم اليها واعتصم بها فوجه اليه صلاح الدين عسكرا وحصره بها مدة ثم رحل عنها من غير ان يأخذها وترك عليه عسكرا يحصره فلما طال عليه الحصار أرسل الى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلمها اليه فعوضه عنها وسلمها فأقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة

(ذكر الغلاء والوباء العام)

فى هذه السنة انقطعت الامطار بالكلية فى سائر البلاد الشامية والجزيرة والعراقية والديار البكرية والموصل وبلاد الجبل وخلاط وغير ذلك واشتد الغلاء وكان عاما فى سائر البلاد فبيعت الغرارة الحنطة بدمشق وهى أربعة عشر مكوكا بالموصلى بعشرين دينارا صورية عتق وكان الشعير بالموصل كل ثلاث مكاكى بدينار أميرى وفى سائر البلاد ما يناسب ذلك واستسقى الناس فى أقطار الارض فلم يسقوا وتعذرت الاقوات وأكلت الناس الميتة وما ناسبها ودام كذلك الى آخر سنة خمس وسبعين ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضا كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيأ واحدا وهو السرسام وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى الا ان بعض البلاد كان أشد من البعض ثم ان الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الامطار وأرخص الاسعار ومن عجيب ما رأيت اننى قصدت رجلا من العلماء الصالحين بالجزيرة لاسمع عليه شيأ من حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان سنة خمس وسبعين والناس فى أشد ما كانوا غلاء وقنوطا من الامطار وقد توسط الربيع ولم تجئ قطرة واحدة من المطر فبينا انا جالس ومعى جماعة ننتظر الشيخ واذ قد اقبل انسان تركمانى قد اثر عليه الجوع وكانه قد أخرج من قبر فبكى وشكى الجوع فأرسلت من يشترى له خبزا فتأخر احضاره لعدمه وهو يبكى و يتمرغ على الارض ويشكو الجوع فلم يبق فينا الا من بكى رحمة له وللناس فتغيمت السماء وجاءت نقط من المطر متفرقة فضج الناس واستغاثوا ثم جاء الخبز فأكل التركمانى بعضه وأخذ

وذلك انه لما بلغ مفرق الدين بن كرمان وفارس أتاه صاحب طليعته بطائفة من المستأمنة عن عسكر عضد الدولة * فأحسن اليهم * وصب الخلع عليهم * ثم هرب نفر منهم راجعين وراءهم فارتاب اليسع برفقائهم وظن ان وراء استئمانهم حيلة أو غيلة فأوسعهم تنكيلا * وعمهم بالعقاب قطعا وتمثيلا واستأمن عنه الى عضد الدولة جملة من رجاله فحملهم وحباهم * ووصلهم ومناهم * فلما رأى أصحابه تباعد ما بين الامرين تألبوا عليه وتنمروا له وتحزبوا عنه وتسلل من جملتهم صفقة واحدة ألف رجل من وجوه الديلم الى معسكر عضد الدولة وهو بناحية أصطخر وفسا الطربان بين الآخرين فجعلوا يتسللون لواذا ويتفرقون جميعا واشتاتا حتى انفض عنه عامة عسكره وبقى فى خاصة غلمانه وحاشيته فاضطر الى معاودة وانهزم وأسرع منها بعياله وبما خف عليه حمله من اثقاله وأمواله نحو بخارا الايلوى

الباقى ومشى واشتد المطر ودام المطر من ثلث الليلة

(ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين)

فى هذه السنة فى ذى القعدة اجتمع الفرنج وساروا الى بلد دمشق مع ملكهم فاغاروا على أعمالها فانتهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا فارسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيه فى جمع من العسكر اليهم وأمره انه اذا قاربهم يرسل اليه يخبره على جناح طائر ليسير اليه وتقدم اليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدى الفرنج فسار فرخشاه فى عسكره يطلبهم فلم يشعر الا والفرنج قد خالطوه فاضطر الى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها الى سواه فانهزم الفرنج ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفرى وما أدراك ماهنفرى كان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب وكان بلاء صبه الله على المسلمين فاراح الله من شره وقتل غيره من اضرابه ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس وفيها ايضا اغار البرنس صاحب انطاكية ولاذقية على حشير المسلمين بشيزر واخذه وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان فأجحف باموالهم وكان صلاح الدين على بانياس على ماذكره ان شاء الله فسير ولد اخيه تقى الدين عمر الى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد ابن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة اطرافها من العدو دمرهم الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر فهو ثلث الليل الاخير وغاب منكسفا وفيها أيضا فى التاسع والعشرين انكسفت الشمس وقت العصر فغربت منكسفة وفى هذه السنة فى شعبان توفى الحيص بيص الشاعر واسمه سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس وكان قد سمع الحديث ومدح الخلفاء والسلاطين والاكابر وشعره مشهور فمنه قوله

كلما أوسعت حلمى جاهلا * اوسع الفحش له فحش المقال
واذا شاردة فهت بها * سبقت مر النعامى والشمال
لاتلمنى فى شقائى بالعلا * رغد العيش لربات الحجال
سيف عز زانه رونقه * فهو بالطبع غنى عن صقال

وفى المحرم ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر بن الابرى وسمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما وعمرت حتى قاربت مائة سنة وسمع عليها خلق كثير الحديث لعلو اسنادها

(ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة)

(ذكر تخريب الحصن الذى بناه الفرنج عند مخاضة الاحزان)

كان الفرنج قد بنوا حصنا منيعا يقارب بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام بمكان يعرف بمخاضة الاحزان فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق الى بانياس وأقام بها وبث الغارات على بلاد الفرنج ثم سار الى الحصن وحصره ليخبره ثم يعود اليه عند اجتماع العساكر فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس بل اقام بها وخيله تغير على بلاد العدو وأرسل جماعة من عسكره مع جالبى الميرة فلم تشعر الا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فارسلوا الى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار فى العساكر مجدا حتى

على شئ دون الاغذاذ فى السير وطى بساط الارض بحوافر الخيل فلما اتصل خبره بعضد الدولة بادر على اثره الى واشهر فلكها واستصفى أموال آل الياس بها ثم استخلف عليها كوركير بن جستان ورجع الى فارس ولما ورد اليسع ناحية خوص من حدود قهستان خلف اثقاله وغلمانه بها وركب المجازات فهو بخار الاستنجاد * وطلب الامداد * فلما وافاها قرب محله * وروعى له حقه * واستحضر مجلس الانس تخصصا بمزية الاكرام والاثرة فلما قدر عليه سلطان الراح لم يتمالك ان قال مستبطئا ولو عرفت قعود الهم بآل سامان عن اغاثة الراجين لها * واللاجين اليها * اطلبت غير هذه الحضرة ملاذا ومعتصرا فخشن مس هذا المقال منه وأمر بنفيه الى خوارزم وبلغ ابا على بن سيمجور حاله ومقاله فبعث الى خوص من قبض على غلمانه وأمواله فنقلهم واياها اليه غنيمة سالمة عن ايدى الاعتراض والاشتراك وأصاب اليسع بخوارزم رمد أقلقه وأكمده * واستنفد وسعه وجلده * وحمله الضجر بالالم على أن فقأ عينه الرمدة بيده * فسالت

واقدامهم وهم في القتال وقاتل الفرنج قتالا شديدا وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريدا وأسر منهم كثير منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضا أخا صاحب جبيل وصاحب طبرية ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم فاما ابن بيرزان فانه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية واطلاق ألف اسير من المسلمين وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعز الدين فرخشاه ابن اخي صلاح الدين وحكى عنه قال ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبي وهما

فان تكن الدولات قسما فانها * لمن يرد الموت الزؤام تؤول

ومن هوّن الدنيا على النفس ساعة * وللبيض في هام الكماة صليل

فهان الموت في عيني فالقيت نفسي اليه وكان ذلك سبب الظفر ثم عاد صلاح الدين الى بانياس من موضع المعركة وتجهز للدخول الى ذلك الحصن ومحاصرته فسار اليه في ربيع الاول وأحاط به وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه وبث العساكر في بلاد الفرنج للاغارة ففعلوا ذلك وجمعوا من الاخشاب والزرجون شيأ كثيرا ليجعله متارس للمنجنيقات فقال له جاولي الاسدي وهو مقدم الاسدية ومن أكابر الامراء الرأي اننا نجربهم بالزحف اول مرة ونذوق قتال من به وننظر الحال معهم فان استضعفناهم والا فنصب المنجنيقات ما يفوت فقبل رأيه وأمر فنودي بالزحف اليه والجد في قتاله فزحفوا واشتد القتال وعظم الامر فصعد انسان من العامة بقميص خلق في باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه وتبعه غيره من اضرابه ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة فصعد الفرنج حينئذ منها الى اسوار الحصن ليحموا انفسهم ويحفظوه الى أن يأتيهم المدد وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية فالح المسلمون في قتال الحصن خوفا من وصول الفرنج اليهم وازاحتهم عنه وأدركهم الليل فامر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة الى الغد ففعلوا فلما كان الغد اصبحوا انقبوا الحصن وعمقوا النقب واشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه فانه كان تسعة اذرع بالنجاري يكون الذراع ذراعا ونصفا فانتظروه يومين فلم يسقط فامر صلاح الدين باطفاء النار التي في النقب فحمل الماء والقى عليها فطفئت وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور وألقوا فيه النار فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الاول ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه واطلقوا من كان به من اسارى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرا من أسرى الفرنج وادخل الباقين الى دمشق فسجنوا وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره والحقه بالارض وكان قد بذل للفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال فلم يفعلوا ظنا منهم انه اذا بقي بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الاسلام وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر باخذه فت في اعضادهم فتفرقوا الى بلادهم وأكثر الشعراء فيه فمن ذلك قول صديقنا النشو بن نفاذة رحمه الله

هلاك الفرنج اتى عاجلا * وقد آن تكسير صلبانها

ولو لم يكن قد دنا حتفها * لما عمرت بيت احزانها

على شده * وكان ذلك سبب هلاكه وحينه ولم يطر من الايلياسية بعد وذكر مات أحد بعده وازداد باع عضد الدولة طولا * وعزة وارتفاعا وشمولا * الى أن ورثه بهاء الدولة وضياء الملة فأجرى امورها بمجاريها الموروثة في حفظ الاطراف * وبسط العدل والانصاف * واما ملك السلطان يمين الدولة وامين الملة خراسان * على آل سامان * وفتح سجستان * وصل بين ولايته وبين تلك الديار * ذمار الجوار * فاتحفه بهاء الدولة وضياء الملة بكتبه * خاطبا الكريمة وده على صداق قلبه المغمور بموالاته * المقصور على طلب مرضاته * ووصل ذلك بهدايا ومبار لاقت برحب صدره * وعلو همته وقدره * فاجابه السلطان يمين الدولة وامين الملة الى ما خطبه * وأوجب له مثل ما أوجبه * واتحفه بما رهن الوداد * وأكد الاعتقاد * وقضى حق المكافاة وزاد * وتشوفت الحال بينهما الى زيادة عصمة تتجدد بها البيوت والمراتع وتشترك فيها الاقارب والاباعد فسفر مشايخ الدولتين في تشبيك اللحمة * وتوشيج أسباب القربة * الى ان اتاح القمر فالتماس القاضي

وقول

وقول على بن محمد الساعاتى الدمشقى

أتسكن أوطان النبيين عصبة * تمين لدى أيمانها وهى تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب * ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

(ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج ارسلان)

فى هذه السنة كان الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن ايوب ومقدمهم ابن اخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب وبين عسكر الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب بلاد قونية واقصرا وسيواس أن نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر رحمه الله كان قد اخذ قديما من قلج ارسلان حصن رعبان وكان بيد شمس الدين بن المقدم الى الآن فطمع فيه قلج ارسلان بسبب أن الملك الصالح يجاب بينه وبين صلاح الدين فارسل اليه من يحصره فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألفا فأرسل اليهم صلاح الدين تقى الدين فى الف فارس فواقعهم وقاتلهم وهزمهم وأصلح حال تلك الولاية وعاد الى صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الاحزان فكان يفتخر ويقول هزمت بألف مقاتل عشرين ألفا

(ذكر وفاة المستضىء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله)

فى هذه السنة فى ثانى ذى القعدة توفى الامام المستضىء بامر الله امير المؤمنين ابو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضى الله عنه وأمه ام ولد ارمنية تدعى غضة وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلا حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للاموال غير مبالغ فى اخذ ما جرت العادة باخذه وكان الناس معه فى أمن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا رضى الله عنه فلقد كانت ايامه كما قيل

كأن ايامه من حسن سيرته * مواسم الحج والاعياد والجمع

ووزراؤه عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء الى أن قتل فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ولما قتل حكم فى الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكنا كثيرا فلما مات المستضىء قام ظهير الدين ابن العطار فى أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله امير المؤمنين فلما تمت البيعة صار الحاكم فى الدولة استاذ الدار مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب وفى سابع ذى القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين ووكل عليه فى داره ثم نقل الى التاج وقيد ووكل به وطالبت ودائعه وأمواله وفى ليلة الاربعاء ثامن عشر ذى القعدة أخرج ميتا على رأس حمال سرا فغمز به بعض الناس فثار به العامة فالقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا فى ذكره حبلا وسحبوه فى البلد وكانوا وضعوا بيده مغرفة يعنى انها قلم وقد غمسوها فى العذرة ويقولون وقع لنا يا مولانا الى غير هذا من الافعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم واعراضهم وسيرت الرسل الى الآفاق لاخذ البيعة فسير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان صاحب همذان وأصفهان والرى وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ له فى القول حتى انه قال لعسكره فى حضرته ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع امير المؤمنين

والدانى فائدته * وشمل الحاضر والبادى والطارى والتالى نفعه وعائدته

(ذكر وقعة نارين)*

ونشط السلطان يمين الدولة وأمين الملة فى سنة أربعمائة لغزوة فى ديار الهند ينكأ بها القرح نكاياته فيها تقربا الى الله تعالى واحتسابا للمثوبة من عنده فنهض نحوها يحث الخيول * ويخترق الحزون والسهول * الى أن توسط ديار الهند فاستباح سهامها * وأذل لفتاحها * ونكس أصنامها * وعرض على السيوف اغتامها * وسار على هينته نحو مقصده وأوقع بعظيم العلوج وقعة أفاء الله بها عليه أموالهم * واغنمه خيوله وأفياله * وحكم فيهم سيوف أوليائه يحسونهم بها بين كل سهب وفدفد * ويجزرونهم عند كل مهبط ومصعد * ورد بهم الى غزنة فيما احتووا من تلك الغنائم الموفورة سالمين غانمين وافرين ظافرين ولما رأى ملك الهند ما صبه الله عليه وعلى أهل مملكته من سوط العذاب بوقائع السلطان يمين الدولة وأمين الملة فيهم ونكاياته فى خاصتهم وذاتهم * وأيقن انه لا قبل له بتلك وقائع ... جنابه ارسل اليه اعيان ... وقرابته ... على الهدنة ...

بل يجب عليكم أن تخلعوه من الامارة وتقاتلوه فاضطر الى البيعة والخطبة وأرسل رضى الدين القزوينى مدرس النظامية الى الموصل لاخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله فى السنة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها وعمت أكثر البلاد من الظهر الى أن مضى من الليل ربعه وبقيت الدنيا مظلمة لا يكاد الانسان يبصر صاحبه وكنت حينئذ بالموصل فصلينا العصر والمغرب والعشاء الآخرة على الظن والتخمين وأقبل الناس على التضرع والتوبة والاستغفار وظنوا ان القيامة قد قامت فلما مضى مقدار ثلث الليل زال ذلك الظلام والعتمة التى غطت السماء فنظرنا فرأينا النجوم فعلمنا مقدار ما مضى من الليل لان الظلام لم يزد بدخول الليل وكان كل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك وفيها فى ذى القعدة نزل شمس الدولة اخو صلاح الدين عن بعلبك وطلب عوضا عنها الاسكندرية فاجابه صلاح الدين الى ذلك واقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه ابن اخيه فسار اليها وجمع اصحابه واغار على بلاد الفرنج حتى وصل الى قلعة صفد وهى مطلة على طبرية فسبى وأسر وغنم وخرب وفعل فى الفرنج أفاعيل عظيمة وأما شمس الدولة فانه سار الى مصر وأقام بالاسكندرية واذا أراد الله أن يقبض رجلا بأرض جعل له اليها حاجة فانه أقام بها الى أن مات بها وفيها فارب الجامع الذى بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من احسن الجوامع وفيها توفى أحمد بن عبد الرحمن الصوفى شيخ رباط الزوزنى وسمع الحديث وكان يصوم الدهر وعبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف سمع الحديث ورواه وهو من بيت الحديث والقاضى عمر بن على بن الخضر أبو الحسن الدمشقى سمع الحديث ورواه وولى قضاء الحريم وعلى بن احمد اليزيدى سمع الحديث الكثير وله وقف كتب كثيرة ببغداد وكان زاهدا خيرا صالحا ومحمد بن على حمزة بن على الاقساسى نقيب العلويين بالكوفة وكان ينشد كثيرا

رب قوم فى خلائقهم * عرر قد صيروا غررا
ستر المال القبيح لهم * سترى ان زال ما سترا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن سديد الدولة الانبارى كاتب الانشاء بعد أبيه وابو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدامغانى الفقيه كان مناظرا حسن المناظرة كثير العبادة ودفن عند قبر أبى حنيفة

(ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية اخيه عز الدين بعده)

فى هذه السنة ثالث صفر توفى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وديار الجزيرة وكان مرضه السل وطال به ثم أدركه فى آخره برسام ومات ومن عجيب ما يحكى ان الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدة الغلاء وخرج سيف الدين فى موكبه فثار به الناس وقصدوه بالاستغاثة وطلبوا منه ان يأمر بالمنع من بيع الخمر فاجابهم

الى

عند أمره * ويتسمح بماله ووفره * ويتجرد أوقات دعائه اياه لنصره * على أن يقود اليه بادى الامر خمسين فيلا يعد آحادها باضعافها ثقل اجسام * وخفة اقدام * ويحمل معها ما لا عظيم الخطر * كثير القدر * مما يضاهيه من ثمار * تلك الديار * ومتاع * تلك البقاع * وعلى أن يناوب كل عام بين افناء عسكره فى خدمة بابه بألفى رجل بادئين * وعائدين * الى اتاوة معلومة يلتزمها كل سنة يتمسك بها من يرث مكانه * ويقوم فى كفالة الملك مقامه * فأوجب السلطان اجابته الى ملتمسه لعز الاسلام ببذل طاعته واعطائه الجزية عن يده وبعث اليه من طالبه بتصحيح المال * وقود الافيال * فنقد * ما وعده وقدم الوفاء بما شرط وبعث بمن ضمن تجهيزهم الى بابه من خواص رجاله على جملة الخدمة واقامة رسم الطاعة فانعقدت تلك الهدنة ودرت تلك الاتاوة وتتابعت القوافل بين ديار خراسان وبلاد الهند فى ضمان الامان * وجوار الحيطة والاحسان

(ذكر غزوة قورن)

اتفق السلطان يمين الدولة وأمين الملة فكر فى جبال

الى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا ما بها من خمور وكسروا الظروف وعملوا ما لا يحل فاستغاث أصحاب الدور الى نواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ولم يكن في الذى فعله العامة من النهب وما لا يجوز فعله انما هو أراق الخمور ونهى العامة عن الذى يفعلونه فلم يسمعوا منه فلما شكى الخمارون منه أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فاراد وا تغطيته بعمامته فلم يفعل وقال والله لا غطيت رأسى حتى ينتقم الله لى ممن ظلمنى فلم يمض غير أيام حتى توفى الزردار الذى تولى اذاه ثم يعقبه مرض سيف الدين واستمر الى ان مات وعمره حينئذ نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة ابيض اللون وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات اذا ركب واذا جلس عفيفا لم يذكر عنه ما ينافى العفة وكان غيورا شديد الغيرة لا يدخل دوره غير الخدم الصغار فاذا كبر أحدهم منعه وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الاموال على شح فيه وجبن ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجر شاه وكان عمره حينئذ اثنتى عشرة سنة فخاف على الدولة من ذلك لان صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقوى امره وامتنع اخوه عز الدين مسعود بن مودود من الاذعان لذلك والاجابة اليه فأشار الامراء الاكابر ومجاهد الدين قايماز بان يجعل الملك بعده فى عز الدين اخيه لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس وان يعطى ابنيه بعض البلاد ويكون مرجعهما الى عز الدين عمهما والمتولى لامرهما مجاهد الدين قايماز ففعل ذلك وجعل الملك فى أخيه واعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك فلما توفى سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد اخوه عز الدين وكان المدبر للدولة مجاهد الدين وهو الحاكم فى الجميع واستقرت الامور ولم يختلف اثنان

(ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج ارسلان)

فى هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من الشام الى بلاد قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان وهى ملطية وسيواس وما بينهما وقونية ليحاربه وسبب ذلك ان نور الدين محمد بن قرا ارسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر كان قد تزوج ابنة قلج ارسلان المذكور وبقيت عنده مدة ثم انه أحب مغنية فتزوجها ومال اليها وحكمت فى بلاده وخزائنه واعرض عن ابنة قلج ارسلان وتركها نسيا منسيا فبلغ أباها الخبر فعزم على قصد نور الدين واخذ بلاده فأرسل نور الدين الى صلاح الدين يستجير به ويسأله كف يد قلج ارسلان عنه فارسل صلاح الدين الى قلج ارسلان فى المعنى فاعاد الجواب اننى كنت قد سلمت الى نور الدين عدة حصون تجاور بلاده لما تزوج ابنتى فحيث آل الامر معه الى ما يعلمه فانا اريد ان يعيد الى ما أخذه منى وترددت الرسل بينهما فلم يستقر حال فيهما فهادن صلاح الدين الفرنج وسار فى عساكره وكان الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود بحلب فتركها ذات اليسار وسار على تل باشر الى رعبان فاتاه بها نور الدين محمد واقام عنده فلما سمع قلج ارسلان بقربه منه ارسل اليه أكبر امير عنده ويقول له ان هذا الرجل فعل مع ابنتى كذا ولا بد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه فلما وصل الرسول واجتمع

الغور وعرد أهلها وعتههم على عظلهم عن حلية الدين وسمة الاسلام وحصولهم فى المقلة من عين حوزته * والمركز من دائرة مملكته * وتأذى المارة والسابلة بعيث ارصادهم * وعنت قطعهم وافسادهم * لاستطالتهم بمناعة جبالهم الشواهق * ومجال مسالكهم المتضايق * فأنف للدولة القاهرة من أن يخليها على غلق أقفالها * وشدة رتاجها * فصرم العزم على تدويخ ديارهم * وتذليل رقابهم * وانتزاع نعرة الاستطالة من رؤسهم * واستلال وحرة العصيان من صدورهم * واجلب عليهم بخيله ورجله * معولا على صنع الله وفضله * وقدم امامه والى هراة التونتاش الحاجب * ووالى طوس أرسلان الجاذب * فسارا مقتصين فى مضايق تلك المسالك الى أن أفضى بهما الدؤب الى مضيق قد غص بكماة الغورية ممن لفظتهم القرى القاصية * والمحال المتنائية * فتناوشوا الحرب تناوشا بطلت فيه العوامل الا الصوارم * فى الجماجم * والخناجر * فى الحناجر * وتصابر الفريقان على مر الكريهة حتى سالت نفوس * وطارت عن

بصلاح الدين وادى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ وقال للرسول قل لصاحبك والله
الذى لا اله الا هو لئن لم يرجع لاسيرن الى ملطية و بينى و بينها يومان ولا انزل عن فرسى الا فى البلد
ثم اقصد جميع بلاده وآخذها منه فرأى الرسول امرا شديدا فقام من عنده وكان قد رأى
العسكر وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك ليس عنده ما يقاربه
فعلم انه ان قصدهم اخذ بلادهم فارسل اليه من الغد يطلب ان يجتمع به فاحضره فقال له اريد ان
اقول شيئا من عندى ليس رسالة عن صاحبى واحب ان تنصفنى فقال له قل قال يا مولانا ما هو
قبيح بمثلك وانت من اعظم السلاطين واكبرهم شانا ان تسمع الناس عنك انك صالحت الفرنج
وتركت الغزو ومصالح المملكة واعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة
وجمعت العساكر من اطراف البلاد البعيدة والقريبة وسرت وخسرت انت وعساكرك
الاموال العظيمة لاجل قحبة مغنية ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الاسلام
وكافة العالم واحسب ان احدا ما يواجهك بهذا اما يعلمون ان الامر هكذا ثم احسب ان قلج
ارسلان مات وهذه ابنته قد ارسلتنى اليك تستجير بك وتسألك ان تنصفها من زوجها فان فعلت
فهو الظن بك ان لا تردها فقال والله الحق بيدك وان الامر لكما تقول ولكن هذا الرجل دخل
علىّ واستجار بى ويقبح بى تركه لكنك انت اجتمع به واصلح الحال بينكم على ما تحبون وانا
اعينكم عليه واقبح فعله ووعد من نفسه بكل جميل فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وتردد
القول بينهم فاستقر ان صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة وان كان لا يفعل ينزل
صلاح الدين عن نصرته و يكون هو وقلج ارسلان عليه واصطلحوا على ذلك وعاد صلاح الدين
عنه الى الشام وعاد نور الدين الى بلاده فلما انقضت المدة اخرج نور الدين المغنية عنه فتوجهت
الى بغداد واقامت بها الى ان ماتت

* (ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الارمنى) *

وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الارمنى بعد فراغه من امر قلج ارسلان وسبب ذلك ان ابن
ليون الارمنى كان قد استمال قوما من التركمان وبذل لهم الاموال فامرهم ان يرعوا مواشيهم
فى بلاده وهى بلاد حصينة كلها حصون منيعة والدخول اليها صعب لانها مضايق وجبال وعرة
ثم غدر بهم وسبى حريمهم واخذ اموالهم واسر رجالهم بعد ان قتل منهم من حان اجله ونزل
صلاح الدين على النهر الاسود وبث الغارات على بلاده فخاف ابن ليون على حصن له على رأس
جبل ان يؤخذ فخربه واحرقه فسمع صلاح الدين بذلك فاسرع السير اليه فادركه قبل ان ينقل
ما فيه من ذخائر واقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه فارسل ابن ليون يبذل اطلاق من
عنده من الاسرى والسبى واعادة اموالهم على ان يعودوا عن بلاده فاجابه صلاح الدين
الى ذلك واستقر الحال واطلق الاسرى واعيدت اموالهم وعاد صلاح الدين عنه فى جمادى
الآخرة

* (ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه) *

فى هذه السنة سار ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الى افريقية وملك قفصة وكان سبب ذلك
ان صاحبها على بن المعز بن المعتز لما رأى دخول الترك الى افريقية واستيلاءهم على بعضها

وانقياد

الهام رؤوس * وبلغ السلطان
خبر الفريقين فلفقهم فى
خواص رجاله وجعل يلجئهم
الى ما وراءهم شيئا فشيئا
ويدلك عليهم ملاجئهم
شعبا فشعبا الى أن فرقهم فى
عطفات الجبال الشوامخ *
وألحقهم بقلل الراسيات
البواذخ * واستفسح المجال
الى عظيم الكفرة المعروف
بابن سورى فغزا فى عقر
داره * وأحاط به من جانب
حصاره * وشد عليه الحرب
وبرز الرجل فى قرابة عشرة
آلاف رجل ورجال كأنما
خلقت قلوبهم من حديد *
واكبادهم من جلاميد *
يستأنسون بأهوال
الوقائع * استئناس الظماء
بماء الشرائع * فصادفوا عسكر
السلطان مرعدين بالبطش
والبأس مبرقين بصوارم
الاسياف وجعلوا يهرون
فى وجوههم هرير الكلاب
أصابها القرار * وأحرجتها
الانجحار * فأمر السلطان
بمباركة الشد عليهم على
ما اوجبه حكم الاحتياط
اذ كانوا مستندين الى معاقل
وثيقة * متحصنين بخنادق
عميقة * حتى اذا انتصف
النهار عشى وقاحتهم فى
مغالبة الحرب * ومصابرة
الطعن والضرب * اشار
بتوليتهم الظهور على وجه
الاستدراج والاغتيال

وانقياد العرب اليهم طمع ايضا فى الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان فى طاعته فاظهر ما فى نفسه وخالفه واظهر العصيان ووافقه اهل قفصة فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين اصحاب ابى يعقوب وكان ذلك فى شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة فارسل والى بجاية الى يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطراب امور البلاد واجتماع كثير من العرب الى قراقوش التركى الذى دخل الى افريقية وقد تقدم ذكر ذلك وما جرى فى قفصة من قتل الموحدين ومساعدة اهل قفصة صاحبهم على ذلك فشرع فى سد الثغور التى يخافها بعد مسيره فلما فرغ من جميع ذلك تجهز العسكر وسار الى افريقية سنة خمس وسبعين ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة اشهر وهى بلد حصينة واهلها انجاد وقطع شجرها فلما اشتد الامر على صاحبها واهلها خرج منها مستخفيا لم يشعر به احد من اهل قفصة ولا من عسكره وسار الى خيمة يوسف وعرف حاجبه انه قد حضر الى امير المؤمنين يوسف فدخل الحاجب وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة الى باب خيمته فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد وامر بادخاله عليه فدخل وقبل يده وقال قد حضرت أطلب عفو امير المؤمنين عنى وعن اهل بلدى وان يفعل ما هو اهله واعتذر فرق له يوسف فعفا عنه وعن اهل البلد وتسلم المدينة اول سنة ست وسبعين وسير على بن المعز صاحبها الى بلاد المغرب فكان فيها مكرما عزيزا واقطعه ولاية كبيرة ورتب يوسف لقفصة طائفة من اصحابه الموحدين وحضر مسعود بن زمام امير العرب عند يوسف ايضا فعفا عنه وسيره الى مراكش وسار يوسف الى المهدية فأتاه بها رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس منه الصلح فهادنه عشر سنين وكانت بلاد افريقية مجدبة فتعذر على العسكر القوت وعلف الدواب فسار الى المغرب مسرعا والله اعلم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى شمس الدولة تورانشاه بن ايوب اخو صلاح الدين الاكبر بالاسكندرية وكان قد أخذها من أخيه اقطاعا فاقام بها فتوفى وكان له أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون اليه الاموال من زبيد وعدن وما بينهما من البلاد والمعاقل وكان أجود الناس واسخاهم كفا يخرج كل ما يحمل اليه من أموال اليمن ودخل الاسكندرية وحكمه فى بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله نافذ ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مائتى ألف دينار مصرية دينا فوفاها اخوه صلاح الدين عنه لما دخل الى مصر فانه لما بلغه خبر وفاته سار الى مصر فى شعبان من السنة واستخلف بالشأم عز الدين فرخشاه ابن اخيه شاهنشاه وكان عاقلا حازما شجاعا وفيها توفى ابو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الاصفهانى بالاسكندرية وكان حافظ الحديث وعالما به سافر فى طلب الكثير وتوفى ايضا فى المحرم على بن عبد الرحيم المعروف بابن العصار اللغوى ببغداد وسمع الحديث وكان من اصحاب ابن الجواليق

(ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة)

(ذكر غزاة الى بلد الكرك من الشأم)

فى هذه السنة سار فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الى أعمال كرك ونهبها وسبب ذلك ان البرنس ارناط صاحب الكرك كان من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلين

فاعتدوا بخدعة الانقلاب وانقضوا عن مواقفهم الى فسحة الفضاء لاغتنام فرصة الانهزام فكرت عليهم الخيول بضربات غنيت بذواتها عن اخواتها * فلم ترتفع منها واحدة الا عن دماغ منثور * ودم مسفوح * وصرع فى تلك المعركة الواحدة رجال كهشيم المحتظر * او اعجاز نخل منقعر وملك الاسر عظيمهم المعروف بابن سورى باقربيه وذويه * وسائر حواشيه * وأفاء الله على السلطان ما اشتمل عليه حصاره من ذخائر الاموال والاسلحة التى اقتناها كابر عن كابر * وتوارثها كافر عن كافر * وأمر السلطان باقامة شعائر الاسلام فيما افتتحه من تلك القلاع والرباع فأفصحت بذكره منابرها * واشترك فى عز دعوته باديها وحاضرها * ورجع بعد ذلك عن وجهه على جناح اليسر والنجاح * والظفر المتاح * وحين رأى ابن سورى حصوله فى ذل اساره * واستباحة السلطان ودائع حصاره * تجرع بحسبانه * واستراح الى بردو فاته * فامتص سما كان أودعه فص خاتمه فخاد الوقت بنفسه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو

فتجهز وجمع عسكره ومن أمكنه الجمع وعزم على المسير في البر الى تيماء ومنها الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة فسمع عز الدين فرخشاه ذلك فجمع العساكر الدمشقية وسار الى بلده ونهبه وخربه وعاد الى طرف بلادهم وأقام بها ليمنع البرنس من المسلمين فامتنع من مقصده فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس ان المسلمين لا يعودون حتى تفرق جمعه وانقطع طمعه من الحركة فعاد فرخشاه الى دمشق وكفى الله المؤمنين شر الكفار

(ذكر تلبيس ينبغي أن يحتاط من مثله)

كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكناني ينوب عن شمس الدولة أخي صلاح الدين باليمن وتحكم في الاموال والبلاد بعد ان فارقها شمس الدولة كما ذكرنا وكان هواه بالشام لانه وطنه فارسل الى شمس الدولة يطلب الاذن له في المجيء اليه فاذن له في المجيء فاستناب بزبيد اخاه حطان بن كامل بن منقذ الكناني وعاد الى شمس الدولة وكان معه بمصر فمات شمس الدولة وبقي مع صلاح الدين فقيل عنه انه أخذ اموال اليمن وادخرها وسعى به اعداؤه فلم يعارضه صلاح الدين فلما كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعاما وعمل دعوة كبيرة ودعا اليها اعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمى العدوية وأرسل اصحابه يتجهزون من البلد ويشترون ما يحتاجون اليه من الاطعمة وغيرها فقيل لصلاح الدين ان ابن منقذ يريد الهرب وأصحابه يتزودون له ومتى دخل اليمن اخرجه عن طاعتك فارسل صلاح الدين فاخذه والناس عنده وحبسه فلما سمع صلاح الدين جلية الحال علم ان الحيلة تمت لاعدائه في قبضه فخفف ما كان عنده وسهل أمره وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ما لحقها من الحمل لاخوه صلاح الدين وأصحابه واطلقه واعاده الى منزلته وكان أديبا شاعرا

(ذكر ارسال صلاح الدين العساكر الى اليمن)

في هذه السنة سير صلاح الدين جماعة من امرائه منهم صارم الدين قتلغ ابه والى مصر الى اليمن للاختلاف الواقع بها بين نواب أخيه شمس الدولة وهم عز الدين عثمان بن الزنجيلي والى عدن وحطان بن منقذ والى زبيد وغيرهما فانه لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا وجرت بين عز الدين عثمان وبين حطان حروب وكل واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما بيده واشتد الامر فخاف صلاح الدين أن يطمع اهل البلاد فارسل هؤلاء الامراء اليها واستولى قتلغ أبه على زبيد وأزال حطان عنها ثم مات قتلغ ابه فعاد حطان الى امارة زبيد واطاعه الناس لجوده وشجاعته

(ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب)

في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره نحو تسع عشرة سنة ولما اشتد مرضه وصف له الاطباء شرب الخمر للتداوي فقال لا أفعل حتى استفتي الفقهاء فاستفتى فأفتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك فقال له أرأيت ان قدر الله تعالى بقرب الاجل أيؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا فقال والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه علي ولم يشربه فلما يئس من نفسه أحضر الامراء وسائر الاجناد ووصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم ان عماد ابن

(ذكر القحط الواقع بنيسابور)

في سنة احدى وأربعمائة وقع القحط بنيسابور خصوصا وفي سائر بلاد خراسان عموما * فهلك بنيسابور وباطرافها دون غيرها مائة ألف او يزيدون وكم دفن منهم بأطمارهم لضيق الاكفان بهم * وعجز غسلة الاموات عنهم * وكان الناس بين غلام وشاب وكهل وشيخ وفتاة وعجوز يتداعون الخبز الخبز ويذوبون على أنفسهم حتى تغور عيونهم وتجب الموت جنوبهم * ورعوا نبات الارض حتى استحكم اليأس عن الزروع * وانقطعت الاطماع عن الربوع * وضاق بهم الامر فجعلوا يتتبعون رمام العظام على رؤس الكناسات تعللا بها ومهما ذبح قصاب ذبيحة اجتمع عليها الفروج بعد الفروج يتقاسمون نجيعها بالكيزان والخزف تسكينا لحرقة الجوع واجتزاء به عن القوت فلم ينل منه أحد الاسقط لجنبه * وجاد عن كثب بنفسه * وعهدي بهم يتتبعون سقاطات حب الشعير عن الارواث وهيهات ان الشعير لاعين الانام * فكيف البهائم والانعام *

عمك ايضا وهو زوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أصلح وعز الدين له من البلاد من الفرات الى همذان ولا حاجة به الى بلدك فقال له ان هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم ان صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى ومتى سلمت حلب الى عماد الدين فيعجز عن حفظها وان ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقام وان سلمتها الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات وكان حليما كريما عفيف اليد والفرج واللسان ملازما للدين لا يعرف له شئ مما يتعاطاه الملوك والشباب من شرب خمر أو غيره حسن السيرة فى رعيته عادلا فيهم ولما قضى نحبه أرسل الامراء الى اتابك عز الدين يستدعونه الى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات وأرسل أحضر الامراء عنده من حلب فحضروا وساروا جميعا الى حلب ودخلها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم فلما اجتاز فى طريقه اليها من الفرات كان تقى الدين عمر ابن اخى صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هاربا الى حماة وثار أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين فاشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق واطمعوه فيها وفى غيرها من بلاد الشام وأعلموه محبة اهلها له ولاهل بيته فلم يفعل وقال بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها الى الرقة

(ذكر تسليم حلب الى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها)

لما دخل عز الدين الى الرقة جاءته رسل اخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب ان يسلم اليه حلب ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك ولج عماد الدين فى ذلك وقال ان سلمتم الى حلب والا سلمت انا سنجار الى صلاح الدين فاشار حينئذ جماعة من الامراء بتسليمها اليه وكان اشدهم فى ذلك مجاهد الدين قايماز فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه فى الدولة وكثرة عساكره وبلاده وانما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين لانه عظم فى نفسه وكثر معه العسكر وكان الامراء الحلبيون لا يلتفتون الى مجاهد الدين ولا يسلكون معه من الادب ما يفعله عسكر الموصل فاستقر الامر على تسليم حلب الى عماد الدين واخذ سنجار عوضا عنها فسار عماد الدين فتسلمها وسلم سنجار الى اخيه وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عز الدين حلب فعظم الامر عليه وخاف ان يسير منها الى دمشق وغيرها ويملك الجميع وايس من حلب فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار الى الشام وكان من الوهن على دولة عز الدين ما نذكره ان شاء الله

(ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومصر صاحبها مع صلاح الدين)

كانت قلعة البيرة وهى مطلة على الفرات من ارض الجزيرة لشهاب الدين الارتقى وهو ابن عم قطب الدين ايلغازى بن البى بن تمرتاش بن ايلغازى بن ارتق صاحب ماردين وكان فى طاعة نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده وصار فى طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل فلما كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين الى عز الدين يطلب منه ان يأذن له فى حصر البيرة وأخذها فأذن له فى ذلك فسار فى عسكره الى قلعة سميساط وهى له ونزل بها وسير العسكر الى البيرة فحصرها فلم يظفر منها بطائل الا انهم لازموا

ثم ترقى الامر الى أن أكلت الام ولدها والاخ أخاه والزوج زوجته وظل بعضهم يختلس بعضا من شوارع الطرق الى الخرابات فيطبخ منه ما شاء من الباجات * وحرمت الاسمان على الناس لكثرة ما صبر عليها من لحوم البشر فيبيع فى الاسواق وقبض على اقوام بلا عدد كانوا يغتالون السابلة * فيصبرونهم على هذا الحال * ووجد فى دورهم ما يغمر العدد من رؤس الناس قد أكلت لحومهم * وصهرت شحومهم وأما الكلاب والسنانير * فلم يبق منها الا العدد اليسير * وهابا وساط الناس وارباب الحرف أن يخترقوا وقت العشاء محلة نائية عن واسطة البلد الا فى عديد * وسلاح حديد * وذكر أن فقيها وجيها من أصحاب الحديث دخل على الامام أبى الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكى فسأله عن تطاول عهده به فقال لما أخذ الامام فى أحدوثة عجيبة رد الله بها على روحى فضلا منه جسيما * وصنعا كريما * وذلك أنى جعلت أمر ببعض العشيات وحيدا فى شارع اشار اليه فلم يرعنى الا وتر صليب فى عنقى وجذبت

الحصار فأرسل صاحبها الى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر على مانذكره يطلب منه ان ينجده ويرحل العسكر المارد الى عنه ويكون هو فى خدمته كما كان أبوه فى خدمة نور الدين فاجابه الى ذلك وأرسل رسولا الى صاحب ماردين يشفع فيه ويطلب ان يرحل عسكره عنه فلم يقبل شفاعته واشتغل صلاح الدين بما نذكره من الفرنج فلما رأى صاحب ماردين طول مقام عسكره على البيرة ولم يبلغوا منها غرضا امرهم بالرحيل عنها وعاد الى ماردين فسار صاحبها الى صلاح الدين وكان معه حتى عبر معه الفرات على مانذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كثرت المنكرات ببغداد فاقام حاجب الباب جماعة لاراقة الخمور واخذ المفسدات فبينما امرأة منهن فى موضع علمت بمجىء أصحاب حاجب الباب فاضطجعت وأظهرت انها مريضة وارتفع أنينها فرأوها على تلك الحال فتركوها وانصرفوا فاجتهدت بعدهم ان تقوم فلم تقدر وجعلت تصيح الكرب الكرب الى أن ماتت وهذا من أعجب مايحكى وفيها فى عاشر ذى الحجة توفى الامير همام الدين تتر صاحب قلعة تكريت بالمزدلفة كان قد استخلف الامير عيسى بن اخى مودود وحج فتوفى ودفن بالمعلى مقبرة مكة وفيها فى شعبان توفى عبد الرحمن بن محمد بن أبى سعيد أبو البركات النحوى المعروف بابن الانبارى ببغداد وله تصانيف حسنة فى النحو وكان فقيها صالحا وفيها توفى ابراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعى بجزيرة ابن عمر وكان فاضلا كثير الورع

(ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة)

(ذكر مسير صلاح الدين الى الشأم واغارته على الفرنج)

فى هذه السنة خامس المحرم سار صلاح الدين عن مصر الى الشام ومن عجيب مايحكى من التطير انه لما برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر والناس عنده واعيان دولته والعلماء وارباب الآداب فمن بين مودع له وسائر معه وكل منهم يقول شيأ فى الوداع والفراق وماهم بصدده من السفر وفى الحاضرين معلم لبعض اولاده فاخرج رأسه من بين الحاضرين وانشد

تمتع من شميم عرار نجد * فمابعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد اليها الى ان مات مع طول المدة ثم سار عن مصر وتبعه من التجار واهل البلاد ومن كان قصده مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره عالم كثير فلما سار جعل طريقه على ايلة فسمع ان الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والاثقال مع أخيه تاج الملوك بورى الى دمشق وبقى هو فى العساكر المقاتلة لاغير فشن الغارات باطراف بلادهم واكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك فلم يخرج اليه منهم احد ولا أقدم على الدنو منه ثم سار فاتى دمشق فوصلها حادى عشر صفر من السنة

(ذكر ملك المسلمين شقيفا من الفرنج)

فى هذه السنة ايضا فى صفر فتح المسلمون بالشام شقيفا من الفرنج يعرف بحبس جلدك وهو من اعمال طبرية مطل على السواد وسبب فتحه ان الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر الى

الشام

به جذبة ضيقت على مختنق فبينا أنا أهيم بواتاة الجاذب وحدا تانه على ضيق التخنيق اذ وثبت الى من بعض تلك الاوبات امرأة فضربت انثيى * بركبتها ضربة سقطت منها مغشيا على * فلم أشعر بعدها بشئ من مصارف امورى * الى ان افقت من الغشى ببرد ماء رش بين وجهى وترائبى فنظرت الى قوم أجانب يخادعونى عما دهانى * ويكاتمونى صورة ماعرانى * فاذاهم ساعة وجبتهم لحينى أدركونى * عائدين الى منازلهم فهرب منهم من أشفى على قتلى واستباحة دمى وتركنى برمقى * وخلى الوتر فى عنقى * فصبرت ساعة الى ان استوفيت الافاقه * واستعدت القوة والطاقه * وعدت الى المنزل وسقطت من هول ذلك المصرع على الفراش عشرين يوما مدهوشا مبهوتا * وحرضا مسبوتا * الى ان من الله على بأوائل الاقبال * وزوال أكثر ماسنى من ألم [illegible]لال * فبكرت يوم أحسست بالخفة الى المسجد لاقامة الفرض وصعدت المئذنة على الرسم فلم أستتم التكبير حتى اختطف مسلمق من رأسى وهو أراد صاحبه برقبتى

الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم
ينتهزون فرصة او يظفرون بنصرة وربما عاقوا المسلمين عن المسير بان يقفوا على بعض المضايق
فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاه الخبر فجمع من عنده من عساكر
الشام ثم قصد بلاد الفرنج واغار عليها ونهب دبورية وما يجاورها من القرى واسر الرجال وقتلوا
واكثروا سبي النساء وغنم الاموال وفتح منهم الشقيف وكان على المسلمين منه اذى شديد ففرح
المسلمون بفتحه فرحا عظيما وارسل الى صلاح الدين بالبشارة فلقيه في الطريق ففت ذلك في عضد
الفرنج وانكسرت شوكتهم

(ذكر ارسال سيف الاسلام الى اليمن وتغلبه عليه)

في هذه السنة سير صلاح الدين اخاه سيف الاسلام طغدكين الى بلاد اليمن وامره بتملكها وقطع
الفتن بها وفوض اليه امرها وكان بها حطان بن منقذ كما ذكرناه قبل وكتب عز الدين عثمان
الزنجيلي متولي عدن الى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد ويشير بارسال بعض اهله اليها
لان حطان كان قوي عليه فخافه عثمان فجهز صلاح الدين اخاه سيف الاسلام وسيره الى بلاد
اليمن فوصل الى زبيد فخافه حطان بن منقذ واستشعر منه وتحصن في بعض القلاع فلم يزل
به سيف الاسلام يؤمنه ويهدي اليه ويتلطفه حتى نزل اليه فاحسن صحبته واعمل معه مالم
يكن يتوقعه من الاحسان فلم يثق حطان به وطلب منه دستورا له ليقصد الشام فامتنع من
اجابته اظهارا للرغبة في كونه عنده فلم يزل حطان يراجعه حتى اذن له فاخرج اثقاله وامواله
ودوابه واهله واصحابه وكل ماله وسير الجميع بين يديه فلما كان الغد دخل الى سيف الاسلام
ليودعه فقبض عليه واسترجع جميع ماله فاخذه عن آخره ولم يسلم منه قليل ولا كثير ثم سجنه
في بعض القلاع وكان آخر العهد به فقيل انه قتله وكان في جملة ما أخذ منه من الاموال الذهب
العين في سبعين غلافا زردية مملوأة ذهبا عينا واما عز الدين عثمان الزنجيلي فانه لما سمع ماجرى
على حطان خاف فسار نحو الشام خائفا يترقب وسير معظم امواله في البحر فصادفهم مراكب
فيها أصحاب سيف الاسلام فاخذوا كل مال عز الدين ولم يبق له الا ما صحبه في الطريق وصفت زبيد
وعدن وما معهما من البلاد لسيف الاسلام

(ذكر اغارة صلاح الدين على الغور وغيره من بلاد الفرنج واعمالها)

لما وصل صلاح الدين الى دمشق كما ذكرناه اقام اياما يريح ويستريح هو وجنده ثم سار الى
بلاد الفرنج في ربيع الاول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم في الاقحوانة من الاردن
وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت بطبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن اخيه الى بيسان فدخلها
قهرا وغنم مافيها وقتل وسبى وجحف الغور غارة شعواء فعم اهله قتلا واسرا وجاءت العرب فاغارت
على جينين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت
جبل كوكب فتقدم صلاح الدين اليهم وارسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا
ولم يتحركوا للقتال فامر ابني اخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج فيمن
معهما فاقتتلوا قتالا شديدا ثم ان الفرنج انحازوا على حاميتهم فنزلوا عفربلا فلما رأى صلاح الدين
ما قد اثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم الى دمشق

فاختطأها لما أراد الله من
انساء اجلي * واستبقاء
مهلي * فعدلت عن الاذان
الى الصباح بطلب الامان
وجعلت لله على بعد ذلك
نذرا أن لا اخرج مدة هذه
الفتنة من داري الا والشمس
بيضاء نقيه * ولا أرجع اليها
الا وفي النهار بقيه * فهذه
هي التي ثبطتني عن الخدمه
وقعدت بي عن الرسم في
مشاهدة الجمله * فقضى
الحاضرون عجبا من تلك
الداهيه * وسألوا الله تعالى
حسن السلامة والعافيه *
وحكي عن الاستاذ أبي سعيد
عبد الملك بن عثمان الواعظ
أحد الصالحين * من عباد الله
تعالى الموقنين * والساعين
في مصالح المسلمين * انه نقل
الى دار كان يسكنها المرضى
والزمنى من الفقراء وابناء
السبيل في يوم واحد من
أيام هذه السنة أربعمائة
ميت عن برح الجوع
والمخمصة على أن يوعز
بتكفينهم ودفنهم فأتى
خبازه الذي كان يقيم
جراياتهم المذكورين من
جهته وهو في حيرته يذكر
انه قد بقي في هذا اليوم
بعينه مما كسد على البيع
أربعمائة منا خبز فسبحان
من يقضي على من يشاء
بالفناء مع امكان الاقوات *
ووجود الكفايات * وقد

(ذكر حصر بيروت)

ثم انه سار عن دمشق الى بيروت فنهب بلدها وكان قد أمر الاسطول المصرى بالمجىء فى البحر اليها فساروا ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلدها وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب مالم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة أيام وكان عازما على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها ان البحر قد ألقى بطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس فاسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى الفا وستمائة وستا وسبعين اسيرا فضربت بذلك البشائر

(ذكر عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة)

فى هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات الى الديار الجزرية وملكها وسبب ذلك ان مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على بن بكتكين وهو مقطع حران كان قد أقطعه اياها عز الدين اتابك المدينة والقلعة تقوية واعتمادا ارسل الى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يعلمه انه معه يحب لدولته ووعده النصرة له اذا عبر الفرات ويطمعه فى البلاد ويحثه على الوصول فسار صلاح الدين عن بيروت ورسل مظفر الدين تترى اليه يحثه على المجىء فجد صلاح الدين فى السير مظهرا انه يريد حصر حلب تسترا للحال فلما قارب الفرات سار اليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به فقصد البيرة وهى قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفى طاعته وقد ذكرنا سبب ذلك قبل فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذى عند البيرة وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين الى الشام قد جمعا العسكر وسارا الى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين الى حلب ثم تقدما الى دارا فنزلا عندها فجاءهما امر لم يكن فى الحساب فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا الى الموصل وارسلا الى الرها عسكرا يحميها ويمنعها فلما سمع صلاح الدين ذلك قوى طمعه فى البلاد ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك اصحاب الاطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته فاجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن الى ما طلب منه لقاعدة استقرت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام فانه استقر الحال ان صلاح الدين يحصر آمد ويملكها ويسلمها اليه وسار صلاح الدين الى مدينة الرها فحصرها فى جمادى الاولى وقاتلها اشد قتال فحدثنى بعض من كان بها من الجند أنه عد فى غلاف رمح اربعة عشر خرقا وقد خرقته السهام ووالى الزحف عليها وكان بها حينئذ مقطع وهو الامير فخر الدين مسعود الزعفرانى فحيث رأى شدة القتال اذعن الى التسليم وطلب الامان وسلم البلد وصار فى خدمة صلاح الدين فلما ملك المدينة زحف الى القلعة فسلمها اليه الدزدار الذى بها على مال اخذه فلما ملكها سلمهما الى مظفر الدين مع حران ثم سار عنها على حران الى الرقة فلما وصل اليها كان بها مقطعها قطب الدين ينال بن حسان المنبجى فسار عنها الى عز الدين اتابك وملكها صلاح الدين وسار الى الخابور قرقيسيا وماكسين وعرابان فملك جميع ذلك فلما استولى على الخابور جميعه سار الى نصيبين فملك المدينة لوقتها وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام فملكها أيضا واقام بها يصلح شانها ثم اقطعها اميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن واتاه الخبر

أكثر الناس فيذكرهما الغلاء والبلاء * فمنه قول أبى نصر الزاوهى الكاتب

قد أصبح الناس فى غلاء
وفى بلاء تداولوه
من يلزم البيت يود جوعا
او يشهد الناس يأكلوه

(ولابى محمد العبدلكانى الزوزنى)

لا تخرجن من البيوت
لحاجة أو غير حاجه
والباب أغلقه عليك
موثقا منه رتاجه
لا يقتنصك الجائعون
فيطبخونك شورباجه

وأمر السلطان يمين الدوله وامين المله بالكتب الى عماله بصب الاموال على الفقراء والمساكين فاستنقذ الله تعالى بها مهجات قوم قد أشرفت على الهلاك * وافتكهم من بين حنك الاستئصال * فبقيت تلك السنة على حالها من القحط والغلاء الى ان ادركت غلات سنة اثنتين واربعمائة فمن الله تعالى بازالة تلك الشدة * واطفاء تلك النائرة المتقدة * وتدارك عباده بعد استحكام اليأس منهم بالغيوث الهامية * والريوع الزاكية النامية * ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم

*(ذكر ما أفضت اليه

ان الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا وأرادوا تخريب جامعها فارسل النائب بدمشق اليهم جماعة من النصارى يقول لهم ان اخربتم الجامع جددنا عمارته واخربنا كل بيعة لكم فى بلادنا ولا نمكن أحدا من عمارتها فتركوه ولما وصل الخبر الى صلاح الدين بذلك اشار عليه من يتعصب لعز الدين بالعود فقال يخربون قرى ونملك عوضها بلادا ونعود نعمرها ونقوى على قصد بلادهم ولم يرجع فكان كما قال

(ذكر حصر صلاح الدين الموصل)

لما ملك صلاح الدين نصيبين جمع امراءه وارباب المشورة عنده واستشارهم باى البلاد يبدأ وأيها يقصد بالموصل ام بسنجار ام بجزيرة ابن عمر فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين كوكبرى ابن زين الدين لا ينبغى ان يبدأ بغير الموصل فانها فى ايدينا لا مانع لها فان عز الدين ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا اليها تركاها وسارا عنها الى بعض القلاع الجبلية ووافقه ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيرا ليقطعه الموصل اذا ملكها وقد اجابه صلاح الدين الى ذلك فاشار بهذا الرأى لهواه فسار صلاح الدين الى الموصل وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل واظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الابصار وبذلا الاموال الكثيرة واخرج مجاهد الدين من ماله كثيرا واصطلى الامور بنفسه فاحسن تدبيرها وحصنوا ما بقى بايديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار والموصل واربل وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والاموال وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل وترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه ومعهم نفر من اعيان دولته وقربوا من البلد فلما قربوا ورآه وحققه رأى ما هاله وملأ صدره وصدور أصحابه فانه رأى بلدا عظيما كبيرا ورأى السور والفصيل قد ملئا من الرجال وليس فيها شرافة الا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين فلما رأى ذلك علم انه لا يقدر على أخذه وانه يعود خائبا فقال لناصر الدين ابن عمه اذا رجعنا الى المعسكر فاحمل ما بذلت من المال فنحن معك على القول فقال قد رجعت عما بذلت من المال فان هذا البلد لا يرام فقال له ولمظفر الدين غررتمانى وأطمعتمانى فى غير مطمع ولو قصدت غيره قبله لكان اسهل اخذا بالاسم والهيبة التى حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا منه ينكسر ناموسنا ويفل حدنا وشوكتنا ثم رجع الى معسكره وصبح البلد وكان نزوله عليه فى رجب فنازله وضايقه ونزل محاذى باب كندة وانزل صاحب الحصن بباب الجسر وانزل اخاه تاج الملوك عند الباب العمادى وانشب القتال فلم يظفر وخرج اليه يوما بعض العامة فنالوا منه ولم يمكن عز الدين ومجاهد الدين احدا من العسكر يخرجون لقتال بل الزموا الاسوار ثم ان تقى الدين اشار على عمه صلاح الدين بنصب منجنيق فقال مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ومتى نصبناه اخذوه ولو خربنا برجا وبدنة من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير فالح تقى الدين وقال نجربهم به فنصب منجنيقا فنصب عليه من البلد تسعة منجنيقات وخرج جماعة من العامة فاخذوه وجرى عنده قتال كثير فاخذ بعض العامة لالكة من رجليه فيها المسامير الكثيرة ورمى بها اميرا يقال له جاولى الاسدى مقدم الاسدية وكبيرهم فأصاب صدره فوجد لذلك ألما شديدا

احوال الخانية بمتمماوراء النهر)* قد كان السلطان يمين الدولة وامين الملة بعد انكشاف عسكر الترك عنه يراعى ما يسفر عنه تدبير ايلك خان واخيه الكبير طغان خان اذ كان أخوه يمالئ السلطان يمين الدولة عليه لأيمان يزعم لزومها اياه ومواثيق يدعى انعقادها عليه ويظهر البراءة على ألسنة رسله من فعلات ايلك فى منابذته ومكاشفته والتخطى الى حدود مملكته ويورك ايلك الذنب عليه فى اغرائه بما أتاه* ومكاتبته فى البعث على ما جناه* ولما ظهر لايلك خان* ان اخاه طغان خان* قد جعله عرضة للجناية وقلده طوق تلك المكاشفة براءة منه وخذلانا اياه وشقا للعصاه* واسلاما له بما كسبت يداه* رأى ان يبتدئ به ويحسم داء قرابته* ويغسل بسيفه وضر جنايته فجمع جيوش ماوراء النهر لقصده* واستدفاع مكره وغدره* وسار حتى اذا جاوز اوزجند نحو سقطت ثلوج عظيمة سدت عليه مسالك العقاب المفضية اليه* فارتد عن وجهه الى قايل حتى طاب الهواء والخضير الشتاء* وخشنه

واخذ الالالكة وعاد عن القتال الى صلاح الدين وقال قد قاتلنا اهل الموصل بما فات ما رأينا
بعد مثلها والق الالالكة وحلف انه لا يعود يقاتل عليها أنفة حيث ضرب بهذه ثم ان صلاح الدين
رحل من قرب البلد ونزل متأخرا خوفا من البيات فانه أقرب كان لا يأمن ذلك وكان سببه أيضا
ان مجاهد الدين اخرج فى بعض الليالى جماعة من باب السر الذى للقلعة ومعهم المشاعل فكان
احدهم يخرج من الباب وينزل الى دجلة مما يلى عين الكبريت ويطفئ المشعل فرأى العسكر
الناس يخرجون فلم يشكوا فى الكبسة فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتمكن حذرا البيات على
أهل الموصل وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله قد وصل اليه قبل نزوله على الموصل ومعه
بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله فى الصلح فأقاما معه على الموصل وترددت
الرسل الى عز الدين ومجاهد الدين فى الصلح فطلب عز الدين اعادة البلاد التى أخذت منهم فاجاب
صلاح الدين الى ذلك بشرط ان تسلم اليه حلب فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ثم نزل عن ذلك
واجاب الى تسليم البلاد بشرط ان يتركوا انجاد صاحب حلب عليه فلم يجيبوا الى ذلك
ايضا وقال عز الدين هو اخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى أن انكثها ووصلت أيضا رسل قزل
ارسلان صاحب اذربيجان ورسل شاه ارمن صاحب خلاط فى المعنى فلم ينتظم امر ولا تم صلح
فلما رأى صلاح الدين انه لا ينال من الموصل غرضا ولا يحصل على غير العناء والتعب وان من
بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصده من عساكره واصحابه سار من
الموصل اليها

(ذكر ملكه مدينة سنجار)

لما سار صلاح الدين عن الموصل الى سنجار سير مجاهد الدين اليها عسكرا قوة لها ونجدة فسمع بهم
صلاح الدين فمنعهم من الوصول اليها واوقع بهم واخذ سلاحهم ودوابهم وسار اليها ونازلها
وكان بها شرف الدين امير اميران هندو أخو عز الدين صاحب الموصل فى عسكر معه فحصر
البلد وضايقه والح فى قتاله فكاتبه بعض امراء الاكراد الذين به من الزرزارية وخامر معه
واشار بقصده من الناحية التى هو بها ليسلم اليه البلد فطرقه صلاح الدين ليلا فسلم اليه
ناحيته فلك الباشورة لا غير فلما سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع وطلب الامان فأمن ولو
قاتل على تلك الناحية اخرج العسكر الصلاحى عنها ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ولكنه
عجز فلما طلب الامان أجابه صلاح الدين اليه فامنه وملك البلد وسار شرف الدين ومن معه الى
الموصل واستقر جميع ما ملكه صلاح الدين بملك سنجار فانه كان قصد أن يسترد المواصلة
اذا فارقه لانه لم يكن فيه حصن غير الرها لا غير فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور
واستناب بها سعد الدين بن معين الدين انز وكان من اكابر الامراء واحسنهم صورة ومعنى

(ذكر عود صلاح الدين الى حران)

لما ملك صلاح الدين سنجار وقرر قواعدها سار الى نصيبين فلقيه اهلها شاكين من أبى الهيجاء
السمين باكين من ظلمه متأسفين على دولة عز الدين وعدله فيهم فلما سمع ذلك انكر على أبى الهيجاء
ظلمه وعزله عنهم واخذه معه وسار الى حران وفرق عساكره ليستريحوا وبقى جريدة فى خواصه
وثقات اصحابه وكان وصوله اليها اوائل ذى القعدة من السنة

ذكر

الانداء فكر عائدا على
ناره * لقت المشبر موهنا
بناره وهو كان ورود رسلهما
فى التنازع الذى تقدم
ذكره فتراجعا القول فى
البراءة عن جناية العهود
واحالة بعضهم على البعض
فى نقض المواثيق والعهود
بخلافهم السلطان فى لفظ
القول حق وصلوا بصر
التقار الى برد الاستشفاء
واراد السلطان يمين الدوله
وأمين الملة بعد ذلك قراهم
فأمر بتعبية جيوشه *
وتغشية خيوله * فرتب
العسكر سماطين عن جنبيه
فى هيئة لو رآها قارون
حين خرج على قومه
لقال ياليت لى مثل ما أوتى
محمود انه لذو حظ عظيم
وصفة مقامه * انه اصطف
من غلمانه * على التقابل
من الطرفين قرابة ألفى
غلام من عقائل الترك
فى الوان الديابيج من بين
سود وبيض وحمر * وصفر
وكهب وخضر * وفيما
يقرب من موقفه خمسمائة
غلام من خاصته فى مثقلات
الروم بمناطق من ذهب
مرصعة بالجواهر واعدة
من جنسه فوق الاكتاف
والعواتق وقد اطاف بهم
من عظام الفيول أربعون
فيلا على المحاذاة غواشيها
ديابيج الروم بصفائح

(ذكر اجتماع عز الدين وشاه ارمن)

فى هذه السنة فى ذى الحجة اجتمع اتابك عز الدين صاحب الموصل وشاه ارمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين وسبب ذلك ان رسل عز الدين ترددت الى شاه ارمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين فارسل شاه ارمن الى صلاح الدين عدة رسل فى الشفاعة اليه بالكف عن الموصل وما يتعلق بعز الدين فلم يجبه الى ذلك وغالطه فارسل اليه اخيرا مملوكه سيف الدين بكتمر الذى ملك خلاط بعد شاه ارمن فاتاه وهو يحاصر سنجار يطلب اليه ان يتركها ويرحل عنها وقال له ان رحل عنها والا فتهدده بقصده ومحاربته فابلغه بكتمر الشفاعة فسوفه فى الجواب رجاء ان يفتحها فلما رأى بكتمر ذلك ابلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان ولم يقبل منه خلعة ولا صلة واخبر صاحبه الخبر وخوفه عاقبة الاهمال والتوانى عن صلاح الدين فسار شاه ارمن من خلاط وكان مخيما بظاهرها وسار الى ماردين وصاحبها حينئذ قطب الدين بن نجم الدين البى وهو ابن اخت شاه ارمن وابن خال عز الدين وحموه لان عز الدين كان قد زوج ابنة قطب الدين وحضر مع شاه ارمن دولتشاه صاحب بدليس وارزن وسار اتابك عز الدين من الموصل فى عسكره جريدة من الاثقال وكان صلاح الدين قد ملك سنجار وسار عنها الى حران وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم سير الى تقى الدين ابن اخيه وهو بحماة يستدعيه فوصل اليه مسرعا واشار عليه بالرحيل وحذره منه آخرون وكان هوى صلاح الدين فى الرحيل فرحل الى رأس عين فلما سمعوا برحيله تفرقوا فعاد شاه أرمن الى خلاط واعتذر بانى اجمع العساكر واعود ورجع عز الدين الى الموصل واقام قطب الدين بماردين وسار صلاح الدين فنزل بحوزم تحت ماردين عدة ايام

(ذكر الظفر بالفرنج فى بحر عيذاب)

فى هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك اسطولا وفرغ منه بالكرك ولم يبق الا جمع قطعه بعضها الى بعض وحملها الى بحر ايلة وجمعها فى اسرع وقت وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فساروا فى البحر وافترقوا فرقتين فرقة اقامت على حصن ايلة يحصرونه ويمنعون اهله من ورود الماء فنال اهله شدة شديدة وضيق عليهم واما الفرقة الثانية فانهم ساروا نحو عيذاب وافسدوا فى السواحل ونهبوا واخذوا ما وجدوا من المراكب الاسلامية ومن فيها من التجار وبغتوا الناس فى بلادهم على حين غفلة منهم فانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا لا تاجرا ولا محاربا وكان بمصر الملك العادل ابو بكر بن ايوب ينوب عن اخيه صلاح الدين فعمر اسطولا وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولى الاسطول بديار مصر وكان مظفرا فيه شجاعا كريما فسار لؤلؤ وجد فى طلبهم فابتدا بالذين على ايلة فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده فقاتلهم فقتل بعضهم واسر الباقى وسار من وقته بعد الظفر يقص اثر الذين قصدوا عيذاب فلم يرهم وكانوا قد اغاروا على ما وجدوه بها وقتلوا من لقوه عندها وساروا الى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه وكانوا عازمين على الدخول الى الحجاز مكة والمدينة حرسهما الله تعالى واخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلك الى اليمن فلما وصل لؤلؤ الى عيذاب ولم يرهم سار يقفو اثرهم فبلغ رابغ وساحل الحوراء

ومعالق من الذهب الأحمر مرصعة بكل جوهر ثمين * وياقوت وزين * ووراء السماطين سبعمائة فيل فى تجافيف مشهرة * بألوان مسوره * بالحراب والمران وعامة العسكر فى سرابيل قد كدت القيون * وردت عن اجتلائها العيون * ورتب الرجالة امام الخيول فى الترسة الواقيه * والجنن الحاميه * والسيوف المرهفه * والعوامل المختلفه * وقام بين يديه حجابه كالبدور * فى ظلم الديجور * قابضين على قبائع سيوفهم هائبين قدره * وناظرين أمره * وأذن لهؤلاء الرسل على هذه الهيئة حتى لقوه * واقاموا من رسم الخدمة ما افترضوه * ثم عدل بهم الى الموائد فى دار قد فرشت بما لم يحك غير الجنة مزينة للمتقين * معدة للعارفين * وفى كل مجلس دسوت من الذهب الاحمر من جفان كالحواض والطباق كبار قد نضد بها من صدره الى قدمه بما يشاكلها من الاوانى الفائقه * والآلات الفاخرة الرائقه * وهى خاص مجلسه طارم قد حجبت الواسه وعضاداته بضباب الذهب وصفائحه ووثقت بمسامير من جنسه

وغيرهما فادركهم بساحل الجوزاء فاوقع بهم هنالك فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا الى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقاتلهم اشد قتال واخذ خيلا من الاعراب الذين هنالك فركبها وقاتلهم فرسانا ورجالة فظفر بهم وقتل اكثرهم واخذ الباقين اسرى وارسل بعضهم الى منى لينحر وابها عقوبة لمن رام اخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم وعاد بالباقين الى مصر فقتلوا جميعهم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى توفى عز الدين فرخشاه ابن اخى صلاح الدين وكان ينوب عنه بدمشق وهو ثقته من اهله وكان اعتماده عليه اكثر من جميع اهله وامرائه وكان شجاعا كريما فاضلا عالما بالادب وغيره وله شعر جيد من بين اشعار الملوك وكان ابتداء مرضه انه خرج من دمشق الى غزو الفرنج فمرض وعاد مريضا فمات ووصل خبر موته الى صلاح الدين وقد عبر الفرات الى الديار الجزرية فاعاد شمس الدين محمد بن المقدم الى دمشق ليكون مقدما على عسكرها وفيها مات فخر الدولة ابو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطلب كان ابوه وزير الخليفة واخوه استاذ الدار فتصوف هو من زمن الصبا وبنى مدرسة ورباطا ببغداد عند عقد المصطنع وبنى جامعا بالجانب الغربى منها وفيها توفى الامير ابو منصور هاشم ولد المستضئ بامر الله ودفن عند ابيه وفيها توفى ابو العباس احمد بن على بن الرفاعى من سواد واسط وكان صالحا ذا قبول عظيم عند الناس وله من التلامذة ما لا يحصى

(ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة)

(ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها الى صاحب الحصن)

قد ذكرنا نزول صلاح الدين بحوزم تحت ماردين فلم ير اطماعه وجها وسار عنها الى آمد على طريق البارعية وكان نور الدين محمد بن قرا ارسلان يطالبه فى كل وقت بقصدها واخذها وتسليمها اليه على ما استقرت القاعدة بينهما فوصل الى آمد سابع عشر ذى الحجة من سنة ثمان وسبعين ونازلها واقام يحاصرها وكان المتولى لامرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان وكان صاحبها وليس له من الامر شئ مع ابن نيسان فلما نازلها صلاح الدين اساء ابن نيسان التدبير ولم يعط الناس من الذخائر شيأ ولا فرق فيهم دينارا واحدا ولا قوتا وقال لاهل البلد قاتلوا عن نفوسكم فقال له بعض اصحابه ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم فلم يفعل شيأ وقاتلهم صلاح الدين ونصب المنجنيقات وزحف اليها وهى الغاية فى الحصانة والمنعة وبها وبسورها يضرب المثل وابن نيسان على حاله من الشح بالمال وتصرفه تصرف من ولت سعادته وادبرت دولته فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال وجنحوا الى السلامة وكانت ايام ابن نيسان قد طالت وثقلت على اهل البلد لسوء سيرته وصنيعه وتضييقه عليهم فى مكاسبهم فالناس كارهون لها محبون لانقراضها وامر صلاح الدين ان يكتب على السهام الى اهل البلد يعدهم الخير والاحسان ان اطاعوه ويتهددهم ان قاتلوه فزادهم ذلك تقاعدا وتخاذلا واحبوا ملكه وتركوا القتال فوصل النقابون الى السور فنقبوه وعلقوه فلما رأى الجند واهل البلد ذلك طمعوا فى ابن نيسان واشتطوا فى المطالب فحين صارت الحال الى ذلك اخرج ابن نيسان نساءه الى القاضى

وفرش تغرى الديابيج المثقلة بالاتذرك الابصار منه غير حمرة الذهب وفى الصدق منقلة مقسومة ببيوت مضلعة ومستديرة * يشتمل كل منها على نوع من الجواهر التى أعيت امثالها اكاسرة العجم وقياصرة الروم ملوك الهند واقيال العرب وحوالى المجلس اطباق فخان من الذهب مملوءة بالمسك الاذفر والعنبر الاشهب والكافور والعطر والعود العبق وهلم جرا الى ما يملأ الابواع والايدى من اترجات مصوغه * ونارنجات مصنوعه * وما يشبه الفواكه من عقيان * وبذخش وبهرمان * الى اوانى لم يسمع بمثلها رقة اجسام * ودقة صنعة واحكام * وطاف على الرسل ولدان * كالدر المنثور واللؤلؤ المكنون * براح كالماء المعين * ورضاب الخرد العين * الى ان اشفقوا من عثرات العقول فاستأذنوا للقفول * وصرفهم السلطان يمين الدولة وامين الملة بعد هذه المأدبة ورآهم بما وجبته همته من تحقيق امانيهم * ورعاية حق الملح فيهم * وبقى الاخوان على جملتهما فى المنافرة والمناقرة * والمكاوحة والمكافحة الى ان توسط السفراء فقصلوا الامر بينهما على ما يكف كلا منهما عن صاحبه على ما سنورد ذكره فى موضعه ان شاء الله تعالى

القاضل وزير صلاح الدين يسأله ان يأخذ له الامان ولاهله وماله وان يؤخره ثلاثة ايام حتى ينقل ماله بالبلد من الاموال والذخائر فسعى له الفاضل فى ذلك فاجابه صلاح الدين اليه فسلم البلد فى العشر الاول من المحرم هذه السنة واخرج خيمه الى ظاهر البلد ورام نقل ما فيه فتعذر ذلك عليه لزوال حكمه عن اصحابه واطراحهم امره ونهيه فارسل الى صلاح الدين يعرفه الحال ويسأله مساعدته على ذلك فامر له بالدواب والرجال فنقل البعض وسرق البعض وانقضت الايام الثلاث قبل الفراغ فمنع من الباقى وكانت ابراج المدينة مملوءة من انواع الذخائر فتركها بحالها ولو اخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نعمه وامواله لكن اذا اراد الله امرا هيأ اسبابه فلما تسلمها صلاح الدين سلمها الى صاحب الحصن نور الدين فقيل له قبل تسلمها ان هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو اخذت ذلك واعطيته جندك وسلمت البلد اليه فارغا لكان راضيا فانه لا يطمع فى غيره فامتنع من ذلك وقال ما كنت لاعطيه الاصل وأبخل بالفرع فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوة عظيمة ودعا اليها صلاح الدين وامراءه ولم يكن دخل البلد وقدم له ولاصحابه من التحف والهدايا اشياء كثيرة

(ذكر ملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب من اعمال الشام)

لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار الى الشام وقصد تل خالد وهو من اعمال حلب فحصرها ورماها بالمنجنيق فنزل اهلها وطلبوا الامان فأمنهم وتسلمها فى المحرم ايضا ثم سار منها الى عينتاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد وهو اخو الشيخ اسمعيل الذى كان خازن نور الدين محمود بن زنكى وصاحبه وكان قد سلمها اليه نور الدين فبقيت معه الى الآن فلما نازله صلاح الدين ارسل اليه يطلب ان يقرّ الحصن بيده وينزل الى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته فاجابه صلاح الدين الى ذلك وحلف له عليه فنزل اليه وصار فى خدمته وكان ايضا فى المحرم من هذه السنة

(ذكر وقعتين مع الفرنج فى البحر والشام)

فى هذه السنة فى العاشر من المحرم سار اسطول المسلمين من مصر فى البحر فلقوا بطسة فيها نحو ثلثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الاموال والسلاح الى فرنج الساحل فقاتلوهم وصبر الفريقان وكان الظفر للمسلمين واخذوا الفرنج اسرى فقتلوا بعضهم وابقوا بعضهم اسرى وغنموا ما معهم وعادوا الى مصر سالمين وفيها ايضا سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحى الداروم الى نواحى مصر ليغيروا وينهبوا فسمع بهم المسلمون فخرجوا اليهم على طريق صدر وايلة فانتزح الفرنج من بين ايديهم فنزلوا بماء يقال له العسيلة وسبقوا المسلمين اليه فاتاهم المسلمون وهم عطاش قد اشرفوا على الهلاك ورأوا الفرنج قد ملكوا الماء فانشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة فمطروا منها حتى رووا وكان الزمان قيظا والحر شديدا فى برمهلك فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله لهم وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم ولم يسلم منهم الا الشريد الفريد وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله

(ذكر ملك صلاح الدين حلب)

وفى هذه السنة سار صلاح الدين من عينتاب الى حلب فنزل عليها فى المحرم ايضا فى الميدان

(ذكر فتح قصدار)

قد كان السلطان يمين الدولة وامين الملة يراعى ما يتجدد من اخبار الاخوين ايلك وطغان خان فيما تنازعاه من الامر فلما بلغه اشتجار ذات بينهما استخار الله فى قصد قصدار اذ كان صاحبها قد ألوى جانب الجبانة* واخل بحمل المقاطعة* اعتزازا بمناعة مملكته* واغترارا بحصانة الطرق المفضية الى حلته* وذلك فى جمادى الاولى سنة اثنتين واربعمائة وفصل السلطان عن غزنة الى بستوريا بقصد هراة حتى انتشرت الاخبار بغزنة واستفاضت الاحاديث بظاهر أمره ثم ركض الى ناحية قصدار فى الغلب الغلب من رجاله وركضه طوت تلك الجبال الوعرة* والمسالك الصعبة* فلم يشعر صاحب قصدار الا بخيل السلطان حول داره* قبل أن يكمل بضوء نهاره* أو يحتفل لشد ازاره* فنادى الامان الامان وبرز لخدمة السلطان* فالزمه السلطان خمسة عشر ألف ألف درهم من جملة ما كلفه

الاخضر واقام به عدة أيام ثم انتقل الى جبل جوشن فنزل باعلاه واظهر انه يريد أن يبني مساكن له ولاصحابه وعساكره واقام عليها اياما والقتال بين العسكرين كل يوم وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ومعه العسكر النوري وهم مجدون في القتال فلما رأى كثرة الخرج كانه شح بالمال فحضر يوما عنده بعض اجناده وطلبوا منه شيأ فاعتذر بقلة المال عنده فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلي نسائه فمال حينئذ الى تسليم حلب واخذ العوض عنها وارسل مع الامير طمان الياروقي وكان يميل الى صلاح الدين انه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك وباعها باوكس الاثمان اعطى حصنا مثل حلب واخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا ما اتى حتى ان بعض عامة حلب احضر اجانة وماء وناداه انت لا يصلح لك الملك وانما يصلح لك ان تغسل الثياب واسمعوه المكروه واستقر ملك صلاح الدين بملكها وكان متزلزلا فثبت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرف هار واذا اراد الله امرا فلا مرد له وسار عماد الدين الى البلاد التي اعطيها فتسلمها واخذ صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما ان عماد الدين يحضر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره اذا استدعاه لا يحتج بحجة ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر * مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى ومما كتبه القاضي الفاضل في المعنى عن صلاح الدين فأعطيناه عن حلب كذا وكذا وهو صرف على الحقيقة أعطيناه الدراهم ونزلنا عن القرى وأحرزنا العواصم وكتب أيضا أعطيناه ما لم يخرج عن اليد يعني انه متى شاء أخذه لعدم حصانته وكان في جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين الاصغر وكان فارسا شجاعا كريما حليما جامعا لخصال الخير ومحاسن الاخلاق طعن في ركبته فانفكت فمات منها بعد ان استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل ان يدخلها صلاح الدين فلما استقر منه الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد اخذناها وهي لك فقال ذلك لو كان وانا حي والله لقد اخذتها غالية حيث تفقد مثلي فبكى صلاح الدين وابكى ولما خرج عماد الدين الى صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينما هم في سرور اذ جاءه انسان فأسر الى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعا ولا جزعا وأمر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه في الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل

(ذكر فتح صلاح الدين حارم)

لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم وهي من اعمال حلب بعض المماليك النورية واسمه سرخك ولاه عليها الملك الصالح عماد الدين فامتنع من تسليمها الى صلاح الدين فراسله صلاح الدين في التسليم وقال له اطلب من الاقطاع ما أردت ووعده الاحسان فاشتط في الطلب وترددت الرسل بينهم فراسل الفرنج ليحتمي بهم فسمع من معه من الاجناد انه يراسل الفرنج

فخافوا

ألظ به من أموال عمله فالتزمها ونقد اكثرها * وقبض السلطان على عشرين فيلا ضخاما هالته كان اعتقدها ليومي بؤسه وبأسه ووكل به من استوفى المال عليه ورجع عنه بعد ان رعى حق طاعته وضراعته باستخلافه عنه على ما كان يليه * وبسط يده في أطراف عمله ونواحيه * الى غزنة ظاهر النجح * فائزا قدحه * عالي يده * واريا زنده * صنعا من الله تعالى لمن يجتبيه من خيار خلقه * لعمارة أرضه وانارة حقه * والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم

(ذكر الشارين الوالد أبي نصر محمد بن أسد والشاه محمد ابنه وما أفضى اليه أمرهما)

قد كان يلقب كل من يلي أمر غرشستان بالشار سمة مصطلحا عليها تنبئ عن معنى التملك ورتبة الاجلال والتعظيم وكان الشار أبو نصر واليها الى ان ادرك ولده الشاه وفيه لوثة مشهورة تغلبه

خافوا ان يسلمها اليهم فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه
الامان والانعام فاجابهم الى ما طلبوا وسلموا اليه الحصن فرتب به دزدارا بعض خواصه
واما باقى قلاع حلب فان صلاح الدين أقر عينتاب بيد صاحبها كما تقدم وأقطع تل خالد
لامير يقال له داروم الياروقى وهو صاحب تل باشر واما قلعة اعزاز فان عماد الدين اسمعيل
كان قد خربها فاقطعها صلاح الدين لامير يقال له سليمان بن جندر فعمرها وأقام صلاح الدين
بحلب الى ان فرغ من تقرير قواعدها واحوالها ودواوينها واقطع اعمالها وأرسل منها لجمع
العساكر من جميع بلاده

(ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى قبض عزالدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين
قايماز وكان اليه الحكم فى جميع البلاد واتبع فى ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر فى
مضرة صاحبه وكان الذى أشار بذلك عزالدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبي الخير
الذى كان أبوه صاحب الغراف وهما من أكابر الامراء فلما أراد القبض عليه لم يقدم على
ذلك لقوة مجاهد الدين فاظهر انه مريض وانقطع عن الركوب عدة أيام فدخل اليه مجاهد
الدين وحده وكان خصيا لا يمتنع من الدخول على النساء فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته
الى القلعة فاحتوى على الاموال التى لمجاهد الدين وخزائنه وولى زلفندار قلعة الموصل بعد
مجاهد الدين وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب وحكمهما فى دولته وكان تحت حكم
مجاهد الدين حينئذ اربل واعمالها ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين على وهو صبى صغير
ليس له من الحكم شئ والحكم والعسكر الى مجاهد الدين وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر
وهى لمعز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو أيضا صبى والحكم والنواب
والعسكر لمجاهد الدين وبيده أيضا شهرزور واعمالها ونوابه فيها ودقوقا ونائبه فيها وقلعة
عقر الحميدية ونائبه فيها ولم يبق لعز الدين مسعود بعد ان أخذ صلاح الدين البلاد الجزرية
سوى الموصل وقلعتها بيد مجاهد الدين وهو على الحقيقة الملك واسمه عزالدين فلما قبض عليه
امتنع صاحب اربل من طاعة عزالدين واستبد وكذلك أيضا صاحب جزيرة ابن عمر وارسل
الخليفة الى دقوقا فحصرها واخذها ولم يحصل لعز الدين مسعود غير شهرزور والعقر وصارت
اربل والجزيرة اضر شئ على صاحب الموصل وأرسل صاحبها الى صلاح الدين بالطاعة له
والسكون فى خدمته وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ الشيوخ ومعه
بشير الخادم الخاص الى صلاح الدين فى الصلح مع عزالدين صاحب الموصل وسير عزالدين معه
القاضى محيى الدين أبا حامد بن الشهرزورى فى المعنى فأجاب صلاح الدين الى ذلك وقال ليس
لكم مع الجزيرة واربل حديث فامتنع محيى الدين عن ذلك وقال هما لنا فلم يجب صلاح الدين
الى الصلح الا بان تكون اربل والجزيرة معه فلم يتم أمره وقوى طمع صلاح الدين فى الموصل
بقبض مجاهد الدين فلما رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين
أحمد بن صاحب الغراف وزلفندار عقوبة لهما ثم أخرج مجاهد الدين على ما نذكره ان شاء الله

(ذكر غزو بيسان)

على الامر بقوة شبابه *
واستظهاره بمن شايعه من
أصحابه * فاعتزل أبوه عن
الولاية وتركها له مخليا
بينه وبين ما كان يليه *
و ينفرد بالنظر والتدبير
فيه * ومقتصرا على
دراسة الكتب * ومطالعة
الادب * اذ كان بها
مولعا * وبلذتها دون سائر
اللذات مقتنعا * وكان
منتجع الافاضل من
اعماق البلاد ينتابه منهم
كل مبدع خطا وبيانا *
أو مبدع به بلوى وامتحانا *
فما ينشب بعد ان ينتابه *
ويشهد بابه * حتى يستخصب
جنابه * ويستجزل بره
وثوابه * وكان صاحب
الجيش أبو على محمد بن محمد
ابن سيمجور لما فتح باب
الاستعصاء على الرضى
نوح بن منصور ورام ان
يستضيف ولاية الغرش
الى ما يليه * وأن يجذ من
جانب الشارين طاعة له فى
أوامره ونواهيه * فأظهرا
التمرد عليه كراهة
لاختياره على أرباب
الملك الذين اعطوهم المقادة

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي وهو صبي وجعل معه الامير سيف الدين يازكج وكان أكبر الامراء الاسدية وسار الى دمشق وتجهز للغزو ومعه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر وسار الى بلد الفرنج فعبر نهر الاردن تاسع جمادى الآخرة من السنة فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفا فقصد بيسان فأحرقها ونهب ما فيها وأغار على ما هنالك فاجتمع الفرنج وجاؤا الى قبالته فحين رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه فأقام عليهم وقد استندوا الى جبل هناك وخندقوا عليهم فأحاط بهم وعساكر الاسلام ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعل الفرنج يطمعون ويخرجون فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضا فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم في غير السلامة وأغار المسلمون على تلك الاعمال يمينا وشمالا ووصلوا فيها الى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول اليه والاقدام عليه فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود الى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى فعادوا الى بلادهم على عزم الغزو

•(ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب)•

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهز للغزو الى الكرك فسار اليه في العساكر وكتب الى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر الى الكرك وكان العادل قد أرسل الى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها فأجابه الى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله فوصل صلاح الدين الى الكرك في رجب ووافاه أخوه العادل في العسكر المصري وكثر جمعه وتمكن من حصره وصعد معه المسلمون الى ربضه وملكه وحصر الحصن من الربض وتحكم عليه في القتال ونصب عليه سبع منجنيقات لا تزال ترمي بالحجارة ليلا ونهارا وكان صلاح الدين يظن أن الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك وأنهم يبذلون جهدهم في رده عنه فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع فرحل عنه منتصف شعبان وسير تقي الدين ابن أخيه الى مصر نائبا عنه ليتولى ما كان أخوه العادل يتولاه واستصحب أخاه العادل معه الى دمشق وأعطاه مدينة حلب وقلعتها وأعمالها ومدينة منبج وما يتعلق بها وسيره اليها في شهر رمضان من السنة وأحضر ولده الظاهر منها الى دمشق

•(ذكر عدة حوادث)•

في هذه السنة فتح الرباط الذي بنته أم الخليفة بالمأمونية وفيها في ذي الحجة توفي مكرم بن بختيار أبو الخير الزاهد ببغداد وروى الحديث وكان كثير البكاء وفي جمادى الآخرة توفي محمد بن بختيار ابن عبد الله أبو عبد المولد الشاعر ويعرف بالابله فمن جملة شعره

اراق دمعي لابل اراق دمي • ظلما بظلم من ريقه الشيم
ذو قامة كالقضيب ناضرة • وناظر من سقامه سقمي
جعلت من وعده على أصدق الـ • ـوعد ومن وصله على التهم

•(ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة)•

•(ذكر اطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم)•

قد عباه وسلموا الطاعتهم تسليماه وادلالا بحصانة صياصيهما وقلاعهما • ومناعة حواشيهما وأشياعهما • ومحاماة أرضى على حقوق طاعتهما وسوابق حرماتهما • ان هم أبو علي بمنازعتهما ملكا ورثاه • وطمع في فضل مال اقتنياه • فلم ينهنه أبو علي ان جرد اليهما أبا القاسم الفقيه • أحد أنياب دولته • وأركان دعوته • في جيوش كثيفه • وخيول على الآلاف منيفه • فناهضهما في عقر دارهما • متوغلا اليهما • فوارع تصافح السماء • وشوامخ تناطح الجوزاء • ومتوغلا مخارم تمرد على السالك • مرود السموم على غلاظ السالك • يناجزهما في تلك المقامات التي يدار عندها بالرؤس • ويغشى على النفوس • ويلجئهما من مضيق • الى مضيق • ويغصهما بجريق بعد حريق حتى أجلاهما عن قرارة بيتهما • الى قلعة ورثاها بإزاء جبال أخريات

فى هذه السنة فى المحرم اطلق اتابك عز الدين صاحب الموصل مجاهد الدين قايماز من الحبس بشفاعة شمس الدين البهلوان صاحب همدان وبلاد الجبل وسيره الى البهلوان واخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين فسار الى قزل أولا وهو صاحب اذربيجان فلم يمكنه من المضى الى البهلوان وقال له هما تختاره انا أفعله وجهز معه عسكرا كثيرا نحو ثلاثة آلاف فارس وساروا نحو اربل ليحصروها فلما قاربوها أفسدوا فى البلاد وخربوها ونهبوا وسبوا واخذوا النساء قهرا ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم فسار اليهم زين الدين يوسف صاحب اربل فى عسكره فلقيهم وهم متفرقون فى القرى ينهبون ويحرقون فانتهز الفرصة فيهم بتفرقهم والتقى بنفسه وعسكره على اول من لقيه منهم فهزمهم وتمت الهزيمة على الجميع وغنم الاربليون اموالهم ودوابهم وسلاحهم وعاد العجم الى بلادهم منهزمين وعاد صاحب اربل الى بلده مظفرا غانما وعاد مجاهد الدين الى الموصل فكان يحكى انى مازلت أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء افعال العجم فانى رأيت منهم مالا كنت أظنه يفعله مسلم بمسلم وكنت أنهاهم فلا يسمعون حتى كان من الهزيمة ما كان

(ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب)

فى هذه السنة سار ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الى بلاد الاندلس وجاز البحر اليها فى جمع عظيم من عساكر المغرب فانه جمع وحشد الفارس والراجل فلما عبر الخليج قصد غربى البلاد فحصر مدينة شنترين وهى للفرنج شهرا فأصابه بها مرض فمات منه فى ربيع الاول وحمل فى تابوت الى مدينة اشبيلية من الاندلس وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهرا ومات عن غير وصية بالملك لاحد من أولاده فاتفق رأى قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فملكوه من الوقت الذى مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو فقام فى ذلك احسن قيام واقام راية الجهاد واحسن السيرة فى الناس وكان دينا مقيما للحدود فى الخاص والعام فاستقامت له الدولة وانقادت اليه بأسرها مع سعة اقطارها ورتب ثغور الاندلس وشحنها بالرجال ورتب المقاتلة فى سائر بلادها وأصلح احوالها وعاد الى مراكش وكان ابوه يوسف حسن السيرة وكان طريقه الين من طريق أبيه مع الناس يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وهم اهل خدمته وخاصته واحبه الناس ومالوا اليه واطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه وسلك فى جباية الاموال ما كان ابوه يأخذه ولم يتعده الى غيره واستقامت له البلاد بحسن فعله مع اهلها ولم يزل كذلك الى ان توفى رحمه الله تعالى

(ذكر غزو صلاح الدين الكرك)

فى هذه السنة فى ربيع الآخر سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو وجمع عساكره فأتته من كل ناحية وممن اتاه نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب الحصن وكتب الى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك فنازل الكرك وحصره وضيق على من به وأمر بنصب المنجنيقات على ربضه والتحم القتال فملك المسلمون الربض وبقى الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد الا ان بينهما خندقا عظيما عمقه ستون ذراعا فأمر صلاح الدين بالقاء الاحجار والتراب فيه

هاتيك الجبال تزل عن اعاليها أقدام النجوم وتحلق دون مبانيها كرام النسور وملك عليهما حصون جبالهما وسهول ديارهما ومجالهما * يجبيها ويتتبع ما ينسب الى كل واحد منهما فيها * الى ان صمد الامير ناصر الدين سبكتكين صمد أبى على فاسترد ابا القاسم الفقيه شغلا بالبازل القرم عن الثنى * وبالعقاب المنقض عن الكركى * وعلم ان قدا فى الوادى فطم على القرى وانضم الشاران الى الامير سبكتكين فى نصرة الامير نوح فانتقما من ابى على حين ولى هزيما * وتعرى عما تولاه واقتناه حديثا وقديما * واجفل نحو جرجان لا يملك رأيا ولا عزيما * ولم تزل بعد ذلك حالهما على جملتهما فى الامنة والسكون * والجاه المصون الى ان ورث السلطان * يمين الدولة وامين الملة خراسان حكما لله فى أرضه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ولما اذعن ولاة

ابطمه فلم يقدر احد على الدنو منه لكثرة الرمى عليهم بالسهام من الجرخ والقوس والاحجار من
المنجنيقات فأمر ان يبنى بالاخشاب واللبن ما يمكن الرجال يمشون تحت السقائف ويلقون فى
الخندق ما يطمه ومنجنيقات المسلمين مع ذلك ترمى الحصن ليلا ونهارا وارسل من فيه من
الفرنج الى ملكهم وفرسانهم يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن
فاجتمعت الفرنج عن آخرها وساروا الى نجدتهم مجدين فلما بلغ الخبر بمسيرهم الى صلاح الدين
رحل عن الكرك الى طريقهم ليلقاهم ويصافقهم ويعود بعد ان يهزمهم الى الكرك فقرب منهم
وخيم ونزل ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الارض وصعوبة المسلك اليهم وضيقه فأقام أياما
ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم فلم يبرحوا منه خوفا على نفوسهم فلما رأى ذلك
رحل عنهم عدة فراسخ وجعل بازائهم من يعلمه بمسيرهم فساروا ليلا الى الكرك فلما علم صلاح
الدين ذلك علم انه لا يتمكن حينئذ ولا يبلغ غرضه فسار الى مدينة نابلس ونهب كل ما على طريقه
من البلاد فلما وصل الى نابلس احرقها وخربها وقتل فيها واسر وسبى فاكثر وسار عنها الى
سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وبها جماعة أسرى من المسلمين
فاستنقذهم ورحل الى جينين فنهبها وخربها وعاد الى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث
السرايا فى طريقه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون ووصل الى دمشق

(ذكر ملك الملثمين بجاية وعودها الى اولاد عبد المؤمن)

فى هذه السنة فى شعبان خرج على بن اسحق المعروف بابن غانية وهو من اعيان الملثمين الذين كانوا
ملوك المغرب وهو حينئذ صاحب جزيرة ميورقة الى بجاية فملكها وسبب ذلك انه لما سمع بوفاة
يوسف بن عبد المؤمن عمر اسطوله فكان عشرين قطعة وسار فى جموعه فارسى فى ساحل بجاية
وخرجت خيله ورجاله من الشوانى فكانوا نحو مائتى فارس من الملثمين واربعة آلاف راجل
فدخل مدينة بجاية بغير قتال لانه اتفق ان واليها سار عنها قبل ذلك بأيام الى مراكش ولم يترك
فيها جيشا ولا عمالا لعدم عدو يحفظها منه فجاءها الملثم ولم يكن فى حسابهم انه يحدث نفسه بذلك
فارسى بها ووافقه جماعة من بقايا دولة بنى حماد وصاروا معه فكثر جمعهم وقويت نفسه
فسمع خبره والى بجاية فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلثمائة فارس فجمع من العرب
والقبائل الذين فى تلك الجهات نحو ألف فارس فسمع بهم وبقربهم منه فخرج اليهم وقد صار
معه قدر ألف فارس وتوافقوا ساعة فانضاف جميع الجموع التى كانت مع والى بجاية الى الملثم
فانهزم حينئذ والى بجاية ومن معه من الموحدين وساروا الى مراكش وعاد الملثم الى بجاية
فجمع جيشه وخرج الى أعمال بجاية فأطاعه جميعها الا قسطنطينة الهوى فحصرها الى ان جاء
جيش من الموحدين من مراكش فى صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائة الى بجاية فى البر والبحر
وكان بها يحيى وعبد الله اخوا على بن اسحق الملثم فخرجا منها هاربين ولحقا باخيهما فرحل عن
قسطنطينة وسار الى افريقية وكان سبب ارسال الجيش من مراكش ان والى بجاية وصل
الى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب وعرفه ما جرى ببجاية واستيلاء الملثمين عليها وخوفه عاقبة
التوانى فجهز العساكر فى البر عشرين الف فارس وجهز الاسطول فى البحر فى خلق كثير
واستعادوها

الاطراف للطاعة * والتزام
حكم التباعة * واعطاء
صفقة البيعة وفرع المنابر
باقامة الخطبة وكلهم سمع
واطاع * وبذل فى الخدمة
والقربة المستطاع * أنهضت
الى الشارين فى أخذهما
باقامة الخطبة له اسوة
امثالهما من ولاة الاطراف
وضمناء الاعمال فتلقيانى
بفروض الطاعة * والحرص
على الاقتداء بالجماعة *
وأمرا بالخطبة فأقيمت
باسم السلطان بكورة
الغرش فى شهور سنة تسع
وثمانين وثلثمائة وورد
على الشارين كتب
المتحازين الى بخارا عن
هزيمة مرو يذكرون
للشارين انهم على
الاستعداد * والتأهب
للمعاد * فلينتظراهم
ليأخذا من الانتصار *
ودرك الثار * بنصيب فبعث
الشار ابو نصر بها الى
درج رقعة افردنى بها *
يسألنى تأملها وانفاذها
بأعيانها * الى السلطان
ليقرر حاله فى الموالاة *
ومخالفة ذوى المناواة *

ذكر

(ذكر وفاة صاحب ماردين وملك ولده)

في هذه السنة مات قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين بن البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وملك بعده ابنه حسام الدين بولق ارسلان وهو طفل وقام بتربيته وتدبير مملكته نظام الدين البقش مملوك ابيه وكان شاه ارمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم في دولته وهو رتب البقش مع ولده وكان البقش دينا خيرا عادلا حسن السيرة سليما فأحسن تربية الولد وتزوج أمه فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبط وهوج كان فيه وكان لنظام الدين هذا مملوك اسمه لؤلؤ قد تحكم في دولته وحكم فيها فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد ولم يزل الامر كذلك الى ان مات الولد وله أخ أصغر منه لقبه قطب الدين فرتبه النظام في الملك وليس له منه الا الاسم والحكم الى النظام ولؤلؤ فبقي كذلك الى سنة احدى وستمائة فمرض النظام البقش فأتاه قطب الدين يعوده فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ وضربه قطب الدين بسكين معه فقتله ثم دخل الى النظام وبيده السكين فقتله أيضا وخرج وحده ومعه غلام له والقى الرأسين الى الاجناد وكانوا كلهم قد انشاهم النظام ولؤلؤ فاذعنوا له بالطاعة فلما تمكن أخرج من أراد وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين واعمالها وقلعة البارعية وصور وهو الى الآن حاكم فيها حازم في افعاله

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة توفي صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحمن بن شيخ الشيوخ اسمعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعيد أحمد في شعبان وكان قد سار في ديوان الخلافة رسولا الى صلاح الدين ومعه شهاب الدين بشير الخادم في معنى الصلح بينه وبين عز الدين صاحب الموصل فوصل دمشق وصلاح الدين يحصر الكرك فأقام الى ان عاد فلم يستقر في الصلح امر ومرضا وطلبا العودة الى العراق فأشار عليهما صلاح الدين بالمقام الى ان يصطلحا فلم يفعلا وسارا في الحرفات بشير بالسنة ومات صدر الدين بالرحبة ودفن بمشهد البوق وكان واحد زمانه قد جمع بين رياسة الدين والدنيا وكان ملجأ لكل خائف صالحا كريما حليما وله مناقب كثيرة ولم يستعمل في مرضه هذا دواء توكلا على الله تعالى وفيها توفي عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخجندي الفقيه الشافعي رئيس اصفهان وكان موته بباب همذان وقد عاد من الحج وله شعر فمنه

بالحمى دار سقاها مدمعي * ياسقى الله الحمى من مربع
ليت شعري والاماني صلة * هل الى وادي الغضى من مرجع
أذنت علوة للواشي بنا * ما على علوة لو لم تسمع
أوتحرت رشدا فيما وشى * أوعفت عن قاتلي معي

رحمه الله ورضي عنه وأرضاه

(ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها لوفاة شاه أرمن)

في هذه السنة حصر صلاح الدين يوسف بن ايوب الموصل مرة ثانية وكان مسيره من دمشق في ذي القعدة من السنة الماضية فوصل الى حلب وأقام بها الى ان خرجت السنة وسار منها فعبر

فكتبت اليه في جواب رقعته تأملتها فوجدتها تدل على خدود وقد عمل فيها صيقل الوقاحة كجدول يتوعد صاحبه بأن يضرب فكيه * ان لم يكف عنه كفيه وما نحن في هذا المعنى * وفيما اولى الله مولانا السلطان من الحسنى * الا كما قال المتنبي

ولله سر في علاك وانما * كلام العدى ضرب من الهذيان

واما قولهم انا على الانتصار * وطلب الثار * فتلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين على انا نقول

لئن كان أعجبكم عامكم * فعودوا الى حمص في القابل
فان الحسام الخضيب الذي * قتلتم به في يد القاتل

فان قالوا ان العود احمد * فذلك ولكن العود لمن حمد البدء لا لمن ذم * وصادف فيه ما سر لا ماساء وغم * وندر أو في بدء القائم * كيف شرقت السيوف بدمائهم * وتحكمت النسور في أشلائهم * فان نشطوا ثانية فها أتيك

الى أرض الجزيرة فلما وصل حران قبض على مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين الذى كان سبب ملكه الديار الجزرية وسبب قبضه عليه ان مظفر الدين كان يراسل صلاح الدين كل وقت ويشير عليه بقصد الموصل ويحسن له ذلك ويقوى طمعه حتى انه بذل له اذا سار اليها خمسين ألف دينار فلما وصل صلاح الدين الى حران لم يف له بما بذل من المال وأنكر ذلك فقبض عليه ووكل به ثم اطلقه واعاد اليه مدينتى حران والرها وكان قد أخذهما منه وانما أطلقه لانه خاف انحراف الناس عنه بالبلاد الجزرية لانهم كلهم علموا بما اعتمده مظفر الدين معه من تمليكه البلاد فأطلقه وسار صلاح الدين عن حران فى ربيع الاول فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ومعز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة وهو ابن اخى عز الدين صاحب الموصل وكان قد فارق طاعة عمه بعد قبض مجاهد الدين وسار مع صلاح الدين الى الموصل فلما وصلوا الى مدينة بلد سير اتابك عز الدين والدته الى صلاح الدين ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن زنكى وغيرهما من النساء وجماعة من اعيان الدولة يطلبون منه المصالحة ويبذلون له الموافقة والانجاد بالعساكر ليعود عنهم وانما أرسلهن لانه وكل من عنده ظنوا انهن اذا طلبن منه الشام أجابهن الى ذلك لاسيما ومعهم ابنة مخدومه وولى نعمته نور الدين فلما وصلن اليه أنزلهن وأحضر اصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقوله فأشار أكثرهم باجابتهن الى ما طلبن منه وقال له الفقيه عيسى وعلى بن أحمد المشطوب وهما من بلد الهكارية من اعمال الموصل مثل الموصل لا يترك لامرأة فان عز الدين ما ارسلهن الا وقد عجز عن حفظ البلد ووافق ذلك هواه فأعادهن خائبات واعتذر باعذار غير مقبولة ولم يكن ارسالهن عن ضعف وهن انما أرسلهن طلبا لدفع الشر بالتى هى أحسن فلما عدن رحل صلاح الدين الى الموصل وهو كالمتيقن انه يملك البلد وكان الامر بخلاف ذلك فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه وامتد عسكره فى تلك الصحراء بنواحى الحلة المزاقية وكان يجرى بين العسكرين مناوشات بظاهر الباب العمادى وكنت اذ ذاك بالموصل وبذل العامة نفوسهم غيظا وحنقا لرده النساء فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه فندم على رده النساء ندامة الكسعى حيث فاته الذكر وملك البلد وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ وجاءته كتب القاضى الفاضل وغيره ممن ليس له هوى فى الموصل يقبحون فعله ويشكرونه وأتاه وهو على الموصل زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل فانزله ومعه اخوه مظفر الدين كوكبرى وغيرهما من الامراء بالجانب الشرقى من الموصل وسير من المنزلة على بن أحمد المشطوب الهكارى الى قلعة الجزيرة من بلد الهكارية فحصرها واجتمع عليه من الاكراد والهكارية كثير وبقى هناك الى ان رحل صلاح الدين عن الموصل وكان عامة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من بالجانب الشرقى من العسكر ويعودون ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ اتابك عز الدين صاحبها ان نائبه بالقلعة يكاتبه فمنعه من الصعود الى القلعة وعاد يقتدى برأى مجاهد الدين وكان قد أخرجه كما ذكرناه ويصدر عن رأيه وضبط الامور واصلح ما كان فسد من الاحوال حتى آل الامر الى الصلح على ما نذكره ان شاء الله وحضر عند صلاح الدين انسان بغدادى اقام بالموصل ثم خرج الى صلاح الدين فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل الى ناحية نينوى وقال ان دجلة اذا نقلت عن الموصل عطش أهلها فملكها

الصوارم ماضية * والقشاعم ضاربة * وما أشبه حال القوم بما قام به ابن الاشعث خطيبا فى قومه فقال يا قوم انه ما بقى من عدوكم الا كما يبقى من ذنب الوزغة تضرب به يمينا وشمالا فما تلبث ان تموت وكذا المصباح اذا قارب انطفاؤه توهج قليلا * ثم لم يغن ذلك عن حينه فتيلا * فالحمد لله الذى جعل سيوف مولانا تخطب على منابر الرقاب اذ جعل ألسنة أعدائه تخطب فوق أسرة الاذقان واليه الرغبة فى ان يطيل بقاء مولانا ما برز يوم من حجاب امس * وطلع نفس من قرارة نفس * منصورا على من نابذه وناواه * ليودعه من بطن الارض ملحده ومثواه * وعن كثب يرى الشام كيف يفعل الله بالغاوين * ويلبسهم خزى الباغين * ويردهم اسفل السافلين * وقبل وبعد فالحمد لله رب العالمين * فكان الامر على ما حسبته وتفرست فان اتابك انشان اتصدر اليهم تلك عليهم دار الملك بيشا بأصولهم لغلم القوم

بغير قتال فظن صلاح الدين ان قولهم صدق فعزم على ذلك حتى علم انه لا يمكن قطعه بالكلية فان المدة تطول والتعب يكثر ولا فائدة وراءه وقبحه عنده أصحابه فاعرض عنه وأقام بمكانه من أول ربيع الآخر الى ان قارب آخره ثم رحل عنها الى ميافارقين وكان سبب ذلك ان شاه أرمن صاحب خلاط توفى بها تاسع ربيع الآخر فوصل الخبر بوفاته فى العشرين منه فعزم على الرحيل اليها وتملكها حيث ان شاه أرمن لم يخلف ولدا ولا أحدا من اهل بيته يملك بلاده بعده وانما قد استولى عليها مملوك له اسمه بكتمر ولقبه سيف الدين فاستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه فاختلفوا فاما من هواه بالموصل فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها وأما من يكره أذى البيت الاتابكى فانه أشار بالرحيل وقال ان ولاية خلاط أكبر وأعظم وهى سائبة لا حافظ لها وهذه لها سلطان يحفظها ويذب عنها واذا ملكنا تلك سهل أمر هذه وغيرها فتردد فى أمره فاتفق انه جاءه كتب جماعة من اعيان خلاط من أهلها وأمرائها يستدعونه ليسلموا اليه البلد فسار عن الموصل وكانت مكاتبة من كاتبه خديعة ومكرا فان شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب اذربيجان وهمذان وتلك المملكة قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم وكان قبل ذلك قد زوج شاه أرمن على كبر سنه بنتا له ليجعل ذلك طريقا الى ملك خلاط واعمالها فلما بلغهم مسيره اليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه اليهم ليسلموا البلد اليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان وتبقى البلد بأيديهم فسار صلاح الدين وسير فى مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما فساروا الى خلاط ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط وسار صلاح الدين الى ميافارقين واما البهلوان فانه سار الى خلاط ونزل قريبا منها وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبينه وبين صلاح الدين ثم انهم اصلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له

(ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن)

فى هذه السنة توفى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد لما كان صلاح الدين على الموصل وخلف ابنين فملك الاكبر منهما واسمه سقمان ولقبه قطب الدين وتولى تدبير الامور وزيره القوام بن سماقا الاسعردى وكان عماد الدين بن قرا ارسلان قد سيره أخوه نور الدين فى عساكره الى صلاح الدين وهو يحاصر الموصل وهو معه فلما بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعده لصغر أولاده فتعذر عليه ذلك فسار الى خرت برت فملكها وهى بيد أولاده الى سنة عشرين وستمائة ولما حضر صلاح الدين ميافارقين حضر عنده ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه ومن جملته آمد وكانوا خافوا ان يأخذها منهم فلم يفعل وردهم الى بلادهم وشرط عليهم ان يراجعوه فيما يفعلونه ويصدرون عن أمره ونهيه ورتب معه أميرا لقبه صلاح الدين من أصحاب أبيه

(ذكر ملك صلاح الدين ميافارقين)

لما سار صلاح الدين الى خلاط جعل طريقه على ميافارقين طمعا فى ملكها حيث كان صاحبها قطب الدين صاحب ماردين قد توفى كما ذكرنا وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمها الى شاه أرمن وعسكره فيها فلما توفى طمع فى أخذها فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال وبها زوجة

اسارى * وشرد الباقين فى الارض حيارى * ثم وطالعت الحضرة بصورة أمر الشارين فى الطاعة حتى خطبا من الاكرام بما توقعاه * وحليا من الاعزاز والايثار بما تطلعاه * وحضر الخدمة بعد ذلك الولد المعروف بشاه شار فصادف ما استحقه من ترحيب وترتيب * وحظ من الايجاب والايثار رغيب * وغبر مدة وهو بين الاغترار بسمة الملك * ولوثة فى الطبع مايسلم أمثالها عند الملوك من الهلك * وهو على ذلك محتمل * وبلطف القبول والاقبال مقتبل * واستأذن من بعد للانصراف وراءه فصادف اذنا بالمبار الكريمة مشفوعا * والى الخلع الشريفة فوق الهمة المنيفة مجموعا * وعاد الى أفشين قرارة بيته ومثابة عزه الى أن عنت للسلطان غزوة احتاج بحشدها فضل احتشاد * ويستظهر بما حولهم من قوة وعتاد * وأمراء جيوش

قطب الدين المتوفى ومعها بنات لها منه وهي أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فأقام صلاح الدين عليها يحصرها من أول جمادى الاولى وكان المقدم على اجنادها اميرا اسمه برنقش ولقبه أسد الدين وكان شجاعا شهما يحفظ البلد أحسن الحفظ واشتد القتال عليه ونصب المنجنيقات والعرادات فلم يصل صلاح الدين الى ما يريده منها فلما رأى ذلك عدل من القوة والحرب الى اعمال الحيلة فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها ان اسد الدين برنقش قد مال الينا في تسليم البلد ونحن نرعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد ان يكون لك في هذا الامر نصيب وأنا ازوج بناتك بأولادي وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع من ارسل الى الاسد يعرفه ان الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد الى السلطان وأن من بخلاط قد كاتبوه ليسلموا اليه فخذ لنفسك واتفق ان رسولا وصله من خلاط يبذلون له الطاعة وقالوا له من الاستدعاء اليهم ما كانوا يقولونه فأمر صلاح الدين الرسول فدخل الى ميافارقين وقال للاسد انت عن تقاتل وأنا قد جئت في تسليم خلاط الى صلاح الدين فسقط في يده وضعفت قوته وأرسل يقترح اقطاعا ومالا فأجيب الى ذلك وسلم البلد سلخ جمادى الاولى وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات خاتون وأقر بيدها قلعة هتاخ لتسكون فيها هي وبناتها

(ذكر عود صلاح الدين الى بلد الموصل والصلح بينه وبين اتابك عز الدين)

لما فرغ صلاح الدين من امر ميافارقين واحكم قواعدها وقرر اقطاعتها وولاياتها اجمع على العود الى الموصل فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل الى كفرزمار والزمان شتاء فنزلها في عساكره وعزم على المقام بها واقطاع جميع بلاد الموصل واخذ غلاتها ودخلها واضعاف الموصل بذلك اذ اعلم انه لا يمكنه التغلب عليها وكان نزوله في شعبان واقام بها شعبان ورمضان وترددت الرسل بينه وبين عز الدين صاحب الموصل وصار مجاهد الدين يراسل ويتقرب وكان قوله مقبولا عند سائر الملوك لما علموا من صحته فبينما الرسل تتردد في الصلح اذ مرض صلاح الدين وسار من كفرزمار عائدا الى حران فلحقه الرسل بالاجابة الى ما طلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة ان يسلم اليه عز الدين شهرزور واعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من اعمال وأن يخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة فلما حلف ارسل رسله فحلف عز الدين له وتسلم البلاد التي استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين الى حران فأقام بها مريضا وأمنت الدنيا وسكنت الدهماء وانحسمت مادة الفتن وكان ذلك بتوصل مجاهد الدين قايماز رحمه الله واما صلاح الدين فانه طال مرضه بحران وكان عنده من أهله اخوه الملك العادل وله حينئذ حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيسوا من عافيته فحلف الناس لاولاده وجعل لكل منهم شيأ من البلاد معلوما وجعل اخاه العادل وصيا على الجميع ثم انه عوفي وعاد الى دمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ولما كان مريضا بحران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه وله من الاقطاع حمص والرحبة فسار من عنده الى حمص فاجتاز بحلب واحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد اليه اذا مات صلاح الدين واقام بحمص ينتظر موته ليسير الى دمشق فيملكها فعوفي وبلغه الخبر على جهته فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الاضحى فانه شرب الخمر واكثر منه فأصبح ميتا فذكروا ان العهدة

وقواد * وامر بالكتاب اليه في استنهاضه اسوة امثاله * ثقة بخصوص حاله * وثمرة ما أفاض عليه من سجال افضاله * فلزبه الخذلان * عن المكان * واقتحم مداحض واهية الاركان * وظل يتردد بين الحران والاذعان * الى ان حقت عليه كلمة العصيان * فأعرض السلطان عند ذلك عن تدبيره * وأقبل على ما اهمه من امر مسيره * حتى اذا دان له ما قصد * وظفر بمن كند وتمرد * وعاد بالفتح خافقا لواؤه * والنجح شارقا ضياؤه * جدد مكاتبته ايمانا له من خيفة ان اوجسها * وايناسا من وحشة ان لابسها * واستبقاء للصنيعة عنده من ان يختضد أشاءها * او يقتطع دون المامر شاءها * فلم يزدد الا كفورا ونفورا * وكان أمر الله قدرا مقدورا * وعند ذلك جرد السلطان حاجبه الكبير اباسعيد التونتاش وقتله والى طوس ارسلان

عليهم ان صلاح الدين وضع انسانا يقال له الناصح بن العميد وهو من دمشق فحضر عنده ونادمه وسقاه سما فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح فسألوا عنه فقيل انه سار من ليلته الى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن فلما توفى اعطى اقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف ناصر الدين من الاموال والخيل والآلات شيأ كثيرا فحضر صلاح الدين فى حمص واستعرض تركته وأخذ اكثرها ولم يترك الا ما لا خير فيه وبلغنى ان شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت ابيه بسنة فقال له الى اين بلغت من القرآن فقال الى قوله تعالى ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه

(ذكر الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل)

فى هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور واذربيجان وقتل فيها من الخلق ما لا يحصى ودامت عدة سنين وتقطعت الطرق ونهبت الاموال وأريقت الدماء وكان سببها ان امرأة من التركمان تزوجت بانسان تركمانى واجتاز وافى طريقهم بقلعة من الزوزان الاكراد فجاء اهلها وطلبوا من التركمان وليمة العرس فامتنعوا من ذلك وجرى بينهم كلام صاروا منه الى القتال فنزل صاحب تلك القلعة فأخذ الزوج فقتله فهاجت الفتنة وقام التركمان على ساق وقتلوا جمعا كثيرا من الاكراد وثار الاكراد فقتلوا من التركمان أيضا كذلك وتفاقم الشر ودام ثم ان مجاهد الدين قايماز رحمه الله جمع عنده جماعة من رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم واعطاهم الخلع والثياب وغيرها وأخرج عليهم مالا جما فانقطعت الفتنة وكفى الله شرها وعادوا الى ما كانوا عليه من الطمأنينة والامان

(ذكر ملك الملثمين والعرب افريقية وعودها الى الموحدين)

قد ذكرنا سنة ثمانين ملك على بن اسحق الملثم بجاية وارسال يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن العساكر واستعادتها فسار الى افريقية فلما وصل اليها اجتمع سليم ورياح ومن هناك من العرب وانضاف اليهم الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين قراقوش وقد تقدم ذكر وصوله اليها ودخل أيضا من اتراك مصر مملوك لتقى الدين ابن أخى صلاح الدين اسمه بوزابة فكثر جمعهم وقويت شوكتهم فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغا كثيرا وكلهم كاره لدولة الموحدين واتبعوا جميعهم على بن اسحق الملثم لانه من بيت المملكة والرياسة القديمة وانقادوا اليه ولقبوه بامير المسلمين وقصدوا بلاد افريقية فملكوها جميعها شرقا وغربا الا مدينتين تونس والمهدية فان الموحدين أقاموا بها وحفظوها على خوف وضيق وشدة وانضاف الى المفسد الملثم كل مفسد فى تلك الارض ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر فخربوا البلاد والحصون والقرى وهتكوا الحرم وقطعوا الاشجار وكان الوالى على افريقية حينئذ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتى وهو بمدينة تونس فارسل الى ملك المغرب يعقوب وهو بمراكش يعلمه الحال وقصد الملثم جزيرة باشرا وهى بقرب تونس تشتمل على قرى كثيرة فنازلها وأحاط بها فطلب أهلها منه الامان فامنهم فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الاموال والدواب والغلات وسلبوا الناس حتى ثيابهم وامتدت الايدى الى النساء والصبيان وتركوهم هلكى فقصدوا مدينة تونس فاما

الجاذب فيمن ضمهم الى جملتهما * ووسمهم بالمسير تحت رايتهما * لمناهضة الثائرين وامتلاك الغرض عليهما * واحاقة وبال العصيان * وكفران الاحسان * بهما فنهضا بالعدة والعديد * والبطش الشديد * واستلحقا أبا الحسن المنيعى الزعيم بمرو الروذ لمكانه من العلم بمعاطف السبل * ومخارم تلك الشعاب والقلال * فسارا اليهما فى رجال قد كدمتهم التجارب * وبنتهم النوائب * يعضون بأطراف الثنايا على الزبر * ويدخلون ولو خرت الابر * ودمرا على الثائرين تلك الناحية فاما الثائر الكبير الوالد أبو نصر فاستشف استار العاقبة * واغتنم شعار العافية * ولاذ بالامان الى الحاجب الكبير التونتاش * مظهرا البراءة من فعل ولده * وصادعا بما اشتهر فى الخاص والعام من عقوقه وتمرده * وتحمل بشفاعته الى السلطان فى ملاحظته بعين من لم

الا قويا فكانوا يخدمون ويعملون ما يقوم بقوتهم وأما الضعفاء فكانوا يستعطون ويسألون الناس ودخل عليهم فصل الشتاء فاهلكهم البرد ووقع فيهم الوباء فاحصى الموتى منهم فكانوا اثنى عشر ألفا هذا من موضع واحد فما الظن بالباقى ولما استولى الملثم على افريقية قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للامام الناصر لدين الله الخليفة العباسى وارسل اليه يطلب الخلع والاعلام السود وقصد فى سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصة فحصرها فاخرج أهلها الموحدين من عساكر ولد عبد المؤمن وسلموها الى الملثم فرتب فيها جندا من الملثمين والاتراك وحصنها بالرجال مع حصانتها فى البناء وأما يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فانه لما وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين وقصد قلة العسكر لقلة القوت فى البلاد ولما جرى فيها من التخريب والاذى وسار فى صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فوصل الى مدينة تونس وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه فساروا الى على بن اسحق الملثم ليقاتلوه وكان بقفصة فوافوه وكان مع الموحدين جماعة من الترك فخامروا عليهم فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم وكان ذلك فى ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس الى نصف رجب من السنة ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثم والاتراك فوصل اليهم فالتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا فانهزم الملثم ومن معه فاكثر الموحدون القتل حتى كادوا يفنونهم فلم ينج منهم الا القليل فقصدوا البر ورجع يعقوب من يومه الى قابس ففتحها وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وحملهم الى مراكش وتوجه الى مدينة قفصة فحصرها ثلاثة أشهر وقطع أشجارها وخرب ما حولها فارسل اليه الترك الذين فيها يطلبون الامان لانفسهم ولاهل البلد فأجابهم الى ذلك وخرج الاتراك منها سالمين وسير الاتراك الى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم فى العدو وتسلم يعقوب البلد وقتل من فيه من الملثمين وهدم أسواره وترك المدينة مثل قرية وظهر ما انذر به المهدى بن تومرت فانه قال انها تخرب أسوارها وتقطع أشجارها وقد تقدم ذكر ذلك فلما فرغ يعقوب من أمر قفصة واستقامت افريقية عاد الى مراكش وكان وصوله اليها سنة أربع وثمانين وخمسمائة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فارق الرضى أبو الخير اسمعيل القزوينى الفقيه الشافعى بغداد وكان مدرس النظامية بها وعاد الى قزوين ودرس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك صاحب ابن الخل وكان من العلماء الصالحين وفيها كان بين أهل الكرخ ببغداد وبين اهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم وقتل ثم أصلح النقيب الطاهر بينهم وفيها توفى الفقيه مهذب الدين عبد الله ابن أسعد الموصلى وكان عالما بمذهب الشافعى وله نظم ونثر أجاد فيه وكان من محاسن الدنيا وكانت وفاته بحمص

(ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة)

(ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز الى مصر واخراج الافضل من مصر الى دمشق واقطاعه اياها)

فى هذه السنة أخرج صلاح الدين ولده الافضل عليا من مصر الى دمشق واقطعها اياه وأخذ حلب

وتكبت جريرة * ولم يتغل سريره * ولم يبذل فى الطاعة والاخلاص سيره * لحذره الى هراة بين ترفيه اقتضته طاعته * واحتياط أوجبه خلاف الابن وممانعته * وكتب بحاله الى السلطان فورد فى الجواب ما أمنه رهق المؤاخذه * وعنت المعاقبة * وأما ابنه الشاه فتحصن بالقلعة التى اواها أيام السبجيورية وهى التى سبق وصفها فى عزة الجوانب * ومناعة المناكب * وصعوبة المصاعد * والسمو على متون الفيوم * الرواكد * واستصحب اليها خواص غلمانه وخزانته * وسائر حاشيته وبطانته * وقصده الحاجب أبو سعيد التونتاش وأبو الحرث ارسلان الجاذب فى الجم الغفير من أعيان القواد * وأبطال الافراد * وتقاسما أركان الحصار فقذفا بالمجانيق المنصوبة * والعرادات الموضوعة * ومناوشة الدروب من جهات كادت تشاشات النفوس

من

من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان الى مصر وجعله نائبا عنه واستدعى تقي الدين منها
وسبب ذلك انه كان قد استناب تقي الدين بمصر كما ذكرناه وجعل معه ولده الاكبر الافضل علي
فارسل تقي الدين يشكو من الافضل ويذكر انه قد عجز عن جباية الخراج معه لانه كان حليما كريما
اذا اراد تقي الدين معاقبة احد منعه فاحضر ولده الافضل وقال لتقي الدين لا تحتج في الخراج
وغيره بحجة وتغير عليه بذلك وظن انه يريد اخراج ولده الافضل لينفرد بمصر حتى يملكها اذا مات
صلاح الدين فلما قوى هذا الخاطر عنده احضر اخاه العادل من حلب وسيره الى مصر ومعه ولده
العزيز عثمان واستدعى تقي الدين الى الشام فامتنع من الحضور وجمع الاجناد والعساكر ليسير
الى المغرب الى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نفوسة وبرقة وغيرها وقد كتب اليه
يرغبه في تلك البلاد فتجهز للسفر اليه واستصحب معه أنجاد العسكر وأكثرهم فلما سمع ذلك
صلاح الدين ساءه وعلم انه ان ارسل اليه يمنعه لم يجبه فارسل اليه يقول له اريد ان تحضر عندي
لاودعك وأوصيك بما تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد في اقطاعه فصار اقطاعه حماة ومنبج
والمعرة وكفرطاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها وكان تقي الدين قد سير في مقدمته
مملوكه بوزابة فاتصل بقراقوش وكان منهم ما ذكرناه سنة احدى وثمانين وخمسمائة وقد بلغني
من خبير باحوال صلاح الدين انه انما حمله على أخذ حلب من العادل واعادة تقي الدين الى الشام
ان صلاح الدين لما مرض بحران على ما ذكرناه أرجف بمصر أنه قد مات فجرى من تقي الدين
حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفي صلاح الدين بلغه ذلك فارسل الفقيه عيسى الهكاري
وكان كبير القدر عنده مطاعا في الجند الى مصر وأمره باخراج تقي الدين والمقام بمصر فسار مجدا
فلم يشعر تقي الدين الا وقد دخل الفقيه عيسى الى داره بالقاهرة وأرسل اليه يامره بالخروج منها
فطلب ان يمهل الى أن يتجهز فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج وأظهر انه يريد
الدخول الى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر ارسل اليه يطلبه فسار
الى الشام فاحسن اليه ولم يظهر له شيأ مما كان لانه كان حليما كريما صبورا رحمه الله وأما أخذ
حلب من العادل فان السبب فيه أنه كان من جملة جندها أمير كبير اسمه سليمان بن جندر بينه
وبين صلاح الدين صحبة قديمة قبل الملك وكان صلاح الدين يعتمد عليه وكان عاقلا ذا مكر ودهاء
فاتفق ان الملك العادل لما كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنه وقدم غيره عليه فتأثر بذلك فلما
مرض صلاح الدين وعوفي سار الى الشام فسايره يوما سليمان بن جندر فجرى حديث مرضه
فقال له سليمان بأي رأي كنت تظن انك تمضي الى الصيد فلا يخالفونك بالله ما تستحي يكون
الطائر أهدى منك الى المصلحة قال وكيف ذلك وهو يضحك قال اذا أراد الطائر أن يعمل عشا
لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه وأنت سلمت الحصون الى أهلك وجعلت أولادك على
الارض هذه حلب بيد أخيك وحماة بيد تقي الدين وحمص بيد ابن شيركوه وابنك العزيز مع تقي
الدين بمصر يخرجه أي وقت أراد وهذا ابنك الآخر مع اخيك في خيمه يفعل به ما أراد فقال له
صدقت واكتم هذا الامر ثم أخذ حلب من اخيه وأخرج تقي الدين من مصر ثم أعطى اخاه
العادل حران والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لاولاده فلم ينفعه ما فعل لما
اراد الله تعالى نقل الملك عن أولاده على ما نذكره

من هول المقام * أن تذوق
كأس الحمام * قبل ذوقها
بوقع السيوف والسهام
* وواصلا صبوح تلك
الحرب بالغبوق حتى هدما
أحد أسوار الحصار
فوضعاه بالحضيض من
وقع الجلاميد وصدم المجانيق
وتلقاها أهل العسكر
متحنين على سائر الاسوار
كالعصم واقلة في شم
الهضاب * أو الارانب هاربة
من غضف الكلاب *
واشتبكت الحرب على تلك
الحال ضربا بالسيوف
القواضب * وأخذا باللحى
والذوائب * حتى سالت
المذانب من دفع النحور *
* واحمرت المتالع من علق
الصدور * ورأى الشاه عند
ذلك من هول المطلع ما لم يكن
ثم كان * فدعا الامان الامان *
هيهات ان غضاب النفوس
اذا صادفت نجح المرام *
ووجه التشفي بالانتقام *
لموفورة الآذان أو تفعل
أفعالها * وتنال من درك

(ذكر وفاة البهلوان وملك اخيه قزل)

في هذه السنة في أولها توفي البهلوان محمد بن ايلدكز صاحب بلد الجبل والري واصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد وكان عادلا حسن السيرة عاقلا حليما ذا سياسة حسنة للملك وكانت تلك البلاد في أيامه آمنة والرعايا مطمئنة فلما مات جرى باصفهان بين الشافعية والحنفية من الحروب والقتل والاحراق والنهب ما يجل عن الوصف وكان قاضي البلد رأس الحنفية وابن الخجندي رأس الشافعية وكان بمدينة الري ايضا فتنة عظيمة بين السنية والشيعة وتفرق اهلها وقتل منهم وخربت المدينة وغيرها من البلاد ولما مات البهلوان ملك اخوه قزل ارسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان والخطبة له في البلاد بالسلطنة وليس له من الامر شيء وانما البلاد والامراء والاموال بحكم البهلوان فلما مات البهلوان خرج طغرل عن حكم قزل ولحق به جماعة من الامراء والجند فاستولى على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها ان شاء الله تعالى

(ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس الى صلاح الدين)

كان القمص صاحب طرابلس واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلي قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل اليها واقام عندها بطبرية ومات ملك الفرنج بالشام وكان مجذوما واوصى بالملك الى ابن اخته وكان صغيرا فكفله القمص وقام بسياسة الملك وتدبيره لانه لم يكن للفرنج ذلك الوقت اكبر منه شانا ولا اشجع ولا اجود رأيا منه فطمع في الملك بسبب هذا الصغير فاتفق ان الصغير توفي فانتقل الملك الى امه فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به ثم ان هذه الملكة هويت رجلا من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كي فتزوجته ونقلت الملك اليه وجعلت التاج على راسه واحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والداوية والبارونية واعلمتهم انها قد ردت الملك اليه واشهدتهم عليها بذلك فاطاعوه ودانوا له فعظم ذلك على القمص وسقط في يديه وطولب بحساب ما جبى من الاموال مدة ولاية الصبي فادعى انه انفقه عليه وزاده ذلك نفورا وجاهر بالمشاقة والمباينة وراسل صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعي له في كل ما يريد وضمن له انه يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة وكان عنده جماعة من فرسان القمص فاطلقهم فحل ذلك عنده اعظم محل واظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك من اعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم على ما نذكره ان شاء الله وسير صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية فشنت الغارات على بلاد الفرنج وخرجت سالمة غانمة فوهن الفرنج بذلك وضعفوا وتجرأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم

(ذكر غدر البرنس ارناط)

كان البرنس ارناط صاحب الكرك من اعظم الفرنج واخبثهم واشدهم عداوة للمسلمين واعظمهم ضررا عليهم فلما رأى صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرة بعد اخرى فذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين فاجابه الى ذلك وهادنه

وتحالفا

الثار منها اليها * ومازالت
تلك دعواه وهذه حالهم
حتى أخذوه أسيرا * واستنزلوه
عنوة وقسرا * واستبيح ذلك
الحريم بما حووا من درهم
ودينار * ومال واستظهار *
وأخذ حاجبه ووزيره *
بل نديمه وسميره * بل قليله
وكثيره * فوضع عليه
الدهق حتى أعنى بما عرفه
من ذخائره * وخبره من
ودائعه * وطلب عامة
أوليائه وعماله * والمتصرفين
في امور أمواله * حتى عروا
عن لباس اليسار * وعزت
أخلافهم دون الاستدرار *
وقوطع أبو الحسن المنيعي
عن ارتفاعات الفرش على
ما علم ارتفاعاته منه قبل
للثار فتمكن منها
واستخلف هناك من تقوى
يده في عمله وشحن الحصار
بكوتوال يوثق بأمانته وبعث
السلطان بعض خواصه
لنقل الثار المأسور الى
حضرته * على سبيل ارفاق
له من جهته * فلما سلم اليه حمله
في وثاقه نحو غزنة وسمعت
بعض الثقات انه اتفق
لاغلام أن يكتب الى أهله
بخبره * وما لقيه في حالتي
ورده وصدره * ويبشرهم
بمنصرفه * فاستدعى الثار
في عدة آوامره تولى ذلك

وتحالفا وترددت القوافل من الشام الى مصر ومن مصر الى الشام فلما كان هذه السنة اجتاز
به قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال ومعها جماعة صالحة من الجند فغدر اللعين بهم
واخذهم عن آخرهم وغنم اموالهم ودوابهم وسلاحهم واودع السجون من اسره منهم فارسل
اليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده ان لم يطلق الاسرى والاموال فلم يجب الى
ذلك واصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذرا أن يقتله ان ظفر به فكان ما نذكره ان شاء الله
تعالى

(ذكر عدة حوادث)

كان المنجمون قديما وحديثا قد حكموا ان هذه السنة التاسع والعشرين من جمادى
الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان ويحدث باقترانها رياح شديدة فلم يكن لذلك
صحة ولم يهب من الرياح شئ البتة حتى ان الغلال الحنطة والشعير تأخر تجازها لعدم الهواء الذي
يذري به الفلاحون فأكذب الله احدوثة المنجمين وأخزاهم وفيها توفى عبد الله بن برى بن
عبد الجبار بن برى النحوي المصري وكان اماما في النحو رحمه الله تعالى

(ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة)

اتفق أول هذه السنة يوم السبت وهو يوم النوروز السلطاني ورابع عشر اذار وسنة ألف
وأربعمائة وثمان وتسعين اسكندرية وكان القمر والشمس في الحمل واتفق أول سنة العرب
وأول سنة الفرس التي جددوها أخيرا وأول سنة الروم والشمس والقمر في أول البروج وهذا
يبعد وقوع مثله

(ذكر حصر صلاح الدين الكرك)

في هذه السنة كتب صلاح الدين الى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب الى الموصل
وديار الجزيرة واربل وغيرها من بلاد الشرق والى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد
ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له بغاية الامكان ثم خرج من دمشق أواخر المحرم في عسكرها
وحلقتها الخاص فسار الى راس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم
ولده الملك الافضل علي ليجتمع اليه من يرد اليه منها وسار هو الى بصرى جريدة وكان سبب
مسيره وقصده اليها انه أتته الاخبار ان البرنس ارناط صاحب الكرك يريد ان يقصد الحجاج
ليأخذهم من طريقهم واظهر انه اذا فرغ من اخذ الحجاج يرجع الى طريق العسكر المصري
يصدهم عن الوصول الى صلاح الدين فسار الى بصرى ليمنع البرنس ارناط من طلب الحجاج
ويلزم بلده خوفا عليه وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن اخت
صلاح الدين وغيره فلما سمع ارناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه وانقطع عما طمع فيه
فوصل الحجاج سالمين فلما وصلوا وفرغ سره من جهتهم سار الى الكرك وبث سراياه من هناك على
ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا واحرقوا والبرنس محصور لا يقدر على المنع
عن بلده وسائر الفرنج قد لزموا اطراف بلادهم خوفا من العسكر الذي مع ولده الافضل فتمكن
من الحصر والنهب والحريق والتخريب هذا فعل صلاح الدين

(ذكر الغارة على بلد عكا)

بخطيئة فأتم تفكرا * ثم أظهر
تشكرا * وكتب ما هذا معناه
أيتها القحبة * الرحبة *
أتزينني اغفل عما احدثته
بعدي من خيانتي في الفراش
وتمزيق ما خلفته عندك
من مالي وتمحيقه ولقد أنهى
الى جميع ما ركبته من
فجور * وشربته من خمور *
وضيعته من مالي في كل
محظور ومنكور * وها أنا
عائد اليك وايم الله لأضعن
عليك الدهق وعلى والديك
ولادقن يديك على رجليك
ولاجعلنك عظة لربات
الخدور * في الدور * يا كذا
يا كذا واستأنف الشتم
حتى علم انه قد اكتفى ثم
طوى الكتاب ودفعه الى
الغلام فطير به بعض ثقاته
فقامت القيامة على اهله
وخفن عدوا سيحين *
وحرّف من صورتهن *
وفكرن في امرهن *
فوجدن اصوب الآراء
تفريغ الدار * وتقديم
الاستتار * وفعلن ذلك
دائبات على القلق * ثابتات
على الجوى والارق * فلما
وصل الغلام الى الدار
فاذا هي كالقاع القرق لا يلم
بها نافخ ضرمة * ولا معلق
وذمة * فبقي حيران

أرسل صلاح الدين الى ولده الافضل يامره ان يرسل قطعة صالحة من الجيش الى بلد عكا
ينهبونه ويخربونه فسير مظفر الدين كوكبري بن زين الدين وهو صاحب حران والرها
وأضاف اليه قايماز النجمي ودلدرم الياروقي وهما من أكابر الامراء وغيرهما فساروا ليلا
وصبحوا صفورية أواخر صفر فخرج اليهم الفرنج في جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما
فالتقوا هناك وجرت بينهم حروب تشيب لها المفارق السود ثم انزل الله تعالى نصره على المسلمين
فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون وفيمن قتل مقدم الاسبتارية وكان من فرسان
الفرنج المشهورين وله النكايات العظيمة في المسلمين ونهب المسلمون ماجاورهم من البلاد
وغنموا وسبوا وعادوا سالمين وكان عودهم على طبرية وبها القمص فلم ينكر ذلك فكان فتحا
كثيرا فان الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج وسيرت البشائر الى البلاد بذلك

(ذكر عود صلاح الدين الى عسكره ودخوله الى الفرنج)

لما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية وقتل من قتل منهم وأسر من أسر
منهم عاد عن الكرك الى العسكر الذي مع ولده الملك الافضل وقد تلاحقت سائر الامراء
والعساكر واجتمع بهم وساروا جميعا وعرض العسكر فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس ممن
له الاقطاع والجامكية سوى المتطوعة فعبى عسكره قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية
وساقة وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمرهم بلازمته وسار على تعبية فنزل بالاقحوانة بقرب
طبرية وكان القمص قد انتمى الى صلاح الدين كما ذكرنا وكتبه متصلة اليه يعده النصرة
ويمنيه المعاضدة ومايعدهم الشيطان الاغرورا فلما رأى الفرنج العساكر الاسلامية وتصميم
العزم على قصد بلادهم ارسلوا الى القمص البطرك والقسوس والرهبان وكثيرا من الفرسان
فانكروا عليه انتماءه الى صلاح الدين وقالوا له لاشك أنك أسلمت والالم تصبر على فعل المسلمين امس
بالفرنج يقتلون الداوية والاسبتارية ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك وأنت لاتنكر ذلك
ولاتمنع عنه ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس وتهدده البطرك انه يحرمه
ويفسخ عليه نكاح زوجته الى غير ذلك من التهديد فلما رأى القمص شدة الامر عليه خاف
واعتذر وتنصل وتاب فقبلوا عذره وغفروا زلته وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والموازرة
على حفظ بلادهم فاجابهم الى المصالحة والانضمام اليهم والاجتماع بهم وسار معهم الى ملك
الفرنج واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ولم تغن عنهم من الله شيأ وجمعوا فارسهم وراجلهم ثم ساروا
من عكا الى صفورية وهم يقدمون رجلا ويؤخرون اخرى قد ملئت قلوبهم رعبا

(ذكر فتح صلاح الدين طبرية)

لما اجتمع الفرنج وساروا الى صفورية جمع صلاح الدين امراءه واستشارهم فاشار اكثرهم
عليه بترك اللقاء وان يضعف الفرنج بشن الغارات واخراب الولايات مرة بعد مرة فقال له
بعض امرائه الرأى عندى اننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي فان وقف أحد
من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه فان الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار
واقبل يريد قتال المسلمين والرأى ان نفعل فعلا نعذر فيه ونكف الالسنة عنا فقال صلاح
الدين الرأى عندى ان نلقى بجميع المسلمين جمع الكفار فان الامور لاتجرى بحكم الانسان

وسأل من اهل الجيران
فأخبروه بصورة الكتاب
وماخيف من الفضيحة
بالعقاب* فدعا وبلاه*
ولعن الكاتب ومن والاه*
والكتاب ومن أملاه
* واحتال في رد العيال
بضمان أكده واحسان
جدده* وبلغ الخبر
السلطان فضحك لاحتيال
الشاعر عليه وقال كذا ـ ف
مثله ممن يستخدم الشاعر
كاتبا* ووضع حرمته بالامس
جانبا* ولما حل هوالى
الباب تقدم السلطان
بتجريده للسياط تأديبا له
على ماأغفله من حق النعمة*
وهتكه من ستر الحشمة*
فجردها واخذته عذبات
العذاب فاكثر الضراعة
والاستكانة* وشكا الى
السلطان الذل والمهانة*
فلما استوفى التأديب حقه
دون أن يبلغ التكبير
منتهاه* والعقاب أمده
ومداه* أمر بانزاله
واعتقاله* في موضع
يصلح لامثاله* وأمر

ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي ان نفرق هذا الجمع الا بعد الجد بالجهاد ثم رحل من
الاقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر فسار
حتى خلف طبرية وراء ظهره وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج فلم ير منهم أحدا ولا فارقوا
خيامهم فنزل وأمر العسكر بالنزول فلما جنه الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من
القتال ونزل جريدة الى طبرية وقاتلها ونقب بعض ابراجها وأخذ المدينة عنوة في ليلة ولجأ
من بها الى القلعة التي لها فامتنعوا بها وفيها صاحبتها ومعها أولادها فنهب المدينة واحرقها
فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية وملكه المدينة وأخذ ما فيها واحراقها واحراق
ما تخلف مما لا يحمل اجتمعوا للمشورة فاشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ومنعهم
عن طبرية فقال القمص ان طبرية لي ولزوجتي وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي
القلعة وفيها زوجتي وقد رضيت ان يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود فوالله لقد رأيت
عساكر الاسلام قديما وحديثا ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة
واذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها اخذناها وان اقام بها لا يقدر على المقام
بها الا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم واهليهم فيضطر الى
تركها ونفتك من اسر منا فقال له برنس ارناط صاحب الكرك قد اطلت في التخويف من
المسلمين ولا شك انك تريدهم وتميل اليهم والا ما كنت تقول هذا واما قولك انهم كثيرون فان النار
لا يضرها كثرة الحطب فقال انا واحد منكم ان تقدمتم تقدمت وان تأخرتم تأخرت وسترون
ما يكون فقوي عزمهم على التقدم الى المسلمين وقتالهم فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه
وقربوا من عساكر الاسلام فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية الى عسكره وكان قريبا
منه وانما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم وكان
المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من
الوصول الى ذلك الماء من المسلمين وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من
الرجوع خوفا من المسلمين فبقوا على حالهم الى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم
واما المسلمون فانهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضا وقد
وجدوا ريح النصر والظفر وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان
زاد طمعهم وجرأتهم فاكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة
الجاليشية وفرق فيهم النشاب

•(ذكر انهزام الفرنج بحطين)•

اصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر فركبوا وتقدموا الى
الفرنج فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض الا ان الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا
فاقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد
المنتشر فقتلوا من خيول الفرنج كثيرا هذا القتال بينهم والفرنج قد جمعوا انفسهم براجلهم
وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية لعلهم يردون الماء فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن
مرادهم ووقف بالعسكر في وجوههم وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم

بمواساته • والتوسيع عليه
في أقواته • ومداواة
جراحاته • من حيث لا يشعر
باذنه فيه • وفيما أباحه من
الترفيه • كما سرى في
تضاعيف مزاجه ولا
انجرى في عروق البشر • والماء
في أصول الشجر • والتمس
اسعافه بغلام كان حظيا
عنده فرد عليه • وأعيد بعض
ما يصله اليه • فاما أبوه المقيم
بهراة فاذن له في ورود الباب •
ولوحظ بعين الايجاب •
وابتاع السلطان منهما
خاص ضياعهما بالغرض
حلالها عن عقدة الشبهة
واستضافة اياها الى جلة
ضياعه الملكية وأمر
لهما باثمان ما باعاه نقدا
صيانة لهما من مس الفاقة •
وذل الحاجة • وفوض الشيخ
الجليل شمس الكفاة على
الشار أبي نصر بجناح
الاكرام والرعاية حتى أتاه
الداعي • وقام به الناعي •
وذلك في سنة ست وأربعمائة

•(ذكر وقعة ناردين)•

قد كان السلطان يمين الدولة •

وينهاهم عما يضرهم والناس يأتمرون لقوله ويقفون عنده ثم انه حمل مملوك من مماليكه
الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج فقاتل قتالا عجب منه الناس ثم تكاثر الفرنج عليه
فقتلوه فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيرا فلما رأى القمص
شدة الامر علم انهم لا طاقة لهم بالمسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان المقدم
من المسلمين فى تلك الناحية تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فلما رأى حملة الفرنج حملة
مكروب علم انه لا سبيل الى الوقوف فى وجوههم فامر أصحابه ان يفتحوا لهم طريقا يخرجون
منه وكان بعض المتطوعة قد ألقى فى تلك الارض نارا وكان الحشيش كثيرا فاحترق وكانت
الريح فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان
وحر القتال فلما انهزم القمص سقط فى ايديهم وكادوا يستسلمون ثم علموا انهم لا ينجيهم من الموت
الا الاقدام عليه فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم
لولا لطف الله بهم الا ان الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون الا وقد قتل منهم فوهنوا لذلك وهنا
عظيما فاحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها فارتفع من بقى من الفرنج الى تل بناحية
حطين وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات
ومنعوهم عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير وأخذ المسلمون صليبهم
الاعظم الذى يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون ان فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها
المسيح عليه السلام بزعمهم فكان اخذه عندهم من اعظم المصائب عليهم وايقنوا بعده بالقتل
والهلاك هذا والقتل والاسر يعملان فى فرسانهم ورجالتهم فبقى الملك على التل فى مقدار مائة
وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين فحكى لى عن الملك الافضل
ولد صلاح الدين قال كنت الى جانب أبى فى ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته فلما صار
ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بازائهم من المسلمين حتى
ألحقوهم بوالدى قال فنظرت اليه وقد علته كآبة واربد لونه وامسك بلحيته وتقدم وهو يصيح
كذب الشيطان قال فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا الى التل فلما رأيت الفرنج قد
عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحى هزمناهم فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الاولى
الحقوا المسلمين بوالدى وفعل مثل مافعل اولا وعطف المسلمون عليهم فالحقوهم بالتل فصحت انا
ايضا هزمناهم فالتفت والدى الى وقال اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة قال فهو يقول
لى واذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى فبكى من فرحه وكان سبب
سقوطها ان الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا وقد كانوا يرجون الخلاص فى بعض
تلك الحملات مما هم فيه فلم يجدوا الى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الارض
فصعد المسلمون اليهم فالقوا خيمة الملك واسروهم عن بكرة ابيهم وفيهم الملك واخوه والبرنس
ارناط صاحب الكرك ولم يكن فى الفرنج اشد منه عداوة للمسلمين واسروا ايضا صاحب جبيل
وابن هنفرى ومقدم الداوية وكان من اعظم الفرنج شأنا واسروا ايضا جماعة من الداوية
وجماعة من الاسبتارية وكثر القتل والاسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن انهم اسروا
واحدا ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا احدا وما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل

وأمن الملة * لما استصفى
نواحى الهند الى حيث لم
تبلغه فى الاسلام راية * ولم
تتل بها قط سورة أو آية *
فرحض عنها ادناس الشرك
وقشع دونها اغباش الكفر
وبنى بها مساجد يقوم فيها
دعاة الله بالاذان * الذى هو
شعار الايمان * رأى أن يطوى
تلك الديار الى واسطة الهند
منتقما لله ممن يجحد توحيده *
ويضع لعبادة الانداد من
دونه تعالى خده ووريده *
ومحكما فيه سيوفا طبعت
على غرار الاسلام وسقيت
بماء الايمان وصينت فى
قراب دين الله * واستضبت
بأيدى الاخيار والابرار
من اولياء الله * فندب الرجال
وفرق الاموال * واخلص
اليقين * واستنصر الواحد
المعين * ونهض فى الطم والرم *
والقبيل المدلهم * وذلك فى سنة
اربع واربعمائة وسار فى
اخريات فصل الخريف ثقة
بطيب الهواء من جانب
الجنوب فاتفق عند اقتحامه
تلك الديار ان سقطت ثلوج

وهو سنة احد وتسعين واربعمائة الى الآن بمثل هذه الوقعة فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح
الدين فى خيمته واحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك واجلس الملك الى جانبه وقد
اهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب واعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب فقال
صلاح الدين ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذنى فينال امانى ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه وعدد
عليه عوراته وقام اليه بنفسه فضرب رقبته وقال كنت نذرت دفعتين أن اقتله ان ظفرت به
احداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدرا فلما قتله سحب وأخرج
ارتعدت فرائص الملك فسكن جاشه وأمنه وأما القمص صاحب طرابلس فانه لما نجا من
المعركة كما ذكرناه وصل الى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث الا أياما قلائل حتى مات غيظا
وحنقا مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة

(ذكر عود صلاح الدين الى طبرية وملك قلعتها مع المدينة)

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج أقام بموضعه باقى يومه وأصبح يوم الاحد عاد الى طبرية
ونازلها فارسلت صاحبتها تطلب الامان لها ولاولادها وأصحابها ومالها فاجابها الى ذلك
فخرجت بالجميع فوفى لها فسارت آمنة ثم أمر بالملك وجماعة من أعيان الاسرى فارسلوا الى
دمشق وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية ان يجمعوا ليقتلهم ثم علم ان من عنده أسير
لا يسمح به لما يرجو من فدائه فبذل فى كل أسير من هذين الصنفين خمسين دينارا مصرية
فاحضر عنده فى الحال مائتا أسير منهم فامر بهم فضربت أعناقهم وانما خص هؤلاء بالقتل
لانهم أشد شوكة من جميع الفرنج فاراح الناس من شرهم وكتب الى نائبه بدمشق ليقتل من
دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره ففعل ذلك ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة
فرأيت الارض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق هذا
سوى ما جحفته السيول وأخذته السباع فى تلك الآكام والوهاد

(ذكر فتح مدينة عكا)

لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها يوم الثلاثاء ووصل الى عكا يوم الاربعاء وقد صعد
أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ فعجب هو والناس من ذلك لانهم علموا ان
عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل وأسير وانهم لم يسلم منهم الا القليل الا انه نزل يومه وركب
يوم الخميس وقد صمم على الزحف الى البلد وقتاله فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل اذ خرج
كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الامان فأجابهم الى ذلك وآمنهم على أنفسهم وأموالهم
وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا
ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقى على حاله ودخل المسلمون اليها يوم الجمعة مستهل
جمادى الاولى وصلوا بها الجمعة فى جامع كان للمسلمين قديما ثم جعله الفرنج بيعة ثم جعله صلاح
الدين جامعا وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامى بعد ان ملكه الفرنج وسلم البلد الى
ولده الافضل وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من اقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى وغنم
المسلمون ما بقى مما لم يطق الفرنج حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب
والجوهر والسقلاط والبندقى والسكر والسلاح وغير ذلك من أنواع الامتعة كثيرا فانها كانت

لم يعهد قبلها مثلها فسدت
مخارق تلك الجبال * وسوت
بين الاباطح والتلال * وكلح
وجه الهواء كلوحا اثرف
الحوافر والاخفاف * فضلا
عن المحاسر والاطراف *
وضلت مهايع الطرق فلم
تعرف الميامن من المياسر *
ولا المقادم من المآخر *
واضطرت الحال الى
الانعطاف * الى ان يأذن
الله ثانيا فى الانصراف *
ولكل شئ حد محدود *
وأمد ممدود * واقبل
السلطان على استئناف
العدة والعتاد * واستكمال
الميرة والازواد * واستدعاء
اعيان الغزاة من اطراف
البلاد * حتى اذا تمت العدة
والعديد * وباهى العقد
باخواته الفريد * وتضام
الناس كقزع الخريف من
كل وجه منشورا * وعن كل
أوب محثوثا ومحشورا *
واقبل الربيع بطيب المقيل *

مقصد التجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله ففرق صلاح الدين وابنه الافضل ذلك جميعه على أصحابهما وأكثر ذلك فعله الافضل لانه كان مقيما بالبلد وكانت شيمته في الكرم معروفة وأقام صلاح الدين بعكا مدة أيام لاصلاح حالها وتقرير قواعدها

(ذكر فتح مجدل يابا)

لما هزم صلاح الدين الفرنج أرسل الى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك يامره بالمسير الى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي عنده من العسكر ومحاصرة ما يليه منها فسارع الى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم ما فيه وورد كتابه بذلك الى صلاح الدين وكانت بشارة كبيرة

(ذكر فتح عدة حصون)

في مدة مقام صلاح الدين بعكا تفرق عسكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وقدموا من ذلك بما سد الفضاء وسير تقي الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور وسير حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر الى نابلس فاتى سبسطية وبها قبر زكريا فاخذه من أيدي النصارى وسلمه الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من فيها بالامان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على املاكهم وأموالهم

(ذكر فتح يافا)

لما خرج العادل من مصر وفتح مجدل يابا كما ذكرنا سار الى مدينة يافا وهي على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وكان عندي جارية من أهلها وأنا بحلب ومعها طفل عمره نحو سنة فسقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيرا فسكنتها وأعلمتها انه ليس بولدها ما يوجب البكاء فقالت ما له أبكي انما أبكي لما جرى علينا كان لي ستة اخوة كلهم هلكوا جميعهم وزوج واختان لا أعلم ما كان منهم هذا من امرأة واحدة والباقي بالنسبة ورأيت بحلب امرأة فرنجية قد جاءت مع سيدها الى باب قطرة سيدها فخرج صاحب البيت فكلمهم ثم أخرج امرأة فرنجية فحين رأتها الاخرى صاحتا واعتنقتا وهما يصرخان ويبكيان وسقطتا الى الارض ثم قعدتا يتحدثان واذا هما أختان وكان لهما عدة من الاهل ليس لهما علم بأحد منهم

(ذكر فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت)

فاما تبنين فقد ذكرنا انفاذ صلاح الدين تقي الدين ابن أخيه الى تبنين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصرها لا يتم الا بوصول عمه صلاح الدين اليه فارسل اليه يعلمه الحال ويحثه على الوصول اليه فرحل ثامن جمادى الاولى ونزل عليه حادي عشره فحصرها وضايقها وقاتلها بالزحف وهي من القلاع المنيعة على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من اسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقة وسيرهم الى أهليهم وبقي الفرنج كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون

الامان

واعتدال برد الغداة والاصيل * استخار الله تعالى في الرحيل * وسار كالبحر الاخضر تضرب به الاعاصير * والامر الحتم تجنبه المقادير * فغدت وحوش الارض مأسوره * وطيور الهواء مقهوره * ولو احست الارض لزلت من ثقل الحديد * والمشي الوئيد * وحث الابطال فوق القب القياديد * وساق امامه ادلاء يهتدون اعماق تلك البلاد ولا الشمس عليها طالعه * ولا النجوم بينها مشرقة وراجعه * وحث الركائب شهرين بين انهار عميقة الاغوار بعيدة ما بين الاقطار وواد تضل في ارجائها اسراب اليعافير * وقفار في دهنائها افواج الصنابر * حتى اذا قارب المقصد عبى الخيول كتائب * وميزها عصائب * ورتبها كواكب * وقسمها مناسر ومقانب * ونصب اخاه الامير نصر بن ناصر الدين في الميمنة في كماة القواد * وحماة الافراد *

الامان فأمنهم على أنفسهم فسلموها اليه ووفى لهم وسيرهم الى مأمنهم وأما صيدا فان صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها الى صيدا فاجتاز فى طريقه بصرفند فأخذها صفوا عفوا بغير قتال وسار عنها الى صيدا وهى من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها لتسع بقين من جمادى الاولى وأما بيروت فهى من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل اليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالا شديدا واغتروا بحصانة البلد وظنوا انهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد مرة فبينما الفرنج يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من اخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من الناحية الاخرى قهرا وغلبة فأرسلوا ينظرون ما الخبر واذا ليس له صحة فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع ارسلوا يطلبون الامان فأمنهم على انفسهم واموالهم وتسلمها فى التاسع والعشرين من جمادى الاولى من السنة فكان مدة حصرها ثمانية ايام واما جبيل فان صاحبها كان من جملة الاسرى الذين سيروا الى دمشق مع ملكهم فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق فى تسليم جبيل على شرط اطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فأحضره مقيدا عنده تحت الاستظهار والاحتياط وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه واطلق اسرى المسلمين الذين به واطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من اعيان الفرنج واصحاب الرأى والمكر والشر به يضرب المثل بينهم وكان للمسلمين منه عدو أزرق وكان اطلاقه من الاسباب الموهنة للمسلمين على ما يأتى بيانه

(ذكر خروج المركيس الى صور)

لما انهزم القمص صاحب طرابلس من حطين الى مدينة صور فأقام بها وهى اعظم بلاد الشام حصانة واشد امتناعا على من رامها فلما رأى السلطان قد ملك تبنين وصيدا وبيروت خاف ان يقصد صلاح الدين صور وهى فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها وتركها وسار الى مدينة طرابلس فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لاخذها بغير مشقة لكنه استعظمها لحصانتها فأراد ان يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل اخذها فكان ذلك سبب حفظها وكان امر الله قدرا مقدورا واتفق ان انسانا من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيس لعنه الله خرج فى البحر بمال كثير للزيارة والتجارة ولم يشعر بما كان من الفرنج فأرسى بعكا وقد رابه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح وضرب الاجراس وغير ذلك وما رأى ايضا من زى اهل البلد فوقف ولم يدر ما الخبر وكانت الريح قد ركدت فأرسل الملك الافضل اليه بعض اصحابه فى سفينة يبصر من هو وما يريد فأتاه القاصد فسأله المركيس عن الاخبار لما انكره فأخبره بكسرة الفرنج واخذ عكا وغيرها واعلمه ان صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها ولم يعلمه بالامر على وجهه فلم يمكنه الحركة لعدم الريح فرد الرسول يطلب الامان ليدخل البلد بماله

وأرسلان الجاذب فى الميسرة فى البهم الذكور والبزل الفحول وجعل أبا عبد الله محمد بن ابراهيم الطائى على المقدمة فى مساعير العرب أحلاس الظهور * وابناء الصوارم والذكور * ورتب فى القلب الحاجب التونتاش وسائر خواصه وغلمان داره رجال اذا اصطفوا فالجبال الشواهق * أو زحفوا فالسيول الدوافق * ونذر بهم عدو الله ملك الهند ففزع * من فاجئ الفزع الى من حوله من تكاكرته وأعيان جيوشه ونصاريه ولجأ الى شعب جبل لجج المدخل * خشن المتوغل صعب المرتقى والمتوقل مستعصما بالاحتجاز * عن البراز * وبالاحتراس * من وقع الباس * وقد مغفر الجبلين بفيلة يراها الراؤن هضابا نابتة * وجبالا ثابتة

من متاع ومال فأجيب الى ذلك فردده مرارا كل مرة يطلب شيأ لم يطلبه فى المرة الاولى وهو
يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به فبينما هو فى مراجعاته اذ هبت الريح فسار نحو
صور وسير الملك الافضل الشوانى فى طلبه فلم يدركوه فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق
كثير لان صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما مما ذكرناه اعطى اهلها
الامان فساروا كلهم الى صور وكثر الجمع بها الا انهم ليس لهم راس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم
وليسوا أهل حرب وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد اليه فأتاهم المركيش
وهم على ذلك العزم فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذل ما معه من
الاموال وشرط عليهم ان تكون المدينة وأعمالها له دون غيره فأجابوه الى ذلك فأخذ ايمانهم
عليه وأقام عندهم ودبر أحوالهم وكان من شياطين الانس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة
عظيمة وشرع فى تحصينها فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد فى حصانتها واتفق من بها
على الحفظ والقتال دونها

(ذكر فتح عسقلان وما يجاورها)

لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لاسباب منها
انهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان يختار ان تتصل الولايات له ليسهل خروج
العسكر منها ودخولهم اليها ولما فى فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم الى غير ذلك
من الاغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع باخيه العادل ومن معه من عساكر مصر
ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر ملك الفرنج
ومقدم الداوية اليه من دمشق وقال لهما ان سلمتما البلاد الى فلكما الامان فأرسلا الى من
بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما اقبح رد
وجبهوهما بما يسوءهما فلما رأى السلطان ذلك جد فى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها
وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقابون الى السور فنالوا من باشورته شيأ هذا وملكهم يكرر
المراسلات اليهم بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم انه اذا أطلق من الاسر أضرم البلاد على المسلمين
نارا واستنجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل من أقاصى بلاد الفرنج وأدانيها وهم
لا يجيبون الى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به ولما رأوا انهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا
واذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضا ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين فى تسليم
البلد على شروط اقترحوها فأجابهم صلاح الدين اليها وكانوا قتلوا فى الحصار أميرا كبيرا من
المهرانية فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلون منهم بثاره فاحتاطوا فيما اشترطوا
لانفسهم فأجيبوا الى ذلك جميعه وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة وكانت مدة
الحصار أربعة عشر يوما وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقدس
ووفى لهم بالامان

(ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان)

لما فتح صلاح الدين عسقلان أقام بظاهرها وبث السرايا فى اطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا
الرملة والداروم وغزة ومشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وتبنى وبيت لحم وبيت جبريل

وبث النفير فى أقطار
مملكته يستنهض من يحمل
حجرا * فضلا عمن يلقم
القوس وترا * أو يحسن
بالسيف أثرا * ومد فى
طول المطاولة كى يلقى
عسكر السلطان بقوة وافية
وعدة متوافية * أو يلجى
أولياء الله الى الاخلال * من
فرط الملال * أو النفور
من ضيق الصدور * ولم يعلم
ان الله من وراء المؤمنين
وان الله موهن كيد
الكافرين * ولما علم
السلطان من نيته فى ارجاء
القتال * تأخير النزال
دلف الى عدو الله بقلوب قد
صقلها التوحيد * وبشرها
الوعد وانذرها الوعيد
ورماهم بالصيلم * من رجالة
الديلم * وبالشياطين * من
الافغانية المطاعين * رجال
كالاجبال * مطوحة بالنفوس
منقلة للأعين الشوس
أو الليوث اخرجها الجوع

والنطرون وكل ما كان للداوية

(ذكر فتح البيت المقدس)*

لما فرغ صلاح الدين من امر عسقلان وما يجاورها من البلاد على ما تقدم وكان قد أرسل الى
مصر أخرج الاسطول الذى بها في جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو
معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما
رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه فحين وصل الاسطول وخلا سره من تلك الناحية سار عن
عسقلان الى البيت المقدس وكان به البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شأنا من ملكهم وبه
أيضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضا من
خلص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحى عسقلان وغيرها
فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت أيسر عليه من ان يملك المسلمون البيت المقدس
ويأخذوه منهم ويرى ان بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه وحصنوه تلك
الايام بما وجدوا اليه سبيلا وصعدوا على سوره بجدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب
عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات
ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير فى جماعة من
أصحابه غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكا فقاتلوه
وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه فاهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على
القدس منتصف رجب فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لاهله
من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع وبقى صلاح الدين خمسة أيام
يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لانه فى غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع
قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية فى العشرين
من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها
ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا أشد قتال رآه احد من الناس كل
واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا
يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون الى ظاهر
البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الامير عز الدين عيسى
ابن مالك وهو من اكابر الامراء وكان ابوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلى القتال بنفسه كل
يوم فقتل الى رحمة الله تعالى وكان محبوبا الى الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم
عليهم ذلك واخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فازالوا الفرنج عن مواقفهم فادخلوهم
بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة
يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب
فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما راى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمى
المتدارك وتمكن النقابين من النقب وانهم قد اشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم
يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس الى

وأعياها الى اشباهها
الرجوع * ينفذون فى
الاسداد نفوذ المثاقب فى
العيدان * او البيارم فى
الحيطان * ويفرعون
البواذخ كالوعول
وينزلون عنها كنحدر
السيول * وواصلها عليهم
اياما تباعا يجذبهم بصدق
البراز * الى البراز * بجذب
النار للسليط والمغناطيس
للحديد وكلما فارقوا تلك
المضايق التقطهم الفرسان
كما تلتقط الافراس البيادق
ولم تزل هذه حالهم حتى
انضم الى العين اكثر من
والاه * ولبا معظم من
دعاه * وعندها احتشد
للبروز مستندا الى الجبل
من حوله الافيال كالقلل
فجد المصاع * واحتد القراع
وحمى الوطيس * واستوى
المرؤس والرئيس * وصار
القاء كفا لمن آخذ
بالتلابيب * ومناقر

صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم فى طلب الامان فلما ذكروا ذلك للسلطان
امتنع من اجابتهم وقال لا افعل بكم الا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين
وأربعمائة من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائبين محرومين ارسل باليان
ابن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الامر وتحريره فاجيب الى
ذلك وحضر عنده ورغب فى الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه
واسترحمه فلم يرحمه فلما أيس من ذلك قال له ايها السلطان اعلم اننا فى هذه المدينة فى خلق كثير
لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم انك تجيبهم اليه كما أجبت
غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة فاذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا
ونساءنا ونحرق اموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون
وتأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من
المواضع ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا
الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل
حتى يقتل أمثاله ونموت اعزاء أو نظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فاجمعوا على اجابتهم
الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الامر فيه عن اى شئ تنجلى
ونحسب انهم اسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فاجاب صلاح الدين
حينئذ الى بذل الامان للفرنج فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير
ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين
يوما فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا فبذل باليان
ابن بيرزان عن الفقراء ثلاثين الف دينار فاجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع
والعشرين من رجب وكان يوما مشهودا ورفعت الاعلام الاسلامية على اسواره ورتب صلاح
الدين على أبواب البلد فى كل باب امينا من الامراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا
الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت أيدى سبا ولو اديت فيه الامانة
لملأ الخزائن وعم الناس فانه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من
يتبعهم من النساء والولدان ولا يعجب السامع من ذلك فان البلد كبير واجتمع اليه من تلك
النواحى من عسقلان وغيرها والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق
والكنائس وكان الانسان لا يقدر ان يمشى ومن الدليل على كثرة الخلق ان أكثرهم وزن
ما استقر من القطيعة واطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف
دينار وبقى بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطى وأخذ أسيرا ستة عشر ألف آدمى ما بين رجل
وامرأة وصبى هذا بالضبط واليقين ثم ان جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من
رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم وكان جماعة من الامراء
يلبسون الفرنج زى الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها واستوهب
جماعة من صلاح الدين عددا من الفرنج فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم وبالجملة فلم يصل الى
خزائنه الا القليل وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به ومعها من

كالمعاقيب * ومضارب ما
بين الرؤس الى العراقيب
فكلما اشليت القبيلة
للتهويل والتفخيم * والحطم
بالأغلاف والخراطيم
مطرتها سحائب الزانات
متلوية كالاراقم * منسابة
الى حدق العيون اوثغر
الخلاقم * ورأى الكافر
موقع أبى عبد الله محمد بن
ابراهيم الطائى من الغناء
وضراوته باسالة الدماء
فانتصاه بأخشن من فى جملته
شوكة * وأعظمهم شكه
حتى أثخنوه ضربا على الهام
وحطما من خلف وقدام
وهو كالحرون ثابت لا يميل
شرف مقامه * ولا يكل دون
الضرب بحسامه * متسمحا
بالروح فى نصرة الدين
وطاعة رب العالمين * ورأى
السلطان انضاء الكفرة
عليه فامده بكوكبة من
خواصه * لاستخلاصه
فاستنقذوه الى السلطان
ممزوقا بالسيوف * منقوطا

الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير ولها من الاموال والجواهر النفيسة شئ عظيم فطلبت الامان لنفسها ومن معها فامنها وسيرها وكذلك أيضا أطلق ملكة القدس التى كان زوجها الذى أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك واطلق مالها وحشمها واستأذنته فى المصير الى زوجها وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس فاذن لها فأتته وأقامت عنده وأتته أيضا امرأة للبرنس ارناط صاحب الكرك وهو الذى قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين فشفعت فى ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين ان سلمت الكرك اطلقته فسارت الى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها ومن تبعها وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والاقصى وقمامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال لا اغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتا واحدا من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج أما المسلمون فكبروا فرحا وأما الفرنج فصاحوا تفجعا وتوجعا فسمع الناس صيحة كادت الارض أن تميد بهم لعظمها وشدتها فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم فان الداوية بنوا غربى الاقصى ابنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هرى ومستراح وغير ذلك وادخلوا بعض الاقصى فى ابنيتهم فاعيد الى الاول وامر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار والانجاس ففعل ذلك اجمع ولما كان الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى فى قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له ان نور الدين محمودا كان قد عمل بحلب منبرا أمر الصناع بالمبالغة فى تحسينه واتقانه وقال هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس فعمله النجارون فى عدة سنين لم يعمل فى الاسلام مثله فامر باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فاحضروا من الرخام الذى لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطينى وغير ذلك مما يحتاجون اليه قد ادخر على طول السنين فشرعوا فى عمارته ومحوا ما كان فى تلك الابنية من الصور وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فامر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش ان القسيسين باعوا كثيرا منها للفرنج الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها وكان أحدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعل فى مذبحها فخاف بعض ملوكهم ان تفنى فامر بها ففرش فوقها حفظا لها فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وادر عليهم الوظائف الكثيرة فعاد الاسلام هناك غضا طريا وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر

بالألسنة كالحروف * فأمر له بفصل يستريح الى سعبه عن ألم الجراح بجوارحه فصار الفيل ملكا له يتميز به من أعيان أهل عسكره ولم تزل الحرب على حالها حتى أهب الله النصر لأوليائه وادار دائرة السوء على أعدائه * فأخذتهم سيوف الحق تحسمهم بين كل مصاد ومنعطف واد * ومدخل ومغار * ومتعسف ومنار وملكت عليهم الفيلة التى كانوا أعدوها حصونا واقيه فصارت عليهم عباقيه وأفاء الله على السلطان وأوليائه غنائم رحضت الصدور عن درن الحسد لاشتراك الكافة فى الغنى المقصود * واستوائهم فى كفاية الموجود * وفتح الله نار دين فما طرز به شعائر الاسلام اذ لم تبلغه راية الحق من لدن عهد النبى صلى الله عليه وسلم الى زمن

ابن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخرا وشرفا وأما الفرنج من
أهله فانهم أقاموا وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم وما لا
يطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من
أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام في
مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم الى ذلك فاستقروا فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج وترك
الفرنج أيضا أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق والبتيات وغير ذلك وتركوا أيضا
من الرخام الذي لا يوجد مثله من الاساطين والالواح والفص وغيره شيأ كثيرا ثم ساروا

(ذكر رحيل صلاح الدين الى صور ومحاصرتها)

لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب
أمور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعية وهي
في غاية ما يكون من الحسن فلما فرغ من أمر البلد سار الى مدينة صور وكانت قد اجتمع فيها
من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيش صاحبها والحاكم فيها وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ
في تحصين البلد ووصل صلاح الدين الى عكا وأقام بها أياما فلما سمع المركيش بوصوله اليها جد
في عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر الى البحر من الجانب الآخر فصارت
المدينة كالجزيرة في وسط الماء لا يمكن الوصول اليها ولا الدنو منها ثم رحل صلاح الدين من عكا
فوصل الى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس
وتلاحقوا وسار في الثاني والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى
القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث ان يتصل القتال
على أهل البلد على ان الموضع الذي يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من اهل
البلد لحفظه وعليه الخنادق التي قد وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطير يطير عليها فان
المدينة كالكف في البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبي الساعد والقتال انما هو
في الساعد فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات وكان أهل صلاح
الدين يتناوبون القتال مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن
أخيه تقي الدين وكذلك سائر الامراء وكان للفرنج شواني وحراقات يركبون فيها في البحر
ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبيهم
بالجروخ ويقاتلونهم وكان ذلك يعظم عليهم لان أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب
الشواني يقاتلونهم من جانبيهم فكانت سهامهم تنفذ من احد الجانبين الى الجانب الآخر
لضيق الموضع فكثرت الجراحات في المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو الى البلد فارسل صلاح
الدين الى الشواني التي جاءته من مصر وهي عشر قطع وكانت بعكا فاحضرها برجالها ومقاتلتها
وعدتها وكانت في البحر تمنع شواني أهل صور من الخروج الى قتال المسلمين فتمكن المسلمون
حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه برا وبحرا وضايقوه حتى كادوا يظفرون فجاءت
الاقدار بما لم يكن في الحساب وذلك ان خمس قطع من شواني المسلمين باتت في بعض تلك الليالي
مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول اليه فباتوا ليلتهم يحرسون وكان مقدمهم

السلطان بين الدولة وأمين
الملة عز كتب الله له على
يده وصنعا أتاح له التوفيق
والتيسير من عنده * ووجد
في بيت بلد عظيم حجر منقور
ذات كتابته على أنه مبني
منذ أربعين ألف سنة فقضى
السلطان من جهل القوم
بها اذ كان اهل الشريعة
الغراء * والحق المنزل من
السماء * على أن مدة الدنيا
سبعة آلاف سنة وانا
منها في الالف الاخير وكل
ما تساندت به الاخبار من
أمارات الساعة موجود *
وبأبصار العيون وبصائر
القلوب مشهوده * واستفتى
فيه أعيان العلماء فكل
أجمع على انكار ذلك المنقور
وعلى تزييف مثله من شهادات
الصخور * وعاد السلطان
وراءه بتلك الغنائم العظيمة
فكاد عدد الارقاء من
العبيد والاماء * يزيد على
عدد الدهماء * ورخصت

عبد السلام المغربي الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا الا بشوانى الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتلوا من أراد وا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وادخلوهم مينا صور والمسلمون فى البر ينظرون اليهم ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر فنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وتقدم السلطان الى الشوانى الباقية بالمسير الى بيروت لعدم استطاعته بها القلتها فسارت فتبعها شوانى الفرنج فحين راى من فى شوانى المسلمين الفرنج مجدين فى طلبهم ألقوا انفسهم فى شوانيهم الى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد الى مقاتلة صور فى البر وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال وفى بعض الايام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام الى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة أيام

(ذكر الرحيل عن صور الى عكا وتفريق العساكر)

لما رأى صلاح الدين ان أمر صور يطول رحل عنها وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة بل فتح الجميع فى الايام القريبة كما ذكرناه بغير تعب ولا مشقة فلما رأى هو واصحابه شدة أمر صور ملوها وطلبوا الانتقال عنها ولم يكن لاحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين فانه هو جهز اليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والاموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الامان ويرسلهم الى صور فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم واموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فاجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجؤن اليها فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها وسنذكر ان شاء الله ما صار اليه الامر بعد ذلك ليعلم ان الملك لا ينبغى ان يترك الحزم وان ساعدته الاقدار فلأن يعجز حازما خير له من ان يظفر مفرطا مضيعا للحزم واعذر له عند الناس ولما أراد الرحيل استشار أمراءه فاختلفوا فالجماعة يقولون الرأى ان يرحل فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا وفنيت النفقات وهذا الشتاء قد حضر والشوط بطين فنريح ونستريح فى هذا البرد فاذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها وكان هذا قول الاغنياء منهم وكأنهم خافوا ان السلطان يقترض منهم ما ينفقه فى العسكر اذا أقام لخلو الخزائن وبيوت الاموال من الدرهم والدينار فانه كان يخرج كل ما يحمل اليه منها وقالت الطائفة الاخرى الرأى ان نصابر البلد ونضايقه فهو الذى يعتمدون عليه من حصونهم ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب واخذنا باقى البلاد صفوا عفوا فبقى صلاح الدين مترددا بين الرحيل والاقامة فلما رأى من يرى الرحيل اقامته أخلوا بما ردّ اليه من المحاربة والرمى بالمنجنيق واعتذروا بجراح رجالهم وأنهم قد أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم والاقوات لهم الى ذلك من الاعذار فصاروا مقيمين بغير قتال فاضطر الى الرحيل فرحل عنها آخر شوال وكان أول كانون الاول الى عكا فأذن العساكر جميعها بالعود الى اوطانهم والاستراحة فى الشتاء والعود فى الربيع فعادت عساكر الشرق

فيهم المماليك فصار أصحاب المهن الخاملة فضلا عن ذوقهم من الرقه * يعتقدون عدة من تلك الرقه * وذلك فضل الله الذى أعز به الدين وأذل الالحاد والملحدين والحمد لله رب العالمين

(ذكر وقعة تانيسر)

قد كان أنهى الى السلطان يمين الدولة وأمين الملة أن بناحية تانيسر فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة فى الحروب وان صاحبها غال بها فى الكفر والجحود غير آل جهدا فى الطغوى والعنود * وانه محتاج الى ذوقة من كأسه * وحرقة من جمرات بأسه * ليعلم أن عز الاسلام عام * وان له من سطوة الله سهما كما لسائر أقبال الهند سهام * فعزم السلطان على غزوة اليه يرفع بها راية الاسلام * وينسخ معها ولاية الاصنام * ويدع الكفر عليها محجوب الغالب

والموصل وغيرها وعساكر الشام وعساكر مصر وبقي حلقته الخاص مقيما بعكا فنزل بقلعتها ورد أمر البلد الى عز الدين جورديك وهو من أكابر المماليك النورية جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة

(ذكر فتح هونين)

لما فتح صلاح الدين تبنين امتنع من بهونين من تسليمها وهي من احصن القلاع وامنع فلم يتدريج عليها ولا الاشتغال بمحاصرتها بل سير اليها جماعة من العسكر والامراء فحصروها ومنعوا من حمل الميرة اليها واشتغل بما تقدم ذكره من فتح عسقلان والبيت المقدس وغير ذلك فلما كان يحاصر مدينة صور أرسل من فيها يطلبون الامان فأمنهم فسلموا ونزلوا منها ووفى لهم بامانهم

(ذكر حصر صفد وكوكب والكرك)

لما سار صلاح الدين الى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهي مطلة على الاردن من يحصرها ويحفظ الطريق للمجتازين ائلا ينزل من به من الفرنج يقطعونه وسير طائفة اخرى من العسكر ايضا الى قلعة صفد فحصروها وهي مطلة على مدينة طبرية وكان حصن كوكب للاسبتار وحصن صفد للداوية وهما قريبان من حطين موضع المصاف فلجأ اليهما جمع ممن سلم من الداوية والاسبتار فحموهما فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شر من فيهما واتصلت الطرق حتى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف وكان مقدم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميرا يقال له سيف الدين وهو أخو جاولي الاسدي وكان شهما شجاعا ديرجع الى دين وعبادة فأقام عليه الى آخر شوال وكان أصحابه يحرسون نوبا مرتبة فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم في الحراسة وكان قد صلى ورده من الليل الى السحر وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق والريح والمطر فلم يشعر المسلمون وهم نازلون الا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا الى قلعتهم فقووا بذلك قوة عظيمة أمكنتهم ان يحفظوا قلعتهم الى ان أخذت أواخر سنة أربع وثمانين على ماسنذكره ان شاء الله وأتى الخبر الى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور فعظم ذلك عليه مضافا الى مانا له من أخذ شوانيه ومن فيها ورحيله عن صور ثم رتب على حصن كوكب الامير قايماز النجمي في جماعة أخرى من الاجناد فحصروها

(ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم)

في هذه السنة يوم عرفة قتل شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بعرفات وهو أكبر الامراء الصلاحية وقد تقدم من ذكره مافيه كفاية وسبب قتله انه لما فتح المسلمون البيت المقدس طلب اذنا من صلاح الدين ليحج ويحرم من القدس ويجمع في سنته بين الجهاد والحج وزيارة الخليل عليه السلام ومن بالشام من مشاهد الانبياء وبين زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعليهم أجمعين فأذن له وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم من البلاد والعراق والموصل وديار الجزيرة وخلاط وبلاد الروم ومصر وغيرها ليجمعوا بين زيارة بيت المقدس ومكة فجعل ابن المقدم اميرا عليهم فساروا حتى وصلوا الى عرفات سالمين

والشام * وسار في أولياء الله الذين قد نشأوا على القراع * نشأ الاطفال على الرضاع * وضروا بدماء الكفار ضراوة الصقور بغاث الاطيار وقطع الى المذكور * أودية لم يقطعها غير طائر * أو حيوان عائر وخرق سباسب لم يطأها رجل ماش ولا نعل حافر * وجهدهم في تلك القفار علالات الشفاه * وبلالات الافواه فضلا عن سائر الاقوات حتى صنع الله لهم بأن بدوا منها الى فضاء يفضي الى ناحية المقصود ودونه نهر صخاب * أرضه ظراب وصفاح كظبى السيوف حداد يلتقي بشاطئه شعب جبل قد استند اليه الكافر مستظهرا بغيوله * ومتكثرا بأفنا رجاله وخيوله * فاحتال السلطان لقتال عسكره في مجاوزة النهر الى أعداء الله الكفرة الفجرة حتى عبروه

ووقفوا في تلك المشاعر وأدوا الواجب والسنة فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا من عرفات فأمر بضرب كوساته التي هي امارة الرحيل فضربها أصحابه فأرسل اليه أمير الحاج العراقي وهو مجير الدين طاشتكين ينهاه عن الافاضة من عرفات قبله ويأمره بكف أصحابه عن ضرب كوساته فأرسل اليه يقول اني ليس لي معك تعلق أنت أمير الحاج العراقي وأنا أمير الحاج الشامي وكل منا يفعل ما يراه ويختاره وسار ولم يقف ولم يسمع قوله فلما رأى طاشتكين اصراره على مخالفته ركب في أصحابه وأجناده وتبعه من غوغاء الحاج العراقي وبطاطيهم وطماعتهم العالم الكثير والجم الغفير وقصدوا حاج الشام مهولين عليهم فلما قربوا منهم خرج الامر من الضبط وعجزوا عن تلافيه فهجم طماعة العراق على حاج الشام وفتكوا فيهم وقتلوا جماعة ونهبت أموالهم وسبيت جماعة من نسائهم الا انهن رددن عليهم وجرح ابن المقدم عدة جروح وكان يكف أصحابه عن القتال ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد لكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم فلما أثخن بالجراحات أخذه طاشتكين الى خيمته وأنزله عنده ليمرضه ويستدرك الفارط في حقه وساروا تلك الليلة من عرفات فلما كان الغد مات بمنى ودفن بمقبرة المعلى ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهود فتح البيت المقدس رحمه الله تعالى

(ذكر قوة السلطان طغرل على قزل)

في هذه السنة قوي أمر السلطان طغرل وكثر جمعه وملك كثيرا من البلاد فأرسل قزل الى الخليفة يستنجده ويخوفه من طغرل ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه وأرسل طغرل رسولا الى بغداد يقول أريد أن يتقدم الديوان بعمارة دار السلطنة لاسكنها اذا وصلت فأكرم رسول قزل ووعده بالنجدة ورد رسول السلطان طغرل بغير جواب وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة فهدمت الى الارض وعفي أثرها

(ذكر ملك شمس الدين الهندي وانهزام المسلمين بعدها)

في آخر هذه السنة سار شهاب الدين الغوري ملك غزنة الى بلاد الهند وقصد بلاد اجمير وتعرف بولاية السوالك واسم ملكهم كولة وكان شجاعا شهما فلما دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة تبرندة وهي حصن منيع عامر وملكوا سرستي وملكوا كوة رام فلما سمع ملكهم جمع العساكر فأكثر وسار الى المسلمين فالتقوا وقامت الحرب على ساق وكان مع الهند أربعة عشر فيلا فلما اشتدت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم فقال لشهاب الدين بعض خواصه قد انكسرت الميمنة والميسرة فانج بنفسك لئلا يهلك المسلمون فأخذ شهاب الدين الرمح وحمل على الهنود فوصل الى الفيلة فطعن فيلا منها في كتفه وجرح الفيل لا يندمل فلما وصل شهاب الدين الى الفيلة زرقه بعض الهنود بحربة فوقعت الحربة في ساعده فنفذت الحربة من الجانب الآخر فوقع حينئذ الى الارض فقاتل عليه أصحابه ليخلصوه وحرصت الهنود على أخذه وكان عنده حرب لم يسمع بمثله وأخذه أصحابه فركبوه فرسه وعادوا به منهزمين فلم يتبعهم الهنود فلما أبعدوا عن موضع الوقعة بمقدار فرسخ أغمي على شهاب الدين من كثرة خروج الدم فحمله الرجال على أكتافهم في محفة اليد أربعة وعشرين فرسخا فلما وصل الى لهاوور أخذ الامراء الغورية وهم الذين انهزموا ولم يثبتوا وعلق على كل واحد منهم عليق شعير وقال أنتم دواب ما أنتم أمراء وسار الى

من طريقين * وشغلوهم بالباس من الجانبين * ومهما جد الكفاح بين الفريقين أمر السلطان بحملة على الكفار في مخاضات النهر الهائل * والماء المصخب السائل * تزعجهم عن طرف الساحل * وتقحمهم أشداق تلك الشعاب والمداخل واشتدت الحرب ضربا بالخناجر في الحناجر وبالقواضب في المناكب وأولياء الله في كل حال ظاهرون * والكافرون هم الصاغرون * حتى اذا كاد يهرم شباب النهار حمل المسلمون من جميع الجهات حملة أوجرت بهم لهوات تلك المخارم مضطرين نفضوا الفيلة التي كانوا بها معتزين * وتبعها أولياء الله يردون الاعظم فالاعظم منها الى موقف السلطان فلم يفتهم الا ما جد في الهرب أوضاق دون اقتناصه

غزنة وأمر بعضهم فمشى اليها ماشيا فلما وصل الى غزنة أقام بها ليستريح الناس ونذكر ما فعله
بملك الهند الذي هزمه سنة ثمان وثمانين ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في ربيع الاول قتل مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب وهو أستاذ دار الخليفة أمر الخليفة بقتله وكان متحكما في الدولة ليس للخليفة معه حكم وكان هو القيم بالبيعة له وظهر له أموال عظيمة أخذ جميعها وكان حسن السيرة عفيفا عن الاموال وكان الذي سعى به انسان من أصحابه وصنائعه يقال له عبيد الله بن يونس فسعى به الى الخليفة وقبح آثاره فقبض عليه وقتله وفيها في ربيع الآخر وقع حريق في الخطابين ببغداد احترقت أحطاب كثيرة وسببه أن فقيها بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعاما يأكله فغفل عن النار والطبيخ فعلقت النار واتصلت فاحترقت جميعها واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره وفيها في شوال استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ولقبه جلال الدين ومشى أرباب الدولة في ركابه حتى قاضي القضاة وكان ابن يونس من شهوده وكان يمشي ويقول لعن الله طول العمر وفيها في المحرم توفي عبد المغيث بن زهير الحربي ببغداد وكان من أعيان الحنابلة قد سمع الحديث الكثير وصنف كتابا في فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزي وكان بينهما عداوة وفيها توفي قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغاني وولي القضاء للمقتفي بعد موت الزينبي ثم للمستنجد بالله ثم عزل ثم أعيد الى المستضيء بأمر الله وفيها توفي علي بن خطاب بن ظفر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر وكان من الاولياء أرباب الكرامات وصحبته أنا مدة فلم أر مثله حسن خلق وسمت وكرم وعبادة رحمه الله وفيها ولدت امرأة من سواد بغداد بنتا لها اسنان وفيها توفي نصر بن فتيان بن مطر أبو الفتح بن المني الفقيه الحنبلي لم يكن لهم مثله رحمه الله تعالى

م

مجال الطلب * وصب من دماء أولئك الارجاس ما نجس به النهر الحاجز على طهارته * وامتنع من الشرب على غزارته * ولولا أن الليل ستر أثرهم * لاستلحم القتل أكثرهم * صنعا للدين بعث به رسوله المصطفى * صلى الله عليه وعلى آله الذين ارتضى * مظهرا له على الدين كله ولو كره المشركون فهو على الازدياد * الى يوم التناد * وانصرف السلطان بأولياء الله غانما موفورا * وظاهرا منصورا * محمودا كاسمه مأجورا * وقد غنم ما يكل عن ذكره أنامل التحرير ويضيق عن اثباته أدراج الاضابير * وتطايرت البشائر في الآفاق * وخفقت عليها أجنحة الغروب والاشراق * والحمد لله رب العالمين * على عز الاسلام والمسلمين

{تم الجزء الحادي عشر من تاريخ الكامل لابن الاثير ويليه
الجزء الثاني عشر أوله ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة}



فهرسة الجزء الثانى عشر من تاريخ الكامل

صحيفة

صحيفة		صحيفة	
	الى عكا	٤٣	ذكر عدة حوادث
٢٨	ذكر ملك الفرنج عكا	٤٤	(سنة تسعين وخمسمائة)
٢٩	ذكر رحيل الفرنج الى ناحية عسقلان وتخريبها	٤٤	ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندى
٣١	ذكر رحيل الفرنج الى نطرون	٤٤	ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزمشاه الرى ووفاة أخيه سلطانشاه
٣١	ذكر مسير صلاح الدين الى القدس	٤٥	ذكر مسير وزير الخليفة الى خوزستان وملكها
٣٢	ذكر عود الفرنج الى الرملة	٤٦	ذكر حصر العزيز مدينة دمشق
٣٢	ذكر قتل قزل ارسلان	٤٦	ذكر عدة حوادث
٣٢	ذكر عدة حوادث	٤٦	(سنة احدى وتسعين وخمسمائة)
٣٣	(سنة ثمان وثمانين وخمسمائة)	٤٦	ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم
٣٣	ذكر عمارة الفرنج عسقلان	٤٧	ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس
٣٣	ذكر قتل المركيس وملك الكندهرى	٤٨	ذكر فعلة الملثم بأفريقية
٣٤	ذكر نهب بنى عامر البصرة	٤٩	ذكر ملك عسكر الخليفة اصفهان
٣٤	ذكر ما كان من ملك انكلتار	٤٩	ذكر ابتداء حال كوكجه وملكه بلد الرى وهمذان وغيرها
٣٤	ذكر استيلاء الفرنج على عسكر للمسلمين وقفل	٤٩	ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها
٣٥	ذكر مسير الافضل والعادل الى بلاد الجزيرة	٥٠	ذكر عدة حوادث
٣٥	ذكر عود الفرنج الى عكا	٥٠	(سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة)
٣٥	ذكر ملك صلاح الدين يافا	٥٠	ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلاد الهند
٣٦	ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين الى دمشق	٥١	ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الافضل
٣٧	ذكر وفاة قلج ارسلان	٥٢	ذكر عدة حوادث
٣٨	ذكر ملك شهاب الدين اجمير وغيرها من الهند	٥٢	(سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة)
٣٩	ذكر عدة حوادث	٥٢	ذكر ارسال الامير أبى الهيجاء الى همذان وما فعله
٤٠	(سنة تسع وثمانين وخمسمائة)	٥٢	ذكر ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها
٤٠	ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته		
٤١	ذكر حال أهله واولاده بعده		
٤١	ذكر مسير أتابك عز الدين الى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه		
٤٢	ذكر وفاة أتابك عز الدين وشئ من سيرته		
٤٣	ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط		

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

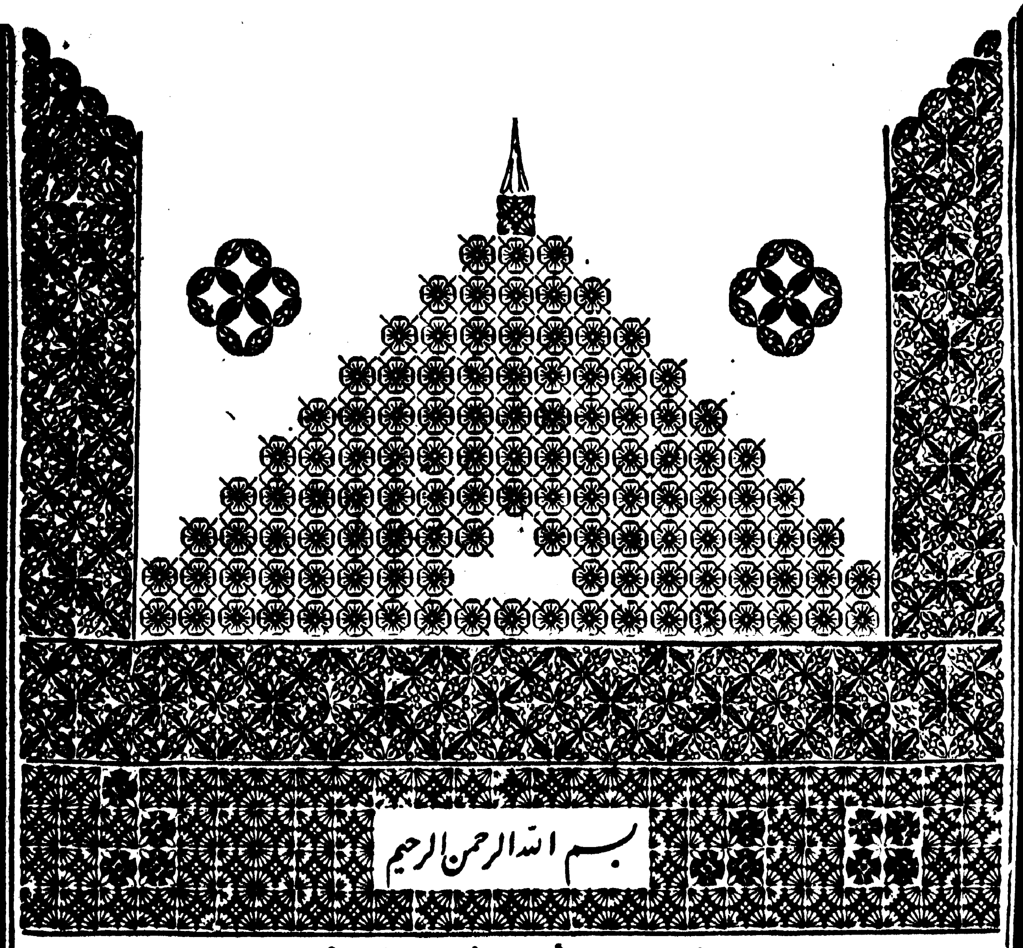
صحيفة

صحيفة

(تمت)

الجزء الثاني عشر من تاريخ الكامل للعلامة أبي الحسن علي ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري الملقب بعز الدين رحمه الله

(وبهامشه تاريخ أبي نصر العتبي رحمه الله تعالى)



بسم الله الرحمن الرحيم

(ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر صلاح الدين كوكب)

فى هذه السنة فى المحرم انصرم الشتاء فسار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر الى قلعة كوكب لحصرها ونازلها ظنامنه ان ملكها سهلا وان أخذها عجلا وهو فى قلة من العسكر متيسر فلما رآها عالية منيعة والوصول اليها متعذر وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد لان البلاد الساحلية من عكا الى جهة الجنوب كانت قد ملكت جميعها ماعدا هذه الحصون وكان يختار أن لا يبقى فى وسطها مايشغل قلبه ويقسم همه ويحتاج الى حفظه وابلا ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم فلما حصر كوكب ورآها منيعة يبطئ ملكها وأخذها رحل عنها وجعل عليها قايماز النجمى مستديما لحصاره وكان رحيله عنها فى ربيع الاول وأتاه رسل الملك قلج ارسلان وقزل ارسلان وغيرهما يهنئونه بالفتح والظفر وسار من كوكب الى دمشق ففرح الناس بقدومه وكتب الى البلاد جميعا باجتماع العساكر بها وأقام بها الى ان سار الى الساحل بالبلاد الشامية

(ذكر رحيل صلاح الدين الى بلاد الفرنج)

لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عنده القاضى الفاضل مودعاله ومستشيرا وكان مريضا وودعه وسار عن دمشق منتصف ربيع الاول الى حمص فنزل على بحيرة قدس غربى حمص وجاءته العساكر فأول من أتاه من أصحاب الاطراف عماد الدين زنكى بن مودود بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور وتلاحقت العساكر من الموصل وديار الجزيرة

وغيرها

(ذكر الوزير ابى العباس الفضل بن أحمد وما انتهت اليه حاله الى أن مضى لسبيله) *قد كان الوزير أبو العباس الفضل بن أحمد من خاصة فائق الملقب بعميد الدولة ومن كفاة بابه وثقات أصحابه وكان على البريد بمرو أيام سالارية السلطان يمين الدولة بنيسابور ورفعى الى ناصر الدين سبكتكين خبر

وغيرها فاجتمعت عليه وكثرت عنده فسار حتى نزل تحت حصن الاكراد من الجانب الشرقي
وكنت معه حينئذ فأقام يومين وسار جريدة وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن ودخل
الى بلد الفرنج فأغار على صافيثا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد والولايات ووصل الى
قريب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها واين يسلك منها ثم عاد الى معسكره سالما
وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها ما لا حد له واقام تحت حصن الاكراد الى
آخر ربيع الآخر

(ذكر فتح جبلة)

لما أقام صلاح الدين تحت حصن الاكراد أتاه قاضي جبلة وهو منصور بن نبيل يستدعيه اليه
ليسلمها اليه وكان هذا القاضي عند بيمند صاحب انطاكية وجبلة مسموع الكلمة له الحرمة
الوافرة والمنزلة العالية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها وعلى ما يتعلق بالبيمند فحملته
الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح
الدين معه رابع جمادى الاولى فنزل بانطرطوس سادسه فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة واحتموا
في برجين حصينين كل واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم
وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم وكان الداوية باحد البرجين فحصرهما صلاح الدين
فنزل اليه من في احد البرجين بامان وسلموه فأمنهم وخرب البرج وألقى حجارته في البحر وبقي
الذي فيه الداوية لم يسلموه وكان معهم مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف وكان قد
أطلقه لما ملك البيت المقدس فهو الذي حفظ هذا الحصن فخرب صلاح الدين ولاية انطرطوس
ورحل عنها وأتى مرقية وقد أخلاها اهلها ورحلوا عنها وساروا الى المرقب وهي من حصونهم
التي لا ترام ولا تحدث أحدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه وهو للاسبتار والطريق تحته فيكون
الحصن على يمين المجتاز الى جبلة والبحر عن يساره والطريق مضيق لا يسلكه الا الواحد بعد
الواحد فاتفق ان صاحب صقلية من الفرنج قد سير نجدة الى فرنج الساحل في ستين قطعة من
الشواني وكانوا بطرابلس فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤا ووقفوا في البحر تحت المرقب في
شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات
فصفت على الطريق مما يلي البحر من اول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة فمنعوا الفرنج
من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة ثامن عشر
جمادى الاولى وتسلمها وقت وصوله وكان قاضيها قد سبق اليها ودخل فلما وصل صلاح الدين
رفع أعلامه على سورها وسلمها اليه وتحصن الفرنج الذين كانوا بها بحصنها واحتموا بقلعتها فما
زال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الامان وان يأخذ رهائنهم يكونون
عنده الى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة وكان بيمند صاحبها قد أخذ رهائن
القاضي ومسلمي جبلة وتركهم عنده بانطاكية فأخذ القاضي رهائن الفرنج وجاء رؤساء
أهل الجبل الى صلاح الدين بطاعة أهله وهو من امنع الجبال واشقها مسلكا وفيه حصن
يعرف ببكسرايل بين جبلة ومدينة حماة فملكه المسلمون وصار الطريق في هذا الوقت عليه من
بلاد الاسلام الى العسكر وكان الناس يلقون شدة في سلوكه وقرر صلاح الدين احوال جبلة

قوته وأمانته فكتب الى
الرضي يستوهبه لوزارة
السلطان وكفاية
أعماله وتدبير أموره وامواله
ورجاله فأوجب اجابته الى
ملتمسه وخوطب بالبدار
الى نيسابور على مقتضى
مثاله فاعتمده السلطان
للوزارة واستكفاه
مهمات الامارة بعد ان
كان يرى مقام الشيخ الجليل
شمس الكفاة أبي القاسم
أحمد بن الحسن كتابة وحسابة
واصالة واصابة وهداية
ودراية وحماية وجباية اذ لم
يكن على طراءة شبابه بين
لداته أغنى منه غناء
وامضى مضاء واذكى ذكاء
وأدهى دهاء غير أن الامير
سبكتكين جنى عليه في أبيه
عند اعتماده لوزارة بست
وتدبير اعمالها واموالها
جناية سبق السيف فيها
العذل اصغاه منه الى
عداته فيما شققوه فيه من
رقيعة ولفقوه عليه من
سعاية ووقيعة فاستوحش
منه استيحاشا من بادرة فعله
والمسيء نفور والقلوب
عن ذوي الاساءة صور وكره
السلطان الاستبداد على ابيه
في استصابه حسب ارتضائه

وجعل فيها لحفظها الامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها

(ذكر فتح لاذقية)

لما فرغ السلطان من أمر جبلة وسار عنها الى لاذقية فوصل اليها فى الرابع والعشرين من جمادى الاولى فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين اللتين فيهما الفرنج وزحفوا اليهما ونقبوا الاسوار ستين ذراعا وعلقوه وعظم القتال واشتد الامر عند الوصول الى السور فلما أيقن الفرنج بالعطب ودخل اليهم قاضى جبلة فخوفهم من المسلمين فطلبوا الامان فأمنهم صلاح الدين ورفعوا الاعلام الاسلامية الى الحصنين وكان ذلك فى اليوم الثالث من النزول عليها وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه فخرب المسلمون كثيرا منها ونقلوا رخامها وشعثوا كثيرا من بيعها التى قد غرم على كل واحد منها الاموال الجليلة المقدار وسلمها الى ابن أخيه تقى الدين عمر فعمرها وحصن قلعتها حتى اذا رآها اليوم من رآها ينكرها فلا يظن ان هذه تلك وكان عظيم الهمة فى تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة

(ذكر حال اسطول صقلية)

لما نازل صلاح الدين لاذقية وصل اسطول صقلية الذى تقدم ذكره فوقف بازاء مينا الاذقية فلما سلمها الفرنج الذين بها الى صلاح الدين عزم اهل هذا الاسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها غيظا وحنقا حيث سلموها سريعا فسمع بذلك اهل لاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية وكان سبب مقامهم ثم أن مقدم هذا الاسطول طلب من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الارض بين يديه وقال ما معناه انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به فيعظم عليك الامر ويشتد الحال فأجابهم صلاح الدين بنحو من كلامه من اظهار القوة والاستهانة بكل من يجىء من البحر وانهم ان خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

(ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون)

ثم رحل صلاح الدين عن لاذقية فى السابع والعشرين من جمادى الاولى وقصد قلعة صهيون وهى قلعة منيعة شاهقة فى الهواء صعبة المرتقى على قرنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق فى بعض المواضع بحيث ان حجر المنجنيق يصل منه الى الحصن الا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال وقد عملوا لها خندقا عميقا لا يرى قعره وخمسة أسوار منيعة فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدم الى ولده الظاهر صاحب حلب فنزل على المكان الضيق من الوادى ونصب عليه المنجنيقات ايضا فرمى الحصن منه وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير وهم فى الشجاعة بالمنزلة المشهورة ودام رشق السهام من قسى اليد والجرخ والزنبورك والزيار فجرح اكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع وزحف المسلمون اليهم ثانى جمادى الآخرة فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج احكامها

فتسلقوا

واستكفائه وفق المجبور من وفائه طاعة له فى اختياره واتباعا الفلك رأيه تحت مداره وقضى الله بان يكون ما يليه حتى يعترف خراسان بانه عذيقه المرجب وجذيله المحكك يتتبع ما يفسده الغير بالاستصلاح ويستدرك ما أحرضته يد الاجتياح ويداوى كل داء بدوائه ويرد غائر الماء الى لحائه فأجرى أبو العباس الامور مجاريها على جملة لم يعرف فيها غير الجباية والاستدرار وقصد التوفير دون الاستعمار حتى جبى مالا عظيما سنين عدة اذ كانت خراسان بعد مكسوعة بأغبارها لم يتنزف منها دواعى اللبن ولم ينتزع عنها كوامى السمن فلما احتلبها انتزافا واستنفد ما فى ضرعها اسرافا ومن قبل ما قد حال بينها وبين خصب المراتع وبرد الموارد والمشارع وضعت خراسان له ما على ظهورها من فضول دسم وسمحت بما وراء عظامها من نقى مقتسم حتى صارت من فرط الهزال والعجف كالاهلة الحنية بل

فتسلقوا منها بين الصخور حتى أشرفوا على السور الاول فملكوا منها ثلاثة وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك واحتمى الفرنج بالقلة التي للقلعة فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الامان فلم يجبهم صلاح الدين اليه فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس وتسلم الحصن وسلمه الى أمير يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة ابي قبيس فحصنه وجعله من أحصن الحصون ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحي فملكوا حصن بلاطنوس كان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفا ورعبا وملك ايضا حصن العيذو وحصن الجماهرتين فاتسعت المملكة الاسلامية بتلك الناحية الا ان الطريق اليها من البلاد الاسلامية على عقبة بكسرائيل شاق شديد لان الطريق السهلة كانت غير مسلوكة لان بعضها بيد الاسماعيلية وبعضها بيد الفرنج

(ذكر فتح حصن بكاس والشغر)

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل الى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد اخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدم الى قلعة الشغر وهي وبكاس على الطريق السهل المسلوك الى لاذقية وجبلة والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الاسلامية فلما نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام ولا يوصل اليها بطريق من الطرق الا انه امر بمزاحفتهم ونصب المنجنيق عليهم ففعلوا ذلك ورمى بالمنجنيق فلم يصل من أحجاره الى القلعة شئ الا القليل الذي لا يؤذي فبقي المسلمون عليه اياما لا يرون فيه طمعا واهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرر يتطرق اليهم وبلاء ينزل عليهم فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة واعمال الحيلة في الوصول اليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا فقال صلاح الدين أو يأتي الله بنصر من عنده وفتح فبينما هم في هذا الحديث اذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الامان لرسول يحضر عند صلاح الدين فاجيب الى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثة ايام فان جاءهم من يمنعهم والا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك فأجابهم اليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به فلما كان اليوم الثالث سلموها اليه واتفق انه يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة وكان سبب استمهالهم انهم أرسلوا الى البيمند صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له يعرفونه انهم محصورون ويطلبون منه أن يرحل عنهم المسلمين فان فعل والا سلموها وانما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم والا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل اليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضا فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه الى أمير يقال له قلج وأمره بعمارته ورحل عنه

(ذكر فتح سرمينية)

لما كان صلاح الدين مشغولا بهذه القلاع والحصون سير ولده الظاهر غازي صاحب حلب فحصر سرمينية وضيق على اهلها واستنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما انزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وعفى أثره وعالي بنيانه وكان فيه وفي هذه الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة وكان فتحه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة واتفق ان فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة الى سرمينية مع كثرتها

الاخلة المبرية وتداعى بالخراب معظم الضياع ووقفت القنى بين القصور والانقطاع وشرد في البلاد أكثر الاكرة والزراع نعم دهاه هذا الجار بذنب الجار وألزم القار مؤنة القار حتى عمت البلوى وعمت الشكوى وشملت خراسان نوائب البوس وذهبت حرائب النفوس وصدمتهم سنة القحط بعقبها فصار الغني محسورا والمتوسط مفقورا والفقير مقبورا وكان أمر الله قدرا مقدورا وبقيت في رقاب خراسان بقايا كل متعذر ومتكسر وتاو ومتحير لو أذيت عن آخر ذفرة منها لم يف بعضها فضلا عما جمعته أقلام الاستيفاء منها فاظهر السلطان تحيرا من تحير الاموال وتراجع الارتفاعات فطالب الوزير منها بما اقتطعه وأتواه وضيعه وهو يرجع القول على سبيل الدالة بين البراءة والاحالة فهما عضه العتب بنقابه أظهر الاستعفاء وطلب الى نفسه البلاء وأسلم النفس اختيارا وآثر الحبس قرارا

كان فى ست جمع مع انها فى أيدى اشجع الناس واشدهم عداوة للمسلمين فسبحان من اذا أراد أن يسهل الصعب فعل وهى جميعها من أعمال انطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك وسيأتى ذكرها ان شاء الله تعالى فى مكانه

●(ذكر فتح برزيه)●

لما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار الى قلعة برزيه وكانت قد وصفت له وهى تقابل حصن افامية وتناصفها فى اعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصى وعيون تتفجر من جبل برزيه وغيره وكان اهلها أضر شئ على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون فى الاذى فلما وصل اليها نزل شرقيها فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ركب من الغد وطاف عليها ينظر موضعا يقاتلها منه فلم يجده الا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة فانها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته وأما جهة الغرب فان الوادى المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعا كثيرا حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام فنزله المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ونصب أهل القلعة عليها منجنيقا ابطلها ورأيت انا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لا يصل منه شئ اليها امرأة ترمى من القلعة عن المنجنيق وهى التى أبطلت منجنيق المسلمين فلما رأى صلاح الدين ان المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة اهلها بجموعه فقسم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم فاذا تعبوا وكلوا عادوا وزحف القسم الثانى فاذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا فانهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسمون كذلك فاذا تعبوا وأعيوا اسلموا القلعة فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم احد الاقسام وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار وزحفوا وخرج الفرنج من حصنهم فقاتلهم على فصيلهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنويات والطارقيات ومشوا اليهم حتى قربوا الى الجبل فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فانهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج الى أسفل الجبل فلا يقوم لها شئ فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثانى وكانوا جلوسا ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاص فقاتلوا قتالا شديدا وكان الزمان حرا شديدا فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقى الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوهم الى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم اليهم وبيده جماق يردهم وصاح فى القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا اخوانهم وزحفوا معهم فجاء الفرنج ما لا قبل لهم به وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا فقاموا ايضا معهم فحينئذ اشتد الامر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحر والقتال فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون

وتوسط الملا بين السلطان وبينه على أن يجبر بعض المنكسر من خالص ماله مما استفضله طول وزارته من مرافق أعماله فأبى أن ينزل عن درهم الابعزله وحبسه أنى شاء من قلاعه صنيع المتبرم بالعمل المتنغص بالامل المستسلم للبلية المتمسك بالمنية واختار عند ذلك السلطان الدهقان أبا اسحق محمد بن الحسين وهو اذ ذاك رئيس بلخ لصحابة الديوان واستنظاف البقايا على العمال والسكان وانهضه اليها سنة احدى وأربعمائة فانحدر الى هراة وجبى من الاموال ما درت أخلافه ولانت على المرء أعطافه ولم يلبث الا يسيرا حتى حمل حملا كثيرا والوزير أبو العباس بعد فى صدر الوزارة والشيخ الجليل أبو القاسم يسعى بينه وبين السلطان على سبيل السفارة يروم استصلاحه اياه كى يسد به مكانه ويستد الى عرض الاستقامة شانه وهو يأبى سوى اللجاج فيما القاه القول من حدة المزاج حكما من الله

معهم وكان طائفة قليلة فى الخيام شرقى الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لانهم
لم يروا فيه مقاتلا ولم يكثروا فى الجهة التى فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم
يمنعهم مانع فصعدوا أيضا الحصن من الجهة الاخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج
فملكوا الحصن عنوة وقهرا ودخل الفرنج القلة التى للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها
وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين الى سطح القلة وأرجلهم فى القيود
والخشب المثقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين فى نواحى القلعة كبروا فى سطح القلة وظن الفرنج
ان المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا والقوا بايديهم الى الاسر فملكها المسلمون عنوة
ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله وامست خالية لا ديار بها وألقى
المسلمون النار فى بعض بيوتهم فاحترقت * ومن أعجب ما يحكى من السلامة انى رأيت رجلا من
المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالى القلعة الى طائفة أخرى من المسلمين
جنوبى القلعة وهو يعدو فى الجبل عرضا فالقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه
فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة فاسترجع
الناس وجاء الحجر اليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت فى الارض فوق
الرجل فضربه المنحدر فارتفع عن الارض وجاز الرجل ثم عاد الى الارض من جانبه الآخر
لم ينله منه اذى ولا ضرر وقام يعدو حتى لحق باصحابه فكان سقوطه سبب نجاته فتعست ام
الجبان وأما صاحب برزية فانه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها
فتفرقهم العسكر فارسل صلاح الدين فى الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم
ببعض فلما قارب انطاكية أطلقهم وسيرهم اليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة
بيمند صاحب انطاكية وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الاحوال التى تؤثر
فأطلق هؤلاء لاجلها

(ذكر فتح دربساك)

لما فتح صلاح الدين حصن برزية رحل عنه من الغد فأتى جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب
من انطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف عنه من عسكره ثم سار عنه الى قلعة دربساك
فنزل عليها ثامن رجب وهى من معاقل الداوية الحصينة وقلاعهم التى يدخرونها لحماية
نزول الشدائد فلما نزل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فهدمت من سورها شيئا
يسيرا فلم يبال من فيه بذلك فامر بالزحف عليها ومهاجمتها فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها
وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم النقابون فنقبوا منها برجا وعلقوه فسقط واتسع المكان
الذى يريد المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك ثم باكروا الزحف من الغد وكان من فيه قد
أرسلوا الى صاحب انطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينتظرون جوابه اما
بانجادهم وازاحة المسلمين عنهم واما بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم فى التسليم فلما علموا عجزه عن
نصرتهم وخافوا هجوم المسلمين عليها وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم طلبوا
الامان فامنهم على شرط أن لا يخرج أحد الا بثيابه التى عليه بغير مال ولا سلاح ولا اثاث بيت
ولا دابة ولا شئ مما بها ثم أخرجهم منه وسيرهم الى انطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب

تعالى لم يسع أحدا رده
وقضا سابقا أعيا العالمين
صده وما زالت هذه حاله
لزوما للصدر على ما به من
ضعة القدر الى أن ركب
بنفسه الى قلعة غزنة
مستروحا بزعمه الى الاعتقال
عما تولاه ومتنصلا بجملة
ما حواه واقتناه فلم يسمع
بمثله رجلا يشترى الحبس
اختيارا ويستقبل صرف
الزمان بدارا وغاظ السلطان
ما أتاه فاستبدله الخط بغرامة
ما جناه على أمواله ورعاياه
فبذل خطه بمائة ألف دينار
ثم لم يزل يستدرا الى أن عرض
حال الفاقه وعدم الطاقه
ثم استحلفه السلطان بحياة
راسه على ظاهر افلاسه
وعلى اغلاق دمه ان وجده
على الطلب مالا مفرقا ومجمعا
ومدفونا ومستودعا وبقى
على جملة بثيابه أولاده معفى
عن الارهاق والتعنيف
مصونا عن التحامل والتكليف
الى أن ظهر على ماذكره
مال عند بعض التجار ببلخ
فأخذوه وأمر بوضع الحق
عليه لاستصفائه واستخراج
ما وراه بنفسه وذمائه وما

(ذكر فتح بغراس)

ثم سار عن دربساك الى قلعة بغراس فحصرها بعد ان اختلف أصحابه في حصرها فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من انطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج أن يكون أكثر العسكر في اليزك مقابل انطاكية فاذا كان الامر كذلك قل المقاتلون عليها ويتعذر الوصول اليها فاستخار الله تعالى وسار اليها وجعل أكثر عسكره يزكا مقابل انطاكية يغيرون على أعمالها وكانوا حذرين من الخوف من أهلها ان غفلوا لقربهم منها وصلاح الدين في بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المنجنيقات فلم يؤثر فيها شيأ لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم الا ان صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء اليها فخفف الامر عليهم فبينما هو على هذه الحال اذ قد فتح باب القلعة وخرج منها انسان يطلب الامان فاجيب الى ذلك فاذن له في الحضور فحضر وطلب الامان لمن في الحصن حتى يسلموه اليه بما فيه على قاعدة دربساك فاجابهم الى ما طلبوا فعاد الرسول ومعه الاعلام الاسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر صلاح الدين بتخريبه فخرب وكان ذلك مضرة عظيمة على المسلمين فان ابن ليون صاحب الارمن خرج اليه من ولايته وهو مجاوره فجدد عمارته واتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأذى بهم السواد الذي لحلب وهو الى الآن بايديهم

(ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية)

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها فخاف البيمند صاحبها من ذلك وأشفق منه فارسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة وبذل اطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار من عنده من أصحاب الاطراف وغيرهم فأشار أكثرهم باجابته الى ذلك ليعود الناس ليستريحوا ويجددوا ما يحتاجون اليه فاجاب الى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر أولها أول تشرين الاول وآخرها آخر ايار وسير رسوله الى صاحب انطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الاسرى وكان صاحب انطاكية في هذا الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا فانه كان الفرنج قد سلموا اليه طرابلس بعد موت القمص وجميع أعمالها مضافا الى ما كان له لان القمص لم يخلف ولدا فلما سلمت اليه طرابلس جعل ولده الاكبر فيها نائبا عنه وأما صلاح الدين فانه عاد الى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منها الى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار والخابور وعسكر الموصل وغيرها ثم رحل من حلب الى دمشق وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي وكان مقيما هناك وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة وكان مع صلاح الدين الامير عز الدين أبو الفليتة قاسم بن المهنا العلوي الحسيني وهو أمير مدينة النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه وكان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبته وكان يكرمه كثيرا وينبسط معه ويرجع الى قوله في أعماله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فاشير عليه بتفريق العساكر فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وقد بقي

بقي من رمق جاهه وثمانه واتفقت للسلطان غزوة حالت بينه وبين مشاهدة حاله واستبراء ما يصدق أو يكذب من مقاله والدهر يستمر به على الدوم وينال منه يوما بيوم حتى اتاه أجله وحاق به ما كان يستعجله وذلك في سنة اربع واربعمائة ولما عاد السلطان وراءه ساءه ما سمع فيه وهيهات اين من المساءة روح مطموسه ونفس بين أطباق الثرى مرموسه كذلك من آثر المخلوق على الخالق ولم يعتبر بالماضين في الزمن السابق وقد أدرك له في صدر وزارته ولد يعرف بأبي القاسم محمد بن الفضل فبرع على ميعة الشباب في وجوه الفضائل والآداب حتى استطار ذكره واستطال قدره واستفاض نظمه ونثره فمن شعره في أبيه قوله من قصيدة

لقد أبى أبو العباس جودا
على جود الربيع لمعتفيه
ففي احدى يديه ممات قوم
وفي الاخرى الحياة لمرتجيه
لقد خضعت لك الدنيا ودانت
فهل مرقى سواه فترتقيه

يد الفرنج هذه الحصون كوكب وصفد والكرك وغيرها ولا بد من الفراغ منها فانها في وسط
بلاد الاسلام ولا يؤمن شر أهلها وان أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم

(ذكر فتح الكرك وما يجاوره)

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرا يحصره فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك في جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعا على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو الى درب ساك وبغراس فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة اليه ويطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر الذي يحصرها في المعنى فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضا ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الاسلام هناك جرانه وأمنت قلوب من في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فانهم كانوا من تلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين

(ذكر فتح قلعة صفد)

لما وصل صلاح الدين الى دمشق وأشير عليه بتفريق العساكر قال لابد من الفراغ من صفد وكوكب وغيرها أقام بدمشق الى منتصف رمضان وسار عن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المجانيق وأدام الرمي اليها ليلا ونهارا بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قارب ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى في المدة التي كانوا فيها محاصرين فان عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم كما ذكرناه فلما رأى أهله جد صلاح الدين في قتالهم خافوا أن يقيم الى أن يفنى ما بقي معهم من أقواتهم وكانت قليلة ويأخذهم عنوة ويهلكهم أو انهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم فارسلوا يطلبون الامان فامنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا الى مدينة صور وكفى الله المؤمنين شرهم فانهم كانوا وسط البلاد الاسلامية

(ذكر فتح كوكب)

لما كان صلاح الدين يحاصر صفد اجتمع من بصور من الفرنج وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولو انها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على انفاذ نجدة لها سرا من رجال وسلاح وغير ذلك فاخرجوا مائتي رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدر الله تعالى ان رجلا من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيدا فالتقى رجلا من تلك النجدة فاستغرب به بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وما الذي أقدمه الى هناك فأقر بالحال ودله على أصحابه فعاد الجندي المسلم الى قايماز النجمي وهو مقدم ذلك العسكر فأعلمه الخبر والفرنجي معه فركب في طائفة من العسكر الى الموضع الذي قد اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم في الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الاسبتار فحملوا الى صلاح الدين وهو على صفد فاحضرهما ليقتلهما وكانت عادته قتل الداوية والاسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما ما أظن ينالنا

وأقبل نحوك الاقبال حتى
غدا بصرا وأنت النور فيه
فنوروز ألف نيروز سعيدا
رفيع الجد في عيش رفيه

وله أحجية

وزنجية قادت الى القوم بضة
لينكحها من كان يعشقها قدما
* فقام اليها واحد بعد واحد
ولم نرذ ما فعلهم لا ولا اثما

وأدركته حرفة الادب فاختطفته يد المنية أنضر ما كان عودا * وأثبته عودا وأبهره سعودا * وأجده قياما وقعودا * وحكى لي بعض أصحابه انه أصبح ذات يوم يروي بيتين تلقنهما في النوم وهي

أرى الدنيا وزخرفها ككاس
تدور على اناس من اناس
فلا تبقى على أحد كما لا
يدوم بقاؤها في كف حاس

فتطير له منهما ولما قضى نحبه زاد أبو الحسن الموصلي الكاتب فيه أبياتا وهي

أبعد محمد بن الفضل أرجو
أمانا لي من الدهر العماس
أساس الفضل كان به فأودى
وأبقى الفضل منهدم الاساس
فتى في نثره والنظم أربى
على ابن نوابة وأبي نواس

سوء وقد نظرنا الى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا ولما فتح صفد سار عنها الى كوكب ونازلها وحصرها وأرسل الى من بها من الفرنج يبذل لهم الامان ان سلموا ويتهددهم بالقتل والسبي والنهب ان امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجد في قتالهم ونصب عليهم المجنيقات وتابع رمي الاحجار اليهم وزحف مرة بعد مرة وكانت الامطار كثيرة لا تنقطع ليلا ولا نهارا فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه وطال مقامهم عليها وفي آخر الامر زحف اليها دفعات متناوبة في يوم واحد ووصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والجروخ فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من اعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الاعلى فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف ذي القعدة وسيرهم الى صور فوصلوا اليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل الى من بالاندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويستنجدون والامداد كل قليل تأتيهم وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في اطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما واسفا حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد ايلة الى اقصى أعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور وجميع اعمال انطاكية سوى القصير ولما ملك صلاح الدين صفد سار الى البيت المقدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار منه الى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة

(ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر)

في هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة عدتهم اثنا عشر رجلا ليلا ونادوا بشعار العلويين يال علي يال علي وسلكوا الدروب ينادون ظنا منهم ان رعية البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم فيعيدون الدولة العلوية ويخرجون بعض من بالقصر محبوسا منهم ويملكون البلد فلم يلتفت أحد منهم اليهم ولا أعارهم سمعه فلما رأوا ذلك تفرقوا خائفين فأخذوا وكتب بذلك الى صلاح الدين فأهمه أمرهم وازعجه فدخل عليه القاضي الفاضل فأخبره الخبر فقال القاضي الفاضل ينبغي أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتم حيث علمت من بواطن رعيتك المحبة لك والنصح وترك الميل الى عدوك ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن اصحابك ورعيتك وخسرت الاموال الجليلة عليهم لكان قليلا فسري عنه وكان هذا القاضي الفاضل صاحب دولة صلاح الدين واكبر من بها وستأتي مناقبه عند وفاته ما تراه

(ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل)

في هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله عسكرا كثيرا وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس وسيرهم الى مساعدة قزل ليكف الناس طغرل عن البلاد فسار العسكر ثالث صفر الى أن قارب همذان فلم يصل قزل اليهم وأقبل طغرل اليهم فالتقوا ثامن ربيع الاول بداي مرج عند همذان واقتتلوا فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا وثبت الوزير قائما ومعه مصحف وسيف فأتاه من عسكر طغرل من أسره واخذ ما معه من خزانة

وسلاح

رأى في النوم معجزة جرير يقصر دونها وأبو فراس
سأحفظ عهده مادمت حيا وحفظ العهد من كرم النحاس
ورثاه بعض اهل العصر
ياعين جودي بدم ساجم على الفتى الحر أبي القاسم
قد كاد أن يهدمني فقده لولا التسلي بأبي القاسم

وقد سد الله مكان الماضين بأبي الحسن علي بن الفضل المعروف بالحجاج بفضل ساطع نوره * وعلم جامع سوره * وحلم ثابت طوره * وجود موكل بانشار آمال الاحرار صوره * فتى السن في حصافة الكهول * جبان الرأي في شجاعة السيول * أدهم البأس في غرة السماحة * فدم الحياء في ذلق الفصاحة * وندب لاعمال الجوزجان فدرت على ابساس ولايته * ونقل الى أعمال نسا فضاقت عن فضفاض كفايته * يصون الاعمال صيانة عرضه عما يصديه * ويحيي الاعمال احياءه شرف أبيه ويميت بدع الرسوم اماتته ذكر اياديه * كما قيل
تسمو الرجال بآباء وآونة

وسلاح ودواب وغيرذلك وعاد العسكر الى بغداد متفرقين وكنت حينئذ بالشام فى عسكر صلاح الدين بريد الغزاة فأتاه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادى فقال كأنكم وقد وصل الخبر بانهزامهم فقال له بعض الحاضرين وكيف ذلك فقال لاشك ان أصحابى واهلى أعرف بالحرب من الوزير وأطوع فى العسكر منه ومع هذا فما أرسل احدا منهم فى سرية للحرب الا وأخاف عليه وهذا الوزير غير عارف بالحرب وقريب العهد بالولاية ولا يراه الامراء اهلا أن يطاع وفى مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه ومن معه يطيعه وكان الامر كذلك ووصل الخبر اليه بانهزامهم فقال لاصحابه كنت أخبرتكم بكذا وكذا وقد وصل الخبر بذلك ولما عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء وهو أحمد بن الواثق بالله

اتركونا من جائحات الجريمه * طلعة طلعة تكون وخيمه
بركات الوزير قد شملتنا * فلهذا أمورنا مستقيمه
خرجت جندنا تريد خراسا * ن جميعا بأهبات عظيمه
بخيول وعدة وعديد * وسيوف مجربات قديمه
ووزير وطاق طنب ونفش * وخيول معدة للهزيمه
هم رأوا غرة العدو وقد أقبل * ولواء واخل عقد العزيمه
وأتونا ولا يخفى حنين * بوجوه سود قباح ذميمه
لو رأى صاحب الزمان ولوعا * بين أفعالهم وقبح الجريمه
قابل الكل بالنكال وناهيـ * ـك بها سبة عليهم مقيمه

كان ينبغي أن تتقدم هذه الحادثة وانما أخرتها لتتبع الحوادث المتقدمة بعضها بعضا لتعلق كل واحدة منها بالاخرى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى شيخنا ابو محمد عبد الله بن على بن عبد الله بن سويدة التكريتى كان عالما بالحديث وله تصانيف حسنة وفيها توفيت سلجوقة خاتون بنت قلج أرسلان بن مسعود بن قلج ارسلان زوجة الخليفة وكانت قبله زوجة نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن فلما توفى عنها تزوجها الخليفة ووجد الخليفة عليها وجدا عظيما ظهر للناس كلهم وبنى على قبرها تربة بالجانب الغربى والى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة وفيها توفى علاء الدين تنامش وحمل تابوته الى مشهد الحسين عليه السلام وفيها توفى خادم الخليفة وكان اكبر أمير ببغداد ومات أبو الفرج بن النقور العدل ببغداد وسمع الحديث الكثير وهو من بيت الحديث رحمه الله

(ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة)

(ذكر فتح شقيف ارنوم)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار صلاح الدين الى شقيف أرنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون فنزل صاحب الشقيف وهو ارناط صاحب صيدا وكان هذا ارناط من أعظم الناس دهاء ومكرا فدخل اليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والمودة وقال له أنا محب لك ومعترف باحسانك واخاف أن يعرف المركيس ما بينى وبينك فينال أولادى واهلى منه أذى فانهم عنده

تسمو الرجال بأبناء وتزدان
كم من اب قد علا بابن ذرى شرف
كما علا برسول الله عدنان

(ذكر وزارة الشيخ الجليل أبي القاسم احمد ابن الحسن الميمندى)

قد كان الشيخ الجليل أبو القاسم يلى ديوان الرسائل للسلطان أيام سالاريته بخراسان وهو الكريم نسبا * العظيم حسبا * العريق مجدا وحريه * الوثيق رايا وروية * ينادى عليه أقطار الارض بفصاحة القلم * وسماحة الشيم ونفاسة الهمم * واحتقار الدينار والدرهم * ودرجه وفاؤه للسلطان على تصاريف الاحوال به الى أن ولاه عرض عساكره * فى اقطار ممالكه وزاده اعمال بست والرخج وما والاهما بأموالها وارتفاعاتها علاوة على ما والاه * فقام بجميع ما تولاه * قيام من وفقه الله وحدا عليه جوده بنى الآمال من اطراف البلاد فوسعهم جداه * وغمرهم نداه * وكتبت لهم امانا من الفقر يداه * فأما مروآته فما يؤمن بالمعجزة الصادقة الصادعة منها الا

فأشتهى أن تمهلنى حتى أتوصل فى تخليصهم من عنده وحينئذ أحضرانا وهم عندك ونسلم الحصن اليك واكون أنا وهم فى خدمتك نقنع بما تعطينا من اقطاع فظن صلاح الدين صدقه فأجابه الى ماسأل فاستقر الامر بينهما أن يسلم الشقيف فى جمادى الآخرة وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيمند صاحب انطاكية فأمر تقى الدين ابن أخيه ان يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتى من بلاد المشرق فيكون مقابل انطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكان أيضا منزعج الخاطر كثير الهم لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بهم من الامداد فى البحر وان ملك الفرنج الذى كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد اصطلح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما وانهم قد اجتمعوا فى خلق لا تحصى فانهم قد خرجوا من مدينة صور الى ظاهرها فكان هذا وأشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه الا انه مع هذه الاشياء مقيم على العهد مع ارناط صاحب الشقيف وكان ارناط فى مدة الهدنة يشترى الاقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفه وكان صلاح الدين يحسن الظن واذا قيل له عنه مما هو فيه من المكر وان قصده المطاولة الى أن يظهر الفرنج من صور وحينئذ يبدى فضيحته ويظهر مخالفته لا يقبل فيه فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره الى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده ارناط وقد بقى من الاجل ثلاثة ايام فقال له فى معنى تسليم الشقيف فاعتذر بأولاده واهله وان المركيس لم يمكنهم من المجىء اليه وطلب التأخير مدة أخرى فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيسا ذكره ليحمل رسالة الى من بالشقيف ليسلموه فاحضروه عنده فساره بما لم يعلموا فمضى ذلك القسيس الى الشقيف فأظهر أهله العصيان فسير صلاح الدين ارناط الى دمشق وسجنه وتقدم الى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه عن الذخيرة والرجال

(ذكر وقعة اليزك مع الفرنج)

لما كان صلاح الدين بمرج عيون وعلى الشقيف جاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكا فى مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها ان الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذى لصور وعزموا على حصار صيدا فسار صلاح الدين جريدة فى شعبان أصحابه سوى من جعله على الشقيف فوصل اليهم وقد فات الامر وذلك ان الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنها لقصدهم فلقيهم اليزك على مضيق هنالك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل من المسلمين ايضا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس فحمل وحده على صف الفرنج فاختلط بهم وضربهم بسيفه يمينا وشمالا فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله ثم ان الفرنج عجزوا عن الوصول الى صيدا فعادوا الى مكانهم

(ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوعة)

لما وصل صلاح الدين الى اليزك وقد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم فى خيمة صغيرة ينتظر عودة

من شاهدها عيانا * واستقى عدول احساسه عليها سبرا وامتحانا * وكان الوزير ابو العباس لا يصدر الا عن رايه ولا يحتشم غيره فى تصاريف عزماته وانحائه * لفخامة شأنه ومكانته * المعمورة من سلطانه وساطته * بينهما فى معظم ما يرجيه ويرجيه * ويحييه ويفنيه * ويذره ويأتيه * ويقدره ويفريه * ولما وهت عليه قوة أمره * وانكسرت سورة خمره * واتفق للسلطان ان يرحل نحو نارايين فى الغزوة التى تقدم ذكرها استخلف الشيخ الجليل ابا القاسم على مهمات بابه * وامداد صاحب الديوان فيما يليه ويجيبه بصواب رايه * وبعثه على مواصلة الحول وغنائه فهو متسم غير متسم بها الى ان اتفق للسلطان * استدعاء صاحب الديوان * فى عمال خراسان لرفع الحسبانات * وتقرير المعاملات * فنهض الى السلطان كل رئيس ومرؤس وشريف ومشروف ومستعمل ومعزول * وسمين ومهزول * قد اتخذوا الطمع

الفرنج لينتقم منهم و يأخذ بثار من قتلوه من المسلمين فركب فى بعض الايام فى عدة يسيرة على أن ينظر الى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى مايشاهده وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة انه على قصد المصاف والحرب فساروا مجدين وأوغلوا فى أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان وراء ظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدة من الامراء يردونهم ويحمونهم الى أن يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا وكان الفرنج قد عندوا ان وراءهم كمينا فلم يقدموا عليهم فأرسلوا من ينظر حقيقة الامر فاتاهم الخبر انهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم مايخاف فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد فقاتلوهم فلم يلبثوا أن افنوهم وقتل معهم جماعة من المعروفين وشق على صلاح الدين والمسلمين ماجرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم فى حق أنفسهم رحمهم الله ورضى عنهم وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل اليهم فى عسكره فحملوا على الفرنج فألقوهم الى الجسر وقد أخذوا طريقهم فألقوا أنفسهم فى الماء فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معه خلق كثير فلما رأى الفرنج ذلك عادوا الى مدينة صور فلما عادوا اليها عاد صلاح الدين الى تبنين ثم الى عكا ينظر حالها ثم عاد الى العسكر والمخيم

(ذكر وقعة ثالثة)

لما عاد صلاح الدين الى العسكر أتاه الخبر ان الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين فكتب الى من بعكا من العسكر وواعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ورتب كمناء فى موضع من تلك الاودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم انهم اذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيأ من قتال ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم فاذا تبعهم الفرنج استجروهم الى أن يجوزوا موضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلوهم وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الامر ودامت الحرب وطال على الكمناء الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكامنهم نحوهم مسرعين واليهم قاصدين فأتوهم وهم فى شدة الحرب فازداد الامر شدة على شدة وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة طى وكانوا يجهلون تلك الارض فلم يسلكوا مسلك أصحابهم فسلكوا الوادى ظنا منهم انه يخرج بهم الى أصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين فلما رآهم الفرنج بالوادى علموا انهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم وأما المملوك فانه نزل عن فرسه وجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو بآخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتا ثم ان المسلمين جاؤا من الغد الى موضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حيا فحملوه فى كساء وهو لايكاد يعرف من الجراحات فأيسوا من حياته وأعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة فتركوه ثم عادوا اليه فرأوه وقد قويت نفسه فاقبلوا عليه بشروب فعوفى ثم كان بعد ذلك لايحضر مشهدا الا كان له فيه الاثر العظيم

والغمض حراما * ووضعوا الارواح على الراح توكلا واستسلاما * ووافق وصولهم ركضة عزمها السلطان الى الهند فصب عليهم لاذناب اهل عسكره بمارآه وكلهم باستخراجه فى يومين لاهتمام الركض وضيق رقعة الوقت فعصبوا عصب السلم * وسلخوا سلخ الغنم * واقيموا على جمرة الضرم * ونكسوا على الهام والقمم * حتى اعتصروها منهم عن تضاعيف اللحم والدم * وعندها صب السلطان على الشيخ الجليل خلعة الوزارة * وفوض اليه مهمات الامارة * وأمره بمحاسبات العمال * ومطالبتهم بما صار فى ذممهم * من الاموال محكما فى الحل والعقد مخيرا بين الاخذ والرد وسار السلطان نحو مقصده * واقبل الشيخ الجليل على ماجعل بصدده * فهذب الامور ونظم المنثور * ووظف الاموال * وصرف العمال * وقد صاحب الديوان ابا اسحق صلى جملته الى خراسان مستوفيا عليهم مايلزمهم من حاصل وباق

(ذكر مسير الفرنج الى عكا ومحاصرتها)

لما كثر جمع الفرنج بصور على ما ذكرناه من ان صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة اعطى أهلها الامان وسيرهم اليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الاموال ما لا يفنى على كثرة الاتفاق في السنين الكثيرة ثم ان الرهبان والقسس وخلقا كثيرا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم وأخذهم البترك الذي كان بالقدس ودخل بهم بلاد الفرنج يطوف بهم جميعا ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الاخذ بثار البيت المقدس وصوروا المسيح عليه السلام وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء فانهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الاقران على ما نذكره ان شاء الله تعالى ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم فاجتمع لهم من الرجال والاموال ما لا يتطرق اليه الاحصاء (ولقد حدثني) بعض المسلمين المقيمين بحصن الاكراد وهو من اجناد أصحابه الذين سلموه الى الفرنج قديما وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه من موافقة الفرنج في الغارة على بلاد الاسلام والقتال معهم والسعي معهم وكان سبب اجتماعي به ما أذكره سنة تسعين وخمسمائة ان شاء الله تعالى قال لي هذا الرجل انه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الاكراد الى البلاد البحرية التي للفرنج والروم في أربع شواني يستنجدون قال فانتهى بنا التطواف الى رومية الكبرى فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني نقرة (وحدثني) بعض الاسرى منهم ان له والدة ليس لها ولد سواه ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنقاذ البيت المقدس فأخذ أسيرا وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده فخرجوا على الصعب والذلول برا وبحرا من كل فج عميق ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الالمان لما خرج على ما نذكره عند خروجه الى الشام والا كان يقال ان الشام ومصر كانتا للمسلمين فهذا كان سبب خروجهم فلما اجتمعوا بصور يموج بعضهم في بعض ومعهم الاموال العظيمة والبحر يمدهم بالاقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم فضاقت عليهم صور باطنها وظاهرها فأرادوا قصد صيدا وكان ما ذكرناه فعادوا واتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصابرتها فساروا اليها بفارسهم وراجلهم وقضهم وقضيضهم ولزموا البحر في مسيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر والضيق والسعة ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدة لهم ان جاءهم ما لا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا وكان رحيلهم ثامن رجب ونزولهم على عكا في منتصفه ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ولما رحلوا جاء الخبر الى صلاح الدين برحيلهم فسار حتى قاربهم ثم جمع امراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون في غير الطريق التي سلكوها فقالوا لا حاجة بنا الى احتمال المشقة في مسايرتهم فان الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا ما نريده منهم والرأي اننا نسير في الطريق المهيع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم فعلم ميلهم الى الراحة المعجلة فوافقهم

وكان

وعيش وناض وقعد في الدست كالبدر المنير * والسيف الشهير * منفردا بالتدبير * محتشد الروعة الملك وهيبة السرير * فلما اتفق عود السلطان الى قرارة عزه وشاهد الامور في كنف وزارته منظومة العقود * مضبوطة الحدود * والاموال وافرة الربوع * حافلة الضروع * رسم له أن يصدر الى خراسان * مستنظفا ما وهي أو وهن صاحب الديوان * في جبايته واستيفائه * وقصر أو قصر عن تبرضه وامترائه * فانحدر الى هراة وهيبته تأخذ النفوس بمخنقها * وتقتلع القلوب عن معلقها * ويكاد ينطق له كل مال مخزون * ويلفظ اليه كل درهم مدفون * فجمع عن سماح النفوس بما جمعته * واستكراهها بما منعته * ما لم يسمع بمثله محمولا اذهابا وأوراقا وعصبا ورقاقا * وغلمانا ورشاقا * وأفراسا عتاقا وتلاقت الرغائب * على صاحب الديوان بما ناله من صنوف المنافع * ووجوه المطامع * فسامه السلطان

وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون وقال ان الفرنج اذا نزلوا لصقوا بالارض فلا يتهيأ لنا ازعاجهم ولا نيل الغرض منهم والرأى قتالهم قبل الوصول الى عكا فخالفه فتبعهم وساروا على طريق كفركنا فسبقهم الفرنج وكان صلاح الدين قد جعل فى مقابل الفرنج جماعة من الامراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم فلو ان العساكر اتبعت رأى صلاح الدين فى مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا لكان بلغ غرضه وصدهم عنها ولكن اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ولما وصل صلاح الدين الى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر الى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين اليها طريق فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمنته الى تل العياضية وميسرته الى النهر الجارى ونزلت الاثقال بصفورية وسير الكتب الى الاطراف باستدعاء العساكر فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة وأتاه تقى الدين ابن أخيه وأتاه مظفر الدين ابن زين الدين وهو صاحب حران والرها وكانت الامداد تأتى المسلمين فى البر وتأتى الفرنج فى البحر وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك وما عداها كان قتالا يسيرا من بعضهم مع بعض فلا حاجة الى ذكره ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول اليهم ولا الى عكا حتى انسلخ رجب ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبية فلما كان الغد باكرهم القتال بحده وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة الى الظهر وصبر الفريقان صبرا حار له من رآه فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقى الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم فركب بعضهم بعضا لا يلوى أخ على أخ والتجؤا الى من يليهم من أصحابهم واجتمعوا بهم واخلوا نصف البلد وملك تقى الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه وأدخل صلاح الدين اليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والاموال والسلاح وغير ذلك ولو ان المسلمين لزموا قتالهم الى الليل لبلغوا ما أرادوه فان للصدمة الاولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا الى الراحة وتركوا القتال وقالوا نباكرهم غدا ونقطع دابرهم وكان فى جملة من أدخله صلاح الدين الى عكا من جملة الامراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين وهو من أكابر امراء عسكره وهو من الاكراد الحكمية من بلد اربل وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة

* (ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب) *

ثم ان المسلمين نهضوا الى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد وسعهم فى استئصالهم فتقدموا على تعبيتهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على ما فرطوا فيه بالامس وهم قد حفظوا اطرافهم ونواحيهم وشرعوا فى حفر خندق يمنع من الوصول اليهم فألح المسلمون عليهم فى القتال فلم يتقدم الفرنج اليهم ولا فارقوا مرابضهم فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ثم ان جماعة من العرب بلغهم ان الفرنج تخرج من الناحية الاخرى الى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم فى معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان

تعصبا وتسيبا وحملا الى بيت المال فاعتزل العمل ونزل عن كل ما حصل * وفزع من بعد الى خاص أملاكه وضياعه * ومواشيه وكراعه * وقيمة واثاثه * حتى حلى اثاثه لحل ما اعتقده منها على مال مصادرته * وما جمع عليه من بقايا عمله وكان الوزير أبو العباس قليل البضاعة * فى الصناعة * لم يعتن بها فى سالف الايام * ولم يرض بنانه بخدمة الاقلام فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية * الى الفارسية * حتى كسدت سوق البيان * وبارت بضاعة الاجادة والاحسان * واستوت درجات العجزة والكفاة * والتقى الفاضل والمفضول على خطى الموازاة * ولما سعدت الوزارة بالشيخ الجليل أسعد الله به جدوده الافاضل * وورد بمكانه خدود الفضائل * ورفع ألوية الكتاب * وعمر أفنية الآداب * بجزم على أوشمند وانه أن يتنكبوا ويتحاشوا الفارسية الا من ضرورة من جهل من يكتب اليه * ويعجز عن فهم

معهم وحملوا الرؤس الى صلاح الدين فأحسن اليهم وأعطاهم الخلع

(ذكر الوقعة الكبرى على عكا)

لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقي المسلمون الى العشرين من شعبان كل يوم يغادون
القتال مع الفرنج ويراوحونه والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه ثم ان الفرنج
اجتمعوا للمشورة فقالوا ان عسكر مصر لم يحضر والحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون
اذا حضر والرأى اننا نلقى المسلمين غدا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والامداد اليهم
وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائبا عنه بعضهم مقابل انطاكية ليردوا غائلة البيمند صاحبها
عن أعمال حلب وبعضهم في حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضا وعسكر في مقابل
صور لحماية ذلك البلد وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما والذي بقي من
عسكر مصر كانوا لم يصلوا لطول بيكارهم كما ذكرناه قبل وكان هذا مما أطمع الفرنج في الظهور
الى قتال المسلمين وأصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم الى القتال ومنهم من هو في خيمته
ومنهم من قد توجه في حاجته من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج اليه هو وأصحابه ودوابه الى غير
ذلك فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الارض قد ملؤها
طولا وعرضا وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فلما رأى ان الفرنج
نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه فتقدموا اليه فلما قربوا منه تأخر عنهم فلما رأى صلاح الدين
الحال وهو في القلب أمد تقي الدين برجال من عنده ليتقوى بهم وكان عسكر ديار بكر وبعض
الشرقيين في جناح القلب فلما رأى الفرنج قلة الرجال في القلب وان كثيرا منهم قد سار
نحو الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب فحملوا حملة رجل واحد فاندفعت العساكر بين أيديهم
منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم كالامير مجلي بن مروان والظهير أخي الفقيه
عيسى وكان والي البيت المقدس قد جمع بين الشجاعة والعلم والدين وكالحاجب خليل
الهكاري وغيرهم من الشجعان الصابرين في مواطن الحرب ولم يبق بين أيديهم في القلب من
يردهم فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من مروا به ونهبوا وقتلوا عند خيمة
صلاح الدين جماعة منهم شيخنا جمال الدين أبو علي بن رواحة الحموي وهو من أهل العلم وله
شعر حسن وما ورث الشهادة من بعيد فان جده عبد الله بن رواحة صاحب رسول الله صلى الله
عليه وسلم قتله الروم يوم موتة وهذا قتله الفرنج يوم عكا وقتلوا غيره وانحدروا الى الجانب الآخر
من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين ان الفرنج لم يلقوا خيمة
صلاح الدين ولو ألقوها لعلم الناس وصولهم اليها وانهزام العساكر بين أيديهم فكانوا انهزموا
أجمعون ثم ان الفرنج نظروا وراءهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم فرجعوا خوفا أن
ينقطعوا عن أصحابهم وكان سبب انقطاعهم ان الميمنة وقفت مقابلتهم فاحتاج بعضهم يقف
مقابلها وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم
وعادوا الى طرف خنادقهم فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين الى خيمة صلاح الدين
صادفوهم وهم راجعون فقاتلوهم وثار بهم غلمان العسكر وكان صلاح الدين لما انهزم القلب
قد تبعهم ينادي بهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال فاجتمع معه منهم جماعة صالحة فحمل بهم

حزب به عليه * فطارت
وقائعه في البلاد ولا شوارد
الامثال * وأبيات المعاني
من القصائد الطوال * ففي
كل ناد نداء بألحانها وفي كل
مشهد شهادة باستحسانها *
فأما الشعر فقد نشر عليه
ممدوده * وسعد به
مسدوده * ونفق بالعذب
الرواء صيخوده * فأربابه
كالعنادب تغريدا
بمناقبه * والقماري
تسجيعا على الضرب
المأذي في ضرائبه * فهو
بعدله في الناس غياث
ورحمه * وبفضله لأهل
الفضل ثمال وعصمه *
وانفرد بتدبير البلاد والعباد
بناء على الاساس * وحلبا
على الابساس * واخافة على
الايمان * ومكافأة بالاساءة
والاحسان * وأسوا لجراح
القلوب بمراهم الترغيب *
وانكارا بمعروف العمارة
سابق التخريب * واشارة
على السلطان في امور
مملكته بما يفيد عاجل
التوفير وآجل الثواب
الغزير لا جرم انه استتبت
الامور بغنائه وانسدت
الثغور على آرائه وكذلك
من كان على العلم ايراده
واصداره وعلى

على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فأخذتهم سيوف الله من كل جانب فلم يفلت منهم أحد بل قتل أكثرهم وأخذ الباقون أسرى وفى جملة من أسر مقدم الداوية الذى كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه فلما ظفر به الآن قتله وكانت عدة القتلى سوى من كان الى جانب البحر نحو عشرة آلاف قتيل فأمر بهم فألقوا فى النهر الذى يشرب الفرنج منه وكان عامة القتلى من فرسان الفرنج فان الرجالة لم يلحقوهم وكان فى جملة الاسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل فلما أسرن وألقى عنهن السلاح عرفن انهن نساء وأما المنهزمون من المسلمين فنهم من رجع من طبرية ومنهم من جاوز الاردن وعاد ومنهم من بلغ دمشق ولولا ان العساكر تفرقت فى الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج الاستئصال والاهلاك مرادهم على ان الباقين بذلوا جهدهم وجدوا فى القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج فى معسكرهم لعلهم يفزعون منهم فجاءهم الصريخ بان رحالهم وأموالهم قد نهبت وكان سبب هذا النهب ان الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأتوا عليه وكان فى عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون فى جمعها وتحصيلها فأمر بالنداء باحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الارض من المفارش والعيب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه ففاته ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج واصلحوا شأن الباقين منهم

(ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا)

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الارض من نتن ريحهم وفسد الهواء والجو ووجدت الامزجة فسادا وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده فحضر عنده الامراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأى اننا نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود فان رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وان أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم الى ما نحن فيه ثم ان مزاجك منحرف والالم شديد ولو وقع ارجاف لهلك الناس والرأى على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الاطباء على ذلك فأجابهم اليه الى ما يريد الله ان يفعله وإذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال فرحلوا الى الخروبة رابع شهر رمضان وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها واغلاق أبوابها والاحتياط وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبسطوا فى تلك الارض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر الى البحر ومراكبهم ايضا فى البحر تحصرها وشرعوا فى حفر الخندق وعمل السور من التراب الذى يخرجونه من الخندق وجاؤا بما لم يكن فى الحساب وكان اليزك كل يوم يوافقهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون انما هم معتقدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين ان عاد الى قتالهم فحينئذ ظهر رأى المشيرين بالرحيل وكان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الامر عليه وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب وأشار عليه بعضهم بان يرسل العساكر جميعها اليهم ليمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلف هو عنهم فقال اذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيأ وربما

البصيرة اربابه وبداره

(ذكر الامير شمس المعالى قابوس بن وشمكير وما ختم به أجله واتصاب ابنه الامير شمس فلك المعالى منوجهر منصبه ووراثته ملكه)

قد كان ذلك الامير على ما خص به من المناقب. والرأى البصير بالعواقب والجد المنيف على النجم الثاقب* مر السياسة لا تستساغ كأسه* ولا يؤمن بحال سطوته وبأسه* يقابل زلة القدم* باراقة الدم* ولا يعرف فى أدنى درجات العثار وان لم يقصد اليه مراد* ولم يشترك فى كسبه اعتقاد* غير حر الانتقام* بحد الحسام* والتفليق عن مركب الهام* لا يذكر العفو عند الغضب* ولا يعرف معنى السوط والخشب* ولا يرى الحبس الا ما بين الصفائح والترب* وهلك على خشونة هذا المس وصعوبة هذا البطش فئام من حاشيته لو استبقاهم على خفة أجرامهم لكان أشبه بالجلالة* وأليق بالاصالة والعدالة فما زالت هذه حاله* حتى

كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير فتأخر الامر الى أن عوفى فتمكن الفرنج وعملوا
ما أرادوا واحكموا أمورهم وحصنوا نفوسهم بما وجدوا اليه السبيل وكان من بعكا يخرجون
اليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر البلد

(ذكر وصول عسكر مصر والاسطول المصرى فى البحر)

فى منتصف شوال وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن
أيوب فلما وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات
الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والاقواس شيأ كثيرا ومعهم من الرجالة الجم الغفير
وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية راجلا كثيرا وهو على عزم الزحف اليهم بالفارس
والراجل ووصل بعده الاسطول المصرى ومقدمه الامير لؤلؤ وكان شهما شجاعا مقداما خبيرا
بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة فوصل بغتة فوقع على بطسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها
أموالا كثيرة وميرة عظيمة فادخلها الى عكا فسكنت نفوس من بها بوصول الاسطول
وقوى جنانهم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى صفر خطب لولى العهد أبى نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد
ونثرت الدنانير والدراهم وأرسل الى البلاد فى اقامة الخطبة ففعل ذلك وفيها فى شوال ملك
الخليفة تكريت وسبب ذلك ان صاحبها وهو الامير عيسى قتله اخوته وملكوا القلعة بعده
فسير الخليفة اليهم عسكرا فحصروها وتسلموها ودخل أصحابه الى بغداد فاعطوا اقطاعا وفيها
فى صفر فتح الرباط الذى بناه الخليفة بالجانب الغربى من بغداد وحضر الخلق العظيم فكان يوما
مشهودا وفى هذه السنة فى رمضان مات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبى
عصرون الفقيه الشافعى بدمشق وكان قاضيها وأضر وولى القضاء بعده ابنه وكان الشيخ من
أعيان الفقهاء الشافعية وفيها فى ذى القعدة توفى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى بالخروبة
مع صلاح الدين وهو من أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الاسدية وكان فقيها جنديا شجاعا
كريما ذا عصبية ومروأة وهو من أصحاب الشيخ الامام ابى القاسم بن البرزى تفقه عليه
بجزيرة ابن عمر ثم اتصل باسد الدين شيركوه فصار امامه فرأى من شجاعته ما جعل له اقطاعا
وتقدم عند صلاح الدين تقدما عظيما وفيها فى صفر توفى شيخنا أبو العباس احمد بن عبد الرحمن
ابن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان بمكة وكان رحمه الله عالما متبحرا فى علوم كثيرة خلاف فقه
مذهبه والاصولين والحساب والفرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغير ذلك وختم أعماله
بالزهد ولبس الخشن وأقام بمكة حرسها الله تعالى مجاورا فتوفى بها وكان من أحسن الناس
صحبة وخلقا وفيها فى ذى القعدة مات أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخى مدرس النظامية
وكان من أصحاب ابى الحسن بن الخل وكان صالحا خيرا له عند الخليفة والعامة حرمة عظيمة
وجاه عريض وكان حسن الخط يضرب به المثل

(ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة)

(ذكر وقعة الفرنج واليزك وعود صلاح الدين الى منازلة الفرنج)

استوحشت النفوس منه * وانقلبت القلوب عنه * وشحنت الصدور عليه * ومالت عنه الاهواء المائلة اليه * اذ كل أحد لا يأمن العثرة * ولا يعلل العصمة * ومتى كان العقاب ملحقا بالخطا اليسير صارت النفوس مجتاحه * والارواح مستباحه * والمرء من البشر لا من ورق الشجر * فهو اذا مات * فقد فات وليس مما يعود * بعد ما عرى العود واتفق ان حاجبا له كان يعرف بحاجب نعيم وهو أحد اعيان الكراكلة * فى حدود جرجان عديم المماثلة والعادية * سليم الناحية * من بين أقنائه الحاشية * وكان اعتمده لضبط استراباذ وسياستها رفع اليه انه طمع فى بعض رعاياها فى منال * أو مال الى الانتفاع منه بمال * فأمر بقتله وتعليقه عن خيط رقبته وهو يستغيث مفصحا ببراءة الساحة * ونقاء الجيب والراحه * وقصور ما سعى به عليه لو صح اسناده عن اباحة نفسه واراقة دمه فزاد قتله فى ايغار الصدور واضغان القلوب وتوامر

قد ذكرنا رحيل صلاح الدين عن عكا الى الخروبة لمرضه فلما برأ أقام بمكانه الى أن ذهب الشتاء
وفي مدة مقامه بالخروبة كان يزكه وطلائعه لا تنقطع عن الفرنج فلما دخل صفر من سنة ست
وثمانين وخمسمائة سمع الفرنج ان صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذي في اليزك
عندهم قليلا وان الوحل الذي في مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد انجاد اليزك فاغتنموا
ذلك وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون ورموا أنفسهم بالنشاب
وأحجم الفرنج عنهم حتى فني نشابهم فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم
الامر وعلم المسلمون انه لا ينجيهم الا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل الى أن جاء
الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وعاد الفرنج الى خندقهم ولما عاد صلاح الدين الى
المعسكر سمع خبر الوقعة فندب الناس الى نصر اخوانهم فأتاه الخبر ان الفرنج عادوا الى
خندقهم فأقام ثم انه رأى الشتاء قد ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق
وحمص وحماة وغيرها فتقدم من الخروبة نحو عكا فنزل بتل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم
ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون

(ذكر احراق الابراج ووقعة الاسطول)

كان الفرنج في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدا طول كل برج
منها في السماء ستون ذراعا وعملوا كل برج منها خمس طبقات كل طبقة مملوءة من المقاتلة وقد
جمع أخشابها من الجزائر فان مثل هذه الابراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب الا القليل
النادر وغشوها بالجلود والخل والطين والادوية التي تمنع النار من احراقها وأصلحوا الطرق
لها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا بها في العشرين من ربيع الاول
فأشرفت على السور وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا في طم خندقها فأشرف البلد
على أن يملك عنوة وقهرا فأرسل اهله الى صلاح الدين انسانا سبح في البحر فأعلمه ما هم فيه من
الضيق وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم فركب هو وعساكره وتقدموا الى الفرنج
وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما يشغلهم عن مكاثرة البلد فافترق الفرنج فرقتين
فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل اهل عكا الا أن الامر قد خف عمن بالبلد ودام القتال
ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر وسئم الفريقان القتال وملوا منه
لملازمته ليلا ونهارا والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن
دفع الابراج فانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيئا وتابعوا رمي النفط
الطيار عليها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبوار والهلاك فأتاهم الله بنصر من عنده واذن في احراق
الابراج وكان سبب ذلك ان انسانا من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين وتحصيل
عقاقير تقوي عمل النار فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم
أباشرها بنفسي انما اشتهي معرفتها وكان بعكا لامر يريده الله فلما رأى الابراج قد نصبت على
عكا شرع في عمل ما يعرفه من الادوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما
فلما فرغ منها حضر عند الامير قراقوش وهو متولي الامور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر
المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الابراج ما أعطيه حتى أحرقه وكان عند

عند ذلك أعيان العسكر على خلعه ونزع الايدي عن طاعته وكفاية النفوس شغلها بثقل وطأته * وخشونة سياسته * ووافق هذا التدبير منهم غيبته عن جرجان الى المعسكر بجناشك استبدالا بهوائها عن فيح الحرور عند طلوع الشعرى العبور * فعمي عليه وجه الصورة * وشذ عنه علم تلك المشورة * فلم يرعه ذات ليلة غير زحام العسكر بباب القلعة التي اعتصر بها وانتهابهم أمواله * وأفراسه وأبغاله ومرامهم قسره واستنزاله * فنهر في وجوههم من كانوا نزولا بفنائه * محامين من ورائه * حتى انكشفوا عنه صاغرين * وولوا على أعقابهم داخرين * وولوا الى جرجان * فملكوها عليه معلنين بشعار العصيان لابسين عار الكفران * وبعثوا الى الامير أبي منصور منوجهر بن قابوس وهو بطبرستان يستحثونه على الورود لعقد البيعة له وزفاف الملك اليه * فطار اليهم بقوادم العقاب استعظاما للحادثة بأبيه * واكبارا لما نفذ من المكيدة

قرا الوشى من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد غيظا بقوله وحرد عليه فقال له قد بالغ أهل هذه الصناعة فى الرمى بالنفط وغيره فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فاجابه الى ذلك وأمر المنجنيقى بامتثال أمره فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار فكان الفرنج اذا رأوا القدر لا يحرق شيأ يصيحون ويرقصون و يلعبون على سطح البرج حتى علم ان الذى ألقاه قد تمكن من البرج القى قدرا مملوأة وجعل فيها النار فاشتعل البرج وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضطرمت النار فى نواحى البرج وأعجلت من فى طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه وكان فيه من الزرديات والسلاح شئ كثير وكان طمع الفرنج بما رأوا ان القدور الاولى لا تعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعى فى الخلاص حتى عجل الله لهم النار فى الدنيا قبل الآخرة فلما احترق البرج الاول انتقل الى الثانى وقد هرب من فيه لخوفهم فاحرقه وكذلك الثالث وكان يوما مشهودا لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون و يفرحون وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر وخلاص المسلمين من القتل لانهم ليس فيهم أحد الا وله فى البلد اما نسيب واما صديق وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال انما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء الا منه وسيرت الكتب الى البلاد بالبشائر وأرسل يطلب العساكر الشرقية فأول من اتاه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى سيره أبوه مقدما على عسكره وهو صاحب الموصل ثم وصل زين الدين يوسف صاحب اربل وكان كل منهم اذا وصل يتقدم الى الفرنج بعسكره و ينضم اليه غيرهم و يقاتلونهم ثم ينزلون ووصل الاسطول من مصر فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا الى طريقه اسطولا ليلقاه و يقاتله فركب صلاح الدين فى العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الاسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشئ فكان القتال بين الفريقين برا وبحرا وكان يوما مشهودا لم يؤرخ مثله وأخذ المسلمون من الفرنج مركبا فيه من الرجال والسلاح وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك الا أن القتل فى الفرنج كان اكثر منه فى المسلمين ووصل الاسطول الاسلامى سالما

(ذكر وصول ملك الالمان الى الشام وموته)

فى هذه السنة خرج ملك الالمان من بلاده وهم نوع من الفرنج من اكثرهم عددا وأشدهم بأسا وكان قد أزعجه ملك الاسلام البيت المقدس فجمع عساكره وأزاح عللهم وسار عن بلاده وطريقه على القسطنطينية فارسل ملك الروم بهذا الى صلاح الدين يعرفه الخبر و يعده انه لا يمكنه من العبور فى بلاده فلما وصل ملك الالمان الى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن أحدا من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم فضاقت بهم الازواد والاقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وصاروا على أرض بلاد الاسلام وهى مملكة الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن قتلمش بن سلجق فلما وصلوا الى أوائلها ثار بهم التركمان الاوج فما زالوا يسايرونهم و يقتلون من انفرد و يسرقون ما قدروا

فيه * وطمعا فى تدارك الخطب وتلافيه * فلما دنا منهم مضربه توافقوا على طاعته ان خلع أباه * وابتزازه رداء الملك ان أباه * فلم يجد فى عاجل الحال غير المداراة ضبطا لما انتشر * ورشاء لما استمر وصونا لستر الحشمة من الانخراق * وابقاء على سكر الفساد من الانبثاق * واشفاقا على البيت من الضياع * وعلى الملك من التخطف والانتزاع * وقد كان شمس المعالى قابوس لما سمع بنبا القوم واجتماع كلمتهم على الخلع عطف بمن كان معه من رجال ومال الى ناحية بسطام ناظرا ما يسفر عنه عاقبة التحزب * و ينتهى اليه ثائرة التغلب والتوثب فلما تسامعوا بنبائه حملوا الامير منوجهر على قصده * وازعاجه عن مكانه أو رده فسار معهم اليه مضطرا ودافعا بالشر شرا كالجمل الانف ان قيد انقاد وان أنيخ على صخرة استناخ فلما وصل الى أبيه * أذن له دون من يليه * من أتباعه وحواشيه * اذ قام

ماقدر واعليه وكان الزمان شتاء والبرد يكون فى تلك البلاد شديدا والثلج متراكما فاهلكهم
البرد والجوع والثلج فكان فقل عددهم فلما قاربوا مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين
ملكشاه بن قلج ارسلان ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد الى قونية وبها أبوه قد حجر ولده المذكور
عليه وتفرق أولاده فى بلاده وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها فلما عاد عنهم قطب الدين
أسرعوا السير فى أثره فنازلوا قونية وأرسلوا الى قلج ارسلان هدية وقالوا له ماقصدنا بلادك
ولا أردناها وانما قصدنا البيت المقدس وطلبوا منه أن يأذن لرعيته فى اخراج مايحتاجون
اليه من قوت وغيره فأذن فى ذلك فاتاهم مايريدون فشبعوا وتزودوا وساروا ثم طلبوا من قطب
الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم وان يسلم اليهم جماعة من امرائه رهائن وكان يخافهم فسلم
اليهم نيفا وعشرين أميرا كان يكرههم فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم
والتعرض اليهم فقبض ملك الالمان وقيدهم فمنهم من هلك فى أسره ومنهم من فدى نفسه وسار
ملك الالمان حتى أتى بلاد الارمن وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون فامدهم بالاقوات
والعلوفات وحكمهم فى بلاده وأظهر الطاعة لهم ثم ساروا نحو انطاكية وكان فى طريقهم
نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم اليه ليغتسل فغرق فى مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى
الله شره وكان معه ولد له فصار ملكا بعده وسار الى انطاكية فاختلف أصحابه عليه فاحب
بعضهم العود الى بلاده فتخلف عنه وبعضهم مال الى تمليك أخ له فعادوا أيضا وسار فيمن صحت نيته له
فعرضهم وكانوا نيفا وأربعين الفا ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا الى انطاكية وكأنهم قد
نبشوا من القبور فتبرم بهم صاحبها وحسن لهم المسير الى الفرنج على عكا فساروا على جبلة
ولاذقية وغيرهما من البلاد التى ملكها المسلمون وخرج أهل حلب وغيرها اليهم وأخذوا منهم
خلقا كثيرا ومات اكثر من أخذ فبلغوا اطرابلس وأقاموا بها اياما فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم
الا نحو ألف رجل فركبوا فى البحر الى الفرنج الذين على عكا ولما وصلوا ورأوا ما نالهم فى طريقهم
وماهم فيه من الاختلاف عادوا الى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد وكان الملك
قلج ارسلان يكاتب صلاح الدين باخبارهم ويعده أنه يمنعهم من العبور فى بلاده فلما عبروها
وخلفوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم لان أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا
عن طاعته وأما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الالمان فانه استشار أصحابه فأشار
كثير منهم عليه بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا فقال بل نقيم الى أن
يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا لكنه سير من عنده من العساكر
منها عسكر حلب وجبلة ولاذقية وشيزر وغير ذلك الى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد
يحفظونها من عاديتهم وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل (اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل
منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون
وزلزلوا زلزالا شديدا) فكفى الله شرهم ورد كيدهم فى نحرهم ومن شدة خوفهم أن بعض
امراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية وكان أخى رحمه الله يتولاها فحصل دخلها من
حنطة وشعير وتبن فارسل اليه فى بيع الغلة فوصل كتابه يقول لا تبع الحبة الفرد واستكثر
لنا من التبن ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول تبيع الطعام فما بنا حاجة اليه ثم ان ذلك الامير قدم

دونه من خاصته رجال
يرون الموت شهدا دون
خذلانه * والروح وقفا
على على شكر احسانه * فلما
وصل اليه كفر طاعة
وخضوعا * وأسال أودية
الشؤن دموعا * وتشاكيا
صورة الحادث * وتذاكرا
حق الموروث والوارث *
وغرض الامير منوجهر
أن يكون حجابا بينه وبين
أعاديه * وان ذهبت نفسه
فيه * ورأى شمس المعالى
قابوس ان العارض قصارى
أمره * وختام عمره * وانه
أحق بوراثة ملكه وولاية
الامر من بعده وسلم خاتم
الملك اليه من يده واستوصاه
الخير به مادام فى فسحة من
أمده * فتواضعا على أن
ينتقل هو الى قلعة جناشك
متفرغا للعبادة حتى يأتيه
يقينه * فيسلم له نفسه ودينه
وأن يتفرد الامير منوجهر
بتقرير الملك فريا وتقديرا
وتقديما وتأخيرا * وقدمت
اليه عمارية على هذه الجملة
فانتقل الى القلعة المذكورة
مع من رضيه لخدمته
ومعونته * على ضروب

الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة ثم الاذن فيها بعد مدة يسيرة فقال لما وصلت الاخبار
بوصول ملك الالمان أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام فكتبت بالمنع من بيع الغلة لتكون ذخيرة
لنا اذا جئنا اليكم فلما اهلكهم الله تعالى وأغنى عنها كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها

(ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا)

وفى هذه السنة فى العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء
خنادقهم وتقدموا الى المسلمين وهم كثير لا يحصى عددهم وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم
الملك العادل أبو بكر بن أيوب وكان المصريون قد ركبوا واصطفوا للقاء الفرنج فالتقوا
واقتتلوا قتالا شديدا فانحاز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فعطف
المصريون عليهم فقاتلوهم من وسط خيامهم فاخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين
نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا وكانوا متصلين كالنمل فلما انقطعت
امدادهم ألقوا بايديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم الا الشريد وقتل منهم
مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر
مصر وكان مقدمهم علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فحملوا أيضا على
الفرنج وبالغوا فى قتالهم ونالوا منهم نيلا كثيرا هذا جميعه ولم يباشر القتال أحد من الحلقة
الخاص التى مع صلاح الدين ولا أحد من الميسرة وكان بها عماد الدين زنكى صاحب سنجار
وعسكر اربل وغيرهم ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم وأشار
المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم وهم على هذه الحال من الهلع والجزع
فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الالمان وما أصاب أصحابه من الموت
والقتل والاسر وما صار أمرهم اليه من القلة والذلة واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح
بها عن قتال من بازائهم وظنوا ان الفرنج اذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهنا على وهنهم وخوفا
على خوفهم فلما كان بعد يومين أتت الفرنج أمداد فى البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له
الكندهرى ابن أخى ملك افرنسيس لابيه وابن أخى ملك انكلتار لامه ووصل معه من
الاموال شئ كثير يفوق الاحصاء فوصل الى الفرنج بجند الاجناد وبذل الاموال فعادت
نفوسهم قوية واطمأنت وأخبرهم ان الامداد واصلة اليهم يتلو بعضها بعضا فتماسكوا
وحفظوا امكانهم ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين
من مكانه الى الخروبة فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة ليتسع المجال وكانت المنزلة
قد انتنت بريح القتلى ثم ان الكندهرى نصب منجنيقا ودبابات وعرادات فخرج من بعكا من
المسلمين فاخذوها وقتلوا عندها كثيرا من الفرنج ثم ان الكندهرى بعد أخذ منجنيقاته أراد
أن ينصب منجنيقا فلم يتمكن من ذلك لان المسلمين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من
يرمى من المنجنيق فعمل تلا من تراب بالبعد من البلد ثم ان الفرنج كانوا ينقلون التل الى البلد
بالتدريج ويستترون به ويقربونه الى البلد فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق
نصبوا وراءه منجنيقين وصار التل سترة لهما وكانت الميرة قد قلت بعكا فارسل صلاح الدين الى
الاسكندرية يأمرهم بانفاذ الاقوات واللحوم وغير ذلك فى المراكب الى عكا فتأخر انفاذها

مصلحته * وعطف الامير
منوجهر الى جرجان فولى
الصدر * وضبط الامر *
وأخذ بدارى القوم ترغيبا
وتطميعا * ويمنيهم
الاحسان جمعاء * وهم على
جملة النفور * خيفة
الثبور * مادام شمس المعالى
فى فسحة البقاء * وزمرة
الاحياء * وما زالوا فى
الاحتيال عليه حتى فرغوا
من أمره * وسلموا كما زعموا
من عادية شره * ولم يرضوا
به وهو فى صوان الاموات
حتى كشفوا عن محياه *
رداء ورداه * فطابوا نفوسا
حين عدموا شمس المعالى
قابوسا * وواروه فى مقبرة
كان ابتناها لنفسه بظاهر
جرجان * على سمت خراسان
وغدا الناس فى معناه
كما قال مهلهل

نبئت ان النار بعدك أوقدت
واستب بعدك يا كليب المجلس
وتفاوضوا فى أمر كل عظيمة
لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

وعقد الامير منوجهر المأتم
ثلاثة أيام على رسم الجيل
فى حسر الرؤس * وضرب
النفوس * ورفض المنام *
وهجر الطعام ولما قضى ايام
المعزى نسى المقبور

فسير

فسير الى نائبه بمدينة بيروت فى ذلك فسير بطسة عظيمة مملوأة من كل ما يريدونه وأمر من بها
فلبسوا ملابس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان فلما وصلوا الى عكا لم يشك الفرنج انها
لهم فلم يتعرضوا لها فلما حاذت ميناء عكا أدخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت
نفوسهم وتبلغوا بما فيها الى أن أتتهم الميرة من الاسكندرية وخرجت ملكة من الفرنج من داخل
البحر فى نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحى الاسكندرية وأخذ من معها ثم ان الفرنج وصلهم
كتاب من بابا وهو كبيرهم الذى يصدرون عن أمره وقوله عندهم كقول النبيين لا يخالف والمحروم
عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومية الكبرى يأمرهم بملازمة ما هم بصدده
و يعلمهم انه قد أرسل الى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير الى نجدتهم برا وبحرا و يعلمهم بوصول
الامداد اليهم فازدادوا قوة وطمعا

(ذكر خروج الفرنج من خنادقهم)

لما تتابعت الامداد الى الفرنج وجندلهم الكندهرى جمعا كثيرا بالاموال التى وصلت معه
عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها و يقاتل أهلها
وخرجوا حادى عشر شوال فى عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل
اثقال المسلمين الى ميمون وهو على ثلاثة فراسخ عن عكا وكان قد عاد اليه من فرق من عساكره
لما هلك ملك الالمان ولقى الفرنج على تعبية حسنة وكان أولاده الافضل على والظاهر غازى
والظافر خضر فى القلب وأخوه العادل أبو بكر فى الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم اليه وكان
فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجرشاه صاحب جزيرة
ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق ان صلاح الدين أخذه مغس كان يعتاده فنصب له خيمة
صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم فسار الفرنج شرقى نهر هناك حتى وصلوا
الى رأس النهر فشاهدوا عساكر الاسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية وأمطروا
عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس فلما رأوا ذلك تحولوا الى غربى النهر ولزمهم الجالشية
يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضا وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم
فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس وكان الفرنج قد ندموا على
مفارقة خنادقهم فلزموا امكانهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا
بخنادقهم والجالشية فى اكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام وكلما قتل
من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم فلولا ذلك الالم الذى حدث بصلاح
الدين لكانت هى الفصل وانما لله أمر هو بالغه فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يكن لهم بعدها
ظهور منه عاد المسلمون الى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقا كثيرا وفى الثالث والعشرين
من شوال أيضا كمن جماعة من المسلمين وتعرض للفرنج جماعة أخرى فخرج اليهم أربعمائة
فارس فقاتلهم المسلمون شيأ من قتال وتطارد والهم وتبعهم الفرنج حتى جاز والكمين
فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة اكثر
من مائة دينار صورية فصبروا على هذا وكان المسلمون يحملون اليهم الطعام من البلدان منهم
الامير أسامة مستحفظ بيروت كان يحمل الطعام وغيره ومنهم سيف الدين على بن أحمد المعروف

واستونفت على البيعة
السرور
كأن لم يكن بين الحجون الى
الصفا *
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
ولما سمع القادر بالله أمير
المؤمنين بخبر شمس المعالى
واستنار قضاء الله به خاطب
الامير منوجهر معزيا
ومسليا * ولقبه بفلك
المعالى مشرفا ومحليا *
وعزم الله على الصواب
فى اختياره * والرشد فى
ايثاره * ففزع الى السلطان
يمين الدوله * وأمين المله *
معتصما بحبله * معتصرا
بظله * مستظهرا بطاعته
* مستنصرا فى مشايعته
مستغشيا رداء عنايته *
متلافيا وهن المصاب بقوة
أشباله و رعايته * و أنهض
عدة من ثقات بابه بهبات
موفوره * ونفائس مذخوره *
و رسائل على صدق
الاخلاص وصفو الامحاض
مقصوره * فصادف مارجاه
رغبة فى موالاته * وحرصا
على تقمن مرضاته * وترددت
السفراء على رباية هذه
الحال * وتوكيد عقدة
الوصال * واحتكم السلطان
عليه فى اقامة الخطبة له

بالمشطوب كان يحمل من صيدا أيضا اليهم وكذلك من عسقلان وغيرها ولولا ذلك لهلكوا جوعا
خصوصا في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عنهم تهيج البحر

(ذكر تسيير البدل الى عكا والتفريط فيه حتى أخذت)

لما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لانهم لم تمكن من المينا فسيروها الى بلادهم صور والجزائر فانفتح الطريق الى عكا في البحر فارسل أهلها الى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الامير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فامر صلاح الدين باقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من فيها وأمر اخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم اليها وأخرج عوضهم فدخل اليها عشرون أميرا وكان بها ستون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة الى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وانفاذهم وكان على خزانة ماله قوم من النصارى وكانوا اذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى تارة باقامة معرفة وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خلق كثير وانضاف الى ذلك توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه واهمال النواب فانحسر الشتاء والامر كذلك وعادت مراكب الفرنج الى عكا وانقطع الطريق الا من سابح يأتي بكتاب وكان من جملة الامراء الذين دخلوا الى عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الاسدية بعد جاولي وغيرهم وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بان يرسل الى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والاقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام فانهم قد جربوا وتدربوا واطمأنت نفوسهم على ماهم فيه فلم يفعل وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل فكان الامر بالضد

(ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب اربل ومسير أخيه مظفر الدين اليها)

كان زين الدين يوسف بن زين الدين علي صاحب اربل قد حضر عند صلاح الدين بعساكره فمرض ومات ثامن عشر شهر رمضان وذكر العماد الكاتب في كتابه البرق الشامي قال جئنا الى مظفر الدين نعزيه باخيه وظنناه به الحزن وليس له أخ غيره ولا ولد يشغله عنه فاذا هو في شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ما خلفه وهو جالس في خيام أخيه المتوفى وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم وحمل عليهم وما أغفلهم منهم بلداجي صاحب قلعة خفتيذكان وأرسل الى صلاح الدين يطلب منه اربل لينزل عن حران والرها فاقطعه اياها وأضاف اليها شهرزور وأعمالها ودربند قرابلي وبني قفجاق ولما مات زين الدين كاتب من كان باربل مجاهد الدين قايماز لهواهم فيه وحسن سيرته كانت فيهم وطلبوه اليهم ليملكوه فلم يجسر هو ولا صاحبه عز الدين أتابك مسعود بن مودود على ذلك خوفا من صلاح الدين وكان أعظم الاسباب في تركها ان عز الدين كان قد قبض على مجاهد الدين فتمكن زين الدين من اربل ثم ان عز الدين أخرج مجاهد الدين من القبض وولاه نيابته وقد ذكرنا ذلك أجمع فلما ولاه النيابة عنه لم يمكنه وجعل معه انسانا كان من بعض غلمان مجاهد الدين فكان يشاركه في الحكم ويحل عليه ما يعقده فلحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد فلما طلب الى اربل قال لمن يثق اليه لا أفعل لئلا يحكم فيها

فلان

على منابر ولاياته * امتحانا لصدوقة عقده في موالاته وأنهض اليه ابا محمد الحسن ابن مهران أحد ثقاته * بما رأى اصحابه من نفائس خلعه وكراماته فصادف منه قريبا مجيبا وسميعا مطيعا وأمر باقامة الدعوة باسمه على منابر جرجان وطبرستان * وقومس ودامغان * والتزم في السنة خمسين ألف دينار اتاوه * وعلى عكمى الطاعة والاخلاص علاوه * واستدعى السلطان على تفئة ذلك وقد عزم على غزوة ناراين انجاده حشمه بطائفة من الجيل والديلم يحسنون حروب المضايق * ويغنون غناء السكاة البطارق * فسرب اليه ألفي رجل من خاص الجيليين ان راموا الوعور فوعول * أو قصدوا السهول فسيول * وقد أمر بازاحة عللهم في أعطياتهم * ونصب لهم من يقيم أود حاجاتهم * ويطلق لهم مدة المساحة الى غناتهم * واجب أرزاقهم واستحقاقاتهم * فلما استحق بآثاره في القربه مزيد الرتبه * وبساعيه

فلان ويكف يدي عنها فجاء مظفر الدين اليها وملكها وبقى غصة فى حلق البيت الاتابكى لايقدرون على اساغتها وسنذكر ما اعتمده معهم مرة بعد أخرى ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها الى المسلمين)

فى هذه السنة ملك ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الاندلس مدينة شلب وهى من كبار مدن المسلمين بالاندلس واستولى عليها فوصل الخبر بذلك الى الامير أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب والاندلس فتجهز فى العساكر الكثيرة وسار الى الاندلس وعبر المجاز وسير طائفة كثيرة من عسكره فى البحر ونازلها وحصرها وقاتل من بها قتالا شديدا حتى ذلوا وسألوا الامان فأمنهم وسلموا البلد وعادوا الى بلادهم وسير جيشا من الموحدين ومعهم جمع كثير من العرب ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة وتمكنوا فى الفرنج فخافهم ملك طليطلة من الفرنج وأرسل يطلب الصلح فصالحه خمس سنين وعاد أبو يوسف الى مراكش وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا أمكنهم اظهار الخلاف فبقوا متوقفين حتى دخلت سنة احدى وتسعين وخمسمائة فتحركوا وسنذكر خبرهم هناك ان شاء الله تعالى

(ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان)

كان سلطان شاه أخو خوارزم شاه قد تعرض الى بلاد غياث الدين ومعز الدين ملكى الغورية من خراسان فتجهز غياث الدين وخرج من فيروزكوه الى خراسان سنة خمس وثمانين وخمسمائة فبقى يتردد بين بلاد الطالقان وبنجده ومرو وغيرها يدحرب سلطان شاه فلم يزل كذلك الى أن دخلت سنة ست وثمانين فجمع سلطان شاه عساكره وقصد غياث الدين فتصافا واقتتلا فانهزم سلطان شاه وأخذ غياث الدين بعض بلاده وعاد الى غزنة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول تسلم الخليفة الناصر لدين الله حديثة عانة وكان سير اليها جيشا حصروها سنة خمس وثمانين فقاتلوا عليها قتالا شديدا ودام الحصار وقتل من الفريقين خلق كثير فلما ضاقت عليهم الاقوات سلموها على اقطاع عينوها ووصل صاحبها وأهلها الى بغداد واعطوا اقطاعا ثم تفرقوا فى البلاد واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وانه يتعرض بالسؤال الى بعض خدم الناس نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته وفى هذه السنة توفى مسعود بن البادر وكان مكثرا من الحديث حسن الخط خيرا ثقة وفيها توفى أبو حامد محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى بالموصل كان قاضيا وقبلها ولى قضاء حلب وجميع الاعمال وكان رئيسا جوادا ذا مروأة عظيمة يرجع الى دين واخلاق

(ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار اتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل الى جزيرة ابن عمر فحصرها وكان بها صاحبها سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو ابن أخى عز الدين وكان سبب حصره ان سنجر شاه كان كثير الاذى لعمه عز الدين والشناعة عليه

فى الطاعة قضاء الحاجة أنهض رئيس جرجان أبا سعد الجوليكى المقدم فضلا وأدبا * المحتشم حسبا ونسبا * لاقتضاء مزيد الحال بوصلة تقوم الكفاة بحفظ تباعته والطاعة باستيجابها له فنهض فى خفارة الادب تهديه * وكفالة الرفق فيما يذره ويأتيه * ولم يزل يأتى الامر من بابه ويستطلع المراد من حجابه * حتى أسمعت قرونة السلطان لما استدعاه * وأوجب الاسعاف بما توخاه * ولما انكفأ الفاضل أبو سعد وراءه بصورة الايجاب * وما صادفه من هزة المجد للاطلاب جشمه الامير فلك المعالى معاودة الحضرة مع القاضى بجرجان وهو شيخ العلم ورواية الحديث ورضيع أخلاف التدريب والتجريب * لتنجز النجاح * وتأريب عقدة النكاح * فنهضا الى حضرة السلطان مقيمين رسم الخدمه * وخاطبين ضم السدى الى اللحمه * فرأى السلطان تحقيق مبذول العدة *

والمراسلة الى صلاح الدين في حقه تارة يقول انه يريد قصد بلادك وتارة يقول انه يكاتب
اعداءك ويحثهم على قصدك الى غير ذلك من الامور المؤذية وعز الدين يصبر على ما يكره لامور
تارة للرحم وتارة خوفا من تسليمها الى صلاح الدين فلما كان في السنة الماضية سار صاحبها الى
صلاح الدين وهو على عكا في جملة من سار من أصحاب الاطراف واقام عنده قليلا وطلب
دستورا للعود الى بلده فقال له صلاح الدين عندنا من اصحاب الاطراف جماعة منهم عماد الدين
صاحب سنجار وغيرها وهو اكبر منك ومنهم ابن عمك عز الدين وهو أصغر منك وغيرهم ومتى
فتحت هذا الباب اقتدى بك غيرك فلم يلتفت الى قوله وأصر على ذلك وكان عند صلاح الدين
جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على سنجر شاه لانه ظلمهم وأخذ اموالهم واملاكهم فكان
يخافه لهذا ولم يزل في طلب الاذن في العود الى البلاد الى عيد الفطر من سنة ست وثمانين فركب
تلك الليلة سنجر شاه وجاء الى خيمة صلاح الدين وأذن لاصحابه في المسير فساروا بالاثقال وبقي
جريدة فلما وصل الى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الاذن وكان صلاح الدين قد بات محموما وقد
عرق فلم يمكن أن يأذن له فبقي كذلك مترددا على باب خيمته الى أن اذن له فلما دخل عليه هناه
بالعيد واكب عليه يودعه فقال له ما علمنا بصحة عزمك على الحركة فتصبر علينا حتى نرسل ما جرت
به العادة فما يجوز أن تنصرف عنا بعد مقامك عندنا على هذا الوجه فلم يرجع وودعه وانصرف
وكان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قد أقبل من بلده حماة في عسكره فكتب اليه صلاح
الدين يأمره باعادة سنجر شاه طوعا أو كرها فحكى لي عن تقي الدين انه قال ما رأيت مثل سنجر شاه
لقيته بعقبة فيق فسألته عن سبب انصرافه فغالطني فقلت له سمعت بالحال ولا يليق أن تنصرف
بغير تشريف السلطان وهديته فضيع تعبك وسألته العود فلم يصغ الى قولي فكلمني كأنني
بعض مماليكه فلما رأيت ذلك منه قلت له ان رجعت بالتي هي أحسن والا أعدتك كارها فنزل
عن دابته وأخذ ذيلي وقال قد استجرت بك وجعل يبكي فعجبت من حماقته أولا وذلته ثانيا فعاد
معي فلما عاد بقي عند صلاح الدين عشرة أيام وكتب صلاح الدين الى عز الدين اتابك يأمره بقصد
الجزيرة ومحاصرتها وأخذها وانه يرسل الى طريق سنجر شاه ليقبض عليه اذا عاد فخاف عز الدين
ان صلاح الدين قد فعل ذلك مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد فلم يفعل شيأ من ذلك بل أرسل
اليه يقول أريد خطك بذلك ومنشورا منك بالجزيرة فترددت الرسل في ذلك الى أن انقضت سنة
ست وثمانين فاستقرت القاعدة بينهما فسار عز الدين الى الجزيرة فحصرها اربعة أشهر وأياما
آخرها شعبان ولم يملكها بل استقرت القاعدة بينه وبين سنجر شاه على يد رسول صلاح الدين
فانه كان قد أرسل بعد قصدها يقول ان صاحب سنجار وصاحب اربل وغيرهما قد شفعا في
سنجر شاه فاستقر الصلح على ان لعز الدين نصف أعمال الجزيرة ولسنجر شاه نصفها وتكون
الجزيرة بيد سنجر شاه من جملة النصف وعاد عز الدين الى الموصل وكان صلاح الدين بعد ذلك
يقول ما قيل لي عن أحد شيء من الشر فرأيته الا كان دون ما يقال فيه الا سنجر شاه فانه كان
يقال لي عنه أشياء استعظمتها فلما رأيته صغر في عيني ما قيل

* (ذكر عبور تقي الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره الى خلاط وموته) *

وعصيان سلطان النفس
طاعة لرب العزة * وفلذ
للامير فلك المعالي فلذة من
كبده * وسمي له بزهرة
الارض من نجوم ولده *
وأي نجم كان في فلك المعالي
مداره * لم تبعد داره * أني
ومدار النجوم الافلاك *
وأزواج الملكات الاملاك *
وجرى من الاستبشار
باتحاد النفوس والديار *
وصب النثار * وصوب
المبار * كالغيوث الغزار *
ما أرخ به كتاب الدهر * ووسم
بذكره سالفة العصر * وعاد
الرسولان بدرك النجح
الموقوت * ولا السعدان
يقترنان في الحوت *
وعندهما تكلف الامير فلك
المعالي حرمة للقربى *
والحلة بين يدي النجوى *
ما لا تبين من رآه على اختلاف
أصنافه * واغراب نقوشه
وأفوافه * أن له همة الى
قمة الجوزاء مرفوعه * ونية
على صدق الولاء مطبوعه *
ولم يبق أحد من أركان
الدولة وحواشيها والراتعين
حول مراعيها * من لم
يضرب بسهم من سهام
اللطف * ولم يشترك في البر
المعقود بالشرف * لا جرم ان

في هذه السنة في صفر سار تقي الدين من الشام الى البلاد الجزرية حران والرها كان قد أقطعه اياها عمه صلاح الدين بعد أخذها من مظفر الدين مضافا الى ما كان له بالشأم وقرر معه انه يقطع البلاد للجند يعودوهم معه ليتقوى بهم على الفرنج فلما عبر الفرات وأصلح حال البلاد سار الى ميافارقين وكانت له فلما بلغها تجدد له طمع في غيرها من البلاد المجاورة لها فقصد مدينة حاني من ديار بكر فحصرها وملكها وكان في سبعمائة فارس فلما سمع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط بملكه حاني جمع عساكره وسار اليه فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس فلما التقوا اقتتلوا فلم يثبت عسكر خلاط لتقي الدين بل انهزموا وتبعهم تقي الدين ودخل بلادهم وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رشيق وزير صاحبه شاه أرمن وحبسه في قلعة هناك فلما انهزم كتب الى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق فوصل القاصد وتقي الدين قد نازل القلعة فأخذ الكتاب وملك القلعة وأطلق ابن رشيق وسار الى خلاط فحصرها ولم يكن في كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضا فعاد عنها وقصد ملازكرد وحصرها وضيق على من بها وطال مقامه عليها فلما ضاق عليهم الامر طلبوا منه المهلة اياما ذكروها فاجابهم اليها ومرض تقي الدين فمات قبل انقضاء الاجل بيومين وتفرقت العساكر عنها وحمله ابنه وأصحابه ميتا الى ميافارقين وعاد بكتمر قوي أمره وثبت ملكه بعد ان أشرف على الزوال وهذه الحادثة من الفرج بعد الشدة فان ابن رشيق نجا من القتل وبكتمر نجا من أن يؤخذ

(ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر الى عكا)

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر الى الفرنج الذين على عكا وكان اول من وصل منهم الملك فليب ملك افرنسيس وهو من اشرف ملوكهم نسبا وان كان ملكه ليس بالكثير وكان وصوله اليها ثاني عشر ربيع الاول ولم يكن في الكثرة التي ظنوها وانما كان معه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوس من على عكا منهم ولجوا في قتال المسلمين الذين فيها وكان صلاح الدين بشفرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل الى الامير اسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج الى عكا ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادفت خمسة مراكب مملوأة رجالا من أصحاب ملك انكلتار الفرنج وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها فاقتتلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وكتب ايضا صلاح الدين الى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا وأما الفرنج الذين على عكا فانهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء اليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتاله فيخف القتال عمن بالبلد ثم وصل ملك انكلتار ثالث عشر جمادى الاولى وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم فانه لما وصل اليها غدر بصاحبها وملكها جميعا فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج فلما فرغ منها سار عنها الى من على عكا من الفرنج فوصل اليهم في خمس

السلطان أعز حرمة قرباه وجزاه * عما سمحت به يمناه * وأفرد كل واحد منهم ومن قواد جيوشه وأفراد رجاله بخلع علمت اجانب الملوك كيف شريطة الجود * والسماحة بالموجود * وتقصى الجد بصفو الرأى دون المجهود * فأما صاحب درة الصدف * وياقوتة الشرف * فنال طال عهد الدهر بمثله مجموعا في مكان * محمولا من خراسان ولا غرو فالشمس تقفى البدور نورا * والبحر يدع الخلج مسجورا * وقد كان الامير فلك المعالي بعد ان استتب له امره واشتد بمظاهرة السلطان ظهره * دمر على اعيان عسكره المشتركين في دم ابيه فصدع ذات بينهم بوجوه الحيل * وأنواع من العلل * حتى اباد خضراءهم * وسقى ظماء الارض دماءهم واحس ابن خركاش وهو القريب العاق * والنسيب المشاق * بالداهية الدهياء فانسل تائها * بين سمع الارض وبصرها * تأباه الرعان والاباطح * وتلفظه القيعان

وعشرين قطعة كارا مملوأة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا وبلى المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها ولما وردت الاخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوأة من الرجال والعدد والاقوات فجهزت وسيرت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل فلقيها ملك انكلتار مصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص نزل مقدم من بها الى أسفلها وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها خرقا واسعا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع ما فيها وكانت عكا محتاجة الى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم ثم ان الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج ان ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مستطيلا وما زالوا يقربونه الى البلد ويقاتلون من وراءه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف غلوة فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع

* (ذكر ملك الفرنج عكا) *

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن دخل على من بالبلد أن الامير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الامراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج الى ملك افرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك فعاد علي بن أحمد الى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا واهتموا بأنفسهم ثم ان أميرين ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب وان الفرنج لم يجيبوا الى الامان اتخذوا الليل جملا وركبوا في شيء صغير وخرجوا سرا من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم عز الدين ارسل الاسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الوشاقي ومعهم غيرهم فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهنا الى وهنهم وضعفا الى ضعفهم وأيقنوا بالعطب ثم ان الفرنج ارسلوا الى صلاح الدين في معنى تسليم البلد فأجابهم الى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وان يسلم اليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فارسل الى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يدا واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم انه يتقدم الى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه لظهوره فلما عجز الناس من حفظ البلد زحف اليهم الفرنج بحدهم وحديدهم فظهر من بالبلد على سوره يحركون اعلامهم ليراها المسلمون وكانت هي العلامة اذا اخترمهم أمر فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا منهم ان الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم وكان الفرنج قد خندقوا عن خنادقهم ومالوا الى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى

المشطوب

والصياصي * فهما مس جانب القرار * طالبته هامة الماضي بالثار * فهام على وجهه ولا قصد تقيف بين تشريق وتغريب * وتصعيد وتصويب * وكان احد من أثار ذلك الشر على شمس المعالي قابوس على ما تساندت به الاخبار ابو القاسم الجعدي وكان صاحب جيشه فانحدر الى رأس الحد كانه على قفاز يرى كل صيحة عليه * وكل حشيش سهم اقواس بين جنبيه * فأمهله فلك المعالي زمانا * حتى ظن ان له دون شؤن الآخرين شانا * ثم اطباه بتطميعه وترغيبه حتى اعلقه حبالة الاقتناص * وآيسه من الطمع في الخلاص * وان لله حكما في امور عباده معلقا بآماد معلومه * وغايات محدوده * فليس قبلها مستقدم لما تأجل * ولا بعدها مستأجل لما تعجل * فاحتال ابو القاسم حتى انسل هاربا * واعتسف البيد جانبا * وما زال على حاله واستياله حتى ورد نيسابور يظن وبعض

المشطوب ان صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضرا خرج الى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه باموالهم وأنفسهم ويبذل لهم عن ذلك مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وان يكون مدة تحصيل المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم وراسلوا صلاح الدين فى ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع فى جمع المال وكان هو الامان له انما يخرج ما يصل اليه من دخل البلاد أولا بأول فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الامراء واستشارهم فأشاروا بان لا يرسل شيأ حتى يعاود يستحلفهم على اطلاق أصحابه وان يضمن الداوية ذلك لانهم اهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين فى ذلك فقال الداوية لانحلف ولانضمن لاننا نخاف غدر من عندنا وقال ملوكهم اذا سلمتم الينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيأ وأعاد الرسالة اليهم وقال نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقى وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا لانحلف انما ترسل الينا المائة ألف دينار التى حصلت والاسرى والصليب ونحن نطلق من اصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقى المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وانما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والاكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الامراء وأرباب الاموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان الى ذلك فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم واذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف فى المال الذى كان جمعه وسير الاسرى والصليب الى دمشق

(ذكر رحيل الفرنج الى ناحية عسقلان وتخريبها)

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من اصلاح أمر عكا برزوا منها فى الثامن والعشرين من رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر لا يفارقونه فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى فى عسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك ذلك اليوم الملك الافضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين اياز كوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الامراء فضايقوا الفرنج فى مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة وأرسل الافضل الى والده يستمده ويعرفه الحال فأمر العساكر بالمسير اليه فاعتذروا بانهم ما ركبوا اهبة الحرب وانما كانوا على عزم المسير لا غير فبطل المدد وعاد ملك الانكلتار الى ساقة الفرنج فحماها وجمعهم وسار واحتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقيمون قرية بالقرب منهم وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعوض

الظن اثم ان انقطاعه الى السلطان * عين الدولة وأمين الملة * على نغل دواخله * وارتهانه بسالف فعله وقابله * مع ما تمهد فى ذات البين من عقود * وتأكد من عهود * واشترك فيه من طارف ومتلود * يحل عنه عقال آثامه ويكف عنه ما حق عليه من بأس الله وانتقامه * كلا ان سوء الفعل خذول * والقاتل لا محالة مقتول * وشر الحين ما أومض بالخلاص قبل ابانه * واستيفاء مدة النضج على بحرانه * انه ايهوهم الفكاك * ثم يعقب الهلاك * كالهرة تطمع الفارة فى الخلاص حتى اذا كانت منها على غلوه * لحقتها بعدوه * لا جرم ان السلطان لما أنهى اليه صورة حاله * ومن قبل ما سمع بسوء فعاله * أمر برده وراء فى عقاله * ولقد أحسن ابن الرومى فى مقاله * الخير مصنوع بصاحبه

فتى فعلت الخير أعنيكا
والشر مفعول بفاعله
فتى فعلت الشر أعطبكا

(ذكر داراء بن شمس المعالى قابوس بن وشمكير)

ما هلك من الخيل ثم ساروا الى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم من قدروا عليه
فيقتلونه لان صلاح الدين كان قد أقسم انه لا يظفر باحد منهم الا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا
فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلا كثيرا ونزل الفرنج بها
وبات المسلمون قريبا منهم فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فابعدوا عن جماعتهم فاوقع بهم المسلمون
الذين كانوا في اليزك فقتلوا منهم وأسروا منهم ثم ساروا من قيسارية الى أرسوف وكان المسلمون
قد سبقوهم اليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الفرنج اليهم حمل المسلمون عليهم
حملة منكرة الحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتل منهم كثير فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت
الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوى أحد على احد وكان كثير من الخيالة
والسوقة قد ألقوا القيام وقت الحرب قريبا من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما
انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون الى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج
انها هزيمة لتبعتهم واستمرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة
الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق وقتل من
الفرنج كند كبير من طواغيتهم وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه اياز الطويل وهو من
الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل الفرنج نزل المسلمون واعنة خيلهم
بايديهم ثم سار الفرنج الى يافا فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ولما كان من المسلمين
بارسوف من الهزيمة ما ذكرناه سار صلاح الدين عنهم الى الرملة واجتمع باثقاله[1] بها وجمع الامراء
واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له قد رأيت ما كان منا بالامس
واذا جاء الفرنج الى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلوننا لننزاح عنها
وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الامر علينا لان العدو
قد قوى باخذ عكا وما فيها من الاسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة
حتى نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس الى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد الى
ذلك وقالوا ان أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض اولادك الكبار والا فما يدخلها منا أحد
لئلا يصيبنا ما أصاب اهل عكا فلما رأى الامر كذلك سار الى عسقلان وأمر بتخريبها فخربت
تاسع عشر شعبان وألقيت حجارتها في البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التي للسلطان
والرعية ما لا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع ولما سمع الفرنج بتخريبها
أقاموا مكانهم ولم يسيروا اليها وكان المركيس لعنه الله لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك
انكلتار بالغدر به فهرب من عنده الى مدينة صور وهي له وبيده وكان رجل الفرنج رأيا وشجاعة
وكل هذه الحروب هو أثارها فلما خربت عسقلان أرسل الى ملك انكلتار يقول له مثلك لا ينبغى
أن يكون ملكا ويتقدم على الجيوش تسمع ان صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك
يا جاهل لما بلغك انه قد شرع في تخريبها كنت سرت اليه مجدا فرحلته وملكتها صفوا عفوا
بغير قتال ولا حصار فانه ما خربها الا وهو عاجز عن حفظها وحق المسيح لو انني معك كانت
عسقلان اليوم بايدينا لم يخرب منها غير برج واحد فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها
ثاني شهر رمضان ومضى الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد وفى مدة مقامه لتخريب

قد كان دارا بن قابوس بعد
استئمانه من جانب ابي على
محمد بن محمد بن سيمجور الى
الامير نوح بن منصور الرضى
مقيما على خدمته * سهيما
في نعمته * الى أن فتح الله
على أبيه جرجان وطبرستان
فانحاز اليه مستغنيا بخدمته
عن خدمة غيره وصادف
من الاشبال والاقبال
ما اقتضاه حكم الابوة
والبنوة ثم حدره شمس
المعالى الى طبرستان فأقام
بها سدادا دون مخالفيه *
وذماما على اوليائه ومواليه *
واستنهضه منها على قرفة
ألقيت اليه فأتاه وهو
باستراباذ بريه صحة أديمه *
واستواء حديثه بقديمه *
فأحسن استقباله وانزاله
ثم دعاه في وقت ارتاب به
فركب على قصد مجلسه ثم
عطف عطفة الليث الخادر
نحو خراسان بين غياض
تشكو الاراقم بينها ضيق
المجال والمضطرب وصعوبة
المذاهب والمسرب *
واستصحب من رافقه
ووافقه من غلمانه وأهل
الثقة به الى أن عرف شمس
المعالى خبره * واستركب

عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج ثم سار صلاح الدين الى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره ومافيه من سلاح وذخائر وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج اليه وعاد الى المخيم ثامن رمضان وفي هذه الايام خرج ملك انكلتار من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالا شديدا وكاد ملك انكلتار يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها ايضا كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون

(ذكر رحيل الفرنج الى نطرون)

لما رأى صلاح الدين ان الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته الى النطرون ثالث عشر رمضان وخيم به فراسله ملك انكلتار يطلب المهادنة فكانت الرسل تتردد الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب اخي صلاح الدين فاستقرت القاعدة أن انكلتار يزوج أخته من العادل ويكون القدس ومابايدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل ويكون عكا ومابيد الفرنج من البلاد لاخت انكلتار مضافا الى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها وأن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فاجاب اليه فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والاساقفة والرهبان الى أخت انكلتار وأنكروا عليها فامتنعت من الاجابة وقيل كان المانع منه غير ذلك والله أعلم وكان العادل وملك انكلتار يجتمعان بعد ذلك ويتحاوران حديث الصلح وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين فاحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك ولم يتم بينهما صلح وكان ملك انكلتار يفعل ذلك خديعة ومكرا ثم ان الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس فسار صلاح الدين الى الرملة جريدة وترك الاثقال بالنطرون وقرب من الفرنج وبقي عشرين يوما ينتظرهم فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات في كلها ينتصر المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين الى النطرون ورحل الفرنج من يافا الى الرملة ثالث ذي القعدة على عزم قصد البيت المقدس فقرب بعضهم من بعض فعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين بالقتال فلاقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الاوحال والامطار بينهما

(ذكر مسير صلاح الدين الى القدس)

لما رأى صلاح الدين ان الشتاء قد هجم والامطار متوالية متتابعة والناس منها في ضنك وحرج ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم وكان كثير من العساكر قد طال بيكارها فاذن لهم في العود الى بلادهم للاستراحة والاراحة وسار هو الى البيت المقدس فمن بقي معه فنزلوا جميعا داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه ونزل هو بدار الاقساء مجاور بيعة قمامة وقدم اليه عسكر مصر مقدمهم الامير أبو الهيجاء السمين فقويت نفوس المسلمين بالقدس وسار الفرنج من الرملة الى النطرون ثالث ذي الحجة على عزم قصد القدس فكانت بينهم وبين يزك المسلمين وقعات أسر المسلمون في وقعة منها نيفا وخمسين فارسا من مشهوري الفرنج وشجعانهم وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد مارث منه فاحكم الموضع الذي ملك البلد منه واتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل وسلم كل برج الى أمير يتولى عمله فعمل

لاقتناص عسكره * ماقذ طار به الركض * وحالت دون مناله الارض * ولما شاهد حد خراسان رفرفت الأمنة عليه بجناحها الى أن ورد حضرة السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * فقبله أحسن قبول * ولقاه حسن مقول ومفعول * وما زال يرفع به تمويلا وتخويلا * وتفخيما وتبجيلا * حتى اغتره فضل الانبساط وعز الانتساب بما هذ قربته * وهدم رتبته * فاستوحش من عارض الاعراض * وأشفق من رهق التغير والانقباض * فلاذ بظل الليل هربا * وبات يطوي الارض تقريبا وخببا وأمر السلطان بطلبه * واتباعه في وجه مهربه * فالحق به حيث قامت الخيول تعبا * ولم تجد السيوف عليه مضربا * ففر وملتجئا الى الشار المعروف بالشاه حائل بينهما في الصفا معمورة * وأصول ود بالوفاء مأبورة * فلما استقر به المكان * وخبر حاله السلطان * كتب اليه فاسترده * وخوفه أن يأتي عليه بطلبه * فاضطر الى رده واسلامه عن يده * و بقي في

وولده الافضل من ناحية باب عمود الى باب الرحمة وارسل أتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل جماعة من الجصاصين لهم فى قطع الصخر اليد الطولى فعملوا له هنالك برجا وبدنة وكذلك جميع الامراء ثم ان الحجارة قلت عند العمالين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الامكنة البعيدة فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين فى اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام

(ذكر عود الفرنج الى الرملة)

فى العشرين من ذى الحجة عاد الفرنج الى الرملة وكان سبب عودهم انهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل فلما أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ثم ان ملك انكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميين صوروا لى مدينة القدس فانى ما رأيتها فصوروها له فرأى الوادى يحيط بها ما عدا موضعا يسيرا من جهة الشمال فسأل عن الوادى وعن عمقه فاخبر انه عميق وعر المسلك فقال هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيا وكلمة المسلمين مجتمعة لاننا ان نزلنا فى الجانب الذى يلى المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل اليهم منها الرجال الذخائر وما يحتاجون اليه وان نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع احدى الطائفتين ولم يمكن الطائفة الاخرى انجاد أصحابهم لانهم ان فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه وان تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم فالى أن يتخلصوا من الوادى ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم هذا سوى ما يتعذر علينا من ايصال ما يحتاج اليه من العلوفات والاقوات فلما قال لهم ذلك علموا صدقه ورأوا قلة الميرة عندهم وما يجرى للجالبين لها من المسلمين فأشاروا عليه بالعود الى الرملة فعادوا خائبين خاسرين

(ذكر قتل قزل ارسلان)

فى شعبان من هذه السنة قتل قزل ارسلان واسمه عثمان بن ايلدكز وقد ذكرنا انه ملك البلاد بعد وفاة أخيه البهلوان ملك أران واذربيجان وهمذان وأصفهان والرى وما بينهما واطاعه صاحب فارس وخوزستان واستولى على السلطان طغرل فاعتقله فى بعض القلاع ودانت له البلاد وفى آخر أمره سار الى اصفهان والفتن بها متصلة من لدن توفى البهلوان الى ذلك الوقت فتعصب على الشافعية وأخذ جماعة من اعيانهم فصلبهم وعاد الى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة وضرب النوب الخمس ثم انه دخل ليلة قتل الى منزله لينام وتفرق أصحابه فدخل اليه من قتله على فراشه ولم يعرف قاتله فأخذ أصحابه صاحب بابه ظنا وتخمينا وكان كريما حسن الاخلاق يحب العدل ويؤثره ويرجع الى حلم وقلة عقوبة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة قدم معز الدين قيصرشاه بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم على صلاح الدين فى رمضان وكان سبب قدومه ان والده عز الدين قلج ارسلان فرق مملكته على اولاده واعطى ولده هذا ملطية وأعطى ولده قطب الدين ملكشاه سيواس فاستولى قطب الدين على أبيه وحجر عليه وأزال حكمه والزمه أن يأخذ ملطية من أخيه ويسلمها اليه فخاف معز الدين فسار الى

الحبس مدة يكابد بؤسا وشدة الى أن وجد فرصة الانفصال * عن رق العقال * ففار فى معتقله من حيث لم يطمع فيه أحد * ولم يكن ليغنى عنه لولا المقدور رأى ولا جلد * وأبت عليه لجاجة المحنة أن يتم خلاصه * ويستتب مناصه * فأعثرت عليه حتى أعيد فى وثاقه * وزيد فى ارهاقه * الى أن شرح الله صدر السلطان لاطلاقه * فأنشأه نشأة ثانيه * وأنبت ريشه قادمه وخافيه * وأعاد حاله بالاحسان حاليه * ويده على أيدى الاضراب عاليه * ووجهه لولاية جرجان وطبرستان معضودا بأبى الحرث ارسلان الجاذب وذوى النجدة من كماة الرجال * وكفاة الابطال * لولا ان الامير فلك المعالى منوجهر سبق تمام الرأى باظهار الطاعه * وعرض ما وراء الوسع والطاقه * ولما حالت حرمة التقرب دون الاختيار عليه واسترده السلطان الى حضرته * يجرى مجرى أركان دولته * واتخذه عشرته لا يفارقه فى حفلة * ولا يزايله فى خلوة * ولا

صلاح الدين ملتجئا اليه معتضدا به فأكرمه صلاح الدين وزوجه بابنة أخيه الملك العادل
فامتنع قطب الدين من قصده وعاد معز الدين الى ملطية فى ذى القعدة وحدثنى من أثق به قال
رأيت صلاح الدين وقد ركب ليودع هذا معز الدين فترجل له معز الدين وترجل صلاح الدين
وودعه راجلا فلما أراد الركوب عضده هذا معز الدين وركب وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه
ابن عز الدين صاحب الموصل قال فعجبت من ذلك وقلت ما تبالى يا ابن أيوب بأى موتة تموت
يركب لك ملك سلجوقى وابن أتابك زنكى وفيها توفى حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين وهو ابن
أخت صلاح الدين وعلم الدين سليمان بن جندر وهو من أكابر امراء صلاح الدين أيضا وفى
رجب توفى الصفى بن القابض وكان متولى دمشق لصلاح الدين يحكم فى جميع بلاده

(ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة)

(ذكر عمارة الفرنج عسقلان)

فى هذه السنة فى المحرم رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا فى عمارتها وكان صلاح الدين
بالقدس فسار ملك انكلتار جريدة من عسقلان الى يزك المسلمين فواقعهم وجرى بين
الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بعض وفى مدة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت
سراياه تقصد الفرنج فتارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع الميرة عنهم ومن جملتها سرية كان
مقدمها فارس الدين ميمون القصرى وهو من مقدمى المماليك الصلاحية خرج على قافلة كبيرة
للفرنج فأخذها وغنم ما فيها

(ذكر قتل المركيس وملك الكندهرى)

فى هذه السنة فى ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس الفرنجى لعنه الله صاحب صور وهو
أكبر شياطين الفرنج وكان سبب قتله ان صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية وهو سنان ان
أرسل من يقتل ملك انكلتار وان قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك
انكلتار ولم يره سنان مصلحة لهم لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ لهم وشره فى
أخذ المال فعدل الى قتل المركيس فأرسل رجلين فى زى الرهبان واتصلا بصاحب صيدا وابن
بارزان صاحب رملة وكانا مع المركيس بصور فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة فأنس
بهما المركيس ووثق اليهما فلما كان بعد التاريخ عمل الاسقف بصور دعوة للمركيس فحضرها
وأكل طعامه وشرب مدامه وخرج من عنده فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه
جراحا وثيقة وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفى فيها فاتفق ان المركيس حمل اليها ليشد
جراحه فوثب عليه ذلك الباطنى فقتله وقتل الباطنيان بعده ونسب الفرنج قتله الى وضع من
ملك انكلتار لينفرد بملك الساحل الشامى فلما قتل ولى بعده مدينة صور كند من الفرنج من
داخل البحر يقال له الكندهرى وتزوج بالملكة فى ليلته ودخل بها وهى حامل وليس الحمل
عندهم مما يمنع النكاح وهذا الكندهرى هو ابن أخت ملك افرنسيس من أبيه وابن أخت
ملك انكلتار من أمه وملك هذا كندهرى بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك انكلتار وعاش
الى سنة أربع وتسعين وخمسمائة فسقط من سطح فمات وكان عاقلا كثير المداراة والاحتمال
ولما رحل ملك انكلتار الى بلاده أرسل هذا كندهرى الى صلاح الدين يستعطفه ويستميله

يقعد عنه فى وقت ركوب * ولا
يتفرد دونه بكون وكوب * الى
أن ورد الامير أبو الفوارس
ابن بهاء الدولة حضرة
السلطان منزعجا عن كرمان
لقصد عسكر أخيه اياه
مستظهرا به على معاودة
مملكته * وارتجاع بيته
ونعمته * فجمعهم ليلة مجلس
دارت فيه الكؤوس *
وطابت النفوس * وجرى
حديث الخلف والسلف *
وأعراق من أعرق منهم فى
الشرف * فنطق دارا بما
لو سكت عنه لكان أشبه
بحق الخدمة وحكم الحشمة
ووقت الاجتماع على ارضاع
العشرة * وحمله رمز الانكار
عليه على قصد المراداة *
وركوب الحماقة * حتى
تأدى به الامر الى ازعاجه
عن مكانه * واشجائه غصة
المذل على سلطانه * وأمر به
فى غد فرق فى العقال وحمل
الى بعض القلاع وقبض
على ضياعه فأجريت مجرى
الحوزيات تستغل اسوة
سائرها الى أن سأل الشيخ
الوزير فى بابه فأمر بردها
عليه معونة له على مصلحة
حاله * ومؤنة اعتقاله * وذلك

يطلب منه خلعة وقال أنت تعلم ان لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما منك محبة لك فانفذ اليه خلعة سنية منها القباء والشربوش فلبسهما بعكا

(ذكر نهب بنى عامر البصرة)

فى هذه السنة فى صفر اجتمع بنو عامر فى خلق كثير وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة وكان الامير بها اسمه محمد بن اسمعيل ينوب عن مقطعها الامير طغرل مملوك الخليفة الناصر لدين الله فوصلوا اليها يوم السبت سادس صفر فخرج اليهم الامير محمد فيمن معه من الجند فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان بجانب الخريبة ودام القتال الى آخر النهار فلما جاء الليل ثم العرب فى الـورعدة ثم ودخلوا البلد من الغد فقاتلهم أهل البلد فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين ونهبت العرب الخانات بالشاطئ وبعض محال البصرة وعبر أهلها الى شاطئ الملاحين وفارق العرب البلد فى يومهم وعاد أهله اليه وكان سبب سرعة العرب فى مفارقة البلد انهم بلغهم ان خفاجة والمنتفق قد قاربوهم فساروا اليهم وقاتلوهم أشد قتال فظفرت عامر وغنمت أموال خفاجة والمنتفق وعادوا الى البصرة بكرة الاثنين وكان الامير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعا كثيرا فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة ومن اجتمع معهم فلم يقوموا للعرب وانهزموا ودخل العرب البصرة ونهبوها وفارق البصرة أهلها ونهبت أموالهم وجرت أمور عظيمة ونهبت القسامل وغيرها يومين وفارقها العرب وعاد أهلها اليها وقد رأيت هذه القصة بعينها فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة والله أعلم

(ذكر ما كان من ملك انكتار)

فى تاسع جمادى الاولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ثم ساروا الى البيت المقدس وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة وكان سبب طمعهم ان صلاح الدين فرق عساكره الشرقية وغيرها لاجل الشتاء ويستريحوا ويحضروا البدل عوضهم وسار بعضهم مع ولده الافضل وأخيه العادل الى البلاد الجزرية لما نذكره ان شاء الله تعالى وبقى من حلقته الخاص بعض العساكر المصرية فظنوا انهم ينالون غرضا فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فرق ابراج البلد على الامراء وسار الفرنج من بيت نوبة الى قلونية سلخ الشهر وهى فرسخين من القدس فصب المسلمون عليهم البلاء وتابعوا ارسال السرايا فبلغ الفرنج منهم بما لا قبل لهم به وعلموا انهم اذا نازلوا القدس كان الشر اليهم أسرع والتسلط عليهم امكن فرجعوا القهقرى وركب المسلمون أكنافهم بالرماح والسهام ولما بعد الفرنج عن يافا سير صلاح الدين سرية من عسكره اليها فقاربوها وكمنوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم فقتلوا منهم وأسروا وغنموا وكان ذلك آخر جمادى الاولى

(ذكر استيلاء الفرنج على عسكر للمسلمين وقفل)

فى تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج الخبر بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير ومقدم العسكر فلك الدين سليمان أخو العادل لامه ومعه عدة من الامراء فاسرى الفرنج اليهم فواقعهم بنواحى الخليل فانهزم الجند ولم يقتل منهم أحد من المشهورين انما قتل من الغلمان والاصحاب وغنم الفرنج خيامهم وآلاتهم وأما القفل فانه أخذ بعضه وصعد من نجا جبل الخليل

فلم

فى المحرم سنة تسع وأربعمائة

*(ذكر مجد الدولة وكهف الملك أبى طالب رستم بن فخر الدولة) قد كان فخر الدولة كتب الى حسام الدولة أبى العباس تاش وهو بجرجان مقدمه اليها من خراسان على لسان الصاحب يبشره بولادته واجراء الله اياه فى الصنع له على كريم عادته وكان مما كتب به وقد رزقنى الله به تعالى ولدا كنيته أبا طالب طلبا للسلامة فى مدته وسميته رستم لانه من أسماء أصابه وأرومته * فلما اخترمته المنية بايع الناس مجد الدولة الا أن التى قامت عنه كانت أختا للاصبهبذ بفريم وسائر مملكة الجبل وهى فى منعة من أهلها * وعزة من جانب أرضها * فملكت على الديلم واستأثرت بالامر والنهى والحل والعقد وجرت بينه وبينها مكاوحات تأدت بها الى استنهاض بدر بن حسنويه اليه * واستملاك الرى عليه * وجرت بينهم مناوشات أفضت بالديلم أولا وبأهل الرى ثانيا الى

فلم يقدم الفرنج على اتباعهم ولو اتبعوهم نصف فرسخ لاتوا عليهم وتمزق من نجا من القفل وتقطعوا ولقوا شدة الى أن اجتمعوا وحكى لى بعض أصحابنا وكنا قد سيرنا معه شيأ للتجارة الى مصر وكان قد خرج فى هذا القفل قال لما وقع الفرنج علينا كنا قد رفعنا أحمال السير فحملوا علينا وأوقعوا بنا فضربت جمالى وصعدت الجبل وهى عدة أجمال لغيرى فلحقنا قوم من الفرنج فأخذوا الاجمال التى فى صحبتى وكنت بين أيديهم بمقدار رمية سهم فلم يصلوا الىّ فنجوت بما معى وسرت لا أدرى أين أقصد واذ قد لاح لى بناء كبير على جبل فسألت عنه فقيل لى هذا الكرك فوصلت اليه ثم عدت منه الى القدس سالما وسار هذا الرجل من القدس سالما فلما بلغ بزاعة عند حلب أخذه الحرامية فنجا من العطب وهلك عند ظنه السلامة

(ذكر سير الافضل والعادل الى بلاد الجزيرة)

قد تقدم ذكر موت تقى الدين عمر بن صلاح الدين واستيلاء ولده ناصر الدين محمد على بلاد الجزيرة فلما استولى عليها أرسل الى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه مضافا الى ما كان لابيه بالشام فلم ير صلاح الدين ان مثل تلك البلاد تسلم الى صبى فما أجابه الى ذلك فحدث نفسه بالامتناع على صلاح الدين لاشتغاله بالفرنج فطلب الافضل على بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقى الدين و ينزل عن دمشق فاجابه الى ذلك وأمره بالمسير اليها فسار الى حلب فى جماعة من العسكر وكتب صلاح الدين الى أصحاب البلاد الشرقية مثل صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب ديار بكر وغيرها يأمرهم بانفاذ العساكر الى ولده الافضل فلما راى ولد تقى الدين ذلك علم انه لا قوة له بهم فراسل الملك العادل عم أبيه يسأله اصلاح حاله مع صلاح الدين فانهى ذلك الى صلاح الدين وأصلح حاله وقرر قاعدته بان يقرر له ما كان لابيه بالشام وتؤخذ منه البلاد الجزرية واستقرت القاعدة على ذلك وأقطع صلاح الدين البلاد الجزرية وهى حران والرها وسميساط وميافارقين وحانى العادل وسيره الى ابن تقى الدين ليتسلم منه البلاد ويسيره الى صلاح الدين ويعيد الملك الافضل أين أدركه فسار العادل فلحق الافضل بحلب فاعاده الى أبيه وعبر العادل الفرات وتسلم البلاد من ابن تقى الدين وجعل نوابه فيها واستصحب ابن تقى الدين معه وعاد الى صلاح الدين بالعساكر وكان عوده فى جمادى الآخرة من هذه السنة

(ذكر عود الفرنج الى عكا)

لما عاد الملك الافضل فيمن معه وعاد الملك العادل وابن تقى الدين فيمن معهما من عساكرهما ولحقتهم العساكر الشرقية عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار وغير ذلك من البلاد واجتمعت العساكر بدمشق أيقن الفرنج انهم لا طاقة لهم بها اذا فارقوا البحر فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها فأمر صلاح الدين ولده الافضل ان يسير اليها فى عسكره والعساكر الشرقية جميعها معارضا للفرنج فى مسيرهم نحوها فسار الى مرج العيون واجتمعت العساكر معه فاقام هنالك ينتظر مسير الفرنج فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكا ولم يفارقوها

(ذكر ملك صلاح الدين يافا)

بؤس وفاقه ودماء مهراقه* وفتن ليس فيها قدر فواق من افاقه* وعن قريب بعود الخلاف جذعا* وحبل الصلاح منقطعا* فينتج عنه ابادة الرجال* واستباحة الاموال* وشرود الصلحاء فى البلاد* وضراوة السفهاء بالافساد* ولما غرض مجد الدولة بالامر و بما ينقدح على الدوام من شرر الشر* آثر البر فى الاعتزال عن سمة الامارة وحمله الاعتراف لها بالطاعة على ترك العقوق المفضى بمن تحت ولايته ورعايته الى خطة الاحتناك* المشفى بهم على خطة الاجتياح والاستهلاك* فلزم البيت منفردا بالكتب والدفاتر* ومبيضا وجه الفضل بسواد المحابر وانفرد أخوه شمس الدولة بولاية همذان وقرميسين وما والاها الى حدود بغداد وورث بدر ابن حسنويه أموالا عظيمة طالما حفظتها صدور القلاع مكتومه* وخنقتها خيوط الاكياس مختومه* فلم يلبث الا قليلا حتى استغرقتها صلات الرجال*

لما رحل الفرنج نحو عكا كان قد اجتمع عند صلاح الدين عسكر حلب وغيره فسار الى مدينة يافا وكانت بيد الفرنج فنازلها وقاتل من بها منهم وملكها في العشرين من رجب بالسيف عنوة ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وأسروا كثيرا وكان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر والقفل الذى كان معهم وقد ذكرناه وكان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقفوا على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شئ من الغنيمة أخذوه منه فان امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهرا ثم زحفت العساكر الى القلعة فقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها فطلب من بالقلعة الامان على أنفسهم وخرج البترك الكبير الذى لهم ومعه عدة من أكابر الفرنج في ذلك وترددوا وكان قصدهم منع المسلمين عن القتال فأدركهم الليل وواعدوا المسلمين أن ينزلوا بكرة غد ويسلموا القلعة فلما أصبح الناس طالبهم صلاح الدين بالنزول عن الحصن فامتنعوا واذ قد وصلهم نجدة من عكا وأدركهم ملك انكلتار فأخرج من بيافا من المسلمين وأتاه المدد من عكا وبرز الى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه أحد فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل فأكل فأمر صلاح الدين عسكره بالحملة عليهم والجد في قتالهم فتقدم اليه بعض أمرائه يعرف بالجناح وهو أخو المشطوب بن على بن أحمد الهكارى فقال له يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالجماقات يتقدمون فيقاتلون اذا كان القتال فنحن واذا كانت الغنيمة فلهم فغضب صلاح الدين من كلامه وعاد عن الفرنج وكان رحمه الله حليما كريما المقدرة ونزل في خيامه وأقام حتى اجتمعت العساكر وجاء اليه ابنه الافضل وأخوه العادل وعساكر الشرق فدخل بهم الى الرملة لينظر ما يكون منه ومن الفرنج فلزم الفرنج يافا ولم يبرحوا منها

(ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين الى دمشق)

في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها هذا التاريخ وافق أول أيلول وسبب الصلح ان ملك انكلتار لما رأى اجتماع العساكر وانه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه وقد طالت غيبته عن بلاده راسل صلاح الدين في الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولا فلم يجبه صلاح الدين الى ما طلب ظنا منه انه يفعل ذلك خديعة ومكرا وأرسل يطلب منه المصاف والحرب فاعاد الفرنجي رسله مرة بعد مرة وترك تتمة عمارة عسقلان وعن غزة والداروم والرملة وأرسل الى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة فأشار هو وجماعة الامراء بالاجابة الى الصلح وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم ونفد من نفقاتهم وقالوا ان هذا الفرنجي انما طلب الصلح ليركب البحر ويعود الى بلاده فان تأخرت اجابته الى ان يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر نحتاج نبقى ههنا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين وأكثروا القول له في هذا المعنى فأجاب حينئذ الى الصلح فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان بن بارزان الذى كان صاحب الرملة ونابلس فلما حلف صلاح الدين قال له ما عمل أحد في الاسلام ما عملت ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة فاننا أحصينا من خرج الينا في البحر من المقاتلة

فكانوا

واستنفدتهما فوق الآمال * شيمة له في التحقق بالفضل * والتخرق في البذل * وقد كان ابن فولاذ نخهم في دولة آل بويه أمره * وارتفع قدره * واشتهر صيته وذكره * والتفت عليه صناديد الديلم ومشاهير الاكراد والعرب فسأل مجد الدولة والكافلة بالتدبير أن ينزلا له عن قزوين طعمة له ولمن معه ليتزود بولايتها وجبايتها وكانا من اركان دولتهما * وظهرا من ظهور حوزتهما * يذب عنهما بسيفه وسنانه متى دهاهما خطب أو دخن على نارهما حطب رطب * فضنا عليه بما الضيق رقعة المملكة وبكونه درة الدخل وادليا اليه بظاهر العذر فقصد أطراف الرى على جملة العصيان يفسد ويغير * ويقطع دون أهلها سبيل من عير * ومال عليهما بما يلي جانبه من قرى وضياع * وربيع وارتفاع * الى أن استمالا بالاصبهبذ المقيم بغريم فأتاهما في رجراجة ضخمة من الجيلية * أولى البأس والجبهة قتالا وشوه القراع *

فكانوا ستمائة ألف رجل ما عاد منهم الى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلتهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج فى زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا وعادت كل طائفة الى بلادها وأقام بالساحل الشامى ملكا على الفرنج والبلاد التى بأيديهم الكندهرى وكان خير الطبع قليل الشر رفيقا بالمسلمين محبا لهم وتزوج بالملكة التى كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدين كما ذكرناه وأما صلاح الدين فانه بعد تمام الهدنة سار الى البيت المقدس وأمر باحكام سوره وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها الوقوف وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج والاحرام منه فلم يمكنه ذلك فسار عنه خامس شوال نحو دمشق واستناب بالقدس أميرا اسمه جورديك وهو من المماليك النورية ولما سار عنه جعل طريقه على الثغور الاسلامية كنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت وتعهد هذه البلاد وأمر باحكامها فلما كان فى بيروت أتاه بيمند صاحب انطاكية وأعمالها واجتمع به وخدمه فخلع عليه صلاح الدين وعاد الى بلده فلما عاد رحل صلاح الدين الى دمشق فدخلها فى الخامس والعشرين من شوال وكان يوم دخوله اليها يوما مشهودا وفرح الناس به فرحا عظيما لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الاسلام

(ذكر وفاة قلج ارسلان)

فى هذه السنة منتصف شعبان توفى الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق السلجوقى بمدينة قونية وكان له من البلاد قونية وأعمالها واقصرا وسيواس وملطية وغير ذلك من البلاد وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة الى بلاد الروم فلما كبر فرق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا اليه وحجر عليه ولده قطب الدين وكان قلج ارسلان قد استناب فى مدينة ملكه رجلا يعرف باختيار الدين حسن فلما غلب قطب الدين على الامر قتل حسنا ثم أخذ والده وسار به الى قيسارية ليأخذها من أخيه الذى سلمها اليه أبوه فحصرها مدة فوجد والده قلج ارسلان فرصة فهرب ودخل قيسارية وحده فلما علم قطب الدين ذلك عاد الى قونية واقصرا فملكهما ولم يزل قلج ارسلان يتحول من ولد الى ولد وكل منهم يتبرم به حتى مضى الى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلو فلما رآه فرح به وخدمه وجمع العساكر وسار هو معه الى قونية فملكها وسار الى اقصرا ومعه والده قلج ارسلان فحصرها فمرض أبوه فعاد به الى قونية فتوفى بها ودفن هناك وبقى ولده غياث الدين فى قونية مالكا لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان على ما نذكره ان شاء الله تعالى وقد حدثنى بعض من أثق اليه من أهل العلم بما يحكيه وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا ولكن نذكره قال ان قلج ارسلان قسم بلاده بين أولاده فى حياته فسلم دوقاط الى ابنه ركن الدين سليمان وسلم قونية الى ولده كيخسرو غياث الدين وسلم انقرة وهى التى تسمى انكورية الى ولده محيى الدين وسلم ملطية الى ولده معز الدين قيصرشاه وسلم ابلستين الى ولده مغيث الدين وسلم قيسارية الى ولده نور الدين محمود وسلم سيواس واقصرا الى ولده قطب الدين وسلم نكسار الى ولد آخر وسلم اماسيا الى ولد أخيه هذه أمهات البلاد ويضاف الى كل بلد من هذه ما يجاورها من البلاد الصغار التى ليست مثل هذه ثم انه ندم على

وصدقوه المصاع * وجرت بينهما فى دفعات ملاحم استلحمت كثيرا من الفريقين وأصاب ابن فولاذ فى ساقه نشابة أثخنته فولى فيمن تبعه الى سمت الدامغان حتى ألم بها فرم الرث * وعالج المرتث * وكتب الى فلك المعالى منوچهر يستمده على عسكر الرى على أن يقيم له الخطبة ويظهر الطاعة ويلتزم الاتاوة فأمده بألفى رجل يوزن آحادهم بآلاف * وأفرادهم باضعاف * يرون الشرف فرضا لمن مات تحت المشرفيات * والتثريب حقا على من حاد عن اليثربيات * ووصل جناحهم بمال قضى به حق انقطاعه اليه * واعتماده عن ظهر الثقة عليه * ونهض نحو الرى حتى أناخ بظاهرها فأعاد الاغاره * ومنع المائرة والماره * وغادر الديلم فى ضنكة البلاء * وضيقة اللأواء * حتى اضطر مجد الدولة ومن والت التدبير الى ايثاره بأصبهان فعقدها عليها وخلى بينه وبينها استمالة لقلبه * واستعاذة من شره * فطارت عند ذلك نعرة

ذلك وأراد أن يجمع الجميع لولده الاكبر قطب الدين وخطب له ابنة صلاح الدين يوسف صاحب
مصر والشام ليقوى به فلما سمع باقي أولاده بذلك امتنعوا عليه وخرجوا عن طاعته وزال حكمه
عنهم فسار يتردد بينهم على سبيل الزيارة فيقيم عند كل واحد منهم مدة وينتقل الى الآخر ثم انه
مضى الى ولده كيخسرو صاحب قونية على عادته فخرج اليه والقيه وقبل الارض بين يديه وسلم
قونية اليه وتصرف عن أمره فقال لكيخسرو أريد أسير الى ولدي الملعون محمود وهو صاحب
قيسارية وتجيء أنت معي لآخذها منه فتجهز وسار معه وحصر محمودا بقيسارية فمرض قلج
ارسلان وتوفي عليها فعاد كيخسرو وبقي كل واحد من الاولاد على البلد التي بيده وكان قطب
الدين صاحب اقصرا وسيواس اذا أراد أن يسير من احدى المدينتين الى الاخرى يجعل طريقه
على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود وليست على طريقه انما كان يقصدها ليظهر المودة
لاخيه والمحبة له وفي نفسه الغدر فكان أخوه محمود يقصده ويجتمع به ففي بعض المرات نزل
بظاهر البلد على عادته وحضر أخوه محمود عنده غير محتاط فقتله قطب الدين وألقى رأسه الى
أصحابه واراد أخذ البلد فامتنع من به من اصحاب اخيه عليه ثم انهم سلموه اليه على قاعدة استقرت
بينهم وكان عند محمود امير كبير وكان يحذره من اخيه قطب الدين ويخوفه فلم يصغ اليه وكان
جوادا كثير الخير والتقدم في الدولة عند نور الدين فلما قتل قطب الدين اخاه قتل حسنا معه والقاه
على الطريق فجاء كلب يأكل من لحمه فثار الناس وقالوا لا سمعا ولا طاعة هذا رجل مسلم وله ههنا
مدرسة وتربة وصدقات دارة وافعال حسنة لا نتركه تأكله الكلاب فأمر به فدفن في
مدرسته وبقي اولاد قلج ارسلان على حالهم ثم ان قطب الدين مرض ومات فسار اخوه ركن
الدين سليمان صاحب دوقاط الى سيواس وهي تجاوره فملكها ثم سار منها الى قيسارية واقصرا
ثم بقي مديدة وسار الى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها ففارقها غياث الدين
الى الشام ثم الى بلد الروم وكان من أمره ما نذكره ان شاء الله تعالى ثم سار بعد ذلك الى ركن
الدين الى نكسار واماسيا فملكها وسار الى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسمائة فملكها وفارقها
أخوه معز الدين الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب وكان هذا معز الدين تزوج ابنة للعادل فأقام
عنده واجتمع لركن الدين ملك جميع الاخوة ما عدا انقرة فانها منيعة لا يوصل اليها فجعل عليها
عسكرا يحصرها صيفا وشتاء ثلاث سنين فتسلمها سنة احدى وستمائة ووضع على أخيه الذي
كان بها من يقتله اذا فارقها فلما سار عنها قتل وتوفي ركن الدين في تلك الايام ولم يسمع خبر قتل
أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه وانما أوردنا هذه الحادثة ههنا لنتبع بعضها بعضا ولاني لم
أعلم تواريخ كل حادثة منها لأثبتها فيه

* (ذكر ملك شهاب الدين اجمير وغيرها من الهند) *

قد ذكرنا سنة ثلاث وثمانين غزوة شهاب الدين الغوري الى بلد الهند وانهزامه وبقي الى الآن
وفي نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا وما ألزمهم من الهوان فلما كانت هذه
السنة خرج من غزنة وقد جمع عساكره وسار فيها بطلب غزوة الهندي الذي هزمه تلك النوبة فلما
وصل الى برشاور تقدم اليه شيخ من الغورية كان يدل عليه فقال له قد قربنا من العدو وما يعلم
أحد أين يمضي ولا من يقصد ولا ترد على الامراء سلاما وهذا لا يجوز فعله فقال له السلطان اعلم

الخلاف عن رأسه * ورحلت
وحرة العناد من صدره *
وأقبل يروض عسكره على
رشاد وسداد * ويغل أيديهم
دون امتداد الى فساد *
وصرف عسكر الامير
منوچهر وراءهم يذكر
صلاح حاله واستغنائه
عن رجاله * وعطف الى
أصبهان خاطبا لمجد الدولة
على منابرها وذلك في سنة
سبع وأربعمائة * وكان
نصر بن الحسن بن فيروزان
قد انقطع الى السلطان يمين
الدولة وأمين الملة فأقام على
خدمته الى أن جعل ناحية
بيار وجومند برسمه فنهض
اليهما وأقام بهما يستغلهما *
ويتوفر عليه دخلهما * الى
أن دعاه مجد الدولة من
الري فاعتسف البيد اليها
اشفاقا من عسكر شمس
المعالي قابوس ومكايده *
وعيون ربابائه ومراصده *
فلما وصل اليها عرف له حق
قرابته * وقوبل بما اقتضاه
حكم طاعته واستجابته *
فبقي هذه السنين مرجوعا
اليه في الرأي والتدبير *
وموثوقا به في التقديم
والتأخير * الى ان عثر منه
على ممالأة

أنني منذ هزمني هذا الكافر ما نمت مع زوجتي ولا غيرت ثياب البياض عني وأنا سائر الى عدوي ومعتمد على الله تعالى لا على الغورية ولا على غيرهم فان نصرني الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وان انهزمنا فلا تطلبوني فيما انهزمت ولو هلكت تحت حوافر الخيل فقال له الشيخ سوف ترى بني عمك من الغورية ما يفعلون فينبغي أن تكلمهم وترد سلامهم ففعل ذلك وبقي امراء الغورية يتضرعون ويقولون سوف ترى ما نفعل وسار الى أن وصل الى موضع المصاف الاول وجازه مسيرة أربعة أيام وأخذ عدة مواضع من بلاد العدو فلما سمع الهندي تجهز وجمع عساكره وسار يطلب المسلمين فلما بقي بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراءه والكافر في أعقابه أربع منازل فارسل الكافر اليه يقول له أعطني يدك انك تصافني في باب غزنة حتى اجيء وراءك والا فنحن منقلون ومثلك لا يدخل البلاد شبيه اللصوص ثم يخرج هاربا ما هذا فعل السلاطين فاعاد الجواب انني لا أقدر على حربك وتم على حاله عائدا الى أن بقي بينه وبين بلاد الاسلام ثلاثة أيام والكافر في اثره يتبعه حتى لحقه قريبا من مرنده فجرد شهاب الدين من عسكره سبعين ألفا وقال أريد هذه الليلة تدورون حتى تكونوا وراء عسكر العدو وعند صلاة الصبح تأتون أنتم من تلك الناحية وأنا من هذه الناحية ففعلوا ذلك وطلع الفجر ومن عادة الهنود انهم لا يبرحون من مضاجعهم الى أن تطلع الشمس فلما اصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب وضربت الكوسات فلم يلتفت ملك الهند الى ذلك وقال من يقدم على اناهذا والقتل قد اكثر في الهنود والنصر قد ظهر للمسلمين فلما رأى ملك الهند ذلك أحضر فرساله سابقا وركب ليهرب فقال له اعيان اصحابه انك حلفت لنا انك لا تخلينا وتهرب فنزل عن الفرس وركب الفيل ووقف موضعه والقتال شديد والقتل قد كثر في اصحابه فانتهى المسلمون اليه واخذوه اسيرا وحينئذ عظم القتل والاسر في الهنود ولم ينج منهم الا القليل واحضر الهندي بين يدي شهاب الدين فلم يخدمه فأخذ بعض الحجاب بلحيته وجذبه الى الارض حتى اصابها جبينه واقعده بين يدي شهاب الدين فقال له شهاب الدين لو استأسرتني ما كنت تفعل بي فقال الكافر قد استعملت لك قيدا من ذهب اقيدك به فقال شهاب الدين بل نحن ما نجعل لك من القدر ما تقيدك وغنم المسلمون من الهنود اموالا كثيرة وامتعة عظيمة وفي جملة ذلك أربعة عشر فيلا من جملتها الفيل الذي جرح شهاب الدين في تلك الوقعة وقال ملك الهند لشهاب الدين ان كنت طالب بلاد فما بقي فيها من يحفظها وان كنت طالب مال فعندي أموال تحمل اجمالك كلها فسار شهاب الدين وهو معه الى الحصن الذي له يعول عليه وهو اجمير فأخذه واخذ جميع البلاد التي تقاربه واقطع جميع البلاد لمملوكه قطب الدين ايك وعاد الى غزنة وقتل ملك الهند

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة قبض على امير الحاج طاشتكين ببغداد وكان نعم الامير عادلا في الحاج رفيقا بهم محبا لهم له اوراد كثيرة من صلوات وصيام وكان كثير الصدقة لا جرم وقفت اعماله بين يديه تخلص من السجن على ما نذكره ان شاء الله تعالى وفيها خرج السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل من الحبس بعد موت قزل ارسلان بن ايلدكز والتقى هو وقتلغ اينانج بن البهلوان بن ايلدكز فانهزم اينانج الى الري على ما نذكره ان شاء الله تعالى سنة تسعين وخمسمائة وفيها في رجب توفي

لبعض المخالفين فقبض عليه وحبسه في قلعة أستوناوند وما زال بها محصورا * وفي مخالب الامتحان مأسورا * حتى عني عما جناه * ورد ثانيا الى ما تولاه * ووافق ما به خلع الديلم لجام الهيبة لعدم السياسة * وانفراد مجد الدولة في بيته بالدراسة * وتبسط الديلم فيما شاؤا من غصب * وقطع ونهب وكبس ونقب * لا يرتدع منهم الامن أشعره الله المخافه * وأودع صدره الرحمة والرأفه * فانبرى نصر بن الحسن لقمع أولئك الضلال فاجتاح منهم فريقا * وأوسع آخرين تفريقا وتمزيقا * فلما رأى القوم ما دهاهم في أضرابهم من حصده واستئصاله * تجمعوا على قصده وقتاله * وأحاطوا بداره فدافعهم بخاصته مليا ثم انثنى عنهم منهزما * وغادر ملكه في الدار منهوبا ومغتنما * وما زال يضطرب في محنته * الى آخر مدته

(ذكر بهاء الدولة وما أفضى اليه أمره)

قد كان بهاء الدولة بعد أن

الامير السيد على بن المرتضى العلوى الحنفى مدرس جامع السلطان ببغداد وفى شعبان منها توفى ابو على الحسن بن هبة الله بن البوقى الفقيه الشافعى الواسطى وكان عالما بالمذهب انتفع به الناس

(ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر وفاة صلاح الدين و بعض سيرته)

فى هذه السنة فى صفر توفى صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها بدمشق ومولده بتكريت وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة وكان سبب مرضه انه خرج يتلقى الحاج فعاد ومرض من يومه مرضا حادا بقى به ثمانية ايام وتوفى رحمه الله وكان قبل مرضه قد احضر ولده الافضل عليا وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل وقال قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا فى هذه البلاد شاغل فاى جهة نقصد فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لانه كان قد وعده اذا اخذها ان يسلمها اليه واشار ولده الافضل بقصد بلاد الروم التى بيد اولاد قلج ارسلان وقال هى اكثر بلادا وعسكرا ومالا واسرع مأخذا وهى ايضا طريق الفرنج اذا خرجوا على البر فاذا ملكناها منعناهم من العبور فيها فقال كلا كما مقصر ناقص الهمة بل اقصد أنا بلاد الروم وقال لاخيه تأخذ انت بعض اولادى وبعض العسكر وتقصد خلاط فاذا فرغت انا من بلاد الروم جئت اليكم وندخل منها أذربيجان ونتصل ببلاد العجم فما فيها من يمنع عنها ثم اذن لاخيه العادل فى المضى الى الكرك وكان له وقال له تجهزوا احضر لتسير فلما سار الى الكرك مرض صلاح الدين وتوفى قبل عوده وكان رحمه الله كريما حليما حسن الاخلاق متواضعا صبورا على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه وبلغنى أنه كان يوما جالسا وعنده جماعة فرمى بعض المماليك بعضا بسرموز فاخطأته ووصلت الى صلاح الدين فاخطأته ووقعت بالقرب منه فالتفت الى الجهة الاخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها وطلب مرة الماء فلم يحضر وعاود الطلب فى مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر فقال يا أصحابنا والله قد قتلنى العطش فاحضر الماء فشربه ولم ينكر التوانى فى احضاره وكان مرة قد مرض مرضا شديدا أرجف عليه بالموت فلما برئ منه وأدخل الحمام كان الماء حارا فطلب ماء باردا فاحضره الذى يخدمه فسقط من الماء شئ على الارض فناله منه شئ فتألم له لضعفه ثم طلب البارد أيضا فاحضر فلما قاربه سقطت الطاسة على الارض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على ان قال للغلام ان كنت تريد قتلى فعرفنى فاعتذر اليه فسكت عنه وأما كرمه فانه كان كثير البذل لا يقف فى شئ يخرجه ويكفى دليلا على كرمه انه لما مات لم يخلف فى خزائنه غير دينار واحد صورى وأربعين درهما ناصرية وبلغنى انه أخرج فى مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال وأما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت الحصر ولما انقرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الانواع ما يفوت الاحصاء ففرقه جميعه وأما تواضعه فانه كان ظاهرا لم يتكبر على احد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع فاذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا

يقعد

فتح الله على السلطان سجستان راغبا فى موالاته * خاطبا لمصافاته * مؤثرا لمكاتبته * حريصا على مقاربته * بحكم الجوار الواقع بين الدولتين * والصقب الحادث بين المملكتين * ووافق ذلك من السلطان رغبة فى مثله من جهته اشرفه * بنفسه وساقه * ولما حيز لهما من الكفاءة فى الملك * والملاءة فى سعة الملك * فسفر بينهما السفراء على الحام سدى القربة * واحصاد قوى المودة * حتى خلصت القلوب * ونقيت الجيوب * وتأكدت العهود * وتأحدت الحدود * وعندها أحب السلطان أن يجعل المصافاة مجاهرة * والموالاة مصاهرة * فأنهض القاضى أبا عمر البسطامى شيخ الحديث بنيسابور الى فارس وهو النبيه فضلا * والوجيه محلا * والامام علما وتحقيقا * والحسام لسانا فصيحا ورأيا وثيقا * وصادف من اجلال بهاء الدولة واكرامه * واظهار التلطف عليه فى مرامه * ما اقتضته جلالة من أصدره * ومساعدة القدر له فى كل

يقعد حتى يفرغ الفقير ولم ير بأسا بشئ مما ينكره الشرع وكان عنده علم ومعرفة وسمع الحديث
واسمعه وبالجملة فكان نادرا في عصره كثير المحاسن والافعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار
وفتوحه تدل على ذلك وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا

(ذكر حال أهله وأولاده بعده)

لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الاكبر الافضل نور الدين علي وكان قد حلف
له العساكر جميعهم غير مرة في حياته فلما مات ملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك
وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الاعمال الى الداروم وكان ولده الملك
العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى
عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك وكان
بحماة محمود بن تقي الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع
الملك الافضل وكان الملك العادل بالكرك قد سار اليه كما ذكرنا فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد
من أولاد أخيه فأرسل اليه الملك الافضل يستدعيه ليحضر عنده فوعده ولم يفعل فأعاد مراسلته
وخوفه من الملك العزيز صاحب مصر ومن أتابك عز الدين صاحب الموصل فانه كان قد سار عنها
الى بلاد العادل الجزرية على ما نذكره ويقول له ان حضرت جهزت العساكر وسرت الى بلادك
حفظتها وان أقمت قصدك أخي الملك العزيز لما بينكما من العداوة واذا ملك عز الدين بلادك
فليس له دون الشام مانع وقال لرسوله ان حضر معك والا فقل له قد أمرني ان سرت اليه بدمشق
عدت معك وان لم تفعل أسير الى الملك العزيز أحالفه على ما يختار فلما حضر الرسول عنده وعده
بالمجيء فلما رأى ان ليس معه منه شئ غير الوعد أبلغه ما قيل له في معنى موافقة العزيز فحينئذ سار
الى دمشق وجهز الافضل معه عسكرا من عنده وأرسل الى صاحب حمص وصاحب حماة والى
أخيه الملك الظاهر بحلب يحثهم على انفاذ العساكر مع العادل الى البلاد الجزرية ليمنعها من
صاحب الموصل ويخوفهم ان هم لم يفعلوا ومما قال لاخيه الظاهر قد عرفت صحبة أهل الشام
لبيت أتابك فوالله لئن ملك عز الدين حران ليقومن أهل حلب عليك وليخرجنك منها وأنت
لا تعقل وكذلك يفعل بي أهل دمشق فاتفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه فجهزوا عساكرهم
وسيروها الى العادل وقد عبر الفرات فعسكر عساكرهم بنواحي الرها بمرج الريحان وسنذكر
ما كان منه ان شاء الله تعالى

(ذكر مسير أتابك عز الدين الى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه)

لما بلغ أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة صلاح الدين جمع أهل
الرأي من أصحابه وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير دولته والمقدم على كل من فيها وهو نائبه
فيهم واستشارهم فيما يفعل فسكتوا فقال له بعضهم وهو أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك
أنا أرى انك تخرج مسرعا جريدة فيمن خف من أصحابك وحلقتك الخاص وتتقدم الى الباقين
باللحاق بك وتعطي من هو محتاج الى شئ ما يتجهز به ويلحق بك الى نصيبين وتكاتب أصحاب
الاطراف مثل مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل وسنجر شاه ابن أخيك صاحب جزيرة
ابن عمر واخاك عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين تعرفهم انك قد سرت وتطلب منهم المساعدة

قدره وأقام عليه منقولا
من مجلس الايجاب الى
متوسد الاكرام ومن
راحة الاشبال الى عاتق
الاكبار غير أن بعيد
طلوعه عليه وافق منه
علة أحدثها سوء المزاج
بين الف الراحة والراح
فاعياه تحيز المراد على
العارض العاتق وقد كان
فخر الملك مقيما ببغداد وهو
الوزير والنصير * ومن
اليه الرأي والتدبير * فجشم
القاضي الى ما قبله ليتفاوضا
فيما يوجب صرف الرأي
اليه * وتأريب العقد
عليه * فاتفق مع وصوله
استئثار قضاء الله تعالى
ببهاء الدولة وانتقال روحه
الى جوار ربه وبايع الناس
ولده الامير أبا شجاع ولقبه
القادر بالله أمير المؤمنين
بسلطان الدولة واستتب له
طارق الامر واعتدل عليه
عمود الملك وجرى له الطائر
بالاقبال * وحسن الفال *
ولما عاد القاضي من بغداد
الى ما قبله لم يملك له من ذاته
جوابا يغنيه * ولا حوارا
يشفيه * اذ كان دونه

وتبذل لهم اليمين على ما يلتمسونه فتى رأوك قد سرت خافوك وان أجابك أخوك صاحب سنجار ونصيبين الى الموافقة والا بدأت بنصيبين أخذتها وتركت فيها من يحفظها ثم سرت نحو الخابور وهو له أيضا فاقطعه وتركت عسكره مقابل اخيك يمنعه من الحركة ان ارادها وقصدت الرقة فلا تمنع نفسها وتأتى حران والرها فليس فيها من يحفظهما الاصاحب ولا عسكر ولا ذخيرة فان العادل أخذهما من ابن تقى الدين ولم يقم فيهما ما يصلح حالهما وكان القوم يتكلمون على قوتهم فلم يظنوا هذا الحادث فاذا فرغت من ذلك الطرف عدت الى من امتنع من طاعتك فقاتلته وليس وراءك ما تخاف عليه فان بلدك عظيم لا يبالى بكل من وراءك فقال مجاهد الدين المصلحة اننا نكاتب أصحاب الاطراف ونأخذ رأيهم فى الحركة ونستميلهم فقال له أخى ان اشاروا بترك الحركة تقبلون منهم قال لا قال فانهم لا يشيرون الا بتركها لانهم لا يرون ان يقوى هذا السلطان خوفا منه وكانى بهم يغالطونكم مهما كانت البلاد الجزرية فارغة من صاحب وعسكر فاذا جاءها من يحفظها جاهروكم بالعداوة ولم يمكنه أكثر من هذا القول خوفا من مجاهد الدين حيث رأى ميله الى ما تكلم به فانفصلوا على ان يكاتبوا أصحاب الاطراف فكاتبوهم فكل اشار بترك الحركة الى ان ينظر ما يكون من اولاد صلاح الدين وعمهم فتثبط ثم ان مجاهد الدين كرر المراسلات الى عماد الدين صاحب سنجار يعده ويستميله فبينما هم على ذلك اذ جاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق وقد سار عن دمشق الى بلاده يذكر فيه موت اخيه وان البلاد قد استقرت لولده الملك الافضل والناس متفقون على طاعته وانه هو المدبر لدولة الافضل وقد سيره فى عسكر جم كثير العدد لقصد ماردين لما بلغه ان صاحبها تعرض الى بعض القرى التى له وذكر من هذا النحو شيأ كثيرا فظنوه حقا وان قوله لا ريب فيه ففتروا عن الحركة وذلك الرأى فسيروا الجواسيس فأتتهم الاخبار بانه فى ظاهر حران من نحو مائتى خيمة لا غير فعادوا وتحركوا فالى ان تقررت القواعد بينهم وبين صاحب سنجار واقبلت العساكر الشامية التى سيرها الافضل وغيره الى العادل فامتنع بها وسار اتابك عز الدين عن الموصل الى نصيبين واجتمع هو واخوه عماد الدين بها وساروا على سنجار نحو الرها وكان العادل قد عسكر قريبا منها بمرج الريحان نخافهم خوفا عظيما فلما وصل اتابك عز الدين الى تل موزن مرض بالاسهال فأقام عدة ايام فضعفت منه الحركة وكثر مجىء الدم منه فخاف الهلاك فترك العساكر مع اخيه عماد الدين وعاد جريدة فى مائتى فارس ومعه مجاهد الدين واخى مجد الدين فلما وصل الى دنيسر استولى عليه الضعف فاحضر أخى وكتب وصية ثم سار فدخل الموصل وهو مريض أول رجب

(ذكر وفاة أتابك عز الدين وشئ من سيرته)

فى هذه السنة توفى أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل بالموصل وقد ذكرنا عوده اليها مريضا فبقى فى مرضه الى التاسع والعشرين من شعبان فتوفى رحمه الله ودفن بالمدرسة التى انشأها مقابل دار المملكة وكان قد بقى ما يزيد على عشرة أيام لا يتكلم الا بالشهادتين وتلاوة القرآن واذا تكلم بغيرها استغفر الله ثم عاد الى ما كان عليه فرزق خاتمة خير رضى الله عنه وكان رحمه الله خير الطبع كثير الخير والاحسان لاسيما الى

رسولا لابيه * فصرفه محملا من رسالته فى وراثة الود والوفاء * بسالف العهد واشتراء الخلوص بقاصية الجهد * ما اقتضاه حكم الابتداء بغرس الوداد * واستثمار الوفاء على ظهر البعاد * وقد كان الامير أبو الفوارس أخو الامير سلطان الدولة مقيما بكرمان فشجر بينهما خلاف اقتضى سلطان الدولة تجريد الجيوش لقصده * واستصفاء تلك النواحى واستخلاصها من يده * فنهض هو لمقاومتهم وكف عاديتهم وأوقدوا بينهم حربا افنت الرجال أكلا وشربا * واجتاحت الارواح طعنا وضربا * واستقرت الكشفة باتباع الامير أبى الفوارس فانقلبوا مهزومين وأقبل هو نحو سجستان * يؤم حضرة السلطان * يمين الدولة ممتطيا رجاءه * ومستنهضا كرمه لرده وراءه * فلما شارفها وقد كان أنهى الى السلطان خبر اقباله أمر أبا منصور

شيوخ قد خدموا أباه فانه كان يتعهدهم بالبر والاحسان والصلة والاكرام ويرجع الى قولهم
ويزور الصالحين ويقربهم ويشفعهم وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لم يكلم جليساله
الا وهو مطرق وما قال فى شئ يسئله لا حياء وكرم طبع وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة
التصوف وكان يلبس تلك الخرقة كل ليلة ويخرج الى مسجد قد بناه فى داره ويصلى فيه نحو
ثلث الليل وكان رقيق القلب شفيقا على الرعية بلغنى عنه انه قال بعض الايام انى سهرت الليلة
كثيرا وسبب ذلك أنى سمعت صوت نائحة فظننت ان ولد فلان قد مات وكان قد سمع انه مريض
قال فضاق صدرى وقمت من فراشى أدور فى السطح فلما طال على الامر أرسلت خادما الى
الجاندارية فأرسل منهم واحدا يستعلم الخبر فعاد وذكر انسانا لا أعرفه فسكن بعض ما عندى
فنمت ولم يكن الرجل الذى ظن ان ابنه مات من أصحابه انما كان من رعيته كان ينبغى ان
تتأخر وفاته وانما قدمناها لتتبع أخباره بعضها بعضا

(ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط)

فى هذه السنة أول جمادى الاولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وكان بين قتله وموت
صلاح الدين شهران فانه أسرف فى اظهار الشماتة بموت صلاح الدين فلم يمهله الله تعالى ولما بلغه
موت صلاح الدين فرح فرحا كثيرا وعمل تختا جلس عليه ولقب نفسه بالسلطان المعظم
صلاح الدين وكان لقبه سيف الدين فغيره وسمى نفسه عبد العزيز وظهر منه اختلال وتخليط
وتجهز ليقصد ميافارقين يحصرها فادركته منيته وكان سبب قتله ان هزارديناري وهو ايضا
من مماليك شاه أرمن ظهير الدين كان قد قوى وكثر جمعه وتزوج ابنة بكتمر فطمع فى الملك فوضع
عليه من قتله فلما قتل ملك بعده هزارديناري بلاد خلاط واعمالها وكان بكتمر دينا خيرا
صالحا كثير الخير والصلاح والصدقة محبا لاهل الدين والصوفية كثير الاحسان اليهم
قريبا منهم ومن سائر رعيته محبوبا اليهم عادلا فيهم وكان جوادا شجاعا عادلا فى رعيته حسن
السيرة فيهم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة شتى شهاب الدين ملك غزنة فى برشاور وجهز مملوكه أيبك فى عساكر كثيرة
فادخله بلاد الهند يغنم ويسبى ويفتح من البلاد ما يمكنه فدخلها وعاد وخرج هو وعساكره سالما
قد ملؤا أيديهم من الغنائم وفيها فى رمضان توفى سلطان شاه صاحب مرو وغيرها من خراسان
وملك اخوه علاء الدين تكش بلاده وسنذكره سنة تسعين ان شاء الله وفيها امر الخليفة
الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ونقل اليها من الكتب
النفيسة الوفا لا يوجد مثلها وفيها فى ربيع الاول فرغ من عمارة الرباط الذى أمر بانشائه
الخليفة أيضا بالحريم الطاهرى غربى بغداد على دجلة وهو من أحسن الربط ونقل اليه كتبا
كثيرة من أحسن الكتب وفيها ملك الخليفة قلعة من بلاد خوزستان وسبب ذلك ان صاحبها
سوسيان بن شملة جعل فيها دزدارا فاساء السيرة مع جندها فغدر به بعضهم فقتله ونادوا بشعار
الخليفة فأرسل اليها وملكها وفيها انقض كوكبان عظيمان وسمع صوت هدة عظيمة
وذلك بعد طلوع الفجر وغلب ضوءهما القمر وضوء النهار وفيها مات الامير داود بن عيسى

نصر بن اسحق النائب عن
الامير صاحب الجيش أبى
المظفر نصر بن ناصر الدين
سبكتكين بخدمة
استقباله * وتكلف
الواجب من انزاله * واقامة
أنزاله * وانزال من معه
من طبقات رجاله * ونثر
عشرة آلاف دينار له من
خاصة بيت ماله * فبلغ من
ذلك مبلغا شهد من كان
شاهدا بسجستان من
قوانها وطرا نها ان أحدا
من ملوك هذه الاقاليم
لم يتكلف مثله لاحد من
أولاد الملوك ولم يخل ان
مثله يسمح به تيار البحور *
فكيف اقطار الصدور *
واكتسب ابو منصور بذلك
لنفسه ذكرا عقد بالنجم
ضفائره * وافاض على
الشرق بعضه وعلى
الغرب سائره * ولما وصل
الى حضرة السلطان
أوجب قضاء حق مقدمه
بالاستقبال * وتلقى عظيم
قدره بالاجلال * وحمل
اليه من الذهب والفضة
والخيل المسومة والانعام *
والاقدام بكل ما ينتمى الى

ابن محمد بن أبي هاشم أمير مكة وما زالت مكة تكون له تارة ولاخيه مكثر تارة الى أن مات

(ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندى)

كان شهاب الدين الغورى ملك غزنة قد جهز مملوكه قطب الدين وسيره الى بلاد الهند للغزاة فدخلها فقتل فيها وسبى وغنم وعاد فلما سمع به ملك بنارس وهو أكبر ملك فى الهند ولايته من حد الصين الى بلاد ملاوا طولا ومن البحر الى مسيرة عشرة أيام من لهاور عرضا وهو ملك عظيم فعندها جمع جيوشه وحشرها وسار يطلب بلاد الاسلام ودخلت سنة تسعين فسار شهاب الدين الغورى من غزنة بعساكره نحوه فالتقى العسكران على ماخون وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل وكان مع الهندى سبعمائة فيل ومن العسكر على ما قيل ألف ألف رجل ومن جملة عسكره عدة أمراء مسلمين كانوا فى تلك البلاد أبا عن جد من أيام السلطان محمود ابن سبكتكين يلازمون شريعة الاسلام ويواظبون على الصلوات وأفعال الخير فلما التقى المسلمون والهنود اقتتلوا فصبر الكفار لكثرتهم وصبر المسلمون لشجاعتهم فانهزم الكفار ونصر المسلمون وكثر القتل فى الهنود حتى امتلأت الارض وجافت وكانوا لا يأخذون الا الصبيان والجوارى وأما الرجال فيقتلون واخذ منهم تسعين فيلا وباقى الفيلة قتل بعضها وانهزم بعضها وقتل ملك الهند ولم يعرفه احد الا انه كانت اسنانه قد ضعفت أصولها فامسكوها بشريط الذهب فلذلك عرفوه فلما انهزم الهنود دخل شهاب الدين بلاد بنارس وحمل من خزائنها على الف واربعمائة جمل وعاد الى غزنة ومعه الفيلة التى اخذها من جملتها فيل أبيض حدثنى من رآه لما أخذت الفيلة وقدمت الى شهاب الدين وامرت بالخدمة فخدمت جميعها الا الابيض فانه لم يخدم ولا يعجب احد من قولنا الفيلة تخدم فانها تفهم ما يقال لها ولقد شاهدت فيلا بالموصل وفياله يحدثه فيفعل ما يقول له

(ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الرى ووفاة اخيه سلطان شاه)

قد ذكرنا سنة ثمان وثمانين خروج السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان السلجقى من الحبس وملكه همذان وغيرها وكان قد جرى بينه وبين قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد حرب انهزم فيها قتلغ اينانج وتحصن بالرى وسار طغرل الى همذان وارسل قتلغ اينانج الى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجده فسار اليه فى سنة ثمان وثمانين فلما تقارب ندم قتلغ اينانج على استدعاء خوارزم شاه وخاف على نفسه فمضى من بين يديه وتحصن فى قلعة له فوصل خوارزم شاه الى الرى وملكها وحصر قلعة طبرك ففتحها فى يومين وراسله طغرل واصطلحا وبقيت الرى فى يد خوارزم شاه فرتب فيها عسكرا يحفظها وعاد الى خوارزم لانه بلغه ان أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فجد فى السير خوفا عليها فأتاه الخبر وهو فى الطريق ان أهل خوارزم منعوا سلطان شاه عنها ولم يقدر على القرب منها وعاد عنها خائبا فشتى خوارزم شاه بخوارزم فلما انقضى الشتاء سار الى مرو وقصد أخيه سنة تسع وثمانين فترددت الرسل بينهما فى الصلح فبينما هم فى تقرير الصلح واذ قد ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لاخيه سلطان شاه يدعوه ليسلم اليه القلعة لانه

قبيل الاكرام * ما وقع عند الخاص والعام موقع الاستعظام * ما خلا الهمة التى ترى الدنيا خارجة عن ملكها * شعرة من أبشارها * وصوفة من أوبارها * وغرفة من بحارها بل قطرة من امطارها * وأقام عنده قرابة ثلاثة اشهر ضيفا لا يتميز عن الادنين أرحاما وشيجه * وانسابا قريبه * حتى اذا انشط للانصراف * والقس معونته على عارض الخلاف * ارتاح السلطان لما استدعاه فأعطاه فوق رضاه اموالا أحفت أقلام الكتاب * وأوهت انامل الحساب * وانهض فى صحبته ونصرته * واقامة خدمته * اباسعيد عبد الرحمن بن محمد الطائى احد مشايخ بابه وافاضل كتابه * فى رجال قد تعودوا النصر منذ خدموا رايته فلم يعرفوا وجه الانقلاب الا بالانفال * على الاكفال *

لعبد الصمد بن بابك

تحملت صبوة اخرى شواكلها من طول ما حملت سبيا على الكفل

قد استوحش من صاحبه سلطان شاه فسار خوارزم شاه اليه مجدا فتسلم القلعة وصار معه وبلغ
ذلك سلطان شاه ففت ذلك فى عضده وتزايد كمده فمات سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة
فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته الى مرو فتسلمها وتسلم مملكة أخيه سلطان شاه
جميعها وخزائنه وأرسل الى ابنه علاء الدين محمد وكان يلقب حينئذ قطب الدين وهو بخوارزم
فاحضره فولاه نيسابور وولى ابنه الكبير ملكشاه مرو وذلك فى ذى الحجة سنة تسع وثمانين
فلما دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طغرل بلاد الرى فأغار على من به من أصحاب
خوارزم شاه ففر منه قتلغ اينانج بن البهلوان وارسل الى خوارزم شاه يعتذر ويسأل انجاده
مرة ثانية ووافق ذلك وصول رسول الخليفة الى خوارزم شاه يشكو من طغرل ويطلب منه
قصد بلاده ومعه منشور باقطاعه البلاد فسار من نيسابور الى الرى فتلقاه قتلغ اينانج ومن
معه بالطاعة وساروا معه فلما سمع السلطان طغرل بوصوله كانت عساكره متفرقة فلم يقف
ليجمعها بل سار اليه فيمن معه فقيل له ان الذى يفعله ليس برأى والمصلحة ان تجمع العساكر
فلم يقبل وكان فيه شجاعة بل تمم مسيره فالتقى العسكران بالقرب من الرى فحمل طغرل بنفسه
فى وسط عسكر خوارزم شاه فاحاطوا به والقوه عن فرسه وقتلوه فى الرابع والعشرين من شهر
ربيع الاول وحمل رأسه الى خوارزم شاه فسيره من يومه الى بغداد فنصب بها بباب النوبى
عدة أيام وسار خوارزم شاه الى همذان وملك تلك البلاد جميعها وكان الخليفة الناصر لدين
الله قد سير عسكرا الى نجدة خوارزم شاه وسير له الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن
القصاب فنزل على فرسخ من همذان فأرسل اليه خوارزم شاه يطلبه اليه فقال مؤيد الدين
ينبغى ان تحضر انت وتلبس الخلعة من خيمتى وترددت الرسل بينهما فى ذلك فقيل لخوارزم شاه
انها حيلة عليك حتى تحضر عنده ويقبض عليك فدخل خوارزم شاه اليه قصد الاخذه
فاندفع بين يديه الى بعض الجبال فامتنع به فرجع خوارزم شاه الى همذان ولما ملك همذان
وتلك البلاد سلمها الى قتلغ اينانج واقطع كثيرا منها المماليكه وجعل المقدم عليهم مياجق وعاد
الى خوارزم

(ذكر مسير وزير الخليفة الى خوزستان وملكها)

فى هذه السنة فى شعبان خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب فى الوزارة مؤيد الدين أبى
عبد الله محمد بن على المعروف بابن القصاب خلع الوزارة وحكم فى الولاية وبرز فى رمضان وسار
الى بلاد خوزستان وولى الاعمال بها وصار له فيها أصحاب وأصدقاء ومعارف وعرف البلاد
ومن أى وجه يمكن الدخول اليها والاستيلاء عليها فلما ولى ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة
بأن يرسله فى عسكر اليها ليملكها له وكان عزمه انه اذا ملك البلاد واستقر فيها أقام مظهرا للطاعة
مستقلا بالحكم فيها ليأمن على نفسه فاتفق ان صاحبها ابن شملة توفى واختلف أولاده بعده
فراسل بعضهم مؤيد الدين يستنجده لما بينهم من الصحبة القديمة فقوى الطمع فى البلاد فجهزت
العساكر وسيرت معه الى خوزستان فوصلها سنة احدى وتسعين وجرى بينه وبين أصحاب
البلاد مراسلات ومحاربة عجزوا عنها وملك مدينة تستر فى المحرم وملك غيرها من البلاد
وملك القلاع منها قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة لاموج وغيرها من الحصون والقلاع

وتوجه الامير ابو الفوارس
فيهم وفى سائر خاصته نحو
كرمان لجلاء عنها من كان
ولى عليها اعلاما بعجزه عن
المقاومه * واقتضاء ان
تعرض للمعاكمه * فملك تلك
النواحى ملكه اياها من
قبل واقام بها أبو سعيد الى ان
قرت تلك الامور * ودرت
للجبايات الشطور * ثم كر
وراءه فيمن كانوا برسمه
تحت قيادته واتى على
ذلك مدة من الزمان تمنع
حشمة السلطان يمين الدوله
وامين المله وحرمة
الناهضين من اتباع رايته *
فى امره وسمه بعز عنايته *
ان يقصد بما يوجب خلافا
عليه حتى اذا عاودت تلك
الجيوش غزنة وانفرد
الامير ابو الفوارس بالتدبير *
وارتاش بعد التصبير * سرب
سلطان الدولة عسكرا ثانيا
لمواقعته * واستخلاص
تلك الناحية عن يده * فتلاقيا
على حرب اشابت القرون
تحكيم الظبا الصفاح * فى
مخارج الطلى * وتحويم الشبا
الرماح * على موارد الكلى *
حتى تشقرت الارض من

وأنفذ في شملة أصحاب بلاد خوزستان الى بغداد فوصلوا في ربيع الاول

(ذكر حصر العزيز مدينة دمشق)

في هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين وهو صاحب مصر الى مدينة دمشق فحصرها وبها أخوه الاكبر الملك الافضل على بن صلاح الدين وكنت حينئذ بدمشق فنزل بنواحى ميدان الحصى فأرسل الافضل الى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان الافضل غاية الواثق به والمعتمد عليه وقد سبق ما يدل على ذلك فسار الملك العادل الى دمشق هو والملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقى الدين صاحب حماة وأسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرها كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق واتفقوا على حفظها علما منهم ان العزيز ان ملكها أخذ بلادهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم انه لاقدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ فى الصلح فاستقرت القاعدة على ان يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها والغور للافضل على ما كانت عليه وان يعطى الافضل أخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية وان يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد من الملوك الى بلده

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كانت زلزلة فى ربيع الاول بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد سقطت منها الجبانة التى عند مشهد أمير المؤمنين على عليه السلام وفيها فى جمادى الآخرة اجتمعت زعب وغيرها من العرب وقصدوا مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم هاشم بن قاسم أخو أمير المدينة فقاتلهم فقتل هاشم وكان أمير المدينة قد توجه الى الشام فلهذا اطمعت العرب فيه وفيها توفى القاضى ابو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الصمد الطرسوسى الحلبى بها فى شعبان وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله تعالى

(ثم دخلت سنة احدى وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم)

قد ذكرنا ملك مؤيد الدين بن القصاب بلاد خوزستان فلما ملكها سار منها الى ميسان من اعمال خوزستان فوصل اليه قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد وقد تقدم ذكر تغلب خوارزم شاه عليها ومعه جماعة من الامراء فاكرمه وزير الخليفة واحسن اليه وكان سبب مجيئه انه جرى بينه وبين عسكر خوارزم شاه ومقدمهم مياجق مصاف عند زنجان واقتتلوا فانهزم قتلغ اينانج وعسكره وقصد عسكر الخليفة ملتجئا الى مؤيد الدين الوزير فاعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج اليه وخلع عليه وعلى من معه من الامراء ورحلوا الى كرمانشاه ورحل منها الى همذان وكان بها ولد خوارزم شاه ومياجق والعسكر الذين معهما فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزميون وتوجهوا الى الرى واستولى الوزير على همذان فى شوال من هذه السنة ثم رحل هو وقتلغ اينانج خلفهم فاستولوا على كل بلد جازوا به منها خرقان ومزدغان وساوة وآوة وسار والى الرى ففارقها الخوارزميون الى خوار الرى

صبيب الاوراد * وتغرت من رشاش الاكباد * وعندها زالت قدم الامير ابى النواس فولى كسيرا * لايعرف قبيلا ولا دبيرا وانتهى به الركض الى همذان حضرة شمس الدولة بن فخر الدولة فقضى فيه حق القرابة اعظاما لقدره * واهتماما بأمره * واغتناما لشكره * واستعدادا لنصره * واقام مدة مديدة على هذه الجملة حتى استشعر أو اشعر انه مغرور ومقصود * والى الامير سلطان الدولة مردود * فنفر نفار الايم من ضربة القاتل * والوحش من كفة الحابل * وفارق مظنته قاصدا بغداد وسنشرح ان شاء الله من بعد حاله * وما انتهى اليه أمره مما كان عليه أوله

(ذكر ايلك خان وما انتهت اليه حاله) قد كان ايلك بعد الكشفة التى اتجهت عليه بباب بلخ فركب ظهر جيحون وعاد وراءه يضطرب على نفسه غيظا مما دهاه * واسفا على ما أعياه * وما زال يعاتب طغان خان اخاه *

فسير الوزير خلفهم عسكرا ففارقها الخوارزميون الى دامغان وبسطام وجرجان فعاد عسكر
الخليفة الى الري فأقاموا بها فاتفق قتلغ اينانج ومن معه من الامراء على الخلاف على الوزير
وعسكر الخليفة لانهم رأوا البلاد قد خلت من عسكر خوارزمشاه فطمعوا فيها فدخلوا الري
فحصرها وزير الخليفة ففارقها قتلغ اينانج وملكها الوزير ونهبها العسكر فأمر الوزير بالنداء
بالكف عن النهب وسار قتلغ اينانج ومن معه من الامراء الى مدينة آوة وبها شحنة الوزير
فمنعهم من دخولها فساروا عنها ورحل الوزير في أثرهم نحو همذان فبلغه وهو في الطريق
ان قتلغ اينانج قد اجتمع معه عسكر وقصد مدينة كرج وقد نزل على دربند هناك فطلبهم الوزير
فلما قاربهم التقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم قتلغ اينانج ونجا بنفسه ورحل الوزير من
موضع المصاف الى همذان فنزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر فوصله رسول خوارزمشاه
تكش وكان قد قصدهم منكرا اخذه البلاد من عسكره ويطلب اعادتها وتقرير قواعدها
والصلح فلم يجب الوزير الى ذلك فسار خوارزمشاه مجدا الى همذان وكان الوزير مؤيد الدين
ابن القصاب قد توفي في أوائل شعبان فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف نصف شعبان سنة
اثنتين وتسعين وخمسمائة فقتل بينهم كثير من العسكرين وانهزم عسكر الخليفة وغنم
الخوارزميون منهم شيأ كثيرا وملك خوارزمشاه همذان ونبش الوزير من قبره وقطع
رأسه وسيره الى خوارزم وأظهروا انه قتله في المعركة ثم ان خوارزمشاه أتاه من خراسان
ما أوجب ان يعود اليها فترك البلاد وعاد الى خراسان

(ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس)

في هذه السنة في شعبان غزا ابو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب والاندلس
بلاد الفرنج بالاندلس وسبب ذلك ان الفنش ملك الفرنج بها ومقر ملكه مدينة طليطلة كتب
الى يعقوب كتابا نسخته باسمك اللهم فاطر السموات والارض أما بعد أيها الامير فانه لا يخفى على
كل ذي عقل لازب ولا ذي لب ثاقب انك أمير الملة الحنيفية كما انا امير الملة النصرانية وانك
من لا يخفى عليه ما هو عليه رؤساء الاندلس من التخاذل والتواكل واهمال الرعية واشتغالهم
على الراحات وأنا أسومهم الخسف واخلي الديار وأسبي الذراري وأمثل بالكهول وأقتل
الشباب ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون ان الله
فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فقد
فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عددا منكم بواحد منا ولا
تقدرون دفاعا ولا تستطيعون امتناعا ثم حكي لي عنك انك أخذت في الاحتفال وأشرفت على
ربوة القتال وتمطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى ولا أدري الجبن أبطأ بك أم
التكذيب بما أنزل عليك ثم حكي لي عنك انك لا تجد سبيلا للحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم فيها
فها أنا أقول لك ما فيه واعتذر عنك ولك ان توفيني بالعهود والمواثيق والأيمان ان تتوجه
بجملة من عندك في المراكب والشواني وأجوز اليك بجملتي وأبارزك في أعز الاماكن عندك
فان كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت اليك وهدية مثلت بين يديك وان كانت لي كانت يدي العليا
عليك واستحقت امارة الملتين والتقدم على الفئتين والله يسهل الارادة ويوفق السعادة بمنه

ويستنصر قدرخان على
ما أوهن من قواه * وقوته
مراده ومغزاه * والقدر له
معاند * والزمان مناكر
ومناكد * حتى طرحه
النكد على فراشه وبخعه عن
قاحل بطيب حياته فأشبعه
التراب * بعد ان جوعه
الحرص والاضطراب *
همة كانت معلقة بالاثير *
محاقة على فلك التدوير *
غير ان يد القدر فوق يد
التدبير * وما يصنع المرء
بالجد اذا وافق الجد سافلة
البير

فهبه رحا يجري لها اليم ماءه
وليس لها قطب به اذ ايديرها
وقد ينهض العصفور كثرة
ريشه
وتسقط اذ لا ريش فيه
نسورها

وكانت وفاته في سنة
ثلاث وأربعمائة وولي
مكانه أخوه طغان خان
ملقبا السلطان معين
الدولة وأمين الملة و والاه *
وهادنه وهاداه * متلافيا
بزعمه لما أخل به أخوه *
ومتوددا من حيث ركب
الخلاف ذروه * وجاشت

لارب غيره ولاخير الاخيره فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب في اعلاه هذه الآية ارجع اليهم
فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون واعاده اليه وجمع العساكر
العظيمة من المسلمين وعبر المجاز الى الاندلس وقيل كان سبب عبوره الى الاندلس ان يعقوب لما
قاتل الفرنج سنة ست وثمانين وصالحهم بقي طائفة من الفرنج لم ترض الصلح كما ذكرناه فلما كان
الآن جمعت تلك الطائفة جمعا من الفرنج وخرجوا الى بلاد الاسلام فقتلوا وسبوا وغنموا
وأسروا وعاثوا فيها عيثا شديدا فانتهى ذلك الى يعقوب فجمع العساكر وعبر المجاز الى الاندلس
في جيش يضيق عنه الفضاء فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيهم ودانيهم واقبلوا اليه مجدين
على قتاله واثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا تاسع شعبان شمالي قرطبة عند قلعة رباح بمكان يعرف
بمرج الحديد فاقتتلوا قتالا شديدا فكانت الدائرة اولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا
أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا والله
عزيز حكيم وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفا وأسر ثلاثة عشر ألفا
وغنم المسلمون منهم شيأ عظيما فمن الخيام مائة ألف وثلاثة واربعون ألفا ومن الخيل ستة
واربعون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مائة الف وكان يعقوب قد نادى في عسكره من
غنم شيأ فهو له سوى السلاح واحصى ما حمل اليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس وقتل
من المسلمين نحو عشرين ألفا ولما انهزم الفرنج اتبعهم ابو يوسف فرآهم قد اخذوا قلعة رباح
وساروا عنها من الرعب والخوف فملكها وجعل فيها واليا وجندا يحفظونها وعاد الى مدينة
اشبيلية واما الفنش فانه لما انهزم حلق رأسه ونكس صليبه وركب حمارا واقسم ان لا يركب
فرسا ولا بغلا حتى تنصر النصرانية فجمع جموعا عظيمة وبلغ الخبر بذلك الى يعقوب فأرسل الى
بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير اكراه فأتاه من المطوعة والمرتزقين جمع
عظيم فالتقوا في ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة وغنم
المسلمون ما معهم من الاموال والسلاح والدواب وغيرها وتوجه الى مدينة طليطلة فحصرها
وقاتلها قتالا شديدا وقطع اشجارها وشن الغارة على ما حولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون
فقتل رجالها وسبى حريمها وخرب دورها وهدم أسوارها فضعفت النصرانية حينئذ وعظم
امر الاسلام بالاندلس وعاد يعقوب الى اشبيلية فاقام بها فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين سار
عنها الى بلاد الفرنج وذلوا واجتمع ملوكهم وأرسلوا يطلبون الصلح فأجابهم اليه بعد أن كان
عازما على الامتناع مريدا الملازمة الجهاد الى ان يفرغ منهم فأتاه خبر علي بن اسحق الملثم الميورقي
أنه فعل بافريقية ما نذكره من الافاعيل الشنيعة فترك عزمه وصالحهم مدة خمس سنين وعاد الى
مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

(ذكر فعلة الملثم بافريقية)

لما عبر أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب الى الاندلس كما ذكرنا وأقام مجاهدا ثلاث سنين
انقطعت أخباره عن افريقية فقوي طمع علي بن اسحق الملثم الميورقي وكان بالبرية مع العرب
فعاود قصد افريقية فانبث جنوده في البلاد فخربوها واكثروا الفساد فيها فمحيت آثار تلك
البلاد وتغيرت وصارت خالية من الانيس خاوية على عروشها وأراد المسير الى بجاية ومحاصرتها

لاشتغال

من جانب الصين جيوش
اقصد طغان خان واخذ
بلاد الاسلام من ديار
الترك وسائر ما وراء النهر
يزيد عددهم على مائة
ألف خركاه لم يعهد
الاسلام مثلها على صعيد
واحد يريدون ان يطفؤا
نور الله بافواههم بغياظ ما
صرع اهله * واوردهم
كما يورد الهدى محله
فاستنفر من خطط الاسلام
حتى اجتمع اليه من رجال
الترك واحرار الغزاة والمطوعة
قرابة مائة الف رجل
واستكت اسماع المسلمين
من فظاعة هذا النبا الهائل

لاشتغال يعقوب بالجهاد واظهر انه اذا استولى على بجاية سار الى المغرب فوصل الخبر الى يعقوب بذلك فصالح الفرنج على ما ذكرناه وعاد الى مراكش عازما على قصده واخراجه من البلاد كما فعل سنة احدى وثمانين وخمسمائة وقد ذكرناه

(ذكر ملك عسكر الخليفة اصفهان)

فى هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله جيشا وسيره الى اصفهان ومقدمهم سيف الدين طغرل مقطع بلد اللحف من العراق وكان باصفهان عسكر لخوارزم شاه مع ولده وكان أهل اصفهان يكرهونهم فكاتب صدر الدين الخجندى رئيس الشافعية باصفهان الديوان ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد الى من يصل من الديوان من العساكر وكان يعد الحاكم باصفهان على جميع أهلها فسيرت العساكر فوصلوا الى اصفهان ونزلوا بظاهر البلد وفارقه عسكر خوارزم شاه وعادوا الى خراسان وتبعهم بعض عسكر الخليفة فتخطفوا منهم وأخذوا من ساقة العسكر من قدروا عليه ودخل عسكر الخليفة الى اصفهان وملكوها

(ذكر ابتداء حال كوكجه وملكه بلد الرى وهمذان وغيرها)

لما عاد خوارزم شاه الى خراسان كما ذكرنا اتفق المماليك الذين للبهلوان والامراء وقدموا على أنفسهم كوكجه وهو من اعيان البهلوانية واستولوا على الرى وما جاورها من البلاد وساروا الى اصفهان لاخراج الخوارزمية منها فلما قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها فأرسل الى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمة الديوان ويظهر العبودية وانه انما قصد اصفهان فى طلب العساكر الخوارزمية وحيث رآهم فارقوا اصفهان سار فى طلبهم فلم يدركهم وسار عسكر الخليفة من اصفهان الى همذان وأما كوكجه فانه تبع الخوارزمية الى طبس وهى من بلاد الاسماعيلية وعاد فقصد اصفهان وملكها وأرسل الى بغداد يطلب أن يكون له الرى وخوار الرى وساوة وقم وقاجان وما ينضم اليها من حد مزدغان وتكون اصفهان وهمذان وزنجان وقزوين للديوان الخليفة فأجيب الى ذلك وكتب له منشور بما طلب وأرسلت له الخلع فعظم شأنه وقوى أمره وكثرت عساكره وتعظم على أصحابه

(ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها)

وفى هذه السنة أيضا خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر فى عساكره الى دمشق يريد حصرها فعاد عنها منهزما وسبب ذلك ان من عنده من مماليك أبيه المعروفين بالصلاحية فخر الدين جركس وسراسنقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الافضل على بن صلاح الدين لانه كان قد أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصرى وسنقر الكبير وايبك وغيرهم فكانوا لايزالون يخوفون العزيز من أخيه ويقولون ان الاكراد والمماليك الاسدية من عسكر مصر يريدون أخاك ونخاف أن يميلهم اليه ويخرجوك من البلاد والمصلحة أن نأخذ دمشق فخرج فى العام الماضى وعاد كما ذكرناه فتجهز هذه السنة ليخرج فبلغ الخبر الى الافضل فسار من دمشق الى عمه الملك العادل فاجتمع به بقلعة جعبر ودعاه الى نصرته فسار من عنده الى حلب الى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجد به وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الافضل اليها

والبناء المائل * فارتاعت له القلوب والتاعت النفوس وتناصرت الادعية والذكور وسار طغان خان مستقبلا من أقبل عليه من جموع الفجرة الكفرة بنيات مقصورة على الاستقتال * واستقبال الآجال * أو ينزل الله نصره * ويظهر حزبه ويصلح أمره * تحقيقا لما وعدهم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد والتقوا أياما تباعا على ملاحم لم يدر من فتق العروق * وضرب الحلوق * وشد الخيول على الخيول * أصوب أنواء * أم صب دماء * ولمع البروق أو وقع السيوف وظلمة ليال أو رهج نزال وفى كل ذلك يتولى الله عباده بالأيد المتين * والنصر والتمكين * حتى وثقوا بالصنع المستبين * وطلوع الصبح مشرق الجبين * وتلاقوا ليوم منصوص عليه فى فصل الحرب فشد بهرام لها نطاقه * وأدار على الفريقين دهاقه * فأما أعداء الله

ودخلها وكان الافضل لثقته به قد أمر نوابه بادخاله الى القلعة ثم عاد الافضل من حلب الى
دمشق فأرسل مقدم الاسدية وهو سيف الدين اياز كوش وغيره منهم ومن الاكراد أبو الهيجاء
السمين وغيره الى الافضل والعادل بالانحياز اليهما والكون معهما و يأمرهما بالاتفاق على
العزيز والخروج من دمشق ليسلموه اليهما وكان سبب الانحراف عن العزيز وميلهم الى الافضل
ان العزيز لما ملك مصر مال الى المماليك الناصرية وقدمهم و وثق بهم ولم يلتفت الى هؤلاء
الامراء فاتفقوا من ذلك ومالوا الى أخيه وأرسلوا الى الافضل والعادل فاتفقا على ذلك
واستقرت القاعدة بحضور رسل الامراء ان الافضل يملك الديار المصرية و يسلم دمشق الى عمه
الملك العادل وخرجا من دمشق فانحاز اليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزما يطوى
المراحل خوف الطلب ولا يصدق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه الى أن وصل الى مصر وأما
العادل والافضل فانهما أرسلا الى القدس وفيه نائب العزيز فسلمه اليهما وسارا قاصدين معهما من
الاسدية والاكراد الى مصر فرأى العادل انضمام العساكر الى الافضل واجتماعهم عليه
فخاف انه يأخذ مصر ولا يسلم اليه دمشق فأرسل حينئذ سرا الى العزيز يأمره بالثبات وأن
يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بانه يمنع الافضل وغيره من قتال من بها فجعل العزيز
الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم غيرهم ووصل العادل والافضل الى بلبيس
فنازلوا من بها من الناصرية وأراد الافضل مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل الى مصر فمنعه
العادل من الامرين وقال هذه عساكر الاسلام فاذا اقتتلوا في الحرب فمن يرد العدو الكافر
ومابنا حاجة الى هذا فان البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهرا
زالت هيبة البلاد وطمع فيها الاعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثل هذا فطالت
الايام وأرسل الى العزيز سرا يأمره بارسال القاضي الفاضل وكان مطاعا عند البيت الصلاحي
لعلو منزلته كانت عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص
وانفسخت العزائم واستقر الامر على ان يكون للافضل القدس وجميع البلاد بفلسطين
وطبرية والاردن وجميع ما بيده و يكون للعادل اقطاعه الذى كان قديما و يكون مقيما بمصر
عند العزيز وانما اختار ذلك لان الاسدية والاكراد لا يريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا
يقدر العزيز على منعه عما يريد فلما استقر الامر على ذلك وتعاهدوا عاد الافضل الى دمشق
وبقي العادل بمصر عند العزيز

(ذكر عدة حوادث)

في ذى القعدة تاسع عشره وقع حريق عظيم ببغداد بعقد المصطنع فاحترقت المربعة التي بين
يديه ودكان ابن البخيل الهراس وقيل كان ابتداؤها من دار ابن البخيل

(ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلاد الهند)

في هذه السنة سار شهاب الدين الغوري صاحب غزنة الى بلد الهند وحصر قلعة بهنكر وهي
قلعة عظيمة منيعة فحصرها فطلب أهلها منه الامان على أن يسلموا اليه فامنهم وتسلمها وأقام
عندها عشرة أيام حتى رتب جندها وأحوالها وسار عنها الى قلعة كوالير وبينهما مسيرة خمسة

فسكروا اسكرا استوجبوا
به الحدود بالحدود البواتك
فصبت عليهم من لدن لاح
جبين الشمس الى أن ذكت
سراجا وهاجا * وكادت تصير
على قمم الرؤس تاجا * وأما
أولياء الله تعالى فانتشوا
نشوة طربوا معها للضرب
فوق الهام * والعبث
بطلائع الحمام * لاجرم ان
الله حماهم ونصرهم *
وآواهم وأظفرهم * فغادروا
من جماهير الكفار قرابة
مائة ألف عنان صرعى على
وجه البسيطة عن نفوس
موقوذة * ورؤس
منبوذة * وأيد عن السواعد
مجذوذة * تقرى للضباع *
بل جفلى للسباع *
والوحوش الجياع *
وأفاء الله على المؤمنين مائة
ألف رأس غلمانا كالبدور *
واللؤلؤ المنثور * وجوار
كالحور العين والبيض
المكنون وسوائم غصت
بها أقطار البيداء * وضاقت
عنها أطرار الدهناء * وشرد
الباقون وراءهم تشلهم
السيوف شل الانعام *
وتختطف أرواحهم بأيدي
الحمام * وتطايرت به البشارات
في ديارات الاسلام * فنصرت

أيام وفي الطريق ثم رجع فجازه ووصل الى كوالير وهي قلعة منيعة حصينة على جبل لا يصل اليها
حجر منجنيق ولا نشاب وهي كبيرة فأقام عليها صفرا جميعه يحاصرها فلم يبلغ منها غرضا فراسله
من بها في الصلح فأجابهم اليه على أن يقر القلعة بأيديهم على مال يحملونه اليه فحملوا اليه فيلا
حمله ذهب فرحل عنها الى بلاد آي وسور فأغار عليها ونهبها وسبى وأسر ما يعجز العاد حصره ثم عاد
الى غزنة سالما

(ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الافضل)

في هذه السنة في السابع والعشرين من رجب ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة دمشق
من ابن أخيه الافضل علي بن صلاح الدين وكان أبلغ الاسباب في ذلك وثوق الافضل بالعادل
وانه بلغ من وثوقه انه أدخله بلده وهو غائب عنه ولقد أرسل اليه أخوه الظاهر غازي صاحب
حلب يقول له أخرج عمنا من بيننا فانه لا يجيء علينا منه خير ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد
وأنا أعرف به منك وأقرب اليه فانه عمي مثل ما هو عمك وأنا زوج ابنته ولو علمت انه يريد لنا
خيرا لكنت أنا أولى به منك فقال له الافضل أنت سيء الظن في كل أحد أي مصلحة لعمنا في أن
يؤذينا ونحن اذا اجتمعت كلمتنا وسيرنا معه العساكر من عندنا كلنا ملك من البلاد أكثر من
بلادنا ونربح سوء الذكر وهذا كان أبلغ الاسباب ولا يعلمها كل أحد وأما غيرها فقد ذكرنا
مسير العادل والافضل الى مصر وحصارهم بلبيس وصلحهم مع الملك العزيز بن صلاح الدين
ومقام العادل معه بمصر فلما أقام عنده استماله وقرر معه أنه يخرج معه الى دمشق ويأخذها
من أخيه ويسلمها اليه فسار معه من مصر الى دمشق وحصروها واستمالوا أميرا من امراء
الافضل يقال له العزيز بن أبي غالب الحمصي وكان الافضل كثير الاحسان اليه والاعتماد
عليه والوثوق به فسلم اليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقي ليحفظه فمال الى العزيز
والعادل ووعدهما انه يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه الى البلد غفلة ففتحه اليوم
السابع والعشرين من رجب وقت العصر وادخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه فلم
يشعر الافضل الا وعمه معه في دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الاخضر غربي دمشق
فلما رأى الافضل ان البلد قد ملك خرج الى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد
واجتمعا بالعادل وقد نزل في دار اسد الدين شيركوه وتحادثوا فاتفق العادل والعزيز على ان
اوهما الافضل انهما يبقيان عليه البلد خوفا انه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما
ومعه العامة فاخرجهم من البلد لان العادل لم يكن في كثرة واعاد الافضل الى القلعة وبات
العادل في دار شيركوه وخرج العزيز الى الخيم فبات فيها وخرج العادل من الغد الى جوسقه
فاقام به وعساكره في البلد فكل يوم يخرج الافضل اليهما ويجتمع بهما فبقوا كذلك أياما
ثم ارسلا اليه وامراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن تعطى قلعة صرخد له ويسلم
جميع أعمال دمشق فخرج الافضل ونزل في جوسق بظاهر البلد غربي دمشق وتسلم العزيز
القلعة ودخلها واقام بها أياما فجلس يوما في مجلس شرابه فلما اخذت منه الخمر جرى على لسانه
انه يعيد البلد الى الافضل فنقل ذلك الى العادل في وقته فحضر المجلس في ساعته والعزيز
سكران فلم يزل به حتى سلم البلد اليه وخرج منه وعاد الى مصر وسار الافضل الى صرخد وكان

لها الوجوه وضحكت القلوب
وعم السرور وتوفر الشكور
وتباشرت الدور * حتى
القصور والخدور * لطفا
من الله الذي ارتضاه *
ووعد أن يصل بيد التأييد
قواه * فلم ينشب طغان خان
بعد أن فرغ من هذه الحرب
العظيم راسها * الشديد
مراسها * ان استأثر الله به
فنقله الى جواره * وبوأه
مبوأ الصديقين من دار
قراره * ختم له بالشهادة *
وحتما عليه بالسعادة *
وورث مكانه أخوه ارسلان
خان أبو منصور الاصم
صنوه في التقية * وتلوه
في الامور الالهية * ثبت
المقام في دين الاسلام *
لا تعرف له جاهلية ولا تنقم
منه عنجهية ولا عجرفية *
يقيم الصلوات جماعة *
ويفترض العدل سمعا لله
وطاعة * وعمر الحال التي
كانت بين طغان خان أخيه
وبين السلطان يمين الدولة
وأمين الملة اظهارا للمصافاة *
واستشعارا للمواخاة *
وايثارا للاشتراك على
تصاريف الحالات وخطب
السلطان اليه والى أخيه

العادل بذكر ان الافضل سعى فى قتله فلهذا أخذ البلد منه وكان الافضل ينكر ذلك ويتبرأ منه
والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة هبت ريح شديدة بالعراق واسودت لها الدنيا ووقع رمل أحمر واستعظم الناس ذلك وكبروا واشتعلت الاضواء بالنهار وفيها اقتل صدر الدين محمود بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندى رئيس الشافعية باصفهان قتله فلك الدين سنقر الطويل شحنة اصفهان بها وكان قدم بغداد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة واستوطنها وولى النظر فى المدرسة النظامية ببغداد ولما سار مؤيد الدين بن القصاب الى خوزستان سار فى صحبته فلما ملك الوزير اصفهان أقام ابن الخجندى بها فى بيته وملكه ومنصبه فجرى بينه وبين سنقر الطويل شحنة اصفهان للخليفة منافرة فقتله سنقر وفى رمضان درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادى الفقيه الشافعى بالمدرسة النظامية ببغداد وفى شوال منها أثبت نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الرازى فى الوزارة ببغداد وكان قد توجه الى بغداد لما ملك ابن القصاب الرى وفيها ولى أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الانشاء ببغداد وكان كاتبا مفلقا وله شعر جيد وفى صفر منها توفى الفخر محمود بن على القوفانى الفقيه الشافعى بالكوفة عائدا من الحج وكان من اعيان أصحابه محمد بن يحيى وفى رجب منها توفى أبو الغنائم محمد بن على بن المعلم الشاعر الهرثى والهرث بضم الهاء والثاء المثلثة قرية من أعمال واسط عن احدى وتسعين سنة وفى رابع شعبان منها توفى الوزير مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن على بن القصاب بهمذان وقد ذكرنا من كفايته ونهضته ما فيه كفاية

(ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ارسال الامير أبى الهيجاء الى همذان وما فعله)

وصل الى بغداد أمير كبير من امراء مصر اسمه أبو الهيجاء ويعرف بالسمين لانه كان كثير السمن وكان من أكابر أمراء مصر وكان فى اقطاعه أخيرا البيت المقدس وغيره مما يجاوره فلما ملك العزيز والعادل مرتبة دمشق من الافضل أخذ القدس منه ففارق الشام وعبر الفرات الى الموصل ثم انحدر الى بغداد لانه طلب من ديوان الخلافة فلما وصل اليها أكرم اكراما كثيرا ثم أمر بالتجهيز والمسير الى همذان مقدما على العساكر البغدادية فسار اليها والتقى عندها بالملك أوزبك بن البهلوان وأمير علم وابنه وابن سطمش وغيرهم وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة فلما اجتمع بهم وثقوا اليه ولم يحذروه فقبض على اوزبك وابن سطمش وابن قرا بموافقة من أمير علم فلما وصل الخبر بذلك الى بغداد انكرت هذه الحال على أبى الهيجاء وأمر بالافراج عن الجماعة وسيرت لهم الخلع من بغداد تطييبا لقلوبهم فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة ولا أمنوا ففارقوا أبا الهيجاء السمين فخاف الديوان فلم يرجع اليه ولم يمكنه أيضا المقام فعاد يريد اربل لانه من بلدها فتوفى قبل وصوله اليها وهو من الاكراد الحكمية من بلد اربل

(ذكر ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها)

ابلك كريمة له على ولده الامير الجليل أبى سعيد مسعود بن يمين الدوله وأمين المله فأحسنا الاجابة * واعتنما القرابة * وتردد بينهما السفراء فى ذلك مدة على جملة التمادى * وربص الحال باقتسام الايادى * الى أن حقت الحقيقه * وتمت العقدة الوثيقه * وأنهض السلطان من اختارهم من ثقات بابه لنقل اليتيمة الكريمة فجهزت وديعة تشاح عليها لمكان هذا صدر الملك * وذا ملك الترك * يختص بها الشبل ابن الليث * والوبل ابن الغيث * والتيار ابن البحر * والصباح بن الفجر * الامير الجليل أبو سعيد مسعود بن محمود يمين الدولة وأمين الملة ونقلت الى الحضرة ببلخ وقد صحبها من فقهاء تلك الدولة واعيان رجالها من عدوا أئمة المشرق * وأرباب المنطق * فادوا أمانتى اليد واللسان على ما ألحت لحال بين الجنبتين * ورفضت الحشمة فى ذات البين * وأمر السلطان أهل بلخ قبيل الوصول بعقد الآذين *

فى هذه السنة فى شوال ملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة يافا من الساحل الشامى وهو بيد الفرنج لعنهم الله وسبب ذلك ان الفرنج كان قد ملكهم الكندهرى على ما ذكرناه قبل وكان الصلح قد استقر بين المسلمين والفرنج أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى فلما توفى وملك أولاده بعده كما ذكرناه جدد الملك العزيز الهدنة مع الكندهرى وزاد فى مدة الهدنة وبقى ذلك الى الآن وكان بمدينة بيروت أمير يعرف باسامة وهو مقطعها فكان يرسل الشوانى تقطع الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة الى الملك العادل بدمشق والى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا اسامة من ذلك فأرسلوا الى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون اليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون ان لم تنجدونا والا أخذ المسلمون البلاد فامدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة وكان أكثرهم من ملك الالمان وكان المقدم عليهم قس يعرف بالخنصلير فلما سمع العادل بذلك ارسل الى العزيز بمصر يطلب العساكر وارسل الى ديار الجزيرة والموصل يطلب العساكر فجاءته الامراء واجتمعوا على عين جالوت فاقاموا شهر رمضان وبعض شوال ورحلوا الى يافا وملكوا المدينة وامتنع من بها بالقلعة التى لها فخرب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهرا بالسيف فى يومها وهو يوم الجمعة واخذ كل ما بها غنيمة واسرا وسبيا ووصل الفرنج من عكا الى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بملكها فعادوا وكان سبب تأخرهم ان ملكهم الكندهرى سقط من موضع عال بعكا فمات فاختلفت احوالهم فتأخروا لذلك وعاد المسلمون الى عين جالوت فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت فرحل العادل والعسكر فى ذى القعدة الى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت فسار اليها جمع من العسكر وهدموا اسوار المدينة سابع ذى الحجة وشرعوا فى تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم اسامة من ذلك وتكفل بحفظها ورحل الفرنج من عكا الى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحى صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل وسار الفرنج تاسع ذى الحجة فوصلوا الى بيروت فلما قاربوها هرب منها اسامة وجميع من معه من المسلمين فملكوها صفوا عفوا بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة فأرسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقى منها فان صلاح الدين كان قد خرب اكثرها وسارت العساكر الاسلامية الى صور فقطعوا اشجارها وخربوا ما لها من قرى وابراج فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت الى صور واقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين واذن للعساكر الشرقية بالعود ظنا منه ان الفرنج يقيمون ببلادهم واراد ان يعطى العساكر المصرية دستورا بالعود فاتاه الخبر منتصف المحرم ان الفرنج يريدون ان يحصروا حصن تبنين فسير العادل اليه عسكرا يحمونه ويمنعون عنه ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين اول صفر سنة اربع وتسعين وقاتلوا من به وجدوا فى القتال ونقبوه من جهاتهم فلما علم العادل بذلك ارسل الى العزيز بمصر يطلب منه ان يحضر هو بنفسه ويقول له ان حضرت والا فلا يمكن حفظ هذا الثغر فسار العزيز مجدا فمن بقى معه من العساكر واما من فى حصن تبنين فانهم لما رأوا النقوب قد خربت القلعة ولم يبق الا ان يملكوها بالسيف نزل بعض من فيها الى الفرنج يطلب الامان على انفسهم واموالهم ليسلموا القلعة وكان المرجع الى القسيس

وتكليف التنضيد والتزيين * فبلغوا من ذلك مبلغا لم يستبق فيه من الوسع مذخور * ولا من الرسم مذكور ومسطور * ورأى السلطان بعد ذلك أن يرفع من قيد ره تقلده على هراة سرة مملكته ونواحيها وسيره اليها بعد أن وصله بنيل عظيم بعده ذخيرة * ويوسعه تجملا وزينة * فنهض اليها رشيد السيرة * حميد السريرة * عادل الطريقة * فاضل الخليقة * خليقا بالملك على الحقيقة * وذلك فى سنة ثمانين وأربعمائة

(ذكر الامير أبى أحمد محمد بن عين الدولة وأمين الملة)

جملة ما يمكن الافصاح به والايضاح عنه من حاله * وذكر خصاله * قول القائل

ان السرى اذا سرى فبنفسه
وابن السرى اذا سرى أسراهما

وقد جمع الله له من الميل الى خصائص الادب * والسعى لمعالى الرتب * ما دل على انه ابن أبيه شرفا سمقت على النجوم شرفاته * وكرما تعرفت لاهل الفضائل عرفاته *

الى المسلمين من اصحاب ملك الالمان فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام ان سلمتم الحصن استأسركم هذا وقتلكم فاحفظوا انفسكم فعادوا كأنهم يراجعون من في القلعة ليسلموا فلما صعدوا اليها أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموها الى أن وصل الملك العزيز الى عسقلان في ربيع الاول فلما سمع الفرنج بوصوله واجتماع المسلمين وان الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم وان أمرهم الى امرأة وهي الملكة فاتفقوا وأرسلوا الى ملك قبرس واسمه هيمري فاحضروه وهو أخو الملك الذي أسر بحطين كما ذكرناه فزوجوه بالملكة زوجة الكندهري وكان رجلا عاقلا يحب السلامة والعافية فلما ملكهم لم يعد الى الزحف على الحصن ولا قاتل واتفق وصول العزيز أول شهر ربيع الآخر ورحل هو والعساكر الى جبل الخليل الذي يعرف بجبل عاملة فأقاموا أياما والامطار متداولة فبقي الى ثالث عشر الشهر ثم سار وقارب الفرنج وأرسل رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا ورتب العساكر ليزحف الى الفرنج ويجد في قتالهم فرحلوا الى صور خامس عشر الشهر المذكور ليلا ثم رحلوا الى عكا فسار المسلمون فنزلوا اللجون وتراسلوا في الصلح وتطاول الامر فعاد العزيز الى مصر قبل انفصال الحال وسبب رحيله ان جماعة من الامراء وهم ميمون القصري واسامة وسراسنقر والحجاف وابن المشطوب وغيرهم قد عزموا على الفتك به وبفخر الدين جركس مدبر دولته والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك فلما سمع بذلك سار الى مصر وبقي العادل وترددت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح في شعبان سنة أربع وتسعين فلما انتظم الصلح عاد العادل الى دمشق وسار منها الى ماردين من أرض الجزيرة فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة سيف الاسلام وملك ولده)

في شوال من هذه السنة توفي سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين وهو صاحب اليمن بزبيد وقد ذكرنا كيف ملك وكان شديد السيرة مضيقا على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء وأراد ملك مكة حرسها الله تعالى فأرسل الخليفة الناصر لدين الله الى أخيه صلاح الدين في المعنى فمنعه من ذلك وجمع من الاموال ما لا يحصى حتى انه من كثرته كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره ولما توفي ملك بعده ابنه اسمعيل وكان أهوج كثير التخليط بحيث انه ادعى انه قرشي من بني أمية وخطب لنفسه بالخلافة وتلقب بالهادي فلما سمع عمه الملك العادل ذلك ساءه وأهمه وكتب اليه يلومه ويوبخه ويأمره بالعود الى نسبه الصحيح وبترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه فلم يلتفت اليه ولم يرجع واضاف الى ذلك انه أساء السيرة مع اجناده وامرائه فوثبوا عليه فقتلوه وملكوا بعده أميرا من مماليك أبيه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي أبو بكر عبد الله بن منصور بن عمران الباقلاني المقرئ الواسطي عن ثلاث وسبعين سنة وثلاثة أشهر وأيام وهو آخر من بقي من أصحاب القلانسي وفي جمادى الآخرة توفي قاضي القضاة أبو طالب علي بن البخاري ببغداد ودفن بتربته في مشهد باب التبن وفيها في ربيع الآخر توفي ملكشاه بن خوارزم شاه تكش بنيسابور وكان أبوه قد جعله فيها وأضاف اليه عساكر جميع بلاده التي بخراسان وجعله ولي عهده في الملك

خروج من حضن الكفالة خروج الابريز من جرات السبائك * والهلال من تحت الشعاع المتشابك * لم يعرف له طول أيام الايفاع * غير الارتفاع الى اليفاع * تصرفا على كرم الطباع * وتقيدا للمأثور بالسماع * وبذلا لما التقطته يد الطماع * وارتياضا بآداب الثقافة والصناع * حتى اذا نزع يداه برد الحداثة * ولبس حذاءه طوق الشهامة * رأى السلطان أن يوفيه حق البنوة * ويؤتيه شرط المروة * ويجذب بضبعه الى حيث اقتضته الفراسة فيه واستدعته العناية به والرعاية له فزوجه كريمة الامير أبي نصر الفريغوني والي الجوزجان وهي التي تجمع الى الاصالة جلالة * والى الكفاية كفاءة * والى النعمة همة * وعقد له على أعمال الجوزجان كما عقد للامير الجليل أبي سعيد مسعود على هراة وهي التي وليها قبله آل فريغون وهم الذين حكوا في العز افريدون وفي الهمة المجنون * وفي الغزارة والسماحة جيحون *

وخلف ولداً اسمه هندوخان فلما مات جعل فيها أبوه خوارزم شاه بعده ولده الآخر قطب الدين محمداً وهو الذى ملك بعد أبيه وكان بين الاخوين عداوة مستحكمة أفضت الى أن محمداً الما ملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملكشاه منه على ما نذكره وفيها توفى شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن على الفراتى الضرير الفقيه الشافعى كان اماما فى الفقه مدرساً صالحاً كثير الصلاح سمعت عليه كثيراً لم أر مثله رحمه الله تعالى ولقد شاهدت منه عجباً يدل على دينه وارادته بعمله وجه الله تعالى وذلك انى كنت اسمع عليه ببغداد سنن أبى عبد الرحمن النسائى وهو كتاب كبير والوقت ضيق لانى كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة حرسها الله فبينما نحن نسمع عليه مع معلمى الاكبر مجد الدين أبى السعادات اذ قد أتاه انسان من اعيان بغداد وقال له قد برز الامر لتحضر لامر كذا فقال أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت والذى يراد منى لا يفوت فقال انا لا احسن اذ كر هذا فى مقابل أمر الخليفة فقال لا عليك قل قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع فسألناه ليمشى معه فلم يفعل ذلك وقال اقرؤا فقرأنا فلما كان الغد حضر غلام لناوذ كران أمير الحاج الموصلى قد رحل فعظم الامر علينا فقال ولم يعظم عليكم العود الى أهلكم وبلدكم فقلنا لاجل فراغ هذا الكتاب فقال اذا رحلتم استعيرد ابه وأركبها فاسير معكم وانتم تقرؤن فاذا فرغتم عدت فمضى الغلام ليتزود ونحن نقرأ فعاد وذكران الحاج لم يرحلوا ففرغنا من الكتاب فانظر الى هذا الدين المتين يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه ويريد يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا

(ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد)

فى هذه السنة فى المحرم توفى عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وقد تقدم ذكره كيف ملكها سنة تسع وسبعين وكان رحمه الله عادلاً حسن السيرة فى رعيته عفيفا عن أموالهم وأملاكهم متواضعا يحب أهل العلم والدين ويحترمهم ويجالسهم ويرجع الى أقوالهم الا انه كان بخيلا شديد البخل وملك بعده ابنه قطب الدين محمد وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه وكان دينا خيرا عادلا حسن السيرة كثير البر والاحسان الى الفقراء وكان رحمه الله شديد التعصب على مذهب الحنفية كثير الذم للشافعية فمن تعصبه انه بنى مدرسة للحنفية بسنجار وشرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية وشرط أن يكون البواب والفراش على مذهب أبى حنيفة وشرط للفقهاء طبيخا يطبخ ذلك كل يوم وهذا نظر حسن رحمه الله

(ذكر ملك نور الدين نصيبين)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سار نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل الى مدينة نصيبين فملكها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد وسبب ذلك ان عمه عماد الدين كان له نصيبين فتطاول نوابه بها واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل وهى تجاور نصيبين فبلغ الخبر مجاهد الدين قايماز القائم بتدبير مملكة نور الدين بالموصل

وولى أبا محمد الحسن بن مهران كفاية أموره *وولاية تدابيره* فبرز اليها بروز السيف من يد الصاقل وهمى على أهلها همى السحاب الهاطل *فأحياهم بندى العدل الشامل* وعدل فى العطف عليهم بين الايامى والارامل *فعلقته قلوب الخاص والعام* وكفته النفوس مؤنة الاستخدام *ولما رأى السلطان حميد اثره* ورشيد مختبره *ازداد شغفا بآثاره* وحرصا على اصطناعه وايثاره* فلم يخل من جديد انعام* ومزيد حفاوة واكرام* وسيأتى بيان خبر الاخوين الجليلين فى موضعه باذن الله تعالى

*(ذكر التاهرتى الرسول الوارد من مصر وما ختم به أجله)

قد كان السلطان يمين الدولة وامين الملة مذ شحذ عزيمته لغزوات الهند محييا لسنة ابيه *مقتفيا نهج آثاره ومساعيه *باحثا على طرق النظر وسبيل الجدل عن سنن الاسلام *والبدع المعترضة عليها فى سالف الايام *استبصارا منه فى الدين*

كلها والمرجوع اليه فيها فلم يعلم مخدومه بذلك لما علم من قلة صبره على احتمال مثل هذا وخاف أن يجرى خلاف بينهم فأرسل من عنده رسولا الى عماد الدين فى المعنى وقبح هذا الفعل الذى فعله النواب بغير أمره وقال انى ما أعلمت نور الدين بالحال لئلا يخرج عن يدك فانه ليس كوالده وأخاف ان يبدو منه ما يخرج الامر فيه عن يدى فأعاد الجواب انهم لم يفعلوا الا ما امرتهم به وهذه القرى من أعمال نصيبين فترددت الرسل بينهما فلم يرجع عماد الدين عن أخذها فحينئذ أعلم مجاهد الدين نور الدين بالحال فارسل نور الدين رسولا من مشايخ دولته ممن خدم جدهم الشهيد زنكى ومن بعده وحمله رسالة فيها بعض الخشونة فمضى الرسول فلحق عماد الدين قد مرض فلما سمع الرسالة لم يلتفت وقال لا أعيد ملكى فأشار الرسول من عنده حيث هو من مشايخ دولتهم بترك وتسليم ما أخذه وحذره عاقبة ذلك فاغلظ عليه عماد الدين القول وعرض بذم نور الدين واحتقاره فعاد الرسول وحكى لنور الدين جلية الحال فغضب نور الدين وعزم على المسير الى نصيبين وأخذها من عمه فاتفق ان عمه مات وملك بعده ابنه فقوى طمعه فمنعه مجاهد الدين فلم يمتنع وتجهز وسار اليها فلما سمع قطب الدين صاحبها سار اليها من سنجار فى عسكره ونزل عليها ليمنع نور الدين عنها فوصل نور الدين وتقدم الى البلد وكان بينهما نهر فجازه بعض امرائه وقاتل من بازائه فلم يثبتوا له فعبر جميع العسكر النورى وتمت الهزيمة على قطب الدين فصعد هو ونائبه مجاهد الدين يرتقش الى قلعة نصيبين وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين الى حران وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها وهو بدمشق وبذلوا له الاموال الكثيرة ليخدهم ويعيد نصيبين اليهم وأقام نور الدين بنصيبين مالكها فتضعضع عسكره بكثرة الامراض وعودهم الى الموصل وموت كثير منهم ووصل العادل الى الديار الجزرية فحينئذ فارق نور الدين نصيبين وعاد الى الموصل فى شهر رمضان فلما فارقها تسلمها قطب الدين وممن توفى من امراء الموصل عز الدين جورديك وشمس الدين عبد الله بن ابرهيم وفخر الدين عبد الله بن عيسى المهرانيان ومجاهد الدين قايماز وظهير الدين يولق بن بلنكرى وجمال الدين محاسن وغيرهم ولما عاد نور الدين الى الموصل قصد العادل قلعة ماردين فحصرها وضيق على اهلها على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكافرة)

فى هذه السنة ملك بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود وهو ابن أخت غياث الدين وشهاب الدين صاحبى غزنة وغيرها وله باميان مدينة بلخ وكان صاحبها تركيا اسمه ازبه وكان يحمل الخراج كل سنة الى الخطا بما وراء النهر فتوفى فى هذه السنة فسار بهاء الدين سام الى المدينة فملكها وتمكن منها وقطع الحمل الى الخطا وخطب لغياث الدين وصارت من جملة بلاد الاسلام بعد ان كانت فى طاعة الكفار

(ذكر انهزام الخطا من الغورية)

وفى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون الى ناحية خراسان فعاثوا فى البلاد وافسدوا فلقيهم عسكر غياث الدين الغورى وقاتلهم فانهزم الخطا وكان سبب ذلك ان خوارزم شاه تكش كان قد سار الى بلد الرى وهمذان واصفهان وما بينهما من البلاد وملكها وتعرض الى عساكر

واستظهارا على قمع الملحدين فقرا الكتب وسمع التأويل * وتتبع القبائل والدليل * وعرف الناسخ والمنسوخ والخبر الصحيح والموضوع وتلقن من اصول الدين مالم يستجز معه فى الدين بدعه * ورأى كل ما يخالف ظاهره نكرا وشنعه * وأتى اليه ان فى غمار الرعايا بخراسان اقواما ينتحلون مذهب الباطن المنسوب الى صاحب مصر ظاهره الرفض * وباطنه الكفر المحض * بتأويلات موضوعة تؤدى الى رفع قواعد الدين * ودفع شواهد الحق واليقين * وابطال معالم الشرع وتتبع احكام الله تعالى بالرفض والنقض فأمر بوضع العيون عليهم * والصاق الطلب بهم * وعثر على رجل كان سفيرا بين المذكورين اوليائه * والملبين لندائه * يعرف القوم بسيماهم واسمائهم فنص على جماعة منهم مختلفى البلدان والاوطان فأشخصوا الى الباب ورجموا تحت الصلب بالاحجار * ولم

الخليفة وأظهر طلب السلطنة والخطبة ببغداد فارسل الخليفة الى غياث الدين ملك الغور
وغزنة يأمره بقصد بلاد خوارزم شاه ليعود عن قصد العراق وكان خوارزم شاه قد عاد الى
خوارزم فراسله غياث الدين يقبح له فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها فأرسل خوارزم شاه الى
الخطا يشكوا اليهم من غياث الدين ويقول ان لم تدركوه بانفاذ العساكر والا أخذ غياث الدين
بلاده كما أخذ مدينة بلخ وقصد بعد ذلك بلادهم ويتعذر عليهم منعه ويعجزون عنه ويضعفون
عن رده عما وراء النهر فجهز ملك الخطا جيشا كثيفا وجعل مقدمهم المعروف بطاينكوا وهو
كالوزير فساروا وعبروا جيحون في جمادى الآخرة وكان الزمان شتاء وكان شهاب الدين
الغوري أخو غياث الدين ببلاد الهند والعساكر معه وغياث الدين به من النقرس ما يمنعه
من الحركة انما يحمل في محفة والذي يقود الجيش ويباشر الحروب أخوه شهاب الدين فلما وصل
الخطا الى جيحون سار خوارزم شاه الى طوس عازما على قصد هراة ومحاصرتها وعبر الخطا
النهر ووصلوا الى بلاد الغور مثل كرزبان وشبرقان وغيرهما وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا
كثيرا لا يحصى فاستغاث الناس بغياث الدين فلم يكن عنده من العساكر ما يلقاهم بهم فراسل
الخطا بهاء الدين سام ملك باميان يأمرونه بالافراج عن بلخ أو انه يحمل ما كان من قبله يحمله من
المال فلم يجبهم الى ذلك وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا فانتدب الامير محمد بن جربك
الغوري وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين وكان شجاعا وكاتب الحسين بن خرميل
وكان بقلعة كرزبان واجتمع معهما الامير حروش الغوري وساروا بعساكرهم الى الخطا
فبيتوهم وكبسوهم ليلا ومن عادة الخطا انهم لا يخرجون من خيامهم ليلا ولا يفارقونها فاتاهم
هؤلاء الغورية وقاتلوهم وأكثروا القتل في الخطا وانهزم من سلم منهم من القتل وأين ينهزمون
والعساكر الغورية خلفهم وجيحون بين أيديهم وظن الخطا أن غياث الدين قد قصدهم في
عساكره فلما أصبحوا وعرفوا من قاتلهم وعلموا ان غياث الدين بمكانه قويت قلوبهم وثبتوا عامة
نهارهم فقتل من الفريقين خلق عظيم ولحقت المتطوعة بالغوريين وأتاهم مدد من غياث
الدين وهم في الحرب فثبت المسلمون وعظمت نكايتهم في الكفار وحمل الامير حروش على قلب
الخطا وكان شيخا كبيرا فأصابه جراحة توفي منها ثم ان محمود بن جربك وابن خرميل حملا في
أصحابهما وتنادوا ان لا يرمى أحد بقوس ولا يطعن برمح وأخذوا اللتوت وحملوا على الخطا
فهزموهم وألحقوهم بجيحون فمن صبر قتل ومن ألقى نفسه في الماء غرق ووصل الخبر الى ملك
الخطا فعظم عليه وأرسل الى خوارزم شاه يقول له أنت قتلت رجالي وأريد عن كل قتيل عشرة
آلاف دينار وكان القتلى اثني عشر ألفا وانفذ اليه من رده الى خوارزم وألزموه بالحضور عنده
فأرسل حينئذ خوارزم شاه الى غياث الدين يعرفه حاله مع الخطا ويشكوا اليه ويستعطفه
غير مرة فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة واعادة ما أخذه الخطا من بلاد الاسلام فلم ينفصل
بينهما حال

(ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارا)

لما ورد رسول ملك الخطا على خوارزم شاه بما ذكرناه أعاد الجواب ان عسكرك انما قصد
انتزاع بلخ ولم يأتوا الى نصرتي ولا اجتمعت بهم ولا أمرتهم بالعبور وان كنت فعلت ذلك فانا

يزل يفعل ذلك بأضرابهم
ومن كان يخرج لذكر
بألقابهم * حتى التقطهم
جارة الرجم والرض * عن
بسط الارض * وقد كان
الاستاذ ابو بكر محمد بن
اسحق بن محمشاد زعيم
اصحاب ابي عبد الله بن
كرام غزير الفضل * كبير
المحل مذكورا في القاصية
والدانيه * بالديانة الوافيه
والامانة البادية والخافيه *
مشهورا باليقظة على الفرق
الغاليه * والبدع الجافيه *
فوافق رأى السلطان على
اجتياح من ركب بنيات
الطريق * وعدم في العدول
عن مثل مخارف النعم
مساعدة التوفيق * ونبهه
على عدة زعموا أنهم ضلال *
واهم في فضول القول وهذر
المحال محال * فسلكوا في
أصفاد الآخرين * ونصبوا
عبرة للناظرين * وازداد
أبو بكر فيما تقرب به من
ظاهر المحاماه * على دين الله
والمراماه * دون حق الله
وتطهير بيضة الاسلام عن
كل ذي ريبه بعيدة
أوقريبه حشمه * أطمعت

مقيم بالمال المطلوب منى ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغورية عدتم الى بهذا القول وهذا المطلب واما أنا فقد اصلحت الغورية ودخلت فى طاعتهم ولا طاعة لكم عندى فعاد الرسول بالجواب فجهز ملك الخطا جيشا عظيما وسيره الى خوارزم فحصرها فكان خوارزم شاه يخرج اليهم كل ليلة ويقتل منهم خلقا عظيما وأتاه من المتطوعة خلق كثير فلم يزل هذا فعله بهم حتى أتى على اكثرهم فدخل الباقون الى بلادهم ورحل خوارزم شاه فى آثارهم وقصد بخارا فنازلها وحصرها وامتنع أهلها منه وقاتلوه مع الخطا حتى انهم أخذوا كلبا أعور وألبسوه قباء وقلنسوة وقالوا هذا خوارزم شاه لانه كان أعور وطافوا به على السور ثم القوه فى منجنيق الى العسكر وقالوا هذا سلطانكم وكان الخوارزميون يسبونهم ويقولون يا أجناد الكفار أنتم قد ارتددتم عن الاسلام فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزم شاه البلد بعد أيام يسيرة عنوة وعفا عن أهله وأحسن اليهم وفرق فيهم مالا كثيرا وأقام بها مدة ثم عاد الى خوارزم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ذى الحجة توفى أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة كاتب الانشاء بديوان الخليفة وكان عالما فاضلا له كتابة حسنة وكان رجلا عاقلا خيرا كثير النفع للناس وله شعر جيد وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين فى شهر رمضان وقاتل من بها وكان صاحبها حسام الدين يولق ارسلان بن ايلغازى بن البى بن تمرتاش بن ايلغازى بن أرتق كل هؤلاء ملوك ماردين وقد تقدم من أخبارهم ما يعلم به محلهم وكان صبيا والحاكم فى بلده ودولته مملوك أبيه النظام برنقش وليس لصاحبه معه حكم البتة فى شئ من الامور ولما حصر العادل ماردين ودام عليها اسلم اليه بعض أهلها الربض بمخامرة منهم فنهب العسكر أهله نهبا قبيحا وفعلوا بهم أفعالا عظيمة لم يسمع بمثلها فلما تسلم الربض تمكن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها وبقى عليها الى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين على ما نذكره ان شاء الله وفيها توفى الشيخ أبو على الحسن بن مسلم بن أبى الحسن القادسى الزاهد المقيم ببغداد والقادسية التى ينسب اليها قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد وكان من عباد الله الصالحين العاملين ودفن بقريته وأبو المجد على بن أبى الحسن على بن الناصر بن محمد الفقيه الحنفى مدرس أصحاب أبى حنيفة ببغداد وكان من أولاد محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه

﴿ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الافضل ديار مصر﴾

فى هذه السنة فى العشرين من المحرم توفى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب ديار مصر وكان سبب موته انه خرج الى الصيد فوصل الى الفيوم متصيدا فرأى ذئبا فركض فرسه فى طلبه فعثر الفرس فسقط عنه فى الارض ولحقته حمى فعاد الى القاهرة مريضا فبقى كذلك الى أن توفى فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس وهو الحاكم فى بلده فأحضر انسانا كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبى بكر بن أيوب وأراه العزيز ميتا وسيره الى العادل وهو يحاصر ماردين كما ذكرناه ويستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجدا فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الافضل على بن صلاح الدين فقال له قل

فيه الرجال * وأمالت اليه الآمال * وأية حشمة وضع الله عليها طابع الدين فهى فى جوار النجم علو ومكان * وسموّ شان * وكفاك بم فخامة ما ورد فى الخبر المروى ان الله تعالى قال للدنيا من خدمنى فاخدميه * ومن خدمك فأتعبيه أو فاستخدميه * واتفق بعقب ذلك أن طلع رجل من بلاد العراق ينتسب الى شجرة العلوية يذكر انه رسول صاحب مصر الى السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * بكتاب يحمله * ويرتزق به * مدلا بسبب النسب ومدليا بحبل الشرف فاستوقف الى أن أنهى الى السلطان خبره * ووكل الى ما يرد من مثاله صدره * ونهض من بعد ذلك الى هراة متمدا الى الحضرة * فأمر برده الى نيسابور لتقرير ما يحمله على رؤس الاشهاد * وبمرأى ومسمع من كل حاضر وباد * صيانة لخاص مجلسه عما عسى أن يضاف اليه من اماله * وسرحت رساله *

اصاحبك ان أخاه العزيز توفى وليس فى البلاد من يمنعها فليسر اليها فليس دونها مانع وكان الافضل محبوبا الى الناس يريدونه فلم يلتفت الافضل الى هذا القول واذ قد وصله رسل الامراء من مصر يدعونه اليهم ليملكوه وكان السبب فى ذلك ان الامير سيف الدين يازكج مقدم الاسدية والفرقة الاسدية والامراء الاكراد يريدونه ويميلون اليه وكان المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الاسدية وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك فقال فخر الدين نولى ابن الملك العزيز فقال سيف الدين انه طفل وهذه البلاد ثغر الاسلام ولا بد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها والرأى انا نجعل الملك فى هذا الطفل الصغير ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره الى أن يكبر فان العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لامير فاتفقا على هذا فقال جهاركس فمن يتولى هذا فاشار يازكج بغير الافضل فجرى بينه وبين جهاركس منازعة لملايتهم وينفر جهاركس عنه فامتنع من ولايته فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحدا بعد آخر الى أن ذكر آخرهم الافضل فقال جهاركس هو بعيد عنا وكان بصرخد مقيما فيها من حين أخذت منه دمشق فقال يازكج نرسل اليه من يطلبه مجدا فأخذ جهاركس يغالطه فقال يازكج نمضى الى القاضى الفاضل ونأخذ رأيه فاتفقا على ذلك وأرسل يازكج يعرفه ذلك ويشير بتمليك الافضل فلما اجتمعا عنده وعرفاه صورة الحال أشار بالافضل فارسل يازكج فى الحال القصاد وراءه فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكرا فى تسعة عشر نفسا لان البلاد كانت للعادل ويضبط نوابه الطرق لئلا يجوز الى مصر ليجىء العادل ويملكها فلما قارب الافضل القدس وقد عدل عن الطريق المؤدى اليه لقيه فارسان قد ارسلا اليه من القدس فاخبراه أن من بالقدس قد صار فى طاعته وجد فى السير فوصل الى بلبيس خامس ربيع الاول ولقيه أخوته وجماعة الامراء المصرية وجميع الاعيان فاتفق ان أخاه الملك المؤيد مسعودا صنع له طعاما وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاما فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه انه يبدأ به فظن جهاركس انه فعل هذا انحرافا عنه وسوء اعتقاد فيه فتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الافضل وقال ان طائفة من العرب قد اقتتلوا وائن لم تمض اليهم تصلح بينهم يؤدى ذلك الى فساد فاذن له الافضل فى المضى اليهم ففارقه وسار مجدا حتى وصل الى البيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجة الزردكش وسراسنقر وأحضروا عندهم ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو أيضا من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الافضل وأرسلوا الى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها فلم يسر اليهم لانه كانت اطماعه قد قويت فى أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها وانه يأخذها والذى يريدونه لا يفوته وأما الافضل فانه دخل الى القاهرة سابع ربيع الاول وسمع بهرب جهاركس فاهمه ذلك وترددت الرسل بينه وبينهم ليعودوا اليه فلم يزدادوا الا بعدا ولحق بهم جماعة من الناصرية أيضا فاستوحش الافضل من الباقين فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس وكل هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور سوى من ليس مثلهم فى التقدم وعلو القدر وأقام الافضل بالقاهرة وأصلح الامور وقرر القواعد والمرجع فى جميع

فلما رد القهقرى وفتش عما صحبه عثر على تصانيف الباطنيه * وأغاليط فى الشريعة الحنيفيه * أصح منها فى الاسماع خباط المجانين * ووسواس المبرسمين * لا تؤخذ فى محصول * ولا توجد فى معقول ومنقول * وناظره الاستاذ أبو بكر على أمور من جهة مرسله تفاوتت فيها ألفاظه فلم يوجد لها على نار الامتحان ثبات * ولا الى وجه التحقيق وجانب التمييز التفات * ومازال يضرب اخماسا فى أسداس الى أن تبين له انه أخطأ فى تحمل تلك الرساله * وحرم التوفيق فى تقلد تلك السفاره * وقضى الله أن اشخص الى حضرة السلطان فلما احضر مجلس حفلة وقد غص بأعيان الاسلام ساداتها وكبرائها وقضاتها * وفقهائها وزعمائها * وهناك الحسن ابن طاهر بن مسلم العلوى ومن قصته أن جده مسلما لم يكن فى الطالبية من أولاد الحسين الاصغر رضى الله عنهم بناحية مصر أنبه

الامو والى سيف الدين يازكج

(ذكر حصر الافضل مدينة دمشق وعوده عنها)

لما ملك الافضل مصر واستقربها ومعه ابن أخيه الملك العزيز باسم الملك لصغره واجتمعت الكلمة على الافضل بها وصل اليه رسول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج الى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فبرز من مصر منتصف جمادى الاولى من السنة على عزم المسير الى دمشق وأقام بظاهر القاهرة الى ثالث رجب ورحل فيه وتعوق فى مسيره ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق لكنه تأخر فوصل الى دمشق ثالث عشر شعبان فنزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق وكان العادل قد أرسل اليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الافضل اليهم ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا فى جميع العساكر على حصارها وسار جريدة فجد فى السير فسبق الافضل فدخل دمشق قبل الافضل بيومين وأما الافضل فانه تقدم الى دمشق من الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان الى دمشق من باب السلامة وسبب دخولهم ان قوما من أجناده من بيوتهم مجاورة الباب اجتمعوا بالامير مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدثوا معه فى أن يقصد هو والعسكر باب السلامة ليفتحوه لهم فأراد مجد الدين أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الافضل ولا أخذ معه أحدا من الامراء بل سار وحده بمفرده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الافضل واستسلم من به من الجند ونزلوا عن الاسوار وبلغ الخبر الى الملك العادل فكاد يستسلم وتماسك وأما الذين دخلوا البلد فانهم وصلوا الى باب البريد فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا بهم وأخرجوهم منه وكان الافضل قد نصب خيمه بالميدان الاخضر وقارب عسكره الباب الحديد وهو من أبواب القلعة فقدر الله تعالى أن أشير على الافضل بالانتقال الى ميدان الحصى ففعل ذلك فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم ان الامراء الاكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا أحدهم فظن الافضل وباقى الاسدية أنهم فعلوا بقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا الى العشرين من شعبان ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص الى الافضل الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب ثانى عشر شهر رمضان وأرادوا الزحف الى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكرا بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الافضل بذلك وأما الملك العادل فانه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الامداد الى الافضل عظم عليه فأرسل الى المماليك الناصرية بالبيت المقدس يستدعيهم اليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم الى الافضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الامراء الى طريقهم ليمنعوهم فسلكوا غير طريقهم فجاء أولئك ودخلوا دمشق خامس رمضان فقوى العادل بهم قوة عظيمة وأيس الافضل ومن معه من دمشق وخرج عسكر دمشق فى شوال فكبسوا العسكر المصرى فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على

واوجه منه * ولا أغنى ولا أقنى منه * فلما استقر معد أبو تميم المعز بمصر خطب اليه بعض بناته على ولده أبى منصور الملقب بالعزيز وسبب ذلك على ما قيل انه وجد فى داره رقعة فيها

ان كنت من آل أبى طالب
فاخطب الى بعض بنى طاهر
فان رأى القوم كفوًا لهم
فى باطن الامر وفى الظاهر
فأم من سنه خوزية
يعض منها البظر بالآخر

فنسبهم الشاعر الى أمهم الخوزية بالعسكر لان كورتها خوزستان وهى أم محمد بن عبد الله بن ميمون فاعتل مسلم عليه بأن لا واحدة من بناته الا وهى فى حبالة وتحت عقدة تفاديا من اجابته * وتحرجا من مصاهرته * فلما عرف امتناعه ذهابا بنفسه عنه * وترفعا بنسبه دونه * وضع عليه يد الاستقصاء * بعد أن أودعه الحبس سنين وخبطه خبط العشا * ورق السلم * وألبسه عن فضفاض الغنى غلالة العدم وهلك من بعد على يده * فقال

دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل
محمد وكان قد رحل عن ماردين على ما نذكره ان شاء الله تعالى وهو بحران فاستدعاه اليه بعسكره
فسار على طريق البر فدخل الى دمشق ثاني عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك
رحل العسكر عن دمشق الى ذيل جبل الكسوة سابع عشر صفر واستقر أن يقيموا بحوران
حتى يخرج الشتاء فرحلوا الى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام واتفقوا
على أن يعود كل منهم الى بلده فعاد الظاهر صاحب حلب وأسد الدين صاحب حمص الى
بلادهما وعاد الافضل الى مصر فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد)

في هذه السنة ثامن عشر ربيع الآخر وقيل جمادى الاولى توفي أبو يوسف يعقوب بن أبي
يعقوب يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والاندلس بمدينة سلا وكان قد سار اليها من
مراكش وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهدية من أحسن البلاد وأنزهها فسار
اليها يشاهدها فتوفي بها وكانت ولايته خمس عشرة سنة وكان ذا جهاد للعدو ودين وحسن سيرة
وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية وأعرض عن مذهب مالك فعظم أمر الظاهرية في أيامه وكان
بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية منسوبون الى ابن محمد بن حزم رئيس الظاهرية
الا انهم مغمورون بالمالكية ففي أيامه ظهروا وانتشروا ثم في آخر ايامه استقضى الشافعية
على بعض البلاد ومال اليهم

(ذكر عصيان أهل المهدية على يعقوب وطاعتهم لولده محمد)

كان أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب لما عاد من أفريقية كما ذكرناه سنة احدى وثمانين
وخمسمائة استعمل أبا سعيد عثمان وأبا علي يونس بن عمر اينتي وهما وأبوهما من أعيان الدولة
فولى عثمان مدينة تونس وولى أخاه المهدية وجعل قائد الجيش بالمهدية محمد بن عبد الكريم وهو
شجاع مشهور وعظمت نكايته في العرب فلم يبق منهم الا من يخافه فاتفق انه أتاه الخبر بان
طائفة من عوف نازلين بمكان فخرج اليهم وعدل عنهم حتى جازهم ثم أقبل عائدا يطلبهم وأتاهم
الخبر بخروجه اليهم فهربوا من بين يديه فلقيهم أمامهم فهربوا وتركوا المال والعيال من غير
قتال فأخذ الجميع ورجع الى المهدية وسلم العيال الى الوالي وأخذ من الاسلاب والغنيمة ما شاء
وسلم الباقي الى الوالي والى الجند ثم ان العرب من بني عوف قصدوا أبا سعيد بن عمر اينتي
فوحدوا وصاروا من حزب الموحدين واستجاروا به في رد عيالهم وأموالهم فأحضر محمد بن
عبد الكريم وأمره باعادة ما أخذه من النعم فقال أخذه الجند ولا اقدر على رده فاغلظ له في
القول وأراد أن يبطش به فاستمهله الى أن يرجع الى المهدية ويسترد من الجند ما يجده عندهم
وما عدم منه غرم العوض عنه من ماله فامهله فعاد الى المهدية وهو خائف فلما وصلها جمع
أصحابه وأعلمهم ما كان من أبي سعيد وحالفهم على موافقته فحلفوا له فقبض على أبي علي يونس
وتغلب على المهدية وملكها فأرسل اليه أبو سعيد في معنى اطلاق أخيه يونس فاطلقه على اثني
عشر ألف دينار فلما ارسلها اليه أبو سعيد فرقها في الجند وأطلق يونس وجمع أبو سعيد العساكر
وأراد قصده محاصرته فارسل محمد بن عبد الكريم الى علي بن اسحق الملثم فخالفه واعتضد به

قوم غيب عن محاسنه فلا
يدري كيف صار أمره *
وأين وضع قبره * وزعم
آخرون انه هرب من الحبس
على طريق الحجاز فاحتضر
في الطريق وعند ذلك لجأ
طاهر والد الحسن المذكور
الى مدينة الرسول صلى الله
عليه وسلم متأمرا على أهلها
ومعه ابن عم له يعرف بأبي
علي بن طاهر ختنه على أخته
فلما مضى طاهر لسبيله ورث
أبو علي المذكور مكانه من
الامارة الى أن لحق به وورثه
ولداه * هاني ومهني دون
الحسن لاستضعافهما
اياه * وتقويهما بالحال
والمال عليه فرحل نحو
خراسان ملتجئا الى
السلطان يمين الدولة وأمين
الملة * سنة ثلاث وتسعين
وثلثمائة فلما ورد التاهرتي
بزعمه رسولا صغر الحسن
شانه * ووضع فيه لسانه *
وأبى أن يكون له نبات على
دوحة الرسالة * وانتساب
الى نبعة النبوة * وادعى
عليه الكذب وتحمل الزور
والتقول وعزاه الى فساد
الدين * واستحقاقه ضرب

فامتنع أبو سعيد من قصده ومات يعقوب وولي ابنه محمد فسير عسكرا مع عمه في البحر وعسكرا آخر في البر مع ابن عمه الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن فلما وصل عسكر البحر الى بجاية وعسكر البر الى قسنطينة الهوى هرب الميم ومن معه من العرب من بلاد افريقية الى الصحراء ووصل الاسطول الى المهدية فشكا محمد بن عبد الكريم ما لقي من أبي سعيد وقال أنا على طاعة أمير المؤمنين محمد ولا أسلمها الى أبي سعيد وانما أسلمها الى من يرسله أمير المؤمنين فارسل محمد من يتسلمها منه وعاد الى الطاعة

(ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين)

في هذه السنة زال الحصار عن ماردين ورحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل وسبب ذلك أن الملك العادل لما حصر ماردين عظم ذلك على نور الدين صاحب الموصل وغيره من ملوك ديار بكر والجزيرة وخافوا ان ملكها لا يبقى عليهم الا ان العجز عن منعه حملهم على طاعته فلما توفي العزيز صاحب مصر وملك الافضل مصر كما ذكرناه وبينه وبين العادل اختلاف فارسل أخذ عسكر مصر من عنده وأرسل الى نور الدين صاحب الموصل وغيره من الملوك يدعوهم الى موافقته فاجابوه الى ذلك فلما رحل الملك العادل عن ماردين الى دمشق كما ذكرناه برز نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عنها ثاني شعبان وسار الى دنيسر فنزل عليها ووافقه ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود صاحب سنجار وابن عمه الآخر سنجر شاه بن غازي بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر فاجتمعوا كلهم بدنيسر الى ان عيدوا عيد الفطر ثم ساروا عنها سادس شوال ونزلوا بحرزم وتقدم العسكر الى تحت الجبل ليرتادوا موضعا للنزول وكان أهل ماردين قد عدمت الاقوات عندهم وكثرت الامراض فيهم حتى ان كثيرا منهم كان لا يطيق القيام فلما رأى النظام وهو الحاكم في دولة صاحبها ذلك أرسل الى ابن العادل في تسليم القلعة اليه الى أجل معلوم ذكره على شرط ان يترك هم يدخل اليهم من الميرة ما يقوتهم حسب فاجابهم الى ذلك وتحالفوا عليه ورفعوا أعلامهم الى رأس القلعة وجعل ولد العادل بباب القلعة أميرا لا يترك يدخلها من الاطعمة الا ما يكفيهم يوما بيوم فأعطى من بالقلعة ذلك الامير شيأ فمكنهم من ادخال الذخائر الكثيرة فبينما هم كذلك اذ أتاهم خبر وصول نور الدين صاحب الموصل فقويت نفوسهم وعزموا على الامتناع فلما تقدم عسكره الى ذيل جبل ماردين قدر الله تعالى ان الملك الكامل بن العادل نزل بعسكره من ربض ماردين الى لقاء نور الدين وقتاله ولو أقاموا بالربض لم يمكن نور الدين ولا غيره الصعود اليهم ولا ازالتهم لكن نزلوا ليقضي الله أمرا كان مفعولا فلما أصحروا من الجبل اقتتلوا وكان من عجيب الاتفاق ان قطب الدين صاحب سنجار كان قد واعد العسكر العادلي أن ينهزم اذا التقوا ولم يعلم بذلك أحد من العسكر فقدر الله تعالى انه لما نزل العسكر العادلي واصطفت العساكر للقتال الجأت قطب الدين الضرورة بالزحمة الى أن وقف في سفح جبل ماردين ليس اليه طريق للعسكر العادلي ولا يرى الحرب الواقعة بينهم وبين نور الدين ففاته ما أراده من الانهزام فلما التقى العسكران واقتتلوا حمل ذلك اليوم نور الدين بنفسه واصطلى الحرب الناس أنفسهم بين يديه فانهزم العسكر العادلي وصعدوا في الجبل الى الربض وأسر منهم كثير فحملوا الى بين يدي نور الدين

فاحسن

الوثنين * فخلى السلطان بينه وبين ما يستجيزه لنفسه ودينه * فقام الى جيده * بضربة غرقته في دم وريده * وقد كان القادر بالله أمير المؤمنين العباسي كتب الى السلطان يمين الدولة بما ترامى اليه من خبر الرسول ما يقتضيه الدين من التصلب عليه وتقديم الجد في الانتصاف للاسلام والمسلمين منه فلما ختم أمره بما تقدم ذكره أنهى الى مجالس الخلافة صورة الحال * وكم السيف أفواه العذال * فقوبل من القبول بمقتضاه * وجزي الخير على ما أتاه وتوخاه * فكان مثل التاهرتي كما قيل

ومن يشرب السم الذعاف فانه
حقيق بأنياب المنايا النواهس

(ذكر الامير أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه وما ختم به أمره الى أن ورث السلطان مملكته)

قد كان أبو الحسن علي بن مأمون لما ورث أباه مأمونا مملكته وقد كان استضاف خوارزم الى الجرجانية خطب الى السلطان يمين

فاحسن اليهم ووعدهم الاطلاق اذا انفصلوا ولم يظن ان الملك الكامل ومن معه يرحلون عن
ماردين سريعا لخافهم أمر لم يكن فى الحساب فان الملك الكامل لما صعد الى الربض رأى
أهل القلعة قد نزلوا الى الذين جعلوهم بالربض من العسكر فقاتلوهم ونالوا منهم ونهبوا فالقى الله
الرعب فى قلوب الجميع فاجمعوا رأيهم على مفارقة الربض ليلا فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوال
وتركوا كثيرا من أثقالهم ورحالهم وما أعدوه فاخذه أهل القلعة ولو ثبت العسكر العادلى
بمكانه لم يمكن أحدا أن يقرب منهم ولما رحلوا نزل صاحب ماردين حسام الدين يولق بن ايلغازى
الى نور الدين ثم عاد الى حصنه وعاد أتابك الى دنيسر ورحل عنها الى رأس عين على عزم قصد
حران وحصرها فاتاه رسول من الملك الظاهر يطلب الخطبة والسكة وغير ذلك فتغيرت نية نور
الدين وفتر عزمه عن حصرها فعزم على العود الى الموصل فهو يقدم الى العود رجلا ويؤخر
أخرى اذ أصابه مرض فحقق عزم العود الى الموصل فعاد اليها وأرسل رسولا الى الملك الافضل
والملك الظاهر يعتذر عن عوده بمرضه فوصل الرسول ثانى ذى الحجة اليهم وهم على دمشق وكان
عود نور الدين من سعادة الملك العادل فانه كان هو وكل من عنده ينتظرون ما يجىء من أخباره
فان من بحران استسلموا فقدر الله تعالى انه عاد فلما عاد جاء الملك الكامل الى حران وكان
قد سار عن ماردين الى ميافارقين فلما رجع نور الدين سار الكامل الى حران وسار الى أبيه
بدمشق على ما ذكرناه فازداد به قوة والافضل ومن معه ضعفا

(ذكر الفتنة بفيروزكوه من خراسان)

فى هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدين ملك الغور وغزنة وهو بفيروزكوه عمت
الرعية والملوك والامراء وسببها ان الفخر محمد بن عمر بن الحسين الرازى الامام المشهور الفقيه
الشافعى كان قدم الى غياث الدين مفارقا لبهاء الدين سام صاحب باميان وهو ابن أخت
غياث الدين فاكرمه غياث الدين واحترمه وبالغ فى اكرامه وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من
الجامع فقصده الفقهاء من البلاد فعظم ذلك على الكرامية وهم كثيرون بهراة وأما الغورية
فكلهم كرامية وكرهوه وكان أشد الناس عليه الملك ضياء الدين وهو ابن عم غياث الدين وزوج
ابنته فاتفق أن حضر الفقهاء من الكرامية والحنفية والشافعية عند غياث الدين بفيروزكوه
للمناظرة وحضر فخر الدين الرازى والقاضى مجد الدين عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة
وهو من الكرامية الهيصمية وله عندهم محل كبير لزهده وعلمه وبيته فتكلم الرازى فاعترض
عليه ابن القدوة وطال الكلام فقام غياث الدين فاستطال عليه الفخر وسبه وشتمه وبالغ فى أذاه
وابن القدوة لا يزيد على أن يقول لا يفعل مولانا لا واخذك الله استغفر الله فانفصلوا على
هذا وقام ضياء الدين فى هذه الحادثة وشكى الى غياث الدين وذم الفخر ونسبه الى الزندقة
ومذهب الفلاسفة فلم يصغ غياث الدين اليه فلما كان الغد وعظ ابن عم المجد بن القدوة بالجامع
فلما صعد المنبر قال بعد ان حمد الله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم لا اله الا الله ربنا آمنا بما
أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين أيها الناس انا لا نقول الا ما صح عندنا عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم وأما علم ارسطاطاليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابى فلا نعلمها
فلاى حال يشتم بالامس شيخ من شيوخ الاسلام يذب عن دين الله وعن سنة نبيه وبكى وضج

الدولة احدى أخواته
تقوية لعمدة الحال * وتسدية
للحمة الوصال * فأوجب
اسعافه بما استدعاه
استكفاءا اياه * وتوخيا
لرضاه * وزف اليه من
خطبه * ووصل بأسبابه
سببه * ودر التهادى بينهما
حتى صارت الدار واحده *
والاسرار لغير الاخلاص
جاحده * وغيرت الحال
على جمالها فى الاتشاج
والامتزاج * الى أن قضى
خوارزم شاه نحبه * ولقى
بانقراض الاجل ربه *
وورث أبو العباس مأمون
ابن مأمون مكان أخيه *
وولى ما كان يليه فكتب
الى السلطان يسأله أن يعقد
له على شقيقته عقده على
أخيه من قبل فهو تاليه
فى الطاعة بل أتم اخلاصا *
وثانيه فى القربة بل أشد
اختصاصا * فشفع السلطان
فيه داعى الكفاءه * واستجد
للحال رونق الطراءه * وعقد
له عليها عقدا خلطه فيه
بنفسه * وفرغ له فريقا
من قلبه وخلبه * ومازال
الامر بينهما على جمله

الناس وبني الكرامية واستغاثوا وأعانهم من يؤثر بعد الفخر الرازي عن السلطان وثار
الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة وكادوا يقتتلون ويجري ما يهلك فيه خلق كثير فبلغ
ذلك السلطان فارسل جماعة من عنده الى الناس وسكنهم ووعدهم باخراج الفخر من عندهم
وتقدم اليه بالعود الى هراة فعاد اليها

﴿ذكر مسير خوارزم شاه الى الري﴾

في هذه السنة في ربيع الاول سار خوارزم شاه علاء الدين تكش الى الري وغيرها من بلاد
الجبل لانه بلغه أن نائبه بها مياجق قد تغير عن طاعته فسار اليه فخافه مياجق فجعل يفر من بين
يديه وخوارزم شاه في طلبه يدعوه الى الحضور عنده وهو يمتنع فاستأمن اكثر أصحابه الى
خوارزم شاه وهرب هو فحصل بقلعة من أعمال مازندران فامتنع بها فسارت العساكر في
طلبه فأخذ منها وأحضر بين يدي خوارزم شاه فامر بحبسه بشفاعة أخيه أقجة وسيرت الخلع
من الخليفة لخوارزم شاه ولولده قطب الدين محمد وتقليد بما بيده من البلاد فلبس الخلعة
واشتغل بقتال الملاحدة فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى ارسلان كشاه وانتقل الى حصار
ألموت فقتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية بالري وكان قد تقدم عنده تقدما
عظيما قتله الملاحدة وعاد خوارزم شاه الى خوارزم فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك
مسعود بن علي فقتلوه في جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين فامر تكش ولده قطب الدين بقصد
الملاحدة فقصد قلعة ترشيش وهي من قلاعهم فحصرها فاذعنوا له بالطاعة وصالحوه على مائة
ألف دينار ففارقها وانما صالحهم لانه بلغه خبر مرض أبيه وكانوا يراسلونه بالصلح فلا يفعل
فلما سمع بمرض أبيه لم يرحل حتى صالحهم على المال المذكور والطاعة ورحل

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة في ربيع الاول توفي مجاهد الدين قايماز رحمه الله بقلعة الموصل وهو الحاكم في
دولة نور الدين والمرجوع اليه فيها وكان ابتداء ولايته قلعة الموصل في ذي الحجة سنة احدى
وسبعين وخمسمائة وولي اربل سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما مات زين الدين علي كوجك
سنة ثلاث وستين بقي هو الحاكم فيها ومعه من يختاره من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه
حكم وكان عاقلا دينا خيرا فاضلا يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة ويحفظ من التاريخ
والاشعار والحكايات شيأ كثيرا وكان كثير الصوم يصوم من كل سنة نحو أربعة اشهر وله أوراد
كثيرة حسنة كل ليلة ويكثر الصدقة وكان له فراسة حسنة فيمن يستحق الصدقة ويعرف الفقير
المستحق ويبرهم وبنى عدة جوامع منها الجامع الذي بظاهر الموصل بباب الجسر وبنى الربط
والمدارس والخانات في الطرق وله من المعروف شئ كثير رحمه الله فلقد كان من محاسن الدنيا
وفيها فارق غياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان مذهب الكرامية وصار شافعي المذهب
وكان سبب ذلك أنه كان عنده انسان يعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر بالفارسية متفننا في
كثير من العلوم فاوصل الى غياث الدين الشيخ وجيه الدين أبا الفتح محمد بن محمود المروروذي
الفقيه الشافعي فاوضح له مذهب الشافعي وبين له فساد مذهب الكرامية فصار شافعيا وبنى
المدارس للشافعية وبنى بغزنة مسجدا لهم أيضا وأكثر مراعاتهم فسعى الكرامية في أذى

وجيه

الاشتراك والاشتباك * الى
أن دعا السلطان داعي
الاختبار الى سومه *
اقامة الخطبة باسمه *
وأنهض رسولا يتنجزه العمل
بما يقتضيه ظاهر حكمه *
فصادف منه حرصا على
الاجابة * وافتراضا لحق
الطاعة * غير أنه عرض
الحال فيه على من حوله
من أعيان أشياعه وأتباعه *
فأظهروا انفارا * وأصروا
واستكبروا استكبارا * وقالوا
نحن أتباعك وأطواعك *
ما سلم لك الملك عن الاشتراك
فأما اذا وضعت خدك
للطاعة وضعنا السيوف
على العواتق خلعا لك
وقتلا عليك وجهادا فيك
فعاد الرسول الى السلطان
بما رآه عيانا * وسمعه بغيا
وعدوانا * واحس القوم
بجمرة الدم * من وراء
جرائمهم * على ولي نعمتهم *
بالقول الفظيع * والرد
الشنيع * وزعيمهم في الامر
يومئذ نيالتكين الخماري
صاحب الجيش فأوجسوا
خيفة * وتوامروا على
الفتك به غيلة * ومازالوا في

وجيه الدين فلم يقدرهم الله تعالى على ذلك وقيل ان غياث الدين وأخاه شهاب الدين لما ملكا في خراسان قيل لهما ان الناس في جميع البلاد يزرون على الكرامية ويحتقرونهم والرأى ان تفارقا مذاهبهم فصارا شافعيين وقيل ان شهاب الدين كان حنفيا والله أعلم وفي هذه السنة توفي أبو القاسم يحيى بن علي بن فضلان الفقيه الشافعي وكان اماما فاضلا ودرس ببغداد وكان من أعيان أصحاب محمد بن يحيى نجي النيسابوري

(ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك العادل الديار المصرية)

قد ذكرنا سنة خمس وتسعين حصر الافضل والظاهر ولدى صلاح الدين دمشق ورحيلهما الى رأس الماء على عزم المقام بحوران الى ان يخرج الشتاء فلما أقاموا برأس الماء وجدا العسكر بردا شديدا لان البرد في ذلك المكان في الصيف موجود فكيف في الشتاء فتغير العزم على المقام واتفقوا على ان يعود كل انسان منهم الى بلاده ويعودوا الى الاجتماع فتفرقوا تاسع ربيع الاول فعاد الظاهر وصاحب حمص الى بلادهما وسار الافضل الى مصر فوصل بلبيس فأقام بها ووصلته الاخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوه على ان يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو المدبر للملك الى ان يكبر فساروا على هذا وكان عسكره بمصر قد تفرق عن الافضل من الخشبي فسار كل منهم الى اقطاعه ليربعوا دوابهم فرام الافضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الامر عن ذلك ولم يجتمع منهم الا طائفة يسيرة ممن قرب اقطاعه ووصل العادل فأشار بعض الناس على الافضل ان يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم الى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السانح في طرف البلاد والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر فانهزم الافضل ودخل القاهرة ليلا وفي تلك الليلة توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني كاتب الانشاء لصلاح الدين ووزيره فحضر الافضل الصلاة عليه وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فأرسل رسولا الى عمه في الصلح وتسليم البلاد اليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه العادل فنزل عنها الى حران والرها فلم يجبه فنزل الى ميافارقين وحاني وجبل جور فأجابه الى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعادل وسار الى صرخد ودخل العادل الى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر ولما وصل الافضل الى صرخد أرسل من تسلم ميافارقين وحاني وجبل جور فامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليم ميافارقين وسلم ما عداها فترددت الرسل بين الافضل والعادل في ذلك والعادل يزعم ان ابنه عصاه فامسك عن المراسلة في ذلك لعلمه ان هذا فعل بأمر العادل ولما ثبت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز في شوال من السنة وخطب لنفسه وحاقق الجند في اقطاعاتهم واعترضهم في أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم فكان ما نذكره سنة سبع وتسعين ان شاء الله

(ذكر وفاة خوارزم شاه)

التدبير عليه * الى ان دخلوا ذات يوم اليه * على رسم السلام * فاذا هو صريع كاس الحمام * لا يدرى كيف قتل * ومن اى وجه اليه قد وصل * فبادروا الى العقد لاحد اولاده * وبسطوا ايدى الاصفاق على بيعته وعلموا ان السلطان يتمعض للحادثه ويقصد قصد الانتصاف للوارثه * فتحالفوا على مقارعته ان غزاهم في عقر دارهم * وبزاهم على مسخوط آثارهم * ولما انتهى الى السلطان خبر صنيعهم بولي نعمتهم وهو قسيم شقيقته * وحامي حقيقته * أزعجته قوة الحفاظ للانتقام من أولئك الغدرة الفجره * والمرقة الفسقه * فجاش لمناهضتهم على جمة مسجوره * وحفيظة على استغاثات الله مقصوره * وكانت سعادة أيامه قد اقتنت أولئك العتاة البغاة ما أتوا استحقاقا للنقمه * وبراءة من العصمه * وتمهيدا لعذره قربا وبعدا في استخلاص مملكة كانت

في هذه السنة في العشرين من رمضان توفي خوارزم شاه تكش بن ارسلان صاحب خوارزم
وبعض خراسان والري وغيرها من البلاد الجبالية بشهرستانة بين نيسابور وخوارزم وكان
قد سار من خوارزم الى خراسان وكان به خوانيق فأشار عليه الاطباء بترك الحركة فامتنع
وسار فلما بلغ شهرستانة اشتد مرضه ومات ولما اشتد مرضه أرسلوا الى ابنه قطب الدين محمد
يستدعونه ويعرفونه شدة مرض أبيه فسار اليهم وقد مات أبوه فولي الملك بعده ولقب علاء
الدين لقب أبيه وكان لقبه قطب الدين وأمر فحمل أبوه ودفن بخوارزم في تربة عملها في مدرسة
بناها كبيرة عظيمة وكان عادلا حسن السيرة له معرفة حسنة وعلم يعرف الفقه على مذهب ابي
حنيفة ويعرف الاصول وكان ولده علي شاه باصفهان فأرسل اليه أخوه خوارزم شاه محمد
يستدعيه فسار اليه فنهب أهل اصفهان خزانته ورحله فلما وصل الى أخيه ولاه حرب خراسان
والتقدم على جندها وسلم اليه نيسابور وكان هندوخان ملكشاه بن خوارزم شاه تكش يخاف
عمه محمدا فهرب منه ونهب كثيرا من خزائن جده تكش لما مات وكان معه وسار الى مرو ولما
سمع غياث الدين ملك غزنة وفاة خوارزم شاه أمر ان لا تضرب نوبته ثلاثة أيام وجلس للعزاء
على ما بينهما من العداوة والمحاربة ففعل ذلك عقلا منه ومروأة ثم ان هندوخان جمع جمعا كثيرا
بخراسان فسير اليه عمه خوارزم شاه جيشا مقدمهم جقر التركي فلما سمع هندوخان بمسيرهم
هرب عن خراسان وسار الى غياث الدين يستنجده على عمه فأكرم لقاءه وانزاله وأقطعه ووعده
النصرة فأقام عنده ودخل جقر مدينة مرو وبها والدة هندوخان وأولاده فاستظهر عليهم وأعلم
صاحبه فأمره بارسالهم الى خوارزم مكرمين فلما سمع غياث الدين ذلك أرسل الى محمد بن جربك
صاحب الطالقان يأمره ان يرسل الى جقر يتهدده ففعل وسار من الطالقان فأخذ مرو الروذ
والجس قرى وتسمى بالفارسية بنج ده وارسل الى جقر يأمره باقامة الخطبة بمرو لغياث الدين
أو يفارق البلد فأعاد الجواب يتهدد ابن جربك ويتوعده وكتب اليه سرا يسأله ان يأخذ له
أمانا من غياث الدين ليحضر خدمته فكتب الى غياث الدين بذلك فلما قرأ كتابه علم ان
خوارزم شاه ليس له قوة فلهذا طلب جقر الانحياز اليه فقوي طمعه في البلاد وكتب الى أخيه
شهاب الدين يأمره بالخروج الى خراسان ليتفقا على أخذ بلاد خوارزم شاه محمد

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الآخرة وثب الملاحدة الاسماعيلية على نظام الملك مسعود بن علي وزير
خوارزم شاه تكش فقتلوه وكان صالحا كثير الخير حسن السيرة شافعي المذهب بنى للشافعية بمرو
جامعا مشرفا على جامع الحنفية فتعصب شيخ الاسلام وهو مقدم الحنابلة بها فيهم والرياسة
وجمع الاوباش فأحرقه فأنفذ خوارزم شاه فأحضر شيخ الاسلام وجماعة ممن سعى في ذلك
فأغرمهم مالا كثيرا وبنى الوزير ايضا مدرسة عظيمة بخوارزم وجامعا وجعل فيها خزانة كتب
وله آثار حسنة بخراسان باقية ولما مات خلف ولدا صغيرا فاستوزره خوارزم شاه رعاية لحق
أبيه فأشير عليه ان يستعفي فأرسل يقول انني صبي لا أصلح لهذا المنصب الجليل فيولي السلطان
فيه من يصلح له الى ان أكبر فان كنت أصلح فأنا المملوك فقال خوارزم شاه لست أعفيك
وأنا وزيرك فكن مراجعي في الامور فانه لا يقف شيء فاستحسن الناس هذا ثم ان الصبي

الى عزا بالله نازعه * ولباب
الاقبال برفق سياسته
قارعه * وبحر الجحافل
كالجبال سائره * والبحار
زاخره * حتى أناخ بعقوتهم
مستعينا بالله على قتالهم *
واستنزالهم الى مناهل
آجالهم * وشاور صاحب
الجيش الخوارزمي عامة
قواده في ركضة على طلائع
السلطان بياتا تعضهم
بأنياب الحديد * ان لم تسلمهم
للتشريد والتبديد * وطار
تحت خوافي الليل حتى
انقض على أبي عبد الله محمد
ابن ابراهيم الطائي وهو
طليعة السلطان في كماة العرب
حين أنفض الكرى رؤسهم *
وشغل برد الصباح نفوسهم *
واختلط البعض بالبعض
ضربا بالسيوف القواصل *
وطعنا بالرماح الذوابل *
فطار الخبر الى السلطان
بركض القوم فزحف بجيوشه
الى معترك الحرب وثبتت
العساكر الخوارزمية من
لدن طلوع الشمس الى أن
حمي وطيس النهار جاهدين
في القراع * ومجاهدين دون
المساكن والرباع * يظنون

لم تطل أيامه فتوفى قبل خوارزم شاه بيسير وفى هذه السنة فى ربيع الاول توفى شيخنا ابو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحرانى المقيم ببغداد وله ست وتسعون سنة وشهران وكان عالى الاسناد فى الحديث وكان ثقة صحيح السماع وفى ربيع الآخر منها توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الكاتب لم يكن فى زمانه أحسن كتابة منه ودفن بظاهر مصر بالقرافة وكان دينا كثير الصدقة والعبادة وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الاسارى وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان وكان السلطان صلاح الدين يعظمه ويحترمه ويكرمه ويرجع الى قوله رحمهما الله

(ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الافضل مدينة دمشق وعودهما عنها)

قد ذكرنا قبل ملك العادل ديار مصر وقطعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب وانه لما فعل ذلك لم يرضه الامراء المصريون وخبثت نياتهم فى طاعته فراسلوا اخويه الظاهر بحلب والافضل بصرخد وتكررت المكاتبات والمراسلات بينهم يدعونهما الى قصد دمشق وحصرها ليخرج الملك العادل اليهم فاذا خرج اليهم من مصر أسلموه وصاروا معهما فقويا كل البلاد وكثر ذلك حتى فشا الخبر واتصل بالملك العادل وانضاف الى ذلك ان النيل لم يزد بمصر الزيادة التى تركب الارض ليزرع الناس فكثر الغلاء فضعفت قوة الجند وكان فخر الدين جهاركس قد فارق مصر الى الشام هو وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانياس ليأخذها لنفسه بأمر العادل وكانت لامير كبير تركى اسمه بشارة قد اتهمه العادل فأمر جهاركس بذلك وكان أمير من أمراء العادل يعرف بعز الدين أسامة قد حج هذه السنة فلما عاد من الحج وقارب صرخد نزل الملك الافضل فلقيه وأكرمه ودعاه الى نفسه فأجابه وحلف له وعرفه الافضل جلية الحال وكان أسامة من بطانة العادل وانما حلف لينكشف له الامر فلما فارق الافضل أرسل الى العادل وهو بمصر يعرفه الخبر جميعه فارسل الى ولده الذى بدمشق يأمره بحصر الافضل بصرخد وكتب الى اياس جركس وميمون القصرى صاحب بلبيس وغيرهما من الناصرية يأمرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الافضل وسمع الافضل الخبر فسار الى أخيه الظاهر بحلب مستهل جمادى الاولى من السنة ووصل الى حلب عاشر الشهر وكان الظاهر قد أرسل أميرا كبيرا من أمرائه الى عمه العادل فمنعه العادل من الوصول اليه وأمره بأن يكتب رسالته فلم يفعل وعاد لوقته فتحرك الظاهر لذلك وجمع عسكره وقصد منبج فملكها السادس والعشرين من رجب وسار الى قلعة نجم وحصرها فتسلمها سلخ رجب وأما الملك المعظم عيسى بن العادل المقيم بدمشق فانه سار الى بصرى وارسل الى جهاركس ومن معه وهم على بانياس يحصرونها يدعوهم اليه فلم يجيبوه الى ذلك بل غالطوه فلما طال مقامه على بصرى عاد الى دمشق وارسل الامير أسامة اليهم يدعوهم الى مساعدته فاتفق انه جرى بينه وبين البكاء الفارس بعض المماليك الكبار الناصرية منافرة أغلظ له البكاء القول وتعدى الى الفعل باليد وثار العسكر جميعه على أسامة فاستجار بميمون فأمنه وأعاده الى دمشق واجتمعوا كلهم عند الملك الظافر خضر

أن يظفروا وقد غدروا بمن رباهم فى حجور الانعام * وأرواهم من ثدى الاكرام * هيهات ان الغدرة قلادة منظومة أحد طرفيها عاجل العار * وثانيه آجل النار * ولم تشرق الشمس على التكبيد حتى أضحت الخيول ثم الفيول رجالا * حكوا جبالا * قد قصفت أصلابهم * وانتهبت أسلابهم * وفلقت بالسيوف هامهم * وبضعت بها أجسامهم * وانهزم الباقون فى خمر الغياض على شاطئ جيحون والصوارم من ورائهم * تخطب أرواحهم حتى اذا واقمتها نحاتها الطلاق صداقا واستأسر زهاء خمسة آلاف حقن الله دماءهم عبرة للنظار * وعظة لامثالهم من الغدرة الفجار * وركب البخارى ظهر الماء موائلا فى الهرب ومقدرا خلاصه من العطب * ولم يدر أن فعله السوء يجزيه * واقدامه على ولى نعمته يرديه * وان حافر البئر لاخيه * ساقط لا محالة فيه * وجرت فى

ابن صلاح الدين وانزلوه من صرخد وارسلوا الى الملك الظاهر والافضل يحثونهما على الوصول
اليهم والملك الظاهر يتربص ويتوقف فوصل من منبج الى حماة فى عشرين يوما واقام على حماة
يحصرها وبها صاحبها ناصر الدين محمد بن تقى الدين الى تاسع عشر شهر رمضان فاصطلحا وحمل له
ابن تقى الدين ثلاثين ألف دينار صورية وساروا عنها الى حمص وساروا منها الى دمشق على طريق
بعلبك فنزلوا عليها عند مسجد القدم فلما نزلوا على دمشق أتاهم المماليك الناصرية مع الملك
الظافر خضر بن صلاح الدين وكانت القاعدة استقرت بين الظاهر وأخيه الافضل انهم اذا
ملكوا دمشق تكون بيد الافضل ويسيرون الى مصر فاذا ملكوها تسلم الظاهر دمشق فيبقى
الشام جميعه له وتبقى مصر للافضل وسلم الافضل صرخد الى زين الدين قراجة مملوك والده ليحضر
فى خدمته وانزل والدته وأهله منها وسيرهم الى حمص فأقاموا عند أسد الدين شيركوه صاحبها
وكان الملك العادل قد سار من مصر الى الشام فنزل على مدينة نابلس وسير جمعا من العسكر الى
دمشق ليحفظها فوصلوا قبل وصول الظاهر والافضل وحضر فخر الدين جهاركس وغيره من
الناصرية فوصلوا قبل وصول الظاهر والافضل وزحفوا الى دمشق وقاتلوها رابع عشر
ذى القعدة واشتد القتال عليها فالتصق الرجال بالسور فأدركهم الليل فعادوا وقد قوى الطمع
فى أخذها ثم زحفوا اليها مرة ثانية وثالثة فلم يبق الا ملكها الا ان العسكر صعد الى سطح خان ابن
المقدم وهو ملاصق السور فلو لم يدركهم الليل لملكوا البلد فلما أدركهم الليل وهم عازمون على
الزحف بكرة وايس لهم عن البلد مانع حسد الظاهر أخاه الافضل فارسل اليه يقول له تكون
دمشق له وبيده ويسير العساكر معه الى مصر فقال له الافضل قد علمت ان والدتى وأهلى وهم
أهلك أيضا على الارض ليس لهم موضع يأوون اليه فاحسب ان هذا البلد لك تعيرنا اياه ليسكنه
أهلى هذه المدة الى ان يملك مصر فلم يجبه الظاهر فى ذلك ولج فلما رأى الافضل ذلك الحال قال
للناصرية وكل من جاء اليهم من الجند ان كنتم جئتم الى فقد اذنت لكم فى العود الى العادل وان
كنتم جئتم الى أخى الظاهر فأنتم وهو أخبر وكان الناس كلهم يريدون الافضل فقالوا ما نريد
سواك والعادل أحب الينا من أخيك فاذن لهم فى العود فهرب فخر الدين جهاركس وزين الدين
قراجة الذى أعطاه الافضل صرخد فمنهم من دخل دمشق ومنهم من عاد الى اقطاعه فلما انفسخ
الامر عليهم عادوا الى تجديد الصلح مع العادل فترددت الرسل بينهم واستقر الصلح على ان يكون
للظاهر منبج وافامية وكفرطاب وقرى معينة من المعرة ويكون للافضل سميساط وسروج
ورأس العين وحملين ورحلوا عن دمشق أول المحرم سنة ثمان وتسعين فقصد الافضل حمص فأقام
بها وسار الظاهر الى حلب ووصل العادل الى دمشق تاسع المحرم وسار الافضل اليه من حمص
فاجتمع به بظاهر دمشق وعاد من عنده الى حمص وسار منها الى سميساط فتسلمها وتسلم باقى
ما استقر له برأس العين وسروج وغيرها

(ذكر ملك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان)

قد ذكرنا مسير محمد بن خرميل من الطالقان واستيلاءه على مرو الروذ وسؤال جقر التركى نائب
علاء الدين محمد خوارزم شاه بمرو أن يكون فى جملة عسكر غياث الدين ولما وصل كتاب ابن
خرميل الى غياث الدين فى معنى جقر علم ان هذا انما دعاه الى الانتماء اليهم ضعف صاحبه

فارسل

الزورق بينه وبين بعض
أضرابه منافرة حملته على
الاستئناف منه وبعث
الملاح على استقبال
المعسكر بوجه الزورق
فلم ينشب الا يسيرا حتى
حصل فى يد السلطان
أسيرا وأحضره السلطان
مجلسه فى سائر القواد
المأسورين يسأله واياهم
عن استحلالهم دم صاحبهم
من غير داعية * واجترائهم
عليه من غير ترة عاتبه
فرد جواب المستبسل
المستقتل وأما الباقون
فسقط فى أيديهم لا يدرون
ماذا يردون * وذلك سنة
ثمان وأربعمائة وأمر
السلطان بضرب الاعواد
والجذوع تجاه مقبرة
صاحبهم ابى العباس
مأمون بن مأمون خوارزم
شاه وصلبهم أجمعين عليها
مع عدة ممن اتهمهم بالدين *
وعدهم معدا الناكبين عن
قصد السبيل وأمر بالكتابة
على جدران تلك المقبرة
بأن هذا قبر فلان بن فلان
بغى عليه حشمه * واجترأ
على دمه خدمه * فقبض

فارسل الى أخيه شهاب الدين يستدعيه الى خراسان فسار من غزنة فى عساكره وجنوده وعدته وما يحتاج اليه وكان بهراة الامير عمر بن محمد المرغنى نائبا عن غياث الدين وكان يكره خروج غياث الدين الى خراسان فأحضره غياث الدين واستشاره فأشار بالكف عن قصدها وترك المسير اليها فانكر عليه ذلك وأراد ابعاده عنه ثم تركه ووصل شهاب الدين فى عساكره وعساكر سجستان وغيرها فى جمادى الاولى من هذه السنة فلما وصلوا الى ميمنة وهى قرية بين الطالقان وكرزبان وصل الى شهاب الدين كتاب جقر مستحفظ مرو يطلبه ليسلمها اليه فاستأذن أخاه غياث الدين فأذن له فسارا اليها فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمى وقاتلوه فأمر أصحابه بالحملة عليهم والجد فى قتالهم فحملوا عليهم فأدخلوهم البلد وزحفوا بالفيلة الى ان قاربوا السور فطلب أهل البلد الامان فأمنهم وكف الناس عن التعرض اليهم وخرج جقر الى شهاب الدين فوعده الجميل ثم حضر غياث الدين الى مرو بعد فتحها فأخذ جقر وسيره الى هراة مكرما وسلم مرو الى هندوخان ابن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش وقد ذكرنا هربه من عمه خوارزم شاه محمد بن تكش الى غياث الدين ووصاه بالاحسان الى أهلها ثم سار غياث الدين الى مدينة سرخس فأخذها صلحا وسلمها الى الامير زنكى بن مسعود وهو من أولاد عمه واقطعه معها نسا وابيورد ثم سار بالعساكر الى طوس فأراد الامير الذى بها أن يمتنع فيها ولا يسلمها فاغلق باب البلد ثلاثة أيام فبلغ الخبز ثلاثة أمناء بدينار ركنى فضج أهل البلد عليه فارسل الى غياث الدين يطلب الامان فأمنه فخرج اليه فخلع عليه وسيره الى هراة ولما ملكها أرسل الى على شاه بن خوارزم شاه تكش وهو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور يأمره بمفارقة البلد ويحذره ان أقام سطوة أخيه شهاب الدين وكان مع على شاه عسكر من خوارزم شاه فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد وحصره وخربوا ما بظاهره من العمارة وقطعوا الاشجار وسار غياث الدين الى نيسابور فوصل اليها أوائل رجب وتقدم عسكر أخيه شهاب الدين الى القتال فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو وهم يريدون يفتحون نيسابور فيصلون بالاسم فاحمل الى البلد ولا ترجع حتى تصل السور فحمل وحمل معه وجوه الغورية فلم يردهم أحد عن السور حتى اصعدوا علم غياث الدين اليه فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور قال لاصحابه اقصدوا بنا هذه الناحية واصعدوا السور من ههنا وأشار الى مكان فيه فسقط السور منهدما فضج الناس بالتكبير وذهل الخوارزميون وأهل البلد ودخل الغورية البلد وملكوه عنوة ونهبوه ساعة من نهار فبلغ الخبر الى غياث الدين فأمر بالنداء من نهب مالا أو آذى أحدا فدمه حلال فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره ولقد حدثنى بعض أصدقائنا من التجار وكان بنيسابور فى هذه الحادثة نهب من متاعى شئ من جملته سكر فلما سمع العسكر النداء ردوا جميع ما أخذوا منى وبقى لى بساط وشئ من السكر مع جماعة فطلبته منهم فقالوا أما السكر فأكلناه فنسألك أن لا يسمع أحد وان أردت ثمنه أعطيناك فقلت أنتم فى حل منه ولم يكن البساط مع أولئك قال فمشيت الى باب البلد مع النظارة فرأيت البساط الذى لى قد ألقى عند باب البلد لم يجسر أحد يأخذه فأخذته وقلت هذا لى فطلبوا منى من يشهد به فأحضرت من شهد لى وأخذته ثم ان الخوارزميين تحصنوا بالجامع فأخرجهم أهل البلد فأخذهم الغورية ونهبوا أموالهم وأخذ على شاه بن

القمله يمين الدولة * وأمين الملة * حتى انتصر له منهم وصلبهم على الجذوع عبرة للناظرين * وآية للعالمين * وأمر من بعد بالاسرى فوضعت الاغلال فى أعناقهم يقادون الى غزنة دار الملك فوجا بعد فوج حتى اذا حصلوا بها وقد امتلأت منهم العيون * وغصت بهم المحابس والسجون * من عليهم بالافراج وفرض لهم فى جملة سائر الحشم والاجناد ووضعهم مواضع أمثالهم من ديار الهند ربايحمون أقطارها * وينفضون عن وجوه العيث مناكبها وأطرارها * وولى خوارزم حاجبه الكبير التونتاش فأقام بها قامعا نجوم الفساد * وفاقئا عيون البغى والعناد * الى أن نضب ماؤهم * وأذعن للسلطان افناؤهم * واستقرت تلك الاسباب * ودرت الاحلاب * وذلك تقدير العزيز العليم

* (ذكر فتح مهرة وقنوج) *

ولما فرغ السلطان يمين

خوارزم شاه وأحضر عند غياث الدين راجلا فأنكر ذلك على من أحضره وعظم الامر فيه وحضرت دابة كانت لعلى شاه وقال لغياث الدين أهكذا يفعل بأولاد الملوك فقال لا بل هكذا وأخذ بيده وأقعده معه على السرير وطيب نفسه وسير جماعة الامراء الخوارزمية الى هراة تحت الاستظهار وأحضر غياث الدين ابن عمه وصهره على ابنة ضياء الدين محمد بن أبي الغوري وولاه حرب خراسان وخراجها ولقبه علاء الدين وجعل معه وجوه الغورية ورحل الى هراة وسلم على شاه الى أخيه شهاب الدين وأحسن الى أهل نيسابور وفرق فيهم مالا كثيرا ثم رحل بعده شهاب الدين الى ناحية قهستان فوصل الى قرية فذكر له ان أهلها اسماعيلية فأمر بقتل المقاتلة ونهب الاموال وسبى الذرارى وخرب القرية فجعلها خاوية على عروشها ثم سار الى كناباذ وهى من المدن التى جميع أهلها اسماعيلية فنزل عليها وحصرها فارسل صاحب قهستان الى غياث الدين يشكو أخاه شهاب الدين ويقول بيننا عهد فما الذى بدا منا حتى تحاصر بلدى واشتد خوف الاسماعيلية الذين بالمدينة من شهاب الدين فطلبوا الامان ليخرجوا منه فأمنهم وأخرجهم وملك المدينة وسلمها الى بعض الغورية فأقام بها الصلوات وشعار الاسلام ورحل شهاب الدين فنزل على حصن آخر للاسماعيلية فوصل اليه رسول أخيه غياث الدين فقال الرسول معى تقدم من السلطان فلا يجرى حردان فعلته فقال لا أرحل قال اذن افعل ما أمرنى قال افعل فسل سيفه وقطع اطناب سرادق شهاب الدين وقال ارحل بتقدم السلطان فرحل شهاب الدين والعسكر وهو كاره الى بلد الهند ولم يقم بغزنة غضبا لما فعله أخوه معه

* (ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما) *

فى هذه السنة أيضا تجهز نور الدين ارسلان صاحب الموصل وجمع عساكره وسار الى بلاد الملك العادل بالجزيرة حران والرها وكان سبب حركته ان الملك العادل لما ملك مصر على ماذكرناه قبل اتفق نور الدين والملك الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين وغيرهم على ان يكونوا يدا واحدة متفقين على منع العادل عن قصد أحدهم فلما تجدد حركة الافضل والظاهر ارسلا الى نور الدين ليقصد البلاد الجزرية فسار عن الموصل فى شعبان من هذه السنة وسار معه ابن عمه قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى صاحب سنجار ونصيبين وصاحب ماردين ووصل الى رأس العين وكان الزمان قيظا فكثرت الامراض فى عسكره وكان بحران ولد للعادل يلقب بالملك الفائز ومعه عسكر يحفظ البلاد فلما وصل نور الدين الى رأس العين جاءت رسل الفائز ومن معه من أكابر الامراء يطلبون الصلح ويرغبون فيه وكان نور الدين قد سمع بأن الصلح بدا يتم بين الملك العادل والملك الظاهر والافضل وانضاف الى ذلك كثرة الامراض فى عسكره فأجاب اليه وحلف الملك الفائز ومن عنده من أكابر الامراء على القاعدة التى استقرت وحلفوا انهم يحلفون الملك العادل له فان امتنع كانوا معه عليه وحلف هو للملك العادل وسارت الرسل من عنده ومن عند ولده فى طلب اليمين من العادل فأجاب الى ذلك وحلف له واستقرت القاعدة وأمنت البلاد وعاد نور الدين الى الموصل فى ذى القعدة من السنة

* (ذكر ملك شهاب الدين نهروالة) *

لما سار شهاب الدين من خراسان على ماذكرناه لم يقم بغزنة وقصد بلاد الهند وأرسل مملوكه قطب

الدولة من مهم خوارزم وقد انضافت كاحدى أخواتها الى سائر ممالكه الموشحة بآثار ولايته * الموشعة بأصباغ عدله ورعايته * رأى أن يختم صحيفة العام * بطابع الاستتمام * اجالا للركائب والركب * وتقليبا للرأى الغزو بين جوانح القلب * فعدل الى بست كالشمس قد جنحت للشمال * وجاوزت نقطة الاعتدال * فالدنيا بها حواشى المطارف * أو عواشر المصاحف * أو عقود المخانق * أو نهود المعصرات العواتق * يدبر أعمالها * ويروى فيما صار أحمى لها * الى أن أذن الله له تعالى فى معاودة غزنة منشأ سحاب الفكر فى غزوة تحقق اعجاز القرآن * بما تضمنه من وعد الله المنان * فى اظهار دينه المرموم بسيد البشر * ومولى البدو والحضر * محمد تاج الانام * وسراج الظلام * صلى الله عليه وعلى آله الخيرة البررة الكرام * على الدين كله وان سخطت نفوس

الدين ايبك الى نهروالة فوصلها سنة ثمان وتسعين فلقيه عسكر الهنود فقاتلوه قتالا شديدا فهزمهم ايبك واستباح معسكرهم ومالهم فيه من الدواب وغيرها وتقدم الى نهروالة فملكها عنوة وهرب ملكها فجمع وحشد فكثر جمعه وعلم شهاب الدين انه لا يقدر على حفظها الا بأن يقيم هو فيها او يخليها من أهلها فيتعذر عليه ذلك فان البلد عظيم هو أعظم بلاد الهند وأكثرهم أهلا فصالح صاحبها على مال يؤديه اليه عاجلا وآجلا وأعاد عساكره عنها وسلمها الى صاحبها

(ذكر ملك ركن الدين ملطية من أخيه وأرزن الروم)

فى هذه السنة فى شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان مدينة ملطية وكانت لاخيه معز الدين قيصرشاه فسار اليه وحصره أياما وملكها وسار منها الى ارزن الروم وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق وهم بيت قد ملكوا ارزن الروم مدة طويلة فلما سار اليها وقاربها خرج صاحبها اليه ثقة به ليقرر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد وكان هذا آخر أهل بيته ملكوا فتبارك الله الحى القيوم الذى لا يزول ملكه أبدا سرمدا

(ذكر وفاة سقمان صاحب آمد وملك أخيه محمود)

فى هذه السنة توفى قطب الدين سقمان بن محمد بن قرا ارسلان بن داود بن سقمان صاحب آمد وحصن كيفا سقط من سطح جوسق كان له بظاهر حصن كيفا فمات وكان شديد الكراهة لاخيه محمود والنفور عنه قد أبعده وأنزله حصن منصور فى آخر بلادهم واتخذ مملوكا اسمه اياس فزوجه أخته وأحبه حبا شديدا وجعله ولى عهده فلما توفى ملك بعده عدة أيام وتهدد وزيرا كان لقطب الدين وغيره من أمراء الدولة فارسلوا الى أخيه محمود سرا يستدعونه فسار مجدا فوصل الى آمد وقد سبقه اليها اياس مملوك أخيه فلم يقدم على الامتناع فتسلم محمود البلاد جميعها وملكها وحبس المملوك فبقى مدة محبوسا ثم شفع له صاحب بلاد الروم فأطلق من الحبس وسار الى الروم فصار أميرا من أمراء الدولة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل وتعذرت الاقوات حتى أكل الناس الميتة وأكل بعضهم بعضا ثم لحقهم عليه وباء وموت كثير فى الناس وفى شعبان منها تزلزلت الارض بالموصل وديار الجزيرة كلها والشام ومصر وغيرها فأثرت فى الشام آثارا قبيحة وخربت كثيرا من الدور بدمشق وحمص وحماة وانخسفت قرية من قرى بصرى وأثرت فى الساحل الشامى أثرا كثيرا فاستولى الخراب على طرابلس وصور وعكا ونابلس وغيرها من القلاع ووصلت الزلزلة الى بلاد الروم وكانت بالعراق يسيرة لم تهدم دورا وفيها ولد ببغداد طفل له رأسان وذلك ان جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل وفى هذه السنة فى شهر رمضان توفى أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى الحنبلى الواعظ ببغداد وتصانيفه مشهورة وكان كثير الوقيعة فى الناس لاسيما فى العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له وكان مولده سنة عشر وخمسمائة وفيها أيضا توفى عيسى بن نصير النميرى الشاعر وكان حسن الشعر وله أدب وفضل وكان موته ببغداد وفيها توفى العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد اوله باللام المشددة وهو العماد

وضرعت خدود ورغمت معاطس وأنوف بعد ان كانت الشقة قد بعدت عليه وعلى أعوان دين الله السائرين تحت رايته * بنور هدايته * اذ كانت الهند قد تحيفت من شواها وأطرافها سبيا وانتهابا * وملكت على أربابها سهوبا وشعابا * فلم يبق الا ما أجنه ضمير قشميره ومن دونها قفاف تصم عن كل عزيف وصفير * وتضل بينها وفود الرياح الاعاصير * واتفق أن حشر اليه من أدنى ديار ما وراء النهر الى أقصى حدوده زهاء عشرين ألفا من مطوعة الغزاة وقد وضعوا سيوفهم على عواتقهم محتسبين للجهاد * متشددين فى ذات الله للاستشهاد * يخطبون الجنان بصداق الارواح * ويستامون الغفران بحدود الصفاح * فحرك من السلطان نفيرهم * وذمر نفوس المسلمين تكبيرهم * واقتضى رأيه أن يزحف بهم الى قنوج وهى التى أعيت الملوك الماضين غير

الكاتب الاصفهانى كتب لنور الدين محمود بن زنكى ولصلاح الدين يوسف بن أيوب رضى الله عنهما وكان كاتبا مفلقا قادرا على القول وفيها جمع عبد الله بن حمزة العلوى المتغلب على جبال اليمن جموعا كثيرة فيها اثنا عشر ألف فارس ومن الرجالة مالا يحصى كثرة وكان قد انضاف اليه من جند المعز بن اسمعيل بن سيف الاسلام طغدكين بن أيوب صاحب اليمن خوفا منه وأيقنوا بملك البلاد واقتسموها وخافهم ابن سيف الاسلام خوفا عظيما فاجتمع قواد عسكر ابن حمزة الا انهم اتفقوا على رأى يكون العمل بمقتضاه وكانوا اثنى عشر قائدا فنزلت عليهم صاعقة أهلكتهم جميعهم فأتى الخبر ابن سيف الاسلام فى باقى الليلة بذلك فسار اليهم مجدا فأوقع بالعسكر المجتمع فلم يثبتوا له وانهزموا بين يديه ووضع السيف فيهم فقتل منهم ستة آلاف قتيل أو أكثر من ذلك وثبت ملكه واستقر أمره وفيها وقع فى بنى عنزة بأرض الشراة بين الحجاز واليمن وباء عظيم وكانوا يسكنون فى عشرين قرية فوقع الوباء فى ثمان عشرة قرية فلم يبق منهم أحد وكان الانسان اذا قرب من تلك القرى يموت ساعة ما يقاربها فتحاماها الناس وبقيت ابلهم وأغنامهم لامانع لها وأما القريتان الاخريان فلم يمت فيهما أحد ولا أحسوا بشئ مما كان فيه أولئك

(ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده)

قد ذكرنا فى سنة سبع وتسعين ملك غياث الدين وأخيه شهاب الدين ما كان لخوارزم شاه محمد بن تكش بخراسان ومرو ونيسابور وغيرها وعودهما عنها بعد ان أقطعا البلاد ومسير شهاب الدين الى الهند فلما اتصل بخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش عود العساكر الغورية عن خراسان ودخول شهاب الدين الهند أرسل الى غياث الدين يعاتبه ويقول كنت أعتقد ان تخاف على بعد ابى وان تنصرنى على الخطا وترد هم عن بلادى فحيث لم تفعل فلا أقل من ان لا تؤذينى وتأخذ بلادى والذى أريده ان تعيد ما أخذته منى الى والا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الاتراك فان عجزت عن أخذ بلادى فانى انما شغلنى عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدى وتقرير أمر بلادى والا فأنا بحمد الله غير عاجز عنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها فغالطه غياث الدين فى الجواب ليمهد الايام بالمراسلات ويخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر فان غياث الدين كان عاجزا باستيلاء النقرس عليه فلما وقف خوارزم شاه على رسالة غياث الدين أرسل الى علاء الدين الغورى نائب غياث الدين بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويتهدده ان لم يفعل فكتب علاء الدين الى غياث الدين بذلك ويعرفه ميل أهل البلد الى الخوارزميين فأعاد غياث الدين جوابه يقوى قلبه ويعده النصرة والمنع عنه وجمع خوارزم شاه عساكره وسار عن خوارزم نصف ذى الحجة سنة سبع وتسعين وخمسمائة فلما قارب نساوابيورد هرب هندوخان ابن أخى ملك شاه من مرو الى غياث الدين بفيروزكوه وملك خوارزم شاه مدينة مرو وسار الى نيسابور وبها علاء الدين فحصره وقاتله قتالا شديدا وطال مقامه عليها وراسله غير مرة فى تسليم البلد اليه وهو لا يجيب الى ذلك انتظارا للمدد من غياث الدين فبقى نحو شهرين فلما أبطأت عليه النجدة أرسل الى خوارزم شاه يطلب الامان لنفسه ولمن معه من الغورية وانه لا يتعرض اليهم بحبس ولا غيره من الاذى فأجابه الى ذلك وحلف لهم وخرجوا من البلد وأحسن خوارزم شاه

كشتاسب على ما يزعمه المجوس وهو كبش أقرانه * وملك الاملاك بزعمهم فى زمانه * فشار * وبين غزنة دار * الملك وخطة قنوج مسيرة ثلاثة أشهر للركائب القود * والخوانف السود * فاستخار ربه وسار * وهجر النوم والقرار * واستصحب من شهد من أنصار دين الله * وأعوان حق الله * رجالا يقتحمون أشداق المنايا شوقا الى السعاده * بالشهاده * وحرصا على الموعود من الحسنى وزيادة * وعبر ماء سيحون وجيلم وجندراهة وايرايه وبيت هرزوشتادر سالما فى سالمين * وهذه أودية تضل أعماقها عن الاوصاف * وتمتنع أطرافها على الاطواف * منها ما يغمر غوارب الفيول * فكيف كواهل الخيول * ويدهده ثقال الصخور * فكيف خفاف المطايا والظهور * صنعا من الله لمن والاه * وغرر بروحه فى استدامة رضاه * ولم يطأ مملكة من تلك الممالك الأأتاه الرسول واضعا له خد الطاعه *

اليهم ووصلهم بمال جليل وهدايا كثيرة وطلب من علاء الدين ان يسعى في الصلح بينه وبين غياث
الدين وأخيه فأجابه الى ذلك وسار الى هراة وفيها اقطاعه ولم يمض الى غياث الدين تجنيا عليه
لتأخر أمداده ولما خرج الغورية من نيسابور احسن خوارزم شاه الى الحسين بن خرميل وهو
من اعيان امرائهم زيادة على غيره وبالغ في اكرامه فقيل ان من ذلك اليوم استحلفه لنفسه وان
يكون معه بعد غياث الدين واخيه شهاب الدين ثم سار خوارزم شاه الى سرخس وبها الامير
زنكي فحصره اربعين يوما وجرى بين الفريقين حروب كثيرة فضاقت الميرة على اهل البلد لاسيما
الحطب فأرسل زنكي الى خوارزم شاه يطلب منه ان يتأخر عن باب البلد حتى يخرج هو واصحابه
ويترك البلد له فراسله خوارزم شاه في الاجتماع به ليحسن اليه والى من معه فلم يجبه الى ذلك
واحتج بقرب نسبه من غياث الدين فابعد خوارزم شاه عن باب البلد بعساكره فخرج زنكي
فأخذ من الغلات وغيرها التي في المعسكر ما اراد لاسيما من الحطب وعاد الى البلد واخرج منه
من كان قد ضاق به الامر وكتب الى خوارزم شاه العود احمد فندم حيث لم ينفعه الندم
ورحل عن البلد وترك عليه جماعة من الامراء يحصرونه فلما ابعد خوارزم شاه سار محمد بن جربك
من الطالقان وهو من امراء الغورية وارسل الى زنكي امير سرخس يعرفه انه يريد يكبس
الخوارزميين لئلا ينزعج اذا سمع الغلبة وسمع الخوارزميون الخبر ففارقوا سرخس وخرج زنكي
والتقى محمد بن جربك وعسكرا الى مرو الروذ واخذا خراجها وما يجاورها فسير اليهم خوارزم شاه
عسكرا مع خاله فلقيهم محمد بن جربك وقاتلهم وحمل بات في يده على صاحب علم الخوارزمية
فضربه فقتله والقى علمهم وكسر كوساتهم فانقطع صوتها عن العسكر ولم يروا اعلامهم فانهزموا
وركبهم الغورية قتلا واسرا نحو فرسخين فكانوا ثلاثة آلاف فارس وابن جربك في تسعمائة
فارس وغنم جميع معسكرهم فلما سمع خوارزم شاه ذلك عاد الى خوارزم وارسل الى غياث الدين
في الصلح فأجابه عن رسالته مع امير كبير من الغورية يقال له الحسين بن محمد المرغني ومرغن
من قرى الغور فقبض عليه خوارزم شاه

(ذكر حصر خوارزم شاه هراة وعوده عنها)

لما أرسل خوارزم شاه الى غياث الدين في الصلح وأجابه عن رسالته مع الحسين المرغني مغالطا
قبض خوارزم شاه على الحسين وسار الى هراة ليحاصرها فكتب الحسين الى أخيه عمر بن محمد
المرغني أمير هراة يخبره بذلك فاستعد للحصار وكان سبب قصد خوارزم شاه حصار هراة ان
رجلين أخوين ممن كان يخدم محمد اسلطان شاه اتصلا بغياث الدين بعد وفاة سلطان شاه
فأكرمهما غياث الدين وأحسن اليهما يقال لاحدهما الامير الحاجي فكاتبا خوارزم شاه
واطمعاه في البلاد وضمنا له تسليمه اليه فسار لذلك ونازل المدينة وحصرها فسلم الامير عمر المرغني
أمير البلد مفاتيح الابواب اليهما وجعلهما على القتال ثقة منه بهما وظنا منه انهما ساعدوا
خوارزم شاه تكش وابنه محمدا بعده فاتفق ان بعض الخوارزمية أخبر الحسين المرغني عند
خوارزم شاه بحال الرجلين وانهما هما اللذان يدبران خوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل فلم
يصدقه وأتاه بخط الامير حاجي فاخذه وأرسله الى أخيه عمر أمير هراة فأخذهما واعتقلهما
وأخذ اصحابهما ثم ان ألب غازي وهو ابن اخت غياث الدين جاء في عسكر من الغورية فنزل على

عارضا في الخدمة كنه
الاستطاعه * الى أن جاءه
جنكي بن سبهى صاحب
درب قشمير عالما بأنه بعث
الله الذي لا يرضيه الا
الاسلام مقبولا * أو
الحسام مفلولا * فأظهر
العبودية عن ضمير التوفيق *
وضمن الارشاد الى الطريق
وجعل يسير أمامه هاديا *
ويجزع واديا فواديا * وكلما
انتصف الليل آذن بالمسير
خفق الطبول * واستوى
أولياء الله على الخيول *
يجشمون تعب الركض
والسلوك * الى أن تجنح
الشمس من غد للدلوك
حتى استظهروا ماجون لعشر
بقين من رجب سنة تسع
وأربعمائة وما زال يفتتح
الصياصي والقلاع مبنية
على ربود الجبال * وحروف
القلال * بحيث تألم متالع
الاعناق * متى شخصت
اليها نواظر الاحداق * الى
أن شافه قلعة برنة من ولاية
هردب وهو أحد الرأيين
أعني الملوك بلغة الهند
فاطلع على الارض اطلاعة
وهي تموج بأنصار حق الله

خمسة فراسخ من هراة فكان يمنع الميرة عن عسكر خوارزم شاه ثم ان خوارزم شاه سير عسكرا الى أعمال الطالقان للغارة عليها فلقيهم الحسن بن خرميل فقاتلهم فظفر بهم فلم يفلت منهم أحد وسار غياث الدين عن فيروز كوه الى هراة في عسكره فنزل برباط زرين بالقرب من هراة ولم يقدم على خوارزم شاه لقلة عسكره لان أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند وغزنة فأقام خوارزم شاه على هراة أربعين يوما وعزم على الرحيل لانه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان وقرب غياث الدين وكذلك أيضا قرب الب غازي وسمع أيضا ان شهاب الدين قد خرج من الهند الى غزنة وكان وصوله اليها في رجب من هذه السنة فخاف أن يصل بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد فأرسل الى أمير البلد عمر المرغني فصالحه على مال حمله اليه وارتحل عن البلد وأما شهاب الدين فانه لما وصل الى غزنة بلغه الخبر بما فعله خوارزم شاه بخراسان وملكه لها فسار الى خراسان فوصل الى بلخ ومنها الى باميان ثم الى مرو وعازما على حرب خوارزم شاه وكان نازلا هناك فالتقت أوائل عسكريهما واقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين خلق كثير ثم ان خوارزم شاه ارتحل عن مكانه شبه المنهزم وقطع القناطر وقتل الامير سنجر صاحب نيسابور لانه اتهمه بالمخامرة عليه وتوجه شهاب الدين الى طوس فأقام بها تلك الشتوة على عزم المسير الى خوارزم ليحصرها فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فقصد هراة وترك ذلك العزم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة درس مجد الدين أبو علي يحيى بن الربيع الفقيه الشافعي بالنظامية ببغداد في ربيع الاول وفيها توفيت بنفشة جارية الخليفة المستضيء بامر الله وكان كثير الميل اليها والمحبة لها وكانت كثيرة المعروف والاحسان والصدقة وفيها أيضا توفي الخطيب عبد الملك بن زيد الدولعي خطيب دمشق وكان فقيها شافعيا والدولعية قرية من أعمال الموصل

(ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها)

في هذه السنة في المحرم سير الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب دمشق ومصر عسكرا مع ولده الملك الاشرف موسى الى ماردين فحصروها وشحنوا على أعمالها وانضاف اليه عسكر الموصل وسنجار وغيرهما ونزلوا بحرزم تحت ماردين ونزل عسكر من قلعة البارعية وهي لصاحب ماردين يقطعون الميرة عن العسكر العادلي فسار اليهم طائفة من العسكر العادلي فاقتتلوا فانهزم عسكر البارعية وثار التركمان وقطعوا الطريق في تلك الناحية وأكثروا الفساد فتعذر سلوك الطريق الا للجماعة من أرباب السلاح فسار طائفة من العسكر العادلي الى رأس العين لاصلاح الطرق وكف عادية المفسدين وأقام ولد العادل ولم يحصل له غرض فدخل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب في الصلح بينهم وأرسل الى عمه العادل في ذلك فأجاب اليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار فجاء صرف الدينار احد عشر قيراطا من أميري ويخطب له ببلاده ويضرب اسمه على السكة ويكون عسكره في خدمته أي وقت طلبه وأخذ الظاهر عشرين ألف دينار من النقد المذكور وقرية القرادي من أعمال شبختان فرحل ولد العادل عن ماردين

مسومة من فوقها الترائك * ومن حولها الملائك * فتزلزلت قدمه * وأشفق من أن يستباح دمه * فرأى أن يتقي بالاسلام بأس الله وقد شهرت حدوده * ونشرت بعذبات العذاب بنوده * ونزل في نحو عشرة آلاف منادين بدعوة الاسلام * متفادين عن ولاية الاصنام * فحقق الله تعالى ميعاده * وأحسن بفضله اسعادهم واسعاده * ثم تحرك وامتد به الوجيف بعد * الى قلعة كالجند * وهو من أعلام الشياطين * وأعيان أولئك الملاعين * يدل على الملوك بعز أقعس * ويرنو الى القروم بطرف أشوس * قد قضى في الكفر معظم عمره * وغفل بهيبة الملك وبسطة الامر عن تجشيم نفسه وسعره * ولم يقصده أحد الا ارتد عنه مفلولا * وعاد عقده عليه محلولا * عزة حال وكثرة مال * وقوة رجال وعدة أقبال * ووثاقة معاقل وحصون * وملك عن مطامع الانام ومطامح الوهن والاثلام مصون *

(ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشيء من سيرته)

في هذه السنة في جمادى الاولى توفي غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام الغوري صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها وأخفيت وفاته وكان أخوه شهاب الدين بطوس عازما على قصد خوارزم شاه فأتاه الخبر بوفاة أخيه فسار الى هراة فلما وصل اليها جلس للعزاء بأخيه في رجب وأظهرت وفاته حينئذ وخلف غياث الدين من الولد ابنا اسمه محمود ولقب بعد موت أبيه غياث الدين وسنورد من أخباره كثيرا ولما سار شهاب الدين من طوس استخلف بمرو الامير محمد بن جربك فسار اليه جماعة من الامراء الخوارزمية فخرج اليهم محمد ليلا وبيتهم فلم ينج منهم الا القليل وأنفذ الاسرى والرؤس الى هراة فأمر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خوارزم على طريق الرمل وجهز خوارزم شاه جيشا وسيرهم مع برفور التركي الى قتال محمد بن جربك فسمع بهم فخرج اليهم ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو فاقتتلوا قتالا شديدا اقتتل بين الفريقين خلق كثير وانهزم الغورية ودخل محمد بن جربك مرو في عشرة فرسان وجاء الخوارزميون فحصروه خمسة عشر يوما فضعف عن الحفظ فأرسل في طلب الامان فحلفوا له ان خرج اليهم على حكمهم انهم لا يقتلونه فخرج اليهم فقتلوه وأخذوا كل ما معه وسمع شهاب الدين الخبر فعظم عليه وترددت الرسل بينه وبين خوارزم شاه فلم يستقر الصلح واراد العود الى غزنة فاستعمل على هراة ابن أخيه الب غازي وفلك الملك علاء الدين محمد بن ابي علي الغوري على مدينة فيروز كوه وجعل اليه حرب خراسان وأمر كل ما يتعلق بالمملكة وأتاه محمود ابن أخيه غياث الدين فولاه مدينة بست واسفرار وتلك الناحية وجعله بمعزل من الملك جميعه ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه ولا على غيره من أهله فمن جملة فعله ان غياث الدين كانت له زوجة كانت مغنية فهويها وتزوجها فلما مات غياث الدين قبض عليها وضربها ضربا مبرحا وضرب ولدها غياث الدين وزوج أختها وأخذ أموالهم واملاكهم وسيرهم الى بلاد الهند فكانوا في أقبح صورة وكانت قد بنت مدرسة ودفنت فيها أباها وأمها وأخاها فهدمها ونبش قبور الموتى ورمى بعظامهم منها وأما سيرة غياث الدين وأخلاقه فانه كان مظفرا منصورا في حروبه لم تنهزم له راية قط وكان قليل المباشرة للحروب وانما كان له دهاء ومكر وكان جوادا حسن الاعتقاد كثير الصدقات والوقوف بخراسان بنى المساجد والمدارس بخراسان لاصحاب الشافعي وبنى الخانكاهات في الطرق واسقط المكوس ولم يتعرض الى مال احد من الناس ومن مات ببلده يسلم ماله الى اهل بلده من التجار فان لم يجد احدا يسلمه الى القاضي ويختم عليه الى أن يصل من يأخذه بمقتضى الشرع وكان اذا وصل الى بلد عم احسانه اهله والفقهاء وأهل الفضل يخلع عليهم ويفرض لهم الاعطيات كل سنة من خزانته ويفرق الاموال في الفقراء وكان يراعي كل من وصل الى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم وكان فيه فضل غزير وادب مع حسن خط وبلاغة وكان رحمه الله ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها في المدارس التي بناها ولم يظهر منه تعصب على مذهب ويقول التعصب في المذاهب من الملك قبيح الا انه كان شافعي المذهب فهو يميل الى الشافعية من غير ان يطمعهم في غيرهم ولا اعطاهم ما ليس لهم

(ذكر اخذ الظاهر قلعة نجم من اخيه الافضل)

فلما رأى السلطان قد قصد قصده * وجرد لمجاهدته جهده * رتب فيوله وخيوله * وراء غياض لو رميت بافراد الابر * لاتقتها الارض بأوراق الشوك والشجر * وأغرى السلطان به بعض طلائع جيوشه فثاروا اليهم يخرقون تلك الآجام خرق الامشاط منابت الشعور * بل الاشافي مخارز السيور * وأعرض للسلطان طريق من فوق القلعة المذكورة فلم يرع أهلها الا البحر الاخضر * والله أكبر والسيوف لا تبقي ولا تذر فثبتوا للجلاد مستقتلين وتواصلوا بالمنايا مستبسلين * والسيوف تأخذهم من فوق وقدام * وتبضعهم ما بين لحوم وعظام * وحملاتهم بينها تتصل اتصال الكعوب * وضرباتهم تتوالى توالي الغيث المصبوب * غيران الله منزل الحديد * ذي البأس الشديد * هو الذي اذا شاء قطع * واذا شاء نبا وامتنع * كذلك سيوف الهند تنبو ظباتها وتقطع احيانا مناط القلائد

في هذه السنة أخذ الظاهر غازي قلعة نجم من أخيه الافضل وكانت في جملة ما أخذ من العادل لما صالحه سنة سبع وتسعين فلما كان هذه السنة أخذ العادل من الافضل سروج وحملين ورأس العين وبقي بيده سميساط وقلعة نجم فأرسل الظاهر اليه يطلب منه قلعة نجم وضمن له انه يشفع الى عمه العادل في اعادة ما أخذ منه فلم يعطه فهدده بان يكون الباً عليه ولم تزل الرسل تتردد حتى سلمها اليه في شعبان وطلب منه أن يعوضه قرى أو مالا فلم يفعل وكان هذا من أقبح ما سمع عن ملك يزاحم أخاه في مثل قلعة نجم مع خستها وحقارتها وكثرة بلاده هو وعدمها لاخيه وأما العادل فانه لما أخذ سروج ورأس العين من الافضل أرسل والدته اليه تسأل في ردها فلم يشفعها وردها خائبة ولقد عوقب البيت الصلاحي بما فعله أبوهم مع البيت الاتابكي فانه لما قصد حصار الموصل سنة ثمانين وخمسمائة أرسل صاحب الموصل والدته وابنة عم نور الدين اليه يسألانه ان يعود فلم يشفعهما فجرى لاولاده هذا وردت زوجته خائبة كما فعل ولما رأى الافضل عمه وأخاه قد أخذا ما كان بيده ارسل الى ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان صاحب ملطية وقونية وما بينهما من البلاد يبذل له الطاعة وأن يكون في خدمته ويخطب له ببلده ويضرب السكة باسمه فاجابه ركن الدين الى ذلك وأرسل له خلعة فلبسها الافضل وخطب له بسميساط في سنة ستمائة وصار في جملته

(ذكر ملك الكرج مدينة دوين)

في هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين من اذربيجان ونهبوها واستباحوها وأكثروا القتل في اهلها وكانت هي وجميع بلاد اذربيجان للامير ابي بكر بن البهلوان وكان على عادته مشغولا بالشرب ليلا ونهارا لا يفيق ولا يصحو ولا ينظر في امر مملكته ورعيته وجنده قد القى الجميع عن قلبه وسلك طريق من ليس له علاقة وكان اهل تلك البلاد قد اكثروا الاستغاثة اليه واعلامه بقصد الكرج بلادهم بالغارة مرة بعد اخرى فكأنهم ينادون صخرة صماء فلما حصر الكرج هذه السنة مدينة دوين سار منهم جماعة يستغيثون فلم يغثهم وخوفه جماعة من امرائه عاقبة اهماله وتوانيه واصراره على ما هو فيه فلم يصغ اليهم فلما طال الامر على اهلها ضعفوا وعجزوا واخذهم الكرج عنوة بالسيف وفعلوا ما ذكرناه ان الكرج بعد ان استقر امرهم بها احسنوا الى من بقي من اهلها فالله تعالى ينظر الى المسلمين ويسهل لثغورهم من يحفظها ويحميها فانها مستباحة لاسيما هذه الناحية فانا لله وانا اليه راجعون فقد بلغنا من فعل الكرج باهل دوين من القتل والسبي والامر ما تقشعر منه الجلود

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة احضر الملك العادل محمد ولد العزيز صاحب مصر الى الرها وذلك انه لما قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين كما ذكرناه خاف شيعة ابيه ان يجتمعوا عليه ويصير لهم معهم فتنة فاخرجه سنة ثمان وتسعين الى دمشق ثم نقله هذه السنة الى الرها فاقام بها ومعه جميع اخوته واخواته ووالدته ومن يخصه وفيها في رجب توفي الشيخ وجيه الدين محمد بن محمود المروروذي الفقيه الشافعي وهذا الذي كان السبب في ان صار غياث الدين شافعيا وفي ربيع الاول منها توفي ابو الفتح عبيد الله بن ابي المعمر الفقيه الشافعي المعروف بالمستملي ببغداد وله خط

فان نالت من أولياء الله فلأجر الاستشهاد* وثواب المعاد * وان نبت فلاعجاز القدرة* واظهار العبرة* ليعلم ان الحكم لله في كل مخذول * ومعصوم* ومحروس ومقصوم* وظل المخاذيل يتناسون بينهم* وقد عاينوا اسوتهم نابية* وسيوف أهل الحق عليهم ماضية* وحملاتهم واهية* وحملات أهل الدين أولى وثانية* ماهؤلاء من جنس الانس* ولا من زمر البشر* هيهات ان وقع الحديد لعز في الجبال * ولاحزله في هؤلاء الابطال* حتى اذا مثل لهم شخص الطغيان* في صورة الخذلان تواصوا باقتحام ماوراءهم من زخارة المياه يظنون انها تقيهم بأس الانتقام * وتحميهم كأس الحمام* اولا يرون ان الكفر لا يهدى سبيله* وان الله يردي بكثير ما يحيي قليله* لاجرم ان صفائح الماء* وافقت صفاح الدهماء* فأوسعوا قتلا واسارا* وأغرقوا فأدخلوا نارا* واهل عدد القتلى والغرقى يزيد على خمسين الفا

حسن وفى ربيع الآخر توفيت زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله واخرجت جنازتها ظاهرة وصلى الخلق الكثير عليها ودفنت فى التربة التى بنتها لنفسها وكانت كثيرة المعروف

(ثم دخلت سنة ستمائة)

(ذكر حصار خوارزم شاه هراة ثانية)

فى هذه السنة اول رجب وصل خوارزم شاه محمد الى مدينة هراة فحصرها وبها الب غازى بن أخت شهاب الدين الغورى ملك غزنة بعد مراسلات جرت بينه وبين شهاب الدين فى الصلح فلم يتم وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة الى لهاور عازما على غزو الهند فاقام خوارزم شاه على حصار هراة الى سلخ شعبان وكان القتال دائما والقتل من الفريقين كثيرا وممن قتل رئيس خراسان وكان كبير القدر يقيم بمشهد طوس وكان الحسين بن خرميل بكرزبان وهى اقطاعه فارسل الى خوارزم شاه يقول له ارسل الى عسكرا انسلم اليهم الفيلة وخزانة شهاب الدين فارسل اليه ألف فارس من أعيان عسكره الى كرزبان فخرج عليهم هو والحسين بن محمد المرغنى فقتلوهم الا القليل فبلغ الخبر الى خوارزم شاه فسقط ما فى يديه وندم على انفاذ العسكر وارسل الى ألب غازى يطلب منه أن يخرج اليه من البلد ويخدمه خدمة سلطانية ليرحل عنه فلم يجبه الى ذلك فاتفق ان البغازى مرض واشتد مرضه فخاف أن يشتغل بمرضه فيملك خوارزم شاه البلد فاجاب الى ما طلب منه واستحلفه على الصلح وأهدى له هدية جليلة وخرج من البلد ليخدمه فسقط الى الارض ميتا ولم يشعر أحد بذلك وارتحل خوارزم شاه عن البلد وأحرق المجانيق وسار الى سرخس فاقام بها

(ذكر عود شهاب الدين من الهند وحصر خوارزم وانهزامه من الخطا)

فى هذه السنة فى رمضان عاد شهاب الدين الغورى الى خراسان من قصد الهند وسبب ذلك انه بلغه حصر خوارزم شاه هراة وموت ألب غازى نائبه بها فعاد حنقا على خوارزم شاه فلما بلغ ميمند عدل الى طريق أخرى قاصدا الى خوارزم فارسل خوارزم شاه يقول له ارجع الى لاحاربك والا سرت الى هراة ومنها الى غزنة وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس الى مرو فاقام بظاهرها فاعاد اليه شهاب الدين جوابه لعلك تنهزم كما فعلت تلك الدفعة لكن خوارزم تجمعنا ففرق خوارزم شاه عساكره وأحرق ما جمعه من العلف ورحل يسابق شهاب الدين الى خوارزم فسبقه اليها فقطع الطريق وأجرى المياه فيها فتعذر على شهاب الدين سلوكها واقام أربعين يوما يصلحها حتى أمكنه الوصول الى خوارزم والتقى العسكران بسوقرا ومعناه الماء الاسود فجرى بينهم قتال شديد كثرت القتلى فيه بين الفريقين وممن قتل من الغورية الحسين المرغنى وغيره وأسر جماعة من الخوارزمية فامر شهاب الدين بقتلهم فقتلوا وأرسل خوارزم شاه الى الاتراك الخطا يستنجدهم وهم حينئذ أصحاب ما وراء النهر فاستعدوا وساروا الى بلاد الغورية فلما بلغ شهاب الدين ذلك عاد عن خوارزم فلقى أوائلهم فى صحراء اندخوى أول صفر سنة احدى وستمائة فقتل فيهم وأسر كثيرا فلما كان اليوم الثانى دهمه من الخطا ما لا طاقة له بهم فانهزم المسلمون هزيمة قبيحة وبقى شهاب الدين فى نفر يسير وقتل بيده أربعة أفيال له لانها أعيت واخذ الكفار فيلين ودخل شهاب الدين اندخوى فيمن معه وحصره الكفار ثم صالحوه

أصبحوا طعمة للنسور والضبعان * وأقواتا للتماسيح والحيتان * وعمد كلجند الى قتاله فأهلك بها عرسه * ثم كر فألحق بهم نفسه * واغنم الله السلطان مائة وخمسة وثمانين رأسا من الفيلة الضخام * مضافة الى سائر ما اطرد عليه حكم الاغتنام * من نعم الله الجسام * وقسمه الراجحة بالاقسام * ولما وضعت تلك الحروب أوزارها * وحلت له الغنائم أزرارها * عطف عنانه الى شط البلد * الواقع عليه اسم المتعبد * وهو الذى بناه مهرة الهند بطالع ابنيتها التى يزعم أهلها انها من صنيع الجنان * دون الانسان * ابداع أساس وسقوف * واعجاز اواساط وحروف * فرأى ما يخالف العادات * وتفتقر رواياتها الى الشهادات بل المشاهدات * بلدا مبنى السور * من صم الصخور * وقد أشرع بابان منها الى الماء المحيط به موضوعة أبنيتها فوق شواخص القلال صيانة اياها من مضار سيول الماء * ومغار غيوث السماء * وعن جنبتيها الف قصر شبيهة بسائر الابنية فى الوثاقة مشتملة على بيوت أصنام

على أن يعطيهم فيلا آخر ففعل وخلص ووقع الخبر في جميع بلاده بأنه قد عدم وكثرت
الاراجيف بذلك ثم وصل الى الطالقان في سبعة نفر وقد قتل اكثر عسكره ونهبت خزائنه
جميعها فلم يبق منها شيء فاخرج له الحسين بن خرميل صاحب الطالقان خياما وجميع ما يحتاج
اليه وسار الى غزنة وأخذ معه الحسين بن خرميل لانه قيل له عنه انه شديد الخوف لانهزامه وانه
قال اذا سار السلطان هربت الى خوارزم شاه فأخذه معه وجعله أمير حاجب ولما شاع الخبر
بقتل شهاب الدين جمع تاج الدين الدز وهو مملوك اشتراه شهاب الدين أصحابه وقصد قلعة غزنة
ليصعد اليها فمنعه مستحفظها فعاد الى داره فاقام بها وأفسد الخلج وسائر المفسدين في البلاد
وقطعوا الطرق وقتلوا كثيرا فلما عاد شهاب الدين الى غزنة بلغه ما فعله الدز فاراد قتله فشفع فيه
سائر المماليك فاطلقه ثم اعتذر وسار شهاب الدين في البلاد فقتل من المفسدين من تلك الامم
نفرا كثيرا وكان له أيضا مملوك آخر اسمه ايبك بال تر فسلم من المعركة ولحق بالهند ودخل
المولتان وقتل نائب السلطان بها وملك البلد وأخذ الاموال السلطانية وأساء السيرة في الرعية
وأخذ أموالهم وقال قتل السلطان وأنا السلطان وكان يحمله على ذلك ويحسنه له انسان اسمه
عمر بن يزان وكان زنديقا ففعل ما أمره وجمع المفسدين وأخذ الاموال فاخاف الطريق فبلغ
خبره الى شهاب الدين فسار الى الهند وأرسل اليه عسكرا فاخذوه ومعه عمر بن يزان فقتلهما
أقبح قتلة وقتل من وافقهما في جمادى الآخرة من سنة احدى وستمائة ولما رآهم قتلى قرأ
انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا الآية
وأمر شهاب الدين في جميع بلاده بالتجهز لقتال الخطا وغزوهم والاخذ بثارهم وقيل كان سبب
انهزامه انه لما عاد الى الخطا من خوارزم فرق عسكره في المفازة التي في طريقه لقلة الماء
وكان الخطا قد نزلوا على طرف المفازة فكلما خرج من أصحابه طائفة فتكوا فيهم بالقتل
والاسر ومن سلم من عسكره انهزم نحو البلاد ولم يرجع اليه أحد يعلم الحال وجاء شهاب الدين في
ساقة العسكر في عشرين ألف فارس ولم يعلم الحال فلما خرج من البرية لقيه الخطا مستريحين
وهو ومن معه قد تعبوا وأعيوا وكان الخطا أضعاف أصحابه فقاتلهم عامة نهاره وحمى نفسه
منهم وحصروه في اندخوي فجرى بينهم في عدة أيام اربعة عشر مصافا منها مصاف واحد كان
من العصر الى بكرة الغد ثم انه بعد ذلك سير طائفة من عسكره ليلا سرا وأمرهم أن يرجعوا اليه
بكرة كأنهم قد أتوه مددا من بلاده فلما فعلوا ذلك خافه الخطا وقال لهم صاحب سمرقند وكان
مسلما وهو في طاعة الخطا وقد خاف على الاسلام والمسلمين ان هم ظفروا بشهاب الدين فقال
لهم ان هذا الرجل لا تجد قط أضعف منه لما خرج من المفازة ومع ضعفه وتعبه وقلة من معه
لم نظفر به والامداد أتته وكأنكم بعساكره وقد أقبلت من كل طريق وحينئذ نطلب الخلاص
منه فلا نقدر عليه والرأي انما الصلح معه فاجابوا الى ذلك فارسلوا اليه في الصلح وكان صاحب
سمرقند قد أرسل اليه وعرفه الحال سرا وأمره باظهار الامتناع من الصلح أولا والاجابة اليه
أخيرا فلما أتته الرسل امتنع واظهر القوة بانتظار الامداد وطال الكلام فاصطلحوا على ان
الخطا لا يعبرون النهر الى بلاده ولا يعبر الى بلادهم ورجعوا عنه وخلص هو وعاد الى بلاده
والباقي نحو ما تقدم

قد هندمت مفاصل اعراقها
بمسامير تساوي سطوح
البناء * وتواري ما وراءها
من الحز وتحت الخفاء *
وفي صدر البلد بيت أصنام
يحكي اخوانه أو احسن *
ويجري مجرى أضرابه بل
أتقن * لا يهتدي الكتاب
بأقلام الدواة * ولا النقاشون
بأطراف الخامات * الى
أمثالها تحسينا وتزويقا *
ونقوشا تختطف الابصار
بريقا * وكان فيما كتب
السلطان به انه لو أراد مريد
أن يبني ما يعادل هذه
الابنية لعجز عنه بانفاق
مائة ألف ألف درهم في
مدة مائتي سنة على أيدي
عملة كملة * ومهرة سحرة *
وفي جملة الاصنام خمسة
من الذهب الاحمر مضروبة
على قدر خمسة أذرع في
الهواء منصوبة * قد أقمت
عينا واحد منها ياقوتتين
لو سيم مثلهما على السلطان
لابتاعه بخمسين ألف
دينار استرخاصا * ولم يستثن
فيه دركا ولا خلاصا *
وعلى آخر قطعة ياقوت
أزرق ريا من ريق الماء *
وبريق البهاء * تتزن أربعمائة
وخمسين مثقالا * وخرج

(ذكر قتل طائفة من الاسماعيلية بخراسان)

فى هذه السنة وصل رسول الى شهاب الدين الغورى من عنده مقدم الاسماعيلية بخراسان برسالة انكرها فامر علاء الدين محمد بن أبى على متولى بلاد الغورية بالمسير اليهم ومحاصرة بلادهم فسار فى عساكر كثيرة الى قهستان وسمع به صاحب زوزن فقصده وسار معه وفارق خدمة خوارزمشاه ونزل علاء الدين على مدينة قاين وهى للاسماعيلية وحصرها وضيق على أهلها ووصل خبر قتل شهاب الدين على ما نذكره فصالح أهلها على ستين ألف دينار ركنية ورحل عنهم وقصد حصن كاخك فاخذه وقتل المقاتلة وسبى الذرية ورحل الى هراة ومنها الى فيروزكوه

(ذكر ملك القسطنطينية من الروم)

فى هذه السنة فى شعبان ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم وأزالوا ملك الروم عنها وكان سبب ذلك ان ملك الروم بها تزوج أخت ملك أفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج فرزق منها ولدا ذكرا ثم وثب على الملك أخ له فقبض عليه وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه فهرب ولده ومضى الى خاله مستنصرا به على عمه فاتفق ذلك وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا الى بلاد الشام لاستنقاذ البيت المقدس فاخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصدا لاصلاح الحال بينه وبين عمه ولم يكن له طمع فى سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه فى عساكر الروم محاربا لهم فوقع القتال بينهم فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ودخلوا البلد فدخله الفرنج معهم فهرب ملك الروم الى اطراف البلاد وقيل ان ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وانما حصروه فيها وكان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبى فالقوا النار فى البلد فاشتغل الناس بذلك ففتحوا بابا من أبواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هاربا وجعل الفرنج الملك فى ذلك الصبى وليس له من الحكم شئ وأخرجوا أباه من السجن انما الفرنج هم الحكام فى البلد فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصلبان وما هو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وما على الاناجيل من ذلك أيضا فعظم ذلك على الروم وحملوا منه خطبا عظيما فعمدوا الى ذلك الصبى الملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الابواب واستحضروا الملك وكان ذلك فى جمادى الاولى سنة ستمائة فاقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلا ونهارا وكان الروم قد ضعفوا ضعفا كثيرا فارسلوا الى السلطان ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد الى ذلك سبيلا وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفا ولعظم البلد لا يظهر أمرهم فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وفتحوا الابواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة ايام وفتكوا بالروم قتلا ونهبا فاصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيأ ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التى تدعى سوفيا فجاء الفرنج اليها فخرج اليهم جماعة من القسيسين والاساقفة والرهبان بايديهم الانجيل والصليب يتوسلون بها الى الفرنج ليبقوا

من وزن قدمى أحد الاصنام المذكورة أربعة آلاف وأربعمائة مثقال * وكانت جملة الذهبيات الموجودة عن اجرام الاشخاص المنصوبة ثمانية وتسعين ألفا وثلثمائة مثقال وزادت الفضيات منها على مائتى قطعة لم يمكن وزنها الا بعد التفصيل والعرض على كنف المعايير * وأمر السلطان بسائر بيوت الاصنام فضربت بالنفط والضرام * وجعلت سقوفها مواطئ الاقدام * وسار من بعد قد ماير وم قنوج * وقد اشتق له الفال من تصحيفه فتوحا * وعده صنعا من الله ممنوحا * وخلف وراءه معظم العسكر تطميعا لراجيبال ملكها فى الثبات لحفة الزحام * وتقبيحا له قبل اللقاء صورة الانهزام * اذ كان أمراء الهند على غلب رقابها * وقوة أسبابها وأصحابها * اطواعا لرأى قنوج اعتزازا بمكانه * واغترارا بفخامة شانه * ولم يعبر على قلعة من قلاع تلك الرباع الا وضعها بالارض وعرض أهلها على الاسلام أو السيف * وحاز من السبايا والنهاب * والنعم الرغاب * ما يعجز أنامل

عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة وكانوا ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه ركبوا الى القسطنطينية وهو شيخ أعمى اذا ركب تقاد فرسه والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الافرنسيس والآخر يقال له كندافلند وهو اكثرهم عددا فلما استولى على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند فاعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها وعلى ما يجاورها وتكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة اقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ويكون لمركيس الافرنسيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل أزنيق ولاذيق فلم يحصل لاحد منهم شئ غير الذي أخذ القسطنطينية وأما الباقي فلم يسلم من به من الروم وأما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية شرقي الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان ومن جملتها ازنيق ولاذيق فانها تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم اسمه اشكرى وهي بيده الى أن توفي

(ذكر انهزام نور الدين صاحب الموصل من العساكر العادلية)

في هذه السنة في العشرين من شوال انهزم نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل من العساكر العادلية وسبب ذلك ان نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار وحشة مستحكمة اولا فاتفقا وسار معه الى ميافارقين سنة خمس وتسعين وقد ذكرناه فلما كان الآن أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة الى قطب الدين واستماله فمال اليه وخطب له فلما سمع نور الدين ذلك سار الى مدينة نصيبين سلخ شعبان وهي لقطب الدين فحصرها وملك المدينة وبقيت القلعة فحصرها عدة ايام فبينما هو يحاصرها وقد أشرف على أن يتسلمها أتاه الخبر ان مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين علي صاحب اربل قد قصد أعمال الموصل فنهب نينوى وأحرق غلاتها فلما بلغه ذلك من نائبه المرتب بالموصل يحفظها سار عن نصيبين الى الموصل على عزم العبور الى بلد اربل ونهبه جزاء بما فعل صاحبه ببلده فوصل الى مدينة بلد وعاد مظفر الدين الى بلده وتحقق نور الدين ان الذي قيل له وقع فيه زيادة فسار الى تل أعفر من بلد وهي لصاحب سنجار وحصرها وأخذها ورتب أمورها وأقام عليها سبعة عشر يوما وكان الملك الاشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب قد سار من مدينة حران الى رأس عين نجدة لقطب الدين صاحب سنجار ونصيبين وقد اتفق هو ومظفر الدين صاحب اربل وصاحب الحصن وآمد وصاحب جزيرة ابن عمر وغيرهم على ذلك وعلى منع نور الدين من أخذ شئ من بلاده وكلهم خائفون منه ولم يمكنهم الاجتماع وهو على نصيبين فلما فارقها نور الدين سار الاشرف اليها وأتاه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب الحصن وصاحب الجزيرة وصاحب دارا وساروا عن نصيبين نحو بلد البقعا قريبا من بوشرى وسار نور الدين من تل أعفر الى كفر زمار وعزم على المطاولة ليتفرقوا فاتاه كتاب من بعض مماليكه يسمى جرديك وقد أرسله يتجسس أخبارهم فيقللهم في عينه ويطمعه فيهم ويقول ان أذنت لي لقيتهم بعفردي فسار حينئذ نور الدين الى بوشرى فوصل اليها من الغد الظهر وقد تعبت دوابه وأصحابه والقوا شدة من الحر فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة وأتاه الخبر ان عساكر الخصم قد ركبوا

فرب

الحساب * ووصل ثامن شعبان الى قنوج * وقد فارقها راجيبال حين سمع باقدامه فراق من لا يرى الهزيمة عنه عارا ولا يعتقد الفضيحة بها شنارا * وعبر السلطان الماء المسمى كنك * وهو الذي يتواصف الهنود قدره وشرفه * ويرون من عين الخلد في السماء مغترفه ان أحرق منهم ميت ذرّوه فيه بعظامه * وظنوه طهرة لآثامه * وربما أتاه الناسك من بعيد فغرق نفسه فيه * يرى ان ذلك ينجيه * وهو في العاجل يرديه * وفي الآجل يصليه ويخزيه * ثم لا يميته ولا يحييه * وتتبع السلطان قلاع قنوج فاذا هي سبع موضوعة على الماء المذكور * كالبحر المسجور * وفيها قريب من عشرة آلاف بيت للاصنام يزعم المشركون انها متوارثة لهم منذ مائتي ألف سنة الى ثلثمائة ألف سنة كذبا وزورا * وقولا مزورا * وعدولا عن سنن الهدى وكفورا * وبحسب قدمها كانت عبادتهم لها * وابتهالهم بالدعوات اليها * وقد شرد عنها اكثر أهلها خيفة الايم واليتم * وحلول النكير

فركب هو وأصحابه وساروا نحوهم فلم يروا لهم أثرا فعاد الى خيامه ونزل هو وعساكره وتفرق
كثير منهم في القرى لتحصيل العلوفات وما يحتاجون اليه فجاءه من أخبره بحركة الخصم وقصده
فركب نور الدين وعسكره وتقدموا اليهم وبينهم نحو فرسخين فوصلوا وقد ازداد تعبهم والخصم
مستريح فالتقوا واقتتلوا فلم يطل الحرب بينهم حتى انهزم عسكر نور الدين وانهزم هو أيضا
وطلب الموصل فوصل اليها في أربعة أنفس وتلاحق الناس وأتى الاشرف ومن معه فنزلوا
في كفرزمار ونهبوا البلاد نهبا قبيحا وأهلكوا ما لم يصلح لهم لا سيما مدينة بلد فانهم أفحشوا
في نهبها ومن أعجب ما سمعناه ان امرأة كانت تطبخ فرأت النهب فألقت سوارين كانتا في يديها
في النار وهربت فجاء بعض الجند ونهب ما في البيت فرأى فيه بيضا فأخذه وجعله في النار
ليأكله فرأى السوارين فيها فأخذهما وطال مقامهم والرسل تتردد في الصلح فوقف
الامر على اعادة تل اعفر ويكون الصلح على القاعدة الاولى وتوقف نور الدين في اعادة تل اعفر
فلما طال الامر سلمها اليهم واصطلحوا أوائل سنة احدى وستمائة وتفرقت العساكر من البلاد

* (ذكر خروج الفرنج بالشام الى بلاد الاسلام والصلح معهم) *

في هذه السنة خرج كثير من الفرنج في البحر الى الشام وسهل الامر عليهم بذلك لملكهم
قسطنطينية وأرسوا بعكا وعزموا على قصد البيت المقدس حرسه الله واستنقاذه من المسلمين
فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيرا من بلاد الاسلام بنواحي الاردن وسبوا وفتكوا
في المسلمين وكان الملك العادل بدمشق فأرسل في جمع العساكر من بلاد الشام ومصر وسار فنزل
عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الاسلام ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا
على كفركنا فأخذوا كل من بها وأموالهم والامراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها
فلم يفعل فبقوا كذلك الى أن انقضت السنة وذلك سنة احدى وستمائة فاصطلح هو والفرنج على
دمشق وأعمالها وما بيد العادل من الشام ونزل لهم عن كثير من المناصفات في الرملة وغيرها
وأعطاهم ناصرة وغيرها وسار نحو الديار المصرية فقصد الفرنج مدينة حماة فلقيهم صاحبها ناصر
الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم وكان في قلة فهزموه الى البلد فخرج
العامة الى قتالهم فقتل الفرنج منهم جماعة وعاد الفرنج

* (ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل وولاية ايتغمش) *

قد ذكرنا قبل تغلب كوكجة مملوك البهلوان على الري وهمذان وبلد الجبل وبقي الآن وكان
قد اصطنع مملوكا آخر كان للبهلوان اسمه ايتغمش وقدمه وأحسن اليه ووثق به فجمع ايتغمش
الجموع من المماليك وغيرهم ثم قصد كوكجة فتصافا واقتتل الفريقان فقتل كوكجة في الحرب
واستولى ايتغمش على البلاد وأخذ معه أوزبك بن البهلوان له اسم الملك وايتغمش هو المدبر له
والقيم بأمر المملكة وكان شهما شجاعا ظالما وكان كوكجة عادلا حسن السيرة رحمه الله

* (ذكر وفاة ركن الدين بن قلج ارسلان وملك ابنه بعده) *

وفي هذه السنة سادس ذي القعدة توفي ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان بن مسعود بن قلج
ارسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق صاحب ديار الروم ما بين ملطية وقونية وكان موته بمرض
القولنج في سبعة أيام وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب انكورية وتسمى

بآلهتهم الصم البكم * فمن
بين ناح أغاثه نجاؤه * وثاو
أباده ثواؤه * ولم ينج منهم من
سيوف الحق أرضه ولا
سماؤه * ففتحها كلها في يوم
واحد ثم أباحها لأهل
عسكره * ونهبا طلقا
حلالا * ويتداولونها أوقافا
واذلالا * وركض منها الى
قلعة ... المعروفة بقلعة
البراشمة وهم حي اتناح *
وعتاة ما لهم عن الفساد
في تلك البلاد براح * فثبتوا
للقراع أشباه العفاريت
عارجه * والشياطين ماردة
أو مارجه * حتى اذا أعوزهم
الثبات * وأعجزهم النجاة *
رعلموا أن ليست لهم بالمسلمين
طاقه * وان دماءهم لا شك
مهراقه * تهاووا من غرفات
الجدران * وشرفات
النيران * على شبا الرماح *
وظبا الصفاح * استخفافا
بالنفوس والارواح *
واستسلاما لامر الله
المتاح * لاجرم ان السيوف
أشربت الارض دماءهم *
وأطعمت النسور أشلاءهم *
كذلك المنايا أصبحت لمن
خطب اليها لم ترله ردا *

أيضا أنقرة وهي مدينة منيعة وكان مشاققا لركن الدين فحصره عدة سنين حتى ضعف وقلت
الأقوات عنده فأذعن بالتسليم على عوض يأخذه فعوضه قلعة في أطراف بلاده وحلف له عليها
فنزل أخوه عن مدينة أنقرة وسلمها ومعه ولدان له فوضع ركن الدين عليه من أخذه وأخذ
أولاده معه فقتله فلم يمض غير خمسة أيام حتى أصابه القولنج فمات واجتمع الناس بعده على ولده
قلج أرسلان وكان صغيرا فبقي في الملك الى بعض سنة احدى وستمائة وأخذ منه على ما نذكره هنالك
وكان ركن الدين شديدا على الأعداء قيما بأمر الملك الا ان الناس كانوا ينسبونه الى فساد
الاعتقاد كان يقال انه يعتقد مذهب الفلاسفة وكان كل من يرمى بهذا المذهب
يأوي اليه ولهذه الطائفة منه احسان كثير الا انه كان عاقلا يحب ستر هذا المذهب لئلا ينفر
الناس عنه حكي لي عنه انه كان عنده انسان وكان يرمى بالزندقة ومذهب الفلاسفة وهو قريب
منه فحضر يوما عنده فقيه فتناظرا فأظهر شيأ من اعتقاد الفلاسفة فقام الفقيه اليه ولطمه
وشتمه بحضرة ركن الدين وركن الدين ساكت وخرج الفقيه فقال لركن الدين يجري على مثل
هذا في حضرتك ولا تنكره فقال لو تكلمت لقتلنا جميعا ولا يمكن اظهار ما تريده أنت

(ذكر قتل الباطنية بواسط)

في هذه السنة في رمضان قتل الباطنية بواسط وسبب كونهم بها وقتلهم انه ورد اليها رجل يعرف
بالركن محمد بن طالب بن عصية وأصله من القاروب من قرى واسط وكان باطنيا ملحدا ونزل
مجاور الدور بني الهروي وغشيه الناس وكثر أتباعه وكان ممن يغشاه رجل يعرف بحسن
الصابوني فاتفق أنه اجتاز بالسويقة فكلمه رجل نجار في مذهبهم فرد عليه الصابوني ردا غليظا
فقام اليه النجار وقتله وتسامع الناس بذلك فوثبوا وقتلوا من وجدوا ممن ينتسب الى هذا
المذهب وقصدوا دار ابن عصية وقد اجتمع اليه خلق من أصحابه وأغلقوا الباب وصعدوا الى
سطحها ومنعوا الناس عنهم فصعدوا اليهم من بعض الدور من على السطح وتحصن من بقي
في الدار باغلاق الابواب والمخارق فكسروها ونزلوا فقتلوا من وجدوا في الدار وأحرقوا وقتل
ابن عصية وفتح الباب وهرب منهم فقتلوا وبلغ الخبر الى بغداد وانحدر فخر الدين أبو البدر بن
أمسينا الواسطي لاصلاح الحال وتسكين الفتنة

(ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حضرموت)

في هذه السنة استولى انسان اسمه محمود بن محمد الحميري على مدينة مرباط وظفار وغيرهما من
حضرموت وكان ابتداء أمره انه له مركب يكري به في البحر للتجار ثم وزر لصاحب مرباط وفيه
كرم وشجاعة وحسن سيرة فلما توفي صاحب مرباط ملك المدينة بعده وأطاعه الناس محبة له
لكرمه وسيرته ودامت أيامه بها فلما كان سنة تسع عشرة وستمائة خرب مرباطا وظفارا وبنى
مدينة جديدة على ساحل البحر بالقرب من مرباط وعندها عين عذبة كبيرة أجراها الى المدينة
وعمل عليها سورا وخندقا وحصنها وسماها الأحمدية وكان يحب الشعر ويكثر الجائزة عليه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة خرج اسطول من الفرنج الى الديار المصرية فنهبوا مدينة فوة وأقاموا خمسة
أيام يسبون وينهبون وعساكر مصر مقابلهم بينهم النيل ليس لهم وصول اليهم لانهم لم تكن لهم

سفن

ولم تجد من انكاحه بدا * وأخذ السلطان على تفيئة ذلك نحو قلعة آسي وصاحبها المعروف بجنداليهور أحد أنياب الهنود * وأرباب الجنود * ولم يزل ذا منعة بالملك وسعة في الملك فعرض له رأي قنوج منازعا * ومادة الحرب مكاوحا ومقارعا * فلم يزد أن أتعب أولياءه * ونكل على الخيبة وراءه * وقد أحاط بهذه القلعة غياض متكاثفة * كأعراف الجياد ومتداخلة * كأشعار الحداد * لا تنسب الأفاعي بينها للرقاء * ولا يستنير البدر عندها للسراء * قد أحاطت بها خنادق قعيرات الحفائر * فسيحات الدوائر * احاطة الثور بالثريا فماله عنها انفراج * ولا لهادوبه انعراج * فلما شعر المذكور بزحف السلطان اليه في كواكب دولته * ومواكب جملته * فقد قلبه فرط الحذار * وجس نبضه فاذا هو ذنب الفار * ورأى الموت فاغرا فاه * فلم يملك الا أن يوليه قفاه * فأمر

ودفن وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت أكثر البلاد مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرس ووصلت الى الموصل والعراق وغيرها وخربت من مدينة صور سورها وأثرت فى كثير من الشام وفيها فى رجب اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ الشيوخ ببغداد وفيهم صوفى اسمه أحمد بن ابراهيم الدارى من أصحاب شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسمعيل رحمهم الله ومعهم مغن يغنى يقول الشعر

أعاذلتى أقصرى * كفى بمشيبى عذل
شباب كأن لم يكن * وشيب كأن لم يزل
وحق ليالى الوصال * وآخرها والاول
وصفرة لون المحب عند استماع العذل
لئن عاد عيشى بكم * حلا العيش لى واتصل

فتحرك الجماعة على عادة الصوفية فى السماع وطرب الشيخ المذكور وتواجد ثم سقط مغشيا عليه فحركوه فاذا هو ميت فصلى عليه ودفن وكان رجلا صالحا وفيها توفى أبو الفتوح أسعد بن محمود العجلى الفقيه الشافعى باصفهان فى صفر وكان اماما فاضلا وفى رمضان منها توفى قاضى هراة عمدة الدين الفضل بن محمود بن صاعد الساوى وولى بعده ابنه صاعد

(ثم دخلت سنة احدى وستمائة)

(ذكر ملك كيخسرو بن قلج ارسلان بلاد الروم من ابن أخيه)

فى هذه السنة فى رجب ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج ارسلان بلاد الروم التى كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان وكان سبب ملك غياث الدين لها أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لاخيه غياث الدين وهو مدينة قونية فهرب غياث الدين منه وقصد الشام الى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب فلم يجد عنده قبولا وقصر به فسار من عنده وتقلب فى البلاد الى ان وصل الى القسطنطينية فأحسن اليه ملك الروم وأقطعه وأكرمه فأقام عنده وتزوج بابنة بعض البطارقة الكبار وكان لهذا البطريق قلعة من عمل القسطنطينية فلما ملك الفرنج القسطنطينية هرب غياث الدين الى حميه وهو بقلعته فانزله عنده وقال له نشترك فى هذه القلعة ونقنع بدخلها فأقام عنده فلما مات أخوه سنة ستمائة كما ذكرناه اجتمع الامراء على ولده وخالفهم الاتراك الاوج وهم كثير بتلك البلاد وأنف من اتباعهم وأرسل الى غياث الدين يستدعيه اليه ليملكه البلاد فسار اليه فوصل فى جمادى الاولى اجتمع به وكثر جمعه وقصد مدينة قونية ليحصرها وكان ولد ركن الدين والعساكر بها فأخرجوا اليه طائفة من العسكر فلقوه فهزموه فبقى حيران لا يدرى أين يتوجه فقصد بلدة صغيرة يقال لها أوكرم بالقرب من قونية فقدر الله تعالى ان أهل مدينة اقصرا وثبوا على الوالى فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين فلما سمع أهل قونية بما فعله أهل اقصرا قالوا نحن أولى بفعل هذا لانه كان حسن السيرة فيهم لما كان ملكهم فنادوا باسمه أيضا وأخرجوا من عندهم واستدعوه فحضر عندهم وملك المدينة وقبض ابن أخيه ومن معه وآتاه الله الملك وجمع له البلاد جميعها فى ساعة واحدة فسبحان من اذا أراد أمرا هيأ أسبابه وكان أخوه قيصرشاه الذى كان صاحب ملطية

بقلع قلعته من اصولها وتعويرها * على من بهم آنفا حلولها * وقفى آثاره بعفاريت أنصاره * ينهبون ويغنمون * ويقتلون ويأسرون * حق علم الكافرون * انهم هم الخاسرون * وكان المخذول يرى ان أعوانه من كماة المقانب * وحماة الاشاهب ورماد الكتائب * حتى رأى عسكر السلطان بين تلك المشاعب * وآثارهم بالقنا والقواضب * والقسى المواطر كالسحائب * فعلم أن ضرب اللاعب * خلاف ضرب الثائر الغالب * وقوس الحلج غير قوس الناشب * ولما فصل السلطان أمر جندال وأذاقه فى مهربه الداء العضال * عطف على جندراى أحد أكابر الهند فى قلعة شروة وهو يظن بنفسه ان القائل يعنيه بقوله
عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا قاعدا غير قائم
قد ذهب بها عن أن يعطى غيره مقاده * أو يألف غير التعزز عاده * وكانت

لما أخذها ركن الدين منه سنة سبع وتسعين خرج منها وقصد الملك العادل أبا بكر بن أيوب لانه
كان زوج ابنته مستنصرا به فأمره بالمقام بمدينة الرها فأقام بها فلما سمع بملك أخيه غياث الدين
سار اليه فلم يجد عنده قبولا ولا أعطاه شيأ وأمره بمفارقة البلاد فعاد الى الرها وأقام بها فلما
استقر ملك غياث الدين سار اليه الافضل صاحب سميساط فلقيه بمدينة قيسارية وقصده أيضا
نظام الدين صاحب خرت برت وصار معه فعظم شأنه وقوى أمره

(ذكر حصر صاحب آمد خرت برت ورجوعه عنها)

كانت خرت برت لعماد الدين بن قرا ارسلان فمات وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر والتجأ
الى ركن الدين بن قلج ارسلان وبعده الى أخيه غياث الدين ليمتنع به من ابن عمه ناصر الدين محمود
ابن محمد بن قرا ارسلان فامتنع به وكان صاحب آمد ملتجئا الى الملك العادل وفي طاعته وحضر
مع ابنه الملك الاشرف قتال صاحب الموصل على شرط أنه يسير معه عساكره ويأخذ له خرت برت
وانما طمع فيها بموت ركن الدين فلما دخلت هذه السنة طلب ما كان استقر الامر عليه فسار معه
الملك الاشرف وعساكر ديار الجزيرة من سنجار وجزيرة ابن عمر والموصل وغيرها وكان نزولهم
عليها في شعبان وفي رمضان تسلموا ربضها وكان صاحبها قد اجتمع بغياث الدين بعد أن ملك
البلاد الرومية وصار معه في طاعته فلما نزل صاحب آمد على خرت برت خاطب صاحبها غياث
الدين يستنجده بعسكر يرحلهم عنه فجهز عسكرا كثيرا عدتهم ستة آلاف فارس وسيرهم مع الملك
الافضل صاحب سميساط فلما وصل العسكر الى ملطية فارق صاحب آمد ومن معه من خرت برت
ونزلوا الى الصحراء وحصروا الصيرة المعروفة بصيرة سهنين وبها حصنان أحدهما لصاحب
آمد والآخر لصاحب خرت برت فحصره وزاحفه فقهره ثاني ذي الحجة ووصل صاحب خرت برت
مع العسكر الرومي الى خرت برت فرحل صاحب آمد عن الصيرة وقوى الحصن الذي فتحه فيها
فأزاح علته ورحل الى خلف مرحلة ونزل وترددت الرسل والعسكر الرومي يطلب اعادة الصيرة
وصاحب آمد يمتنع من ذلك فلما طال الامر بقي الحصن بيد صاحب آمد وانفصل العسكران
وعاد كل فريق الى بلاده

(ذكر الفتن ببغداد)

في سابع عشر شعبان جرت فتنة ببغداد بين أهل باب الازج وأهل المأمونية وسببها ان أهل باب
الازج قتلوا سبعا وأرادوا أن يطوفوا به فمنعهم أهل المأمونية فوقعت الفتنة بينهما عند
البستان الكبير فجرح منهم خلق كثير وقتل جماعة وركب صاحب الباب لتسكين الفتنة فجرح
فرسه فعاد فلما كان الغد سار أهل المأمونية الى باب الازج فوقعت بينهم فتنة شديدة وقتال
بالسيوف والنشاب واشتد الامر فنهبت الدور القريبة منهم وسعى الركن بن عبد القادر
ويوسف في تسكين الناس وركب الاتراك فصاروا يبيتون تحت المنظرة فامتنع أهل الفتنة من
الاجتماع فسكنوا وفي العشرين منه جرت فتنة بين أهل قطفتا والقرية من محال الجانب
الغربي بسبب قتل سبع أيضا أراد أهل قطفتا ان يجتمعوا ويطوفوا به فمنعهم أهل القرية ان
يجروا به عندهم فاقتتلوا وقتل بينهم عدة قتلى فأرسل اليهم عسكر من الديوان لتلافي الامر
ومنع الناس عن الفتنة فامتنعوا وفي تاسع رمضان كانت فتنة بين أهل سوق السلطان

والجعفرية

في غابر الايام بينه وبين
بروجبال منازعات
تحاجز عن خبوط الرقاب
وذامت حتى استلحمت
رجالا واصطلمت أبطالا
فأبطالا ثم قام دست الحروب
بينهم ما اضطر الى التوادع
والتكاف حقنا للدماء
وصونا للاطراف وخطب
بروجبال اليه ابنته على
ابنه بهم ال استدامة
للالفة واماطة للفرقة
واستدفاعا للشر والفساد
واستبقاء للسيوف في
الاغماد وسرح ابنه اليه
على تنجز عقد الوصلة
وشرط الانتاج في اللحمة
والاشتراك في البيت
والنعمة فلما حصل الختن
في يده جعله تحت قده
وقيده وطالبه بعوض
ما ذهب له على والده فعجز
بروجبال عن قصد قلعته
واقتناص بيضته
واستخلاص ابنه من
اسار محنته غير أن
المنازعة لم تنزل بينهما
قائمة الى أن طلعت رايات
السلطان يمين الدولة على
تلك الحدود وسفر صنع

والجعفرية منشؤها ان رجلين من المحلتين اختصما وتوعد كل واحد منهما صاحبه فاجتمع أهل
المحلتين واقتتلوا فى مقبرة الجعفرية فسير اليهم من الديوان من تلافى الامر وسكنه فلما كثرت
الفتن رتب أمير كبير من مماليك الخليفة ومعه جماعة كثيرة فطاف فى البلد وقتل جماعة ممن فيه
شبهة فسكن الناس

(ذكر غارة الكرج على بلاد الاسلام)

فى هذه السنة أغارت الكرج على بلاد الاسلام من ناحية اذربيجان فأكثروا العيث والفساد
والنهب والسبي ثم أغاروا على ناحية خلاط من ارمينية فأوغلوا فى البلاد حتى بلغوا ملازكرد
ولم يخرج اليهم أحد من المسلمين يمنعهم فجاسوا خلال البلاد ينهبون ويأسرون وكلما تقدموا
تأخرت عساكر المسلمين منهم ثم انهم رجعوا فالله تعالى ينظر الى الاسلام وأهله ويسير لهم من
يحمى بلادهم ويحفظ ثغورهم ويغزو أعداءهم وفيها أغارت الكرج على بلاد خلاط فأتوا الى
ارجيش ونواحيها فنهبوا وسبوا وخربوا البلاد وساروا الى حصن التين من اعمال خلاط وهو
مجاور ارزن الروم فجمع صاحب خلاط عسكره وسار الى طغل شاه ولد قلج ارسلان صاحب
ارزن الروم فاستنجده على الكرج فسير عسكره بجميعه معه فتوجهوا نحو الكرج فلقوهم
وتصافوا واقتتلوا فانهزمت الكرج وقتل زكرى الصغير وهو من أكابر مقدميهم وهو الذى كان
مقدم هذا العسكر من الكرج والمقاتل بهم وغنم المسلمون مامعهم من الاموال والسلاح
والكراع وغير ذلك وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا كذلك وعاد الى بلاده

(ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة)

وفى هذه السنة أيضا كانت الحرب بين الامير قتادة الحسينى أمير مكة وبين الامير سالم بن قاسم
الحسينى أمير المدينة ومع كل واحد منهما جمع كثير فاقتتلوا قتالا شديدا وكانت الحرب
بذى الحليفة بالقرب من المدينة وكان قتادة قد قصد المدينة ليحصرها ويأخذها فاقيه سالم بعد
ان قصد الحجرة على ساكنها الصلاة والسلام فصلى عندها ودعا وسار فلقيه فانهزم قتادة وتبعه
سالم الى مكة فحصره بها فارسل قتادة الى من مع سالم من الامراء فأفسدهم عليه فمالوا اليه
وحالفوه فلما رأى سالم ذلك رحل عنه عائدا الى المدينة وعاد أمر قتادة قويا

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة قطعت خطبة ولى العهد وأظهر خط
قرئ بدار الوزير نصير الدين بن مهدى الرازى واذ هو خط ولى العهد الامير أبى نصر ابن الخليفة
الى أبيه الناصر لدين الله أمير المؤمنين يتضمن العجز عن القيام بولاية العهد ويطلب الاقالة
وشهد عدلان انه خطه وان الخليفة أقاله وعمل بذلك محضر شهد فيه القضاة والعدول والفقهاء
وفى هذه السنة ولدت امرأة ببغداد ولدا له رأسان وأربع أرجل ويدان ومات فى يومه وفيها
أيضا وقع الحريق فى خزانة السلاح التى للخليفة فاحترق فيها منه شئ كثير وبقيت النار يومين
وسار ذكر هذا الحريق فى البلدان فحمل الملوك من السلاح الى بغداد شيأ كثيرا وفى هذه السنة
وقع الثلج بمدينة هراة اسبوعا كاملا فلما سكن جاء بعده سيل من الجبل من باب سرا خرب كثيرا
من البلد ورمى من حصنه قطعة عظيمة وجاء بعده برد شديد أهلك الثمار فلم يكن بها تلك السنة شئ

الله له فى المقصود بعد
المقصود * فامابروجبال
فلحق بهم وجد أوأحد
المتعززين بحصانة المعاقل *
وحزونة المداخل *
وخشونة المواقل * خلاصا
بمهجته * واعتياصا بزعمه
على من هم باقتناص أثره
وأما جندراى فانه استعد
للمدافعه * واحتشد
للممانعه * اعتزازا بوثاقة
قلعته * ولو ثبت لاقتلعته
وادلالا بمنعته * ولو وقف
لاختلعته * فراسله بمثال
بأن محمود اليس من جنس
أكابر الهنود * وأمراء
رجالهم السود * ان السلامة
من مثله تغتنم * والجيش
باسمه وباسم أبيه يستهزم *
وقد رأينا من كان أقوى
منك حكمه * وأعلى اكمه
لم يقم لضربة من ضربات
حدوده * ولم يف بهضبة
من هضبات جنوده * فان
أردت الانتضاح فشانك
أو الخلاص فغمض
ما استطعت مكانك * فعلم ان
الرجل قد نصحه * وأنه ان
خالف الحق فضحه *
فسرب أثقاله وأفياله *

الا اليسير وفيها في شعبان خرج عسكر من الغورية مقدمهم الامير زنكي بن مسعود الى مدينة مرو فلقيهم نائب خوارزم شاه بمدينة سرخس وهو الامير جقر وكمن لهم كمينا فلما وصلوا اليه هزمهم وأخذ وجوه الغورية اسرى فلم يفلت منهم الا القليل وأخذ أميرهم زنكي أسيرا فقتل صبرا وعلقت رؤسهم بمرو أياما وفيها في ذي القعدة سار الامير عماد الدين عمر بن الحسين الغوري صاحب بلخ الى مدينة ترمذ وهي للاتراك الخطا فافتتحها عنوة وجعل بها ولده الاكبر وقتل من بها من الخطا ونقل العلويين منها الى بلخ وصارت ترمذ دار اسلام وهي من أمنع الحصون وأقواها وفيها توفي صدر الدين السجزي شيخ خانكاه السلطان بهراة وفيها في صفر توفي أبو علي الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطي وهو من الشعراء المجيدين واجتمعت به بالموصل وردها مادحا صاحبها نور الدين ارسلان شاه وغيره من المقدمين وكان نعم الرجل حسن الصحبة والعشرة وفيها اجتمع ببغداد رجلان أعميان على رجل أعمى أيضا وقتلاه بمسجد طمعا ان يأخذا منه شيأ فلم يجدا معه ما يأخذانه وأدركهما الصباح فهربا من الخوف يريدان الموصل ورئي الرجل مقتولا ولم يعلم قاتله فاتفق ان بعض أصحاب الشحنة اجتاز من الحريم في خصومة جرت فرأى الرجلين الضريرين فقال ان معه هذان اللذان قتلا الاعمى يقوله مزاحا فقال أحدهما هذا والله قتله فقال الآخر بل أنت قتلته فأخذا الى صاحب الباب فأقرا فقتل أحدهما وصلب الآخر على باب المسجد الذي قتلا فيه الرجل

(ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة)

(ذكر الفتنة بهراة)

في هذه السنة في المحرم ثار العامة بهراة وجرت فيه فتنة عظيمة بين أهل السوقين الحدادين والصفارين قتل فيها جماعة ونهبت الاموال وخربت الديار فخرج أمير البلد ليكفهم فضربه بعض العامة بحجر نالمه منه ألم شديد واجتمع الغوغاء عليه فرفع الى القصر الفيروزي واختفى أياما الى أن سكنت الفتنة ثم ظهر

(ذكر قتال شهاب الدين الغوري بني كوكر)

وقد ذكرنا انهزام شهاب الدين محمد بن سام الغوري صاحب غزنة من الخطا الكفار وان الخبر ظهر ببلاده انه عدم من المعركة لم يقف أصحابه له على خبر فلما اشتهر هذا الخبر ثار المفسدون في أطراف البلاد وكان ممن أفسد دانيال صاحب جبل الجودي فانه كان قد أسلم فلما بلغه الخبر ارتد عن الاسلام وتابع بني كوكر ومساكنهم في جبال بين لهاوور والمولتان حصينة منيعة وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين وحملوا له الخراج فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا في مهم من قبائلهم وعشائرهم وأطاعهم صاحب جبل الجودي وغيره من القاطنين بتلك الجبال ومنعوا الطريق من لهاوور وغيرها الى غزنة فلما بلغ شهاب الدين من قبل مملوكه ايبك بال وقد ذكرناه ارسل الى نائبه بلهاوور والمولتان وهو محمد بن ابي علي يأمره بحمل المال لسنة ستمائة وسنة احدى وستمائة ليتجهز به لحرب الخطا فأجاب ان أولاد كوكر قد قطعوا الطريق ولا يمكنه ارسال المال وحضر جماعة من التجار وذكروا ان قفلا كبيرا أخذه أولاد كوكر ولم ينج منه الا القليل فأمر شهاب الدين مملوكه ايبك مقدم عساكر الهند أن يراسل بني كوكر يدعوهم الى الطاعة ويتهددهم

ان

وخزائنه وأمواله * نحو جبال تناغي كواكب الجوزاء * وآجام توارى خد الارض عن عين السماء وورّى بوجه مقصده فلم يدر أين سار * والى أي الاقطار طار * امتطى الليل أم اقتعد النهار * وكان غرض النصيح المظلوم في تهريبه وتغريبه اشفاقه من حبالة الاقتناص فيسأم من كامة الاسلام * ماسئم أعمامه وأقاربه حين اضطروا الى الاستئمان والاستسلام * فلما أحاط السلطان تلك القلعة وافتتحها على حصانة قواعدها * ومناعة مراقيها ومصاعدها * وتوسع منها في علف كثير * ومال على اختلاف أصنافه خطير * لم يبه الموجود * وقد فاته الكافر المقصود * وضاقت به الارض دون طلبه * وانتزاعه من يد مهربه فاقتص أثره ركضا نحو خمسة عشر فرسخا بين منابت أشجار تصك الوجوه قدميها * ومساقط

ان لم يجيبوا فعل ذلك فقال ابن كوكر لاى معنى لم يرسل السلطان الينا رسولا فقال له الرسول
وما قدركم أنتم حتى يرسل اليكم وانما مملوكه يبصركم رشدكم ويهددكم فقال ابن كوكر لو كان
شهاب الدين حيا راسلنا وقد كنا ندفع الاموال اليه فحيث عدم فقل لايبك يترك لنا لهاوور وما
والاها وفرشابور ونحن نصالحه فقال الرسول نفذ أنت جاسوسا تثق اليه يأتيك بخبر شهاب الدين
من فرشابور فلم يصغ الى قوله فرده فعاد وأخبر بما سمع ورأى فأمر شهاب الدين مملوكه قطب الدين
ايبك بالعود الى بلاده وجمع العساكر وقتال بنى كوكر فعاد الى دهلى وأمر عساكره بالاستعداد
فأقام شهاب الدين فى فرشابور الى نصف شعبان من سنة احدى وستمائة ثم عاد الى غزنة فوصلها
أول رمضان وأمر بالنداء فى العساكر بالتجهز لقتال الخطا وان المسير يكون أول شوال فتجهزوا
لذلك فاتفق ان الشكايات كثرت من بنى كوكر وما يتعهدونه من اخافة السبل وأنهم قد أنفذوا
شحنة الى البلاد ووافقهم أكثر الهنود وخرجوا من طاعة أميرها لهاوور والمولتان وغيرهما
ووصل كتاب الوالى يذكر ما قد دهمه منهم وان عماله قد أخرجهم بنو كوكر وجبوا الخراج وان ابن
كوكر مقدمهم أرسل اليه ليترك لهاوور والبلاد والا قتله ويقول له ان لم يحضر السلطان
شهاب الدين بنفسه ومعه العساكر والا خرجت البلاد من يده وتحدث الناس بكثرة من معهم
من الجموع وما لهم من القوة فتغير عزم شهاب الدين حينئذ عن غزو الخطا وأخرج خيامه وسار
عن غزنة خامس ربيع الاول سنة اثنتين وستمائة فلما ساروا وأبعد انقطعت أخباره عن الناس
بغزنة وفرشابور حتى أرجف الناس بانهزامه وكان شهاب الدين لما سار عن فرشابور أتاه خبر ابن
كوكر انه نازل فى عساكره ما بين جيلم وسودرة فجد السير اليه فدهمه قبل الوقت الذى كان يقدر
وصوله فيه فاقتتلوا قتالا شديدا يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخر من بكرة الى العصر
واشتد القتال فبينما هم فى القتال واذ قد أقبل قطب الدين ايبك فى عساكره فنادوا بشعار
الاسلام وحملوا حملة صادقة فانهزم الكوكرية ومن انضم اليهم وقتلوا بكل مكان وقصدوا أجمة
هنالك فاحتموا بها وأضرموا نارا فكان أحدهم يقول لصاحبه لا تترك المسلمين يقتلونك ثم يلقى
نفسه فى النار فيلقى صاحبه نفسه بعده فيها فعمهم الفناء قتلا وحرقا فبعدا للقوم الظالمين
وكان أهلهم وأموالهم معهم لم يفارقوها فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله حتى ان المماليك
كانوا يباعون كل خمسة بدينار ركنى ونحوه وهرب ابن كوكر بعد أن قتل اخوته وأهله وأما ابن
دانيال صاحب جبل الجودى فانه جاء ليلا الى قطب الدين ايبك فاستجار به فأجاره وشفع فيه الى
شهاب الدين فشفعه فيه وأخذ منه قلعة الجودى فلما فرغ منهم سار نحو لهاوور ليؤمن أهلها
ويسكن روعهم وأمر الناس بالرجوع الى بلادهم والتجهيز لحرب الخطا وأقام شهاب الدين
بلهاوور الى سادس عشر رجب وعاد نحو غزنة وأرسل الى بهاء الدين سام صاحب باميان ليتجهز
للمسير الى سمرقند ويعمل جسرا ليعبر هو وعساكره عليه

(ذكر الظفر بالتيراهية)

كان من جملة الخارجين المفسدين أيضا على شهاب الدين التيراهية فانهم خرجوا الى حدود
سوران ومكرهان للغارة على المسلمين فأوقع بهم نائب تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين بتلك
الناحية ويعرف بالخلجى وقتل منهم خلقا كثيرا وحمل رؤس المعروفين فعلقت ببلاد الاسلام

أحجار تصدم الحوافر
فتحفيها * ولحق القوم ليلة
الاحد لخمس بقين من
شعبان وقت العتمة وهم
يطوون مجاهل الارض
هبوطا وصعودا ولا طى
التجار بحضرموت برودا *
وأهاب الى أولياء الاسلام *
وأبناء الصلاة والسلام *
باقتناصهم * وادراع
الظلام فى اقتناصهم *
ثقة بالله الناصر لدينه *
القاضى على الكفر
بتوهينه * فكم من قتيل
هنالك قبل أن يمسه
حر الحديد * وأسير تقيد
قبل يد التقييد * فأما
الاموال فبانت تجادون
الارواح * وتستزادون حد
السلاح وحر الجراح *
فلا يعبأ بها أو تشفى
النفوس من عبدة الكفار *
وعبدة الشمس والنار *
وظل الاولياء يتتبعون
طرائق المخاذيل ثلاثة أيام
تباعا تنفلا واغتناما *
وحلالا بعد ان جعلها
الكفار حراما * وأما
القبيلة فمن بين مقهور
ومردود * ومتطوع
بالعود الى السلطان

وكانت فتنة هؤلاء التيراهية على بلاد الاسلام عظيمة قديما وحديثا وكان اذا وقع بأيديهم أسير من المسلمين عذبوه بأنواع العذاب وكان أهل فرشابور معهم فى ضر شديد لانهم يحيطون بتلك الولاية من جوانبها لاسيما آخر أيام سبكتكين فان الملوك ضعفوا وقوى هؤلاء عليهم وكانوا يغيرون على أطراف البلاد وكانوا كفارا لا دين لهم يرجعون اليه ولا مذهب يعتمدون عليه الا انهم كانوا اذا ولد لاحدهم بنت وقف على باب داره ونادى من يتزوج هذه من يقبلها فان أجابه أحد تركها والا قتلها ويكون للمرأة عدة أزواج فاذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب فاذا جاء غيره من أزواجها ورأى مداسه عاد ولم يزالوا كذلك حتى أسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغورى فكفوا عن البلاد وسبب اسلامهم انهم أسروا انسانا من فرشابور فعذبوه فلم يمت ودامت أيامه عندهم فأحضره يوما مقدمهم وسأله عن بلاد الاسلام وقال له لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطينى فقال له كان يعطيك الاموال والاقطاع ويرد اليك حكم جميع البلاد التى لكم فارسله الى شهاب الدين فى الدخول فى الاسلام فعاد ومعه رسول بالخلع والمنشور بالاقطاع فلما وصل اليه الرسول سار هو وجماعة من أهله الى شهاب الدين فأسلموا وعادوا وكان للناس بهم راحة فلما كانت هذه الفتنة واختلفت البلاد نزل أكثرهم من الجبال فلم يكن لهذه الطائفة بهم قدرة ليمنعوهم فأفسدوا وعملوا ما ذكرناه

(ذكر قتل شهاب الدين الغورى)

فى هذه السنة أول ليلة من شعبان قتل شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام الغورى ملك غزنة وبعض خراسان بعد عوده من لهاوور بمنزل يقال له دميك وقت صلاة العشاء وكان سبب قتله ان نفرا من الكفار الكوكرية لزموا عسكره عازمين على قتله لما فعل بهم من القتل والاسر والسبى فلما كان هذه الليلة تفرق عنه أصحابه وكان قد عاد ومعه من الاموال ما لا يحد فانه كان عازما على قصد الخطا والاستكثار من العساكر وتفريق المال فيهم وقد أمر عساكره بالهند باللحاق به وأمر عساكره الخراسانية بالتجهز الى ان يصل اليهم فأتاه الله من حيث لم يحتسب ولم يغن عنه ما جمع من مال وسلاح ورجال لكن كان على نية صالحة من قتال الكفار فلما تفرق عنه أصحابه وبقى وحده فى خركاه فثار أولئك النفر فقتل أحدهم بعض الحرس بباب سرادق شهاب الدين فلما قتلوه صاح فثار أصحابه من حول السرادق لينظروا ما بصاحبهم فاخلوا مواقفهم وكثر الزحام فاغتنم الكوكرية غفلتهم عن الحفظ فدخلوا على شهاب الدين وهو فى الخركاه فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة فقتلوه فدخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلا وهو ساجد فأخذوا أولئك الكفار فقتلوهم وكان فيهم اثنان مختونان وقيل انما قتله الاسماعيلية لانهم خافوا خروجه الى خراسان وكان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم على ما ذكرناه فلما قتل اجتمع الامراء عند وزيره مؤيد الملك بن خواجا سجستان فتحالفوا على حفظ الخزانة والملك ولزوم السكينة الى أن يظهر من يتولاه واجلسوا شهاب الدين وخيطوا جراحه وجعلوه فى المحفة وساروا به ورتب الوزير الامور وسكن الناس بحيث لم ترق محجمة دم ولم يوجد فى أحد شئ وكانت المحفة محفوفة بالحشم والوزير والعسكر والشمسية على حاله فى حياته وتقدم الوزير الى أمير دار العسكر باقامة السياسة وضبط العسكر وكانت الخزانة التى فى صحبته ألفى

محمود * لطفا من الله تعالى يبيح له غنائم الاموال * حتى يسوق اليه بهائم الانيال * لاجرم انها سميت خداى آورد شكرا لله على الهام ما لا يسلك الا بالمقامع * ولا يملك فى المراتع * الا بالحمل الخوادع * أن يأتى طوعا فيهجر الاصنام * ويخدم الدين والاسلام * ولقد أحسن من قال

قل للامير عبدت حتى
قد أتاك الفيل عبدا
سبحان من جمع المحا
سن عنده قربا وبعدا
لو مس أعطاف الصخو
ر جرين فى الترييع سعدا
أو سار فى أفق السماء
لانبتت زهرا وودا

وبلغ ما رد من خزائن السارب ذهبا وفضه ويواقيت محرزة وفرائد مبيضه * قرابة ثلاثة آلاف ألف درهم فأما السبى فالشاهد على كثرة عدده ووفور مدده * وقوع الاستيام على الواحد منهم بما بين درهمين الى عشرة دراهم

حمل وما بقى حمل وشغب الغلمان الاتراك الصغار لينهبوا المال فمنعهم الوزير والامراء الكبار
من المماليك وهو صونج صهر الدز وغيره وأمروا كل من له اقطاع عند قطب الدين ايبك مملوك
شهاب الدين ببلاد الهند بالعود اليه وفرقوا فيهم أموالا كثيرة فعادوا وسار الوزير ومعه من له
اقطاع وأهل بغزنة وعلموا انه يكون بين غياث الدين محمود بن غياث الدين أخى شهاب الدين الاكبر
وبين بهاء الدين صاحب باميان وهو ابن أخت شهاب الدين حروب شديدة وكان ميل الوزير
والاتراك وغيرهم الى غياث الدين محمود وكان الامراء الغورية يميلون الى بهاء الدين سام صاحب
باميان فارسل كل طائفة الى من يميلون اليه يعرفونه قتل شهاب الدين وجلية الامور وجاء
بعض المفسدين من أهل غزنة فقال للمماليك ان فخر الدين الرازى قتل مولاكم لانه هو أوصل
من قتله فوضع من خوارزمشاه فثار وا به ليقتلوه فهرب وقصد مؤيد الملك الوزير فاعلمه الحال
فسيره سرا الى مأمنه ولما وصل العسكر والوزير الى فرشابور اختلفوا فالغورية يقولون نسير الى
غزنة على طريق مكرهان وكان غرضهم ان يقربوا من باميان ليخرج صاحبها بهاء الدين سام
فيملك الخزانة قال الاتراك بل نسير على طريق سوران وكان مقصودهم ان يكونوا قريبا من تاج
الدين الدز مملوك شهاب الدين وهو صاحب كرمان مدينة بين غزنة ولهاوور وليست بكرمان التى
تجاور بلاد فارس ليحفظ الدز الخزانة ويرسلون من كرمان الى غياث الدين يستدعونه الى غزنة
ويملكونه وكثر بينهم الاختلاف حتى كادوا يقتتلون فتوصل مؤيد الملك مع الغورية حتى
اذنوا له وللاتراك بأخذ الخزانة والمحفة التى فيها شهاب الدين والمسير على كرمان وساروا هم
على طريق مكرهان ولقى الوزير ومن معه مشقة عظيمة وخرج عليهم الامم الذين فى تلك الجبال
التيراهية واوغان وغيرهم فنالوا من أطراف العسكر الى ان وصلوا الى كرمان فخرج اليهم تاج
الدين الدز يستقبلهم فلما عاين المحفة وفيها شهاب الدين ميتا نزل وقبل الارض على عادته
فى حياة شهاب الدين وكشف عنه فلما رآه ميتا مزق ثيابه وصاح وبكى فابكى الناس وكان يوما
مشهودا

(ذكر ما فعله الدز)

كان الدز من أول مماليك شهاب الدين وأكبرهم وأقدمهم وأكبرهم محلا عنده بحيث ان
أهل شهاب الدين كانوا يخدمونه ويقصدونه فى أشغالهم فلما قتل صاحبه طمع ان يملك غزنة
فاول ما عمل انه سأل الوزير مؤيد الملك عن الاموال والسلاح والدواب فاخبره بما خرج من
ذلك وبالباقى معه فانكر الحال وأساء أدبه فى الجواب وقال ان الغورية قد كاتبوا بهاء الدين
سام صاحب باميان ليملكوه غزنة وقد كتب الى غياث الدين محمود وهو مولاى يأمرنى انى
لا أترك أحدا يقرب من غزنة وقد جعلنى نائبه فيها وفى سائر الولاية المجاورة لها لانه مشتغل
بأمر خراسان وقال للوزير انه قد أمرنى أيضا أن أتسلم الخزانة منك فلم يقدر على الامتناع لميل
الاتراك اليه فسلمها اليه وسار بالمحفة والمماليك والوزير الى غزنة فدفن شهاب الدين فى التربة
بالمدرسة التى أنشأها ودفن ابنته فيها وكان وصوله اليها فى الثانى والعشرين من شعبان
من السنة

(ذكر بعض سيرة شهاب الدين)

وذلك فضل الله الذى ذخره
لأيام السلطان يمين الدولة*
وأمين الملة* وهو الملى له بتمام
الثواب* يوم قيام الحساب*
فالحمد لله خير معبود ومحمود*
وله الشكر على ما أقر به عين
محمد صلى الله عليه وسلم
بمحمود

(ذكر المسجد الجامع بغزنة)

ولما عاد السلطان يمين الدولة*
وأمين الملة* على تفيئة النصر
الموكل بقمع الكافر المفترى*
المكال بسعدى السماء الزهرة
والمشترى* الى دار الملك
بغزنة وقد كاد أن يغيض سيحها
على عدد الارقاء* من العبيد
والاماء* حتى استغرقت عليها
اكياس التجار* الضاربين اليها
عن نوازح الديار* ونوازع
الامصار* فخص ما وراء النهر
الى مرابع العراق* ومبادى
الاشراق* منها ما خلط بيضهم
بالسود* وعدل فى التمليك بين
المسود والمسود* أحب أن
ينفق ما أفاء الله عليه من
أنفال* أولئك الغلف
الاغفال* فى عمل بر يشيع
جدواه* ويربع الى أمر
الاحتساب معناه* وكان
قد أوعز باختطاط صعيد
من ساحة غزنة

كان رحمه الله شجاعا مقداما كثيرا الغزو الى بلاد الهند عادلا فى رعيته حسن السيرة فيهم حاكما بينهم بما يوجبه الشرع المطهر وكان القاضى بغزنة يحضر داره من كل أسبوع السبت والاحد والاثنين والثلاثاء ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب التربة فيحكم القاضى وأصحاب السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع وان طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره وسمع كلامه وأمضى عليه أوله حكم الشرع فكانت الامور جارية على أحسن نظام (حكى عنه) انه لقيه صبى علوى عمره نحو خمس سنين فدعا له وقال لى خمسة أيام ما أكلت شيأ فعاد من الركوب لوقته ومعه الصبى فنزل فى داره وأطعم العلوى أطيب الطعام بحضرته ثم أعطاه مالا بعد ان أحضر أباه وسلمه اليه وفرق فى سائر العلويين مالا عظيما (وحكى) ان تاجرا من مراغة كان بغزنة وله على بعض مماليك شهاب الدين دين مبلغه عشرة آلاف دينار فقتل المملوك فى حرب كانت له فرفع التاجر حاله فأمر بأن يقر اقطاع المملوك بيد التاجر الى ان يستوفى دينه ففعل ذلك (وحكى عنه) انه كان يحضر العلماء بحضرته فيتكلمون من المسائل الفقهية وغيرها وكان فخر الدين الرازى يعظ فى داره فحضر يوما فوعظ وقال فى آخر كلامه ياسلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازى وأن مردنا الى الله فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه وكان رقيق القلب وكان شافعى المذهب مثل أخيه قيل وكان حنفيا والله أعلم

(ذكر مسير بهاء الدين سام الى غزنة وموته)

لما ملك غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود وزوجه اخته فأتاه منها ولد اسمه سام فبقى فيها الى ان توفى وملك بعده ابنه الاكبر واسمه عباس وأمه تركية فغضب غياث الدين وأخوه شهاب الدين فى ذلك وأرسلا من أحضر عباسا عندهما فأخذا الملك منه وجعلا ابن أختهما سام ملكا على باميان وتلقب بهاء الدين وعظم شأنه ومحله وجمع الاموال لملك البلاد بعد خاله وأحبه أمراء الغورية حبا شديدا وعظموه فلما قتل خاله شهاب الدين سار بعض الامراء الغورية الى بهاء الدين سام فأخبره بذلك فلما بلغه قتله كتب الى من بغزنة من الامراء الغورية يأمرهم بحفظ البلد ويعرفهم انه على الطريق سائر اليهم وكان والى قلعة غزنة ويعرف بأمير داد قد أرسل ولده الى بهاء الدين سام يستدعيه الى غزنة فأعاد جوابه انه تجهز ويصل اليه ويعده الجميل والاحسان وكتب بهاء الدين الى علاء الدين محمد بن أبى على ملك الغور يستدعيه اليه والى غياث الدين محمود بن غياث الدين والى ابن خرميل والى هراة يأمرهما باقامة الخطبة له وحفظ ما بأيديهما من الاعمال ولم يظن ان أحدا يخالفه فأقام أهل غزنة ينتظرون وصوله أو وصول غياث الدين محمود والاتراك ويقولون لا نترك غير ابن سيدنا يعنون غياث الدين يدخل غزنة والغورية يتظاهرون بالميل الى بهاء الدين ومنع غيره فسار من باميان الى غزنة فى عساكره ومعه ولداه علاء الدين محمود وجلال الدين فلما سار عن باميان مرحلتين وجد صداعا فنزل يستريح ينتظر خفته عنه فازداد الصداع وعظم الامر عليه فأيقن بالموت فأحضر ولديه وعهد الى علاء الدين وأمرهما بقصد غزنة وحفظ مشايخ الغورية وضبط الملك وبالرفق بالرعايا وبذل الاموال وأمرهما ان يصالحا غياث الدين على ان يكون له خراسان

وبلاد

للمسجد الجامع اذ كان ما اختط قديما على قدر أهلها حيث عدت من زمعات البلاد شحوط دار * وشطون مزار * توافق عوده من مضربه حصول المراد من تقطيعه وتوسيعه * واقامة الجدران على ترابيعه * فصب بدر المال على الصفاح * كما صب دماء الابطال يوم القراع * ونصب لمشارفتهم أحد الزعماء بحضرته فهو يطوف عليهم مطالبا بصدق العمل * ومعاتبا على رهز الخلل * حتى اذا توسدت الشمس قلة الجبل * اقام ألسن الموازين ناطقة بالانصاف * وازنة بالجزاف * فهم بين أجرين عاجل على السلطان منقود * وآجل على الرحمن موعود * ونقل اليه من أقطار الهند والسند جذوع توافقت قدودا وورصانة * وتناسبت تدويرا وثخانة * كأنها استودعت أرحام الارض لأمر معلوم * وخبئت بأعمارها اليوم محتوم * فجاءت ولا الملق كالا * والعدل استقامة واعتدالا * يثنى عليها الملاسة والسداد *

وبلاد الغور ويكون اليهما غزنة وبلاد الهند

(ذكر ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه)

لما فرغ بهاء الدين من وصيته توفى فسار ولداه الى غزنة فخرج أمراء الغورية وأهل البلد فلقوهما وخرج الاتراك معهم على كره منهم ودخلوا البلد وملكوه ونزل علاء الدين وجلال الدين دار السلطنة مستهل رمضان وكانوا قد وصلوا فى ضر وقلة من العسكر وأراد الاتراك منعهم فنهاهم مؤيد الملك وزير شهاب الدين لقلتهم ولاشتغال غياث الدين بابن خرميل والى هراة على ما نذكره فلم يرجعوا ولما استقرا بالقلعة ونزلا بدار السلطنة راسلهما الاتراك بأن يخرجا من الدار والا قاتلوهما ففرقا فيهم أموالا كثيرة واستحلفاهم فحلفوا واستنابوا غياث الدين محمودا وانفذا خلعا الى تاج الدين الدز وهو باقطاعه مع رسول وطلباه الى طاعتهما ووعداه بالاموال والزيادة فى الاقطاع وامارة الجيش والحكم فى جميع الممالك فاتاه الرسول فلقيه وقد سار عن كرمان فى جيش كثير من الترك والخلج والغز وغيرهم فابلغه الرسالة فلم يلتفت اليه وقال قل لهما يعودان الى باميان وفيها كفاية فانى قد أمرنى مولاى غياث الدين ان أسير الى غزنة وآمنهما عنها فان عادا الى بلادهما والا فعلت بهما وبمن معهما ما يكرهون ورد ما معه من الهدايا والخلع ولم يكن قصد الدز بهذا حفظ بيت صاحبه وانما أراد ان يجعل هذا طريقا الى ملك غزنة لنفسه فعاد الرسول وأبلغ علاء الدين رسالة الدز فارسل وزيره وكان قبله وزير أبيه الى باميان وبلخ وترمذ وغيرها من بلادهم ليجمع العساكر ويعود اليه فارسل الدز الى الاتراك الذين بغزنة يعرفهم ان غياث الدين أمره أن يقصد غزنة ويخرج علاء الدين وأخاه منها فحضروا عند وزير علاء الدين وطلبوا منه سلاحا ففتح خزانة السلاح فهرب ابن الوزير الى علاء الدين وقال له قد كان كذا وكذا فلم يقدر أن يفعل شيأ وسمع مؤيد الملك وزير شهاب الدين فركب وانكر على الخازن تسليم المفاتيح وأمره فاسترد ما نهبه الترك جميعه لانه كان مطاعا فيهم ووصل الدز الى غزنة فاخرج اليه علاء الدين جماعة من الغورية ومن الاتراك وفيهم صونج صهر الدز فاشار عليه اصحابه أن لا يفعل وينتظر العسكر مع وزيره فلم يقبل منهم وسير العساكر فالتقوا خامس رمضان فلما التقوا خدعه الاتراك وعادوا معه على عسكر علاء الدين فقاتلوهم فهزموهم وأسروا مقدمهم وهو محمد بن على بن حردون ودخل عسكر الدز المدينة فنهبوا بيوت الغورية والباميانية وحصر الدز القلعة فخرج جلال الدين منها فى عشرين فارسا وسار عن غزنة فقالت له امرأة تستهزئ به الى أين تمضى خذ الجتر والشمسة معك ما أقبح خروج السلاطين هكذا فقال لها انك سترين ذلك اليوم وافعل بكم ما تقرون به بالسلطنة لى وكان قد قال لاخيه احفظ القلعة الى ان آتيك بالعساكر فبقى الدز يحاصرها وأراد من مع الدز نهب البلد فنهاهم عن ذلك وأرسل الى علاء الدين يأمره بالخروج من القلعة وتهدده ان لم يخرج منها وترددت الرسل بينهما فى ذلك فاجاب الى مفارقتها والعود الى بلده وأرسل من حلف له الدز أن لا يؤذيه ولا يعترض اليه ولا الى احد ممن يحلف له وسار عن غزنة فلما رآه الدز وقد نزل من القلعة عدل الى تربة شهاب الدين مولاه ونزل اليها ونهب الاتراك ما كان مع علاء الدين والقوه عن فرسه واخذوا ثيابه وتركوه عريانا بسراويله فلما سمع الدز ذلك ارسل اليه بدواب وثياب ومال واعتذر اليه فاخذ ما لبسه

وكأنّ بها صحافها لا تصفى ولا تكاد * وقد فرشت ساحتها بالمرمر منقولا من كل فج عميق * ومضرب سحيق * على تقطيع التربيع أشد ملاسة من راحة الفتاة * وصفحة المرآة * وعقدت عند منتهى الابصار طاقات كما تقطع الدوائر على نقط المراكز * فلو عاش سنمار اعتد فى جنبها صنعة الواهن العاجز * فاما الاصباغ فمطالع روضة الربيع ضاحكة الثغور باكية الجفون تستوقف الابصار * وتقيد النظار * وأما التذهيب فحسبك به ان صناع الرصافة قد عزت عليهم الحقاق * وصح لهم تكليف ما لا يطاق * وليس بصفائح الزرياب فقط لكنه ضبات الذهب الاحمر أفرغت عن صور الاصنام المجذوذة * والبددة المأخوذة * فطفقت تعرض على النار * بعد ان كانت آلهة للكفار * وتضرب بالمطارق * بعد أن عبدت بالخدود والعنافق * أوليس الذى ينفق على جدران مساجد الله عبرة للموحدين * وغيظا على

وترك الباقى فلما وصل الى باميان لبس ثياب سواد وركب حمارا فاخرجوا له مراكب ملوكية وملابس جميلة فلم يركب ولم يلبس وقال اريد أن يرانى الناس وماصنع بى اهل غزنة حتى اذا عدت اليها وخربتها ونهبتها لايلومنى احد ودخل دار الامارة وشرع فى جمع العساكر

(ذكر ملك الدز غزنة)

قد ذكرنا استيلاء الدز على الاموال والسلاح والدواب وغير ذلك مما كان صحبة شهاب الدين وأخذه من الوزير مؤيد الملك فجمع له العساكر من أنواع الناس الاتراك والخلج والغز وغيرهم وسار الى غزنة وجرى له مع علاء الدين ماذكرنا فلما خرج علاء الدين من غزنة أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين الا انه لم يأمر الخطيب بالخطبة له ولا لغيره وانما يخطب للخليفة ويترحم على شهاب الدين الشهيد حسب فلما كان فى اليوم الرابع أحضر مقدمى الغورية والاتراك وذم من كاتب علاء الدين وأخاه وقبض على أمير داد والى غزنة فلما كان الغد وهو سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والمقدمين وأحضر أيضا رسول الخليفة وهو الشيخ مجد الدين ابو على بن الربيع الفقيه الشافعى مدرس النظامية ببغداد وكان قد ورد الى غزنة رسولا الى شهاب الدين فقتل شهاب الدين وهو بغزنة فارسل اليه والى قاضى غزنة يقول له انى أريد أن انتقل الى الدار السلطانية وان اخاطب بالملك ولا بد من حضورك والمقصود من هذا ان تستقر امور الناس فحضر عنده فركب الدز والناس فى خدمته وعليه ثياب الحزن وجلس فى الدار فى غير مجلس كان يجلس فيه شهاب الدين فتغيرت لذلك نيات كثير من الاتراك لانهم كانوا يطيعونه ظنا منهم انه يريد الملك لغياث الدين فحيث رأوه يريد الانفراد تغيروا عن طاعته حتى ان بعضهم بكى غيظا من فعله واقطع الاقطاعات الكثيرة وفرق الاموال الجليلة وكان عند شهاب الدين جماعة من اولاد ملوك الغور وسمرقند وغيرهم فانفوا من خدمة الدز وطلبوا منه ان يقصدوا خدمة غياث الدين واخيه صاحب باميان وارسل غياث الدين الى الدز يشكره ويثنى عليه لاخراج أولاد بهاء الدين من غزنة ويسأله الخلع وطلب منه الخطبة والسكة فلم يفعل واعاد الجواب فغالطه وطلب منه ان يخاطبه بالملك وان يعتقه من الرق لان غياث الدين ابن اخى سيده لا وارث له سواه وان يزوج ابنه بابنة الدز فلم يجبه الى ذلك واتفق ان جماعة من الغوريين من عسكر صاحب باميان أغاروا على اعمال كرمان وسوران وهى اقطاع الدز القديمة فغنموا وقتلوا فارسل صهره صونج فى عسكر فلقوا عسكر الباميان فظفر بهم وقتل منهم كثيرا وانفذ رؤسهم الى غزنة فنصبت بها واجرى الدز فى غزنة رسوم شهاب الدين وفرق فى اهلها اموالا جليلة المقدار والزم مؤيد الملك ان يكون وزيرا له فامتنع من ذلك فالح عليه فاجابه على كره منه فدخل على مؤيد الملك صديق له يهنئه فقال بماذا تهنئنى من بعد ركوب الجواد بالحمار وانشد

ومن ركب الثور بعد الجوا * د انكر اطلاقه والخبب

هذا الدز يأتى الى بابى الف مرة حتى آذن له فى الدخول أصبح على بابه ولو حفظ النفس مع هؤلاء الاتراك لكان لى حكم آخر

(ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه)

واما غياث الدين محمود بن غياث الدين فانه كان فى اقطاعه وهو بست واسفراد وكان الملك علاء

الدين

الملحدين * أتم سماحة * واكرم راحة * ممن يفرغه معبودا * وينصبه للنفع والضر مقصودا * نعوذ بالله من رب شواره عار * وهو محتاج الى شعار * وجزى الله عن الاسلام ملكا هذه أفعاله * وأعماله * وامتهان الروح * والممنوح فى سبيل الله دأبه * وآدابه * ثم وقد أفرد السلطان لخاصته بيتا فى المسجد مشرفا عليه مكعب البناء * موسع الفناء * متناسب الزوايا والارجاء * فرشه وازاره من الرخام كذت عليه الظهور * حتى نقل من أرض نيسابور * وقد أحيط بكل رخامة مربعة محراب من الذهب الاحمر مكملا باللازورد * فى تعاريج من ألوان المنثور والورد * هى من يرها بعينه يقل بلسانه * لاستحسانه * لازال هذا الاستاذ ممتعا ببنانه * ألا من رأى مسجد دمشق فراعه مرآه * وشاقه النظر حتى ثناه * وقضى بأن ليس يوجد شرواه * دونك هذا البيت يلزمك المثنوية * وتنعكس عليك القضية * وينبئك ان الحسن بعض صفاته * والابداع أحد سماته * وأنفال الهند

الدين بن محمد بن ابى على قد ولاه شهاب الدين بلاد الغور وغيرها من ارض الراون فلما بلغه قتله
سار الى فيروز كوه خوفا ان يسبقه اليها غياث الدين فيملك البلد ويأخذ الخزائن التى بها وكان
علاء الدين حسن السيرة من أكابر بيوت الغورية الا ان الناس كرهوه لميلهم الى غياث الدين
وأبى الامراء من خدمته مع وجود ولد غياث الدين سلطانهم ولانه كان كراميا مغاليا فى مذهبه
وأهل فيروز كوه شافعية وألزمهم ان يجعلوا الاقامة مثنى فلما وصل الى فيروز كوه أحضر
جماعة من الامراء منهم محمد المرغنى وأخوه ومحمد بن عثمان وهم من أكابر الامراء وحلفهم على
مساعدته على قتال خوارزمشاه وبهاء الدين صاحب باميان ولم يذكر غياث الدين احتقارا له
فخلفوا له ولولده من بعده وكان غياث الدين بمدينة بست لم يتحرك فى شئ انتظارا لما يكون من
صاحب باميان لانهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين ان تكون خراسان لغياث الدين وغزنة
والهند لبهاء الدين وكان بهاء الدين أقوى فلهذا لم يفعل شيأ فلما بلغه خبر موت بهاء الدين جلس
على التخت وخطب لنفسه بالسلطنة عاشر رمضان وحلف الامراء الذين قصدوه وهم اسمعيل
الخلجى وسونج أمير اشكار وزنكى بن خرجوم وحسين الغورى صاحب تكياباذ وغيرهم
وتلقب بالقاب أبيه غياث الدين وكتب الى علاء الدين محمد بن أبى على وهو بفيروزكوه
يستدعيه اليه ويستعطفه ليصده عن رأيه ويسلم مملكته اليه وكتب الى الحسين بن خرميل
والى هراة مثل ذلك ايضا ووعده الزيادة فى الاقطاع فاما علاء الدين فأغلظ له فى الجواب وكتب
الى الامراء الذين معه يتهددهم فرحل غياث الدين الى فيروز كوه فارسل علاء الدين عسكرا مع
ولده وفرق فيهم مالا كثيرا وخلع عليهم ليمنعوا غياث الدين فلقوه قريبا من فيروز كوه فلما تراءى
الجمعان كشف اسمعيل الخلجى المغفر عن وجهه وقال الحمد لله ان الاتراك الذين لا يعرفون آباءهم
لم يضيعوا حق التربية وردوا ابن ملك باميان وانتم مشايخ الغورية الذين انعم عليكم والد هذا
السلطان ورباكم واحسن اليكم كفرتم الاحسان وجئتم تقاتلون ولده اهذا فعل الاحرار
فقال محمد المرغنى وهو مقدم العسكر الذين يصدرون عن رأيه لا والله ثم ترجل عن فرسه والقى
سلاحه وقصد غياث الدين وقبل الارض بين يديه وبكى بصوت عال وفعل سائر الامراء كذلك
فانهزم أصحاب علاء الدين مع ولده فلما بلغه الخبر خرج عن فيروزكوه هاربا نحو الغور وهو
يقول انا امشى اجاور بمكة فانفذ غياث الدين خلفه من رده اليه فاخذه وحبسه وملك
فيروزكوه وفرح به اهل البلد وقبض غياث الدين على جماعة من أصحاب علاء الدين الكرامية
وقتل بعضهم ولما دخل غياث الدين فيروزكوه ابتدأ بالجامع فصلى فيه ثم ركب الى دار ابيه
فسكنها واعاد رسوم ابيه واستخدم حاشيته وقدم عليه عبد الجبار بن محمد الكيرانى وزير ابيه
واستوزره وسلك طريق ابيه فى الاحسان والعدل ولما فرغ غياث الدين من علاء الدين لم يكن له
همة الا ابن خرميل بهراة واجتذابه الى طاعته فكاتبه وراسله واتخذه ابا واستدعاه اليه وكان
ابن خرميل قد بلغه موت شهاب الدين ثامن رمضان فجمع اعيان الناس منهم قاضى هراة صاعد
ابن الفضل النيسابورى وعلى بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وشيخ الاسلام
رئيس هراة ونقيب العلويين ومقدمى المحال وقال لهم قد بلغنى وفاة السلطان شهاب الدين
وانا فى حصر خوارزمشاه واخاف الحصار واريد ان تحلفوا لى على المساعدة على كل من نازعنى

من خدم نقوشه * والهمة
العلياء قد سمت بعروشه * نعم
وأمام هذا البيت مقصورة
بتعاريج عليها منصوبة تسع
ثلاثة آلاف غلام متى شهدوا
للفرض أخذوا أماكنهم
منها صفوفا * وأقبلوا على
انتظار الأذان عكوفا *
وأضيف الى المسجد مدرسة
فيحاء تشتمل بيوتها من بساط
الارض الى مناط السقوف
على تصانيف الائمة الماضين *
من علوم الاولين والآخرين *
منقولة من خزائن الملوك
لمسيد نقروا عن ديار العراق *
وبقاع الآفاق * حتى
اقتنوها بخطوط * كفرائد
سموط * مصححة بشهادات
التسميد * وعلامات التخفيف
والتشديد * يغتابها فقهاء
دار الملك وعلماؤها للتدريس
والنظر فى علوم الدين على
كفاية ذوى الحاجة منهم
ما يعمهم جراية وافرة *
ومعيشة حاضرة * وقد اقتطع
من دار الامارة الى البيت
الموصوف طريق تفضى
اليه فى أمن من ابتذال
العيون اللواحظ * واعتراض
الرجال من بين صالح وطالح *

فأجابه القاضي وابن زياد بأننا نحلف على كل الناس الا ولد غياث الدين فتقدم عليهما فلما وصل كتاب
غياث الدين خاف ميل الناس اليه فغالطه في الجواب وكان ابن خرميل قد كاتب خوارزمشاه
يطلب منه ان يرسل اليه عسكرا ليصير في طاعته ويمتنع به على الغورية فطلب منه خوارزمشاه
انفاذ ولده رهينة ويرسل اليه عسكرا فسير ولده الى خوارزمشاه فكتب خوارزمشاه الى
عسكره الذين بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجه الى هراة وان يكونوا
يتصرفون بامر ابن خرميل ويمتثلون أمره هذا وغياث الدين يتابع الكتب الى ابن خرميل وهو
يحتج بشئ بعد شئ انتظارا العسكر خوارزمشاه ولا يؤيسه من طاعته ولا يخطب له ويطمعه طاعة
غير مستوية ثم ان الامير على بن ابى على صاحب كالوين أطلع غياث الدين على حال ابن خرميل
فعزم غياث الدين على التوجه الى هراة فثبطه بعض الامراء الذين معه وأشاروا عليه بانتظار
آخر أمره وترك محاققته واستشار ابن خرميل القاضي في أمر غياث الدين فقال له على بن
عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وهو متولي وقوف خراسان التي بيد الغورية
جميعها ينبغي ان تخطب للسلطان غياث الدين وترك المغالطة انني اخاف على نفسي فامض أنت
وتوثق لي منه وكان قصده ان يبعده عن نفسه فمضى برسالته الى غياث الدين وأطلعه على ما يريد
ابن خرميل بفعله من الغدر به والميل الى خوارزمشاه وحثه على قصد هراة وقال له انا اسلمها
اليك ساعة تصل اليها ووافقه بعض الامراء وخالفه غيرهم وقال ينبغي ان لا تترك له حجة فترسل
اليه تقليدا بولاية هراة ففعل ذلك وسيره مع ابن زياد وبعض أصحابه ثم ان غياث الدين كاتب
اميران بن قيصر صاحب الطالقان يستدعيه اليه فتوقف وارسل الى صاحب مرو ليسير اليه
فتوقف أيضا فقال له اهل البلدان لم تسلم البلد الى غياث الدين وتتوجه والا سلمناك وقيدناك
وارسلناك اليه فاضطر الى المجىء الى فيروزكوه فخلع عليه غياث الدين واقطعه اقطاعات شتى
واقطع الطالقان سونج مملوك ابيه المعروف بامير اشكار

(ذكر استيلاء خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان)

قد ذكرنا مكاتبة الحسين بن خرميل والى هراة خوارزمشاه ومراسلته في الانتماء اليه والطاعة
له وترك طاعة الغورية وخداعه لغياث الدين ومغالطته له بالخطبة له والطاعة انتظارا لوصول
عسكر خوارزمشاه ووصول رسول غياث الدين وابن زياد بالخطبة فقال يوم الجمعة نخطب له
فاتفق قرب عسكر خوارزمشاه منهم فلما كان يوم الجمعة قيل له في معنى الخطبة فقال نحن في شغل
اهم منها بوصول هذا العدو وطالت المجادلات بينهم في ذلك وهو مصر على الامتناع منها ووصل
عسكر خوارزمشاه فلقيهم ابن خرميل وانزلهم على باب البلد فقالوا له قد امرنا خوارزمشاه
اننا لا نخالف لك امرا فشكرهم على ذلك وكان يخرج اليهم كل يوم واقام لهم الوظائف الكثيرة
واتاه الخبر ان خوارزمشاه نزل على بلخ فحاصرها فلقيه صاحبها وقاتله بظاهر البلد فلم ينزل
بالقرب منها فنزل على اربعة فراسخ فندم ابن خرميل على طاعة خوارزمشاه وقال لخواصه لقد
اخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل فانني اراه عاجزا وشرع في اعادة العسكر فقال للامراء ان
خوارزمشاه قد ارسل الى غياث الدين يقول له انني على العهد الذي بيننا وانا تارك ما كان
لابيك بخراسان والمصلحة ان ترجعوا حتى ننظر ما يكون فعادوا وارسل اليهم الهدايا الكثيرة

فيركب اليه على وفور سكينة * وشمول طمأنينة * حتى يقضي المكتوبة * ويقتضي الأجر والمثوبة * فأما سائر دور الحجاب وقصور القواد فما يثق بحقائق الانفاق عليها الا من أتاها اعتبارا * وشاهدها اختبارا * فيرى ملء الاباطح أبنية تشرف على الهضاب شرفاتها * وتكاد تغترف من نهر المجرة غرفاتها * وناهيك من بالمدينة يحتوي على مرابض ألف فيل يشغل كل منها بساسته ومارته دارا كبيرة وخطة وسيعة ان الله تعالى اذا أراد عمر البلاد * وكثر العباد * وهو على ما يشاء قدير

(ذكر الافغانية)

ولما قضى السلطان وغرة القيظ بغزنة وأقبل الخريف بسقيفه * ونسيم الوقت بحاضر ريفه * وقد كان طوائف من الافغانية المستوطنين قلال تلك الجبال الشوامخ * والرعان البواذخ * تعرضوا فعل القطاع لذنابي عسكره منصرفه من غزوة قنوج اغترارا بمناعة أماكنهم * وحصانة مساكنهم * أوتظنيا لخفاء أنفالهم * والتباسها

وكان غياث الدين حيث اتصل به وصول عسكر خوارزمشاه الى هراة أخذ اقطاع ابن خرميل وارسل الى كرزبان واخذ كل ماله بها من مال واولاد ودواب وغير ذلك واخذ أصحابه فى القيود وأتاه كتب من يميل اليه من الغورية يقولون له ان رأيك غياث الدين قتلك ولما سمع أهل هراة بما فعل غياث الدين باهل ابن خرميل وماله عزموا على قبضه والمكاتبة الى غياث الدين بانفاذ من يتسلم البلد وكتب القاضى صاعد قاضى هراة وابن زياد الى غياث الدين بذلك فلما سمع ابن خرميل بما فعله غياث الدين باهله وبما عزم عليه أهل هراة خاف ان يعاجله بالقبض فحضر عند القاضى وأحضر اعيان البلد وألان لهم القول وتقرب اليهم وأظهر طاعة غياث الدين وقال قد رددت عسكر خوارزمشاه وأريد ارسل رسولا الى غياث الدين بطاعتى والذى اوثره منكم ان تكتبوا معه كتابا بطاعتى فاستحسنوا قوله وكتبوا له بما طلب وسير رسوله الى فيروزكوه وأمره اذا جنه الليل ان يرجع على طريق نيسابور يلحق عسكر خوارزمشاه ويجد السير فاذا لحقهم ردهم اليه ففعل الرسول ما امره ولحق العسكر على يومين من هراة فامرهم بالعود فعادوا فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول وصلوا الى هراة والرسول بين ايديهم فلقيهم ابن خرميل وادخلهم البلد والطبول تضرب بين ايديهم فلما دخلوا اخذ ابن زياد الفقيه فسمله واخرج القاضى صاعدا من البلد فسار الى غياث الدين بفيروزكوه واخرج من عنده من الغورية وكل من يعلم انه يريدهم وسلم ابواب البلد الى الخوارزمية واما غياث الدين فانه برز من فيروزكوه نحو هراة وارسل عسكرا فاخذوا حشيرا كان لاهل هراة فخرج الخوارزمية فشنوا الغارة على هراة الروذ وغيره فامر غياث الدين عسكره بالتقدم الى هراة وجعل المقدم عليهم على بن ابى على واقام هو بفيروزكوه لما بلغه ان خوارزمشاه على بلخ فسار العسكر وعلى يزكه الامير اميران بن قيصر الذى كان صاحب الطالقان فارسل الى ابن خرميل يعرفه انه على اليزك ويأمره بالمجىء اليه فانه لا يمنعه وحلف له على ذلك فسار ابن خرميل فى عسكره فكبس عسكر غياث الدين فلم يلحقوا يركبون خيولهم حتى خالطوهم فقتلوا فيهم فكف ابن خرميل أصحابه عن الغورية خوفا ان يهلكوا وغنم واسر اسمعيل الخلجى واقام بمكانه وارسل عسكره فشنوا الغارة على البلاد باذغيس وغيرها وعظم الامر على غياث الدين فعزم على المسير الى هراة بنفسه فاتاه الخبر ان علاء الدين صاحب باميان قد عاد الى غزنة على ما نذكره فاقام ينتظر ما يكون منهم ومن الدزوا ما بلخ فان خوارزمشاه لما بلغه قتل شهاب الدين اخرج من كان عنده من الغوريين الذين كان اسرهم فى المصاف على باب خوارزم فخلع عليهم واحسن اليهم واعطاهم الاموال وقال ان غياث الدين اخى ولا فرق بينى وبينه فمن احب منكم المقام عندى فليقم ومن احب ان يسير اليه فانى اسيره ولو اراد منى مهما اراد نزلت له عنه وعهد الى محمد بن على بن بشير وهو من اكابر الامراء الغورية فاحسن اليه واقطعه استمالة للغورية وجعله سفيرا بينه وبين صاحب بلخ فسير اخاه على شاه بين يديه فى عسكره الى بلخ فلما قاربها خرج اليه عماد الدين عمر بن الحسين الغورى اميرها فدفعه عن النزول عليها فنزل على اربعة فراسخ عنها فارسل الى اخيه خوارزمشاه يعلمه قوتهم فسار اليها فى ذى القعدة من السنة فلما وصل الى بلخ خرج صاحبها فقاتلهم فلم يقو بهم لكثرتهم فنزلوا فصار يوقع بهم ليلا فكانوا معه على اقبح صورة فاقام صاحب بلخ محاصرا وهو

عنا كبر أمثالهم * ورأى أن ينقم منهم بركضة تبيح عليهم أوكارهم * وملاجئهم * ويخضب بدماء النحور رجا جئهم * فعزم على ما دبر * وصمم على ما قدر * وورّى بنهضته * نحو احدى أقطار بيضته * ثم ركض عليهم فى خاصته ركضا صبحهم فى مراقدهم فلم يشعروا الا بحر الصفاح * على برد الصباح * ضربات تقطف الرؤس على النحور * وتفرغ البحور على الجور *
صرعى الى صرعى كان جلودهم طليت بها الشيان والعلام
فيا لها نبهة أنمت عليهم الرقود * وآلت حالفة أن لا تعود * أو تشهد اليوم الموعود * فكم من جثث فوق الاعلام * ورؤس تحت الاقدام * حتى اذا استلحمت السيوف أجسامهم * ولم تستبق الا أيامهم وأيتامهم * كفت كف الاقتدار * وعلا ذروة العز بالانحدار * وعادت تلك الوعور سهولا * وكان امر الله مفعولا * وعطف الى غزنة مميلا للرأى بين أن يشتو ببلخ مستجما * ولغابر السنة فى القرار مستقما * وبين أن يركب نية يمينية

ينتظر المدد من أصحابه اولاد بهاء الدين صاحب باميان وكانوا قد اشتغلوا عنه بغزنة على ماذكرناه وعلى مانذكره ان شاء الله تعالى فأقام خوارزمشاه على بلخ اربعين يوما كل يوم يركب الى الحرب فيقتل من اصحابه كثير ولا يظفر بشئ فراسل صاحبها عماد الدين مع محمد بن على بن بشير الغورى وبذل له بذلا كثيرا ليسلم اليه البلد فلم يجبه الى ذلك وقال لا أسلم البلد الا الى أصحابه فعزم على المسير الى هراة فلما سار اصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان الى غزنة المرة الثانية على مانذكره ان شاء الله تعالى واسرهم تاج الدين الدز عاد عن ذلك العزم وأرسل محمد بن على بن بشير الى عماد الدين نائبه يعرفه حال أصحابه وأسرهم وانه لا يبقى عليه حجة ولا له فى التأخر عنه عذر فدخل اليه ولم يزل يخدعه تارة يرغبه وتارة يرهبه حتى أجاب الى طاعة خوارزمشاه والخطبة له وذكر اسمه على السكة وقال انا اعلم انه لا يفى له وارسل من يستحلفه على ما اراده فتم الصلح وخرج الى خوارزمشاه فخلع عليه وأعاده الى بلده وكان سلخ ربيع الاول سنة ثلاث وستمائة ثم سار خوارزمشاه الى كرزبان ليحاصرها وبها على بن أبى على وأرسل الى غياث الدين يقول ان هذه كان قد أقطعها عمك لابن خرميل فتنزل عنها فامتنع وقال بيني وبينكم السيف فارسل اليه خوارزمشاه مع محمد بن على بن بشير فرغبه وآيسه من نجدة غياث الدين ولم يزل به حتى نزل عنها وسلمها وعاد الى فيروزكوه فأمر غياث الدين بقتله فشفع فيه الامراء فتركه وسلم خوارزمشاه كرزبان الى ابن خرميل ثم أرسل الى عماد الدين صاحب بلخ يطلبه اليه ويقول قد حضر مهم ولا غنى عن حضورك فانت اليوم من أخص أوليائنا فحضر عنده فقبض عليه وسيره الى خوارزم ومضى هو الى بلخ فاخذها واستناب بها جعفرا التركى

(ذكر ملك خوارزمشاه ترمذ وتسليمها الى الخطا)

لما أخذ خوارزمشاه مدينة بلخ سار عنها الى مدينة ترمذ مجدا وبها ولد عماد الدين الذى كان صاحب بلخ فارسل اليه محمد بن على بن بشير يقول له ان أباك قد صار من أخص أصحابى وأكابر أمرائى وقد سلم الى بلخ وانما ظهر لى منه ما انكرته فسيرته الى خوارزم مكرما محترما وأما أنت فتكون عندى أخا ووعده واقطعه الكثير فخدعه محمد بن على فرأى صاحبها ان خوارزمشاه قد حصره من جانب والخطا قد حصروه من جانب آخر واصحابه قد اسرهم الدز بغزنة فضعفت نفسه وارسل من يستحلف له خوارزمشاه فحلف له وتسلم منه ترمذ وسلمها الى الخطا فلقد اكتسب بها خوارزمشاه مسبة عظيمة وذكرا قبيحا فى عاجل الامر ثم ظهر للناس بعد ذلك انه انما سلمها اليهم ليتمكن بذلك من ملك خراسان ثم يعود اليهم فيأخذها وغيرها منهم لانه لما ملك خراسان وقصد بلاد الخطا واخذها وافناهم ظهر على الناس انه فعل ذلك خديعة ومكرا غفر الله له

(ذكر عود اصحاب باميان الى غزنة)

قد ذكرنا قبل وصول الدز التركى الى غزنة واخراجه علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين سام صاحب باميان منها بعد ان ملكها واقام هو فى غزنة من عاشر رمضان سنة اثنتين وستمائة الى خامس ذى القعدة من السنة يحسن السيرة ويعدل فى الرعية واقطع البلاد للاجناد فبعضهم اقام وبعضهم سار الى غياث الدين ولم يخطب لاحد ولا لنفسه وكان يعد الناس بأن

رسولى

فى غزوة تقشع باقى ضبابات الكنود * عن ديارات الهنود * مجهزا على من كان يضرب بذنبه * فى مهربه * كالوزغة المنفقة لا تلبث أن تموت فابت عليه حمية الاسلام أن يسيغ على القعود جريضه * أو يستبقى فى مجاثم الاغماد بيضه * وثنى عنانه نحو الهند فى رجال يرون منتهى الشهوات صهوات الخيول * وقصوى اللذات ملاقاة الفحول * ويجتزؤن بالظهور أسرة مرفوعة * وبالاكوار وسائد موضوعة * وبالسموم رياحين مقطوفة * وبالآجن الطرق صهباء مرشوفة * وبالعرق السائل ماء ورد * وبالقسطل الثائر مثار عبير فتات مسك وند * ويجتزؤن بالليل سكنا وقرارا * وبالنجوم ندامى وسمارا * ممن ينمى نسب فان آباءهم المشرفيات البواتك * والزاعبيات الفواتك * وأعمامهم القسى الجوازع * وأخوالهم النبال القوارع *

رسولي عند مولاي غياث الدين فاذا عاد خطبت له ففرح الناس بقوله وكان يفعل ذلك مكرا وخديعة بهم وبغياث الدين لانه لولم يظهر ذلك لفارقه اكثر الاتراك وسائر الرعايا وكان حينئذ يضعف عن مقاومة صاحب باميان فكان يستخدم الاتراك وغيرهم بهذا القول واشباهه فلما ظفر بصاحب باميان على ما نذكره أظهر ما كان يضمره فبينما هو في هذا أتاه الخبر بقرب علاء الدين وجلال الدين ولدي بهاء الدين صاحب باميان في العساكر الكثيرة وانهم قد عزموا على نهب غزنة واستباحة الاموال والانفس فخاف الناس خوفا شديدا وجهز الدز كثيرا من عسكره وسيرهم الى طريقهم فلقوا اوائل العسكر فقتل من الاتراك وادركهم العسكر فلم يكن لهم قوة بهم فانهزموا وتبعهم عسكر علاء الدين يقتلون ويأسرون فوصل المنهزمون الى غزنة فخرج عنها الدز منهزما يطلب بلده كرمان فأدركه بعض عسكر باميان نحو ثلاثة آلاف فارس فقاتلهم قتالا شديدا فردهم عنه وأحضر من كرمان مالا كثيرا وسلاحا ففرقه في العسكر وأما علاء الدين وأخوه فانهما اتيا غزنة لم يدخلاها وسارا في أثر الدز فسمع بهم فسار عن كرمان فنهب الناس بعضهم بعضا وملك علاء الدين كرمان وأمنوا اهلها وعزموا على العود الى غزنة ونهبها فسمع اهلها بذلك فقصدوا القاضي سعيد بن مسعود وشكوا اليه حالهم فمشى الى وزير علاء الدين المعروف بالصاحب واخبره بحال الناس فطيب قلوبهم واخبرهم غيره ممن يثقون اليه انهم مجمعون على النهب فاستعدوا وضيقوا ابواب الدروب والشوارع واعدوا العرادات والاحجار وجاءت التجار من العراق والموصل والشام وغيرها وشكوا الى اصحاب السلطان فلم يسكنهم احد فقصدوا دار مجد الدين بن الربيع رسول الخليفة واستغاثوا به فسكنهم ووعدهم الشفاعة فيهم وفي اهل البلد فأرسل الى امير كبير من الغورية يقال له سليمان بن سيسر وكان شيخا كبيرا يرجعون الى قوله يعرفه الحال ويقول له يكتب الى علاء الدين واخيه يتشفع في الناس ففعل وبالغ في الشفاعة وخوفهم من اهل البلدان اصروا على النهب فأجابوه الى العفو عن الناس بعد مراجعات كثيرة وكانوا قد وعدوا من معهم من العساكر بنهب غزنة فعوضوهم من الخزانة فسكن الناس وعاد العسكر الى غزنة اواخر ذي القعدة ومعهم الخزانة التي اخذها الدز من مؤيد الملك لما عاد ومعه شهاب الدين قتيلا فكانت مع ما اضيف اليها من الثياب والعين تسعمائة حمل ومن جملة ما كان فيها من الثياب الممزج المنسوج بالذهب اثنا عشر الف ثوب وعزم علاء الدين أن يستوزر مؤيد الملك فسمع اخوه جلال الدين فأحضره وخلع عليه على كراهة منه للخلعة واستوزره فلما سمع علاء الدين بذلك قبض على مؤيد الملك وقيده وحبسه فتغيرت نيات الناس واختلفوا ثم ان علاء الدين وجلال الدين اقتسما الخزانة وجرى بينهما من المشاحنة في القسمة ما لا يجري بين التجار فاستدل بذلك الناس على انهما لا يستقيم لهما حال لجهلهما واختلافهما وندم الامراء على ميلهم اليهما وتركهم غياث الدين مع ما ظهر من كرمه واحسانه ثم ان جلال الدين وعمه عباسا سارا في بعض العسكر الى باميان وبقي علاء الدين بغزنة فأساء وزيره عماد الملك السيرة مع الاجناد والرعية ونهب اموال الاتراك حتى انهم باعوا أمهات اولادهم وهن يبكين ويصرخن ولا يلتفت اليهن .

وما زال يخوض أنهارا هائجة * ودوافع مائجة * وأودية هادية * لم تضمن قط عن غرقاها دية * وعين الله ترعاه * في كل سعي يسعاه * حتى اقتحم مغارات أولئك المغاوير * بل ديارات اولئك المدابير * فظلت رذايا الفل يضجون بالويل والثبور * ضجيج النوق رواجع بيت الله المعمور * وما زال السلطان يسمح بمن آمن وأطاع * ويفضح من أظهر الامتناع * بعد ان أصاب غنائم لا يضبطها حساب * ولا يطعمها ماء ولا تراب * حتى انتهى به المسير الى ما يعرف براهب غائر المخاض * حتى القرارة كالخضخاض * يبتلع الخف والحافر * ويقتلع الدارع كما يقتلع الحاسر * فاذا هو ببروجيبال من تلك الجيزة في رجال كالصريم * وأفيال تحت الأديم * قد أخذ من فاجئ لركضة حذره * وأسند الى زاخر النهر ظهره * ورام ان يمنع السلطان عبوره * ويشغل

(ذكر عود الدز الى غزنة)

لما سار جلال الدين عن غزنة واقام بها اخوه علاء الدين جمع الدز ومن معه من الاتراك عسكرا كثيرا وعادوا الى غزنة فوصلوا الى كلواذ كوها وقتلوا جماعة من الغورية ووصل المنهزمون الى كرمان فسار الدز اليهم وجعل على مقدمته مملوكا كبيرا من مماليك شهاب الدين اسمه اى دكز التتر فى ألفى فارس من الخلج والاتراك والغز والغورية وغيرهم وكان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له ابن المؤيد ومعه جماعة من الامراء منهم أبو على بن سليمان بن سيسر وهو وأبوه من اعيان الغورية وكانا مشتغلين باللعب واللهو والشرب لا يفتران عن ذلك فقيل لهما ان عسكر الاتراك قد قربوا منكم فلم يلتفتا الى ذلك ولا تركا ما كانا عليه فهجم عليهم اى دكز التتر ومن معه من الاتراك فلم يمهلهم يركبون خيولهم فقتلوا عن آخرهم منهم من قتل فى المعركة ومنهم من قتل صبرا ولم ينج الا من تركه الاتراك عمدا ولما وصل الدز فرأى أمراء الغورية كلهم قتلى قال كل هؤلاء قاتلونا فقال اى دكز التتر لا بل قتلناهم صبرا فلامه على ذلك ووبخه وأحضر رأس ابن المؤيد بين يديه فسجد شكرا لله تعالى وأمر بالمقتولين فغسلوا ودفنوا وكان فى جملة القتلى أبو على بن سليمان بن سيسر ووصل الخبر الى غزنة فى العشرين من ذى الحجة من هذه السنة فصلب علاء الدين الذى جاء بالخبر فتغيمت السماء وجاء مطر شديد خرب بعض غزنة وجاء بعده برد كبار مثل بيض الدجاج فضج الناس الى علاء الدين بانزال المصلوب فانزله آخر النهار فانكشفت الظلمة وسكن ما كانوا فيه وملك الدز كرمان وأحسن الى اهلها وكانوا فى ضر شديد مع أولئك ولما صح الخبر عند علاء الدين ارسل وزيره الصاحب الى اخيه جلال الدين فى باميان يخبره بحال الدز ويستنجده وكان قد أعد العساكر ليسير الى بلخ يرحل عنها خوارزمشاه فلما أتاه هذا الخبر ترك بلخ وسار الى غزنة وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه وفارقوا أخاه وقصدوا غياث الدين فلما كان أواخر ذى الحجة وصل الدز الى غزنة ونزل هو وعسكره بازاء قلعة غزنة وحصر علاء الدين وجرى بينهم قتال شديد وأمر الدز فنودى فى البلد بالامان وتسكين الناس من أهل البلد والغورية وعسكر باميان واقام الدز محاصر القلعة فوصل جلال الدين فى أربعة آلاف من عسكر باميان وغيرهم فرحل الدز الى طريقهم وكان مقامه الى ان سار اليهم أربعين يوما فلما سار الدز سير علاء الدين من كان عنده من العسكر وأمرهم أن يأتوا الدز من خلفه ويكون أخوه من بين يديه فلا يسلم من عسكره أحد فلما خرجوا من القلعة سار سليمان بن سيسر الغورى الى غياث الدين بفيروزكوه فلما وصل اكرمه وعظمه وجعله اميرداد فيروزكوه وكان ذلك فى صفر سنة ثلاث وستمائة وأما الدز فانه سار الى طريق جلال الدين فالتقوا بقرية بلق فاقتتلوا قتالا صبروا فيه فانهزم جلال الدين وعسكره وأخذ جلال الدين اسيرا واتى به الى الدز فلما رآه ترجل وقبل يده وأمر بالاحتياط عليه وعاد الى غزنة وجلال الدين معه أسير والف اسير من الباميانية وغنم اصحابه اموالهم ولما عاد الى غزنة ارسل الى علاء الدين يقول له ليسلم القلعة اليه والا قتل من عنده من الاسرى فلم يسلمها فقتل منهم اربعمائة اسير بازاء القلعة فلما رأى علاء الدين ذلك ارسل مؤيد الملك يطلب الامان فامنه الدز فلما خرج قبض عليه ووكل به

عن قتام الغمرة جمهوره * حتى اذا اكتحل الليل بقاره * مر فى ذمة استاره * مرور مروان على حماره * فلما علم السلطان ذلك من قصده * ورأى استعداده واحتشاده لصده * امر بالاطواف فهيئت للعبور واهاب بعدة من غلمانه للركوب فامتثل الامر ثمانية منهم يبتدرون العدوة القصوى * ويلتزمون كلمة التقوى * فلما رأى بروجيبال استقلال الماء بهم رماهم بخمسة من فيلته الجذفة * وفوج من رجاله المصففة * فأراد الله سبحانه وتعالى ان يحقق قول نبيه الامى الامين * ورسوله المؤيد بالتمكين * حيث قال صلى الله عليه وسلم زويت لى الارض فاريت مشارقها ومغاربها * وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها * فالهم تلك العدة ان استوقفوها على أماكنها غرزا لاطراف هاتيك الاخفاف بالنبال * وغرزا لها بعد فى وجنات

وباخيه من يحفظهما وقبض على وزيره لسوء سيرته وكان هندوخان بن ملكشاه بن خوارزمشاه تكش مع علاء الدين بقلعة غزنة فلما خرج منها قبض عليه أيضا وكتب الى غياث الدين بالفتح وارسل اليه الاعلام وبعض الاسرى

(ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب اربل اذربيجان)

في هذه السنة اتفق صاحب مراغة وهو علاء الدين هو ومظفر الدين كوكبرى صاحب اربل على قصد اذربيجان وأخذها من صاحبها أبي بكر بن البهلوان لاشتغاله بالشرب ليلا ونهارا وتركه النظر في احوال المملكة وحفظ العساكر والرعايا فسار صاحب اربل الى مراغة واجتمع هو وصاحبها علاء الدين وتقدما نحو تبريز فلما علم صاحبها أبو بكر أرسل الى ايتغمش صاحب بلاد الجبل همذان واصفهان والرى وما بينهما من البلاد وهو مملوك أبيه البهلوان وهو في طاعة أبي بكر الا انه قد غلب على البلاد فلا يلتفت الى أبي بكر فأرسل اليه أبو بكر يستنصره ويعرفه الحال وكان حينئذ ببلد الاسماعيلية فلما أتاه الخبر سار اليه في العساكر الكثيرة فلما حضر عنده أرسل الى صاحب اربل يقول له انا كنا نسمع عنك انك تحب اهل العلم والخير وتحسن اليهم فكنا نعتقد فيك الخير والدين فلما كان الآن ظهر لنا منك ضد ذلك لقصدك بلاد الاسلام وقتال المسلمين ونهب أموالهم واثارة الفتنة فاذا كنت كذلك فالك عقل يجيء الينا وأنت صاحب قرية ونحن لنا من باب خراسان الى خلاط والى اربل واحسب انك هزمت هذا أما تعلم ان له مماليك أنا أحدهم ولو أخذ من كل قرية شحنة ومن كل مدينة عشرة رجال لاجتمع له اضعاف عسكرك فالمصلحة انك ترجع الى بلدك وانما أقول لك هذا ابقاء عليك ثم سار نحوه عقيب هذه الرسالة فلما سمعها مظفر الدين وبلغه مسير ايتغمش عزم على العود فاجتهد به صاحب مراغة ليقيم بمكانه ويسلم عسكره اليه وقال له انني قد كاتبني جميع امرائه ليكونوا معي اذا قصدتهم فلم يقبل مظفر الدين من قوله وعاد الى بلده وسلك الطريق الشاقة والمضايق الصعبة والعقاب الشاهقة خوفا من الطلب ثم ان ابا بكر وايتغمش قصدا مراغة وحصراها فصالحهما صاحبها على تسليم قلعة من حصونه الى أبي بكر هي كانت سبب الاختلاف واقطعه أبو بكر مدينتي استوا وارمية وعادا عنه

(ذكر ايقاع ايتغمش بالاسماعيلية)

وفي هذه السنة سار ايتغمش الى بلاد الاسماعيلية المجاورة لقزوين فقتل منهم مقتلة كبيرة ونهب وسبى وحصر قلاعهم ففتح منها خمس قلاع وصمم العزم على حصر الموت واستئصال أهلها فاتفق ما ذكرنا من حركة صاحب مراغة وصاحب اربل واستدعاه الامير ابو بكر ففارق بلادهم وسار الى ابى بكر كما ذكرناه

(ذكر وصول عسكر خوارزم الى بلاد الجبل وما كان منهم)

وفي هذه السنة سار من عسكر خوارزم طائفة كبيرة نحو عشرة آلاف فارس باهليهم واولادهم فوصلوا الى زنكان وكان ايتغمش صاحبها مشغولا مع صاحب اربل وصاحب مراغة واغتنموا خلو البلاد فلما عاد مظفر الدين الى بلده وانفصل الحال بين ايتغمش وصاحب مراغة سار ايتغمش نحو الخوارزمية فلقيهم وقاتلهم فاشتد القتال بين الطائفتين ثم انهزم

اولئك الضلال * معجزة لم يسمع بمثلها قبلها ثمانية تجزع سيلا * وتدفع فيلة وخيلا * وبدر من لفظ السلطان * عند عيان ذلك البرهان * ان قال من قدر على السباحة * فليتعب اليوم للراحة * فاذا هو بخاصته * ومعظم عامته * خائضين * واصعب الماء رائضين * فتارة يسبحون بالاطواف * واخرى يستريحون الى الاعراف * حتى لفظهم النهر سالمين * لم تنشب لهم جنيبة * ولم تعطب لهم حريبة * ولم تذهب بحمد الله سيبة * وحل السلطان بهم وقد نزلوا الى الظهور حلة توزعتهم بين عقير سكران * من عقار الحدود * وأسير حيران * من اسر القدود * وطريد يخاف وقع القواضب * وقتيل بمرأى النجوم الثواقب * فصار ما حصل في الوقعة من عدد الفيلة مائتين وسبعين فيلا ثقال الاجسام * كثقال الغمام * وطار الكافر هزيما * لا يملك عزيما * ولا يقدر تأخيرا

الخوارزميون واخذهم السيف فقتل منهم واسر خلق كثير ولم ينج منهم الا الشريد وسبي
نساؤهم وغنمت اموالهم وكانوا قد افسدوا في البلاد بالنهب والقتل فلقوا عاقبة فعلهم

(ذكر الغارة من ابن ليون على اعمال حلب)

وفي هذه السنة توالت الغارة من ابن ليون الارمني صاحب الدروب على ولاية حلب فنهب وحرق وأسر وسبي فجمع الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب عساكره واستنجد غيره من الملوك فجمع كثيرا من الفارس والراجل وسار عن حلب نحو ابن ليون وكان ابن ليون قد نزل في طرف بلاده مما يلي بلد حلب فليس اليه طريق لان جميع بلاده لا طريق اليها الا من جبال وعرة ومضايق صعبة فلا يقدر غيره على الدخول اليها لاسيما من ناحية حلب فان الطريق منها متعذر جدا فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب وجعل على مقدمته جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك أبيه يعرف بميمون القصري ينسب الى قصر الخلفاء العلويين بمصر لان أباه منهم أخذه فأنفذ الظاهر ميرة وسلاحا الى حصن له مجاور لبلاد ابن ليون اسمه دربساك وأنفذ الى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده الى طريق هذه الذخيرة ليسيروا معها الى دربساك ففعل ذلك وسير جماعة كثيرة من عسكره وبقي في قلة فبلغ الخبر الى ابن ليون فجد فوافاه وهو مخف من العسكر فقاتله واشتد القتال بينهم فأرسل ميمون الى الظاهر يعرفه وكان بعيدا عنه فطالت الحرب بينهم وحمى ميمون نفسه واثقاله على قلة من المسلمين وكثرة من الارمن فانهزم المسلمون ونال العدو منهم فقتل وأسر وكذلك أيضا فعل المسلمون بالارمن من كثرة القتل وظفر الارمن باثقال المسلمين فغنموها وساروا بها فصادفهم المسلمون الذين كانوا قد ساروا مع الذخائر الى دربساك فلم يشعروا بالحال فلم يرعهم الا العدو وقد خالطهم ووضع السيف فيهم فاقتتلوا أشد قتال ثم انهزم المسلمون أيضا وعاد الارمن الى بلادهم بما غنموا واعتصموا بجبالهم وحصونهم

(ذكر نهب الكرج ارمينية)

في هذه السنة قصدت الكرج في جموعها ولاية خلاط من ارمينية ونهبوا وقتلوا واسروا وسبوا أهلها كثيرا وجاسوا خلال الديار آمنين ولم يخرج اليهم من خلاط من يمنعهم فبقوا متصرفين في النهب والسبي والبلاد شاغرة لا مانع لها لان صاحبها صبي والمدبر لدولته ليست له تلك الطاعة على الجند فلما اشتد البلاء على الناس تذامروا وحرض بعضهم بعضا واجتمعت العساكر الاسلامية التي بتلك الولاية جميعها وانضاف اليهم من المتطوعة كثير فساروا جميعهم نحو الكرج وهم خائفون فرأى بعض الصوفية الاخيار الشيخ محمدا البستي وهو من الصالحين وكان قد مات فقال له الصوفي أراك ههنا فقال جئت لمساعدة المسلمين على عدوهم فاستيقظ فرحا بجعل البستي من الاسلام وأتى الى مدبر العسكر والقيم بأمره وقص عليه رؤياه ففرح بذلك وقوي عزمه على قصد الكرج وسار بالعساكر اليهم فنزل منزلا فوصلت الاخبار الى الكرج فعزموا على كبس المسلمين فانتقلوا من موضعهم بالوادي الى اعلاه فنزلوا فيه ليكبسوا المسلمين اذا أظلم الليل فأتى المسلمين الخبر فقصدوا الكرج وأمسكوا عليهم رأس الوادي واسفله وهو واد ليس اليه غير هذين الطريقين فلما رأى الكرج ذلك ايقنوا بالهلاك

ولا نقد يما * وقد كان السلطان قبل ان لقي الكافر * ولبس جيوشه الدروع والمغافر * اخذ فالا من كتاب الله تعالى يهديه * عاقبة ماينويه * فخرج له قوله تعالى عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون * فلما حقق الله وعده * ونصر بفضله جنده * ضمن على نفسه ان يفي بواجب حمده لا يرفه الانام * ويغزوا ويزيد الاسلام * وشكرا يقيد الانعام * لاجرم ان الله حافظه وحاميه * ومصيب به اغراض آماله وامانيه * والذي يدخره له من ثواب المعاد اربح مقادير * وارجح مكاييل ومعايير

*(ذكر ابي بكر محمد بن اسحق ابن محمشاد والقاضي شيخ الاسلام ابي العلاء صاعد ابن محمد وما انتهى اليه امرهما بنيسابور)

قد كان ابو بكر مرموقا بعين النباهة في صدر هذه الدولة لمكانة ابيه من الزهادة * وضمه الاطراف على

وسقط ما في أيديهم وطمع المسلمون فيهم وضايقوهم وقاتلوهم فقتلوا منهم كثيرا واسروا امثالهم
ولم يفلت من الكرج الا القليل وكفى الله المسلمين شرهم بعد ان كانوا أشرفوا على الهلاك

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الامير طاشتكين مجير الدين أمير الحاج بتستر وكان قد ولاه
الخليفة على جميع خوزستان وكان أميرا على الحاج سنين كثيرة وكان خيرا صالحا حسن السيرة
كثير العبادة يتشيع ولما مات ولى الخليفة على خوزستان مملوكه سنجر وهو صهر طاشتكين
زوج ابنته وفيها اقتتل سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش أمير عبادة بالعراق وكان سبب قتله
انه سعى بأبيه مقلد الى الخليفة الناصر لدين الله فأمر بالتوكيل على أبيه فبقي مدة ثم أطلقه
الخليفة ثم ان سنجرا قتل أخاله اسمه ٣ فأوغر بهذه الاسباب صدور أهله واخوته فلما
كان هذه السنة في شعبان نزل بأرض المعشوق وركب في بعض الايام ومعه اخوته وغيرهم من
أصحابه فلما انفرد عن أصحابه ضربه أخوه علي بن مقلد بالسيف فسقط الى الارض فنزل اخوته
اليه فقتلوه وفيها تجهز غياث الدين خسرو شاه صاحب مدينة الروم الى مدينة طرابزون
وحصر صاحبها لانه كان قد خرج عن طاعته فضيق عليه فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم
والروس وقفجاق وغيرها برا وبحرا ولم يخرج منهم أحد الى بلاد غياث الدين فدخل بذلك ضرر
عظيم على الناس لانهم كانوا يتجرون معهم ويدخلون بلادهم ويقصدهم التجار من الشام
والعراق والموصل والجزيرة وغيرها فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير فحيث لم يفتح
الطريق تأذوا أذى كثيرا فكان السعيد منهم من عاد الى رأس ماله وفيها تزوج أبو بكر بن
البهلوان صاحب اذربيجان واران بابنة ملك الكرج وسبب ذلك ان الكرج تابعت
الغارات منهم على بلاده لما رأوا من عجزه وانهماكه في الشرب واللعب وما جانسهما واعراضه
عن تدبير الملك وحفظ البلاد فلما رأى هو أيضا ذلك ولم يكن عنده من الحمية والانفة من
هذه المناحس ما يترك ما هو مصر عليه وانه لا يقدر على الذب عن البلاد عدل الى الذب عنها
بأيره فخطب ابنة ملكهم فتزوجها فكف الكرج عن النهب والاغارة والقتل فكان كما قيل
أغمد سيفه وسل أيره وفيها حمل الى ازبك خروف وجهه صورة آدمي وبدنه بدن خروف وكان
هذا من العجائب وفيها توفي القاضي أبو محمد بن محمد المانداى الواسطي بها وفيها في شوال توفي
فخر الدين مبارك شاه بن الحسن المروروذي وكان حسن الشعر بالفارسية والعربية وله
منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير صاحب غزنة وهراة وغيرهما وكان له دار ضيافة فيها كتب
وشطرنج فالعلماء يطالعون الكتب والجهال يلعبون بالشطرنج وفيها في ذي الحجة توفي أبو
الحسن علي بن سعادة الفارقي الفقيه الشافعي ببغداد وبقي مدة طويلة معيدا بالنظامية
وصار مدرسا بالمدرسة التي احدثتها أم الخليفة الناصر لدين الله وكان مع علمه صالحا طلب
للنيابة في القضاء ببغداد فامتنع فألزم بذلك فوليه يسيرا ثم في بعض الايام مشى الى جامع ابن
المطلب فنزل ولبس مئزر صوف غليظ وغير ثيابه وأمر الوكلاء وغيرهم بالانصراف وأقام به
حتى سكن الطلب عنه وعاد الى داره بغير ولاية وفيها وقع الشيخ ابو موسى المكي المقيم
بمقصورة جامع السلطان ببغداد من سطح الجامع فمات وكان رجلا صالحا كثير العبادة وفيها

٣ هكذا بياض بالاصل

العبادة واقتفاده نهج ابيه * فيما كان ينتحله وينتحيه * وكان الامير ناصر الدين ابو منصور سبكتكين يرى من عصابته في التزهد والتعفف * والترهب والتقشف * ما قل وجود مثله في كثير من فقهاء الدين * واعيان المتعبدين * فحلى ذلك بقلبه * كما حلى بعينه والمجاهد في الله محبوب * وقد يكرم أهل الشفاعات من له ذنوب * واستمر السلطان بعده على وتيرته في ملاحظتهم بعين الاحترام * وايثار طوائف الكرامية بالاكرام * حتى قال ابو الفتح البستي فيما شاهد من نفاق أسواقهم

الفقه فقه ابي حنيفة وحده
والدين دين محمد بن كرام
ان الذين أراهم لم يؤمنوا
بمحمد بن كرام غير كرام

وانضاف الى هذه الوسيلة القريبة * والذريعة الالهية * انه لما تورد جيوش الخانية خراسان * عند غزوة السلطان ناحية الملتان * قبضوا بنيسابور على أبي بكر احتياطا لانفسهم من شيعته * واحتراسا من غامض

أيضا توفي العفيف أبو المكارم عرفة بن علي بن بصلا البندنيجي ببغداد وكان رجلا صالحا منقطعا الى العبادة رحمه الله

(ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة)

(ذكر ملك عباس باميان وعودها الى ابن أخيه)

في هذه السنة ملك عباس باميان من علاء الدين وجلال الدين ولدي أخيه بهاء الدين وسبب ذلك ان عسكر باميان لما انهزموا من الدز وعادوا اليها أخبروا ان علاء الدين وجلال الدين أسروا وان الدز ومن معه غنموا ما في أيديهم فأخذ وزير أبيهما المعروف بالصاحب من الاموال كثيرا ومن الجواهر وغيرها من التحف واخذ فيلا وسار الى خوارزم شاه يستنجده على الدز ليسير معه عسكرا يستخلص به صاحبيه فلما فارق باميان ورأى عمهما عباس خلو البلد منه ومن ابني أخيه جمع أصحابه وقام في البلد فملكه وصعد الى القلعة فملكها وأخرج أصحاب ابني أخيه علاء الدين وجلال الدين منها فبلغ الخبر الى الوزير السائر الى خوارزم شاه فعاد الى باميان وجمع الجموع الكثيرة وحصر عباسا في القلعة وكان مطاعا في جميع ممالك بهاء الدين وولديه من بعده وأقام محاصرا الا انه لم يكن معه من المال ما يقوم بما يحتاج اليه انما كان معه ما أخذه ليحمله الى خوارزم شاه فلما خلص جلال الدين من أسر الدز على ما نذكره وسار الى باميان فوصل الى أرصف وهي مدينة بباميان وجاء اليه وزير أبيه الصاحب واجتمع به وسار الى القلاع وراسلوا عباسا المتغلب عليها ولاطفوه فسلم الجميع الى جلال الدين وقال انما حفظتها خوفا ان يأخذها خوارزم شاه فاستحسن فعله وعاد الى ملكه

(ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان)

لما سلم خوارزم شاه ترمذ الى الخطا سار عنها الى ميمنة واندخوى وكتب الى سونج أمير اشكار نائب غياث الدين محمود بالطالقان يستميله فعاد الرسول خائبا لم يجبه سونج الى ما اراد منه وجمع عسكره وخرج يحارب خوارزم شاه فالتقوا بالقرب من الطالقان فلما تقابل العسكران حمل سونج وحده مجدا حتى قارب عسكر خوارزم شاه فالقى نفسه الى الارض ورمى سلاحه عنه وقبل الارض وسأل العفو فظن خوارزم شاه انه سكران فلما علم انه صاح ذمه وسبه وقال من يثق الى هذا واشباهه ولم يلتفت اليه واخذ ما بالطالقان من مال وسلاح ودواب وأنفذه الى غياث الدين مع رسول وحمله رسالة تتضمن التقرب اليه والملاطفة له واستناب بالطالقان بعض أصحابه وسار الى قلاع كالوين وبيوار فخرج اليه حسام الدين علي ابن أبي علي صاحب كالوين وقاتله على رؤس الجبال فأرسل اليه خوارزم شاه يتهدده ان لم يسلم اليه فقال انا أنا مملوك وهذه الحصون فهي أمانة بيدي ولا أسلمها الا الى صاحبها فاستحسن خوارزم شاه منه هذا واثنى عليه وذم سونج ولما بلغ غياث الدين خبر سونج وتسليم الطالقان الى خوارزم شاه عظم عنده وشق عليه فسلاه أصحابه وهونوا الامر ولما فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار الى هراة فنزل بظاهرها ولم يمكن ابن خرميل احدا من الخوارزميين ان يتطرق بالاذى الى أهلها وانما كان يجتمع منهم الجماعة بعد الجماعة فيقطعون الطريق وهذه عادة الخوارزميين ووصل رسول غياث الدين الى خوارزم شاه

بالهدايا

مكيدته * ونقلوا في جملتهم حين طلعت رايات السلطان من مغاربها * وأومضت سيوف الحق عن مضاربها * الى ان وجد منهم فرصة الافلات * والسلامة على مس تلك الآفات * فاعتد السلطان ذلك في سائر موانه * وأوجب له حقا يحفظه بعين مراعاته * ونبغت من أرباب البدع الباطنية على ما تناسمت به البلاغات * والله اعلم بما تجنه الضمائر والنيات * فتم وافقت تصلبا من السلطان في استئصالهم * وتعصبا لدين الله تعالى في احتناك أمثالهم * فحشروا من اطراف البلاد * وصلبوا عبرة للعباد * وكان أبو بكر هذا احد أعوان السلطان على رأيه حشرا اليه * وتصويبا للرأي عليه * فصار البرئ كالسقيم مذعورا * وعاد الملأ في عارض الخطب شورى * ورأى الناس ان ريقته السم القاتل * ومدته السيف القاصل * فخضعوا له بالطاعة * وفرشوا له الخدود الضراعة * وانعقدت له الرياسة في لبسة الصوف * ولحظته الخاصة والعامة

بالهدايا ورأى الناس عجبا وذلك ان الخوارزميين لايذكرون غياث الدين الكبير والد هذا غياث الدين ولايذكرون أيضا شهاب الدين أخاه وهما حميان الابالغورى وصاحب غزنة وكان وزير خوارزم شاه الآن مع عظم شأنه وقلة هذا غياث الدين لايذكره الا بمولانا السلطان مع ضعفه وعجزه وقلة بلاده وأما ابن خرميل فانه سار من هراة فى جمع من عسكر خوارزم شاه فنزل على اسفرار فى صفر وكان صاحبها قد توجه الى غياث الدين فحصرها وأرسل الى من بها يقسم بالله لئن سلموها أن يؤمنهم وان امتنعوا أقام عليهم الى أن يأخذهم فاذا أخذهم قهرا لايبقى على كثير ولاصغير فخافوا فسلموها فى ربيع الاول فأمنهم ولم يتعرض الى أهلها بسوء فلما أخذها ارسل الى حرب بن محمد صاحب سجستان يدعوه الى طاعة خوارزم شاه والخطبة له ببلاده فأجابه الى ذلك وكان غياث الدين قد راسله قبل ذلك فى الخطبة والدخول فى طاعته فغالطه ولم يجبه الى ماطلب ولما كان خوارزم شاه على هراة عاد اليها القاضى صاعد بن الفضل الذى كان ابن خرميل قد أخرجه من هراة فى العام الماضى وسار الى غياث الدين فعاد الآن من عنده فلما وصل قال ابن خرميل لخوارزم شاه ان هذا يميل الى الغورية ويريد دولتهم ووقع فيه فسجنه خوارزم شاه بقلعة زوزن وولى القضاء بهراة الصفى أبابكر بن محمد السرخسى وكان ينوب عن صاعد وابنه فى القضاء بهراة

* (ذكر حال غياث الدين مع الدز وايبك) *

لما عاد الدز الى غزنة واسر علاء الدين وأخاه جلال الدين كما ذكرناه وكتب اليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له فأجابه فى هذه المدة أشد منه فيما تقدم فأعاد غياث الدين اليه يقول اما ان تخطب انا واما ان تعرفنا ما فى نفسك فلما وصل الرسول بهذا احضر خطيب غزنة وأمره يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين فخطب لتاج الدين الدز بغزنة فلما سمع الناس ذلك ساءهم وتغيرت نياتهم ونيات الاتراك الذين معه ولم يروه اهلا ان يخدموه وانما كان يطيعونه ظنا منهم انه ينصر دولة غياث الدين فلما خطب لنفسه أرسل الى غياث الدين يقول له بماذا تشتط على وتتحكم هذه الخزانة نحن جمعناها باسيافنا وهذا الملك قد أخذناه وانت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة واقطعتهم الاقطاعات ووعدتنى بأمور لم تف بها فان أنت اعتقتنى خطبت لك وحضرت خدمتك فلما وصل الرسول أجابه غياث الدين الى عتق الدز بعد الامتناع الشديد والعزم على مصالحة خوارزم شاه على مايريد وقصد غزنة ومحاربته بها فلما أجابه الى العتق أشهد عليه به وأشهد عليه أيضا بعتق قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند وأرسل الى كل واحد منهما ألف قباء وألف قلنسوة ومناطق الذهب وسيوفا كثيرة وجترين ومائة رأس من الخيل وأرسل الى كل واحد منهما رسولا فقبل الدز الخلع ورد الجتر وقال نحن عبيد ومماليك والجتر له أصحاب وسار رسول أيبك اليه وكان بفرشابور وقد ضبط المملكة وحفظ البلاد ومنع المفسدين من الفساد والاذى والناس معه فى أمن فلما قرب الرسول منه لقيه على بعد وترجل وقبل حافر الفرس ولبس الخلعة وقال اما الجتر فلا يصلح للمماليك واما العتق فمقبول وسوف أجازيه بعبودية الابد وأما خوارزم شاه فانه أرسل الى غياث الدين يطلب منه ان يتصاهرا ويطلب منه ابن خرميل صاحب هراة الى طاعته ويسير معه

بعين المرجو والمخوف * ووجدت خاصته سوقا للاطماع * بعلة الابتداع * فاستزنوا الناس * واستقصوا الاكياس * فمن الطمنهم بكاس * رمى بفساد معتقده * أو يعطى الجزية عن يده * وغبرت على هذه الجملة سنون لامطمع لاحد فى تبديل شكلها * وتحويل فادح الحال عن اهلها * ولاعلم لهم بأن الزمان بتغيير الاحوال ضمين * وبالخلاف عن صورة المعتاد رهين * ومن صبر على الايام رأى الرفيع وضيعا * والضليع ضريعا * وشاهد عن سموم القيظ صرا كالحا وصقيعا * واتفق للقاضى ابى العلاء صاعد بن محمد ان حج بيت الله الحرام سنة اثنتين واربعمائة وهو الامام المرموق * والزاهد الموموف * والفاضل الجزل * والبازل الفحل * قضى اكثر عمره على الحظ النفيس * من غرر الدرس والتدريس * تتطفل عليه الاعمال فيأباها * وتصب اليه الاعراض فيرى انحدارها فيعداها * ومن حاز شرف العلم لم يشتر به ثمنا قليلا * ولم يعدل به حظا وان كان جليلا * فلما حصل بدار السلام وانهى الى

في العساكر الى غزنة فاذا ملكها من الدز اقتسموا المال اثلاثا ثلثا لخوارزم شاه وثلثا لغياث الدين وثلثا للعسكر فأجابه الى ذلك ولم يبق الا الصلح فوصل الخبر الى خوارزم شاه بموت صاحب مازندران فسار عن هراة الى مرو وسمع الدز بالصلح فجزع لذلك جزعا عظيما ظهر أثره عليه وأرسل الى غياث الدين يقول له ما حملك على هذا فقال حملني عليه عصيانك وخلافك على فسار الدز الى تكياباذ فأخذها والى بست وتلك الاعمال فملكها وقطع خطبة غياث الدين منها وأرسل الى صاحب سجستان يأمره باعادة الترحم على شهاب الدين وقطع خطبة خوارزم شاه وأرسل الى ابن خرميل صاحب هراة بمثل ذلك وتهددهما بقصد بلادهما فخافه الناس ثم ان الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسره وسير معه خمسة آلاف فارس مع أيدكز التتر مملوك شهاب الدين الى باميان ليعيدوه الى ملكه ويزيلون ابن عمه عنه وزوجه ابنته وسار ومعه أيدكز فلما خلا به لامه على لبسه خلعة الدز وقال أنتم ما رضيتم تلبسون خلعة غياث الدين وهو أكبر سنا منكم وأشرف بيتا تلبس خلعة هذا المأبون يعني الدز ودعاه الى العود معه الى غزنة واعلمه ان الاتراك كلهم مجمعون على خلاف الدز فلم يجبه الى ذلك فقال ايدكز فانني لا أسير معك وعاد الى كابل وهي اقطاعه فلما وصل ايدكز الى كابل لقيه رسول من قطب الدين ايبك الى الدز يقبح له فعله ويأمره باقامة خطبة غياث الدين ويخبره انه قد خطب له في بلاده ويقول له ان لم يخطب له هو أيضا بغزنة ويعود الى طاعته والا قصده وحاربه فلما علم ايدكز ذلك قويت نفسه على محاربة الدز وصمم العزم على قصد غزنة ووصل ايضا رسول ايبك الى غياث الدين بالهدايا والتحف ويشير باجابة خوارزم شاه الى ما طلب الآن وعند الفراغ من أمر غزنة تسهل أمور خوارزم شاه وغيره وأنفذ له ذهبا عليه اسمه فكتب ايدكز الى ايبك يعرفه عصيان الدز على غياث الدين وما فعله في البلاد وانه على عزم مشاققة الدز وهو ينتظر أمره فأعاد ايبك جوابه يأمره بقصد غزنة فان حصلت له القلعة أقام بها الى أن يأتيه وان لم تحصل له القلعة وقصده الدز انحاز اليه او الى غياث الدين او يعود الى كابل فسار الى غزنة وكان جلال الدين قد كتب الى الدز يخبره خبر ايدكز وما عزم عليه فكتب الدز الى نوابه بقلعة غزنة يأمرهم بالاحتياط منه فوصلها أيدكز أول رجب من السنة وقد حذره فلم يسلموا اليه القلعة ومنعوه عنها فأمر أصحابه بنهب البلد فنهبوا عدة مواضع منه فتوسط القاضي الحال بأن سلم اليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية وأخذ له من التجار شيأ آخر وخطب ايدكز بغزنة لغياث الدين وقطع خطبة الدز ففرح الناس بذلك وكان مؤيد الملك ينوب عن الدز بالقلعة ووصل الخبر الى الدز بوصول ايدكز الى غزنة ووصول رسول ايبك اليه فقت في عضده وخطب لغياث الدين في تكياباذ واسقط اسمه من الخطبة فخطب له ورحل الى غزنة فلما قاربها رحل ايدكز عنها الى بلد الغور فاقام في تمران وكتب الى غياث الدين يخبره بحاله وأنفذ اليه المال الذي أخذه من الخزانة ومن اموال الناس فارسل اليه خلعا واعتقه وخاطبه بملك الامراء ورد عليه المال الذي كان اخذه من الخزانة وقال له اما مال الخزانة فقد أعدناه اليك لتخرجه وأما أموال التجار وأهل البلد فقد ارسلته مع رسولي ليعاد الى أربابه لئلا نفتتح دولتنا بالظلم وقد عوضتك عنه ضعفه وأرسل أموال الناس الى غزنة الى قاضي غزنة وأمره ان

القادر بالله امير المؤمنين خبره في حج بيت الله الحرام * قوبل بمقتضى حقه في الاسلام * من واجب الاثرة والاكرام * وظاهر التوقير والاعظام * وعضد بالكتاب الى السلطان فيما تقرر من حاله * وفي مهمات أوجب الاحتياط شرحها على لسان مقاله * فلما عاد من وجهه * شخص الى حضرة السلطان بغزنة فعرض ما صحبه وقرر ما تحمله * وادى من حق الامانة ما لزمه * وبها الاستاذ ابو بكر محمد بن اسحق يجري في مجلسه ذكر الكرامية واطلاقهم القول بالتجسيم * وتعريض الله تعالى لما لا يليق بذاته الكريم * فأنف السلطان لهذه الشنعاء من مقالهم * والعوراء من نحوي جدالهم * ودعا السلطان أبا بكر سائلا عنه * وباحثا صورة الحال منه * فأنكر أبو بكر اعتقاد ما نسب اليه * وأظهر البراءة مما احيل به عليه * فسلم مع الانكار * عن مس العتب والانكار * فأما الباقون فان الكتب من السلطان نفذت الى العمال في تقديم الاستقصاء عليهم فمن اظهر البراءة عن قوله الشنيع * واعتقاده الموجب للتبديع * ترك وشأنه من

برد المال المنفذ على اربابه فانهى القاضي الحال الى الدز وأشار عليه بالخطبة لغياث الدين
وقال أنا اسعى في الوصلة بينكما والصلح فامره بذلك فبلغ الخبر الى غياث الدين فارسل الى
القاضي ينهاه عن المجىء اليه وقال لا تسأل في عبد أبق قد بان فساده واتضح عناده فاقام
بغزنة هو والدز وسير غياث الدين عسكرا الى اى دكز التتر فاقاموا معه وسير الدز عسكرا الى
روين كان وهي لغياث الدين وقد أقطعها لبعض الامراء فهجموا على صاحبها فنهبوا ماله
وأخذوا أولاده فنجا وحده الى غياث الدين فاقتضى الحال ان سار غياث الدين الى بست وتلك
الولاية فاستردها وأحسن الى أهلها واطلق لهم خراج سنة لما نالهم من الدز من الاذى

(ذكر وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده)

في هذه السنة توفي حسام الدين اردشير صاحب مازندران وخلف ثلاثة اولاد فملك بعده ابنه
الاكبر واخرج أخاه الاوسط من البلاد فقصد جرجان وبها الملك علي شاه بن خوارزم شاه
تكش أخو خوارزم شاه محمد وهو ينوب عن أخيه فيها فشكا اليه ما صنع به اخوه من
اخراجه من البلاد وطلب منه أن ينجده عليه ويأخذ له البلاد ليكون في طاعته فكتب علي
شاه الى أخيه خوارزم شاه في ذلك فامره بالمسير معه الى مازندران وأخذ البلاد له واقامة
الخطبة لخوارزم شاه فيها فسارا عن جرجان فاتفق ان حسام الدين صاحب مازندران مات في
ذلك الوقت وملك البلاد بعده أخوه الاصغر واستولى على القلاع والاموال فوصل علي شاه
البلاد ومعه صاحب مازندران فنهبوها وخربوها وامتنع منهم الاخ الاصغر بالقلاع وأقام
بقلعة كورا وهي التي فيها الاموال والذخائر وحصره فيها بعد أن ملكوا اسامة البلاد مثل
سارية وآمل وغيرهما من البلاد والحصون وخطب لخوارزم شاه فيها جميعها فصارت في طاعته
وعاد علي شاه الى جرجان واقام ابن ملك مازندران في البلاد مالكها جميعها سوى القلعة التي
فيها أخوه الاصغر وهو يراسله ويستميله ويستعطفه وأخوه لا يرد جوابا ولا ينزل عن حصنه

(ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة انطاكية)

في هذه السنة ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وبلد الروم مدينة انطاكية
بالامان وهي للروم على ساحل البحر وسبب ذلك انه كان حصرها قبل هذا التاريخ وأطال
المقام عليها وهدم عدة ابراج من سورها ولم يبق الا فتحها عنوة فارسل من بها من الروم الى
الفرنج الذين بجزيرة قبرس وهي قريبة منها فاستنجدوهم فوصل اليها جماعة منهم فعند ذلك
يئس غياث الدين منها ورحل عنها وترك طائفة من عسكره بالقرب منها بالجبال التي بينها وبين
بلاده وأمرهم بقطع الميرة عنها فاستمر الحال على ذلك مدة حتى ضاق باهل البلد واشتد الامر
عليهم فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم فظن الفرنج ان الروم يريدون
اخراجهم من المدينة بهذا السبب فوقع الخلف بينهم فاقتتلوا فارسل الروم الى المسلمين
وطلبوهم ليسلموا اليهم البلد فوصلوا اليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج فانهزم الفرنج
ودخلوا الحصن فاعتصموا به فارسل المسلمون يطلبون غياث الدين وهو بمدينة قونية فسار
اليهم مجدا في طائفة من عسكره فوصلها ثاني شعبان وتقرر الحال بينه وبين الروم وتسلم المدينة
ثالثه وحصر الحصن الذي فيه الفرنج وتسلمه وقتل كل من كان به من الفرنج

عقد المجالس للتدريس
ونشرف المنابر للتذكير
ومن أصر على دعواه *
ولم يختر لنفسه سواه * جعل
مفناه عليه حصيرا * ورد
لسانه دون الفضول قصيرا *
وخلع السلطان على القاضي
أبي العلاء * خلعة لاقت
بجلالة قدره * وزخارة
بحره * ورعاية أمير المؤمنين
لحقه وايعازه بتمهيد
أمره * وصرف كلا منهما
على جملة الاستئناس *
والتفخيم على أعين الناس *
ولم تزل غصة القول بالتجسيم
ناشبة في صدر أبي بكر
يصارع الأيام على نهزة
المكافأة بها الى أن استتب
له الامر في عقد محضر على
اتصاله مذهب الاعتزال
وتنجز خطوط قوم من
الاعيان سلكوا فيه طريق
المساعدة * وتنفسوا به عن
وغرة المنافسة * فخبط مالا
يطاق داء دخيل * وهم
على مر النفوس نزيل *
واحتيل في عرض المحضر
على السلطان استفسادا
لصورته لديه * فوقع التدبير
موقعه من الاحفاظ عليه
فرأى السلطان أن يبعث

﴿ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط وملك بلبان ومسير صاحب ماردين الى خلاط وعوده﴾

وفي هذه السنة قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر وملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سكمان وكتب اهل خلاط الى ناصر الدين ارتق بن ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق يستدعونه اليها وسبب ذلك ان ولد بكتمر كان صبيا جاهلا فقبض على الامير شجاع الدين قتلغ مملوك من مماليك شاه أرمن وهو كان أتابكه ومدبر بلاده وكان حسن السيرة مع الجند والرعية فلما قتله اختلفت الكلمة عليه من الجند والعامة واشتغل هو باللهو واللعب وادمان الشرب فكاتب جماعة من اهل خلاط وجماعة من الجند ناصر الدين صاحب ماردين يستدعونه اليهم وانما كاتبوه دون غيره من الملوك لان اباه قطب الدين ايلغازي كان ابن أخت شاه ارمن ابن سكمان وكان شاه ارمن قد حلف له الناس في حياته لانه لم يكن له ولد فلما تجددت بعده هذه الحادثة تذاكروا تلك الايمان وقالوا نستدعيه ونملكه فانه من أهل شاه أرمن فكاتبوه وطلبوه اليهم ثم ان بعض مماليك شاه ارمن اسمه بلبان وكان قد جاهر ولد بكتمر بالعداوة والعصيان سار من خلاط الى بلاد ملازكرد وملكها واجتمع الاجناد عليه وكثر جمعه وسار الى خلاط فملكها واتفق وصول صاحب ماردين اليها وهو يظن ان أحدا لا يمتنع عليه ويسلمون اليه المدينة فنزل قريبا من خلاط عدة ايام فارسل اليه بلبان يقول له ان اهل خلاط قد اتهموني بالميل اليك وهم ينفرون من العرب والرأى انك ترحل عنا مرحلة واحدة وتقيم فاذا تسلمت البلد سلمته اليك لانني لا يمكنني ان أملكه انا ففعل صاحب ماردين ذلك فلما أبعد عن خلاط ارسل اليه يقول له تعود الى بلدك والا جئت اليك واوقعت بك وبمن معك وكان في قلة من الجيش فعاد الى ماردين وكان الملك الاشرف موسى بن العادل ابي بكر بن أيوب صاحب حران وديار الجزيرة قد ارسل الى صاحب ماردين لما سمع انه يريد قصد خلاط يقول له ان سرت الى خلاط قصدت بلدك وانما خاف أن يملك خلاط فيقوى عليهم فلما سار الى خلاط جمع الاشرف العساكر وسار الى ولاية ماردين فاخذ دخلها وأقام بدنيسر حتى تجبى الاموال اليه فلما فرغ منه عاد الى حران فكان مثل صاحب ماردين كما قيل خرجت تطلب قرنين عادت بلا أذنين وأما بلبان فانه جمع العسكر وحشد وحصر خلاط وضيق على اهلها وبها ولد بكتمر فجمع من عنده بالبلد من الاجناد والعامة وخرج اليه فالتقوا فانهزم بلبان ومن معه من بين يديه وعاد الى الذي بيده من البلاد وهو ملازكرد وأرجيش وغيرهما من الحصون وجمع العساكر واستكثر منها وعاود حصار خلاط وضيق على أهلها فاضطرهم الى خذلان ولد بكتمر لصغره وجهله بالملك واشتغاله بلهوه ولعبه ثم قبضوا عليه في القلعة وأرسلوا الى بلبان وحلفوه على ما أرادوا وسلموا اليه البلد وابن بكتمر واستولى على جميع أعمال خلاط وسجن ابن بكتمر في قلعة هناك واستقر ملكه فسبحان من اذا أراد امرا هيأ اسبابه بالامس يقصدها شمس الدين محمد بن البهلوان وصلاح الدين يوسف بن أيوب فلم يقدر احدهما عليها والآن يظهر هذا المملوك العاجز القاصر عن الرجال والبلاد والاموال فيملكها صفوا عفوا ثم ان نجم الدين أيوب بن العادل صاحب ميافارقين سار نحو ولاية خلاط وكان قد استولى على عدة حصون من أعمالها منها حصن موسى وصديقه فلما قارب خلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابلته فطمع

من صورة المرفوع اليه في احقاق من صور * أو ابطال من زور * وأنهض قاضي قضاته * وأوحد ثقاته * أبامحمد الناصحي من لم يشركه أحد في اصطناعه * والجذب الى العلياء بباعه * فانه استخصه على طراءة شبابه خلتين قلما توجدان في قرح الاسنان * فضلا عن أحداث الفتيان والشبان * وهما العلم والورع اخوان دونهما الدر بالياقوت * والصحة بكفاف القوت * وأقعده بغزنة دار الملك للتدريس والفتوى * واصباح الناس من ساطع نوره في التقوى * حتى اذا بهر كماله * وطفح بالفضائل مكياله * ولاه القضاء على القضاة في عامة ديار ممالكه ثقة بقوته وامانته * وورعه ونزاهته * فتولاه بنفس كصفحة الشمس طهارة ونقاء * أو روضة الحزن ديمتها السماء عشاء * وأمره ان يستحضر القاضي أبا العلاء صاعدا وأبا بكر الاستاذ في وجوه الرئوت وأعيان الشهود ويطالب باقامة الشهادة على الدعوى

وأوغل في الدروب فاخذ عليه بلبان الطريق وقاتله فهزمه ولم يفلت من أصحابه الا القليل وهم جرحى وعاد الى ميافارقين

(ذكر ملك الكرج مدينة قرس وموت ملكة الكرج)

في هذه السنة ملك الكرج حصن قرس من أعمال خلاط وكانوا قد حصروه مدة طويلة وضيقوا على من فيه وأخذوا دخل الولاية عدة سنين وكل من نزل خلاط لا ينجدهم ولا يسعى في راحة تصل اليهم وكان الوالي بها يواصل رسله في طلب النجدة وازاحة من عليه من الكرج فلا يجاب له دعاء فلما طال الامر عليه ورأى ان لا ناصر له صالح الكرج على تسليم القلعة على مال كثير واقطاع يأخذه منهم وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد فانا لله وانا اليه راجعون ونسأل الله أن يسهل للاسلام وأهله نصرا من عنده فان ملوك زماننا قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم وظلمهم عن سد الثغور وحفظ البلاد ثم ان الله تعالى نظر الى قلة ناصر الاسلام فتولاه فأمات ملكة الكرج واختلفوا فيما بينهم وكفى الله شرهم الى آخر السنة

(ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان)

في هذه السنة في رمضان سار عسكر الخليفة من خوزستان مع مملوكه سنجر وهو كان المتولي لتلك الاعمال وليها بعد موت طاشتكين أمير الحاج لانه زوج ابنة طاشتكين الى جبال كرستان وصاحبها يعرف بابي طاهر وهي جبال منيعة بين فارس وأصبهان وخوزستان فقاتلوا أهلها وعادوا منهزمين وسبب ذلك ان مملوكا للخليفة الناصر لدين الله اسمه قشتمر من اكابر المماليك كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه من الوزير نصير الدين العلوي الرازي واجتاز بخوزستان وأخذ منها ما أمكنه ولحق بابي طاهر صاحب كرستان فاكرمه وعظمه وزوجه ابنته ثم توفي أبو طاهر فقوي أمر قشتمر واطاعه اهل تلك الولاية فامر سنجر بجمع العساكر وقصده وقتاله ففعل سنجر ما أمر به وجمع العساكر وسار اليه فارسل قشتمر يعتذر ويسأل أن لا يقصده ويخرج الى الخروج عن العبودية فلم يقبل عذره فجمع أهل تلك الاعمال ونزل الى العسكر فلقيهم فهزمهم وأرسل الى صاحب فارس بن دكلا وشمس الدين ايتغمش صاحب أصبهان وهمذان والري يعرفهما الحال ويقول انني لا قوة لي بعسكر الخليفة لما أضيف اليهم عساكر أخرى من بغداد وعادوا الى حربي وحينئذ لا أقدر بهم وطلب منهما النجدة وخوفهما من عسكر الخليفة ان ملك تلك الجبال فاجاباه الى ما طلب فقوي جنانه واستقر على حاله

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة قتل صبي صبيا آخر ببغداد وكانا يتعاشران وعمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة فقال أحدهما للآخر الساعة أضربك بهذه السكين عازحه بذلك وأهوى نحوه بها فدخلت في جوفه فمات فهرب القاتل ثم اخذ وأمر به ليقتل فلما أرادوا قتله طلب دواة وبياضا وكتب فيهما من قوله

قدمت على الكريم بغير زاد * من الاعمال بل قلب سليم
وسوء الظن ان تعتد زادا * اذا كان القدوم على كريم

وفيها حج برهان الدين صدر جهان محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن مازة البخاري رئيس الحنفية

المذكورة على رؤس الملا من غير محاشاة * أو جنوح الى مداهنة ومحاباة * وقابل الامر بالامتثال * وتجافى من حرمة العلم لحشمة الملك وهيبة الجلال * وسأل ارباب الخطوط عما عندهم من قضية الحال * وجلية المقال * فأما أبو بكر فانه اراد أن يتلافى باقي الخطاب بزعم أن الاشتراك في رتبة العلم أحدث بينهما منافسة تنازعا معها مذهبي التجسيم والاعتزال فلا يصح ما نسبني اليه * ولا تقر بما ادعينه عليه * وأما الآخرون فمن جار على حكم المساعدة في المحاباة والمهاودة * ومن حادر لثام الاحتشام في التصريح * واطلاق الدعوى باللفظ الفصيح * مكاشفة عدت الشهادة الى التعصب * وجاوزت حد المعلوم الى التغضب * وبني لذلك وجوه اهل الرأي حتى كادت تثور فتنة لولا أن هيبة السلطان أجرت الالسن الطوال * وضربت على النفوس التطامن والانخزال * وتلطف قاضي القضاة

بخارا وهو كان صاحبها على الحقيقة يؤدى الخراج الى الخطا وينوب عنهم فى البلد فلما حج لم
تحمد سيرته فى الطريق ولم يصنع معروفا وكان قد اكرم ببغداد عند قدومه من بخارا فلما عاد لم
يلتفت اليه لسوء سيرته مع الحاج وسماه الحجاج صدر جهنم وفيها فى شوال مات شيخنا أبو الحرم
مكى بن ريان بن شبة النحوى المقرى بالموصل وكان عارفا بالنحو واللغة والقرا آت لم يكن فى
زمانه مثله وكان ضريرا وكان يعرف سوى هذه العلوم من الفقه والحساب وغير ذلك معرفة
حسنة وكان من خيار عباد الله وصالحيهم كثير التواضع لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة
الى الليل وفيها فارق أمير الحاج مظفر الدين سنقر مملوك الخليفة المعروف بوجه السبع الحاج
بموضع يقال له المرخوم ومضى فى طائفة من أصحابه الى الشام وسار الحاج ومعهم الجند
فوصلوا سالمين ووصل هو الى الملك العادل أبى بكر بن أيوب فأقطعه اقطاعا كثيرا بمصر وأقام
عنده الى أن عاد الى بغداد سنة ثمان وستمائة فى جمادى الاولى فانه لما قبض الوزير أمن على
نفسه وأرسل يطلب العود فأجيب اليه فلما وصل اكرمه الخليفة وأقطعه الكوفة وفيها فى
جمادى الآخرة توفى أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الاسكندرانى المعروف بابن النطرونى
فى مارستان بغداد وكان قد مضى الى الماورقى فى رسالة بافريقية فحصل له منه عشرة
آلاف دينار مغربية ففرقها جميعها فى بلده على معارفه وأصدقائه وكان فاضلا خيرا نعم الرجل
رحمه الله وله شعر حسن وكان قيما بعلم الادب وأقام بالموصل مدة واشتغل على الشيخ ابى الحرم
واجتمعت به كثيرا عند الشيخ ابى الحرم رحمه الله

﴿ثم دخلت سنة اربع وستمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزم شاه ما وراء النهر وما كان بخراسان من الفتن واصلاحها﴾

فى هذه السنة عبر علاء الدين محمد بن خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا وسبب ذلك ان الخطا
كانوا قد طالت ايامهم ببلاد تركستان وما وراء النهر وثقلت وطأتهم على اهلها ولهم فى كل
مدينة نائب يجبى اليهم الاموال وهم يسكنون الخركاهات على عادتهم قبل أن يملكوا وكان
مقامهم بنواحى اوزكند وبلاساغون وكاشغر وتلك النواحى فاتفق ان سلطان سمرقند
وبخارا ويلقب خان خانان يعنى سلطان السلاطين وهو من أولاد الخانية عريق النسب فى
الاسلام والملك أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين فارسل الى خوارزم شاه يقول له ان
الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين
وبلادهم من أيدى الكفار وتخلصهم مما يجرى عليهم من التحكم فى الاموال والابشار ونحن
نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل اليك ما نحمله اليهم ونذكر اسمك فى الخطبة وعلى السكة
فاجابه الى ذلك وقال أخاف انكم لا توفون لى فسير اليه صاحب سمرقند وجوه أهل بخارا
وسمرقند بعد أن حلفوا اصاحبهم على الوفاء بما تضمنه وضمنوا عنه الصدق والثبات على ما بذل
وجعلوا عنده رهائن فشرع فى اصلاح أمر خراسان وتقرير قواعدها فولى أخاه على شاه
طبرستان مضافة الى جرجان وأمره بالحفظ والاحتياط وولى الامير كزلك خان وهو من اقارب
أمه واعيان دولته نيسابور وجعل معه عسكرا وولى الامير جلدك مدينة الجام وولى الامير
أمين الدين ابا بكر مدينة زوزن وكان هذا أمين الدين حمالا ثم صار اكبر الامراء وهو الذى ملك

لعرض الحال * وتقرير
صورة الحال * واتفق أن
تعين الامير أبو المظفر نصر
ابن ناصر الدين فى مجلس
السلطان فرصة القول
فى باب القاضى أبى العلاء
صاعد فنبه على سمته وسيماه
وأنبا عن ورعه وتقواه *
والتمس على سبيل التلطف
أن يقع تلاف للغضاضة به
وتدارك للمهانة الطارئة عليه
بعزل من تصدى لمكاشفته *
وتعرض لاستفسار مكانته *
فوثق به السلطان فيما قال *
وحدث ان صاعدا اجل
من أن يعتقد الاعتزال *
وأمر باشخاص من انتدب
لمراغمته * ومقابلته بما
اقتضاه حكم وقاحته *
واستخلص القاضى قرارة
بيته * فلم يكن يبرز الا فرض
يقضيه * أو علم عليه * مجتزئا
بالله تعالى جده عن غيره *
ومقتنعا بما ادره عليه من
خيره * ورأى ان بقية
العمر أعز من ان تضاع على
القيل والقال * وخدمة
فضول الآمال * ومزاولة
ما يصم قدر العلم بالابتذال *
واستتب وادين له كالفرقدين

كرمان على ما نذكره ان شاء الله تعالى وأقر الامير الحسين على هراة وجعل معه فيها ألف فارس
من الخوارزمية وصالح غياث الدين محمودا على ما بيده من بلاد الغور وكرمسير واستناب في
مرو وسرخس وغيرهما من خراسان نوابا وأمرهم بحسن السياسة والحفظ والاحتياط وجمع
عساكره جميعها وسار الى خوارزم وتجهز منها وعبر جيحون واجتمع بسلطان سمرقند وسمع الخطا
فحشدوا وجمعوا وجاؤا اليه فجرى بينهم وقعات كثيرة ومغاورات فتارة له وتارة عليه

(ذكر قتل ابن خرميل وحصر هراة وأسر خوارزمشاه وخلاصه)

ثم ان ابن خرميل صاحب هراة رأى سوء معاملة عسكر خوارزمشاه للرعية وتعديهم الى
الاموال فقبض عليهم وحبسهم وبعث رسولا الى خوارزمشاه يعتذر ويعرفه ما صنعوا فعظم
عليه ولم يمكنه محاققته لاشتغاله بقتال الخطا فكتب اليه يستحسن فعله ويأمره بانفاذ الجند
الذين قبض عليهم لحاجته اليهم وقال له انني قد أمرت عز الدين جلدك بن طغرل صاحب الجام
أن يكون عندك لما أعلمه من عقله وحسن سيرته وارسل الى جلدك يأمره بالمسير الى هراة
وأسر اليه أن يحتال في القبض على حسين بن خرميل ولو أول ساعة يلقاه فسار جلدك في ألفي
فارس وكان أبوه طغرل ايام السلطان سنجر واليا بهراة فهو اليها بالاشواق يختارها على جميع
خراسان فلما قارب هراة أمر ابن خرميل الناس بالخروج بتلقيه وكان للحسين وزير يعرف
بخواجه الصاحب وكان كبيرا قد حنكته التجارب فقال لابن خرميل لا تخرج الى لقائه
ودعه يدخل اليك منفردا فانني أخاف ان يغدر بك وان يكون خوارزمشاه أمر بذلك فقال
لا يجوز أن يقدم مثل هذا الامير ولا القيه وأخاف ان يضطغن ذلك على خوارزمشاه وما
اظنه يتجاسر على فخرج اليه الحسين بن خرميل فلما بصر كل واحد منهما بصاحبه ترجل للالتقاء
وكان جلدك قد أمر اصحابه بالقبض عليه فاختلطوا بهما وحالوا بين ابن خرميل وأصحابه
وقبضوا عليه فانهزم اصحابه ودخلوا المدينة واخبروا الوزير بالحال فامر باغلاق الباب
والطلوع الى الاسوار واستعد للحصار ونزل جلدك على البلد وأرسل الى الوزير يبذل له
الامان ويتهدده ان لم يسلم البلد بقتل ابن خرميل فنادى الوزير بشعار غياث الدين محمود
الغوري وقال لجلدك لا أسلم البلد اليك ولا الى الغادر ابن خرميل وانما هو لغياث الدين
ولابيه قبله فقدموا ابن خرميل الى السور فخاطب الوزير وأمره بالتسليم فلم يفعل فقتل ابن
خرميل وهذه عاقبة الغدر فقد تقدم من أخباره عند شهاب الدين الغوري ما يدل على غدره
وكفرانه الاحسان ممن أحسن اليه فلما قتل ابن خرميل كتب جلدك الى خوارزمشاه بجلية
الحال فانفذ خوارزمشاه الى كزلك خان والي نيسابور والى أمين الدين ابي بكر صاحب زوزن
يأمرهما بالمسير الى هراة وحصارها وأخذها فسارا في عشرة آلاف فارس فنزلوا على هراة
وراسلوا الوزير بالتسليم فلم يلتفت اليهم وقال ليس لكم من المحل ما يسلم اليكم مثل هراة لكن
اذا وصل السلطان خوارزمشاه سلمتها اليه فقاتلوه وجدوا في قتاله فلم يقدروا عليه وكان ابن
خرميل قد حصن هراة وعمل لها أربعة اسوار محكمة وحفر خندقها وشحنها بالميرة فلما فرغ من
كل ما أراد قال بقيت اخاف على هذه المدينة شيأ واحدا وهو ان تسكر المياه التي لها اياما كثيرة
ثم ترسل دفعة واحدة فتخرق اسوارها فلما حصرها هؤلاء سمعوا قول ابن خرميل فسكروا

أو الشعريين * أبا الحسن
وابا سعيد شريكي عنان في
المروءة والفتوة * ورضيعي
لبان في أوامر النبوة *
وأحكام آيات الله المتلوة * في
قضاء المواجب * واحتمال
النوائب * فعفا الله عن
حقوق الناس * وفرغ لعلم
النظر والقياس * وحظي
بمثل ما أنبأ عنه ابو الفتح
البستي من حاله

قد جمع الله أربعا لي
فيهن عزي وحسن حالي
بلاغ علم مساغ شرب
رفاغ عيش فراغ بال

نعم واطلق تمادي الايام على
نباهة أبي بكر وارتفاع
مكانته * واتساع حشمته
ومهابته * وانبساط أيدي
حاشيته * في اموال واعراض
اهل ناحيته * واستقرار
العناد بينه وبين أعيان
الاشراف في جيرته * ألسن
الجمهور بحضرة السلطان
بما طغى من حاله * وبغى من
جرح خياله * اذ لا لا بأ فاعله *
واعتمادا بزعمه على ما سبق
العلم به من خلوص ضميره
ورشاد سبيله * فتداركه
الاحتمال * مدة من الزمان

المياه حتى اجتمعت كثيرا ثم أطلقوها على هراة فاحاطت بها ولم تصل الى السور لان ارض
المدينة مرتفعة فامتلأ الخندق ماء وصار حولها وحل فانتقل العسكر عنهم ولم يمكنهم القتال
لبعدهم عن المدينة وهذا كان قصد ابن خرميل أن يمتلئ الخندق ماء ويمنع الوحل من القرب
من المدينة فاقاموا مدة حتى نشف الماء فكان قول ابن خرميل من أحسن الحيل ونعود الى
قتال خوارزمشاه الخطا وأسره واما خوارزمشاه فانه دام القتال بينه وبين الخطا في بعض
الايام اقتتلوا واشتد القتال ودام بينهم ثم انهزم المسلمون هزيمة قبيحة وأسر كثير منهم وقتل كثير
وكان من جملة الاسرى خوارزمشاه وأسر معه امير كبير يقال له فلان بن شهاب الدين مسعود
أسرهما رجل واحد ووصلت العساكر الاسلامية الى خوارزم ولم يروا السلطان معهم فارسلت
اخت كزلك خان صاحب نيسابور وهو يحاصر هراة وأعلمته الحال فلما اتاه الخبر سار عن هراة
مجدا الى نيسابور واحتمى به الامير أمين الدين أبو بكر صاحب زوزن فاراد هو ومن عنده من
الامراء منعه مخافة أن يجري بينهم حرب يطمع بسببها اهل هراة فيهم فيخرجون اليهم فيبلغون
منهم ما يريدونه فامسكوا عن معارضته وكان خوارزمشاه قد خرب سور نيسابور لما ملكها
من الغورية فشرع كزلك خان يعمره وادخل اليها الميرة واستكثر من الجند وعزم على
الاستيلاء على خراسان ان صح فقد السلطان وبلغ خبر عدم السلطان الى أخيه على شاه وهو
بطبرستان فدعا الى نفسه وقطع خطبة اخيه واستعد لطلب السلطنة واختلطت خراسان
اختلاطا عظيما وأما السلطان خوارزمشاه فانه لما أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود يجب
ان تدع السلطنة في هذه الايام وتصير خادما لعلي احتال في خلاصك فشرع يخدم ابن مسعود
ويقدم له الطعام ويخلع ثيابه وخفه ويعظمه فقال الرجل الذي اسرهما لابن مسعود أرى
هذا الرجل يعظمك فمن أنت فقال أنا فلان وهذا غلامي فقام اليه واكرمه وقال لولا ان القوم
عرفوا بمكانك عندي لاطلقتك ثم تركه اياما فقال له ابن مسعود اني أخاف ان يرجع المنهزمون
فلا يراني أهلي معهم فيظنون اني قتلت فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم
يقتسمون مالي فاهلك واحب أن تقرر علي شيئا من المال حتى احمله اليك فقرر عليه مالا وقال له
اريد أن تأمر رجلا عاقلا يذهب بكتابي الى اهلي ويخبرهم بعافيتي ويحضر معه من يحمل المال ثم
قال ان اصحابكم لا يعرفون اهلنا ولكن هذا غلامي اثق به ويصدقه اهلي فاذن له الخطائي
بانفاذه فسيره وأرسل معه الخطائي فرسا وعدة من الفرسان يحمونه فساروا حتى قاربوا
خوارزم وعاد الفرسان عن خوارزمشاه ووصل خوارزمشاه الى خوارزم فاستبشر به
الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الاخبار بما صنع كزلك بنيسابور وبما صنع
أخوه على شاه بطبرستان

(ذكر ما فعله خوارزمشاه بخراسان)

لما وصل خوارزمشاه الى خوارزم اتته الاخبار بما فعله كزلك خان وأخوه على شاه وغيرهم
فسار الى خراسان وتبعته العساكر فتقطعت ووصل هو اليها في اليوم السادس ومعه ستة
فرسان وبلغ كزلك خان وصوله فاخذ أمواله وعساكره وهرب نحو العراق وبلغ اخاه على شاه
فخافه وسار على طريق قهستان ملتجئا الى غياث الدين محمود الغوري صاحب فيروزكوه

مدينة محافظة على الصنيعة
من الانتزاع * والعارفة
من الارتجاع * وابقاء على
المحل المرموق في الله من
ان يلم به انحطاط * أو يحل
له رباط * حتى اذا جاوز
الاحتمال حده * وامتنع
المستزاد بعده * عقد
السلطان ولاية نيسابور
لابي على الحسن بن محمد بن
العباس وقد كان جده في
ملوك آل سامان مجدودا *
وفي جملة الاعيان والثناء
معدودا * وأثره فيما بين آثار
الرجال محمودا * ووافق
أبوه ايام السلطان * أول
مقدمه خراسان * وانتصابه
منصب اصحاب الجيوش
بها لآل سامان * فانجبل
خلقاهما على مناسبة
الاشتراك ومبعة الشباب *
وعرف السلطان له حق
الخدمة والاصطحاب * غير
انه اعتبط في شبابه فعاد
كما بدا
كل امرئ يوما مداه الى الردى
وكان يضرب أبا نصر احمد
ابن ميكال بقرابة * واواصر
مستجابة * فنشأ في جملته
نشأة المقبل * وخرج خروج

فتلقاه واكرمه وانزله عنده وأما خوارزمشاه فانه دخل نيسابور وأصلح امرها وجعل فيها نائبا
وسار الى هراة فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونه واحسن الى أولئك الامراء ووثق بهم
لانهم صبروا على تلك الحال ولم يتغيروا ولم يبلغوا من هراة غرضا لحسن تدبير ذلك الوزير فارسل
خوارزمشاه الى الوزير يقول له انك وعدت عسكرى انك تسلم المدينة اذا حضرت وقد حضرت
فسلم فقال لا أفعل لانى اعرف انكم غدارون لا تبقون على احد ولا أسلم البلد الا الى غياث الدين
محمود فغضب خوارزمشاه من ذلك وزحف اليه بعساكره فلم يكن فيه حيلة فاتفق جماعة من
اهل هراة وقالوا هلك الناس من الجوع والقلة وقد تعطلت علينا معايشنا وقد مضى سنة وشهر
وكان الوزير يعد بتسليم البلد الى خوارزمشاه اذا وصل اليه وقد حضر خوارزمشاه ولم يسلم
ويجب ان نحتال فى تسليم البلد والخلاص من هذه الشدة التى نحن فيها فانتهى ذلك الى الوزير
فبعث اليهم جماعة من عسكره وامرهم بالقبض عليهم فمضى الجند اليهم فثارت فتنة فى البلد عظم
خطبها فاحتاج الوزير الى تداركها بنفسه فمضى لذلك فكتب من البلد الى خوارزمشاه بالخبر
وزحف الى البلد واهله مختلطون فخربوا برجين من السور ودخلوا البلد فملكوه وقبضوا على
الوزير فقتله خوارزمشاه وملك البلد وذلك سنة خمس وستمائة واصلح حاله وسلمه الى خاله امير
ملك وهو من اعيان امرائه فلم تزل بيده حتى هلك خوارزمشاه واما ابن شهاب الدين مسعود
فانه اقام عند الخطا مدة فقال له الذى استأسره يوما ان خوارزمشاه قد عدم فايش عندك من
خبره فقال له اما تعرفه قال لا قال هو اسيرك الذى كان عندك فقال لم لا عرفتنى حتى كنت اخدمه
واسير بين يديه الى مملكته قال خفتكم عليه فقال الخطائى سر بنا اليه فسارا اليه فأكرمهما
واحسن اليهما وبالغ فى ذلك

(ذكر قتل غياث الدين محمود)

لما سلم خوارزمشاه هراة الى خاله أمير ملك وسار الى خوارزم أمره أن يقصد غياث الدين محمود
ابن غياث الدين محمد بن سام الغورى صاحب الغور وفيروزكوه وأن يقبض عليه وعلى أخيه
على شاه بن خوارزمشاه ويأخذ فيروزكوه من غياث الدين فسار أمير ملك الى فيروزكوه
وبلغ ذلك الى محمود فارسل يبذل الطاعة ويطلب الامان فأعطاه ذلك فنزل اليه محمود فقبض
عليه أمير ملك وعلى على شاه أخى خوارزمشاه فسألاه أن يحملهما الى خوارزمشاه ليرى فيهما
رأيه فأرسل الى خوارزمشاه يعرفه الخبر فأمره بقتلهما فقتلا فى يوم واحد واستقامت خراسان
كلها لخوارزمشاه وذلك سنة خمس وستمائة أيضا وهذا غياث الدين هو آخر ملوك الغورية ولقد
كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة واعدلها وأكثرها جهادا وكان محمود هذا عادلا حليما
كريما من أكرم الملوك اخلاقا رحمه الله تعالى

(ذكر عود خوارزمشاه الى الخطا)

لما استقر أمر خراسان لمحمد خوارزمشاه وعبر نهر جيحون جمع له الخطا جمعا عظيما وساروا
اليه والمقدم عليهم شيخ دولتهم القائم مقام الملك فيهم المعروف بطاينكو وكان عمره قد جاوز مائة
سنة ولقى حروبا كثيرة وكان مظفرا حسن التدبير والعقل واجتمع خوارزمشاه وصاحب
سمرقند وتصافوا هم والخطا سنة ست وستمائة فجرت حروب لم يكن مثلها شدة وصبروا فانهزم

القدح قدح ابن مقبل *
واحدث له شكر النعمة
حشمه * وصفوا الخدمة
أدبار همه * فلما مضى أبو
نصر لسبيله * أنهى الى
السلطان حاله فى كيسه
وذلاقته * وظرفه ولباقته *
فاستحضره ليخبره * فوافق
أولى النظرة قبولا * وطرفا
بمرود الاعجاب منه مكحولا *
وازداد على طول الخبرة
وفاقا * وعلى سوق الخدمة
نفاقا * فنما نمو الاشياء
اصلحها التدبير * ولقحها
التابير * والماء النمير * حتى
سمت به المراتب * وتوجهت
اليه الرغائب * وقابلت
حشمته حشمة ارباب
الجنود * وسادات الاقلام
والحدود * وكان غرض
السلطان فى عقد الرياسة له
أن يقمع به من انعقدت له
بدالة التأله والتعبد *
وسابقة الترهب والتزهد *
فقدر ان الذى حظى به
معقود بالدين فلا سبيل الى
حله * ولا لحاق أبدا لمستهله *
ويرجع به الى ما يوجبه
حكم التقية * من رفض
المراتب العلية والمطامع

الخطا هزيمة منكرة وقتل منهم وأسر خلق لا يحصى وكان فيمن اسر طاينكوه مقدمهم وجيء به الى خوارزمشاه فاكرمه واجلسه على سريره وسيره الى خوارزم ثم قصده خوارزمشاه الى بلاد ما وراء النهر فملكها مدينة مدينة وناحية ناحية حتى بلغ أوزكند وجعل نوابه فيها وعاد الى خوارزم ومعه سلطان سمرقند وكان من أحسن الناس صورة فكان أهل خوارزم يجتمعون حتى ينظروا اليه فزوجه خوارزمشاه بابنته ورده الى سمرقند وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان رسم الخطا

(ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين)

لما عاد صاحب سمرقند اليها ومعه شحنة لخوارزمشاه واقام معه نحو سنة فرأى سوء سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ندم على مفارقة الخطا فأرسل الى ملك الخطا يدعوه الى سمرقند ليسلمها اليه ويعود الى طاعته وأمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزمية ممن سكنها قديما وحديثا وأخذ أصحاب خوارزمشاه فكان يجعل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم في الاسواق كما يعلق القصاب اللحم وأساء غاية الاساءة ومضى الى القلعة ليقتل زوجته ابنة خوارزمشاه فأغلقت الابواب ووقفت بجواريها فمنعته وارسلت اليه تقول انا امرأة وقتل مثلي قبيح ولم يكن مني اليك ما أستوجب به هذا منك ولعل تركي أحمد عاقبة فاتق الله في فتركها ووكل بها من يمنعها التصرف في نفسها ووصل الخبر الى خوارزمشاه فقامت قيامته وغضب غضبا شديدا وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء فمنعته أمه عن ذلك وقالت ان هذا البلد قد أتاه الناس من اقطار الارض ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه فانتهى وأمر عساكره بالتجهيز الى ما وراء النهر وسيرهم ارسالا كلما تجهز جماعة عبروا جيحون فعبر منهم خلق كثير لا يحصى ثم عبر هو بنفسه في آخرهم ونزل على سمرقند وانفذ الى صاحبها يقول له قد فعلت ما لم يفعله مسلم واستحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر وقد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد وامض حيث شئت فقال لا أخرج وافعل ما بدا لك فامر عساكره بالزحف فأشار عليه بعض من معه بان يأمر بعض الامراء اذا فتحوا البلد ان يقصدوا الدرب الذي يسكنه التجار فيمنع من نهبه والتطرق اليهم بسوء فانهم غرباء وكلهم كارهون لهذا الفعل فأمر بعض الامراء بذلك وزحف ونصب السلاليم على السور فلم يكن باسرع من أن أخذوا البلد واذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من اهل سمرقند فنهب البلد وقتل أهله ثلاثة أيام فيقال انهم قتلوا منهم مائتي ألف انسان وسلم ذلك الدرب الذي فيه الغرباء فلم يعدم منهم الفرد ولا الآدمي الواحد ثم أمر بالكف عن النهب والقتل ثم زحف الى القلعة فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبة وخوفا فارسل يطلب الامان فقال لا أمان لك عندي فزحفوا عليها فملكوها وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزمشاه فقبل الارض وطلب العفو فلم يعف عنه وأمر بقتله فقتل صبرا وقتل معه جماعة من اقاربه ولم يترك أحدا ممن ينسب الى الخانية ورتب فيها وفي سائر البلاد نوابه ولم يبق لاحد معه في البلاد حكم

(ذكر الوقعة التي أفنت الخطا)

لما فعل خوارزمشاه بالخطا ما ذكرناه مضى من سلم منهم الى ملكهم فانه لم يحضر الحرب فاجتمعوا

الدنيويه * فلما وردها ساس اهلها سياسة لو عاش اليها زياد لعاد الى سياسته * بعين استزادته * خفت عليه حتى صرير الجنادب * وسكن حتى دبيب العقارب وهدأ حتى شغب المراتب * وسكت حتى دوي المذاهب فكأنما اقبل به شفيف الشتاء

فلكل ساءة أو هامة في الوجار انجحار * وبالمغار استتار * وقد بث عبد الله خوف انتقامه على الليل حتى ما تدب عقاربه ها ان هيبة السلطان هي التي خطمت اللهاميم * وحطمت الاقاليم * فلو وكل بعض همه برواسي الجبال لاصبحت منسوفة * أو ببطون البحار لعادت منزوفه * فاخطر خطة يتيه بها عن الرشد تائه * ويعمى عندها من قصد الصواب نبيه أو نابه * ومن احسن في جنب مثاله * فمن عون القدر وحكم الفلك الدوار على البشر * أبى الله ان يحمد على دجى المريد شهاب * أو يمدح على سقي الحمول ذهاب

عنده وكان طائفة عظيمة من التتر قد خرجوا من بلادهم حدود الصين قديما ونزلوا وراء بلاد
تركستان وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب فلما سمعوا بما فعله خوارزمشاه بالخطا قصدوهم
مع ملكهم كشلي خان فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل الى خوارزمشاه يقول له اما ما كان منك
من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفو عنه وقد اتى من هذا العدو من لا قبل لنا به وانهم ان انتصروا
علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة ان تسير الينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم ونحن
نحلف لك اننا اذا ظفرنا بهم لا نتعرض الى ما أخذت من البلاد ونقنع بما في ايدينا وأرسل اليه
كشلي خان ملك التتر يقول ان هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا فساعدنا
عليهم ونحلف أننا اذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ونقنع بالمواضع التي ينزلونها فأجاب كلا
منهما اني معك ومعاضدك على خصمك وسار بعساكره الى ان نزل قريبا من الموضع الذي
تصافوا فيه فلم يخالطهم مخالطة يعلم بها انه من أحدهما فكانت كل طائفة منهم تظن انه معها
وتواقع الخطا والتتر فانهزم الخطا هزيمة عظيمة فمال حينئذ خوارزمشاه وجعل يقتل ويأسر
وينهب ولم يترك أحدا ينجو منهم فلم يسلم منهم الا طائفة يسيرة مع ملكهم في موضع من نواحي
الترك يحيط به جبال ليس اليه طريق الا من جهة واحدة تحصنوا فيه وانضم الى خوارزمشاه
منهم طائفة وسار وافي عسكره وأنفذ خوارزمشاه الى كشلي خان ملك التتر يمتن عليه بأنه
حضر لمساعدته ولولاه ما تمكن من الخطا فاعترف له كشلي خان بذلك مدة ثم أرسل اليه يطلب
منه المقاسمة على بلاد الخطا وقال كما اننا اتفقنا على ابادتهم ينبغي أن نقتسم بلادهم فقال ليس
لك عندي غير السيف ولستم بأقوى من الخطا شوكة ولا أعز ملكا فان قنعت بالمساكنة والا
سرت اليك وفعلت بك شرا مما فعلت بهم وتجهز وسار حتى نزل قريبا منهم وعلم خوارزمشاه
انه لا طاقة له به فكان يراوغه فاذا سار الى موضع قصد خوارزمشاه أهله وأثقالهم فينهبها واذا
سمع ان طائفة سارت عن موطنهم سار اليها فأوقع بها فأرسل اليه كشلي خان يقول له ليس هذا
فعل الملوك هذا فعل اللصوص والا ان كنت سلطانا كما تقول فيجب أن نلتقي فاما ان تهزمني
وتملك البلاد التي بيدي واما أن أفعل أنا بك ذلك فكان يغالطه ولا يجيبه الى ما طلب لكنه أمر
أهل الشاش وفرغانة واسفيجاب وكاسان وما حولها من المدن التي لم يكن في الدنيا أنزه منها ولا
أحسن عمارة بالجلاء منها واللحاق ببلاد الاسلام ثم خربها جميعها خوفا من التتر أن يملكوها ثم
اتفق خروج هؤلاء التتر الآخر الذين خربوا الدنيا وملكهم جنكزخان النهرجي على كشلي خان
التتري الاول فاشتغل بهم كشلي خان عن خوارزمشاه فخلا وجهه فعبر النهر الى خراسان

* (ذكر ملك نجم الدين ابن الملك العادل خلاط)

في هذه السنة ملك الملك الاوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مدينة خلاط
وسبب ذلك انه كان بمدينة ميافارقين من جهة أبيه فلما كان من ملك بلبان خلاط ما ذكرناه
قصد هو مدينة موش وحصرها وأخذها وأخذ غيرها مما يجاورها وكان بلبان لم تثبت قدمه حتى
يمنعه فلما ملك هذا طمع في خلاط فسار اليها فانهزمه بلبان كما ذكرناه أيضا فعاد الى بلده وجمع
وحشد وسير اليه أبوه جيشا فقصد خلاط فسار اليه بلبان فتصافا واقتتلا فانهزم بلبان وتمكن
نجم الدين من البلاد وازداد منها ودخل بلبان خلاط واعتصم بها وأرسل رسولا الى مغيث الدين

وتطرق الرشيد أبو علي
حواشي المقصود ينتزع
منهم بعض ما أخذوه رشى *
واحتسوه ثروة وكشي * ثم
نقلهم الى بعض القلاع عبرة
لمن أكل بالله * وأظهر الزهد
في الدنيا ثم يتوكل على الله *
وهم بصاحبهم فأخذ حذره *
وأرخى من دونه ستره * ولم
يقصد السلطان قصد استئصاله
* ولا نقضه عن فضول ماله *
فترك من وراء الحجاب على
قدم الزهادة * وغصص الفطام
عن العادة * وعطف من بعد
الى جماعة الاشراف العلوية *
ذوي الاقدار العلية *
فأشعرهم أن حشمهم
بالطاعة موصولة * وحرمتهم
بلزوم القصد وترك تعدي
الحد مكفولة * فتلقوه
بالاجلال * وقابلوا أمره
بالامتثال * علما بأنه ظل الله
في أرضه فما يغني عنه غير
الانقياد * والميل على الغلو
للاقتصاد * واستخلف أبو
علي على الرياسة عند
الشخوص الى الحضرة أبا
نصر منصور بن رامش وهو
يضرب بقرابة أبي السلطان
الاقطعها عليه صبابة له

طغرل شاه بن قلج أرسلان وهو صاحب أرزن الروم يستنجده على نجم الدين لحضر بنفسه ومعه
عسكره فاجتمعا وهزما نجم الدين وحصرا موش فأشرف الحصار على أن تملك فقدر ابن قلج
أرسلان بصاحب خلاط وقتله طمعا في البلاد فلما قتله سار الى خلاط فمنعه أهلها عنها فسار الى
ملازكرد فرده أهلها أيضا وامتنعوا عليه فلما لم يجد في شئ من البلاد مطمعا عاد الى بلاده فأرسل
أهل خلاط الى نجم الدين يستدعونه اليهم ليملكوه لحضر عندهم وملك خلاط وأعمالها سوى
اليسير منها وكره الملوك المجاورون له ملكه لها خوفا من أبيه وكذلك أيضا خافه الكرج وكرهوه
فتابعوا الغارات على أعمال خلاط وبلادها ونجم الدين مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها فلقي
المسلمون من ذلك أذى شديدا واعتزل جماعة من عسكر خلاط واستولوا على حصن وان وهو
من أعظم الحصون وأمنعها وعصوا على نجم الدين واجتمع اليهم جمع كثير وملكوا مدينة
ارجيش فأرسل نجم الدين الى أبيه الملك العادل يعرفه الحال ويطلب منه نجدة وانجاده بعسكر
فسير اليه أخاه الملك الأشرف موسى بن العادل في عسكر فاجتمعا في عسكر كثير وحصرا قلعة
وان وبها الخلاطية وجدوا في قتالهم فضعف أولئك عن مقاومتهم فسلموها صلحا وخرجوا منها
وتسلمها نجم الدين واستقر ملكه بخلاط وأعمالها وعاد أخوه الأشرف الى بلده حران والرها

(ذكر غارات الفرنج بالشام)

وفي هذه السنة كثر الفرنج الذين بطرابلس وحصن الأكراد وأكثروا الاغارة على بلد حمص
وولاياتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيرا فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه بن محمد بن
شيركوه بهم قوة ولا يقدر على دفعهم ومنعهم فاستنجد الظاهر غازي صاحب حلب وغيره من
ملوك الشام فلم ينجده أحد الا الظاهر فانه سير له عسكرا أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته
ثم ان الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فصالحه صاحبها الفرنجي
على قاعدة استقرت من اطلاق أسرى من المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حمص فنزل على بحيرة
قدس وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة ودخل الى بلاد طرابلس وحاصر موضعا يسمى
القليعات وأخذه صلحا وأطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه وتقدم الى
طرابلس فنهب وأحرق وسبى وغنم وعاد الى بحيرة قدس وترددت الرسل بينه وبين الفرنج
في الصلح فلم تستقر قاعدة ودخل الشتاء وطلبت العساكر الشرقية العود الى بلادهم قبل البرد
فنزل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها وعاد الى دمشق فشتى بها وعادت عساكر ديار
الجزيرة الى أماكنها وكان سبب خروجه من مصر بالعساكر أن أهل قبرس الفرنج أخذوا عدة
قطع من أسطول مصر وأسروا من فيها فأرسل العادل الى صاحب عكا في رد ما أخذوا ويقول
نحن صلح فلم غدرتم بأصحابنا فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لي عليهم حكم وان مرجعهم الى
الفرنج الذين بالقسطنطينية ثم ان أهل قبرس ساروا الى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم
تعذرت عليهم الأقوات وعاد حكم قبرس الى صاحب عكا وأعاد العادل مراسلته فلم يفصل
حال لخروج بالعساكر وفعل بعكا ما ذكرنا فأجابه حينئذ صاحبها الى ما طلب وأرسل الأسرى

(ذكر الفتنة بخلاط وقتل كثير من أهلها)

لما تم ملك خلاط وأعمالها للملك الأوحد نجم الدين بن العادل سار عنها الى ملازكرد ليقرر

من تعبير الكرام * وتقريب
الرجال عند ذكر الارحام *
وطوع له قياد الأحرار *
والاشراف الكبار *
وألزمهم أن يخدموه بكرة
وأصيلا * ويختصوا بطاعته
جملة وتفصيلا * فمن ورم
أنفه شريفا كان أو مشروفا
نفي عن بلاده * وعري عما
تحت يده * فشخصت اليه
الأعناق * وأحدقت بفنائه
الأحداق * واستتب له رياسة
لا عهد لأحد بمثلها من
رؤساء خراسان الا أبا عبد الله
العصمي فانه بلغ مثلها ولكن
على عمر مديد * وعز عتيد *
وبأس شديد * وخدم
وعبيد * وما زال ينادي على
العفاة هل من مزيد * وفرش
في زمانه بساط العدل
بقواعد الأخفاش * كرجالات
الثروة والرياش * اشتراكا
في الانصاف * ونفقت سوق
الاحتساب بالدرر فوق
الأكتاف * فمن بدعة
مرفوضة * ورتبة مخفوضة
وحدود على الحق مقامة *
وعيون على الفضول نامة *
وبطلت معها الحانات
والمواخير * وخرست العيدان

قواعدها أيضا ويفعل ما ينبغي أن يفعله فيها فلما فارق خلاط وثب أهلها على من بها من العسكر فأخرجوه من عندهم وعصوا وحصروا القلعة وبها أصحاب الاوحد وناد وابشعار شاه ارمن وان كان ميتا يعنون بذلك ردا الملك الى أصحابه ومماليكه فبلغ الخبر الى الملك الاوحد فعاد اليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوى بهم وحصر خلاط فاختلف أهلها فمال اليه بعضهم حسدا للآخرين فملكها وقتل بها خلقا كثيرا من أهلها وأسر جماعة من الاعيان فسيرهم الى ميافارقين وكان كل يوم يرسل اليهم فيقتل منهم جماعة فلم يسلم الا القليل وذل أهل خلاط بعد هذه الوقعة وتفرقت كلمة الفتيان وكان الحكم اليهم وكفى الناس شرهم فانهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكا ويقتلون آخر والسلطنة عندهم لا حكم لها وانما الحكم لهم واليهم

(ذكر ملك ابى بكر بن البهلوان مراغة)

فى هذه السنة ملك الامير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان صاحب اذربيجان مدينة مراغة وسبب ذلك ان صاحبها علاء الدين قراسنقر مات هذه السنة وولى بعده ابن له طفل وقام بتدبير دولته وتربيته خادم كان لابيه فعصى عليه أمير كان مع أبيه وجمع جمعا كثيرا فأرسل اليه الخادم من عنده من العسكر فقاتلهم ذلك الامير فانهزموا واستقر ملك ولد علاء الدين الا انه لم تطل أيامه حتى توفى فى أول سنة خمس وستمائة وانقرض أهل بيته ولم يبق منهم أحد فلما توفى سار نصرة الدين أبو بكر من تبريز الى مراغة فملكها واستولى على جميع مملكة آل قراسنقر ما عدا قلعة روين دز فانها اعتصم بها الخادم وعنده الخزائن والذخائر فامتنع بها على الامير أبى بكر

(ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة)

كان هذا نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى من أهل الرى من بيت كبير فقدم بغداد لما ملك مؤيد الدين بن القصاب وزير الخليفة الرى ولقى من الخليفة قبولا فجعله نائب الوزارة ثم جعله وزيرا وحكم ابنه صاحب المخزن فلما كان فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة عزل وأغلق بابه وكان سبب عزله انه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة فمنهم أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع فانه هرب من يده الى الشام سنة ثلاث وستمائة ففارق الحاج بالمرخوم وأرسل يعتذر ويقول ان الوزير يريد أن لا يبقى فى خدمة الخليفة أحدا من مماليكه ولا شك انه يريد أن يدعى الخلافة وقال الناس فى ذلك فأكثروا وقالوا الشعر فمن ذلك قول بعضهم

ألا مبلغ عنى الخليفة أحمدا * توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما * فعالك يا خير البرية ضائع
فان كان حقا من سلالة أحمد * فهذا وزير فى الخلافة طامع
وان كان فيما يدعى غير صادق * فأضيع ما كانت لديه الصنائع

فعزله وقيل فى سبب ذلك غيره ولما عزل أرسل الى الخليفة يقول انى قدمت الى ههنا وليس لى دينار ولا درهم وقد حصل لى من الاموال والاعلاق النفيسة وغير ذلك ما يزيد على خمسة آلاف دينار ويسأل أن يؤخذ منه الجميع ويمكن من المقام بالمشهد اسوة ببعض العلويين فأجابه انا

والمزامير * وركدت ألحان النائحات والسكارى * واستوت فى الانجحار والبلاذ بما وراء الاستار عون النساء والعذارى * فأما شوارع أسواق البلد فقد كانت منذ بنيت نيسابور فضاء لا يكنها غماء * ولا يظلها دون السماء سماء * تخترقها الاعاصير تارة وتردغها الاهاضيب أخرى فاما التراب مثارا * واما الانداء ثلوجا وأمطارا * لم يفطن أحد من ملوك خراسان وأصحاب الجيوش بها * لالحاقها بأخواتها * من ديار خراسان تسقيفا لها وتستيرا * وتنظيفا من الاقذاء وتطهيرا * حتى ورد الرئيس أبو على وطالب أهلها به فلم يمض شهران حتى سمقت نحو السماك سقوفها * وقامت على ركائز الاعواد حروفها * فمن بين منقش ومزخرف * ومدبج بالاصباغ ومفوف * تنفتح منها فرج بقدر ما يلى ضياء النهار * على الابصار * دون ما توسع لذرور الغبار * وتمكن لدرور القطار * وتمن البصراء

ما أنعمنا عليك بشيء فنوينا اعادته ولو كان ملء الارض ذهبا ونفسك في أمان الله وأماننا
ولم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك غير ان الاعداء قد أكثروا فيك فاختر لنفسك موضعا تنتقل
اليه موقرا محترما فاختار أن يكون تحت الاستظهار من جانب الخليفة لئلا يتمكن منه العدو
فتذهب نفسه ففعل به ذلك وكان حسن السيرة قريبا الى الناس حسن اللقاء لهم والانبساط
معهم عفيفا عن أموالهم غير ظالم لهم فلما قبض عاد امير الحاج من مصر في الخدمة العادلية
وعاد ايضا قشتمر وأقيم في النيابة في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن امسينا الواسطي
الا انه لم يكن متحكما

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ليلة الاربعاء لخمس بقين من رجب زلزلت الارض وقت السحر وكنت حينئذ
بالموصل ولم تكن بها شديدة وجاءت الاخبار من كثير من البلاد بأنها زلزلت ولم تكن بالقوية
وفيها اطلق الخليفة الناصر لدين الله جميع حق البيع وما يؤخذ من ارباب الامتعة من المكوس
من سائر المبيعات وكان مبلغا كثيرا وكان سبب ذلك أن بغلة العز الدين نجاح شرابي الخليفة
توقفت فاشترى لها بقرة لتذبح ويتصدق بلحمها عنها فرفعوا في حساب ثمنها مؤنة البقرة فكانت
كثيرة فوقف الخليفة على ذلك وأمر باطلاق المؤنة جميعها وفيها في شهر رمضان امر
الخليفة ببناء دور في المحال ببغداد ليفطر فيها الفقراء وسميت دور الضيافة يطبخ فيها اللحم
الضأن والخبز الجيد عمل ذلك في جانبي بغداد وجعل في كل دار من يوثق بامانته وكان يعطى كل
انسان قدحا مملوأ من الطبيخ واللحم ومنا من الخبز فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق
لا يحصون كثرة وفيها زادت دجلة زيادة كثيرة ودخل الماء في خندق بغداد من ناحية باب
كلواذى فخيف على البلد من الغرق فاهتم الخليفة بسد الخندق وركب فخر الدين نائب الوزارة
وعز الدين الشرابي ووقفا ظاهر البلد فلم يبرحا حتى سد الخندق وفيها توفي الشيخ حنبل بن عبد الله
ابن الفرج المكبر بجامع الرصافة وكان عالي الاسناد روى عن ابن الحصين مسند أحمد بن حنبل
وله اسناد حسن وقدم الموصل وحدث بها وبغيرها

(ثم دخلت سنة خمس وستمائة)

(ذكر ملك الكرج ارجيش وعودهم عنها)

في هذه السنة سارت الكرج في جموعها الى ولاية خلاط وقصدوا مدينة ارجيش فحصروها
وملكوها عنوة ونهبوا جميع ما بها من الاموال والامتعة وغيرها وأسروا وسبوا أهلها
وأحرقوها وخربوها بالكلية ولم يبق بها من أهلها احد فأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن
بالامس وكان نجم الدين أيوب صاحب ارمينية بمدينة خلاط وعنده كثير من العساكر فلم يقدم
على الكرج لاسباب منها كثرتهم وخوفه من أهل خلاط لما كان أسلف اليهم من القتل
والاذى وخاف ان يخرج منها فلا يمكن من العود اليها فلما لم يخرج الى قتال الكفار عادوا الى
بلادهم سالمين لم يذعرهم ذاعر وهذا جميعه وان كان عظيما شديدا على الاسلام وأهله فانه يسير
بالنسبة الى ما كان مما نذكره سنة أربع عشرة الى سنة سبع عشرة وستمائة

(ذكر قتل سنجر شاه وملك ابنه محمود)

استغراق قدر العمارة
مائة ألف دينار عن طيب
النفوس وفضل المكسوب
لم يكلف أحد عليها ولم
يستكره دون المثال فيها
بل عمهم المباهاة وشملتهم
المباراة * فأنفقوا موفرين
ومستبصرين * ولا نفسهم
على العجز دون المراد
مستقصرين * فمن تسوق
تاسعا أو عاشرا ليس بادئا
أو ثانيا ردا الى الكاهل قذاله
وترك على شغل النظر أشغاله
فما لها من سمك شاخص
نحو السماك * وزائد فلكا
تلمعا على الافلاك * ولما عاد
الرئيس الى الحضرة وقرر
حال ما تولاه * ومن عزله
وولاه * وافق هوى السلطان
ورضاه * فصادف تقريرا
وتمكينا * واحمادا واسعا
مستبينا * وسنورد شرح
ما يتجدد من هذه الاحوال
ان أراد الله تعالى ذلك
ويسره

(ذكر الأمير صاحب الجيش أبي المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين)

قد كان السلطان يمين الدولة
وأمين الملة لما ملك خراسان

فى هذه السنة قتل سنجرشاه ابن غازى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب جزيرة ابن عمر وهو
ابن عم نور الدين صاحب الموصل قتله ابنه غازى ولقد سلك ابنه فى قتله طريقا عجيبا يدل على مكر
ودهاء وسبب ذلك أن سنجر كان سيء السيرة مع الناس كلهم من الرعية والجند والحريم
والاولاد وبلغ من قبيح فعله مع اولاده أنه سير ابنيه محمودا ومودودا الى قلعة فرح من بلد
الزوزان وأخرج ابنه هذا الى دار بالمدينة أسكنه فيها ووكل به من يمنعه من الخروج وكانت
الدار الى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل اليه منها الحيات والعقارب وغيرهما من
الحيوان المؤذى ففى بعض الايام اصطاد حية وسيرها فى منديل الى أبيه اعله يرق له فلم يعطف
عليه فأعمل الحيلة حتى نزل من الدار التى كان بها واختفى ووضع انسانا كان يخدمه فخرج من
الجزيرة وقصد الموصل وأظهر أنه غازى بن سنجر فلما سمع نور الدين بقربه منها أرسل نفقة وثيابا
وخيلا وأمره بالعود وقال ان أباك يتجنى لنا الذنوب التى لم نعملها ويقبح ذكرنا فاذا صرت عندنا
جعل ذلك ذريعة للشناعات والبشاعات ونقع معه فى صداع لا ينادى وليده فسار الى الشام
وأما غازى بن سنجر فانه تسلق الى دار أبيه واختفى عند بعض سراريه وعلم به أكثر من بالدار
فسترت عليه بغضا لابيه وتوقعا للخلاص منه لشدته عليهن فبقى كذلك وترك أبوه الطلب له ظنا
منه انه بالشام فاتفق ان أباه فى بعض الايام شرب الخمر بظاهر البلد مع ندمائه فكان يقترح على
المغنين ان يغنوا فى الفراق وما شاكل ذلك ويبكى ويظهر فى قوله قرب الاجل ودنو الموت وزوال
ما هو فيه فلم يزل كذلك الى آخر النهار وعاد الى داره وسكر عند بعض حظاياه ففى الليل دخل
الخلاء وكان ابنه عند تلك الحظية فدخل اليه فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة ثم ذبحه
وتركه ملقى ودخل الحمام وقعد يلعب مع الجوارى فلو فتح باب الدار وأحضر الجند واستحلفهم
لملك البلد لكنه أمن واطمأن ولم يشك فى الملك فاتفق ان بعض الخدم الصغار خرج الى الباب
وأعلم استاذدار سنجر الخبر فأحضر أعيان الدولة وعرفهم ذلك وأغلق الابواب على غازى
واستحلف الناس لمحمود بن سنجرشاه وأرسل اليه أحضره من فرح ومعه أخوه مودود فلما حلف
الناس وسكنوا اقتحموا باب الدار على غازى ودخلوا عليه ليأخذوه فمانعهم عن نفسه فقتلوه
وألقوه على باب الدار فأكلت الكلاب بعض لحمه ثم دفن باقيه ووصل محمود الى البلد وملكه
ولقب بمعز الدين لقب أبيه فلما استقر أخذ كثيرا من الجوارى اللواتى لابيه فغرقهن فى دجلة
ولقد حدثنى صديق لنا انه رأى بدجلة فى مقدار غلوة سهم سبع جوارى مغرقات منهن ثلاث قد
احرقت وجوههن بالنار فلم أعلم سبب ذلك الحريق حتى حدثتنى جارية اشتريتها بالموصل من
جواريه ان محمودا كان يأخذ الجارية فيجعل وجهها فى النار فاذا احترقت ألقاها فى دجلة
وباع من لم يغرقه منهن فتفرق أهل تلك الدار أيدى سبا وكان سنجرشاه قبيح السيرة ظالما غاشما
كثير المخاتلة والمواربة والنظر فى دقيق الامور وجليلها لا يمتنع من قبيح يفعله مع رعيته
وغيرهم من أخذ الاموال والاملاك والقتل والاهانة وسلك معهم طريقا وعرا من قطع
الالسنة والانوف والآذان وأما اللحى فانه حلق منها ما لا يحصى وكان جل فكره فى ظلم يفعله
وبلغ من شدة ظلمه انه كان اذا استدعى انسانا يحسن اليه لا يصل الا وقد قارب الموت من شدة
الخوف واستعلى فى أيامه السفهاء ونفقت سوق الاشرار والساعين بالناس فخرب البلد وتفرق

وأخلاها من شرذمة آل
سامان * عرف له موالاته
اياه وهجرته فيها اسمعيل بن
ناصر الدين أخاه اعظاما
لحق الكبر واعترافا بواجب
الفرض فولاه نيسابور مظنة
أصحاب الجيوش الاكابر
على وجه الزمان الغابر
سادا به مكانه من قبل اذ هو
سائس الجمهور * ومدبر
هاتيك الامور * ومن وضع
أخاه موضعا قد سده قبل
بنفسه * ورآه أهلا لبعض
قدره * فقد بالغ فى البر
والتوقير * وخرج من عهدة
التقصير * فوليها سنين عدة
حميد السيرة فى الخبرة كريم
الفعال * فى سياسة الرجال
وجرى على يده من حميد
الآثار فى مطاردة أبى
ابراهيم المنتصر عند ركضاته
وكفاية ما كان يطرأ من
معرته وشذاته * ما تقدم
شرحه ثم رأى السلطان
بعد ذلك أن يجمع به شمله
ويصل بمشاهدته حبله
فاستدعاه * وأهل به مستجمه
ومغزاه * فلم يزايله بعد بحال
ولم يفاصله فى حالتى حل
وترحال * وكان يراه

أهله لاجرم سلط الله عليه أقرب الخلق اليه فقتله ثم قتل ولده غازى و بعد قليل قتل ولده محمود أخاه مودودا وجرى فى داره من التحريق والتغريق والتفريق ماذكرنا بعضه ولورمنا شرح قبح سيرته لطال والله تعالى بالمرصاد لكل ظالم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة ثانى المحرم توفى أبو الحسن ورام بن أبى فراس الزاهد بالحلة السيفية وهو منها وكان صالحا وفى صفر توفى الشيخ مصدق بن شبيب النحوى وهو من أهل واسط وفى شعبان توفى القاضى محمد بن أحمد بن المندائى الواسطى بها وكان كثير الرواية للحديث وله اسناد عال وهو آخر من حدث بمسند أحمد بن حنبل على ابن الحصين وفيه توفى القوام أبو فراس نصر بن ناصر بن مكى المدائنى صاحب المخزن ببغداد وكان أديبا فاضلا كامل المروأة يحب الأدب وأهله ويحب الشعر ويحسن الجوائز عليه ولما توفى ولى بعده أبو الفتوح المبارك بن الوزير عضد الدين أبى الفرج بن رئيس الرؤساء وأكرم وأعلى محله فبقى متوليا الى سابع ذى القعدة وعزل لعجزه وفيها كانت زلزلة عظيمة بنيسابور وخراسان وكان أشدها بنيسابور وخرج أهلها الى الصحراء أياما حتى سكنت وعادوا الى مساكنهم

(ثم دخلت سنة ست وستمائة)

(ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين ارسلان شاه ومظفر الدين)

فى هذه السنة ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور ونصيبين وحصر مدينة سنجار والجميع من أعمال الجزيرة وهى بيد قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود وسبب ذلك ان قطب الدين المذكور كان بينه وبين ابن عمه نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وقد تقدم ذكر ذلك فلما كان سنة خمس وستمائة حصلت مصاهرة بين نور الدين والعادل فان ولد العادل تزوج بابنة لنور الدين وكان لنور الدين وزراء يحبون ان يشتغل عنهم فحسنوا له مراسلة العادل والاتفاق معه على أن يقتسما بالبلاد التى لقطب الدين وبالولاية التى لولد سنجر شاه بن غازى بن مودود وهى جزيرة ابن عمر وأعمالها فيكون ملك قطب الدين للعادل وتكون الجزيرة لنور الدين فوافق هذا القول هوى نور الدين فأرسل الى العادل فى المعنى فأجابه الى ذلك مستبشرا وجاءه مالم يكن يرجوه لانه علم أنه متى ملك هذه البلاد أخذ الموصل وغيرها وأطمع نور الدين أيضا فى أن يعطى هذه البلاد اذا ملكها الولده الذى هو زوج ابنة نور الدين ويكون مقامه فى خدمته بالموصل واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها فبادر العادل الى المسير من دمشق الى الفرات فى عساكره وقصد الخابور فأخذه فلما سمع نور الدين بوصوله كأنه خاف واستشعر فأحضر من يرجع الى رأيهم وقولهم وعرفهم وصول العادل واستشارهم فيما يفعله فأما من أشار عليه فسكتوا وكان فيهم من لم يعلم هذه الحال فعظم الامر وأشار بالاستعداد للحصار وجمع الرجال وتحصيل الذخائر ومايحتاج اليه فقال نور الدين نحن فعلنا ذلك وخبره الخبر فقال بأى رأى تجىء الى عدو لك هو أقوى منك وأكثر جمعا وهو بعيد منك متى تحرك لقصدك نعلم به فلا يصل الا وقد فرغت من جميع ماتريده تسعى حتى يصير قريبا

منك

فى مقاماته أول من سمح بروحه فى الحاماة على دين الله *والمراماة من دون حق الله * وواقيا أشاءها بمهجته نفسه ان كثف زحام* أو عظم على جيوش حق الله استلحام* شفقة تجيش بها لحمة القربى* وشجنة من الرحم الدنيا* وكان ينصر مذهب الامام أبى حنيفة رحمه الله تعالى اعتقادا ويرى الاستمساك به رشادا فأمر بمدرسة بنيسابور فى جوار القاضى أبى العلاء صاعد بن محمد وأنفق مالا حتى ابتناها* وحبس حبائس على من أواها* ودارس بأمالى العلم فى ذراها * فبقيت تذكرة عنه تغدى بالعلم وتراح* ويثنى عليها الامساء والاصباح * ولم ينقم السلطان منه طول أيامه قولا محالا * وافظا دون الصواب مستحالا* ولاشكا أحد من الكبار له جانبا وفعلا لاشفاق الرؤس على الاتباع مجانبا* وقضى الله أن خانه الشباب ولما استوفى أمده* ونقض بباقى الامل فيه يده* فلحق بالواحد

منك ويزداد قوة الى قوته ثم ان الذى استقر بينكما انه له يملكها ولا بغير تعب ولا مشقة وتبقى أنت لا يمكنك ان تفارق الموصل الى الجزيرة وتحصرها والعادل ههنا هذا ان وفى لك بما استقرت القاعدة عليه لا يجوز ان تفارق الموصل وان عاد الى الشام لانه قد صار له ملك خلاط وبعض ديار بكر وديار الجزيرة جميعها والجميع بيد أولاده فمتى سرت عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك وبينها فما زدت على أن آذيت نفسك وابن عمك وقويت عدوك وجعلته شعارك وقد فات الامر وليس يجوز الا ان تقف معه على ما استقر بينكما لئلا يجعل ذلك حجة ويبتدئ بك هذا والعادل قد ملك الخابور ونصيبين وسار الى سنجار فحصرها وكان فى عزم صاحبها قطب الدين ان يسلمها الى العادل بعوض يأخذه عنها فمنعه من ذلك أمير كان معه اسمه أحمد بن برنقش مملوك أبيه زنكى وقام بحفظ المدينة والذب عنها وجهز نور الدين عسكرا مع ولده الملك القاهر ليسيروا الى الملك العادل فبينما الامر على ذلك اذ جاءهم أمر لم يكن لهم فى حساب وهو أن مظفر الدين كوكبرى صاحب اربل أرسل وزيره الى نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار وان الاتفاق معه على ما يريده فوصل الرسول ليلا فوقف مقابل دار نور الدين وصاح فعبر اليه سفينة عبر فيها واجتمع بنور الدين ليلا وأبلغه الرسالة فأجاب نور الدين الى ما طلب من الموافقة وحلف له على ذلك وعاد الوزير من ليلته فسار مظفر الدين واجتمع هو ونور الدين ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل وكان سبب ما فعله مظفر الدين ان صاحب سنجار أرسل ولده الى مظفر الدين يستشفع به الى العادل ليبقى عليه سنجار وكان مظفر الدين يظن انه لو شفع فى نصف ملك العادل لشفعه لاثره الجميل فى خدمته وقيامه فى الذب عن ملكه غير مرة كما تقدم فشفع اليه فلم يشفعه العادل ظنا منه انه بعد اتفاقه مع نور الدين لا يبالى بمظفر الدين فلما رده العادل فى شفاعته راسل نور الدين فى الموافقة عليه ولما وصل الى الموصل واجتمع بنور الدين أرسلا الى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين وهو صاحب حلب والى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم بالاتفاق معهما فكلاهما أجاب الى ذلك وتداعوا على الحركة وقصد بلاد العادل ان امتنع من الصلح والابقاء على صاحب سنجار وأرسلا أيضا الى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولا الى العادل فى الصلح ايضا فقويت حينئذ نفس صاحب سنجار على الامتناع ووصلت رسل الخليفة وهو هبة الله بن المبارك بن الضحاك استاذ الدار والامير آق باش وهو من خواص مماليك الخليفة وكبارهم فوصلا الى الموصل وسارا منها الى العادل وهو يحاصر سنجار وكان من معه لا يناصحونه فى القتال لاسيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فانه كان يدخل اليها الاغنام وغيرها من الاقوات ظاهرا ولا يقاتل عليها وكذلك غيره فلما وصل رسول الخليفة الى العادل أجاب أولا الى الرحيل ثم امتنع عن ذلك وغالط وأطال الامر لعله يبلغ منها غرضا فلم ينل منها ما أمله وأجاب الى الصلح على ان له ما أخذ وتبقى سنجار لصاحبها واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفوا على هذا كلهم وعلى ان يكونوا يدا واحدة على الناكث منهم ورحل العادل عن سنجار الى حران وعاد مظفر الدين الى اربل وبقى كل واحد من الملوك فى بلده وكان مظفر الدين عند مقامه بالموصل قد زوج ابنتين له بولدين لنور الدين وهما عز الدين مسعود وعماد الدين زنكى

الغفار
ان الكرام قليلة الاعمار
وكتبت فى مرثيته رسالة
سئلت اثباتها فى ذكره
ففعلت اذ كان فى ضمنها
ما يفى بشرح حاله * وتقرير
بعض خصاله * وهى
بسم الله الرحمن الرحيم
آه من سفرة بغير اياب
آه من حسرة على الاحباب
آه من مضجع الامير المفدى
فوق فرش من الحصى والتراب
نصير بن الامير ناصر دين الله
صدر الحروب والمحراب
صاحب الجيش درة الشرق
تاج الـ * فخر غوث الكرام
والكتاب
نعاء يا ساسة الرجال * يا سادة
الفعال * يا أعيان العلوم
يا اخوان النجوم * يا شيوخ
الاسلام * يا عيون الكرام
يا أحرار الزمان * يا أنصار
السلطان
نعاء الى كل حى نعاء
فتى الكرم احتل ربع الفناء
أتدرون أى ركن انهدم
وأى حد انثلم * وأى عقد
انفصم * وأى سوار انقصم
وأى روض ذبل * وأى نجم
أفل * وأى بحر نضب * وأى
طود تصبب * وأى خطب

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في ربيع الاول عزل فخر الدين بن امسيناعن نيابة الوزارة للخليفة وألزم بيته ثم نقل الى المخزن على سبيل الاستظهار عليه وولي بعده نيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن برز القمي كاتب الانشاء ولقب مؤيد الدين ونقل الى دار الوزارة مقابل باب النوبي وفيها في شوال توفي مجد الدين يحيى بن الربيع الفقيه الشافعي مدرس النظامية ببغداد وفيها توفي فخر الدين أبو الفضل محمد بن عمر بن خطيب الري الفقيه الشافعي صاحب التصانيف المشهورة في الفقه والاصولين وغيرهما وكان امام الدنيا في عصره وبلغني ان مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفيها في سلخ ذي الحجة توفي اخي مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب مولده في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وكان عالما في عدة علوم منها الفقه والاصولان والنحو والحديث واللغة وله تصانيف مشهورة في التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة وكان كاتبا مفلقا يضرب به المثل ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم رحمه الله ورضي عنه فلقد كان من محاسن الزمان ولعل من يقف على ما ذكرته يتهمني في قولي ومن عرفه من اهل عصرنا يعلم أني مقصر وفيها توفي المجد المطرزي النحوي الخوارزمي وكان اماما في النحو له فيه تصانيف حسنة وفيها توفي المؤيد بن عبد الرحيم ابن الاخوة باصفهان وهو من أهل الحديث رحمه الله

(ثم دخلت سنة سبع وستمائة)

(ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر اليه)

كان قطب الدين سنجر مملوك الخليفة الناصر لدين الله قد ولاه الخليفة خوزستان بعد طاشتكين أمير الحاج كما ذكرناه فلما كان سنة ست وستمائة بدا منه تغير عن الطاعة فروسل في القدوم الى بغداد فغالط ولم يحضر وكان يظهر الطاعة ويبطن التغلب على البلاد فبقي الامر كذلك الى ربيع الاول من هذه السنة فتقدم الخليفة الى مؤيد الدين نائب الوزارة والى عز الدين بن نجاح الشرابي خاص الخليفة بالمسير بالعساكر اليه بخوزستان واخراجه عنها فسارا في عساكر كثيرة فلما تحقق سنجر قصدهم اليه فارق البلاد ولحق بصاحب شيراز وهو اتابك عز الدين سعد بن دكلا ملتجئا اليه فأكرمه وقام دونه ووصل عسكر الخليفة الى خوزستان في ربيع الآخر بغير ممانعة فلما استقروا في البلاد راسلوا سنجر يدعونه الى الطاعة فلم يجب الى ذلك فساروا الى أرجان عازمين على قصد صاحب شيراز فأدركهم الشتاء فأقاموا شهورا والرسل مترددة بينهم وبين صاحب شيراز فلم يجبهم الى تسليمه فلما دخل شوال رحلوا يريدون شيراز فحينئذ أرسل صاحبها الى الوزير والشرابي يشفع فيه ويطلب العهد له على ان لا يؤذى فأجيب الى ذلك وسلمه اليهم هو وماله وأهله فعادوا الى بغداد وسنجر معهم تحت الاستظهار وولى الخليفة بلاد خوزستان مملوكه ياقوت أمير الحاج ووصل الوزير الى بغداد في المحرم سنة ثمان وستمائة هو والشرابي والعساكر وخرج أهل بغداد الى تلقيهم فدخلوها وسنجر معهم راكبا على بغل باكاف وفي رجله سلسلتان في يد كل جندي سلسلة وبقي محبوسا الى أن دخل صفر فجمع الخلق الكثير من الامراء والاعيان الى دار مؤيد الدين نائب الوزارة فأحضر سنجر وقرر بامور

نزل * وأي نصر رحل * رحم الله نصر بن الامير الجليل ناصر الدين الامير ابن الامير والشهاب ابن الاثير * والبحر ابن الصبير * والحبر ابن النحرير * والعنبر ابن العبير مرخ الملك أوعفاره * وسور الدين أوسواره * وركن العز أوغراره * ونور المجد أوعراره غارت به بحيرة الادب التي استعذبتها الشفاه * وضلت قبلة العلم التي وليت شطرها الجباه * وعريت دوحة الكرم التي خبطتها العفاه وجفت طينة الفضل التي خدمتها الكفاه * وطلقت كريمة البر التي درس عليها التوحيد * وغذي بها اليافع والوليد * وأحييت عليها فواصل النهار * وحليت بها عواطل الاسحار وأقشعت سماء شام أبناء الدين بوارقها * وخاف أحزاب الكفر والجحود صواعقها * فلا نار ولا ماء ولا خوف ولا رجاء * فأضحى به جيب الزمان مشقوقا وسكر الحدثان مبثوقا وبناء العزمنقوضا * ولواء المجد مخفوضا * ودمع الدين مسفوحا * وطرف

نسبت اليه منكرة فأقربها فقال مؤيد الدين للناس قد عرفتم ما تقتضيه السياسة من عقوبة
هذا الرجل وقد عفا أمير المؤمنين عنه وأمر بالخلع عليه فلبسها وعاد الى داره فعجب الناس من
ذلك وقيل ان أتابك سعد نهب مال سنجر وخزائنه ودوابه وكل ماله ولاصحابه وسيرهم فلما وصل
سنجر الى الوزير والشرابى طلبوا المال فأرسل شيأ يسيرا والله أعلم

(ذكر وفاة نور الدين أرسلانشاه وشئ من سيرته)

فى هذه السنة أواخر رجب توفى نور الدين أرسلانشاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن
آقسنقر صاحب الموصل وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد وكانت مدة ملكه سبع عشرة
سنة وأحد عشر شهرا وكان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا شديدا على أصحابه فكانوا يخافونه خوفا
شديدا وكان ذلك مانعا من تعدى بعضهم على بعض وكان له همة عالية أعاد ناموس البيت
الاتابكى وجاهه وحرمته بعد ان كانت قد ذهبت وخافه الملوك وكان سريع الحركة فى طلب
الملك الا انه لم يكن له صبر فلهذا لم يتسع ملكه ولو لم يكن له من الفضيلة الا انه لما رحل الكامل بن
العادل عن ماردين كما ذكرنا سنة خمس وتسعين وخمسمائة عف عنها وأبقاها على صاحبها ولو
قصدها وحصرها لم يكن فيها قوة الامتناع لان من كان بها كانوا قد هلكوا أو ضجروا ولم يبق
لهم رمق فابقاها على صاحبها ولما ملك استغاث اليه انسان من التجار فسأل عن حاله فقيل انه قد
أدخل قماشه الى البلد ليبيعه فلم يتم له البيع ويريد اخراجه وقد منع من ذلك فقال من منعه
فقيل ضامن البز يريد منه ما جرت به العادة من المكس وكان القيم بتدبير مملكته مجاهد الدين
قايماز وهو الى جانبه فسأله عن العادة كيف هى فقال ان اشترط صاحبه اخراج متاعه مكن
من اخراجه وان لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ما جرت العادة بأخذه فقال والله ان هذه
العادة مدبرة انسان لا يبيع متاعه لاى شئ يؤخذ منه ماله فقال مجاهد الدين لا شك فى فساد
هذه العادة فقال اذا قلت أنا وأنت انها عادة فاسدة فما المانع من تركها وتقدم باخراج مال
الرجل وأن لا يؤخذ الا ممن باع وسمعت أخى مجد الدين أبا السعادات رحمه الله وكان من أكثر
الناس اختصاصا به يقول ما قلت له يوما فى فعل خير فامتنع منه بل بادر اليه بفرح واستبشار
واستدعى فى بعض الايام أخى المذكور فركب الى داره فلما كان بباب الدار لقيته امرأة
وبيدها رقعة وهى تشكو وتطلب عرضها على نور الدين فأخذها فلما دخل اليه جاراه فى مهم
له فقال قبل كل شئ تقف على هذه الرقعة وتقضى شغل صاحبتها فقال لا حاجة الى الوقوف
عليها عرفنا ايش فيها فقال والله لا أعلم الا انى رأيت امرأة بباب الدار وهى متظلمة شاكية فقال
نعم عرفت حالها ثم انزعج فظهر منه الغيظ والغضب وعنده رجلان هما القيمان بامور دولته
فقال لاخى تبصر الى أى شئ قد دفعت مع هذين هذه المرأة كان لها ابن وقد مات فى الموصل
وهو غريب وخلف قماشا ومملوكين فاحتاط نواب بيت المال على القماش واحضروا المملوكين
الينا فبقيا عندنا ننتظر من يستحق التركة ليأخذها فحضرت هذه المرأة ومعها كتاب حكمى بان
المال الذى مع ولدها لها فتقدمنا بتسليم مالها اليها وقلت لهذين اشتريا المملوكين منها
وانصفاها فى الثمن فعادا وقالا لم يتم بيننا بيع لانها طلبت ثمنا كثيرا فامرتهما باعادة المملوكين
اليها من مدة شهرين وأكثر والى الآن ما عدت سمعت لها حديثا وظننت انها أخذت مالها

الاسلام مجروحا وأقبل العلم
فى صورة المفجوع * وبزة
الخشوع * بقرمط خطوه *
* ويلتفت الى أهله شكوه *
مغرقا فى صعداء تذوب لها
جوامد الدموع * وتتقد
عليها لواحب الضلوع *
ولو غير المنون أتاه أهوى
اليه أخوه بالبيض البواتر
يمين الدولة الملك المرجى
صباح الدين مصباح المفاخر
ولكن القضاء له مضاء
تذل لعزه مضربه المناخر
ألا يا صاحبى تمعكا الى أن
كنتما مسعدين * وجامعين
الى كلتا اليدين
الما على نصر وقولا لقبره
سقتك الغوادى مربعا ثم مربعا
فيا قبر نصر أنت أول حفرة
من الارض خطت للسماحة
مضجعا
ويا قبر نصر كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود
ميت

ولا شك انهما لم يسلما المملوكين اليها وقد استغاثت اليهما فلم ينصفاها فجاءت اليك وكل من رأى هذه المرأة تشكو وتستغيث يظن انى آنا منعتهما من مالها فذممنى وينسبنى الى الظلم وليس لى علم وكل هذا فعل هذين اشتهى أن تسلم أنت المملوكين وتسلمهما اليها فأخذت المرأة مالها وعادت شاكرة داعية وله من هذا الجنس كثير لا نطول بذكره

(ذكر ولاية ابنه الملك القاهر)

لما حضر نور الدين الموت أمر ان يرتب فى الملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود وأحلف له الجند واعيان الناس وكان قد عهد اليه قبل موته بمدة فجدد العهد له عند وفاته وأعطى ولده الاصغر عماد الدين زنكى قلعة عقر الحميدية وقلعة شوش وولايتها وسيره الى العقر وأمر ان يتولى تدبير مملكتها ويقوم بحفظها والنظر فى مصالحها النائب الامير بدر الدين لؤلؤ لما رأى من عقله وسداده وحسن سياسته وتدبيره وكمال خلال السيادة فيه وكان عمر القاهر حينئذ عشر سنين ولما اشتد مرضه وايس من نفسه أمره الاطباء بالانحدار الى الحامة المعروفة بعين القيارة وهى بالقرب من الموصل فانحدر اليها فلم يجد بها راحة وازداد ضعفا فأخذه بدر الدين واصعده فى الشبارة الى الموصل فتوفى فى الطريق ليلا ومعه الملاحون والاطباء بينه وبينهم ستر وكان مع بدر الدين عنده نور الدين مملوكان فلما توفى نور الدين قال لهما لا يسمع أحد بموته وقال للاطباء والملاحين لا يتكلم أحد فقد نام السلطان فسكتوا ووصلوا الى الموصل فى الليل فأمر الاطباء والملاحين بمفارقة الشبارة لئلا يروه ميتا وأبعدوا فحمله هو والمملوكان وأدخله الدار وتركه فى الموضع الذى كان فيه ومعه المملوكان ونزل على بابه من يثق اليه لا يمكن أحدا من الدخول والخروج وقعد مع الناس يمضى أمورا كان يحتاج الى اتمامها فلما فرغ من جميع ما يريده أظهر موته وقت العصر ودفن ليلا بالمدرسة التى انشأها مقابل داره وضبط البلد والمملكة ضبطا جيدا بحيث ان الناس فى البلد لم يزالوا مترددين لم يعدم من أحد مقدار الحبة الفرد واستقر الملك لولده وقام بدر الدين بتدبير الدولة والنظر فى مصالحها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى شهر ربيع الآخر درس القاضى أبو زكريا بن القاسم بن المفرج قاضى تكريت بالمدرسة النظامية ببغداد استدعى من تكريت اليها وفيها نقصت دجلة بالعراق نقصا كثيرا حتى كان يجرى الماء ببغداد فى نحو خمسة أذرع وأمر الخليفة أن يكرى دجلة فجمع الخلق الكثير وكانوا كلما حفروا شيأ عاد الرمل وغطاه وكان الناس يخوضون دجلة فوق بغداد وهذا لم يعهد مثله وحج بالناس هذه السنة علاء الدين محمد ولد الامير مجاهد الدين ياقوت أمير الحاج وكان قد ولاه الخليفة خوزستان وجعله هو أمير الحاج وجعل معه من يدبر الحاج لانه كان صبيا وفيها فى العشرين من ربيع الآخر توفى ضياء الدين احمد عبد الوهاب بن على بن عبد الله الامير البغدادى ببغداد وهو سبط صدر الدين اسمعيل شيخ الشيوخ وعمره سبع وثمانون سنة وشهور وكان صوفيا فقيها محدثا سمعنا معه الكثير رحمه الله وكان من عباد الله الصالحين كثير العبادة والصلاح وفيها توفى شيخنا ابو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد البغدادى وكان عالى الاسناد

ولو كان حيا ضاقت حتى تصدعا
بكى الجود لما مات نصر فلم يدع
لعينيه لما أن بكى الجود مدمعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضى نصر مضى الجود
وانقضى
وأصبح عرنين السماحة أجدعا
اتى جاز للموت أن يغصب
الامير نصرا لقد ساغ لى أن
أغصبها معنا وأين معن من
شقيق ملك الشرق * وسائر
جمهور الخلق * والقاعد من
قمة الفرقدين على الفرق *
سلطان الزمان يمين الدولة
وأمين الملة * من دانت لعزه
القروم * واستكانت لهيبته
الترك والروم * فنى بعض
خصاله ألف معن لم يرق اليه
معن بهمته * ولم يلق له
ذكرا فى ديوان نعمته * نال
حظوة من سلطان زمانه
باتفاق * اذا الحرب قامت
على ساق * ودارت كؤسها

(ثم دخلت سنة ثمان وستمائة)

(ذكر استيلاء منكلي على بلاد الجبل واصفهان وغيرها وهرب ايتغمش)

في هذه السنة في شعبان قدم ايتغمش صاحب همذان واصفهان والري وما بينهما من البلاد الى بغداد هاربا من منكلي وسبب ذلك ان ايتغمش كان قد تمكن في البلاد وعظم شأنه وانتشر صيته وكثر عسكره حتى انه حصر صاحبه ابابكر بن البهلوان صاحب هذه البلاد اذربيجان واران كما ذكرناه فلما كان الآن خرج عليه مملوك اسمه منكلي ونازعه في البلاد وكثر اتباعه وأطاعه المماليك البهلوانية فاستولى عليها وهرب منه شمس الدين ايتغمش الى بغداد فلما وصل اليها امر الخليفة بالاحتفال به في اللقاء فخرج الناس كافة وكان يوم وصوله مشهودا ثم قدمت زوجته في رمضان في محمل فأكرمت وأنزلت عند زوجها وأقام ببغداد الى سنة عشر وستمائة فسار عنها فكان من امره ما نذكره

(ذكر نهب الحاج بمنى)

وفي هذه السنة نهب الحاج بمنى وسبب ذلك ان باطنيا وثب على بعض اهل الامير قتادة صاحب مكة فقتله بمنى ظنا منه انه قتادة فلما سمع قتادة ذلك جمع الاشراف والعرب والعبيد واهل مكة وقصدوا الحاج ونزلوا عليهم من الجبل ورموهم بالحجارة والنبل وغير ذلك وكان امير الحاج ولد الامير ياقوت المقدم ذكره وهو صبي لا يعرف كيف يفعل فخاف وتحير وتمكن أمير مكة من نهب الحاج فنهبوا منهم من كان في الاطراف وأقاموا على حالهم الى الليل فاضطرب الحاج وباتوا باسوء حال من شدة الخوف من القتل والنهب فقال بعض الناس لامير الحاج لينتقل بالحجاج الى منزلة حجاج الشام فأمر بالرحيل فرفعوا أثقالهم على الجمال واشتغل الناس بذلك فطمع العرب وتمكنوا من النهب والتحق من سلم بحجاج الشام فاجتمعوا بهم ثم رحلوا الى الزاهر ومنعوا من دخول مكة ثم أذن لهم في ذلك فدخلوها وتمموا حجهم وعادوا ثم أرسل قتادة ولده وجماعة من أصحابه الى بغداد فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والاكفان فقبلوا العتبة واعتذروا مما جرى على الحاج

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة أظهر الاسماعيلية ومقدمهم جلال الدين بن فلان بن حسن بن الصباح الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها وامر باقامة الصلوات وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام وأرسل مقدمهم رسلا الى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك وأرسل والدته الى الحج فأكرمت ببغداد اكراما عظيما وكذلك بطريق مكة وفيها سلخ جمادى الآخرة توفي أبو حامد محمد بن يونس بن منعة الفقيه الشافعي بمدينة الموصل وكان اماما فاضلا اليه انتهت رياسة الشافعية لم يكن في زمانه مثله وكان حسن الاخلاق كثير التجاوز عن الفقهاء والاحسان اليهم رحمه الله وفيها في شهر ربيع الاول توفي القاضي أبو الفضائل علي بن يوسف بن أحمد بن الآمدي الواسطي قاضيها وكان نعم الرجل وفيها في شعبان توفي المعين أبو الفتوح عبد الواحد بن أبي أحمد بن علي الأمين شيخ الشيوخ ببغداد وكان موته بجزيرة كيش مضى اليها رسولا من الخليفة وكان من أصدقائنا وبيننا وبينه مودة متأكدة وصحبة كثيرة وكان من عباد الله الصالحين

بن حاس وساق * وقد فضحه ابن بنان في جوده * وفضله بالسخاء عن موجوده * ثم لم يتعرض له صيانة لفعاله * ولم يقترف عليه من بعد ذهابا بعز حاله وجماله * هات الامير نصرا ورث العز أباه * ولم يخدم مدى العمر الا أخاه ولم يثنه غير فراغ الاكياس عن شغل المواهب * ولولا الاسياف عن قراع الكتائب * وقطيعة الدنيا في صلة الرحم * وعصيان الهوى في طاعة السلطان ولي النعم * نشأ بين القرآن والتفسير والايمان والتذكير * والعلم بالصلاة والصيام * والفرق بين الحلال والحرام * وسخر الورى بطرف العنان * وسن العلا بحد السنان * قد اقتسمت أيامه شرائط السلم بأسنة الثغور * أو الحرب ظاهرة البسور * فاما المغافر والبواتر * واما الدفاتر والمحابر واما المحاضر والمنابر

رحمه الله ورضي عنه وله كتابة حسنة وشعر جيد وكان عالما بالفقه وغيره ولما توفي رتب أخوه زين الدين عبد الرزاق بن أبي احمد وكان ناظرا على المارستان العضدي فتركه واقتصر على الرباط وفيها في ذي الحجة توفي محمد بن يوسف بن محمد بن عبد الله النيسابوري الكاتب الحسن الخط وكان يؤدي طريقة ابن البواب وكان فقيها حاسبا متكلما وفيها توفي عمر بن مسعود أبي العز أبو القاسم البزاز البغدادي بها وكان من الصالحين يجتمع اليه الفقراء كثيرا ويحسن اليهم وتوفي أيضا أبو سعيد الحسن بن محمد بن الحسن بن حمدون الثعلبي العدوي وهو ولد مصنف التذكرة وكان عالما

(ثم دخلت سنة تسع وستمائة)

(ذكر قدوم ابن منكلي بغداد)

في هذه السنة في المحرم قدم محمد بن منكلي المستولي على بلاد الجبل الى بغداد وسبب ذلك ان أباه منكلي لما استولى على بلاد الجبل وهرب ايتغمش صاحبها منها الى بغداد خاف أن يساعده الخليفة ويرسل معه العساكر فيعظم الامر عليه لانه لم يكن قد تمكن في البلاد فأرسل ولده محمدا ومعه جماعة من العسكر فخرج الناس ببغداد على طبقاتهم يلتقونه وانزل وأكرم وبقي ببغداد الى أن قتل ايتغمش فخلع عليه وعلى من معه وأكرموا وسيرهم الى أبيه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة قبض الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر والشام على أمير اسمه اسامة كان له اقطاع كثيرة من جملتها حصن كوكب من أعمال الاردن بالشام وأخذ منه حصن كوكب وخربه وعفى أثره ومن بعده بنى حصنا بالقرب منه على جبل يسمى الطور وهو معروف هناك وشحنه بالرجال والذخائر والسلاح وفيها توفي الفقيه محمد بن اسمعيل بن أبي الصيف اليمني فقيه الحرم الشريف بمكة

(ثم دخلت سنة عشر وستمائة)

(ذكر قتل ايتغمش)

في هذه السنة في المحرم قتل ايتغمش الذي كان صاحب همذان وقد ذكرنا سنة ثمان انه قدم الى بغداد وأقام بها فانعم عليه الخليفة وشرفه بالخلع وأعطاه الكوسات وما يحتاج اليه وسيره الى همذان فسار في جمادى الآخرة عن بغداد قاصدا الى همذان فوصل الى بلاد ابن ترجم واجتمعا وأقام ينتظر وصول عساكر بغداد اليه ليسير معه على قاعدة استقرت بينهم وكان الخليفة قد عزل سليمان بن ترجم عن الامارة على عشيرته من التركمان الايوانية وولى أخاه الاصغر فأرسل سليمان الى منكلي يعرفه بحال ايتغمش ومضى هو على وجهه فأخذوه وقتلوه وحملوا رأسه الى منكلي وتفرق من معه من أصحابه في البلاد لا يلوي أخ على أخيه ووصل الخبر بقتله الى بغداد فعظم على الخليفة ذلك وأرسل الى منكلي ينكر عليه ما فعل فاجاب جوابا شديدا وتمكن من البلاد وقوي أمره وكثرت جموعه وعساكره وكان من أمره ما نذكره ان شاء الله

(ذكر عدة حوادث)

حج بالناس في هذه السنة أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلي نيابة عن أمير الحاج ابن ياقوت

* واما القماطر والمساطر * فيوما في جحيم الغضب * ويوما في نعيم الادب * ويوما بين ظلال السيوف * ويوما بين معاني الحروف * رفيقه اذا احتمى زج أو قبيعه * ونديمه اذا احتبى حكمة أو شريعه * فكم له في ديار الهند من وقائع أنطقت الحديد * وأخرست الوليد * وسكرت البنوق * وفجرت العروق * وغادرت بيض الرباع في خدمة الابل * وخضبت الجرب عن غيلة التكحيل * وكم في نوادي الفضل له من محاسن تلثم أطرافها الكلم * وتعشق أوصافها الامم * وتسجد لاعقابها الحكم * ويأوي الى برد ظلالها الكرم * وقد غنيت بذوب العقول * عن صفو الشمول * وجلو المقال * عن كعب الغزال * وبغرر البراهين * عن نزه الرياحين * فالخايل على

ومنع ابن ياقوت عن الحج الماجري الحاج في ولايته وفيها في المحرم توفي الحكيم المهذب علي بن أحمد بن مقبل الطبيب المشهور وكان أعلم أهل زمانه بالطب روى الحديث وكان مقيما بالموصل وبها مات وكان كثير الصدقة حسن الاخلاق وله تصنيف حسن في الطب وفيها توفي اسمعيل بن علي البغدادي الفقيه الحنبلي صاحب ابن المني وفيها توفي أيضا احمد بن مسعود التركستاني الفقيه الحنفي ببغداد وهو مدرس مشهد أبي حنيفة وفيها في جمادى الاولى توفي معز الدين أبو المعالي سعد بن علي المعروف بابن حديد الذي كان وزير الخليفة الناصر لدين الله وكان قد ألزم بيته ولما توفي حمل تابوته الى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام بالكوفة وكان حسن السيرة في وزارته كثير الخير والنفع للناس

﴿ثم دخلت سنة احدى عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند﴾

هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة اي سنة كانت انما هي اما هذه السنة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل لان الذي اخبر بها كان من اجناد الموصل وسافر الى تلك البلاد واقام بها عدة سنين وسار مع الامير ابي بكر الذي فتح كرمان ثم عاد فاخبرني بها على شك من وقتها وقد حضرها فقال خوارزمشاه محمد بن تكش كان من جملة أمرائه امير اسمه ابو بكر ولقبه تاج الدين وكان في ابتداء امره جمالا يكري الجمال في الاسفار ثم جاءته السعادة فاتصل بخوارزمشاه وصار سيروان جماله فرأى منه جلدا وامانة فقدمه الى أن صار من اعيان أمراء عسكره فولاه مدينة زوزن وكان عاقلا ذا رأي وحزم وشجاعة فتقدم عند خوارزمشاه تقدما كثيرا فوثق به اكثر من جميع امراء دولته فقال أبو بكر لخوارزمشاه ان بلاد كرمان مجاورة لبلادي فلو أضاف السلطان الى عسكرا لملكتها في اسرع وقت فسير معه عسكرا كثيرا فمضى الى كرمان وصاحبها اسمه حرب بن محمد بن أبي الفضل الذي كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجر فقاتله فلم يكن له به قوة وضعف فملك أبو بكر بلاده في اسرع وقت وسار منها الى نواحي مكران فملكها كلها الى السند من حدود كابل وسار الى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران فاطاعه صاحبها واسمه ملنك وخطب بها لخوارزمشاه وحمل عنها مالا وخطب له بقلهات وبعض عمان لان اصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز وسبب طاعتهم له مع بعد الشقة والبحر يقطع بينهم انهم يتقربون اليه بالطاعة ليأمن اصحاب المراكب التي تسير اليهم عنده فان هرمز مرسى عظيم ومجمع للتجار من اقاصي الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد وكان بين صاحب هرمز وبين صاحب كيش حروب وغاورات وكل منهما ينهى اصحاب المراكب ان ترسي ببلد خصمه وهم كذلك الى الآن وكان خوارزمشاه يصيف بنواحي سمرقند لاجل التتر اصحاب كشلي خان لئلا يقصد بلاده وكان سريع السير اذا قصد جهة سبق خبره

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة قتل مؤيد الملك الشحري وكان قد وزر لشهاب الدين الغوري ولتاج الدين الدز بعده وكان حسن السيرة جميل الاعتقاد محسنا الى العلماء وأهل الخير يزورهم ويبرهم ويحضر الجمعة ماشيا وحده وكان سبب قتله ان بعض عسكر الدز كرهوه وكان كل سنة يتقدم

ذكره محشور * وكان سيبويه من نشره منشور وأئمة الهدى عليه عكوف وملائك العرش حوله صفوف * فمن صحيفة للذكر منشوره * وأخرى بأقلام العدل مسطوره * لا لغو فيها ولا تأثيم الا قيلا صوابا وحديثا كخالص التبر مذابا نفس عليه الدهر كأنه ان الدهر غيور * وعلى عقائل الزمان جسور * فصرعه كيادا للنظار * وأضجعه عنادا للاحرار * شاغلا عن الجود يمينه * وعن السجود جبينه * وعن الذكر لسانه * وعن الغزو

الى البلاد الحارة بين يدى الدزاول الشتاء فسار هذه السنة كعادته فجاء أربعون نفرا اترا كا وقالوا له السلطان يقول لك تحضر جريدة فى عشرة نفر لامهم تجدد فسار معهم جريدة فى عشرة مماليك فلما وصلوا الى نهر وند بالقرب من ماء السند قتلوه وهرب اثنان منهم ظفر بهم خوارزمشاه محمد فقتلهم وفيها فى رجب توفى الركن أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلى البغدادى ببغداد وكان قد ولى عدة ولايات وكان يتهم بمذهب الفلاسفة حتى انه رأى أبوه يوما عليه قميصا بخاريا فقال ما هذا القميص فقال بخارى فقال ابوه هذا عجب ما زلنا نسمع مسلم والبخارى وأما كافر والبخارى ما سمعنا وأخذت كتبه قبل موته بعدة سنين واظهرت فى ملا من الناس ورؤى فيها من تخير النجوم ومخاطبة زحل بالالهية وغيره ذلك من الكفريات ثم أحرقت بباب العامة وحبس ثم أفرج عنه بشفاعة أبيه واستعمل بعد ذلك وفيها ايضا توفى ابو العباس احمد بن هبة الله بن العلاء المعروف بابن الزاهد ببغداد وكان عالما بالنحو واللغة وفى شعبان منها توفى أبو المظفر محمد بن على بن البل الدورى الواعظ ودفن برباط على نهر عيسى ومولده سنة عشر وخمسمائة وفى شوال منها توفى عبد العزيز بن محمود بن الاخضر وكان من فضلاء المحدثين وله سبع وثمانون سنة

(ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وستمائة)

(ذكر قتل منكلى وولاية اغلمش ما كان بيده من الممالك)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى انهزم منكلى صاحب همذان واصفهان والرى وما بينهم من البلاد ومضى هاربا فقتل وسبب ذلك انه كان قد ملك البلاد كما ذكرناه وقتل ايتغمش فأرسل اليه من الديوان الخليفتى رسول ينكر ذلك عليه وكان أوحش الامير أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان وهو صاحبه ومخدومه فارسل الخليفة اليه يحرضه على منكلى ويعده النصرة وارسل ايضا الى جلال الدين الاسماعيلى صاحب قلاع الاسماعيلية ببلاد العجم ألموت وغيرها يأمره بمساعدة أوزبك على قتال منكلى واستقرت القاعدة بينهم على ان يكون للخليفة بعض البلاد ولاوزبك بعضها ويعطى جلال الدين بعضها فلما استقرت القواعد على ذلك جهز الخليفة عسكرا كثيرا وجعل مقدمهم مملوكه مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع وأرسل الى مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك وهو اذ ذاك صاحب اربل وشهرزور واعمالها يأمره أن يحضر بعساكره ويكون مقدم العساكر جميعها واليه المرجع فى الحرب فحضر وحضر معه عسكر الموصل وديار الجزيرة وعسكر حلب فاجتمعت عساكر كثيرة وساروا الى همذان فاجتمعت العساكر كلها فانزاح منكلى من بين ايديهم وتعلق بالجبال وتبعوه فنزلوا بسفح جبل هو فى أعلاه بالقرب من مدينة كرج وضاقت الميرة والاقوات على العسكر الخليفتى جميعه ومن معهم فلو أقام منكلى بموضعه لم يمكنهم المقام عليه اكثر من عشرة ايام لكنه طمع فنزل ببعض عسكره من الجبل مقابل الامير اوزبك فحملوا عليه فلم يثبت اوزبك ومضى منهزما فعاد اصحاب منكلى وصعدوا الجبل وعادا وزبك الى خيامه فطمع منكلى حينئذ ونزل من الغد فى جميع عسكره واصطفت العساكر للحرب واقتتلوا أشد قتال يكون فانهزم منكلى وصعد الجبل فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود اليه وكان قصاراهم العود عنه لكنه

سنه وسنانه * حتى اذا كاد يطمع فى انتعاشه واستكانه وقد وزن على معيار الفداء باضعاف جثمانه * بجمعه بروحه الطاهره * ونفسه التى لم تعد الا النعيم الآخره * ودنا من العمر أنضر ما كان غصن شباب * وأنطقه فصل خطاب * واكرمه عود نضاره * وأحفظه حق ذماره * وأوثقه بالدنيا دار قرار * فكم هنالك من ستور مهتوكة * ودموع مسفوكة * وجيوب مشقوقة * ورؤس محلوقة * وصدور مكلومة * وخدود بنعال السبت ملطومة * ورمى الحدثان نسوة آل نصر

اتخذ الليل جملا وفارق موضعه ومضى منهزما فاتبعه نفر يسير من عسكره وفارقه الباقون وتفرقوا أيدى سبا واستولى عسكر الخليفة واوزبك على البلاد فاعطى جلال الدين ملك الاسماعيلية من البلاد ما كان استقر له وأخذ الباقى اوزبك فسلمه الى اغلمش مملوك اخيه وكان قد توجه الى خوارزمشاه علاء الدين محمد وبقى عنده ثم عاد عنه وشهد الحرب وابلى فيها فولاه اوزبك البلاد وعاد كل طائفة من العسكر الى بلادهم واما منكلى فانه مضى منهزما الى مدينة ساوة وبها شحنة هو صديق له فارسل اليه يستأذنه فى الدخول الى البلد فاذن له ودخل اليه وخرج فلقيه وقبل الارض بين يديه وادخله البلد وأنزله فى داره ثم اخذ سلاحه واراد أن يقيده ويرسله الى اغلمش فسأله ان يقتله هو ولا يرسله فقتله وارسل رأسه الى اوزبك وارسله اوزبك الى بغداد وكان يوم دخوله يوما مشهودا الا أنه لم تتم المسرة للخليفة بذلك فانه وصل ومات ولده فى تلك الحال فاعيد ودفن

﴿ذكر وفاة ابن الخليفة﴾

فى هذه السنة فى العشرين من ذى القعدة توفى ولد الخليفة وهو الاصغر وكان يلقب الملك المعظم واسمه ابو الحسن على وكان احب ولدى الخليفة اليه وقد رشحه لولاية العهد بعده وعزل ولده الاكبر عن ولاية العهد واطرحه لاجل هذا الولد وكان رحمه الله كريما كثير الصدقة والمعروف حسن السيرة محبوبا الى الخاص والعام وكان سبب موته انه أصابه اسهال فتوفى وحزن عليه الخليفة حزنا لم يسمع بمثله حتى انه أرسل الى اصحاب الاطراف ينهاهم عن انفاذ رسول اليه بعزيه بولده ولم يقرأ كتابا ولا سمع رسالة وانقطع وخلا بهمومه واحزانه ورؤى عليه من الحزن والجزع ما لم يسمع بمثله ولما توفى أخرج نهارا ومشى جميع الناس بين يدى تابوته الى تربة جدته عند قبر معروف الكرخى فدفن عندها ولما أدخل التابوت اغلقت الابواب وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة فقيل ان ذلك صوت الخليفة وأما العامة ببغداد فانهم وجدوا عليه وجدا شديدا ودامت المناحات عليه فى اقطار بغداد ليلا ونهارا ولم يبق ببغداد محلة الا وفيها النوح ولم تبق امرأة الا واظهرت الحزن وما سمع ببغداد مثل ذلك فى قديم الزمان وحديثه وكان موته وقت وصول رأس منكلى الى بغداد فان الموكب أمر بالخروج الى لقاء الرأس فخرج الناس كافة فلما دخلوا بالرأس الى رأس درب حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة فاعيد الرأس وهذا دأب الدنيا لا يصفو ابدا فرحها من ترح وقد تخلص مصائبها من شائبة الترح

﴿ذكر ملك خوارزمشاه غزنة واعمالها﴾

فى هذه السنة فى شعبان ملك خوارزمشاه محمد بن تكش مدينة غزنة واعمالها وسبب ذلك ان خوارزمشاه لما استولى على عامة خراسان وملك باميان وغيرها ارسل الى تاج الدين صاحب غزنة وقد تقدمت اخباره حتى ملكها يطلب منه ان يخطب له ويضرب السكة باسمه ويرسل اليه فيلا واحدا لنصالحه ويبقى بيده غزنة ولا يعارضه فيها فاحضر الامراء وأعيان دولته واستشارهم وكان فيهم اكبر امير اسمه قتلغ تكين وهو من مماليك شهاب الدين الغورى ايضا واليه الحكم فى دولة الدز وهو النائب عنه بغزنة فقال الرأى أن تخطب له وتعطيه ما طلب وتستريح من

بعقدار سعدن له سعودا فردت شعورهن السود بيضا وردت وجوههن البيض سودا حتى اذا نشر رداء الردى عليه * وقربت حولة البلى اليه * تنازعته اكناف الرجال كما تنازعته من قبل ظماء * الآمال * فكأن الشمس غبراء من حثو التراب * والارض غرقى من دموع المصاب * والآذان موقورة من رفع العقائر والابصار مخطوفة من نقض الغدائر * وقد غدت الوجوه مسفورة للنظارة * والجموع محشورة للاعتبار * والعيون بين جموم تجرى سواقيه * وجمود لا تندى ماقيه * وودت زهر النجوم لو صادفن ليلا

الحرب والقتال وليس لنا بهذا السلطان قوة فقال الجماعة مثل قوله فأجاب الى ما طلب منه وخطب لخوارزمشاه وضرب السكة باسمه وارسل اليه رسولا واعاد رسوله اليه ومضى الى الصيد فارسل قتلغ تكين من غزنة الى خوارزمشاه يطلبه ليسلم اليه غزنة فسار مجدا وسبق خبره فسلم اليه قتلغ تكين غزنة وقلعتها فلما دخل اليها قتل من بها من عسكر الغورية لاسيما الاتراك فوصل الخبر الى الدز بذلك فقال ما فعل قتلغ تكين وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها فقيل هو الذى احضره وسلم اليه فمضى هاربا هو ومن معه الى لهاوور وأقام خوارزمشاه بغزنة فلما تمكن منها احضر قتلغ تكين فقال له كيف حالك مع الدز وكان عالما به وانما أراد ان تكون له الحجة عليه فقال كلانا مماليك شهاب الدين ولم يكن الدز يقيم بغزنة الا أربعة اشهر الصيف وأنا الحاكم فيها والمرجع الى فى كل الامور فقال له خوارزمشاه اذا كنت لا ترعى لرفيقك ومن احسن اليك صحبته واحسانه فكيف يكون حالى انا معك وما الذى تصنع مع ولدى اذا تركته عندك فقبض عليه وأخذ منه اموالا جمة حملها ثلاثون دابة من اصناف الاموال والامتعة واحضر أربعمائة مملوك فلما أخذ ماله قتله وترك ولده جلال الدين بغزنة مع جماعة من عسكره وأمرائه وقيل ان ملك خوارزمشاه غزنة كان سنة ثلاث عشرة وستمائة

﴿ذكر استيلاء الدز على لهاوور وقتله﴾

لما هرب الدز من غزنة الى لهاوور ولقيه صاحبها ناصر الدين قباجة وهو من مماليك شهاب الدين الغورى ايضا وله من البلاد لهاوور وملتان واوجه وديبل وغير ذلك الى ساحل البحر ومعه نحو خمسة عشر الف فارس وكان قد بقى مع الدز نحو ألف وخمسمائة فارس فوقع بينهما مصاف واقتتلوا فانهزمت ميمنة الدز وميسرته وأخذت الفيلة التى معه ولم يبق له غير فيلين معه فى القلب فقال الفيال اذا الخاطر بسعادتك وأمر احد الفيلين أن يحمل على العلم الذى لقباجة يأخذه وامر الفيل الآخر الذى له ايضا أن يأخذ الجتر الذى له فأخذه ايضا والفيلة المعلمة تفهم ما يقال لها هذا رأيناه فحمل الفيلان وحمل معهما الدز فيمن بقى عنده من العسكر وكشف رأسه وقال بالعجمية ما معناه اما الملك واما هلاك واختلط الناس بعضهم ببعض وفعل الفيلان ما أمرهما الفيال من أخذ العلم والجتر فانهزم قباجة وعسكره وملك الدز مدينة لهاوور ثم سار الى بلاد الهند ليملك مدينة دهلى وغيرها مما بيد المسلمين وكان صاحب دهلى أميرا اسمه الترمش ولقبه شمس الدين وهو من مماليك قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين ايضا كان قد ملك الهند بعد سيده فلما سمع به الترمش سار اليه فى عساكره كلها فلقيه عند مدينة سمانا فاقتتلوا فانهزم الدز وعسكره وأخذ وقتل وكان الدز محمود السيرة فى ولايته كثير العدل والاحسان الى الرعية لاسيما التجار والغرباء ومن محاسن اعماله انه كان له أولاد ولهم معلم يعلمهم فضرب المعلم أحدهم فمات فاحضره الدز وقال له يا مسكين ما حملك على هذا فقال والله ما أردت الا تأديبه فاتفق ان مات فقال صدقت واعطاه نفقة وقال له تغيب فان امه لا تقدر على الصبر فربما أهلكتك ولا أقدر امنع عنك فلما سمعت ام الصبى بموته طلبت الاستاذ لتقتله فلم تجده فسلم وكان هذا من احسن ما يحكى عن احد من الناس

ذكر

فدعون ويلا * وتناوحن
على المصاب خيلا فخيلا *
وأما الليل فقد أحسن فيه
من قال * وان ركب الارتحال
لقد بكت الليالى فى دجاها
لموت القرم مصباح الانام
فأشخاص النجوم الزهر مما
تجسم من مدامعها السجام
ويظل هجيرى كل نا كل سائر
وصائر الى موقف الوداع حائر
من كان مسرورا بموت أميرنا
فليأت نسوته بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنه
بالصبح قبل تبلج الاسحار
يخمشن حر وجوههن على فتى
عف الشمائل طيب الاخبار
قد كن يخبأن الوجوه تسترا
فاليوم حين برزن للنظار
فانا لله وانا اليه راجعون من
شعوب تركت القلوب شعوبا

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة توفي الوجيه المبارك بن أبي الازهر سعيد بن الدهان الواسطي النحوي الضرير كان نحريرا فاضلا قرأ على الكمال بن الانباري وعلى غيره وكان حنبليا فصار حنفيا ثم صار شافعيا فقال فيه أبو البركات بن زيد التكريتي

ألا مبلغا عني الوجيه رسالة * وان كان لا تجدي لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل * وفارقته اذ أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تدينا * ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر * الى مالك فافطن لما انا قائل

(ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة)

(ذكر وفاة الملك الظاهر)

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو صاحب مدينة حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام وكان مرضه اسهالا وكان شديد السيرة ضابطا للامور كلها كثير الجمع للاموال من غير جهاتها المعتادة عظيم العقوبة على الذنب لا يرى الصفح وله مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد والشعراء وأهل الدين وغيرهم فيكرمهم ويجري عليهم الجاري الحسن ولما اشتدت علته عهد بالملك بعده لولد له صغير اسمه محمد ولقبه الملك العزيز غياث الدين عمره ثلاث سنين وعدل عن ولد كبير لان الصغير كانت أمه ابنة عمه الملك العادل ابي بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد فعهد بالملك له ليبقى عمه البلاد عليه ولا ينازعه فيها ومن أعجب ما يحكى ان الملك الظاهر قبل مرضه أرسل رسولا الى عمه العادل بمصر يطلب منه ان يحلف لولده الصغير فقال العادل سبحان الله أي حاجة الى هذه اليمين الملك الظاهر مثل بعض أولادي فقال الرسول قد طلب هذا واختاره ولا بد من اجابته اليه فقال العادل كم من كبش في المرعى وخروف عند القصاب وحلف فاتفق في تلك الايام أن توفي الملك الظاهر والرسول في الطريق ولما عهد الظاهر الى ولده بالملك جعل أتابكه ومربيه خادما روميا اسمه طغرل ولقبه شهاب الدين وهو من خيار عباد الله كثير الصدقة والمعروف ولما توفي الظاهر أحسن هذا شهاب الدين السيرة في الناس وعدل فيهم وأزال كثيرا من السنن الجائرة وأعاد أملاكا كانت قد أخذت من أربابها وقام بتربية الطفل أحسن قيام وحفظ بلاده واستقامت الامور بحسن سيرته وعدله وملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه فمن ذلك تل باشر كان الملك الظاهر لا يقدر أن يتعرض اليه فلما توفي ملكها كيكاوس ملك الروم كما نذكره ان شاء الله تعالى انتقلت الى شهاب الدين وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون هذا الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة وأعف عن أموال الرعية وأقرب الى الخير منهم ولا أعلم اليوم في ولاة امور المسلمين أحسن سيرة منه فالله يبقيه ويدفع عنه فلقد بلغني عنه كل حسن وجميل

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في المحرم وقع بالبصرة برد كثير وهو مع كثرته عظيم القدر قيل كان أصغره مثل

واوسعت الاكباد ثقوبا * وكلمت النفوس كروبا * وسفحت العيون غروبا * ونضحت الوجوه قطوبا * ونثرت فناء الاصلاب أنبوبا فأنبوبا * وسار شخص العلا الى فرضة البلى * فريدا وحيدا * لم يغن عنه جوده * ولم تجد عليه جنوده * ولم تقاتل عنه فيوله * ولم تناضل دونه مرده وكهوله خلا انه فاح ذكاه مآثره * كما فاح كباء مجامره * ووهت على عرشه الرقاب * كما وهت حين أثقلها النعم الرغاب *
فليس نسيم المسك ريح حنوطه
ولكنه ذاك الثناء المخلف
وليس صرير العرش ما تحملونه
ولكنه أصلاب قوم تقصف
أيا ويل العفاة من بعده ما حالهم * وما فات بهم آمالهم * لقد انفصم محالهم

النار بحجة الكبيرة وقيل فى أكبره ما يستحى الانسان أن يذكره فكسر كثيرا من رؤس النخل وفى المحرم ايضا سير الخليفة الناصر لدين الله ولدى ابنه المعظم على الى تستر وهما المؤيد والموفق وسار معهما مؤيد الدين النائب عن الوزارة وعز الدين الشرابى فأقاما بها يسيرا ثم عاد الموفق مع الوزير والشرابى الى بغداد أواخر ربيع الآخر وفيها فى صفر هبت ببغداد ريح سوداء شديدة كثيرة الغبار والقتام وألقت رملا كثيرا وقلعت كثيرا من الشجر فخاف الناس وتضرعوا ودامت من العشاء الآخرة الى ثلث الليل وانكشفت وفيها توفى التاج زيد بن الحسن ابن زيد الكندى أبو اليمن البغدادى المولد والمنشا انتقل بالشام فأقام بدمشق وكان اماما فى النحو واللغة وله الاسناد العالى فى الحديث وكان ذا فنون كثيرة من أنواع العلوم رحمه الله

(ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة)

(ذكر ملك خوارزم شاه بلاد الجبل)

فى هذه السنة سار خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش الى بلاد الجبل فملكها وكان سبب حركته فى هذا الوقت أشياء أحدها انه كان قد استولى على ما وراء النهر وظفر بالخطا وعظم أمره وعلا شأنه وأطاعه القريب والبعيد ومنها انه كان يهوى ان يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان وكان الامر بالضد لانه كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولا وكان سبيله اذا ورد الى بغداد أن يقدم غيره عليه ولعل فى عسكره مائة مثل الذى يقدم سبيله عليه فكان اذا سمع ذلك يغضبه ومنها ان اغلمش لما ملك بلاد الجبل خطب له فيها جميعها كما ذكرناه فلما قتله الباطنية غضب له وخرج لئلا تخرج البلاد عن طاعته فسار مجدا فى عساكر تطبق الارض فوصل الى الرى فملكها وكان أتابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس لما بلغه مقتل اغلمش جمع عساكره وسار نحو بلاد الجبل طمعا فى تملكها لخلوها عن حام ومانع فوصل الى اصفهان فأطاعه أهلها وسار منها يريد الرى ولم يعلم بقدوم خوارزم شاه فلقيه مقدمة خوارزم شاه فظنهاعساكر تلك الديار قد اجتمعت لقتاله ومنعه عن البلاد فقاتلهم وجد فى محاربتهم حتى كاد يهزمهم فبينما هو كذلك واذ هو قد ظهر له جتر خوارزم شاه فسأل عنه فأخبر به فاستسلم وانهزمت عساكره وأخذ أسيرا وحمل الى بين يدى خوارزم شاه فأكرمه ووعده الاحسان والجميل وأمنه على نفسه واستحلفه على طاعته واستقرت القاعدة بينهما على ان يسلم بعض البلاد اليه ويبقى بعضها وأطلقه وسير معه جيشا الى بلاد فارس ليسلم اليهم ما استقرت القاعدة عليه فلما قدم على ولده الاكبر رآه قد تغلب على بلاد فارس فامتنع من التسليم الى أبيه ثم انه ملك البلاد كما نذكره وخطب فيها لخوارزم شاه وسار خوارزم شاه الى ساوة فملكها وأقطعها لعماد الملك عارض جيشه وهو من أهلها ثم سار الى قزوين وزنجان وابهر فملكها كلها بغير ممانع ولا مدافع ثم سار الى همذان فملكها وأقطع البلاد لاصحابه وملك اصفهان وكذلك قم وقاشان واستوعب ملك جميع البلاد واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان واران بأن يخطب له أوزبك فى بلاده ويدخل فى طاعته ثم انه عزم على المسير الى بغداد فقدم بين يديه أميرا كبيرا فى خمسة عشر ألف فارس وأقطعه حلوان فسار حتى وصل اليها ثم أتبعه بأمير آخر فلما سار عن همذان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله فهلكت دوابهم ومات كثير منهم

وانقطع دون هاتيك الموات حقهم ومحالهم كأنى بهم غادين على سدة كانت بالابواع تلتزم وبالافواه تستلم * وبعشير ركانها تمسك * وبخدمة أركانها يتنسك * قد أقفرت فلا باب ولا بواب * ولا حجاب ولا حجاب * يسألون أين الامير * وما فعل السرير * وأين الحاجب والوزير * وأين الخادم والسمير * وما هذه الوحشة المستطاره والغبرة المثاره * والظلمة الساجيه * والغمة الشاجيه * يقولون ركب الامير بزوره أباه * ويجيء بالسلام محياه * يقضى نذر الاعتكاف على ثراه * ويعتذر من هجرة طال عليها مداه * أفى يركب للسلام فتفتح أبوابه * ويعدم بوابه * ويبذل حجابه * ويوحش منتابه

وطمع فيمن بقي بنو ترجم الاتراك وبنو هكار الاكراد فتخطفوهم فلم يرجع منهم الى خوارزم شاه الا اليسير فتطير خوارزم شاه من ذلك الطريق وعزم على العود الى خراسان خوفا من التتر لانه ظن انه يقضي حاجته ويفرغ من ارادته في المدة اليسيرة فخاب ظنه ورأى البيكار بين يديه طويلا فعزم على العود وولى همذان أميرا من أقاربه من جهة والدته يقال له طائيسي وجعل في البلاد جميعها ابنه ركن الدين وجعل معه متوليا لامر دولته عماد الملك الساوي وكان عظيم القدر عنده وكان يحرص على قصد العراق وعاد خوارزم شاه الى خراسان فوصل الى مرو في المحرم سنة خمس عشرة وستمائة وسار من وجهه الى ماوراء النهر ولما قدم الى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله وقال انه قد مات وكان ذلك في ذي القعدة سنة أربع عشرة وستمائة ولما قدم مرو قطع الخطبة بها وكذلك ببلخ وبخارا وسرخس وبقي خوارزم وسمرقند وهراة لم تقطع الخطبة فيها لانه قصد اتركها لان البلاد كانت لا تعارض من اشباه هذا ان أحبوا خطبوا وان أرادوا قطعوا فبقيت كذلك الى ان كان منه ما كان وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يقصده أحد بأذى الا قصمه فعله وخبث نيته لاجرم لم يمهل هذا خوارزم شاه حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع بمثله في الدنيا قديما ولا حديثا

(ذكر ما جرى لاتابك سعد مع أولاده)

لما قتل اغلمش صاحب بلاد الجبل همذان واصفهان وما بينهما من البلاد جمع أتابك سعد بن دكلا صاحب فارس عساكره وسار عن بلاده الى اصفهان فملكها وأطاعه أهلها فطمع في تلك البلاد جميعها فسار عن اصفهان الى الري فلما وصل اليها لقي عساكر خوارزم شاه قد وصلت كما ذكرناه فعزم على محاربة مقدمة العسكر فقاتلها حتى كاد يهزمها فظهرت عساكر خوارزم شاه ورأى الجتر فسقط في يديه وألقى نفسه وضعفت قوته وقوة عسكره فولوا الادبار وأخذ أتابك سعد أسيرا وأحضر بين يدي خوارزم شاه فأكرمه وطيب نفسه ووعده الاحسان واستصحبه معه الى ان وصل الى اصفهان فسيره منها الى بلاده وهي تجاورها وسير معه عسكرا مع أمير كبير ليتسلم منه ما كان استقر بينهما فانهما اتفقا على ان يكون لخوارزم شاه بعض البلاد ولاتابك سعد بعضها وتكون الخطبة لخوارزم شاه في البلاد جميعها وكان أتابك سعد قد استخلف ابنه على البلاد فلما سمع الابن باسر أبيه خطب لنفسه بالمملكة وقطع خطبة أبيه فلما وصل أبوه ومعه عسكر خوارزم شاه امتنع الابن من تسليم البلاد الى أبيه وجمع العساكر وخرج يقاتله فلما تراءى الجمعان انحازت عساكر فارس الى صاحبهم أتابك سعد وتركوا ابنه في خاصته فحمل على أبيه فلما رآه أبوه ظن انه لم يعرفه فقال له أنا فلان فقال اياك أردت فحينئذ امتنع منه وولى الابن منهزما ووصل أتابك سعد الى البلاد فدخلها وملكها وأخذ ابنه أسيرا فسجنه الى الآن الاانني سمعت الآن وهو سنة عشرين وستمائة انه قد خفف حبسه ووسع عليه ولما عاد خوارزم شاه الى خراسان غدر سعد بالامير الذي عنده فقتله ورفع عن طاعة خوارزم شاه واشتغل خوارزم شاه بالحادثة العظمى التي شغلته عن هذا وغيره لكن الله انتقم له بابنه غياث الدين كما ذكرناه سنة عشرين وستمائة لان سعدا كفر احسان خوارزم شاه وكفر الاحسان عظيم العقوبة

ها انه الركوب فتى المعاد يقولون ميعاده والله المعاد ألم تروا عروشه بالامس ممدوده * وغروسه مخضوده * وجياده مهلوبه وسروجه مقلوبه * وأياماه مجموعه * وأيدي يتاماه فوق الهام موضوعه * هنالك نادوا ثبورا * وعلموا أنه الحق مقدورا * وعقدوا دون حامة البيت مناحه وندبوا عين الورى أدبا وفصاحه * وكرما وسماحه وأفعالا كما أسفر الصريم وأبرز كفه الكليم * مغداه ومراحه يمشون على الجباب * وقد غدوا في بيض الثياب * أينزع السواد قد كذب الحداد * الآن أحوج ما كنتم اليه فزعقوه هلا خالفتم الرسم للوجوب ولبستم لبسة المنكوب وهلا وقفتم وقفة الجاب للسيد المحبوب

(ذكر ظهور الفرنج الى الشام ومسيرهم الى ديار مصر وملكهم مدينة دمياط وعودها الى المسلمين)

كان من أول هذه الحادثة الى آخرها أربع سنين غير شهر وانما ذكرناها ههنا لان ظهورهم كان فيها واوسقناها سياقة متتابعة ليتلو بعضها بعضا فنقول في هذه السنة وصلت امداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج في الغرب والشمال الآن المتولي لها كان صاحب رومية لانه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرهم وساءهم فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمي الفرنج وأمر غيره من ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشا ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر فسار منها الى الشام فوصل الى الرملة ومنها الى لد وبرز الفرنج من عكا ليقصدوه فسار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازما على ان يسبقهم الى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فتقدم الفرنج اليه في شعبان عازمين على محاربته لعلمهم انه في قلة من العسكر لان العساكر كانت متفرقة في البلاد فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم في الطائفة التي معه خوفا من هزيمة تكون عليه وكان حازما كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل الى البلاد ويجمع العساكر فوصل الى مرج الصفر فنزل فيه وكان أهل بيسان وتلك الاعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا فلم يفارقوا بلادهم ظنا منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه فلما أقدموا صاروا على غفلة من الناس فلم يقدر على النجاة الا القليل فأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة وغنموا شيأ كثيرا ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبثوا السرايا في القرى فوصلت الى خسفين ونوى وأطراف السواد ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والاسرى ما لا يحصى كثرة سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا فأقاموا أياما استراحوا ثم جاؤا الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا البلاد صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا من نصف رمضان الى العيد والذي سلم من تلك البلاد كان مخفا حتى قدر على النجاة ولقد بلغني أن العادل لما سار الى مرج الصفر رأى في طريقه رجلا يحمل شيأ وهو يمشي تارة وتارة يقعد ليستريح فعدل العادل اليه وحده فقال له يا شيخ لا تعجل وارفق بنفسك فعرفه الرجل فقال يا سلطان المسلمين أنت لا تعجل فانا اذا رأيناك قد سرت الى بلادك وتركتنا مع الاعداء كيف لا نعجل وبالجملة الذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق في قطعة صالحة من الجيش الى نابلس ليمنع الفرنج عن البيت المقدس

(ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها)

لما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها عن قريب فتقدموا اليها وحصروها وزحفوا اليها وصعدوا في جبلها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه فاتفق

يا قوم ليس بياض الثوب زينتكم
وقد فجعتم بمولى كله كرم
ردوا عليكم جميع افضل لبستكم
ان الحداد على المفقود ملتزم
وطفقوا يتناشدون بينهم
عتبا على الزمان * وندبة للفضل والاحسان
يا دهر دونك ما فعلت فقد غدا
بك كل ما يخشى الرجال سليما
من ذا الذي يرجو وفاءك بعدما
غادرت نصرا في التراب رميما
من كان أعذب شيمة وسجية
وألذ مكرمة وأطيب خيما
ومن العجائب والعجائب جمة
أن لا تلام وقد غدوت مليما
يا دهر مالك طول وقتك ترتعي
روض المعالي بارضا وجميما
يا دهر مالك والكرام أولي النهى
ماذا يضرك لو تركت كريما
لئن سر الامير أباه بلقياه

أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم فعادوا عن القلعة فتركوها وقصدوا عكا وكان مدة
مقامهم على الطور سبعة عشر يوما ولما فارقوا الطور أقاموا قريبا ثم ساروا في البحر الى ديار
مصر على ما نذكره ان شاء الله تعالى فتوجه الملك المعظم الى قلعة الطور فخربها الى ان ألحقها
بالارض لانها بالقرب من عكا ويتعذر حفظها

(ذكر حصر الفرنج دمياط الى ان ملكوها)

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا الى ان دخلت سنة خمس عشرة وستمائة فساروا
في البحر الى دمياط فوصلوا في صفر فأرسوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل فان بعض النيل
يصب في البحر المالح عند دمياط وقد بني في النيل برج كبير منيع وجعلوا فيه سلاسل من حديد
غلاظا ومدوها في النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح ان تصعد في النيل
الى ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها
عن أقاصي ديار مصر وادانيها فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم
سورا وجعلوا خندقا يمنعهم ممن يريدهم وشرعوا في قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرمات
وابراجا يزحفون بها في المراكب الى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه وكان البرج مشحونا بالرجال
وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف
بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده الى دمياط ليمنع العدو من العبور الى
أرضها وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشيء وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع
هذا فهم ملازمون لقتاله فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ثم بعد ذلك ملكوا
البرج فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح في النيل ويتحكموا
في البر فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل ثم انهم
قاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا كثيرا متتابعا حتى قطعوه فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة
مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها في النيل فمنعت المراكب من سلوكه فلما رأى الفرنج ذلك
قصدوا خليجا هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري عليه قديما فحفروا ذلك الخليج وعمقوه فوق
المراكب التي جعلت في النيل وأجروا الماء فيه الى البحر المالح وأصعدوا مراكبهم فيه الى
موضع يقال له بورة على أرض الجيزة أيضا مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هنالك
فانهم لم يكن لهم اليه طريق يقاتلونه فيها كانت دمياط تحجز بينهم وبينه فلما صاروا في بورة
حاذوه فقاتلوه في الماء وزحفوا اليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شيء لان
الميرة والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لا يصل اليهم أذى
وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر فاتفق لما يريد الله عز وجل ان الملك
العادل توفي في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة على ما نذكره ان شاء الله فضعفت
نفوس الناس لانه السلطان حقيقة وأولاده وان كانوا ملوكا الا انهم بحكمه والامر اليه وهو
ملكهم البلاد فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو وكان من جملة الامراء بمصر أمير
يقال له عماد الدين أحمد بن علي ويعرف بابن المشطوب وهو من الاكراد الهكارية وهو أكبر أمير
بمصر وله لفيف كثير وجميع الامراء ينقادون اليه ويطيعونه لاسيما الاكراد فاتفق هذا الامير

وشفى لوعة قلبه وصداه
لقد ساء أخاه * بأن عدم
مثواه * وافتقد مصبحه
وممساه * ووكل من بعده
الى نواهس الارض ولو
أحس التراب قراه * لكنه
طود منيع وسيف القضاء
أحد * وحكم السماء حتم
لا يرد

ومن قبله ما قد أصيب نبينا
أبو القاسم النور المبين بقاسم
وخبر قيس بالجلية في ابنه
فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
وقال علي في التعازي
لاشعث
وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة
فتؤجر أو تسلو سلو البهائم
خلقنا رجالا للتجلد والاسى
وتلك الغواني للبكا والمآتم
لا در در الموت من وقاح
وقرن كفاح * ما انشب نابه
الا افترس * ولا ألجم مخلبه
الا انتهس * سواء عليه

مع غيره من الامراء وأرادوا ان يخلعوا الملك الكامل من الملك ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم اليهم عليه وعلى البلاد فبلغ الخبر الى الكامل ففارق المنزلة ليلا جريدة وسار الى قرية يقال لها اشمون طناح فنزل عندها وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل انسان منهم هواه ولم يقف الاخ على أخيه ولم يقدروا على اخذ شئ من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم الا اليسير الذى يخف حمله وتركوا الباقى بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل وأما الفرنج فانهم أصبحوا من الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل كجارى عادتهم فبقوا لايدرون ما الخبر واذ قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته فعبروا حينئذ النيل الى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع وكان عبورهم فى العشرين من ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة فغنموا ما فى عسكر المسلمين فكان عظيما يعجز العادين وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لانه لم يثق بأحد من عسكره وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين ان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل وصل الى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس فى أمر مريج فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه وأقام بمنزلته وأخرجوا ابن المشطوب الى الشام فاتصل بالملك الاشرف وصار من جنده فلما عبر الفرنج الى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الافساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج وكان أضر شئ على أهل دمياط أنها لم يكن بها من العسكر أحد لان السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر وكان ذلك من فعل ابن المشطوب لاجرم لم يمهله الله وأخذه أخذة رابية على ما نذكره ان شاء الله وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا عليهم خندقا يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين وهذه كانت عادتهم وأداموا القتال واشتد الامر على أهلها وتعذرت عليهم الاقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لان الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة ومع هذا فصبروا صبرا لم يسمع بمثله وكثر القتل فيهم والجراح والموت والامراض ودام الحصار عليهم الى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فعجز من بقى من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم فسلموا البلد الى الفرنج فى هذا التاريخ بالامان فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيدى سبا

(ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج)

لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون فجلى أهلها عنها وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى انها بقيت لاترام وأما الملك الكامل فانه أقام بالقرب منهم فى أطراف بلاده يحميها ولما سمع الفرنج فى بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا اليها يهرعون من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فخرب البيت المقدس فى ذى القعدة من السنة وانما فعل ذلك لان الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الاسلام وكافة أهله وبلاده على خطة خسف فى شرق الارض وغربها

الملك المحجب * والسلطان المغلب * والمقتر المستضعف والسوقة المتنعف

ألا تعس هذا الموت كيف ارتقى الى
حمى قصره العالى المنيع الجوانب

وعز على تلك القنابل والقنا
وجاز على تلك القواضى القواضب

عجبت له والموت ليس بعجب
وفيه اذا فكرت كل العجائب

لعمرى لقد جراه حين غزا الى
نهاب نفوس واغتيال الكتائب

وفهمه فتح الحصون وانها
سوامى المراقى ساميات المراتب

وبصره بالفتك فى غزواته
ورمى الرزايا وافتراس المضارب

فكر عليه شدة الليث واتحى
كطوف لغول السوء حول القرائب

أقبل التتر من المشرق حتى وصلوا الى نواحى العراق واذربيجان واران وغيرها على ما نذكره ان
شاء الله تعالى وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط فى الديار المصرية مع عدم الحصون
المانعة بها من الاعداء وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تملك وخافهم الناس كافة
وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو
ولات حين مناص والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد
خاوية على عروشها وانما منعوا منه فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه الى اخويه المعظم
صاحب دمشق والملك الاشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وارمينية وغيرهما
يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فيرسلان العساكر اليه فسار صاحب
دمشق الى الاشرف بنفسه فرآه مشغولا عن انجاده بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه وزوال
الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه ونحن نذكر ذلك سنة خمس عشرة وستمائة ان شاء الله عند وفاة
الملك القاهر صاحب الموصل فليطلب من هناك فعذره وعاد عنه وبقى الامر كذلك مع الفرنج
وأما الملك الاشرف فزال الخلف من بلاده ورجع الملوك الخارجون عن طاعته اليه واستقامت
له الامور الى سنة ثمان عشرة وستمائة والملك الكامل مقابل الفرنج فلما دخلت سنة ثمان
عشرة وستمائة علم بزوال المانع للاشرف عن انجاده فارسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق
فسار صاحب دمشق يحثه على المسير ففعل وسار الى دمشق فيمن معه من العساكر وأمر الباقين
باللحاق به الى دمشق وأقام بها ينتظرهم فأشار عليه بعض أمرائه وخواصه بانفاذ العساكر
والعود الى بلاده خوفا من اختلاف يحدث فلم يقبل قولهم وقال قد خرجت للجهاد ولا بد من
اتمام ذلك العزم فسار الى مصر وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل وقصدوا
الملك الكامل ونزلوا مقابله بينهما خليج من النيل يسمى بحر اشموم وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ
الى عسكر المسلمين وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية وأما الاشرف فانه
سار حتى وصل مصر فلما سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجه اليه فلقيه واستبشر هو وكافة
المسلمين باجتماعهم لعل الله يحدث بذلك نصرا وظفرا وأما الملك المعظم صاحب دمشق فانه سار
أيضا الى ديار مصر وقصد دمياط ظنا منه ان اخويه وعسكريهما قد نازلوها وقيل بل أخبر
فى الطريق ان الفرنج قد توجهوا الى دمياط فسابقهم اليها ليقاتلهم من بين أيديهم واخواه من
خلفهم والله أعلم ولما اجتمع الاشرف بالكامل استقر الامر بينهما على التقدم الى خليج من
النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا اليه فقاتلوا الفرنج وازدادوا قربا وتقدمت شوانى المسلمين
من النيل وقاتلوا شوانى الفرنج فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الاموال
والسلاح ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم
هذا يجرى والرسل مترددة بينهم فى تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدس
وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا
دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم
أمر وقالوا لا بد من الكرك فبينما الامر فى هذا وهم يمتنعون فاضطر المسلمون الى قتالهم وكان
الفرنج لاقتدارهم فى نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ظنا منهم ان العساكر

ومن عجيب الامور فى حكم
المقدور * أن اخترم الامير
الماضى برد الله حفرته *
ونور غرته * حتف أنفه *
على اخطاره بنفسه * فى حوم
الحتوف * واعتراضه
للشهادة بين الاسنة
والسيوف * كخالد بن
الوليد حين وافى أجله
اذ قال ثاورت الحروب
منذ عقلت فما فى بدنى مغرز
ابرة * الا وفيه حز ضربة
او وخز طعنة * وها انا أموت
ميتة الحمار * ان الحكم الا الله
الواحد القهار * أو كلاما
شبيها به أما ان خالدا لم يدر
أن سيف الله لا يقتل
بالسيف * وكذا القتل يرنو
الى موت الشباب من
خصاص الحيف * وأن الله
تعالى لما جعله أكرم
النفوس مناقب * قبض له
أحمد الامور عواقب *
وقد فرغ ابن الرومى من

الاسلامية لاتقوم لهم وان القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من
الميرة لامر يريده الله تعالى بهم فعبر طائفة من المسلمين الى الارض التى عليها الفرنج ففجروا النيل
فركب الماء أكثر تلك الارض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق
فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشموم وعبرت العساكر عليها فملك الطريق الذى
يسلكه الفرنج ان أرادوا العود الى دمياط فلم يبق لهم خلاص واتفق فى تلك الحال انه وصل
اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه والجميع
مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه فوقع عليها شوانى المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمرمة
وبما معها من الحراقات وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا
الصواب بمفارقة دمياط فى أرض يجهلونها هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب
ويحملون على أطرافهم فلما اشتد الامر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم
وأرادوا الزحف الى المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود الى دمياط فرأوا ما أملوه
بعيدا وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم والوجه الذى يقدرون على
سلوكه قد ملكه المسلمون فلما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم وان ميرتهم قد تعذر
عليهم وصولها وأن المنايا قد كشرت لهم عن انيابها ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل
عنهم شيطانهم فراسلوا الملك الكامل والاشرف يطلبون الامان ليسلموا دمياط بغير عوض
فبينما المراسلات مترددة اذ أقبل جيش كبير لهم رهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط فظنه
المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا واذا هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل اليهم وكان
قد جعل طريقه على دمياط لما ذكرناه فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلانا ووهنا
وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة والايمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة
وستمائة وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم الى الملك الكامل والاشرف رهائن على
تسليم دمياط ملك عكا ونائب البابا صاحب رومية وكندريش وغيرهم وعدتهم عشرون ملكا
وراسلوا قسوسهم ورهبانهم الى دمياط فى تسليمها فلم يمتنع من بها وسلموها الى المسلمين تاسع رجب
المذكور وكان يوما مشهودا ومن العجب ان المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة فى البحر
فلو سبقوا المسلمين اليها لامتنعوا من تسليمها ولكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمرا كان مفعولا
ولم يبق بها من أهلها الا آحاد وتفرقوا أيدى سبا بعضهم سار عنها باختياره وبعضهم مات
وبعضهم أخذه الفرنج ولما دخلها المسلمون رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصينا عظيما
بحيث بقيت لاترام ولا يوصل اليها وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق الى نصابه ورده الى أربابه
وأعطى المسلمين ظفرا لم يكن فى حسابهم فانهم كانت غاية أمانيهم ان يسلموا البلاد التى أخذت
منهم بالشام ليعيدوا دمياط فرزقهم الله اعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها فالله
المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو وكفاهم شر التتر
على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى المحرم كانت ببغداد فتنة بين أهل المأمونية وبين أهل باب الازج بسبب قتل

هذا المعنى بجود * وبيض
وجه البرهان بما سود
ان لم يكن ظفر الهيجاء منيته
فكرم النبت يذوى غير محتضد
اما ترى الغرس لا تذوى
كرائمه
الا على سوقها الى آخر الابد
ميتة السيف قوم يشرفون
بها
ايسوا من الجد فى غاياته البعد
عز الحياة وعز الموت ما اجتمعا
أسنى وأبقى لبيت العز
ذى العمد
موت السلامة للانسان
نعمته
وانما القتلة الشنعاء للاسد
لم يعمل السيف ظلما
فى ضرائبه
فلم يسلط عليه كف ذى قود
ولعمرى ان الرزية به
قدس الله روحه لقاطرة
الغموم * مشاطرة بين
الرجال على العموم * غير
ان القاضى أبا العلاء

سبع وزاد الشر بينهم واقتتلوا فجرح بينهم كثير فحضر نائب الباب وكفهم عن ذلك فلم يقبلوا
ذلك وأسمعوه ما يكره فأرسل من الديوان أمير من مماليك الخليفة فرد أهل كل محلة الى محلتهم
وسكنت الفتنة وفيها كثر الفار ببلدة دجيل من اعمال بغداد فكان الانسان لا يقدر أن يجلس
الا ومعه عصا يرد الفار عنه وكان يرى الكثير منه ظاهرا يتبع بعضه بعضا وفيها زادت دجلة
زيادة عظيمة لم يشاهد فى قديم الزمان مثلها وأشرفت بغداد على الغرق فركب الوزير وكافة
الامراء والاعيان وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل القورج حول البلد وقلق
الناس لذلك وانزعجوا وعاينوا الهلاك وأعدوا السفن لينجوا فيها وظهر الخليفة للناس وحثهم
على العمل وكان مما قال لهم لو كان يفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت ولو دفع بحرب لفعلت
ولكن أمر الله لا يرد ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقى وغرق كثير منه
وغرق مشهد أبى حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدى وقرية الملكية والكشك وانقطعت
الصلاة بجامع السلطان واما الجانب الغربى فتهدم اكثر القرية ونهر عيسى والشطيات
وخربت البساتين ومشهد باب التبن ومقبرة أحمد بن حنبل والحريم الطاهرى وبعض باب
البصرة والدور التى على نهر عيسى واكثر محلة قطفتا وفيها توفى أحمد بن ابى الفضائل عبد
المنعم بن ابى البركات محمد بن طاهر بن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبى الخير الميهنى الصوفى
أبو الفضل شيخ رباط الخليفة ببغداد وكان صالحا من بيت التصوف والصلاح

(ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة)

(ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان من الفتن بسبب موته الى أن استقرت الامور)

فى هذه السنة توفى الملك القاهر عز الدين مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى
ابن آقسنقر صاحب الموصل ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الاول وكانت ولايته
سبع سنين وتسعة أشهر وكان موته انه أخذته حمى ثم فارقته الغد وبقى يومين موعوكا ثم عاودته
الحمى مع قئ كثير وكرب شديد وقلق متتابع ثم برد بدنه وعرق وبقى كذلك الى وسط الليل ثم توفى
وكان كريما حليما قليل الطمع فى أموال الرعية كافا عن اذى يوصله اليهم مقبلا على لذاته كأنما
ينهبها ويبادر بها الموت وكان عنده رقة شديدة ويكثر ذكر الموت * حكى لى بعض من كان
يلازمه قال كنا ليلة قبل وفاته بنصف شهر عنده فقال لى قد وجدت ضجرا من القعود فقم بنا
نتمشى الى الباب العمادى قال فقمنا فخرج من داره نحو الباب العمادى فوصل التربة التى
عملها لنفسه عند داره فوقف عندها مفكرا لا يتكلم ثم قال لى والله ما نحن فى شئ أليس مصيرنا
الى ههنا ونجعل تحت الارض وأطال الحديث فى هذا ونحوه ثم عاد الى الدار فقلت له الا نمشى الى
الباب العمادى فقال ما بقى عندى نشاط الى هذا ولا الى غيره ودخل داره وتوفى بعد أيام
وأصيب أهل بلاده بموته وعظم عليهم فقده وكان محبوبا اليهم قريبا من قلوبهم ففى كل دار لأجله
رنة وعويل ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لولده الاكبر نور الدين ارسلان شاه وعمره نحو عشر
سنين وجعل الوصى عليه والمدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ وهو الذى كان يتولى دولة القاهر ودولة
أبيه نور الدين قبله وقد تقدم من اخباره ما يعرف به محله وسيرد منها أيضا ما يزيد الناظر بصيرة

صاعد بن محمد وسائر شيعته
الشاربين من زلال شريعته
أوفر من الاحزان اقساطا
وأشد على مرود الاشجان
ارتباطا * فقد كان عرف
الله تربته لهم ظلا ممدودا
وشربا مورودا * وكهفا
مقصودا * ولواء على نصرة
الدين معقودا * ولولا أن
الله سد ثلمة المصاب * وخلف
الاكتئاب * بملك الشرق
وسيد الغرب وحجة الله فى
الارض سلطان الزمان يمين
الدولة * وأمين الملة * أطال
الله تعالى بقاءه * وحفظ على
الدين والدنيا بهاءه وسناءه
ففى بقائه عوض من كل
ذاهب * وخلف من كل
غارب أو عازب * لاتسع
القول فى عظم هذا النعى
وفقد ذلك الشهاب المضى
والذهاب الالمعى * غير أن
النعمة بحمد الله فيما بقى
ضافية اللباس * نامية
الغراس * ناضرة الاكناف

فيه فلما انقضى نحبه قام بدر الدين بأمر نور الدين وأجلسه فى مملكة أبيه وأرسل الى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف وأرسل الى الملوك وأصحاب الاطراف المجاورين لهم يطلب تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التى كانت بينهم وبين أبيه فلم يصبح الا وقد فرغ من كل ما يحتاج اليه وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا وضبط المملكة من التزلزل والتغير مع صغر السلطان وكثرة الطامعين فى الملك فانه كان معه فى البلد أعمام أبيه وكان عمه عماد الدين زنكى بن ارسلان شاه بولايته وهى قلعة عقر الحميدية يحدث نفسه بالملك لا يشك فى أن الملك يصير اليه بعد أخيه فرفع بدر الدين ذلك الخرق ورتق ذلك الفتق وتابع الاحسان والخلع على كافة الناس وغير ثياب الحداد عنهم فلم يخص بذلك شريفا دون مشروف ولا كبيرا دون صغير وأحسن السيرة وجلس لكشف ظلامات الناس وانصاف بعضهم من بعض وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية ولبدر الدين بالنظر فى أمر دولته والتشريفات لهما أيضا وأتتهم رسل الملوك بالتعزية وبذل ما طلب منهم من العهود واستقرت القواعد لهما

﴿ذكر ملك عماد الدين زنكى قلاع الهكارية والزوزان﴾

قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمائة انه أعطى ولده الاصغر زنكى قلعتى العقر وشوش وهما بالقرب من الموصل فكان تارة يكون بالموصل وتارة بولايته متجنيا لكثرة تلونه وكان بقلعة العمادية مستحفظ من مماليك جده عز الدين مسعود بن مودود قيل انه جرى له مع زنكى مراسلات فى معنى تسليم العمادية اليه فنمى الخبر بذلك الى بدر الدين فبادره بالعزل مع أمير كبير وجماعة من الجند لم يمكنه الامتناع وسلم القلعة الى نائب بدر الدين كذلك وجعل بدر الدين فى غير العمادية من القلاع نوابا له وكان نور الدين بن القاهر لا يزال مريضا من جروح كانت به وغيرها من الامراض وكان يبقى المدة الطويلة لا يركب ولا يظهر للناس فأرسل زنكى الى من بالعمادية من الجند يقول ان ابن أخى توفى ويريد بدر الدين يملك البلاد وأنا أحق بملك آبائى وأجدادى فلم يزل حتى استدعاه الجند منها وسلموا اليه ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة وقبضوا على النائب البدرى وعلى من معه فوصل الخبر الى بدر الدين ليلا فجد فى الامر ونادى فى العسكر لوقته بالرحيل فسار والمجدين الى العمادية وبها زنكى ليحصروه فيها فلم يطلع الصبح الا وقد فرغ من تسيير العساكر فساروا الى العمادية وحصروها وكان الزمان شتاء والبرد شديدا والثلج هناك كثيرا فلم يتمكنوا من قتال من بها لكنهم أقاموا يحصرونها وقام مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب اربل فى نصر عماد الدين وتجرد لمساعدته فراسله بدر الدين يذكره الايمان والعهود التى من جملتها انه لا يتعرض الى شئ من أعمال الموصل ومنها قلاع الهكارية والزوزان باسمائها ومتى تعرض اليها أحد من الناس من كان منعه بنفسه وعساكره وأعان نور الدين وبدر الدين على منعه ويطالبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا ورضى منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم فلم يفعل وأظهر معاضدة عماد الدين زنكى فحينئذ لم تمكن مكاثرة زنكى بالرجال والعساكر لقربه هذا الخصم من الموصل وأعمالها الا ان العسكر البدرى محاصر للعمادية وبها زنكى ثم ان بعض الامراء من عسكر الموصل ممن لا علم له بالحرب وكان شجاعا وهو حديث الامارة أراد أن يظهر شجاعته ليزداد بها تقدما وأشار على من هناك من

سافلة الاخلاف * فلا زال فضل الله عليه عظيما وصنعه لديه جسيما * ولطفه كريما * ولا خلف عنه الزمان بتيما * وألهمه فيما عراه واجحفه الصبر * ورزقه فيما غزاه فاتحة النصر * ووقاه على الوهم مواهب تحرط الدنيا فى سلك ملكه وتقررها بحق الوجوب فى قبضة ملكه * ورحم الله ذلك الامير العديم النظير والجليل * الفقيد المثل والبديل رحمة تبرد ضريحه وتقدس روحه وريحه * وعرف له مساعيه فى الذب عن دين الله * والسعى فى سبيل الله * والقرض من ماله لاولياء الله * وعوض الله المشايخ السادة عما دهاهم فأوهاهم ثوابا يحفظ عليهم دينهم * ويثقل فى موقف العدل موازينهم * وجعلنا من المستعدين ليوم الدين ان حكم الله

العسكر بالتقدم الى العمادية ومباشرتها بالقتال وكانوا قد تأخروا عنها شيأ يسيرا لشدة البرد والثلج فلم يوافقوه وفهموا رأيه فتركهم ورحل متقدما اليهم ليلا فاضطروا الى اتباعه خوفا عليه من اذى يصيبه ومن معه فساروا اليه على غير تعبية لضيق المسالك ولانه أعجلهم عن ذلك وحكم الثلج عليهم أيضا فسمع زنكي ومن معه فنزلوا ولقوا أوائل الناس وأهل بكة أخبر بشعابها ثم يثبتوا لهم وانهزموا وعادوا الى منزلتهم ولم يقف العسكر عليهم فاضطروا الى العود فلما عادوا راسل زنكي باقي قلاع الهكارية والزوزان واستدعاهم الى طاعته فأجابوه وسلموا اليه فجعل فيها الولاة وتسلمها وحكم فيها

(ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الاشرف)

لما رأى بدر الدين خروج القلاع عن يده واتفاق مظفر الدين وعماد الدين عليه ولم ينفع معهم اللين ولا الشدة وانهما لا يزالان يسعيان فى أخذ بلاده ويتعرضان الى اطرافها بالنهب والاذى أرسل الى الملك الاشرف موسى بن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة كلها الا القليل وصاحب خلاط وبلادها يطلب منه الموافقة والمعاضدة وانتمى اليه وصار فى طاعته منخرطا فى سلك موافقته فأجابه الاشرف بالقبول والفرح به والاستبشار وبذل له المساعدة والمعاضدة والمحاربة دونه واستعادة ما أخذ من القلاع التى كانت له وكان الملك الاشرف حينئذ بحلب نازلا بظاهرها لما ذكرناه من تعرض كيكاوس ملك بلاد الروم التى بيد المسلمين قونية وغيرها الى أعمالها وملكوا بعض قلاعها فأرسل الى مظفر الدين يقبح هذه الحالة ويقول له ان هذه القاعدة تقررت بين جميعنا بحضور رسلك وانا نكون على الناكث الى أن يرجع الى الحق ولا بد من اعادة ما أخذ من بلاد الموصل لندوم على اليمين التى استقرت بيننا فان امتنعت وأصررت على معاضدة زنكي ونصرته فانا اجيء بنفسي وعساكري وأقصد بلادك وغيرها واسترد ما اخذتموه واعيده الى اصحابه والمصلحة انك توافق ونعود الى الحق لنجعل شغلنا جمع العساكر وقصد الديار المصرية واجلاء الفرنج عنها قبل ان يعظم خطبهم ويستطير شرهم فلم تحصل الاجابة منه الى شيء من ذلك وكان ناصر الدين محمود صاحب الحصن وآمد قد امتنع عن موافقة الاشرف وقصد بعض بلاده ونهبها وكذلك صاحب ماردين واتفقا مع مظفر الدين فلما راى الاشرف ذلك جهز عسكرا وسيره الى نصيبين نجدة لبدر الدين ان احتاج اليهم

(ذكر انهزام عماد الدين زنكي من العسكر البدري)

لما عاد العسكر البدري من حصار العمادية وبها زنكي كما ذكرناه قويت نفسه وفارقها وعاد الى قلعة العقر التى له ليتسلط على أعمال الموصل بالصحراء فان بلد الجبل كان قد فرغ منه وأمده مظفر الدين بطائفة كثيرة من العسكر فلما اتصل الخبر ببدر الدين سير طائفة من عسكره الى اطراف بلد الموصل يحمونها فاقاموا على أربعة فراسخ من الموصل ثم انهم اتفقوا بينهم على المسير الى زنكي وهو عند العقر فى عسكره ومحاربته ففعلوا ذلك ولم يأخذوا أمر بدر الدين بل أعلموه بمسيرهم جريدة ليس معهم الا سلاحهم ودواب يقاتلون عليها فساروا ليلتهم وصبحوا زنكي بكرة الاحد لاربع بقين من المحرم من سنة ست عشرة وستمائة فالتقوا واقتتلوا تحت العقر وعظم الخطب فأنزل الله نصره على العسكر البدري فانهزم عماد الدين وعسكره وساروا الى

على العباد بالموت يقرى الجفلى * والخلق فيها شرع * والآخر الاول تبع * والحمد لله على كل حال * والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله خير آل

*(ذكر ما انتهى اليه أمرى بعد بلوغ هذا المكان من شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة * من قصد الوزير شمس الكفاة * واقتصاله حق الخدمة والموالاة)

قد سبق فى أول الكتاب ما سلف لى الى الامير ناصر الدين * أبى منصور سبكتكين أنار الله برهانه من خدمه * وعهد عنده من الوذمه وغرست أثناء ذلك فى التقرب الى الوزير شمس الكفاة * والتكفل بمآثره والتجرد لما أرضاه ما رجوت على الايام ايراق شجره وايناق نوره وثمره بعد أن

ار بل منهزما وعاد العسكر البدري الى منزلته التى كان بها وحضرت الرسل من الخليفة الناصر
لدين الله ومن الملك الاشرف فى تجديد الصلح فاصطلحوا وتحالفوا بحضرة الرسل

(ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه)

ولما استقر الصلح توفى نور الدين ارسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل وكان لا يزال مريضا
بعدة امراض فرتب بدر الدين فى الملك بعده أخاه ناصر الدين وله من العمر نحو ثلاث سنين ولم
يكن للقاهر ولد غيره وحلف له الجند وركبه فطابت نفوس الناس لان نور الدين كان لا يقدر على
الركوب لمرضه فلما ركب هذا علموا ان لهم سلطانا من البيت الاتابكى فاستقروا واطمأنوا
وسكن كثير من الشغب بسببه

(ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين)

لما توفى نور الدين وملك أخوه ناصر الدين تجدد لمظفر الدين ولعماد الدين طمع لصغر سن ناصر
الدين فجمعا الرجال وتجهزا للحركة فظهر ذلك وقصد بعض أصحابهم طرف ولاية الموصل بالنهب
والفساد وكان بدر الدين قد سير ولده الاكبر فى جمع صالح من العسكر الى الملك الاشرف بحلب
نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر وهو يريد أن يدخل بلاد الفرنج التى بساحل الشام ينهبها
ويخربها ليعود بعض من بدمياط الى بلادهم فيخف الامر على الملك الكامل صاحب مصر فلما
رأى بدر الدين تحرك مظفر الدين وعماد الدين وان بعض عسكره بالشام أرسل الى عسكر الملك
الاشرف الذى بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم وكان المقدم عليهم مملوك الاشرف اسمه ايبك فسار
الى الموصل رابع رجب سنة ست عشرة فلما رآهم بدر الدين استقلهم لانهم كانوا أقل من العسكر
الذى له بالشام أو مثلهم فالح ايبك على عبور دجلة وقصد بلاد اربل فمنعه بدر الدين من ذلك
وأمره بالاستراحة فنزل بظاهر الموصل أياما وأصر على عبور دجلة فعبرها بدر الدين موافقة له
ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقى دجلة فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره وسار اليهم ومعه
زنكى فعبر الزاب وسبق خبره فسمع به بدر الدين فعبى أصحابه وجعل ايبك فى الجالشية ومعه
شجعان أصحابه وأكثر معه منهم بحيث انه لم يبق معه الا اليسير وجعل فى ميسرته أميرا كبيرا
وطلب الانتقال منها الى الميمنة فنقله فلما كان وقت العشاء الآخرة أعاد ذلك الامير الطلب
بالانتقال من الميمنة الى الميسرة والخصم بالقرب منهم فمنعه بدر الدين وقال متى انتقلت أنت ومن
معك فى هذا الليل ربما ظنه الناس هزيمة فلا يقف أحد فأقام بمكانه وهو فى جمع كبير من العسكر
فلما انتصف الليل سار ايبك فأمره بدر الدين بالمقام الى الصبح لقرب العدو منهم فلم يقبل لجهله
بالحرب فاضطر الناس لاتباعه فتقطعوا فى الليل والظلمة والتقوا هم والخصم فى العشرين من
رجب على ثلاثة فراسخ من الموصل فأما عز الدين فانه تيامن والتحق بالميمنة وحمل فى اطلابه هو
والميمنة على ميسرة مظفر الدين فهزمها وبها زنكى وكان الامير الذى انتقل الى الميمنة قد أبعد
عنها فلم يقاتل فلما رأى ايبك قد هزم الميسرة تبعه وتقدم اليه مظفر الدين فيمن معه فى القلب لم
يتفرقوا فلم يمكنه الوقوف فعاد الى الموصل وعبر دجلة الى القلعة ونزل منها الى البلد فلما رآه
الناس فرحوا به وساروا معه وقصد باب الجسر والعدو بازائه بينهما دجلة فنزل مظفر الدين فيمن
سلم معه من عسكره وزابل حصن تيذوى فاقام ثلاثة أيام فلما رأى اجتماع العسكر البدرى

صادفت من آثار رعايته
مالم يكن يليق الا بهمته
ومانشأ من كريمة الجد فى
ضمان ذمته * فرأى عند
وصولى اليه * وعرضى
موضوع الكتاب ومجموعه
عليه * أن يسمى بالتقليد
ويسيرنى الى كنج رستاق
على البريد * وعليها فرعون
بون ابو الحسن البغوى
الغوى شيخ ظاهره نور
وباطنه ديجور * ومنظره متن
السيف * ومخبره رد الزيف
وأول مشور العاسل * وآخره
قرون السنابل * فافتتح
موفدى عليه باستهانة لم
تناسب حشمة الاصرار ولا
حرمة الاقلام والمحابر
يوهم من جانب انه مبعوث
ومن آخر ان الحقد موروث
وقد كذب ان الزعاق
من منبع الشرب محال
ووراثة محبات الاولاد حلال
*ومعلما ان موالاة الابناء
معاداة الآباء وان والدا

بالموصل وانهم لم يفقد منهم الا اليسير وبلغه الخبر ان بدر الدين يريد العبور اليه ليلا بالفارس والراجل على الجسور وفى السفن ويكبسه فرحل ليلا من غير أن يضرب كاسا أو بوقا وعادوا نحو اربل فلما عبروا الزاب نزلوا ثم جاءت الرسل وسعوا فى الصلح فاصطلحوا على أن كل من بيده شئ هو له وتقررت العهود والايمان على ذلك

(ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشى وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الاشرف سنجار)

كواشى هذه من أحصن قلاع الموصل واعلاها وامنعها وكان الجند الذين بها لما رأوا ما فعله اهل العمادية وغيرها من التسليم الى زنكى وانهم قد تحكموا فى القلاع لا يقدر احد على الحكم عليهم احبوا ان يكونوا كذلك فأخرجوا نواب بدر الدين عنهم وامتنعوا بها وكانت رهائنهم بالموصل وهم يظهرون طاعة بدر الدين ويبطنون المخالفة فترددت الرسل فى عودهم الى الطاعة فلم يفعلوا وراسلوا زنكى فى المجئ اليهم وتسلم القلعة واقام عندهم فروسل مظفر الدين يذكر بالايمان القريبة العهد ويطلب منه اعادة كواشى فلم تقع الاجابة الى ذلك فأرسل حينئذ بدر الدين الى الملك الاشرف وهو بحلب يستنجده فسار وعبر الفرات الى حران واختلفت عليه الامور من عدة جهات منعته من سرعة السير وسبب هذا الاختلاف ان مظفر الدين كان يراسل الملوك اصحاب الاطراف ليستميلهم ويحسن لهم الخروج على الاشرف ويخوفهم منه اذا خلى وجهه فأجابه الى ذلك عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم وصاحب آمد وحصن كيفا وصاحب ماردين واتفقوا كلهم على طاعة كيكاوس وخطبوا له فى بلادهم ونحن نذكر ما كان بينه وبين الاشرف عند منبج لما قصد بلاد حلب فهو موغر الصدر عليه فاتفق ان كيكاوس مات فى ذلك الوقت وكفى الاشرف وبدر الدين شره ولا جد الا ما أقعص عنك الرجال وكان مظفر الدين قد راسل جماعة من الامراء الذين مع الاشرف واستمالهم فاجابوه منهم أحمد بن على بن المشطوب الذى ذكرنا انه فعل على دمياط ما فعل وهو اكبر امير معه ووافقه غيره منهم عز الدين محمد بن بدر الحميدى وغيرهما وفارقوا الاشرف ونزلوا بدنيسر تحت ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الاشرف من العبور الى الموصل لمساعدة بدر الدين فلما اجتمعوا هناك عاد صاحب آمد الى موافقة الاشرف وفارقهم واستقر الصلح بينهما وسلم اليه الاشرف مدينة حانى وجبل جور وضمن له أخذ دارا وتسليمها اليه فلما فارقهم صاحب آمد انحل امرهم فاضطر بعض أولئك الامراء الى العود الى طاعة الاشرف وبقى ابن المشطوب وحده فسار الى نصيبين ليسير الى اربل فخرج اليه شحنة نصيبين فيمن عنده من الجند فاقتتلوا فانهزم ابن المشطوب وتفرق من معه من الجمع ومضى منهزما فاجتاز بطرف بلد سنجار فسير اليه صاحبها فروخ شاه بن زنكى بن مودود بن زنكى عسكرا فهزموه وأخذوه اسيرا وحملوه الى سنجار وكان صاحبها موافقا للاشرف وبدر الدين فلما صار عنده ابن المشطوب حسن له مخالفة الاشرف فاجابه الى ذلك وأطلقه فاجتمع معه من يريد الفساد فقصدوا البقعاء من أعمال الموصل ونهبوا فيها عدة قرى وعادوا الى سنجار ثم ساروا وهو معهم الى تل يعفر وهى لصاحب سنجار ليقصدوا بلد الموصل وينهبوا فى تلك الناحية فلما سمع بدر الدين بذلك سير اليه عسكرا فقاتلوهم فمضى منهزما وصعد الى تل يعفر واحتمى بها منهم ونازلوه وحصروه وفيها فسار

يكاشح ولده * وينطوى على الداء الدفين معتقده * حتى يباغض من وافقه وعاهده * وضرب على وجوب عقد الموالاة يده * وسامى خيانة الدين بمواطأته على كبائر تغلق الرقاب * وتوجب فى عواقبها العقاب * حتى اذا علم ان مثلى لا يقر على الباطل * ولا يرضى باستئكال الايامى والارامل * رام ان يغرقنى فى درد وره * ويتيه بى فى تيهوره * فاحتال واكتال وحرش على الامراء الاشبال * وأبى الله لعلمه بمباده الا أن يحيق به مكيدته * ويكشف عن أقواه الزور وابطاء الغرور قصيدته * ولما أيس مما رامه * وأبلس دون ما جرد له اهتمامه واعتزامه * عرج على استنزال شمس الكفاة بسحر التمويه * وعرض صورتى عليه فى

بدر الدين من الموصل اليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الاول سنة سبع عشرة وستمائة وجد في حصره وزحف اليها مرة بعد أخرى فملكها سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة وأخذ ابن المشطوب معه الى الموصل فحبسه بها ثم أخذه منه الاشرف فسجن بحران الى أن توفى في ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة ولقاه الله عقوبة ما صنع بالمسلمين بدمياط وأما الملك الاشرف فانه لما اطاعه صاحب الحصن وآمد وتفرق الامراء كما ذكرناه رحل من حران الى دنيسر فنزل عليها واستولى على بلد ماردين وشحن عليه واقطعه ومنع الميرة عن ماردين وحضر معه صاحب آمد وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين في الصلح فاصطلحوا على أن يأخذ الاشرف رأس العين وكان هو قد اقطعها لصاحب ماردين ويأخذ منه ايضا ثلاثين ألف دينار ويأخذ منه صاحب آمد الموزر من بلد شبختان فلما تم الصلح سار الاشرف من دنيسر الى نصيبين يريد الموصل فبينما هو في الطريق لقيه رسل صاحب سنجار يبذل تسليمها اليه ويطلب العوض عنها مدينة الرقة وكان السبب في ذلك أخذ تل يعفر منه فانخلع قلبه وانضاف الى ذلك ان ثقاته ونصحاءه خانوه وزادوه رعبا وخوفا لانهم تهددوه وتغلوا به قبل أن يتمشى بهم ولانه قطع رحمه وقتل أخاه الذي ملك سنجار بعد أبيه قتله كما نذكره ان شاء الله وملكها فلقاه الله سوء فعله ولم يمتعه بها فلما تيقن رحيل الاشرف تحير في أمره فارسل في التسليم اليه فاجابه الاشرف الى العوض وسلم اليه الرقة وتسلم سنجار مستهل جمادى الاولى سنة سبع عشرة وستمائة وفارقها صاحبها واخوته باهليهم وأموالهم وكان هذا آخر ملوك البيت الاتابكى بسنجار فسبحان الحى الدائم الذى ليس لملكه آخر وكان مدة ملكهم لها أربعا وتسعين سنة وهذا دأب الدنيا بابنائها فتعسا لها من دار ما أغدرها باهلها

﴿ذكر وصول الاشرف الى الموصل والصلح مع مظفر الدين﴾

لما ملك الملك الاشرف سنجار سار يريد الموصل ليجتاز منها فقدم بين يديه عساكره فكان يصل كل يوم منهم جمع كثير ثم وصل هو فى آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة وكان يوم وصوله مشهودا وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين فى الصلح وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها الى بدر الدين ما عدا قلعة العمادية فانها تبقى بيد زنكى وان المصلحة قبول هذا لتزول الفتن ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج وطال الحديث فى ذلك نحو شهرين ثم رحل الاشرف يريد مظفر الدين صاحب اربل فوصل الى قرية السلامية بالقرب من نهر الزاب وكان مظفر الدين نازلا عليه من جانب اربل فاعاد الرسل وكان العسكر قد طال بيكاره والناس قد ضجروا وناصر الدين صاحب آمد يميل بهواه الى مظفر الدين فاشار بالاجابة الى ما بذل واعانه عليه غيره فوقعت الاجابة اليه واصطلحوا على ذلك وجعل لتسليمها اجل وحمل زنكى الى الملك الاشرف يكون عنده رهينة الى حين تسليم القلاع وسلمت قلعة العقر وقلعة شوش أيضا وهما لزنكى الى نواب الاشرف رهنا على تسليم ما استقر من القلاع فاذا سلمت اطلق زنكى وأعيد عليه قلعة العقر وقلعة شوش وحلفوا على هذا وسلم الاشرف الى زنكى القلعتين وعاد الى سنجار وكان رحيله عن الموصل ثانى شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة فارسلوا الى القلاع لتسلم الى نواب بدر الدين فلم يسلم اليه غير قلعة جل صورا من أعمال الهكارية وأما باقى

معرض التشويه * موهما اياه ان لى صغوا فى بعض من ناظره يوما على رتبة المقابلة * أو وزانه بمعيار الموازنة والمماثلة * علما منه بان حله لا يستخف الا بهذا التأويل * وان رأيه لا يستنزل الا على مثل هذا التخييل * حتى نفذت فيه رقيته * وعملت فى استنزاله دخلته * فتشرب حقدا ولا الارض من صوب العهاد * والكف من وشم السواد * والثوب من لون الجساد * أو صبغ الفرصاد وعلم الله انى لم اكن لاضمر كدرا على صفاء * أو اسر حسوا فى ارتغاء * أو استجيز غمصا لصنيعه * أو طماعلى عين شريعه * غيرى من نكب عن نهج الوفاء * وغب دون فرض النعماء * وودع حق المنعم المثيب *

القلاع فان جندها أظهروا الامتناع من ذلك ومضى الاجل ولم يسلم الاجل صور واولزم عماد الدين زنكى لشهاب الدين غازى بن الملك العادل وخدمه وتقرب اليه فاستعطف الله أخاه الملك الاشرف فمال اليه وأطلقه وازال نوابه من قلعة العقر وشوش وسلمهما اليه وبلغ بدر الدين عن الملك الاشرف ميل الى قلعة تل يعفر وانها كانت لسنجار من قديم الزمان وحديثه وطال الحديث فى ذلك فسلمها اليه بدر الدين

﴿ذكر عود قلاع الهكارية والزوزان الى بدر الدين﴾

لما ملك زنكى قلاع الهكارية والزوزان لم يفعل مع اهلها ما ظنوه من الاحسان والانعام بل فعل ضده وضيق عليهم وكان يبلغهم أفعال بدر الدين مع جنده ورعاياه واحسانه اليهم وبذله الاموال لهم وكانوا يريدون العود اليه ويمنعهم الخوف منه لما اسلفوه من ذلك فلما كان الآن اعلنوا بما فعلوه منهم فارسلوا الى بدر الدين فى المحرم سنة ثمان عشرة وستمائة فى التسليم اليه وطلبوا منه اليمين والعفو عنهم وذكروا شيأ من أقطاع تكون لهم فاجابهم الى ذلك وارسل الى الملك الاشرف يستأذنه فى ذلك فلم يأذن له وعاد زنكى من عند الاشرف فجمع جموعا وحصر قلعة العمادية فلم يبلغ منهم غرضا وأعادوا مراسلة بدر الدين فى التسليم اليه فكتب الى الملك الاشرف فى المعنى وبذل له قلعة جديدة ونصيبين وولاية بين النهرين ليأذن له فى اخذها فاذن له فارسل اليها النواب وتسلموها وأحسن الى اهلها ورحل زنكى عنها ووفى لهم بدر الدين بما بذله لهم فلما سمع جند باقى القلاع بما فعلوا وما وصل لهم من الاحسان والزيادة رغبوا كلهم فى التسليم فسير اليهم النواب واتفقت كلمة اهلها على طاعته والانقياد اليه والعجب ان العساكر اجتمعت من الشام والجزيرة وديار بكر وخلاط وغيرها فى استعادة هذه القلاع فلم يقدروا على ذلك فلما تفرقوا حضر أهلها وسألوا أن تؤخذ منهم فعادت صفوا عفوا بغير منة وما أحسن من قال

لا سهل الا ما جعلت سهلا * وان تشأ تجعل بحزن وحلا

فتبارك الله الفعال لما يريد لا مانع لما اعطى ولا معطى لما منع وهو على كل شئ قدير

﴿ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للاشرف وانهزام كيكاوس﴾

فى هذه السنة سار عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ملك الروم الى ولاية حلب قصدا للتغلب عليها ومعه الافضل بن صلاح الدين يوسف وسبب ذلك انه كان بحلب رجلان فيهما شر كثير وسعاية بالناس فكانا ينقلان الى صاحبها الملك الظاهر ابن صلاح الدين عن رعيته فاوغروا صدره فلقى الناس منهما شدة فلما توفى الظاهر وولى الامر شهاب الدين طغرل أبعدهما وغيرهما ممن يفعل فعلهما وسد هذا الباب على فاعله ولم يطرق اليه أحدا من اهله فلما رأى الرجلان كساد سوقهما لزما بيوتهما وثار بهما الناس وآذوهما وتهددوهما لما كانا أسلفاه من الشر فخافا ففارقا حلب وقصدا كيكاوس فاطمعاه فيها وقررا فى نفسه انه متى قصدها لا يثبت بين يديه وانه يملكها ويهون عليه ملك ما بعدها فلما عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأى من اصحابه وقالوا له لا يتم لك هذا الا بان يكون معك أحد من بيت ايوب ليسهل على اهل البلاد وجندها الانقياد اليه وهذا الافضل ابن صلاح الدين هو فى طاعتك والمصلحة

وردا الجرعلى قرارة القليب ونزعى هما فلدنيه بفهم من أهل جرجان لا يعرف الرشد من الغى * ولا الظل من الفى * ولا النشر من الطى * ولا النقد من اللى ولا الاثبات من النفى * ولا جرجان من الرى * شوهة بوهة قد صيغ من طول القناه * وزرقة البزاه * ولبقة الدواه * وصفاقة الصفاه * وتجدير العصف بالعشرات طالما خر على العثنون تشمما للتراب * وتكففا للعصا فى الجراب * وتصرفا على المكس بالصروف وتهجيا للالف بنقطتين من بين الحروف * وطفق من بعد يتضخ لكنة عجمية فى شعر كشعره الموصوف بوثارة الصوف * مستهجيا كل صراف واسكاف * وعطار وبيطار * على سعر

انك تستصحبه معك وتقرر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد فتى كان معك أطاعك الناس
وسهل عليك ما تريد فاحضر الافضل من سميساط اليه واكرمه وحمل اليه شيأ كثيرا من
الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك واستقرت القواعد بينهما أن يكون ما يفتحه من حلب
وأعمالها للافضل وهو فى طاعة كيكاوس والخطبة له فى ذلك أجمع ثم يقصدون ديار الجزيرة
فما يفتحونه مما بيد الملك الاشرف مثل حران والرها من البلاد الجزرية تكون لكيكاوس
وجرت الايمان على ذلك وجمعوا العساكر وساروا فملكوا قلعة رعبان فتسلمها الافضل فمال
الناس حينئذ اليهما ثم سارا الى قلعة تل باشر وفيها صاحبها ابن بدر الدين دلدرم الياروقى
فحصروه وضيقوا عليه وملكوها منه فاخذها كيكاوس لنفسه ولم يسلمها الى الافضل
فاستشعر الافضل من ذلك وقال هذا اول الغدر وخاف انه ان ملك حلب يفعل به هكذا فلا
يحصل الا أن يكون قد قلع بيته لغيره ففترت نيته وأعرض عما كان يفعله وكذلك ايضا أهل
البلاد فكانوا يظنون ان الافضل يملكها فيسهل عليهم الامر فلما رأوا ضد ذلك وقفوا وأما
شهاب الدين اتابك ولد الظاهر صاحب حلب فانه ملازم قلعة حلب لا ينزل منها ولا يفارقها
البتة وهذه كانت عادته مذ مات الظاهر خوفا من ثائر يثور به فلما حدث هذا الامر خاف ان
يحصروه وربما سلم اهل البلد والجند المدينة الى الافضل لميلهم اليه فارسل الى الملك الاشرف
ابن الملك العادل صاحب الديار الجزرية وخلاط وغيرها يستدعيه لتكون طاعتهم له
ويخطبون له ويجعل السكة باسمه ويأخذ من اعمال حلب ما اختار ولان ولد الظاهر هو ابن
أخته فاجاب الى ذلك وسار اليهم فى عساكره التى عنده وأرسل الى الباقين يطلبهم اليه وسره
ذلك للمصلحة العامة لجميعهم وأحضر اليه العرب من طىء وغيرهم ونزل بظاهر حلب ولما أخذ
كيكاوس تل باشر كان الافضل يشير بمعاجلة حلب قبل اجتماع العساكر بها وقبل أن يحتاطوا
ويتجهزوا فعاد عن ذلك وصار يقول الرأى اننا نقصد منبج وغيرها لئلا يبقى لهم وراء ظهورنا
شىء قصدا للتمادى ومرور الزمان فى لا شىء فتوجهوا من تل باشر الى جهة منبج وتقدم الاشرف
نحوهم وسارت العرب فى مقدمته وكان طائفة من عسكر كيكاوس نحو ألف فارس قد سبقت
مقدمته له فالتقوا هم والعرب ومن معهم من العسكر الاشرفى فاقتتلوا فانهزم عسكر
كيكاوس وعادوا اليه منهزمين واكثر العرب الاسر منهم والنهب لجودة خيلهم ودبر خيل
الروم فلما وصل اليه أصحابه منهزمين لم يثبت بل ولى على أعقابه يطوى المراحل الى بلاده خائفا
يترقب فلما وصل الى أطرافها اقام وانما فعل هذا لانه صبى وغر لا معرفة له بالحرب والا فالعساكر
ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض فسار حينئذ الاشرف فملك رعبان وحصر تل باشر
وبها جمع من عسكر كيكاوس فقاتلوه حتى غلبوا فاخذت القلعة منهم وأطلقهم الاشرف فلما
وصلوا الى كيكاوس جعلهم فى دار وأحرقها عليهم فهلكوا فعظم ذلك على الناس كافة
واستقبحوه واستضعفوه لاجرم لم يمهله الله تعالى وعجل عقوبته للؤم قدرته وشدة عقوبته ولعدم
الرحمة فى قلبه ومات عقيب هذه الحادثة وسلم الاشرف تل باشر وغيرها من بلد حلب الى شهاب
الدين اتابك صاحب حلب وكان عازما على اتباع كيكاوس ويدخل بلاده فاتاه الخبر بوفاة أبيه
الملك العادل فاقتضت المصلحة العود الى حلب لان الفرنج بديار مصر ومثل ذلك السلطان

صفقته الاولى اذا السلعة
قائمه * والجلة رائمه *
والسجة ممطوره * والخلة
مأبوره * وغبر زمانا على
هذه الجلة فى الوقاحة
والوقاحة * ثم انتجع
خراسان ببضاعته المزجاة
فوافقت على النظرة
الحمقاء قبولا * وابتسمن
عز العطاء غرة وحجولا *
فلما تعقبها التأمل * علم ان
خرق الانتقاد ضيع المال *
وأورث الوبال * فأهمل
مخذولا * وغودر فى قدر
شعره مرذولا * الى أن غر
شمس الكفاة عن نفسه
فاختاره على * ونفذه مع
مكيدة البغوى الغوى فى *
فقصدت من المكروه فى
الروح * دون سائر الممنوح *
بما لولا مكان الامير السيد
أبى سعيد مسعود بن عين
الدولة وامين الملة * وفضل

العظيم اذا توفى ربما جرى خلل فى البلاد ولا تعرف العاقبة فيه فعاد اليها وكل منهما اذى صاحبه

﴿ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده﴾

توفى الملك العادل أبو بكر بن ايوب سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند ملك عمه أسد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع وستين وخمسمائة ولما ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر بعد عمه وسار الى الشام استخلفه بمصر ثقة به واعتمادا عليه وعلما بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة فلما توفى أخوه صلاح الدين ملك دمشق كما ذكرناه وبقى مالكا للبلاد الى الآن فلما ظهر الفرنج كما ذكرناه سنة اربع عشرة وستمائة قصدهم مرج الصفر فلما سار الفرنج الى ديار مصر انتقل هو الى عالقين فاقام به ومرض وتوفى وحمل الى دمشق فدفن بالتربة التى له وكان عاقلا ذا رأى سديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما ذا أناة يسمع ما يكره ويغض عليه حتى كأنه لم يسمعه كثير الخرج وقت الحاجة لا يقف فى شئ واذا لم تكن حاجة فلا وكان عمره خمسا وسبعين سنة وشهورا لان مولده كان فى المحرم من سنة أربعين وخمسمائة وملك دمشق فى شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة من الافضل ابن أخيه وملك مصر فى ربيع الآخر من سنة ست وتسعين منه ايضا ومن أعجب ما رأيت من منافاة الطوالع انه لم يملك الافضل مملكة قط الا وأخذها منه عمه العادل فاول ذلك ان صلاح الدين أعطى ابنه الافضل حران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقى الدين فسار اليها فلما وصل الى حلب أرسل ابوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ هذه البلاد منه ثم ملك الافضل بعد وفاة ابيه مدينة دمشق فاخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فاخذها ايضا منه ثم ملك صرخد فاخذها منه وأعجب من هذا انى رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة فى بيعة صهيون ليس يوجد مثلها فقال القس الذى بالبيعة هذه كان قد أخذها الملك الافضل لينقلها الى دمشق ثم ان العادل أخذها بعد ذلك من الافضل طلبها منه فاخذها وهذا غاية وهو من أعجب ما يحكى وكان العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق والقدس وطبرية والاردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الاشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازى وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفى ثبت كل منهم فى المملكة التى أعطاه اياها أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق الى الآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الامر والحكم ما لم يره أبوهم ولعمرى انهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام وفى نوبة دمياط كفاية وأما الملك الاشرف فليس للمال عنده محل بل يمطره مطرا كثيرا كعفته عن أموال الرعية دائم الاحسان لا يسمع سعاية ساع

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ذى القعدة رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دمياط لانه بلغه ان جماعة

احسانه * واستنفاذه اياى من فجوات أشداقهما بأحد غلمانه * اشداق الخطب الى ما به زلا فيه * ولغاق رهن الحياة بما فيه * ولو كنت عرفت من سيرة البغوى قبل ما عرفته بعد لاستعفيت من جواره * واحترست من مساقط أحجاره * لكن السرائر بيد الله تعالى لا يكشفها الا الاختبار والظلم فى خلق النفوس فان تجد

ذا عفة فلعلة لا يظلم

وقد كتبت الى جماعة الافاضل فى ذكر المذكور وشكوا * وتقرير سجاياه * ما هذه نسخته بسم الله الرحمن الرحيم لجماعة أرباب الصناعة * وعصابة أعلام الاصابة * من مبادى الاشراق * الى أقاصى العراق * من محمد بن سعد

المقدس وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني اسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من اطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها الى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما فيملكونها ويفعلون باهلها ما نذكره ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ثم يتجاوزونها الى الري وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ثم يقصدون بلاد اذربيجان وارانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج الا الشريد النادر في أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من اذربيجان وارانية ساروا الى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم وعبروا عندها الى بلد اللان واللكز ومن في ذلك الصقع من الامم المختلفة فاوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون الى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا الا بمقدار مسيرهم لا غير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء واشد هذا ما لم يطرق الاسماع مثله فان الاسكندر الذي اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة انما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحدا انما رضي من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الارض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الارض اخلاقا وسيرة في نحو سنة ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم اليه ثم انهم لا يحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم فانهم معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير وأما دوابهم التي يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شئ من خارج وأما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيأ فانهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لا يعرف اباه ولقد بلي الاسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الامم منها هؤلاء التتر قبحهم الله اقبلوا من المشرق ففعلوا الافعال التي يستعظمها كل من سمع بها وستراها مشروحة متصلة ان شاء الله تعالى ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب الى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة ومنها ان الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق وقد ذكرناه أيضا فانا لله وانا اليه راجعون نسأل الله ان ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده فان الناصر والمعين

كالحبيب يعطر من نوافج الند والمعطرة * والجو يذفر من روائح المشوش المقيرة * والمزن يسقط على عرصة الروض * فتوليه طهارة ونضارة * ويهبط على فروة الكلب فتعديه نجاسة وقذارة * والماء القراح * يسقى عروق الشجر * فيقضى عليها باختلاف الثمر * فيقبله كل منها على ما كتب له من مرارة وحلاوة * ومزازة وحرافة * وكثافة ولطافة * تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل * قدرة من البدىء الاول * والابدي الموجود في الازل * ان شر خلق الله نفسا وشيمة * وأخسهم قدرا وقيمة * من يضيفه صنع الله ربان من ماء الطلاقة * نشوان من صهباء اللباقة * فينان من

والذاب عن الاسلام معدوم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فان
هؤلاء التتر انما استقام لهم هذا الامر لعدم المانع وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمدا كان قد
استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها فلما انهزم منهم
لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ليقضي الله أمرا كان مفعولا وهذا حين نذكر ابتداء
خروجهم الى البلاد

(ذكر خروج التتر الى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه)

في هذه السنة ظهر التتر الى بلاد الاسلام وهم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من
نحو الصين وبينها وبين بلاد الاسلام ما يزيد على ستة أشهر وكان السبب في ظهورهم ان ملكهم
ويسمى بجنكزخان المعروف بتموجين كان قد فارق بلاده وسار الى نواحي تركستان وسير
جماعة من التجار والاتراك ومعهم شئ كثير من النقرة والقندر وغيرهما الى بلاد ما وراء
النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثيابا للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار
وهي آخر ولاية خوارزمشاه وكان له نائب هناك فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر ارسل
الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الاموال فبعث اليه خوارزمشاه يأمره
بقتلهم وأخذ ما معهم من الاموال وانفاذه اليه فقتلهم وسير ما معهم وكان شيأ كثيرا فلما وصل
الى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم وكان بعد أن ملك ما وراء النهر
من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان وما بعدها من البلاد وان طائفة من التتر أيضا كانوا
قد خرجوا قديما والبلاد للخطا فلما ملك خوارزمشاه البلاد بما وراء النهر من الخطا وقتلهم
واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلاساغون وغيرها صاروا يحاربون عساكر
خوارزمشاه فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها وقيل في سبب خروجهم الى بلاد
الاسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر

فكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس الى جنكزخان لينظر ما هو وكم
مقدار ما معه من الترك وما يريد أن يعمل فمضى الجواسيس وسلكوا المفازة والجبال التي على
طريقهم حتى وصلوا اليه فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وانهم يخرجون عن
الاحصاء وانهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة وانهم يعملون ما يحتاجون اليه
من السلاح بأيديهم فندم خوارزمشاه على قتل اصحابهم واخذ اموالهم وحصل عنده فكر
زائد فاحضر الشهاب الخيوقي وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف ما يشير به فحضر عنده
فقال له قد حدث أمر عظيم لا بد من الفكر فيه فأخذ رأيك في الذي نفعله وذلك انه قد تحرك
الينا خصم من ناحية الترك في كثرة لا تحصى فقال له في عساكرك كثرة ونكاتب الاطراف
ونجمع العساكر ويكون النفير عاما فانه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس ثم
نذهب بجميع العساكر الى جانب سيحون وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الاسلام
فنكون هناك فاذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو وعساكره قد
مسهم النصب والتعب فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من ارباب المشورة فاستشارهم

غال السماحه * ميسان في
حال الصباحه * حتى اذا
حط رحله * وخالط بالبشر
الخصيب أهله * قراه من
بؤس الخصال * وعبوس
الملال * وضرة الاستبدال
ومضرة الابتذال * ما يطير
واقعه * ويهيج وادعه *
وينشز ودوده * ويصفر
عليه ولوده * فرحل في
سواد الحداد شاكيا سوء
الجوار * وخفرة الذمار *
وذلة المقدار * وغلظة
الاحماء والاصهار * ثانيا
على تنمية الوداع صليفه
متمثلا بقول القائل
نعمة الله لا تعاب ولكن
ربما استقبحت على أقوام
لا يليق الغنى بوجه أبي يعلى
ولا نور بهجة الاسلام وسخ
الثوب والعمامة والبرذون *
والوجه والقفا والغلام

المقدس وما بنوا اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى
اسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج
ومأجوج وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل
قتلوا النساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون
ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت
فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من اطراف الصين فقصدوا بلاد
تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها الى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما
فيملكونها ويفعلون باهلها ما نذكره ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكا
وتخريبا وقتلا ونهبا ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد الى
حد العراق ثم يقصدون بلاد اذربيجان وارانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج
الا الشريد النادر فى أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من اذربيجان وارانية ساروا
الى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم وعبروا عندها الى بلد اللان
واللكز ومن فى ذلك الصقع من الامم المختلفة فاوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ثم قصدوا بلاد
قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون الى الغياض ورؤس
الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا فى أسرع زمان لم يلبثوا الا بمقدار
مسيرهم لا غير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها من
بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء واشد هذا ما لم يطرق الاسماع مثله
فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة انما ملكها فى
نحو عشر سنين ولم يقتل أحدا انما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر
المعمور من الارض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الارض اخلاقا وسيرة فى
نحو سنة ولم يبق أحد من البلاد التى لم يطرقوها الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم
اليه ثم انهم لا يحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم فانهم معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك
من الدواب يأكلون لحومها لا غير وأما دوابهم التى يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها
وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شئ من خارج
وأما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيأ فانهم يأكلون جميع الدواب
حتى الكلاب والخنازير وغيرها ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال
فاذا جاء الولد لا يعرف اباه ولقد بلى الاسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد
من الامم منها هؤلاء التتر قبحهم الله اقبلوا من المشرق ففعلوا الافعال التى يستعظمها كل من
سمع بها وستراها مشروحة متصلة ان شاء الله تعالى ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب
الى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على
أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة ومنها ان
الذى سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق وقد ذكرناه أيضا فانا
لله وانا اليه راجعون نسأل الله ان ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده فان الناصر والمعين

كالحبيب بعطر من نوافج
الند ودا المعطرة * والجو
يذفر من روائح المشموش
المقبرة * والمزن يسقط على
عرصة الروض * فتوليه
طهارة ونضارة * ويهبط على
فروة الكلب فتعديه نجاسة
وقذارة * والماء القراح
يسقى عروق الشجر *
فيقضى عليها باختلاف
الثمر * فيقبله كل منها على
ما كتب له من مرارة
وحلاوة * ومزازة
وحرافة * وكثافة ولطافة
* تسقى بماء واحد ونفضل
بعضها على بعض فى الاكل
* قدرة من البدىء الاول
والابدى الموجود فى الازل
* ان شر خلق الله نفسا وشيمة *
وأخسهم قدرا وقيمة * من
يضيفه صنع الله ريان من
ماء الطلاقة * نشوان من
صهباء اللباقة * فينان من

والذاب

والذاب عن الاسلام معدوم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فان هؤلاء التتر انما استقام لهم هذا الامر لعدم المانع وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمدا كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ليقضي الله أمرا كان مفعولا وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم الى البلاد

(ذكر خروج التتر الى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه)

في هذه السنة ظهر التتر الى بلاد الاسلام وهم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين وبينها وبين بلاد الاسلام ما يزيد على ستة أشهر وكان السبب في ظهورهم ان ملكهم ويسمى بجنكزخان المعروف بتموجين كان قد فارق بلاده وسار الى نواحي تركستان وسير جماعة من التجار والاتراك ومعهم شئ كثير من النقرة والقندر وغيرهما الى بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثيابا للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار وهي آخر ولاية خوارزمشاه وكان له نائب هناك فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر ارسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الاموال فبعث اليه خوارزمشاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الاموال وانفاذه اليه فقتلهم وسير ما معهم وكان شيأ كثيرا فلما وصل الى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم وكان بعد ان ملك ما وراء النهر من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان وما بعدها من البلاد وان طائفة من التتر أيضا كانوا قد خرجوا قديما والبلاد للخطا فلما ملك خوارزمشاه البلاد بما وراء النهر من الخطا وقتلهم واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلاساغون وغيرها صاروا يحاربون عساكر خوارزمشاه فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها وقيل في سبب خروجهم الى بلاد الاسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر

فكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس الى جنكزخان لينظر ما هو وكم مقدار ما معه من الترك وما يريد أن يعمل فمضى الجواسيس وسلكوا المفازة والجبال التي على طريقهم حتى وصلوا اليه فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وانهم يخرجون عن الاحصاء وانهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة وانهم يعملون ما يحتاجون اليه من السلاح بأيديهم فندم خوارزمشاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم وحصل عنده فكر زائد فأحضر الشهاب الخيوقي وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف ما يشير به فحضر عنده فقال له قد حدث أمر عظيم لا بد من الفكر فيه فأخذ رأيك في الذي نفعله وذاك انه قد تحرك الينا خصم من ناحية الترك في كثرة لا تحصى فقال له في عساكرك كثرة وتكاتب الاطراف وتجمع العساكر ويكون النفير عاما فانه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس ثم نذهب بجميع العساكر الى جانب سيحون وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الاسلام فنكون هناك فاذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو وعساكره قد مسهم النصب والتعب فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من ارباب المشورة فاستشارهم

غال السماحه * ميسان في حال الصباحه * حتى اذا حط رحله * وخالط بالبشر الخصيب أهله * قراه من بؤس الخصال * وعبوس الملال * وضرة الاستبدال ومضرة الابتذال * ما يطير واقعه * ويهيج وادعه * وينشز ودوده * ويعقر عليه ولوده * فرحل في سواد الحداد شاكيا سوء الجوار * وخفرة الذمار * وذلة المقدار * وغلظة الاحماء والاصهار * ثانيا على تنمية الوداع صليفه متمثلا بقول القائل

نعمة الله لا تعاب ولكن
ربما استقبحت على أقوام
لا يليق الغنى بوجه أبي يعلى
ولا نور بهجة الاسلام وسخ
الثوب والعمامة والبرذون *
والوجه والقفا والغلام

فلم يوافقوه على رأيه بل قالوا نترككم يعبرون سيحون الينا ويسلكون هذه الجبال والمضايق فانهم جاهلون بطرقهم ونحن عارفون بها فنقوى حينئذ عليهم ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد فبينما الامر كذلك اذ ورد رسول من هذا اللعين جنكزخان معه جماعة يتهدد خوارزمشاه ويقول تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم استعدوا للحرب فاني واصل اليكم بجمع لا قبل لكم به وكان جنكزخان قد سار الى تركستان فملك كاشغار وبلاساغون وجميع البلاد وأزال عنها التتر الاولى فلم يظهر لهم خبر ولا بقي لهم أثر بل بادوا كما أصاب الخطا وأرسل الرسالة المذكورة الى خوارزمشاه فلما سمعها خوارزمشاه أمر بقتل رسوله فقتل وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم الى صاحبهم جنكزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له ان خوارزمشاه يقول لك أنا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا حتى انتقم وافعل بك كما فعلت باصحابي وتجهز خوارزمشاه وسار بعد الرسول مبادرا ليسبق خبره ويكبسهم فادمن السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل الى بيوتهم فلم ير فيها الا النساء والصبيان والاطفال فاوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا الى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزمشاه بمخلفيهم فجدوا السير فادركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم وتصافوا للحرب واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها فقتل من الطائفتين ما لا يعد ولم ينهزم أحد منهم اما المسلمون فانهم صبروا حمية للدين وعلموا أنهم ان انهزموا لم يبق للمسلمين باقية وانهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم وأما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم واشتد بهم الامر حتى ان أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلا ويتضاربون بالسكاكين وجرى الدم على الارض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته واستنفد الطائفتان وسعهم في الصبر والقتال هذا القتال جميعه مع ابن جنكزخان ولم يحضر أبوه الوقعة ولم يشعر بها فاحصى من قتل من المسلمين في هذه الوقعة فكانوا عشرين ألفا واما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم فلما كان الليلة الرابعة افترقوا فنزل بعضهم مقابل بعض فلما اظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا وكذلك فعل المسلمون أيضا كل منهم سئم القتال فاما الكفار فعادوا الى ملكهم جنكزخان وأما المسلمون فرجعوا الى بخارا فاستعد للحصار لعلمه بعجزه لان طائفة من عسكره لم يقدر خوارزمشاه على أن يظفر بهم فكيف اذا جاؤا جميعهم مع ملكهم فامر أهل بخارا وسمرقند بالاستعداد للحصار وجمع الذخائر للامتناع وجعل في بخارا عشرين ألف فارس من العسكر يحمونها وفي سمرقند خمسين الفا وقال لهم احفظوا البلد حتى أعود الى خوارزم وخراسان واجمع العساكر واستنجد بالمسلمين وأعود اليكم فلما فرغ من ذلك رحل عائدا الى خراسان فعبر جيحون ونزل بالقرب من بلخ فعسكر هنالك وأما الكفار فانهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ما وراء النهر فوصلوا الى بخارا بعد خمسة أشهر من وصول خوارزمشاه وحصروها وقاتلوها ثلاثة أيام قتالا شديدا متتابعا فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة ففارقوا البلد عائدين الى خراسان فلما أصبح اهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم فارسلوا القاضي وهو بدر الدين قاضيخان ليطلب الامان للناس فاعطوهم

ولولا ان العقاب * تبع للخطاب * وان التأمر على الاعراض مجهول في حكم الاعتبار ونص الكتاب * وان مجازات الشعراء غير حقائق الكتاب * لادعيت غضب الله على نعمة حين ابتلاها بمجاورة الانذال * وزواها عن مظان الاستحقاق من كرام الرجال * غير ان المقصود فيها بالكرامة وقد قابلها بالاستخفاف * وكابر عقله في جوارها بغير الانصاف * أولى بأن يقهره عاجل الغضب * ويصهره آجل اللهب * فكم من وارد ماء أشرقه نميره * وقادح زند أحرقه سعيره * وشاحذ حد قطع به وريده * وراكب جواد قصم عليه جيده * وقد تختلف مواقع النعم من أربابها على شيئين امن

الامان وكان قد بقي من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة فلما اجابهم جنكزخان الى الامان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارا ولم يتعرضوا الى أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيره أخرجوه الينا وساعدونا على قتال من بالقلعة وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى في البلد بان لا يتخلف أحد ومن تخلف قتل فحضروا جميعهم فامرهم بطم الخندق فطموه بالاخشاب والتراب وغير ذلك حتى ان الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها في الخندق فانا لله وانا اليه راجعون وبحق سمى الله نفسه صبورا حليما والا كان خسف بهم الارض عند فعل مثل هذا ثم تابعوا الزحف الى القلعة وبها نحو أربعمائة فارس من المسلمين فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثنى عشر يوما يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد فقتل بعضهم ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا اليهم ووصل النقابون الى سور القلعة فنقبوه واشتد حينئذ القتال ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام فغضب اللعين ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد فجدوا في القتال وقد تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم ما لا قبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم فلما فرغ من القلعة أمر ان يكتب له رؤس البلد ورؤساؤهم ففعلوا ذلك فلما عرضوا عليه أمر باحضارهم فحضروا فقال أريد منكم النقرة التي باعكم خوارزمشاه فانها لي ومن أصحابي أخذت وهي عندكم فاحضر كل من كان عنده شئ منها بين يديه ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا من البلد مجردين من اموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط بالمسلمين فامر أصحابه ان يقتسموهم فاقتسموهم وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدي سبا وتمزقوا كل ممزق واقتسموا النساء ايضا وأصبحت بخارا خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس وارتكبوا من النساء العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن انفسهم شيأ مما نزل بهم فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل وممن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الامام ركن الدين امام زاده وولده فانهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان ومن استسلم أخذ أسيرا وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بانواع العذاب من طلب المال ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزمشاه عنهم وهم بمكانه بين ترمذ وبلخ واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارا اسارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشي قتل فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والاسارى والاثقال وراءهم حتى تقدموا شيأ فشيأ ليكون أرعب لقلوب المسلمين فلما رأى اهل البلد سوادهم استعظموه فلما كان اليوم الثاني وصل الاسارى والرجالة والاثقال ومع كل عشرة من الاسارى علم فظن أهل البلد ان الجميع عساكر مقاتلة وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية وأما عامة البلد فلا يحصون كثرة فخرج اليهم شجعان أهله واهل الجلد والقوة رجالة ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمي أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء

صارت اليه * وبناها ممن مالت بسوء اختياره وقبح آثاره عليه * فالاحداث فيها أحسن حالا * وازين خصالا * من الكهول الطاعنين في الاسنان * والشيوخ الحالبين أشطار الزمان * فليس من قرح وحنك * وسبر وسبك * وأخذ على وجه الاستبصار وترك كالغر لم تلقحه هواجر الامور * والغمر لم تردعه زواجر الدهور * والغفل لم تدز به الحادثات باحوالها والمهر * لم ترضه الرجال بأكفالها * وقد يتعذر النازي في طول الجهالة بالشباب الذي هو طليعة الحياة * وشريعة الشهوات واللذات * وان سائس العقل لم يضرب عليه عقاله * وصيقل التجريب لم يحكم على متنيه

الملاعين فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون
فيهم وكان الكفار قد كمنوا لهم كمينا فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد
ورجع الباقون الذين انشبوا القتال أولا فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل جانب فلم
يسلم منهم أحد قتلوا عن آخرهم شهداء رضي الله عنهم وكانوا سبعين ألفا على ما قيل فلما رأى
الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتراكا
نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا فطلبوا الامان فاجابوهم الى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم يقدر
العامة على منعهم وخرجوا الى الكفار باهلهم وأموالهم فقال لهم الكفار ادفعوا الينا
سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم الى مأمنكم ففعلوا ذلك فلما أخذوا اسلحتهم
ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا اموالهم ودوابهم ونساءهم فلما
كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج اهله جميعهم ومن تأخر قتلوه فخرج جميع الرجال
والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارا من النهب والقتل والسبي
والفساد ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله وافتضوا
الابكار وعذبوا الناس بانواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي وكان ذلك في المحرم
سنة سبع عشرة وستمائة وكان خوارزمشاه بمنزلته كلما اجتمع اليه عسكر سيره الى سمرقند
فيرجعون ولا يقدمون على الوصول اليها نعوذ بالله من الخذلان سير مرة عشرة آلاف فارس
فعادوا وسير عشرين ألفا فعادوا أيضا

(ذكر مسير التتر الى خوارزمشاه وانهزامه وموته)

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان لعنه الله وسير عشرين ألف فارس وقال لهم اطلبوا
خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه وهذه الطائفة تسميها التتر
المغربة لانها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لانهم هم الذين أوغلوا
في البلاد فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ساروا وقصدوا موضعا يسمى فنج اب ومعناه خمس مياه
فوصلوا اليه فلم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الاحواض الكبار وألبسوها
جلود البقر لئلا يدخلها الماء ووضعوا فيها اسلحتهم وأمتعتهم والقوا الخيل في الماء وامسكوا
أذنابها وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة اليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل
يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة فلم يشعر خوارزمشاه
الا وقد صاروا معه على ارض واحدة وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعبا وخوفا وقد اختلفوا
فيما بينهم انهم كانوا يتماسكون بسبب ان نهر جيحون بينهم فلما عبروه اليهم لم يقدروا على الثبات
ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا أيدي سبا وطلب كل طائفة منهم جهة ورحل خوارزمشاه
لا يلوي على شيء في نفر من خاصته وقصد نيسابور فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر فلم
يستقر حتى وصل أولئك التتر اليها وكانوا لم يتعرضوا في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل بل يجدون
السير في طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم فلما سمع بقربهم منه رحل الى مازندران وهي له أيضا
فرحل التتر المغربون في أثره ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه فكان كلما رحل عن منزلة
نزلوها فوصل الى مرسى من بحر طبرستان تعرف بباب سكون وله هناك قلعة في البحر فلما نزل

صقاله * وان الرى برعومة
لا يفتقها الا كر الجديدين
يدور يدور * وشمس تطلع ثم
تغور * وموسم زمان ينفق
فيه النور والنور * وان
الشباب شعبة من الجنون *
وان قلم التكليف مرفوع
عن الجنون * والحدث الغر
كالعجماء جرحها جبار *
وعمدها دون جنايتها
اعتذار * فمابال من خلع
لباس الحداثة * ووضع عنه
جلباب الطراءة * واجتلى
نهار المشيب عيانا * وأوفى
ثلاث عمائم الوانا *
سوداء داجية وسحق مفرق
وأجتلونا بعد ذلك هجانا

هو وأصحابه في السفن ووصلت التتر فلما رأوا خوارزمشاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر فلما أيسوا من لحاق خوارزمشاه رجعوا فهم الذين قصدوا الري وما بعدها على ما نذكره إن شاء الله هكذا ذكر لي بعض الفقهاء ممن كان ببخارا وأسروه معهم الى سمرقند ثم نجا منهم و وصل الينا وذكر غيره من التجار أن خوارزمشاه سار من مازندران حتى وصل الى الري ثم منها الى همذان والتتر في اثره ففارق همذان في نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره وعاد الى مازندران وركب في البحر الى هذه القلعة وكان هذا هو الصحيح فان الفقيه كان حينئذ مأسورا وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمذان ووصل خوارزمشاه ثم وصل بعده من أخبر بوصول التتر ففارق همذان وكذلك أيضا هؤلاء التجار فارقوها ووصل التتر اليها بعدهم ببعض نهار فهم يخبرون عن مشاهدة ولما وصل خوارزمشاه الى هذه القلعة المذكورة توفي فيها

(ذكر صفة خوارزمشاه وشيء من سيرته)

هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش وكان مدة ملكه احدى وعشرين سنة وشهورا تقريبا واتسع ملكه وعظم محله وأطاعه العالم بأسره ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه فانه ملك من حد العراق الى تركستان وملك بلاد غزنة وبعض الهند وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس وفعل بالخطا الافاعيل العظيمة وملك بلادهم وكان فاضلا عالما بالفقه والاصول وغيرهما وكان مكرما للعلماء محبا لهم محسنا اليهم يكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه وكان صبورا على التعب وادمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات انما همه في الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه وكان معظما لاهل الدين مقبلا عليهم متبركا بهم (حكى) لي بعض خدم حجرة النبي صلى الله عليه وسلم وقد عاد من خراسان قال وصلت الى خوارزم فنزلت ودخلت الحمام ثم قصدت باب السلطان علاء الدين فحين حضرت لقيني انسان فقال ما حاجتك فقلت له أنا من خدم حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فامرني بالجلوس وانصرف عني ثم عاد الي وأخذني وادخلني الى دار السلطان فتسلمني منه حاجب من حجاب السلطان وقال لي قد أعلمت السلطان خبرك فامر باحضارك عنده فدخلت اليه وهو جالس في صدر ايوان كبير فحين توسطت صحن الدار قام قائما ومشى الى بين يدي فاسرعت السير فلقيته في وسط الايوان فاردت أن اقبل يده فمنعني واعتنقني وجلس واجلسني الى جانبه وقال لي أنت تخدم حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت نعم فأخذ يدي وأمرها على وجهه وسألني عن حالنا وعيشنا وصفة المدينة ومقدارها واطال الحديث معي فلما خرجت من عنده قال لولا اننا على عزم السفر هذه الساعة لما ودعتك انا نريد أن نعبر جيحون الى الخطا وهذا طريق مبارك حيث رأينا من خدم حجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم ودعني وأرسل الي جملة كثيرة من النفقة ومضى وكان منه ومن الخطا ما ذكرناه وبالجملة فاجتمع فيه ما تفرق في غيره من ملوك العالم رحمه الله ولو أردنا ذكر مناقبه لطال

(ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران)

لما أيس التتر المغربة من ادراك خوارزمشاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها في

وحان له ان يصحو عن قهوة البطالة * وينزل عن صهوة الاستطالة * ويبكي لضحك المشيب برأسه * ونصول الانقاس عن قرطاسه * وتمشي الوهي في عظامه * وقعود القوى به عند قيامه * واصباحه على حار ندمه * وافتضاحه بعثار قدمه * ونداء برهان الله عليه باتساع محجته * وانقطاع حجته * واتلاع النار اعناقها لالتقاطه * واختطافه هاويا عن صراطه * يستجيز العمى عن سبيل الله * والصمم دون أمر الله * خبطا في ليل الخبال * وحطبا في حبل الضلال * ورجوعا في حافرة الخسار * وولوعا بفاجرة الآثار * وخلاء في شطن العتو والغلو * وإباء الاعلى

أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها فانها لم تزل ممتنعة قديم
الزمان وحديثه حتى ان المسلمين لما ملكوا بلاد الاكاسرة جميعها من العراق الى أقاصى
خراسان بقيت اعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج ولا يقدرون على دخول البلاد الى ان
ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين وهؤلاء الملاعين ملكوها صفوا عفوا الامر يريده
الله تعالى ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ولما فرغوا من
مازندران سلكوا نحو الرى فرأوا فى الطريق والدة خوارزمشاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم
التى لم يسمع بمثلها من الاعلاق النفيسة وكان سبب ذلك ان والدة خوارزمشاه لما سمعت بما
جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت نحو الرى لتصل الى اصفهان وهمذان
وبلد الجبل تمتنع فيها فصادفوها فى الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها الى الرى فكان
فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم ومالم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ونفيس من
الجوهر وغير ذلك وسيروا الجميع الى جنكزخان بسمرقند

(ذكر وصول التتر الى الرى وهمذان)

فى سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر لعنهم الله الى الرى فى طلب خوارزمشاه محمد لانهم
بلغهم انه مضى منهزما منهم نحو الرى فجدوا السير فى اثره وقد انضاف اليهم كثير من عساكر
المسلمين والكفار وكذلك ايضا من المفسدين من يريد النهب والشر فوصلوا الى الرى على حين
غفلة من اهلها فلم يشعروا الا وقد وصلوا اليها وملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا
الاطفال وفعلوا الافعال التى لم يسمع بمثلها ولم يقيموا ومضوا مسرعين فى طلب خوارزمشاه
فنهبوا فى طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها وفعلوا فى الجميع اضعاف مافعلوا فى الرى
واحرقوا وخربوا ووضعوا السيف فى الرجال والنساء والاطفال فلم يبقوا على شئ وتموا على
حالهم الى همذان وكان خوارزمشاه قد وصل اليها فى نفر من اصحابه ففارقها وكان آخر العهد
به فلا يدرى ما كان منه فيما حكاه بعضهم عنه وقيل غير ذلك وقد ذكرناه فلما قاربوا همذان
خرج رئيسها ومعه الحمل من الاموال والثياب والدواب وغير ذلك يطلب الامان لاهل البلد
فامنوهم ثم فارقوها وساروا الى زنجان ففعلوا أضعاف ذلك ثم وصلوا الى قزوين فاعتصم أهلها
منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدوا فى قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف فاقتتلوا هم واهل البلد فى
باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين فقتل من الفريقين مالا يحصى ثم فارقوا قزوين فعد
القتلى من أهل قزوين فزادوا على اربعين الف قتيل

(ذكر وصول التتر الى اذربيجان)

لما هجم الشتاء على التتر فى همذان وبلد الجبل رأوا بردا شديدا وثلجا متراكما فساروا الى
اذربيجان ففعلوا فى طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ماتقدم منهم
وخربوا وأحرقوا ووصلوا الى تبريز وبها صاحب اذربيجان اوزبك بن البهلوان فلم يخرج
اليهم ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشرب ليلا ونهارا لا يفيق
وانما ارسل اليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع اليهم فساروا من عنده يريدون
ساحل البحر لانه يكون قليل البرد ليشتوا عليه والمراعى به كثيرة لاجل دوابهم فوصلوا الى

النفس الامارة بالسوء * فلا
دردرت الشيب * مشوبا بدنس
العيب * ولانورت أقاحى
القذال * الا على مكارم
الافعال

فاقبح ما اجتلاه الطرف يوما
ضياء الشيب فى حلك الخصال

نعوذ بالله من غضب الرحمن *
وخفة العمر بطابع
الخذلان * وتعريضه
المشيب لما يهتك من
أستاره * ويكشف من
أسراره * ويمحق من
نواره * ويحرق من نوره
بناره * وعصم أقمار
الكرام * واحرار الانام *
عن مصرع الغوى أبى
الحسن البغوى دلة
الاحتيال * وسلة
الافتعال * وجراب المخاريق
وجراب التخاليط وعقرب
التضريب * ويلع

موقان ونطرفوا فى طريقهم الى بلاد الكرج فجاء اليهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل فقاتلوهم فانهزمت الكرج وقتل أكثرهم وارسل الكرج الى أوزبك صاحب اذربيجان يطلبون منه الصلح والاتفاق معهم على دفع التتر فاصطلحوا ليجتمعوا اذا انحسر الشتاء وكذلك ارسلوا الى الملك الاشرف بن الملك العادل صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم وظنوا جميعهم ان التتر يصبرون فى الشتاء الى الربيع فلم يفعلوا كذلك بل تحركوا وساروا نحو بلاد الكرج وانضاف اليهم مملوك تركى من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والاكراد وغيرهم فاجتمع معه خلق كثير وراسل التتر فى الانضمام اليهم فاجابوه الى ذلك ومالوا اليه للجنسية فاجتمعوا وساروا فى مقدمة التتر الى الكرج فملكوا حصنا من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وخربوها وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم حتى وصلوا الى قريب تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها اليهم فلقيهم أقوش أولا فيمن اجتمع اليه فاقتتلوا قتالا شديدا صبروا فيه كلهم فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير وادركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال وقتل منهم أيضا كثير فلم يثبتوا للتتر وانهزموا اقبح هزيمة وركبهم السيف من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى كثرة وكانت الوقعة فى ذى القعدة من هذه السنة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ولقد جرى لهؤلاء التتر مالم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد ارمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان وتالله لا أشك ان من يجئ بعدنا اذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها والحق بيده فتى استبعد ذلك فلينظر اننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى ازماننا هذه فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم فلقد دفعوا من العدو الى عظيم ومن الملوك المسلمين الى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه ولم ينل المسلمين اذى وشدة مذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت مثل مادفعوا اليه الآن هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها وناهيك به سعة بلاد وتعدت طائفة منهم النهر الى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك ثم الى الرى وبلاد الجبل واذربيجان وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم فى اقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا الى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا اخراجهم منها وباقى ديار مصر على خطر فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ومن أعظم الامور على المسلمين ان سلطانهم خوارزمشاه محمدا قد عدم لا يعرف حقيقة خبره فتارة يقال مات عند همذان وأخفى موته وتارة دخل اطراف بلاد فارس ومات هنالك واخفى موته لئلا يقصدها التتر لى اثره وتارة يقال عاد الى طبرستان وركب البحر فتوفى فى جزيرة هنالك وبالجملة فقد عدم ثم صح موته بطبرستان وهذا عظيم مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائبا لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد ويترك ما أراد على انهم لم يبقوا على مدينة الا خربوها وكل مامروا عليه نهبوه ومالا يصلح لهم احرقوه فكانوا يجمعون الابريسم تلالا

الاكاذيب * وشبه
التدليس وزئبق التمويه
ومرآة القريب * ومقراض
المغيب * وآفة الجود *
وخرافة الموعود * وحرباء
الالحاد * وكيمياء العناد *
ويربوع النفاق * ويعسوب
الشقاق * وضبة العقوق *
وفأرة الفسوق * وذباب
الخداع * وخنزير القصاع *
وكلب الهنات * واسود
التراث * وحرضة الانذال *
وفرضة الخبث والخبال *
وسكين الارحام * ويبرين
الدم الحرام * ولعل بعض
من يتصفح هذه الالفاظ
منسوقه * والاسجاع
مجموعة ومفروقه * يظن
بها ركوب البهت فى حلبة
الاقتدار * وعصيان
القصد فى طاعة الاجبار *
اولا ينضناض البلاغة *

ويلقون فيه النار وكذلك غيره من الامتعة

(ذكر ملك التتر مراغة)

في صفر سنة ثمان عشرة وستمائة ملك التتر مدينة مراغة من اذربيجان وسبب ذلك انا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمائة مافعله التتر بالكرج وانقضت تلك السنة وهم في بلاد الكرج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة ساروا من ناحية الكرج لانهم رأوا ان بين أيديهم شوكة قوية ومضايق تحتاج الى قتال وصداع فعدلوا عنهم وهذه كانت عادتهم اذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها فوصلوا الى تبريز وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب فساروا عنه الى مدينة مراغة فحصروها وليس بها صاحب يمنعها لان صاحبها كانت امرأة وهي مقيمة بقلعة رويندز وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة فلما حصروها قاتلهم أهلها فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا اليها وكانت عادتهم اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فان عادوا قتلوا فكانوا يقاتلون كرها وهم المساكين كما قيل كالاشقر ان تقدم ينحر وان تأخر يعقر وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل في المسلمين الاسارى وهم بنجوة منه فاقاموا عليها عدة ايام ثم ملكوا المدينة عنوة وقهرا رابع صفر ووضعوا السيف في أهلها فقتل منهم مايخرج عن الحد والاحصاء ونهبوا كل ماصلح لهم ومالا يصلح لهم احرقوه واختفى بعض الناس منهم فكانوا يأخذون الاسارى ويقولون لهم نادوا في الدروب ان التتر قد رحلوا فاذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل (وبلغني) ان امرأة من التتر دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلا فوضعت السلاح واذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيرا (وسمعت) من بعض اهلها ان رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فمازال يقتلهم واحدا واحدا حتى افناهم ولم يمد أحد يده اليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا نعوذ بالله من الخذلان ثم رحلوا عنها نحو مدينة اربل ووصل الخبر الينا بذلك بالموصل فخفنا حتى ان بعض الناس هم بالجلاء خوفا من السيف وجاءت كتب مظفر الدين صاحب اربل الى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر فسير جمعا صالحا من عسكره واراد ان يمضي الى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد فانها جميعها جبال وعرة ومضايق لايقدر أن يجوزها الا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز اليه ووصلت كتب الخليفة ورسله الى الموصل والى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر فانهم ربما عدلوا عن جبال اربل لصعوبتها الى هذه الناحية ويطرقون العراق فسار مظفر الدين من اربل في صفر وسار اليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير وأرسل الخليفة أيضا الى الملك الاشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم فاتفق ان الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق الى أخيه الاشرف وهو بحران يستنجده على الفرنج الذين بمصر وطلب منه ان يحضر بنفسه ليسيروا كلهم الى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج فاعتذر الى الخليفة باخيه وقوة الفرنج وان لم يتداركها خرجت هي وغيرها وشرع يتجهز للمسير الى الشام ليدخل مصر وكان ماذكرناه من استنقاذ

وأعالاقراض السفاهة بالفصاحة * وحذوا على غرار الشعراء في استعمال المجاز * واغفال التحفظ والاحتراز * انكارا لاتفاء هذه المساوي السوء في شخص قد شرى على تصاريف الزمان وجرب * وأكل طعمي احواله وشرب * ولم يعلم ان الله تعالى اذا أخذل شخصا ممن شاء من عباده لم يبق منه الا حماسنونا * وجلدا على اخلاط الفساد معطونا * وعلى شك خاصرة الشك عن واضحة اليقين بالافصاح عما أبهم * والاصباح على ما أظلم * تحذير الغفلة الانام * وتبسير الشاكلة الاستعصام * وتنبيها على مزلة الاغترار بظواهر النعم * والانخداع

دمياط فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقا سير الخليفة اليهم مملوكه قشتمر وهو أكبر
أمير بالعراق ومعه غيره من الامراء في نحو ثمانمائة فارس فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي
عسكر الخليفة وكان المقدم على الجميع مظفر الدين فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر
(وحكى مظفر الدين) قال لما ارسل الى الخليفة في معنى قصد التتر قلت له ان العدو قوي وليس لي
من العسكر ما القاه به فان اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد فأمرني
بالمسير وواعدني بوصول العسكر فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي
فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى
ظنا منهم ان العسكر يتبعهم فلما لم يروا أحدا يطلبهم أقاموا وأقام العسكر الاسلامي عند دقوقا
فلما لم يروا ان العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا الى بلادهم

(ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها)

لما تفرق العسكر الاسلامي عاد التتر الى همذان فنزلوا بالقرب منها وكان لهم بها شحنة يحكم فيها
فارسلوا اليه يأمرونه ليطلب من أهلها مالا وثيابا وكانوا قد استنفدوا أموالهم في طول المدة
وكان رئيس همذان شريفا علويا وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة وهو الذي يسعى في
أمور أهل البلد مع التتر ويوصل اليهم ما يجمعه من الاموال فلما طلبوا الآن منهم المال لم
يجد أهل همذان ما يحملونه اليهم فحضروا عند الرئيس ومعه انسان فقيه قد قام في اجتماع
الكلمة على الكفار قياما مرضيا فقالوا لهما هؤلاء الكفار قد افنوا أموالنا ولم يبق لنا
ما نعطيهم وقد هلكنا من أخذهم اموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان وكانوا قد جعلوا
بهمذان شحنة لهم يحكم في أهلها بما يختاره فقال الشريف اذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة
فليس لنا الا مصانعتهم بالاموال فقالوا له أنت أشد علينا من الكفار واغلظوا له في القول فقال
أنا واحد منكم فاصنعوا ما شئتم فأشار الفقيه باخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه
ومقاتلة التتر فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا في البلد فتقدم التتر اليهم وحصروهم
وكانت الاقوات متعذرة في تلك البلاد جميعها لخرابها وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم فلا يقدر
احد على الطعام الا قليلا واما التتر فلا يبالون لعدم الاقوات لانهم لا يأكلون الا اللحم ولا تأكل
دوابهم الا نبات الارض حتى انها تحفر بحوافرها الارض عن عروق النبات فتأكلها فلما حصروا
همذان قاتلهم اهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم فقتل من التتر خلق كثير وجرح الفقيه عدة
جراحات وافترقوا ثم خرجوا من الغد فاقتتلوا اشد من القتال الاول وقتل أيضا من التتر أكثر
من اليوم الاول وجرح الفقيه أيضا عدة جراحات وهو صابر وأرادوا أيضا الخروج في اليوم
الثالث فلم يطق الفقيه الركوب وطلب الناس الرئيس العلوي فلم يجدوه وكان قد هرب في سرب
صنعه الى ظاهر البلد هو واهله الى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها فلما فقده الناس بقوا
حيارى لا يدرون ما يصنعون الا انهم اجتمعت كلمتهم على القتال الى ان يموتوا فأقاموا في البلد
ولم يخرجوا منه وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم فلما لم يروا أحدا خرج
اليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله فقصدوهم وقاتلوهم في رجب من سنة ثمان
عشرة وستمائة ودخلوا المدينة بالسيف وقاتلهم الناس في الدروب فبطل السلاح للزحمة

لزواهر الاحاظي والقسم * فكم من صفيح بروق العيون نوره * ويروع النفوس مشهوره * قد قطف عنا قيد رؤس وأراق أباريق عروق * وفرا المنايا عن عسل من الانياب روق * ومن شهاب كما خط بالابريز كاتب * أو حل عن معقود اللواء راكب * يستوقف الابصار ضياء ممدودا * ويهاب بأفق السماء معقودا * قد رمد من طار بطواره * وهمد من رام التحيز في جواره * وكذلك الدفلى يفرا الناظر بمجرده * ويفتر عن عقيق الورد زبرجده * ثم هو الداء المجلوب لمن خبر * والسم المقشوب لمن فكر واعتبر * ولولا قصد الشريعة أن تسمع بخبرها على العموم * وتكافئ بين الكافة في فضلها المعلوم * اباحة للكتابة التي هي قيد العلوم * وصيد الحكم المبثوثة في الرقوم * فلله در رياسة

بر واقتتلوا بالسكاكين فقتل من الفريقين ما لا يحصيه الا الله تعالى وقوى التتر على المسلمين
فافنوهم قتلا ولم يسلم الا من كان عمل له نفقا يختفى فيه وبقى القتل فى المسلمين عدة أيام ثم
القوا النار فى البلد فاحرقوه ورحلوا عنها الى مدينة اردويل وقيل كان السبب فى ملكها
ان أهل البلد لما شكوا الى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار أشار عليهم بمكاتبة الخليفة
لينفذ اليهم عسكرا مع أمير يجمع كلمتهم فاتفقوا على ذلك فكتب الى الخليفة ينهى اليه ما هم
عليه من الخوف والذل وما يركبهم به العدو من الصغار والخزى ويطلب نجدة ولو ألف فارس
مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه فلما سار القصاد بالكتب ارسل بعض من علم بالحال الى
التتر يعلمهم ذلك فارسلوا الى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم وأرسلوا الى الرئيس
يشكرون عليه الحال فجحد فأرسلوا اليه كتبه وكتب الجماعة فسقط فى أيديهم وتقدم اليهم التتر
حينئذ وقاتلوهم وجرى فى القتال كما ذكرنا

(ذكر مسير التتر الى اذربيجان وملكهم اردويل وغيرها)

لما فرغ التتر من همذان ساروا الى اذربيجان فوصلوا الى اردويل فملكوها وقتلوا فيها واكثروا
وخربوا أكثرها وساروا منها الى تبريز وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائى وجمع كلمة
أهلها وقد فارقها صاحبها اوزبك بن البهلوان وكان اميرا تخلفه الا يزال منهمكا فى الخمر ليلا
ونهارا يبقى الشهر والشهرين لا يظهر واذا سمع هيعة طار مجفلا لها وله جميع اذربيجان واران
وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق
هو تبريز وقصد نقجوان وسير أهله ونساءه الى خوى ليبعد عنهم فقام هذا الطغرائى بأمر البلد
وجمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع وحذرهم عاقبة التخاذل والتوانى وحصن
البلد بجهده وطاقته فلما قاربه التتر وسمعوا بما اهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على
قتالهم وانهم قد حصنوا المدينة واصلحوا اسوارها وخندقها ارسلوا يطلبون منهم مالا وثيابا
فاستقر الامر بينهم على قدر معلوم من ذلك فسيروه اليهم فأخذوه ورحلوا الى مدينة سراو
فنهبوها وقتلوا كل من فيها ورحلوا منها الى بيلقان من بلاد اران فنهبوا كل ما مروا به من
البلاد والقرى وخربوا وقتلوا من ظفروا به من اهلها فلما وصلوا الى بيلقان حصروها فاستدعى
اهلها منهم رسولا يقررون معه الصلح فأرسلوا اليهم رسولا من أكابرهم ومقدميهم فقتله
اهل البلد فزحف التتر اليهم وقاتلوهم ثم انهم ملكوا البلد عنوة فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة
ووضعوا السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى انهم يشقون بطون الحبالى
ويقتلون الاجنة وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها وكان الانسان منهم يدخل الدرب فيه
الجماعة فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم اليه يدا فلما فرغوا
منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب وساروا إلى مدينة كنجة وهى أم بلاد اران
فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة دربتهم بقتال الكرج وحصانتها فلم يقدموا عليها فأرسلوا
الى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فساروا عنهم

(ذكر وصول التتر الى بلاد الكرج)

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين باذربيجان واران بعضه بالملك وبعضه بالصلح ساروا الى بلاد

العجم * ورفعة أقدار الدواة والقلم * حين عنسوها دون ذوى الاستحقاق * وخذروها الا عن الكرام العتاق *
لله در أنوشروان من رجل ما كان أعرفه بالدون والسفل
نهاهم أن يمسوا بعده قلما وأن يذل بنو الاحرار بالعمل
فما كل شجرة لها كفاءة فى مناكحة الآداب * وملاءة فى متاجرة الكتاب * ولا كل مسك يصلح للمسك وعاء * ولا كل ذرور يصلح للعين جلاء * وأضيع شئ عقد فى نحر خنزير * وحد بكف ضرير * وخطر بجنب قنبر * ونقش على بنان فاجر شرير * هاان المذكور معيدى الاحرار بخراسان دناءة همة * ورقاعة قيمة * وخساسة مفعول * وخصاصة معقول * نشأ فى بيت الفضل والنعمة * ونما على فرش اللين والنعمة * فرف عليه نعيم النشب * وعاق به نسيم لادب * فأصبح مخبلا لصوب

الكرج من هذه الاعمال ايضا وكان الكرج قد اعدوا لهم واستعدوا وسيروا جيشا كثيرا الى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها فوصل اليهم التتر فالتقوا فلم يثبت الكرج بل ولوا منهزمين فاخذهم السيف فلم يسلم منهم الا الشريد ولقد بلغني انهم قتل منهم نحو ثلاثين الفا ونهبوا ما وصلوا اليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم فلما وصل المنهزمون الى تفليس وبها ملكهم جمع جموعا اخرى وسيرهم الى التتر ايضا ليمنعوهم من توسط بلادهم فرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك فلما رأوا فعلهم عادوا الى تفليس فاخلوا البلاد ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ورأوا بلادا كثيرة المضايق والدربندات فلم يتجاسروا على الوغول فيها فعادوا عنها وداخل الكرج منهم خوف عظيم حتى سمعت عن بعض اكابر الكرج وكان قد قدم رسولا انه قال من حدثكم ان التتر انهزموا واسروا فلا تصدقوه واذا حدثتم انهم قتلوا فصدقوا فان القوم لا يفرون ابدا ولقد اخذنا اسيرا منهم فالقى نفسه من الدابة وضرب راسه بالحجر الى ان مات ولم يسلم نفسه للاسر

(ذكر وصولهم الى دربند شروان وما فعلوه)

لما عاد التتر من بلاد الكرج قصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخي وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصر ثم ان التتر صعدوا سورها بالسلاليم وقيل بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتلى الناس منهم ومن قتل من غيرهم والقوا بعضه فوق بعض فصار مثل التل وصعدوا عليه فاشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها فصبروا واشتد القتال ثلاثة أيام فاشرفوا على ان يؤخذوا فقالوا السيف لا بد منه فالصبر أولى بنا نموت كراما فصبروا وباتوا تلك الليلة فانتنت تلك الجيف وانهضمت فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب فعاودوا الزحف وملازمة القتال فضجر اهلها ومسهم التعب والكلال والاعياء فضعفوا فملك التتر البلد وقتلوا فيه كثيرا ونهبوا الاموال واستباحوها فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك فأرسلوا رسولا الى شروان شاه ملك دربند شروان يقولون له ليرسل اليهم رسولا يسعى بينهم في الصلح فأرسل عشرة رجال من اعيان أصحابه فأخذوا أحدهم فقتلوه ثم قالوا للباقين ان انتم عرفتمونا طريقا نعبر فيه فلكم الامان وان لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم ان هذا الدربند ليس فيه طريق البتة ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق فساروا معهم الى ذلك الطريق فعبروا فيه وخلفوه وراء ظهورهم

(ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق)

لما عبر التتر دربند شروان ساروا في تلك الاعمال وفيها أمم كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك فنهبوا وقتلوا من اللكز كثيرا وهم مسلمون وكفار وأوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد ووصلوا الى اللان وهم أمم كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجدوا وجمعوا عندهم جمعا من قفجاق فقاتلوهم فلم تظفر احدى الطائفتين بالاخرى فأرسل التتر الى قفجاق يقولون نحن وانتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ولا دينكم مثل دينهم ونحن نعاهدكم اننا لا نعترض اليكم ونحمل اليكم من الاموال والثياب ما شئتم وتتركون بيننا وبينهم فاستقر الامر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك فحملوا اليهم ما استقر وفارقهم قفجاق فأوقع التتر

الصواب في افعاله * جديرا بحكم الانتساب في أمثاله * يظن به وبعض الظن اثم ان الفرع الى الاصل نازع * والغيث للغيم مضارع * ولا علم يقضي بأن النار تهفو على رماد مائل * والجمر تطفو على عكر سائل * حتى اذا أينع وأينع حلته نذالة الطباع * وخيانة السنخ تحت يد الطباع * على عقوق أبيه * سعاية به الى السلطان فيما يحويه * وابتغاء اغاله بأملاكه وأملاك ذويه * فامتلأت عليه قبل الاستحقاق ماله * وقصم محاله وأحال حاله * وفجع به أمه وكانت عياله * واجبره دون ما اقتناه على كبر سنه وضعف أساسه * واشتعال المشيب براسه * ورسوب قذى العمر آخر كاسه * فطفق يجري الشؤن دموعا * ويقتضي أجل الكتاب مخمصة وجوعا * ويزجي مطايا الاسحار بين برد الياس * وحر الانفاس * بدعوات لم ترجع مجانيقها

باللان فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا وساروا الى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح فلم يسمعوا بهم الا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الاول فالاول واخذوا منهم اضعاف ما حملوا اليهم وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر ففروا من غير قتال وابعدوا بعضهم اعتصم بالغياض وبعضهم بالجبال وبعضهم لحق ببلاد الروس وأقام التتر في بلاد قفجاق وهي ارض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى وهي غياض على ساحل البحر ووصلوا الى مدينة سوداق وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم فانها على بحر خزرية والمراكب تصل اليها وفيها الثياب فتشترى منهم وتبيع عليهم الجواري والمماليك والبرطاسي والقندر والسنجاب وغير ذلك مما هو في بلادهم وبحر خزرية هذا بحر متصل بخليج القسطنطينية ولما وصل التتر الى سوداق ملكوها وتفرق أهلها منها فبعضهم صعد الجبال بأهله وماله وبعضهم ركب البحر وسار الى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلج أرسلان

(ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس)

لما استولى التتر على أرض قفجاق وتفرق اهل قفجاق كما ذكرنا سار طائفة كثيرة منهم الى بلاد الروس وهي بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم وأهلها يدينون بالنصرانية فلما وصلوا اليهم اجتمعوا كلهم واتفقت كلمتهم على قتال التتر ان قصدوهم وأقام التتر بأرض قفجاق مدة ثم انهم ساروا سنة عشرين وستمائة الى بلاد الروس فسمع الروس وقفجاق خبرهم وكانوا مستعدين لقتالهم فساروا الى طريق التتر ليلقوهم قبل ان يصلوا الى بلادهم ليمنعوهم عنها فبلغ مسيرهم التتر فعادوا على أعقابهم راجعين فطمع الروس وقفجاق فيهم وظنوا انهم عادوا خوفا منهم وعجزا عن قتالهم فجدوا في اتباعهم ولم يزل التتر راجعين وأولئك يقفون أثرهم اثني عشر يوما ثم ان التتر عطفوا على الروس وقفجاق فلم يشعروا بهم الا وقد لقوهم وهم على غرة منهم لانهم كانوا قد أمنوا التتر واستشعروا القدرة عليهم فلم يجتمعوا للقتال الا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما فصبر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله ودام القتال بينهم عدة أيام ثم ان التتر ظفروا واستظهروا فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد ان أثخن فيهم التتر وكثر القتل في المنهزمين فلم يسلم منهم الا القليل ونهب جميع ما معهم ومن سلم وصل الى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها فاجتمع كثير من اعيان تجار الروس واغنيائهم وحملوا ما يعز عليهم وساروا يقطعون البحر الى بلاد الاسلام في عدة مراكب فلما قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم فغرق الا ان الناس نجوا وكانت العادة جارية ان السلطان له المركب الذي ينكسر فاخذ من ذلك شيأ كثيرا وسلم باقي المراكب وأخبر من بها بهذه الحال

(ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق الى ملكهم)

لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغار اواخر سنة عشرين وستمائة فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع وخرجوا اليهم فلقوهم واستجروهم الى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من ورائهم فبقوا في الوسط

واخذهم

الا بقاصمة الظهور* وحالقة الدين لا حالقة الشعور* وعطف بعد على من طلعت عليه شمس والده* ورفت عليه اغصان فوائده* فجبهم بجب السلم* وقرضهم قرض الحلم* وعركهم عرك الادم* وقشرهم قشر القلم* فعادوا اعرى من الصخر معصورا* والسيف مشهورا* والغصن مخبوطا* والدجاج على السفود مربوطا* كل ذلك بين يديه* ونصب عينيه* حتى أضمرته الارض نديما للزفرات* كظيما بالحسرات* غريقا في العبرات* شرقا بماء الحياة* وعقد على مال خطته بكنج رستاق عقدا اشترى به أهلها وأخذ يطيبهم بما يريهم من سداد السيرة* ورعاية حق الجيرة* ذريعة الى استئكالهم واستئصالهم* دون حوائبهم وأموالهم* وسامح عدة من شيوخ تناتهم* ببعض ما لزمهم استمالة لهم على بؤساء معزورين

وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ولم ينج منهم الا القليل قيل كانوا نحو أربعة آلاف رجل فساروا الى سقسين عائذين الى ملكهم جنكزخان وخلت أرض قفجاق منهم فعاد من سلم منهم الى بلادهم وكان الطريق منقطعا مذ دخلها التتر فلم يصل منهم شئ من البرطاسي والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل من تلك البلاد فلما فارقوها عادوا الى بلادهم واتصلت الطريق وحملت الامتعة كما كانت هذا أخبار التتر المغربة قد ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع

(ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند)

قد ذكرنا مافعله التتر المغربة التي سيرها ملكهم جنكزخان لعنه الله الى خوارزمشاه وأما جنكزخان فانه بعد ان سير هذه الطائفة الى خوارزمشاه وبعد انهزام خوارزمشاه من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام فسير قسما منها الى بلاد فرغانة ليملكوها وسير قسما آخر منها الى ترمذ وسير قسما منها الى كلانة وهي قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وامنع الحصون فسارت كل طائفة الى الجهة التي أمرت بقصدها ونازلتها واستولت عليها وفعلت من القتل والاسر والسبي والنهب والتخريب وأنواع الفساد مثل مافعل أصحابهم فلما فرغوا من ذلك عادوا الى ملكهم جنكزخان وهو بسمرقند فجهز جيشا عظيما مع أحد اولاده وسيره الى خوارزم وسير جيشا آخر فعبروا جيحون الى خراسان

(ذكر ملك التتر خراسان)

لما سار الجيش المنفذ الى خراسان عبروا جيحون وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الامان فامنوهم فسلم البلد سنة سبع عشرة وستمائة ولم يتعرضوا اليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان وميمند واندخوى وقاريات فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة ولم يتعرضوا الى أهلها بسوء ولا أذى سوى انهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا الى الطالقان وهي ولاية تشتمل على عدة بلاد وفيها قلعة حصينة يقال لها منصوركوه لا ترام علوا وارتفاعا وبها رجال يقاتلون شجعان فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها الليل والنهار ولا يظفرون منها بشئ فأرسلوا الى جنكزخان يعرفونه عجزهم عن ملك هذه القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه اليهم وحصرها ومعه خلق كثير من المسلمين اسرى فامرهم بمباشرة القتال والا قتلهم فقاتلوا معه واقام عليها اربعة اشهر اخرى فقتل من التتر عليها خلق كثير فلما رأى ملكهم ذلك أمر ان يجمع له من الحطب والاخشاب ما أمكن جمعه ففعلوا ذلك وصاروا يعملون صفا من خشب وفوقه صفا من تراب فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا يوازي القلعة فاجتمع من بها وفتحوا بابها وخرجوا منها وحملوا حملة رجل واحد فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب وأما الرجالة فقتلوا ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والاطفال ونهبوا الاموال والامتعة ثم ان جنكزخان جمع اهل البلاد التي اعطاهم الامان ببلخ وغيرها وسيرهم مع بعض اولاده الى مدينة مرو فدخلوا اليها وقد اجتمع بها من الاعراب والاتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين مايزيد على مائتي ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو وهم عازمون على لقاء التتر ويحدثون نفوسهم بالغلبة

وضعفاء مضرورين
وسامهم بعد الاحتكام
عليهم في التراضي بزعامته
*والتواصي بطاعته *عقد
الوثائق عليهم بتصحيح مال
من ضمانه بكسر
وجبران حق من عقده
بتبير * حتى اذا استتب له
ما أراد *واستوفى عليهم
الحق وزاد *وضع عليهم يد
الاستقصاء بعلة حاصل
وباق وحائر وتاو فأخذ
ماوجد من صامت وناطق
وصاهل وناهق * حتى اذا
أرب كل من ذي يديه * وباد
غير اطلال الضياع والرباع
علمه *رام استنزالهم عنها
كراهية أو طواعيه *فمن
اهتبل منهم فرصة الخلاص
على التظلم عاداه *فأرهاه
وعراه فعراه *سبقه بحضر
العصبة القائمة بالافك في
خفارة التوفير * وكتابة
التزوير * فارتد على عقبيه

لهم والاستيلاء عليهم فلما وصل التتر اليهم التقوا واقتتلوا فصبر المسلمون وأما التتر فلا يعرفون
الهزيمة حتى ان بعضهم أسر فقال وهو عند المسلمين ان قيل ان التتر يقتلون فصدقوا وان قيل
انهم ينهزمون فلا تصدقوا فلما رأى المسلمون صبر التتر واقدامهم ولوا منهزمين فقتل التتر منهم
وأسروا الكثير ولم يسلم الا القليل ونهبت أموالهم وسلاحهم ودوابهم وأرسل التتر الى
ما حولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا الى مرو
وحصروها وجدوا في حصرها ولازموا القتال وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر
وكثرة القتل والاسر فيهم فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر الى الامير الذي بها
متقدما على من فيها يقولون له لا تهلك نفسك وأهل البلد واخرج الينا فنحن نجعلك أمير هذه
البلدة ونرحل عنك فأرسل يطلب الامان لنفسه ولاهل البلد فأمنهم فخرج اليهم فخلع عليه ابن
جنكزخان واحترمه وقال له أريد أن تعرض على أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا
استخدمناه وأعطيناه أقطاعا ويكون معنا فلما حضروا عنده وتمكن منهم قبض عليهم وعلى
أميرهم وكتفوهم فلما فرغ منهم قال لهم اكتبوا الى تجار البلد ورؤساءه وأرباب الاموال
في جريدة واكتبوا الى أرباب الصناعات والحرف في نسخة أخرى واعرضوا ذلك علينا ففعلوا
ما أمرهم فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج اهل البلد منه بأهليهم فخرجوا كلهم ولم يبق فيه
احد فجلس على كرسي من ذهب وامر ان يحضر أولئك الاجناد الذين قبض عليهم فأحضروا
وضربت رقابهم صبرا والناس ينظرون اليهم ويبكون واما العامة فانهم قسموا الرجال
والنساء والاطفال والاموال فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ والبكاء والعويل واخذوا
ارباب الاموال فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوبات في طلب الاموال فربما مات احدهم
من شدة الضرب ولم يكن بقي له ما يفتدي به نفسه ثم انهم احرقوا البلد واحرقوا تربة السلطان
سنجر ونبشوا القبر طلبا للمال فبقوا كذلك ثلاثة ايام فلما كان اليوم الرابع امر بقتل اهل
البلد كافة وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلوهم اجمعين وامر باحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة
ألف قتيل فانا لله وانا اليه راجعون مما جرى على المسلمين ذلك اليوم ثم ساروا الى نيسابور
فحصروها خمسة ايام وبها جمع صالح من العسكر الاسلامي فلم يكن لهم بالتتر قوة فملكوا المدينة
واخرجوا اهلها الى الصحراء فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو
وأقاموا خمسة عشر يوما يخربون ويفتشون المنازل عن الاموال وكانوا لما قتلوا اهل مرو قيل
لهم ان قتلاهم سلم منهم كثير ونجوا الى بلاد الاسلام فأمروا بأهل نيسابور ان تقطع رؤسهم
لئلا يسلم من القتل احد فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم الى طوس ففعلوا بها كذلك
ايضا وخربوها وخربوا المشهد الذي فيه علي بن موسى الرضى والرشيد حتى جعلوا الجميع خرابا
ثم ساروا الى هراة وهي من احصن البلاد فحصروها عشرة ايام فملكوها وامنوا اهلها
وقتلوا منهم البعض وجعلوا عند من سلم منهم شحنة وساروا الى غزنة فلقيهم جلال الدين
ابن خوارزمشاه فقاتلهم وهزمهم على ما نذكره ان شاء الله فوثب اهل هراة على الشحنة فقتلوه
فلما عاد المنهزمون اليهم دخلوا البلد قهرا وعنوة وقتلوا كل من فيه ونهبوا الاموال وسبوا
الحريم ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها واحرقوها وعادوا الى ملكهم جنكزخان وهو

خزيان * قد سال به السيل
وأسوان * طاف به الويل
وناح عليه النهار والليل
فاما ان يزول على كرب وقلق
واما أن يؤول على غيظ
وحنق * حتى استخلص
الضاحية والضامنه
واعتصر البادية والكامنه
وغادر الضياع حشين
وشرد عنها الزراع عزين
وأخرس الثغاء والرغاء
وأنطق الهام والاصداء
وطمس المنابع والمشارع
وحمى المراعي والمراتع * فلو
ملك عصافير الهواء * ويعافير
البيداء * لاستكرهها على
طعوم القوانص * وحقوق
الملاجئ والمفاحص * قد
شحاها للاطماع ولا مداخل
الكهوف * ومفاتح
الولائج الجوف
كالحوت لا يرويه شيء يلهمه
يصبح ظمآن وفي البحر فمه
وما به التخريب لولا اجتياح

بالطالقان يرسل السرايا الى جميع بلاد خراسان ففعلوا بها كذلك ولم يسلم من شرهم وفسادهم شيء من البلاد وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة

(ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها)

وأما الطائفة من الجيش التي سيرها جنكزخان الى خوارزم فانها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلد فسار واحتى وصلوا الى خوارزم وفيها عسكر كبير وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس ودام الحصر لهم خمسة أشهر فقتل من الفريقين خلق كثير الا ان القتلى من التتر كانوا أكثر لان المسلمين كان يحميهم السور فارسل التتر الى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد فأمدهم بخلق كثير فلما وصلوا الى البلد زحفوا زحفا متتابعا فملكوا طرفا منه فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم في طرف الموضع الذي ملكوا فلم يقدروا على اخراجهم ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليهم فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه وقتلوا كل من فيه ونهبوا كل ما فيه ثم انهم فتحوا السكر الذي يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء فغرق البلد جميعه وتهدمت الابنية وبقي موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة فان غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يختفي ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو واما اهل خوارزم فمن اختفى من التتر غرقه الماء او قتله الهدم فأصبحت خرابا يبابا

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الخذلان بعد النصر فلقد عمت هذه المصيبة الاسلام وأهله فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها لان القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرا مضى الجميع تحت السيف ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا الى ملكهم بالطالقان

(ذكر ملك التتر غزنة وبلاد الغور)

لما فرغ التتر من خراسان وعادوا الى ملكهم جهز جيشا كثيفا وسيره الى غزنة وبها جلال الدين بن خوارزمشاه مالكا لها وقد اجتمع اليه من سلم من عسكر أبيه قيل كانوا ستين ألفا فلما وصلوا الى أعمال غزنة خرج اليهم المسلمون مع ابن خوارزمشاه الى موضع يقال له بلق فالتقوا هنالك واقتتلوا قتالا شديدا وبقوا كذلك ثلاثة أيام ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤا ومن سلم منهم عاد الى ملكهم بالطالقان فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالي الذي عندهم للتتر فقتلوه فسير اليهم جنكزخان عسكرا فملكوا البلد وخربوه كما ذكرناه فلما انهزم التتر أرسل جلال الدين رسولا الى جنكزخان يقول له في أي موضع تريد يكون الحرب حتى نأتي اليه فجهز جنكزخان عسكرا كثيرا أكثر من الاول مع بعض أولاده وسيره اليه فوصل الى كابل فتوجه العسكر الاسلامي اليهم وتصافوا هنالك وجرى بينهم قتال عظيم فانهزم الكفار ثانيا فقتل كثير منهم وغنم المسلمون ما معهم وكان عظيما وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير فاستنقذوهم وخلصوهم ثم ان المسلمين جرى بينهم فتنة لاجل الغنيمة وسبب

المالك بجموعه * واستحلال حرام الملك بربوعه * كأنما عقد على الدهر حلفا لايخونه * واتخذ عنده عهدا يصونه * ويحماه من دونه منونه * وهيهات انها مظالم حديدات الشفائر ومغارم ثقيلات الغرائر ومصايد طالما اختفت فخاخها وضربت عليها الشباه مات رخاخها * ومطاعم ظاهرها الأرى وباطنها السم وان من الربيع ما يقتل حبطا أو يلم * نعم وأقام سوق الفسوق خاصة وعامه وأباح حمى الفجور بطانة وحامه * ملتزما سمة الشطاره ومستمطرا بقية الجباره ومضاهيا تيوس المجوس في خبث الالحاد * وصلة الاخوات والاولاد * بلاغا غمته ثقات خدمه * وأدته على وجه الاكابر جيران حرمه * وربما أرادوا له

ذلك ان أميرا منهم يقال له سيف الدين بغراق أصله من الاتراك الخلج كان شجاعا مقداما ذا رأى
فى الحرب ومكيدة واصطلى الحرب مع التتر بنفسه وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد
ملئتم منهم رعبا وهو الذى كسر التتر على الحقيقة وكان من المسلمين أيضا أمير كبير يقال له ملك
خان بينه وبين خوارزمشاه نسب وهو صاحب هراة فاختلف هذان الاميران فى الغنيمة فاقتتلوا
فقتل بينهم أخ لبغراق فقال بغراق أنا أهزم الكفار ويقتل أخى لاجل هذا السحت فغضب
وفارق العسكر وسار الى الهند فتبعه من العسكر ثلاثون ألفا كلهم يريدونه فاستعطفه جلال
الدين بكل طريق وسار بنفسه اليه وذكره الجهاد وخوفه من الله تعالى وبكى بين يديه فلم يرجع
وسار مفارقا فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا فبينما هم كذلك اذ ورد الخبر ان جنكزخان قد
وصل فى جموعه وجيوشه فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لاجل من فارقهم من العسكر
ولم يقدر على المقام فسار نحو بلاد الهند فوصل الى ماء السند وهو نهر كبير فلم يجد من السفن
ما يعبر فيه وكان جنكزخان يقص أثره مسرعا فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه
جنكزخان فى التتر فاضطر المسلمون حينئذ الى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم وكانوا فى ذلك
كالاشقر ان تأخر ينحر وان تقدم يعقر فتصافوا واقتتلوا أشد قتال اعترفوا كلهم ان كل
ما مضى من الحروب كان لعبا بالنسبة الى هذا القتال فبقوا كذلك ثلاثة أيام فقتل الامير ملك
خان المقدم ذكره وخلق كثير وكان القتل فى الكفار أكثر والجراح أعظم فرجع الكفار عنهم
فابعدوا ونزلوا فلما رأى المسلمون أنهم لا مدد لهم وقد ازدادوا ضعفا بمن قتل منهم وجرح
ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك فارسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمون ليقضى الله
أمرا كان مفعولا فلما كان الغد عاد الكفار الى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء
الى جهة الهند وبعدهم فلما وصلوا اليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر والحامى فقتلوا
أهلها ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ولم يبق أحد وخربوها وأحرقوها وفعلوا بسوادها كذلك
ونهبوا وقتلوا وأحرقوا فأصبحت تلك الاعمال جميعها خالية من الانيس خاوية على عروشها
كأن لم تغن بالامس

* (ذكر تسليم الاشرف خلاط الى أخيه شهاب الدين غازى) *

أواخر هذه السنة أقطع الملك الاشرف موسى بن العادل مدينة خلاط وجميع الاعمال
ارمينية ومدينة ميافارقين من ديار بكر ومدينة حانى أخاه شهاب الدين غازى بن العادل
وأخذ منه مدينة الرها ومدينة سروج من بلاد الجزيرة وسيره الى خلاط أول سنة ثمان عشرة
وستمائة وسبب ذلك ان الكرج لما قصد التتر بلادهم وهزموهم ونهبوها وقتلوا كثيرا من أهلها
أرسلوا الى اوزبك صاحب اذربيجان واران يطلبون منه المهادنة والموافقة على دفع التتر
وأرسلوا الى الملك الاشرف فى هذا المعنى وقالوا للجميع ان لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم
ودفعهم عن بلادنا وتحضروا بنفوسكم وعساكركم لهذا المهم والا صالحناهم عليكم فوصلت
رسلهم الى الاشرف وهو يتجهز الى الديار المصرية لاجل الفرنج وكانوا عندهم أهم الوجوه
لاسباب أولها ان الفرنج كانوا قد ملكوا دمياط وقد أشرفت الديار المصرية على ان تملك
فلو ملكوها لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لاحد وثانيها ان الفرنج أشد شكيمة وطالبو ملك

فى السر ملاما * وراموا من
تحذيره حدود الله وتخويفه
عقاب الله مراما * فبازيدهم
على ظاهرتين عاهرتين
كحدق الجراد مالها أجفان
تواريها * ولا أهداب تقيها
تصلفا بركوب الآثام
وتكلفا لمحظور الحرام
وانما أثبت لفظ التكلف
قطعا على ما سمعته من بعض
مشايخ الادب يحكى عن
سأل أباحاتم السجستانى عن
قول رسول الله عليه السلام
أبغض الناس الى الله شيخ
زان وعائل متكبر وفقير
فخور وزعم ان القياس
يقتضى كون الشاب الشديد
الفعلة القوى المنة أبغض
اليه من الشيخ المضعوف
والمعسر المنزوف * فقال
هو بناء على قوله عليه
السلام أبغض الاشياء الى
الله التكلف فأبغض الشيخ
لان فعله تكلف * وتقدمه

فاذا ملكوا قرية لا يفارقونها الا بعد أن يعجزوا عن حفظها يوما واحدا وثالثها ان الفرنج قد طمعوا في كرسي مملكة البيت العادلي وهي مصر والتتر لم يصلوا اليها ولم يجاوزوا شيأ من بلادهم وليسوا أيضا ممن يريد المنازعة في الملك وما غرضهم الا النهب والقتل وتخريب البلاد والانتقال من بلد الى آخر فلما أتاه رسل الكرج بما ذكرناه أجابهم يعتذر بالمسير الى مصر لدفع الفرنج ويقول لهم انني قد أقطعت ولاية خلاط لاخي وسيرته اليها ليكون بالقرب منكم وتركت عنده العساكر فمتى احتجتم الى نصرته حضر لدفع التتر وسار هو الى مصر كما ذكرناه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في ربيع الآخر ملك بدر الدين قلعة تل اعفر وفيها في جمادى الاولى ملك الاشرف مدينة سنجار وفيها أيضا وصل الموصل وأقام بظاهرها ثم سار يريد اربل فقصد صاحبها فترددت الرسل بينهم في الصلح فاصطلحوا في شعبان وقد تقدم هذا جميعه مفصلا سنة خمس عشرة وستمائة وفيها وصل التتر الى الري فملكوها وقتلوا كل من فيها ونهبوها وساروا عنها فوصلوا الى همذان فلقيهم رئيسها بالطاعة والحمل فابقوا على أهلها وساروا الى اذربيجان فخربوا وحرقوا البلاد وقتلوا وسبوا وعملوا ما لم يسمع بمثله وقد تقدم أيضا مفصلا وفيها توفي نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الذي كان وزير الخليفة وصلى عليه بجامع القصر وحضره أرباب الدولة ودفن بالمشهد وفيها توفي صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه الجويني شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان موته بالموصل وردها رسولا وكان فقيها فاضلا وصوفيا صالحا من بيت كبير من خراسان رحمه الله كان نعم الرجل وفيها عاد جمع بني معروف الى مواضعهم من البطيحة وكانوا قد ساروا الى الاحساء والقطيف فلم يمكنهم المقام لكثرة أعدائهم فقصدوا شحنة البصرة وطلبوا منه ان يكاتب الديوان ببغداد بالرضا عنهم فكتب معهم بذلك وسيرهم مع أصحابه الى بغداد فلما قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم فقتلوا

(ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة)

(ذكر وفاة قتادة أمير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج)

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي قتادة بن ادريس العلوي ثم الحسني أمير مكة حرسها الله وكان عمره نحو سبعين سنة وكانت ولايته قد اتسعت من حدود اليمن الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وله قلعة ينبع بنواحي المدينة وكثر عسكره واستكثر من المماليك وخافه العرب في تلك البلاد خوفا عظيما وكان في أول ملكه لما ملك مكة حرسها الله حسن السيرة أزال عنها العبيد المفسدين وحمى البلاد وأحسن الى الحجاج وأكرمهم وبقي كذلك مدة ثم انه بعد ذلك اساء السيرة وجدد المكوس بمكة وفعل أفعالا شنيعة ونهب الحاج في بعض السنين كما ذكرناه ولما مات ملك بعده ابنه الحسن وكان له ابن آخر اسمه راجح مقيم في العرب بظاهر مكة يفسد وينازع أخاه في ملكه فلما سار حاج العراق كان الامير عليهم مملوكا من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه اقباش وكان حسن السيرة مع الحاج في الطريق كثير الحماية فقصده راجح بن قتادة وبذل له وللخليفة مالا ليساعده على ملك مكة فأجابه الى ذلك ووصلوا الى مكة ونزلوا بالزاهر وتقدم الى مكة مقاتلا لصاحبها حسن وكان حسن قد جمع جموعا كثيرة من العرب

استكراه للطبع وهو يخالف كذلك هذا الطرف المتكلف والشره المتورد قد قضى شيمته على اقتراف المحارم واختراف المآثم * حتى اذا وضع القبر * وزحزح المسير وانحل المرير * وأفرغ ماء الصبير * أبت عليه عادة السوء أن ترخيه من عقالها وتعريه عن سربالها * وتحميه عن وبالها * وتريه الاعلى شعب الاران يوم فصالها
لا تعودا بالخير عادة تحوي بها ضربا من الشين
فعادة السوء اذا استحكمت شر على المرء من الدين
هذا ولم يرض بالعقوق الذي وسمه * ووشمه وسخم وجهه وجهه * ورداه بالخزي وعممه حتى قطع على رؤس الاشهاد رحمه * وقتل في الشائع المستفيض ولده وكان لحمه

وغيرها فخرج اليه من مكة وقاتله وتقدم أمير الحاج من بين يدي عسكره منفردا وصعد الجبل ادلالا بنفسه وانه لا يقدم أحد عليه فأحاط به أصحاب حسن وقتلوه وعلقوا رأسه فانهزم عسكر أمير المؤمنين وأحاط أصحاب حسن بالحاج لينهبوهم فارسل اليهم حسن عمامته أمانا للحجاج فعاد أصحابه ولم ينهبوا منهم شيأ وسكن الناس وأذن لهم حسن في دخول مكة وفعل ما يريدونه من الحج والبيع وغير ذلك وأقاموا بمكة عشرة أيام وعادوا فوصلوا الى العراق سالمين وعظم الامر على الخليفة فوصلت رسل حسن يعتذرون ويطلبون العفو عنه فأجيب الى ذلك وقيل في موت قتادة ان ابنه حسنا خنقه فمات وسبب ذلك ان قتادة جمع جموعا كثيرة وسار عن مكة يريد المدينة فنزل بوادي الفرع وهو مريض وسير أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة فلما أبعدوا بلغ الحسن ان عمه قال لبعض الجند ان أخي مريض وهو ميت لا محالة وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الامير بعد أخيه قتادة فحضر الحسن عند عمه واجتمع اليه كثير من الاجناد والمماليك الذين لابيه فقال الحسن لعمه قد فعلت كذا وكذا فقال لم أفعل فأمر حسن الحاضرين بقتله فلم يفعلوا وقالوا أنت أمير وهذا أمير ولا نمد أيدينا الى أحد كما فقال له غلامان لقتادة نحن عبيدك فمرنا بما شئت فأمرهما ان يجعلا عمامة عمه في عنقه ففعلا ثم قتله فسمع قتادة الخبر فبلغ منه الغيظ كل مبلغ وحلف ليقتلن ابنه وكان على ما ذكرناه من المرض فكتب بعض أصحابه الى الحسن يعرفه الحال ويقول له ابدأ به قبل ان يقتلك فعاد الحسن الى مكة فلما وصلها قصد دار أبيه في نفر يسير فوجد على باب الدار جمعا كثيرا فأمرهم بالانصراف الى منازلهم ففارقوا الدار وعادوا الى مساكنهم ودخل الحسن الى أبيه فلما رآه أبوه شتمه وبالغ في ذمه وتهديده فوثب اليه الحسن فخنقه لوقته وخرج الى الحرم الشريف وأحضر الاشراف وقال ان أبي قد اشتد مرضه وقد أمركم أن تحلفوا لي أن أكون أنا أميركم فحلفوا له ثم انه أظهر تابوتا ودفنه ليظن الناس أنه مات وكان قد دفنه سرا فلما استقرت الامارة بمكة له ارسل الى أخيه الذي بقلعة الينبع على لسان أبيه يستدعيه وكتم موت أبيه عنه فلما حضر أخوه قتله أيضا واستقر امره وثبت قدمه وفعل بأمير الحاج ما تقدم ذكره فارتكب عظيما قتل أباه وعمه وأخاه في أيام يسيرة لا جرم لم يمهله الله سبحانه وتعالى نزع ملكه وجعله طريدا شريدا خائفا يترقب وقيل ان قتادة كان يقول شعرا فمن ذلك انه طلب ليحضر عند أمير الحاج كما جرت عادة أمراء مكة فامتنع فعوتب من بغداد فأجاب بأبيات شعر منها

ولي كف ضرغام أذل ببطشها * وأشري بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الارض تلثم ظهرها * وفي وسطها للمجدبين ربيع
أأجعلها تحت الرحا ثم أبتغي * خلاصا لها اني اذا لرقيع
وما أنا الا المسك في كل بلدة * يضوع واما عندكم فيضيع

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة استعاد المسلمون مدينة دمياط بالديار المصرية من الفرنج وقد تقدم ذكرها مشروحا مفصلا وفيها في صفر ملك التتر مراغة وخربوها وأحرقوها وقتلوا أكثر أهلها ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وسار التتر منها الى همذان وحصروها فقاتلهم أهلها وظفر بهم التتر

وقتلوا

ودمه * فلو كان كأحمد
أولاد السوقه * في أخلاق
لهم بين الجنة والخلوقه
لكنه انحسر بماء العهد
والزبد بذوب الشهد * والاثم
برشف الرضاب * والملك
بشرخ الشباب * والأمن
بطعم الوصال * والخلق بطيب
الحلال * والعفو بنشر النوال
والعيش بموت العذال
وشمس الجنوب بروح
الشمال * عشق الادب
قبل أن عقدت عنه تمائمه
وزينته دون الاحتضان
روائمه * فجاء كالصرح هدى
أوله النصل المطار * وحدا
أسفله الريش الظهار
وناهز عشرين من سنيه
يرى الخليل في جنب فضله
خاملا * وسيبويه كليلا
وعبد الحميد رديا * وابن
العميد عميدا * ان خط

وقتلوا منهم مالا يحصى ونهبوا البلاد وساروا الى اذربيجان فأعادوا النهب ونهبوا ما بقى من البلاد ولم ينهبوه أولا ووصلوا الى بيلقان من بلاد اران فحصروها وملكوها وقتلوا أهلها حتى كادوا يفنونهم وقتل منهم كثير ونهبت أموالهم واكثر بلادهم وقصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخي وملكوها وقتلوا كثيرا من اهلها وساروا الى بلاد اللان واللكز ومن عندهم من الامم فأوقعوا ورحلوا عن قفجاق واجلوهم عنها واستولوا عليها وساحوا في تلك الارض حتى وصلوا الى بلاد الروس وقد تقدم ذكر جميعه مستقصى وانما اوردناه ههنا جملة ليعلم الذى كان في هذه السنة من حوادثهم وفيها توفى صديقنا أمين الدين ياقوت الكاتب الموصلى ولم يكن في زمانه من يكتب ما يقاربه ولا من يؤدى طريقة ابن البواب مثله وكان ذا فضائل جمة من علم الادب وغيره وكان كثير الخير نعم الرجل مشهورا في الدنيا والناس متفقون على الثناء الجميل عليه والمدح له ولهم فيه اقوال كثيرة تظما ونثرا فمن ذلك ما قاله نجيب الدين الحسين بن على الواسطى من قصيدة يمدحه بها

جامع شارد العلوم ولولا ❊ ه لكانت ام الفضائل ثكلى
ذو يراع تخاف سطوته الاسد وتعنو له الكتائب ذلا
واذا افتر ثغره عن سواد ❊ في بياض فالبيض والسمر خجلى
انت بدر والكاتب بن هلال ❊ كأبيه لا فخر فيمن تولى

ومنها

ان يكن أولا فانك بالتفضيل اولى فقد سبقت وصلى

وهى طويلة والكاتب بن هلال هو ابن البواب الذى هو أشهر من ان يعرف وفيها توفى جلال الدين الحسن وهو من أولاد الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكره صاحب ألموت وكردكوه وهو مقدم الاسماعيلية وقد ذكرنا انه كان قد أظهر شريعة الاسلام من الاذان والصلاة وولى بعده ابنه علاء الدين محمد

❊(ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة)❊

❊(ذكر خروج طائفة من قفجاق الى اذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم)❊

لما استولى التتر على أرض قفجاق تفرق قفجاق فطائفة قصدت بلاد الروس وطائفة تفرقت في جبالهم واجتمع طائفة كثيرة منهم وسار والى دربند شروان ووصلوا الى صاحبه واسمه رشيد وقالوا له ان التتر قد ملكوا بلادنا ونهبوا أموالنا وقد قصدناك لنقيم في بلادك ونحن مماليك ونفتح البلاد لك وأنت سلطاننا فمنعهم من ذلك وخافهم فأعادوا الرسالة اليه اننا نحن نرهن عندك أولادنا ونساءنا على الطاعة والخدمة لك والانقياد لحكمك فلم يجبهم الى ما طلبوا فسألوه ان يمكنهم ليتزودوا من بلده تدخل عشرة عشرة فاذا اشتروا ما يحتاجون اليه فارقوا بلاده فأجابهم الى ذلك فصاروا يدخلون متفرقين ويشترون ما يريدون ويخرجون ثم ان بعض كبرائهم والمقدمين منهم جاء الى رشيد وقال انى كنت في خدمة السلطان خوارزمشاه وأنا مسلم والدين يحملني على نصحك اعلم ان قفجاق أعداؤك ويريدون الغدر بك فلا تمكنهم من المقام ببلادك فأعطنى عسكرا حتى أقاتلهم وأخرجهم من البلاد ففعل ذلك وسلم اليه طائفة

فنقش العسجد ❊ على ايدى الكواعب الغيد ❊ وان لفظ نعقود الدر منظومه وافاحى البطاح مرقومه ولولا أن اباه اعتبطه دون مداه لخلف من آثار بنانه وخلد من أنوار ابداعه واحسانه ❊ ما يفضح ماء الورد في تصعيده ❊ وعصير الخمر من عناقيده ❊ لكنه لم يغن الاقدر ما احتمته العيون حتى اختطفته المنون ❊ فقامت نواعى الجود يندبنه جميعا ويبكينه نجيعا ❊ فظللت من بينهم صريعا ❊ أنشدهم واله القلب وجيعا قد كان لى في رأيه وذكائه أشراط صدق أن يموت سريعا ولقد ضمنى واياه مجلس لبعض أركان الدولة الميمنة فاتفقنا ثاني اثنين من بين الحضور في تنافث الهموم

من عسكره واعطاهم ما يحتاجون اليه من سلاح وغيره فسار وامعه فأوقعوا بطائفة من قفجاق
فقتل منهم جماعة ونهب منهم فلم يتحرك قفجاق لقتال بل قالوا نحن مماليك الملك شروان شاه
رشيد ولولا ذلك لقاتلنا عسكره فلما عاد ذلك المقدم القفجاقي ومعه عسكر رشيد سالمين فرح بهم
ثم ان قفجاق فارقوا موضعهم فسار والثلاثة أيام فقال ذلك القفجاقي لرشيد أريد عسكرا اتبعهم
فأمر له من العسكر بما أراد فسار يقفو أثر القفجاق فأوقع بأواخرهم وغنم منهم وقصده جمع
كثير من قفجاق من الرجال والنساء يبكون وقد جزوا شعورهم ومعهم تابوت وهم محيطون به
يبكون حوله وقالوا له ان صديقك فلانا قد مات وقد أوصى ان نحمله اليك فتدفنه في أي موضع
شئت ونكون نحن عندك فحمله معه والذين يبكون عليه أيضا وعاد الى شروان شاه رشيد وأعلمه
ان الميت صديق له وقد حمله معه وقد طلب أهله ان يكونوا عنده في خدمته فأمر ان يدخلوا
البلد وانزالهم فيه فكان أولئك الجماعة يسيرون مع ذلك المقدم ويركبون بركوبه ويصعدون
معه الى القلعة التي لرشيد ويقعدون عنده ويشربون معه هم ونساؤهم فأحب رشيد امرأة
ذلك الرجل الذي قيل له انه ميت ولم يكن مات وانما فعلوا هكذا مكيدة حتى دخلوا البلد والذي
أظهروا موته منهم في المجلس ولا يعرفه رشيد هو من أكبر مقدمي قفجاق فبقوا كذلك عدة
أيام فكل يوم يجيء جماعة من قفجاق متفرقين فاجتمع بالقلعة منهم جماعة وأرادوا قبض رشيد
وملك بلاده ففطن لذلك فخرج عن القلعة من باب السر وهرب ومضى الى شروان وملك قفجاق
القلعة وقالوا لاهل البلد نحن خير لكم من رشيد وأعادوا باقي أصحابهم اليهم وأخذوا السلاح
الذي في البلد جميعه واستولوا على الاموال التي كانت لرشيد في القلعة ورحلوا عن القلعة
وقصدوا قبلة وهي للكرج فنزلوا عليها وحصروها فلما سمع رشيد بمفارقتهم القلعة رجع اليها
وملكها وقتل من بها من قفجاق ولم يشعر القفجاق الذين عند قبلة بذلك فارسلوا طائفة منهم
الى القلعة فقتلهم رشيد أيضا فبلغ الخبر الى القفجاق فعادوا الى دربند فلم يكن لهم في القلعة
طمع وكان صاحب قبلة لما كانوا يحصرونه قد أرسل اليهم وقال لهم أنا ارسل الى ملك الكرج
حتى يرسل اليكم الخلع والاموال ونجتمع نحن وأنتم ونملك البلاد فكفوا عن نهب ولايته
أياما ثم انهم مدوا أيديهم بالنهب والفساد ونهبوا بلاد قبلة جميعها وساروا الى قريب كنجة من
بلاد اران وهي للمسلمين فنزلوا هنالك فأرسل اليهم الامير بكنجة وهو مملوك لاوزبك صاحب
اذربيجان اسمه كوشخرة عسكرا فمنعهم من الوصول الى بلاده وسير رسولا اليهم يقول لهم
غدرتم بصاحب شروان وأخذتم قلعته وغدرتم بصاحب قبلة ونهبتم بلاده فما يثق بكم أحد
فأجابوا اننا ما جئنا الا قصدا لخدمة سلطانكم فمنعنا شروان شاه عنكم فلهذا قصدنا بلاده
وأخذنا قلعته ثم تركناها من غير خوف وأما صاحب قبلة فهو عدو لكم ولو أردنا ان نكون
عند الكرج لما كان علينا طريق بقينا على دربند شروان فانه اصعب وأشق وابعد وكنا جئنا الى
بلادهم على عادتنا ونحن نوجه الرهائن اليكم فلما سمع هذا سار اليهم فسمع به قفجاق فركب
اميران منهم هما مقدماهم في نفر يسير وجاؤا اليه ولقوه وخدموه وقالوا له قد أتيناك جريدة
في قلة من العدد لتعلم اننا ما قصدنا الا الوفاء والخدمة لسلطانكم فأمرهم كوشخرة بالرحيل
والنزول عند كنجة وتزوج ابنة أحدهم وأرسل الى صاحبه أوزبك يعرفه حالهم فأمرهم

وتذاكر العلوم * وتناشد أبيات الكرم واللوم * فما كان الا أن حمى المجلس بناره وعقر الشرب بعقاره * حتى انحل عنه عقال اختياره وانفتحت له أقفال أسراره فغرق في بحر الدموع عينه وأتى الى ما دار بين أبيه وبينه * يقرر ما نشأ عليه من خدمة الادب * والاستغناء بعصام النفس عن عظام النسب * على طاعة من ولد في حجره * والبروز على حكم أمره وزجره * وانه حين ملك أمره * وعرف من خلة خيره * وانفرد بتدبير معاشه وتوفير نعمته ورياشه * ناهض بأمله معونة أبيه ببعض ما يستحقه بررة الابناء على الآباء فلم يزده على أن زاحمه في ارثه عن أمه

بالخلع والنزول بجبل كيلكون ففعلوا ذلك وخافهم الكرج فجمعوا لهم ليكبسوهم فوصل الخبر بذلك الى كوشخرة أمير كنجة فاخبر قفجاق وأمرهم بالعود والنزول عند كنجة فعادوا ونزلوا عندها وسار أمير من أمراء قفجاق فى جمع منهم الى الكرج فكبسهم وقتل كثيرا منهم وهزمهم وغنم مامعهم واكثر القتل فيهم والاسر منهم وتمت الهزيمة عليهم ورجع قفجاق الى جبل كيلكون فنزلوا فيه كما كانوا فلما نزلوا أراد الامير الآخر من أمراء قفجاق ان يؤثر فى الكرج مثل مافعل صاحبه فسمع كوشخرة فارسل اليه ينهاه عن الحركة الى ان يكشف له خبر الكرج فلم يقف فسار الى بلادهم فى طائفته ونهب وخرب وأخذ الغنائم فسار الكرج من طريق يعرفونها وسبقوه فلما وصل اليهم قاتلوه وحملوا عليه وعلى من معه على غرة وغفلة فوضعوا السيف فيهم واكثروا القتل فيهم واستنقذوا الغنائم منه فعاد هو ومن معه على أقبح حالة وقصدوا برذعة وارسلوا الى كوشخرة يطلبون ان يحضر عندهم هو بنفسه وعسكره لقصدوا الكرج فيأخذوا بثارهم منهم فلم يفعل وأخافهم وقال انتم خالفتمونى وعملتم برأيكم فلا أنجدكم بفارس واحد فارسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم فلم يعطهم فاجتمعوا وأخذوا كثيرا من المسلمين عوضا من الرهائن فثار بهم المسلمون من أهل البلاد وقاتلوهم فقتلوا منهم جماعة كثيرة فخافوا وساروا نحو شروان وجازوا الى بلد اللكز فطمع الناس فيهم المسلمون والكرج واللكز وغيرهم فافنوهم قتلا ونهبا وأسرا وسبيا بحيث ان المملوك منهم كان يباع فى دربند شروان بالثمن البخس

(ذكر نهب الكرج بيلقان)

فى هذه السنة فى شهر رمضان سار الكرج من بلادهم الى بلاد اران وقصدوا مدينة بيلقان وكان التتر قد خربوها ونهبوها كما ذكرناه قبل فلما سار التتر الى بلاد قفجاق عاد من سلم من اهلها اليها وعمروا ما امكنهم عمارته من سورها فبينما هم كذلك اذ أتاهم الكرج ودخلوا البلد وملكوه وكان المسلمون فى تلك البلاد ألفوا من الكرج انهم اذا ظفروا بالدهم صانعوهم بشئ من المال فيعودون عنهم فكانوا أحسن الاعداء مقدرة فلما كانت هذه الدفعة ظن المسلمون انهم يفعلون مثل ماتقدم فلم يبالغوا فى الامتناع منهم ولا هربوا من بين أيديهم فلما ملك الكرج المدينة وضعوا السيف فى أهلها وفعلوا من القتل والنهب مافعل بهم التتر هذا جميعه يجرى وصاحب بلاد اذربيجان اوزبك بن البهلوان بمدينة تبريز ولا يتحرك فى صلاح ولا يتجه لخير بل قد قنع بالاكل وادمان الشرب والفساد فقبحه الله ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم وحفظ بلادهم بمحمد وآله

(ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش)

فى هذه السنة ملك بدر الدين صاحب الموصل قلعة شوش من أعمال الحميدية وبينها وبين الموصل اثنا عشر فرسخا وسبب ذلك انها كانت هى وقلعة العقر متجاورتين لعماد الدين زنكى ابن ارسلانشاه وكان بينهما من الخلف ماتقدم ذكره فلما كان هذه السنة سار زنكى الى اذربيجان ليخدم صاحبها اوزبك بن البهلوان فاتصل به وصار معه واقطعه اقطاعات وأقام عنده فسار بدر الدين الى قلعة شوش فحاصرها وضيق عليها وهى على رأس جبل عال فطال

وحال بينه وبين ماكتب الله له من حقه مطاوعة لرفيق اعتقده * فذاق عسيلته * وأذاقه ذبيلته * فخلاه ثم ماترتيب دانيته وقاصيته وولاه تدبير حاشيته وغاشيته * وحكمه فى عرض ولده * وسائر ماتحت يده * فاجر ذلك الفاضل دون نعمته * وأقعده دون الاستمتاع بجمته * وجعل كل من يعتزى اليه منقوما ومقدوعا * ومن يعتريه ملطوما ومصفوعا * حتى اضطره صراخ البائس والحاح الافلاس * الى قصد شمس الكفاة لاستماحته * وانتجاع ندى راحته * فحين علم أبوه المعتوه تخييمه على شاطئ الاقبال * واستقلاله على مواطئ الآمال * ندب الفكر لاغتياله * أوسهر الليل لاقتناصه باحدى حبائله وحباله * فدس اليه على ماشاع وذاع * وشحن

مقاساة عليها الحصار فانهزم فعاد الى الموصل وترك عسكره محاصرا لها فلما طال الامر على من بها
ولم يروا من يرحله عنهم ولا من ينجدهم سلموها على قاعدة استقرت بينهم من اقطاع وخلع وغير
ذلك فتسلمها نوابه فى التاريخ ورتبوا امورها وعادوا الى الموصل

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى العشرين من شعبان ظهر كوكب فى السماء فى الشرق كبير له ذؤابة طويلة
غليظة وكان طلوعه وقت السحر فبقى كذلك عشرة أيام ثم انه ظهر أول الليل فى الغرب مما يلى
الشمال فكان كل ليلة يتقدم الى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع فى رأى العين فلم يزل يقرب من
الجنوب حتى صار غربا محضا ثم صار غربا مائلا الى الجنوب بعد ان كان غربا مما يلى الشمال فبقى
كذلك الى آخر شهر رمضان من السنة ثم غاب وفيها توفى ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا ارسلان
صاحب حصن كيفا وآمد وكان ظالما قبيح السيرة فى رعيته قيل انه كان يتظاهر بمذهب
الفلاسفة فى ان الاجساد لا تحشر كذبوا لعنهم الله ولما مات ملك ابنه الملك المسعود

(ثم دخلت سنة عشرين وستمائة)

(ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى)

فى هذه السنة سار الملك المسعود اتسز بن الملك الكامل محمد صاحب مصر الى مكة وصاحبها
حينئذ حسن بن قتادة بن ادريس العلوى الحسنى قد ملكها بعد أبيه كما ذكرناه وكان حسن
قد أساء الى الاشراف والمماليك الذين كانوا لابيه وقد تفرقوا عنه ولم يبق عنده غير اخواله من
غيره فوصل صاحب اليمن الى مكة ونهبها عسكره الى العصر فحدثنى بعض المجاورين المتأهلين
انهم نهبوها حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم وأمر صاحب اليمن أن ينبش قبر قتادة
ويحرق فنبشوه فظهر التابوت الذى دفنه ابنه الحسن والناس ينظرون اليه فلم يروا فيه شيأ
فعلموا حينئذ ان الحسن دفن أباه سرا وانه لم يجعل فى التابوت شيأ وذاق الحسن عاقبة قطيعة
الرحم وعجل الله مقابلته وأزال عنه ما قتل أباه وأخاه وعمه لأجله خسر الدنيا والآخرة
ذلك هو الخسران المبين

(ذكر حرب بين المسلمين والكرج بارمينية)

فى هذه السنة فى شعبان سار صاحب قلعة سرمارى وهى من اعمال ارمينية الى خلاط لانه كان
فى طاعة صاحب خلاط وهو حينئذ شهاب الدين غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب فحضر عنده
واستخلف ببلده أميرا من أمرائه فجمع هذا الامير جمعا وسار الى بلاد الكرج فنهب منها عدة
قرى وعاد فسمعت الكرج بذلك فجمع صاحب دوين واسمه شلوة وهو من أكابر أمراء الكرج
عسكره وسار الى سرمارى فحصرها أياما ونهب بلدها وسوادها ورجع فسمع صاحب سرمارى
الخبر فعاد الى سرمارى فوصل اليها فى اليوم الذى رحل الكرج عنها فاخذ عسكره وتبعهم
فأوقع بساقتهم فقتل منهم وغنم واستنقذ ما أخذوا من غنائم بلاده ثم ان صاحب دوين جمع
عسكره وسار الى سرمارى ليحصرها فوصل الخبر الى صاحبها بذلك فحصنها وجمع الذخائر وما
يحتاج اليه فأتاه من أخبره ان الكرج نزلوا بواد بين دوين وسرمارى وهو واد ضيق فسار
بجميع عسكره جريدة وجد السير ليكبس الكرج فوصل الى الوادى الذى هم فيه وقت السحر

المسامع والبقاع * من
ذعف له نقيعا * غادره على
فراش المنون صريعا *
وانتقل غير بعيد الى جوار
ربه ودار كرامته * مشبكا
يديه فوق هامته * ومستصرخا
ولى العدل ومالك الخلق
على ظلامته * ومخاصما
حول العرش الى يوم
قيامته * وحدث عن
قهرمان بيته وقد عاد الى
أبيه السفيه بما كان
استفضله عن رواتب
نفقاته * واقتطعه دون
عوارض حاجاته * استظهارا
على حوادث النوب * أو
استنفاقا على معالى الرتب *
أنه وآخر من رفقائه أنفقا
من جملة المال قدر ما قطعا
به المسافة اليه * ووضعاه
فى اكياسه يجتوبها بين
يديه * فكان جزاؤهما
منه ان وضع الدهق عليهما *
حتى استغرق ملكيهما
واقترف صليب العظام ثم

ففرق عسكره فرقتين فرقة من أعلى الوادي وفرقة من أسفله وحملوا عليهم وهم غافلون ووضعوا السيف فيهم فقتلوا وأسروا فكان في جملة الاسرى شلوة أمير دوين في جماعة كثيرة من مقدميهم ومن سلم من الكرج عاد الى بلادهم على حال سيئة ثم ان ملك الكرج أرسل الى الملك الاشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وهو الذي أعطى خلاط وأعمالها الامير شهاب الدين يقول له كنا نظن اننا على صلح والآن فقد عمل صاحب سرماري هذا العمل فان كنا على الصلح فنريد اطلاق أصحابنا من الاسر وان كان الصلح قد انفسخ بيننا فنعرفنا حتى ندبر أمرنا فارسل الاشرف الى صاحب سرماري يأمره باطلاق الاسرى وتجديد الصلح مع الكرج ففعل ذلك واستقرت قاعدة الصلح وأطلق الاسرى

(ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله)

في هذه السنة في جمادى الآخرة انهزم ايغان طائسى وهو خال غياث الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش وهذا غياث الدين هو صاحب بلاد الجبل والري واصبهان وغير ذلك وله أيضا بلاد كرمان وكان سبب ذلك ان خاله ايغان طائسى كان معه وفي خدمته وهو أكبر أمير معه لا يصدر غياث الدين الا عن رأيه والحكم اليه في جميع المملكة فلما عظم شأنه حدث نفسه بالاستيلاء على الملك وحسن له ذلك غيره وأطمعه فيه فقيل ان الخليفة الناصر لدين الله أقطعه البلاد سرا وأمره بذلك فقويت نفسه على الخلاف فاستفسد جماعة من العسكر واستمالهم فلما تم له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين وخرج عن طاعته أوزبك وصار في البلاد يفسد ويقطع الطريق وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها وانضاف اليه جمع كثير من أهل العنف والفساد ومعه مملوك آخر اسمه ايبك الشامي كانا متفقين على العصيان فقوي بهما وساروا جميعهم الى غياث الدين ليقاتلوه ويملكوا بلاده ويخرجوه منها فجمع غياث الدين عسكره والتقوا بنواحي (٣) واقتتلوا فانهزم خال غياث الدين ومن معه وقتل من عسكره وأسر كثير وعاد المنهزمون الى اذربيجان على أقبح حال وأقام غياث الدين في بلاده وثبت قدمه

(حادثة غريبة لم يوجد مثلها)

كان أهل مملكة الكرج لم يبق منهم غير امرأة وقد انتهى الملك اليها فوليته وقامت بالامر فيهم وحكمت فطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك نيابة عنها ويكون من أهل بيت مملكة فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الامر وكان صاحب ارزن الروم هذا الوقت هو مغيث الدين طغرلشاه بن قلج ارسلان بن مسعود قلج ارسلان وبيته مشهور من أكابر ملوك الاسلام وهم من الملوك السلجوقية وله ولد كبير فارسل الى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من اجابته وقالوا لا نفعل هذا لاننا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم فقال لهم ان ابني يتنصر ويتزوجها فأجابوه الى ذلك فأمر ابنه فتنصر ودان بالنصرانية وتزوج الملكة وانتقل اليها وأقام عند الكرج حاكما في بلادهم واستمر على النصرانية نعوذ بالله من الخذلان ونسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها وخير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاه ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكا لها فكان زوجها يسمع عنها القبائح ولا يمكنه الكلام لعجزه ثم انه يوما دخل عليها فرآها نائمة مع مملوكها في فراش فأنكر ذلك وواجهها بالمنع منه فقالت ان رضيت بهذا والا

قصدهما في روحه ما
اشفاقا على صورة الحال *
ومستورة المآل * من
هتكة الاذاعه * وفضحة
الكشف والاشاعه * لولا انه
اعتصم بالاستتار دون
صاحبه مرعدا بما تحاماه *
ومبرقا باستبراز ما واراه *
ولم يرض بالارث وقد حازه
دون مستحقه * من قرابته
وذويه * حتى قطع سياط
المطالبة على وكلائه
ومواليه * وهلم جرا الى
شقيقة له معجزة في الحجاب *
ممتنعة دون الخطاب *
خلافا على الله في حكمه *
واجتراء عليه في فرض
الاسلام وحتمه * واستحقاقا
لوالغ الالسن في دينه
المجروح * وعرضه المفضوح *
وعقده المحلول * وسره
المعجون بالغلول * فعراهم
ذكرانا وأناثا عما لبسوه من
بال وجديد * وطارف
وتليد * اعتلالا عليهم

(٣) بياض بأصله

فانت أخبر فقال انى لا أرضى بهذا فنقلته الى بلد آخر ووكلت به من يمنعه من الحركة وجرت
عليه وأرسلت الى بلد اللان وأحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة فتزوجت أحدهما
فبقى معها يسيرا ثم انها فارقته وأحضرت انسانا آخر من كنجة وهو مسلم فطلبت منه ان يتنصر
ليتزوجها فلم يفعل فأرادت أن تتزوجه وهو مسلم فقام عليها جماعة الامراء ومعهم ايوانى وهو
مقدم العساكر الكرجية فقالوا لها قد افتضحنا بين الملوك بما تفعلينه ثم تريدين أن يتزوجك مسلم
وهذا لا نمكن منه أبدا والامر بينهم متردد والرجل الكنجى عندهم لم يجبهم الى الدخول
فى النصرانية وهى تهواه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كان الجراد فى أكثر البلاد وأهلك كثيرا من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة
وديار بكر وكثير من الشام وغيرها وفيها فى رمضان توفى عبد الرحمن بن هبة الله بن عساكر الفقيه
الشافعى الدمشقى بها وكان غزير العلم عالما بالمذهب كثير الصلاح والزهد والخير رحمه الله وفيها
تجمع العرب فى خلق كثير على حجاج الشام وأرادوا قطع الطريق عليهم وأخذهم وكان الامير
على الحجاج شرف الدين يعقوب بن محمد وهو من أهل الموصل أقام بالشام وتقدم فيه فمنعهم
بالرغبة والرهبة ثم صانعهم بمال وثياب وغير ذلك فأعطى الجميع من ماله ولم يأخذ من الحجاج
الدرهم الفرد وفعل فعلا جميلا وكان عنده كثير من العلوم ويرجع الى دين متين

(ثم دخلت سنة احدى وعشرين وستمائة)

(ذكر عود طائفة من التتر الى الرى وهمذان وغيرهما)

أول هذه السنة وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان وهؤلاء غير الطائفة الغربية
التى ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الرى وكان من سلم من أهلها قد عادوا اليها وعمروها
فلم يشعروا بالتتر الا وقد وصلوا اليهم فلم يمتنعوا عنهم فوضعوا فى أهلها السيف وقتلوهم كيف
شاؤا ونهبوا البلد وخربوه وساروا الى ساوة ففعلوا بها كذلك ثم الى قم وقاشان وكانتا قد سلمتا من
التتر أولا فانهم لم يقربوهما ولا أصاب أهلهما أذى فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلهما
وخربوهما وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ثم ساروا فى البلاد يخربون ويقتلون
وينهبون ثم قصدوا همذان وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسرا
ونهبا وخربوا البلد وكانوا لما وصلوا الى الرى رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية
فكبسوهم وقتلوا منهم وانهزم الباقون الى اذربيجان فنزلوا بأطرافها فلم يشعروا الا والتتر
أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم فولوا منهزمين فوصل طائفة منهم الى تبريز وارسلوا الى
صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون ان كنت موافقنا فسلم الينا من عندك من الخوارزمية
والا فعرفنا انك غير موافق لنا ولا فى طاعتنا فعمد الى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم
وأسر بعضهم وحمل الاسرى والرؤس الى التتر وأنفذ معها من الاموال والثياب والدواب
شيأ كثيرا فعادوا عن بلاده نحو خراسان فعلوا هذا وليسوا فى كثرة كانوا نحو ثلاثة آلاف
فارس وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس وعسكر أوزبك أكثر من
الجميع ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم نسأل الله أن ييسر للاسلام

والمسلمين

بيقايا أخرجته للمتوفى على
ضياعه وهى تحت استقلاله *
وفى ضمان مزارعيه
وعماله * ولم يستبق أحدا
من جملة الداخلين كانوا
عليه رحمه الله لتسلمه * غير
موسوم بجريرة * ومكدوم
بهضيمة * ومنقوض عن
ذخيرة وكريمة * ومغلوب على
ما حواه من تبعة وتيمة *
فزارته المقصورة المهجورة *
تشكو اليه بلا بلها خضوعا *
وتجرى عليه مكاحلها دموعا *
ضيقا بما دهاها من اضاقه *
وأفدحها على مس التسبيب
من فاقه * وتسأله سؤال
المضطر أن يملك عليها
ما ملكته من أخيها ارثا *
ويحوى ما حوته عتقا
وحدثا * مصانعة له دون
ما أطلقه عليها من أيدى
الجنود * وأخياف الترك
والهنود * فهرق وجهها
ضجرا بما تشوقته من نظره
وقلقا لما خصفته عليها من

والمسلمين من يقوم بنصرتهم فقد دفعوا الى أمر عظيم من قتل النفوس ونهب الاموال واسترقاق الاولاد وسبي الحريم وقتلهن وتخريب البلاد

(ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس)

قد ذكرنا ان غياث الدين بن خوارزمشاه محمد كان بالري وله معها اصفهان وهمذان وما بينهما من البلاد وله أيضا بلاد كرمان فلما هلك أبوه كما ذكرناه وصل التتر الى بلاده وامتنع باصفهان وحصره التتر فيها فلم يقدروا عليها فلما فارق التتر بلاده وساروا الى بلاد قفجاق عاد وملك البلاد وعمر ما أمكنه منها وأقام بها الى أواخر سنة عشرين وستمائة وجرى له ما ذكرناه ففي آخر سنة عشرين سار الى بلاد فارس فلم يشعر صاحبها وهو أتابك سعد بن دكلا الا وقد وصل غياث الدين الى أطراف بلاده فلم يتمكن من الامتناع فقصد قلعة اصطخر فاحتمى بها وسار غياث الدين الى مدينة شيراز وهي كرسي مملكة فارس وأكبرها وأعظمها فملكها بغير تعب أول سنة احدى وعشرين وستمائة وبقي غياث الدين بها واستولى على أكثر البلاد ولم يبق بيد سعد الدين الا الحصون المنيعة فلما طال الامر على سعد الدين صالح غياث الدين على أن يكون لسعد الدين من البلاد قسم اتفقوا عليه ولغياث الدين الباقي وأقام غياث الدين بشيراز وازداد اقامة وعزما على ذلك لما سمع ان التتر قد عادوا الى الري والبلاد التي له وخربوها

(ذكر عصيان شهاب الدين غازي على أخيه الملك الاشرف وأخذ خلاط منه)

كان الملك الاشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب قد أقطع أخاه شهاب الدين غازي مدينة خلاط وجميع أعمال ارمينية وأضاف اليها ميافارقين وحاني وجبل جور ولم يقنع بذلك حتى جعله ولي عهده فى البلاد التي له جميعها وحلف له جميع النواب والعساكر فى البلاد فلما سلم اليه ارمينية سار اليها كما ذكرناه وأقام بها الى آخر سنة عشرين وستمائة فأظهر مغاضبة أخيه الملك الاشرف والتجني عليه والعصيان والخروج عن طاعته فراسله الاشرف يستميله ويعاتبه على ما فعل فلم يرعو ولا ترك ما هو عليه بل أصر على ذلك واتفق هو وأخوه المعظم عيسى صاحب دمشق ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل على الخلاف للاشرف والاجتماع على محاربته وأظهروا ذلك وعلم الاشرف فأرسل الى أخيه الكامل بمصر يعرفه ذلك وكانا متفقين وطلب منه نجدة فجهز العساكر وارسل الى أخيه صاحب دمشق يقول له ان تحركت من بلدك سرت اليه وأخذته وكان قد سار نحو ديار الجزيرة للميعاد الذي بينهم فلما وصلت اليه رسالة أخيه وسمع بتجهيز العساكر عاد الى دمشق وأما صاحب اربل فانه جمع العساكر وسار الى الموصل فكان منه ما نذكره ان شاء الله وأما الاشرف فانه لما اتفق عصيان أخيه جمع العساكر من الشام والجزيرة والموصل وسار الى خلاط فلما قرب منها خافه أخوه غازي ولم يكن له قوة على أن يلقاه محاربا ففرق عسكره فى البلاد ليحصنها وانتظر أن يسير صاحب اربل الى ما يجاوره من الموصل وسنجار وأن يسير أخوه صاحب دمشق الى بلاد الاشرف عند الفرات الرقة وحران وغيرهما فيضطر الاشرف حينئذ الى العود عن خلاط فسار الاشرف اليه وقصد خلاط وكان أهلها يريدونه ويختارون دولته لحسن سيرته كانت فيهم وسوء سيرة غازي فلما حصرها سلمها أهلها اليه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة وبقي غازي فى القلعة ممتنعا فلما جنه الليل نزل

ورق الصيانة عن شجره * وجعل يرميها في جواب التلطف والتألف بأحد من مؤللة القراع * وأشد من ململة القلاع * فعل من لا تكفه حرمه * ولا تكنفه رحمه * ولا ترف عليه رافه * ولا تخف اليه فى ذات الله مخافه * ولا يثنيه عن وجوه الناس حياء * في درة تذال * وعورة تنالها الايدي الطوال * فلما آيسها الاعراض * أدركها الامتعاض * وآلت حلفة مصبورة لئن لم ينته عما لم يقصد بمثله والذات خدر * وكريمة وراء ستر * لتهتكن الحجاب * ولتطرحن الجلباب * ولتحثين على قرونها التراب * منطلقة الى حضرة السلطان فى ايضاح ما وارته الخدر منه * وطرحته المجاملة عنه * وكتمته ضمائر الاشفاق فيه * وطمسته ذيول الهوادة دونه فقال المجنون لاخيه

الى أخيه معتذرا ومتنصلا فعاتبه الاشرف وأبقى عليه ولم يعاقبه على فعله لكن أخذ البلاد منه وأبقى عليه ميافارقين

(ذكر حصار صاحب اربل الموصل)

قد ذكرنا اتفاق مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على صاحب اربل وشهاب الدين غازى صاحب خلاط والمعظم عيسى صاحب دمشق على قصد بلاد الملك الاشرف فأما صاحب دمشق فانه سار عنها مراحل يسيرة وعاد اليها لان أخاه صاحب مصر أرسل اليه يتهدده ان سار عن دمشق انه يقصدها ويحصرها فعاد وأما غازى فانه استحصر فى خلاط وأخذت منه كما ذكرناه وأما صاحب اربل فانه جمع عسكره وسار الى بلد الموصل وحصرها ونازلها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ظنا منه ان الملك الاشرف اذا سمع بنزوله عليها رحل عن خلاط ويخرج غازى فى طلبه فتختبط أحواله وتقوى نفس صاحب دمشق على المجىء اليهم فلما نازل الموصل كان صاحبها بدر الدين لؤلؤ قد أحكم امورها من استخدام الجند على الاسوار واظهار آلة الحصار واخراج الذخائر وانما قوى طمع صاحب اربل على حصر الموصل لان أكثر عسكرها كان قد سار الى الملك الاشرف الى خلاط وقد قل العسكر فيها وكان الغلاء شديدا فى البلاد جميعها والسعر فى الموصل كل ثلاث مكاكى بدينار فلهذا السبب أقدم على حصرها فلما نزل عليها أقام عشرة أيام ثم رحل عنها يوم الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة وكان سبب رحيله انه رأى امتناع البلد عليه وكثرة من فيه وعندهم من الذخائر ما يكفيهم الزمان الكثير ووصل اليه خبر الملك الاشرف انه ملك خلاط فانفسخ عليه كل ما كان يؤمله من صاحبها ومن دمشق وبقى وحده منابذا للاحرى فلما وصلت الاخبار اليه بذلك سقط فى يده ورأى انه قد أخطأ الصواب فرحل عائدا الى بلده وأقام على الزاب ومدة مقامه على الموصل لم يقاتلها انما كان فى بعض الاوقات يجىء بعض الترك الذين له يقاتلون البلد فيخرج اليهم بعض الفرسان وبعض الرجالة فيجرى بينهم قتال ليس بالكثير ثم يتفرقون وترجع كل طائفة الى صاحبها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة أول آب جاء ببغداد مطر برعد وبرق وجرت المياه بباب البصرة والحربية وكذلك بالمحول بحيث ان الناس كانوا يخوضون فى الماء والوحل بالمحول وفيها سار صاحب المخزن الى يعقوبا فى ذى القعدة فعسف أهلها فنقل اليه عن انسان منهم انه يسبه فأحضره وأمر بمعاقبته وقال له لم تسبنى فقال له أنتم تسبون أبا بكر وعمر لاجل أخذهما فدك وهى عشر نخلات لفاطمة عليها السلام وأنتم تأخذون منى ألف نخلة ولا أتكلم فعفا عنه وفيها ارتفعت فتنة بواسط بين السنة والشيعة على جارى عادتهم وفيها قلت الامطار فى البلاد فلم يجئ منها شئ الى سباط ثم انها كانت تجىء فى الاوقات المتفرقة مجيئا قريبا لا يحصل منه الرى للزرع فجاءت الغلات قليلة ثم خرج عليها الجراد ولم يكن فى الارض من النبات ما يشتغل به عنها فأكلها الا القليل وكان كثيرا خارجا عن الحد فغلت الاسعار فى العراق والموصل وسائر ديار الجزيرة وديار بكر وغيرها وقلت الاقوات الا ان أكثر الغلاء كان بالموصل وديار الجزيرة

(ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة)

وهو معه فى ناديه * أغلق على هذه القصبة الوهاء قد أبطرتها الفضول * وأنطقتها دالة الاحتمال فما تدرى ما تقول * هذه والله جنة الابطال فى حماية الذمار * ورعاية حقوق المحارم الابكار * ورحم الله أبا الفتح البستى حيث يقول

لى جار فيه حيره
عرسه تلعن أيره

خلق الله الى الخلق
لمن للغيرة غيره

ولما فرغ هذا الفاضل من هلاك ولده * ووراثة ما كان تحت يده * واعتصار المطلوب عن بلالة حالها * وعلالة مالها * ندب أخاها وهو بحجرة أولاده * ومن يرجوه مثله لمعاشه ومعاده * للتقبل بمعاملات ناحيته احتيالا عليه فى الحاقه بأخيه * واقتطاعه دون كفاف يتصرف فيه * فتلطف واعتذر * واعترف بالعجز

(ذكر حصر الكرج مدينة كنجة)

في هذه السنة سارت الكرج في جموعها الى مدينة كنجة من بلاد اران قصدا لحصرها واعتدوا لها بما أمكنهم من القوة لان أهل كنجة كثير عددهم قوية شوكتهم وعندهم شجاعة كبيرة من طول ممارستهم للحرب مع الكرج فلما وصلوا اليها وقاربوا قاتلوا أهلها عدة أيام من وراء السور ولم يظهر من اهلها أحد ثم في بعض الايام خرج أهل كنجة ومن عندهم من العسكر من البلد وقاتلوا الكرج بظاهر البلد أشد قتال وأعظمه فلما رأى الكرج ذلك علموا انهم لا طاقة لهم بالبلد فرحلوا بعد ان أثخن أهل كنجة فيهم ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا

(ذكر وصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى خوزستان والعراق)

في أول هذه السنة وصل جلال الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش الى بلاد خوزستان والعراق وكان مجيئه من بلاد الهند لانه كان وصل اليها لما قصد التتر غزنة وقد ذكرنا ذلك جميعه فلما تعذر عليه المقام ببلاد الهند سار عنها على كرمان ووصل الى اصفهان وهي بيد أخيه غياث الدين وقد تقدمت أخباره فملكها وسار عنها الى بلاد فارس وكان أخوه قد استولى على بعضها كما ذكرناه فأعاد ما كان أخوه أخذه منها الى أتابك سعد صاحبها وصالحه وسار من عنده الى خوزستان فحصر مدينة تستر في المحرم وبها الامير مظفر الدين المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة الناصر لدين الله حافظا لها وأميرا عليها فحصره جلال الدين وضيق عليه فحفظها وجه السبع وبالغ في الحفظ والاحتياط وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا الى بادرايا وباكسايا وغيرهما وانحدر بعضهم الى ناحية البصرة فنهبوا هنالك فسار اليهم شحنة البصرة وهو الامير ملتكين فأوقع بهم وقتل منهم جماعة فدام الحصار نحو شهرين ثم رحل عنها بغتة وكانت عساكر الخليفة مع مملوكه جمال الدين قشتمر بالقرب منه فلما رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه فسار الى أن وصل الى بعقوبا وهي قرية مشهورة بطريق خراسان بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ فلما وصل الخبر الى بغداد تجهزوا للحصار وأصلحوا السلاح من الجروخ والقسي والنشاب والنفط وغير ذلك وعاد عسكر الخليفة الى بغداد وأما عساكر جلال الدين فنهب البلاد وأهلها وكان قد وصل هو وعسكره الى خوزستان في ضر شديد وجهد جهيد وقلة من الدواب والذي معهم فهو من الضعف الى حد لا ينتفع به فغنموا من البلاد جميعها واستغنوا وأكثروا من أخذ الخيل والبغال فانهم كانوا في غاية الحاجة اليها وسار من بعقوبا الى دقوقا فحصرها فصعد أهلها الى السور وقاتلوه وسبوه وأكثروا من التكبير فعظم ذلك عنده وشق عليه وجد في قتالهم ففتحها عنوة وقهرا ونهبها عساكره وقتلوا كثيرا من أهلها فهرب من سلم منهم من القتل وتفرقوا في البلاد ولما كان الخوارزميون على دقوقا سارت سرية منهم الى البت والراذان فهرب أهلها الى تكريت فتبعهم الخوارزمية فجرى بينهم وبين عسكر تكريت وقعة شديدة فعادوا الى العسكر ولقد رأيت بعض أعيان أهل دقوقا وهم بنو يعلى وهم أغنياء فنهبوا وسلم أحدهم ومعه ولدان له وشيء يسير من المال فسير ما سلم معه الى الشام مع الولدين ليتجر بما ينتفعون به وينفقونه على نفوسهم فمات أحد الولدين بدمشق واحتاط الحاكم على

ما قدر * حتى اذا اعياه التلطف * ولم يقنعه الا التصرف * مد رقبته لربقة التقليد * وكبر سعيه على طارف المال والتليد فازال يحي كل ولود ونزور * ويمري كل بكي وثرور * حتى انضب المال الا قليلا * وعصب ريقه الا بليلا * فطفق يعسره بعجزه وتضجيعه * ويبكته على خرقه وتضييعه * فأمر المحاسبين بحسابه فجمع عليه مالم يثبته سمع ولا بصر * ولا ينبته نجم ولا شجر * ولم يطلع عليه شمس ولا قمر * وسبب عليه لاعلاج الهنود * وغلاظ كفارهم السود * مالا أوهى متن طاقته * وأتى من وراء فاقته * وحرشهم على ابنه بتطميع في عاجل موزون * وترغيب في آجل مضمون * حتى أوهنوه شدا وايثاقا وأثخنوه ضربا وارهاقا ويضعوا عليه في بعض

مامعهم فلقد رأيت أباهم على حالة شديدة لايعلمها الا الله يقول أخذت الاملاك وقتل بعض الاهل وفارقنا من سلم منهم والوطن بهذا القدر الحقير أردنا نكف به وجوهنا من السؤال ونصون أنفسنا فقد ذهب الولد والمال ثم سار الى دمشق ليأخذ ماسلم مع ابنه الآخر فأخذه وعاد الى الموصل فلم يبق غير شهر حتى توفى * ان الشقى بكل حبل يخنق * وأما جلال الدين فانه لما فعل بأهل دقوقا ما فعل خافه أهل البوازيج وهى لصاحب الموصل فارسلوا اليه يطلبون منه ارسال شحنة اليهم يحميهم وبذلوا له شيأ من المال فأجابهم الى ذلك وسير اليهم من يحميهم قيل كان بعض أولاد جنكزخان ملك التتر أسره جلال الدين فى بعض حروبه مع التتر فأكرمه فحماهم وأقام بمكانه الى أواخر بيع الآخر والرسل مترددة بينه وبين مظفر الدين صاحب اربل فاصطلحوا فسار جلال الدين الى اذربيجان وفى مدة مقام جلال الدين بخوزستان والعراق ثارت العرب فى البلاد يقطعون الطريق وينهبون القرى ويخيفون السبيل فنال الخلق منهم أذى شديد وأخذوا فى طريق العراق قفلين عظيمين كانوا سائرين الى الموصل فلم يسلم منهم شئ البتة

(ذكر وفاة الملك الافضل وغيره من الملوك)

فى هذه السنة فى صفر توفى الملك الافضل على بن صلاح الدين يوسف بن أيوب فجاءة بقلعة سميساط وكان عمره نحو سبع وخمسين سنة وقد ذكرنا سنة تسع وثمانين وخمسمائة عند وفاة والده رحمه الله ملكه مدينة دمشق والبيت المقدس وغيرهما من الشام وذكرنا سنة اثنتين وتسعين أخذ الجميع منه ثم ذكرنا سنة خمس وتسعين ملكه ديار مصر وذكرنا سنة ست وتسعين أخذها منه وانتقل الى سميساط وأقام بها ولم يزل بها الى الآن فتوفى بها وكان رحمه الله من محاسن الزمان لم يكن فى الملوك مثله كان خيرا عادلا فاضلا حليما كريما قل ان عاقب على ذنب ولم يمنع طالبا وكان يكتب خطا حسنا وكتابة جيدة وبالجملة فاجتمع فيه من الفضائل والمناقب ما تفرق فى كثير من الملوك لاجرم حرم الملك والدنيا وعاداه الدهر ومات بموته كل خلق جميل وفعل حميد فرحمه الله ورضى عنه ورأيت من كتابته أشياء حسنة فمابقى على خاطرى منها انه كتب الى أصحابه لما أخذت دمشق منه كتابا من فصوله وأما أصحابنا بدمشق فلا علم لى بأحد منهم وسبب ذلك انى أى صديق سألت عنه فى الذل وتحت الخمول والوطن وأى ضد سألت عن حالته سمعت مالا تحبه أذنى فتركت السؤال عنهم وهذا غاية الجودة فى الاعتذار عن ترك السؤال عنهم ولما مات اختلف أولاده وعمهم قطب الدين موسى ولم يقو أحد منهم على الباقين ليستبد بالامر ومات فى هذه السنة صاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغرل بن قلج أرسلان وهو الذى سير ولده الى الكرج وتنصر وتزوج ملكة الكرج ولما مات ملك بعده ابنه ومات فيها ملك ارزنكان وتوفى فيها عز الدين الخضر بن ابراهيم بن أبى بكر بن قرا ارسلان بن داود بن سقمان صاحب خرت برت وملك بعده ابنه نور الدين ارتق شاه وكان المدبر لدولته ودولة والده معين الدين عبد الرحمن

(ذكر خلع شروان شاه وظفر المسلمين بالكرج)

فى هذه السنة ثار على شروان شاه ولده فنزعه من الملك وأخرجه من البلاد وملك بعده وسبب

لما به دهقا استمر به الى الصباح النائر حتى اذا لم يبق منه غير ناقر الطائر * علوا انه مظلوم وان الاقضاء عليه فى دينهم المدخول وشركهم المخذول * قزموا وأم فنفضوا أيديهم عنه لاعنين أباه * ومن أرضعه ورباه * وأطعمه بعد الله وسقاه * وماظن الافاضل الكرام بمن يوفى رحمة الكافر الفاجر على قساوته * وطبع قلبه وغشاوته * وبمن يزعم انه والد يحنو على ولده * ويعتده فلذة من كبده * وبضعة من روحه وجسده * كل ذلك طمعا فى استزادة مال * واستضافة حال * فصارا ها الى محق وزوال * فلا رحم الله كل جافى العقيدة * خافى المكيدة * قاسى الفؤاد * ساهى

ذلك ان شروان شاه كان سيّئ السيرة كثير الفساد والظلم يتعرض الى أموال الرعايا وأملاكهم
وقيل أيضا انه كان يتعرض الى النساء والولدان فاشتدت وطأته على الناس فاتفق بعض
العسكر مع ولده وأخرجوا أباه من البلاد وملك الابن وأحسن السيرة فأحبه العساكر والرعية
وأرسل الولد الى أبيه يقول له انى أردت أن أتركك فى بعض القلاع وأجرى لك الجرايات
الكثيرة ولكل من تحب ان يكون عندك والذى حملنى على مافعلت معك سوء سيرتك وظلمك
لاهل البلاد وكراهيتهم لك ولد ولتلك فلما رأى الاب ذلك سار الى الكرج واستنصر بهم وقرر
معهم ان يرسلوا معه عسكرا يعيدونه الى ملكه ويعطيهم نصف البلاد فسيروا معه عسكرا كثيرا
فسار حتى قارب مدينة شروان فجمع ولده العسكر وأعلمهم الحال وقال ان الكرج
متى حصرونا ربما ظفروا بنا وحينئذ لا يبقى أبى على أحد منا ويأخذ الكرج نصف البلاد
وربما أخذوا الجميع وهذا أمر عظيم اننا نسير اليهم جريدة ونلقاهم فان ظفرنا بهم فالحمد لله
وان ظفروا بنا فالحصر بين أيدينا فأجابوه الى ذلك فخرج فى عسكره وهم قليل نحو ألف فارس
ولقوا الكرج وهم فى ثلاثة آلاف مقاتل فالتقوا واقتتلوا وصبر أهل شروان فانهزم الكرج
فقتل كثير منهم وأسر كثير ومن سلم عاد بأسوا حال وشروان شاه المخلوع معهم فقال له مقدمو
الكرج اننا لم نلق بسببك خيرا ولا نؤاخذك بما كان منك فلا تقم ببلادنا ففارقهم وبقى مترددا
لا يأوى الى أحد واستقر ولده فى الملك وأحسن الى الجند والرعية وأعاد الى الناس أملاكهم
ومصادراتهم فاغتبطوا بولايته

(ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضا)

وفى هذه السنة أيضا سار جمع من الكرج من تفليس يقصدون اذربيجان والبلاد التى بيد
أوزبك فنزلوا وراء مضيق فى الجبال لا يسلك الا للفارس معه الفرس فنزلوا آمنين من المسلمين
استضعافا لهم واغترارا بحصانة موضعهم وانه لا طريق اليهم وركب طائفة من العساكر
الاسلامية وقصدوا الكرج فوصلوا الى ذلك المضيق فجازوه مخاطرين فلم يشعر الكرج الا وقد
غشيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا وولى الباقون منهزمين لا يلوى والد
على ولده ولا أخ على أخيه وأسر منهم جمع كثير صالح فعظم الامر عليهم وعزموا على الاخذ
بثارهم والجد فى قصد اذربيجان واستئصال المسلمين منه وأخذوا يتجهزون على قدر عزمهم
فبينما هم فى ذلك اذ وصل اليهم الخبر بوصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى مراغة على
مانذكره ان شاء الله فتركوا ذلك وارسلوا الى أوزبك صاحب اذربيجان يدعونه الى الموافقة
على رد جلال الدين وخوفوه منه ان لم نتفق نحن وأنت والا أخذك ثم أخذنا فاعاجلهم جلال
الدين قبل اتفاقهم واجتماعهم فكان مانذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك جلال الدين اذربيجان)

فى هذه السنة استولى جلال الدين على اذربيجان وسبب ذلك انه لما سار من دقوقا كما ذكرناه
قصد مراغة فملكها وأقام بها وشرع فى عمارة البلد فاستحسنه فلما وصل اليها أتاه الخبر ان
الامير ايغان طائيسى وهو خال أخيه غياث الدين قد قصد همذان قبل وصول جلال الدين
بيومين وكان ايغان طائيسى هذا قد جمع عسكرا يتجاوز خمسين ألف فارس ونهب كثيرا من

دماء الاولاد * ان للآباء
فروضا على الابناء * وللابناء
حقوقا على الآباء * فان
يكن من فرض الوالد أن لا
يقتص منه ان قتل ولده *
وقطع بيده يده * فمن حق
الولد أن يطاع الله فى صلة
رحمه * وتقوى الاقدام على
روحه ودمه * ثم ولما أن
خف عن البائس كربه *
وانجلى عنه وصبه * أسرى
الى جانب الامير أرسلان
الحاجب فتى السلطان يمين
الدولة * وأمين الملة * فى
زحفة السهو المارق *
والرجم المقذوف على المارد
السارق * متقيا به عارض
البأس * ومستنجيا روحا
معانقة بمخيط اليأس * فآواه
وقبله ونشر عليه جناحه
رحمة له وكتب الى أركان
الدولة فى بابه بما أطل عليه
سعاية أبيه * وغل دونه نكاية
قصده وتجنيه * وحاذر
الفاسق المارق افتضاحه

اذربيجان وسار الى البحر من بلد اران فشتى هنالك لقلة البرد ولما عاد الى همذان نهب اذربيجان أيضا مرة ثانية وكان سبب مسيره الى همذان ان الخليفة الناصر لدين الله راسله وأمره بقصد همذان واقطعه اياها وغيرها فسار ليستولى عليها كما أمر فلما سمع جلال الدين بذلك سار جريدة اليه فوصل الى ايغان طائيسى ليلا وكان اذا نزل جعل حول عسكره جميع ما غنموا من اذربيجان واران من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم فلما وصل جلال الدين أحاط بالجميع فلما اصبح عسكر ايغان طائيسى ورأى العسكر والجتر الذى يكون على رأس السلطان علموا انه جلال الدين فسقط فى أيديهم لانهم كانوا يظنونه عند دقوقا فارسل ايغان طائيسى زوجته وهى أخت جلال الدين تطلب له الامان فأمنه وأحضره عنده وانضاف عسكره الى جلال الدين وبقى ايغان طائيسى وحده الى أن اضاف اليه جلال الدين عسكرا غير عسكره وعاد الى مراغة وأعجبه المقام بها وكان أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان واران قد سار من تبريز الى كنجة خوفا من جلال الدين وأرسل جلال الدين الى من فى تبريز من وال وأمير ورئيس يطلب منهم أن يتردد عسكره اليهم يمتارون فاجابوه الى ذلك وأطاعوه فتردد العسكر اليها وباعوا واشتروا الاقوات والكسوات وغيرها ومدوا ايديهم الى اموال الناس فكان أحدهم يأخذ الشئ ويعطى الثمن ما يريد فشكا بعض أهل تبريز الى جلال الدين منهم فارسل اليهم شحنة يكون عندهم وأمره ان يقيم بتبريز ويكف أيدى الجند عن اهلها ومن تعدى على احد منهم صلبه فاقام الشحنة ومنع الجند من التعدى على أحد من الناس وكانت زوجة اوزبك وهى ابنة السلطان طغرل ابن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مقيمة بتبريز وهى كانت الحاكمة فى بلاد زوجها وهو مشغول بلذاته من اكل وشرب ولعب ثم ان اهل تبريز شكوا من الشحنة وقالوا انه يكلفنا اكثر من طاقتنا فامر جلال الدين انه لا يعطى الا ما يقيم به لا غير ففعلوا ذلك وسار جلال الدين الى تبريز وحصرها خمسة ايام وقاتل اهلها قتالا شديدا وزحف اليها فوصل العسكر الى السور فاذعن أهلها بالطاعة وأرسلوا يطلبون الامان منه لانه كان يذمهم ويقول قتلوا أصحابنا المسلمين وأرسلوا رؤسهم الى التتر الكفار وقد تقدمت الحادثة سنة احدى وعشرين وستمائة فخافوا منه لذلك فلما طلبوا الامان ذكر لهم فعلهم باصحاب أبيه وقتلهم فاعتذروا بأنهم لم يفعلوا شيأ من ذلك وانما فعله صاحبهم ولم يكن لهم من القدرة ما يمنعونه فعذرهم وامنهم وطلبوا منه ان يؤمن زوجة أوزبك ولا يعارضها فى الذى لها باذربيجان ومدينة خوى وغيرها من ملك ومال وغيره فاجابهم الى ذلك وملك البلد سابع عشر رجب من هذه السنة وسير زوجة أوزبك الى خوى ومعها طائفة من العسكر مع رجل كبير القدر عظيم المنزلة وأمرهم بخدمتها فاذا وصلت الى خوى عادوا عنها ولما رحل جلال الدين الى تبريز أمر ان لا يمنعوا عنه أحدا من أهلها فاتاه الناس مسلمين عليه فلم يحجبوا عنه وأحسن اليهم وبث فيهم العدل ووعدهم الاحسان والزيادة منه وقال لهم قد رأيتم ما فعلت بمراغة من الاحسان والعمارة بعد ان كانت خرابا وسترون كيف أصنع معكم من العدل فيكم وعمارة بلادكم وأقام الى يوم الجمعة فحضر الجامع فلما خطب الخطيب ودعا للخليفة قام قائما ولم يزل كذلك حتى فرغ من الدعاء وجلس ودخل الى كشك كان أوزبك قد عمره وأخرج عليه من الاموال كثيرا وهو فى غاية الحسن

بآخر ولده كما فضح بمن قبله أروى الله صداه * وقبح أباه * فلم يزل يلقاه بشعوذة المخاريق * وبرقشة التزاويق * حتى أقرضه مالا سد به مخرباسه * ورد معه عدوى امتعاضه وشماسه * كابن المقفع حين أقرض المهان * واستوجب الامن والامان * فلو نقب عن منافس فتوقه * ومنافخ جلده وعروقه * لا تنفحت حيلا تعجز كل صباغ وصواغ * وثعلب بين الوحوش رواغ * ومازال هذا المذكور * يختلف به السرج والكور * الى ان قدم شمس الكفاة وزير السلطان يمين الدولة وامين الملة مرو الروذ مستوفيا على العمال * بقايا الارتفاعات والاموال * سنة ثلاث عشرة وأربعمائة فجنح اليه لائذا بكنفه * وعائذا بواقية الكرام وراقية الانام من شرفه * ومقترا

مشرف على البساتين فلما طاف فيه خرج منه وقال هذا مسكن الكسالى لا يصلح لنا واقام
اياما استولى فيها على غيرها من البلاد وسير الجيوش الى بلاد الكرج

(ذكر انهزام الكرج من جلال الدين)

قد ذكرنا فيما تقدم من السنين ما كان الكرج يفعلونه فى بلاد الاسلام خلاط وأعمالها واذربيجان واران وارزن الروم ودربند شروان وهذه ولايات تجاور بلادهم وما كانوا يسفكون من دماء المسلمين وينهبون من أموالهم ويملكون من بلادهم والمسلمون معهم فى هذه البلاد تحت الذل والخزى كل يوم قد أغاروا وفتكوا فيهم وقاطعوهم على ما شاؤا من الاموال فكنا كلما سمعنا بشئ من ذلك سألنا الله تعالى نحن والمسلمون فى ان ييسر للاسلام والمسلمين من يحميهم وينصرهم ويأخذ بثارهم فان أوزبك صاحب اذربيجان منعكف على شهوة بطنه وفرجه لا يفيق من سكره وان أفاق فهو مشغول بالقمار بالبيض وهذا ما لم يسمع ان أحدا من الملوك فعله لا يهتدى لمصلحة ولا يغضب لنفسه بحيث ان بلاده مأخوذة وعساكره طامعة ورعيته قد قهرها وقد كان كل من أراد ان يجمع جمعا ويتغلب على بعض البلاد فعل كما ذكرناه من حال بغدى وايبك الشامى وايغان طايسى فنظر الله تعالى الى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة فرحمهم ويسر لهم جلال الدين هذا ففعل بالكرج ما تراه وانتقم للاسلام والمسلمين منهم فنقول فى هذه السنة كان المصاف بين جلال الدين وبين الكرج فى شهر شعبان فان جلال الدين من حين قصد الى هذه النواحى لا يزال يقول اننى أريد أقصد بلاد الكرج وأقاتلهم وأملك بلادهم فلما ملك اذربيجان ارسل اليهم يؤذنهم فاجابوه باننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك وهو أعظم منك ملكا وأكثر عسكرا وأقوى نفسا ما تعلمه وأخذوا بلادكم فلم نبال بهم وكان قصاراهم السلامة منا وشرعوا يجمعون العساكر فجمعوا ما يزيد على سبعين الف مقاتل فسار اليهم فملك مدينة دوين وهى للكرج كانوا قد أخذوها من المسلمين كما ذكرناه وسار منها اليهم فلقوه وقاتلوه اشد قتال وأعظمه وصبر كل منهم لصاحبه فانهزم الكرج وأمر ان يقتلوا بكل طريق ولا يبقوا على أحد منهم فالذى تحققناه انه قتل منهم عشرون ألفا وقيل أكثر من ذلك فقيل الكرج جميعهم قتلوا وافترقوا وأسر كثير من اعيانهم من جملتهم شلوة فتمت الهزيمة عليهم ومضى ايوانى منهزما وهو المقدم على الكرج جميعهم ومرجعهم اليه ومعولهم عليه وليس لهم ملك انما الملك امراة ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول لن يفلح قوم ولوا امرهم امراة فلما انهزم ايوانى أدركه الطلب فصعد قلعة لهم على طريقهم فاحتمى فيها وجعل جلال الدين عليها من يحصرها ويمنعه من النزول وفرق عساكره فى بلاد الكرج ينهبون ويقتلون ويسبون ويخربون البلاد فلولا ما اتاه من تبريز مما اوجب عوده لملك البلاد بغير تعب ولا مشقة لان اهلها كانوا قد هلكوا فهم بين قتيل واسير وطريد

(ذكر عود جلال الدين الى تبريز وملكه مدينة كنجة ونكاحه زوجة اوزبك)

لما فرغ جلال الدين من هزيمة الكرج ودخل البلاد وبث العساكر فيها امرهم بالمقام بها مع اخيه غياث الدين وعاد الى تبريز وسبب عوده انه كان قد خلف وزيره شرف الملك فى تبريز ليحفظ البلد وينظر فى مصالح الرعية فبلغه عن رئيس تبريز وشمس الدين الطغرانى وهو المقدم على كل

حاله فى الظلم الذى ضرسه بجريره ومسه مس الملاح غارب بعيره وموطئا لسانه فراش التقية طاعة لله تعالى فى لزومها الاحترام وصيانة للعرض من وشوم المذام الى ان حشرت مطالبة العمال أباه الى مثواه من باب ولى نعمته ومولاه فكم ضرع اليه فما نفع وخشع فما نجع وتلطف فما أقصر واستعطف فما سمع ولا أبصر حتى اذا عارضه الرد بحجابه وكلمه اليأس من وراء نقابه صاح على شمس الكفاة ببعض تلك الخاريق وصب عليه جرعا من أكواب تلك الاباريق وأشعره ان صنيعته لم تجن منه الا جاحدا لاياديه مخالفا بمساويه مواليا لاعاديه مخالفا لكريه الحفاظ فى مواليه ببراهين كساطع الصباح السافر أو منع

من فى البلد وعن غيرهما من المقدمين انهم قد اجتمعوا وتحالفوا على الامتناع على جلال الدين واعادة البلد الى اوزبك وقالوا ان جلال الدين قد قصد بلاد الكرج فلا يقدر على المقام ويجتمع اوزبك والكرج و يقصدونه فينحل نظام امره وتتم عليه الهزيمة فبنوا امرهم على ان جلال الدين يسير الهوينا الى بلاد الكرج ويتريث فى الطريق احتياطا منهم فلما اتفقوا على ذلك أتى الخبر الى الوزير فارسل الى جلال الدين يعرفه الحال فاتاه الخبر وقد قارب بلاد الكرج فلم يظهر من ذلك شيأ وسار نحو الكرج مجدا فلقيهم وهزمهم فلما فرغ منهم قال لامراء عسكره انى قد بلغنى من الخبر كذا وكذا فتقيمون أنتم فى البلاد على ما أنتم عليه من قتل من ظفرتم به وتخريب ما أمكنكم من بلادهم فانى خفت ان اعرفكم قبل هزيمة الكرج لئلا يلحقكم وهن وخوف فاقاموا على حالهم وعاد هو الى تبريز وقبض على الرئيس والطغرائى وغيرهما فاما الرئيس فامر ان يطاف به على أهل البلد وكل من له عليه مظلمة فليأخذها منه وكان ظالما ففرح الناس بذلك ثم قتله وأما الباقون فحبسوا فلما فرغ منهم واستقام له أمر البلد تزوج زوجة أوزبك ابنة السلطان طغرل وانما صح له نكاحها لانه ثبت عن أوزبك انه حلف بطلاقها انه لا يقتل مملوكا له اسمه   ثم قتله فلما وقع الطلاق بهذا اليمين نكحها جلال الدين وأقام بتبريز مدة وسير منها جيشا الى مدينة كنجة فملكوها وفارقها اوزبك الى قلعة كنجة فتحصن فيها فبلغنى ان عساكر جلال الدين تعرضوا الى أعمال هذه القلعة بالنهب والاخذ فارسل أوزبك الى جلال الدين يشكو و يقول كنت لا أرضى بهذه الحال لبعض أصحابى فانا أسأل ان تكف الايدى المتطرقة الى هذه الاعمال عنها فارسل جلال الدين اليها من يحميها من التعرض اليها من أصحابه وغيرهم

(ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله)

فى هذه السنة آخر ليلة من شهر رمضان توفى الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى لامر الله أبى العباس محمد بن المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبى جعفر عبد الله بن القادر بالله أبى العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفق أبى أحمد محمد بن جعفر المتوكل على الله ولم يكن الموفق خليفة وانما كان ولى عهد أخيه المعتمد على الله فمات قبل المعتمد فصار ولده المعتضد بالله ولى عهد المعتمد على الله وكان المتوكل على الله ابن المعتصم بالله أبى اسحق محمد بن هرون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله أبى جعفر العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم

نسب كان عليه من شمس الضحى * نورا ومن فلق الصباح عمودا

فكان فى آبائه أربعة عشر خليفة وهم كل من له لقب والباقون غير خلفاء وكان فيهم من ولى العهد محمد بن القائم والموفق بن المتوكل وأما باقى الخلفاء من بنى العباس فلم يكونوا من آبائه فكان السفاح أبو العباس عبد الله أخا المنصور ولى قبله وكان موسى أخا الرشيد ولى قبله وكان محمد الامين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد اخوى المعتصم وليا قبله وكان محمد المنتصر بن المتوكل

ولى

النهار الحاشر * مقرطة بصحائح الاقوال * مشنفة بفضائح الافعال * فلولا كرم غذى بلبانه * وعجن على مسكه و بانه * لرجمه رجم العفريت * وضربه بالنفط والكبريت * لكنه رأى أن يضم عليه طرفى بساطه * ويستبقى مختوم سره بين خرزه ورباطه * تقديما لشفاعة المشيب * وتفويضا الى ماوراءه من الاجل القريب * واقناعا ان سمع أونظر * وروى واخبر * بما تتناهبه الآفاق من ذكر شيخ معاييه احداث * ولؤمه مكتسب وفضله ميراث * ولما تسامع اهل عمله بما ركد من ريحه * وظهر من رغوة صريحه * تبادروا الى مفصل الظلامات صارخين كما تنقنق فى الجو بنات الاعداد * وجهور فى الشعب جميع البلاد * واختلفوا الى المظالم فمن قائل هتكت

ولى بعده ثم ولى بعد المنتصر بالله المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وولى بعد المستعين المعتز بالله محمد وقيل طلحة وهو ابن المتوكل وولى بعد المعتز المهتدى بالله محمد بن الواثق ثم ولى بعده المعتمد على الله أحمد بن المتوكل فالمنتصر والمعتز والمعتمد اخوة الموفق والمهتدى ابن عمه والموفق من اجداد الناصر لدين الله ثم ولى المعتضد بعد المعتمد وولى بعد المعتضد ابنه أبو محمد على المكتفى بالله وهو أخو المقتدر بالله وولى بعد المقتدر أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد وولى بعد القاهر الراضى بالله أبو العباس محمد بن المقتدر ثم ولى بعده المتقى لله أبو اسحق ابراهيم بن المقتدر ثم ولى بعده المكتفى بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفى بالله على ابن المعتضد ثم ولى بعده المطيع لله أبو بكر عبد الكريم فالقاهر أخو المقتدر والراضى والمتقى والمطيع بنوه والمستكفى ابن أخيه المكتفى ثم ولى الطائع لله بن المقتدر ثم ولى بعد الطائع القادر بالله وهو من اجداد الناصر لدين الله ثم ولى بعده المستظهر بالله ثم ولى بعده ابنه المسترشد بالله أبو منصور وولى بعد المسترشد بالله ابنه الراشد أبو جعفر فالمسترشد أخو المقتفى والراشد ابن أخيه فجميع من ولى الخلافة ممن ليس فى سياق نسب الناصر تسعة عشر خليفة وكانت أم الناصر أم ولد تركية اسمها زمرد وكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما وكان عمره نحو سبعين سنة تقريبا فلم يل الخلافة أطول مدة منه الا ما قيل عن المستنصر بالله العلوى صاحب مصر فانه ولى ستين سنة ولا اعتبار به فانه ولى وله سبع سنين فلا تصح ولايته وبقى الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية وقد ذهبت احدى عينيه والاخرى يبصر بها ابصارا ضعيفا وفى آخر الامر أصابه دوسنطاريا عشرين يوما ومات ووزر له عدة وزراء وقد تقدم ذكرهم ولم يطلق فى طول مرضه شيأ كان أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما فخرب فى ايامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشئ وضده فمن ذلك انه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ثم أعادها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة فى البلاد جميعها الا من يلبس منه سراويل يدعى اليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك أيضا منع الطيور المناسيب لغيره الا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق الا من ينتمى اليه فاجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك الا انسانا واحدا يقال له ابن السفت من بغداد فانه هرب من العراق ولحق بالشام فارسل اليه يرغبه فى المال الجزيل ليرمى عنه وينسب فى الرمى اليه فلم يفعل فبلغنى ان بعض أصدقائه أنكر عليه الامتناع من أخذ المال فقال يكفينى فخرا انه ليس فى الدنيا أحد الا يرمى للخليفة الا انا فكان غرام الخليفة بهذه الاشياء من أعجب الامور وكان سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم

(ذكر خلافة الظاهر بأمر الله)

قد ذكرنا سنة خمس وثمانين وخمسمائة الخطبة للامير ابى نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله

حرمته * وآخر انتهكت نعمته * وثالث انتهبت ثلمته * ورابع طالت عليه ظلمته * وخامس قتيل على التعصب اخوه وابوه * وسادس خدشت على المعروف بشرته وفض فوه * فمنهم من وصل فيه بالانصاف * ومنهم من حذر فشقى على يأس الانصراف * فرأى شمس الكفاة ان يسلك به شعب المجاملة فطمح بصرفه على نبات مساويه * وصد عن مسامع السلطان خبائث أفعاله ودواهيه * وأصم صدى التظلم عن شريف ناديه * فعاد المذكور وراءه مخذولا مفلولا * وأراد الله أن يقضى فيه أمرا كان مفعولا * ولما رأى أن قد ضجت عليه أفعاله * وضحكت منه حيله وادغاله * وان الالسن قد مضغته حين أطاع عبدا مملوكا له فى معصية خالقه * ووصل شهوة

بولاية العهد فى العراق وغيره من البلاد ثم بعد ذلك خلعه الخليفة من ولاية العهد وارسل الى البلاد فى قطع الخطبة له وانما فعل ذلك لانه كان يميل الى ولده الصغير على فاتفق ان الولد الصغير توفى سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد غير ولى العهد فاضطر الى اعادته الا انه تحت الاحتياط والحجر لا يتصرف فى شئ فلما توفى ابوه ولى الخلافة واحضر الناس لاخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله وعنى ان اباه وجميع أصحابه ارادوا صرف الامر عنه فظهر وولى الخلافة بأمر الله لا بسعى من احد ولما ولى الخلافة اظهر من العدل والاحسان ما اعاد به سنة العمرين فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقا فانه اعاد من الاموال المغصوبة فى ايام ابيه وقبله شيأ كثيرا واطلق المكوس فى البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق وان يسقط جميع ما جدده ابوه وكان كثيرا لايحصى فمن ذلك ان قرية بعقوبا كان يحصل منها قديما نحو عشرة آلاف دينار فلما تولى الناصر لدين الله كان يؤخذ منها كل سنة ثمانون الف دينار فحضر اهلها واستغاثوا وذكروا ان املاكهم اخذت حتى صار يحصل منها هذا المبلغ فامر ان يؤخذ الخراج الاول وهو عشرة آلاف دينار فقيل له ان هذا المبلغ يصل الى المخزن فمن اين يكون العوض فاقام لهم العوض من جهات اخرى فاذا كان المطلق من جهة واحدة سبعين الف دينار فما الظن بباقى البلاد ومن افعاله الجميلة انه امر بأخذ الخراج الاول من باقى البلاد جميعها فحضر كثير من اهل العراق وذكروا ان الاملاك التى كان يؤخذ منها الخراج قديما قد يبس اكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخراج الاول لا يفى دخل الباقى بالخراج فامر ان لا يؤخذ الخراج الا من كل شجرة سليمة واما الذاهب فلا يؤخذ منه شئ وهذا عظيم جدا ومن ذلك ايضا ان المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه الى الوزير وأوله ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم قد بلغنا ان الامر كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن الى الصنجة التى يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى فكتب بعض النواب اليه يقول ان هذا مبلغ كثير وقد حسبناه فكان فى السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار فاعاد الجواب ينكر على القائل ويقول لو انه ثلثمائة ألف وخمسون ألف دينار يطلق وكذلك أيضا فعل فى اطلاق زيادة الصنجة التى للديوان وهى فى كل دينار حبة وتقدم الى القاضى ان كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده اليه من غير اذن وأقام رجلا صالحا فى ولاية الحشرى وبيت المال وكان الرجل حنبليا فقال انى من مذهبى ان أورث ذوى الارحام فان أذن أمير المؤمنين ان أفعل ذلك وليت والا فلا فقال له اعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق سواه ومنها ان العادة كانت ببغداد ان الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة الى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الاصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من صغير وكبير فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى هذا الخليفة جزاه الله خيرا أتته المطالعات على العادة فامر بقطعها وقال اى غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد الينا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له ان العامة تفسد بذلك

ويعظم

الفجور فى قطيعة ولده وعمر اطلال ضيعته * بخراب آخرته * وثب به وثوب الثائر الموتور * والجائش المسعور * يرتجع منه ما حلاه على الفوق * ووفاه من ثمن الاستلذاذ بسلعة تلك السوق ويرى ان صنيعه ذلك يحميه سمة الالامة * ويقيه نبال الالسنة الذامة * فاسترد ما نحله من صداق * ورجع عليه بقيمة ما أشربه من مجاجة اشداق * وعراه عما أعطاه * بعد ان عراه وامتطاه * وبطحه للسياط * بعد ان بطحه لوطء اللواط * مبتذلا منه جردة طال ما امتصها بثغريه * وكنسها بعارضيه * وفداها بنفسه وأبويه * ودفن عليها أحد ولديه * هذا والله هو الجود لاما يؤثر عن حاتم العرب * وروى عن سادات بنى عبد المطلب * فلله من رضى بها لنفسه سيرة * وخباها عن تناسخ

ويعظم شرها فقال نحن ندعوا الله فى أن يصلحهم ومنها انه لما ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار اليها أيام الناصر لتحصيل الاموال فاصعد ومعه من المال ما يزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر ما معه ويستخرج الامر فى حمله فاعاد الجواب بأن يعاد الى أربابه فلا حاجة لنا اليه فاعيد عليهم ومنها انه أخرج كل من كان فى السجون وأمر باعادة ما اخذ منهم وارسل الى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس فى حبس الشرع وليس له مال ومن حسن نيته للناس ان الاسعار فى الموصل وديار الجزيرة كانت غالية فرخصت الاسعار واطلق حمل الاطعمة اليها وان يبيع كل من اراد البيع للغلة فحمل منها الكثير الذى لا يحصى فقيل له ان السعر قد غلا شيأ والمصلحة منع حمله فقال أولئك مسلمون وهؤلاء مسلمون وكما يجب علينا النظر فى امر هؤلاء كذلك يجب علينا النظر لاولئك وامر ان يباع من الاهراء التى له طعام ارخص مما يبيع غيره ففعلوا ذلك فرخصت الاسعار عندهم ايضا اكثر مما كانت اولا وكان السعر فى الموصل لما ولى كل مكوكين بدينار وثلثى قيراط فصار كل اربعة مكاكيك بدينار فى ايام قليلة وكذلك باقى الاشياء من التمر والدبس والارز والسمسم وغيرها فالله تعالى يؤيده وينصره ويبقيه فانه غريب فى هذا الزمان الفاسد ولقد سمعت عنه كلمة اعجبتنى جدا وهى انه قيل له فى الذى يخرجه ويطلقه من الاموال التى لا تسمح نفس ببعضها فقال انهم انا فتحت الدكان بعد العصر فاتركونى افعل الخير فكم اعيش وتصدق ليلة عيد الفطر من هذه السنة وفرق فى العلماء واهل الدين مائة الف دينار

(ذكر ملك بدر الدين قلعتى العمادية وهرور)

فى هذه السنة ملك بدر الدين قلعة العمادية من اعمال الموصل وقد تقدم ذكر عصيان اهلها عليه سنة خمس عشرة وستمائة وتسليمها الى عماد الدين زنكى ثم عودهم الى طاعة بدر الدين وخلافهم على عماد الدين فلما عادوا الى بدر الدين أحسن اليهم وأعطاهم الاقطاع الكثير وملكهم القرى ووصلهم بالاموال الجزيلة والخلع السنية فبقوا كذلك مدة يسيرة ثم شرعوا يراسلون عماد الدين زنكى ومظفر الدين صاحب اربل وشهاب الدين غازى بن العادل لما كان بخلاط ويعدون كلا منهم بالانحياز اليه والطاعة له وأظهروا من المخالفة لبدر الدين ما كانوا يبطنونه فكانوا لا يمكنون ان يقيم عندهم من أصحاب بدر الدين الا من يريدونه ويمنعون من كرهوه فطال الامر وهو يحتمل فعلهم ويداريهم وهم لا يزدادون الا طمعا وخروجا عن الطاعة وكانوا جماعة فاختلفوا فقوى بعضهم وهم أولاد خواجه ابراهيم وأخوه ومن معهم على الباقين فاخرجوهم عن القلعة وغلبوا عليها وأصروا على ما كانوا عليه من النفاق فلما كان هذه السنة سار بدر الدين اليهم فى عساكره فاتاهم بغتة فحصرهم وضيق عليهم وقطع الميرة عنهم وأقام بنفسه عليهم وجعل قطعة من الجيش على قلعة هرور يحصرونها وهى من أمنع الحصون وأحصنها لا يوجد مثلها وكان أهلها أيضا قد سلكوا طريق أهل العمادية من عصيان وطاعة ومخادعة فاتاهم العسكر وحصروهم وهم فى قلة من الذخيرة فحصروها أياما ففنى ما فى القلعة فاضطر أهلها الى التسليم فسلموها ونزلوا منها وعاد العسكر الى العمادية فاقاموا عليها مع بدر الدين فبقى بدر الدين بعد أخذ هرور يسيرا وعاد الى الموصل وترك العسكر بحاله مقيما عليهم مع

الاحقاب كنزا وذخيرة* انه وذات الاستار بطن مكة لارذل من والغ فى جيفة مقلوب* وأنذل من طامع فى شريطة مصلوب* ان كان ما أتاه انتقاما فهلا ذلك والولد حى* وفى البدن ملك الخيار شئ* آلآن وقد سبق السيف العذل* وقد فعل القضاء ما فعل* أوردا وقد نضب الماء* وشيما وقد أصحت السماء* وغيرة وقد سقط الجدار* وسترة وقد ظهر الشوار* هيهات هيهات لظن حائل* ورأى فائل* وظل زائل* وورد سائل*

أيتها النفس اجملى جزعا
ان الذى تحذرين قد وقعا

* واحتال مفترش لذته* ومقتصر شهوته* للانقطاع

نائبه امين الدين لؤلؤ فبقى الحصار الى اول ذى القعدة فارسلوا يذعنون بالطاعة ويطلبون
العوض عنها ليسلموها فاستقرت القواعد على العوض من قلعة يحتمون فيها واقطاع ومال وغير
ذلك فاجابهم بدر الدين الى ماطلبوا وحضر نوابهم ليحلفوا بدر الدين فبينما هو يريد ان يحلف لهم
وقد احضر من يشهد اليمين اذ قد وصل طائر من العمادية وعلى جناحه رقعة من امين الدين
لؤلؤ يخبر انه قد ملك العمادية قهرا وعنوة واسر بنى خواجه الذين كانوا تغلبوا عليه فامتنع
بدر الدين من اليمين واما سبب غلبة امين الدين عليها فانه كان قد ولاه بدر الدين عليها لما عاد اهلها
الى طاعته فبقى فيها مدة فاحسن اليهم واحسن السيرة فيهم واستمال جماعة منهم ليتقوى بهم
على الحزب الذين عصوا ولا فشى الخبر اليهم فاساؤا مجاورته واستقالوا من ولايته عليهم ففارقهم
الى الموصل وكان اولئك الذين استمالهم يكاتبونه ويراسلونه فلما حصرهم كانوا ايضا يكاتبونه
فى النشاب يخبرونه بكل ما يفعله اولاد خواجه من انفاذ رسول وغير ذلك وبما عندهم من
الذخائر الا انهم لم يكونوا فى الكثرة الى انهم يقهرون اولئك فلما كان الآن واستقرت القواعد
من التسليم لم يذكرا اولاد خواجه احدا من جند القلعة فى نسخة اليمين بمال ولا غيره من امان
واقطاع فسخطوا هذه الحال وقالوا لهم قد حلفتم لانفسكم بالحصون والقرى والمال ونحن
قد خربت بيوتنا لاجلكم فلم تذكرونا فاهانوهم ولم يلتفتوا اليهم فحضر عند امين الدين رجلان
منهم ليلا وطلبوا منه ان يرسل اليهم جماعة يصعدونهم الى القلعة ويثبون باولئك ويأخذونهم
فامتنع وقال اخاف ان لا يتم هذا الامر وينفسد علينا كل ما فعلناه فقالوا نحن نقبض عليهم
غدا بكرة وتكون انت والعسكر على ظهر فاذا سمعتم النداء باسم بدر الدين وشعاره تصعدون
الينا فاجابهم الى ذلك وركب بكرة هو والعسكر على العادة واما اولئك فانهم اجتمعوا وقبضوا
على اولاد خواجه ومن معهم ونادوا بشعار بدر الدين فبينما العسكر قيام اذا الصوت من
القلعة باسم بدر الدين فصعدوا اليها وملكوها وتسلم امين الدين اولاد خواجه فحبسهم وكتب
الرقعة على جناح الطائر بالحال وملكوا القلعة صفوا عفوا بغير عوض وكان يريد ان يغرم
مالا جليلا واقطاعا كثيرة وحصا منيعا فتوفر الجميع عليه واخذ منهم كل ما احتقبوه وادخروه
واذا اراد الله امرا فلا مرد له

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة ليلة الاحد والعشرين من صفر زلزلت الارض بالموصل وديار الجزيرة والعراق
وغيرها زلزلة متوسطة وفيها اشتد الغلاء بالموصل وديار الجزيرة جميعها فاكل الناس الميتة
والكلاب والسنانير فقل الكلاب والسنانير بعد ان كانوا كثيرا ولقد دخلت يوما الى دارى
فرأيت الجوارى يقطعن اللحم ليطبخوه فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها فكانت اثنى عشر
سنورا ورأيت اللحم فى هذا الغلاء فى الدار وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها وليس
بين المرتين كثير وغلا مع الطعام كل شئ فبيع الرطل الشيرج بقيراطين بعد ان كان بنصف
قيراط قبل الغلاء واما قبل ذلك فكان كل ستين رطلا بدينار ومن العجب ان السلق والجزر
والسلجم بيع كل خمسة ارطال بدرهم وبيع البنفسج كل ستة ارطال بدرهم وبيع فى بعض
الاوقات كل سبعة ارطال بدرهم وهذا مالم يسمع بمثله ولقد ابينا مالم نر ولا سمعنا بمثله فان الدنيا

الى بعض كبراء الامراء
فقبله وآواه * وانتزعه من
قبضة مولاه * مراغمة كوته
بنار أضغانه * وشوته على
حرارة غمومه وأشجانه * فلا
حميم ولا قريب * ولا ولى ولا
حبيب * ولا والد ولا مولود *
ولا عابد ولا معبود * واما
الشرع وطريقه * والدين
وتحقيقه * فحيهلا به * ان
فى وضوح هذه الخلال على
شوه احكامها * وسفه
احلامها * لغنية دون شرح
الحال وتشريحها * وتبليغ
لسان المقال وتفصيحها
* غير ان التقرب الى
الرسول المصطفى * الابطحى
المجتبى * صلى الله عليه وعلى
آله بقوله اذكروا الفاسق
بما فيه * يقتضى التنبيه على
مخازيه * تخليصا لخفايا نكره
وخباياه * وتشكيلا لاضلاع
خبثه وزواياه

مازالت قديما وحديثا اذاغلت الاسعار متى جاء المطر رخصت الا هذه السنة فان الامطار مازالت متتابعة من اول الشتاء الى آخر الربيع وكلما جاء المطر غلت الاسعار وهذا مالم يسمع بمثله فبلغت الحنطة مكوك وثلث بدينار وقيراط يكون وزنه خمسة واربعين رطلا دقيقا بالبغدادى وكان الملح مكوك بدرهم فصار المكوك بعشرة دراهم وكان الارز مكوك باثنى عشر درهما فصار المكوك بخمسين درهما وكان التمر كل اربعة ارطال وخمسة ارطال بقيراط فصار كل رطلين بقيراط ومن عجيب مايحكى ان السكر النادر الاسمر كان كل رطل بدرهم وكان السكر الابلوج المصرى النقى كل رطل بدرهمين فصار السكر الاسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف والسكر الابلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع وسببه ان الامراض لما كثرت واشتد الوباء قال النساء هذه الامراض باردة والسكر الاسمر حار فينفع منها والابلوج بارد يقويها وتبعهن الاطباء استمالة لقلوبهن ولجهلهن فغلا الاسمر بهذا السبب وهذا من الجهل المفرط ومازالت الاشياء هكذا الى اول الصيف واشتد الوباء وكثر الموت والمرض فى الناس فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى فمن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسى خطيب الموصل وكان من صالحى المسلمين وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور وفيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر وفيها هرب امير حاج العراق وهو حسام الدين ابو فراس الحلى الكردى الورامى وهو ابن اخى الشيخ ورام كان جده من صالحى المسلمين وخيارهم من اهل الحلة السيفية فارق الحاج بين مكة والمدينة وسار الى مصر حكى لى بعض اصدقائه انه اغا حمله على الهرب كثرة الخرج فى الطريق وقلة المعونة من الخليفة ولما فارق الحاج خافوا خوفا شديدا من العرب فامن الله خوفهم ولم يرعهم ذاعر فى جميع الطريق ووصلوا آمنين الا ان كثيرا من الجمال هلك أصابها غدة عظيمة لم يسلم الا القليل وفيها فى آب جاء مطر شديد ورعد وبرق ودام حتى جرت الاودية وامتلأت الطرق بالوحل ثم جاء الخبر من العراق والشام والجزيرة وديار بكر انه كان عندهم مثله ولم يصل الينا أحد الا وأخبر ان المطر كان عندهم فى ذلك التاريخ وفيها كان فى الشتاء ثلج كثير ونزلت بالعراق فسمعت أنه نزل فى جميع العراق حتى فى البصرة اما الى واسط فلا شك فيه وأما البصرة فان الخبر لم يكثر عندنا بنزوله فيها وفيها خربت قلعة الزعفران من أعمال الموصل وهى حصن مشهور يعرف قديما بدير الزعفران وهو على جبل عال قريب من فرشابور وفيها أيضا خربت القلعة الجديدة من بلد الهكارية من أعمال الموصل أيضا وأضيف عملها وقراها الى العمادية وفيها فى ذى الحجة سار جلال الدين بن خوارزمشاه من تبريز الى بلد الكرج قاصدا الاخذ بلادهم واستئصالهم وخرجت السنة ولم يبلغنا انه فعل بهم شيأ ونحن نذكر مافعله بهم سنة ثلاث وعشرين وستمائة ان شاء الله وفيها ثالث شباط سقط ببغداد ثلج وبرد الماء بردا شديدا وقوى البرد حتى مات به جماعة من الفقراء وفيها فى ربيع الاول زادت دجلة زيادة عظيمة واشتغل الناس باصلاح سكر القورج وخافوا فبلغت الزيادة قريبا من الزيادة الاولة ثم نقص الماء واستبشر الناس

(ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة)

(ذكر ملك جلال الدين تفليس)

لبعض الافاضل أنى جاورته على البريد قريبا من سنتين فلا والله ان تضيفت الاحداق به فى المسجد الجامع الايوما واحدا كبيضة العقر * أو كقضة البكر * فما أدرى أخطأت به خطاه * أم الجاه عذر تخوف عتباه * وتجاذبنا حديث الصلاة فقال مازحا وما صدقت الاما زح أو سكران قام بعضهم وهو يسعى يوم جمعة للفرض وقد نودى للصلاة فقال له صاحبه مكانك ان أربعة من خير

فى هذه السنة ثامن ربيع الاول فتح جلال الدين بن خوارزمشاه مدينة تفليس من الكرج وسبب ذلك انا قد ذكرنا سنة اثنتين وعشرين وستمائة الحرب بينه وبينهم وانهزامهم منه وعوده الى تبريز بسبب الخلاف الواقع فيها فلما استقر الامر فى اذربيجان عاد الى بلد الكرج فى ذى الحجة من السنة وخرجت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ودخلت هذه السنة فقصد بلادهم وقد عادوا وحشدوا وجمعوا من الامم المجاورة لهم اللان واللكز وقفجاق وغيرهم فاجتمعوا فى جمع كثير لا يحصى فطمعوا بذلك ومنتهم أنفسهم الاباطيل ووعدهم الشيطان الظفر وما يعدهم الشيطان الا غرورا فلقيهم وجعل لهم الكمين فى عدة مواضع والتقوا واقتتلوا فولى الكرج منهزمين لا يلوى الاخ على أخيه ولا الوالد على ولده وكل منهم قد اهمته نفسه وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب فلم ينج منهم الا اليسير الشاذ الذى لا يعبأ به وأمر جلال الدين عسكره ان لا يبقوا على أحد وان يقتلوا من وجدوا فتبعوا المنهزمين يقتلونهم واشار عليه اصحابه بقصد تفليس دار ملكهم فقال لا حاجة لنا الى ان نقتل رجالنا تحت الاسوار انما اذا أفنيت الكرج أخذت البلاد صفوا عفوا ولم تزل العساكر تتبعهم وتستقصى فى طلبهم الى ان كادوا يفنونهم فحينئذ قصد تفليس ونزل بالقرب منها وسار فى بعض الايام فى طائفة من العسكر وقصدها لينظر اليها ويبصر مواضع النزول عليها وكيف يقاتلها فلما قاربها كمن أكثر العسكر الذى معه فى عدة مواضع ثم تقدم اليها فى نحو ثلاثة آلاف فارس فلما رآه من بها من الكرج طمعوا فيه لقلة من معه ولم يعلموا انّ معهم فظهروا اليه فقاتلوه فتأخر عنهم فقوى طمعهم فظنوه منهزما فتبعوه فلما توسطوا العساكر خرجوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتل اكثرهم وانهزم الباقون الى المدينة فدخلوها وتبعهم المسلمون فلما وصلوا اليها نادى المسلمون من اهلها بشعار الاسلام وباسم جلال الدين فالقى الكرج بايديهم واستسلموا لانهم كانوا قد قتل رجالهم فى الوقعات المذكورة فقل عددهم وملئت قلوبهم خوفا ورعبا فملك المسلمون البلد عنوة وقهرا بغير أمان وقتل كل من فيه من الكرج ولم يبق على كبير ولا صغير الا من أذعن بالاسلام وأقر بكلمتى الشهادة فانهم أبقى عليهم وامرهم فختنوا وتركهم ونهب المسلمون الاموال وسبوا النساء واسترقوا الاولاد ووصل الى المسلمين الذين بها بعض الاذى من قتل ونهب وغيره وهذه تفليس من احصن البلاد وأمنعها وهى على جانبى نهر الكر وهو نهر كبير ولقد جل هذا الفتح وعظم موقعه فى بلاد الاسلام وعند المسلمين فان الكرج كانوا قد استطالوا عليهم وفعلوا بهم ما أرادوا فكانوا يقصدون أىّ بلاد اذربيجان أرادوا فلا يمنعهم عنها مانع ولا يدفعهم عنها دافع وهكذا ارزن الروم حتى ان صاحبها لبس خلعة ملك الكرج ورفع على رأسه علما منه فى أعلاه صليب وتنصر ولده رغبة فى نكاح ملكة الكرج وخوفا منهم ليدفع الشرّ عنه وقد تقدمت القصة وهكذا دربند شروان وعظم أمرهم الى حدّ أن ركن الدين بن قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وملطية وسائر بلاد الروم التى للمسلمين جمع عساكره وحشد معها غيرها فاستكثر وقصد ارزن الروم وهى لاخيه طغرل شاه بن قلج ارسلان فأتاه الكرج وهزموه وفعلوا به وبعسكره كل عظيم وكان أهل دربند شروان معهم فى الضنك والشدة وأما ارمينية فان الكرج دخلوا مدينة ارجيش وملكوا قرس وغيرها وحصروا خلاط فلولا أن الله سبحانه منّ على المسلمين بامر

البيوت نطير من اثنين من عمل السوق وقد كان من طريق التجوز مساغ للتأويل على وجه التسلم ولكن من هذا قيله * وترك العبادات سبيله * فلا عبد يعتاد * ولا فرض كما يقتضيه العباد * محال به غير اليقين بالالحاد * وتلقى أوامر الشرع بالعناد * وأظن قول الغلام الواصف مولاه انه ليعرب فى الشتم ويلحن فى الاعراب ويصلى من قعود ويفيك من قيام ينحى الى صورة حاله *

ايوانى مقدم عساكر الكرج لملكوها فاضطر أهلها الى ان بنوا لهم بيعة فى القلعة يضرب فيها الناقوس فرحلوا عنهم وقد تقدم تفصيل هذه الجملة ولم يزل هذا الثغر من أعظم الثغور ضررا على المجاورين من الفرس قبل الاسلام وعلى المسلمين بعدهم من أول الاسلام الى الآن ولم يقدم أحد عليهم هذا الاقدام ولا فعل بهم هذه الافاعيل فان الكرج ملكوا تفليس سنة خمس عشرة وخمسمائة والسلطان حينئذ محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى وهو من أعظم السلاطين منزلة وأوسعهم مملكة وأكثرهم عساكر فلم يقدر على منعهم عنها هذا مع سعة بلاده فانه كان له الرى وأعمالها وبلد الجبل واصفهان وفارس وخوزستان والعراق واذربيجان واران وارمينية وديار بكر والجزيرة والموصل والشام وغير ذلك وعمه السلطان سنجر له خراسان وماوراء النهر فكان أكثر بلاد الاسلام بايديهم ومع هذا فانه جمع عساكره سنة تسع عشرة وخمسمائة وسار اليهم بعد أن ملكوها فلم يقدر عليهم ثم ملك بعده أخوه السلطان مسعود كذلك وملك الدكز بلد الجبل والرى واذربيجان واران وأطاعه صاحب خلاط وصاحب فارس وصاحب خوزستان وجمع وحشد لهم وكان قصاراه أن يتخلص منهم ثم ابنه البهلوان بعده وكانت البلاد فى أيام أولئك كثيرة الاموال والرجال فلم يحدثوا أنفسهم بالظفر بهؤلاء حتى جاء هذا السلطان والبلاد خراب قد أضعفها الكرج أولا ثم استأصلها التتر لعنهم الله على ماذكرنا ففعل بهم هذه الافاعيل فسبحان من اذا أراد أمرا قال له كن فيكون

(ذكر مسير مظفر الدين صاحب اربل الى الموصل وعوده عنها)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة سار مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل الى أعمال الموصل قاصدا اليها وكان السبب فى ذلك انه استقرت القاعدة بينه وبين جلال الدين بن خوارزمشاه وبين الملك المعظم صاحب دمشق وبين صاحب آمد وبين ناصر الدين صاحب ماردين ليقصدوا البلاد التى بيد الاشرف ويتغلبوا عليها ويكون لكل منهم نصيب ذكره واستقرت القواعد بينهم على ذلك فبادر مظفر الدين الى الموصل وأما جلال الدين فانه سار من تفليس يريد خلاط فأتاه الخبر ان نائبه ببلاد كرمان واسمه بلاق حاجب قد عصى عليه على مانذكره فلما أتاه الخبر بذلك ترك خلاط ولم يقصدها الا ان عسكره نهب بعض بلدها وخربوا كثيرا منه وسار مجدا الى كرمان فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه الا أن مظفر الدين سار من اربل ونزل على جانب الزاب ولم يمكنه العبور الى بلد الموصل وكان بدر الدين قد أرسل من الموصل الى الاشرف وهو بالرقة يستنجده ويطلب منه ان يحضر بنفسه الموصل ليدفعوا مظفر الدين فسار منها الى حران ومن حران الى دنيسر فخرب بلد ماردين وأهلكه تخريبا ونهبا وأما المعظم صاحب دمشق فانه قصد بلد حمص وحماة وأرسل الى اخيه الاشرف يقول ان رحلت عن ماردين وحلب وأنا أكف عن حمص وحماة وارسلت الى مظفر الدين ليرجع عن بلد الموصل فرحل الاشرف عن ماردين وعاد كل منهم الى بلده وخربت اعمال الموصل واعمال ماردين بهذه الحركة فانها كانت قد اجحف بها تتابع الغلاء وطول مدته وجلاء اكثر أهلها فأتتها هذه الحادثة فازدادت خرابا

(ذكر عصيان كرمان على جلال الدين ومسيره اليها)

ويأوى الى مقصورة خبثه وضلاله * فجل أحواله عيوب * ومعظم أفعاله ذنوب

يصلى فيخفض أركانه

ويشهى فينصب سيقانه

يخاطب بالكاف اخوانه

ويشتم بالزاى غلمانه

ويكفت للشرا كمامه

ويسحب للاثم أردانه

ومن نادرة البلد * اعتقاده الاعتزال على وعيد الابد * ثم لا يبقى محظورا ومحجورا ولا يستبقى محلا موزورا * ومنكرا من القول وزورا

في هذه السنة في جمادى الآخرة وصل الخبر الى جلال الدين ان نائبه بكرمان وهو امير كبير اسمه بلاق حاجب قد عصى عليه وطمع في البلاد أن يتملكها ويستبد بها لبعد جلال الدين عنها واشتغاله بما ذكرناه من الكرج وغيرهم وانه أرسل الى التتر يعرفهم قوة جلال الدين وملكه كثيرا من البلاد وان أخذ الباقي عظمت مملكته وكثرت عساكره وسار اليكم وأخذ ما بايديكم من البلاد فلما سمع جلال الدين ذلك وكان قد سار يريد خلاط فتركها وسار الى كرمان يطوي المراحل أرسل بين يديه رسولا الى صاحب كرمان ومعه الخلع ليطمئن ويأتيه وهو غير محتاط ولا مستعد للامتناع منه فلما وصل الرسول علم ان ذلك مكيدة عليه لما يعرفه من عادته فأخذ ما يعز عليه وصعد الى قلعة منيعة فتحصن بها وجعل من يثق اليه من أصحابه في الحصون يمتنعون بها وأرسل الى جلال الدين يقول انني أنا العبد والمملوك ولما سمعت بمسيرك الى هذه البلاد أخليتها لك لانها بلادك ولو علمت انك تبقي على لحضرت بابك ولكني أخاف هذا جميعه والرسول يحلف له ان جلال الدين بتفليس وهو لا يلتفت الى قوله فعاد الرسول فعلم جلال الدين انه لا يمكنه أخذ ما بيده من الحصون لانه يحتاج أن يحصرها مدة طويلة فوقف بالقرب من اصفهان وأرسل اليه الخلع وأقره على ولايته فبينما الرسل تتردد اذ وصل رسول من وزير جلال الدين اليه من تفليس يعرفه ان عسكر الملك الاشرف الذي بخلاط قد هزموا بعض عسكره واوقعوا بهم ويحثه على العود الى تفليس فعاد اليها مسرعا

(ذكر الحرب بين عسكر الاشرف وعسكر جلال الدين)

لما سار جلال الدين الى كرمان ترك بمدينة تفليس عسكرا مع وزيره شرف الملك فقلت عليهم الميرة فساروا الى أعمال ارزن الروم فوصلوا اليها ونهبوها وسبوا النساء وأخذوا من الغنائم شيأ كثيرا لا يحصر وعادوا فكان طريقهم على أطراف ولاية خلاط فسمع النائب من الاشرف بخلاط وهو الحاجب حسام الدين على الموصل فجمع العسكر وسار اليهم فأوقع بهم واستنقذ ما معهم من الغنائم وغنم كثيرا مما معهم وعاد هو وعساكره سالمين فلما فعل ذلك خاف وزير جلال الدين منهم فارسل الى صاحبه بكرمان يعرفه الحال ويحثه على الوصول اليه ويخوفه عاقبة التواني والاهمال فرجع فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة الخليفة الظاهر بامر الله)

في هذه السنة في الرابع عشر من رجب توفي الامام الظاهر بامر الله أمير المؤمنين أبو نصر محمد ابن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بامر الله وقد تقدم نسبه عند وفاة أبيه رضي الله عنهما فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه والعدل والاحسان الى رعيته وقد تقدم عند ذكر ولايته الخلافة من أفعاله ما فيه كفاية ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والاحسان الى الرعية فرضي الله عنه وأرضاه وأحسن منقلبه ومثواه فلقد جدد من العدل ما كان دارسا واذكر من الاحسان ما كان منسيا وكان قبل وفاته أخرج توقيعا الى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم الى امام فعال أحوج منكم الى امام قوال فقرؤه فاذا في أوله بعد البسملة اعلموا انه ليس امهالنا اهمالا

ها هو طمع بشهدي في مال رجل كان انقطاع اليه منذ زمان بأمان نآغري به ربيباله كقضيب من الآس مياس * لعله فتمكه كان بأمه اذ هو رضيع * وعلى جدالة العجز صريع * ولقنه استعداء الامير الاجل أبي سعيد مسعود بن يمين الدوله وأمين الملة عليه * وتنجز الامر في معنى الاتصاف اليه * فتنبه ذلك الامير الالمعي * والسيد الاوذعي * على غامض كيده * وباطن ختله في صدره * فأمر بالكتاب

ولا أغضاؤنا اغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من اخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة واظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة وتسميه الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرارا كالاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وانياب أسد مهيب تتفقون بالفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه الى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ الا من اصر ولا ينتقم الا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في ارضه وامنائه على خلقه والاهلكتم والسلام ولما توفي وجدوا في بيت في داره الوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيل له ليفتحها فقال لا حاجة لنا فيها كلها سعايات ولم ازل علم الله سبحانه مدولي الخلافة اخاف عليه قصر المدة لخبث الزمان وفساد اهله واقول لكثير من اصدقائنا وما اخوفني ان تقصر مدة خلافته لان زماننا واهله لا يستحقون خلافته فكان كذلك

الى في تعرف الحال * وتجنب جانب الاحتيال * والانتداب لاعداء الشاكي على خصمه * وايفائه حكم الله في أمره * فلما أحس أخو دولة المحتالة ان حد حسه قد فال * وظنه استحال * وسعيه الى الشبور قد مال منع شهود الزور أن يصدعوا بالحق فيما بدلوا من خطوطهم ترغيبا * وترهيبا * فرضوا القول * وادعوا على مسئلتهم العول * ومال المزور المزور الى التوسط عن ارش المستباح دمها على ماتقي

(ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله)

لما توفي الظاهر بامر الله بويع بالخلافة ابنه الاكبر ابو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وسلك في الخير والاحسان الى الناس سيرة ابيه رضي الله عنه وامر فنودي ببغداد باقاضة العدل وان من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان اول جمعة اتت على خلافته أراد ان يصلي الجمعة في المقصورة التي كان يصلي فيها الخلفاء فقيل له ان المطبق الذي يسلك فيه اليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار الى الجامع جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص ابيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير ولم يترك أحدا يمشي معه من اصحابه بالصلاة الى الموضع الذي كان يصلي فيه وسار هو ومعه خادمان وركابدار لا غير فصلى وعاد وكذلك الجمعة الثانية حتى اصلح له المطبق وكان السعر قد تحرك بعد وفاة الظاهر بامر الله رضي الله عنه فبلغت الكارة ثمانية عشر قيراطا فامر أن تباع الغلات التي له كل كارة بثلاثة عشر قيراطا فرخصت الاسعار واستقامت الامور

(ذكر الحرب بين كيقباذ وصاحب آمد)

في هذه السنة في شعبان سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان ملك بلاد الروم الى بلاد الملك المسعود صاحب آمد وملك عدة من حصونه وسبب ذلك ما ذكرناه من اتفاق صاحب آمد مع جلال الدين خوارزمشاه والملك المعظم صاحب دمشق وغيرهما على خلاف الاشرف ولما رأى الاشرف ذلك ارسل الى كيقباذ ملك الروم وكانا متفقين يطلب منه أن يقصد بلد صاحب آمد ويحاربه وكان الاشرف حينئذ على ماردين فسار ملك الروم الى ملطية وهي له فنزل عندها وسير العساكر الى ولاية صاحب آمد ففتحوا حصن منصور وحصن شمكاراد وغيرها فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الاشرف وعاد الى موافقته فأرسل الاشرف الى كيقباذ يعرفه ذلك ويقول له ليعيد الى صاحب آمد ما اخذ منه فلم يفعل وقال لما كن نائبا للاشرف

يأمرني وينهاني فاتفق ان الاشرف سار الى دمشق ليصلح اخاه الملك المعظم وأمر العساكر التي له بديار الجزيرة بمساعدة صاحب آمد ان أصر ملك الروم على قصده فسارت عساكر الاشرف الى صاحب آمد وقد جمع عسكره ومن ببلاده ممن يصلح للحرب وسار الى عسكر ملك الروم وهم يحاصرون قلعة الكختا فالتقوا هناك في شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه من العساكر هزيمة عظيمة وجرح كثير وأسر كثير وملك عسكر كيقباذ قلعة الكختا بعد الهزيمة وهي من أمنع الحصون والمعاقل فلما ملكوه عادوا الى صاحبهم

(ذكر حصر جلال الدين مدينتي آني وقرس)

في هذه السنة في رمضان عاد جلال الدين من كرمان كما ذكرناه الى تفليس وسار منها الى مدينة آني وهي للكرج وبها ايواني مقدم عساكر الكرج فيمن بقي معه من اعيان الكرج فحصره وسير طائفة من العسكر الى مدينة قرس وهي للكرج أيضا وكلاهما من احصن البلاد وامنعها فنازلهما وحصرهما وقاتل من بهما ونصب عليهما المجانيق وجد في القتال عليهما وحفظتهما الكرج وبالغوا في الحفظ والاحتياط لخوفهم منه أن يفعل بهم ما فعل باشياعهم من قبل بمدينة تفليس وأقام عليهما الى أن مضى بعض شوال ثم ترك العسكر عليهما يحصرونهما وعاد الى تفليس وسار من تفليس مجدا الى بلاد ابخاز وبقايا الكرج فأوقع بمن فيها فنهب وقتل وسبى وخرب البلاد وأحرقها وغنم عساكره ما فيها وعاد منها الى تفليس

(ذكر حصر جلال الدين خلاط)

قد ذكرنا ان جلال الدين عاد من مدينة آني الى تفليس ودخل بلاد ابخاز وكان رحيله مكيدة لانه بلغه ان النائب عن الملك الاشرف وهو الحاجب حسام الدين علي بمدينة خلاط قد احتاط واهتم بالامر وحفظ البلد لقربه منه فعاد الى تفليس ليطمئن أهل خلاط ويتركوا الاحتياط والاستظهار ثم يقصدهم بغتة فكانت غيبته ببلاد ابخاز عشرة أيام وعاد وسار مجدا على عادته فلولم يكن عنده من يراسل نواب الاشرف بالاخبار لفجئهم على حين غفلة منهم وانما كان عنده بعض ثقاته يعرفهم أخباره وكتب اليهم يحذرهم فوصل الخبر اليهم قبل وصوله بيومين ووصل جلال الدين فنازل مدينة ملازكرد يوم السبت ثالث عشر ذي القعدة ثم رحل عنها فنازل مدينة خلاط يوم الاثنين خامس عشره فلم ينزل حتى زحف اليها وقاتل اهلها قتالا شديدا فوصل عسكره سور البلد وقتل بينهم قتلى كثيرة ثم زحف اليها مرة ثانية وقاتل أهل البلد قتالا عظيما فعظمت نكاية العسكر في أهل خلاط ووصلوا الى سور البلد ودخلوا الربض الذي له ومدوا أيديهم في النهب وسبي الحريم فلما رأى أهل خلاط ذلك تذامروا وحرض بعضهم بعضا فعادوا الى العسكر فقاتلوهم فأخرجوهم من البلد وقتل بينهم خلق كثير وأسر العسكر الخوارزمي من امراء خلاط جماعة وقتل منهم كثير وترجل الحاجب علي ووقف في نحر العدو وابلى بلاء عظيما ثم ان جلال الدين استراح عدة أيام وعاود الزحف مثل اول يوم فقاتلوه حتى أبعدوا عسكره عن البلد وكان أهل خلاط مجدين في القتال حريصين على المنع عن أنفسهم لما رأوا من سوء سيرة الخوارزميين ونهبهم البلاد وما فيهم من الفساد فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله ثم أقام عليها الى أن اشتد البرد ونزل شيء من الثلج فرحل عنها يوم الثلاثاء

درهم قيمتها خمسة دنانير * فلم ادر أية محلة وقفت بأن ديات الامهات على هذين العقدين * فما في الاسلام له ذكر معلوم * ولا في الفقه باب مرقوم * ولا عند أهل الكتاب أمر محتوم ولا في ديار أهل الشرك رسم مرسوم * ولا في فطر النفوس أن تنزل عن أمهاتها مقتولة بهذا الوكس * والثمن البخس ولا الخنانيص أو القرود لو نطقت ترضى عن واضعاتها بمثله وكم قد قلت وأقول

السبع بقين من ذى الحجة من السنة وكان سبب رحيله مع خوف الثلج ما بلغه عن التركمان الايوائية من الفساد ببلاد

(ذكر ايقاع جلال الدين بالتركمان الايوائية)

كان التركمان الايوائية قد تغلبوا على مدينة اشترو أرمية من نواحى اذربيجان وأخذوا الخراج من أهل خوى ليكفوا عنهم واغتروا باشتغال جلال الدين بالكرج وبعده بخلاط وازداد طمعهم وانبسطوا باذربيجان ينهبون ويقطعون الطريق والاخبار تأتى الى خوارزمشاه جلال الدين وهو يتغافل عنهم لاشتغاله بما هو أهم عنده وبلغ من طمعهم انهم قطعوا الطريق بالقرب من تبريز وأخذوا من تجار أهلها شيأ كثيرا ومن جملة ذلك انهم اشتروا غنما من ارزن الروم وقصدوا بها تبريز فلقيهم الايوائية قبل وصولهم الى تبريز فأخذوا جميع ما معهم ومن جملته عشرون ألف رأس غنم فلما اشتد ذلك على الناس وعظم الشر أرسلت زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل ونوابه فى البلاد اليه يستغيثون ويعرفونه ان البلاد قد خربها الايوائية وان لم يلحقها والا هلكت بالمرة فاتفق هذا الى خوف الثلج فرحل عن خلاط وجد السير الى الايوائية وهم آمنون مطمئنون لعلمهم ان خوارزمشاه على خلاط وظنوا انه لا يفارقها فلولا هذا الاعتقاد لصعدوا الى جبال لهم منيعة شاهقة لا يرتقى اليها الا بمشقة وعناء فانهم كانوا اذا خافوا صعدوا اليها وامتنعوا بها فلم يرعهم الا والعساكر الجلالية قد أحاطت بهم وأخذهم السيف من كل جانب فأكثروا القتل فيهم والنهب والسبى واسترقوا الحريم والاولاد وأخذوا من عندهم مالا يدخل تحت الحصر فرأوا كثيرا من الامتعة التى أخذوها من التجار بحالها فى الشذوات لم تحل هذا سوى ما كانوا قد حلوه وفصلوه فلما فرغ عاد الى تبريز

(ذكر الصلح بين المعظم والاشرف)

نبتدئ بذكر سبب الاختلاف فنقول لما توفى الملك العادل أبو بكر بن أيوب اتفق أولاده الملوك بعده اتفاقا حسنا وهم الملك الكامل محمد صاحب مصر والملك المعظم عيسى صاحب دمشق والبيت المقدس وما يجاورها من البلاد والملك الاشرف موسى وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار المصرية ولما رحل الكامل عن دمياط لما كان الفرنج يحصرونها صادفه أخوه المعظم من الغد وقويت نفسه وثبت قدمه ولولا ذلك لكان الامر عظيما وقد ذكرنا ذلك مفصلا ثم انه عاد من مصر وسار الى أخيه الاشرف ببلاد الجزيرة مرتين يستنجده على الفرنج ويحثه على مساعدة أخيه الكامل ولم يزل به حتى أخذه وسار الى مصر وأزالوا الفرنج عن الديار المصرية كما ذكرناه قبل فكان اتفاقهم سببا لحفظ بلاد الاسلام وسر الناس أجمعون بذلك فلما فارق الفرنج مصر وعاد كل من الملوك أولاد العادل الى بلده بقوا كذلك يسيرا ثم سار الاشرف الى أخيه الكامل بمصر فاجتاز بأخيه المعظم بدمشق فلم يستصحبه معه وأطال المقام بمصر فلا شك ان المعظم سار الى مدينة حماة وحصرها فأرسل اليه أخواه من مصر ورحلاه عنها كارها فازداد نفورا وقيل انه نقل اليه عنهما انهما اتفقا عليه والله أعلم بذلك ثم انضاف الى ذلك ان الخليفة الناصر لدين الله رضى الله عنه كان قد استوحش من الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن بمكة من الاستهانة بأمير الحاج العراقى فاعرض

انها ليست دية تودية أو وذمه * بل هى دية نسمة مسلمه * قد حقن الله دمها الا باحدى ثلاث نصا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل يستجيز الترخص فى هذه الاحكام الا المستخف بدين الاسلام * اما ان المحكوم عليه لم يلتزمها الا بقره قومت مائة وعشره * فقال المفجوع * المخدوع * تالله لا رضيت بهذا الغبن ولا شربت الدم الحرام باللبن * وهم بالرحيل * فى أمر القتيل فاغتيل * فلم يدر

عنه وعن أخيه الاشرف لاتفاقهما وقاطعهما وراسل مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين
على صاحب اربل لعلمه بانحرافه عن الاشرف واستماله واتفقا على مراسلة المعظم وتعظيم
الامر عليه فمال اليهما وانحرف عن اخويه ثم اتفق ظهور جلال الدين وكثرة ملكه فاشتد
الامر على الاشرف بمجاورة جلال الدين خوارزمشاه ولاية خلاط ولان المعظم بدمشق يمنع
عنه عساكر مصر أن تصل اليه وكذلك عساكر حلب وغيرها من الشام فرأى الاشرف أن
يسير الى أخيه المعظم بدمشق فسار اليه في شوال واستماله وأصلحه فلما سمع الكامل بذلك عظم
عليه وظن ان اتفاقهما عليه ثم انهما راسلاه واعلماه بنزول جلال الدين على خلاط وعظما الامر
عليه واعلماه ان هذه الحال تقتضي الاتفاق لعمارة البيت العادلي وانقضت السنة والاشرف
بدمشق والناس على مواضعهم ينتظرون خروج الشتاء مايكون من الخوارزميين وسنذكر
مايكون سنة أربع وعشرين وستمائة ان شاء الله تعالى •

ذكر الفتنة بين الفرنج والارمن

في هذه السنة جمع البرنس الفرنجي صاحب انطاكية جموعا كثيرة وقصد الارمن الذين في
الدروب من بلاد ابن ليون فكان بينهم حرب شديدة وسبب ذلك ان ابن ليون الارمني صاحب
الدروب توفي قبل ولم يخلف ولدا ذكرا انما خلف بنتا فملكها الارمن عليهم ثم علموا ان الملك
لايقوم بامرأة فزوجوها من ولد البرنس فتزوجها وانتقل الى بلادهم واستقر في الملك نحو سنة ثم
ندموا على ذلك وخافوا أن يستولي الفرنج على بلادهم فثاروا بابن البرنس فقبضوا عليه
وسجنوه فأرسل ابوه يطلب ان يطلق ويعاد في الملك فلم يفعلوا فأرسل الى بابا ملك الفرنج برومية
الكبرى يستأذنه في قصد بلادهم وهذا ملك رومية امره عند الفرنج لايخالف فمنعه عنهم وقال
انهم اهل ملتنا ولايجوز قصد بلادهم فخالفه وارسل الى علاء الدين كيقباذ ملك قونية وملطية
وما بينهما من بلاد المسلمين وصالحه ووافقه على قصد بلاد ابن ليون والاتفاق على قصدها
فاتفقا على ذلك وجمع البرنس عساكره ليسير الى بلاد الارمن فخالف عليه الداوية والاسبتار
وهما جمرة الفرنج فقالوا ان ملك رومية نهانا عن ذلك الا انه اطاعه غيرهم فدخل اطراف
بلاد الارمن وهي مضايق وجبال وعرة فلم يتمكن من فعل مايريد واما كيقباذ فانه قصد بلاد
الارمن من جهته وهي اسهل مدخلا من جهة الشام فدخلها سنة اثنتين وعشرين وستمائة
فنهبها واحرقها وحصر عدة حصون ففتح اربعة حصون وادركه الشتاء فعاد عنها فلما سمع بابا ملك
الفرنج برومية ارسل الى الفرنج بالشام يعلمهم انه قد حرم البرنس فكان الداوية والاسبتارية
وكثير من الفرنج لايحضرون معه ولايسمعون قوله وكان اهل بلاده وهي انطاكية
وطرابلس اذا جاءهم عيد يخرج من عندهم فاذا فرغوا من عيدهم دخل البلد ثم انه أرسل الى
ملك رومية يشكو من الارمن وانهم لم يطلقوا ولده فأرسل الى الارمن يأمرهم باطلاق ابنه
واعادته الى الملك فان فعلوا والا فقد أذن له في قصد بلادهم فلما بلغتهم الرسالة لم يطلقوا ولده
فجمع البرنس وقصد بلاد الارمن فأرسل الارمن الى الاتابك شهاب الدين بحلب يستنجدونه
ويخوفونه من البرنس ان استولى على بلادهم لانها تجاور أعمال حلب فأمدهم بجند وسلاح
فلما سمع البرنس ذلك صمم العزم على قصد بلادهم فسار اليهم وجاء بهم فلم يحصل على غرض

(١) كلمه النار أم شربه الماء *
أو التقطته الارض أو
اختطفته السماء * فلله هما
من دمين * ذهبا بطرا
وبخصين * فقد اغتيله
وبخرا * هذا والله الدين
السليم أو العقد الحكيم *
والامر القويم * والسمت
المستقيم * والمبالاة بما
وراء الجحيم * ومما يزيده
أدام الله عز المشايخ نضوحا *
ويفيد من هذه المقدمات
وضوحا * ما كانت الاخبار
تتشاهد به من استهلاله
عند الاشفاق من لواحق

فعاد عنهم حدثني بهذا رجل من عقلاء النصارى ممن دخل تلك البلاد وعرف حالها وسألت غيره فعرف البعض وانكر البعض

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة انخسف القمر مرتين أولاهما ليلة رابع عشر صفر وفيها كانت أعجوبة بالقرب من الموصل حامة تعرف بعين القيارة شديدة الحرارة تسميها الناس عين ميمون ويخرج مع الماء قليل من القار فكان الناس يسبحون فيها دائما في الربيع والخريف لانها تنفع من الامراض الباردة كالفالج وغيره نفعا عظيما فكان من يسبح فيها يجد الكرب الشديد من حرارة الماء ففي هذه السنة برد الماء فيها حتى كان السابح فيها يجد البرد فتركوها وانتقلوا الى غيرها وفيها كثرت الذئاب والخنازير والحيات فقتل كثير فلقد بلغني ان ذئبا دخل الموصل فقتل فيها (وحدثني) صديق لنا له بستان بظاهر الموصل انه قتل فيه في سنة اثنتين وعشرين وستمائة جميع الصيف حيتين وقتل هذه السنة الى أول حزيران سبع حيات لكثرتها وفيها انقطع المطر بالموصل وأكثر البلاد الجزرية من خامس شباط الى ثاني عشر نيسان ولم يجر شيء يعتد به لكنه سقط اليسير منه في بعض القرى فجاءت الغلات قليلة ثم خرج الجراد الكثير فازدادت الناس اذى وكانت الاسعار قد صلحت شيأ فعادت لكثرة الجراد غلت ونزل أيضا في كثير من القرى برد كبير أهلك زروع أهلها وأفسدها واختلفت أقاويل الناس في اكبره كان وزن بردة مائتي درهم وقيل رطل وقيل غير ذلك الا انه أهلك كثيرا من الحيوان وانقضت هذه السنة والغلاء باق واشتد بالموصل وفيها اصطاد صديق لنا أرنبا فرآه وله انثيان وذكر وفرج أنثى فلما شقوا بطنها رأوا فيها حرين سمعت هذا منه ومن جماعة كانوا معه وقالوا ما زلنا نسمع ان الارنب يكون سنة ذكرا وسنة أنثى ولا نصدق بذلك فلما رأينا هذا علمنا انه قد حمل وهو أنثى وانقضت السنة فصار ذكرا فان كان كذلك فيكون في الارانب كالخنثى من بني آدم يكون لاحدهم فرج الرجل وفرج الانثى فاني كنت بالجزيرة ولنا جار له بنت اسمها صفية فبقيت كذلك نحو خمس عشرة سنة واذا قد طلع لها ذكر رجل ونبتت لحيتها فكان لها فرج امرأة وذكر رجل وفيها ذبح انسان عند نار أس غنم فوجد لحمه مرا شديد المرارة حتى رأسه واكارعه ومعلاقه وجميع اجزائه وهذا مالم يسمع بمثله وفيها يوم الاربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة ضحوة النهار زلزلت الارض بالموصل وكثير من البلاد العربية والعجمية وكان اكثرها بشهرزور فانها خرب أكثرها لاسيما القلعة فانها اجحفت بها وخرب من تلك الناحية ست قلاع وبقيت الزلزلة تتردد فيها نيفا وثلاثين يوما ثم كشفها الله عنهم واما القرى بتلك الناحية فخرب اكثرها وفيها في رجب توفي القاضي حجة الدين ابو منصور المظفر بن عبد القاهر بن الحسن بن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الموصل بها وكان قد اضر قبل وفاته بنحو سنتين وكان عالما بالقضاء عفيفا نزها ذا رياسة كبيرة وله صلات دارة للمقيم والوارد رحمه الله فلقد كان من محاسن الدنيا ولم يخلف غير بنت توفيت بعده بثلاثة أشهر

(ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة)

(ذكر دخول الكرج مدينة تفليس واحراقها)

جنايانه على سلطان زمانه * ورعايا عمله وسكانه * حبس ما نسب اليه من ضياع * وعفا وروده باع * ودار ليتناهب ذكره الاسماع * ويتقاصر دونه الاطماع * حتى اذا ماخلا جوه * واستقام على ايقاع المراد شدوه * ندم على ما فعل * ورجع فيما بذل * ووصل بالفسخ كل ما اجمل * فكان هذا البلاغ يقرب تارة من الامكان * ويبعد أخرى حتى أغنى شخص العيان * عن الخبر * ونابت شمس البيان * عن القمر *

في هذه السنة في ربيع الاول وصل الكرج مدينة تفليس ولم يكن بها من العسكر الاسلامي من يقوم بحمايتها وسبب ذلك ان جلال الدين لما عاد من خلاط كما ذكرناه قبل وأوقع بالايوانية فرق عساكره الى المواضع الحارة الكثيرة المرعى ليشتوا بها وكان عسكره قد أساؤا السيرة في رعية تفليس وهم مسلمون وعسفوهم فكاتبوا الكرج يستدعونهم اليهم ليملكوهم البلد فاغتنم الكرج ذلك لميل أهل البلد اليهم وخلوه من العسكر فاجتمعوا وكانوا بمدينتي قرس وآني وغيرهما من الحصون وساروا الى تفليس وكانت خالية كما ذكرناه ولان جلال الدين استضعفه الكرج لكثرة من قتل منهم ولم يظن فيهم حركة فملكوا البلد ووضعوا السيف فيمن بقي من أهله وعلموا انهم لا يقدرون على حفظ البلد من جلال الدين فأحرقوها جميعها وأما جلال الدين فانه لما بلغه الخبر سار فيمن عنده من العساكر ليدركهم فلم ير منهم أحدا كانوا قد فارقوا تفليس لما أحرقوها

ذكر نهب جلال الدين بلد الاسماعيلية

في هذه السنة قتل الاسماعيلية أميرا كبيرا من امراء جلال الدين وكان قد أقطعه جلال الدين مدينة كنجة وأعمالها وكان نعم الامير كثير الخير حسن السيرة ينكر على جلال الدين ما يفعله عسكره من النهب وغيره من الشر فلما قتل ذلك الامير عظم قتله على جلال الدين واشتد عليه فسار في عساكره الى بلاد الاسماعيلية من حدود ألموت الى كردكوه بخراسان فخرب الجميع وقتل أهلها ونهب الاموال وسبى الحريم واسترق الاولاد وقتل الرجال وعمل بهم الاعمال العظيمة وانتقم منهم وكانوا قد عظم شرهم وازداد ضررهم وطمعوا مذ خرج التتر الى بلاد الاسلام الى الآن فكف عاديتهم وقمعهم ولقاهم الله ما عملوا بالمسلمين

ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر

لما فرغ جلال الدين من الاسماعيلية بلغه الخبر أن طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا الى دامغان بالقرب من الري عازمين على بلاد الاسلام فسار اليهم وحاربهم واشتد القتال بينهم فانهزموا منه فأوسعهم قتلا وتبع المنهزمين عدة أيام يقتل و يأسر فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الري خوفا من جمع آخر للتتر اذ أتاه الخبر بان كثيرا منهم واصلون اليه فأقام ينتظرهم وسنذكر خبرهم سنة خمس وعشرين وستمائة

ذكر دخول العساكر الاشرفية الى اذربيجان وملك بعضها

في هذه السنة في شعبان سار الحاجب علي حسام الدين وهو النائب عن الملك الاشرف بخلاط والمقدم على عساكرها الى بلاد اذربيجان فيمن عنده من العساكر وسبب ذلك ان سيرة جلال الدين كانت جائرة وعساكره طامعة في الرعايا وكانت زوجته ابنة السلطان طغرل السلجوقي وهي التي كانت زوجة اوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان فتزوجها جلال الدين كما ذكرناه قبل وكانت مع أوزبك تحكم في البلاد جميعها ليس له ولا لغيره معها حكم فلما تزوجها جلال الدين أهملها ولم يلتفت اليها فخافته مع ما حرمته من الحكم والامر والنهي فأرسلت هي وأهل خوي الى حسام الدين الحاجب يستدعونه ليسلموا البلاد له فسار ودخل البلاد بلاد اذربيجان فملك مدينة خوي وما يجاورها من الحصون التي بيد امرأة جلال الدين وملك مرند

وذلك حين بعث السلطان يمين الدولة وأمين الملة قاضي قضاته أبا محمد عبد الله بن محمد الناصحي الى ديار خراسان لتدارك أمور الاوقاف * وانتزاع ما اقتسمته أيدي التسلط والاختطاف * فرفع اليه خليفته وآنا حاضر * والي حقائق ما يرد و يصدر ناظر * ما تقرر عنده من احتجانه ما يقارب مائة ألف دينار عن أوقاف وضع عليها سمت التملك وسومة التغلب والتحجن كما عاينها أفواه أربابها

وكان به أهل مدينة نقجوان فضى اليهم فسلموها اليه وقويت شوكتهم بتلك البلاد ولو داموا
المذكورة جميعها انما عادوا الى خلاط واستصحبوا معهم زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل
الى خلاط وسنذكر باقى خبرهم سنة خمس وعشرين ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده)

فى هذه السنة توفى الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق يوم
الجمعة سلخ ذى القعدة وكان مرضه دوسنطاريا وكان ملكه لمدينة دمشق من حين وفاة والده
الملك العادل عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما وكان عالما بعدة علوم فاضلا فيها منها
الفقه على مذهب أبى حنيفة فانه كان قد اشتغل به كثيرا وصار من المتميزين فيه ومنها علم النحو
فانه اشتغل به أيضا اشتغالا زائدا وصار فيه فاضلا وكذلك اللغة وغيرها وكان قد أمر أن يجمع
له كتاب فى اللغة جامع كبير فيه كتاب الصحاح للجوهرى ويضاف اليه مافات الصحاح من التهذيب
للازهرى والجمهرة لابن دريد وغيرهما وكذلك أيضا أمر بان يرتب مسند أحمد بن حنبل على
الابواب ويرد كل حديث الى الباب الذى يقتضيه معناه مثاله أن يجمع أحاديث الطهارة
وكذلك يفعل فى الصلاة وغيرها من الرقائق والتفسير والغزوات فيكون كتابا جامعا وكان قد
سمع المسند من بعض أصحاب ابن الحصين ونفق العلم فى سوقه وقصده العلماء من الآفاق
فأكرمهم وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وقربهم وكان يجالسهم ويستفيد منهم ويفيدهم
وكان يرجع الى علم وصبر على سماع ما يكره لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة تسوءه وكان حسن
الاعتقاد يقول كثيرا ان اعتقادى فى الاصول ما سطره أبو جعفر الطحاوى ووصى عند
موته بان يكفن فى البياض ولا يجعل فى أكفانه ثوب فيه ذهب وأن يدفن فى اللحد ولا يبنى
عليه بناء بل يكون قبره فى الصحراء تحت السماء ويقول فى مرضه لى عند الله تعالى فى أمر
دمياط ما أرجو أن يرحمنى به ولما توفى ولى بعده ابنه داود ويلقب الملك الناصر وكان عمره
قد قارب عشرين سنة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة دام الغلاء فى ديار الجزيرة ودامت الاسعار تزيد قليلا وتنقص قليلا وانقطع المطر
جميع شباط وعشرة أيام من أذار فازداد الغلاء فبلغت الحنطة كل مكوكين بالموصلى بدينار
وقيراطين بالموصلى والشعير كل ثلاثة مكاكيك بالموصلى بدينار وقيراطين أيضا وكل شئ بهذه
النسبة فى الغلاء وفيها فى الربيع قل لحم الغنم بالموصل وغلا سعره حتى بيع كل رطل لحم
بالبغدادى بحبتين بالصنجة وربما زاد فى بعض الايام على هذا الثمن وحكى لى من يتولى بيع
الغنم بالموصل انهم باعوا خروفا واحدا لاغير وفى بعضها خمسة أرؤس وفى بعضها ستة وأقل
وأكثر وهذا مالم يسمع بمثله ولارأيناه فى جميع أعمارنا ولا حكى لنا مثله لان الربيع مظنة رخص
اللحم لان التركمان والاكراد والكيلكان ينتقلون من الامكنة التى شتوا بها الى الزوزان
فيبيعون الغنم رخيصا وكان اللحم كل سنة فى هذا الفصل يكون سعره كل ستة ارطال وسبعة
بقيراط صار فى هذه السنة الرطل بحبتين وفيها عاشر اذار وهو العشرون من ربيع الاول سقط
الثلج مرتين وهذا غريب جدا لم يسمع بمثله فأهلك الازهار التى خرجت كزهر اللوز والمشمش

دون التظلم بوعد دونه
وفراق السراب * ووعيد
عنده فراق الرقاب * حتى
درج عليها قرن بعد قرن
آيسين عن الانتصاف *
وخلف من بعدهم خلف
قانعين من دونه بالكفاف *
فأوحى القاضى اليه بانعام
الاستقصاء على حكم أمانة
القضاء * فقام فيه وقعد *
وأبرق وأرعد * وانتزع مالا
عظيما من تحت أضراسه *
وحذره الافتضاح أن
تعرض لمراسه * وكان
قصاراه ان سكن وسكت *

والاجاص والسفرجل وغيرها ووصلت الاخبار من العراق جميعه بمثل ذلك فهلكت به ازهار الثمار ايضا وهذا أعجب من حال ديار الجزيرة والشام فانه أشد حرا من جميعها وفيها ظفر جمع من التركمان كانوا باطراف أعمال حلب بفارس مشهور من الفرنج الداوية بانطاكية فقتلوه فعلم الداوية بذلك فساروا وكبسوا التركمان فقتلوا منهم وأسروا وغنموا من أموالهم فبلغ الى اتابك شهاب الدين المتولى لامور حلب فراسل الفرنج وتهددهم بقصد بلادهم واتفق ان عسكر حلب قتلوا فارسين كبيرين من الداوية أيضا فاذعنوا بالصلح وردوا الى التركمان كثيرا من أموالهم وحريمهم وأسراهم وفيها فى رجب اجتمع طائفة كثيرة من ديار بكر وارادوا الاغارة على جزيرة ابن عمر وكان صاحب الجزيرة قد قتل فلما قصدوا بلد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلد الجزيرة اسمها اسلكون ولقوهم من ضحوة النهار الى العصر وطال القتال بينهم ثم حمل أهل القرية على الاكراد فهزموهم وقتلوا فيهم ونهبوا اماههم وعادوا سالمين

(ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة)

(ذكر الخلاف بين جلال الدين وأخيه)

فى هذه السنة خاف غياث الدين بن خوارزمشاه وهو أخو جلال الدين من أبيه أخاه وخافه معه جماعة من الامراء واستشعروا منه وأرادوا الخلاص منه فلم يتمكنوا من ذلك الى أن خرجت التتر واشتغل بهم جلال الدين فهرب غياث الدين ومن معه وقصدوا خوزستان وهى من بلاد الخليفة فلم يمكنهم النائب بها من الدخول الى البلد خوفا أن تكون هذه مكيدة فبقى هناك فلما طال عليه الامر فارق خوزستان وقصد بلاد الاسماعيلية فوصل اليهم واحتمى بهم واستجار بهم وكان جلال الدين قد فرغ من أمر التتر وعاد الى تبريز فاتاه الخبر وهو بالميدان يلعب بالكرة ان أخاه قد قصد اصفهان فالقى الجوكان من يده وسار مجدا فسمع ان أخاه قد قصد الاسماعيلية ملتجئا اليهم ولم يقصد اصفهان فعاد الى بلاد الاسماعيلية لينهب بلادهم ان لم يسلموا اليه أخاه وأرسل يطلبه من مقدم الاسماعيلية فاعاد الجواب يقول ان أخاك قد قصدنا وهو سلطان ابن سلطان ولا يجوز لنا أن نسلمه لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكنه أن يقصد شيأ من بلادك ونسألك أن تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلناه ومتى كان منه ما تنكره فى بلادك فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار فأجابهم الى ذلك واستحلفهم على الوفاء بذلك وعاد عنهم وقصد خلاط على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر)

فى هذه السنة عاود التتر الخروج الى الرى وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة اختلف الناس علينا فى عددها كان أكثرها عليه وفى الاخير كان الظفر له وكانت فى أول حرب بينهم عجائب غريبة وكان هؤلاء التتر قد سخط ملكهم جنكزخان على مقدمهم وأبعده عنه وأخرجه من بلاده فقصد خراسان فرآها خرابا فقصد الرى ليتغلب على تلك النواحى والبلاد فلقيه بها جلال الدين فاقتتلوا أشد قتال ثم انهزم جلال الدين وعاود ثم انهزم وقصد اصفهان وأقام بينها وبين الرى وجمع عساكره ومن فى طاعته فكان فيمن أتاه صاحب بلاد فارس وهو ابن اتابك سعد ملك بعد وفاة أبيه كما ذكرناه وعاد جلال الدين الى التتر فلقيهم فبينما هم مصطفون كل

وخشى اسوة أمثاله العنت * وأحضر الرجل طواغيت الشهود * وعفاريت الفسوق والمرود * وعقد بشهدهم على شهاداتهم وثائق بوقفه كل ماله * واطلاقه على وجه الله جميع ما أمسك * يرى بما فعل ان التسمح بما تحت يده من قليل أو كثير * وزهد وعفير * براءعن الطمع فى مال لغيره موقوف * وعرض الى وجه القربات مصروف * فلم يتراخ الامد على هذا العقد الوثيق *

طائفة مقابل الاخرى انفرد غياث الدين أخو جلال الدين فيمن وافقه من الامراء على مفارقة
جلال الدين واعتزلوا وقصدوا جهة ساروا اليها فلما رآهم التتر قد فارقوا العسكر ظنوهم
يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين فانهزم التتر لهذا الظن وتبعهم
صاحب بلاد فارس وأما جلال الدين فانه لما رأى مفارقة أخيه اياه ومن معه من الامراء ظن ان
التتر رجعوا خديعة ليستدرجوه فعاد منهزما ولم يجسر يدخل اصفهان لئلا يحصروه فمضى
الى سميرم وأما صاحب فارس فلما أبعد فى أثر التتر ولم ير جلال الدين ولا عسكره معه خاف التتر
فعاد عنهم وأما التتر فلما لم يروا فى آثارهم أحدا يطلبهم وتقوا انهم عادوا الى اصفهان فلم يجدوا فى
طريقهم من يمنعهم فوصلوا الى اصفهان فحصروها وأهلها يظنون ان جلال الدين قد عدم
فبينما هم كذلك والتتر يحصرونهم اذ وصل قاصد من جلال الدين اليهم يعرفهم سلامته ويقول
انى متحوق أو يجتمع الى من سلم من العسكر واقصدكم ونتفق أنا وأنتم على ازعاج التتر وترحالهم
عنكم فارسلوا اليه يستدعونه اليهم ويعدونه النصرة والخروج معه الى عدوه وفيهم شجاعة
عظيمة فسار اليهم واجتمع بهم وخرج أهل اصفهان معه فقاتلوا التتر فانهزم التتر أقبح هزيمة
وتبعهم جلال الدين الى الرى يقتل ويأسر فلما أبعدوا عن الرى أقام بها وأرسل اليه ابن
جنكزخان يقول ان هؤلاء ليسوا من أصحابنا انما نحن ابعدناهم عنا فلما أمن جانب جنكزخان
امن وعاد الى اذربيجان

ذكر خروج الفرنج الى الشام وعمارة صيدا

وفى هذه السنة خرج كثير من الفرنج من بلادهم التى هى فى الغرب من صقلية وما وراءها من
البلاد الى بلادهم التى بالشام عكا وصور وغيرهما من ساحل الشام فكثر جمعهم وكان قد خرج
قبل هؤلاء جمع آخر أيضا الا انهم لم تمكنهم الحركة والشروع فى امر الحرب لاجل ان ملكهم
الذى هو المقدم عليهم هو ملك الالمان ولقبه انبرور قيل معناه ملك الامراء ولان المعظم كان
حيا وكان شهما شجاعا مقداما فلما توفى المعظم كما ذكرناه وولى بعده ابنه وملك دمشق طمع
الفرنج وظهروا من عكا وصور وبيروت الى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين
وسورها خراب فعمروها واستولوا عليها وازالوا عنها حكم المسلمين وانما تم لهم ذلك بسبب
تخريب الحصون القريبة منها تبنين وهونين وغيرهما وقد تقدم ذكر ذلك قبل مستقصى
فعظمت شوكة الفرنج وقوى طمعهم واستولى فى طريقه على جزيرة قبرس وملكها وسار منها
الى عكا فارتاع المسلمون لذلك والله تعالى يخذله وينصر المسلمين بمحمد وآله ثم ان ملكهم
انبرور وصل الى الشام

ذكر ملك كيقباذ ارزنكان

وفى هذه السنة ملك علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان وهو صاحب قونية واقصرا
وملطية وغيرها من بلاد الروم ارزنكان وسبب ملكه اياها ان صاحبها بهرام شاه وكان قد طال
ملكه لها وجاوز ستين سنة توفى ولم يزل فى طاعة قلج ارسلان واولاده بعده فلما توفى ملك بعده ولده
علاء الدين داود شاه فارسل اليه كيقباذ يطلب منه عسكرا ليسير معه الى مدينة ارزن الروم
ليحصرها ويكون هو مع العسكر ففعل ذلك وسار فى عسكره اليه فلما وصل قبض عليه واخذ

والخذلان المشبه بالتوفيق *
حتى قال لى وهو يشكو
الوزير شمس الكفاة *
وسماعه اباطيل السعاة
* ماهو الا ان احل عقود
املاكى هذه على طفرة
الى العراق سالياعن
خراسان واهلها وقاليا
قرارة البلاد * ومباءة
الطارف والتلاد * منها
فقلت انا لله وانا اليه
راجعون من شيخ هذه
تقيته * ومالفظ به على وجه

مدينة ارزنكان منه وله حصن من امنع الحصون اسمه كماخ وفيه مستحفظ لداود شاه فأرسل اليه ملك الروم يحصره فلم يقدر العسكر على القرب منه لعلوه وارتفاعه وامتناعه فتهدد داود شاه ان لم يسلم كماخ فأرسل الى نائبه في التسليم فسلم القلعة الى كيقباذ واراد كيقباذ المسير الى ارزن الروم ليأخذها من صاحبها ابن عمه طغرل شاه بن قلج ارسلان فلما سمع صاحبها بذلك ارسل الى الامير حسام الدين علي النائب عن الملك الاشرف بخلاط يستنجده واظهر طاعة الاشرف فسار حسام الدين فيمن عنده من العساكر وكان قد جمعها من الشام وديار الجزيرة خوفا من ملك الروم خافوا انه اذا ملك ارزن الروم يتعدى أو يقصد خلاط فسار الحاجب حسام الدين الى ارزن الروم ومنع عنها ولما سمع كيقباذ بوصول العساكر اليها لم يقدم على قصدها فسار من ارزنكان الى بلاده وكان قد اتاه الخبر ان الروم الكفار المجاورين لبلاده قد ملكوا منه حصنا يسمى صنوب وهو من احصن القلاع مطل على البحر بحر الخزر فلما وصل الى بلاده سير العسكر اليه وحصره برا وبحرا فاستعاده من الروم وسار الى انطاكية ليشتي بها على عادته

ذكر خروج الملك الكامل

في هذه السنة في شوال سار الملك الكامل محمد ابن الملك العادل صاحب مصر الى الشام فوصل الى البيت المقدس حرسه الله تعالى وجعله دار الاسلام أبدا ثم سار عنه وولي بمدينة نابلس وشحن على تلك البلاد جميعها وكانت من أعمال دمشق وهو الى الملك المعظم فخاف أن يقصده ويأخذ دمشق منه فارسل الى عمه الملك الاشرف يستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريدة فدخل دمشق فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد منيع وقد صار به من يمنعه ويحميه وارسل اليه الملك الاشرف يستعطفه ويعرفه انه ما جاء الى دمشق الا طاعة له وموافقة لاغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد فاعاد الكامل الجواب يقول انني ما جئت الى هذه البلاد الا بسبب الفرنج فانهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الاعصار وممر الايام فان أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم انهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدون الى غيره وحيث قد حضرت أنت فانا اعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذي يقال عني اني قاتلت أخي أو حصرته حاشى الله تعالى وتأخر عن نابلس نحو الديار المصرية ونزل تل العجول فخاف الاشرف والناس قاطبة بالشام وعلموا انه ان عاد استولى الفرنج على البيت المقدس وغيره مما يجاوره لا مانع دونه فترددت الرسل وسار الاشرف بنفسه الى الكامل أخيه فحضر عنده وكان وصوله ليلة عيد الاضحية ومنعه من العود الى مصر فاقاما بمكانهما

ذكر نهب جلال الدين بلاد ارمينية

في هذه السنة وصل جلال الدين خوارزمشاه الى بلاد خلاط وتعدى خلاط الى صحراء موش وجبل جور ونهب الجميع وسبى الحريم واسترق الاولاد وقتل الرجال وخرب القرى وعاد الى

بلاده

الاستقلال وغيظ العجز عن املاك الرجال بقيته * هذا ومن فضل سماحته * وسماحة فيض راحته * أن كل من ساكنه في حلته * أو مال على عمل يليه * أومال يجبيه * كاله ماشا جزافا * ووزنه تبذيرا واسرافا * استخفافا بشهاداتهم له بجوده * وتخرقه حذو الكرام بوجوده * حتى اذا قضى الوطر منهم * وملك بسطة الاستغناء عنهم * تتبع عليهم صبابات

بلاده ولما وصل الخبر الى البلاد الجزرية حران وسروج وغيرهما انه قد جاز خلاط الى جور
وانه قد قرب منهم خاف أهل البلاد أن يجيء اليهم لان الزمان كان شتاء وظنوا انه يقصد
الجزيرة ليشتى بها لان البرد بها ليس بالشديد وعزموا على الانتقال من بلادهم الى الشام ووصل
بعض أهل سروج الى منبج من أرض الشام فاتاهم الخبر انه قد نهب البلاد وعاد فاقاموا وكان
سبب عوده ان الثلج سقط ببلاد خلاط كثيرا لم يعهد مثله فاسرع العود

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة رخصت الاسعار بديار الجزيرة جميعها وجاءت الغلات التي اهم من الحنطة
والشعير جيدا الا ان الرخص لم يبلغ الاول الذي كان قبل الغلاء انما صارت الحنطة كل خمس
مكاكيك بدينار والشعير كل سبعة عشر مكوكا بالموصلي بدينار

(ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة)

(ذكر تسليم البيت المقدس الى الفرنج)

في هذه السنة اول ربيع الآخر تسلم الفرنج لعنهم الله البيت المقدس صلحا أعاده الله الى
الاسلام سريعا وسبب ذلك ما ذكرناه سنة خمس وعشرين وستمائة من خروج الانبرور ملك
الفرنج من بلاد الفرنج داخل البحر الى ساحل الشام وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل
وأفسدوا من يجاورهم من بلاد المسلمين ومضى اليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون
الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم وقوى طمع الفرنج بموت الملك المعظم
عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق ولما وصل الانبرور الى الساحل نزل
بمدينة عكا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة
اخيه المعظم وهو نازل بتل العجول يريد أن يملك دمشق من صلاح الدين داود بن المعظم وهو
صاحبها يومئذ وكان داود لما سمع بقصد عمه الملك الكامل له قد أرسل الى عمه الملك الاشرف
صاحب البلاد الجزرية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه عنه فسار الى دمشق
وترددت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل في الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الاشرف الى
الملك الكامل واجتمع به فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الانبرور ملك الفرنج دفعات
كثيرة فاستقرت القاعدة على أن يسلموا اليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده
ويكون باقي البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين ولا يسلم الى
الفرنج الا البيت المقدس والمواضع التي استقرت معه وكان سور البيت المقدس خرابا قد
خربه الملك المعظم وقد ذكرنا ذلك وتسلم الفرنج البيت المقدس واستعظم المسلمون ذلك
واكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه يسر الله فتحه وعوده الى المسلمين
بمنه وكرمه آمين

(ذكر ملك الملك الاشرف مدينة دمشق)

وفي هذه السنة يوم الاثنين ثاني شعبان ملك الملك الاشرف بن الملك العادل مدينة دمشق من
ابن أخيه صلاح الدين داود بن المعظم وسبب ذلك ما ذكرناه ان صاحب دمشق لما خاف من عمه
الملك الكامل أرسل الى عمه الاشرف يستنجده ويستعين به على دفع الكامل فسار اليه من

القدور * وخلالات
الثغور * وقامات
الاطراف * وصواحات
الاصواف * وجعل المطعوم
في زنة الذهب المصون *
والمشروب في قيمة الجوهر
المخزون * والدرهم الواحد
قنطارا * وحديثا في دواوين
الشرق مطارا * سحابة من
خست أرومته * ورست
على دمنة اللوم جرثومته *
فصدر عنه العامل *
والمجاور والآمل * مغبونا
مدة مقامه موضوعا *
وشرابه في طعامه مفجوعا *

البلاد الجزرية ودخل دمشق وفرح به صاحبها وأهل البلد وكانوا قد احتاطوا وهم يتجهزون
للحصار فأمر بازالة ذلك وترك ما عزموا عليه من الاحتياط وحلف لصاحبها على المساعدة
والحفظ له ولبلاده عليه وراسل الملك الكامل واصطلحا وظن صاحب دمشق انه معهما في
الصلح وسار الاشرف الى أخيه الكامل واجتمعا في ذي الحجة من سنة خمس وعشرين يوم العيد
وسار صاحب دمشق الى بيسان وأقام بها وعاد الملك الاشرف من عند أخيه واجتمع هو
وصاحب دمشق ولم يكن الاشرف في كثرة من العسكر فبينما هما جالسان في خيمة لهما واذ قد
دخل عز الدين ايبك مملوك المعظم الذى كان صاحب دمشق وهو اكبر أمير مع ولده فقال
لصاحبه داود قم اخرج والا قبضت الساعة فأخرجه ولم يمكن الاشرف منعه لان ايبك كان
قد اركب العسكر الذى له جميعه وكانوا اكثر من الذين مع الاشرف فخرج داود وسار هو
وعسكره الى دمشق وكان سبب ذلك ان ايبك قيل له ان الاشرف يريد القبض على صاحبه
وأخذ دمشق منه ففعل ذلك فلما عادوا وصلت العساكر من الكامل الى الاشرف وسار فنازل
دمشق وحصرها وأقام محاصرا لها الى أن وصل اليه الملك الكامل فحينئذ اشتد الحصار
وعظم الخطب على أهل البلد وبلغت القلوب الحناجر وكان من أشد الامور على صاحبها ان
المال عنده قليل لان أمواله بالكرك ولو قوه بعمه الاشرف لم يحضر منها شيأ فاحتاج الى أن
باع حلى نسائه وملبوسهم وضاقت الامور عليه فخرج الى عمه الكامل وبذل له تسليم دمشق
على أن يبقى عليه الكرك وقلعة الشوبك والغور ونابلس وتلك الاعمال وان يبقى على ايبك
قلعة صرخد وأعمالها وتسلم الكامل دمشق وجعل نائبه بالقلعة الى أن سلم اليه أخوه الاشرف
حران والرها والرقة وسروج ورأس العين من الجزيرة فلما تسلم ذلك سلم قلعة دمشق الى أخيه
الاشرف فدخلها وأقام بها وسار الكامل الى الديار الجزرية فأقام بها الى أن استدعى أخاه
الاشرف بسبب حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط فلما حضر عنده بالرقة عاد
الكامل الى ديار مصر وأما الاشرف فكان منه ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر القبض على الحاجب علي وقتله﴾

وفي هذه السنة أرسل الملك الاشرف مملوكه عز الدين ايبك وهو أمير كبير في دولته الى مدينة
خلاط وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين علي بن حماد وهو المتولي لبلاد خلاط والحاكم
فيها من قبل الاشرف ولم نعلم شيأ أوجب القبض عليه لانه كان مشفقا عليه ناصحا له حافظا
لبلاده حسن السيرة مع الرعية ولقد وقف هذه المدة الطويلة في وجه خوارزمشاه جلال
الدين وحفظ خلاط حفظا يعجز غيره عنه وكان مهتما بحفظ بلاده وذابا عنها وقد تقدم من ذكر
قصده بلاد جلال الدين والاستيلاء على بعضها ما يدل على همة عالية وشجاعة تامة وصار
لصاحبه به منزلة عظيمة فان الناس يقولون بعض غلمان الملك الاشرف يقاوم خوارزمشاه
وكان رحمه الله كثير الخير والاحسان لا يمكن أحدا من ظلم وعمل كثيرا من أعمال البر من
الخانات في الطرق والمساجد في البلاد وبنى بخلاط بيمارستانا وجامعا وعمل كثيرا من الطرق
وأصلحها كان يشق سلوكها فلما وصل ايبك الى خلاط قبض عليه ثم قتله غيلة لانه كان عدوه
ولما قتل ظهر أثر كفايته فان جلال الدين حصر خلاط بعد قبضه وملكها على ما نذكره ان شاء

الله

بما اقتنا مغابر أيامه * مخدوعا
عن شهادة ختمت صحيفة
آثامه * قد خف فرجيه
بكتائبه * يباري في عدوه
السليك * وينادي لبيك
اللهم لبيك * وليست هذه
من آثاره * بأعجب من كون
أخباره * وسدول الاستار
دون اسراره * وقصوريد
الانتقام من معقد أزراره *
غير ان لكل شئ أمدا *
ويأبى الله أن يفلح الظالم

الله ولم يمهل الله ايبك بل انتقم منه سريعا فان جلال الدين أخذ ايبك أسيرا لما ملك خلاط مع
غيره من الامراء فلما اصطلح الاشرف وجلال الدين اطلق الجميع وذكر ان ايبك قتل وكان سبب
قتله ان مملوكا للحاجب على كان قد هرب الى جلال الدين فلما أسر ايبك طلبه ذلك المملوك من
جلال الدين ليقتله بصاحبه الحاجب على فسلمه اليه فقتله وبلغنى ان الملك الاشرف رأى فى
المنام كأن الحاجب عليا قد دخل الى مجلس فيه ايبك فاخذ منديلا وجعله فى رقبة ايبك
وأخذه وخرج فأصبح الملك الاشرف وقال قد مات ايبك فانى رأيت فى المنام كذا وكذا

(ذكر ملك الكامل مدينة حماة)

وفى هذه السنة أواخر شهر رمضان ملك الملك الكامل مدينة حماة وسبب ذلك ان الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر وهو صاحب حماة توفى على ما ذكره ولما حضرته الوفاة حلف الجند واكابر البلد لولده الاكبر ويلقب بالملك المظفر وكان قد سيره أبوه الى الملك الكامل صاحب مصر لانه كان قد تزوج بابنته وكان لمحمد ولد آخر اسمه قلج ارسلان ولقبه صلاح الدين وهو بدمشق فحضر الى مدينة حماة فسلمت اليه واستولى على المدينة وعلى قلعتها فارسل الملك الكامل يأمره أن يسلم البلد الى أخيه الاكبر فان أباه اوصى له به فلم يفعل وترددت الرسل فى ذلك الى الملك المعظم صاحب دمشق فلم تقع الاجابة فلما توفى المعظم وخرج الكامل الى الشام وملك دمشق سير جيشا الى حماة فحصرها ثالث شهر رمضان وكان المقدم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه صاحب حمص وأمير كبير من عسكره يقال له فخر الدين عثمان ومعهما ولد محمد تقى الدين الذى كان عند الكامل فبقى الحصار على البلد عدة أيام وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق ونزل على سلمية يريد العبور الى البلاد الجزرية حران وغيرها فلما نازلها قصده صاحب حماة صلاح الدين ونزل اليه من قلعته ولم يكن لذلك سبب الا أمر الله تعالى فان صلاح الدين قال لاصحابه أريد النزول الى الملك الكامل فقالوا له ليس بالشام أحصن من قلعتك وقد جمعت من الذخائر مالا حد له فلأى شئ تنزل اليه ليس هذا برأى فأصر على النزول وأصروا على منعه فقال فى آخر الامر اتركونى انزل والا ألقيت نفسى من القلعة فحينئذ سكتوا عنه فنزل فى نفر يسير ووصل الى الكامل فاعتقله الى أن سلم مدينة حماة وقلعتها الى أخيه الاكبر الملك المظفر وبقى بيده قلعة بارين حسب فانها كانت له وكان هو كالباحث بظلفه على حتفه

(ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها)

وفى هذه السنة أوائل شوال حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط وهى للملك الاشرف وبها عسكره فامتنعوا بها وأعانهم اهل البلد خوفا من جلال الدين لسوء سيرته واسرفوا فى الشتم والسفه فاخذه اللجاج معهم وأقام عليهم جميع الشتاء محاصرا وفرق كثيرا من عساكره فى القرى والبلاد القريبة من شدة البرد وكثرة الثلج فان خلاط من اشد البلاد بردا واكثرها ثلجا وأبان جلال الدين عن عزم قوى وصبر تحار العقول منه ونصب عليها عدة منجنيقات ولم يزل يرميها بالحجارة حتى خرب بعض سورها فاعاد أهل البلد عمارته ولم يزل مصابرهم وملازمهم الى أواخر جمادى الاولى من سنة سبع وعشرين فزحف اليها زحفا متتابعا وملكها عنوة وقهرا يوم الاحد الثامن والعشرين من جمادى الاولى سلمها اليه بعض الامرا

ابدا * الا ان المال يغزر الماء * ويحقن الدماء * ويجمع الاهواء * ويدفع القضاء * ويستر العوار والعوراء * واقد بالغ أبو الفتح البستى حيث يقول

اشفق على الدرهم والعين
تسلم من العينة والدين
فقوة العين بانسانها
وقوة الانسان بالعين

غير ان المال متى سلب الجمال * وأورث القيل والقال * فهو وبال * ولا الدين مطلوبا * والذنب مكتوبا * والانف مجدوعا * والبنان مقطوعا * فقبح الله الاعراض * متى تدنست الاعراض * والاموال * متى لطخت السربال * والاملاك * متى أعرت الاوراك * والمراتب * متى أبدت المعائب * فأما صوائده ومطامعه فخذوها من الحكم باسنانا كما انفقت الاصابع * والتقت الكعوب الفوارع * انه يغدو مع صفير العصافير

غدرا فلما ملك البلد صعد من فيه من الامراء الى القلعة التى لها وامتنعوا بها وهو منازلهم
ووضع السيف فى اهل البلد وقتل من وجد به منهم وكانوا قد قلوا فان بعضهم فارقوه خوفا
وبعضهم خرج منه من شدة الجوع وبعضهم مات من القلة وعدم القوت فان الناس فى خلاط
اكلوا الغنم ثم البقر ثم الجواميس ثم الخيل ثم الحمير ثم البغال والكلاب والسنانير وسمعنا
انهم كانوا يصطادون الفار ويأكلونه وصبروا صبرا لم يلحقهم فيه أحد ولم يملك من بلاد خلاط
غيرها وماسواها من البلاد لم يكونوا ملكوه وخربوا خلاط واكثروا القتل فيها ومن سلم هرب
فى البلاد وسبوا الحريم واسترقوا الاولاد وباعوا الجميع فتمزقوا كل ممزق وتفرقوا فى البلاد
ونهبوا الاموال وجرى على أهلها مالم يسمع بمثله لاجرم لم يمهله الله تعالى وجرى عليه من الهزيمة
بين المسلمين والتتر مانذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

فى أواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارين بالشام ونهبوا بلاده وأعماله واسروا وسبوا ومن
جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين فى ولاية بارين فاخذوا الجميع ولم يسلم منهم
الا النادر الشاذ والله أعلم

(ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة)

(ذكر انهزام جلال الدين من كيقباذ والاشرف)

فى هذه السنة يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان انهزم جلال الدين خوارزمشاه من
علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم قونية واقصرا وسيواس
وملطية وغيرها ومن الملك الاشرف صاحب دمشق وديار الجزيرة وخلاط وسبب ذلك ان جلال
الدين كان قد أطاعه صاحب أرزن الروم وهو ابن عم علاء الدين ملك الروم وبينه وبين علاء
الدين عداوة مستحكمة وحضر صاحب ارزن الروم عند جلال الدين على خلاط وأعانه على
حصرها فخافهما علاء الدين فارسل الى الملك الكامل وهو حينئذ بحران يطلب منه أن يحضر
أخاه الاشرف من دمشق فانه كان مقيما بها بعد ان ملكها وتابع علاء الدين الرسل بذلك خوفا
من جلال الدين فاحضر الملك الكامل اخاه الاشرف من دمشق فحضر عنده ورسل علاء الدين
اليه متتابعة بحث الاشرف على المجيء اليه والاجتماع به حتى قيل انه فى يوم واحد وصل الى
الكامل والاشرف من علاء الدين خمسة رسل ويطلب مع الجميع وصول الاشرف اليه
ولو وحده فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار الى علاء الدين فاجتمعا بسيواس وسارا نحو خلاط
فسمع جلال الدين بهما فسار اليهما مجدا فى السير فوصل اليهما بمكان يعرف بياسي حمار (٣)
وهو من أعمال ارزنجان فالتقوا هناك وكان مع علاء الدين خلق كثير قيل كانوا عشرين ألف
فارس وكان مع الاشرف نحو خمسة آلاف الا انهم من العساكر الجيدة الشجعان لهم السلاح
الكثير والدواب الفارهة من العربيات وكل منهم قد جرب الحرب وكان المقدم عليهم أمير من
أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر بن علي وهو من الاكراد الهكارية ومن الشجاعة فى
الدرجة العليا وله الاوصاف الجميلة والاخلاق الكريمة فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى
من كثرة العساكر لاسيما لما رأى عسكر الشام فانه شاهد من تجملهم وسلاحهم ودوابهم ماملأ

على أطعمة يرتوعليها احشاه
كما حشي الدقيق جرابا *
واثقل الرصاص كعابا * فما
هو الآن يذروروس الشمس
على صلايات الجدران *
حتى كان اولاد البقر تلحس
فؤاده * وكأن الظليم يدعى
فيه ميلاده * فيغتدى
بالفول سنة وعاده * وبما
يجانسه من عمل السوق
شهوة وارادة * حتى اذا
طفح كالدلو لمتح كف *
وقبض الكف على قرم
لا يطير داجنه * ولا تثنى
دون الجذب محاجنه * فاذا
انتصف النهار وكاد *
والتحف الحرباء الالحاد *
عاد بطعام اليوم وهو
المتكلف * ومايقيم رسمه
التصلف * فاحتشى من
كل حلو وحامض * وامتلأ
من كل بكر وفارض *
حتى يخشى عليه فى
الصفاق * من الانشقاق *
وفى العروق * من
البثوق * فيظل باقى النهار

صدره رعبا فانشب عز الدين بن علي القتال ومعه عسكر حلب فلم يقم لهم جلال الدين ولا صبر ومضى منهزما هو وعسكره لا يلوي الاخ على أخيه وتفرقت اصحابه وتمزقوا كل ممزق وعاد الى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم وعادوا الى اذربيجان فنزلوا عند مدينة خوى ولم يكونوا قد استولوا على شئ من اعمال خلاط سوى خلاط ووصل الملك الاشرف الى خلاط فرآها خاوية على عروشها خالية من الاهل والسكان قد جرى عليهم ماذكرناه قبل

(ذكر ملك علاء الدين ارزن الروم)

قد ذكرنا ان صاحب ارزن الروم كان مع جلال الدين على خلاط ولم يزل معه وشهد معه المصاف المذكور فلما انهزم جلال الدين أخذ صاحب ارزن الروم أسيرا فاحضر عند علاء الدين كيقباذ ابن عمه فاخذه وقصد ارزن الروم فسلمها صاحبها اليه هي وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها فكان كما قيل خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين وهكذا هذا المسكين جاء الى جلال الدين يطلب الزيادة فوعده بشئ من بلاد علاء الدين فأخذ ماله وما بيديه من البلاد وبقي أسيرا فسبحان من لا يزول ملكه

(ذكر الصلح بين الاشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين)

لما عاد الاشرف الى خلاط ومضى جلال الدين منهزما الى خوى ترددت الرسل بينهما فاصطلحوا كل منهم على ما بيده واستقرت القواعد على ذلك وتحالفوا فلما استقر الصلح وجرت الايمان عاد الاشرف الى سنجار وسار منها الى دمشق فاقام جلال الدين ببلاده من اذربيجان الى أن خرج عليه التتر على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك شهاب الدين غازي مدينة ارزن)

كان حسام الدين صاحب مدينة ارزن من ديار بكر لم يزل مصاحبا للملك الاشرف مناصحا له مشاهدا جميع حروبه وحوادثه وينفق أمواله في طاعته ويبذل نفسه وعساكره في مساعدته فهو يعادي أعداءه ويوالي أولياءه ومن جملة موافقته انه كان في خلاط لما حصرها جلال الدين ولقي من الشدة والخوف ما لقيه بها وصبر الى أن ملكها جلال الدين فأسره جلال الدين وأراد ان يأخذ منه مدينة ارزن فقيل له ان هذا من بيت قديم عريق في الملك وانه ورث هذه ارزن من اسلافه وكان لهم سواها من البلاد فخرج الجميع من أيديهم فعطف عليه ورق له وأبقى عليه مدينته وأخذ عليه العهود والمواثيق انه لا يقاتله فعاد الى بلده وأقام به فلما جاء الملك الاشرف وعلاء الدين محاربين لجلال الدين سار شهاب الدين غازي بن الملك العادل وهو أخو الاشرف وله مدينة ميافارقين ومدينة حاني وهو بمدينة ارزن فحصرها ثم ملكها صلحا وعوضه عنها بمدينة حاني من ديار بكر وحسام الدين هذا نعم الرجل حسن السيرة كريم جواد لا يخلو بابه من جماعة يردون اليه يستمنحونه وسيرته جميلة في ولايته ورعيته وهو من بيت قديم يقال لهم بيت طغان ارسلان كان لهم مع ارزن بدليس ووسطان وغيرهما ويقال لهم بيت الاحدب وهذه البلاد معهم من أيام ملكشاه بن ألب ارسلان السلجوقي فاخذ بكتمر صاحب خلاط منهم بدليس أخذها من عم حسام الدين هذا لانه كان موافقا لصلاح الدين يوسف بن أيوب فقصده بكتمر لذلك وبقيت ارزن بيد هذا الى الآن فاخذت منه ولكل اول آخر فسبحان

يشكو بي معاويه * وخلاء خاليه خاويه * حتى اذا جنحت الشمس للاصيل * وهم الطفل على الليل بالتطفيل * أعيد عليه الطبائخ والغروف * وحشر اليه القراطف والقروف * ثم يؤتى لمبيته بلفائف كالاضابير مطويه * والطوامير مختومة مسحيه * وربما تعار بعض ساعات الليل فينادي بالجوع * ويلاقي الطهاة بالقنوع * فيجاش عليه بجالة الوقت من مستودعات البواتيق * ومطجنات الطيور والغرانيق * فيتهجد عليها من غير قيام * ويتسحر منها بغير صيام * طعاما لا يشركه فيه غير الملائكة حاضرة * والكواكب من محاجر الظلماء ناظرة * فما الارض وهي الغاية * في الالتقام والالتهام * ولا الدعص وهو النهاية * في الاشتفاف والارتشاف * بأبلع منه

من لا اول له ولا آخر لبقائه

(ذكر ملك صونج قشيالوا قلعة رويندز)

وفي هذه السنة ظهر أمير من امراء التركمان اسمه صونج ولقبه شمس الدين واسم قبيلته قشيالوا وقوى أمره وقطع الطريق وكثر جمعه وكان بين اربل وهمذان وهو ومن معه يقطعون الطريق ويفسدون في الارض ثم انه تعدى الى قلعة منيعة اسمها سارو وهي لمظفر الدين وقتل عندها أميرا كبيرا من أمراء مظفر الدين يعرف بعز الدين الحميدي فجمع مظفر الدين واراد استعادتها منه فلم يمكنه لحصانتها ولكثرة الجموع مع هذا الرجل فاصطلحا على ترك القلعة بيده وكان عسكر لجلال الدين خوارزمشاه يحصرون قلعة رويندز وهي من قلاع اذربيجان من أحصن القلاع وأمنعها لا يوجد مثلها وقد طال الحصار على من بها فاذعنوا بالتسليم فارسل جلال الدين بعض خواص أصحابه وثقاته ليتسلمها وأرسل معه الخلع والمال لمن بها فلما صعد ذلك القاصد الى القلعة وتسلمها أعطى بعض من بالقلعة ولم يعط البعض واستذلهم وطمع فيهم حيث استولى على الحصن فلما رأى من لم يأخذ شيئا من الخلع والمال ما فعل بهم أرسلوا الى صونج يطلبونه ليسلموا اليه القلعة فسار اليهم في أصحابه فسلموها اليه فسبحان من اذا أراد أمرا سهله هذه قلعة رويندز لم تزل تتقاصر عنها قدرة اكابر الملوك وعظمائهم من قديم الزمان وحديثه وتضرب الامثال بحصانتها لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يملكها هذا الرجل الضعيف سهل له الامر فملكها بغير قتال ولا تعب وازال عنها أصحاب مثل جلال الدين الذي كل ملوك الارض تهابه وتخافه وكان اصحاب جلال الدين كما قيل رب ساع لقاعد فلما ملكها صونج طمع في غيرها لا سيما مع اشتغال جلال الدين بما أصابه من الهزيمة ومجيء التتر فنزل من القلعة الى مراغة وهي قريب منها فحصرها فاتاه سهم غرب فقتله فلما قتل ملك رويندز اخوه ثم ان هذا الاخ الثاني نزل من القلعة وقصد أعمال تبريز ونهبها وعاد الى القلعة ليجعل فيها من ذلك النهب والغنيمة ذخيرة خوفا من التتر وكانوا قد خرجوا فصادفه طائفة من التتر فقتلوه وأخذوا ما معه من النهب ولما قتل ملك القلعة ابن أخت له وكان هذا جميعه في مدة سنتين فاف لدنيا لا تزال تتبع فرحة بترحة وكل حسنة بسيئة

(ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة)

(ذكر خروج التتر الى اذربيجان وما كان منهم)

في اول هذه السنة وصل التتر من بلاد ما وراء النهر الى اذربيجان وقد ذكرنا قبل كيف ملكوا ما وراء النهر وما صنعوه بخراسان وغيرها من البلاد من النهب والتخريب والقتل واستقر ملكهم بما وراء النهر وعادت بلاد ما وراء النهر انعمرت وعمروا مدينة تقارب مدينة خوارزم عظيمة وبقيت مدن خراسان خرابا لا يجسر أحد من المسلمين يسكنها واما التتر فكانوا تغير كل قليل طائفة منهم ينهبون ما يرونه بها فالبلاد خاوية على عروشها فلم يزالوا كذلك الى أن ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين فكان بينهم وبين جلال الدين ما ذكرناه وبقوا كذلك فلما كان الآن وانهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباذ ومن الاشرف كما ذكرناه سنة سبع وعشرين ارسل مقدم الاسماعيلية الملاحدة الى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه

ويحثهم

لولا فناء زاده ولا بأجرع لولا قضاء نفاده * ومن نادر أمره في المعاقرة انه يكتب ضمنا في التنقل من الصبوح الى الغبوق * والتردد بين الفجور والفسوق * فان نشط لتنزه تبوأ مقاعد الاكاف * كأنه تعود مقاعد الاحقاف * فيهادى بين اثنين حرضا في جلدة شيطان * وجيفة في صورة أفعوان * قد نجم بينهما انتوخ الفحل للرمال * بل ضبيع الداهيتين بالفصال * وربما بقي في التمارض سنة أو اكثر شفقا من تكلف الخدمة * لولي النعمة * وتجشم المسير * الى باب الوزير * فيرشو على التعليل مالا * ويعلو وجوه الاطباء * وأصحاب الانباء * فرها خفافا وبدرا ثقالا * وليس هذا الاحتيال بأغرب منا كتمانه الزمانة على امتناع الطباع وشموس النفوس دون الاصغاء اليها * فضلا عن القرار عليها *

ويحثهم على قصده عقيب الضعف ويضمن لهم الظفر به للوهن الذى صاروا اليه وكان جلال الدين سيئ السيرة قبيح التدبير لملكه لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له الا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته فمن ذلك انه أول ما ظهر فى اصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان فحصر مدينة ششتر وهى للخليفة فحصرها وسار الى دقوقا فنهبها وقتل فيها فأكثر وهى للخليفة ايضا ثم ملك اذربيجان وهى لاوزبك فملكها وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم ثم عادى الملك الاشرف صاحب خلاط ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم وعادى الاسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة وكذلك غيرهم فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده فلما وصلت كتب مقدم الاسماعيلية الى التتر يستدعيهم الى قصد جلال الدين بادر طائفة منهم فدخلوا بلاده واستولوا على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد ثم قصدوا اذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم ولا يقدر على منعهم عن البلاد قد ملئ رعبا وخوفا وانضاف الى ذلك ان عسكره اختلفوا عليه وخرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر وكان السبب أمرا غريبا أظهر من قلة عقل جلال الدين ما لم يسمع بمثله وذلك انه كان له خادم خصى وكان جلال الدين يهواه واسمه قلج فاتفق ان الخادم مات فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله ولا لمجنون ليلى وأمر الجند والامراء أن يمشوا فى جنازته رجالة وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فمشى الناس رجالة ومشى بعض الطريق راجلا فألزمه امراؤه ووزيره بالركوب فلما وصل الى تبريز أرسل الى اهل البلد فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقى تابوت الخادم ففعلوا فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا ولم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم امراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصى وانما كان يستصحبه معه أين سار وهو يلطم ويبكى فامتنع من الاكل والشرب وكان اذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا الى قلج ولا يتجاسر أحد يقول انه مات فانه قيل له مرة انه مات فقتل القائل لذلك انما كانوا يحملون اليه الطعام ويعودون يقولون انه يقبل الارض ويقول اننى الآن أصلح مما كنت فلحق أمراءه من الغيظ والانفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره فبقى حيران لا يدرى ما يصنع لاسيما لما خرج التتر فحينئذ دفن الغلام الخصى وراسل الوزير واستماله وخدعه الى أن حضر عنده فلما وصل اليه بقى أياما وقتله جلال الدين وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها

(ذكر ملك التتر مراغة)

وفى هذه السنة حصر التتر مراغة من اذربيجان فامتنع اهلها ثم أذعن اهلها بالتسليم على امان طلبوه فبذلوا لهم الامان وتسلموا البلد وقتلوا فيه الا انهم لم يكثروا القتل وجعلوا فى البلد شحنة وعظم حينئذ شان التتر واشتد خوف الناس منهم باذربيجان فالله تعالى ينصر الاسلام والمسلمين نصرا من عنده فما نرى فى ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو وقال الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

(ذكر وصول جلال الدين الى آمد وانهزامه عندها وما كان منه)

فسبحان من خلق النفوس أطوارا * وجعل من الهمم انجادا وأغوارا * هذه من اعيان مساوى هذا الفاضل * العاطل * ولو سردت أمثالها لطال الكلام * وعال الابرام * ووراءها من دقائق الظلم المذموم * والدغل المكتوم * وثقل الحيزوم * والذل المبلول بلعاب اللوم ما يربى على دقائق الابراج * وأجزاء جواهر الامشاج * والصغائر على الاصرار كبائر * كما زغب الشعور على الايام غدائر * ولقد أحسن ابن المعتز حيث يقول

خل الذنوب صغيرها
وكبيرها فهو التقى
لا تحقرن صغيرة
ان الجبال من الحصى

ومما اقتضى التنبيه على معاير المذكور ومعاييه * والفلى عن شمط عقائصه وذوائبه * مقابلته صنائع

لما رأى جلال الدين ما يفعله التتر في بلاد اذربيجان وانهم مقيمون بها يقتلون وينهبون ويخربون السواد ويجبون الاموال وهم عازمون على قصده ورأى ماهو عليه من الوهن والضعف فارق اذربيجان الى بلاد خلاط وأرسل الى النائب بها عن الملك الاشرف يقول له ماجئنا للحرب ولا للاذى انما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم وكان عازما على أن يقصد ديار بكر والجزيرة ويقصد باب الخليفة يستنجده وجميع الملوك على التتر ويطلب منهم المساعدة على دفعهم ويحذرهم عاقبة اهمالهم فوصل الى خلاط فبلغه ان التتر يطلبونه وهم مجدون في أثره فسار الى آمد وجعل اليزك في عدة مواضع خوفا من البيات فجاءت طائفة من التتر يقصدون أثره فوصلوا اليه على غير الطريق الذي فيه اليزك فاوقعوا به ليلا وهو بظاهر مدينة آمد فمضى منهزما على وجهه وتفرق من معه من العسكر في كل وجه فقصد طائفة من عسكره حران فأوقع بهم الامير صواب مقدم الملك الكامل بحران ومعه العسكر فأخذوا ما معهم من مال وسلاح ودواب وقصد طائفة منهم نصيبين والموصل وسنجار واربل وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردي والبدوي وغيرهم وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم وقبيح فعلهم في خلاط وغيرها وبما سعوا في الارض فسادا والله لا يحب المفسدين فازداد جلال الدين ضعفا الى ضعفه ووهنا الى وهنه بمن تفرق من عسكره وبما جرى عليهم فلما فعل التتر بهم ذلك ومضى منهزما منهم دخلوا ديار بكر في طلبه لانهم لم يعلموا أين قصد ولا اي طريق سلك فسبحان من بدل أمنهم خوفا وعزهم ذلا وكثرتهم قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء

* (ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في البلاد من الفساد) *

لما انهزم جلال الدين من التتر على آمد نهب التتر سواد آمد وارزن وميافارقين وقصدوا مدينة أسعرد فقاتلهم اهلها فبذل لهم التتر الامان فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم فلم يسلم منهم الا من اختفى وقليل ماهم (حكى) لي بعض التجار وكان قد وصل آمد انهم حزروا القتلى مايزيد على خمسة عشر ألف قتيل وكان مع هذا التاجر جارية من أسعرد فذكرت ان سيدها خرج ليقاتل وكان له أم فمنعته ولم يكن لها ولد سواه فلم يصغ الى قولها فمشت معه فقتلا جميعا وورثها ابن أخ للام فباعها من هذا التاجر وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما وان مدة الحصار كانت خمسة ايام ثم سار وامنها الى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك وساروا من طنزة الى واد بالقرب من طنزة يقال له وادي القريشية فيه طائفة من الاكراد يقال لهم القريشية وفيه مياه جارية وبساتين كثيرة والطريق اليه ضيق فقاتلهم القريشية فمنعوهم عنه وامتنعوا عليهم وقتل منهم كثير فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضا وساروا في البلاد لا مانع يمنعهم ولا أحد يقف بين أيديهم فوصلوا الى ماردين فنهبوا ماوجدوا من بلدها واحتمى صاحب ماردين وأهل دنيسر بقلعة ماردين وغيرهم ممن جاور القلعة احتمى بها أيضا ثم وصلوا الى نصيبين الجزيرة فاقاموا عليها بعض نهار ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به وغلقت أبوابها فعادوا عنها ومضوا الى بلد سنجار ووصلوا الى الجبال من أعمال سنجار فنهبوها ودخلوا الى الخابور فوصلوا الى عرابان فنهبوا وقتلوا وعادوا ومضى

لي عنده ايام آل سامان * وبعدها في حق قضيته * وعهد رعيته * وعيب طويته * وسر أخفيته * وشغل كفيته * وبر أوليته * بأن كاشفني لمودة جمعتني وولده المغتبط أبا المظفر رحمه الله بعد اوثم يرج لعظيم سلها صفاء * ولا ايام لها انقضاء * وذلك ان شمس الكفاة تدنف لمآورته * وتقمن لي خيرا بمعاشرته * مكافأة على خدمتي دولة السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * بالعيني في شرح أخباره * ومدح مقاماته في عديده وأنصاره * فما زال يسري اليه عني بنميمة * كقطار ديمة * وقيعة * كسراب بقيعة * على غفلتي دون ما ينصبه لي من شرك * ويبيعه من معترك * تمويها له أني لحقته كافر * وعن غرض محبته نافر * والى حرم موقى بعين الكفاة *

طائفة منهم على طريق الموصل فوصلوا الى قرية تسمى المؤنسة وهي على مرحلة من نصيبين منها وبين الموصل فنهبوها واحتمى اهلها وغيرهم بخان فيها فقتلوا كل من فيه (وحكى) لي عن رجل منهم انه قال اختفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بي وكنت أراهم من نافذة في البيت فكانوا اذا أرادوا قتل انسان فيقول لا بالله فيقتلونه فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم ويقولون لا بالله ومضى طائفة منهم الى نصيبين الروم وهي على الفرات وهي من أعمال آمد فنهبوها وقتلوا فيها ثم عادوا الى آمد ثم الى بدليس فتحصن اهلها بالقلعة وبالجبال فقتلوا فيها يسيرا وأحرقوا المدينة (وحكى) انسان من أهلها قال لو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر أحد لان الطريق ضيق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير ثم ساروا من بدليس الى خلاط فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها باكرى وهي من أحصن البلاد فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها وقصدوا مدينة ارجيش من أعمال خلاط وهي مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك وكان هذا في ذي الحجة ولقد حكى لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لا يتجاسر أحد يمد يده الى ذلك الفارس ولقد بلغني ان انسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التتري ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الارض ولا تبرح فوضع رأسه على الارض ومضى التتري فأحضر سيفا فقتله به (وحكى) لي رجل قال كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلا في طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضا فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب فقالوا نخاف فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر أحد يفعل ذلك فأخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا وأمثال هذا كثير

(ذكر وصول طائفة من التتر الى اربل ودقوقا)

في هذه السنة في ذي الحجة وصل طائفة من التتر من اذربيجان الى أعمال اربل فقتلوا من على طريقهم من التركمان الايوائية والاكراد الجوزقان وغيرهم الى أن دخلوا بلد اربل فنهبوا القرى وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الاعمال وعملوا الاعمال الشنيعة التي لم يسمع بمثلها من غيرهم وبرز مظفر الدين صاحب اربل في عساكره واستمد عساكر الموصل فساروا اليه فلما بلغه عود التتر الى اذربيجان أقام في بلاده ولم يتبعهم فوصلوا الى بلد الكرخيني وبلد دقوقا وغير ذلك وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف في وجوههم فارس وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين ويرحمهم ويرد هذا العدو عنهم وخرجت هذه السنة ولم نتحقق لجلال الدين خبرا ولا نعلم هل قتل أو اختفى لم يظهر نفسه خوفا من التتر أو فارق البلاد الى غيرها والله أعلم

(ذكر طاعة أهل اذربيجان للتتر)

في أول هذه السنة أطاع أهل بلاد اذربيجان جميعها للتتر وحملوا اليهم الاموال والثياب الخطائي والخوئي والعتابي وغير ذلك وسبب طاعتهم ان جلال الدين لما انهزم على آمد من

في استحقاق صدر الوزارة مائل * وفي شعب الاختصاص به والانقطاع اليه سائل * اكذوبة لم يخلق الله لها رأسا ولا ذنبا * ولم يضرب لها وتدا ولا طنبا * ودمنة لم يتند دمنة لنسور حوافرها * ومصفوف كلاها وأباهرها * حتى هاجه علي كالليث موتورا والنمر محرجا ومضرورا * فكم كدحت حتى استنزلته عن حران وشماس * وجهدت حتى نجوت منه رأسا برأس * وطفقت انشد وقد فارقته سالما

اذا نحن أبنا سالمين بأنفس
كرام رجت امرا فخاب رجاؤها
فأنفسنا خير الغنيمة انها
تؤب وفيها ماؤها وحياؤها

وأغرى بي بدر الملك بن شمسه يمين الدولة في عظيمة لولا ان ألهمه الله الاناة * وأشعره الحصاة * فنقر ونقب * واستشف اعطاف البلاغ فعل من جرب ودرب * لثارت علي منه داهية لا تبقي

التتر وتفرقت عساكره وتمزقوا كل ممزق وتخطفهم الناس وفعل التتر بديار بكر والجزيرة
واربل وخلاط مافعلوا ولم يمنعهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس وملوك الاسلام منجحرون
فى الانقاب وانضاف الى هذا انقطاع أخبار جلال الدين فانه لم يظهر له خبر ولاعلموا له حالا سقط
فى أيديهم وأذعنوا للتتر بالطاعة وحملوا اليهم ماطلبوا منهم من الاموال والثياب من ذلك
مدينة تبريز التى هى أصل بلاد اذربيجان ومرجع الجميع اليها والى من بها فان ملك التتر نزل فى
عساكره بالقرب منها وأرسل الى اهلها يدعوهم الى طاعته ويتهددهم ان امتنعوا عليه فارسلوا
اليه المال الكثير والتحف من أنواع الثياب الابريسم وغيرها وكل شئ حتى الخمر وبذلوا له
الطاعة فاعاد الجواب يشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدموهم عنده فقصده قاضى البلد
ورئيسه وجماعة من أعيان اهله وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائى وهو الذى يرجع الجميع
اليه الا انه لايظهر شيأ من ذلك فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائى فقالوا انه رجل
منقطع ماله بالملوك تعلق ونحن الاصل فسكت ثم طلب أن يحضروا عنده من صناع الثياب
الخطائى وغيرها ليستعمل لملكهم الاعظم فان هذا هو من اتباع ذلك الملك فاحضروا الصناع
فاستعملهم فى الذى أرادوا ووزن أهل تبريز الثمن وطلب منهم خركاة لملكهم ايضا فعملوا له
خركاة لم يعمل مثلها وعملوا غشاءها من الاطلس الجيد الزركش وعملوا من داخلها السمور
والقندر فجاءت عليهم بجملة كثيرة وقرر عليهم من المال كل سنة شيأ كثيرا ومن الثياب كذلك
وترددت رسلهم الى ديوان الخلافة والى جماعة من الملوك يطلبون منهم ان لا ينصرون
خوارزمشاه ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الرى كان قد انتقل الى الموصل
واقام بها هو ورفقاؤه ثم سافر الى الرى فى العام الماضى قبل خروج التتر فلما وصل التتر الى
الرى وأطاعهم أهلها وساروا الى اذربيجان سار هو معهم الى تبريز فكتب الى أصحابه
بالموصل يقول ان الكافر لعنه الله مانقدر نصفه ولا كثرة جموعه حتى لاتنقطع قلوب المسلمين
فان الامر عظيم ولا تظنون ان هذه الطائفة التى وصلت الى نصيبين والخابور والطائفة
الاخرى التى وصلت الى اربل ودقوقا كان قصدهم النهب انما أرادوا أن يعلموا هل فى البلاد من
يردهم أم لا فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع وان البلاد خالية من ملك
وعساكر فقوى طمعهم وهم فى الربيع يقصدونكم ومايبقى عندكم مقام الا ان كان فى بلاد الغرب
فان عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لانفسكم هذا مضمون الكتاب فانا لله وانا اليه
راجعون ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم وأما جلال الدين فالى آخر سنة ثمان وعشرين
لم يظهر له خبر وكذلك الى سلخ صفر سنة تسع لم نقف له على حال والله المستعان

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة قلت الامطار بديار الجزيرة والشام لاسيما حلب وأعمالها فانها كانت قليلة بالمرة
وغلت الاسعار بالبلاد وكان أشدها غلاء حلب الا انه لم يكن بالشديد مثل ماتقدم فى السنين
الماضية فاخرج أتابك شهاب الدين وهو والى الامر بحلب والمرجع الى أمره ونهيه وهو
المدبر لدولة سلطانها الملك العزيز ابن الملك الظاهر والمربى له من المال والغلات كثيرا وتصدق
صدقات دارة وساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر فجزاه الله خيرا وفيها بنى أسد

الدين

ولاانذار * ولااستطارت
عباقية يخفى عليها الشعر
والبشر * فمن الله تعالى بأن
فضح القاضح فيما زوره *
وكسف وجهه وكوره
وأهوى فيما حفره * وخنقه
بقوى ماضفره * وسخم
وجهه بنؤر الافتعال *
وكشف عورته لفحول
الرجال * وجعله عبرة
للغابرين بشرح هذه
الاحوال * فمن قرأ هذه
الفصول * فليحمد الله
تعالى على السلامة من
مثلها * والبراءة من فوادح
الاوزار * وقوادح النار
بها * وليعلم ان الاساءة
تعقب على مرور الايام
عبأ ثقيلا * وغبا وبيلا *
وخطبا جليلا * ولسانا
كالحسام صقيلا * وقبح
الله من نقص عمره على
زيادة الآثام * ومساءة
الانام * وحيازة الملام *
ويرحم الله عبدا قال آمينا
*(هذا آخر الكتاب
المرسوم باليمينى لابى نصر
العتبى رضى الله عنه
وارضاه وجعل الجنة
منقلبه ومثواه)*

الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة قلعة عند سلمية وسماها شميمس وكان الملك الكامل لما خرج من مصر الى الشام قد خدمه أسد الدين ونصح له وله أثر عظيم فى طاعته والمقاتلة بين يديه فاقطعه مدينة سلمية فبنى هذه القلعة بالقرب من سلمية وهى على تل عال وفيها قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة وهى من جملة المدن المضافة الى حلب ودخلوا اليها وأخذوا منها غنيمة واسرى فسيرا تابك شهاب الدين اليهم العساكر مع أمير كان أقطعها فقاتل الفرنج وقتل منهم كثيرا واسترد الاسرى والغنيمة وفيها توفى القاضى ابن غنائم بن العديم الحلبى الشيخ الصالح وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة والعاملين بعلمه فلو قال قائل انه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان صادقا فرضى الله عنه وأرضاه فانه من جملة شيوخنا سمعنا عليه الحديث وانتفعنا برؤيته وكلامه وفيها أيضا فى الثانى عشر من ربيع الاول توفى صديقنا أبو القاسم عبد المجيد ابن العجمى الحلبى وهو وأهل بيته مقدموا السنة بحلب وكان رجلا ذا مروأة غزيرة وخلق حسن وحلم وافر ورياسة كثيرة يحب اطعام الطعام وأحب الناس اليه من يأكل طعامه ويقبل بره وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط ولا يقعد عن ايصال راحة وقضاء حاجة فرحمه الله رحمة واسعة

(ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة)

(خاتمــــــة)

باسمك اللهم خير الاسماء وشكرك الجالب لمزيد النعماء والصلاة والسلام على خاتم الرسل الكرام وعلى آله أولى الفضل والاحتشام والسير المستقيمه والمناهج القويمه يقول المتوسل الى مولاه بالنبى المختار ابراهيم الدسوقى الملقب بعبد الغفار خادم تصحيح كتب العلوم والفنون بدار الطباعة ذات الطبع السليم المصون

تم بعون مبدع الاواخر والاوائل طبع كتاب التاريخ المعروف بالكامل للعلم الشهير الماهر النحرير العلامة أبى الحسن على المعروف بابن الاثير الذى ابتدأه من اول الزمان الى انتهاء سنة ستمائة وعشرين وثمان ثم اخترمته المنيه فأدركت الناس فيه الرزيه محرر الجمل والاساليب مصونا عن التحريف والتصحيف فى الكلمات والتراكيب على يد عصابه تشهد لهم عباراته بالاصابه اذا قابله على أصله المطبوع المحرف أريب كشف الله عن بصيرته فأنصف وكان طبعه بالمطبعة الكبرى العامره ذات التحريرات الباهره المشهورة بكمال الضبط ودقة الانظار فى سائر المدن والنواحى والاقطار المتوفرة دواعى مجدها المشرقة كواكب سعدها فى ظل من تعطرت بطيب ذكره الانديه وتضوعت بعاطر مدائحه الاثنيه رب المآثر التى لا تحصى والمحاسن التى لا تستقصى حسنة الليالى والايام بدر الولاة والملوك والحكام سلالة السراة الصناديد وارث الملوك الاماجيد الراقى بهممه الى كل مقام معتلى عزيز مصر اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على لا زالت الايام منيرة بطلعة وجوده والانام متمتعة بكرمه وجوده ولا برح قرير العين منتعش الروح والعين بانجاله الكرام وأشباله الفخام لاسيما الوزير الشهير النبيل الاصيل رب المعارف المشهوره

والعوارف المشكوره والرأى والاصابه والدولة والنجابه من هو بإحاسن الثناء حقيق
سعادة محمد باشا توفيق رئيس المجلس المخصوصى ومن له بولاية العهد أوصى ثم سعادة الوزير
صنو الكمال ومظهر الجلال والجمال أسد العرينين أشم العرنين مشير المعالى بدر الليالى
جوهرى الفطانة والرويه سعادة حسين باشا ناظر الجهاديه ثم حضرة ثالث الانجال من له
فى ميدان الفضل أفسح مجال المعدود فى كفة ميزان الرجحان من فحول الرجال العلية
الاذهان حسن الصفات والاسم ومن له من حسن الصيت أوفر قسم من انتعش به البهاء
انتعاشا دولتلو حسن باشا وكان طبعه الموثق وتمثيله المرونق مشمولا بادارة من
خاطبته المعالى بابالك أعنى حضرة حسين بك حسنى ونظارة وكيله السالك جادة
سبيله من عليه أحاسن اخلاقه تثنى حضرة محمد أفندى حسنى وملاحظة
ذى الرأى المسدد حضرة أبى العينين افندى احمد وكان تمام تمثيله
وكمال تصويره وتشكيله فى أوائل ذى الحجة الحرام
من سنة ألف ومائتين وتسعين من هجرة خاتم
الانبياء والمرسلين صلى الله وسلم عليه
وآله وصحبه وكل منتسب اليه
ما ناح حمام وفاح
مسك ختام
آمين